مَوسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الرابع

سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ الثّانِي

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة: 248]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين طلبهم ملكًا صالحًا يحكمهم، وبين إخبارهم بتعيين الشّخص ومواصفاته:

نكران ما يبعثه اللـه، ويختاره سـوء أدب مع الله ﷻ

ظاهِر الآيَةِ السَّابقة يَدُلُّ على أنَّ أُولَئِكَ الأقْوامَ كانُوا مُقِرِّينَ بِنُبُوَّةِ النَّبِيِّ الَّذي كانَ فِيهِمْ بدليل قَوْله تَعالى حِكايَةً عَنْهم: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾، فَهُمْ كانُوا مُعْتَرِفِينَ بِنُبُوَّةِ ذَلِكَ النَّبِيِّ، ومُقِرِّين بِأنَّهُ مَبْعُوثٌ من عِنْد اللَّه تَعالى، ثُمَّ إنَّ ذَلِكَ النَّبِيَّ لَمّا قالَ لَهُم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾؛ كانَ هَذا دَلِيلًا دامِغًا، لا يقبل الشَّك في كَوْنِ طالُوتَ مَلِكًا، ثُمَّ إنَّهُ تَعالى لِكَمالِ رَحْمَتِهِ بِالخَلْقِ، ضَمَّ إلى ذَلِكَ الدَّليلِ دَلِيلًا آخَرَ، يَدُلُّ عَلى كَوْنِ ذَلِكَ النَّبِيِّ صادِقًا في خبره، ويَدُلُّ أيْضًا عَلى أنَّ طالُوتَ اختاره اللَّهُ تَعالى لِلْمُلْكِ؛ لِذا قالَ تَعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾[1]، قال الطّبريّ؛ خلاصة لذلك: "وهذا الخبر من اللّه تعالى، ذكره عن نبيّه الّذي أخبر عنه به، دليل على أنّ الملأ من بني إسرائيل الّذين قيل لهم هذا القول، لم يقرُّوا ببعثة اللّه طالوت عليهم ملكًا؛ إذ أخبرهم نبيّهم بذلك، وعرّفهم فضيلته الّتي فضّله اللّه بها، ولكنّهم سألوه الدّلالة على صدق ما قال لهم من ذلك، وأخبرهم به، فتأويل الكلام؛ إذ كان الأمر على ما وصفنا: "واللّه يؤتي ملكه من يشاء، واللّه واسع عليم"، فقالوا

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/175.

له: ما آية ذلك؛ إن كنت من الصّادقين؟"﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

المعجزة المرسلة للبشر آيةٌ تؤكّد قدرة الله الّتي لا يعجزها شيء

1) ﴿ءَايَةَ﴾: من أيي، وفي اشتقاق الآية قولان: أحدهما: أنَّها من أيِّ المستفهم، فإنها يُتبيَّن بها أيٌّ من أيٍّ، والثَّاني: أنها من قولهم: أوى إليه؛ لأن أوي فيه معنى الانضمام، وفي الآية ضمٌّ ما[2].

وقد وردت كلمة (الآية) في القرآن على عدة وجوه[3]: منها بمعنى: العلامة، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، وبمعنى: آيات القرآن، نحو قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: 7]، وبمعنى: مُعجزات الرّسُل، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [القصص: 36]، وبمعنى: عِبْرَة، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾: علامته الظاهرة لكم.

2) ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾: هو الصُّنْدُوقُ الَّذي فِيهِ التَّوْراةُ، ووزنه (فَعْلُوتٌ) مِنَ التَّوْبِ، وهو الرُّجُوعُ؛ لِأَنَّهُ ظَرْفٌ تُوضَعُ فِيهِ الأَشْياءُ، ويُودَعُ فِيه؛ فَلا يَزالُ يَرْجِعُ إلَيْهِ ما يَخْرُجُ مِنهُ، وصاحِبُه يَرْجِع إلَيْه فِيما يَحْتاجُ إلَيْهِ مِن مُودَعاتِهِ[4]، "وهو التّابوت الّذي كانت بنو إسرائيل، إذا لقوا عدوًّا لهم؛ قدّموه أمامهم، وزحفوا معه، فلا يقوم لهم معه عدوّ، ولا يظهر عليهم أحد ناوأهم، حتّى ضيّعوا أمر اللّه، وكثر اختلافهم على أنبيائهم، فسلبهم اللّه إيّاه مرّة بعد مرّة، يردّه إليهم في كلّ ذلك، حتّى سلبهم آخرها مرّة، فلم يردّه عليهم، ولن يردّ إليهم آخر الأبد"[5].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/315.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (أيي).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (الآيات).
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/174.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/315..

3) ﴿سَكِينَةٌ﴾: سَكَنَ: السِّينُ وَالْكَافُ وَالنُّونُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الِاضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ، أي: ثبوت الشّيء بعد تحرّك، يُقَالُ: سَكَنَ الشَّيْءُ يَسْكُنُ سُكُونًا، فَهُوَ سَاكِنٌ، وَالسَّكْنُ: الْأَهْلُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الدَّار[1]، والسَّكينةُ فعيلةٌ: من السُّكون، وهي طُمأنينةٌ تُثَبِّتُ قلوبَ المخْلِصين[2].

السَّكينةُ طُمأنينةٌ تُثَبِّتُ قلوب المؤمنين المخْلِصين

4) ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾: بَقِيَ الشيءُ يَبْقَى بَقَاءً: ضِدُّ فَنِيَ، والبَقِيَّةُ في الأَصْلِ: ما يَفْضَلُ من شَيْءٍ بَعْدَ انْقِضاءِ مُعْظَمِه، والبَقِيَّة: اسم من البقاء، والبقاء ثبات الشّيء على حالته الأولى[3]. والبَقاء المطْلَق لا يُقال إلّا للّه تعالى.

البَقِيَّةُ فُتات الألواح وعَصا موسى، وما نقل من ذلك الزّمان القديم

والمقصود هُنا: فُتات الألواح وعَصا موسى وأمور من التّوراة وغير ذلك[4].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ثم ذكر لهم نبيّهم أيضًا آية حسِّيةً - يشاهدونها - على صحة اختيار هذا الملك المعيِّن عليهم، وقال لهم نبيّهم: إنَّ علامة صِدق اختيار طالوت مَلِكًا عليكم أن يأتيكم الصَّندوق الّذي فيه التَّوراة - وهو صندوقٌ يعظِّمه بنو إسرائيل وكان أعداؤهم قد انتزعوه منهم - فيه طمأنينة مِن رَبِّكم، وسَكِينة تُصاحبه، تُثَبِّت قلوب المخلصين، وفيه بقيَّة من بعض أشياء تركها آل موسى وآل هارون، مثل العصا وبعض الألواح، تحمله الملائكة، إنّ في ذلك لأعظم بُرْهان، وأكبر دليل لَكُم على اختيار اللّه طالوت ملكًا عليكم، إن كنتم مُصَدِّقين باللّه ورُسُلِه[5].

المصدّقون عن إيمان ويقين، لا تزيدهم المعجزة إلّا إيمانًا مع إيمانهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سَكَنَ).
(2) الأنباريّ، الزّاهر: 1/427.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/509.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/334.
(5) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 40.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بديع تكرار الفاعل ﴿نَبِيُّهُمْ﴾:

إعادة ذكر الفاعل؛ لدفع كون القول جوابًا عمّا لا يُسْتفهم عنه

قال الآلوسيّ: "أعاد الفاعل ليغاير ما علم صراحة كونه جوابًا، وإنما لم يجرِ ذلك المجرى بأن يذكر مقولهم، ويكون هذا جوابًا له، ويكتفي بالإضمار، كما اكتفى به أولًا؛ للإيماء إلى أن ذلك السؤال للنبي بعد تصديقهم له، وبيانه لهم ما استفهموا عنه مما لا ينبغي أن يكون حتى يجاب؛ لأن له شبهًا تامًّا بالتعنت حينئذٍ، وإن عُدَّ من باب السؤال لتقوية العلم"(1).

إتيان التابوت بين الحقيقة والمجاز:

نزول التابوت من السماء حملٌ على الحقيقة، والإتيان به مجاز

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾: إنّ التّابوت نزل من السّماء إلى الأرض بنفسه، بعد أن رفعه اللّه تعالى سخطًا على بني اسرائيل، والملائكة كانوا يحفظونه، والقوم كانوا ينظرون إليه، حتّى نزل عند طالوت، وعلى هذا فالإتيان حقيقة في التّابوت، أو أنّهم رأوا التابوت عند طالوت، فعلموا أن ذلك دليل على كونه ملكًا لهم، فيكون الإتيان على هذا مجازًا؛ لأنه أُتي به ولم يأتِ هو فنُسب إليه توسّعًا، كما يقال: ربحت الدراهم، وخسرت التجارة(2).

سرّ التّعبير بالإتيان دون المجيء:

التعبير بالمجيء السهل الذي لا مشقّة فيه (الإتيان) مناسبٌ للقدرة الإلهيّة

وعُبِّر بالإتيان دون المجيء في قوله: ﴿يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾؛ لأنّه مجيء سَهْل يَسير لا مَشقَّة فيه؛ لكون الإتيان بالتَّابوت آية مِن عِند اللَّه تعالى بِقُدْرته سبحانه؛ بُرهانًا لبني إسرائيل، ليتيقّنوا من صِدْق خَبَر نبيِّهم لهم، باختيار اللَّه تعالى طالوت مَلِكًا لَهُم، فعُبِّر به في مقام بيان سهولته لقدرة الفاعل عليه، أمَّا المجيء؛ فَهُو مُجيء

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/559.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/506، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/605.

فيه مَشَقَّة وصعوبة، وهذا لا يتناسب مع مقام الآية، وما فيه مِن دِلالة على القدرة الإلهيّة.

المجيء حصولٌ، والإتيان قصْدٌ

المجيء أعمُّ من الإتيان، ويقال اعتبارًا بالحصول، أما الإتيان؛ فيقال باعتبار القصد[1]. والتعبير عن الفعل بصيغة المضارع الدّالّ على المستقبل يناسب دلالة القصد فيه؛ إذ هو إخبار سيتحقق حصوله بعدَ حين.

نكتة تكرار جملة: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ﴾:

إعادة الفعل تجديد لا ترديد؛ للدّلالة على أنّ كلامه هذا، ليس من بقية كلامه الأوّل

كرّرت جملة: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ﴾ أوّلاً في مطلع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾، ثمّ كررت هنا ثانية بقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على أنّ كلامه هذا، ليس من بقية كلامه الأوّل، بل هو حديث آخر جديد متأخّر عنه، وذلك أنّه بعد أن حذّرهم عواقب الحكومة الملكيّة، والتّولّي عن القتال؛ تكلّم معهم كلامًا آخر في وقت آخر[2]. قال أبو السّعود: "﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ﴾ توسيطُه فيما بين قوليه المحكيَّيْن عنه عليه السلام، للإشعار بعدم اتّصالِ أحدِهما بالآخر"[3].

بلاغة تأكيد الخبر بإنّ، واسميّة الجملة:

تأكيد الخبر لأهميّته، ولمراعاة حال المخاطب في الإنكار

وأُكِّد الخَبَر في قوله: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، بإنَّ واسميَّة الجملة؛ لأهميّة الخبر، وجدارته بالتّأكيد، حيث جاء تلبيَةً لِطَلَب بني إسرائيل مِن نبيِّهم حُجَّةً عَلى أنَّ اللَّه تَعالى، اصْطَفى طالُوتَ، ومَلَّكَهُ عَلَيْهِمْ، و أُكِّد أيضًا لمراعاة حال المخاطبين في اللِّجاج والإنكار.

دلالة التّنكير في لفظي ﴿سَكِينَةٞ﴾ و﴿وَبَقِيَّةٞ﴾:

المراد بالسَّكينة في قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ﴾ الوقار،

(1) الراغب، المفردات: (جاء).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 2/489.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/241.

والطمأنينة، والجَلال، والهَيْبَة، أَوْ فِيهِ سُكُونُ نُفُوسِ بَنِي إِسْرائِيلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلى الحَرْبِ، و﴿وَبَقِيَّةٌ﴾، أيْ: مِن آثارِهِمُ الفاضِلَةِ، والتَّنكير؛ لتفخيم السَّكينة، وما تبقَّى من آثار آل موسى وآل هارون (عليهما السلام) في التّابوت(1).

التنكير لتفخيم السكينة، وما بقي من آثار موسى وآل هارون عليهما السلام

وجه المجاز في لفظ السكينة:

السَّكِينَةُ: هي الطُّمَأْنِينَة، ولَمّا كانَتْ حاصِلَةً بِإِتْيانِ التّابُوتِ، جُعِلَ التّابُوتُ مُسْتَقَرًّا لَها، وهَذا مِنَ المَجازِ الحَسَن، وهو تَشْبِيهُ المَعنِويّ بِالمحسوس بإبرازه في صورة مُشاهدة تفخيمًا له.

تشبيه المعنوي بالحِسّيِّ؛ لإبرازه في صورة مُشاهَدة

إيثار لفظ (الرَّبِّ)، وقصديّة إضافته إلى ضمير المخاطبين:

التّعبير بالرَّب وإضافته إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ لإشعارهم بتدبير اللّه تعالى لأمورهم، وتولِّيه أَمْرهم؛ لتطمئن قلوبهم باختياره لهم.

في لفظ (الربّ) إشعارٌ بتدبير الله تعالى لأمورهم؛ لتطمئن قلوبهم باختياره لهم

سِرُّ التّعبير بآل في قوله: ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾

يجوز أن يكون ﴿ءَالُ﴾ في قوله: ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾، هُم الأَنْبِياء الَّذِينَ كانُوا بَعْدَهما، أو هما مُوسى وهارونُ أَنْفُسُهُما، أو هُمُ الأَتْباعُ، قالَ تَعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: 46] "(2).

وسِرّ التَّعبير بالآل أنّه مُقْحَمٌ لِتَفْخِيم شَأْنِ مُوسى وهارون(3) عليهما السلام.

وخالفه أبو حيّان: فذهب إلى أنّ ﴿ءَالُ﴾ هَنا جرت مجرى التَّوْكِيدِ الَّذِي يُرادُ بِهِ: أَنَّ المَتْرُوكَ مِن ذَلِكَ الخَيْر، هو مَنسُوبٌ لِذاتِ مُوسى وهارُونَ، فَيَكُونُ في التَّنْصِيص عَلَيْهما بِذاتِهِما تَفْخِيمٌ لِشَأْنِهِما،

التعبير بلفظ (الآل) لِتفْخيم شأْني موسى وهارون عليهما السلام، أو جرت مجرى التوكيد

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 2/248
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/174.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/149.

وكانَ ذَلِكَ مُقْحَمًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: مِمّا تَرَكَ مُوسى وهارُونُ؛ لاكْتَفى، وكانَ ظاهِرُ ذَلِكَ أَنَّهُما أَنْفُسَهُما تَرَكا ذَلِكَ، ووُرِثَ عَنْهُما[1].

وجه الاستئناف في جملة ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾:

وجه الاستئناف البياني شِبه كمال الاتِّصال

والضَّمِيرُ في ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ يَعُودُ عَلى التّابُوتِ، والجُمْلَةُ: حالٌ مِنَ التّابُوت، والتَّقدير: حامِلًا لَه المَلائِكَة، ويُحْتَمَلُ أن تكون استئنافًا بيانيًّا- شِبه كمال الاتِّصال- إجابة عن تساؤل أثارته الجملة الأولى، تقديره: (ومَن يَأْتِي بِهِ، وقَدْ فُقِدَ؟)، فَقالَ: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾.

وجه الاستئناف استعظام شأن آية التابوت؛ إذ يُباشرُ حملَه المَلائكةُ

واستأنف بيانيًّا؛ "اسْتِعْظامًا لِشَأْنِ هَذِه الآيَة العَظِيمَة، وهو أَنَّ الَّذِي يُباشِرُ إِتْيانَهُ إِلَيْكُمُ المَلائِكَةُ الَّذِينَ يَكُونُونَ مُعَدِّينَ لِلْأُمُورِ العِظام، ولَهُمُ القُوَّةُ والتَّمْكِين والاِطِّلاعُ، بِإِقْدارِ اللَّهِ لَهم عَلى ذَلِكَ، ألا تَرى إلى تَلَقِّيهِم الكُتُب الإلَهِيَّة، وتَنْزِيلِهِم بِها عَلى مَن أُوحِيَ إِلَيْهِم، وقَلْبِهِمْ مَدائن العُصاةِ، وقَبْضِ الأَرْواح، وإِزْجاءِ السَّحاب، وحَمْلِ العَرْش، وغَيْر ذَلِك مِنَ الأُمُور الخارِقَة، والمَعْنى: تَحْمِلُهُ المَلائكَةُ إِلَيْكم"[2].

نكتة التعبير باسم الإشارة قبل تمام القصة:

باسم الإشارة ابتدىء كلامٌ من الله تعالى قبل تمام القصةِ إظهارًا لكمال العنايةِ به

اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾، يعود إلى ما ذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبيّ عليه السلام لقومه، أو إلى نَقلِ القصة وحكايتها فهو ابتداءُ كلامٍ من جهة اللّٰه تعالى جيءَ به قبل تمامِ القصة إظهارًا لكمال العنايةِ به وإفرادُ حرفِ الخطاب مع تعدُّد المخاطَبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف[3].

(1) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 2/272.
(2) أبو حيَّان، المصدر السّابق: 2/271.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/242، والآلوسّي، روح المعاني: 2/169.

بلاغة التوكيد في جملة التذييل:

في التأكيد إلزام بالخضوع لإمْرة طالوت

وأكّد مطلع جملة التذييل بإنّ واللام (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) وختم بجملة الشّرط؛ لبيان أن عليهم أن يخضعوا لإمْرة طالوت بعد أن تبين لهم اختيار اللّه له، واصطفاؤه إيّاه[1].

سرُّ التعبير بإنْ الشّرطيّة دون إذا:

(إن) الشَّرْطِيَّة تَكْشِف عن شَكِّ نَبيّ بني إسرائيل في إيمانهم

والتَّعبير بـ(إنْ) الشَّرطيَّة دون (إذا) في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كَشَفٌ عن شَكِّ نبيِّهم في إيمانهم وثَباتهم عليه، وإيمانهم بِدَلالَة المُعْجِزَة عَلى صِدقِ المُدَّعِي بعد تلك الآية الباهرة، الدّالّة على جَعْلِ طالُوتَ مَلِكًا عليهم، يُؤَيِّد هذا تَوقُّع نبيِّهم عدم صِدْقهم في القتال في سبيل اللّه، حينما طَلَبوا منه تَنْصيبَ مَلِكٍ عليهم، يأتمرون بأمره، ويجاهدون تحت رايته، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ﴾.

كما أيَّد شَكَّ نَبيِّهم في إيمانهم، ما وَقَع منهم مِن نُكوص وتخاذل وجُبْن، عن مواجهة عَدُوِّهم إلاَّ قليلًا منهم مِمَّن عَبروا النَّهر، كما سيأتي في الآية التَّالية إن شاء اللَّه.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

الإتيان والمجيء:

وعُبِّر بالإتيان دون المجيء في قوله: ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾؛ لأنَّه مجيء سَهْل يَسير لا مَشقَّة فيه، كما تَدُلُّ عليه المادَّة[2]، فالإتيان بالتَّابوت آية مِن عِند اللَّه تعالى بِقُدْرته سبحانه؛ بُرهانًا لبني إسرائيل، ليتيقّنوا من صِدْق خَبَر نبيِّهم لهم، باختيار اللَّه تعالى

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/898.

(2) قال الرَّاغب في مفرداته: (أتى): الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسَّيْل المارّ على وَجْهه: أَتِيّ وأَتَاوِيّ، ولسهولة الإتيان يقال: تَأتَّى له أَمْرُه، إذا تَسهَّلت. ينظر: الجَوْهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أتى).

طالوت مَلِكًا لَهُم، فعُبِّر به في مقام بيان سهولته لقدرة الفاعل عليه، أمَّا المجيء؛ فَهُو مُجِيء فيه مَشَقَّة وصعوبة، كما تدلُّ عليه مادَّة المجيء[1]، وهذا لا يتناسب مع مقام الآية، وما فيه مِن دِلالة على القدرة الإلهيّة، قال الحَرالِّيُّ: "وقَلَّ ما احْتاجَ أحَدٌ في إيمانِهِ إلى آيَةٍ خارِقَةٍ إلّا كانَ إيمانُهُ - إنْ آمَنَ غَلَبَةً - يَخْرُجُ عَنْهُ بِأيْسَرِ فِتْنَةٍ، ومَن كانَ إيمانُهُ بِاسْتِبْصارٍ؛ ثَبَتَ عَلَيْهِ، ولَمْ يَحْتَجْ إلى آيَةٍ، فَإنْ كانَتِ الآيَةُ؛ كانَتْ لَهُ نِعْمَةً، ولَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ فِتْنَةً ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: 59]، فَإنَّ الآياتِ طَلِيعَةُ المُؤاخَذَةِ، والِاقْتِناعُ بِالِاعْتِبارِ طَلِيعَةُ القَبُولِ والثَّباتِ"[2].

(1) ويتَّصل بصعوبة المجيء دلالة المادَّة على الغَلَبَة والإلجاء، يقال: أجاءه إلى الشيَّء، أي: جاء به، وألجأه، واضطرّه إليه، وفي المجيء معنى: الحَبْس وعدم النَّفاذ إلى الغاية، لذا أخذ من المادَّة الاسم: (الجِئة)، وهو مجتمع الماء حول الحِصْن وغيره، لأنَّها تحبس الماء عنه، فلا ينفذ إليه. ينظر: ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جاء).

(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 420-2/419.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحدَّثتِ الآياتُ السّابقةُ عن اختيار اللّه لهم مَلِكاً يقاتلون معه وَفْقَ طلبهم ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وجاءتهم الإجابة من نبيِّهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ولكنَّهم أبَوا واعترضوا؛ لأنَّه لم يؤتَ سَعَةً من المال، ولكنَّ نبيَّهم أسكتَهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾، وأعطاه ما يُؤهِّلُه لذلك من البَسْطة في العلم والجسم، ومع ذلك لم يطمئنَّ القومُ إلى ما أخبرهم به نبيُّهم عن هذا المَلِك: (طالُوت)، فجاءهم نبيُّهم بآية محسوسة تكون دليلاً على اصطفاء اللّه له، وهو التّابوت الّذي افتقدوه من زمن بعيد، فآمنوا وصدَّقوا، ورضُوا بطالُوتَ مَلِكاً، فجاءت هذه الآيةُ لِتَضَعَهم أمامَ تَجْرِبَةٍ حِسِّيَّةٍ، اختبرَ فيها طالُوتُ ولاءَهم له، والانْضِواءَ تحت قيادته بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَلَ﴾: فِعْلٌ ماضٍ ثُلاثيٌّ صحيحٌ، فالفاءُ والصّادُ واللّامُ: كلمةٌ صحيحةٌ تَدُلُّ عَلَى تمييز الشَّيء من الشَّيء، وإبانَتِه عنه، يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا[1]، والفَصْلُ: بُعْدٌ بين الشَّيئَين[2]، وفَصَلَ فُلانٌ من عندي فُصولًا: إذا خَرَجَ[3]، فأفادَ هنا معنى الخروج، وفَصَلَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(2) الخليل، العين: (فصل).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (فصل).

القومُ عن مكان كذا وانْفَصَلوا: فارَقُوهُ[1]، و﴿فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾: فارَقَ مكانَه ومركزَه الّذي كان فيه[2]، وانْفَصَلَ من مكان إقامته، بادئًا المسيرَ بجيشه[3].

فمعنى ﴿فَصَلَ﴾ هنا: بمعنى فارَقَ مكانَهُ، وخرجَ بجيشه لقتال عدوِّه.

2) ﴿طَالُوتَ﴾: مَلِكُ بني إسرائيل، وهو اسمٌ أعجميٌّ ليس بعربيٍّ[4]، وأَبْعَدَ مَنْ زعم أنّه عربيٌّ على وزن (فالوَت)، جاء للمبالغة بطُوله، فقيلَ: (طالوت)[5].

وهو اسم المَلِك الّذي اختارَه اللّه لبني إسرائيلَ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

3) ﴿مُبْتَلِيكُم﴾: اسم فاعل من الفعلِ الرُّباعيِّ (ابْتَلَى)، ويعودُ هذا اللَّفظُ بجَذْره اللُّغويِّ إِلَى مادَّة: (بَلَوي)، وفيها: الباءُ واللّامُ والواوُ والياءُ، أصلان، أحدُهما: إخلاقُ الشَّيءِ، والثّاني: نوعٌ من الاختبار، ويُحمَلُ عليه الإخبارُ أيضًا، وقولُهم: بُلِيَ الإنسانُ وابتُلِيَ، وهذا من الامتحان، وهو الاختبارُ[6]، وبُلِيَ الإنسانُ وابتُلِيَ: إذا امتُحِنَ، والبَلاءُ: في الخير والشَّرِّ، واللّهُ يُبْلي العَبْدَ بَلاءً حسناً وبَلاءً سيِّئاً، والبَلْوى: هي البَلِيَّة، والبَلْوى: التَّجْرِبة، بَلَوْتُه أَبْلُوه بَلْواً[7]، وبَلَوْتُهُ: أَيْ اختبرتُه[8]، وسائرُ ما في التَّركيب من الفعل (بَلا يَبْلو)، أو الاسم (بَلاءً)، أو اسم الفاعل (مُبْتَلٍ): فهو بمعنى الشِّدَّةِ مع الاختبار[9]، ومعنى الامتحانِ هو المعنى المرادُ هنا؛ لأَنَّ اللّه تعالى امتَحَنَ طاعةَ القوم، فيكون معنى: ﴿مُبْتَلِيكُم﴾: مُمتحنُكم ومُختبِرُكم.

4) ﴿بِنَهَرٍ﴾: اسمٌ مشتقٌّ من الفعل (نَهَرَ)، يُقالُ: نَهَرَ يَنْهَرُ نَهْرًا، فالنّونُ والهاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَفَتُّحِ شيْءٍ أو فَتْحِه، وسُمّيَ النَّهَرَ: لأنَّهُ يَنْهَرُ الأرضَ، أَيْ: يَشُقُّها[10].

(1) الرَّاغب، المفردات: (فصل).
(2) السَّمين، عُمدة الحفاظ: (فصل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فصل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (باب: ما جاء على فيعال).
(5) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (طول).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلوي).
(7) الخليل، العين: (بلو).
(8) الرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (بلو).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نهر).

وفيه لغتان: النَّهَرُ، بفتح الهاء، والنَّهْرُ، بسكونها، والجمعُ: نُهُرٌ وأَنْهارٌ[1]، فالنَّهْرُ والنَّهَرُ: مجرى من مجاري المياه[2]، وهو الشّقُّ الواسعُ الّذي يجري فيه الماءُ[3]، ونَهَرَ الماءَ، كفَتَحَ: جرى في الأرض، وجعل لنفسه نَهرًا، وكُلُّ كثيرٍ جرى فقد نَهَر[4].

فالنَّهَرُ هنا: الشّقُّ من الأرض، يجري فيه الماءُ.

5) ﴿يَطْعَمْهُ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُشتَقٌّ من الثُّلاثيِّ: (طَعِمَ)، والطّاءُ والعينُ والميمُ: أصلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ في تَذَوُّقِ الشَّيءِ، يُقالُ: طَعِمْتُ الشَّيءَ طَعْماً، والطَّعامُ: هو المأكولُ، ثمَّ يُحمَلُ على باب الطَّعام استعارةً ما ليس من باب التَّذَوُّقِ، فيُقالُ: اسْتَطْعَمَني فُلانٌ الحديثَ؛ إذا أرادكَ على أنْ تُحَدِّثَهُ، والإطعامُ يقعُ في كلِّ ما يُطْعَمُ، حتّى الماءَ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾[5].

والطَّعْمُ: طَعْمُ كُلِّ شَيءٍ، وهو ذَوْقُهُ، وقَولُ العربِ: "مُرُّ الطَّعْمِ، وحُلْو الطَّعْمِ" معناهُ: الذَّوْقُ، لأنّكَ تقولُ: اطْعَمْهُ، أي: ذُقْهُ، ولا تُريدُ به امْضَغْه، كما يُمْضَغُ الخُبزُ، وهكذا في القرآن: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾، فجَعَلَ ذَوْقَ الشَّرابِ طَعْماً، فنهاهم أن يأخُذوا منه إلّا غُرْفةً، وكان فيها رِيُّ الرّجلِ، وريُّ دابَّتِه[6]، فمعنى ﴿يَطْعَمْهُ﴾ هُنا: يَذُقْهُ.

6) ﴿ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ﴾: هذه اللّفظةُ مُشتقَّةٌ من الفعلِ الثُّلاثيِّ: (غَرَفَ)، والغينُ والرّاءُ والفاءُ: أصلٌ صحيحٌ، إلّا أنَّ كَلِمَهُ لا تَنْقاسُ، بل تَتَبايَنُ، فالغَرْفُ: مصدرُ غَرَفْتُ الماءَ وغيرَهُ أَغْرِفُهُ غَرْفًا، والغُرْفَةُ: اسْمُ ما يُغْرَفُ[7]، والغَرْفُ: غَرْفُكَ الماءَ باليدِ وبالمِغْرَفَةِ، والغَرْفةُ: قَدْرُ اغْترافِكَ، مِثْلَ الكفِّ، والغَرْفَةُ: مرَّةً واحدةً[8]، وغَرَفْتُ الماءَ بيَدي غَرْفًا، واغْتَرَفْتُ منهُ غَرْفَةً وغُرْفَةً.

فالغَرْفَةُ: المرّةُ الواحدةُ، والغُرْفَةُ بالضَّمِّ: اسمٌ للمفعول منه، لأنَّكَ مالم تَغْرِفْهُ لا تُسمّيهِ غُرْفَةً[9]، فالغُرْفَةُ هنا: مَلْءُ اليدِ ماءً، تناوُلًا من مَقَرٍّ عميقٍ[10].

---

(1) الخليل، العين: (نهر).

(2) ابن سِيده، المحكم: (نهر).

(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (نهر).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نهر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طعم).

(6) الخليل، العين: (طعم).

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرف).

(8) الخليل، العين: (غرف).

(9) الجوهريّ، الصّحاح: (غرف).

(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غرف).

7) ﴿جَاوَزَهُۥ﴾: جَذْرُ الفعلِ (جاوَزَ)، وأصلُه مادَّةُ: (جَوَزَ)، والجيمُ والواوُ والزّاءُ أصلانِ: أحدُهما: قَطْعُ الشَّيْءِ، والآخَرُ وسَطُ الشَّيْءِ، وجُزْتُ المَوضِعَ: سِرْتُ فيه، وأَجَزْتُهُ: خَلَفْتُهُ وقَطَعْتُهُ[1]. وتقولُ: جُزْتُ الطَّريقَ جَوازًا ومَجازًا وجُؤوزًا، وجاوَزْتُه جِوازًا: جُزْتُهُ[2]، وجُزْتُ الشَّيءَ أَجُوزُه: إذا قَطَعْتُهُ[3]، وجُزْتُ المَوضِعَ أَجُوزُهُ جَوازًا: سَلَكْتُهُ وسِرْتُ فيهِ[4]، وجاوَزَهُ: تَجاوَزَ جَوْزَهُ[5]، وجاوَزَهُ: تَعدّاهُ[6]، فجاوَزَهُ هنا بمعنى: سارَ فيهِ وسَلَكَهُ[7].

8) ﴿ءَامَنُواْ﴾: أصلُ الأَمْنِ: طمأنينةُ النَّفْسِ، وزوالُ الخوف، آمن: إنّما يُقال على وجهين، أحدهما: مُتعدِّياً بنفسه، يُقال: أَمَّنْتُهُ، أي: جعلْتُ له الأَمْنَ، والثّاني: غيرُ مُتَعَدٍّ، ومعناه: صار ذا أمن، والإيمان: يُستعمَلُ تارةً اسماً للشَّريعة الّتي جاء بها محمّد ﷺ، ويوصَف به كلُّ مَنْ دخل في شريعته مُقِرًّا باللّه وبنبوَّته، وتارةً: يُستعمَلُ على سبيل المدح، ويُراد به إذعان النَّفْس للحقِّ على سبيل التَّصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياءَ: تحقيق بالقلب، وإقرار باللِّسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح[8].

9) ﴿طَاقَةَ﴾: جَذْرُ المفردةِ اللُّغويُّ (طَوَق)، والطّاءُ والواو والقاف: أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على دَوران الشَّيء على الشَّيء، فكُلُّ ما اسْتَدارَ بشيءٍ فهو طَوْقٌ، فأمّا قولُهم: أَطاقَ هذا الأمرَ إِطاقَةً، وهو في طَوْقِهِ، وطَوَّقْتُكَ الشَّيءَ: إذا كَلَّفْتُكَهُ، فكُلُّه من الباب وقياسه؛ لأنَّه إذا أَطاقَهُ فكأنَّه قد أحاط به، ودار به من جوانبه[9]، والطّاقَةُ: القوَّةُ على الشَّيء[10]، والطّاقَةُ: القُدْرَةُ على الشَّيء[11]، وهي غايةُ مَقدرة القادر، واستفراغُ ما في وُسعه في المقدور، يُقالُ: هذا طاقتي، أي: قَدْرُ إمكاني[12]، والطّاقةُ أيضًا: اسمٌ لمقدارِ ما يمكن للإنسان أن يفعلَه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوز).
(2) الخليل، العين: (جوز).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (جوز).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (جوز).
(5) الرَّاغب، المفردات: (جوز).
(6) السّمين، عمدة الحفاظ: (جوز).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جوز).
(8) الرَّاغب، المفردات: (أمن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوق).
(10) ابن الأنباريّ: الزّاهر: 1/476.
(11) ابن سيده: المخصّص: 1/194.
(12) العسكريّ: الفروق اللّغوية: ص: 110.

بمشقَّةٍ[1]، والطّاقَةُ والطّوْقُ والإطاقَةُ: القُدْرةُ على الشّيءِ، بجامع ما يَضُمُّهُ بَدَنُهُ منْ قوَّةٍ على الإحاطة بالشّيء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾[2]، فمعنى قول أصحاب طالُوتَ: لا قُدرَةَ لنا على مواجهتهم.

10) ﴿بِجَالُوتَ﴾: اسمُ مَلِكٍ جبّارٍ طاغٍ، رماهُ داودُ، عليه السلام، فقَتَلَهُ[3]، وفي جالُوتَ قولانِ، أظهرُهما: أنَّه أعجميٌّ لا اشتقاقَ له، فلذلكَ مُنِعَ منَ الصَّرْفِ للْعَلَميَّةِ والعُجْمَةِ، والثّاني: أنّه مُشْتَقٌّ مِنْ: جالَ، ووَزْنُهُ: فَعَلُوت، كَ: رَهَبُوت، والأصلُ: جَوْلُوت؛ فقُلِبَتِ الواوُ ألفًا، وهذا ليسَ بشيءٍ[4]؛ لأنَّ طالُوتَ وجالُوتَ ليس بكلامٍ عربيٍّ، وإنْ جاءَ في التَّنزيلِ[5].

11) ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعلٌ مُضارعٌ مِنْ ظَنَّ الماضي، و (ظَنَّ): أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على معنيَين مُختلفَين: يقينٍ وشكٍّ، فأمّا اليقينُ: فقولُ القائلِ: ظَنَنْتُ ظنًّا، أيْ: أيْقَنْتُ، والأصلُ الآخَرُ: الشَّكُّ، يُقالُ: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ، إذا لم تَتَيَقَّنْهُ، ومِنْ ذلكَ الظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ، والظَّنينُ: المُتَّهَمُ[6]، فالظَّنُّ في كلامِ العرب جاء على هذَينِ المعنيَينِ: اليقين، والشَّكِّ[7]، وهو اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم[8]، ويأتي الظَّنُّ في القرآن بمعنى العلم والاعتقاد، وعلى هذا يكونُ معنى قولِه تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾: يعتقدون أنَّهم مُلاقو اللّهِ، فيُفَسَّرُ الظَّنُّ هنا بالاعتقادِ، وهو الدَّرجةُ العُليا من الظَّنِّ[9].

12) ﴿مُّلَٰقُواْ﴾: أصلُه: (مُلاقُونَ)، سقطت منه النّونُ بسبب الإضافةِ، وهو جمع مُذكّر سالم لِمُلاقٍ: اسم فاعل مِنْ (لاقَى)، وجَذْرُهُ: (لَقِيَ)، واللّامُ والقافُ والحرفُ المعتلُّ، الياء هنا، أصولٌ ثلاثةٌ: أحدُها: يَدُلُّ على العِوَجِ، والآخَرُ: على تَوافي شيئَينِ، والآخرُ: على طَرْحِ شيْءٍ، والمعنى الثّاني: هو المُرادُ هنا، وهو المُلاقاةُ[10]، فكُلُّ شيءٍ من الأشياء إذا استقبلَ

(1) الرّاغب، المفردات: (طوق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طوق).
(3) الرّاغب، المفردات: (جال).
(4) السّمين، عمدة الحفاظ: (جلت).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ما جاء على فيعال).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظنّ).
(7) الخليل، العين: (ظنّ).
(8) الرّاغب، المفردات: (ظنَّ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنّ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

شيئًا أو صادَفهُ فقد لَقيَهُ[1]، ولاقاهُ مُلاقاةً ولِقاءً: قابَلَهُ وصادَفَهُ، ولاقى اللّهَ: صار إلى حِسابِه[2]، وهو المعنَى الّذي يُناسبُ السِّياقَ هنا.

13) ﴿فِئَةٍ﴾: الفاءُ والهمزةُ مع معتلٍّ بينهما: كلماتٌ تدلُّ على الرُّجوعِ، يُقالُ: فاءَ الفَيْءُ: إذا رَجَعَ الظِّلُّ من جانب المغرب إلى جانب المشرق، وكُلُّ رُجوعٍ فَيْءٌ[3]، والفِئَةُ: طائفَةٌ من النّاس[4]، والفِئَةُ: الجماعةُ من النّاس، يَفيئُونَ إلى الرَّئيسِ، أي: يرجِعون إليه[5].

والفِئَةُ: الفِرْقَةُ مِنَ النّاسِ[6]، والفِئَةُ: الطّائفةُ[7]، والفِئَةُ: الجماعةُ المتظاهرةُ الّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُد[8]، وهذا هو المعنى المناسبُ للسّياقِ هنا.

14) ﴿غَلَبَتْ﴾: أصلُ غَلَبَتْ: أنْ تتناوَلَ وتُصيبَ غَلَبَ رَقَبَتِه، والغَلَبَةُ: القَهْرُ، ويُقال: غَلَبْتُهُ غَلْباً وغَلَبَةً وغَلَباً، فأنا غالِب، قال تعالى: ﴿يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ [الأنفال: 65]، وقال تعالى: ﴿يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفًا﴾ [الأنفال: 65][9].

والمعنى هنا: قَهَرت عند المحاربة.

15) ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾: والإذْنُ في الشّيءِ إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، نحو: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64] أي: بإرادته وأمره، ومِنْ ذلك قولُه: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة: 10] أي: بعلمه، لكنْ يوجد فَرْقٌ بين العلم والإذْن؛ فالإِذْن أَخصُّ، ولا يكاد يُستَعمل إلّا فيما فيه مشيئة ما، ضامَّه الأمر أم لم يضامَّه؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 100] فمعلومٌ أنَّ فيه مشيئتَه وأمرَه، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 102] ففيه مشيئتُه من وجه[10].

والمعنى هنا: بحُكْمه وتيسيره.

(1) الخليل، العين: (لقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأ).
(4) الخليل، العين: (فأو).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فيأ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فأى).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (فأ).
(8) الرّاغب، المفردات: (فيأ).
(9) الرّاغب، المفردات: (غلب).
(10) الرّاغب، المفردات: (أذن).

16) ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الصَّبرُ: الإمساكُ في ضِيق، ويُقال: لحبس النَّفْس على ما يَقتضيه العقلُ والشَّرعُ، أو عمّا يَقتضيان حبسَها عنه؛ فالصَّبرُ لفظٌ عامٌّ، وله إطلاقاتٌ بحَسَب اختلاف سياقه[1].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

عندما تملَّك طالوتُ ببني إسرائيل واستقرَّ له المُلْك فيهم، تجهَّز هو ومن معه لقتال أعدائهم العمَالقة، فلمَّا خَرَجَ طالوتُ بالجنودِ عن البلدِ، قال لِمَنْ معه مِن بني إسرائيلَ: إنَّ اللّه مختبرُكم بِنَهَرٍ، أمامكم تعبرونه؛ ليتميَّز المؤمن من المنافق، فمن شرب منكم من ماء النهر فليس من أهل ديني، ولا على طريقتي، ولا يصلح للجهاد معي، ولا يُصاحِبْني في قتالٍ، ومن لم يذق الماء فإنه مني وعلى طَريقتي؛ لأنه مطيع لأمري وصالح للجهاد، ويُصاحِبُني في القتالِ، إلا مَن ترخَّص واغترف غُرْفة واحدة بيده فلا لوم عليه، فلما وصلوا إلى النهر انكبوا على الماء، وأفرطوا في الشرب منه، إلا عددًا قليلًا منهم صبروا على العطش والحرِّ، واكتفَوْا بغُرْفة اليد، وحينئذ تخلَّف العصاة. فلمَّا عبر طالوت النهر هو والقِلَّةُ المؤمنةُ معه - وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا - لملاقاة العدو، ورأوا كثرة عدوهم وعدَّتهم، قالوا: لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده الأشداء، عِنْدَئِذٍ أجاب الذين يوقنون بلقاء اللّه - يُذَكِّرون إخوانهم باللّه وقدرته - قائلين: كم من جماعة قليلةِ العَدَدِ مؤمنة صابرة، غلبت - بإذن اللّه وأمره وعونِه - جماعة كثيرةَ العَدَدِ كافرة باغية. واللّه مع االصّابِرينَ مِنْ عِبادِهِ، يُؤَيِّدُهم ويَنصُرُهُم بتوفيقه[2].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ في الرَّبطِ بين الجمل:

التَّـنـبـيـه على وجـودِ محذوفٍ مـفـهـومٍ مـن السِّياق

عُطفت بالفاء للدَّلالة على وجود كلام مُقَدَّر بين هذه الآية والسّابقة عليها، وهو الرِّضا بالمَلِك، ومجيءُ التّابوت، وتجنيدُ الجنود، فكُلُّ ذلك تَمَّ قبل أن يَخرُجَ (طالُوت) بالجنود[3].

(1) الرَّاغب، المفردات: (صبر).

(2) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسّر: ص: 41، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 41.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/495.

والتَّركيزُ على المقصود الأهمِّ لأخذ العبرة مِنْ طالُوتَ وجنوده، ومدى صبرهم، وتَحمُّلِهم مشاقَّ الابتلاءِ في سبيل نُصرة الحقِّ.

سبق القرآن إلى العصف الذّهنيّ

تمتازُ الفاءُ من بين حروف العطف بكثرةِ الحَذْف معها، ودليلُ ذلك: كثرةُ ورودها في القَصَص القرآنيِّ، وذلك لِطَيِّ كثيرٍ من الأحداث اعتماداً على فَهْم السّامع من خلال قراءة الآيات، والّذي معنا هنا في قصّة طالُوت هو عَينُ ذلك المطلوب، من الاعتماد على فَهم السّامع، وإيقاظ الفِكْر عندَه، وهذا منهجٌ قرآنيٌّ يجب التَّنبيه عليه في المراحل التَّعليمية بدلاً من التّلقين فقط.

المُهْلَةُ معَ ترتيبِ الأَحـداثِ من معاني الفاءِ

أفادتِ الفاءُ في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾: العطفَ والتَّعقيبَ والمُهْلَةَ، وعطفَ المُفَصَّلِ علَى المُجْمَلِ[1]، وهو هنا: أَفادَ هذه المعاني بِدِقَّة، ويَظْهَرُ ذلكَ مِنْ سياقِ القِصَّةِ؛ فخُروجُ القوم مع طالُوتَ جاءَ بعد أَخْذٍ وردٍّ، وتَفكيرٍ وتَروٍّ، فاخْتَصَرَتِ الفاءُ ما فُصِّلَ قبل هذه الآية، وعَطَفَتْهُ على ما أُجْمِلَ هنا، مع مُراعاةِ التَّعقيبِ على القِصَّةِ والمُهْلَةِ الّتي احْتاجوها قبل اتِّخاذِهم قرارَهم النِّهائيَّ بالخروجِ.

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الفصلِ دون غيرِه من الأفعال:

يـوحـي فـعـلُ (فـصـل) بقطعِ الصِّلةِ مع حياةِ الذُّلِّ والهوان

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿فَصَلَ﴾ دون غيره من الأفعالِ كَفعل (خَرَجَ) مثلاً؛ لأَنَّ المعنى الّذي في ﴿فَصَلَ﴾ لا يُؤدّيه الفعلُ (خَرَجَ)، وإن كان مُتَضَمِّنًا مَعناهُ، فالفَصْلُ هنا: القَطْعُ والبُعْدُ والمُفارَقَةُ، وعَدَمُ الرُّجوعِ إلى ما كان عليه الحالُ؛ لأَنَّ مَقامَ الحربِ والجِهادِ في سبيلِ الحقِّ يَتَطَلَّبُ قَطْعَ الصِّلَةِ مع الباطِلِ وأهلِه بِصُورِها كافَّةً، وقَطْعَ الصِّلَةِ بماضي الذُّلِّ والهَوانِ، والبُعدَ عنه، ومُفارقَتَهُ، وهذه الصِّفاتُ هي الّتي يَجِبُ أن يَتَّصِفَ بها المُجاهِدُ في سبيلِ اللّهِ والحقِّ، الخارجُ لِنُصْرَةِ دينِ اللّهِ وعِزَّتِهِ.

(1) المراديّ، الجنى الدّاني: ص: 61-62.

وهي مَعانٍ لم يَتَضَمَّنْها الفِعْلُ (خَرَجَ)، ولا غيرُه، وهذه المعاني على الإطلاق العامِّ فى مادّة (فصل)؛ فما ذُكر في هذه المعاني السّابقة يَنطبِقُ على يوم الفَصْل وهو يوم القيامة؛ لأنّه يَفْصِلُ بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

بناءُ القيمِ التَّربويّةِ استعدادًا للنَّصرِ العسكريِّ

أمّا ما يخصُّ سياقَ الآية فله معنىً آخرُ، عنوانُه: (قطع الصِّلة بين الحياة المدنيّة والحياة العسكريّة).

وعلى هذا فالمرادُ هنا: تربيةُ الجنود، وهذا معنى مُهمٌّ في العسكريّة، وذلك بفَصْلهم عن الحياة المدنيّة بما فيها من حياة التّرفيه والملذّات والشّهوات إلى الحياة العسكريّة، ولا تتأتّى إلّا بانقطاعهم عن كلِّ ذلك في معسكر، خارجَ البيئة التي يعيشون فيها، ولذلك تَروي بعضُ كتب التَّفسير، أنَّ طالُوت قال: لا يخرُجْ معي رجلٌ بنى بناءً لم يفرُغ منه، ولا صاحبُ تجارة يَشتغِلُ بها، ولا رجلٌ عليه دَينٌ، ولا رجلٌ تزوَّجَ امرأةً، ولم يَبنِ بها[1].

إذاً لا يريدُ إلا الشّبابَ النَّشيطَ الّذي انقطع عن كلِّ سببٍ يؤثر على انشغاله بالجهاد والقتال، انظر إلى دقَّة القرآن الكريم في اختيار اللَّفظ الّذي يحمِلُ هذه الدَّلالاتِ في التَّربية العسكريّة.

بلاغةُ تعديةِ الفعلِ ﴿فَصَلَ﴾ بحَرْفِ (البَاءِ):

القائدُ المخلصُ هو القريبُ من الجنودِ، الملاصقُ لأحوالِهم وأعمالِهم

دلَّ حرفُ الجرِّ (الباءُ) في قَوْلِه تَعالى: ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾ على لَطِيفَةٍ دَقيقَةٍ، وبيانُ ذلك أنَّ هذا الحَرْفَ وهو مِنْ حُروفِ المَعاني، مُخْتَصٌّ بِالاسْمِ، ولَهُ مَعانٍ كَثيرَةٌ، مِنْها: الإلْصاقُ، وهوَ أَصْلُ مَعانيه، والإلْصاقُ: حَقيقيٌّ، نَحْوَ: أَمْسَكْتُ الحَبْلَ بيَدي، ومَجازيٌّ، نَحْوَ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ[2]، ومَعْنَى الإلصاقِ هُنا هوَ أَكْثَرُ مَعاني الباءِ مُناسَبَةً لِلسّياقِ، فكأنَّ طالُوتَ لَمّا فصَلَ عن ديارِهِ وسارَ بِجَيْشِه للقتالِ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/301.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني: ص: 36.

والمناجزةِ، اقْتَرَبَ مِنْ جُنودِه كَثيرًا، واخْتَلَطَ بِهِمُ اخْتِلاطَ القائِدِ الّذي يريدُ الانْدِماجَ مَعَ جنودِه، وإزالة الفَوارِقِ بينَه وبينهم، حَتَّى التَصَقَ بِهِمُ التِصاقًا مَجازيًّا، لِيُشارِكَهم مَشاقَّ السَّفَرِ والطَّريقِ، مِنْ تَعَبٍ ونَصَبٍ، وظمأٍ وعَطَشٍ، ويُرَبّي فيهِم رُوحَ الجُنْديَّةِ والطّاعَةِ والاسْتِبْسالِ في سَبيلِ تَحقيقِ النَّصْرِ. ومُلاصَقَتُهُ لهم كَشَفَتْ لَهُ كثيراً من أسرارِ الجنودِ وأحوالِهم، فعَرَفَ أَنَّ في جُنْدِه المؤمنَ الشُّجاعَ الصّادقَ، والمنافقَ الجبانَ الكاذبَ، فقَرَّرَ الفَصلَ بَيْنَ الفَريقينِ والتَّمييزَ بَيْنَهما، وذَلِكَ باخْتِبارِهم بالنَّهْرِ، وعَدَمِ الشُّربِ منه، وهُمْ في قِمَّةِ الظّمأِ والحاجَةِ إلى الماءِ.

سِرُّ التَّعبير بلفظِ الجنود:

معالم الجُنديّة تتَّسمُ بالصَّلابةِ والشِّدَّة والثَّبات

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡجُنُودِ﴾ دون المقاتلين أو الجيش؛ لأنَّ مفردةَ الجند تحملُ في طيّاتها بعضَ صفات الجنديّة، الّتي يجب أن تتوفَّر في الشَّخص الّذي يخرج للقتال في سبيل اللّه، وعلى رأسها القوَّةُ والشِّدَّةُ، وهذا ما يُفهم من بُنية الكلمة اللُّغويّة، فهي مأخوذةٌ من الجَنَد، وهي: الأحجار الغليظة في الأرض، فالأحجار تحمِلُ معنى الصَّلابةِ والشِّدَّةِ والثَّبات، وهذا هو البنيانُ العسكريُّ للجند.

فائدةُ إسنادِ الابتلاءِ إلى الله تعالى:

الحكمةُ أصلٌ في القيادةِ الرَّشيدةِ

أُسنِد الابتلاءُ إلى اللّه تعالى في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾؛ ليكتسب الابتلاءُ صفةً شرعيَّةً، فهو وحيٌ من اللّه تعالى، وبنو إسرائيل طبيعتُهم قائمةٌ على التَّمرُّدِ والعصيانِ؛ فلو أمرهم بما جاء في مضمون الابتلاءِ وهو عدمُ الشُّرب من النَّهر، لوقعوا في المعصية والجدال والنشوز، وفي ذلك اختصارٌ للوقتِ وكسبٌ للجهدِ، ودفعٌ للفتنةِ، وهو من الحكمة البالغةِ، وفي حِكْمَةِ هَذا الابْتِلاءِ وجْهانِ:

الْأَوَّلُ: كانَ مَشْهورًا مِنْ بَني إِسْرائيلَ أَنَّهُمْ يُخالِفونَ الْأَنْبياءَ والمُلوكَ مَعَ ظُهورِ الآياتِ الباهِرَةِ، فأَرادَ اللّهُ تَعالَى إِظْهارَ عَلامَةٍ قَبْلَ

لِقاءِ العَدوِّ، يَتَمَيَّزُ بها مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الحَرْبِ، مِمَّنْ لا يَصْبِرُ؛ لِأَنَّ الرُّجوعَ قَبْلَ لِقاءِ العَدوِّ لا يُؤَثِّرُ كتأثيرِهِ حالَ لِقاءِ العَدوِّ، فلَمّا كانَ هذا هوَ الصَّلاحَ قَبْلَ مُقاتَلَةِ العَدوِّ، لا جَرَمَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾، والثّاني: أَنَّهُ تعالَى ابْتَلاهُمْ، لِيَتَعَوَّدوا الصَّبْرَ عَلَى الشَّدائِدِ[1].

معنى الابتلاءِ والمقصود منه:

تمحيصُ الجنودِ، وتمييزُ الأقوياء من غيرِهم

أُجريَ الابْتِلاءُ لاخْتِبارِ الجنودِ؛ فمَنْ ظَهَرَتْ طاعَتُهُ في تَرْكِ الماءِ، عُلِمَ أَنَّهُ مُطيعٌ فيما عَدا ذَلِكَ، ومَنْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ في الماءِ، وعَصَى الأَمْرَ، فهوَ في العِصْيانِ في الشَّدائِدِ أَحْرَى، فرُوِيَ أَنَّهُمْ أَتَوُا النَّهَرَ، وقَدْ نالَهُمْ عَطَشٌ، وهوَ في غايَةِ العُذوبَةِ والحُسْنِ، فلِذَلِكَ رُخِّصَ لِلْمُطيعينَ في الغَرْفَةِ[2] لِيَرْتَفِعَ عَنْهُمْ أَذَى العَطَشِ بَعْضَ الارْتِفاعِ، ولِيَكْسِروا نِزاعَ النَّفْسِ في هَذِهِ الحالِ، وبَيَّنَ أَنَّ الغَرْفَةَ كافَّةٌ ضَرَرَ العَطَشِ، عِنْدَ الحَزَمَةِ الصّابِرينَ عَلَى شَظَفِ العَيْشِ الَّذينَ هَمُّهُمْ في غَيْرِ الرَّفاهِيَةِ[3]، وأيضاً: لِيَعْلَمَ طالُوتُ مَنْ له نيَّةُ القِتالِ مَعَهُ، ومَنْ لَيْسَ لَهُ نيَّةٌ[4].

سرُّ إبهامِ اسمِ النَّهر:

للإبْهامِ أثرٌ كبيرٌ في توجيهِ المقصُودِ

أَبْهَمَ اللهُ اسْمَ النَّهرِ؛ لِعَدَمِ وجودِ فائدَةٍ كبيرةٍ في تَعْيينِهِ[5]، إِذِ القَصْدُ النَّهْيُ عَنِ الشُّرْبِ اخْتِبارًا وامتِحانًا لهم، وليسَ القصْدُ الشُّرْبَ من نَهَرٍ بعينِهِ، لِذا جاءَ النَّهَرُ نَكِرَةً، فقالَ: ﴿بِنَهَرٖ﴾، فالمَقامُ مَقامُ حَرْبٍ، وهوَ يَتَطَلَّبُ السُّرْعَةَ في تَبليغِ الأَوامرِ وتَنفيذِها، ولَيْسَ مَقامَ راحَةٍ وتَفصيلٍ[6].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/509.

(2) أثبتَها القرطبيُّ، رحمه الله، في تفسيره: (غَرْفَةً) بفتح الغَين، على ما يوافقُ قراءةَ نافع، ولم أغيِّرْ ما كتبه، لأنَّ المعنى العامَّ على القراءتين واحد.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/251.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/330.

(5) وهذا أحد أسباب الإبهام في القرآن الكريم. يُنظر: السّيوطي، مفحمات الأقران: ص: 10.

(6) السّيوطي، مفحمات الأقران: ص: 21.

كـمـالُ اختـيـارِ النُّخبةِ عائدٌ إلى دقَّةِ الابتلاءِ

فائدةُ استعمالِ لفظ ﴿يَطۡعَمۡهُ﴾ دون غيره من الألفاظِ:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾، ولم يقل: (لَمْ يَذُقْهُ)، أو: لم يشرب منه، لأمورٍ:

أوَّلًا: لأنَّ نفيَ الطّعْم يستلزِمُ نفيَ الشُّربِ، بخلاف نفي الشُّرب فلا يستلزِمُ نفي الطّعْم(1).

ثانيًا: أَنَّ الإِنْسانَ إِذا عَطِشَ جِدًا، ثُمَّ شَرِبَ الماءَ وأرادَ وصْفَ ذَلِكَ الماءِ بِالطّيب واللَّذَّة قالَ: إِنَّ هَذا الماءَ كأنّهُ الجُلّابُ، وكأنّه عَسَلٌ، فيَصِفُهُ بِالطُّعوم اللَّذيذَة، فقَوْلُهُ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ مَعْناهُ: أَنَّهُ وإِنْ بَلَغَ بِهِ العَطَشُ إِلَى حَيْثُ يَكونُ ذَلِكَ الماءُ في فمِه، كالمَوصوفِ بِهَذِهِ الطُّعوم الطَّيِّبَة، فإنّه يَجِبُ عَلَيْهِ الاحْترازُ عَنْهُ، وأَنْ لا يَشْرَبَهُ.

ثالثًا: أَنَّ مَنْ جَعَلَ الماءَ في فمِهِ وتَمَضْمَضَ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنَ الفَمِ، فإِنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ ذاقَهُ وطَعِمَهُ، ولا يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ شَرِبَهُ، فلَوْ قالَ: (وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْهُ) فَإِنَّهُ مِنّي، كانَ المَنْعُ مَقْصورًا عَلَى الشُّرْبِ، أَمّا لَمّا قالَ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ كانَ المَنْعُ حاصِلًا في الشُّرْبِ وفي المَضْمَضَة، ومَعْلومٌ أَنَّ هَذا التَّكْليفَ أَشَقُّ، وأَنَّ المَمْنوعَ مِنْ شُرْبِ الماءِ إِذا تَمَضْمَضَ بِهِ، وجَدَ نَوْعَ خِفَّةٍ وراحَةٍ(2).

معنى حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ (مِن) في قوله: ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾، لأنَّ معناها هنا التَّبعيضُ، وهو تبعيضٌ مجازيٌّ، كأنّه يجعل أتباعَه بعضَه، فالمعنى في قوله: ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾: أي ليس مُتّصلاً بي ولا عَلاقةَ بيني وبينه، سمّاها بعضُ النُّحاة بـ (مِنْ) الاتّصاليّة(3).

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/586.
(2) الرازي، التفسير الكبير: 6/510.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/497.

سِرُّ العُدولِ في المقابلات القرآنيَّة:

دفعُ إبهامِ الأوهامِ، وتعيينُ المقصودِ بالأمرِ

قَالَ تعالى في أَوَّلِ الْآيَةِ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ وما يقتضيه ظاهر النَّظم أَنْ يُقَالَ: (وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْ مِنْهُ)؛ لِيَكُونَ آخِرُ الْآيَةِ مُطَابِقًا أَوَّلَهَا، إِلَّا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ اللَّفْظ، وَاخْتِيرَ هَذَا لِفَائِدَةٍ، وَهِيَ:

إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ظَاهِرُهُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ مَقْصُورًا عَلَى الشُّرْبِ مِنَ النَّهْرِ، حَتَّى لَوْ أَخَذَهُ بِالْكُوزِ وَشَرِبَهُ لَا يَكُونُ دَاخِلًا تَحْتَ النَّهْيِ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الِاحْتِمَالُ قَائِمًا فِي اللَّفْظِ الْأَوَّلِ ذَكَرَ فِي اللَّفْظِ الثَّانِي مَا يُزِيلُ هَذَا الْإِبْهَامَ، فَقَالَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أَضَافَ الطَّعْمَ وَالشُّرْبَ إِلَى الْمَاءِ لَا إِلَى النَّهْرِ إِزَالَةً لِذَلِكَ الْإِبْهَامِ[1].

توجيه القراءاتِ القرآنيَّة:

أَثَرُ اخْتِلَافِ القِرَاءَاتِ فِي تَنَوُّعِ المَعَنَى وَإِثْرَائِهِ

غُرْفَةً، وغَرْفَةً: القِراءَةُ الَّتِي عَلَيْها التَّفْسيرُ هُنا رِوايَةُ حَفْصٍ، من قراءَةِ عاصِم، رَحِمَهُما اللّه، وهي بِضَمِّ الغَيْنِ: ﴿غُرْفَةَۢ﴾، وبها أَيْضًا قَرأَ: حَمْزَةُ والكِسائيُّ، وابْنُ عامِرٍ الشّاميُّ، ويَعْقوبُ وخَلَفُ العاشِرُ، وَقَرأَ: نافِعٌ وابْنُ كَثيرٍ، وأبو عَمْرٍو وأَبو جَعْفَرٍ: ﴿غَرْفَةَۢ﴾، بِفَتْحِ الغَيْنِ[2].

فقراءَةُ الضَّمِّ: ﴿غُرْفَةَۢ﴾ على مَعْنَى: اغْتَرَفَ بِكَفِّه، فصارَ كَفُّهُ إِناءً لِلْماءِ، ولم يَشْرَبْ مِنَ النَّهْرِ مُباشَرَةً، وقِراءَةُ الفَتْحِ: ﴿غَرْفَةَۢ﴾: عَلَى مَعْنَى: مَرَّةً واحِدَةً لم يَزِدْ عَلَيْها، وتَضَمَّنَتْ مَعْنَى الاغْتِرافِ في قِراءَةِ الضَّمِّ، وزادَت عَلَيْها بَيانَ المَرَّةِ[3]، فالغُرْفَةُ: المغروفُ، والغَرْفَةُ: الفَعْلَةُ[4]، والغُرْفَةُ: مِقدارُ مِلءِ اليَدِ مِنَ المغروفِ، والغَرْفَةُ:

(1) الرازي، التفسير الكبير: 6/510.
(2) الدّاني، التّيسير: ص: 81، وابن الجزريّ، النّشر: 2/230.
(3) الفارسّي، الحجّة: 2/265، والأزهريّ، معاني القراءات: 1/215، وابن زنجلة، حجّة القراءات: ص: 140.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/190.

مرَّةً واحدةً باليدِ[1]. ويَتَّضِحُ عَلَى القِراءتَيْن: أَنَّ المَسْموحَ لَهم بِهِ هوَ الاغْتِرافُ بِاليَدِ، دونَ الكُروعِ مِنَ النَّهْرِ[2].

فكانَ في المُغْتَرِفِينَ مَنِ اسْتَوفَى الغَرْفَةَ، ومِنْهُم مَنْ لم يَسْتَوفِ، فكانَ فيهِ إيْذانٌ بِتَصْنيفِهم ثَلاثةَ أَصْنافٍ: مَنْ لم يَطْعَمْهُ البَتَّةَ، وأولئك الّذين ثَبَتُوا وظَنّوا أَنّهم مُلاقو اللّهِ، ومَنْ شَرِبَ مِنْهُمْ، وأولئكَ الّذين افْتُتِنوا وانْقَطَعُوا عَنِ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ، ومَن اغْتَرَفَ غُرْفَةً، وَهُمُ الّذينَ ثَبَتوا وتَزَلْزَلوا، حَتَّى ثَبَّتَهُمُ الّذين لم يَطْعَموا[3].

أثرُ معنى الشُّرْبِ في تحديدِ نوعِ الاستثناءِ:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ استثناءٌ مِنَ الموصولِ الأَوَّلِ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾، أَوْ ضَميرِهِ في الخبرِ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾؛ فإِنْ فُسِّرَ الشُّرْبُ بالكُروعِ كانَ الاسْتِثْناءُ مُنْقَطِعًا، وإلّا كان مُتَّصِلًا.

فائدةُ تقديمِ الجملةِ على الاستثناءِ:

بيانُ تتمَّةِ الجملةِ الثَّانيةِ للأولى والنَّهيُ عن الكروعِ

فائِدَةُ تَقْديمِ الجملةِ الثّانيَةِ ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ على الاستثناءِ ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾: الإيذانُ بأنّها مِنْ تَتِمَّةِ الأولى، وأَنَّ الغَرَضَ مِنها تَأْكيدُها وتَتْميمُها، نَهيًا عَنِ الكُروعِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، وإفادَةُ أَنَّ المُغْتَرِفَ لَيْسَ بذائِقٍ حُكْمًا، فيُؤَكِّدُ تَرْخيصُ الاغْتِرافِ، ولَو أُخِّرَتْ لم تُفِدْ هَذِهِ الفَوائِدَ[4].

وكذلك ليَقَعَ بَعْدَ الجُمْلَةِ الّتي فيها المُستَثنى مِنْهُ مَعَ الجُمْلَةِ المُؤَكِّدَةِ لَها؛ لِأَنَّ التّأكيدَ شَديدُ الاتِّصالِ بالمُؤَكِّدِ، وقَدْ عُلِمَ أَنَّ الاسْتِثْناءَ راجِعٌ إِلَى مَنْطوقِ الأولى ومَفْهومِ الثّانيَةِ، فإِنَّ مَفْهومَ ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾: أَنَّ مَنْ طَعِمَهُ لَيْسَ مِنْهُ، ليَعْلَمَ السّامِعونَ أَنَّ المُغْتَرِفَ غَرْفَةً بيَدِهِ، هوَ كَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ شَيْئًا، وأَنَّه لَيْسَ دونَ مَنْ لَمْ يَشْرَبْ في الوَلاءِ والقُرْبِ، ولَيْسَ هوَ قِسْمًا واسِطَةً، والمَقْصودُ مِنْ هَذا الاسْتِثْناءِ: الرُّخْصَةُ لِلْمُضْطَرِّ في بِلالِ ريقِهِ[5].

---

(1) السِّجستاني، غريب القرآن: ص: 353.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/587.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/428.

(4) الألوسّي، روح المعاني: 1/561.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/497.

فنُّ الاحتراسِ في قولِه: ﴿بِيَدِهِۦۚ﴾:

إزَالَةُ اللَّبْسِ وَالتَّوَهُّمِ في تقديرِ مقدارِ الشُّرب

جاءَ التقيدُ في قَولهِ تَعالَى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِۦۚ﴾ مَعَ أَنَّ الغَرْفَ لا يَكونُ إِلّا باليَدِ؛ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنْ يَكونَ المُرادُ: تَقْدِيرَ مِقْدارِ الماءِ المَشْروبِ، فيَتَناوَلُهُ بَعْضُهُمْ كَرْهًا، فرُبَّما زادَ عَلَى المِقْدارِ، فجُعِلَتِ الرُّخْصَةُ الأَخْذَ باليَدِ[1]؛ قد يضطرُّ الجنديُّ للحفاظ على حياته أنْ يغترِفَ من الماء غَرْفةً بيده، من أجل إبقاء حياته، وهذا قدْرٌ يسيرٌ جدّاً في شُرب الماء بيده مرَّةً واحدةً، وممّا يؤكِّدُ هذه الضّرورةَ قولُه: ﴿بِيَدِهِۦۚ﴾، فكانتِ احتراساً في تطبيق الضَّرورة، فلا توجد مساحة لغرف الماء بكوب أو نَحْوِهِ، وبذلك يكون التَّقييد باليد لتحديد مقدار المشروب، حتّى يمنعَ التّجاوز.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾:

التَّمرُّدُ والعصيان طبيعةٌ إسرائيليَّةٌ

لّما قال طالُوتُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾، أي: لا يَصِحُّ الشُّربُ منه؛ فمَنْ شرب منه ليس من جندي، ومع ذلك وقعوا في الشُّرب، الّذي هو من باب الكَرْعِ، فقدَّموا هواهم على أمر اللّه، وعصوا أمرَ قائدهم، وهذا من طبعهم إلّا القليلَ منهم، وهذا القليل دأبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾، وهذا يُشعِرُ بأنَّ أكثريَّةَ بني إسرائيلَ وقعت في الشُّرب، والقليلُ هو الّذي لم يشرب، وذكرَ العلماءُ تحت القليل قسمين: أحدهما: لم يطعمه البتَّةَ، والثّاني: اغترف بيده على قَدْرِ الضّرورة.

سِرُّ التَّعبير بصيغةِ: (جاوز) دون (جاز):

الدّلالة على تحمّل المصاعب لتحقيق الأهداف

آثرَ التَّعبيرُ الحكيمُ الفعلَ: (جاوز) الذي هو على صيغة (فاعَلَ)، الّتي تَدُلُّ على المبالغة فيما لاقاه الجيش، في صعوبة الوصول إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/498.

المكان الذي دارت فيه المعركةُ، بخلاف: (جاز)، فلا تَدُلُّ إلّا على الانتقال من مكان لآخرَ، دون مشقَّةٍ أو عناءٍ[1].

سرُّ ذكرِ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾:

ادِّعاءُ الإيمانِ غيرُ كافٍ في البرهنةِ على الإيمانِ

جاء التَّعبيرُ بهذا التَّركيب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، دون أن يقول: (والذين معه)؛ ليُنوِّه بشأنهم، وعلوِّ مكانتهم، وأنَّ من عداهم بمعزل عن الإيمان، فهم مع طالوت في أمرين؛ الأوّل: الإيمان، والآخر: الطَّاعة في الجهادِ، فهم من جهةٍ آمنوا، ومن جهةٍ أخرى صاحبوه في الجهاد، وهذا دليلٌ على أنَّ الإيمانَ النَّظريَّ القائمَ على الدَّعاوى لا يثبتُ في الواقعِ ما لم يُبرهن عليه بالأدلةِ العمليَّةِ.

ودَلَّت هذه المعيَّةُ على التّلاحم والتّكاتُف، وصدقِ العزيمة من أولئك الّذين ثبتوا ونجحوا في عدم الشُّرب من النَّهر، وهذا برهانٌ على صدق نيّاتهم، والتفافِهم حول راية الحقِّ.

وأيضاً: أنَّ الإيمان باللّه هو السَّببُ في حملهم في طلب العزّة، وتحمُّل المشاقِّ من أجلها، والصَّبر على الشّدائد لنَيلها، والطّاعة لوليِّ أمرهم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالطّاقة دون القوّة:

تصويرُ الحالةِ النَّفسيَّةِ لبني إسرائيل عند ملاقاة العدوِّ

جاء التَّعبير بالطَّاقةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ الطّاقة تُطلق على ما يفعله الإنسان بمشقّة، وتُطلق أيضاً للتّعبير عن أقصى الجهد، ونهايةِ الاحتمال والتحمّلِ، أو فيما يثقُل على الإنسان أداؤه[3]، وهذه المعاني لا تَرِدُ مع غير الطّاقة، ولذلك كان تعبيرُهم يدلُّ على وجود الإيمان منهم، وأنّهم لم يخرجوا من حظيرة الإيمان؛ لأنّ الأمرَ فوق طاقتهم فيما يظنُّون،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/589.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/901.
(3) الدوري، دقائق الفروق، ص: 165.

فهذه المفردةُ صوَّرت الحالةَ النفسيَّةَ لبني إسرائيل عند ملاقاةِ جالوت وجنودِه، فثباتُهم وملاقاتُهم لجالوت دليلٌ على أنَّ الابتلاءَ قد تحقَّقت غايتُه، وهي الصَّبر والثَّباتُ عند الملاقاة.

سرُّ التَّعبيرِ بالظَّنِّ على مَعْنَى العِلْمِ واليَقِين:

مدحُ المؤمنين والتَّعريضُ بغيرِهم

تَضَمَّنَ الظَّنُّ في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مَعْنَى العِلْمِ واليَقين، فقولُه تعالى: ﴿يَظُنُّونَ﴾ بمَعْنَى: يَعْلَمونَ ويوقِنونَ، وأَطْلَقَ لَفْظَ الظَّنِّ عَلَى اليَقين، عَلَى سَبيلِ المَجاز، لِما بَيْنَ الظَّنِّ واليَقينِ مِنَ المُشابَهَةِ في تأَكُّدِ الاعْتِقاد[1]، وهوَ المَعْنَى المُناسِبُ لِصَفاتِ المؤمنينَ الصّادقينَ، الّذينَ نَذروا أَرْواحَهم للهِ تَعالى، فأَطاعوه في تَلْبيةِ منادي الجهادِ أَوّلًا، وفي عَدَمِ الشُّربِ مِنَ النَّهَرِ ثانيًا، وفي الثَّباتِ أَمامَ جَبَروتِ جالوتَ وجنودِه، وعَدَدِهم وعُدَّتِهم ثالثًا.

وعبَّر بالظَّنِّ دون اليقين؛ لأنَّ ذكرَ الظَّنِّ فيه تعريضٌ بمن لم يتيقَّن، وفيه مزيدُ مدحٍ للمؤمنين، أي: إذا كان هذا ظنُّهم فما بالك بيقينهم؟!

إيثارُ التَّعبيرِ باسم الفعل: ﴿مُّلَٰقُواْ﴾ دون الفعل: (يلاقوا):

عبَّر باسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ دون الفعل المضارعِ؛ لأنَّ ظنَّهم قائمٌ على الملاقاة الثَّابتةِ الآتيةِ؛ فَظَنُّ المؤمنين بمُلاقاة الله ثابتٌ دائمٌ: لا يَنْفَكُّ عنهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بعنوانِ الألوهيّة دون الرّبوبيَّة:

المناسِبُ لمَشْهدِ القِيامةِ التَّعبيرُ بالألوهيّةِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ بلفظ الجلالة، دون لفظ الرُّبوبيَّة، ذلك أنَّ الحديثَ عن لقاء الله تعالى يوم القيامةِ فيما يَعْتَقِدُونَهُ، وهو مقامٌ قائم على الجلال والهيبةِ

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/513.

والحسابِ والجزاء، فناسب أن يكون بعنوانِ الألوهيَّة، وهو من كلامِ اللّه تعالى في وصف اعتقادِهم وظنِّهم.

ويُضافُ إلى ذلك: أنَّ التَّعبيرَ بقوله: ﴿مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ هو الباعثُ القويُّ، والدَّافعُ للرِّضا بالقتال، والتَّضحيةِ بالنَّفس، فالإيمانُ بلقاء اللّه: يجعلُ المرءَ لا يأبَهُ بالدُّنيا وما فيها، نظيرَ لقاءِ ربِّه، راضياً عنه، وذلك على القولِ بأنَّ اللِّقاء هو يوم القيامةِ.

الجِناسُ والمقُابلةُ، وَدَوْرُهما في أَدَاءِ المعَنَى الدَّقِيقِ:

أثـرُ المؤمنين الصَّادقين في تقويةِ الضُّعفاءِ

في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ جِناسٌ تامٌّ، ومُقابلَةٌ بَيْنَ: ﴿فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾، و﴿فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾، والمُرادُ مِنْ هَذِهِ العِبارَةِ: تَقْوِيَةُ قُلوبِ الَّذينَ قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، والمَعنى: أَنَّهُ لا عِبْرَةَ بِكَثْرَةِ العَدَدِ، إِنَّما العِبْرَةُ بالتَّأْييدِ الإِلَهيِّ، والنَّصْرِ السَّماويِّ، فإذا جاءَتِ الدَّوْلَةُ فلا مَضَرَّةَ في القِلَّةِ والذِّلَّة، وإذا جاءَتِ المِحْنَةُ فلا مَنْفَعَةَ في كَثْرَةِ العَدَدِ والعُدَّةِ[1]، وفيها تَحْريضٌ عَلَى القِتالِ، واسْتِشْعارٌ لِلصَّبْرِ واقْتِداءٌ بِمَنْ صَدَّقَ رَبَّهُ[2]، والمَعْنى: أَنّا لا نَكْتَرِثُ بِجالُوتَ وجُنودِه، وإِنْ كَثُروا، فإِنَّ الكَثْرَةَ لَيْسَتْ سَبَبًا لِلانْتِصارِ، فكَثيرًا ما انْتَصَرَ القَليلُ عَلَى الكَثيرِ، ولَمّا كانَ قَدْ سَبَقَ ذَلِكَ في الأَزْمانِ الماضيَة، وعَلِموا بِذَلِكَ، أُخْبِروا بِصيغَةِ: ﴿كَم﴾، المُقْتَضيَةِ لِلتَّكَثُّرِ[3]؛ إِذْ دَلَّتْ ﴿كَم﴾ الخَبَرِيَّةُ عَلى الكَثْرَةِ، والمعنى: قَدْ وقَعَ كَثيرًا في الماضي انْتِصارُ القِلَّةِ المؤمنةِ على الكَثْرَةِ الكافِرَةِ، بِأَمرِ اللّهِ تَعالَى، وإِذْنِه وتَوْفيقِه.

نُكتَةُ المُبَالَغَةِ فِي الـرَّدِّ عَلى القَائِلِين بِعَدَمِ الطَّاقَةِ عَلَى القِتَالِ

نكتةُ العدولِ في الجوابِ:

عدلَ النَّظم عن كلامِ القائلين: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ فرُوعيَ في جَوابِ القائلِينَ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/513.
(2) القرطبيّ: الجامع لأحكام القرآن: 3/255.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/591.

﴿فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ نُكْتَةٌ بَديعَةٌ، حَيْثُ لم يقُلْ: (أَطاقَتْ بِفِئَةٍ كَثيرةٍ)، حَسْبَما وقَعَ في كَلامِ أَصْحابِهم، وذَلِكَ مُبالَغَة في رَدِّ مَقالَتِهم، وتَسْكِينِ قُلوبِهم، وهَو جَوابٌ ناشِئٌ مِنْ كَمالِ ثِقَتِهم بِنَصْرِ اللّهِ تَعالى وتَوْفيقِه، أو الاستشهاد ولقاءِ اللّه تعالى يوم البعث.

إيثارُ التَّعبيرِ بفئةٍ دون جماعةٍ أو فريقٍ:

الإشـــارةُ إلى أثـر الـتَّعـاونِ والمسـانـدةِ في النَّصرِ

عُبِّر بفئةٍ في قولِه تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ لأنَّ الفِئَةَ مأخوذةٌ من الجماعة الّتي يَفيءُ بعضُها إلى بعضٍ، كما هو في القتال، قال تعالى: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ [الأنفال: 16] وهي: الّتي يُعاوِنُ بعضُها بعضاً، ففيها معنى المساندةِ والمُعاوَنةِ، وهو المناسِبُ لأمرِ القتال.

ويمكنُ أنْ يُقالَ: سُمِّيت بفئةٍ لأنّها انشقَّتْ عن الّذين شربوا من النَّهر، فهي مأخوذةٌ مِنْ قولهم: فَأَوْتُ رأسَه بالعَصا، أيْ: شَقَقْتُهُ، وفيها معنى القُوَّةِ، وهو أيضاً يُناسِبُ مَقامَ الحرب.

الـــفـــرقُ بين الـفـئـتين قـائـمٌ على الإيمانِ

وعبَّر في المقابل بفئةٍ كذلك لبيانِ أنَّ العدوَّ متآزرٌ متعاونٌ، وأنَّ التَّعاون القائمَ على أمرِ اللّه تعالى هو الذي يقودُ أصحابه إلى النَّصر، فليس كلُّ تعاونٍ مؤدِّيًا إلى النَّصر، وإنَّما هو المتعلِّق باللّه تعالى، وفيه فائدةٌ عظيمةٌ وهي أنَّ العملَ يجب أن يقوم على جانبين: أحدهما ماديٌّ، والآخر: معنويٌّ، فإيمانٌ دونَ عملٍ تواكلٌ، كما أنَّ العمل من غير إيمان لا يُنْتَفَعُ بِهِ في الدُّنيا أو الآخرة.

فائدةُ التَّعبيرِ بأداةِ كم الخبريّة:

تثبيت المؤمنين مـــن خـــلال الاعتبارِ بالسَّابق

عُبِّرَ بأداةِ ﴿كَم﴾ الخبريَّة؛ لِتَثْبيت المؤمنين أنفسَهم، وتثبيت رفقائِهمُ الّذين قالوا: لا طاقةَ لنا اليومَ بجالُوتَ وجنودِهِ، والمقصودُ: ليستِ العِبرةُ بالكَثْرة في العَتاد والعُدَد؛ إنّما العِبرةُ بالتّأييدِ الإلهيِّ، فكثيرًا ما انتَصرَ القليلُ على الكثير، وهذا واقعٌ في الأزمان الماضية.

وفيه إشارةٌ إلى جَواز قتالِ القليلِ للْكثير، وهذا ما ذَكَرَهُ القرآنُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 65].

إيثارُ التّعبيرِ بقوله: ﴿غَلَبَتۡ﴾:

قانونُ الغلبةِ مرتَهنٌ بالفئةِ لا بعددها

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل: (غَلَبَ) دون غيره؛ لكسرِ المتوقَّع، فإنَّ المتوقَّع أنْ تَغْلِبَ الكَثْرَةُ القِلَّةَ، لا العكس، ولم يقل: (انتصرت)، لدفع توهم أنَّ الفئة لم تستعدّ، وأنَّ النَّصرَ جاءهم من غيرِ عمل، ولبيانِ أنَّ الغلبةَ لا علاقةَ لها بكثيرٍ أو قليلٍ، وإنما هي مرتبطةٌ بقوانين ماديّة ومعنويّة وعلى رأسها الإيمان؛ فالفئة تغلب الفئة، بقطع النظر عن العددِ، كثرةً وقلَّةً.

فائدةُ القيدِ: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

الإذن الإلـهيُّ مفتاحُ كلِّ نصرٍ

جاء التَّعبيرُ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ دون أنْ يقولَ: بعِلْمه؛ لأنَّ الإذْنَ أخَصُّ، فلا يُستعمَلُ إلّا فيما فيه مَشيئةٌ ما، ومعلومٌ أنَّ أمرَ الغَلَبَةِ يكون بمشيئتِه وأمْرِه، وذلك لأنَّ اللّه أوْجَدَ في الإنسان قوَّةً، فيها إمكانُ قَبول الضَّرَرِ من جهة مَنْ يَظْلِمُهُ فيضرُّه، ولا خلافَ في أنَّ إيجادَ هذا الإمكانِ مِنْ فعل اللّه تعالى[1]، وعلى هذا: فَغَلَبَةُ العدوِّ تكون بإذنه ومشيئته، وفيه إشارةٌ: إلى أنَّ اللّه إذا أَذِنَ بنَصْر عبادِه الّذين خرجوا مع طالُوتَ، فلا مانِعَ مِنْ وُقوعه؛ لأنّه غالبٌ على أمره.

وفيها إشارةٌ ودعوةٌ إلى طلبِ الإذنِ من اللّه تعالى للنَّصرِ على جالوت وجنوده، وأنَّه مفتاح كلِّ نصر، وفائدةٌ أخرى حسنةٌ وهي أن لا يظنَّ أحدٌ أنَّ الغلبةَ ذاتيَّة، فقيد: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ في أنَّها من اللّه تعالى.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يَعْني: أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الصّابِرينَ،

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).

التَّحْرِيضُ على الصَّبْرِ

إذا صَبَروا على طاعتِه، وما يُزْلِفُ عِنْدَهُ[1]، وفي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تَحْرِيضٌ عَلَى الصَّبْرِ في القِتالِ، فإنَّ اللَّهَ مَعَ مَنْ صَبَرَ لِنُصْرَةِ دينِه، يَنْصُرُهُ ويُعينُه ويُؤَيِّدُهُ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ مِنْ تَمامِ كَلامِهِمْ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ اسْتِئْنافًا مِنَ اللَّهِ[2].

مُنَاسَبَةُ الفَاصِلَةِ لِمَعْنَى الآيَةِ

جاءَتِ فاصِلَةُ هَذِهِ الآيةِ، وهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مُناسِبَةً لِسياقِ القِصَّةِ فيها، إِذْ حَكَى قِصَّةَ خُروجِهِم مَعَ طالُوتَ للجِهادِ والقِتالِ، ومُعاناةِ السَّفرِ ومَشاقِّه، والنَّهَرِ والابْتِلاءِ بِمَنْعِ الشُّرْبِ مِنْهُ، مَعَ صَفاءِ مائِهِ وعُذوبَتِه، وشِدَّةِ ظَمِئِهِم وتَشَوُّفِهِم، وهِيَ أَحْداثٌ تَتَطَلَّبُ صَبْرًا كَبيرًا، وإيمانًا راسِخًا، وهِمَّةً عالِيَةً لِتُحْتَمَلَ، فناسَبَ اخْتِتامَ الآيةِ بِحُسْنِ عاقِبَةِ الصَّبْرِ، وهِيَ مَعِيَّةُ اللهِ الدّائِمَةُ، ومَنْ كانَ اللهُ مَعَهُ فَلَنْ يَضُرَّه شَيْءٌ، ويُؤَيِّدُ هَذا: أَنَّ الوَقْفَ عَلى ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وَقْفٌ تامٌّ[3]، لِتَمامِ المَعْنَى.

مَعِيَّةُ اللهِ للصّابرين سبيلُ نصرِهم

عبَّر بالمَعِيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لأنَّها تَستلزِمُ الحُبَّ، فلا معيَّةٌ خاصَّةٌ مِنْ غير حُبٍّ، ولأنَّ المَقامَ هنا في القتال والمجاهدة، وهذا يقوِّي المؤمنين في قتالهم، حينما يُدركون أثرَ هذه المعيَّةِ، وممّا يُؤكِّدُ ذلك: ما ذكرَه القرآنُ الكريمُ في غزوة بَدْرٍ مِنْ معيَّته سبحانه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: 12]، وفي هجرة رسول الله ﷺ، ومَعَهُ صاحبُه في الغارِ، قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، ومِثْلُ ذلك أيضاً في مَقام موسى مع فِرْعونَ، قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46]، فكانتِ المَعيّةُ خيرَ سلاحٍ، في النَّصر والتَّثبيت في مثل هذه المواقف.

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/332.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.

(3) الأنصاري، المقصد لتلخيص ما في المرشد: ص: 40.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عُطِفَتْ هذه الآيةُ على الآية الّتي قبلها؛ لأنّها تَكْمِلةٌ للقِصَّة، وتَتْميمٌ لها، فقصَّةُ خروجِ طالُوتَ بجَيشه لم تَنْتَهِ في الآية السّابقة، ولا يزالُ سِياق الحديث مُستَمِرًّا عن مُجريات الأحداث، وتفصيلاتِ القصَّة الدَّقيقة، ورسْمِ وقائعها؛ فناسبَ أنْ تأتيَ هذه الآيةُ مُكمِّلةً للأحداثِ، مُتمِّمةً لها.

ويُضافُ إلى ذلك: لمّا ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ مَقالةَ المؤمنين المُشجِّعين لإخوانهم، الّذين تهيَّبوا قتالَ أعدائهم، وقالوا تَثْبيتاً وتَحفيزاً لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ الآية، ذَكَرَ في هذه الآيةِ ما قالَه المؤمنون عند مُلاقاة عدوِّهم في المعركة: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرَزُواْ﴾: (بَرَزَ) الباءُ والرّاءُ والزّاءُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ظُهورُ الشَّيْءِ وبُدُوُّه، قياسٌ لا يُخْلِفُ، يُقالُ: بَرَزَ الشَّيْءُ فهوَ بارِزٌ[1]، وبَرَزَ يَبْرُزُ بُروزًا: إذا ظهَرَ[2]، وبَرَزَ: خَرَجَ[3]، ومِنْهُ: المُبارَزَةُ لِلْقِتالِ، وهي: الظُّهورُ مِنَ الصَّفِّ[4]، وهوَ المعنى المراد هنا.

2) ﴿أَفۡرِغۡ﴾: جَذْرُه: (فَرَغَ)، والفاءُ والرّاءُ والغَيْنُ أَصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى خُلوٍّ وسَعَةِ ذَرْعٍ، مِنْ ذَلِكَ الفَراغُ: خِلافُ الشُّغْلِ، يُقالُ: فرَغَ فَرَاغًا وفُروغًا، وفَرِغَ أَيْضًا، ومِنَ البابِ الفَرْغُ: مَفْرَغُ الدَّلْوِ الَّذي يَنْصَبُّ مِنْهُ الماءُ، وأَفْرَغْتُ الماءَ: صَبَبْتُهُ[5]، والإِفراغ: الصَّبُّ، قال

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (برز).
(2) ابن دريد، الجمهرة: (برز).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (برز).
(4) الرّاغب، المفردات: (برز).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرغ).

اللّه تعالى: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا﴾، أيّ: اصْبُبْ[1]، وأَفْرَغْتُ الدَّلْوَ: صَبَبْتُ ما فيهِ، ومنهُ اسْتُعيرَ: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾[2]، أيّ: صُبَّ علينا الصَّبْرَ[3]، وهو المعنى المرادُ هنا.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ولمّا خَرَجَ طالُوتُ وجيشُه، ظاهرينَ في ميدان المعركة لجالُوتَ قائدِ قوات العَمالقة وجُنودِه، ورأوا الخطر رأي العين تَوَجَّهوا إلى اللّهِ بالدُّعاءِ قائلينَ: رَبَّنا صُبَّ على قُلوبنا الصَّبْرَ صَبًّا، وثَبِّتْ أَقْدامَنا واجعلها راسخة في قتال العدو حَتَّى لا نَفِرَّ، ولا نَنْهَزِمَ أَمامَ عَدوِّنا، وانْصُرْنا بِقوَّتِكَ وتَأييدِكَ عَلى القَوْمِ الكافِرينَ[4].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿بَرَزُواْ﴾:

أثَرُ المؤمنين في بناءِ الشَّجاعةِ والجرأة عند بقيَّة الجندِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل: ﴿بَرَزُواْ﴾؛ لأنّه يُصوِّر أرضَ المعركةِ، فجنود طالوت برزوا لجالوت بعد أن كانوا مستورين أو بعيدين، فلما اقتربوا وظهروا؛ برزوا، والنَّظمُ يريد أن يُظهر ساعة الالتقاءِ، وأنَّها ساعةُ ظهورِ جند طالوت لجالوت وجنده؛ لبيانِ أنَّهم اكتسبوا الشجاعة والجرأة بعد شحنهم بالإيمان، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّه قبل لقاءِ العدوِّ على المؤمنين العلماء الرَّبانيين توجيهُ بقيَّةِ الجند بالخيرِ والإيمانِ، وتذكيرُهم بما عند اللّه تعالى.

نكتةُ الاختلاف في المقابلة في قولِه تعالى: ﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾:

القائدُ متَّصلٌ بجندِه غير متميِّزٍ عنهم

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ بذكر طالوت وجنوده بالإضمارِ ﴿بَرَزُواْ﴾ دون تفصيل، بينما في المقابل قال: ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ففصَّل وذكر القائدَ وجندَه، ذلك أنَّهم قالوا في الآيةِ السَّابقة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾، ناسبَ

(1) الخليل، العين: (فرغ).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرغ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فرغ).
(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 41، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 41.

في هذه الآية أن يُخبرَ عن ملاقاةِ من ذكروا، فجرى ذكرُ جالوت وجنودِه كالتَّذكير بقيلِهم قبل اللِّقاءِ، أي: قابلوا من ظنُّوا أن لا طاقة لهم بهم، وأمَّا ذكر طالوت وجنودِه بالضَّميرِ، فهو ما يقتضيه النَّظمُ، وللإشارةِ إلى أنَّ طالوت أثناء المعركة كان وَسَطَ جنوده في خَنْدَقٍ واحدٍ، فلا تمييزَ بين القائد وجُنده.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿قَالُواْ﴾ دون دعوا:

صدورُ الدُّعاءِ عن الجميعِ مرَّةً واحدةً أخرى بالإجابةِ

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن دعاءِ المؤمنين بلفظِ: ﴿قَالُواْ﴾ دون (دَعَوْا)؛ لأنَّ القولَ يُشيرُ إلى رفعِ الصَّوت بالدُّعاء في المعركة، وأنَّهم دعوا مرَّةً واحدةً مجتمعين، بخلاف: (دعوا)، فقد يكونُ سِرّاً، وقد يكون عَلانيةً، وقد يكون من الجميع وقد يكون من الأفراد، وهذا ما وقع من العلماءِ والأقوياءِ مِنْ عَسْكَرِ طالُوتَ، لَمّا قَرَّروا مَعَ العَوامِّ والضُّعَفاءِ أنَّهُ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، وأَوْضَحُوا: أنَّ الفَتْحَ والنُّصْرَةَ لا يَحْصُلانِ إلّا بِإعانَةِ اللَّهِ، ولَمّا بَرَزَ عَسْكَرُ طالوتَ إلَى عَسْكَرِ جالُوتَ، ورأَوْا القِلَّةَ في جانِبِهِمْ، والكَثْرَةَ في جانِبِ عَدوِّهِمْ، اشْتَغَلوا بِالدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾[1].

سرُّ الدُّعاء بلفظ: ﴿رَبَّنَآ﴾:

الرُّبوبيَّةُ هي مقامُ الرِّعايةِ والعنايةِ والنَّصرِ

لمّا كان دعاء المؤمنين بإفراغِ الصَّبرِ - والصَّبرُ: حَبْسُ النَّفْسِ على شدائد القتال وأهواله - دَعَوا بَلَفظِ: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لإعلان عُبوديتهم وتَذَلُّلهم لخالقِهم ومربّيهم وناصِرهم؛ لينالُوا العَونَ والمَدَدَ، ولفظ (الرَّبِّ) دالٌّ على الإصْلاحِ، وعلى المُلْكِ، ففي ذَلِكَ إشْعارٌ بالعُبوديَّة، فهُمْ قَدْ تَوَسَّلوا إلى اللَّه تَعالى بِرُبوبيَّتِه لهم، وعُبوديَّتِهمْ لَهُ، ففي قَوْلِهِمْ ﴿رَبَّنَآ﴾: إقرارٌ لِلَّهِ تعالى بِالوَحْدانيَّةِ، وإِقْرارٌ لَهُ بِالعُبوديَّةِ[2]،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/514.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.

وهوَ مَقامٌ عَظيمٌ وشَريفٌ، مِنْ مَقاماتِ التَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللّهِ تعالى ولُطْفِهِ، ومُناسِبٌ لأَنْ يَتَوَسَّلوا بِهِ إِلَى اللّهِ لِنُصْرَتِهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآية:

يقينُ العبدِ بأنَّ النَّصرَ من الله يقودُه إلى طلبِ أسبابِه

جاءَ التَّعبيرُ عَنْ إِلْهَامِهِمْ إِلَى الصَّبْرِ بِالْإِفْرَاغِ اسْتِعَارَةً لِقُوَّةِ الصَّبْرِ؛ فَإِنِ الْقُوَّةَ وَالْكَثْرَةِ يَتَعَاوَرَانِ الْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ عَلَيْهِمَا؛ فَاسْتُعِيرَ الْإِفْرَاغُ هُنَا لِلْكَثْرَةِ مَعَ التَّعْمِيمِ وَالْإِحَاطَةِ، وَتَثْبِيتُ الْأَقْدَامِ اسْتِعَارَةً لِعَدَمِ الْفِرَارِ شِبْهِ الْفِرَارِ وَالْخَوْفِ بِزَلَقِ الْقَدَمِ، فَشَبَّهَ عَدَمَهُ بِثَبَاتِ الْقَدَمِ فِي الْمَأْزِقِ[1]، ورشَّح الاستعارةَ تعديةُ الفعلِ بـ ﴿عَلَيْنَا﴾ الّذي يَدُلُّ على الاسْتعلاءِ، فسألوا ربَّهم أنْ يَصُبَّ عليهم الصَّبرَ، حتّى يكونَ مُسْتَعلياً عليهم، ويكونَ لهم كالظَّرْفِ، وهم كالمَظْروفين فيه، صَبْراً على مُقاساةِ شدائدِ الحربِ، واقتحامِ مواردِها.

وبلاغةُ الاستعارةِ تظهر في أنَّ الجندَ دعوا اللّه تعالى بإفراغِ الصَّبرِ عليهم، ليتمكَّنوا من النَّصرِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم علموا أنْ لا نصرَ إلَّا به سبحانه، فطلبوا منه أسبابَه وهو الصَّبرُ والتَّثبيتُ.

سِرُّ التَّرتيبِ البَليغِ فِي دُعاءِ المؤمنينَ:

عـملُ القـلوبِ أصــلُ عـملِ الجوارحِ، وبهما تتحقَّقُ الأعمالُ

رتَّبتِ الآيةُ: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ الدُّعاءَ بذكرِ إفراغِ الصَّبرِ، وتثبيتِ الأقدامِ، والنَّصرِ على الكافرين، وهو تَرْتيبٌ بَليغٌ، إِذْ سأَلوا أَوَّلاً إفراغَ الصَّبرِ في قُلوبِهم، الَّذي هوَ مَلاكُ الأَمرِ، ثُمَّ ثَباتَ القَدَمِ في مَداحِضِ الحَرْبِ، ثُمَّ النَّصرَ على العَدوِّ، المُتَرَتِّبَ عَلَيْهِما[2]، فالصَّبرُ عملُ القلوبِ، وتثبيتُ الأقدامِ عملُ الجوارحِ، والنَّصرُ على الكافرين نتيجةُ الأمرين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/499.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/152.

بلاغةُ الكِنَايَةِ في قولِه: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾:

الكنايةُ عَنِ التَّشجيعِ بِطَلَبِ ثَباتِ الأَقْدَامِ أبلغُ من التَّصريح بها

قالَ المؤمنون: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، أي: فلا تَزِلُّ عن مَداحِضِ القِتالِ، وهوَ كِنايَةٌ عن تَشْجيعِ قُلوبِهِمْ وتَقْوِيَتِها، ولَمَّا سأَلوا ما يَكونُ مُسْتَعْلِيًا عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّبْرِ، سأَلوا تَثْبيتَ أَقْدامِهِمْ وإِرْساخِها[1]، فإنَّ تثبيتَ الأقدامِ لا يكون إلَّا باكتسابِ القلوبِ شجاعةً وجرأةً على المواجهة، مع الصَّبرِ الذي صرَّحوا بطلبِ إفراغِه عليهم، والكنايةُ أبلغُ من التَّصريحِ؛ لما في التَّصريحِ من ذكر الشَّجاعةِ التي تُقابلُ الجبن، وهو يشعر بأنَّهم اتَّصفوا بالجبن فطلبوا دفعَه بالشجاعةِ.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

إيمانُ العبدِ وكفرُ العدوِّ سببٌ في النَّصرِ

خُتِمت الفاصلة القرآنيّة بقولِه تعالى: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: أعِنّا عليهم، وجاؤوا بِالوَصْفِ المُقْتَضي لِخُذْلانِ أَعْدائِهِمْ، وهوَ الكُفْرُ، وكانوا يَعْبُدونَ الأَصْنامَ[2]، فالإيمانُ المبدوءُ به في الدُّعاءِ يقابلُ الكفرَ المنتهي به في الفاصلةِ، فهم بدأوا داعين بإيمانِهم، لينتصروا به على كفرِ غيرِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بيَّنَ اللّٰه سبحانه وتعالى في الآية السّابقة لُجوءَ المؤمنين إلى الدُّعاء، عند رُؤية جيش جالُوتَ وكثرتِه، بعد أخذِ أُهْبَةِ الاسْتعداد، وطلبِ المَعُونة والصَّبرِ من اللّٰه، رَتَّبَ على ذلك النَّتيجةَ، وأَخْبَرَ في هذه الآيةِ بإجابة دعائِهم، وهُزِمَ جالُوتُ وجنودُه بإذن اللّٰه، وإعانتِه وتوفيقِه وتَيسيرِه، ولولا إعانتُه وتيسيرُه، لَمَا حَصَلَتْ هزيمتُهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَءَاتَىٰهُ﴾: الإيتاءُ الإعْطاءُ، تقولُ: آتَى يُؤْتي إيتاءً[2]، وآتى يُؤْتي إيتاءً، بمعنَى: أعْطَى[3]، ويقال: آتَاه: جَازَاهُ. وَرَجُلٌ مِيتاءٌ: مُجازٍ مِعْطاء[4].

ومعنى ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: وأَعْطاهُ اللّٰه المُلْكَ.

2) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: جَذْرُ الكَلِمَةِ الفِعْلُ الثُّلاثيُّ الصَّحيحُ: (حَكَمَ)، والحاءُ والكافُ والميمُ: أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَنْعُ، وأَوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلم، وسُمّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ: لِأَنَّها تَمْنَعُها، يُقالُ: حَكَمْتُ الدّابَّةَ وأَحْكَمْتُها، ويُقالُ: حَكَمْتُ السَّفيهَ وأَحْكَمْتُهُ، إِذا أَخَذْتَ عَلَى يَدَيْهِ، والحِكْمَةُ هَذا قياسُها؛ لِأَنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهْلِ، وتَقولُ: حَكَّمْتُ فُلانًا تَحْكيمًا: مَنَعْتُهُ عَمّا يُريدُ، وحُكِّمَ فُلانٌ في كَذا، إِذا جُعِلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ، والمُحَكَّمُ: المُجَرَّبُ، المَنْسوبُ إِلَى الحِكْمَةِ[5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/515، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) ابن دريد، الجمهرة: (أتى).
(4) ابن منظور، اللسان: (أتى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).

والحِكْمَةُ: فَهْمُ المعاني[1]، والحِكْمَةُ: العَدْلُ والحِلْمُ[2]، والحِكْمَةُ: إِصابَةُ الحَقِّ بِالعِلْمِ والعَقْلِ، وهيَ مِنَ الإنسانِ: مَعْرِفَةُ المَوْجُودَاتِ، وفِعْلُ الخَيْراتِ[3].

3) ﴿لَّفَسَدَتِ﴾: (فَسَدَ) الفاءُ والسّينُ والدّالُ: كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، فسَدَ الشَّيءُ، يَفْسُدُ فسادًا وفُسودًا، وهوَ فاسِدٌ وفَسيدٌ[4]، والفَسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ، وفَسَدَ يفسُدُ، وأَفْسَدْتُهُ[5]، والفَسادُ: خُروجُ الشَّيءِ عَنِ الاعْتِدالِ، قَليلًا كانَ الخروجُ عنهُ، أو كثيرًا[6]، والفَسادُ: الجَدْبُ في البَرِّ، والقَحْطُ في البَحْرِ، وفَسَدَ الشَّيْءُ: بَطَلَ واضْمَحَلَّ، والفَسادُ: ذَهابُ نَفْعِ الشَّيءِ المقصودِ منهُ، أَيْ: تَلَفُهُ وهَلاكُهُ، لحِدَّةٍ ضارَّةٍ، تَسْري في أثنائِه؛ كالجَدْبِ في الأَرْضِ[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمّا وَقَعَتِ المُنازَلَةُ: هَزَمَ طالُوتُ وجيشُه، جالُوتَ وجنودَه، بعونِ اللهِ وتوفيقه، وقَتَلَ داودُ - بيده لشجاعته وقوته وصبره، وكان مع جنود طالوت - قائِدَ العمالقةِ وملكَهم جالُوتَ، وأعطى اللهُ ﷻ داود عليه السلام - بعد ذلك - المُلْكَ والنُّبوةَ في بني إسرائيل، وعَلَّمَهُ ممّا يَشاءُ مِنْ أَنْواعِ العُلومِ، فجَمَعَ لَهُ بَيْنَ ما يُصْلِحُ الدُّنْيا والآخِرَةَ، ثمَّ بَيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى: لولا أنَّه يدفع ببعض الناس - وهم أهل الطاعة له والإيمانِ به - بعضًا، وهم أهل المعصية لله والشركِ به، لفسدت الأرض بغلبة الكفر، وتمكُّن الطغيان، وأهلِ المعاصي. فالتَّدَافُعُ بين الخيرِ والشَّرِّ، وبينَ الحقِّ والباطل، وغير ذلك، مِنْ مَواقع التَّدافع في الحياة، هو الّذي يُحرِّكُ دُولابَ العملِ على هذه الأرضِ، ويَبعَثُ الحياةَ في كلِّ جوانبها، ولو كان النّاسُ على مَنْهَجٍ واحدٍ، ونَمَطٍ واحد، لكانوا شيئاً واحداً، كَكُتْلَةٍ باردةٍ مُتَضَخِّمَةٍ، ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين، بهذا التَّدافُعِ[8].

(1) الفارابيّ، ديوان الأدب: 1/200.
(2) ابن عبّاد، المحيط: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فسد).
(5) الخليل، العين: (فسد).
(6) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فسد).
(8) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 41، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 41.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾:

الجمع بين الدّلالة على المعاني المطويّة، والسَّببيّة

تحتمل الفاءُ أن تكون عاطفةً؛ للدَّلالة على جُمَلٍ محذوفةٍ، يَقتضيها سياقُ الكلامِ والتَّقدير؛ فنَشَبَتِ المعركةُ، والْتَحَمَ الجيشانِ، وتفوَّقَ طالُوتُ وجنودُه، فَهَزموهم بإذن اللّه، وأن تكون فصيحةً، أي: إذا شئت أن تعرف ماذا أسفرت عنه المعركة فقد هزموهم[1].

وللدَّلالة على سُرعة انْتصارِ طالُوتَ وجيشِه على عدوِّهم، وهذا الانْتصارُ أدّى إلى نجاح بني إسرائيلَ في بلاد العَمالِقة، وفيها معنى السَّببيَّةِ، أيْ: بسببِ قُوَّةِ عَزْمِهم، وحُسنِ صبرِهم، وضراعَتِهم إلى ربِّهم؛ هزموهم بإذن اللّه.

سرُّ التَّعبيرِ بالهزيمة دون غيرِها من الألفاظ:

تصويرُ ضعفِ العدوِّ ذي الكثرة الكاثرة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالفعل ﴿فَهَزَمُوهُم﴾: لأنَّ أصلَ الهَزْمِ في اللُّغة: كَسْرُ الشَّيءِ، وثَنْيُ بعضِه على بعضٍ؛ ولذلك: فهذا الفعلُ يُشيرُ إلى كَسْرِ العَدُوِّ، وردِّه ودَحْرِه؛ لأنَّ العَدُوَّ في هُجومه يُشْبِهُ الصَّخْرةَ، فإذا رُدَّ على أعقابه، تكونُ حالُه كالتَّكَسُّرِ بعد الاجتماع، والتَّقَطُّعِ بعد الاتِّصال[2]، ويدل على قوَّةِ العدوِّ وصلابته، ولذلك فإنَّ هزيمةَ العدوِّ غير متوقَّعةٍ، فجاء بالتَّعبيرِ الدَّقيق الذي يحمل معنى المفاجأةِ، وكذلك يدلُّ الهزمُ على الغمزِ، "فَالْهَزْمُ: أَنْ تَغْمِزَ الشَّيْءَ بِيَدِكَ فَيَنْهَزِمَ إِلَى دَاخِلٍ"[3]، وهو معنًى يصوِّر المشهد؛ فكأنَّهم هزموهم بأن دخلوا في باطِنِ جيشِهم؛ فانهزموا إلى داخلٍ، وهو يدلُّ على القوّة والصَّلابة الظَّاهرةِ، والهشاشةِ الباطنةِ في جندِ العدوِّ.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/374.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/907.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هزم).

دفعُ غرورِ المنتصرين منهجٌ تربويٌّ قرآنيٌّ

دَلالةُ قيدِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

وَقَعَتِ الهزيمةُ للأعداء مُقيَّدةً بإذن الله؛ حتّى تُثبِتَ أنَّ النَّصرَ على الأعداء بمَعُونة الله، وكي لا يقعَ الغرورُ من المنتصرين، وعَبَّرَ بلفظ الجلالة، دون لفظ الرَّبِّ؛ لأنَّ المَقامَ يَقتضي العَظَمَةَ والجبروتَ، بخلافِ ما جاءَ عليه التَّعبيرُ في أوّل سورةِ إبراهيمَ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: 1]؛ لأنَّ المَقامَ هناك مَقامُ الإنعام والتَّربية، بإرسال الرّسول، وإنزالِ الكتاب.

إرهاصٌ من إرهاصات داود فيما كان في شأنِه

فائدةُ ذكرِ داود في قولِه: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾:

أخبرَ السِّياقُ عن قتل داود جالوت، في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾، ولم يُسند القتل لطالوت؛ وذلك لإبراز دور الجنديِّ المخلص، وأنَّ الله يُظهر من يشاءُ من عبادِه، وهو إرهاصٌ في شأن داود عليه السلام وما كان له في المستقبل من الملك والنبوة، وفيه تنبيهٌ خطابيٌّ ولفتٌ للأنظارِ لفعل داود في قتل جالوت فيُعلم أنَّه كان في أولئك الجندِ، ولتعليم النَّاسِ أنَّ من يُخلص لله يوصله منازل الكرام.

الملكُ مهما كبُر حجمُه فهو محدودٌ منتهٍ وجودُه لا محالة

سِرُّ التَّعبير بالإيتاء للمُلْك والحكمة، دون الإعطاء:

نَلْحَظُ من خِلالِ تَدَبُّرِ استِعمالِ القُرآنِ لِلَفْظَيِ الإيتاءِ والإعطاءِ، أَنَّ الإيتاءَ خاصٌّ فِيما يُنالُ في الدُّنْيا وهوَ مُحدَّدٌ مَعلُومٌ، والإعطاءَ عَامٌّ فيما يُنالَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ وهو غيرُ مُحدَّدٍ، فاستُعمِلَ الإيتاءُ في إيتاءِ الزَّكاةِ، والآيَاتِ، والبَيِّنَاتِ، والحِكْمَةِ، والعِلْمِ، والإِنْجِيلِ، والزَّبُورِ، والنُّبوَّةِ، والمُلكِ، وزُبرِ الحديدِ، والأُكُلِ، والتَّقوى، وهذه مُحدَّدَةٌ مَعلومَةٌ، وَهِيَ خاصَّةٌ فيما يُنَالُ في الدُّنيا، أَمَّا الإعطَاءُ فَاسْتُعمِلَ في إِعْطَاءِ الكَوْثَرِ، والجزاءِ في الجَنَّةِ، والرِّزقِ، والجزيةِ، وإِعْطَاءِ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وذُكِرَ فِعلُ الإعطاءِ دُونَ مَفعولٍ للإِطلاقِ من مِثْلِ قَوْلِه: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]، وقَوْلِه: ﴿فَأَمَّا

﴿مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل: 5]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وهذه غيرُ مُحدَّدَةٍ، وتَكُونُ عامَّةً في الدُّنْيَا والآخِرَة.

والذي جاءَ في الآيةِ هو الإيتاءُ، ذلك أنَّ الإيتاءَ كان لأمرِ الملك، وهو لا يكون إلّا في الدُّنيا، وهو محدَّدٌ غير مطلق.

نكتةُ قرنِ المُلكِ بالحكمةِ:

تكـريـم الـلـه لـــداود بجمع المفترقِ

جمعَ اللّه تعالى بَيْنَهما؛ لاحتياج المُلْكِ إلى الحكمةِ في إقامة العَدْلِ؛ فالمُلْكُ مِنْ غير حكمةٍ: جَبَروتٌ وطُغيانٌ، وللدَّلالةِ على تكريم اللّه لداودَ، حيث جَمَعَ له ما كان مُتَفَرِّقاً، مِنْ أَمْرِ المُلْك والنُّبُوَّة، فكان المُلْكُ في سِبْطٍ مِنْ أَسْباط بني إسرائيلَ، والنُّبوَّةُ في سِبْطٍ آخرَ، فَجُمِعَ له بينَهما[1].

سِرُّ تقديم المُلك على الحكمة:

بيانُ ترقّي داود عليه السلام، والتَّدرج في نيل السَّعادات

قَدَّمَتِ الآيةُ المُلْكَ على الحكمة؛ لبيانِ تَرَقّي داودَ عليه السلام في معارج السّعادات، والتَّدرُّجُ في مِثْلِ هذا المَقام من الشَّريف إلى الأشْرف، هو التَّرتيبُ الطَّبيعيُّ، ولأنَّ الحكمةَ جاءت بعد المُلْكِ؛ لأنّه كان مَحَلَّ عنايتِهم، وعليه مَدارُ اهتمامِهم، وهو مَحَلُّ سُؤالِهم في قولهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: 247]؛ لذلك قَدَّمَهُ[2].

فائدةُ عطفِ التَّعليمِ على إيتاءِ الملك والحكمة:

عُطِفَ قولُه: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ على قولِه: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ للإشعار بأنَّ العلمَ أمرٌ زائدٌ على الحكمة، وأنَّ الإنسانَ لا يَستغني عن التعلُّم مهما كان- إنْ نَبيًّا وإنْ عَالِمًا -؛ لأنَّ داودَ عليه السلام - مَعَ حُصوله على النُّبوَّة - في حاجةٍ إلى تَعليم اللّه إيّاهُ؛ ولذلك أَمَرَ اللّه نبيّنا صلى الله عليه وسلم أنْ يَلْتَمِسَ المزيدَ من العلم في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا ۝١١٤﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/438، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/307.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/673.

[طه: 114]، وفيه إشارةٌ أيضاً إلى تَعليم اللّهِ داودَ العلومَ الدُّنيويَّةَ، كصِناعة الدُّروع، والتَّقْدير في السَّرْدِ، إضافةً إلى تعليمِه كلامَ الطَّيرِ والنَّمْلِ، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: 11]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80].

دَلالةُ تقييدِ العلمِ بالمشيئةِ في قوله: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾:

سَعَةُ تعليم اللّه لداود، دليلُ الاصطفاءِ والتَّشريف

لم يُذكر مفعول التعليم ولم يُعيَّن، فتعلَّق التَّعليمُ بما يشاءُ اللّه تعليمَه إيَّاه، وفيه إشارةٌ إلى سَعَةِ العلم، وأنّه كثيرٌ مُتَشَعِّبٌ، لا تَحُدُّهُ إلّا مَشيئةُ اللّه وإرادتُهُ، فَعَلَّمَهُ اللّه سِياسةَ المُلْك وأحوالَ النّاسِ، وتَنازُعَ النُّفوسِ، وأحوالَ البُلدان، إلى غير ذلك مِنْ تعليم اللّهِ له، بالنُّبوَّةِ الّتي مَنَحَهُ إيّاها[1]، وفي ذلك دليلٌ على اصطفاء اللّه لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ في أمر العلم، وتشريفٌ له أن يُنزلَه هذه المنزلة.

معنى أداة الشّرط ﴿وَلَوْلَا﴾ في سياقِ الآيةِ:

الحضُّ على مدافعةِ الباطلِ والفسادِ لمنعِ انتشارِه

(لولا) حرفُ امْتناعِ شيءٍ لوجود غيره، أيْ: امتنعَ فسادُ الأرضِ، لأجلِ وُجودِ دَفْعِ النّاسِ بعضَهم ببعضٍ، فلولا هذا الدَّفعُ لفسدتِ الأرضُ، ففيها معنى التَّحريضِ على المدافعةِ، ورفض كلِّ أشكالِ الفسادِ، كي لا يعمَّ في الأرض كلِّها، فالآيةُ الكريمةُ: تأمُرُ أهلَ الخير في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، أنْ يَقِفُوا في وجه أهلِ الشَّرِّ، وأنْ يُقاوموهم، بكُلِّ وَسيلةٍ مِنْ شأنها أنْ تَحُولَ بينَهم، وبينَ الفسادِ والطُّغيان[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

سنَّةُ المدافعةِ من شأنِها إيقافُ حركةِ الفسادِ العالميِّ

اختلَفَ القُرَّاءُ في قراءةِ ﴿دَفْعُ﴾؛ فقرَأَ المَدَنِيَّانِ ويَعْقُوبُ: ﴿دِفَٰعُ﴾ بِكَسْرِ الدَّالِ وَأَلِفٍ بَعْدَ الْفَاءِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: ﴿دَفْعُ﴾ بِفَتْحِ الدَّالِ، وَإِسْكَانِ الْفَاءِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/909.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 1/574.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/230.

والقراءتان متكاملتان متضافرتان غيرُ متدافِعتَيْن؛ فقراءة ﴿دَفۡعُ﴾ تدلُّ على أنَّ اللّه يدفع بسننه التي خلق النَّاسَ عليها بعضَهم ببعضٍ، ومعنى الدفاع في قراءة: ﴿دِفَٰعُ﴾ يكون باستجابة النَّاس لهذه السُّنَّة التي خلقهم اللّه عليها، "وَكَانَ أَبُو عَمْرو يَقُول: إِنَّمَا الدفاع من النَّاس، وَالدَّفْع من اللّه"[1]، ومن شأنِ المدافعةِ - بقطْعِ النَّظرِ عن القائمِ عليها - أن تُنهي الفسادَ، وأن تفتحَ بابًا لأهل الحقِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ النَّاسِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾:

سنَّةُ المدافعةِ عامَّةٌ، ومآلُها على أهل الخير خاصَّةً

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ بلفظِ النَّاسِ، دون المؤمنين أو المسلمين، أو الصَّالحين؛ لبيانِ أنّه لا يوجَدُ أقوامٌ بأَعيانهم للخير، وآخرون للشَّرِّ، فقد يكونُ بعضُ النّاس فيه خيرٌ في بعض النّواحي، فيَدْفَعُ شَرَّ غيرِه في ناحية أخرى، ويكونُ في الآخَر شرٌّ؛ لكنّه يَدْفَعُ به ظُلْمَ الآخَرِ، ويَنْصُرُ الحقَّ، ومِنَ السُّنَنِ الإلهيّةِ: أنْ يُنصَرَ الحقُّ بالأخيار والأشرار؛ فجاء التَّعبيرُ بهذا العُموم، ليَعُمَّ تلك الأحوالَ[2]، وسنَّةُ المدافعةِ عامَّةٌ بين أهل الإسلامِ والكفرِ، لكنَّ مآلَها ونتيجتَها خاصَّةٌ في أهل الإسلامِ.

دلالةُ عطفِ جملةِ الفاصلةِ القرآنيَّة:

عُطفَت الفاصلةُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على ما قبلها؛ للدّلالة على أنّ ذلك التَّنْظيمَ الحكيمَ في أمر التَّدافُعِ، هو مِنْ فَضْلِ اللّه، ورحمتِه، وإنْعامِه على خَلْقِه، وليسَ ذلكَ بواجبٍ عليه سبحانه وتعالى؛ لأنّه خَلَقَ للنّاس عُقولاً، يَعرفونَ بها الخيرَ من الشَّرِّ؛ فإنْ ساروا في طريق الخيرِ والفلاحِ، فَلَهُم ما قَصَدُوا إليه، وإنْ ساروا في طريقِ الشَّرِّ و الفسادِ، فإلى الهاويةِ يَسيرونَ.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

آثر النَّظمُ القرآنيُّ ذكرَ لفظِ: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون المؤمنين أو

---

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات: 140.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/913.

فضل الله يعمُّ العالمين جميعًا دون استثناءٍ أو إقصاءٍ

المسلمين ممَّا يقتضيه ظاهرُ الفهمِ البشريِّ القاصرِ؛ لبيانِ أنَّ فضلَ اللّهِ يعمُّ الجميعَ، وأنَّ رحمةَ اللّه وسعت كلَّ شيءٍ، فقد تَفَضَّلَ اللّه سبحانَه وتعالى بهذا الفَضْلِ، وأَنْعَمَ بهذه النِّعمةِ على خَلْقِهِ، مِنْ دَفْعِ الفسادِ في الأرضِ، وهو امْتِنانٌ يَنْعَمُ به المؤمنونَ والمُشركونَ، والأبرارُ والأشْرارُ على حَدٍّ سواءٍ؛ لأنَّ الفسادَ إذا عَمَّ لا يَسْلَمُ منه أحدٌ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: 25]، والخيرُ إذا تَحَقَّقَ عَمَّ الجميعَ، وقد دَلَّ اخْتيارُ هذا اللَّفْظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على هذه المعاني، الّتي عَمَّ الخيرُ فيها جميعَ النّاسِ، مُؤمنَهم وكافرَهم، للحِفاظ على اسْتقرار الكَونِ[1].

وفي هذا سَبْقٌ عِلْميٌّ للقرآنِ الكريم، حيثُ سَبَقَ عُلماءَ الاجتماع، فيما يُسَمُّونَهُ بتنازُعِ البقاءِ؛ لأنّهم يقولون: إنَّ الحربَ طبيعيَّةٌ في البَشَرِ؛ لأنّها مِنْ فُروعِ سُنَّةِ تَنازُعِ البَقاءِ العامَّةِ، وأنتَ ترى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾، ليسَ نَصّاً فيما يكونُ بالحَرْبِ والقتالِ، كما يدَّعونَ، بَلْ هو عامٌّ لكُلِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ التّنازُعِ بينَ النّاسِ، الّذي يَقْتَضي المُدافعة والمُغالَبَةَ[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/913.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/394.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: 252]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا قَصَّ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ، وما قَبْلَها، قِصَّةَ طالُوتَ وجنودِه، ومُكافأتِهم بالنَّصْرِ لِقاءَ صبرِهم وثباتِهم، وذَكَرَ ما أَكْرَمَ به عَبْدَهُ ونبيَّه داودَ، عليه السلام، مِنَ النُّبوَّةِ والمُلْكِ وسائِرِ النِّعَمِ، ناسَبَ أَنْ يُؤَكِّدَ القِصَّةَ كُلَّها، ويُثَبِّتَها في عقول المؤمنين والمُنْكِرين، على حَدٍّ سواءٍ؛ فجاءَ بهذه الآيةِ، الّتي تُبَيِّنُ أَنَّ ما قَصَصْناهُ علامةٌ ظاهرةٌ مِنْ علاماتِ نُبوَّةِ محمدٍ، صلى الله عليه وسلم، ورسالتِه، فلا مجالَ للإنْكار، ولا للشَكِّ، فالقِصَّةُ مِنْ أوَّلِها إلى آخرِها، بهذه التَّفْصيلاتِ الدَّقيقةِ لأحْداثِها، لا يُمكِنُ الإحاطةُ بها إلّا عن طريقِ الوَحْيِ، الّذي أَنْزَلَهُ اللّه على نبيِّه المصطفى، ورسولِه الخاتَمِ: محمدٍ، صلى الله عليه وسلم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَٰتُ﴾: جَمْعُ آيَةٍ، وهيَ: العَلامةُ، والآيَةُ مِنْ آياتِ اللّه، والجَميعُ: الآيُ، والآيةُ: العِبْرَةُ[1]، والعَلامَةُ الظّاهِرَةُ[2]، والآيَةُ: الشَّيءُ العَجَبُ[3]، فالمرادُ بـ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ هُنا: عَلاماتُ قُدْرتِه، الظّاهرةُ العَجيبَةُ، وعِبَرُه الّتي يُربّي بها عبادَه.

2) ﴿نَتْلُوهَا﴾: فِعْلٌ مُضارِعٌ، جاءَ بصيغَةِ التَّعْظيم، وفِعْلُه الثُّلاثيُّ: تَلا، وتَلا فُلانٌ القُرْآنَ، يَتْلوهُ تِلاوةً، وتَلا الشَّيءَ: تَبِعَهُ تُلُوًّا[4]، وتَلا يَتْلو تِلاوةً، يَعْني: قَرأَ قِراءةً، وتَلا إذا تَبِعَ، فهوَ تالٍ، أَيْ: تابِعٌ[5]، فالتِّلاوةُ هُنا: القِراءةُ بواسطة جبريل[6] عليه السلام.

3) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جَذْرُهُ: (حَقَّ)، والحاءُ والقافُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ

(1) ابن سيده، المحكم: (أي).
(2) الرّاغب، المفردات: (أي).
(3) البندنيجيّ، التّقفية: ص: 705 (باب الياء).
(4) الخليل، العين: (تلو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تلا).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلا).

الشَّيْءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيْءُ: وجَبَ[1]، وأَصْلُ الحَقِّ: المُطابَقَةُ والمُوافَقَةُ[2]، والحَقُّ: الشَّيءُ الثّابِتُ الرّاسِخُ المُتَمَكِّنُ بِشَريعَةٍ صَحيحَةٍ، أَوْ عُرْفٍ عامٍّ مُسَلَّمٍ[3]، وهوَ المَعْنَى المُرادُ هُنا؛ لأَنَّ آياتِ اللّهِ تُتْلَى بِوَحْيٍ صَحيحٍ ثابِتٍ، ويَجِبُ عَلَى الخَلْقِ اتِّباعُه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تِلْكَ آياتُ اللّهِ، الواضِحاتُ البَيِّناتُ، نتلوها عَلَيْكَ - أَيُّها النَّبيُّ ﷺ - بواسطة جبريل عليه السلام؛ مُتَضَمِّنَةً صِدْقًا في الأَخْبارِ، وعَدْلًا في الأَحْكامِ، وإِنَّكَ حَقًّا وصِدْقًا لمِنَ المُرْسَلينَ، مِنْ رَبِّ العالمينَ[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ: ﴿تِلْكَ﴾، دونَ (هذه):

القَصصُ المرويُّ له حكمُ الغائبِ المنقضي

استُعمِل اسمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ في قَوْلِه تَعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، إشارَةً إِلَى القصصِ المذكورِ في الآياتِ السَّابقةِ، ولا شَكَّ أَنَّه آياتٌ باهِرَةٌ، دالَّةٌ عَلَى كَمالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعالَى، وحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِه، وقَدْ قالَ: ﴿تِلْكَ﴾، ولَمْ يَقُلْ: (هَذِهِ)، مَعَ أَنَّ (تلك): يُشارُ بها إِلَى غائِبٍ أو بعيدٍ، لا إِلَى حاضِرٍ قريبٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ القَصَص لَمّا ذُكِرَتْ، صارَتْ بَعْدَ ذِكْرِها كالشَّيْءِ الَّذي انْقَضَى ومَضَى، فكانَتْ في حُكْمِ الغائِبِ، فلِهَذا التّأويلِ قالَ: ﴿تِلْكَ﴾[5]، فاخْتَصَرَ إِعادَةَ القَصَصِ السّابِقَةِ كُلِّها، باسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾، وهَذا مِنْ عَظيمِ الإيجازِ، وصَميمِ البَلاغَةِ.

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بلفظِ: ﴿ءَايَٰتُ﴾، دونَ غيرِها من الألفاظِ:

آثَرَتِ الآيةُ التَّعبيرَ بلفظ: ﴿ءَايَٰتُ﴾، وذلك لأنّها تُطلَقُ في القرآنِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(2) الرّاغب، المفردات: (حق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حقق).
(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 41، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 41.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/208.

الكريم على مَعانٍ عِدَّةٍ؛ فهي بمعنى العلامةِ، وبمعنى: آياتِ القرآن، ومعجزاتِ الرُّسلِ، والعِبرةِ للمُعتَبرين، إلى غير ذلك من المعاني[1]، وهي مُرادَةٌ في الآيةِ، حيث بَيَّنَ اللّه تَعالى: أَنَّ آياته الّتي تُتْلَى، هي جُزْءٌ مِنْ كِتابِهِ الّذي أَنْزَلَهُ، وأتى بِكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِأُمورِ الدِّين، مِنَ التَّوْحيدِ والأَخْلاقِ والدِّياناتِ، وأَحْوالِ الآخِرَة، وقَصَصِ الأَنْبياءِ السّالِفَة، والأُمَمِ الدّارِجَة، وشَيْءٍ صالحٍ مِنَ الأَحْكام، الّتي يُناطُ بها أَكْثَرُ أُمورِ الأُمَّة، وأَطْنَبَ فيها كُلَّ الإِطْناب؛ لِيُؤْذِنَ بِه أَنَّ الكِتابَ كَما أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ في نَفْسِه، مُشْتَمِلٌ عَلى حِكَمٍ وعُلوم، وأَحْكام، يَتَوَقَّفُ عَلَيْها أَمْرُ الرِّسالةِ، ولَمّا أَرادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلى ما بَدَأَ بِه، مِنْ إِثْباتِ نُبوَّتِه ورِسالَتِه، قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، لِيَكونَ كالفَذْلَكَةِ لِسائِرِ ما ذُكِرَ، وكالتَّخَلُّصِ إِلى حَديثِه، صَلَواتُ اللّه عَلَيْه، وأَنَّهُ ﷺ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وأَنَّهُ أَفْضَلُ الرُّسُلِ عَلى سَبيلِ التَّرَقّي، كأَنَّهُ قيلَ: تِلْكَ المذكوراتُ كُلُّها آياتُ اللّه، مُلْتَبِسَةً بالحَقِّ الهادي إِلى صِراطٍ مُسْتَقيم، لِيُقَرَّرَ بها أَمْرُ نُبوَّتِكَ، الّذي ثَبَتَ بالمُعْجِزَةِ القاهِرة، ولِيُعْلَمَ بها أَنَّكَ لَمِنَ المُرسَلينَ، الجامِعينَ بينَ المعجزةِ والوَحي، وأَنّكَ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وواسِطَتِهِمْ؛ لِأَنَّكَ أُعْطيتَ ما أُعْطُوا، وزِدْتَ على ما أُعطوا، وهوَ هَذا الكِتابُ الكَريمُ[2].

إجـمـالُ ذكـرِ المعاني العديدة والـقـصـص الفريدة في لفظٍ جامعٍ

دلالة إسنادِ التِّلاوة إلى الله تعالى:

القرآنُ كلامُ الله يقينًا، لا شُبهةَ فيه ولا تبديل

أُسندتِ التِّلاوةُ إلى اللّه تعالى في قَوْلِه تعالَى: ﴿نَتۡلُوهَا﴾، مع أَنَّ الذي تلاها على سمعِ النَّبيِّ ﷺ هو جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لبيانِ أَنَّ المتلوَّ هو كلامُ اللّه تعالى من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وأَنَّ ما يتلوه عَلَيْهِ السَّلَامُ على الأمَّة هو كلام اللّه تعالى، لاسيَّما أَنَّ الآيات تتكلَّم عن أحداثٍ غيبيَّةٍ، فقد يطرأ عليها التبديل والتَّكذيب، أو قد يُتَّهم ﷺ بأنَّه افتراها؛

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/65.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 3/476.

فإسنادُ التِّلاوةِ إلى اللّه يعيِّن أنَّها صدقٌ تامٌّ وحقٌّ كامل، ولمّا ذَكَرَ تَعالَى: أَنَّهُ تَلا الآياتِ عَلَى نَبيِّهِ، أَعْلَمَ أنَّهُ مِنَ المُرسَلينَ، وأكّدَ ذلك بـ (إنَّ) و (اللّام)، حَيْثُ أَخْبَرَ بِهَذِهِ الآيَةِ، مِنْ غَيْرِ قِراءَةِ كِتابٍ، ولا مُدارَسَةِ أَحْبارٍ، ولا سَماعِ أَخْبارٍ[1]، وهي كذلك تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ لأنَّها أُلقيت عليه، ولجبريل ﵇[2].

تأييدُ النَّبيِّ ﷺ بأسبابِ الثَّباتِ في مواجهةِ أهل البطلان

فائدةُ تقييد التِّلاوة بقيدِ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ مُقيِّداً التِّلاوةَ بهذا اللَّفْظِ؛ لتأكيد نبوَّتِه ﷺ، فيَزْدادَ أهلُ الإيمانِ إيماناً، ويُزولَ الشَّكُّ عنْ أهلِ الكتابِ، ويُؤمنوا بالنَّبيِّ الخاتَمِ ﷺ، و"فيهِ وُجوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ المُرادَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ القصَصِ، أَنْ يَعْتَبِرَ بها مُحَمَّدٌ، ﷺ، وتَعْتَبِرَ بها أُمَّتُهُ في احْتِمالِ الشَّدائِدِ في الجِهادِ، كَما احْتَمَلَها المُؤمنونَ في الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ.

وَثانيها: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أَيْ: بِاليَقينِ الَّذي لا يَشُكُّ فيهِ أَهْلُ الكِتابِ، لِأَنَّهُ في كُتُبِهِمْ، كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَفاوُتٍ أَصْلًا.

وَثالِثُها: إِنّا أَنْزَلْنا هَذِهِ الآياتِ عَلَى وجْهٍ، تَكونُ دالَّةً في نُبوَّتِكَ، بِسَبَبِ ما فيها مِنَ الفَصاحَةِ والبَلاغَةِ.

وَرابِعُهَا: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، أَيْ: يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ نُزولَ هَذِهِ الآياتِ عَلَيْكَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعالَى، ولَيْسَ بِسَبَبِ إِلْقاءِ الشَّياطينِ، ولا بِسَبَبِ تَحْريفِ الكَهَنَةِ والسَّحَرَةِ"[3].

بلاغةُ التّأكيدِ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بأكثرَ من مُؤكِّدٍ:

أكّدَ القرآنُ الكريمُ رسالتَه ﷺ بأكثَرَ مِنْ مُؤكِّدٍ، أَوَّلُها: (إنَّ)، وهي في أصل معناها للتّأكيد، (اللّام) مع حرف الجرِّ (مِن)، في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/596.
(2) الرازي، التفسير الكبير: 6/208.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/209.

قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، و (الجُملةُ الاسميّةُ)، كلُّ ذلك للدَّلالة على أنَّ تلك الآياتِ بُرهانٌ للنُّبوَّة، ومُعجزةٌ لرسالة نبيِّنا ﷺ.

نكتةُ خِطاب الله لرسوله المباشر:

التنويه بشأنِ النَّبيِّ ﷺ وتثبيتُ قلبِه

خاطَبَ اللهُ رسولَه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تَنْويهاً بشأنه، وتَثْبيتاً لقلبه، وَجِيءَ بِقَوْلِهِ ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ دُونَ أَنْ يَقُولَ: وَإِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّه، لِلرَّدِّ عَلَى الْمُنْكِرِينَ بِتَذْكِيرِهِمْ أَنَّهُ مَا كَانَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَهُ كَمَا أَرْسَلَ مَنْ قَبْلَهُ، وَلَيْسَ فِي حَالِهِ مَا يَنْقُصُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/503.

الجُزْءُ الثَّالِثُ

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: 253]

۞ مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُناسَبةُ الآيةِ لما سَبَقَ هيَ بَيانُ تَكرارِ سُنَّةِ المُدافعَةِ بَينَ الأُمَمِ؛ لتثبيتِ الصَّلاحِ ودَفْعِ الفَسادِ، فكما كانَتْ هذهِ السُّنَّةُ في أقْوامِ الأنْبياءِ السَّابقِينَ المَنْصوصِ عَليهم في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]، بَعدَ بيانِ قِصَّةِ طالوتَ واخْتِلافِ بَني إسرائيلَ في مُلْكِهِ عَلَيْهِم، وقَتْلِ داوُدَ جالوتَ، وإيتائِه المُلْكَ والنُّبُوَّةَ، هيَ كذلكَ في أَتْباعِ الرُّسُلِ، فقَولُه تَعالى في الآيَةِ السَّابِقَة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 252]، بَيانٌ لسُنَّةِ المُدافعَةِ بَينَ النَّاسِ إثْرَ بيانِ مِثالٍ عِيانيٍّ، وقَولُه تعالَى في الآيَةِ اللَّاحِقَة: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾، بَيانٌ لاسْتِمْرارِ هَذِهِ السُّنَّةِ في أَتْباعِ الرُّسُلِ، ومِنْ أُولئكَ سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ؛ ففيها أنَّ ما كانَ للأُمَمِ السَّابِقَةِ سَيكُونُ للَّاحِقِين، فيَكونُ مَقصُودُ خِطابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في الآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 252]، التَّنْبيهَ على ما سَيكونُ في قابِلِ الأَيَّامِ لأُمَّتِه، وهذا مَعْنَى ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 252] أيْ: حالُك كحالِ جَميعِ المُرسَلين، فما كانَ لأَتباعِهم سَيكونُ لأَتْباعِك، وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ اللّه تَعالى مِنْ سُنَّتِه أَنْ يَجْعَلَ العاقِبَةَ للمُؤمنِينَ، فهيَ بِشارَةٌ لهذِه الأُمَّةِ، فكَما كانَتِ العاقِبَةُ لداودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ نُبُوَّةً ومُلْكًا وعِلْمًا، فسَتَكونُ لهذِهِ الأُمَّةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَفَعَ﴾: الرَّفْعُ يُسْتَعْمَلُ في القُرْآنِ لعدَّةِ مَعانٍ، فيُقالُ في الأَجْسامِ المَوْضوعَةِ إذا أُعْلِيَتْ عَن مَقَرِّها، نَحْو: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63]، وفي البِناءِ إذا طُوِّلَ، نَحْوَ قَوْلِه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: 127]، وفي الذِّكْرِ إذا نُوِّه به، نَحْوَ قَوْلِه: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الاسْتِعْمالاتِ، والرَّفْعُ في هذِه الآيةِ لِتَشريفِ المَنْزِلَةِ[1]، وهوَ نَقيضُ الذِّلَّةِ والوَضْعِ[2].

2) ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ﴾: قَوَّيْناهُ وَشَدَدْناهُ وأَعَنَّاهُ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الأَيْدِ، وهيَ الشِّدَّةُ والقُوَّةُ، والتَّأْييدُ: مَصْدَرُ أَيَّدْتُه، أيْ: قَوَّيْتُه، والتَّعْبيرُ بالأَيْدِ دونَ القُوَّة؛ لأَنَّ الأَيْدَ هيَ القُوَّةُ الشَّديدَةُ[3]، فالإيادُ: الجَبَلُ الحَصينُ، وتُفيدُ مَعْنى الإحاطَةِ الواقِيَةِ مِنَ الفَسادِ، فإيادُ كُلِّ شَيْءٍ مَا يُقَوَّى بِهِ مِنْ جَانِبَيْهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ كانَ واقِيًا لشَيْءٍ فهُوَ إيادٌ، وَالإِيَادُ: التُّرَابُ يُجْعَلُ حَوْلَ الحَوْضِ والخِباءِ، يُقَوَّى بِه، أَوْ يَمْنَعُ ماءَ المَطَرِ[4].

3) ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾: أَصْلُ الرُّوحِ يَدُلُّ عَلى سَعَةٍ وَفُسْحَةٍ واطِّرادٍ[5]، والرُّوحُ المُقَدَّسَةُ أَي: الرُّوحُ المُطَهَّرَةُ، وَهُوَ جبْريلُ عليه السلام، كما تَقولُ: حاتِمُ الجودِ، ووَصَفَها بالقُدُسِ للكَرامَةِ[6]، وسَمَّى اللّه تَعالى جِبْريلَ روحًا؛ فلَمْ يَقُلْ: (جِبريل)؛ لِسَبَبَيْنِ اثنَيْنِ: الأَوَّلُ: أَنَّهُ كانَ بتَكْوينِ اللّهِ لَهُ رُوحًا مِنْ عِنْدِه[7]، الثَّاني: لتَشْبيهِ جِبْريلَ عليه السلام بِرُوحِ الإِنْسانِ؛ فَهُوَ سَبَبٌ لِحَياةِ القُلوبِ بِالعُلومِ[8]، وَهُوَ سَبَبٌ قائِمٌ عَلى التَّشْبيهِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بَيَانُ فَضيلَةِ عُمومِ الرُّسُلِ؛ بحسب ما منَّ اللّه به عليهم، وبما خصَّهم اللّه به من بين سائر الناس باصطفائهم وإيحائه إليهم، وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى

(1) الراغب، المفردات: (رفع).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (رفع).
(3) الراغب، المفردات: (أيد).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (أيد)، وابن جرير، جامع البيان: 5/379، والزجاج، معاني القرآن: 1/168.
(5) ابن فارس، المقاييس: (روح).
(6) الزمخشري، الكشاف: 1/162.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/322.
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/596.

اللّه، وَبيانُ تَفْضيلِ بَعْضِهم عَلى بَعْضٍ؛ بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة، والنفع العام، فَلَمَّا ثَبَتَ تَفْضيلُ بَعْضِهم ثَبَتَ فَضْلُ جميعِهم، وَقَسَّمَتِ الآيَةُ التَّفْضيلَ إلى ثَلاثَةِ أَقْسام: التَّفضيلُ النَّوْعِيُّ، وهُوَ تَفْضيلُ تَكْليم بَعْضِ الرُّسُلِ، وَيَدْخُلُ موسَى ﷺ دُخولًا أَوَّليًّا، وَالتَّفضيلُ العامُّ، وَهُوَ رَفْعُ بَعْضِ الرُّسُلِ دَرَجاتٍ، وَيَدْخُلُ في ذَلكَ مُحَمَّدٌ ﷺ دُخولًا أَوّليًّا؛ لِرَفْعِهِ على سائرهم درجات، إذ اجتمع فيه من الفضائل ما تفرَّق في غيره، وجمع اللّه له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين، وبعموم رسالته، وخَتْم النبوة به، وتفضيلِ أمته على جميع الأمم، وغير ذلك، وَالتَّفْضيلُ المُعَيَّنُ، وَهُوَ تَفْضيلُ عيسَى ﷺ بإيتَائِهِ البَيِّناتِ، كإبراء مَن وُلد أعمى بإذن اللّه تعالى، ومَن به برص بإذن اللّه، وكإحيائه الموتى بإذن اللّه، وَتَأْييدِهِ بجبريل ﷺ.

وَبَعْدَ بَيانِ فَضيلَةِ الرُّسُلِ، شَرَعَ في بَيانِ تَقاتُلِ أَتْباعِهِمْ مِن بعد ما جاءتهم البينات الموجبة للاجتماع على الإيمان - بَعْدَ انْقسامِهم إلى مُؤْمِنٍ وكافرٍ -، فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، وعَلَّقَ ذَلك بِمَشيئَتِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى، تَحْذيرًا لأَتْباعِ الرُّسُلِ مِنَ الحِيادِ عَنِ الجادَّةِ، وَأَنَّ الثَّباتَ عَلَيْها بِإرادَته سُبْحانَهُ وَتَعالَى، فمشيئة اللّه نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كلُّ سبب، وزال كل موجِب، ولكنَّ اللّه يوفق مَن يشاء لطاعته والإيمان به، ويخذل مَن يشاء، فيعصيه ويكفر به، فهو يفعل ما يشاء ويختار[1].

وفي الآية تَمْهيدٌ للأَمْرِ بالإنْفاقِ الآتي في الآيَةِ اللّاحِقَةِ، فَإنَّ مِنْ مُقْتَضى الإيمانِ بالرُّسُلِ الإنْفَاقَ في سَبيلِ دَعْوَتِهِم.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَديعُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ:

الابْتِداءُ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿تِلْكَ﴾ الدَّالِّ عَلى مَعْنَى البُعْدِ، لِلْإيذانِ بِأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ: الأَوَّلُ: لِبَيانِ عُلُوِّ طَبَقَتِهِمْ، وبُعْدِ مَنْزِلَتِهِم[2]، والثَّاني: "للدَّلالَةِ عَلى الاسْتِحْضارِ حَتَّى كَأَنَّ جَماعَةَ الرُّسُلِ حاضِرَةٌ للسَّامِعِ بَعْدَ ما مَرَّ مِنْ ذِكْرِ عَجيبِ أَحْوالِ بَعْضِهِمْ، وَما

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 42، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 42.

(2) أبو السعود، إرشادُ العقلِ السليم: 1/246.

اجْتِماعُ مَعْنَيَيْ عُلُوِّ الشَّأْنِ وقُرْبِ الذِّكْرِ المُتَقابِلَيْنِ في اسْمِ الإشارَةِ

أَعْقَبَهُ مِنْ ذِكْرِهِمْ عَلى سَبيلِ الإجْمَالِ"[1]، فهِيَ إِشارَةٌ إِلى كَمالِ الرُّسُلِ وعُلُوِّ شَأْنِهم مِن جِهَةٍ، وأَنَّهُمْ حاضِرونَ بِما أُخْبِرَ عَنْهُمْ في الآياتِ السَّابِقَةِ للسَّامِعِ عُمُومًا عَلى قَوْلٍ، أو في آخِرِ الآيَةِ السَّابِقَةِ خُصوصًا عَلى قَوْلٍ آخَرَ[2]، فهُمْ في عُلوِّ شَأْنٍ، وقُرْبِ ذِكْرٍ، وهَذا مِنْ بَديعِ مَحاسِنِ الإشارَةِ في القُرْآنِ الكَريمِ، أَنْ يَجْتَمِعَ مُتَقابِلانِ في دَلالَةِ اسْمِ الإشارَةِ.

دِقَّةُ الاخْتِيارِ تُجَلِّي بَرَاعَةَ المَطْلَعِ وسِرَّ العُدولِ:

التَّناسُبُ البَديعُ بَيْنَ المَطالِعِ، وتَأْكيدُ الوَحْدَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ

لانْتِقَاءِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿*تِلْكَ﴾ بَراعَةُ مَطْلَعٍ، وحُسْنُ اسْتِهْلالٍ؛ فَلَمْ يَقُلْ: (أولئِكَ)، مَعَ أَنَّ مُقْتَضى الظَّاهِرِ، ومُقْتَضى التَّذْكيرِ اللَّفْظيِّ الإشارَةُ بِأُولَئِكَ؛ كَما جاءَ في قَولِه تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: 90]، فعَدَلَ عَنِ اسْمِ الإشارَةِ (أُولئِكَ) إِلى اسْمِ الإشارَةِ ﴿*تِلْكَ﴾، وَذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ:

الأَوَّلُ: مُطابَقةُ مَطْلَعِ الآيَةِ للآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ [البقرة: 252]، وفي ذَلِكَ إِشارَةٌ إِلى تَنْزِيلِ الرُّسُلِ مَنْزِلَةَ الآياتِ المَتْلُوَّةِ عَلى سَيِّدِنا رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وهَذا في غايَةِ الجَمالِ والبَراعَةِ.

الثَّاني: مُعامَلَةُ الرُّسُلِ مُعامَلَةَ الجَماعَةِ، كَأَنَّهُ قيلَ: تِلْكَ الجَماعَةُ الرُّسُلُ[3]، تَأْكيدًا لِمَبْدَأِ الوَحْدَةِ بَيْنَهُم، وهوَ ما يُناسِبُ فاصِلَةَ الآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ [البقرة: 252].

والأَنْسَبُ لِهَذا التَّوْجيهِ أَنْ يَكونَ إِعْرابُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ عَطْفَ بَيانٍ[4]، فلَفْظُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ بَيَّنَ مَعْنى الإشارَةِ، فاسْمُ الإشارَةِ مُبْهَمٌ[5] مُجْمَلٌ،

---

(1) ابنُ عاشور، التحريرُ والتنويرُ: 3/5.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 3/4.

(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/333، والزَّمَخشَري، الكشَّاف: 1/297، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 6/521.

(4) مكي، مشكل إعراب القرآن: 1/136، وابنُ عَطيَّة، المُحرَّرُ الوجيز: 1/338.

(5) مكي، مشكل إعراب القرآن: 1/135.

و﴿ٱلرُّسُلُ﴾ مُبَيِّنٌ لَهُ، ويكونُ خَبَرُ ﴿تِلْكَ﴾ هُوَ ﴿فَضَّلْنَا﴾، فالإِخْبارُ بالتَّفْضيل هوَ مَقْصودُ الابْتِداءِ وفائدَتُهُ، وهوَ الأَنْسَبُ بسياقِ الآيَةِ، إذْ مَدْحُهُمْ قَدْ يَسْتَدْعِي في الذِّهْنِ أنَّهُمْ في رُتْبَةٍ واحِدَةٍ، فكانَ الإِخْبارُ بتَفْضيلِ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ مِمَّا يَدْفَعُ هَذا الوَهْمَ.

مَعْنى اللَّامِ في ﴿ٱلرُّسُلُ﴾:

مَعْنى اللَّامِ الاِسْتِغْراق، أو العهد ليشمل الجماعةَ المذكورةَ قصَصُها في القرآنِ

﴿ٱلرُّسُلُ﴾ جَمْعُ رَسولٍ، وَاللَّامُ في ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ لِلاِسْتِغْراقِ[1]، وهوَ ما يَقْتَضيهِ الظَّاهِرُ، واسْمُ الإشارَةِ الدَّالُّ عَلى جَماعَةِ الرُّسُلِ، وَقيلَ: إنَّها لِلْعَهْدِ، عَلى أَنْ تَكونَ لِلجَماعَةِ المَعْلومَةِ لَهُ ﷺ، أوِ المَذْكورَةِ قِصَصُها في السُّورَةِ[2]، ويكونُ العَهْدُ ذِهْنِيًّا عَلى الاِحْتِمالِ الأَوَّلِ، وذِكْرِيًّا عَلى الاِحْتِمالِ الثَّاني.

بيان الفَرْقِ بَيْنَ صيغَتي الجَمْعِ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾، و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

غالبُ اسْتِعْمالِ جَمْعِ الرُّسُلِ في القُرْآنِ بالاِعْتِبارِ الوَصْفِيِّ، بِخِلافِ جَمْعِ المُرْسَلينَ، فهو بالاِعْتِبارِ الوَظيفِيِّ

اخْتيرَ في النَّظْمِ اسْتِعْمالُ صيغَةِ جَمْعِ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ دُونَ صيغَةِ جَمْعِ اسمِ المَفْعُولِ (المُرْسَلين) - الَّذِي تَقْتَضيهِ صَنْعَةُ اللفظ، فهو فاصِلَةُ الآيةِ السَّابِقَةِ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٥٢﴾ -؛ لأَنَّ سياقَ الآيَةِ حَديثٌ عَنْهُم باعتِبارِ المُفاضَلَةِ فيما بَيْنَهُم، لا باعْتِبارِ وَظيفَتِهِم بأَنَّهم مُرْسَلُونَ لِأَقْوامِهِم، وغالِبُ اسْتِعمالِ القُرآنِ لِصيغَةِ جَمْعِ (الرُّسُلِ) هوَ بالاعْتِبارِ الوَصْفيِّ، لا بالاعْتِبارِ الوَظيفيِّ، مِثلَ قَوله تَعالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]، وقد اجتَمَعت الكَلمتانِ في قوله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]، فدَلَّت كَلِمَةُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ على جماعَةِ الرُّسُل باعتبارِ الوَصْفِ، كما أنَّ كلِمةَ المُرسَلين دَلَّتْ على وَظيفَتِهمُ الدَّعَويّةِ، أيْ: جاءَكَ مِن نَبَئِهم في دَعوَتِهم لِقَومِهم، فسَيَكُونُ لكَ ما كانَ لَهُم.

---

(1) الآلوسي، رُوحُ المَعاني: 3/2.
(2) الآلوسي، روحُ المَعاني: 3/2.

وفَائِدَةٌ أُخرَى: أَنَّ (رَسُولَ) في الاسْتِعمالِ القُرآني يُطلَقُ على الملائِكةِ والبَشَرِ، فهوَ أَعَمُّ مِن (مُرْسَل)؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: 75]، وقَالَ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]، أمَّا (المُرسَلُون) فلا تُطلَقُ إلا عَلى البَشَرِ تَحديدًا.

دِقَّةُ اخْتِيارِ لَفْظَيْ (فَضَّلْنَا) وَ (بَعْضٍ):

بيانُ أنَّ المُفاضَلَةَ بَيْنَ الرُّسُلِ مُفاضَلَةٌ نِسْبِيَّةٌ لا مُطْلَقَةٌ، وإجماليَّةٌ لا تَفصيليَّةٌ

أَخْبَرَتِ الآيَةُ بِالمفَاضَلَةِ بَينَ الرُّسُلِ ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، وهوَ تَفضيلُ بَعْضِهِم بِمَنقَبَةٍ لَيسَتْ لِبَعْضِهِم الآخَرِ[1]، وفُضِّلَ لَفْظُ التَّفضِيلِ على غَيرِهِ؛ كالاِصْطِفاءِ، والاختِيارِ، فلَمْ يَقُلْ: (اصْطَفَيْنَا بَعْضَهُم على بَعْضٍ)، أوِ (اخْتَرنَا بَعْضَهُم عَلى بَعْض)، كما قَالَ في شأْنِ بَنِي إسرائِيلَ: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢﴾ [الدخان: 32]، وذلكَ أَنَّ التَّفضِيلَ يُشْعِرُ بالاشتراكِ في أَصلِ الرِّسَالةِ، وأنَّه كانَ لأَمْرٍ زائِدٍ، فهو تَفضِيلٌ نِسْبِيٌّ لا مُطلَقٌ، إِذْ تَدُلُّ مادَّةُ (فضل) في اللُّغَةِ على "زِيَادةٍ مِنْ مَادَّةِ الشيءِ مُتَميِّزَةٍ عَنْهُ"[2]، وتَفضيلُ بَعْضِ الرُّسُلِ عَلى بَعْضٍ يَدُلُّ على أَمْرَينِ؛ الأَوَّلُ: الاشتراكُ في الفَضِيلَةِ العُظْمى وهي الرِّسَالةُ، الثَّاني: تَمَيُّزُ بَعْضِهم في بَعْضِ الصِّفاتِ على بَعْضٍ، بِخلافِ لَفْظِ الاِصْطِفاءِ فَيَدُلُّ على انْتِقاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، فالمُصْطَفى هوَ الصَّافي مِنَ الأَكدَارِ[3]، وَهذا المَعْنَى غَيْرُ مُرادٍ في المُفاضَلَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ فيمَا بَيْنَهم.

في لفظ (بعض) نأيٌ عن تحديد المفضول، وتعيينه

وانْتِقاءُ لَفْظِ بَعْضٍ في قَوْلِهِ: ﴿بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، لِلنَّأْيِ عَنِ التَّحدِيدِ، وذلكَ في الجُملَةِ دُونَ تَعْيينِ مَفْضُولٍ[4]، وفي هذا الإِجْمالِ اكْتِفاءٌ بِتَفْضيلِ اللهِ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلى بَعْضٍ، دونَ الخَوْضِ

(1) الآلوسي، رُوحُ المَعاني: 3/2.
(2) جَبَل، المُعجَمُ الاشتقَاقي المُؤَصَّل: (فضل).
(3) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/399.
(4) ابنُ عَطيَّة، المُحرَّرُ الوجيز: 1/338.

في التَّفاصِيل، فإنَّ التَّعْبيرَ القُرْآنيَّ لَهُ دَلالَتُهُ البَيانِيَّةُ، وإشارَتُهُ المَعْنَوِيَّةُ المُرادَةُ.

بَلاغَةُ إِسْنادِ الفِعْلِ لِضَميرِ العَظَمَةِ:

بَيانُ أنَّ مَنْ أرسَلَ فَضَّلَ، فلَيسَ للأَتْباعِ إلَّا الاتِّباعُ

وأُسنِدَ فِعْلُ التَّفْضيلِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ ﴿فَضَّلْنَا﴾ فلَم يَقُلْ: (فُضِّلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ) لِمَا فيهِ مِنْ مَزيدِ التَّشْريفِ والتَّفْخيمِ، وأَنَّ تَفضيلَ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ ما كانَ إلَّا بِسابِقِ عِلْمِهِ وحِكْمَتِه، واسْتُعمِلَ حَرْفُ ﴿عَلَىٰ﴾ للاسْتِعْلاءِ المَعْنَوِيِّ[1]، ومُقْتَضاهُ التَّسْليمُ لإرادَةِ المُفَضِّلِ جَلَّ في عُلاه؛ لدَفْعِ مُشاغَبَةِ الأَتْباعِ، وإقامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِم، فكَأَنَّهُ قالَ: إنَّ مَنْ أَرْسَلَ فَضَّلَ، فلَيْسَ للأَتْباعِ إلَّا الاتِّباعُ.

سِرُّ الابْتِداءِ بأَفْضَلِيَّةِ التَّكْليمِ، وبحَرْفِ (مِنْ) دونَ (بَعْضٍ):

تَفْخيمُ أَمْرِ الرُّسُلِ الَّذينَ كُلِّموا، وللإيجازِ اللَّفْظِيّ

ابْتَدَأَ تَقْسيمَ التَّفضيلِ بمَنْ كلَّمَهُ اللهُ؛ لتَفْخيمِ أَمْرِهِ، وأَنَّهُ صاحِبُ مَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ ودَرَجَةٍ عَظيمَةٍ، وابْتَدَأَ بـ (مِنْ) الدَّالَّةِ عَلى التَّبعيضِ[2]، فكأَنَّهُ قالَ: (بَعْضُهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ)، لَكِنْ لا مِنْ جَعْلِ (بَعْضٍ) رَديفَةً لـ (مِنْ)، وإنَّما مِنْ مَعْنَى الكَلامِ[3]، ولِذلِكَ آثَرَ حَرْفَ الجَرِّ لِحُسنِ الابْتِداءِ بِهِ، إذ هوَ مَبدَأُ تَقْسيمِ أَنْواعِ التَّفْضيلِ، فهُوَ دالٌّ عَلى ابْتِداءِ التَّفضيلِ والتَّبْعيضِ، ولَمْ تَأْتِ هَذِهِ الجُمْلَةُ كلاحِقَتِها: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، كَأَنْ يَقولَ: (كَلَّمَ اللهُ بَعْضَهُم)، لتَفْويتِها بَلاغَةَ الجُمْلَةِ الاسْمِيَةِ كَما سَيَأْتي.

فائِدَةُ الالْتِفاتِ من التكلّم إلى الغيبة:

فائِدَةُ الالْتِفاتِ تَفْخيمُ التَّكْليمِ

قَوْلُه تَعالَى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، فيهِ التِفاتٌ وإظْهارُ ما حَقُّهُ الإضْمارُ، وهُما في هذِهِ الآيةِ مُتَلازِمان، أَمَّا الالتِفاتُ فهُوَ التِفاتٌ

(1) ابنُ مالِك، شرح تسهيل الفوائد: 3/162.

(2) عَلامَتُها عِندَ النُّحاةِ جَوازُ الاسْتِغناءِ عَنْهَا بكلمة "بعض"، وَزَعَمَ ابنُ عصفورٍ أَنَّكَ لو جَعَلتَ مكان: (مِنْ) كلمة: (بعضٍ) لكان المعنى واحِدًا، وكَلامُه صحيحٌ نحوًا ولغةً، لا بيانًا وإعجازًا، وقدِ اعْتُرِضَ عليهِ بكلامٍ بديعٍ دقيقٍ في التفريقِ بينَ الحرفِ والكلمةِ، يُنْظر: أبو حيان، التذييل والتكميل: 11/122-123.

(3) ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 6/2888.

عَنِ التَّكَلُّمِ في ﴿فَضَّلۡنَا﴾ إِلى الغَيْبَةِ، وفائِدَتُه تَفْخيمُ التَّكليمِ، وهَذا سِرُّ الابْتِداءِ بِهِ.

سرّ إِظْهارِ ما حَقُّهُ الإِضْمارُ:

عَدَلَ النَّظْمُ الكَريمُ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ "عَنِ الضَّميرِ إِلى التَّعْبيرِ بالظَّاهِرِ، لتَفْخيمِ شَأْنِ هَذِهِ المَنْقَبَةِ"[1]، ولتَرْبِيَةِ المَهابَةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ[2]، وللعِنايَةِ بإِبْرازِ مَعْنى الحُضورِ والخِطابِ مِنْهُ تَعالى للمُتَكَلِّمِ[3].

في الإِظْهار تَرْبِيَةٌ للمَهابَةِ، وتفخيمٌ للمنقبة، وعِنايَةٌ بإِبْرازِ مَعْنى الحُضورِ والخِطابِ مِنْهُ تَعالى للمُتَكَلِّمِ

تَوْجيهُ اختلاف إِعْرابِ جملة ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ إِمَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلى الاسْتِئْنافِ، أَوِ البَدَلِيَّةِ[4]، فمَعْناهُ عَلى الاسْتِئْنافِ: تَفْصيلُ أَنْواعِ التَّفْضيلِ[5]، فالجُمْلَةُ لا مَحَلَّ لَها مِنَ الإِعْرابِ، وأَمَّا حَمْلُهُ عَلى البَدَلِيّةِ فمَعْناهُ الالْتِفاتُ جُمْلَةً إِلى أَنْواعِ التَّفْضيلِ بَيْنَ الرُّسُلِ، وأَنَّها مَقْصودُ الكَلامِ، والإِعْرابانِ مُتَقارِبانِ في المَعْنى، إِذِ التَّفْصيلُ مَقْصودُ الكَلامِ.

وجها الإعراب على (الإِسْتِئْنافِ، أَوِ البَدَلِيَّةِ) مُتَقارِبانِ؛ إِذ تفْصيلُ أَنْواعِ التَّفْضيلِ مَقْصودُ الكَلامِ

فائِدَةُ حَذْفِ المفعول:

حُذِفَ المَفْعولُ في قَوْلِهِ: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، وهُوَ الضَّميرُ العائِدُ عَلى المَوْصولِ[6]؛ لأَنَّ مَبْنى الآيَةِ عَلى الإِجْمالِ، ولَوْ ذُكِرَ المَفْعولُ؛ لاكْتَسَبَ نَوْعَ تَعْيينٍ.

إِيثارُ الحَذْفِ لابْتِنَاءِ الآيَةِ عَلى الإِجْمالِ، لا التعيين

سِرُّ التَّغايُرِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ الاسميّة، والفعليّة:

عَدَلَ أُسْلُوبُ الكَلامِ في قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ عَنِ الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (ومِنْهُم مَنْ رَفَعَهُ

(1) رضا، تفسير المنار: 3/4.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/600.
(4) السمين، الدُّرّ المصون: 2/536.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.
(6) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر: 1/207.

التَّعبيرُ بالاسْمِيّةِ لثُبوتِ المَنْقَبَةِ الذَّاتيّةِ، وبالفِعْليّةِ لبَيانِ تَجَدُّدِ رَفْعِ الدَّرَجاتِ

دَرَجاتٍ)؛ لبَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ، فالأُولَى جُمْلَةٌ اسْمِيّةٌ أَفادَتْ ثُبوتَ تِلْكَ المَنْقَبَةِ عَلى مَدارِ الزَّمانِ، وهيَ مَنْقَبَةٌ ذاتِيّةٌ اتَّسَمَ صاحِبُها بالفَخامَةِ والتَّشْريفِ، والثّانِيَةُ فِعْلِيَّةٌ، أَفادَتْ تَجَدُّدَ أَمْرِها، مِنْ مِثْلِ قَوْلِه تَعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، وقَوْلِه تَعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، وقَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: 130]، وهذا مِن رَفْعِ الدَّرَجاتِ المُتَجَدِّدَةِ عِنْدَ اللّهِ تَعالى.

نكتة إضمار اسم الله الأعظم:

وجه الإضمار دفع قُربِ التِّكرار

جاءَت جُمْلَةُ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، "فِعْلِيَّةٌ مُسْنَدَةٌ لضَميرِ اسْمِ اللّه، لا لَفْظِه، لقُرْبِه، إذْ لَوْ أُسْنِدَ إلى الظّاهِرِ لكانَ: (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّه، ورَفَعَ اللّه)، فكانَ يَقْرُبُ التَّكْرارُ، فكانَ الإضْمارُ أَحْسَنَ"[1].

اتِّساقُ اخْتِيارِ لَفْظِ ﴿وَرَفَعَ﴾ مَعَ لَفْظِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾:

دَلَّتْ كُلُّ مُفْرَدَةٍ عَلى رِفْعَةٍ وشَرَفٍ، فأَكَّدَتْ إحداهما الأُخرَى، وهُوَ دليلُ اتِّساقِ المُفْرَداتِ القُرْآنيّةِ

يُسْتَعمَلُ الرَّفْعُ لتَشْريفِ المَنْزِلَةِ[2]، وهوَ نَقيضُ الذِّلّةِ والوَضْعِ[3]، فمَنْ رَفَعَهُ اللّه فهوَ صاحِبُ الشَّرَفِ المَروم، ومَا أَرْفَعَ التَّعْبيرَ بِـ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في هَذا السِّياقِ! دونَ مُرادِفاتِها كمَنازِلَ، والفَرْقُ بَيْنَهُما أَنَّهُ إذا اعْتُبِرَ الصُّعودُ دُونَ الامْتِدادِ فهيَ الدَّرَجَةُ، ولذَلِك يُعَبَّرُ بها عَنِ المَنْزِلَةِ الرَّفيعَةِ[4]، فاجْتَمَعَ ذِكْرُ الرَّفْعِ والدَّرَجاتِ، بأَنْ دَلَّتْ كُلٌّ مِنْهُما عَلى رِفْعَةٍ وشَرَفٍ، فأَكَّدَتْ كُلُّ مُفْرَدَةٍ مَعْنى الأُخْرى، ويُؤَكِّدُ هَذا المَعْنَى إعْرابُ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بأَنَّها مَنْصُوبَةٌ عَلى المَصْدَرِ؛ "لأَنَّها بمَعْنى الرِّفْعَةِ؛ فكَأَنَّهُ قالَ: ورَفَعْنا بَعْضَهُمْ رَفَعاتٍ"[5]، وهو ممَّا يُؤَكِّدُ اتِّساقَ المُفْرَداتِ في القُرْآنِ الكَريمِ، كَما أَنَّهُ دَلَّتْ مادَّةُ (درج) عَلى

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/602.
(2) الراغب، المفردات: (رفع).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (رفع).
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (رفع).
(5) العكبري، التبيان: 1/201.

المُضِيّ والطَّيِّ[1]، وهذِهِ المَعاني مَلْحوظَةٌ في دَرَجاتِ الرُّسُلِ المُفَضَّلين، فَقَدْ مَضَوْا في دَرَجاتٍ - عَن سائِرِ الخَلْقِ - مطْويٍّ ذِكْرُها عَلى سَبيلِ الإِجْمالِ، زِيادَةً في التَّفْخيمِ والتَّعْظيمِ، وهوَ مِمّا يَنْسَجِمُ مَعَ السِّياقِ.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

وجه اختلاف التعبير؛ لتَبايُنِ حالِ الفَريقَيْن

سَبَبُ اخْتِلافِ التَّعْبيرِ بِـ ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾، المَنْظُوم عَلى هذا المِنْوالِ المُخالِفِ لما جاءَتْ عَلَيْهِ آيَةُ الزُّخْرُفِ: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: 32]؛ لتَبايُنِ حالِ الفَريقَيْن، فآيَةُ البَقَرَةِ في الرِّفْعَةِ الدِّينِيَّة، وآيَةُ الزُّخْرُفِ في الرِّفْعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ واتِّضاعِها[2].

وجه الاختلاف الإِشارَةُ إلى رَفْعِ دَرَجاتِ الرُّسُلِ المُفَضَّلين وَلِتَرْبِيَةِ نُفُوسِ المُخاطَبينَ عَلى الأَدَبِ مَعَهم

للتَّنْويهِ برَفْعِ دَرَجاتِ الرُّسُلِ المُفَضَّلين، مَعَ عَدَمِ التَّعَرُّضِ لِلرُّسُلِ المَفضُولين، وَلِتَرْبِيَةِ نُفُوسِ المُخاطَبينَ عَلى الأَدَبِ مَعَ مَقامِ الرُّسُلِ.

بلاغة إِبْهامِ المُكَلَّمِ والمَرْفوعِ دَرَجاتٍ:

الإِبْهامُ أَبْلَغُ مِنَ التَّعْيينِ، وأَعَمُّ دَلالَةً، وأَقْوى إِشارَةً، وأَمْتَنُ مَدْحًا، وأَرْسَخُ أَثَرًا في نُفوسِ المُخاطَبينَ للرُّسُلِ المُفَضَّلين

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ[3] في تَعْيينِ المُكَلَّمِ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، فَمِنْهُم مَنْ قَصَرَهُ عَلى موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهُوَ الأَشْهَرُ والأَعْرَفُ، ومِنْهُم مَنْ جَعَلَهُ في كُلِّ مَنْ كَلَّمَهُ اللّه تَعالَى، واخْتَلَفوا في تَعْيينِ المَرْفوعِ دَرَجات، فَمِنْهُم مَنْ خَصَّهُ بِسَيِّدِ الخَلْقِ ﷺ، ومِنْهُم مَنْ جَعَلَهُ عامًّا في كُلِّ مَن اخْتَصَّ بِفَضيلَةٍ، فَمَنْ ذَهَبَ إِلى تَعْيينِ المُبْهَمِ؛ عَلَّلَ الإِبْهامَ بِأَنَّهُ "لتَفْخيمِ شَأْنِهِ، كَأَنَّهُ العَلَمُ المُتَعَيِّنُ لِهَذا الوَصْفِ المُسْتَغْني عَنِ التَّعْيينِ"[4].

والَّذي يَقْتَضيهِ النَّظْمُ والسِّياقُ أَنّ الإِبْهامَ مَقْصودُ النَّصِّ، فاسْمُ الإِشارَةِ، واسْتِغْراقُ لَفْظِ الرُّسُلِ المُشارِ إِلَيْهِم - عَلى ما اسْتُظْهِرَ آنِفًا -، ولَفْظُ ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾ و﴿مِّنۡهُم﴾ الدَّالُّ عَلى التَّبْعيضِ، وحَذْفُ المَفْعولِ الدّالّ عَلى المُكَلَّمِ، وخُلُوُّ الكَلامِ مِنْ أَيِّ إِشارَةٍ لَفْظِيَّةٍ

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس: (درج).

(2) الفارسي، الحجة: 3/336.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/4.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/153.

أَوْ سِياقِيّة تَدُلُّ عَلى التَّعْيين، وتَعْيينُ عِيسى ابْنِ مَرْيَمَ عليهما السلام في الجُمْلَةِ التَّالِيَة، كُلُّ ذَلِك يَدُلُّ عَلى أَنَّ الإِبْهامَ مُرادٌ، وما تَقْضي بِهِ بَلاغَةُ النَّظْم أَنْ يَكونَ المُرادُ غَيْرَ مُعَيَّن، فكُلُّ مَنْ كَلَّمَهُ اللّه تَعالَى، وكُلُّ مَنْ رَفَعَهُ دَرَجاتٍ، دَاخِلٌ في التَّفْضيلِ - مِمَّن عَلِمْنا ومَنْ لَم نَعْلَم -، وهُمْ عَلى دَرَجاتٍ كَذَلِك في المُفاضَلَةِ فيمَا بَيْنَهُم، إِذِ الإِبْهامُ أَعَمُّ دَلالَةً، وأَقْوى إِشارَةً، وأَمْتَنُ مَدْحًا، وأَرْسَخُ أَثَرًا في نُفوسِ المُخاطَبينَ للرُّسُلِ المُفَضَّلين.

مدح المواجهة هجاء، والثناء في الوجه قبيح، والإطراء مظنّة الغفلة، والممدوح مستغنى به عن ذكره

وُجِّهَ قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ على أنه إشارة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله. ولَمْ يُصرّح بذكره أو بوصفه، كما فعل بموسى وعيسى عليهما السلام؛ لأنّ مورد كلام اللّه تعالى مورد خطاب الناس فيما بينهم، وهو ما يُستحسن فيه في بعض المواضع أن يُذْكَرَ الممدوحُ المخاطبُ تعريضاً، فيكون أبلغ من التصريح لما جرى من عادتهم أن مدح المواجهة هجاء، والثناء في الوجه قبيح، أو لأن الإطراء قد يدعو إلى الغفلة، أو لكون الممدوح بذلك المدح مستغنى به عن ذكره[1].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ والإنْتِقالِ مِنَ الإِبْهامِ إِلى التَّعْيين:

المُناسَبَةُ بَيْنَ الغَيْبَةِ والمُبْهَمِ تَفْضيلُهُمْ، والتَّكَلُّمِ والمُعَيَّن ذِكْرُهُ، ونُكْتَةُ التَّعْيينِ رَدُّ الغُلُوِّ في شَأْنِهِ

جاءَتْ جُمْلَةُ ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ "فِعْلِيّةً مُسْنَدَةً لضَميرِ المُتَكَلِّم عَلى سَبيلِ الالْتِفات، إِذْ قَبْلَهُ غائِبٌ، وَكُلُّ هَذا يَدُلُّ عَلى التَّوَسُّعِ في أَفانينِ البَلاغَةِ وَأَساليبِ الفَصاحَة"[2]، وحَسُنَ الالْتِفاتُ مِنَ الغَيْبَةِ إِلى التَّكَلُّم، كَما حَسُنَ الانْتِقالُ مِنْ إِبْهامِ المُكَلَّم والمَرْفوعِ دَرَجاتٍ إِلى تَعْيينِ مَنْ آتاهُ اللّه البَيِّناتِ وَأَيَّدَهُ بِروحِ القُدُس، وهُوَ عيسى عليه السلام، فناسَبَ الإِبْهامَ الغَيْبَةُ، كَما حَسُنَ مَعَ التَّعْيينِ التَّكَلُّمُ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/517.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/602.

نُكْتَةُ تَعْيينِ اسْمِ عيسَى عليه السلام وأُمِّهِ:

نُكْتَةُ تَعْيينِ الاسْمِ الرَّدُّ عَلى أَهْلِ الكِتابَيْنِ تَفْريطَهُمْ في إنْكارِ رِسالَتِهِ وإِفْراطَهُمْ في أُلوهِيَّتِهِ

وعُيِّنَ اسْمُ عيسى عليه السلام، مَعَ أَنَّ سائِرَ الرُّسُلِ أُيِّدوا بالبَيِّناتِ وبروح القُدُسِ، أَنَّ ما آتاه الله لَمّا كانَ مُشْتَرَكًا كانَ ذِكْرُهُ بالإِبْهامِ غَيْرَ صَريحٍ في كَوْنِهِ مِمَّنْ فُضِّلَ بِهِ[1]، وَ"لِرَدِّ ما بَيْنَ أَهْلِ الكِتابَيْنِ في شَأْنِهِ عليه السلام مِنَ التَّفْريطِ وَالإِفْراطِ"[2]، "فاليَهودُ أَنْكَروا رِسالَتَهُ ومُعْجِزاتِهِ، والنَّصارى غَلَوْا فزَعَموا أُلوهِيَّتَهُ، ولِأَجْلِ هَذا ذُكِرَ مَعَهُ اسْمُ أُمِّه؛ للتَّنْبيهِ عَلى أَنَّ ابْنَ الإِنْسانِ لا يَكونُ إِلَهًا، وعَلى أَنَّ مَرْيَمَ أَمَةُ اللَّهِ تَعالى لا صاحِبَتَه؛ لأَنَّ العَرَبَ لا تَذْكُرُ أَسْماءَ نِسائِها وإنَّما تَكْني، فيَقولونَ رَبَّةُ البَيْتِ، والأَهْلُ، ونَحْوَ ذَلِكَ ولا يَذْكُرونَ أَسْماءَ النِّساءِ إِلّا في الغَزَلِ، أَوْ أَسْماءَ الإِماءِ"[3].

سِرُّ تَسْمِيَةِ جِبْريلَ بروحِ القُدُسِ:

وجْهُ التّسمية بروحِ القُدُسِ؛ أَنَّهُ روحٌ يَبْعَثُ الحَياةَ في القُلوبِ

معنى ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ بالرُّوحِ المُقَدَّسَةِ أَي: الرُّوحِ المُطَهَّرَة - وهوَ جِبْريلُ عليه السلام -، كما تَقولُ: حاتِمُ الجودِ، ووَصَفَها بالقُدُسِ للكَرامَةِ[4]، وسَمَّى اللَّه تَعالَى جِبْريلَ روحًا؛ فلَمْ يَقُلْ:)جِبْريل(؛ لِسَبَبَيْنِ اثْنَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ كانَ بتَكْوينِ اللهِ لَهُ روحًا مِنْ عِنْدِهِ، مِنْ غَيْرِ وِلادَةِ والِدٍ ولَدَهُ، فسَمَّاهُ روحًا[5]، وهوَ سَبَبٌ حَقيقيٌّ.

الثّاني: مِنْ حَيْثُ إِنَّ الرُّوحَ كما أَنَّهُ سَبَبٌ لحَياةِ الرَّجُلِ، فكَذَلِكَ جِبْريلُ عليه السلام سَبَبٌ لحَياةِ القُلوبِ بالعُلومِ[6]، وهُوَ سَبَبٌ قائِمٌ عَلى التَّشْبيهِ.

(1) رضا، تفسير المنار: 3/7.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/9.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/162.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/322.
(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/596.

وجه إضافة الرّوح إلى القُدُس؛ لأنَّهُ يُطَهِّرُ النُّفوسَ

علّة إضافة الرّوح إلى القدس:

وأُضيفَ الرّوح إلى القُدُسِ؛ لأنَّه "يَنْزِلُ مِنَ اللّهِ تعالى بالقُدُسِ، أيْ: بما يُطَهِّرُ بِهِ نُفوسَ عِبادِهِ مِنَ القُرْآنِ والحِكْمَةِ والفَيْضِ الإلَهِيِّ"(1)، فهُوَ يَبْعَثُ الحَياةَ في القُلوبِ، ويُطَهِّرُ النُّفوسَ، وهذا شَأْنُ الرُّسُلِ المُؤَيَّدينَ، أنَّهُمْ أحياءٌ مُطَهَّرونَ، ومِنْ ثَمَّ هُم مُحْيُونَ غَيْرَهُمْ بالحِكْمَةِ، مُطَهِّرُونَ أَتْباعَهُمْ بالشَّريعَةِ.

وجه بلاغة التَّقابُلِ بيانُ الفَرْقِ بَيْنَ صَفْوَةِ خَلْقِ اللهِ، وعُمومِ الخَلْقِ، وإظْهارُ فَضيلَةِ الرُّسُلِ عَلى عُمومِ الخَلْقِ

فَنُّ التَّقابُلِ بَيْنَ الرُّسُلِ وأَتباعِهِمْ:

بَعْدَ بَيانِ تَفْضيلِ اللّهِ تَعالى بَعْضَ رُسُلِهِ؛ شَرَعَ في بَيانِ تَفْضيلِ بَعْضِ أَتْباعِ رُسُلِهِ؛ فقالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِمَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، وأُسْلوبُ الآيَةِ قَريبٌ مِنْ فَنِّ التَّقابُلِ في عِلْمِ البَديعِ، فقابَلَ بَيْنَ الرُّسُلِ وأَتباعِهِمْ؛ لبَيانِ الفَرْقِ بَيْنَهُمْ، فالمُفاضَلَةُ بَيْنَ الرُّسُلِ حَقيقيَّةٌ، إذْ هِيَ بَيْنَ الفُضَلاءِ، أَمَّا الأَتْباعُ فَهُمْ ما بَيْنَ مُؤْمِنٍ وكافِرٍ، فالمُفاضَلَةُ مَجازيَّةٌ، والتَّقابُلُ اعْتِبارِيٌّ(2)، وتَكْمُنُ بَلاغَةُ التَّقابُلِ في بَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ صَفْوَةِ خَلْقِ اللّهِ المُخْتارينَ لحَمْلِ الرِّسالَةِ، وعُمومِ الخَلْقِ، فبَرَزَتْ فَضيلَةُ الرُّسُلِ عَلى عُمومِ الخَلْقِ.

وجه الحذف تَثْويرُ الذِّهْنِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ، ونُكْتَتُهُ أَنَّ المَشيءَ المَحْذوفَ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَكونَ حاضِرًا لَدى السَّامِعِ

نكتة حَذْفِ مَفْعولِ المَشيئَةِ:

مَفْعولُ المَشيئَةِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ: "لَوْ شاءَ اللّه عَدَمَ اقْتِتالِهِمْ ما اقْتَتَلوا؛ بأَنْ جَعَلَهُم مُتَّفِقينَ عَلى اتِّباعِ الرُّسُلِ المُتَّفِقَةِ عَلى كَلِمَةِ الحَقِّ . . لكَوْنِهِ مَضْمونَ الجَزاءِ"(3)، فالقاعِدَةُ أَنَّ مَفْعولَ المَشيئَةِ "إذا حَذَفْتَهُ بَعْدَ (لَوْ) فهوَ المَذْكورُ في جَوابِها أَبَدًا"(4)، وهِيَ قاعِدَةٌ شِبْهُ مُطَّرِدَةٍ، والمَعْنى: "أَنَّ اللّه شاءَ اقْتِتالَهُمْ فاقْتَتَلوا، وشاءَ اخْتِلافَهُمْ فاخْتَلَفوا،

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (قدس).

(2) التفتازاني، المطول، ص: 653.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.

(4) السبكي، عروس الأفراح: 1/376.

والمَشيئَةُ هُنَا مَشيئَةُ تَكْوينٍ وتَقْديرٍ لا مَشيئَةُ الرِّضا؛ لأَنَّ الكَلامَ مَسوقٌ مَساقَ التَّمَنِّي للْجَوابِ والتَّحْسيرِ عَلى امْتِناعِهِ وانْتِفائِهِ المُفادِ بـ ﴿وَلَوْ﴾"[1]، والبَلاغَةُ في أَنْ يُجاءَ بِهِ كَذلِكَ مَحْذوفًا؛ لِعلم السَّامِعِ أَنَّ المُتَكَلِّمَ قَدْ عَلَّقَ هَذِهِ المَشيئَةَ في المَعنى بشَيْءٍ، فهُوَ يَضَعُ في نَفْسِهِ أَنَّ هَهُنا شَيْئًا يَقْتَضي المُتَكَلِّمُ مَشيئَتَهُ لَهُ أَنْ يَكونَ أَوْ أَنْ لا يَكونَ[2]، وفائِدَتُهُ إثارَةُ ذِهْنِ السَّامِعِ في تَقديرِ المَحْذوفِ ليَتَجاوَبَ مَعَ النَّصِّ.

بَلاغَةُ الاسْتِدْراكِ بـ (لكنْ):

تَكْمُنُ بَلاغَةُ الاِسْتِدْراكِ في رَفْعِ مَفْهومِ الكَلامِ السّابِقِ؛ لا لإِلْغائِهِ، بَلْ لتَمَحُّضِهِ في بَيانِ عِلَّةِ الاِقْتِتالِ

الاِسْتِدراكُ هُوَ نِسْبَةُ حُكْمٍ يُخالِفُ المَحْكومَ عَلَيْهِ قَبْلَهُ[3]، واحتلَّ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ مَوْقِعًا بَديعًا، فهُوَ "واقِعٌ بَيْنَ ضِدَّيْنِ، إِذِ المَعْنى: ولَوْ شاءَ اللّه الاتِّفاقَ لَاتَّفَقوا، ولَكِنْ شاءَ الاخْتِلافَ فاخْتَلَفوا"[4]فهُوَ "اسْتِدْراكٌ لِمَا دَلَّ الكَلامُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اقْتِتالَهُمْ كانَ مِن اخْتِلافِهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَ الاخْتِلافَ بقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ والتَّقْديرُ: فاقْتَتَلوا"[5]. وتَكْمُنُ بَلاغَةُ الاِسْتِدراكِ ههنا في رَفْعِ مَفْهومِ الكَلامِ السَّابِقِ، لَكِنَّهُ هُنا لا لإِلْغائِهِ، بَلْ لبَيانِ تَمَحُّضِهِ في بَيانِ عِلَّةِ الاقْتِتالِ، وهِيَ الاخْتِلافُ إيمانًا وكُفْرًا.

بَلاغَةُ تَقْديمِ ﴿مَّنْ ءَامَنَ﴾ عَلى ﴿مَّن كَفَرَ﴾:

أَفادَ تَقْديمُ المؤمنِ على الكافرِ أنّ الإيمانَ هُوَ أَصْلُ الفِطْرَةِ، وَالكُفْرُ طارِئٌ عَلَيْها

قُدِّمَ (من آمن) عَلى (من كفر) في قَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾؛ لِأَمْرَينِ وهُما: تَقْديمُ المُؤْمِنينَ؛ لأَنَّهُمْ أَتْباعُ الرُّسُلِ هُوَ الأَنْسَبُ بالسِّياقِ المُتَحَدِّثِ عَنْ تَفاضُلِ الرُّسُلِ، فهَذا سَبَبٌ سِياقِيٌّ، ولأَنَّ الإيمانَ هُوَ أَصْلُ الفِطْرَةِ، وَالكُفْرُ طارِئٌ عَلَيْها، وهَذا سَبَبٌ جِبِلِّيٌّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/11.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 164.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 615.
(4) السمين، الدر المصون: 2/537.
(5) العكبري، التبيان: 1/202.

وفائدة التقديم أيضًا أنَّ مَنْ كَفَرَ هُوَ سَبَبُ الاخْتِلافِ المُؤَدِّي إلى الاقْتِتالِ

وأَفادَ التَّقديمُ مَعَ مَجْموعِ السِّياقِ نُكْتَةً بيانِيَّةً وهِيَ أَنَّ المُخالِفَ للأَصْلِ الطَّارِئَ هُوَ سَبَبُ الاخْتِلافِ المُؤَدِّي إلى الاقْتِتالِ، وأَنَّه لَو بَقِيَ عَلَى إيمانِهِ لَما اقْتَتَلَ الفَريقانِ.

بَلاغَةُ تكْرارِ جملة المشيئة:

فائِدَةُ التَّكْرارِ تَأْكيدُ الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ، والتَّمْهيدُ لِلّاحِقَةِ

التَّكْرارُ الَّذي لا يُضيفُ فائِدةً مَعْنَوِيَّةً لا وُجودَ لَهُ في النَّظْمِ الكَريمِ، وإذا أُعيدَتْ أَلفاظٌ وجُمَلٌ إِثْرَ أُخْرى مُشابِهَةٍ لها لَفْظًا فلَها مَقْصَدٌ بَيانيٌّ كإرادَةِ التَّأْكيدِ والإِفْهامِ[1]، وقَدْ أَفادَ تَكْرارُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ التَّأْكيدَ[2]، والتَّمْهيدَ ليُبْنى عَلَيْهِ ما بَعْدَهُ[3]، وهَذَا لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الاتِّساقِ المَتينِ بَيْنَ المَعاني.

وجه تناسب الكلام واقتران كلِّه بشكله أنْ يَتْلُو ذِكْرَ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ بالاقْتِتالِ؛ عُمومُ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ

وهُناكَ سِرٌّ أُسْلوبِيٌّ آخَرُ سِوى التَّأْكيدِ أَخَصُّ مِنْهُ، أَضافَهُ ابْنُ المُنَيِّرِ عَلى كَلامِ الزَّمَخْشَرِيِّ، وهُوَ "أَنَّ العَرَبَ مَتى بَنَتْ أَوَّلَ كَلامِها عَلى مَقْصَدٍ، ثُمَّ اعْتَرَضَها مَقْصَدٌ آخَرُ، وأَرادَتِ الرُّجوعَ إلى الأَوَّلِ، قَصَدَتْ ذِكرَه إمَّا بِتِلْكَ العِبارَةِ أَوْ بقَريبٍ مِنْها. وذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَهْيَعٌ مِنَ الفَصاحَةِ مَسلوكٌ، وطَريقٌ مُعَبَّدٌ. وهذِهِ الآيَةُ مِنْ هَذا النَّمَطِ، لَمَّا صُدِّرَ الكَلامُ بأَنَّ اقْتِتالَهُمْ كانَ عَلى وَفْقِ المَشيئَةِ، ثُمَّ طالَ الكَلامُ، وأُريدَ بَيانُ أَنَّ مَشيئَةَ اللّهِ تَعالى كَما نَفَذَتْ في هَذا الأَمْرِ الخاصِّ - وهُوَ اقْتِتالُ هَؤُلاءِ - فهِيَ نافِذَةٌ في كُلِّ فِعْلٍ واقِعٍ، وهُوَ المَعْنَى المُعَبَّرُ عَنْهُ في قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، طَرَأَ ذِكْرُ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ بالاقْتِتالِ؛ لِيَتْلُوَهُ عُمومُ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ؛ لِيَتَناسَبَ الكَلامُ، ويُقْرَنَ كُلٌّ بشَكْلِه، فَهَذا سِرٌّ يَنْشَرِحُ لبَيانِهِ الصَّدْرُ، وَيَرْتاحُ لَهُ السِّرُّ"[4].

بَلاغَةُ فنّ التَّصدير:

ناسَبَتْ فاصِلَةُ الآيَةِ النَّاصَّةُ عَلى عُمومِ الإِرادَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 149.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/298.
(3) ابن جزي، التسهيل: 1/131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/13.
(4) ابن المنير، الانتصاف: 1/298، والآلوسي، روح المعاني: 2/5.

﴿يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مَطْلَعَ الآيَةِ النَّاصَّ عَلى خُصوصِ إرادَةِ التَّفْضِيلِ، ففيهِ رَدُّ الفاصِلَةِ عَلى مَطْلَعِ الآيَةِ، الَّذي يُسَمُّونَهُ في عِلْمِ البَديعِ: التَّصْديرَ[1]، ونُكْتَتُه تَسْليمُ الأَمْرِ كُلِّهِ للهِ فيما يُريدُ، مَعَ ما فيها مِنَ الاِسْتِدراكِ الدَّالِّ عَلى أَنَّ اصْطِفاءَ الرُّسُلِ، وَتَفضيلَ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ، واقْتِتالَ النَّاسِ فيما بَيْنَهُم، مآلُهُ إلى إرادَته سُبْحانَهُ وتَعالى، ولَمَّا كانَتْ إرادَتُهُ عامَّةً في كُلِّ شَيْءٍ وَجَبَ حَذْفُ المَفْعولِ كَما يَقولُ البَيانِيُّونَ[2]، وهُوَ المُناسِبُ للسِّياقِ.

نُكْتَةُ رَدِّ الفاصِلَةِ عَلى مَطْلَعِ الآيَةِ؛ تَسْليمُ الأَمْرِ لإرادَتِهِ سُبْحانَهُ فيما يَفْعَلُ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

نَلْحَظُ مِن خِلالِ تَدَبُّرِ اسْتِعْمالِ القُرْآنِ لِلَفْظَي الإيتاءِ والإِعْطاءِ، أَنَّ الإيتاءَ خاصٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا وهُوَ مُحَدَّدٌ مَعْلومٌ، والإِعْطاءَ عامٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ وهُوَ غَيْرُ مُحَدَّدٍ، فاسْتُعْمِلَ الإيتاءُ في إيتاءِ الزَّكاةِ، والآياتِ، والبَيِّناتِ، والحِكْمَةِ، والعِلْمِ، والإِنْجيلِ، والزَّبورِ، والنُّبُوَّةِ، والمُلْكِ، وزُبَرِ الحَديدِ، والأُكُلِ، والتَّقْوى، وهَذِهِ مُحَدَّدَةٌ مَعْلومَةٌ، وهِيَ خاصَّةٌ فيما يُنالُ في الدُّنْيا، أَمَّا الإِعْطاءُ فاسْتُعْمِلَ في إِعْطاءِ الكَوْثَرِ، والجَزاءِ في الجَنَّةِ، والرِّزْقِ، والجِزْيَةِ، وإِعْطاءِ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وذُكِرَ فِعْلُ الإِعْطاءِ دونَ مَفْعولٍ للإِطْلاقِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِه: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]، وقَوْلِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ [الليل: 5]، وهَذِه غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ، وتَكونُ عامَّةً في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

الإيتاءُ خاصٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا وهوَ مُحَدَّدٌ مَعْلومٌ، والإِعْطاءُ عامٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وهُوَ غَيْرُ مُحَدَّدٍ

وَإِذا قابَلْنا بَيْنَ الزَّكاةِ والجِزْيَةِ لتقابُلِهِما مَثَلًا، نَجِدُ أَنَّ الزَّكاةَ مُحَدَّدٌ مِقْدارُها بِنِسْبَةٍ ثابِتَةٍ لا تَتَغَيَّرُ، أَمَّا الجِزْيَةُ فلَيْسَتْ مُحَدَّدَةً.

(1) ابن المعتز، البديع، ص: 140.
(2) الزركشي، البرهان: 2/396.

إِذْ هِيَ خاضِعَةٌ للسِّياسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، ويَتَغَيَّرُ مِقْدارُها بِحَسَبِ التَّكْييفِ الفِقْهِيِّ، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ جاءَ عَلى اسْتِعْمالِ القُرْآنِ، إِذِ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مُحَدَّدَةٌ مَعْلُومَةٌ للمُخاطَبِ، وهِيَ تَشْمَلُ "المُعْجِزاتِ مِنْ إِحْياءِ المَوْتى ونَحْوِها والإِنْجيلَ؛ لأَنَّ المُعْجِزَ يُبَيِّنُ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ كَما أَنَّ الإِنْجيلَ يُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ شَريعَتِهِ"[1].

التأييد والتقوية:

التَّأْييدُ هُوَ التَّقْوِيَةُ الشَّديدَةُ الواقِيَةُ مِنْ أَيِّ فَسادٍ يُهَدِّدُ المُؤَيَّدَ، وهوَ لَفْظٌ قُرْآنِيٌّ بَليغٌ لا يُؤَدِّي مَعْناهُ لَفْظُ التَّقْوِيَةِ، ويَزْدادُ اسْتِعْمالُ هَذا اللَّفْظِ بَراعَةً أَنْ يَكونَ التَّأْييدُ بِجِبْريلَ عليه السلام، ولأن اختصاص عيسى بجبريل من آكد وجوه الاختصاص، إذ لم يكن لأحد من الأنبياء مثل ذلك، لأنه هو الذي بشَّر مريم بولادته، وتولَّد عيسى بنفخه، وربَّاه في جميع الأحوال، وكان يسير معه حيث سار، وكان معه حيث صعد إلى السماء[2]، وبِهِ يَظْهَرُ وَجْهُ تَفْضِيلِ عِيسَى عليه السلام بهذا التأييد.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/595.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/481.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: 254]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ بَيانِ تَفاضُلِ الرُّسُلِ، واخْتِلافِ أَتْباعِهِم، اقْتِتالًا بسَبَبِ الإيمانِ والكُفْرِ، أَمَرَ اللّٰهُ المُؤْمِنينَ بالإنْفاقِ؛ لأَنَّهُ بُرْهانُ الإيمانِ، وحَذَّرَهُم مِنَ الفَوْتِ بَعْدَ المَوْتِ، و"أَصْعَبُ الأَشْياءِ عَلى الإنْسانِ بَذْلُ النَّفْسِ في القِتالِ، وبَذْلُ المالِ في الإنْفاقِ، فلَمَّا قَدَّمَ الأَمْرَ بالقِتالِ؛ أَعْقَبَهُ بالأَمْرِ بالإنْفاقِ"[1]، وفي هَذِهِ المُناسَبَةِ سِرٌّ بَديعٌ، وهُوَ أَنَّ مَنْ أَرادَ أَنْ يَلْحَقَ بالرُّسُلِ، فعَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ مِنْ نَفْسِهِ ومالِهِ بقَدَرِ إيمانِهِ بِهِمْ، فإنَّ الإيمانَ عَمَلٌ لا مُجَرَّدُ دَعْوى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفِقُواْ﴾: ترجع مادَّةُ (نفق) في اللُّغَةِ إلى أَصْلَيْنِ صَحيحَيْنِ، "يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلى انْقِطاعِ شَيْءٍ وذَهابِهِ، والآخَرُ عَلى إخْفاءِ شَيْءٍ وإغْماضِهِ"[2]، والمَعْنَيانِ مُتَقارِبانِ في الاسْتِعْمالِ؛ فإنَّ ذَهابَ الشَّيْءِ خَفاؤُهُ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ نَفَقَتِ الدّابَّةُ إذا ماتَتْ[3]، و"المُرادُ بالإنْفاقِ هُنا ما هُوَ أَعَمُّ مِنَ الإنْفاقِ في سَبيلِ اللّٰهِ"[4].

2) ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾: أَصْلُ الخُلَّةِ يَرْجِعُ إلى دِقَّةٍ أَوْ فُرْجَةٍ، فالخَليلُ الذي يُخالُّكَ؛ كأَنَّكُما قَدْ تَخالَلْتُما؛ كالكِساءِ الَّذي يُخَلُّ[5]؛ فالخُلَّةُ الصَّداقَةُ، والخَلَّةُ الحاجَةُ[6]، والعَلاقَةُ بَيْنَهُما أَنَّ الخَليلَ "الَّذي لَيْسَ في مَحَبَّتِهِ نَقْصٌ ولا خَلَلٌ"[7]، يُلْجَأُ إلَيْهِ عِنْدَ الخَلَّةِ، وسُمِّيَتِ الصَّداقَةُ بالخُلَّةِ لأَنَّها تَتَخَلَّلُ الأَعْضاءَ، أَيْ: تَدْخُلُ خِلالَها، والمُرادُ في الآيَةِ المَصْدَرُ؛ ليَدْخُلَ فيها المُفْرَدُ والجَمْعُ، وكُلُّ مَنِ اتَّصَفَ بأَنَّهُ خَليلٌ، ويَصِحُّ إرادَةُ الصَّديقِ.

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/530.
(2) ابن فارس: المقاييس: (نفق).
(3) الخليل، العين: (نفق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(5) ابن فارس: المقاييس: (خلل).
(6) أبو عبيد، غريب الحديث: 4/63.
(7) الأنباري، الزاهر: 1/493.

3) ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾: الشِّينُ والفاءُ والعَيْنُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى مُقارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ، مِنْ ذَلِكَ: الشَّفْعُ خِلافُ الوَتْرِ، تَقولُ: كانَ فَرْدًا فَشَفَعْتُهُ، وشَفَعَ فُلانٌ لِفُلانٍ إذا جاءَ ثانِيَهُ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَهُ ومُعينًا لَهُ[1]، والشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إِلى آخَرَ ناصِرًا لَهُ وسائِلًا عَنْهُ، وأَكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ في انْضِمامِ مَنْ هُوَ أَعْلى حُرْمَةً ومَرْتَبَةً إِلى مَنْ هُوَ أَدْنى، ومِنْهُ: الشَّفاعَةُ في القِيامَةِ[2]، كما هُوَ في هَذِهِ الآيَةِ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حـضُّ المؤمنين علـى الإنـفـاق في سبيل الله، لأنَّه من أهم عناصر القوة في الأمة

الآيَةُ نِداءٌ لِلْمُؤْمِنينَ بالبَعيدِ، تَنْبيهًا عَلى أَهَمِّيَّةِ الاسْتِجابَةِ لِلأَمْرِ بالإِنْفاقِ، وسنامه إخراج الزكاة المفروضة، ثم التصدق ممَّا وهب اللّه، وقَدْ بُنِيَ الأَمْرُ بالْإِنْفاقِ عَلى الإيمانِ، وقُوِّيَ بالِامْتِنانِ بأن هذا المال الذي بين أيدى الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم اللّه إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، والتَّحْذير مِنَ النِّسْيانِ، لِيَوْمٍ لا يوجَدُ فيهِ خَلَّانٌ، والبَيْعُ مَحْمُولٌ؛ إمَّا عَلى المُبادَلَةِ والمُعاوَضَةِ، وإمَّا عَلى الافْتِداءِ، والخُلَّةُ والشَّفاعَةُ إمَّا أَنْ يُحْمَلا عَلى ظاهِرِهِما حيث لا صداقة صديق تُنقذكم، ولا شافع يملك تخفيف العذاب عنكم، وإمَّا عَلى لازِمِهِما في الكَسْبِ؛ كالهَدِيَّةِ والإِقْطاعِ[3]، وهِيَ مَعانٍ يَحْتَمِلُها سِياقُ الآيَةِ، وتَتَّفِقُ في المَقْصودِ بنَفْيِ كُلِّ وَهْمٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُنْقِذَ الإِنْسانَ مِنْ قَهْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ.

والشفاعة المنفية هنا هي التي لا يقبلها اللّه تعالى وهي التي لا يأذن بها، أمَّا شفاعة النبيّ ﷺ فقد أذن اللّه له بها وقبلها منه، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوي في أن النبي ﷺ ستكون له شفاعة في دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين.

(1) ابن فارس: المقاييس: (شفع).
(2) الراغب، المفردات: (شفع).
(3) رضا، تفسير المنار: 15-3/14.

والكافرون هم الظالمون المتجاوزون حدود الله، واخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنَى الكُفْرِ، فمِنْهُمْ مَنْ قالَ بأنَّهُ الاعْتِقاديُّ، الذين ثبت فيه الظلم التامُّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ بأنَّه العمليُّ، والمراد التَّارِكونَ للزَّكاة[1]، ويَصْدُقُ اللَّفْظُ عَلى المَعْنَيَيْنِ، تَشْنيعًا وتَحْذيرًا، ويُؤَيِّدُهُ السِّياقُ.

فالآية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه من أهم عناصر القوة في الأمة، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكافل، وفيها حثٌّ آخر على التعجيل بالإنفاق؛ لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذي تنتهي فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ النِّداءِ في مطلع الآية:

التَّـنْـبـيـهُ عَـلى أَهَـمِّـيَّـةِ الأَمْـرِ المُـتَـحَـدَّثِ عَـنْـهُ، وأَنَّ ما يَعْقُبُهُ أَمْرٌ خَطيرٌ يُعْتَنى بِشَأْنِهِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ خطابٌ للمُؤْمنينَ بأُسْلوبِ نداءِ البَعيدِ؛ للتَّنْبيهِ عَلى أَهَميَةِ الأَمْرِ المُتَحَدَّثِ عَنْهُ، و"أَنَّ ما يَعْقُبُهُ أَمْرٌ خَطيرٌ يُعْتَنى بشَأْنِهِ"[3]، ولِذَلِكَ حَفَّزَهُم بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ وهُوَ وَصْفُ الإيمانِ، فمُقْتَضاهُ الاسْتِجابَةُ للأَمْرِ بالإِنْفاقِ، "وفي الآيَةِ التِفاتٌ شَديدٌ إِلى أَوَّلِ السُّورَةِ، حَيْثُ وَصَفَ المُؤْمنينَ بالإِنْفاقِ مِمَّا رَزَقَهُم، والإِيقانِ بالآخِرَةِ"[4]، وهُوَ رَبْطٌ بَديعٌ يُؤَكِّدُ اتِّصالَ المَعاني ووَثاقَتَها.

دَلالاتُ تَعَلُّقِ الكَلامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ:

تَنَوُّعُ المُتَعَلَّقِ بِهِ يَـدُلُّ عَلى سَعَةِ الدَّلالَـةِ في بَيانِ القِيَمِ التَّرْبَوِيَّةِ والبَيانِيَّةِ

قَوْلُه تَعالى: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَـٰكُم﴾ إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمفعولِ ﴿أَنفِقُواْ﴾ المَحذوفِ؛ أَيْ: أَنْفقوا شَيْئًا مِمَّا رَزَقناكُم، و"المُرادُ بالإِنْفاقِ هُنا ما هُوَ أَعَمُّ مِنَ الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ، ولِذَلِكَ حُذِفَ المَفْعولُ"[5]، وفائِدَةُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/299، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/153، ورضا، تفسير المنار: 3/17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/16.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/581.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/58.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/24.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.

حَذْفِه التَّرغيبُ في الإنْفاقِ بالْمُتَيَسِّرِ المَقْدورِ عَلَيْه، تَرْبِيَةً ارْتِقائِيَّةً في دَرَجاتِ المُنْفِقين. قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ حثٌّ على الإنفاق واستحقاقٌ فيه"[1]. وفي التَّعْبيرِ بالإنْفاقِ إرشادٌ تَرْبَوِيٌّ، فهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ نَفَقَتِ الدَّابَّةُ إذا ماتَتْ[2]، وإنفاقُ المالِ طَريقٌ إلى مَوْتِ حُبِّهِ في النُّفوسِ؛ لإِحْياءِ الإيمانِ، فالمُفْرَدَةُ لَفَتَتِ المُخاطَبينَ إلى ضَرورَةِ الإنْفاقِ لتَقْوِيَةِ الإيقانِ بيومِ القِيامَةِ.

وإمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ قَوْلُهُ: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ بالفِعْلِ نَفْسِهِ[3]، وعَلى الاحْتِمالَيْنِ فإنَّ الأَمْرَ مُتَّجِهٌ إلى إنْفاقِ بَعْضِ ما رُزِقَهُ المُخاطَبونَ.

أفادَتْ نونُ العَظَمَةِ تَفْخيمَ الأَمْرِ، وأَفادَتْ كافُ الخِطابِ الامْتِنانَ

فائدة نونِ العَظَمَةِ وكافِ الخِطابِ:

وجاءَ الفِعْلُ ﴿رَزَقْنَاكُم﴾ بصيغَةِ التَّكَلُّمِ وبنونِ العَظَمَةِ تَفْخيمًا للأَمْرِ، وأَفادَتْ كافُ الخِطابِ الامْتِنانَ، تَحْفيزًا للهِمَمِ، وتَذْكيرًا بالنِّعَمِ، فالآمِرُ بالإنْفاقِ هُو الرَّزَّاقُ.

فائدة التّعلّق تَضْمينُ مَعْنَى التَّحْذيرِ

علّة تَعَلُّقِ الجارِّ الثَّاني بالأَمْرِ:

جاءَ قَوْلُه تَعالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ مُتَعَلِّقًا بفِعْلِ الأَمْرِ ﴿أَنفِقُواْ﴾ مُضَمَّنًا مَعْنَى التَّحْذيرِ، فإنَّ الأَمْرَ بالإنْفاقِ قَبْلَ وُقوعِ الواقِعَةِ، مَعَ الجَهْلِ بوَقْتِ وُقوعِها، دَالٌّ عَلى التَّحْذيرِ مِنَ التَّراخي والتَّسْويفِ، فالتَّحْذيرُ دَعْوَةٌ إلى المُسارَعَةِ في الإنْفاقِ قَبْلَ وُقوعِ المَحْذورِ[4].

وفي الجملة حثٌّ إضافيٌّ؛ بالتذكير بيوم القيامة حيث لا عملَ يُزادُ، أو يُستدرك

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ حثٌّ آخرُ بعد قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾؛ لأنّه تذكيرٌ بأنَّ هنالك وقتًا تنتهي الأعمالُ إليه، ويتعذَّرُ الاستدراكُ فيه، وهو يومُ القيامة[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(2) الخليل، العين: (نفق).
(3) السمين، الدر المصون: 2/538.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 2/189.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.

دِقَّةُ النَّظْمِ في تَعَلُّقِ حَرْفَيْنِ بِفِعْلٍ واحِدٍ:

مِنْ بَدِيعِ أُسلوبِ الإقْناعِ في القُرْآنِ: توجيهُ المُخاطَبِ إلى مَعْنَيَيْنِ دَفْعَةً واحِدَةً؛ لِيَسْتَعِينَ بِهِما عَلى المَقْصودِ

يَتَوَخَّى النَّظْمُ الكَريمُ دِقَّةً عَجيبَةً في بَيانِ المَعاني، فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بالفِعْلِ ﴿أَنفِقُواْ﴾ حَرْفانِ؛ أَحَدُهُما لِلتَّبْعيضِ، والثّاني للابْتِداءِ، ولاخْتِلافِ الحَرْفَيْنِ مَعْنًى جازَ التَّعَلُّقُ[1]، ونُكْتَتُهُ تَوْجيهُ المُخاطَبِ إلى مَعْنَيَيْنِ اثْنَيْنِ دَفْعَةً واحِدَةً، الأَوَّلُ: الإنْفاقُ مِنْ رِزْقِ اللهِ، والثّاني: الحَذَرُ مِنْ فُجاءَةِ يَومِ القِيامَةِ؛ لِيَسْتَعِينَ المُخاطَبُ بِأَحَدِهِما عَلى الآخَرِ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ أُسْلوبِ الإقْناعِ في القُرْآنِ الكَريمِ.

قصديّة التَّعْبيرِ بالإتْيانِ دونَ المَجيءِ:

دَلالَةُ الإتْيانِ عَلى سُهولَةِ المجيء، أَوْقَعُ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، وأَشَدُّ تَلاؤُمًا في الإيقاعِ الصَّوْتِيِّ

فَرَّقَ الرّاغِبُ بَيْنَ الإتْيانِ والمَجيءِ، بِأَنَّ الإتْيانَ هُوَ مَجيءٌ بِسُهولَةٍ[2]، ويَتَّسِقُ هَذا المَعْنى مَعَ تَحْذيرِ الآيَةِ مِنْ مُباغَتَةِ إتْيانِ القِيامَةِ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾، وسُهولَةُ الإتْيانِ يَقْتَضي سُرْعَتَهُ كَذَلِكَ، فإنَّ سُرْعَةَ الإتْيانِ وسُهولَتَهُ، أَوْقَعُ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، والتَّعْبيرُ بِفِعْلِ ﴿يَأۡتِيَ﴾ أَشَدُّ تَلاؤُمًا في الإيقاعِ الصَّوْتِيِّ في نَظْمِ الآيَةِ.

دَلالَةُ تَنْكيرِ ﴿يَوۡمٞ﴾:

أَفادَ التَّنْكيرُ التَّعْظيمَ، والوَصْفُ التَّهْويلَ

تَنْكيرُ ﴿يَوۡمٞ﴾ أَفادَ التَّعْظيمَ، ولَوْ كانَ النَّظْمُ: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ القِيامَةِ) لَمَا أَفادَ هَذا البَيانَ، ووَصْفُهُ بِأَنَّهُ ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ أَعْطاهُ مَعْنى التَّهْويلِ، فاجْتَمَعَ لَهُ مَعْنَيانِ وَرَّثا التَّرْهيبَ مِن اقْتِرابِ وُقوعِهِ؛ لِتَرْبِيَةِ النُّفوسِ عَلى مَهابَتِهِ، وحُسْنِ الاسْتِجابَةِ لِما يَقيهِم مِنْ شَرِّهِ.

فائِدَةُ المَخْصوصِ بالذِّكْرِ:

أَفادَ المَخْصوصُ بالذِّكْرِ نَفْيَ العُمومِ لِيُبْطِلَ كُلَّ وَهْمٍ يَظُنُّهُ الإنْسانُ مُنْجِيًا

خَصَّتِ الآيَةُ بالذِّكْرِ البَيْعَ والخُلَّةَ والشَّفاعَةَ، وفائِدَةُ ذَلِكَ أَنَّها أَتَتْ عَلى جَميعِ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ الإنْسانُ لإنْقاذِ نَفْسِهِ، فَنَفَتْهُ لِيُبْطِلَ كُلَّ وَهْمٍ في النَّجاةِ، وهَذا يُؤَكِّدُ مَعْنى التَّحْذيرِ في السِّياقِ، فَوَصْفُ اليَوْمِ

---

(1) السمين، الدر المصون: 2/538.

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (جيء).

بهَذِهِ المَخْصوصاتِ بالذِّكْرِ نَشَأَ عَنْهُ ما يُعْرَفُ بنَفْيِ العُموم، والعُمومُ وإنْ لَمْ يُذْكَرْ بأَلْفاظِه فإنَّهُ ذُكِرَ بمَعْناهُ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ المَخْصوصِ بالذِّكْرِ، أَنْ يُفيدَ نَفْيَ العُمُوم، وسِرُّ اسْتِعْمالِ هَذِهِ المَخْصوصاتِ أَنَّ البَيْعَ يَشْمَلُ الجانِبَ المادِّيَّ، والخُلَّةَ تَشْمَلُ الجانِبَ المَعْنَوِيَّ، والشَّفاعَةَ تَشْمَلُ الجانِبَيْنِ معًا.

بلاغة الكناية في انتفاءِ البيعِ والخلّةِ والشَّفاعة:

بيـان الكنـاية تـعذّر الـتَّـدارك للفائتِ

قال ابن عاشور: "وانتفاءُ البيعِ والخلّةِ والشَّفاعة كنايةٌ عن تعذّر التّدارك للفائت؛ لأنَّ المرءَ يحصلُ ما يعوزُهُ بطرقٍ هي المعاوضة المُعبَّرُ عنها بالبيع، والارْتفاقُ من الغير وذلك بسبب الخُلة، أو بسبب توسّط الواسطة إلى من ليس بخليل"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالخُلَّةِ دون غيرها من الألفاظ:

الخَليلُ ما لَيْسَ في مَحبَّتِهِ نَقْصٌ ولا خَلَلٌ

للتَّعْبيرِ بالخُلَّةِ سِرٌّ لُغَوِيٌّ لَطيفٌ، فالخُلَّةُ الصَّداقَةُ، والخَلَّةُ الحاجَةُ[2]، والعلاقَةُ بَيْنَهُما أَنَّ الخَليلَ "الَّذي لَيْسَ في مَحَبَّتِه نَقْصٌ ولا خَلَلٌ"[3]، يُلْجَأُ إِلَيْهِ عِنْدَ الخَلَّةِ، وسُمِّيَتِ الصَّداقَةُ بالخُلَّةِ لِأَنَّها تَتَخَلَّلُ الأَعْضاءَ، أَيْ: تَدْخُلُ خِلالَها.

نَـفْـيُ الـخُـلّـةِ في الآيَةِ تَرَتَّبَ عَلَيْه نَفْيُ الأَدْنى وهُوَ الصَّديقُ

والفَرْقُ بَيْنَ الخُلَّةِ والصَّداقَةِ أَنَّ الخُلَّةَ تُطْلَقُ عَلى الخَليلِ، وعلى المَصْدَرِ[4]:

أَلَا أَبْلِغا خُلَّتي جابِرًا *** بأَنَّ خَليلَكَ لَمْ يُقْتَلِ[5]

بخِلافِ الصَّداقَةِ فلا تُطْلَقُ عَلى الصَّديق، ونَفْيُ الخُلَّةِ في الآيَةِ تَرَتَّبَ عَلَيْه نَفْيُ الأَدْنى وهُوَ الصَّديقُ، والخُلَّةُ إِذا قُصِدَ بها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(2) أبو عبيد، غريب الحديث: 4/63.
(3) الأنباري، الزاهر: 1/493.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/598.
(5) ابن السكيت، الألفاظ، ص: 339، والبيت لأوفى بن مطر المازني: (شاعر جاهلي)، لسان العرب، والجمهرة: (خلل).

الخَليلُ فهُوَ "مِنْ إِطْلاقِ المَصْدَرِ على العَيْنِ مُبالَغَةً"[1]، "وليَسْتَوِيَ فيهِ الواحِدُ وغَيْرُهُ، والمُذَكَّرُ وغَيْرُهُ"[2]، وإذا قُصِدَ الصَّداقَةُ فمَعْناهُ المُبالَغَةُ في النَّفْيِ، أَيْ: إذا كانَتِ الصَّداقَةُ مُنْتَفِيَةً فكَيْفَ الصَّديقُ؟! فهِيَ مِنْ بابِ بَيانِ انْقِطاعِ العَلائِقِ على التَّحْقيقِ، وهَذا أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقولَ: ولا خَليلٌ.

بلاغة الاكتفاء في حَذْفِ الجارِّ والمَجْرورِ:

حَذْفُ الجارِّ والمَجْرورِ؛ للاستغناء بالمذكورِ عنهما؛ لدَلالَةِ الأولى عليهما، زيادةً في الإيَاسِ

حُذِفَ الجارُّ والمَجْرورُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ إذِ "التَّقْديرُ: ولا خُلَّةٌ فيه، ولا شَفاعَةٌ فيه، فَحُذِفَ خَبَرُ الثَّانِيَةِ والثَّالِثَةِ؛ لدَلالَةِ الخَبَرِ الأَوَّلِ عَلَيْهِما"[3]، والاكْتِفاءُ[4] لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الإيجازِ البَديعِ، ونُكْتَتُهُ: الدَّلالَةُ بالأَوْلى، زِيادَةً في الإيَاسِ، فلَمَّا نَفَى البَيْعَ في ذَلِكَ اليَوْمِ - وهُوَ مِنْ ضَروريَّاتِ الحَياةِ -، كانَ ما هُوَ مِنْ حاجيَّاتِها ومُحَسِّناتِها - وهُوَ الخُلَّةُ والشَّفاعَةُ - أَوْلى بالنَّفْيِ؛ ليَتَجاوَبَ المُخاطَبُ مَعَ إشاراتِ النَّصِّ.

علّة تَأْخيرِ الجارِّ والمَجْرورِ عَنِ اسْمِ ﴿لَّا﴾:

وجهُ التأخيرِ هنا؛ القَصْدُ إلى نَفْيِ البَيْعِ في الآخِرَةِ، دونَ التَّعْريضِ ببُيوعِ الدُّنْيا

تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ وتَأْخيرُهُ بحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ المَعْنى، وقَدْ تَأَخَّرَ الجارُّ والمَجْرورُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ لأَنَّهُ تَمَحَّضَ إلى نَفْيِ البَيْعِ في الآخِرَةِ، دونَ التَّعْريضِ ببُيوعِ الدُّنْيا، بخِلافِ قَوْلِه تَعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ [الصَّافَّات: 47]، فإنَّها تَعْريضٌ بخَمْرِ الدُّنْيا الَّتي تَغْتالُ العُقولَ[5].

تَوْجيهُ قراءتي الرّفع والنّصب:

قَرَأَ الجُمْهورُ بالرَّفْعِ؛ لأَنَّ المُرادَ بالبَيْعِ والخُلَّةِ والشَّفاعَةِ أَسْماءُ

(1) السمين، الدر المصون: 2/539.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14، ويُنظر: ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلل).
(3) ابن الشجري، الأمالي: 2/66، ويُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 2/606.
(4) الاكْتِفاءُ: "نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ الحَذْفِ، وهُوَ أَنْ يَقْتَضِيَ المَقامُ ذِكْرَ شَيْئَيْنِ بَيْنَهُما تَلازُمٌ وارْتِباطٌ، فَيُكْتَفَى بأَحَدِهِما عَنِ الآخَرِ لنُكْتَةٍ". التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/249.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/34.

وجهُ التَّكامُلِ الدَّلاليِّ نفيُ العمومِ، والوحدة

أَجْناسٍ لا نَكِراتٌ، وقَرَأَ ابْنُ كَثيرٍ وأبو عَمْرٍو ويَعْقوبُ بالفَتْحِ[1] لنَفْيِ الجِنْسِ نَصًّا[2]، ووجه القراءة بالرفع - على أن (لا) عاملة عمل ليس - نفيٌ لجنس البيع، والخلّة، والشّفاعة، ونفي الواحدة منها وليست نصًّا في أحدهما، بل يحتمل الاثنين. أمّا وجهُ النّصب - على أنها لا نافية للجنس - فنفيٌ مستغرِقٌ لجنس المذكورات شاملٌ جميعَها دون نفي الواحدة منها، والجمع بينهما يُبْرِزُ تكامُلَهُما الدَّلاليَّ؛ بتأكيد قراءة النّصبِ - بما أفادته من عموم النفي، واستغراق جنس الموجودات - دَفْعَ احتمالِ نفي الجنس منها دون الواحدة أو نفي الواحدة دون نفي الجنس التي أدّى معناها وجه الرّفع.

بَلاغَةُ الاِحْتِباكِ:

نُكْتَةُ الاِحْتِباكِ كامِنَةٌ في مَدْحِ المُؤْمنينَ إشارَةً، وذَمِّ الكافِرينَ نَصًّا

جُمْلَةُ ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الاِسْتِئْنافِيّةُ النّاشِئَةُ عَنِ النَّفْيِ "تُرْشِدُ إلى أَنَّ التَّقْديرَ: فالَّذينَ آمَنوا يَفْعَلونَ ما أَمَرْناهُم بِهِ؛ لِأَنَّهُمُ المُحِقُّونَ، والكافِرونَ هُمُ المُخْتَصّونَ بِأَنَّهُم الظّالِمونَ، أَيْ: الكامِلونَ في الظُّلْمِ لا غَيْرُهُم"[3]، وعَلى هَذا التَّقْديرِ ففي الآيَةِ احْتِباكٌ، تَقْديرُهُ: فالمُؤْمِنونَ هُمُ المُحِقُّونَ في إِنْفاقِهِمْ، والكافِرونَ هُمُ الظّالِمونَ في امْتِناعِهِم، وفائِدَةُ الاِحْتِباكِ مَدْحُ المُؤْمِنينَ إِشارَةً، وذَمُّ الكافِرينَ نَصًّا، وهَذا مِنْ لُطْفِ الخِطابِ وعَدالَتِهِ.

القَصْرُ بتَعْريفِ الجُزْأَيْنِ:

فائِدَةُ القَصْرِ التَّشْنيعُ عَلى الكافِرينَ، بجَعْلِ كُلِّ ظُلْمٍ غَيْرَ ظُلْمِهِمْ ضَعيفًا لا يُعْتَدُّ بِهِ

قَوْلُه تَعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قَصْرٌ بتَعْريفِ الجُزْأَيْنِ، وفائِدَتُهُ التَّشْنيعُ عَلى الكافِرينَ، "كَأَنَّ كُلَّ ظُلْمٍ غَيْرَ ظُلْمِهِمْ ضَعيفٌ لا يُعْتَدُّ بِهِ"[4]. فالقَصْرُ حَقيقيٌّ ادِّعائِيٌّ بقَصْدِ المُبالَغَةِ[5]، وهَذا مِنْ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/211.
(2) الزركشي، البرهان: 4/352، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/25.
(4) رضا، تفسير المنار: 3/17.
(5) التفتازاني، المطول، ص: 378.

أَبْلَغِ ما يَكونُ في تَقْبيحِ اتِّصافِهِم بالظُّلْم؛ "لِأَنَّ ظُلْمَهُمْ لَمَّا كانَ أَشَدَّ الظُّلْمِ جُعِلوا كَمَنِ انْحَصَرَ الظُّلْمُ فيهِمْ"[1].

وجه التّجْريد في هذا القصر المبالغة في نزع الظُّلْمِ مِنْ مُتَّصِفيهِ، وقَصْرِهِ عَلى الكافِرينَ

والقَصْرُ الحَقيقِيُّ الادِّعائِيُّ يُقارِبُ مَفْهُومَ التَّجْريدِ[2] في عِلْمِ البَديعِ، ومَعْناهُ هُنا تَجْريدُ الظُّلْمِ مِنْ جَميعِ مُتَّصِفيهِ، وجَعْلُهُ مُقْتَصِرًا عَلى الكافِرينَ، والتَّجْريدُ ادِّعاءٌ عَلى سَبيلِ المُبالَغَةِ[3]، فكَأَنَّهُ لا ظالِمَ سِواهُمْ.

فائدة ضمير الفصل:

الإتيان بضمير الفصل لتأكيد وصف الكافرين بكمال ظلمهم

وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾؛ للتَّأْكيدِ، وفائِدَتُهُ وَصْفُ الكافِرينَ "بِأَنَّهُمُ الكامِلونَ في الظُّلْمِ البالِغونَ فيهِ المَبْلَغَ العَظيمَ"[4].

فَصاحَةُ اسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ:

بَيانُ بَشاعَةِ الكُفْرِ، وشَناعَةِ الكُفْرانِ، وهَذا في غايَةِ الفَصاحَةِ المُؤَثِّرَةِ في النُّفوسِ

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنَى الكُفْرِ في هَذا السِّياقِ، فمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إلى أَنَّه الكُفْرُ الاعْتِقادِيُّ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ بأَنَّهُمُ التّارِكونَ الزَّكاةَ[5]، والصَّحيحُ أَنَّ وَصْفَ الكُفْرِ يَصْدُقُ عَلى الكافِرينَ تَصْريحًا، وعلى الجاحِدينَ النِّعَمَ تَلْميحًا، تَعْريضًا وتَهْديدًا وتَغْليظًا بهِم، اسْتِعْمالًا لِلْمُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ، وهُوَ اسْتِعْمالٌ بَديعٌ، فمِنْ حَيْثُ أَفادَ في بَيانِ بَشاعَةِ الكُفْرِ، أَجادَ في بَيانِ شَناعَةِ تَرْكِ الإِنْفاقِ جُمْلَةً، وهَذا في غايَةِ الفَصاحَةِ المُؤَثِّرَةِ في النُّفوسِ؛ فإِنْ عَلِمَ المُخاطَبُ أَنَّهُ مَزْجوجٌ بِهِ في أَصْفادِ الكَفَرَةِ، فمَهْيَعُ الخَلاصِ مَبْسوطٌ لِأَدْنى دَرَجاتِ إيمانِهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/16.
(2) التَّجْريدُ: "أَنْ يُنْتَزَعَ مِنْ أَمْرٍ ذي صِفَةٍ آخَرُ مِثْلُهُ فيها، مُبالَغَةً لكَمالِها فيه". السبكي، عروس الأفراح: 2/256.
(3) القزويني، الإيضاح، ص: 340.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/25.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/299، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/153، ورضا، تفسير المنار: 3/17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/16.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ بَيانِ تَفاضُلِ الرُّسُلِ فيما بَيْنَهُمْ نَصًّا، حَسُنَتِ الإِشارَةُ إِلى أَفْضَلِ آيَةٍ في القُرْآنِ بِذِكْرِها، إِثْرَ الإِشارَةِ إِلى أَفْضَلِ رَسولٍ، والتَّفاضُلُ بَيْنَ الآياتِ بِحَسَبِ المَعْنى والمَوْضوعِ، لا بِحَسَبِ النَّظْمِ والبَلاغَةِ، وهِيَ "إِبانَةٌ مِنَ اللّهِ تَعالى ذِكْرُهُ للمُؤْمِنينَ بِهِ وبِرَسولِهِ، عَمَّا جاءَتْ بِهِ أَقْوالُ المُخْتَلِفينَ في البَيِّناتِ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ الَّذينَ أَخْبَرَنا تَعالى ذِكْرُهُ أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ، واخْتَلَفوا فيهِ، فاقْتَتَلوا فيهِ كُفْرًا بِهِ مِنْ بَعْضٍ، وإِيمانًا بِهِ مِنْ بَعْضٍ"[1].

و"لَمَّا ذَكَرَ فيمَا تَقَدَّمَ مِنْ عِلْمِ الأَحْكامِ ومِنْ عِلْمِ القَصَصِ ما رَآهُ مَصْلَحَةً، ذَكَرَ الآنَ مَا يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ التَّوْحيدِ"[2]، "فَبَعْدَ أَنْ أَمَرَنا تَعالى بالإِنْفاقِ في سَبيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مالٌ فيهِ ولا كَسْبٌ، ولا يُنْجي مِنْ عِقابِهِ فيهِ شَفاعَةٌ ولا فِداءٌ، انْتَقَلَ كَدَأْبِ القُرْآنِ إِلى تَقْريرِ أُصولِ التَّوْحيدِ والتَّنْزيهِ الَّتي تُشْعِرُ مُتَدَبِّرَها بِعَظيمِ سُلْطانِهِ تَعالى، ووُجوبِ الشُّكْرِ لَهُ، والإِذْعانِ لِأَمْرِهِ، والوُقوفِ عِنْدَ حُدودِهِ، وبَذْلِ المالِ في سَبيلِهِ، وتَحولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الغُرورِ والاتِّكالِ عَلى الشَّفاعاتِ والمُكَفِّراتِ الَّتي جَرَّأَتِ النَّاسَ عَلى نَبْذِ كِتابِ اللّهِ وَراءَ ظُهورِهِمْ"[3]. "وأُودِعَتْ هَذِهِ الآيَةُ العَظيمَةُ هُنا؛ لِأَنَّها كالبَرْزَخِ بَيْنَ الأَغْراضِ السَّابِقَةِ واللَّاحِقَةِ"[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/386.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/5.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/20، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17، والآلوسي، روح المعاني: 2/12.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: (حي) الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، فأمَّا الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والموتان، ويسمى المطر حيًّا؛ لأن به حياة الأرض[1]، فالحيُّ هُوَالذي له الحياة الكاملة - المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك- التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص، أو سِنَة، أو نوم، أو مرض، "الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، وبالحَياةِ مَوْصوفًا، لَمْ تَحْدُثْ لَهُ الحَياةُ بَعْدَ مَوْتٍ، ولا يَعْتَرِضُهُ المَوْتُ بَعْدَ الحَياةِ"[2].

2) ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: قوام الأمر بالكسر: نظامه وعماده، والقيوم: اسم من أسماء اللّه تَعَالَى[3]، وهو عَلى وَزْنِ فَيْعول: اجتَمَعَتْ ياءٌ وواوٌ، سُبِقَتْ إحداهُما بالسُّكونِ؛ فقُلِبَتْ وأُدغِمَت[4]، "هوَ القائِمُ الدَّائِمُ بِلا زَوالٍ، ووَزْنُهُ: فَيْعولٌ، مِنَ القِيام، وهُوَ نَعْتُ المُبالَغَةِ في القِيامِ عَلى الشّيْءِ، ويُقالُ: هُوَ القَيِّمُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ بالرِّعايَةِ لَهُ"[5].

ومعناه: الدائم الذي لا يزول، القائم بنفسه، فاستغنى عن جميع مخلوقاته، القائم بغيره؛ فجميع الموجودات مفتقرة إليه في الإيجاد والإعداد والإمداد، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم[6].

3) ﴿سِنَةٌ﴾: "الوَسَنُ: النُّعاسُ، وكَذا السِّنَةُ، ورَجُلٌ وَسْنانٌ"[7]، والوَسَنُ والسِّنَةُ: الغَفْلَةُ والغَفْوَةُ، ورَجُلٌ وَسْنانٌ ووَسِنٌ؛ يُقالُ لتَصَوُّرِ النَّوْمِ مِنْهُ[8]، وهُوَ مِنْ مَبادِئِ النَّوْمِ[9]، والمُرادُ بالسِّنَةِ في الآيَةِ ما يَعْتَري الحَيَّ مِنَ الغَفْوَةِ اليَسيرَةِ التي تُؤَثِّرُ فيه تَأْثيرًا يَسيرًا، وهو منفيٌّ عن اللّه تعالى.

4) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾: الحاءُ والواوُ والطَّاءُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهُوَ الشَّيْءُ يُطيفُ بالشَّيْءِ؛

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حي).
(2) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 80، وينظر السعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 166.
(3) الجوهري، الصحاح: (قوم).
(4) تفسير ابن عرفة: 2/772.
(5) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 81-80.
(6) السعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص: 121.
(7) ابن فارس، المقاييس: (وسن).
(8) الراغب، المفردات: (وسن).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (وسن).

فالحَوْطُ مِنْ حاطَهُ حَوْطًا[1]، وهِيَ تَدُلُّ عَلى الإِحْرازِ والبُلوغِ، "فكُلُّ مَنْ أَحْرَزَ شَيْئًا كُلَّه، وبَلَغَ عِلْمُه أَقْصاه فقَدْ أَحاطَ بِه"[2]، وعَلى التَّمَكُّنِ والحِفْظِ، و"حُطْتُ الرَّجُلَ أَحوطُهُ حَوْطًا: إِذا حَفِظْتُه"[3]، وعَلى الشُّمولِ، "فالإِحاطَةُ تَقْتَضي الحُفوفَ بالشَّيْءِ مِنْ جَميعِ جِهاتِه، والاِشْتِمالَ عَلَيْه"[4].

5) ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: الكرسيُّ في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى الأَصْلِ، فإِنَّ "العَرَبَ تُسَمِّي أَصلَ كُلِّ شَيْءٍ: الكُرْسَ، يُقالُ مِنْهُ: فُلانٌ كَريمُ الكُرْسِ، أَيْ: كَريمُ الأَصْلِ"[5]، "ومادَّةُ (كرس) تَدورُ عَلى القُوَّةِ والاِجْتِماعِ والعَظَمَةِ"[6].

والكُرْسِيُّ قيلَ فيه: إِنَّهُ جِسْمٌ عَظيمٌ يَسَعُ السَّماواتِ والأَرْضَ، وقيلَ: إِنَّه العَرْشِ، وقيلَ: السُّلْطانُ والمُلْكُ، وقيلَ: العِلْمُ[7]، وقالَ القَفَّالُ: "إِنَّ المَقْصودَ مِنْ هَذا الكَلامِ تَصْويرُ عَظَمَةِ اللَّهِ وكِبْرِيائِه"[8].

والصواب أنَّ الكرسيَّ هو موضع قدَمي الله ﷻ، وممَّن قال بهذا القول أبو موسى الأشعري، وابن عباس ﵄، والسُّدي، وأبو عبيد القاسم بن سلَّام، والدارمي، والأزهري، وأكثر أهل العلم، وهو قول أهل السنة[9].

6) ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: الأَوْدُ: في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى المَيْلِ والاِنْحِناءِ[10]، وسَبَبُهُ الثِّقَلُ، فالَّذي يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقيلًا يَميلُ، وقَدْ رَدَّهُ ابنُ فارِسٍ إِلى هَذا حينَ قالَ: "وإِلى هَذا يَرْجِعُ آدَني

(1) ابن فارس، المقاييس: (وسن).
(2) الخليل، العين: (حوط).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حوط).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: (حوط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/402.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 4/33.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 5/402، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/13.
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/13.
(9) عبد الله بن أحمد بن حنبل، كتاب السنة: حديث رقم: (588): 1/303، وابن جرير، جامع البيان: 4/538، والبيهقي، الأسماء والصفات، حديث رقم: (859): 2/296، وقال ابن حجر في فتح الباري: 9/697: "بإسناد صحيح"، وقال الألباني في مختصر العلو، رقم: (75)، ص: 124: "إسناده موقوف صحيح . . رجاله كلهم ثقات معروفون".
والدارقطني، كتاب الصفات، حديث رقم: (57)، ص: 68، والالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: حديث رقم: (928): 2/581، والدارمي، نقض الدارمي على بشر المريسي: 1/414، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرس): 10/32، والذهبي، سير أعلام النبلاء: 10/505، وابن أبي زَمَنِين، أصول السنة: ص: 96.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود)، وابن جرير، جامع البيان: 5/402.

الشَّيْءُ يَؤُودُني، كأَنَّهُ ثَقُلَ عَلَيْكَ حَتَّى ثَنَاكَ وعَطَفَكَ"[1]، وَيَظْهَرُ مِن اسْتِعْمالِ العَرَبِ أَنَّ الأَوْدَ يُطْلَقُ عَلى مَيْلٍ سَبَبُه ثِقَلٌ عَظيمٌ، فمِن ذَلِكَ "المؤْيِد بوَزْن مُعْبِدٍ: الأَمْرُ العَظِيم"[2]، ومِنْهُ المَآوِدُ: الدَّواهي[3]، ومَعْناهُ في الآيَةِ: لا يَمْنَعُهُ ولا يَشُقُّ عَلَيْه.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآية الكريمة أعظمُ آيات القرآن وأفضلها وأجلها، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردًا للإنسان في أوقاته صباحا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، ولَمَّا اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلى نُعوتِ جَلالِهِ وصِفاتِ كِبْرِيائِهِ سُبْحانَهُ، كانَتْ بالِغَةً في الشَّرَفِ إِلى أَقْصى الغاياتِ وأَبْلَغِ النِّهاياتِ[4]، "وفُضِّلَتْ هَذا التَّفْضيلَ لِما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحيدِ اللَّهِ وتَعْظيمِه، وذِكْرِ صِفاتِهِ العُلا، ولا مَذْكُورَ أَعْظَمُ مِنَ اللَّهِ، فَذِكْرُهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ ذِكْرٍ"[5]، ففي آية الكرسي خمسة من أسماء الله ﷻ، وفيها من صفات الله ما يزيد على العشرين صفة.

ابْتَدَأَتِ الآيَةُ باسْمِ اللَّهِ تَعالى لِيَكونَ ما بَعْدَهُ تَعْرِيفًا به، وإِرْسالًا لِما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ، وذَكَرَت خمسة أَسْماءٍ لِلَّه، أعظمها الاسمان الجليلان: الحَيُّ القَيُّومُ، فالحَيُّ هُوَ الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، والقَيُّومُ هُوَ المُتَصَرِّفُ في تَدْبيرِ خَلْقِه عَلى أَفْضَلِ نِظامٍ، وأَكَّدَ ذَلِكَ بأَنْ نَفى عَنْهُ ما يَعْتَري آحادَ البَشَرِ مِن النُّعاسِ والنَّوْمِ، وأَثْبَتَ لَهُ مِلْكِيَّةَ المَوْجوداتِ كُلِّها، فهُو الحَقيقُ بأَنْ يَأْمُرَ ويَمْنَعَ، وهُوَ الَّذي يُحيطُ عِلْمُهُ بكُلِّ شَيْءٍ، ولا يَطَّلِعُ أحد من الخلق على شيء من علمه إلا بما أعلمه الله وأطلعه عليه، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو موضع قدمي الرب ﷻ ولا يعلم كيفيته إلا الله سبحانه، ولا يُثْقِلُه حِفْظُ السَّماواتِ والأَرْضِ؛ لأَنَّهُ العلي بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء.

وسِرُّ تَسْمِيَةِ هَذِهِ الآيَةِ بالكُرْسِيِّ؛ ما يُشيرُ إِلَيْه الكُرْسِيُّ مِنَ التَّمَكُّنِ والعَظَمَةِ والعِلْمِ

---

(1) ابن فارس، المقاييس: 1/155، ويُنظر: الراغب، تفسير الراغب: 1/526، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/24.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود).

(3) الزبيدي، تاج العروس: (أود).

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/5، بتصرف.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 2/607.

والسُّلْطانِ، وهِيَ الَّتي تُصوِّرُ عَظَمَتَه مِنْ خَلْقِ اللّٰهِ تَعالى، فكَذلِكَ هَذِهِ الآيَةُ تُمَثِّلُ عَظَمَتَهُ مِنْ آيِ القُرْآنِ، وهِيَ إشارَةٌ بَديعَةٌ للتَّناسُبِ بَيْنَ خَلْقِ اللّٰهِ وكَلامِهِ، في اختيارِه لأَعْظَمِ آياتِه، اسْمًا مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقاتِه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ الابْتِداءِ بلَفْظِ الجَلالَةِ:

لَـفْـظُ الجَـلالَـةِ أَعْـرَفُ المَعارِفِ، وابْـتُـدِئَ بِـهِ تَـعْـظِـيـمًـا وتَـفْـخِـيـمًـا وتَـعْـرِيـفًـا، وتَـوْطِـئَـةً لِما سَـيَـأْتي مِـنَ النَّظْمِ الكَريمِ

ابْتَدَأَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِلَفْظِ الجَلالةِ، "وجيءَ باسْمِ الذَّاتِ هُنَا لأَنَّهُ طَريقٌ في الدَّلالَةِ عَلى المُسَمَّى المُنْفَرِدِ بهَذا الاِسْمِ، فإِنَّ العَلَمَ أَعْرَفُ المَعارِفِ؛ لعَدَمِ احْتِياجِهِ في الدَّلالَةِ عَلى مُسَمَّاهُ إلى قَرينَةٍ أَوْ مَعونَةٍ"[(1)]، والابْتِداءُ بلفْظِ الجَلالةِ يورِثُ المَهابَةَ في النُّفوسِ، والفَخامَةَ في الصُّدورِ، وهُو تَوْطِئَةٌ مُباركَةٌ لِما سَيُبْنَى عَلَيهِ مِنَ النَّظْمِ الكَريمِ والمَعْنَى السَّليمِ.

بَلاغَةُ الإِخْبارِ بجُملَةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في القُرْآنِ الكَريمِ:

تَـقْـرِيـرُ عَـظَـمَـةِ الـتَّـوْحِـيـدِ بالجُملَةِ النَّاصَّةِ عَـلى ذَلِـكَ اسْـتِـثْـنـاءً بَـعْـدَ نَفْيٍ

لَفْظُ الجَلالَةِ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهِيَ جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بذاتِها، مُكْتَنِزَةٌ بِجَلالِها، تَكَرَّرَتْ في القُرآنِ تِسْعَ مَرَّاتٍ، وهِيَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمْرَان: 2]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ۝٨٧﴾ [النِّساء: 87]، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التَّوْبَة: 129]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طَه: 8]، ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾ [طَه: 14]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ۝٢٦﴾ [النَّمل: 26]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القَصَص: 70]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣﴾ [التَّغَابُن: 13].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17.

وجَميعُ هَذِهِ الآياتِ جاءَتْ في سِياقِ العَقيدَةِ وتَقْريرِها، وهَذا يَدُلُّ عَلى عَظَمَةِ هَذِه الجُمْلَةِ، وأَنَّها بمَكانَةٍ لا تَحْظَى بها جُمْلَةٌ أُخْرى؛ لأَنَّها تَعْريفٌ بوَحْدانيّةِ اللّهِ تَعالى، بالجُمْلَةِ النَّاصَّةِ عَلى ذَلِك، حَصْرًا بالنَّفْيِ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وبالاستِثناءِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾، وأَصلُها: (لا إِلَهَ إِلّا اللّه)، وقُدِّمَ لَفْظُ الجَلالَةِ تَعْظيمًا وتَفْخيمًا، وليَكونَ مُسْنَدًا إِلَيْهِ التَّوْحيدُ تَعْريفًا، فكَأَنَّهُ قيلَ: إِذا أَرَدتَ أَنْ تَعْرِفَ اللّه فاعْلَمْ أَنَّهُ واحِدٌ.

بلاغة نفي الجنس، والاستثناء في مطلع الآية:

أفـادتْ (لا) نفيَ كلِّ أنواع الآلهة المعبودة، وأفـادتْ (إلا) استثناءَهُ تعالى من النَّفي العامّ

قُصِدَ إلى التعبير بـ (لا) النافية للجنس في قوله تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لتحقّق استغراق النفي لجميع الآلهة المعبودة من دون اللّه، وشموله كلّ أنواعها، وأرْدِف بالاستثناء لدفع توهّم دخوله - جل في علاه - ضمن النفي العام.

دَلالَةُ اقْتِرانِ اسْمِ الحَيِّ بالقَيُّومِ:

علّة الاقتران مُعامَلَةُ الإسْمَيْن مُعامَلَةَ التَّركيب، ودلالَتُهُما عَلى سائِرِ الأَسْماءِ

اقْتَرَنَ اسْمُ الحَيِّ بالقَيُّوم في ثَلاثِ آياتٍ، هَذِهِ إِحْداها، وفي مَطْلَعِ سورَةِ آلِ عِمرانَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عِمْرَان: 2]، وفي سُورَةِ طه ﴿۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طَه: 111]، ولَم يَرِدْ في القُرْآنِ اسْمُ القَيُّومِ إِلَّا مُقترِنًا باسْمِ الحَيِّ، فاقْتِرانُ هَذَيْنِ الاسمَيْنِ أَشْبَهُ ما يَكونُ تَرْكيبًا في الاستِعْمالِ القُرْآنيِّ، فهُمَا "يَدُلَّانِ عَلى سائِرِ الأَسْماءِ الحُسْنى مُطابَقَةً وتَضَمُّنًا ولُزومًا"[1].

وجهُ الاقتران بين الاسمين تَنْزيلُ الصِّفَةِ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ

وأَفادَ الاسْمانِ مَعْنى التَّعْليل، فاللّهُ مُسْتَحِقٌّ لإِفْرادِهِ بالتَّوْحيد؛ لأَنَّهُ الحَيُّ القَيُّومُ، فنُزِّلَتِ الصِّفَةُ مِنَ المَوْصوفِ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ مِنَ المَعْلولِ، "فمِنْ ضَرورَةِ اخْتِصاص ذَيْنِكَ الوَصْفَيْنِ بِه تَعالى، اخْتِصاصُ اسْتِحْقاقِ المَعْبوديّةِ بِه تَعالى؛ لاسْتِحالَةِ تَحَقُّقِهِ بدونِهما"[2]، و"لا سَبيلَ إِلى الإِحاطَةِ بشَيْءٍ مِنَ المَسائِلِ المُتَعَلِّقَةِ بالعِلْمِ الإِلَهيِّ إِلَّا

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 110.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/3.

بِوَاسِطَةِ كَوْنِهِ تَعالى حَيًّا قَيُّومًا"[1]، فالحَيُّ هُوَ "الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، وبالحَياةِ مَوْصوفًا، لَمْ تَحْدُثْ لَهُ الحَياةُ بَعْدَ مَوْتٍ، ولا يَعْتَرِضُه المَوْتُ بَعْدَ الحَياةِ"[2]، و"القَيُّومُ: هوَ القائِمُ الدَّائِمُ بلا زَوالٍ، ووَزْنُهُ: فَيْعولٌ، مِنَ القِيامِ، وهُوَ نَعْتُ المُبالَغَةِ في القِيامِ عَلى الشَّيْءِ، ويُقالُ: هُوَ القَيِّمُ على كُلِّ شَيْءٍ بالرِّعايَةِ لَهُ"[3]، "وَمِنْ هَذَيْنِ الأَصْلَيْنِ تَتَشَعَّبُ جَميعُ المَسائِلِ المُعْتَبَرَةِ في عِلْمِ التَّوْحيدِ"[4].

إعْرابُ ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ عَلى الوَصْفِ:

وَجاهَةُ إعْرابِ (الحيّ) وَصْفًا لِلَفْظِ الجَلالَةِ بَيانُ أَهَمِيَّةِ الوَحْدانِيَّةِ، واسْتِقلالُ الجُمْلَةِ

ومِنْ أَوْجَهِ الأَعاريبِ[5] أَنْ يُعْرَبَ الحَيُّ صِفَةً للَفظِ الجَلالَةِ، وعَلَيْهِ يَكونُ غَرَضُ الفَصْلِ بَيْنَ الصِّفَةِ ومَوْصوفِها بالخَبَرِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيانَ أَهميَّةِ الوَحْدانيَّةِ في اعْتِقادِ المُخاطَبِ، وأَنَّها مَدارُ قَبولِ الاعْتِقادِ الصَّحيحِ، وإبرازَ اقْتِرانِ الحَيِّ بالقَيُّومِ نَعْتَيْنِ لَهُ، فإنَّ اقْتِرانَ الصِّفَةِ بالصِّفَةِ تَلازُمًا يَقومُ مَقامَ التَّرْكيبِ الواحِدِ، وهَذا الإعْرابُ يَجْعَلُ الجُمْلَةَ واحِدَةً مُسْتَقِلَّةً، وهُو أَشَدُّ اتِّساقًا، وأَقوى دَلالَةً، وأَوْضَحُ مَعْنًى، قالَ صاحِبُ البَحْرِ المُحيطِ: "وأَجْوَدُها الوَصْفُ، ويَدُلُّ عَلَيْهِ قِراءَةُ مَنْ قَرَأَ: (الْحَيَّ الْقَيُّومَ) بالنَّصْبِ، فقَطَعَ عَلى إِضْمارِ: أَمْدَحُ، فلَوْ لَمْ يَكُنْ وَصْفًا ما جازَ فيهِ القَطْعُ"[6].

وهُوَ المَفْهومُ مِنْ كَلامِ (الكَشَّافِ) حينَ قالَ في بَيانِ تَرَتُّبِ الجُمَلِ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، وأَنَّ البَيانَ مُتَّحِدٌ بالمُبَيَّنِ: "فالأُولى بَيانٌ لقيامِه بتَدْبيرِ الخَلْقِ، وكَونِه مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، غَيْرَ ساهٍ عَنْهُ"[7]، فجَعَلَ قَوْلَه تَعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ بَيانًا لِقَوْلِه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/7.
(2) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 80.
(3) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 81-80.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/6.
(5) في إعْرابِ الحَيِّ مَجْموعَةُ أعاريبَ، فقيلَ: إنَّهُ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ بَدَلٌ مِنْ هُوَ، أَوْ مِنَ "اللَّهُ" تعالى، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذوفٍ، أَيْ: هُوَ، أَوْ مُبْتَدَأٌ والخَبَرُ: لا تَأْخُذُهُ. يُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 609-2/608.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/609، ويُنظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.
(7) الزمخشري، الكشاف: 1/302.

﴿إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾، فمَعْنى الوَصْفِ صَريحٌ في اقْترانِ المُفْرَدَتَيْنِ، فصِيحٌ في تَرْتيبِ الجُمْلَتَيْنِ.

سِرُّ تَأْكيدِ صِفَةِ القَيُّومِ دونَ صِفَةِ الحَيِّ:

جُمْلَةُ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾ بيانٌ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾، مُقَرِّرَةٌ لَمَضمونِها، فهِيَ "كالدَّليلِ على كَوْنِه حَيًّا قَيُّومًا"[1]، ولِذلِكَ فُصِلَتْ ولَمْ تُعْطَفْ، ومَعْنَى بَيانِهَا أَنَّها جاءَتْ نافيَةً لأيِّ مَعْنًى يَخْدِشُ صِفَتَي الحَياةِ والقَيُّوميّةِ عَلى طَريقِ المُقابَلَةِ، فهُوَ "لا يَغْفُلُ عَنْ تَدْبيرِ الخَلْقِ"[2]، وجَعَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذِهِ الجُمْلَةَ تَأْكيدًا لِصِفَةِ القَيُّومِ؛ "لأَنَّ مَنْ جازَ عَلَيْهِ ذَلِكَ اسْتَحالَ أَنْ يَكونَ قَيُّومًا"[3].

نَفْيُ الأَدْنى يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الأَعْلى، وهَذا مِنْ بَديعِ الإيجازِ في فَنِّ التَّقابُلِ في القُرْآنِ الكَريمِ

فالجُمْلَةُ بَيانٌ لِلْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ كُلِّهَا، وتَأْكيدٌ لِصِفَةِ القَيُّومِ، وهَذا مِنْ أَبْلَغِ ما يَكونُ في ارْتِباطِ الجُمَلِ، أَنْ تَجْمَعَ وَظيفَتَيْنِ: بَيانًا لِلْكُلِّ، وتَأْكيدًا لِلْجُزْءِ، والمُقابَلَةُ بَيْنَ القَيُّومِ والنَّوْمِ تَقابُلُ العَدَمِ والمَلَكَةِ، فالنَّوْمُ كَيْفِيَّةٌ عَدَميَّةٌ، وهِيَ عَدَمُ القِيامِ، فإِنْ قالَ قائِلٌ: لماذا لَمْ يَذْكُرْ مُقابِلَ الحَياةِ وهُوَ المَوْتُ؟! كما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]؛ والجَوابُ: أَنَّهُ جاءَ عَلى أُسْلوبِ نَفْيِ الأَعْلى بالأَدْنى، فإذا كانَ النَّوْمُ مُنَزَّهًا عَنْه سُبْحانَهُ، فَكَيْفَ بما هُوَ أَعْلى مِنَ النَّوْمِ؟! وعَلَيْهِ فهَذِهِ الجُمْلَةُ أَكَّدَتْ صِفَةَ القَيُّومِ مُقابَلَةً لَفْظِيّةً، وصِفَةَ الحَيِّ التِزامًا، نَفْيًا للأَعْلى بنَفْيِ الأَدْنى، وهُوَ ما يُفْهِمُهُ كَلامُ البَيْضاوِيِّ: "وَالجُمْلَةُ تَأْكيدٌ لكَوْنِه حَيًّا قَيُّومًا"[4]، وهَذا مِنْ بَديعِ الإيجازِ في فَنِّ التَّقابُلِ في القُرْآنِ الكَريمِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ السِّنَةِ عَلى النُّعاسِ:

تَدَرُّجٌ مِنْ نَفْيِ الأَدْنى، إلى نَفْيِ الأَعْلى، لا لِتَلازُمِهما، بَلْ لِنَفْيِ أَيِّ تَأْثيرٍ مُتَصَوَّرٍ نَفْيًا كُلِّيًّا

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في بَيانِ نُكْتَةِ تَقْديمِ السِّنَةِ عَلى النَّوْمِ، فمِنْهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/725.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/8.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/300.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

مَنْ قالَ: إنَّها مِنْ بابِ مُراعاةِ التَّرْتيبِ الوُجودِيِّ، فلِتَقَدُّمِها عَلى النَّوْمِ في الخارِجِ قُدِّمَتْ عَلَيْهِ في اللَّفْظِ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: إنَّهُ عَلى طَريقِ التَّتْميمِ، وهُوَ أَبْلَغُ لما فيهِ مِنَ التَّأْكيدِ، إذْ نَفْيُ السِّنَةِ يَقْتَضي نَفْيَ النَّوْمِ ضِمْنًا، فإذا نَفى ثانِيًا كانَ أَبْلَغَ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: إنَّ تَأْخيرَ النَّوْمِ رِعايَةٌ لِلْفَواصِلِ[1]، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: التَّرْتيبُ عَلى مُقْتَضى الظَّاهِرِ، إذْ يَكونُ المَعْنى: لا تَغْلِبُه السِّنَةُ، ولا النَّوْمُ الَّذي هُوَ أَكْثَرُ غَلَبَةً مِنْها[2].

وعِنْدَ تَدْقيقِ النَّظَرِ فيما قيلَ، نَجِدُ أَنَّ المُفَسِّرينَ حَصَروا السِّنَةَ فيما هُوَ قَبْلَ النَّوْمِ، باعْتِبارِ الغالِبِ، ومِنْ هُنا نَشَأَ الإشْكالُ، ولأَجْلِهِ اعْتُسِفَ الجَوابُ، والصَّحيحُ أَنَّ تَعَلُّقَ السِّنَةِ بالنَّوْمِ لَيْسَ تَعَلُّقًا لُزومِيًّا، فقَدْ تَكونُ السِّنَةُ ولا يُتْبِعُها نَوْمٌ، وقَدْ يَهْجُمُ النَّوْمُ دونَ مُقَدِّماتِه، والسِّنَةُ في سِياقِ الآيَةِ لا يَصِحُّ أَنْ تَكونَ مُقَدِّمَةَ النَّوْمِ، إذْ لا مَعْنى لنَفْيِها قَبْلَ نَفْيِه؛ لأَنَّها داخِلَةٌ فيهِ ضِمْنًا، ولا يُرادُ هَذا المَعْنى، بَلِ المُرادُ هُوَ نَفْيُ حالَتَيْنِ: الأُولى: ما يُصيبُ الإنْسانَ حالَ اليَقَظَةِ مِن النُّعاسِ الطَّفيفِ الَّذي يُؤَثِّرُ تَأْثيرًا يَسيرًا عَلى تَدْبيرِه، والثَّانِيَةُ: ما يُصيبُ الإنْسانَ مِنَ الثِّقَلِ العَميقِ في النَّوْمِ الَّذي يُفْقِدُه القُدْرَةَ التَّامَّةَ عَلى التَّدْبيرِ، إذَنْ هُوَ نَفْيٌ لحالَتَيْنِ: حَالَةِ التَّأْثيرِ اليَسيرِ عَلى التَّدْبيرِ، وحَالَةِ التَّأْثيرِ التَّامِّ عَلى التَّدْبيرِ، فهُوَ تَدَرُّجٌ مِنْ نَفْيِ الأَدْنى، إلى نَفْيِ الأَعْلى، لا لتَلازُمِهِما، بَلْ لنَفْيِ أَيِّ تَأْثيرٍ مُتَصَوَّرٍ نَفْيًا كُلِّيًّا، وعَلَيْهِ فلا تَلازُمَ بَيْنَهُما في هَذا السِّياقِ.

وَهَذا مَفْهومُ كَلامِ الماتُريدِيِّ حينَ قالَ: "والنَّوْمُ والسِّنَةُ حالانِ تَدُلَّانِ عَلى غَفْلَةِ مَنْ حَلَّا بِهِ، وعَلى حاجَتِهِ إلى ما فيهِ راحَتُهُ، وعَلى عَجْزِهِ، إذْ هُما يَغْلِبانِ ويَقْهَرانِ، فوَصَفَ الرَّبُّ نَفْسَهُ بما يَعْلو عَنِ الَّذي دَلَّا عَلَيْهِ مِنَ الوُجوهِ"[3]. وقالَ ابنُ عَرَفَةَ: "إنَّا نَجِدُ مَنْ يُدافِعُ النَّومَ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ؛ لأَنَّهُ مَهْما تَأْخُذُهُ السِّنَةُ يُدافِعُها ويَغْلِبُها حَتَّى يَأْتِيَهُ النَّوْمُ غَلَبَةً فيَنام؛ فما يَلْزَمُ مِن عَدَمِ السِّنَةِ عَدَمُ النَّوْمِ"[4].

وقالَ ابنُ عاشُور: "ونَفْيُ السِّنَةِ عَنِ اللَّهِ تَعالى لا يُغْني عَنْ نَفْيِ النَّوْمِ عَنْهُ؛ لأَنَّ مِنَ الأَحْياءِ مَنْ لا تَعْتَريهِ السِّنَةُ، فإذا نامَ نامَ عَميقًا، ومِنَ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ السِّنَةُ في غَيْرِ

(1) هَذا عَلى رَأْيِ الدَّاني، بأَنَّ الفاصِلَةَ كَلِمَةُ آخِرِ الجُمْلَةِ. يُنظر: الزركشي، البرهان: 1/53.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10-2/9، ورضا، تفسير المنار: 3/26، والمراغي، تفسير المراغي: 3/12.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/235.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/772.

وَقتِ النَّوم غَلَبَةً . . والمَقْصودُ أَنَّ اللَّه لا يَحْجُبُ عِلْمَهُ شَيْءٌ حَجْبًا ضَعيفًا ولا طَويلًا، ولا غَلَبَةً ولا اكْتِسابًا، فلا حاجَةَ إلى ما تَطَلَّبَهُ الفَخْرُ والبَيْضاويُّ مِنْ أَنَّ تَقْديمَ السِّنَةِ عَلى النَّوْمِ مُراعًى فِيهِ تَرْتيبُ الوُجودِ، وأَنَّ ذِكْرَ النَّوْمِ مِنْ قَبيلِ الاحْتِراسِ"[1].

فائدةُ تَكْرارِ (لَا):

فائدة التكرار دفعُ توهُّم نفي السِّنَةِ والنَّوم بقيد الاجتماع، والتَّنصيصُ عَلى إحاطَةِ النَّفْي وشُمولِه كلًّا منهما

وتَبْرُزُ لتَكْرارِ: (لا)، في قَوْلِه: ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾ فائِدَتان؛ الأُولى: "انْتِفاؤُهُما عَلى كُلِّ حالٍ، إِذْ لَوْ أُسْقِطَتْ (لا)؛ لاحتَمَلَ انْتِفاؤُهُما بِقَيْدِ الاجْتِماعِ، تقولُ: ما قامَ زَيْدٌ وعَمْرٌو، بَلْ أَحَدُهُما، ولا يُقالُ: ما قامَ زَيْدٌ ولا عَمْرٌو، بَلْ أَحَدُهُما"[2]، والثَّانِيَةُ: التَّنْصيصُ عَلى الإِحاطَةِ وشُمولِ النَّفْيِ لكُلٍّ مِنْهُما، كما في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ [التوبة: 121][3].

عِلَّةُ العدول إلى الفَصْلِ:

وجهُ الفصل إفادَةُ البَيان، والتَّقرير، والتَّعليل، فكانَتْ كالدَّليل عَلى الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ

فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عَمَّا قَبْلَها لأَنَّها وَقَعَتْ مِنْها مَوْقِعَ البَيانِ، وهِيَ "كالدَّليلِ عَلى أَنَّه لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ"[4]، فهِيَ مُقَرِّرَةٌ "لانْفِرادِهِ بالإِلَهِيَّةِ إِذْ جَميعُ المَوْجوداتِ مَخْلوقاتُهُ، ومُعَلِّلَةٌ لاتِّصافِهِ بالقَيُّومِيَّةِ؛ لأَنَّ مَنْ كانَتْ جَميعُ المَوْجوداتِ مِلْكًا لَهُ فهُوَ حَقيقٌ بأَنْ يَكونَ قَيُّومَها وأَلَّا يُهْمِلَها"[5].

بيانُ تَقديمُ المُسْنَدِ:

وجه التقديم ثُبُوتُ مِلْكِهِ تعالى لعُموم المَخْلوقات، وإبطالُ عَقائِدِ أَهْلِ الشِّرْكِ بِخُصوصِيَّةِ القَصْرِ

وَفائِدَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ في جُمْلَةِ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المؤدّي معنى: له لا لِغَيْرِهِ؛ ثُبُوتُ مِلْكِهِ لعُمومِ المَخْلوقاتِ، حَيْثُ لا يَشِذُّ عَنْ مِلْكِه مَوْجودٌ فحَصَلَ مَعْنَى الحَصْرِ؛ لإِفادَةِ الرَّدِّ عَلى أَصْنافِ المُشْرِكينَ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20-3/19.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/610.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/248، والآلوسي، روح المعاني: 10-2/9.
(4) تفسير ابن عرفة: 2/725.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20، بتصرف يسير.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.

سرُّ تكرار (ما) وإيثارُها دون (مَنْ):

تكرار ما للتوكيد، وإيثار (ما) إجراءٌ للغالِبِ مَجْرى الكُلِّ؛ لكون غالب المخلوقات غير عاقلة

وكَرَّرَ ﴿مَا﴾ الَّتي للعُمومِ لغرضِ التَّوْكيدِ، و" استغراق أمكنة الموجودات، فقد دلّت الجملة على عموم الموجودات بالموصول وصلته"[1].. وآثَرتِ الآيَةُ ذِكْرَ ﴿مَا﴾ الَّتي تُستَعْمَلُ لغَيْرِ العاقِلِ، دونَ (مَن) الَّتي هِيَ للعاقِلِ؛ لأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ: الأَوَّلُ: أنَّ الغالبَ ما لا يَعْقِلُ، فأَجْرى الغالِبَ مَجْرى الكُلِّ، وأَمَّا الثَّاني: فأُسْنِدَتِ المَخْلُوقاتُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّها مَخْلوقَةٌ، وهِيَ مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ غَيْرُ عاقِلَةٍ، ورسَّخ هذا المعنى لام للملك[2].

نُكْتَةُ ذِكْرِ المَظْروفِ دونَ الظَّرْفِ:

مَقْصودُ الذِّكر نَفْيُ الإلَهيّةِ عَنْ غَيْرِهِ تَعالى بإثْباتِ أَنَّه مالِكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وما فيهِنَّ

ونُكْتَةُ ذِكْرِ المَظْروفِ وهُوَ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ دونَ ذِكْرِ الظَّرْفِ الَّذي هُوَ (السَّماوات والأَرْض)؛ لأَنَّ المَقْصودَ نَفْيُ الإلَهِيّةِ عَنْ غَيْرِ اللهِ تَعالى بإِثْباتِ أَنَّه مالِكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وما فيهِنَّ، وأَنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، مِمَّا يَعْبُدُه النَّاسُ في السَّماواتِ والأَرْضِ؛ كالشَّمْسِ، والقَمَرِ، والأَصْنامِ، وبَعْضِ بَني آدَمَ[3]، "فهَذِهِ الجُمْلَةُ أَفادَتْ تَعْليمَ التَّوْحيدِ بِعُمومِها، وأَفادَتْ إِبْطالَ عَقائِدِ أَهْلِ الشِّرْكِ بخصوصِيَّةِ القَصْرِ، وهَذا بَلاغَةٌ مُعْجِزَةٌ"[4].

بيانُ التشابه اللفظي:

هَــذِهِ الآيَــةُ جـاءَتْ في سِياقِ تَقْريرِ العَقيدَةِ بِمَفْهومِها العامّ، وآيَـةُ المائِدَةِ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ أُلوهِيَّةِ عيسى عليه السلام

ذَكَرَ البَيْضاويُّ[5] أنّ قوله تعالى ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أَبْلَغُ مِنْ قَولِه: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المائدة: 120]؛ وهو وصفٌ محل نظرٍ؛ لأَنَّ كُلَّ آيَةٍ جاءَتْ في سِياقٍ يَخُصُّها، ونَظْمُ الكَلامِ يَتْبَعُ المَعْنى، وغايَةُ النَّظْمِ بَيانُ مُرادِ المُتَكَلِّمِ، والكَشْفُ عَنْ دَقائِقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/10-11، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/610.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

أَسْرارِ المَعاني المُرادَةِ، فهَذِهِ الآيَةُ جاءَتْ في سِياقِ تَقْريرِ العَقيدَةِ بمَفْهومِها العامّ، فَحَسُنَ أَنْ يَكونَ النَّظْمُ عامًّا، بخِلافِ آيَةِ المائِدَةِ فهِيَ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ أُلوهِيَّةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فناسَبَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْلُه: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ مِنْ قَبيلِ عَطْفِ المَظْروفِ عَلى الظَّرْفِ، تَنْبيهًا عَلى خصوصِيَّةٍ لذَلِكَ المَظْروفِ، يُحَدِّدُهَا السِّيَاقُ، فكُلُّ نَظْمٍ بَليغٍ لا يَسُدُّ مَسَدَّهُ نَظْمٌ آخَرُ، والمُفاضَلَةُ بَيْنَ الآياتِ القُرْآنيَّةِ في بابِ البَلاغَةِ، لَيْسَ مِنَ البَلاغَةِ في شَيْءٍ.

بلاغة العدول إلى الفصل:

بيان الفصل تقرير الجملة السّابقة بإبطال معتقد الكافرين بشفاعة آلهتهم لهم

فُصِلَت جُمْلَةُ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ مِنَ السَّابِقَةِ؛ لأَنَّها تَقْريرٌ لها، فالسَّابِقةُ أَسْنَدَتْ مِلْكَ جَميعِ المَوْجوداتِ للَّهِ تَعالى، وهَذا أَمْرٌ يَعْتَقِدُهُ العَرَبُ، لَكِنَّهُم يَعْتَقِدونَ أَنَّ آلِهَتَهُم تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَفاعَةً خاصَّةً، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونُس: 18]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، فأَبْطَلَت هَذِهِ الجُمْلَةُ ذَلِك الاعْتِقادَ[1].

بديع الابتداء بالنفي على صيغة الاستفهام:

معنى الاستفهام الإنكار، والنّفي به أبلغ من النّفي الصّريح، وأقوى

ابْتَدَأَتْ جملة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ باسْمِ الاسْتِفْهامِ المُتَضَمِّنِ مَعْنى الإِنْكارِ والنَّفْيِ[2]، ووُقوعُ النَّفْيِ بصيغَةِ الاِسْتِفْهامِ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ نَفْيًا صَريحًا؛ لاقْتِضائِهِ مُوافَقَةَ المُخاطَبِ عَلَيْهِ[3]، ومن المعلوم أن الاستفهام أقوى من النّفي.

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ ﴿مَن ذَا﴾ وبيانُ متشابه ورودها اللفظي:

وَاخْتَلَفَ النُّحاةُ في إِعْرابِ ﴿ذَا﴾، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها خَبَرًا لاسْمِ الاِسْتِفْهامِ، ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها زائِدَةً، ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها بمَعْنى الَّذي،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/21.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/11.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/725.

في اسْتِعْمالِ هَذا الأُسْلوبِ تحقُّقُ التَّنْبيهِ الذِّهْنيِّ، والتَّحْفيزِ الفِكْرِيِّ، إلى أمْرٍ يَقَعُ النَّاسُ في الغَفْلَةِ عَنْهُ

ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا مَعَ مَنْ بمَنْزِلَةِ اسْمٍ واحِدٍ تَرَكَّبا كَماذَا[1]، وهَذا الوَجْهُ هُوَ الوَجْهُ، لِمَا فيهِ مِنْ صِحَّةِ مَعْنًى، وفَصاحَةِ أُسْلُوبٍ، ودِقَّةِ مَسْلَكٍ، وقَدْ وَرَدَ هَذا الأُسْلوبُ في القُرْآنِ الكَريمِ في أَرْبَعَةِ مَواضِعَ، وهِيَ:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: 245]، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةًۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧﴾ [الأحزاب: 17]، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ١١﴾ [الحديد: 11]، ومَوْضِعُ آيَةِ الكُرْسِي.

والمُلاحَظُ أَنَّ تَرْكيبَ ﴿مَن ذَا﴾ وَرَدَ في سِياقَيْنِ: السِّياقُ الأَوَّلُ تَضَمَّنَ التَّحْفيزَ إلى الصَّدَقَةِ، كَما هُوَ في آيَتَي البَقَرَةِ والحَديدِ، والسِّياقُ الثَّاني كانَ بمَعْنَى الاسْتِفْهامِ المُتَضَمِّنِ النَّفْيَ والإِنْكارَ، كَما في آيَةِ الكُرْسِيِّ والأَحْزابِ، وفي اسْتِعْمالِ هَذا الأُسْلوبِ نَلْحَظُ التَّنْبيهَ الذِّهْنِيَّ، والتَّحْفيزَ الفِكْرِيَّ، إلى أَمْرٍ يَقَعُ النَّاسُ في الغَفْلَةِ عَنْهُ، فاجْتَمَعَتْ وَظيفَةُ اسْمِ الاسْتِفْهامِ في تَطَلُّبِ الجَوابِ، مَعَ وَظيفَةِ اسْمِ الإشارَةِ في إِطْلاقِ الفِكْرِ لِمُشارٍ ذِهْنِيٍّ في تَرْكيبٍ واحِدٍ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ الاسْتِعْمالِ؛ لِتَوْليدِ تَرْكيبٍ بَديعٍ يَسْتَثيرُ الفِكْرَ، ويَنْشَطُ بِهِ العَقْلُ.

جمالُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ لِيُفيدَ تَصْويرَ الشَّفاعَةِ، فيَقَعَ النَّفْيُ مَوْقِعًا قَوِيًّا في النُّفوسِ

التَّعْبيرُ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ في ﴿يَشۡفَعُ﴾ لِيُفيدَ تَصْويرَ الشَّفاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ، فيَتَصَوَّرُها المُخاطَبُ، فيَقَعُ الاسْتِنْكارُ والنَّفْيُ مَوْقِعًا قَوِيًّا في النُّفوسِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ تَناسُبًا بَديعًا مَعَ دَلالَةِ الإشارَةِ في تَرْكيبِ ﴿مَن ذَا﴾، فتَتَوَجَّهُ الإشارَةُ إلى تِلْكَ الشَّفاعَةِ المُتَصَوَّرَةِ في الأَذْهانِ، فيَنْفيها المُخاطَبُ، وهُوَ مَقْصودُ الجُمْلَةِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/611، والسمين، الدر المصون: 2/508.

فائدة الاستثناء بـ (إلا):

قصـدُ التّعبير بـالاسـتـثـنـاء تَعْليق الشَّفاعَةِ عَلى إذْنِ الرَّحْمَنِ

وَأَفادَ الاِسْتِثْناءُ في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ تَعْليقَ الشَّفاعَةِ عَلى إِذْنِ الرَّحْمَنِ، فالشَّفاعَةُ المَنْفيَّةُ هِيَ الشَّفاعَةُ الَّتي يَنْتَفِعُ مِنْها المُشْرِكون، وغَيْرُ المَقْبولين عِنْدَ اللَّهِ تَعالى، والشَّفاعَةُ المُثْبَتَةُ هِيَ الشَّفاعَةُ المُتَوَقِّفَةُ عَلى إِذْنِ المَوْلى سُبْحانَهُ، وهُوَ ما يُوَضِّحُ مَعْنى نَفْيِ الشَّفاعَةِ في الآيَةِ السَّابِقَةِ، وهُوَ ما يُؤَكِّدُ تَرابُطَ الجُمَلِ واتِّساقَ بَعْضِها بِبَعْضٍ.

براعة التّعبير بقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾:

بـيـان الـبـلاغـة استغراق التعبير الزّمانَ كُلَّه، وهُوَ المُنـاسِبُ لـدِقَّةِ النَّظْمِ، وسِياقِ الآيَةِ

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾ عَلى أَقْوالٍ كَثيرَةٍ، مِنْ مِثْلِ السّابِقِ واللّاحِقِ، أَوِ العَكْسِ، أَوِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، أَوْ قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ وبَعْدَه، أَو الشَّرِّ والخَيْرِ[1]، والصَّحيحُ أَنَّ الكُلَّ مُحْتَمَلٌ[2]، ونُضيفُ عَلى تِلْكَ الأَقْوالِ؛ أَنَّ المَقْصودَ بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يَقَعُ الآنَ، وهُوَ الزَّمَنُ الحاضِرُ، والمَقْصودُ بـ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾، الماضي والمُسْتَقْبَلُ، باسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ، فيَكونُ التَّعْبيرُ قَدْ شَمِلَ الزَّمانَ كُلَّه، وهُوَ المُناسِبُ لدِقَّةِ النَّظْمِ، وسِياقِ الآيَةِ.

بلاغة الكناية في الجملة:

وجـه الـكـنـايـة شُمولُ التَّعْبيرِ جَميعَ المُحْتَمَلاتِ الـذِّهْـنـيّـةِ، وإحـاطَـةُ عِـلْـمِـهِ تَـعـالى بِـسـائِـرِ المَخْـلـوقـاتِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ

مِنْ بَلاغَةِ النَّظْمِ احتمال قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾ لجَميعِ المُحْتَمَلاتِ الذِّهْنِيَّةِ المَقْبُولَةِ في أَلْفاظِ العِبارَةِ، وهُوَ المُناسِبُ لسَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعالى، قال أَبو حَيَّانَ: "إِنَّ هَذا كِنايَةٌ عَنْ إِحاطَةِ عِلْمِه تَعالى بِسائِرِ المَخْلوقاتِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ، وكَنَّى بِهاتَيْنِ الجِهَتَيْنِ عَنْ سائِرِ جِهاتِ مَنْ أَحاطَ عِلْمُهُ بِه . . فالمَعْنى أَنَّهُ تَعالى عالِمٌ بِسائِرِ أَحْوالِ المَخْلوقاتِ، لا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ، فلا يُرادُ بِما بَيْنَ الأَيْدي ولا بِما خَلْفَهُمْ شَيْءٌ مُعَيَّنٌ"[3]. وما اسْتَظْهَرَه أَبو حَيَّان هَدَفٌ بارِعٌ أَصابَ عَيْنَ الحَقيقَةِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/396، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/12.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/10.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/611-612.

بديع التّقابل بين جُمْلَتَيْ: إثبات العلم، ونفي الإحاطة به:

التَّـقـابُـلُ بَـيْنَ الجُمْلَتَيْنِ إثْباتًا ونَفْيًا، نَزَّلَهُما مَنْزِلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ

جُمْلَةُ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ عُطِفَتْ عَلى السَّابِقَةِ؛ "لأَنَّ مَجْموعَهُما يَدُلُّ عَلى تَفَرُّدِهِ بالعِلْمِ الذَّاتِيِّ التَّامِّ، الدَّالِّ عَلى وَحْدانِيَّتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى"[1]، فاشْتَرَكَتِ الجُمْلَتانِ في إثْباتِ عِلْمِ اللَّهِ الشَّامِلِ، حَيْثُ أَثْبَتَتِ الجُمْلَةُ السَّابِقَةُ شُمولَ عِلْمِهِ لكُلِّ شَيْءٍ، ونَفَتِ اللَّاحِقَةُ إحاطَةَ المَخْلوقينَ بشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ، وإثْباتُ عِلْمِهِ في الأُولى، مَعَ نَفْيِ إحاطَتِهِم في الثَّانِيَةِ، إثْباتٌ لإحاطَتِهِ بعِلْمِ كُلِّ شَيْءٍ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ دَلالَةِ التَّقابُلِ الضِّدِّيِّ، وحَصَلَ مِنْ هَذا التَّقابُلِ أَنْ نُزِّلَتا مَنْزِلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ، وهُوَ المَفْهومُ مِنْ سؤالِ صاحِبِ الكَشَّافِ حينَ قالَ: "فإنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَرَتَّبَتِ الجُمَلُ في آيَةِ الكُرْسِيِّ مِنْ غَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ؟".

وقَدْ وَرَدَ هَذا الأُسْلوبُ في القُرْآنِ الكَريمِ، حَيْثُ تُعامَلُ الجُمْلَتانِ أَوِ الصِّفَتانِ المُتَقابِلَتانِ مُعامَلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ أَوِ الصِّفَةِ الواحِدَةِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة: 112]، فعومِلَتْ صِفَةُ: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مُعامَلَةَ الصِّفَةِ الواحِدَةِ، وهَذا مِنْ بَديعِ أُسْلوبِ القُرْآنِ في التَّعامُلِ مَعَ المُتَقابِلاتِ، حَيْثُ تُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ الواحِدِ.

وجه التّقابل بين الجملتين أنّ مَجموعهما أفاد البَيانَ والتَّعليل وهُـوَ ما اقْتَضى الفَصْلَ

ووفاق ما تقرَّر يكون مَجموعُ الجُمْلَتَيْنِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، هُوَ ما يُبَيِّنُ سَبَبَ فَصْلِهِما عَنْ جُمْلَةِ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، فالفَصْلُ لبَيانِ جَهْلِ مَنْ يَزْعُمُ وُجودَ شافِعين، وتَعْليلُ ذَلكَ بإحاطَةِ عِلْمِهِ بكُلِّ شَيْءٍ، فمَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ أَفادَ البَيانَ والتَّعْليلَ وهُوَ ما اقْتَضى الفَصْلَ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/300-301، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

دِقَّةُ التَّعْبيرِ بلفظ الإحاطَةِ:

تَـدُلُّ الإحـاطـةُ عَـلى الإحْـراز والبُلوغِ والتَّمَكُّن والـحِـفْـظِ والـشُّـمـول، فنَفْيُها أشَدُّ، وإثْباتُها أبْلَغُ

انْتُقِيَتْ في الآيَةِ كَلِمَةُ الإحاطَةِ، لِما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنًى يَتَّسِقُ مَع مَقْصودِ الكَلامِ، فالإحاطَةُ تَدُلُّ عَلى الإحْرازِ والبُلوغِ، والتَّمَكُّنِ والحِفْظِ، والشُّمولِ، وهَذِهِ المَعاني هِيَ ما ازدانَتْ به اللَّفْظَةُ دونَ سِواها مِنَ الألْفاظِ، فإذا نُفِيَتِ الإحاطَةُ، نُفِيَ مَعَها الإحْرازُ والبُلوغُ والتَّمَكُّنُ والحِفْظُ والشُّمولُ، وإذا ثَبَتَتْ ثَبَتَتْ مَعَها هَذِهِ المَعاني، وهِيَ ثابِتَةٌ في حَقِّ اللَّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، فَنَفْيُ الإحاطَةِ أشَدُّ مِنْ نَفْيِ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ، كما أنَّ إثْباتَها أبْلَغُ وأمْدَحُ، لما يَلْزَمُ عَنِ النَّفْيِ والإثْباتِ.

دَلالَةُ العُمومِ في لَفْظِ ﴿بِشَيۡءٖ﴾:

اكْتُسِبَ العُمومُ في لَـفْـظِ شَيْءٍ مِـنَ الـتَّـنْـكـيرِ، والـسِّـيـاقِ، والـلَّـفْـظِ، وأفادَ حُسْنَ الاتِّساقِ والبَيانِ

دلّ لَفْظُ شَيْءٍ عَلى العُمومِ، مِنْ ثَلاثَةِ أُمورٍ؛ هي: التَّنْكيرُ والسِّياقُ ودَلالَةُ اللَّفْظِ، فهُوَ نَكِرَةٌ في سِياقِ نَفْيٍ، ودَلّ هَذا اللَّفْظُ عَلى المَوْجودِ والمَعْدومِ(1)، وهَذا يَقْتَضي العُمومَ، وهُوَ المُناسِبُ لنَفْيِ الإحاطَةِ، فَنَفَتِ الآيَةُ إحاطَتَهُمْ بِأيِّ شَيْءٍ، صَغيرًا أوْ كَبيرًا، مَوْجودًا أوْ مَعْدومًا، قَليلًا أوْ كَثيرًا، وهَذا يَزيدُ مِنْ بَيانِ جَهْلِهِم، وتَمَكُّنِ عِلْمِه سُبْحانَهُ وتَعالى، وإحاطَتِهِ بكُلِّ شَيْءٍ.

بلاغة الفصل في جملة سعة الكرسيّ:

وجـه الـفـصـل تَـقْـريـرُ مَـا تَضَمَّنَتْهُ الجُمَلُ كُلُّهَا مِنْ عَظَمَةِ اللّهِ تَعالى

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ هذه الجُملَةُ المَفْصولَةُ الخامِسَةُ في الآيَةِ، وهِيَ "تَقْريرٌ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الجُمَلُ كُلُّهَا مِنْ عَظَمَةِ اللّهِ تَعالى وكِبْريائِه وعِلْمِه وقُدْرَتِه وبَيانِ عَظَمَةِ مَخْلوقاتِه المُسْتَلْزِمَةِ عَظَمَةَ شَأْنِه"(2)، ولِبَيانِ سَعَةِ مُلْكِهِ وسُلْطانِه، ولبَيانِ عِلْمِه الغُيوبَ والمُشاهَداتِ وإحاطَتِه بها.

(1) الراغب، المفردات: (شيء).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/23.

اتّساقُ الألْفاظِ في الدَّلالَةِ عَلى مَعْنى السَّعَةِ، سَعَةٌ مِن بَعْدِها سَعَةٌ

دِقَّةُ اخْتِيارِ الألْفاظِ واتِّساقِها:

اشْتَمَلَ قَولُه تَعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ عَلى أَرْبَعَةِ أَلْفاظٍ كُلُّها تَدُلُّ عَلى السَّعَةِ، أَمَّا لَفْظُ (وَسِعَ) فَمِنَ اللُّغَةِ، فالواسِعُ: هُوَ المُحيطُ بكُلِّ شَيْءٍ[1]، وأمَّا الكُرسيُّ فَمِن سَعَةِ الأَقْوالِ التي قيلَتْ فيه.

وأَمَّا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، فَمِنَ المُشاهَدَةِ العِيانِيَّةِ، فاجْتَمَعَ في هَذِه الجُمْلَةِ دَليلُ اللُّغَةِ والعِلْمِ والمُشاهَدَةِ عَلى مَعْنى السَّعَةِ، وهَذا مِنْ أَقْوى الأَدِلَّةِ عَلى سَعَةِ هَذِه الجُمْلَةِ لاتِّساعِها جَميعَ هَذِه الدَّلالاتِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ مَعَ سِرِّ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الكُرْسِيّ، الَّذي هُوَ اسْمُ الآيَة، وهُوَ يُشيرُ إلى عِلَّةِ تَسْمِيَةِ أَعْظَمِ آيَةٍ في القُرْآنِ الكَريمِ بِهَذا الاسْمِ؛ لتَمَكُّنِها تَمَكُّنَ الكُرْسِيّ، ولِعَظَمَتِها عَظَمَةَ العَرْشِ، وَلِسَعَةِ ما فيها مِنَ العِلْمِ الصَّادِرِ عَن عِلْمِ اللَّهِ تَعالى، ولِسُلْطانِها في النُّفوسِ، وهِيَ إشارَةٌ بَديعَةٌ للتَّناسُبِ بَيْنَ خَلْقِ اللَّهِ وكَلامِه، في اخْتِيارِه لأَعْظَمِ آيَةٍ اسْمًا مِنْ أَعْظَمِ مَخْلوقاتِه.

التَّعبير كناية عن سعة الملك، والعلم، والإحاطة، أو استعارة تصريحية عنها

بلاغة المجاز في عبارة ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ﴾:

وقَولُه تَعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ كناية عن سعة الملك، والعلم، وعِظَم القدرة، وكمال حياطة الخلق، وهو المناسب لنسق الآية الكريمة، وهو تفسير ترجمان القرآن عبد الله بن عباس[2]. وتحتمل العبارةُ الاستعارةَ التصريحيةَ؛ لكون الكلمة مجازًا عن علمه تعالى، أو ملكه وتصوير صحيح لعظمته، حذف المشبه وهو العلم والقدرة والعظمة وما يترتب على الجلوس فوق كرسي الملك من معاني الأبهة والإحاطة الجامعة[3].

قصديّة التَّعبير بالأَوْدِ دونَ سِواهُ مِنَ الأَلْفاظِ:

التَّعْبيرُ بالأَوْدِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (وسع).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/941
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/383

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ تَعْبيرٌ غريبٌ قَليلُ الاسْتِعْمالِ، وهُوَ مِنْ أَفْرادِ القُرْآن، فَلَمْ يُسْتَعْمَلْ إلَّا في هَذا المَوْضِع، والمُفَسِّرون يُفَسِّرُونَه بالثِّقَلِ والمَشَقَّة، فإنْ قيلَ: لماذا آثَرَتِ الآيَةُ التَّعْبيرَ بِه دونَ ما هُوَ أَوْضَحُ وأَكْثَرُ اسْتِعْمالًا؟ فيُقالُ: إنَّ الأَوْدَ في اللُّغَةِ يَدُلُّ على المَيْلِ والانْحِناء[1]، وَسَبَبُه الثِّقَلُ، فالَّذي يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقيلًا يَميلُ، ويَظْهرُ مِن استِعْمالِ العَرَبِ أنَّ الأَوْدَ يُطْلَقُ عَلى مَيْلٍ سَبَبُه ثِقَلٌ عَظيمٌ؛ فمَزَجَ هَذا اللَّفْظُ مَعْنَيَيْن، وهُما المَيْلُ والثِّقَلُ الشَّديدُ، أَي: السَّبَبُ ونَتيجَتُه، وهَذا سِرُّ اسْتِعْمَالِه في هَذا السِّياقِ، فالأَوْدُ لَيْسَ أَيَّ مَيْلٍ، كما أَنَّهُ لَيْسَ أَيَّ ثِقَلٍ، وإنَّما هُوَ مَيْلٌ بِسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ، ومعْناهُ أَنَّ اللَّه لا يَؤودُهُ الأَمْرُ العَظيمُ، فما بالُك بِمَا هُوَ دونَهُ، فهَذا مِنْ بابِ التَّنْبيهِ عَلى الأَدْنى بالأَعْلَى.

التَّنْبيهُ عَلى نَفْيِ الأَدْنَى بالأَعْلى، فالأَوْدُ هُوَ المَيْلُ بسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ

وجه اخْتِصاصِ لفظ الحِفْظِ بالذِّكْرِ:

قَد يَسْأَلُ سائِلٌ عَنْ سِرِّ اخْتِصاص الجُمْلَةِ بلَفْظِ الحِفْظ، مَعَ أَنَّ ما يَقْتَضيهِ السِّياقُ ذِكْرُ الحَمْلِ؛ لأَنَّ الأَوْدَ مَعْناه: مَيْلٌ بسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ، وهَذا المَعْنى يُناسِبُ الحَمْلَ لا الحِفْظَ؟

والجَوابُ أَنَّ الحِفْظَ مُتَراخٍ عَنِ الحَمْلِ، فَقَدْ يُحْمَلُ الشَّيْءُ ولا يُحْفَظُ، بخِلافِ الحِفْظ فَيَلْزَمُ عَنْه الحَمْلُ والمُلْكُ والتَّدْبيرُ والتَّصَرُّفُ، فهَذه معانٍ لازِمَةٌ للَفْظِ الحِفْظِ، وما حُفظ فهُوَ مَحْمولٌ لُزومًا، فلمَّا ذَكَرَ الحِفْظَ لَزِمَ عَنْهُ تِلْكَ المَعاني ومِنْها الحَمْلُ، وهَذا مِنْ بابِ التَّنْبيهِ عَلى الأَخَصِّ بالأَعَمِّ، فاجْتَمَعَ في الجُمْلَةِ لَفْظان، كلٌّ مِنْهُما دلَّ عَلى مَعْنًى آخَرَ يُفْهَمُ التِزامًا، وهَذا مِنَ الإيجازِ اللُّغَويِّ البَليغِ في هَذِهِ الجُمْلَة، الَّذي لا يَؤودُ القُرْآنَ الإِتْيانُ بمِثْلِه.

اخْتِصاصُ الحِفْظِ بالذِّكْرِ؛ لشُمولِه مَعْنى الحَمْلِ، بخِلافِ العَكْسِ، وهَذا مِنَ التَّنْبيهِ عَلى المَفْهومِ الأَخَصِّ بالأَعَمِّ

علّة تثنية الضمير في ﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾:

ولَمْ يَقُلْ: (حِفظها) بضَمير جَماعَةِ مَا لا يَعْقِل، وعدل إلى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود)، وابن جرير، جامع البيان: 5/402.

تخصيص السماوات، والأرض بالذِّكْرِ؛ أَقْطَعُ في طَريقِ الاِسْتِدْلالِ، وأَقْوى في قِيامِ الحُجَّةِ

التثنية: ﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾؛ لتخصيصه السماوات، والأرض بالذِّكْرِ؛ بوصفهما المُشاهَدينِ للإِنْسانِ الَّذي يَراهُما ويُوافِقُ عَلى إِمْساكِهما وعَدَمِ إزالَتِهما؛ ليَكونَ ذَلِكَ أَقْطَعَ في طَريقِ الاِسْتِدْلالِ، وأَقْوى في قِيامِ الحُجَّةِ عَلَيْه[1].

بَلاغَةُ الفاصِلَةِ:

رَدُّ الفاصِلَةِ عَلى المَطْلِعِ، تَقْريرًا لِصِفَةِ اللَّهِ العَظيمِ، إلاحَةً وإِفْصاحًا

لَمَّا ابْتَدَأَت الآيَةُ بِوَصْفِ اللَّهِ تَعالى بالحَيِّ القَيُّوم، وبَعْدَ إيرادِ تِلْكَ الجُمَلِ المُفْصِحَةِ عَن جَلالَةِ عَظَمَتِه، وواسِعِ عِلْمِه، وكَبيرِ مِلْكِه، وفَضْلِ تَدْبيرِه، ناسَبَ أَنْ تُخْتَمَ بالعَلِيِّ العَظيم، مِنْ بابِ رَدِّ الفاصِلَة عَلى مَطْلَعِ الآيَة، فَفيها فَنُّ التَّصْدير، فَمَبْدَأُها العَظَمَةُ، وخِتامُها العَظَمَةُ، "وقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِما بُدِئَت بِه، غَيْرَ أَنَّ بَدْءَها بالعَظَمَةِ - كَما قالَ الحراليُّ - كانَ باسْمِ اللَّه إلاحَةً، وخَتْمَها كانَ بذَلِكَ إِفْصاحًا، لما ذُكِرَ مِنْ أَنَّ الإِبْداءَ مِنْ وَراءِ حِجاب، والإعادَةَ بغَيْرِ حِجابٍ، كذَلِك تَنَزُّلُ القُرْآن، مَبْدَأُ الخِطابِ إلاحَةٌ، وخاتِمَتُه إِفْصاحٌ؛ لِيَتَطابَقَ الوَحْيُ والكَوْنُ تَطابُقَ قائِمٍ ومَقامٍ"[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّنَة والنَّوْم:

السِّنَةُ تَكونُ في الرَّأْسِ، فإِذا خالَطَتِ القَلْبَ وأَثْقَلَتْه فهُوَ النَّوْمُ[3]، ولابْنِ عَطِيَّةَ تَفْريقٌ لَطيفٌ حيث قال: "السِّنَةُ بَدْءُ النُّعاس، وهُو فُتورٌ يَعْتَري الإِنْسانَ وترنيقٌ في عَيْنَيْه، ولَيْس يَفْقِدُ مَعَهُ كُلَّ ذِهْنِه، والنَّوْمُ هُو المُسْتَثْقَلُ الَّذي يَزولُ مَعَهُ الذِّهْنُ"[4]، "فالنَّوْمُ شاغِلُ المُدَبِّرِ عَنِ التَّدْبيرِ، والنُّعاسُ مانِعُ المُقَدِّرِ عَنِ التَّقْديرِ بوَسَنِه"[5]، والسنة لا

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/729.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/37.
(3) ابن السكيت، الألفاظ، ص: 468، وقول الضحاك في جامع البيان: 5/391، والسمرقندي، بحر العلوم: 1/167.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/340.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/393.

يفقد معها العقل، بخلاف النوم فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر والمراد: أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما[1]، والرَّبْطُ بَيْنَ بَدْءِ النُّعاسِ والنَّوْم باعْتِبارِ الغالِبِ، لا باعْتِبارِ اللَّازِمِ، فقَد يُصيبُ الإِنْسانَ النُّعاسُ ولا يَنامُ، وقد يَنامُ مِنْ غَيْرِ نُعاسٍ.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/311.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: 256]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ التَّعْريفِ باللَّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى في آيَةِ الكُرْسِيِّ، لَمْ يَبْقَ لجاهِلٍ عُذْرٌ في عَدَمِ الإيمانِ، أَوِ الإِصْرارِ عَلى الكُفْرِ والعِصْيانِ، حَيْثُ اتَّضَحَ المُعْتَقَدُ السَّليمُ، المُؤَدِّي إلى الخُضوعِ والتَّسْليمِ، ولَمَّا كانَ اللَّهُ يُريدُ مِنَ النَّاسِ الإيمانَ بحُرِّيَّةٍ وإِقْبالٍ، دونَ تَرَدُّدٍ وإِقْفالٍ، جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لتُجيبَ عَنْ سُؤالِ سائِلٍ: فهَلْ يُكْرَهُ مَنْ أَصَرَّ عَلى دينِهِ، وأَبى الانْصِياعَ إلى حينِهِ، فحَسُنَ في هَذا المَوْقِعِ الجَوابُ، أَنْ لا إِكْراهَ في الدِّينِ؛ لتَبَيُّنِ الرُّشْدِ مِنَ الغَيِّ المُبينِ، وبَيانِ الحَقِّ بَعْدَ التَّعْريفِ بالحَقِّ، فعُرْوَةُ هذِهِ الآيَةِ بالسَّابِقَةِ كَلِمَةُ ﴿تَّبَيَّنَ﴾، فمِنْ هُنَا كانَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ الآيَتَيْنِ عَلاقَةَ تَتْميمٍ، لِمَنْ بَقِيَ في خاطِرِهِ اعْتِقادٌ فَطيمٌ، فَهِيَ جوابٌ بَديعٌ، عَنْ سُؤالٍ مُتَوَقَّعٍ، يَتَّضِحُ بها المَقْصودُ، ويَكْمُلُ بها حَقُّ المَعْبودِ.

"وتَعْقيبُ آيَةِ الكُرْسِيِّ بهاتِهِ الآيَةِ بمُناسَبَةِ أَنَّ ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الآيَةُ السَّابِقَةُ مِنْ دَلائِلِ الوَحْدانيَّةِ وعَظَمَةِ الخالِقِ وتَنْزيهِهِ عَنْ شَوائِبِ ما كَفَرَتْ بِهِ الأُمَمُ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسوقَ ذَوي العُقولِ إلى قَبولِ هَذا الدِّينِ الواضِحِ العَقيدَةِ، المُسْتَقيمِ الشَّريعَةِ، باخْتيارِهِمْ دونَ جَبْرٍ ولا إِكْراهٍ، ومِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ دَوامَهُمْ عَلى الشِّرْكِ بمَحَلِّ السُّؤالِ: أَيُتْرَكونَ عَلَيْهِ أَمْ يُكْرَهُونَ عَلى الإِسْلامِ، فكانَتِ الجُمْلَةُ اسْتِئْنافًا بَيانيًّا"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾: الإِكْراهُ: خِلافُ الرِّضا والمَحَبَّةِ، ويُقالُ في حَمْلِ الإِنْسانِ عَلى ما يَكْرَهُهُ(2)، قَسْرًا وجَبْرًا، والمَقْصودُ بالإِكْراهِ في الآيَةِ إِجْبارُ الإِنْسانِ عَلى اعْتِناقِ دينِ الإِسلامِ جَبْرًا عَنْهُ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الجَبْرِ والقَهْرِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/25.
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (كره).

2) ﴿تَبَيَّنَ﴾: التَّبَيُّنُ: مَأْخوذٌ مِنَ البَيْنِ، وهُوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، وهُوَ مَوْضوعٌ للخِلالَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ ووَسَطِهِما، ويُقالُ: بانَ الشَّيْءُ إذا انْفَصَلَ وظَهَرَ ما كانَ مُسْتَتِرًا مِنْهُ، ولا يُسْتَعْمَلُ البَيْنُ إلَّا فيما كانَ فيهِ مَسافَةٌ[1]، وقُصِدَ بِهِ التَّمَيُّزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ.

3) ﴿ٱلرُّشْدُ﴾: يَدُلُّ عَلى اسْتِقامَةِ الطَّريقِ، والعَرَبُ تَقولُ: مَنْ أصابَ وَجْهَ الأَمْرِ والطَّريقِ فقَدْ رَشِدَ، ولذلِكَ يُستَعمَلُ استِعمالَ الهِدايَةِ، ومَعْناهُ إصابَةُ الخَيْرِ[2]، فالرُّشْدُ في الآيَةِ يَدُلُّ عَلى السَّدادِ في الطَّريقِ إلى حينِ الوُصولِ إلى الهَدَفِ.

4) ﴿ٱلْغَيِّ﴾: ناشِئٌ عَنْ جَهْلٍ مِن اعْتِقادٍ فاسِدٍ، ذَلِكَ أَنَّ العَرَبَ تَقولُ في الفَصيلِ: غَوِيَ يَغْوَى غَوًى؛ إذا لَمْ يُصِبْ رِيًّا مِنَ اللَّبَنِ حتَّى كادَ يَهْلَكُ، ومِنْهُ قيلَ للصَّغيرِ إذا نَضَجَ وكَبُرَ: رَشَدَ، والإِنْسانُ إذا تَبِعَ هَواهُ فقَد غَوِيَ، إذِ المُغَوَّاةُ عِنْدَ العَرَبِ هِيَ حُفْرَةُ الصَّيّادِ[3]، والغَيُّ في الآيَةِ يَدُلُّ عَلى ضَلالٍ ناشِئٍ عَنْ جَهْلٍ بالطَّريقِ المَسْلوكِ حَتَّى يَقَعَ سالِكُهُ فَريسَةً للشَّيْطانِ.

5) ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: من طَغا يَطْغى ويَطْغو طُغْيانًا، أي جاوَزَ الحدّ، وكلُّ مجاوِزٍ حدَّه في العِصيان فهو طاغٍ، وطَغِيَ يَطْغى مثله[4]، وهوعِبارَةٌ عَنْ مُجاوَزَةِ الحَدِّ في الاعْتِقادِ والعِصْيانِ، ويُطلَقُ عَلى كُلِّ مُتَعَدٍّ، وكُلِّ مَعْبودٍ مِنْ دونِ اللهِ عُبِد من دونه، إما بقهر منه لمن عَبده، وإما بطاعة ممَّن عبده له، وإنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء[5]، وكُلُّ الوارد منه في القُرْآنِ فهُوَ بمَعْنى التَّجاوُزِ في غَلَطٍ وتَخَطٍّ للحَقِّ وعُدْوانٍ، ويُستَعْمَلُ في الواحِدِ والجَمْعِ، والأَصْلُ فيهِ التَّذْكيرُ، فأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزُّمَر: 17] فإنَّما أُنِّثَ إرادَةَ الآلِهَةِ، ولِذَلِكَ يُعامَلُ مُعامَلَةَ المَصادِرِ[6]، قالَ ابْنُ عاشور: "ولا أَحْسَبُهُ إلَّا مِنْ مُصْطَلَحاتِ القُرْآنِ"[7].

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (بين).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (رشد)، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/15.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (غيي).
(4) الجوهري، الصحاح: (طغا).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 4/555.
(6) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طغي)، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/28.

6) ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ﴾: الاسْتِمْساكُ: التَّعَلُّقُ بالشَّيْءِ بشِدَّةٍ والتِصاقٍ وتَحَرٍّ ومُبالَغَةٍ، ويُقالُ للماسِكِ بالشَّيْءِ: اسْتَمْسِكْ، فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ والطلب، كما قالَ تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الزُّخْرُف: 43]، واسْتُعْمِلَ في القُرْآنِ الكريم للاعْتِصام بالشَّيْءِ، فالمُسْتَمْسِكُ مُلْتَبِسٌ به، يَطْلُبُ مِن نَفْسِه الزِّيادَةَ فيه، والثَّباتَ عَلَيْه(1)، فهُوَ تَأْكيدٌ لِمَعْنى المَسْكِ والمُحافَظَةِ عَلى الشَّيْءِ.

7) ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾: العُرْوَةُ: الشَّيْءُ الَّذي يُتَعَلَّقُ به ويُتَمَسَّكُ به بقَصْدِ النَّجاةِ، يُجْعَلُ كالحَلْقَةِ في طَرَفِ شَيْءٍ ليُقْبَضَ عَلى الشَّيْءِ منْهُ، وهِيَ مَوْضِعُ شَدِّ الأَيْدي، ولذَلِكَ هِيَ أَوْثَقُ العَلائِقِ وآكَدُها، وهِيَ مَأْخوذَةٌ مِنْ عُرْوَةِ الكَلَأ، وهُوَ النَّباتُ الَّذي لَهُ أَصْلٌ ثابِتٌ في الأَرْضِ كالشِّيحِ، فإذا كانَت السَّنَةُ قَليلَةَ المَطَرِ، رَعَتْها الماشِيَةُ وعاشَتْ بِها، ثُمَّ ضُرِبَتْ مَثَلاً لِكُلِّ ما يُعْتَصَمُ بهِ، ويُلْجَأُ إِلَيْهِ(2).

8) ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: هِيَ الأَمرُ المُحْكَمُ المَوْثوقُ به في الضَّروريّاتِ، وهِيَ تَأْنيثُ الأَوْثَقِ، مَأْخوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَرْضٌ وَثيقَةٌ، أَيْ: كَثيرَةُ العُشْبِ مَوْثوقٌ بها، والمَوْثِقُ مِنَ الشَّجَرِ هُوَ الَّذي يُعَوِّلُ النَّاسُ عَلَيْهِ إذا انْقَطَعَ الكَلَأُ والشَّجَرُ(3)، فالوُثْقَى هِيَ الأَكْثَرُ وثاقَةً مِنْ غَيْرِها في بابِ كَوْنِها صِفَةً للعُرْوَةِ.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

نفي الإجبار على الدخول في دين الإسلام؛ إذ التدين إذعانٌ قلبيٌّ

لكمال هذا الدين واتضاحِ آياته لا يُحتاج إلى الإكراه عليه، فالآيَةُ الكَريمَةُ تَنْهى عَنْ إِكْراهِ النَّاسِ على الدُّخولِ في دينِ الإسلام، قَسْرًا وجَبْرًا، بأَيِّ صورَةٍ كانَتْ؛ لأَنَّ طَريقَ الرُّشْدِ قَدْ تَبَيَّنَ وتَمَيَّزَ مِنَ الغَيِّ، ولَمْ يَعُدِ الأَمْرُ مُلْتَبِسًا عَلى أَحَدٍ، ليَتَذَرَّعَ بالجَهْلِ وضَعْفِ البَصيرَةِ، وتَفَرَّعَ عَلى ذَلِكَ وُجوبُ الكُفْرِ بكُلِّ مَعْبودٍ مِنْ دونِ اللَّهِ تَعالى، والإيمانِ باللَّهِ وَحْدَهُ، ووَصَفَتْ حالَ مَنْ يُحَقِّقُ الكُفْرَ بالطَّاغوتِ والإيمانَ باللَّهِ،

---

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.

(2) الهروي، الغريبين، والراغب، المفردات: (عرو)، والسمين، الدر المصون: 2/548، وحنفي، غريب القرآن، ص: 223، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (وثق).

بأَنَّهُ مُسْتَمْسِكٌ بعُرْوَةِ الإِسْلامِ الوُثْقى، وقِلادَةِ الإيمانِ العُظْمى، الَّتي لا تَكْسِرُها المَطاعِنُ ولا الشُّبُهاتُ ولا الشَّهوات، فَضْلًا عن التّفريط في صاحِبِها، بأَنْ تَتْرُكَهُ حائرًا تائهًا، واللَّهُ سَميعٌ لدُعاءِ المُسْتَجيبينَ، عَليمٌ بنِيّاتِهِمْ وقُلوبِهِمْ، فلا يَخْفى عَلَيْهِ إيمانُ المُؤْمِنِ، مِنِ ادِّعاءِ المُنافِقِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَراعَةُ الاسْتِهْلالِ بالنَّفْي:

إيثار النفي بـ (لا) النَّافِيَةِ للجِنْسِ مَنْعٌ لجَميعِ أَنْواعِ الإِكْراهِ

بَدَأَت الآيَةُ بالنَّفْي بلا النَّافِيَةِ للجِنْسِ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾؛ ليَشْمَلَ جَميعَ أَنْواعِ الإِكْراهِ وأَشْكاله؛ المادِّيَّة، والمَعْنَوِيَّة، والنَّفْسِيَّة، والأُسَرِيَّة، والاجْتِماعِيَّة، فهِيَ إِنْشاءٌ لبَنْدٍ مِنْ بُنودِ حُقوقِ الإِنْسانِ، في أَلَّا يُمارَسَ على أَحَدٍ أَيُّ إِكْراهٍ ليُغَيِّرَ ما يَرْتَضيه لنَفْسِهِ دينًا، "ونَفْيُ الإِكْراهِ خَبَرٌ في مَعْنى النَّهْي، والمُرادُ نَفْيُ أَسْبابِ الإِكْراهِ في حُكْمِ الإِسْلامِ، أَيْ: لا تُكْرِهوا أَحَدًا عَلى اتِّباعِ الإِسْلامِ قَسْرًا، وجيءَ بنَفْيِ الجِنْسِ لقَصْدِ العُمومِ نَصًّا"[1].

قصديّة اخْتيارِ كَلِمَةِ الإكْراهِ لفظًا، وصيغةً:

في اخـتـيـار لـفـظ الإكــراه مُراعاةٌ للجانِبِ الـنَّـفْـسيّ، ودَفْـعٌ لمَظِنَّةِ إكْـراهِ الـنَّـاسِ عَـلـى الـخَـيْرِ، ومصدريّته دليل عمومه

والإِكْراهُ: خِلافُ الرِّضا والمَحَبَّةِ، ويُقالُ في حَمْلِ الإِنْسانِ عَلى ما يَكْرَهُهُ[2]، قَسْرًا وجَبْرًا، فهُوَ مُراعًى فيهِ الجانِبُ النَّفْسِيُّ، واسْتُعْمِلَ لَفْظُ الإِكْراهِ؛ لأَنَّ الإِنْسانَ قَدْ يَقومُ بما أُكْرِهَ عَلَيْهِ ظاهِرًا، وفي الباطِنِ غَيْرُ راضٍ، كما قالَ تَعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106] واللَّهُ لا يَرْضى إلَّا الدِّينَ الخالِصَ. والمجيء به على صيغة المصدر مجرّدًا من الزّمن دليلُ استغراقه كلّ أنواع الإكراه، وشموله كلّ وجوهه، واحتمالاته؛ لأنّ المصدر أقوى في الدلالة على الحدث من الاسم والفعل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/25.
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (كره).

الظرفية إيذانٌ بالتغلغل في جَميعِ مَعاني الدِّينِ العَقَديَّةِ

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

وأَفادَ حَرْفُ الظَّرْفِيّةِ (في) التَّغَلْغُلَ في جَميعِ مَعاني الدِّين العَقَديَّةِ، مِمَّا يَراهُ أَهْلُ الحَقِّ خَيْرًا؛ لأَنَّهُ خِلافُ المَقْصود.

دلالة أل في (الدين) اسْتِحْضارٌ للمَعْهودِ الذِّهْنيِّ (الاسلام)، والتَّقْديرِ الذِّهْنِيِّ (دين الله)

نَوْعُ اللّامِ في كَلِمَةِ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في نَوْعِ اللَّامِ في كَلِمَةِ ﴿ٱلدِّينِ﴾ عَلى قَوْلَيْنِ: القَوْلُ الأَوَّلُ: العَهْدُ الذِّهْنِيُّ، وهُوَ الَّذي يَتَبادَرُ إِلى الأَذْهانِ عِنْدَ الإِطْلاقِ، وهُوَ دينُ الإِسْلام. والقَوْلُ الثَّاني: بَدَلٌ مِنَ الإِضافَةِ، أيْ: بَدَلٌ مِنَ المُضافِ إِلَيْهِ المَحْذُوفِ، والمُرادُ: في دينِ اللَّه[1]. والمَعْنَيانِ مُتَقارِبانِ، فالإِسْلامُ هُوَ المَعْهودُ الذِّهْنِيُّ، وهُوَ يَحْتاجُ إِلى اسْتِحْضارِ المَعْنى، وَلِكَوْنِها بَدَلًا مِنَ الإِضافَةِ تَحْتاجُ إِلى اسْتِحْضارِ التَّقْديرِ الذِّهْنِيِّ، وهُوَ: دينُ اللَّهِ؛ فكِلا المَعْنَيَيْنِ مُتَقارِبٌ.

سرُّ إيثار لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ على لفظ (الإسلام):

إقامَةُ قانونٍ دَوْلِيٍّ، وعُرْفٍ إنْسانِيٍّ، في رَفْضِ أَيِّ مُمارَسَةٍ لإِكْراهِ النَّاسِ عَلى أَيِّ دينٍ كانَ

آثَرَتِ الآيَةُ كَلِمَةَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دونَ كَلِمَةِ (الإِسْلام)، مَعَ أَنَّها أَوْضَحُ عِبارَةً؛ إِشارَةً إِلى تَعْليمِ النَّاسِ جَميعًا أَنَّ الدِّينَ لا إِكْراهَ فيه، فالمُرادُ دينُ الإِسْلام صَراحَةً، وجَميعُ الأَدْيانِ إِشارَةً، تَعْريضًا بِمَنْ يُكْرِهُ النَّاسَ عَلى دينِهِ مِنْ أَرْبابِ الأَدْيانِ والنِّحَلِ والمِلَلِ الأُخَر، فَرِسالَةُ هَذِهِ الكَلِمَةِ البَليغَةِ هِيَ إِقامَةُ قانونٍ دَوْليٍّ، وعُرْفٍ إِنْسانيٍّ عادِلٍ، يَرْفُضُ أَيَّ مُمارَسَةٍ في إِكْراهِ النَّاسِ عَلى أَيِّ دينٍ كانَ، وهَذا مِنْ بَراعَةِ الكَلِمَةِ القُرْآنِيَّةِ، وبَلاغَتِها الكَوْنِيَّةِ في التَّواصُلِ الإِيجابِيِّ مَعَ الأُمَمِ الأُخْرَى.

بلاغة التَّوكيد والتَّعليل في جملة تبيّن الرّشد:

أَفادَ حَرْفُ قَدْ في قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ التَّحْقيقَ المُؤَكِّدَ لِزِيادَةِ تَقْريرِ مَضْمونِه[2]، وأُشْرِبَتِ الجُمْلَةُ مَعْنَى التَّعْليلِ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/15، والسمين، الدر المصون: 2/547.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/249.

كَأَنَّهُ قيلَ: لا إِكْراهَ في الدِّينِ؛ لأَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ تَبَيُّنًا بَيِّنًا، فالجُمْلَةُ "لا مَحَلَّ لَها مِنَ الإِعْرابِ؛ لأَنَّها اسْتِئْنافٌ جارٍ مَجْرى التَّعْليلِ لِعَدَمِ الإِكْراهِ في الدِّينِ"(1).

أفادَ حرفُ قد زيادةَ تقريرِ مَضمونِ الجملةِ، وأُشْرِبَتِ الجُمْلَةُ مَعْنَى التَّعْليلِ

دِقَّةُ اسْتِعمالِ كَلِمَةِ ﴿تَبَيَّنَ﴾ في مَعْنَيَيْنِ مُتَقابِلَيْن:

التَّقابُلُ المَعْنَوِيُّ بَيْنَ الوُصولِ والانْقِطاعِ، والعِلْمِ والجَهْلِ، والاسْتِنارَةِ والظَّلامِ

واسْتُعْمِلَ التَّبَيُّنُ في إِبْرازِ مَعْنَيَيْن، وهُما: الرُّشْدُ والغَيُّ، واللُّغَوِيُّونَ والمُفَسِّرونَ يُفَسِّرونَ أَحَدَهُما بِجَعْلِهِ خِلافَ الآخَرِ، وهَذا مِنْ دَقيقِ المُقابَلَةِ في اللُّغَةِ والاسْتِعْمالِ القُرْآنيِّ؛ فالرُّشْدُ يَدُلُّ عَلى السَّدادِ في الطَّريقِ إِلى حينِ الوُصولِ إِلى الهَدَفِ، والغَيُّ ضَلالٌ ناشِئٌ عَنْ جَهْلٍ بالطَّريقِ المَسْلوكِ حَتَّى يَقَعَ سالِكُهُ فَريسَةً للشَّيْطانِ، ومِنْ هُنا كانَ اسْتِعْمالُ كَلِمَةِ ﴿تَبَيَّنَ﴾ في غايَةِ الوُضوحِ والانْكِشافِ؛ لأَنَّها مايَزَتْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَسْلُكانِ طَريقَيْنِ مُتَضادَّيْنِ مُتَباعِدَيْنِ، أَحَدُهُما رُشْدٌ، والآخَرُ غَيٌّ، الأَوَّلُ يَصِلُ، والثَّاني يَنْقَطِعُ، "فكانَ المُرادُ أَنَّهُ حَصَلَتِ البَيْنونَةُ بَيْنَ الرُّشْدِ والغَيِّ بِسَبَبِ قُوَّةِ الدَّلائِلِ وتَأْكيدِ البَراهينِ، وعَلى هَذا كانَ اللَّفْظُ مُجْرًى عَلى ظاهِرِهِ"(2)، أَيْ: ظاهِرِ الاسْتِعْمالِ اللُّغَوِيِّ.

بَلاغةُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيَّةِ البَديعَةِ:

بيانُ الاسْتِعارَةِ تَشْبيهُ الرُّشْدِ بِرَجُلٍ يَعْمَلُ عَلى التَّخَلُّصِ مِنَ الباطِلِ، والانْفِصالِ عَنْهُ

في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ بَديعَةٌ، فكَأَنَّ الرُّشْدَ رَجُلٌ تَخَلَّصَ مِنَ الغَيِّ، وانْفَصَلَ عَنْهُ انْفِصالًا تامًّا، بَعْدَ طولِ مُعاناةٍ ومُجاهَدَةٍ، بِدَلالَةِ حَرْفِ ﴿مِنَ﴾ الدَّالِّ عَلى "الفَصْلِ والتَّمْييزِ"(3)، ويُشْعِرُ لَفْظُ التَّبَيُّنِ بِتَزَحْزُحِ شَيْءٍ عَنْ آخَرَ بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ، حَتَّى يَنْفَرِدَ كُلٌّ مِنْهُما عَنِ الآخَرِ بانْكِشافٍ ووُضوحٍ، ولِذَلِكَ "ضُمِّنَ مَعْنَى تَمَيَّزَ؛ فلِذَلِكَ عُدِّيَ بِمِنْ"(4). وإِسْنادُ التَّبَيُّنِ إِلى

---

(1) السمين، الدر المصون: 2/547.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/16.

(3) السمين، الدر المصون: 2/547.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/25.

الرُّشْدِ إِسْنادٌ مَجازِيٌّ، لبَيانِ قيمَةٍ عَقَديَّةٍ، وهِيَ أَنَّ أَهْلَ الحَقِّ هُمْ مَنْ يَسْعى إلى التَّمَيُّزِ والانْفِصالِ عَنْ أَهْلِ الغَيِّ، وبذَلِكَ اسْتَحَقُّوا الذِّكْرَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾، مَعَ إِغْفالِ ذِكْرِ الغافِلينَ السّاقِطينَ في مُغْوّاةِ باطِلِهِمْ، وهَذا مِنَ المَدْحِ البَليغِ للمُسْتَمْسِكينَ بالعُرْوَةِ الوُثْقى.

سَبَبُ التَّعْبيرِ بالطّاغوتِ:

اسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ لما تَحْويهِ مِنَ العُمومِ والتَّعْليلِ، فهِيَ مِنَ الأَلْفاظِ الجامِعَةِ

اسْتُعْمِلَتْ كَلِمَةُ (الطاغوت) في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ دونَ غَيْرِها لما تَحْويهِ مِنَ العُمومِ والتَّعْليلِ، أَمَّا العُمومُ فهُوَ اشْتِمالُها عَلى جَميعِ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللّٰهِ تَعالى، وأَمَّا التَّعْليلُ، فلِتَضَمُّنِها مَعْنى تَجاوُزِ الحَدِّ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ إيصالِ المَعْنى المُرادِ، بالأَلْفاظِ الجامِعَةِ.

علّةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ:

بَيانُ وُجوبِ الحَذَرِ المُتَجَدِّدِ مِنَ الكُفْرِ، وتَجْديدِ الإيمانِ

تَفَرَّعَتْ جُمْلَةُ ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ عَنِ السّابِقَةِ، بَيانًا لِحالِ المُتَبَيِّنِ المُنْفَصِلِ مِنَ الغَيِّ، وهَذا يُرَشِّحُ الاسْتِعارَةَ، وأَتَتْ بالفِعْلِ المُضارِعِ دونَ الماضي في ﴿يَكۡفُرۡ﴾ و﴿وَيُؤۡمِنۢ﴾، مَعَ مُناسَبَتِهِما لـ ﴿تَّبَيَّنَ﴾ و﴿ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ سِباقًا ولَحاقًا؛ لدَلالَتِهِ عَلى وُجوبِ الحَذَرِ المُتَجَدِّدِ، فالرّاشِدُ يَمْضي في طَريقِهِ مُجَدِّدًا الكُفْرَ بالطّاغوتِ، والإيمانَ باللّٰهِ، وأَنَّ الاسْتِمْساكَ بَعْدَ التَّبَيُّنِ مَنوطٌ بِذَيْنِكَ الأَمْرَيْنِ مَعًا، "وعُطِفَ ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ عَلى الشَّرْطِ؛ لأَنَّ نَبْذَ عِبادَةِ الأَصْنامِ لا مَزِيَّةَ فيهِ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَوَّضَها بِعِبادَةِ اللّٰهِ تَعالى"(1).

بلاغة تَقْديمِ لَفْظِ الكُفْرِ عَلى الإيمانِ:

الكُفْرُ بالطّاغوتِ هُوَ أَوَّلُ أَعْمالِ المُتَبَيِّنِ، وللعِنايَةِ بِهِ، والإشارَةِ إلى التَّرْتيبِ

قُدِّمَ ذِكْرُ الكُفْرِ عَلى الإيمانِ في قولِهِ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّ الكُفْرَ بالطّاغوتِ هُوَ أَوَّلُ أَعْمالِ التَّبَيُّنِ مِنَ الغَيِّ؛ فالتَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، "واهْتِمامًا بوجوبِ الكُفْرِ بالطّاغوتِ، وناسَبَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.

اتِّصالُهُ بلَفْظِ الغَيِّ"[1]، "وفيهِ إشارَةٌ إلى أَنَّهُ لا بُدَّ للكافِرِ مِنْ أَنْ يَتوبَ أَوَّلًا عَنِ الكُفْرِ، ثُمَّ يُؤْمِنَ بَعْدَ ذَلِكَ"[2]؛ إذ لا يستقيم الإيمانُ إلا بعد نزع كلّ العقائد الباطلة.

بَراعَةُ اخْتِيارِ أَلْفاظِ (الاسْتِمْساكِ، والعُرْوَةِ، والوُثْقى):

اخْتارَ النَّظْمُ الكَريمُ في قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ ثَلاثَةَ أَلْفاظٍ عَريقَةٍ؛ لتَصْويرِ هَيْئَةِ المُسْتَمْسِكِ بالإسْلامِ.

اختيارُ ألفاظِ (الاسْتِمْساكِ والعُروَةِ والوُثْقى)، يُصَوِّرُ دِقَّةَ النَّظْمِ في تَجْلِيَةِ صورَةِ المُسْتَمْسِكِ

وفَهْمُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيَّةِ بجَلاءٍ، مُتَوَقِّفٌ عَلى تَحْقيقِ هَذِهِ الأَلْفاظِ برَواءٍ، فهِيَ مادَّةُ الصُّورَةِ البَيانِيَّةِ، ومَضْمونُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيَّةِ، وسَبيلُ الهَيْئَةِ الكُلِّيَّةِ.

فأَمَّا الاسْتِمْساكُ: فهُوَ التَّعَلُّقُ بالشَّيْءِ بشِدَّةٍ والتِصاقٍ وتَحَرٍّ ومُبالَغَةٍ، فهُوَ تَأْكيدٌ لمَعْنى المَسْكِ والمُحافَظَةِ عَلى الشَّيْءِ، لا إِنْشاءٌ لَهُ، وهُنا التَّأْكيدُ أَبْلَغُ مِنَ التَّأْسيسِ، والتَّعْبيرُ بالاسْتِمْساكِ يوحي بمَكانَةِ المُسْتَمْسَكِ بِهِ البالِغَةِ، وأَنَّهُ لا تَصِحُّ الاسْتِهانَةُ بِهِ بحالٍ، "ويَدُلُّ عَلى أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بجَميعِ مَناشِئِ الطُّغْيانِ، ويَعْتَصِمْ بالحَقِّ اليَقينِ مِنْ أُصولِ الإيمانِ، فهُوَ لا يعدُّ مُسْتَمْسِكًا بالعُرْوَةِ الوُثْقى"[3].

والعُرْوَةُ: الشَّيْءُ الَّذي يُتَعَلَّقُ بِهِ ويُتَمَسَّكُ بِهِ بقَصْدِ النَّجاةِ، والوُثْقى: هِيَ الأَمْرُ المُحْكَمُ المَوْثوقُ بِهِ في الضَّروريَّاتِ؛ فالوُثْقى هِيَ الأَكْثَرُ وَثاقَةً مِنْ غَيْرِها في بابِ كَوْنِها صِفَةً لِلْعُرْوَةِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيَّةِ:

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ اسْتِعارَةٌ تَرْكيبِيَّةٌ تَمْثيلِيَّةٌ، تُصَوِّرُ مَنْ كَفَرَ بالطَّاغوتِ وآمَنَ باللَّهِ تَعالى، تَصْويرًا حِسِّيًّا حَيْثُ إِنَّ "الاسْتِمْساكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقى تَمْثيلِيٌّ،

تَصْويرُ المَعْنى للقارِئِ، كأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فيُنْقَشُ مَعْناهُ في قَلْبِهِ

(1) السمين، الدر المصون: 2/548، ويُنظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/344.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/16.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/32.

شُبِّهَتْ هَيْئَةُ المُؤْمِنِ في ثَباتِهِ عَلى الإيمانِ بهَيْئَةِ مَنْ أَمْسَكَ بعُرْوَةٍ وُثْقى مِنْ حَبْلٍ، وهُوَ راكِبٌ عَلى صَعْبٍ أَوْ في سَفينَةٍ في هَوْلِ البَحْرِ، وهِيَ هَيْئَةٌ مَعْقولَةٌ شُبِّهَتْ بهَيْئَةٍ مَحْسوسَةٍ؛ فالمَعْنى أَنَّ المُؤْمِنَ ثابِتُ اليَقينِ، سالِمٌ مِن اضْطِرابِ القَلْبِ في الدُّنْيا، وهُوَ ناجٍ مِنْ مَهاوي السُّقوطِ في الآخِرَةِ؛ كحالِ مَنْ تَمَسَّكَ بعُرْوَةِ حَبْلٍ مَتينٍ لا يَنْفَصِمُ"[1].

فهُوَ "تَمْثيلٌ للمَعْلومِ بالنَّظَرِ، والاسْتِدْلالِ بالمُشاهَدِ المَحْسوسِ، حَتَّى يَتَصَوَّرَهُ السَّامِعُ كأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بعَيْنِهِ، فيُحْكِمَ اعْتِقادَهُ والتَّيَقُّنَ بهِ"[2].

وقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ في مَوْضِعَيْنِ في القُرْآنِ الكَريمِ، هُنا وفي [لُقمان: 22]، فَشابَهَتْ أَنْ تَكونَ تَرْكيبًا مَقْصودًا، والجُمْلَةُ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ في المَوْضِعَيْنِ، للمُسْتَمْسِكِ بالإسْلامِ والإيمانِ، وسِياقُ الآيَتَيْنِ - لاسِيما اللَّحاقُ في المَوْضِعَيْنِ - حَديثٌ عَنْ حالِ النَّاسِ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وكافِرٍ، فكانَ لِكُلِّ اسْتِعْمالٍ بَلاغَتُهُ البَديعَةُ، وحُسْنُهُ الذَّائِعُ، وسورَةُ البَقَرَةِ وسورَةُ لُقْمانَ مِنَ السُّوَرِ الَّتي بَيْنَها تَشابُهٌ مِنْ حَيْثِيَّاتٍ كَثيرَةٍ، هَذِهِ إِحْداها، وإِنْ صَحَّ وَصْفُ سورَةِ لُقْمانَ بالبَقَرَةِ الصُّغْرى، فهُوَ وَصْفٌ لَيْسَ بمَعْزِلٍ عَنِ التَّقْريبِ.

نكتة استعمال (اللام) دون (في):

اسْتِعْمالُ (اللَّامِ) دونَ (في) يُشيرُ إلى نَفْيِ الانْفِصامِ بسَبَبٍ داخِلِيٍّ أَوْ خارِجِيٍّ

مُقْتَضى الظَّاهِرِ أَنْ يَقولَ: لا انْفِصامَ فيها، أَيِ: العُرْوَةِ، لَكِنَّ النَّظْمَ جاءَ باللَّامِ، وبَيانُ ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ الانْفِصامِ قَدْ يَكونُ داخِلِيًّا أَوْ خارِجِيًّا، فدَلَّ حَرْفُ الظَّرْفِيّةِ عَلى نَفْيِ قابِلِيَّتِها الذَّاتِيَّةِ للانْفِصامِ، وأَمَّا اللَّامُ فدَلَّ عَلى نَفْيِ تَعَرُّضِها لأَمْرٍ خارِجِيٍّ فتَنْفَصِمُ بسَبَبِهِ، فلَزِمَ عَنْ ذِكْرِ اللَّامِ نَفْيُ الانْفِصامِ؛ بسَبَبٍ خارِجِيٍّ أَصالَةً، وداخِلِيٍّ تَبَعًا؛ لأَنَّ الَّذي يَصْمُدُ أَمامَ أَسْبابِ الانْفِصامِ الخارِجِيَّةِ مَتينٌ في ذاتِهِ، وهُوَ ما يُفَسِّرُ لنا سَبَبَ صُمودِ القُرْآنِ أَمامَ هَجَماتِ المَطاعِنِ والشُّبُهاتِ عَلى مَدى التَّاريخِ الإسْلامِيِّ، وفي اللَّفْظِ عِدَةٌ مِنَ اللّهِ تَعالى، لِمَنْ يَسْتَمْسِكُ بالقُرْآنِ أَنْ لا خَلَلَ يَقْرَبُهُ، ولا شَكَّ يَعْتَريهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29، ويُنظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/344، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/16، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250، والآلوسي، روح المعاني: 2/15، ورشيد رضا، تفسير المنار: 3/32.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/304.

بَلاغَةُ التعبير بـ (السَّميع العَليم) في الفاصِلَةِ:

خُتِمَتِ الآيَةُ باسْمَي اللَّهِ تَعالى السَّميع العَليم، وقَدْ جاءا مُنَكَّرَيْنِ إخْبارًا عَنْ صِفاتِ اللَّهِ تَعالى، فتَنْكيرُ ﴿سَمِيعٌ﴾ مِنْ شَأْنِه لَفْتُ الأنْظارِ إلى الاسْتِجابَةِ لِمَنْ يَدْعو اللَّه أَنْ يُثَبِّتَهُ بالاسْتِمْساكِ بالعُرْوَةِ الوُثْقى، وتَنْكيرُ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِنْ شَأْنِه التَّنْبيهُ عَلى عِلْمِهِ سُبْحانَهُ بما في الضَّمائِرِ والقُلوبِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ مَعَ النَّهْيِ عَنِ الإكْراهِ في الدِّينِ؛ لأَنَّ اللَّه يُريدُ قَلْبًا مُقْبِلاً لا مُكْرَهًا، "ولَمَّا كانَ الكُفْرُ بالطَّاغوتِ والإيمانُ باللَّه مِمَّا يَنْطِقُ بِهِ اللِّسانُ ويَعْتَقِدُهُ القَلْبُ؛ حَسُنَ في الصِّفاتِ ﴿سَمِيعٌ﴾ مِنْ أَجْلِ النُّطْقِ، و﴿عَلِيمٌ﴾ مِنْ أَجْلِ المُعْتَقَدِ"[1].

انْتِقاءُ (السَّميع العَليم) لبَيانِ اسْتِجابَةِ الدُّعاءِ، وقَبولِ المُعْتَقَدِ، تَرْغيبًا وتَرْهيبًا

والفاصِلَةُ فيها تَرْغيبٌ بالإيمانِ تُنْبِئُ عَنْهُ صِفَةُ ﴿سَمِيعٌ﴾، وتَرْهيبٌ ضِمْنِيٌّ تُنْبِئُ عَنْهُ صِفَةُ ﴿عَلِيمٌ﴾، "فالجُمْلَةُ اعْتِراضٌ تَذْييلِيٌّ حامِلٌ عَلى الإيمانِ، رادِعٌ عَنِ الكُفْرِ والنِّفاقِ، بما فيهِ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَصْمُ والقَصْمُ:

الفَصْمُ هُوَ أَنْ يَنْصَدِعَ الشَّيْءُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبينَ، بخِلافِ القَصْمِ فهُوَ أَنْ يَنْكَسِرَ الشَّيْءُ فيَبينَ[3]، فهُوَ كَسْرٌ يَنْشَأُ عَنْهُ انْقِطاعٌ جُزْئِيٌّ لا كُلِّيٌّ، ولِذلِكَ "قيلَ للسُّيوفِ إذا كانَ بِها فُلولٌ: بِها فَصْمٌ"[4]، وفُسِّرَ الانْفِصامُ بالانْقِطاعِ والانْكِسارِ[5]، بإطْلاقِ العِبارَةِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ دَقيقًا، فهُوَ أَخَصُّ مِنَ الكَسْرِ والقَطْعِ، فالتَّعْبيرُ بالفَصْمِ في قوله ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ يَدُلُّ عَلى أَنَّ العُرْوَةَ لا يَحْصُلُ لَها قَطْعٌ أَوْ كَسْرٌ

الفَصْمُ كَسْرٌ جُزْئِيٌّ دونَ إبانَةٍ، فدَلَّ عَلى مَعْنى القَصْمِ تَبَعًا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/344.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250، ويُنظر: رضا، تفسير المنار: 3/33.
(3) الخليل، العين، وأبو عبيد، غريب الحديث، والهروي، الغريبين: (فصم).
(4) العسكري، تصحيفات المحدثين: 1/258.
(5) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 93، والسجستاني، نزهة القلوب، ص: 101.

جُزْئِيٌّ، فالكُلِّيُّ مَنْفِيٌّ بالأَوْلى، ولَوْ قالَ: لا انْقِصامَ لَها، لما تَعَيَّنَ هَذا الفَرْقُ، "والمَقْصودُ مِنْ هَذا اللَّفْظِ المُبالَغَةُ، لأَنَّهُ إذا لَمْ يَكُنْ لَها انْفِصامٌ، فأَنْ لا يَكونَ لها انْقِطاعٌ أَوْلى"[1]، ولِمَا في التَّعْبيرِ بالانْفِصام مِنِ انْسِجام صَوْتِيٍّ لا يَخْفَى، ولَوْ جاءَتْ بالقافِ لَوَقَعَ قَصْمٌ صَوْتِيٌّ في الأُذُنِ. ومِنْ هُنا تَظْهَرُ دِقَّةُ التَّعْبيرِ، فالفَصْمُ هُوَ كَسْرٌ جُزْئِيٌّ يَنْشَأُ عَنِ انْصِداعٍ دونَ إبانَةٍ.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/16.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: 257]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قامَتِ الآيةُ مَقامَ التَّعْليلِ والبَيانِ للآيَةِ السَّابِقَةِ، فنُزِّلَتْ مَنْزِلَةَ الجَوابِ عَنْ سُؤالِ سائلٍ: لماذا الكُفْرُ بالطَّاغوتِ والإيمانُ باللهِ اسْتِمْساكٌ بالعُرْوَةِ الوُثْقى؟ فكان الجَوابُ: لأَنَّ اللهَ وَليُّ المُؤْمنينَ، فهُوَ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، فاسْتِمْساكُ المُؤْمنينَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى التي هِيَ طَريقُ النَّجاةِ دَعْوى، ودَليلُها تَوَلِّي اللهِ لهُمْ، فما كان لاسْتِمْساكٍ أَنْ يَدومَ إلا بوِلايَةِ اللهِ تَعالى[1].

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ للآيَتَيْنِ اللَّاحِقَتَيْنِ:

مِـهـادٌ وتَـوْطِـئَـةٌ عَـنْ طَـريـقِ فَـنِّ الـلَّـفِّ والـنَّـشْـرِ التَّمْثيلِيِّ

مَقامُ الآيَةِ مَعَ الآيَتَيْنِ اللاحِقَتَيْنِ مَقامُ اللَّفِّ والنَّشْرِ[2] غَيْرِ المُرَتَّبِ جاءَ عَلى طَريقَةِ التَّفْصيلِ، فقَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ نَشْرُهُ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ نَشْرُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]، فجَعَلَ لكُلِّ جُمْلَةٍ مَثَلًا، فمَثَلُ الذينَ يُخْرِجُهُمُ اللّهُ مِنَ الظُّلماتِ إلى النّورِ، مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ، ثُمَّ آمَنَ فأَقَرَّ بِهِ، ومَثَلُ الَّذينَ يُخْرِجُهُمُ الطّاغوتُ مِنَ النّورِ إلى الظُّلُماتِ، الَّذي حاجَّ إِبْراهيمَ في رَبِّهِ، وهَذا مِنْ بَديعِ مُبْتَكَراتِ بَلاغَةِ القُرْآنِ

(1) ينظر هذا المعنى عند البقاعي، نظم الدرر: 44/4.

(2) قال المبرد: "العرب تلفُّ الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملةً، ثقةً بأنَّ السّامع يردُّ إلى كلٍّ خبَره"، الكامل في اللغة: 1/107. وقال السكاكي "اللف والنّشر: أن تلفَّ بين شيئين في الذّكر، ثم تُتبعهما كلامًا مشتملًا على متعلّق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقةً بأنَّ السّامع يردُّ كلًّا منهما على ما هو له". السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 425.

الكَريم، أَنْ دَمَجَ بَيْنَ فَنَّيْنِ: اللَّفِ والنَّشْرِ، والتَّمْثيلِ، وجَعَلَ مِنَ التَّمْثيلِ بَيانًا لما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وجاءَ عَلى طَريقَةِ اللَّفِّ والنَّشْرِ غَيْرِ المُرَتَّبِ، لِيَبْدَأَ بلَفْظِ الجَلالَةِ، ويَنْتَهيَ بالإيمانِ بالبَعْثِ، إشْعارًا بمَبْدَأ الأَمْرِ ومُنْتَهاهُ، وأنَّ ما بَيْنَهُما لا عِبْرَةَ فيه[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيُّ﴾: مَصْدَرُهُ الوَلْيُ وهُوَ القُرْبُ، وأَصْلُهُ المَطَرُ الذي يَأْتي بَعْدَ المَطَرِ، يُقالُ: وُلِيَتِ الأَرْضُ وَلْيًا، والاِسْمُ: الوَلِيُّ[2]، يُقالُ: "تَباعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، أَيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمَّا يَليني، أَيْ: يُقارِبُني"[3]، و"المُوالاةُ أَنْ يُواليَ بَيْنَ رَمْيَتَيْنِ أو فِعْلَيْنِ في الأَشْياءِ كُلِّها . وتَقولُ: عَلى الوَلاءِ، أَي: الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ"[4].

فمَعْنى الوَلْيِ: الشَّيْءُ القَريبُ التَّالي دونَ فاصِلٍ مادِّيٍّ أَوْ زَمانيٍّ، فهُوَ لَيْسَ التصاقًا، وجَميعُ الاسْتِعْمالاتُ تَدورُ حَوْلَ هَذا المَعْنى، يُقالُ: أَوْلى، أَيْ: أَحَقُّ، وذَلِكَ لقُرْبِه، سَواءٌ أَكانَ القُرْبُ مَعْنَويًا أَمْ ماديًا، و"الوَليُّ والمَوْلَى يُسْتَعْمَلانِ في تَوَلِّي الأَمْرِ"[5]، ولا يَتَوَلَّى الأَمْرَ إلَّا مَنْ كانَ قَريبًا، مِنْ حَيْثُ الدِّينُ، أو النَّسَبُ، أو الصَّداقَةُ، أَوْ غَيْرُها، ولِذَلِكَ حَسُنَ أنْ يُطْلَقَ "المَوْلى عَلى: المُنْعِمِ المُعْتِقِ، وعَلى المُنْعَمِ عَلَيْهِ المُعْتَقِ"[6]؛ لقُرْبِ كُلٍّ مِنْهُما مِنَ الآخَرِ.

2) ﴿يُخْرِجُهُم﴾: الإخْراجُ: نَقيضُ الإدْخالِ، وأَصْلُ الكَلِمَةِ مَأْخوذٌ مِنَ البُروزِ مِنَ المَقَرِّ أَوِ الحالِ[7]، فالعَرَبُ تَقولُ: ناقَةٌ مُخْتَرِجَةٌ، أَيْ: خَرَجَتْ عَلى خِلْقَةِ الجَمَلِ، وتُسَمِّي السَّحابَ أَوَّلَ ما يَبْدَأُ: الخَروجَ، والخُراجُ: وَرَمٌ وقَرْحٌ يَخْرُجُ مِنْ ذاتِه[8]، ومَعْنى الخُروجِ: الاِنْتِقالُ مِنْ داخِلٍ إلى خارِجٍ، ومِنْ باطِنٍ إلى ظاهِرٍ، مادِّيًّا أَوْ مَعْنَويًّا، فيَأْتي بمَعْنى الظُّهورِ؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: 11] ويَأْتي بمَعْنى الفِرارِ؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١﴾ [القصص: 21]، والإبْرازِ والإظْهارِ؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿وَنُخْرِجُ

---

(1) ينظر نحو هذا التناسب عند ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/3.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولي).
(3) ابن فارس، المقاييس: (ولي).
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) الراغب، المفردات: (ولي).
(6) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 46.
(7) الراغب، المفردات: (خرج).
(8) الخليل، العين: (خرج).

لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ [الإسراء: 13]، والنُّمُوّ الظَّاهِر؛ كقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 22]، والطَّرْد؛ كقَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: 34]، والتَّحَوُّلِ مِنْ حالٍ إلى أُخْرى؛ كقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ [طه: 88]، والمُغادَرَة؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]، والوِلادَة؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النحل: 78]، فالانْتِقالُ هُوَ المَعْنى الجامِعُ لجَميعِ هَذِهِ الآيات، "والإِخْرَاجُ أَكْثَرُ ما يُقالُ في الأَعْيانِ"[1].

3) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الظُّلْمَةُ: جَمْعُها: ظُلُماتٌ، وظُلَمٌ، والاِسْمُ الظَّلامُ، وهِيَ: عَدَمُ النُّورِ وذَهابُهُ، أَوْ حَجْبُ ما يَنْبَغي أو ما يُسْتَحَقُّ، أَيْ: مَنْعُهُ أَوِ انْتِقاصُهُ[2]، والظَّلامُ أَصْلُ الظُّلْمِ الذي يُقابِلُ الجَوْرَ، فالظُّلْمُ في حَقيقَتِهِ ظَلامٌ؛ لأَنَّ عَدَمَ إِعْطاءِ الشَّيْءِ حَقَّهُ هُوَ مَحْوٌ لِصِفاتِهِ، فَيُصْبِحُ الشَّيْءُ مُظْلِمًا؛ لأَنَّ نورَ الشَّيْءِ صِفاتُهُ، وبِدونِها فالأَمْرُ مُظْلِمٌ لا نورَ فيهِ، "والعَرَبُ تَقولُ: ظَلَمَ فُلانٌ سِقاءَهُ: إذا سَقاه قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَ زَبَدَهُ، ويُقالُ: ظَلَمْتَ الحَوْضَ: إِذا عَمِلْتَهُ في مَوْضِعٍ لا تُعْمَلُ فيهِ الحِياضُ، وأَرْضٌ مَظْلومَةٌ إذا لَمْ تُمْطَرْ"[3]، وهَذا كُلُّهُ حَجْبٌ ومَنْعٌ للصِّفاتِ المُسْتَحَقَّةِ.

4) ﴿ٱلنُّورِۖ﴾: هُوَ الضِّياءُ، والفِعْلُ: نارَ وأَنارَ، أَيْ: أَضاءَ، والنَّوْرُ: زَهْرُ الشَّجَرِ، وتَنْويرُ الشَّجَرَةِ: إِزْهارُها، وامْرَأَةٌ نَوارٌ: وهِيَ العَفيفَةُ النّافِرَةُ عَنِ الشَّرِّ والقَبيحِ، والجَميعُ: النُّورُ[4]، فأُطْلِقَ النُّورَ تَشبيهًا عَلى أَمْرٍ حِسِّيٍّ وهُوَ تَنْويرُ الشَّجَرَةِ، ومَعْنَوِيٍّ وهُوَ خُلُقُ المَرْأَةِ النّافِرَةِ عَنِ القَبيحِ، والجامِعُ بَيْنَهُما الأَصْلُ الواضِحُ النَّقِيُّ، وهَذا شَأْنُ النُّورِ، ولِذَلِكَ ورَدَ في الخَبَرِ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه فَرَضَ للجَدِّ، ثُمَّ أَنارَها، أَيْ: وضَّحَها وبَيَّنَها[5].

والنُّورُ هُوَ: الضَّوْءُ المُنْتَشِرُ الَّذي يُعينُ عَلى الإِبْصارِ، وذَلِكَ ضَرْبانِ: ضَرْبٌ مَعْقولٌ بِعَيْنِ البَصيرَةِ، وهُوَ ما انْتَشَرَ مِنَ الأُمورِ الإِلَهِيَّةِ كنورِ القُرْآنِ، ومَحْسوسٌ بِعَيْنِ البَصَرِ[6].

(1) الراغب، المفردات: (خرج).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ظلم).
(4) الخليل، العين: (نور).
(5) الهروي، الغريبين: (نور)، وابن الأثير، النهاية: 5/125.
(6) الراغب، المفردات: (نور).

5) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: الصَّاحِبُ: مَأْخوذٌ مِنَ الجِذْرِ الثُّلاثِيِّ (صَحِبَ)، "وكُلُّ شَيْءٍ لازَمَ شَيْئًا فقَدِ اسْتَصْحَبَهُ"[1]، فالصُّحْبَةُ "أَصْلُها الاجْتِماعُ؛ طالَ زَمَنُها أَوْ قَصُرَ"[2]، والصَّاحِبُ: "الْمُلازِمُ؛ إنْسانًا كانَ أَوْ حَيَوانًا، أَوْ مَكانًا، أَوْ زَمانًا، وَلا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبَدَنِ - وهُوَ الأَصْلُ والأَكْثَرُ -، أَوْ بالعِنايَةِ والهِمَّةِ"[3].

6) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخُلودُ: "تَبَرِّي الشَّيْءِ مِنِ اعْتِراضِ الفَسادِ، وبَقاؤُهُ عَلى الحالَةِ التي هُوَ عَلَيْها، وكُلُّ ما يَتَباطَأُ عَنْهُ التَّغْييرُ والفَسادُ تَصِفُهُ العَرَبُ بالخُلودِ"[4]، وأَصْلُ هَذِهِ المادَّةِ مِنَ الثَّباتِ والمُلازَمَةِ[5]، وجَميعُ الاسْتِعْمالاتِ لا تَخْرُجُ عَنْ هَذا المَعْنى، فالخالِدونَ في النَّارِ هُمُ الثَّابِتونَ المُلازِمونَ لَها.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تُبيِّنُ الآيَةُ مَعالِمَ الوِلايَةِ المَقْبولَةِ عِنْدَ اللهِ تَعالى الخاصَّةِ بِهِ دونَ سِواه، فاللهُ هُوَ وَلِيُّ المُؤْمِنينَ هِدايَةً ونُصْرَةً ورِعايَةً، ومِنْ شَأْنِ هَذِهِ الوِلايَةِ أَنْ تُخْرِجَ المُؤْمِنينَ مِنْ ظُلُماتِ الشَّكِّ والاضْطِرابِ والقَلَقِ إلى نورِ الإيمانِ والطُّمَأْنينَةِ والسَّكينَةِ.

وفي المُقابِلِ وِلايَةُ الكافِرينَ للطَّاغوتِ مُتَشَعِّبَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، لا تَرْسو عَلى حالٍ، ولا تَرْسُبُ في مَآل، ومن أعظم الطواغيتِ الشيطانُ الرجيم؛ فإنه يسلِّط عليهم عقوبةً لهم، فَهُمْ في دَيْمومَةِ الخُروجِ مِنْ أَسْبابِ النُّورِ والهِدايَةِ والإيمانِ، إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، وهُمْ بذَلِكَ يَسْتَحِقّونَ الصُّحْبَةَ السَّرْمَدِيَةَ في النَّارِ الأَبَدِيَةِ، كَما ارْتَضَوْا صُحْبَةَ الطَّاغوتِ الدَّائِمَةَ في الدُّنْيا الفانِيَةِ.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة العدول إلى الفصل بالاستئناف في الآية:

وردَ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على سبيل الاستئناف؛ لبيان الفرق بين

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (صحب).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (صحب).
(3) الراغب، المفردات: (صحب).
(4) الراغب، المفردات: (خلد).
(5) ابن فارس، المقاييس، والسمين، عمدة الحفاظ: (خلد).

عُدل إلى الاستئناف؛ لبيان الفرق بين الوليّين، وبين الطريقين

الوليّ الهادي والوليّ المضلّ، وبين طريق الحقّ والنّور، وطريق الظلمات، فلا بدّ من استئنافِ كلامٍ بأنْ يُقال: فقد ظهرَ الحقّ من الباطل، فمن سلك طريق الحقّ فقد رُشد وهُدي، ومن خبط في ظلمات الباطل فقد ضلّ وغوى؛ لأن من يكون هاديه اللّه يخرجه من الظلمات إلى النور، ومن يكون مضلّه الطاغوت فالحكم بالعكس[1].

وجه الفصل وقوع الآية موقع التعليل لما قبلها

وقع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ موقع التَّعليل لقوله تعالى في الآية قبلها: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: 256]؛ "لأن الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا باللّه قد تولوا اللّه فصار وليهم، فهو يقدر لهم ما فيه نفعهم وهو ذب الشبهات عنهم، فبذلك يستمرّ تمسّكهم بالعروة الوثقى ويأمنون انفصامها، أي: فإذا اختار أحدٌ أنْ يكونَ مسلمًا فإن اللّه يزيده هدى"[2].

جمال صحّةِ التّقسيم في الآية:

في صحّة التّقسيم بيانٌ لأحوال ولاية المؤمنين والكافرين ومآليهما هدايةً، وغوايةً

ومن البديع صحةُ التقسيم الممثّل في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[3]؛ إذ قسَّم الجملة قسمة مستوية تحتوي على صورتي الولايتين، وما يخلص عنهما من طريق فلا يندُّ عنهما وجه. وحسن التقسيم ههنا لكونه بيانًا لأحوال ولاية المؤمنين والكافرين ومآليهما هدايةً، وغوايةً على صيغة إبلاغيّة إرشاديّة بيّنة قاطعة للاحتمال والتأويل.

بَديعُ المُطابَقَةِ الجمليّة واللفظيّة[4]:

في الآيَةِ طِباقٌ بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، وجُمْلَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، وتَظْهَرُ لَذَّةُ المُطابَقَةِ في كَوْنِها

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/498.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/30.
(3) بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ص: 114.
(4) المطابقة: الجمع بين الشيء وضدّه في جزءٍ من أجزاء الكلام. يُنظر: العسكري، الصناعتين، ص: 307.

في الطباق بين جملتي الآية إظهارٌ جمال الولايَةِ الإلَهيَّةِ، وإبرازٌ شَناعَةِ الولايَةِ الكُفْريَّةِ بالتَّضادِّ

قابَلَتْ بَيْنَ وِلايَتَيْنِ مُتَضادَّتَيْنِ، تَضَمَّنَتْ كُلٌّ مِنْهُما: الوَلِيَّ، والمُتَوَلَّى، ونَتيجَةَ الوِلايَةِ، فأَظْهَرَتْ كُلُّ جُمْلَةٍ مَزِيَّةَ الأُخْرى، فلا يُظْهِرُ جمالَ الوِلايَةِ الإِلَهِيَّةِ للذينَ آمَنوا شَيْءٌ، كوِلايَةِ الطّاغوتِ للَّذينَ كَفَروا، ولا يُبْرِزُ شَناعَةَ الكافِرينَ في مُوالاةِ الطَّاغوتِ شَيْءٌ، كَسَعادَةِ إخْراجِ المُؤْمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ.

الطباق في ألفاظ الآية إفصاحٌ عن دلالة الربط المؤدّي إلى مزيدِ إيْضاحٍ للمعنى، وترسيخ دلالة المبنى

وفي الآية طباق على مستوى الألفاظ بين: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، و﴿كَفَرُوٓاْ﴾، وبين: ﴿ٱلنُّورِ﴾، و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وفي هذا الطباق إفصاحٌ عن دلالة الرَّبط في الآية الكريمة المؤدّي الى مزيدِ إيْضَاحٍ للمعنى، وبيانه، وترسيخ دلالة مبناه؛ بما يسبّبه من شدٍّ، وجذب على النَّفْس المتلقية له قراءةً، وتدبّرًا. وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيّة للطباق بالوظيفة التأثيريّة التي يترسّخ من خلالها المنهج الفطريّ السّليم للنَّفس البشريّة باتبّاع الإيمان، ونبذ الكفر، والاستبشار بالنّور واتّباعه، والنّفرة من الظلمة ونبذها.

بَلاغَةُ التّعبير بالجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ:

دلالة اسميّة الجملة دَيْمومَةُ وِلايَةِ اللهِ لِلمُؤْمِنينَ، وبَيانُ عَلاقَتِها بالعُرْوَةِ الوُثْقى

الجُمْلَةُ الاِسْمِيَّةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، تُعَيِّنُ ثُبوتَ وِلايَةِ اللهِ تَعالى للذينَ آمَنوا، وأنَّها وِلايَةٌ دائِمَةٌ لا تَنْقَطِعُ، وهُوَ ما يُرَشِّحُ قُوَّةَ عَلاقَةِ العُرْوَةِ الوُثْقى التي لا انْفِصامَ لها بها، فدَيْمومَةُ وِلايَةِ اللهِ للمؤمنين، هيَ دَليلُ اتِّصالِ العُرْوَةِ الوُثْقى، وهَذا ما يَزيدُ المُؤْمِنَ طُمَأْنينَةً في أَنّهُ ناجٍ عِنْدَ رَبِّهِ.

بديعُ الاِبْتِداءِ بلَفْظِ الجَلالَةِ:

البدء بلفظ الجلالة الأعظم بَراعَةُ استِهْلالٍ، وبثّ مهابةٍ وجلال، وتَشْويقٌ لمَعْرِفَةِ الخَبَرِ

الاِبْتِداءُ بلَفْظِ الجَلالَةِ بَراعَةُ اسْتِهْلالٍ فإِنَّهُ يُورِثُ المَهابَةَ والجَلالَ في قُلوبِ المُخاطَبينَ، ويوقِعُ في النُّفوسِ التَّشْويقَ وتَرَقُّبَ الإِخْبارِ عَنْهُ، فإِنَّهُ مَثارُ تَهَيُّبِ النُّفوسِ لتَلَقّي خَبَرٍ ذي شَأْنٍ.

ومجيء المسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ علَماً وبأجلّ الأسماء وأعظمها؛ لاستحضارِ معناهُ في ذهنِ السَّامعِ،

الـبـدء باسمه الأعـــظــــم: اسـتـحـضـارٌ لمعناهُ في ذهنِ الـسَّـامـع، ومـدحٌ، وتـبـرّكٌ بذكرهِ، وتلذّذٌ

والابتداءُ باسمهِ الأعظم الخاصِّ ليمتازَ عمَّا عداهُ، فضلًا عمّا يحتمله من وجوه المدح بما يُشْعِرُ به الاسم، والتبرّكُ بذكرهِ، و التلذّذُ باسمهِ[1].

سرُّ التَّعْبيرُ بالاِسْمِ المَوْصولِ:

التـعـبـير بالموصول كَشْفٌ عَنِ العِلَّةِ التي لأجْلِها اسْتَحَقَّ المُؤمنونَ الولايَةَ

آثَرَتِ الآيَةُ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التَّعْبيرَ بالاِسْمِ المَوْصولِ لا بالاِسْمِ الظَّاهِرِ فلَمْ يَقُلْ: (وَليُّ المُؤمنينَ)، لبَيانِ أَنَّ الإيمانَ هُوَ العِلَّةُ التي لأجْلِها تَوَلَّى اللهُ المُؤْمنينَ، مِمَّا يَسْتَدْعي تَمامَ المَدْحِ لَهُمْ بإيمانِهِمْ، وهِيَ دَعْوَةٌ ضِمْنِيَّةٌ للمُحافَظَةِ عَلى الإيمان، ولَوْ قال: وَليُّ المُؤْمنينَ، لَفُهِمَ أَنَّ الولايَةَ للمُؤْمنينَ باعْتِبارِ مُجَرَّدِ الاتِّصافِ بِهِ، لا باعْتِبارِ المُحافَظَةِ عَلَيْهِ، واسْتِحْقاقِهِمْ لمُسَمَّاهُ.

علّة إيثارِ صيغَةِ المُضارِعِ:

إيـثـار الـمـضـارع بَـيـانٌ لدَيْمومَةِ الـولايَـةِ بتَجَدُّدِ أثَرِها في زِيـادَةِ كَشْفِ الشُّبْهَةِ وَمُـضـاعَـفَـةِ الهِدايَةِ:

وَقَعَ الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يُخۡرِجُهُم﴾: مَوْقِعَ التَّفْسيرِ والبَيانِ للولايَةِ، فكَأنَّ سائِلًا قَدْ سَألَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الولايَةِ؟ فكانَ الجَوابُ: بِأَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، والإتيانُ به على هيئة المُضارِعِ لبَيانِ تَجَدُّدِ "الإخْراجِ مِنَ اللهِ تعالى في الزَّمَنِ المُسْتَقْبَلِ في حَقِّ مَنْ آمَنَ، بزِيادَةِ كَشْفِ الشُّبْهَةِ ومُضاعَفَةِ الهِدايَةِ، ولَفْظُ الماضي لا يَدُلُّ عَلى هَذا المَعنى"[2]، وما أَجْمَلَ بَيانَ اسْمِيَّةِ الولايَةِ بصيغَةِ المُضارِعِ! وذَلِكَ لبَيانِ دَيْمومَةِ وِلايَةِ اللهِ للمُؤْمنينَ، وتَجَدُّدِها في الأَثَرِ وهُوَ إخْراجُهُمْ إلى نورِهِ سُبْحانَهُ، وهَذا التَّجَدُّدُ دَليلُ تَمامِ الولايَةِ وعَظيمِ الرِّعايَةِ، وعَلى هَذا فأَنْ تَكونَ جُمْلَةُ: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ استِئْنافًا، أَوْلى مِنْ جَعْلِها حالِيَّةً أَوْ خَبَرًا ثانِيًا[3].

نكتة التَّعْبير بالنُّورِ دونَ الضِّياءِ:

يُسْتَعْمَلُ النُّورُ في المَعْنَوِيَّاتِ والمَحْسوساتِ، بخِلافِ الضِّياءِ فلا

(1) علي بن نايف الشحود، الخلاصة في علوم البلاغة، ص: 17

(2) الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 27، بتصرف.

(3) السمين، الدر المصون: 2/549.

عبّر بالنّور لحصرِ المُحتَمَلاتِ الدَّلاليَّة، وتَعيُّن حَملِها عَلى المَعنى المَعنويِّ فِطريًّا وقُرآنيًّا

يُستَعمَلُ إلَّا في المَحسوساتِ، ولذلِكَ لَو استُعمِلَ الضِّياءُ في هَذا السِّياقِ لَحُمِلَ عَلى المَعنى الحِسِّيِّ، وهُوَ غَيرُ مُرادٍ، إذِ المُرادُ تَعَيُّنُ حَمْلِهِ عَلى الهِدايَةِ الفِطرِيَّةِ والقُرآنيَّة، دونَ احتمالِهِ لِمَعنى الضِّياءِ المادِّيِّ المَحسوسِ. وهَذا مِنْ بَلاغَةِ اختيارِ الألفاظِ القُرآنِيَّةِ، في حَصرِ المُحتَمَلاتِ الدَّلاليَّة؛ لِدَفعِ شَتاتِ الذِّهنِ عَنِ التَّأويلِ البارِدِ، وكذلِكَ اختيارُ لَفظِ النُّورِ يُعينُ عَلى حَمْلِهِ عَلى مَعنَيَي الفِطرَةِ والبَيِّناتِ، وهُوَ الأَوفَقُ بَلاغَةً، والأَقوى فَصاحَةً، والأَرسَخُ دَلالَةً، كما سَيَأتي.

جَمالُ الاستعارة التصريحية: في استعارة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾ للضلال والهدى:

بِناءُ القيمَةِ التَّربَويَّةِ الهِدائيَّةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، تَرغيبًا وتَرهيبًا

استَعارَتِ الآيَةُ لَفظَ الظُّلُماتِ لِمَعنى الشِّركِ والضَّلالِ والجَهلِ، ولَفظَ النُّورِ لِمَعنى الإيمانِ والهِدايَةِ والعِلْم، عَلى سَبيلِ الاستِعارَةِ التَّصريحِيَّةِ الأَصليَّةِ؛ مُبالَغَةً في الكَشفِ عَنْ حَقيقَةِ الشِّركِ والإيمانِ، بأُمورٍ حِسِّيَّةٍ، للتَّرغيبِ في الإيمانِ، والتَّرهيبِ مِنَ الشِّركِ، "ولإخراج المؤمنين من الكفر إلى الإيمان، ومن الغَيِّ إلى الرشاد، ومن عمياء الجهل إلى بصائر العلم"[1]. فهَدَفُ الاستِعارَةِ بِناءُ القيمَةِ التَّربَويَّةِ الهِدائيَّةِ في النُّفوسِ، "وذلِكَ مِنْ أَحسَنِ التَّشبيهاتِ؛ لأنَّ الكُفرَ كالظُّلمَةِ التي يَتَسَكَّعُ فيها الخابِطُ، ويَضِلُّ القاصِدُ، والإيمانُ كالنُّورِ الذي يَؤُمُّهُ الحائِرُ، ويَهتَدي بِهِ الجائِرُ؛ لأنَّ عاقِبَةَ الإيمانِ مُضيئَةٌ بالإيمانِ والثَّوابِ، وعاقِبَةَ الكُفرِ مُظلِمَةٌ بالجَحيمِ والعَذابِ. وفي لِسانِهِمْ وَصفُ الجَهلِ بالعَمى والعَمَهِ، ووَصفُ العِلْمِ بالبَصَرِ والجَلِيَّةِ"[2].

في اللفظين مجازٌ فالمراد بالظلمات هنا الضلالة؛ لأن المفاسد

(1) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/121.

(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/121، ويُنظر: الشريف المرتضى، أمالي المرتضى: 2/14.

التي ينشرها الطغيان تظلمُّ بها النفس وتكون في حيرة، وتنقطع عن سبيل الهداية، والمراد بالنور هو الهدى؛ لأن الهدى يكشف عن ينابيع الحق والخير في النفس، وهو سلوك الطريق الموصل إلى ما يسعد الإنسان في الفانية والباقية فهو كالمصباح للمؤمن به يهتدي، وبه يصل إلى الغاية[1].

وجه الاستعارة أنّ المفاسد التي ينشرها الطغيان تظلمُّ بها النفس، وأنّ الهدى كالمصباح للمؤمن به يهتدي، وبه يصل إلى الغاية.

سِرُّ جَمْعِ الظُّلُماتِ وإِفْرادِ النُّورِ:

لَمَّا كانَ طَريقُ الحَقِّ واضِحًا مستقيمًا كان واحِدًا، وأمَّا الباطِلُ فلَمَّا كان غامضًا مُبْهَمًا كانَتْ طُرُقُه كثيرة مُتَشَعِّبَةً مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً، ولَمَّا كانَتِ الظُّلْمَةُ بمَنْزِلَةِ طَريقِ الباطِل، والنُّورُ بمَنْزِلَةِ طَريقِ الجَنَّة، بَلْ هُما هُما، أَفْرَدَ النُّورَ وجَمَعَ الظُّلُماتِ، وأَصْلُ النُّورِ واحِدٌ وهُوَ اللَّه جَلَّ في عُلاهُ، وأَصْلُ الظُّلُماتِ مُتَعَدِّدٌ بتَعَدُّدِ الأَهْواءِ والضلالات، وطرق الغيّ[2]، فـ "إفراد النور لِوَحْدَةِ الحقِّ كما أن جمْعَ الظلمات لتعدّد فنون الضَّلال"[3]، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّ الإفْرادَ إيماءٌ إلى القِلَّة، والجَمْعَ إيماءٌ إلى الكَثْرَةِ[4]، فإنَّ أَهْلَ الحَقِّ هُمُ القِلَّةُ القَليلَةُ، قال تَعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: 116]، وقالَ: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١﴾ [الرعد: 1].

طَريقُ الحَقِّ واحِدٌ لوُضوحِهِ، وطَريقُ الباطِلِ مُتَعَدِّدٌ لغُموضِهِ

بلاغةُ تقْديم الفاعلِ وتأخيرِه في الجُمْلَتَيْنِ:

اخْتَلَفَ التَّعْبيرُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْن، فقَدَّمَ في الأولى الفاعل (لَفظَ الجَلالَة)، وقدّم في الثَّانِيَةِ الاسْمَ المَوْصولَ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (والطَّاغوتُ وَليُّ الذينَ كَفروا)؛ إشارَةً إلى أنَّ مَبْدَأَ الحَقِّ

وجه تقْديم الفاعل وتأخيره الإشارَةُ إلى مَبْدَأ الحَقِّ والباطِل، ومراعاةُ لفْظِ الجَلالَةِ أَنْ يُقابِلَهُ لَفْظُ الطَّاغوت

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/952.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/120، وطريق الهجرتين، ص: 177، والزركشي، البرهان: 4/12.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/15.

مِنَ اللّهِ تَعالى فهُوَ الذي يَتَوَلَّى المُؤمنينَ، وأنَّ مَبْدَأَ الباطِلِ مِنَ الذينَ كَفَروا، فَهُمُ الذينَ يَتَّخِذونَ الطَّاغوتَ مِنْ دونِ اللّهِ تَعالى، و"للاِحْتِرازِ عَنْ وَضْعِ الطاغوتِ في مُقابَلَةِ الاِسْمِ الجَليلِ، ولقَصْدِ المُبالَغَةِ بتَكْريرِ الإسْنادِ مَعَ الإيماءِ إلى التَّبايُنِ بَيْنَ الفَريقَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، حَتَّى مِنْ جِهَةِ التَّعْبيرِ أيْضًا"[1].

التَّعْبيرُ بالاِسْمِ المَوْصولِ:

إقـامَـةُ الدَّلـيـلِ عَـلى الـكـافِـريـنَ بـالاِسْـتِـشْـهـادِ عَـلَـيْـهِـم بـمـا في حَيِّزِ الصِّلَةِ

جرى إيثارُ الاِسْمِ المَوْصولِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ الاِسْمِ الظَّاهِرِ، فَلَمْ يَقُل: (والكافِرونَ)؛ للاِسْتِشْهادِ عَلَيْهِم بكُفْرِهِمْ، وأنَّهُ سَبَبُ اتِّخاذِهِمُ الطَّاغوتَ أَوْلياءَ لَهُمْ، وإخْراجِهِم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ، قال العمادي: أنّ ذكرَ "الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة وما يتبعه من القبائح"[2]. "ففي التعبير بالذين كفروا إشارة بيانية إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يجعلوا الطغيان متحكِّمًا في قلوبهم، إذ كفرُهم واستيلاءُ الشهوات على نفوسهم هو الذي سهَّلَ استمراءَ ولاية الطاغوت عليهم، وتَحَكُّمَه فيهم، وسيطرته على نفوسهم، وحيث كانت الشهوات مُسْتَحْكِمَةً فللأوهام سلطان، وللجبابرة سلطان، وللكبراء المضلّين مكان"[3].

مُقابَلَةُ المُفْرَدِ بالجَمْعِ:

إفـــــادَةُ الاِخْـتِـصـاصِ، ووُضــوحُ نـورِ الحَقِّ، وغُموضُ طُرُقِ الباطِلِ

أُفْرِدَ (الوَليُّ) في حَقِّ اللّهِ تَعالى لأنَّ الحَقَّ واحِدٌ، فهُوَ الوَليُّ دونَ سِواهُ، ولا يَتَوَلَّى أَمْرَ العِبادِ عَلى الحَقيقَةِ أَحَدٌ سِواهُ، وجُمِعَ (الأَوْلياءُ) في جانِبِ الطَّاغوتِ؛ لأنَّ أَوْلِياءَ الكافِرينَ مُتَعَدِّدونَ، بِحَسَبِ أَنْواعِهِمْ وأَجْناسِهِمْ واتِّجاهاتِهِمْ؛ ولِذلِكَ قال: ﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾، فدَلَّ الإفْرادُ عَلى وُضوحِ نورِ الحَقِّ، والجَمْعُ عَلى غُموضِ طُرُقِ الباطِلِ، وأفادَتْ مُقابَلَةُ إفْرادِ الوَلِيِّ بجَمْعِ الأَوْلِياءِ الاِخْتِصاصَ، إذْ لا وَلِيَّ للمُؤْمِنينَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953.

سِواهُ تَعالى، بخِلافِ الكافِرينَ فأَوْلِياؤُهُمْ كَثْرَةٌ. قال ابن القيّم: "فَوَحَّدَ وليّ الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد وجَمَعَ أولياء الذين كفروا لتعدّدهم وكثرتهم"[1].

عِلَّةُ إفرادِ الطاغوت وجَمْعِ الأولياء:

في الإفراد والجمع إشارة بيانية إلى أن الطاغوت مهما تتعدد ضروبه، ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد

جَعل ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ "علمًا على الكفر وعلى الأصنام، وأصله صفة بالمصدر ويطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كشأن المصادر"[2]. وهو ههنا واحد في معنى جماعة، وجاز؛ لأنّ في الكلام دليلًا على الجماعة[3]. وفي إفراده، وجمع الأولياء إشارةٌ بيانيةٌ إلى أنّ الطاغوت مهما تتعدد ضروبه، وأشكاله ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد، أساسه أن يتحكَّمَ في وَهَمِ الأنفس، وهواها، وذلّها، وضعفها. لكن سلطانه متعدد؛ يظهر مرة في مظهر ذي سلطان متجبّر تخضع الرقاب لطغيانه ذلّةً أو شهوةً رديّةً، ويظهر أخرى في دعوةٍ إلى الباطل زخرفها تمويهُ داعيةٍ مضلٍّ، أو في أوهام مسيطرة على الجماعة تجعلها تعبد حجرًا أصمَّ لَا يَسمعُ ولا يُبصرُ، وغير ذلك من صور الغواية والضلال. وعلى ذلك يكون الطاغوت واحدًا؛ لأنه ضلال كيفما كان، ولكن لتعدد مظاهر سلطانه تعددت ولاياته وكلها لَا قوة لها أمام قوة الله سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا[4].

عِلَّةُ عَوْدِ الضمير بصيغة العقلاء:

عودُ ضمير العقلاء أقوى في الدلالة على تمكّن الطاغوت ممّن يُضلِّهم

"وأعيد الضمير إلى الطاغوت بصيغة جمع العقلاء؛ لأنه أسند إليهم ما هو من فعل العقلاء وإن كانوا في الحقيقة سبب الخروج لا مخرجين"[5]. وهو أقوى في الدلالة على تمكّن الطاغوت ممّن يُضلِّهم؛ بتصوير فعل الإخراج، وعموم أفعاله وكأنها صادرة من عقلاء، وترسيخ لمعنى تعدد صور الغواية.

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/340.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/31.

سرُّ جَمْعِ الضَّميرِ لا إفْرادِه:

وجه جَمْعِ الضَّميرِ التَّحْذيرُ مِنْ طَرائِقِ الباطِلِ المُلْبِسَةِ، وأَشْكالِهِ المُتَعَدِّدَةِ

جاءَ الضَّميرُ في قَوْلِه: ﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾ جَمْعًا لا مُفْرَدًا، فلَمْ يَقُلْ: (والذين كَفَروا أَوْلياؤُهُمُ الطَّاغوتُ يُخْرِجُهُمْ)، فعادَ الضَّميرُ إلى مَعْنى الجَمْعِ لا الإفْرادِ، تَنْبيهًا عَلى أنَّ الإخْراجَ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ، لَهُ طُرُقُهُ المُلْبِسَةُ وأَشْكالُهُ المُتَعَدِّدَةُ، وأَنَّ عَلى الإنْسانِ أنْ يَحْذَرَ مِنْها، فالتَّعَدُّدُ في الظُّلُماتِ، والأَوْلِياءِ، والطُّرُقِ، وهَذا مِن بَديعِ التَّنْبيهِ والتَّحْذيرِ مِنْ طَرائِقِ الباطِلِ وأَهْلِه. قال البقاعي: "ثم بَيَّنَ استيلاءهم عليهم بقوله: ﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾ وإسناده إلى ضمير الجمع يؤيد أنَّ جمع الظلمات؛ لكثرة أنواع الكفر"[1]

في تعدد وجوه الضلالات إشارةٌ إلى أن الفطرة في أصلها نور

وفي تضمّن قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ الضلالاتِ الرديّة المختلفة الأنواع،؛ إشارةٌ إلى أن الفطرة في أصلها نور، ففي الفطرة الإنسانية نور الحق ووجدان الهداية، والإيمان الفطري، حتى يكون الضلال؛ إذ تتحكم الأهواء، والأوهام، وتستخذي النفوس، "فكل مولود يولد على الفطرة"[2]، وهي نور، حتى يكون الضلال بما في النفس من استعداد له مع وجود ذلك النور[3].

لفظ (النور) بين الاستعارة التّصريحيّة، ووجوه أساليب بلاغيّة:

بَلاغَةُ التَّنَوُّعِ في الأُسْلوبِ البَلاغِيِّ فَرْعٌ عَنْ تَنَوُّعِ المَعاني

لفظ ﴿ٱلنُّورِ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ إمَّا أنْ يُحمَلَ عَلى الفِطْرَةِ الجِبِلِّيَّةِ، أَوِ البَيِّناتِ[4]، أو عَلَيْهِما مَعًا، وهُوَ الأَوْفَقُ في المَعْنى، والأَدَقُّ في الاِسْتِعْمالِ، والأَلْصَقُ بمَقامِ البَلاغَةِ، ويَنْشَأُ عَن كُلِّ مَعْنًى أُسْلوبٌ بَيانيٌّ، فعَلَى الأَوَّلِ تكونُ اسْتِعارَةً تَصْريحِيَّةً، وعَلى الثَّاني تَحْتَمِلُ عِدَّةَ أَساليبَ بَيانِيَّةٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/46.
(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (1359)، ومسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (2658).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953-954.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/16.

بلاغة الإِسْتِعارَةُ التَّصْريحِيَّةُ:

تَشْبيهُ الفِطْرَةِ بِالنُّورِ دَليلٌ عَلى الإسْتِعْدادِ الفِطْرِيِّ للهِدايَةِ

إنْ حَمَلْنا النُّورَ عَلى مَعْنى الفِطْرَةِ الجِبِلِّيَّةِ فالإِخْراجُ عَلى حَقيقَتِهِ، والنُّورُ اسْتِعارَةٌ أَصْلِيَّةٌ تَصْريحِيَّةٌ، حَيْثُ شَبَّهَ الفِطْرَةَ بالنُّورِ بجامِعِ البَيانِ لسالِكِ الطَّريقِ الحَقِّ، وبَلاغَةُ هَذا الوَجْهِ أَنْ جَعَلَ الفِطْرَةَ نورًا، وسِواها ظُلْمَةً، وهُوَ يَدُلُّ عَلى الاسْتِعْدادِ الفِطْرِيِّ في النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ للهِدايَةِ.

براعة اجْتِماعِ الأَساليبِ البَيانِيَّةِ:

اجْتِماعُ عِدَّةِ أَساليبَ بَيانِيَّةٍ دَليلٌ عَلى ثَراءِ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ

وإِنْ حَمَلْنا النُّورَ عَلى البَيِّناتِ؛ فإمَّا أَنْ نَحْمِلَ الكَلامَ عَلى نَفْيِ الشَّيْءِ بإيجابِهِ، أَوْ عَلى التَّهَكُّمِ، أَوْ عَلى المُشاكَلَةِ، أَوْ عَلَيْها جَميعِها مَعًا، وهَذا مِنَ الثَّراءِ البَيانيِّ في النَّظْمِ القُرْآنيِّ.

أَوَّلًا: نَفْيُ الشَّيْءِ بإيجابِهِ[1]:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ يُوهِمُ أَنَّ الكُفَّارَ كانوا في النُّورِ ثُمَّ أُخْرِجوا مِنْهُ إلى الظُّلُماتِ، وهُمْ لَيْسوا كَذَلِكَ، فالمَقْصودُ نَفْيُ النُّورِ عَنْهُمْ، إِذْ لا نورَ لَهُمْ أَصْلًا ليَخْرُجوا مِنْهُ، فهِيَ نَفْيٌ للنُّورِ لانْتِفاءِ سَبَبِهِ، وهُوَ عَدَمُ إيمانِ الكافِرينَ أَصْلًا، فكَيْفَ يَثْبُتُ لَهُمْ نورٌ؟! فهِيَ أَبْلَغُ مِنَ النَّفْيِ الصَّريحِ؛ لأَنَّها تَحْتاجُ إلى إِعْمالِ ذِهْنٍ، وإِثارَةِ سُؤالٍ عَنِ النُّورِ الذي أُخْرِجوا مِنْهُ، فَعِنْدَ البَحْثِ نَجِدُهُ غَيْرَ مَوْجودٍ.

وهذا أُسْلوبٌ عَرَبِيٌّ عَتيقٌ عَريقٌ، قال امْرُؤُ القَيْسِ:

عَلى لاحِبٍ لا يُهْتَدى بِمَنارِهِ *** إذا سافَهُ العَوْدُ النُّباطِيُّ جَرْجَرا[2]

(1) ذكره ابنُ رشيق في العمدة، وعرّفه ابنُ أبي الإصبع بقوله: "أن يثبت المتكلّم شيئًا في ظاهر كلامه، وينفي ما هو من سببه مجازًا، والمنفيُّ في باطن الكلام حقيقةً هو الذي أثبته"، يُنظر: ابن رشيق، العمدة: 2/80، والعدواني، تحرير التحبير، ص: 377.

(2) ديوان امرئ القيس، ص: 96، ومعنى البيت: على طريق واضح، والمنار: جمع منارة، وأصلها: مُنوَّرة، مفعَّلة من النّور، وسمّيت بذلك لأنها في الأصل كلُّ مرتفع عليه نار، وسافه: شمّه، والعَوْد: البعير الهرم، وقد عوّد البعير: إذا صار عَوْدًا، وذلك بعد بزوله بأربع سنين، واشتقاقه من عاد يعود، لأنه لعلوّ سنّه يعود في الطّرق مرارًا، والجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته، وإنما يجرجر في الطريق إذا شمّه، لما يعرف من شدّته وصعوبة مسلكه. يُنظر: ابن الشجري، أمالي ابن الشجري: 1/298.

فلَمْ يُرِدِ امْرُؤُ القَيْسِ نَفْيَ الاهْتِداءِ بمَنارِ الطَّريقِ، وإنَّما أَرادَ نَفْيَ المَنارِ أَصْلًا، فإذا نُفِيَ المَنارُ، نُفِيَ الاهْتِداءُ بِهِ[1]، وهَذا الأُسْلوبُ مِنَ المُبالَغَةِ في النَّفْيِ بَديعٌ؛ لأنَّهُ يَنْفي الشَّيْءَ بما يُشْبِهُ إثْباتَهُ[2].

ثانيًا: فَنُّ التَّهَكُّمِ:

حَمْلُ الآيَةِ عَلى نَفْيِ الشَّيْءِ بإيجابِهِ يَجْعَلُها قَريبَةً مِنْ فَنِّ التَّهَكُّمِ[3]، ففيها اسْتِهْزاءٌ بحالِ الكافِرينَ، وذَلِكَ بتَنْزيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ كانَ لَهُ نورٌ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهُ إلى الظُّلُماتِ، مَعَ انْتِفائِهِ أَصْلًا! وهِيَ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدخان: 49]، ولا عِزَّةَ ولا كَرامَةَ، وإنَّما ذَكَرَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ تَهَكُّمًا بالمُخاطَبِ.

ثالثًا: فَنُّ المُشاكَلَةِ[4]:

جاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُشاكِلَةً[5] للجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، فلمَّا ذَكَرَ الإخْراجَ في حَقِّ المُؤمنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ذَكَرَ الإخْراجَ في حَقِّ الكافِرينَ مَعَ التَّعْكيسِ في المَبْدَأِ والمُنْتَهى، مُشاكَلَةً لَفْظِيَّةً؛ لبَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ الفَريقَيْنِ.

اجتماعُ هذه الفُنونِ البَديعيَّةِ اجْتِماعٌ في الفِكْرِ لَطيفٌ وفي النَّفْسِ خَفيفٌ

ولا مانِعَ مِنِ اجْتِماعِ هَذِهِ الفُنونِ البَديعيَّةِ في ثَنايا هَذِهِ الدُّرَّةِ القُرْآنِيَّةِ التي وَصَفَتْ إخْراجَ الكافِرينَ مِنْ نورِ الهِدايَةِ والبَلاغَةِ، إلى ظُلُماتِ الضَّلالَةِ والغِوايَةِ، فإنَّ الآيَةَ مَحْمولَةٌ عَلى نَفْيِ النُّورِ بانْتِفاءِ سَبَبِهِ، فلَمَّا أَثْبَتَتْهُ الآيَةُ فُهِمَ إثْباتُهُ تَهَكُّمًا بالمُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ، وكانَ ذَلِكَ عَلى سَبيلِ المُشاكَلَةِ قُوَّةً لَفْظِيَّةً مُؤَثِّرَةً، وهَذا اجْتِماعٌ في الفِكْرِ لَطيفٌ وفي النَّفْسِ خَفيفٌ، لهَذِهِ الألْوانِ البَيانِيَّةِ والفُنونِ البَديعِيَّةِ.

التَّعبير بصيغَةِ المُضارِعِ في قَوْلِهِ: ﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾:

جاءَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾ بصيغَةِ المُضارِعِ؛ لبَيانِ أَنَّ مَنْهَجَ الطَّاغوتِ مُتَجَدِّدٌ في إضْلالِ الكافِرينَ، وهُوَ يَقودُ إلى الهَلاكِ

---

(1) العكبري، شرح ديوان المتنبي: 1/304.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/30
(3) التّهكّم عبارة عن إخراج الكلام على ضدِّ مقتضى الحال، استهزاءً بالمخاطب، يُنظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 3/91.
(4) المشاكلة أن تذكر الشيّء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، يُنظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 424.
(5) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 64.

تَجَدُّدُ حالِ الضَّلالِ الذي يَعيشُهُ الكافِرُ يَدُلُّ عَلى العِنادِ في المُحافَظَةِ عَلى الكُفْرِ

السَّرْمَدِيِّ الدَّائِم، وتَجَدُّدُهُ يَدُلُّ عَلى حالِ الضَّلالَةِ التي يَعيشُها الكافِرُ مِرارًا وتَكْرارًا، وأَنَّ العِنادَ ماكِثٌ تَحْتَ أَنْيابِهِ؛ لِمَنْعِ الكافِرينَ مِنْ رُؤْيَةِ أَيِّ نورٍ قَدْ يَسْطَعُ في قُلوبِهِمْ في أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ. وليقابل ديمومة تلطّف الباري ﷻ بالذين آمنوا بتجدد إخراجهم من الظلمات إلى النور الذي أُفْصِحَ عن معناه بالفعل المضارع ﴿يُخْرِجُهُم﴾ كما سبق.

بَلاغَةُ الفاصِلَةِ وارْتِباطُها بالمَعاني الإشارِيَّةِ في الآيَةِ:

الإشارَةُ بالبَعيدِ لإفادَةِ رُسوخِهِمْ في النَّارِ مُلازَمَةً وعَذابًا

إيثارُ الإشارَةِ إلى الكافِرينَ بالبَعيدِ لبَيانِ حالِهِمْ، وأَنَّهُمْ في مَنْزِلَةٍ راسِخَةٍ مِنْ مُلازَمَةِ النَّارِ التي عُرِفوا بأَنَّهُمْ أَصْحابُها، فأَفادَ تَعْريفُهُمْ باسْمِ الإشارَةِ اخْتِصاصَهُمْ بِهَذا الوَصْفِ، فهُمْ أَصْحابُ النَّارِ الحَقيقونَ بها دونَ سِواهُمْ، وهَذا فيهِ مِنَ التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ والتَّبْشيعِ لحالِهِمْ بما يُؤَكِّدُ أَنَّهُمْ في الظُّلُماتِ ماكِثونَ. وفي هذه الإشارة أيضًا "بيانٌ إلى أن أحوالهم التي عرفوا بها من كفرهم، ورضاهم بالطغيان حاكمًا عليهم متحكمًا فيهم مسيطرًا على قلوبهم، هي السبب في ذلك الحكم الخالد عليهم، وهو أنهم أصحاب النار"[1].

دَلالَةٌ إشارِيَّةٌ للفَريقَيْنِ

فاصِلَةُ الآيَةِ تُشيرُ إلى مَعْنًى ضِمْنِيٍّ مَآلِيٍّ أُخْرَوِيٍّ للفَريقَيْنِ، فإِخْراجُ المُؤْمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ إشارَةٌ إلى إِخْراجِهِمْ مِنْ ظُلُماتِ النَّارِ إلى نورِ الجِنانِ، وإِخْراجُ الكافِرين مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ إشارَةٌ إلى إِخْراجِهِمْ مِنْ نورِ الجِنانِ إلى ظُلُماتِ النَّارِ.

بَديعُ الاكْتِفاءِ

ذِكْرُ أَصْحابِ النّارِ دونَ أَصْحابِ الجَنَّةِ اكْتِفاءٌ بَديعٌ، وذَلِكَ لرُسوخِ العِلْمِ بحالِهِمْ في الآخِرَةِ، فهُمْ في مَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ وصُحْبَةٍ شَريفَةٍ دانِيَةٍ، وهَذا يُرَسِّخُ طُمَأْنينَةَ أَصْحابِ الجَنَّةِ بمَصيرِهِمْ، ممَّا يَزيدُ غَيْظَ أَصْحابِ النَّارِ مِنْ مَآلِهِمْ، وهُوَ ما يَتَّسِقُ مَعَ النَّصِّ عَلى الوَعيدِ عَدالَةً في التَّبْليغِ، والإشارَةِ إلى الوَعْدِ فَضْلًا وإِحْسانًا.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.

ذِكْرُ الصُّحْبَةِ دونَ مُرادِفاتِها إشارَةٌ إلى الوَصْفِ الجامِعِ بَيْنَ السَّبَبِ والمُسَبَّبِ

ناسَبَ ذِكْرُ وَصْفِ الصُّحْبَةِ دونَ غَيْرِها مِنَ المُرادِفاتِ؛ لأَنَّ الكافِرينَ كانوا بمُوالاتِهِمْ للطّاغوتِ مُصاحِبينَ لَهُ، بدَيْمومَةِ العَلاقَةِ ولُزومِ الرَّابِطَةِ، التي أفادَها الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾، فكانَ مِنَ المُناسِبِ ذِكْرُ الوَصْفِ الجامِعِ في الكافِرينَ بَيْنَ السَّبَبِ والمُسَبَّبِ عَنْهُ، وهِيَ صُحْبَةُ الكافِرينَ للطَّاغوتِ في الدُّنيا وصُحْبَةُ النَّارِ في الآخِرَةِ، فمَنْ صَحِبَ السَّبَبَ صَحِبَ المُسَبَّبَ عَنْهُ، وتُقَوِّيهِ جُمْلَةُ: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فلمَّا كانوا مُلازِمينَ للطَّاغوتِ في الدُّنْيا شابَهَتْ دَيْمومَةُ مُلازَمَتِهِمُ الخُلودَ في الآخِرَةِ، وهَذا مِنْ تَمامِ العَدْلِ الإلَهِيِّ.

قال أبو زهرة: "وفي التّعبير بأصحاب النار إشارة إلى ملازمتهم لها، وبقائهم فيها، واختصاصها بهم؛ لأن أصحاب جمع صاحب، والصاحب هو الرفيق الملازم الذي اختصصت بصحبته، فهذا التعبير أفاد ملازمتهم للنار واختصاص النار بهم"[1].

ذِكْرُ النَّارِ دونَ جَهَنَّمَ أَوِ السَّعيرِ

جاء اخْتِيارُ لَفْظِ النَّارِ دونَ مُرادِفاتِها؛ لأَنَّها العَذابُ الأَشْهَرُ، ولِمُناسَبَةِ لَفْظِ النَّارِ للَفْظِ النُّورِ، فالدَّاخِلُ في النُّورِ في الدُّنْيا خارِجٌ مِنَ النَّارِ، والخارِجُ مِنَ النُّورِ داخِلٌ في النَّارِ، ويَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَنَّ الدَّاخِلَ في النَّارِ في الآخِرَةِ خارِجٌ مِن نورِ الجِنانِ، والخارِجُ مِنْ نورِ الجِنانِ داخِلٌ في النَّارِ، وهَذا مِنْ بَديعِ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ في القُرْآنِ الكَريمِ.

قال الحرالّيّ: وجعل الخلود وصفاً لهم إشعاراً بأنهم فيها وهم في دنياهم[2].

وجه التوكيد ترسيخ اختصاص النّار بهم، وأبديّة مكوثهم فيها

بلاغة التوكيد في الفاصلة:

قال أبو زهرة: "وفى قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصها بهم دون غيرها؛ ذلك لأن التعبير بالجملة الاسمية فيه تأكيد، وتكرار المسند إليه بذكر كلمة ﴿هُمْ﴾،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/47

فيه فضل تأكيد، وتقديم الجار والمجرور وهو ﴿فِيهَا﴾؛ دليلٌ على اختصاصها بخلودهم فيها فلا منفذ لهم في غيرها؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب النور في الدنيا، فسدت عليهم أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة"[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضِّياء والنُّور:

الضِّياءُ ما يَتَخَلَّلُ الهَواءَ مِنْ أَجْزاءِ النُّورِ، فيَبْيَضَّ بذَلِكَ، وهُوَ النُّورُ السَّاطِعُ القَوِيُّ، الَّذي يُوَضِّحُ الأَشْياءَ؛ لأَنَّهُ يُضيءُ للرَّائي، وأَمَّا النُّورُ فهُوَ الشُّعاعُ، فالفَرْقُ بَيْنَهُما يَكْمُنُ في أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: النُّورُ أَعَمُّ مِنَ الضِّياءِ، مِنْ جِهَتَيْنِ:

الأولى: يَصْدُقُ عَلى الشُّعاعُ الضَّعيفِ والقَوِيِّ، فضِياءُ الشَّمْسِ نورٌ، ونورُ القَمَرِ لَيْسَ بضِياءٍ، فكُلُّ ضِياءٍ نورٌ، ولَيْسَ كُلُّ نورٍ ضِياءً.

الثَّانِيَةُ: الضِّياءُ يُسْتَعْمَلُ في المَحْسوساتِ، بَيْنَما النُّورُ يُسْتَعْمَلُ في المَحْسوساتِ والمَعْنَوِيَّاتِ.

الثاني: الضِّياءُ أَقْوى مِنَ النُّورِ مِنْ حَيْثُ الأَثَرُ، ولذَلِكَ ارْتَبَطَ بالشَّمْسِ، بخِلافِ النُّورِ فارْتَبَطَ بالقَمَرِ[2]، قال تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311، والزمخشري، الكشاف: 2/329، والرازي، التفسير الكبير: 17/209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/94.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتجلى مُناسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لما قَبْلَها، في كَوْنِها مِثالًا ناصِعًا كاشِفًا لتَوَلِّي اللّهِ لعِبادِهِ المُؤْمِنينَ، ووِلايَةِ الطّاغوتِ لعِبادِهِ الكافِرينَ، فإبْراهيمُ ﷺ هُوَ مِثالُ مَنْ تَولَّاهُ اللّه فأَخْرَجَهُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ونُمْرودُ هُوَ مِثالُ مَنْ تَوَلَّاهُ الطّاغوتُ فأَخْرَجَهُ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ.

وبَراعَةُ هَذِهِ المُناسَبَةِ أَنَّها أَتَتْ بشَخْصِيَّةٍ يَعْتَزُّ بها المُشْرِكونَ؛ لتَكونَ حُجَّةً ظاهِرَةً عَلَيْهِمْ، في إثْباتِ البَعْثِ ضِمْنًا، وتَوْحيدِ اللّهِ في رُبوبيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ صَراحَةً، وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ مَصيرَ المُشْرِكينَ أَنْ يُبْهَتوا كما بُهِتَ هَذا الظّالِمُ، وهِيَ مِنْ بَدائِعِ المُناسَباتِ في القُرْآنِ الكَريمِ، بتَوْظيفِ المَثَلِ القُرْآنيِّ؛ ليَكونَ دَليلًا وبُرْهانًا عَلى صِحَّةِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ النَّظَرِيَّةِ، فوَقَعَتْ هَذِهِ الآيَةُ مِنَ الآيَةِ السّابِقَةِ مَوْقِعَ التَّمْثيلِ مِنَ التَّنْظيرِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَآجَّ﴾: المُحاجَّةُ: إظْهارُ البَيِّناتِ والبَراهينِ بقُوَّةٍ واقْتِدارٍ مَعَ الخَصْمِ، والحُجَّةُ: البُرْهانُ المُصَدِّقُ للدَّعْوى، وجَمْعُها: حُجَجٌ، وفِعْلُ ﴿حَآجَّ﴾ جاءَ عَلى زِنَةِ المُفاعَلَةِ، والفِعْلُ حاجَجْتُهُ فحَجَجْتُهُ، واحْتَجَجْتُ عَلَيْهِ، والمُحاجَّةُ: المُقاوَمَةُ في إظْهارِ الحُجَّةِ، والمَحَجَّةُ: قارِعَةُ الطَّريقِ الواضِحِ، وهُوَ أَصْلُ الحُجَّةِ؛ لأَنَّهُ بها يُقْصَدُ الحَقُّ المَطْلوبُ، والحُجَّةُ: الدَّلالَةُ المُبَيِّنَةُ للمَحَجَّةِ، أَيْ: المَقْصَدُ المُسْتَقيمُ الَّذي يَقْتَضي صِحَّةَ أَحَدِ النَّقيضَيْنِ(1).

(1) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (حجج)، والراغب، تفسير الراغب: 1/536، والمفردات، ص: 219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

ولَمْ تُستَعمَلِ الحُجَّةُ ومُشْتَقَّاتُها في القُرْآنِ الكَريمِ إلا في حَقْلِ العَقيدَةِ، سَواءٌ في مُحاجَّةِ المُشْرِكينَ، كقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258]، أم أَهْلِ الكِتابِ كقَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: 65].

2) ﴿فَبُهِتَ﴾: البَهْتُ: انْقِطاعٌ عَنِ الكَلامِ أَوِ الفِعْلِ مَعَ حَيْرَةٍ لسَبَبٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ، وأصله مَأْخوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: بَهَتَ الفَحْلَ عَنِ النَّاقَةِ، أي: نَحَّاهُ ليَحمِلَ عَلَيْها فَحْلًا أَكْرَمَ مِنْهُ، فتَنْحِيَةُ الفَحْلِ عَنِ النَّاقَةِ حينَ إتْيانِها هُوَ قَطْعٌ ودَهْشَةٌ، تُوَلِّدُ حَيْرَةً واضْطِرابًا، فعلى هذا مَدارُ المَعْنى.

ويُطْلَقُ عَلى فِعْلِكَ بالإِنْسانِ ما يُحَيِّرُه، وسُمِّيَ الكَذِبُ المُسْتَقْبَلُ بِهِ الإنْسانُ بُهْتانًا؛ لتَحَيُّرِ صاحِبِهِ فيه، وذَلِكَ لا يَكونُ إِلَّا مُواجَهَةً بما لَمْ يَقُلْ، ويُقالُ: بُهِتَ الرَّجُلُ فهُوَ مَبْهوتٌ، إِذا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الحُجَّةُ(1).

واسْتُعْمِلَ البَهْتُ في القُرْآنِ في الأُمورِ الكُبْرى، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾، وقَوْلِهِ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: 40].

ومِثْلُهُ البُهْتانُ، وهُوَ الباطِلُ والكَذِبُ الَّذي يُتَحَيَّرُ مِنْهُ؛ لشِدَّةِ وَقْعِهِ وعَدَمِ تَوَقُّعِهِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: 156]، وقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 16]، وكَثُرَ اسْتِعْمالُ البُهْتانِ في القُرْآنِ الكَريمِ فيما كانَ أَثَرُهُ عَظيمًا عَلى المُجْتَمَعِ والأُسْرَةِ، وهُوَ ما يَسْتَرْعي انْتِباهَ المُتَدَبِّرِ إِلى أَنَّ شَرَّ البُهْتانِ يَعُمُّ ولا يَخُصُّ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبَيِّنُ الآيَةُ طَريقَةَ الأَنْبِياءِ في المُحاجَّةِ بمِثالٍ تَطْبيقِيٍّ - من أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، مع الرَّجلِ الجبَّارِ الذي وهَبه اللهُ المُلْكَ - في إِثْباتِ تَوْحيدِ اللهِ وربوبيَّته ببَيانِ أَنَّهُ لا قادِرَ عَلى الإِحْياءِ والإِماتَةِ إِلَّا اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى، إذ أخبره إبراهيم عليه السلام أنَّ اللهَ يحيي ويميت،

(1) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 94، وابن دريد، جمهرة اللغة: (بهت)، وغلام ثعلب، ياقوتة الصراط، ص: 181، والأزهري، تهذيب اللغة: (بهت)، والهروي، الغريبين: 1/225، وابن سيده، المخصص: (بهت)، والراغب، المفردات، ص: 148، والراغب، تفسير الراغب: 1/536.

إِثْبـاتُ عَـقيـدَةِ الـتَّـوْحـيـدِ والـبَـعْـثِ، بـأُسْـلـوبٍ حِجاجِيٍّ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ

مستدلًا بذلك على وجود الرب تعالى، فردَّ عليه الملك- عنادًا- بأنه أيضًا يملك أن يفعل هذا الفعل؛ فالإحياء - عنده - استبقاءُ من أراد قتله، والإماتةُ قتلُ من أراد إماتته، فردَّ عليه إبراهيم ﷺ بحجة قاطعةٍ بأنَّ اللّٰه يأتي بالشمس كلَّ يوم من جهة المشرق، فإن كان إلهًا حقًّا، يحيي ويميت، فليجعلها تطلع من جهة المغرب، فعلم هذا المحاجِجُ أنه انقطع عن الحُجَّة، فتحيَّر واندهش، واللّٰه تعالى لا يوفِّق من ظلم نفسه بإيثاره الكفرَ على الإيمان.

ففي الآيةِ إِثْباتُ عَقيدَةِ التَّوْحيدِ والبَعْثِ، بِأُسْلوبٍ حِجاجِيٍّ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ؛ لإقامَةِ الحُجَّةِ عَلى مَنْ يَزْعَمُ انْتِسابَهُ إلى إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبَيانِ ضَلالِ الظَّالِمينَ في ظُلُماتِ الجَهلِ والضَّياعِ.

الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ الأُسْلوبِ التَّرْكيبِيِّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾:

جَـرى هَـذا التَّرْكيبُ مَجْرى الأَمْثالِ للحَضِّ عَلى العِلْمِ، و التَّأْكيدِ عَلى أَهَمِّيَّتِهِ

ابْتَدَأَتِ الآيَةُ بِتَرْكيبٍ بَديعٍ كَثُرَ اسْتِعْمالُهُ في القُرْآنِ الكَريمِ اسْتِعْمالَ الأَمْثالِ[1]، وهُوَ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾، واسْتُعْمِلَ في مُخاطَبَةِ مَنْ لَمْ يَرَ ولَمْ يَسْمَعْ؛ لأَنَّهُ جرى مَجْرى المَثَلِ في مَعْنى التَّعْجيبِ. قال الزجاج: "هذه كلمة يُوقَفُ بها المخاطَبُ على أمر يعجب منه، ولفظها لفظ استفهام، تقول في الكلام: ألم تر إلى فلان صنع كذا وصنع كذا"[2]، ومَضْمونُ هَذا التَّرْكيبِ " إثارة الاهتمام والتقرير، وتثبيت المعنى في نفس القارئ والسامع"[3]. و الحَثُّ والتَّحْريضُ عَلى العِنايَةِ بالمَذْكورِ بَعْدَهُ مِمَّا لَمْ يَرَهُ المُخاطَبُ عِيانًا، تَنْزيلًا لِمَنْ لَمْ يَرَ ولَمْ يَسْمَعْ مَنْزِلَةَ مَنْ رَأى وسَمِعَ، زِيادَةً في التَّأْكيدِ عَلى أَهَمِّيَّتِهِ؛ لِما يَحْتَويهِ مِنْ غَرابَةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/477.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/340.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/883

وتَعَجُّبٍ. قال الطِّيبي: "وأما معنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ففيه تنبيه للمخاطب على التعجيب فيما يشاهده"[1].

وفي التركيب دلالة الاختصاص

قال أبو حيّان: "وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ دليلٌ على الاختصاص؛ لأنهم قد ذكروا أن الخبر إذا كان بمثل هذا، دلَّ على الاختصاص، فتقول: زيد الذي يصنع كذا، أي: المختص بالصنع"[2]. وفيه إلماح بكونه مختصًّا بالمحاجّة.

تَنَوُّعُ مَعاني هَمْزَةِ الإسْتِفْهامِ تَعَجُّبًا وتَقْريرًا وإِنْكارًا

لِهَمْزَةِ الاسْتِفْهامِ ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ مِنَ المَعاني:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ مُسْتَعْمَلًا في التَّعَجُّبِ أَوِ التَّعْجيبِ مِنْ عَدَمِ عِلْمِ المُخاطَبِ بِمَفْعولِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ، ويَكونُ فِعْلُ الرُّؤْيَةِ عِلْمِيًّا مِنْ أَخَواتِ ظَنَّ.

الوَجْهُ الثَّاني: أَنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ تَقْريرِيًّا، إيذانًا بِأَنَّ القِصَّةَ مِنَ الشُّهْرَةِ بِحَيْثُ يَحِقُّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُحْمَلَ عَلى الإِقْرارِ بِرُؤْيَتِها، وإِنْ لَمْ يَكُنْ رَآها أَوْ سَمِعَ بِها.

الوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ إِنْكارِيًّا؛ لِعَدَمِ عِلْمِ المُخاطَبِ بِمَفْعولِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ، وذَلِكَ لإِيلاءِ حَرْفِ النَّفْيِ هَمْزَةَ الاسْتِفْهامِ، فالاسْتِنْكارُ واقِعٌ عَلى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ التي يَجِبُ أَنْ تَكونَ مَعْلومَةً[3].

وهَذِهِ الأَوْجُهُ الثَّلاثَةُ مُرادَةٌ وصَحيحَةٌ في ذاتِها، فَهَمْزَةُ الاسْتِفْهامِ لإِنْكارِ النَّفْيِ وتَقْريرِ المَنْفِيِّ، ومَقْصودُها التَّعْجيبُ مِمَّنْ هَذِهِ حالُهُ، وهَذا مِنْ بَليغِ اسْتِعْمالِ السِّياقِ القُرْآنِيِّ لِلاسْتِفْهامِ.

تَضْمينُ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ مَعْنى النَّظَرِ والوُصولِ

بِناءً عَلى الأَوْجُهِ الثّلاثَةِ، لا بُدَّ مِنْ تَضْمينِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ المُتَعَدِّي بِحَرْفٍ إِلى مَعْنى النَّظَرِ في الأَوْجُهِ الثَّلاثَةِ؛ لِيَحْصُلَ الادِّعاءُ بِأَنَّ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/503

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 477-2/476.

هَذا الأَمْرَ المُدْرَك بالعَقْلِ كأَنَّهُ مُدْرَكٌ بالنَّظَرِ؛ لكَوْنِهِ بَيِّنَ الصِّدْقِ لمَنْ عَلِمَهُ، أو مَعْنى الوُصولِ والانْتِهاءِ، عَلى مَعْنى: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلَيْهِم[1]؟! والمَقْصودُ هُوَ أَنْ يَعْلَمَ المُخاطَبُ ذَلِكَ الأَمْرَ عِلْمًا يَقينيًّا كأَنَّهُ مُشاهَدٌ أمامَهُ، وهَذا هُوَ غايَةُ التَّضْمين[2].

التَّحْريضُ مَعْنىً كِنائِيٌّ؛ إذْ إنَّهُ لازِمُ الاِسْتِفْهامِ

استُفيدَ التَّحْريضُ عَلى الأَوْجُهِ الثّلاثَةِ مِنْ طَريقِ الكِنايَةِ بلازِمِ مَعْنى الاِسْتِفْهامِ؛ لأنَّ شَأْنَ الأَمْرِ المُتَعَجَّبِ مِنْهُ، أَوِ المُقَرَّ بِهِ، أَوِ المَنْكورِ عِلْمُهُ، أَنْ يَكونَ شَأْنُهُ أَنْ تَتَوَفَّرَ الدَّواعي عَلى عِلْمِهِ، وذَلِكَ مِمَّا يَحُثُّ ويُحَرِّضُ عَلى عِلْمِهِ[3].

بلاغة الاستعارة في التركيب:

إنّ النظر قد يتعرى عن الرؤية، وفي الاستعارة حثٌّ على نظرٍ ناتج للرؤية

قال الراغب: "أصل تعدية الفعل (رأيت) بنفسه دون الجار، لكن لما استعير قولهم ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لمعنى: (ألم تنظر) عدى تعديته، وفائدة استعارته أن النظر قد يتعرَّى عن الرؤية، فإذا أريد الحثّ على نظر ناتج لا محالة للرؤية استعيرت له، وقلَّ ما استعمل ذلك في غير التقرير"[4].

بديع التعبير بالحيدة، والانتقال:

هو انتقال إلى استدلال لا يجد فيه المحاجج وجهًا يتخلّص منه

تندرج الآية المباركة ضمن فن (الحيدة، والانتقال)[5]، فقد علم نبيّ الله ابراهيم عليه السلام أنّ المحاجج لم يفهم معنى (الإحياء والإماتة)، فانتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجدُ له وجها يتخلّص منه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ لينقطع، وينتهي الجدل بقوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 477-2/476

(2) القونوي، حاشية القونوي: 4/164، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/883

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/290، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/477.

(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/499 (بتصرّف يسير).

(5) الحيدة، والانتقال: هو أن يجيب المسؤول بجواب لا يصلح أن يكون جوابًا عما سئل عنه، أو ينتقل المستدلّ إلى استدلال غير الذي كان آخذًا فيه ويكون هذا الضرب من البلاغة إذا أتى به المستدلّ بعد معارضته بما يدلّ على أنّ المعارض لم يفهم وجه استدلاله. ينظر: الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/131.

(6) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/131.

بَراعَةُ التَّعْبيرِ بالمُحاجَّةِ دونَ المُجادَلَةِ:

اخْتِيارُ الألْفاظِ قائِمٌ عَلى اعْتِبارِ المَقاصِدِ والمَضامينِ والخَواتيمِ

لسائلٍ أنْ يَسْأَلَ عَنْ سرِّ اخْتيارِ كَلِمَةِ ﴿حَآجَّ﴾ دونَ (جادَلَ)، مَعَ أنَّ المَقامَ في الظّاهِرِ أقْرَبُ أنْ يَكونَ جِدالًا مِنْهُ مُحاجَّةً، وقَدْ أُسْنِدَ فِعْلُ ﴿حَآجَّ﴾ إلى المُخاصِمِ في رَبِّه، ويَرْجِعُ سَبَبُ ذَلِكَ إلى الأُمورِ الآتِيَةِ:

الأَوَّلُ: الَّذي ابْتَدَأَ الكَلامَ هُوَ إبْراهيمُ عليه السلام، فناسَبَ أنْ يَكونَ ما ابْتَدَأَهُ حِجاجًا.

الثّاني: نُظِمَتِ القِصَّةُ عَلى أُسْلوبِ الإجْمالِ والإيجازِ، فناسَبَ وَصْفُها بالمُحاجَّةِ.

الثّالِثُ: انْتَهَتِ المُحاجَّةُ في انْقِطاعِ المُخاصِمِ الكافِرِ وتَحَيُّرِه، فظَهَرَتِ الحُجَّةُ للمُحِقِّ، وهَذا حِجاجٌ لا جِدالَ، إذِ العِبْرَةُ بالنِّهاياتِ، ومَنْ أَشْرَقَتْ بِداياتُهُ أَشْرَقَتْ نِهاياتُهُ.

الرّابِعُ: اخْتَصَّ وَصْفُ مُحاوَراتِ إبْراهيمَ عليه السلام في القُرْآنِ بالحِجاجِ، كقَوْلِه تَعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 83]، فائْتَلَفَتِ الألْفاظُ وتَجانَسَتْ.

الخامِسُ: شابَهَتِ القِصَّةُ ما كان مِنْ قَوْمِ إبْراهيمَ عليه السلام في مُحاجَّتِهِمْ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: 80]، فبُنِيَ نَظْمُ الآيَتَيْنِ عَلى إغْفالِ كَلامِ الخُصومِ، والعِنايَةِ بالحُجَّةِ التي ذَكَرَها إبْراهيمُ عليه السلام، فحَسُنَ أنْ يَتَجاوَبَ النَّظْمُ، أُسْلوبًا ولَفْظًا.

بَلاغَةُ (الإسْتِخْدامِ) في الآيَةِ[1]:

وجهُ (الإسْتِخْدامِ) بَيانُ مَعْنَيَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ، تَشْريفًا لأَحَدِهِما، وتَشْنيعًا عَلى الآخَرِ

يُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿رَبِّهِۦٓ﴾، إمّا إلى إبْراهيمَ، وتَكونُ الإضافَةُ حينَئِذٍ لتَشْريفِ المُضافِ إلَيْه، وإمّا إلى الاسْمِ المَوْصولِ،

(1) الاستخدام: "إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحدَ المعنيين، ثم تعيد عليه ضميرًا تريد به المعنى الآخر، أو تعيد عليه -إن شئتَ- ضميرين، تريد بأحدهما أحد المعنيين، وبالآخر المعنى الآخر". ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب: 1/119.

وتَكونُ الإضافَةُ لإظْهارِ غَلَطِ المُخاصِمِ إبْراهيمَ ﷺ؛ لأَنَّهُ يُخاصِمُهُ في رَبِّهِ[1]، وهَذا مِنْ قَبيلِ "الاسْتِخْدام" في عِلْمِ البَديعِ، في اسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ؛ لِصِحَّةِ ذَلِكَ لَفْظًا ومَعْنًى، وقَدْ صَحَّ هُنا عَوْدُ الضَّميرِ إلى الاثْنَيْنِ، تَشْريفًا لأَحَدِهِما وهُوَ إبْراهيمُ؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكورٍ، وتَشْنيعًا عَلى الآخَرِ لأَنَّ اللهَ آتاهُ المُلْكَ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ النَّظْمِ الكَريمِ، وقُوَّةِ سَبْكِهِ، حَيْثُ تُقْرَأُ الآيَةُ عَلى الاحْتِمالَيْنِ فتَجِدُها مُتَّسِقَةً مُنْسابَةً.

التَّعَرُّضُ لعُنْوانِ الرُّبوبِيَّةِ دونَ الأُلوهِيَّةِ:

إيثارُ لفظ الرَّبِّ ليَتَّسِعَ الاحْتِمالُ في عَوْدَةِ الضَّميرِ إلى ذاتَيْنِ، وبَيانُ أَنَّ المُنازَعَةَ في الرُّبوبِيَّةِ

جرى إيثارُ عُنْوانِ الرُّبوبِيَّةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ دون الأُلوهِيَّةِ، ليَتَّسِعَ الاحْتِمالُ في عَوْدَةِ الضَّميرِ إلى إبْراهيمَ ﷺ، وإلى المَقْصودِ بالاسْمِ المَوْصولِ، فإنَّ اللهَ رَبُّ الاثْنَيْنِ، والمُنازَعَةُ كانَتْ في الرُّبوبِيَّةِ، كَما هُوَ ظاهِرٌ في قَوْلِ إبْراهيمَ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وفي قَوْلِ المَأْفونِ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، فَكانَ المُناسِبُ إظْهارَ عُنْوانِ الرُّبوبِيَّةِ، لبَيانِ أَنَّ مَدارَ النِّزاعِ عَلَيْها.

بيانُ إيثارِ الإظْهارِ على الإضْمارِ:

في الإظْهارِ بَيانٌ لكُنودِ الكافِرِ، وشِدَّةِ خُصومَتِهِ، وإيذانٌ بتَأْييدِ الوَلِيِّ

أَظْهَرَتِ الآيَةُ لَفْظَ الجَلالَةِ في قَوْلِهِ: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، تَرْبِيَةً للمَهابَةِ في قُلوبِ المُخاطَبينَ، ولبَيانِ عَظيمِ الاجْتِراءِ في حَقِّ اللهِ تَعالى، فإنَّ إظْهارَ الاسْمِ الكَريمِ لَيْسَ كإضْمارِهِ، وهَذا ما يَكْشِفُ جَمالَ ذِكْرِ لَفْظِ الجَلالَةِ، فذِكْرُهُ جاءَ عَلى سَبيلِ الامْتِنانِ، المُتَضَمِّنِ بَيانَ كُنودِ الكافِرِ المُخاصِمِ، فكانَ ذِكْرُ الرُّبوبِيَّةِ تَوْطِئَةً موصِلَةً لبَيانِ غُلُوِّ الجُحودِ، وهِيَ كذَلِكَ "إيذانٌ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ بتَأْييدِ وَلِيِّهِ لَهُ في المُحاجَّةِ؛ فإنَّ التَّرْبِيَةَ نَوْعٌ مِنَ الوِلايَةِ"[2].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/16.

طوى ذكر ابراهيم عليه السلام في موضعين للتنويه برفعة شأنه، واحتقار الذي حاجّه والحطّ من قدره[1].

في الإظْهارِ رفعةٌ لشأنّ نبيّه عليه السلام، وحطٌّ لشأن الذي حاجّه

بَلاغَةُ التَّهَكُّمِ:

مَكْمَنُ التَّعَجُّبِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ هو عِلَّةُ المُحاجَّةِ، وهِيَ إيتاءُ اللهِ المُلْكَ للمُخاصِمِ، أَيْ: أَلِأَنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ يُخاصِمُ ويُشاغِبُ؟! ففي الآيَةِ تَهَكُّمٌ بَليغٌ، يَكْشِفُ عَنْ رُسوخِ الكُفْرِ في قَلْبِهِ، وَضْعًا للمُحاجَّةِ التي هِيَ أَقْبَحُ وجوهِ الكُفْرِ مَوْضِعَ ما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ[2]، كما في قَوْلِهِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: 82].

كشف التَّهَكُّم رُسوخَ الكُفْرِ في قَلْبِ المُخاصِمِ، إذْ وَضَعَ الكُفْرَ مَوْضِعَ الشُّكْرِ

قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ تعليل حُذفت منه لام التعليل، وهو تعليل لما يتضمنه ﴿حَآجَّ﴾ من الإقدام على هذا الغلط العظيم الذي سَهَّلَه عنده ازدهاؤه وإعجابه بنفسه، فهو تعليل محض وليس علّة غائية مقصودة للمُحاجِّ من حجاجه. وجَوَّزَ صاحب الكشاف أن يكون تعليلًا غائيًّا أي حاجَّ لأجل أن اللّه آتاه الملك، فاللام استعارة تبعيَّة لمعنى يؤدى بحرف غير اللام، والداعي لهاته الاستعارة التَّهكُّمُ، أي أنه وضع الكفر موضع الشكر كما في أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: 82]، أي جزاء رزقكم"[3].

وفـي جملة التعليل وجهُ استعارةٍ تبعيّةٍ داعيها التهكّمُ

بلاغة التعبير بالجملة الإسميّة:

وجاء بقوله: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، مبتدأً وخبرًا؛ للدلالة على ثبوت إيجاده هو تعالى للكافر وإحيائه، وإماتته: "كأنه قال: ربي الذي يحيي ويميت هو متصرّف فيك وفي أشباهك بما لا تقدر عليه

التعبير بالجملة الإسميّة ثبوتٌ لإيجاده تعالى الكافر وإحيائه، وإماتته

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/143.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251، والآلوسي، روح المعاني: 2/16.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

أنت ولا أشباهك من هذين الوصفين العظمين المشاهدَيْن للعالم اللذين لا ينفع فيهما حيل الحكماء ولا طب الأطباء، وفيه إشارة أيضاً إلى المبدأ والمعاد"[1].

دلالة تضمين الجملة الاسميّة بالفعلين المضارعين:

أفاد المضارعان أن الإحياء، والإماتة هما شأنه المعهود دائمًا

وضمّن الجملة الاسميّة الدّالة على ثبوت إيجاده تعالى للكافر الفعلين المضارعين ﴿يُحۡيِۦ﴾ ، و﴿وَيُمِيتُ﴾ للدّلالة على التجدد والاستمرار، لإفادة أن هذا شأنه دائما كما هو معهود معروف لمن نظر في الأكوان نظر المفكر المستدل[2].

فائِدَةُ الإِخْبارِ بالاِسْمِ المَوْصولِ:

إفادةُ الاِخْتِصاصِ، إثْباتًا للهِ تَعالى، ونَفْيًا عَمَّنْ سِواهُ، بقَصْدِ التَّعْريضِ

جاءَ ذِكْرُ صِفَةِ الإِحْياءِ والإِماتَةِ صِلَةً لِلْمَوْصولِ: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ولَمْ يَأْتِيا خَبَرًا مُباشِرًا، فلَمْ يَقُلْ: (رَبِّي يُحْيي ويُميتُ)، ذَلِكَ أَنَّ الإِخْبارَ بالاِسْمِ المَوْصولِ أَقْوى مِنَ الإِخْبارِ بالجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ؛ لإِفادَتِهِ الاِخْتِصاصَ، والتَّعْريضَ، فكَأَنَّهُ قالَ: رَبِّي هُوَ الذي يُحْيي ويُميتُ دونَ سِواهُ، ولَوْ قال: رَبِّي يُحْيي ويُميتُ، لأَفادَ مُجَرَّدَ الإِخْبارِ، ولا مَعْنى لَهُ في سِياقِ الحِجاجِ، إِذِ المَقْصودُ إِثْباتُهُما لِلّهِ تَعالى اخْتِصاصًا، ونَفْيُهُما عَمَّنْ سِواهُ تَعْريضًا. ولذلك عدل عن التّعبير بالموصول (مَنْ) التي فيها الإبهام إلى ﴿ٱلَّذِي﴾ الدالّ عن المعهود المعروف، للتخصيص والتعبير عن معهود شأنه[3].

بلاغة المجاز في جملة (إيتاء المُلْك):

بيانُ المجاز إظهار وجه التفضّل بإيتاء الملك

وإيتاءُ المُلك في قوله تعالى: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ مجازٌ في التفضّل عليه بتقدير أنْ جعله ملكًا وخوّله ذلك[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/39.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

توجيه المعارضة بالتعبير: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾:

توجيه جملة المعارضة المشاركة في الاختصاص

قال أبو حيان: "لما ذكر إبراهيم أنّ ربَّه الذي يحيي ويميت عارضه الكافر بأنه يحيي ويميت بقوله ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، ولم يقل: (أنا الذي يحيي ويميت)؛ لأنّه كان يدلّ على الاختصاص، وكان الحسّ يكذبّه؛ إذ قد حيي ناسٌ قبل وجوده وماتوا، وإنما أراد أنّ هذا الوصف الذي ادّعيتَ فيه الاختصاص لربك ليس كذلك، بل أنا مشاركُه في ذلك"(1).

بيانُ مَقْصودِ الِاخْتِصاصِ:

اسْتِدْراجُ الخَصْمِ للدَّليلِ القاطِعِ، وإقامَةُ الحُجَّةِ النَّيِّرةِ، والبُرْهانِ السَّاطِعِ

إرادَةُ الِاخْتِصاصِ في كَلامِهِ ﷺ، يَدُلُّ عَلى أَلْمَعِيَةٍ عالِيَّةٍ، وحِذْقٍ رَفيعٍ، ذَلِكَ أَنَّ بَوادِرَ ادِّعاءِ القُدْرَةِ عَلى الإِحْياءِ والإماتَةِ لَدى المُخاصِمِ الفاجِرِ، غَيْرُ خَفِيَّةٍ عَنْهُ، فبادَرَهُ ﷺ بِجُمْلَةِ الِاخْتِصاصِ لِيَسْتَدْرِجَهُ فيوقِعَهُ في شَرَكِ زَعْمِهِ الباطِلِ، وهَذا ما حَصَلَ حينَ رَدَّ قائِلًا: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، فَكَرَّ عَلَيْهِ حينَئِذٍ بطَلَبِ الإِتْيانِ بالشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ، فوَقَعَ مَبْهوتًا مَقْطوعًا عَنِ الجَوابِ، مُتَحَيِّرًا في الرَّدِّ!! فكانَ الإِخْبارُ باخْتِصاصِهِ سُبْحانَهُ بالإِحْياءِ والإماتَةِ اسْتِدْراجًا ومُقَدِّمَةً للدَّليلِ القاطِعِ، وعَلَيْهِ فإبْراهيمُ ﷺ لَمْ يَنْقَطِعْ في الحِجاجِ - كما تُوُهِّمَ - بَلْ قَطَعَ، هَذا ما يُفيدُهُ تَدَبُّرُ قَصْدِ الِاخْتِصاصِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الإِحْياءِ عَلى الإِماتَةِ في قَوْلِهِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

إقامَةُ الحُجَّةِ النَّفْسِيَّةِ، تَوْطِئَةً للقَبولِ والإِذْعانِ

تَقْديمُ الإِحْياءِ عَلى الإِماتَةِ امْتِنانٌ وتَرْغيبٌ وتَذْكيرٌ بما كان عَلَيْهِ المُخاصِمُ قَبْلَ وِلادَتِه، وهَذا مِنْ لُطْفِ الحِجاجِ والاسْتِمالَةِ، ولَوْ عَكَسَ لَفُهِمَ التَّرْهيبُ والتَّهْديدُ، فقامَتِ الحُجَّةُ النَّفْسِيَّةُ عَلى الخَصْمِ ابْتِداءً، مُسَوَّرَةً بالحُجَّةِ العقليَّةِ، تَوْطِئَةً للقَبول والإِذْعان، وبِهِ تَلْتَقي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299.

مَحاسِنُ المَقاصِدِ النَّفْسيَّةِ الهِدائيَّةِ، والمَقاصِدُ العَقْليَّةُ الإقْناعِيَّةُ في الحِجاجِ النَّبَويِّ في القُرْآنِ الكَريم.

علّةُ فَصْلِ الجُمَلِ في المُحاوَراتِ:

علّة الفصل تَنْبيهُ المُخاطَبِ، وإيقاظُ حِسِّ اليَقَظَةِ في ذِهْنِه، كَيْ يَبْقى مُتَشَوِّقًا لما سيُقالُ

فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، وجُمْلَةُ ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ لأنَّها اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ، وهَذِه طَريقَةُ المُحاوَراتِ في الحَدَثِ الواحِدِ،[1]. وبَلاغَتُها تَنْبيهُ المُخاطَبِ، وإيقاظُ حِسِّ اليَقَظَةِ في ذِهْنِه، كَيْ يَبْقى مُتَشَوِّقًا لما سيُقالُ، والانْتِقالُ في جُمْلَةِ ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ إمَّا مِنْ دَليلٍ إلى آخَرَ أشَدَّ وُضوحًا، وإما أَنْ يَكونَ تَتِمَّةً للدَّليلِ الأوَّلِ.

لَطيفَةٌ بَيانيَّةٌ في الهُروبِ مِنَ الحَقيقَةِ إلى المَجازِ

لَمَّا وَصَفَ إبْراهيمُ ﵇ رَبَّهُ بما يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ صِفَتَي الإحْياءِ والإماتَةِ عَلى الحَقيقَةِ، فزِعَ نَمْروذُ إلى المَجازِ ومَوَّهَ بِهِ عَلى قَوْمِه، فسَلَّمَ لَهُ إبْراهيمُ تَسْليمَ الجَدَلِ، وانْتَقَلَ مَعَهُ مِنْ أمْرٍ يَحْتَمِلُ الحَقيقةَ والمَجازَ، إلى أمْرٍ لا مَجازَ فيه، فبُهِتَ الَّذي كَفرَ[2].

بَلاغَةُ الفاءِ الفَصيحَةِ في الحِجاجِ القُرْآنِيِّ:

تَرْمُزُ الفاءُ الفَصيحَةُ إلى ضَرورَةِ الحَذَرِ أَثْناءَ مُحاجَّةِ الباطِشينَ، وتَكْمُنُ بَلاغَتُها في وَظيفَتِها الاخْتِزاليَّةِ

الفاءُ الواقِعَةُ في كَلامِ إبْراهيمَ ﵇ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ هِيَ الفَصيحَةُ، وهِيَ التي تُفْصِحُ عَنْ مُقَدَّرٍ مَحْذوفٍ، وتَقَعُ في الغالِبِ جَوابًا لشَرْطٍ مُقَدَّرٍ، ومَعْناها في الآيَةِ: إنْ كُنْتَ قادِرًا أيُّها المُخاصِمُ عَلى الإحْياءِ والإماتَةِ؛ فإنَّ اللهَ يَأتي بالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ، فإنْ كُنْتَ صادِقًا في زَعْمِك فأْتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ، فنَجِدُ أَنَّ الفاءَ الفَصيحَةَ تَكَرَّرَ مَجيئُها في هَذا السِّياقِ مَرَّتَيْنِ، لحُسْنِ تَقْديرِ المَحْذوفِ في بابِ الحِجاجِ، وتَرْمُزُ إلى ضَرورَةِ الحَذَرِ أَثْناءَ مُحاجَّةِ الباطِشينَ، وتَكْمُنُ بَلاغَتُها في وَظيفَتِها الاخْتِزاليَّةِ، فالحِجاجُ القَوِيُّ مُخْتَزَلٌ في مَبْناهُ، مُكْتَنِزٌ في مَعْناهُ[3].

---

(1) أشار ابن عاشور إلى هذا التوجيه في أكثر من موضع في تفسيره التحرير والتنوير: 8/190.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/346.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/958.

سرُّ توكيد الخبر:

توكيد الخبر يناسب شدّة الإنكار

أكّدَ جملةَ الخبرِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ بـ (إنّ) لأنَّ المخاطب منكرٌ، شديدُ الإنكار باللّه تعالى، مدافعٌ عن إنكاره، محتجٌّ له[1].

اختِيارُ لَفْظِ الرُّبوبيّةِ، ولَفْظِ الجلالَةِ في المَوْضِعِ الأَنْسَبِ بالمقَام:

التَّعْريفُ باللهِ رَبِّ العالَمينَ، وأنَّهُ لا رَبَّ سِواهُ، مَهابَةً وجَلالَةً وتَسْليمًا

جيءَ بلَفْظِ الرُّبوبيَّةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، في حين جيءَ بلَفْظِ الجَلالَةِ في قَوْلِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾، وهَذا التَّنَوُّعُ لَيْسَ تَفَنُّنًا، بَلْ هُوَ ما تَقْتَضيهِ البَلاغَةُ، ويُسْنِدُهُ جَمالُ المَعْنى، فإنَّ المَأْفونَ خاصَمَ في كَوْنِهِ رَبًّا قادرًا عَلى الإحْياءِ والإماتَةِ، فذُكِرَ لَهُ لَفْظُ الرُّبوبيَّةِ فيما يَدَّعيه، وذُكِرَ لَفْظُ الجَلالَةِ فيما لا يَقْوى عَلَيْه، تَعْريفًا للنَّاسِ باللّهِ رَبِّ العالَمينَ، وأنّهُ لا رَبَّ قادرًا سِواهُ، وليَكونَ لَفْظُ الجَلالَةِ الاسْمَ الذي يُنْبِتُ المَهابَةَ في الصّدورِ، ويَرْسُمُ الابْتِسامَةَ عِنْدَ قِراءَتِهِ في السُّطورِ، وهُوَ ما كان. وأَفادَ الآلوسيُّ بأَنَّ اخْتِيارَ الاسْمِ الكَريم جاءَ ليُقابِلَ ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾؛ ففيهِ تَرَقٍّ كالتَّرَقِّي مِنَ الأَرْضِ إلى السَّماءِ[2].

فَنُّ المُقابَلَةِ[3]:

أفانينُ اسْتِعْمالِ الأداةِ البَلاغِيَّةِ (المُقابَلَةُ)، في إثْباتِ العَقائِدِ القُرْآنِيَّةِ (البَعْث)

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾، بَديعُ المُقابَلَةِ، فقابَلَتِ الآيَةُ بَيْنَ الإحْياءِ الذي هُوَ دَليلُ اسْتِمْرارِ الحَياةِ، وبَيْنَ إتْيانِ الشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِها الذي هُوَ دَليلُ اسْتِمْرارِ زَمانِها، وبَيْنَ الإماتَةِ الَّتي هي دَليلُ تَوَقُّفِ الحَياةِ، وبَيْنَ إتْيانِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها الَّذي هُوَ دَليلُ تَوَقُّفِ زَمانِها، فقابَلَتْ بَيْنَ الحَياةِ الجُزْئِيَّةِ،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/143.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/20.

(3) المقابلة: "إيرادُ الكلام، ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللفظ، على جهة الموافَقةِ أو المخالَفةِ". يُنظر: العسكري، الصناعتين، ص: 337.

والحَياةِ الكُلِّيَّةِ، وبَيْنَ الإماتَةِ الجُزْئِيَّةِ والإماتَةِ الكُلِّيَّةِ، وهَذا التَّقابُلُ خَفِيٌّ بَديعٌ، ونُكْتَتُهُ الدَّلالَةُ عَلى البَعْثِ، فإنَّ مَوْتَ الجُزْئِيِّ يَنْتَهي بمَوْتِ الكُلِّيِّ، وإتْيانُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها (المَوْتُ الكُلِّيُّ) دَليلُ البَعْثِ، فإذا وَقَعَ قامَتِ القِيامَةُ، فدَلَّتْ بَلاغَةُ المُقابَلَةِ عَلى البَعْثِ. وهَذا مِنْ أفانينِ اسْتِعْمالِ الأَداةِ البَلاغِيَّةِ في إثْباتِ العَقائِدِ القُرْآنِيَّةِ.

أَثَرُ اخْتِيارِ لَفْظِ البَهْتِ في تَصْويرِ المَشْهَدِ القُرْآنِيِّ:

تَصْويرُ الحَيْرَةِ الفِكْرِيَّةِ، والدَّهْشَةِ النَّفْسِيَّةِ، والانْقِطاعِ الجَدَليِّ، في مَشْهَدٍ غَيْبِيٍّ عَجيبٍ

اخْتارَتِ الآيَةُ لَفْظَ البَهْتِ دونَ مُرادِفاتِهِ؛ كالدَّهَشِ، أَوِ التَّحَيُّرِ، أَوِ الانْقِطاعِ، لِمَعْنًى دَقيقٍ لا يُؤَدّيهِ سِوى هَذا اللَّفْظِ، وهُوَ أنّ هَذا المُخاصِمَ جَمَعَ بَيْنَ خَسيسَتَيْنِ وهُما: إنْكارُ البَعْثِ، وادِّعاءُ الرُّبوبيَّةِ، فأَتى لَهُ إبْراهيمُ عليه السلام بدَليلٍ يَقْطَعُ بِهِ أَبْهَرَ فِكْرِهِ، ووَتينَ مَكْرِهِ، وهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بالشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ، فإنْ زَعَمَ أنَّهُ قادِرٌ عَلى ذَلِكَ، اعْتَرَفَ ضِمْنًا بالبَعْثِ الذي هُوَ خِلافُ مُعْتَقَدِهِ؛ لأَنَّهُ يَدَّعي خُلودَ الحَياةِ الدُّنْيا، وبالتّالي إنْكارَ البَعْثِ، وإنِ اعْتَرَفَ بعَجْزِهِ أَقَرَّ بمَرْبوبيَّتِهِ للخالِقِ القادِرِ، فكانَ الانْقِطاعُ دَليلَ العَجْزِ والتَّسْليمِ، ولا يُصَوِّرُ هَذا المَشْهَدَ الَّذي يَجْمَعُ الحَيْرَةَ الفِكْرِيَّةَ، والدَّهْشَةَ النَّفْسِيَّةَ، والانْقِطاعَ الجَدَليَّ، إلَّا لَفْظُ البَهْتِ؛ لأَنَّهُ الجامِعُ لِهَذِهِ المَعاني جَميعِها. وهَذا مِنْ بَديعِ أَسْرارِ اسْتِعْمالِ الأَلْفاظِ القُرْآنِيَّةِ.

ارْتِباطُ الفاصِلَةِ بمَضْمونِ الآيَةِ:

بَيانُ عِلَّةِ الكُفْرِ، وسَبَبِ الضَّلالِ، تَحْذيرًا وتَنْبيهًا

ارْتَبَطَتِ الفاصِلَةُ بمَضْمونِ الآيَةِ ارْتِباطًا وَثيقًا، فإنَّ الهِدايَةَ هُنا هِيَ هِدايَةُ الحُجَجِ والبَراهينِ للطَّريقِ القَويمِ(1)، فلَمَّا قالَ سُبْحانَهُ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾، أَرْدَفَ بِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لأَنَّ المَبْهوتَ انْكَشَفَ عَوَرُهُ، وبانَتْ حَيْرَتُهُ، وتَجَلّى ضَياعُهُ، فناسَبَ هَذِهِ المَعاني نَفْيُ الهِدايَةِ عَنْ صاحِبِها، فجُمِعَ لَهُ وَصْفانِ؛ الكُفْرُ والظُّلْمُ، ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254]، وذِكْرُ الظُّلْمِ لبَيانِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/347.

أَنَّهُ عِلّةُ الكُفْرِ وسَبَبُهُ الرَّئيسُ، فمَنْ تَجَرَّدَ مِنْهُ، فقَدْ شَقَّ طَريقَ الهِدايَةِ، ولَمْ يَبْقَ لُمحْتَجٍّ حُجَّةٌ، ولا لُمخاصِمٍ دَليلٌ.

جملة التذييل تقريرٌ لمضمون ما قبلها

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ "تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، أي: لا يهدي الذين ظلَموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ المخلّد بسبب إعراضِهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلالِ أو إلى سبيل النجاةِ أو إلى طريق الجنةِ يوم القيامة"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُحاجَّة والجِدال والمُحاوَرَة[2]:

المُحاجَّةُ: إظْهارُ البَيِّناتِ والبَراهينِ بقُوَّةٍ واقْتِدارٍ مَعَ الخَصْمِ في المَسائِلِ الكُبْرى، بتَثْبيتِ القَصْدِ والرَّأْيِ بالدَّليلِ المَتينِ، والبُرْهانِ الواضِحِ.

"والحُجَّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تفصّيًا، ولذلك يقال للذي غلبَ مخالفَه بحُجَّته قد حَجَّه، وأما الاحتجاج فهو إتيان المحتج بما يظنه حجة ولو مغالطة، يقال: احتجَّ، ويقال: حاجَّ إذا أتى بما يظنه حُجَّة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾، فالحجة لا تطلق حقيقة إلا على البرهان والدليل الناهض المبكت للمخالف، وأما إطلاقها على الشبهة فمجاز؛ لأنها تُورَد في صورة الحُجَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: 16]"[3].

الجِدالُ: تَعارُضٌ يَجْري بَيْنَ مُتَنازِعَيْنِ فصاعِدًا، إمَّا لتَحْقيقِ حَقٍّ، أَوْ تَغْليبِ ظَنٍّ، أَوْ إبطالِ باطِلٍ، وتَكونُ عَلى سَبيلِ المُنازَعَةِ والمُغالَبَةِ، وأَصْلُهُ مِنْ: جَدَلْتُ الحَبْلَ، أَيْ: أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ، والغالِبُ في اسْتِعْمالِ الجِدالَ فيما كانَ خُصومَةً بَيْنَ طَرَفَيْنِ، فيَطْلُبُ كُلٌّ مِنْهُما رُجوعَ الخَصْمِ عَنْ مَذْهَبِهِ.

وكَثُرَ اسْتِعْمالُ المُجادَلَةِ في القُرْآنِ الكَريمِ في مَسائِلِ العَقيدَةِ، وغَلَبَ عَلى المُجادَلَةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 159-158، والراغب، المفردات، ص: 189 وص: 262، والسيوطي، معجم مقاليد العلوم، ص: 76، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 298، وص: 303، والزبيدي، تاج العروس: 11/108.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46.

العِنادُ، وقُوَّةُ المُعارَضَةِ، ولذَلِكَ جاءَ الإرْشادُ القُرْآنيُّ بطَلَبِ تَخْفيفِ ذَلِكَ لا مَنْعِه، كما في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وقَوْلِه: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46].

المُحاوَرَةُ: المُرادَّةُ في الكَلامِ، ومِنْهُ التَّحاوُرُ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنَ الرُّجوعِ، ويَدُلُّ عَلى مُراجَعَةِ الكَلامِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ قُوَّةِ الدَّليلِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34].

ومِنْ بَديعِ اسْتِعْمالِ القُرْآنِ لمُصْطَلَحِ المُجادَلَةِ والمُحاوَرَةِ، ما جاءَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: 1]، فانْتَقَلَتْ تِلْكَ المُجادَلَةُ لرَسولِ اللّهِ ﷺ مِنْ جِدالٍ عَنيدٍ، إلى حِوارٍ لَطيفٍ، بما أَفاضَ عَلَيْها صَلَواتُ رَبِّي وسَلامُهُ عَلَيْهِ مِنْ لُطْفِ الحِوارِ والاِسْتِماعِ والتَّجاوُبِ الحَسَنِ، وهُوَ ما يُؤَكِّدُهُ إِسْنادُ المُجادَلَةِ لَها ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾، وإِشْراكُ التَّحاوُرِ لَهُما ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾، وهَذا مِنْ بَديعِ اسْتِعْمالِ الأَلْفاظِ القُرْآنيَّةِ المُتَقارِبَةِ في سِياقٍ واحِدٍ في بِناءِ التَّرْبِيَةِ التَّواصُليّةِ.

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيَةُ مَرْدودَةٌ إلى جُمْلَةِ ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، فهِيَ تَمْثيلٌ لتِلْكَ الدُّرَّةِ البَهِيَّةِ، ولَمَّا قَرَّرَ سُبْحانَهُ في الآيَةِ السَّابِقَةِ تَفَرُّدَهُ بالرُّبوبِيَّةِ والأُلوهِيَّةِ، كان لا بُدَّ مِنْ إثْباتِ البَعْثِ بمَثَلٍ قُرْآنيٍّ واضِحٍ للعِيانِ، وهَذا التَّناسُبُ بَيْنَ المِثْلَيْنِ في إثْباتِ التَّوْحيدِ واليَوْمِ الآخِرِ، هُوَ ما يَتَّسِقُ مَعَ تَلازُمِيَّةِ الإيمانِ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ في الآياتِ القُرْآنِيَّةِ، مِنْ خِلالِ هَذا التَّمْثيلِ البَديعِ، وما يُذْكَرُ في القُرْآنِ مِنْ هَذِهِ التَّلازُمِيَّةِ مَرْدودٌ فَهْمُهُ إلَيْها، فخُيوطُ الآيَةِ مَعْذوقَةٌ بالسَّابِقِ القَريبِ تَمْثيلًا لَهُ، ومُرْتَبِطَةٌ بالآياتِ اللاحِقَةِ تَأْصيلًا وبَيانًا لَها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَّ﴾: المُرورُ: هُوَ المُضِيُّ والاجْتِيازُ بالشَّيْءِ دونَ تَوَقُّفٍ، ويُقالُ لِما هُوَ خِلافُ الحَلاوَةِ والطِّيبِ: المُرُّ؛ فمَرارَةُ الشَّيْءِ تَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ المُكْثِ فيه، وسُمِّيَ الأَمْرُ لأَنَّهُ غَيْرُ طَيِّبٍ، ثُمَّ سُمِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّ شِدَّةٍ وشَديدَةٍ بهَذا البِناءِ، يَقولونَ: أَمْرَرْتُ الحَبْلَ: فَتَلْتُهُ، وهُوَ مُمَرٌّ، والمَرُّ: شِدَّةُ الفَتْلِ، والمَريرُ: الحَبْلُ المَفْتولُ(1).

وقَدِ اسْتُعْمِلَ المُرورُ في القُرْآنِ فيما كان اجْتِيازًا سَريعًا دونَ تَوَقُّفٍ، فمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: 12]، وقَوْلُهُ: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: 38]. وأَمَّا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب: المفردات: (مرر).

﴿خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 189]، فقدْ ذُكِرَ المُرورُ باعْتبارِ الحَمْلِ الخَفيفِ قَبْلَ الإثْقالِ: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾، فكَأَنَّ الآيَةَ عَقَدَتْ مُقارَنَةً بَيْنَ زَمانِ الخِفَّةِ وزَمانِ الإثْقالِ، فكانَ الأَوَّلُ سَريعًا، والثّاني بَطيئًا.

وقد اسْتَعْمَلَ القُرْآنُ ما كانَ لجُزْءٍ يَسيرٍ مِنَ الزَّمانِ مَرَّةً، ومَرَّتَيْنِ، قالَ تَعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: 56]، وقال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: 13]، وقال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: 80]، وقال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: 5]، اسْتِبْشارًا بسُرْعَةِ الزَّوالِ.

2) ﴿خَاوِيَةٌ﴾: الخاوِيَةُ: الخالِيَةُ مِنَ السُّكّانِ والبناءِ بَعْدَ امْتِلاءٍ، والخَلاءُ يَتَحَقَّقُ بَعْدَ التَّهَدُّمِ والخَرابِ، وأَصْلُ الخَواءِ: خَلاءُ البَطْنِ، يُقالُ: خَوَى بَطْنُهُ مِنَ الطَّعامِ يَخْوِي خَوًى، وخَوًّى أَيْ: تَهَدَّمَ ووَقَعَ، والخَواءُ: الهَواءُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، والهَواءُ الذي بَيْنَ الأَرْضِ والسَّماءِ، قال تَعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: 52]، أَيْ: خالِيَةً بَعْدَ هَلاكِهِمْ[1].

3) ﴿عُرُوشِهَا﴾: العَرْشُ: السَّقْفُ، وفي الأَصْلِ: شَيْءٌ مُسَقَّفٌ، وجَمْعُهُ عُروشٌ، وهُوَ يَدُلُّ عَلى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، ثُمَّ يُسْتَعارُ في غَيْرِ ذَلِكَ، وسُمِّيَ مَجْلِسُ السُّلْطانِ عَرْشًا اعْتِبارًا بعُلُوِّهِ، قالَ تَعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، وقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: 38]، وقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: 41][2].

والمعنى هنا: تهدُّم القرية واشتدادُ خرابها.

4) ﴿لَبِثْتَ﴾: اللَّبْثُ: المُكْثُ والإبْطاءُ والتَّأَخُّرُ، ولَبِثَ لَبْثًا، واللَّبِثُ: البَطيءُ، وهُوَ الإقامَةُ في المَكانِ وطولُ المُلازَمَةِ[3]، قال تَعالى: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ١٤﴾ [الأحزاب: 14]، ويُطْلَقُ عَلى اللَّبْثِ الزَّمانيِّ وهُوَ الأَكْثَرُ في اسْتِعْمالِ القُرآنِ، قال تَعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: 16]، وقال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]، وقال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ [النبأ: 23].

5) ﴿يَتَسَنَّهْ﴾: يَتَغَيَّر، مَأْخوذٌ إمَّا من (سنن)، وأصله: يتَسَنَّنُ بثلاثِ نونات، فاسْتُثْقِلَ

(1) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (خوى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خوى).
(2) الراغب، المفردات، وابن فارس، المقاييس: (عرش).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (لبث).

توالي الأمثال، فَأُبْدِلت الأخيرةُ ياءً، كما قالوا في تَظَنَّنَ: تظَنَّى، وفي قَصَّصْت أظفاري: قَصَّيْت، ثم أُبْدِلت الياءُ ألفاً لتحرُّكِها وانفتاح ما قبلَها، ثم حُذِفَتْ جزماً، والهاء للسكت، ومثله قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]، أي: متغيِّر مُنْتِن، وإمَّا مأخوذٌ من السَّنَة، على القول بأنَّ لامَها المحذوفةَ واوٌ، ولذلكَ تُرَدُّ في التصغير والجمع، قالوا: سُنَيَّة وسَنَوات، أو أنَّ لامها هاءٌ؛ رَوى أَبو عُبَيْدٍ عَنِ الأَصْمَعِيِّ أَنّهُ قالَ: إِذا حَمَلَتِ النَّخْلَةُ سَنَةً ولَمْ تَحْمَلْ سَنَةً قيل: قَدْ عاوَمَتْ، وسانَهَتْ، فمَنْ قال في السَّنَة: سانَهَتْ؛ فالهاءُ مِنْ أَصْلِ الكَلِمَةِ، ومَنْ قال في السَّنَة: سانَيَتْ؛ فالهاءُ زيدَتْ لبَيانِ الحَرَكَةِ، ولَيْسَ مِنَ الأَسَنِ وتَغَيُّرِ الرِّيحِ في شَيْءٍ، وإلَّا لكانَ يَتَأَسَّنْ[1].

ومَعْناهُ: التَّغَيُّرُ والفَسادُ مِنْ طولِ مَرِّ السِّنينَ، ومُضِيِّ الأَعْوام عَلَيْهِ.

6) ﴿نُنشِزُهَا﴾: النَّشْزُ[2]: المَكانُ المُرْتَفِعُ العالي مِنَ الأَرْضِ، ومِنْهُ: نَشَزَ فُلانٌ عَنْ مَقَرِّه: نَبا، وكُلُّ نابٍ ناشِزٌ، ونُشوزُ الشَّيْءِ: ارْتِفاعُهُ قَليلًا قَليلًا، فيُلْحَظُ فيه الارْتِفاعُ التَّدْريجيُّ الَّذي يُشْبِهُ الإِنْباتَ، فلا يُقالُ لمَنْ رَفَعَ حائِطًا: نَشَزَ، قال أبو زَيْدٍ: نَشَزْتُ بقِرْني أَنْشُزُ به، إذا احْتَمَلْتَهُ فصَرَعْتَهُ، وتَلٌّ ناشِزٌ، وقَلْبٌ ناشِزٌ، إذا ارْتَفَعَ عَنْ مَكانِهِ من الرُّعْبِ، وعِرْقٌ ناشِزٌ: لا يَزالُ مُنْتَبِراً يَضْرِبُ مِنْ دائِه، ونُشوزُ المَرْأَة: رَفْعُ نَفْسِها وتَعاليها عَمَّا أَوْجَبَ اللّٰه عَلَيْها مِنْ طاعَةِ الأَزْواجِ، ويُعَبِّرُ عَنِ الإِحْياءِ بالنَّشْزِ والإِنْشازِ؛ لكَوْنِهِ ارْتِفاعًا بَعْدَ اتِّضاعٍ، ونَشْزُ العِظامِ: إِعْلاءُ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ.

المَعْنَى الإِجْمالِيُّ:

ظهور قدرة الله على البعث بعد الموت

يَخْتَزِلُ هَذا المَثَلُ حالَ الإِنْسانِ في الدّنيا، فالمارُّ يُمَثِّلُ عُمومَ النّاسِ، والقَرْيَةُ تُمَثِّلُ الدُّنْيا وأَنَّ مَآلَها الخَرابُ والدَّمارُ بسَبَبِ ذُنوبِ ومَعاصي أَهْلِها، واسْتِبْعادُ المَارِّ حَياةَ القَرْيَةِ مَرَّةً أُخْرى، هُوَ حالُ مُعْظَمِ النَّاسِ مَعَ البَعْثِ، وإِماتَةُ المارِّ ثُمَّ إِحْياؤُهُ يُمَثِّلُ إِحْياءَ الإيمانِ

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/80، والفراء، معاني القرآن: 1/172، وابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 216، وابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 95، والزجاج، معاني القرآن: 1/343، والأزهري، تهذيب اللغة: (سنو)، والخطابي، غريب الحديث: 2/242، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 114، والسمين، الدر المصون: 2/563.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/80، والسجستاني، نزهة القلوب، ص: 472، والأزهري، تهذيب اللغة: (نشز)، والهروي، الغريبين: 6/1839، والراغب، المفردات: (نشز)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/351، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 138.

والهِدايَةِ والعِلْم، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ومَوْتُهُ مِئَةَ عامٍ يُمَثِّلُ حالَ النَّاسِ في قُبورِهِمْ، وشُعورُهُ بمُدَّةِ اللَّبْثِ بَعْدَ البَعْثِ كشُعورِ النَّاسِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ.

ففي هَذا المَثَلِ إِشارَةٌ وَعِظيَّةٌ بَليغَةٌ، في أَنَّ الدُّنْيا دارُ مَمَرٍّ، وأَنَّ عَلى الإِنْسانِ إِحْسانَ المُرورِ فيها، وحالُ الدّنيا كحال هَذِهِ القَرْيَةِ الخاوِيَةِ عَلى عُروشِها، واخْتِلافُ المُفَسِّرينَ في كَوْنِ هَذا المارِّ ابْتِداءً كانَ كافِرًا مُنْكِرًا للبَعْثِ أو لا؟ يُعْطي إِشارَةً أَنْ لا قَطْعَ في المَسْأَلَةِ من نَظْمِ الآيَةِ، ويُشْعِرُ نَظْمُها الجَزيلُ أَنَّ حالَ النّاسِ كهَذا المارِّ غَيْرُ مَقْطوعٍ في حُكْمِهِمْ هِدايَةً وضَلالَةً إِلَّا في النّهاياتِ.

فلمَّا اتَّضَح لهذا المارِّ بعد ردِّ اللّه إليه روحَه - وقد قبضها اللّه مئة عام -، وشَاهَدَ أنَّ ما معه من طعام وشراب لم يُغيِّره مرورُ كلِّ هذا الوقتِ، مع كونهما من أسرع الأشياء تغيُّرًا، وشَاهَدَ حمارَه وقد مات وبَلِيتْ عِظامُه، وليجعل اللّه هذا الرجلَ للناس حُجَّةً على قدْرته سبحانه، ثم شاهَدَ العِظامَ الباليةَ لحماره؛ كيف يُحْييها اللّه، ثم يُغطِّيها ويكسوها بعد الالتئام باللحم، فلمَّا اتضح له ذلك عِيانًا اعترف بعظمة اللّه وتَيَقَّنَ أنَّ اللّه قادرٌ على كلِّ شيء.

ولم يعتنِ اللّه في القرآن الكريم بتحديد الأشخاص والأماكن - في هذه القصةِ وغيرها - لأنه يقصد إلى العبرة وبيان الحال وتجلية الحدث.

وفي الآيةِ الكريمة بيان للناس بأنَّ الموت يشبه النوم، وأن البعث يشبه اليقظة بعده، وأنه لا شيء محال على اللّه تعالى فهو القائل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

إِيثَارُ حَرْفِ ﴿أَوْ﴾ عَلى حَرْفِ (الواوِ):

ذَكَرَتِ الآيَةُ حَرْفَ ﴿أَوْ﴾ التي فَرَّقَتْ بَيْنَ المَثَلَيْنِ، فحَرْفُ ﴿أَوْ﴾ دَلَّ عَلى التَّفْصيلِ[1]، دونَ الواوِ التي تَجْمَعُ بَيْنَهُما؛ "للاِحْتِرازِ عَنْ تَوهُّمِ اتِّحادِ المُسْتَشْهَدِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ"[2].

(1) السمين، الدر المصون: 2/555.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

فلَوْ قالَ: وكالَّذي مَرَّ على قَرْيَةٍ؛ لفُهِمَ أَنَّ المَثَلَ الأَوَّلَ والثَّانيَ تَمْثيلان لِمَعنًى واحِدٍ، فيَكونُ المَقْصودُ بالمَثَلِ الثّاني عَيْنَ المَقْصودِ بالمَثَلِ الأَوّلِ، وهَذا غَيْرُ مُرادٍ، إذِ المُرادُ التَّمْثيلُ بمَثَلَيْنِ عَلى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، كما سَبَقَ بَيانُ ذَلِكَ في اللَّفِّ والنَّشْرِ التَّمْثيلِيِّ.

الاحْتِرازُ عَنْ تَوَهُّمِ اتِّحادِ مَقْصودِ المَثَلَيْنِ في مَعْنًى واحِدٍ

بَلاغَةِ الاحْتِباكِ في الآيَةِ:

عَطْفُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ على: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي﴾، فيه احْتِباكٌ خَفِيٌّ، حَيْثُ أَفادَ العَطْفُ إظْهارَ مَعْنَيَيْنِ مُقَدَّرَيْنِ، أَحَدُهُما في الأولى دَلَّتْ عَلَيْهِ الثّانيَةُ، والثّاني في الثّانيَةِ دَلَّتْ عَلَيْهِ الأولى، فيَكونُ المَعْنى كالآتي: أَلَمْ تَتَعَجَّبْ مِنْ مِثْلِ الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ، أَوْ أَلَمْ تَتَعَجَّبْ مِنْ مِثْلِ الَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ، فحُذِفَ مِنَ الأولى التَّشْبيهُ الَّذي دَلّتْ عَلَيْهِ الثّانيَةُ، وحُذِفَ مِنَ الثّانيَةِ التَّعَجُّبُ الَّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ الأولى، فاجْتَمَعَ في الآيَتَيْنِ المَعْنَيانِ بنَوْعِ تَقْديرٍ للمَعْنى، بَعْدَ تَأَمُّلٍ للمَبْنى، "فمِنْ شَأْنِ العَرَبِ العَطْفُ بالكَلامِ عَلى مَعْنًى نَظيرٍ لَهُ قَدْ تَقَدَّمَهُ، وإنْ خالَفَ لَفْظُهُ لَفْظَهُ"[(1)]، وحَسُنَ أَنْ يُحْذَفَ التَّشْبيهُ مِنَ الأولى للبَدْءِ بالتَّعَجُّبِ والتَّمَحُّضِ لَهُ فهُوَ المَطْلوبُ ابْتِداءً، وحَسُنَ أَنْ يُحْذَفَ التَّعَجُّبُ مِنَ الثّانيَةِ لحُضورِ مَعْناهُ مِنَ الأولى بما يَقْتَضيهِ العَطْفُ، وذُكِرَ حَرْفُ التَّشْبيهِ في الثّانيَةِ؛ "لأَنَّ المُنْكِرَ للإحْياءِ كَثيرٌ، والجاهِلَ بكَيْفيَّتِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصى، بخِلافِ مُدَّعي الرُّبوبيَّةِ"[(2)]، و"للتَّنْبيهِ عَلى تَعَدُّدِ الشَّواهِدِ وعَدَمِ انْحِصارِها فيما ذُكِرَ"[(3)]، وليُرَدَّ الأُسْلوبُ عَلى الأُسْلوبِ، فيَتَّحِدا في بَيانِ المَطْلوبِ.

حَذفَ التَّشْبيهُ مِنَ الأولى للبَدْءِ بالتَّعَجُّبِ، وحُذِفَ التَّعَجُّبُ مِنَ الثّانيَةِ لحُضورِ مَعْناه، وليُرَدَّ الأُسْلوبُ عَلى الأُسْلوبِ، فيَتَّحِدا في بَيانِ المَقْصودِ

وما قَدْ يُظَنُّ بأَنَّ الأولى لا يَصِحُّ تَقْديرُ مَثَلٍ فيها؛ لأَنَّ التَّعَجُّبَ مِنَ الاسْمِ المَوْصولِ لا مِنَ المَثَلِ، فغَيْرُ دَقيقٍ، وادّعاءٌ خالٍ مِنَ الدَّليلِ، فإنَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/438، ويُنظر: الفراء، معاني القرآن: 1/170، والزمخشري، الكشاف: 1/306، والآلوسي، روح المعاني: 2/20.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/156.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

وُقوعَ التَّعَجُّبِ مِنْ مَثَلِ الَّذي حاجَّ، أَبْلَغُ مِنَ التَّعَجُّبِ مِنْهُ، وهَذِهِ نَظيرُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فإِنَّ نَفْيَ مُشابَهَةِ أَحَدٍ لِمِثْلِ اللهِ عَلى افْتِراضِهِ، أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ مُشابَهَةِ أَحَدٍ للهِ تَعالى[1]، فإِذا وَقَعَ التَّعَجُّبُ مِمَّنْ يُشابِهُ هَذا المُحاجَّ في رَبِّهِ، فكَيْفَ بالمُحاجِّ نَفْسِهِ؟! وهَذا مِنْ بَليغِ الاسْتِعْمالِ في الحَذْفِ.

بيان نوع التشبيه في الآية:

الكاف ههنا ليس للتشبيه المجرد بل هو للتحديد والتحقيق

قال الراغب: "والوجه أن الكاف ههنا ليس للتشبيه المجرد بل هو للتحديد والتحقيق؛ كما هو في قولك: الاسم كزيد وعمرو وعلي، أنه وإن جعل للتشبيه، فعلى سبيل المثل والمشبه غير مذكور"[2].

سرُّ إيثار الفعل ﴿مَرَّ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾:

التَّعْبيرُ بـ (مرّ) إشارَةٌ وَعْظِيَّةٌ بَليغَةٌ، في أَنَّ الدُّنْيا دارُ مَمَرٍّ

يَدُلُّ الفِعْلُ ﴿مَرَّ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ عَلى المُضِيِّ السَّريعِ دونَ تَوَقُّفٍ، وأَنَّ الإِنْسانَ في الدُّنْيا كهذا المارِّ الذي لَمْ يُرِدِ المُكْثَ في القَرْيَةِ، وإِنَّما أَرادَها طَريقًا يَجْتازُهُ، ففاجَأَهُ المَوْتُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، وكَذَلِكَ الدُّنْيا، هِيَ دارُ مَمَرٍّ لا دارُ مُسْتَقَرٍّ، فعلى الإِنْسانِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِهَذا المَثَلِ القُرْآنيِّ، فيُحْسِنَ بمُرورِهِ عَلى الدُّنْيا الخاوِيَةِ عَلى عُروشِها. قال الحرالّي: "﴿مَرَّ﴾ من المرور وهو جعل الشيء على مسلك إلى غيره مع التفات إليه في سبيله"[3].

دَلالَةُ الإِبْهامِ في تنكير لفظ القرية:

إِبْهامُ (قرية) في سِياقِ الآيَةِ، يُعينُ عَلى الاسْتِنْباطِ، ويُطابِقُ مُقْتَضى البَلاغَةِ وظاهِرَ النَّظْمِ

تَنْكيرُ ﴿قَرْيَةٍ﴾ دَليلُ الإِبْهامِ، وإِبْهامُها أَوْسَعُ في فَضاءِ التَّدَبُّرِ مِنْ تَعْيينِها، وما جاء في بَعْضِ التَّفاسيرِ[4] مِنْ تَعْيينِها، لا دَليلَ يُسْنِدُهُ، فَضْلًا عَنْ تَقْييدِهِ لِحَرَكَةِ التَّفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ لأَلْفاظِ الآيَةِ وتَراكيبِها وحُروفِها، فحَمْلُ القَرْيَةِ عَلى الإِبْهامِ هُوَ الظّاهِرُ وما تَقْتَضيهِ

(1) دراز، النبأ العظيم، ص: 165 فما بعدها.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/542.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/55.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/21.

البَلاغةُ، وهُوَ ما تَجْري عَلَيْهِ اسْتِنْباطاتُ المَعاني سَلِسَةً رَقْراقَةً، فإنَّ التَّعْيينَ يَذْهَبُ بالفِكْرِ رَأْسًا، ويَضْرِبُ بالفَأْسِ رَأْسًا، فعَدَمُهُ عِنْدَ إعْدامِهِ خَيْرٌ مِنْ وُجودِهِ بَعْدَ إيجادِهِ.

وجه إجراء قَوْلِهِ تَعالى: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مَجْرى التَّرْكيبِ:

دَلَّ التَّرْكيبُ القُرْآنِيُّ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ عَلى الهلاكِ التّامِّ بِسَبَبِ الذُّنوبِ

لِهَذا التَّعْبيرِ دِقَّةٌ بَيانِيَّةٌ لا تُفْهَمُ إلّا عَلى ضَوْءِ اجْتِماعِ هَذِهِ الدُّرَرِ الثَّلاثِ، فهُوَ يُفيدُ أنَّ القَرْيَةَ سَقَطَ سَقْفُ أَبْنِيَتِها، "وذَلِكَ أشَدُّ الخَرابِ؛ لِأنَّ أوّلَ ما يَسْقُطُ مِنَ البِناءِ السَّقْفُ، ثُمَّ تَسْقُطُ الجُدْرانُ عَلى تِلْكَ السُّقُفِ"[(1)]، وأنَّ السُّقوطَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الجُدْرانِ المُحيطَةِ، أَوْ مِنَ القَواعِدِ السُّفْلِيَّةِ، بَلْ مِنَ السُّقُوفِ العالِيَةِ، ويُشيرُ التَّرْكيبُ إلى أنّ دَمارًا وَقَعَ بسبب ذَنْبٍ حَصَلَ، هَذا هُوَ المُلاحَظُ في اسْتِعْمالِ القُرْآنِ لِهَذِهِ اللَّفْظَةِ، قالَ تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: 42]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: 45]، وقال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: 52]، ويُرَشِّحُ ذَلِكَ في هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُ المارِّ: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وهُوَ دَليلٌ عَلى شِدَّةِ الفَزَعِ مِمَّا رَأى مِنْ دَمارِها، وفُقْدانِ الأمَلِ مِنْ مُعاوَدَةِ الحَياةِ فيها عَلى ما يَعْرِفُهُ النَّاسُ، وفي ذَلِكَ إشارَةٌ إلى أنَّ الدُّنْيا سَتَزولُ وتُصْبِحُ في نِهايَةِ الزَّمانِ خاوِيَةً عَلى عُروشِها بسَبَبِ ذُنوبِ أَصْحابِها!

دقّةُ تَصْويرِ تراتبيّة مَشْهَدِ الخَرابِ:

دَلَّ حَرْفُ (على) عَلى سُقوطِ العُروشِ أوّلًا، ثُمَّ تَهَدُّمِ الجُدْرانِ ثانِيًا، وهَذا كَشْفٌ تاريخِيٌّ بَديعٌ

صَوَّرَ التَّرْكيبُ القُرْآنِيُّ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مَشْهَدَ الخَرابِ الَّذي لَحِقَ القَرْيَةَ، وتَظْهَرُ دِقَّةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بِمَعْنى الوُقوعِ والتَّهَدُّمِ، فالقَرْيَةُ مُتَهَدِّمَةٌ فَوْقَ العُروشِ، فالعُروش الَّتي هِيَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36، ويُنظر: الآلوسي، روح المعاني: 2/21.

سُقُفُ البُيوتِ تَحْتَ جُدْرانِ القَرْيَةِ، وهُوَ ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ السُّقُفَ هِيَ أَوَّلُ ما وَقَعَ، ثُمَّ تَهَدَّمَتْ فَوْقَها الجُدْرانُ، كقَوْلِه تَعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود: 82]، فهُوَ تَصْويرُ تَهَدُّمِ الأَبْنِيَةِ فَوْقَ العُروشِ، وهُوَ ما يُرَشِّحُ أَنَّ القَرْيَةَ كانَتْ مُعَذَّبَةً، فحَرْفُ الاسْتِعْلاءِ قادَ إلى كَشْفٍ تاريخيٍّ بَديعٍ، هَذا ما يَدُلُّ عَلَيْهِ دَقيقُ الكَلامِ، وفَصيحُ البَيانِ، أَوْ نَجْعَلُ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بِمَعْنى خالِيَةً عَلى الظَّاهِرِ، فيَكونُ المَعْنى: القَرْيَةُ خالِيَةٌ مِنْ سُكَّانِها، عَلى وُجودِ عُروشِ الأَبْنِيَةِ مُرْتَفِعَةً، أَيْ أَنَّ الأَبْنِيَةَ مَوْجودَةٌ لكِنَّها خالِيَةٌ مِنْ أَهْلِها، وعَلى هَذا المَعْنى فلا دَمارَ ولا خَرابَ، وهُوَ بَعيدٌ مِنَ النَّظْمِ، واسْتِعْمالِ القُرْآنِ، وما يَقْتَضيهِ سِياقُ الكَلامِ.

سرّ الكناية نقل حدث التّدمير والخراب من فكرة ذهنيّة مجرّدة إلى صورة حسيّة ماثلة أمام الخيال

بلاغة الكناية في جملة ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾:

"الجملة كناية عن صفة الدّمار والخراب في تلك القرية المرور بها. ومن أسرار هذه الكناية أنها نقلت حدث التّدمير والخراب من فكرة ذهنيّة مجرّدة إلى صورة حسيّة ماثلة أمام الخيال: جدران محطّمة وأسقف هامدة، وعظام مفتتة"(1).

اسْتِبْعادُ الإحْياءِ للكَيْفِيَّةِ والمكان، والزَّمَنِ، واسْتِعْمالُ (أَنَّى) أَدْنى للاسْتِعْمالِ الفَصيحِ

وجه إيثار الأداةِ ﴿أَنَّىٰ﴾ دونَ كَيْفَ أَوْ مَتى، وحيث:

في ﴿أَنَّىٰ﴾ وَجْهان، أَحَدُهُما: أَنْ تكونَ بمَعْنى (مَتى)، و (حيث) وعَلَيْه فتَكونُ ظَرْفًا، والثّاني: أَنْ تَكونَ بمَعْنى (كَيْفَ)، وعَلَيْه فيَكونُ مَوْضِعُها حالًا مِنْ ﴿هَٰذِهِ﴾(2)، وحَمْلُها عَلى مَعْنى كَيْفَ أَظْهَرُ أَصالَةً؛ لدَلالَةِ اسْتِبْعادِ القائِلِ الإحْياءَ، والإحْياءُ كَيْفِيَّةٌ لا زَمَنٌ، وهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ مَعْنى الظَّرْفِيَّةِ تَبَعًا؛ لأَنَّ الكَيْفِيَّةَ لا تَكونُ إلَّا في زَمَنٍ، فهُوَ يَسْتَبْعِدُ وَقْتَ الإحْياءِ ومكانه، بَعْدَ اسْتِبْعادِ كَيْفِيَّتِهِ، وهَذا سِرُّ اخْتيارِ ﴿أَنَّىٰ﴾ دونَ غَيْرِها، وهُوَ مِنْ فَصيحِ الاسْتِعمالِ. قال الحرالِّي: "وفي لفظة

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

(2) السمين، الدر المصون: 2/560.

(أنى) - لشمول معناها لمعنى كيف وحيث ومتى- استبعاده الإحياء في الكيف والمكان والزمان، ومنشأ هذا الاستبعاد إنما يطوق النفس من طلبها لمعرفة تكييف ما لا يصل إليه علمها"[1].

معنى الاستفهام في ﴿أَنَّىٰ﴾:

دلالة الاستفهام الاستبعاد والاستعظام

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ[2]. واستعظامٍ لقدرة اللّه على الإحياء[3].

بيان كون الحَقيقَةِ أَبْلَغَ مِنَ المَجازِ بالحَذْفِ:

مَقْصودُ الآيَةِ عُمومُ الحَياةِ لا خُصوصُ حَياةِ النَّاسِ، وهَذا أَقْوى في الإسْتِبْعادِ، وأَدَقُّ تَصْويرًا

حَمْلُ الإحْياءِ والإماتَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ عَلى الحَقيقَةِ أَبْلَغُ مِنَ المَجازِ بالحَذْفِ؛ فإنَّ القُرى تَموتُ بِمَوْتِ أَهْلِها، ودَوابِّها، وأَشْجارِها، وحَرَكَتِها المَعيشِيَّة، وتَحْيا بِحَياتِهِمْ، وهَذا أَفْصَحُ مِنْ أَنْ يُقالَ: أَنَّى يُحْيي أَهْلَ هَذِهِ اللّه بَعْدَ مَوْتِهِمْ؛ لما في ذَلِكَ مِنْ تَخْصيصِ الإحْياءِ والإماتَةِ بالنَّاسِ، ومَقْصودُ الآيَةِ عُمومُ جَميعِ الكائِناتِ التي تَكونُ في القُرى، وهَذا أَقْوى في الاِسْتِبْعادِ، وأَدَقُّ في تَصْويرِ مَشْهَدِ الخَرابِ والبُؤْسِ، ودَليلٌ عَلى بُعْدِ عَهْدِ خَرابِ القَرْيَةِ. ومِنْ هُنا يَظْهَرُ بُعْدُ القَوْلِ بأَنَّ الإحْياءَ مَحْمولٌ عَلى كَوْنِهِ مَجازًا مُرْسَلًا مِنْ قَبيلِ إطْلاقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الحال فيه، أو من كان حالًّا فيه، فيكون مجازًا عقليًّا إذ أوقع الإشارة الحسّية على القرية مريدًا أهلها ولوا أُحْيُوا لَعَمَرُوها كما عَمَرُوها من قبل[4]. فضلًا عن أَنّهُ "عَبَّرَ عَنْها بالإحْياءِ الَّذي هُوَ عَلَمٌ في البُعْدِ عَنْ الوُقوعِ عادَةً، تَهْويلًا للخِطابِ، وتَأْكيدًا للاِسْتِبْعادِ، كما أَنَّهُ لأَجْلِهِ عَبَّرَ عَنْ خَرابِها بالمَوْتِ"[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/55- 56.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/253.

تَقْديمُ المفْعولِ عَلى الفَاعِلِ، والتّعْبيرُ عَنْهُ باسْمِ الإشارَةِ:

الإعْتِناءُ بالمَفْعولِ مِنْ جِهَةِ السَّائِلِ المُسْتَبْعِدِ، وتَصْويرُ الحالَةِ النَّفْسِيَّةِ للقائِلِ

مُقْتَضى الظَّاهِرِ تَقْديمُ الفاعِلِ عَلى المَفْعولِ، لَكِنْ لَمَّا كانَ الاسْتِبْعادُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ﴾ ناشِئًا مِنْ جِهَةِ القائِلِ، لا مِنْ جِهَتِهِ سُبْحانَهُ الفاعِلِ، حَسُنَ تَقْديمُ المَفْعولِ بِهِ المُعَبَّرِ عَنْهُ باسْمِ الإشارَةِ، عَلى الفاعِلِ اعْتِناءً بِهِ[1]، وتَصْويرًا للحالَةِ النَّفْسِيَّةِ للقائِلِ حينَ قَوْلِهِ، ودَليلُ ذَلِكَ اسْتِعْمالُ اسْمِ الإشارَةِ دونَ الضَّميرِ، فلَمْ يَقُلْ: (أنَّى يُحييها؟!) لتَصْويرِ حالِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ وهُوَ يُشيرُ بيَدِهِ، ومَدى تَفاعُلِهِ في اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ حينَ النَّظَرِ إلى القَرْيَةِ الهالِكَةِ، وهَذا يُرَجِّحُ أَنَّهُ قالَ قَوْلَتَهُ التي ضُرِبَتْ مَثَلًا؛ بِلِسانِ المَقالِ لا بِلِسانِ الحالِ، "فالتَّعْبيرُ بالإشارَةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ فيهِ إشارَةٌ إلى تِلْكَ الحالِ الحِسِّيَّةِ الثّابِتَةِ التي اسْتَوْلَتْ عَلى حِسِّهِ، وهِيَ تِلْكَ القَرْيَةِ الخَرِبَةِ، وقَدْ قَدَّمَها عَلى لَفْظِ الجَلالَةِ فقالَ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ﴾؛ لأَنَّ السَّبَبَ في التَّساؤُلِ تِلْكَ الحالُ الحِسِّيَّةُ التي هُوَ عَلَيْها"[2]، وأما حَمْلُ اسْمِ الإشارَةِ عَلى أَنْ يَكونَ إشارَةً للعِظامِ البالِيَةِ[3] فبَعيدٌ.

في التقديم وصفٌ لحالة الذهول، والشك في القدرة على الإحياء

في التقديم إيحاء بأنّ حالة الدمار والخراب في القرية قد بلغا حدًّا غير معهود، وأنَّ تَعَجُّبَ الرّجُلِ وذهولَهُ من شدّة التدمير ولَّدَ عنده الشَّكَّ في أيّ قوة قادرة على إعادة هذه القرية إلى ما كانت عليه[4].

سرّ التكرار اللفظي للَّبْثِ:

وجه تكرار لفظ (لبث) عناية بالفعل، وبيانٌ لفخامة حدثه

إعادة كلمة (اللبث) ثلاث مرّاتٍ للعناية بهذا (اللبث)؛ لأنّه أفخم حدث في القصّة، وأهمّه، وأشدّه إثارة للتعجب؛ إذ كان يكفي أن يقال: ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ في الردّ على السؤال، وأن يقال في الردّ على الردّ: ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/22.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/961.
(3) السمين، الدر المصون: 2/560.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

سرّ تحديد مدّة الإماتة، واللبث بـ (مئة) عامٍ:

في تعليل تخصيص لفظة (المئة) في قوله تعالى: ﴿مِاْئَةَ﴾ قال البقاعي: "ولما كان المراد أن مدة موته كانت طويلة ليكون قد بلي فيها فتكون إعادته أمكن في القدرة على ما تستبعده العرب"[1]. ونقل عن الحرالِّي قوله: "وخصّ المائة لكمالها في العد المثلث من الآحاد والعشرات وعشرها وتر الشفع لأن ما تم في الثالث كان ما زاد عليه تكراراً يجزىء عنه الثلاث"[2].

خصّ المئة؛ لدلالتها على طول المدّة، فتكون الإعادة أمكن في القدرة؛ ولكمالها في العدّ

نكتة التعبير بالعام دون السّنَة:

وللدلالة على "أنّ ذلك الزمان كان حسناً طيباً لقبوله الإحياء والعمارة عبّر عنه بما يدل على السعة فقال: ﴿عَامٍ﴾ حتى بلي حماره وحفظ طعامه وشرابه من التغير؛ ليتحقق كمال القدرة بحفظ ما شأنه التغير، وتغير ما شأنه البقاء، وإعادة ما فَنِي"[3].. ولذلك أُوثِر لفظ العام؛ لِإنَّ السَّنَةَ تُستَعْمَلُ للزَّمَنِ الَّذي يَكونُ فيهِ شِدَّةٌ ومَحْقٌ.

آثرَ لفظ العام لدلالته على حسن الزمان وطيبه لقبوله الإحياء والعمارة

إيثارُ استِعْمالِ لَفْظِ البَعْثِ علَى الإحْياءِ:

اسْتَعْمَلَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ فِعْلَ البَعْثِ ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ: بَعَثَ النَّاقَةَ إذا أَقامَها مِنْ مَكانِها، وإيثارُهُ عَلى (أَحْياهُ)؛ للدَّلالَةِ عَلى سُرْعَتِهِ وسُهولَةِ تَأَتِّيهِ عَلى الباري عَزَّ اسْمُهُ، وللإيذانِ بأنَّهُ قام كهَيْئَتِهِ يَوْمَ مَوْتِهِ، عاقِلًا فاهِمًا مُسْتَعِدًا للنَّظَرِ والاسْتِدْلالِ[4]، وللإشْعارِ والتَّذْكيرِ بمَضْمونِ مُصْطَلَحِ البَعْثِ المُسْتَعْمَلِ عَلَمًا عَلى يَوْمِ القِيامَةِ، تَشْبيهًا للبَعْثِ هُنا ببَعْثِ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ، واسْتِعْمالُ هَذا المُصْطَلَحِ بَدَلَ الإحْياءِ الَّذي يُقابِلُ الإماتَةَ - وهُوَ الَّذي يَقْتَضيهِ

إفادَةُ ثَلاثَةِ أَنْواعٍ مِنَ البَلاغَةِ، وهِيَ الإيجازُ والإدْماجُ والتَّشْبيهُ، ولِما يَحْويهِ هَذا اللَّفْظُ مِنَ التَّذْكيرِ بالقِيامَةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/253.

الظَّاهِرُ اللُّغَوِيُّ -، مَنْ قَبيلِ الإدْماجِ[1] في اسْتِعْمالِ المُصْطَلَح، حَيْثُ أَدْمَجَ التَّنْبيهَ عَلى البَعْثِ الأُخْرَوِيِّ المُطْلَق، مِنْ خِلالِ إيثارِ اسْتِعْمالِ مُصْطَلَح البَعْثِ الدُّنْيَوِيِّ المُقَيَّد، ودَلالَةُ لَفْظِ البَعْثِ شَمِلَتِ الإحْياءَ تَضَمُّنًا، فهُوَ إيجازٌ بَديعٌ، أداتُهُ إيثارُ لَفْظٍ عَلى آخَر، ولَوْ قالَ: ثُمَّ أَحْياهُ، التِزامًا بِمُقْتَضى الظَّاهِرِ اللُّغَوِيِّ؛ لفاتَتْ هَذِهِ الفَرائِدُ، وضُيِّعَتْ هَذِهِ النِّكاتُ.

الاسْتِئْنافُ البَيانِيُّ فِي المُحاوَراتِ القُرْآنِيَّةِ:

بِـنـاءُ التَّـفْـكـيرِ المُـتَـدَرِّجِ، لِلْـوُصـولِ إلى المَعْرِفَةِ اليَقينِيَّةِ، والاعْـتِـقـادِ الصَّحيحِ

سُنَّةُ القُرْآنِ في الحِوارِ الهادِفِ، قائِمَةٌ عَلى الجُمَلِ المَفْصولَةِ بَيْنَ المُتَحاوِرينَ؛ لتَحْريكِ أَذْهانِ المُخاطَبينَ في تَوَقُّعِ الأَقْوالِ، وهَذا تَشْويقٌ قُرْآنِيٌّ، وتَشْريكٌ حِوارِيٌّ، هَدَفُهُ بِناءُ قيمَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ، في بِناءِ العَقْلِ وتَوْجيهِهِ نَحْوَ مُقْتَضى الحَقِّ والاعْتِقادِ الصَّحيحِ، ففي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾، ثَلاثَةُ أَقْوالٍ مَفْصولَةٍ، أُريدَ مِنَ الأَوَّلِ التَّوْطِئَةُ للمَعْرِفَةِ، ومِنَ الثَّاني بَيانُ جَهْلِ الإنْسانِ وقِلَّةِ حيلَتِهِ، ومِنَ الثَّالِثِ المَعْرِفَةُ اليَقينِيَّةُ؛ للتَّسْليمِ والإيقانِ بأَنَّ الأَمْرَ أَيْسَرُ مِمَّا يَسْتَبْعِدُهُ الإنْسانُ بِمَحْضِ فِكْرِهِ ووَهْمِهِ، وهَذا فَحْوى المَثَلِ، ومَكْمَنُ فائِدَتِهِ، ولُبُّ ثَمَرَتِهِ.

مَعْنى ﴿أَوۡ﴾ في السِّياقِ:

التَّصْويرُ البَلاغِيُّ لِمَعْنى المَثَلِ القُرْآنِيِّ، سَبيلٌ في التَّرْجيحِ بَيْنَ مَعاني الحُروفِ

ذَكَرَ المُفَسِّرونَ أَنَّ ﴿أَوۡ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ للشَّكِّ، أَوْ للإضْرابِ[2]، والصَّحيحُ أَنَّها للشَّكِّ الصَّادِرِ عَنِ الحَيْرَةِ، لأَنَّ الإضْرابَ إمّا أَنْ يَكونَ انْتِقالِيًّا، أَوْ إبْطالِيًّا، والمَعْنَيانِ غَيْرُ وارِدَيْنِ، فإنَّ تَصْويرَ المَشْهَدِ يَدُلُّ عَلى أَنَّ المَسْؤولَ مُتَحَيِّرٌ في جَوابِهِ، غَيْرُ مُتَيَقِّنٍ مِنْ إيرادِهِ، ولَوْ قُلْنا بالإضْرابِ لَدَلَّ عَلى تَيَقُّنِ المَسْؤولِ، وهَذا مِمَّا لا سَبيلَ إلى إثْباتِهِ.

(1) الإدماج: "أن يُضمَّنَ كلامٌ سيق لمعنًى معنًى آخر". التفتازاني، المطول، ص: 684.

(2) السمين، الدر المصون: 2/561.

فائِدَةُ حَرْفِ الإِضْرابِ:

تَـعْـيـينُ خَـطَـأِ المَـسْـؤولِ في تَقْديرِه، وضُعْفِ حيلَتِهِ

حَرْفُ الإِضْرابِ في قوله ﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ إبْطاليٌّ، وقَدْ عَطَفَ اللَّاحِقَةَ عَلى جُمْلَةٍ مَحْذوفَةٍ، تَقْديرُها: ما لَبِثْتَ الَّذي قلتَ، بَل لَّبِثْتَ مئَةَ عام[1]، ولَمْ يَبْدَأْ بالجَوابِ مُباشَرَةً دونَ إِبْطالِ جَوابِ المَسْؤولِ، كأَنْ يَقولَ: لَبِثْتَ مِئَةَ عام؛ لتَعْيينِ خَطَأِ المَسْؤولِ في تَقديرِهِ الذِّهْنيِّ، وفَهْمِهِ الفِكْريِّ؛ وهَذا أَقْوى مِنَ الجَوابِ المُجَرَّدِ عَنْ بَيانِ الخَطَأِ؛ لأَنَّ المَقامَ مَقامُ حِجاجٍ عَقَديٍّ، وبَيانُ الخَطَأِ أَوْلَويَّةٌ حِجاجيَّةٌ لا يَنْبَغي التَّساهُلُ فيها.

بَلاغَةُ التَّقابُلِ، وأَثَرُهُ في تَقْديرِ المَحْذُوفِ:

وجـهُ الـتّـقـابـلِ وتقديرِ المحذوفِ دفــعُ مـشْـكـلِ فـنـاءِ الـطَّـعـامِ والــشَّـــراب لا تغيُّرهما

تَفَرَّعَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ على قولِه: ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، وهُوَ تَفَرُّعٌ بحاجَةٍ إلى مَزيدِ تَأَمُّلٍ وتَدَبُّرٍ، فلا يَظْهَرُ مَعْنى عَدَمِ تَغَيُّرِ الطَّعامِ والشَّرابِ بَعْدَ مُرورِ مِئَةِ عامٍ، إِذْ مُقْتَضى الأَمْرِ الفَناءُ، وعَدَمُ تَغَيُّرِ الطَّعامِ والشَّرابِ مُلْتَئِمٌ مَعَ جَوابِ المَسْؤولِ في كَوْنِه لَبِثَ يَومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وهَذا مُشْكِلٌ لا يَدْفَعُهُ إلَّا تَدَبُّرُ النَّظْمِ المُعْجِزِ، ولِدَفْعِه طَريقَتانِ: إِمَّا بتَقْديرِ المَحْذوفِ بتَصْويرِ المَشْهَدِ بتَمامِه بإِلْحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ، وإِمَّا بدَلالَةِ التَّقابُلِ بَيْنَ الجُمَلِ المُتَغايِرَةِ، وكِلْتا الطَّريقَتَيْنِ مُشْتَمِلَةٌ عَلى جَمالٍ باهِرٍ، وسِرٍّ زاهِرٍ.

تَصْويرُ المَشْهَدِ بتَمامِهِ بإِلْحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ

إِلْحاقُ الجُمْلَةِ بنَظيرَتِها أَداةٌ بَيانيَّةٌ في فَهْمِ المَعاني وتَقْديرِ المَحْذوفِ، ففي الآيَةِ قَدْ أَمرَ المَبْعوثُ أَنْ يَنْظُرَ إِلى طَعامِه وشَرابِه، وإِلى حِمارِه، فقَوْلُهُ: ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ دَليلٌ عَلى حَياةِ الحِمارِ المَحْذوفِ ذِكْرُها، فذَكَرَ حالَ الطَّعامِ والشَّرابِ، وحَذَفَ حالَ الحِمارِ، ثُمَّ أَفْنى الطَّعامَ والشَّرابَ، وأَماتَ الحِمارَ، والرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَيْها، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ دَليلٌ عَلى كَيْفيَّةِ

---

(1) السمين، الدر المصون: 2/561.

عَوْدَةِ الطَّعامِ والشَّرابِ إلى عَهْدِها السَّابِقِ المَحْذوفِ ذِكْرُهُ، فذَكَرَ كَيْفِيَّةَ إِحْياءِ الحِمارِ، وحَذَفَ كَيْفِيَّةَ إعادَةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، فيَكونُ مَعْنى الكَلامِ: انْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ كَيْفَ نُفْنيها، وإلى الحِمارِ كَيْفَ نُميتُهُ، ثُمَّ نُعيدُها جَميعًا إلى سابِقِ عَهْدِها، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾، أيْ: شاهَدَ فَناءَ الطَّعامِ والشَّرابِ ومَوْتَ الحِمارِ، ثُمَّ عَوْدَتَها إلى سابِقِ عَهْدِها، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ ماتَ وبُعِثَ، وهَذِهِ نَظيرُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260].

تَقْديرُ المَحْذوفِ بالتَّقابُلِ بَيْنَ الجُمَلِ المُتغايِرَةِ

مِنْ أَدَواتِ تَقْديرِ المَحْذوفِ التّقابُلُ بَيْنَ الجُمَلِ بتَقْديرِ مَعانٍ مُتَغايِرَةٍ لقَرائِنَ لَفْظيَّةٍ، فمِنْ ذَلِكَ ما جاء في هَذا السِّياقِ، فقَدْ أَمَرَ اللّٰه المَبْعوثَ أَنْ يَنْظُرَ إلى طَعامِهِ وشَرابِهِ، وإلى حِمارِهِ، ونُلاحِظُ أَنَّ الآيَةَ ذَكَرَتْ حِفْظَ الطَّعامِ والشَّرابِ، ولَمْ تُبَيِّنْ حالَ الحِمارِ، وفي المُقابِلِ ذَكَرَتْ كَيْفِيَّةَ إِحْياءِ الحِمارِ، ولَمْ تَذْكُرْ حالَ الطَّعامِ والشَّرابِ، فدَلَّتِ المُقابَلَةُ عَلى التَّغايُرِ بَيْنَ حالِ الطّعامِ والشَّرابِ، وحالِ الحِمارِ، فالطَّعامُ والشَّرابُ حُفِظا بدَليلِ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وفي المُقابِلِ لَمْ تَذْكُرِ الآيَةُ شَيْئًا عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وذَكَرَتْ إِحْياءَ الحِمارِ، ففَهِمْنا مِنْ هَذا التَّقابُلِ أَنَّ الحِمارَ قَدْ بَلِيَ، وأَحْياهُ اللّٰه تَعالى، وفي كِلْتَيْهِما إِثْباتٌ لقُدْرَةِ اللّٰهِ تَعالى[1]. وبِهَذا يَظْهَرُ أَنَّ ذِكْرَ الطَّعامِ والشَّرابِ مَعَ الحِمارِ البالي، مَقْصودُهُ بَيانُ أَنَّ المُحْيي والمُميتَ هُوَ اللّٰه تَعالى، فالَّذي حَفِظَ هَذا أَماتَ هَذا، فظَهَرَ مِنْ هَذا التَّقابُلِ حُسْنُ تَقْديرٍ بَديعٍ، يَتَّضِحُ بِهِ المَعْنى ويَنْدَفِعُ مَعَهُ الإِشْكالُ.

وَجازَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾:

التَّرْكيبُ القُرْآنيُّ مُلائِمٌ للأَلْفاظِ والمَعاني عَلى حَدٍّ سَواءٍ، لا تَجِدُ فيهِ خَلَلًا، ولا بَلَلًا، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، فقَدْ جاءَتْ فيهِ مَجْموعَةٌ مِنَ الدَّقائِقِ البَيانِيَّةِ، لا يُؤَدِّيها تَعْبيرٌ آخَرُ، وهِيَ كالآتي:

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/962.

بَلاغَةُ النَّفْيِ بـ ﴿لَمۡ﴾:

إنَّ (لمْ) تَنْفي وُقوعَ الحَدَثِ عَمّا مَضى نَفْيًا قاطِعًا، مَعَ تَصْويرِ وُقوعِ النَّقيضِ، فأَفادَ النَّفْيُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ ما لَمْ يُفِدْهُ الإِثْباتُ، فلَوْ قالَ: فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ صالِحًا، أَوْ صَحيحًا، لَما أَدَّى المَعنى البَيانيَّ الَّذي أَدَّاه النَّفْيُ، وهُوَ النَّصُّ عَلى المَعْنَيَيْنِ المُتَقابِلَيْنِ، وهُما الصَّلاحُ ونَفْيُ الفَسادِ، وآثَرَ اسْتِعْمالَ النَّفْيِ للإِشْعارِ بأَنّ الأَصْلَ في الطَّعامِ التَّغَيُّرُ والفَسادُ.

أفادَ النَّفْيُ النَّصَّ عَلى مَعْنَيَيْنِ مُتَقابِلَيْنِ

قصديّة النفي بـ ﴿لَمۡ﴾ دون (ما):

وقُصد إلى النفي بـ ﴿لَمۡ﴾ في الآية؛ "لأن تغير الشّراب والطعام يحصل تدريجيًّا ويستمر وليس دفعة واحدة فجاء بـ (لم) للدلالة على أنه لم يحصل شيء من ذلك، ولو جاء بـ (ما) وقال: (ما تسنّه) لأفاد نَفْيَ التّسَنُّه وهو التغير بصورته النهائية التامة"[1].

أفادت (لم) نفي صفة سرعة التغيّر المعهودة في الشراب والطعام

سرّ التعبير بصيغة المُضارِع:

التَّعْبيرُ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ، أَشارَ إلى مَعْنًى اعْتِيادِيٍّ، وهُوَ قابِلِيَّةُ الطَّعامِ والشَّرابِ للتَّغَيُّرِ والفَسادِ بسَبَبِ مُرورِ السِّنينَ، وهُوَ أَمْرٌ سُنَنِيٌّ، فالتَّعْبيرُ بالمُضارِعِ نَبَّهَ عَلى اسْتِحْضارِ هَذا المَعْنى؛ لبَيانِ أَنَّ ما حَدَثَ هُوَ أَمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ.

الإيذانُ بأَنَّ ما حَصَلَ أَمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ

نكتة إِفْرادُ الضَّميرِ:

إِفْرادُ الضَّميرِ في ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ مَعَ عَوْدَتِهِ عَلى الطّعامِ والشَّرابِ، لَهُ عِدَّةُ تَوْجيهاتٍ مِنَ البَيانِ بما يَتَلاءَمُ مَعَ جَوْدَةِ التَّفْسيرِ؛ فمِنْ تِلْكَ التَّوْجيهاتِ:

أولاً: تَنْزيلُهُما مَنْزِلَةَ الطَّعامِ الواحِدِ، فلا يُكْتَفى بأَحَدِهِما دونَ الآخَرِ، كأَنَّهُ قالَ: انْظُرْ إلى غِذائِكَ.

تَنَوُّعُ تَوْجيهاتِ إِفْرادِ الضَّميرِ العائِدِ عَلى التَّثْنِيَةِ، دَليلٌ عَلى غَناءِ النَّظْمِ وزَهاءِ التّعْبيرِ

---

(1) د. فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/196.

ثانيًا: الاكْتِفاءُ بالمَذْكورِ عَنِ المَحْذوفِ، ويَعودُ الضَّميرُ إلى الشَّرابِ؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكورٍ، مَعَ تَقْديرِ جُمْلَةٍ أُخْرى مَحْذوفَةٍ دَلَّتِ المَذْكورَةُ عَلَيْها.

ثالثًا: سَكَتَ عَنْ تَغيُّرِ الطَّعامِ، تَنْبيهًا بالأَدْنى عَلى الأَعْلى، وذَلِكَ أَنَّهُ إذا لَمْ يَتَغَيَّرِ الشَّرابُ مَعَ نَزْعَةِ النَّفْسِ إِلَيْهِ؛ فَعَدَمُ تَغيُّرِ الطَّعامِ أَوْلَى[1].

فَجَمَعَ هَذا التَّعْبيرُ مِنْ هَذِهِ المَعاني البَلاغِيَّةِ العالِيَةِ، بِدَقيقِ النَّظْمِ، ورَقيقِ الاخْتِيارِ، ما يَعْجُزُ عَنْهُ آحادُ البُلَغاءِ، وأَفْرادُ الفُصَحاءِ، وهَذا مِنْ بَديعِ بَلاغَةِ القُرْآنِ في الكَشْفِ عَنِ المَضامينِ التَّاريخِيَّةِ بِعِبارَةٍ وَجيزَةٍ لِلسَّامِعِ، وأَلْفاظٍ وَنيسَةٍ لِلمُتَأَمِّلِ.

العَطْفُ عَلى المَحْذوفِ:

عَطْفُ العِلَّةِ الخَفِيَّةِ عَلى العِلَّةِ الظَّاهِرَةِ، تَنْبيهًا عَلى ضَرورَةِ اسْتِظْهارِها مِنْ قِبَلِ القارِئِ

الواوُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾، عَطَفَتِ الجُمْلَةَ عَلى جُمْلَةٍ مَحْذوفَةٍ مُقَدَّرَةٍ مِنَ السِّياقِ، تَقْديرُها: "لِنُزيلَ تَعَجُّبَكَ ونُرِيَكَ آياتِنا في نَفْسِكَ وطَعامِكَ وشَرابِكَ وحِمارِكَ، ولِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ، فالعَطْفُ دَلَّنا عَلى المَحْذوفِ المَطْوِيِّ دَلالَةً ظاهِرَةً، وهَذا مِنْ لَطائِفِ إيجازِ القُرْآنِ"[2]. وهُوَ مِنْ عَطْفِ العِلَّةِ الخَفِيَّةِ المَذْكورَةِ عَلى العِلَّةِ الظَّاهِرَةِ المُقَدَّرَةِ، فإِنَّ إزالَةَ التَّعَجُّبِ هِيَ العِلَّةُ الظَّاهِرَةُ مِنَ السِّياقِ، وتَقْديرُها يَسيرٌ عَلى المُخاطَبِ المُتَدَبِّرِ، فذَكَرَ المَعْنى الخَفِيَّ وعَطَفَهُ عَلى المَعْنى الظَّاهِرِ المُقَدَّرِ تَنْبيهًا عَلى ضَرورَةِ اسْتِظْهارِهِ مِنْ قِبَلِ القارِئِ، وأَنَّهُ مَدارُ المَثَلِ المَضْروبِ، وهَذا أُسْلوبٌ قُرْآنِيٌّ فَريدٌ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75]، تَقْديرُ المَحْذوفِ: نُري إبْراهيمَ مَلَكوتَ السَّماواتِ والأَرْضِ لِيَتَثَبَّتَ في حُجَجِهِ، ويَتَقَوَّى في بَراهينِهِ، ولِيَكونَ مِنَ الموقِنينَ.

نَوْعُ التَّعْريفِ في ﴿لِّلنَّاسِۖ﴾:

المَقْصودُ بالنَّاسِ "الجِنْسُ؛ إذ هو آية لمن عاصره ولمن يأتي

---

(1) السمين، الدر المصون: 2/562.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/22.

تعريف (الناس) للجنس ليشمل عمومهم، أو للعهد والمراد مَن بقي مِن قومه، أو مَن كان في عصره

بعدهم إلى يوم القيامة"[1]، لا قَوْمُ المارِّ عَلى القَرْيَةِ، فهُوَ آيَةٌ عامَّةٌ لجَميعِ النَّاسِ، ودَليلُ ذَلِكَ، أَنَّ اللّٰه جَعَلَهُ آيَةً للنَّاسِ في القُرْآنِ الكَريم إلى يَوْمِ القِيامَةِ، وجَعَلَهُ آيَةً للنّاسِ في مَسْأَلَةٍ عامَّةٍ لا تَخُصُّ أَحَدًا دونَ أَحَدٍ وهِيَ البَعْثُ، فحَمْلُ النَّاسِ عَلى الجِنْسِ حَقيقَةً، هُوَ المُتَبادِرُ الصَّحيحُ، وهُوَ المُلائِمُ للسِّياقِ، والمَوْضوعِ، وهُوَ ما يُؤَيِّدُهُ انْتِفاءُ أَدِلَّةِ أَنْ يَكونَ التَّعْريفُ لمَعْنًى آخَرَ. وتحتمل: "الألف واللام في: للناس، العهد إن عنى به مَن بقي مِن قومه، أو مَن كان في عصره"[2].

نوع التَّعْريفُ في ﴿ٱلۡعِظَامِ﴾:

تعريف العظام للعهد ويراد به عظام نفسه، أو عظام الحِمارِ، أو عظامهما

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلۡعِظَامِ﴾ عِوَضٌ عَنِ المُضافِ إِلَيْهِ المَحْذوفِ[3]، ويعني بالعظام عظام نفسه، أو: عظام حماره، أو عظامهما؛ والأظهر في هَذا السِّياقِ أَنْ يَكونَ المَقْصودُ بالعِظامِ عِظامَ الحِمارِ المَذْكورِ آنِفًا، وما قيلَ بأَنَّهُ عِظامُ النّاسِ البالِيَةِ، فلا دَليلَ عَلَيْهِ مِنَ النَّظْمِ الكَريم، ويعضده قوله معقّبًا بالفاء: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ إلى آخره، إذ يدلُّ على أنّ العظام لا يُراد بها عظام نفسه[4].

نكتة التعبير بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

التعبير بـ(كيف للتأكيد، والتحقيق

وكيف في قَوْلِه: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ لتَأْكيدِ مَا قَبْلَها، وَتَحْقيقه[5].

التَّكامُلُ الدَّلالِيُّ في القِراءَتَيْن:

اخْتَلَفَ القُرَّاءُ في قِراءَةِ: ﴿نُنشِزُهَا﴾؛ فقَرَأَها ابْنُ عامِرٍ والكوفيُّونَ بالزَّاي المَنْقُوطَةِ، وقَرَأَها الباقونَ بالرَّاءِ المُهْمَلَةِ[6]، فمَعْنى الآيَةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305.
(3) السمين، الدر المصون: 2/568.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/37.
(5) الزركشي، البرهان: 4/331.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/231.

النُّشوزُ ارْتِفاعُ العِظامِ وتَرْكيبُها، والنَّشْرُ إحياؤُها، فقِراءَةٌ أشارَتْ إلى مَبْدَأ الأمْرِ، والثّانِيَةُ إلى مُنْتَهاهُ

عَلى قِراءَةِ الكوفيِّينَ والشَّاميِّ: رَفْعُ العِظامِ بَعْدَ هُمودِها والْتِصاقِها بالأَرْضِ، وتَرْكيبُ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، ومَعْناها عَلى قِراءَةِ البَقِيَّةِ: نُحْييها بَعْدَ مَوْتٍ، مَأْخوذٌ مِنَ النَّشْرِ الَّذي يُقابِلُ الطَّيَّ، وأَنْشَرَ اللَّهُ المَيِّتَ ونَشَرَهُ: أَحْياهُ، وكان بَعْضُ بَني الحارِثِ يَقولُ: كان بِهِ جَرَبٌ فنُشِرَ، إذا عادَ وحَيِيَ[1]. وحُجَّةُ مَنْ قَرَأَ بالرَّاءِ المُهْمَلَةِ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ [عبس: 22]، فالإِنْشازُ هُوَ رَفْعُ العَظْمِ قَليلًا قَليلًا حَتَّى يَتَرَكَّبَ ويَكْتَمِلَ، فكَأَنَّهُ وَقَفَ عَلى نَباتِ العِظامِ الرُّفاتِ، وخُروجِ ما يوجَدُ مِنْها عِنْدَ الاخْتِراعِ، والإِنْشارُ إِعادَةُ الحَياةِ إلى العِظامِ[2]، فالعَلاقَةُ التَّكامُلِيَّةُ بَيْنَ القِراءَتَيْنِ تَظْهَرُ في أَنَّ إِنْشازَ العِظامِ كانَ أَوَّلَ الإِحْياءِ، وإِنْشارَها آخِرُه، فالعِظامُ بَدَأَتْ تَرْتَفِعُ شَيْئًا فشَيْئًا، حَتَّى تَكامَلَتْ فنُشِرَتْ فسَرَتْ فيها الحَياةُ، فقِراءَةٌ أَشارَتْ إِلى مَبْدَأِ الأَمْرِ، والثَّانِيَةُ إِلى مُنْتَهاهُ.

صيغَةُ المُضارِعِ في ﴿نُنشِزُهَا﴾:

التعبير بالمضارع تَصْويرٌ للمَشْهَدِ الغَيْبِيِّ عَنِ المُخاطَبِ؛ زِيادَةً في إيمانِهِ وتَسْليمِهِ

لِلفِعْلِ المُضارِعِ أَثَرُهُ الكَبيرُ في إِثارَةِ الخَيالِ لَدى المُخاطَبِ، وقَدْ تَرَكَ فِعْلُ ﴿نُنشِزُهَا﴾ تَصْويرًا بَديعًا لكَيْفِيَّةِ إِحْياءِ عِظامِ الحِمارِ، وهَذا التَّصْويرُ مِنْ شَأْنِه تَحْريكُ الذِّهْنِ لتَصَوُّرِ حالِ العِظامِ في الأَرْحامِ، وكَيْفَ أَنَّ الَّذي رَفَعَها مِنَ الأَرْضِ، يَرْفَعُها في الأَرْحامِ، مِمَّا يَزيدُ قَلْبَ المُؤْمِنِ تَسْليمًا.

بلاغَةُ تعالُقِ الاستعارات:

تَنَوُّعُ الاسْتِعارَةِ دَليلُ ثَراءِ البَيانِ القُرْآنِيِّ

تَتَنَوَّعُ أَساليبُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في إِبْرازِ جَمالِ المَعاني، وبَهاءِ المَباني، ففي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ زاحَمَتِ الاسْتِعارَةُ الاسْتِعارَةَ، وتَعَدَّدَتْ وتَعالَقَتْ باعْتِبارِ زاوِيَةِ النَّظَرِ إِلَيْها، وكانَ لكُلِّ اسْتِعارَةٍ جَمالُها في النَّفْسِ، وأَثَرُها في الحِسِّ، ففي الآيَةِ نَوْعَا اسْتِعارَةٍ، مَكْنِيَّةٌ وتَصْريحِيَّةٌ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نشر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/478، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/351.

الإسْـتِـعـارَةُ المَكْنِيَّةُ

شَبَّهَتِ الآيَةُ العِظامَ بجَسَدِ الإِنْسانِ، واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطى به العظم؛ فحَذَفَتِ المُشَبَّهَ بِهِ، وذَكَرَتْ لازمًا مِنْ لَوازِمِه وهُوَ فِعْلُ الكَسْوِ، فإنَّ العَظْمَ يُنْبِتُ اللَّحَمَ، ولا يُكْسى بِه، تَشْبيهًا بسَتْرِ الإِنْسانِ جَسَدَهُ باللِّباسِ، عَلى سَبيلِ الاِسْتِعارَةِ المَكْنِيَّة. وهي استعارة في غاية الحسن، إذ هي استعارةُ عَيْنٍ لِعَيْنٍ[1].

الإسْـتِـعـارَةُ التَّصْريحِيَّةُ

شَبَّهَتِ الآيَةُ اللَّحْمَ باللِّباسِ السَّاتِرِ، ثُمَّ حَذَفَتِ المُشَبَّهَ، وصَرَّحَتْ بالمُشَبَّهِ بِهِ، بجامِعِ الظُّهورِ في كُلٍّ مِنَ اللِّباسِ واللَّحْم، عَلى سَبيلِ الاِسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّة، والمُرادُ باللَّحْمِ هاهُنا ما يَشْمَلُ اللَّحْمَ والشَّحْمَ والشَّعَرَ؛ لَكِنَّهُ اكْتَفى بذِكْرِهِ لأَنَّهُ أَصْلُ البَقِيَّةِ، وإذا أُطْلِقَ فُهِمَ المُرادُ.

إيثارُ اسْتِعْمالِ الفِعْلِ (كَسا):

في استعمال الفعل إشارةٌ إلى قُبْحِ العُرْيِ، وفَضْلِ السِّتْرِ

إيثارُ فِعْلِ ﴿نَكۡسُوهَا﴾ عَلى غَيْرِهِ مِنَ الأَفْعالِ؛ للإِشارَةِ إلى قُبْحِ العُرْيِ، وفَضيلَةِ السِّتْرِ، فما أَصابَتِ الفَضيلَةُ شَيْئًا إلَّا حَسَّنَتْهُ وجَمَّلَتْهُ، ولَوْ كانَ عَظْمَ حِمارٍ، فلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخالِفونَ طَريقَ الفَضيلَةِ، أَنْ تَفْضُلَهُمْ عِظامُ الحَميرِ، فلا تَكْمُلَ حَياتُهُمْ، ولا تَجْمُلَ نُفوسُهُمْ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالنَّظَرِ وتَكْرارِهِ:

النَّظَرُ تَقْليبُ البَصَرِ والبَصيرَةِ، وكُرِّرَ لِفَهْمِ كُلِّ مَعْنًى عَلى وَجْهٍ مُسْتَقِلٍّ

تَكَرَّرَ الأَمْرُ بالنَّظَرِ في الآيَةِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، الأولى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾، والثَّانِيَةُ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، والثّالِثَةُ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾، والأَمْرُ بالتَّكْرارِ دَليلُ العِنايَةِ بالاِعْتِبارِ، فإِنَّ المَثَلَ قائِمٌ عَلى اعْتِبارِ المُشاهَدِ للوُصولِ إلى الحَقيقَةِ المُسْتَبْعَدَةِ، والنَّظَرُ هُوَ "تَقْليبُ البَصَرِ والبَصيرَةِ لإِدْراكِ الشَّيْءِ ورُؤْيَتِهِ"[2]، فلَيْسَ المُرادُ بالنَّظَرِ مُجَرَّدَ الإِبْصارِ، بَلِ الإِدْراكَ ومَعْرِفَةَ الأُمورِ عَلى حَقيقَتِها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ، وهَذا سِرُّ التَّعْبيرِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/306.

(2) الراغب، المفردات، ص: 812.

بالنَّظَرِ وتَكْرارِه، فلَوْ لَمْ يُكَرَّرْ لفُهِمَ أَنَّ المَطْلوبَ النَّظَرُ الكُلِّيُّ للجَميعِ، ولَوْ جاءَ النَّظْمُ: (فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وإلى حِمارِكَ . . وإلى العِظامِ) لَصَحَّ المَعْنى، لَكِنَّهُ يَكونُ قاصِرًا عَنِ المَقْصودِ، وهُوَ إفْرادُ كُلِّ جُزْءٍ مِنَ المَطْلوبِ تَأَمُّلُهُ بالنَّظَرِ الدَّقيقِ؛ للوُصولِ إلى المَعْنى الأَنيقِ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى الطَّعامِ والشَّرابِ عَلى حالِهِما وعَدمِ عَوَزِهِما لأَسْبابِ البَقاءِ مُدَّةَ اللَّبْثِ الطَّويلِ، يَخْتَلِفُ عَنْ أَسْبابِ بَقاءِ الحِمارِ حَيًّا، أَوْ مَوْتِه، والنَّظَرُ إلى كَيْفِيَّةِ إِحْياءِ الحِمارِ، يَخْتَلِفُ عَنِ النَّظَرِ إلَيْهِ وهُوَ مَنْخورُ العَظْمِ، فلِذَلِكَ أَمَرَتِ الآيَةُ بأَنْ يَكونَ النَّظَرُ مُتَّجِهًا إلى كُلِّ مَنْظورٍ باسْتِقْلالٍ، وهَذا فيهِ مَزيدُ عِنايَةٍ ورِعايَةٍ، لإِدْراكِ الحَدَثِ، والعِنايَةِ بتَفاصيلِه، فإنَّ العِلْمَ بتَفاصيلِ الأَشْياءِ ومَقاديرِها، لَيْسَ كالمَعْرِفَةِ المُتَعَجِّلَةِ.

وجه التكرار أنّ كلّ واحد منها خارق عظيم، ومعجز بالغ، ولتعالق معناها بعضها ببعض

وتكرر الأمر بالنظر إلى الطعام والشراب في الثلاث الخوارق، ولم ينسق نسق المفردات؛ لأن كل واحد منها خارق عظيم، ومعجز بالغ، وبدأ أولاً بالنظر إلى العظام والشراب حيث لم يتغيرا على طول هذه المدة، لأن ذلك أبلغ، إذ هما من الأشياء التي يتسارع إليها الفساد، إذ ما قام به الحياة وهو الحمار يمكن بقاؤه الزمان الطويل، ويمكن أن يحتش بنفسه ويأكل ويرد المياه. ثم أَعْقَبَهُ بالنظر إلى مصاحبه وهو الحمار، فجاء النظر الثالث توضيحاً للنظر الثاني، من أي جهة ينظر إلى الحمار، وهي جهة إحيائه وارتفاع عظامه شيئاً فشيئاً عند التركيب وكسوتها اللحم، فليس نظراً مستقلاً، بل هو من تمام النظر الثاني، فلذلك حَسُنَ الفَصْلُ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ بقوله: ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾[1].

التّعبير بالفاء للإيذان بظُهور تَحقُّق المَحْذوف في اسْتِغْنائِهِ عَنِ الذِّكْرِ، وسُرْعَةِ وُقوعِهِ

بَلاغَةُ الفاءِ الفَصيحَةِ:

الفاءُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ هِيَ الفَصيحَةُ، وهِيَ تُفْصِحُ عَنْ مَعْنًى مُقَدَّرٍ يَسْتَدْعيهِ الأَمْرُ المَذْكورُ، وسِرُّ حَذْفِ المُقَدَّرِ للإيذانِ بظُهورِ تَحَقُّقِهِ واسْتِغْنائِهِ عَنِ الذِّكْرِ، وللإشْعارِ بسُرْعَةِ وُقوعِهِ كأَنَّهُ قيلَ: فأَنْشَرَها اللَّهُ تَعالى،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/306.

وكَساها لَحْمًا، فنَظَرَ إِلَيْها، فتَبَيَّنَ لَهُ كَيْفِيَّتُه، فلَمَّا تَبَيَّنَ ذَلِكَ، ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

جَمالُ الاحْتِمالِ في بابِ التَّنازُعِ:

اشْتِمالُ الفِعْلِ عَلى الدَّلالاتِ السَّابِقَةِ واللَّاحِقَةِ، مِنْ جَمالِ الاتِّساعِ، وجَلالِ الاتِّساقِ

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في تَقْديرِ الفاعِلِ لفِعْلِ ﴿تَبَيَّنَ﴾، فمِنْهُمْ مَنْ قَدَّرَهُ مِنَ السِّباقِ، أَيْ: فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُ الإِحْياءِ بَعْدَ الإماتَةِ وكَيْفِيَّتُهُ، ومِنْهُمْ مَنْ قَدَّرَهُ مِنَ اللَّحاقِ: أَيْ: فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ اقْتِدارُ اللهِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، واحْتِمالُ تَقْديرِ الفاعِلِ سِباقًا ولَحاقًا يَدُلُّ عَلى جَمالِ النَّظْمِ القُرْآنيِّ، واتِّساعِ دَلالَتِهِ؛ لاشْتِمالِ التَّبَيُّنِ عَلى ما وَرَدَ في السَّابِقِ واللَّاحِقِ، وإِنْ كانَ هَذا يَدْخُلُ في بابِ التَّنازُعِ النَّحْويِّ، إِلَّا أَنَّ أَثَرَهُ البَيانيَّ لا يُنْكَرُ، فحَمْلُهُ عَلى التَّنَوُّعِ المَقْصودِ، أَوْلى مِنْ حَمْلِهِ عَلى التَّرْجيحِ، لما في ذَلِكَ مِنْ جَمالِ الاتِّساعِ، وجَلالِ الاتِّساقِ.

التَّكامُلُ في القِراءاتِ:

تَصْويرُ سُرْعَةِ الاسْتِجابَةِ، فكَأَنَّ الأَمْرَ والاسْتِجابَةَ لَهُ مُتَّحِدانِ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ

اخْتَلَفَ القُرّاءُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فقَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائيُّ بالوَصْلِ، وإِسْكانِ الميمِ عَلى الأَمْرِ، وقَرَأَ الباقونَ بقَطْعِ الهَمْزَةِ، والرَّفْعِ عَلى الخَبَرِ[2]، فقِراءَةُ الأَخَوَيْنِ هِيَ القِراءَةُ الآمِرَةُ تَوْجيهًا وإِرْشادًا وتَعْليمًا، والقِراءَةُ الأُخْرى قِراءَةُ الاسْتِجابَةِ للتَّوْجيهِ والإِرْشادِ والتَّعْليمِ، فقِراءَةٌ دَلّتْ عَلى الأَمْرِ، وأُخْرى دَلَّتْ عَلى الاسْتِجابَةِ، قِراءَةٌ دَلَّتْ عَلى البِدايَةِ، وأُخْرى دَلّتْ عَلى المَآلِ، وتَكْمُنُ بَلاغَةُ القِراءَتَيْنِ في تَصْويرِ سُرْعَةِ الاسْتِجابَةِ، فبِمُجَرَّدِ أَنْ أُمِرَ اسْتَجابَ، فكَأَنَّ الأَمْرَ والاسْتِجابَةَ مُتَّحِدانِ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ، وهَذا مِنْ أَسْرارِ التَّعْبيرِ بالقِراءاتِ المُخْتَلِفَةِ لَفْظًا عَنِ المَعاني القُرْآنيَّةِ، وهُوَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكالِ بَلاغَةِ القُرْآنِ المُعْجِزَةِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/23.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/231.

ويجوز أن تكون القراءة أمرًا بالعلم، أو علَى سَبيل التَّجْريدِ مُبَكِّتًا لَها

ويمكن أنْ يُحمَلَ قوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عَلى قِراءَةِ حَمْزَةَ والكِسائِيِّ بِهَمْزَةِ الوَصْلِ، عَلى مَعْنَيَيْن:

الأوّلُ: أَنْ تَكونَ أَمْرًا مِنَ اللهِ تَعالى لِلْمُخاطَبِ أَنْ يَعْلَمَ.

الثّاني: أَنْ تَكونَ خِطابًا مِنَ الرَّجُلِ لِنَفْسِهِ، "عَلى سَبيلِ التَّجْريدِ مُبَكِّتًا لَها، مُوَبِّخًا عَلى ما اعْتَراها مِنْ ذَلِكَ الاسْتِبْعادِ"[1]، والمَعْنَيانِ مُحْتَمِلانِ، وحَمْلُها عَلى التَّجْريدِ قَوِيٌّ؛ لِمُعاضَدَةِ القِراءَةِ الأُخْرى لَها، فكَأَنَّهُ قالَ: اعْلَمْ! ثُمَّ قالَ مُقِرًّا: أَعْلَمُ، وهَذا مِنْ حِوارِ الإِنْسانِ لِذاتِهِ إِقْرارًا واعْتِرافًا.

إيثارُ صيغَةِ المُضارِعِ:

التّعبير بالمضارع وَعْدٌ باسْتِحْضارِ العِلْمِ عَلى الدَّوامِ

آثَرَتِ الآيَةُ صيغَةَ المُضارِعِ في قِراءَةِ الجُمْهورِ؛ "للدَّلالَةِ عَلى أَنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ مُسْتَمِرٌّ، نَظَرًا إِلى أَنَّ أَصْلَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، بَلْ إِنَّما تَبَدَّلَ بِالعِيانِ وَصْفُهُ، وفيهِ إِشْعارٌ بِأَنَّهُ إِنَّما قالَ ما قالَ بِناءً عَلى الاسْتِبْعادِ العادِيِّ، واسْتِعْظامًا لِلأَمْرِ"[2]، وفي التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعِ عِدَةٌ بِأَنَّهُ سَيَبْقى مُسْتَحْضِرًا أَثَرَ العِلْمِ بِأَنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ؛ لِدَلالَةِ المُضارِعِ عَلى تَجَدُّدِ العِلْمِ، وما في ذَلِكَ التَّجَدُّدِ مِنَ الارْتِقاءِ والاقْتِرابِ.

بلاغة توكيد الخبر:

وجه التوكيد إزالة الشكّ من النّفس

وسُعي في قوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إلى توكيد الخبر بلفظ ﴿أَعۡلَمُ﴾ الدالّ على الاستيقان، والإيمان، والاعتقاد[3]، و﴿أَنَّ﴾، وباللفظين الدّالّين على الاستغراق والشمول: ﴿كُلِّ﴾، و﴿شَيۡءٖ﴾؛ "لإزالة الشكّ الذي كان في نفسه قبل أن يريه اللّه تلك الآيات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهيّة"[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/24.
(3) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 2/964.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّبْث والمُكْث:

يَدُلُّ لَفْظُ المُكْثِ واللَّبْثِ عَلى الإقامَةِ، طالَتْ أَمْ قَصُرَتْ، والفَرْقُ بَيْنَهُما أَنَّ اللَّبْثَ هُوَ الإِقامَةُ الزَّمانِيَّةُ مَلْحوظًا فيها المَكانُ، والمُكْثُ هُوَ الإقامَةُ المَكانيَّةُ مَلْحوظًا فيهِ الزَّمانُ، فالعِبْرَةُ بالتَّغْليبِ، وغالِبُ اسْتِعْمالِ اللَّبْثِ في القُرْآنِ الكَريمِ للإِقامَةِ الزَّمانِيَّةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ [الكهف: 19]، وقالَ: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]، وقالَ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14]، وقالَ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩﴾ [هود: 69].

أمَّا المُكْثُ فاسْتُعْمِلَ للإِقامَةِ المَكانِيَّةِ، قالَ تَعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: 17]، وقالَ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣﴾ [الكهف: 3]، وقالَ: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: 22]، وقالَ: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10]، وقالَ: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [القصص: 29]، وقالَ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: 77].

وأمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: 106]، فهو من المُكث الدالِّ عَلَى تَوَقُّفٍ وَانْتِظارٍ. وَمَكَثَ مَكْثًا وَمُكْثًا وَرَجُلٌ مَكيثٌ: رَزِينٌ غَيْرُ عَجُولٍ. وَمَكَثَ وَمَكُثَ وَالتَّمَكُّثُ: الانْتِظارُ[1]. ومَعْناهُ: لتقرأه على الناس على تُؤَدة، فترتِّله وتبيِّنه، ولا تعجَل في تلاوته، فلا يُفْهم عنك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكث).

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لهذه الآية أوجهٌ من الرّبطِ مع الآيةِ السَّابقة، فهي مرتبطةٌ بفاصِلة الآيةِ السَّابقة، وبجملَةٍ توسّطت الآيَةَ السّابقة، ومرتبطةٌ ارتباطَ تَدَرُّجٍ من الأدنى إلى الأعلى، وهذا الرَّبطُ يقوّي بيانَ العلاقةِ الدّلاليّة في الآياتِ القرآنيّة، ومدى اتِّساقها فيما بينها، وبيانُ ذلك:

الارتباطُ بالفاصِلةِ:

ارتبطَت الآيةُ بفاصلة الآيةِ السّابقة، فلمّا قال المارُّ على القرية: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: 259]، بعد أنْ رأى من تلك المشاهدات ما رأى؛ ذكر في هذه الآية مثلًا ناصعًا لمَنْ عَلِمَ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لكنَّه أرادَ أنْ يَرَى كيفيّةَ القدرة، فهما مَثَلان مُتعاطِفان: مثلٌ لمن عَلِمَ القُدرةَ بعد أنِ استبعدَ البعثَ، فأراه اللّه ما أراه، ومثلٌ لمَنْ عَلِمَ القدرةَ، وطلب رؤيةَ كيفيّتها، وكِلا المَثَلَيْن مُرتَبطٌ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]، وتقديمُ المثلِ الأوّلِ من بابِ تقديم الأُصولِ على الفروعِ، فإنَّ معرفةَ قدرةِ اللّه على كلِّ شيءٍ أصلٌ، ومعرفةُ كيفيّةِ الإحياءِ فرعٌ عن ذلك الأصل، فالعطفُ من قبيلِ عَطْفِ الفرعِ على الأَصْلِ.

الارتباطُ بالجزءِ:

ارتبطتِ الآيةُ بجملةٍ في الآيةِ السَّابقةِ، وهي قولُ مدَّعي الرّبوبيَّة: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 258]، فلمَّا لم يُجبه إبراهيمُ ﷺ، وانتقلَ إلى الدَّليل الآخر، كان بيانُ كيفيَّة الإحياءِ والإماتة لإبراهيم ﷺ من الحَسَن جدًّا في هذا السِّياق، فعطف عليه هذه القصَّة؛ لِتزولَ أيُّ مشاغبةٍ حولَ إبراهيمَ ﷺ، فإنَّ عدمَ جوابِه للنمرود قد يُثيرُ استفسارًا عن سببِ

ذلك، فكان إيرادُ هذه القصَّة من قبيل دفعِ الشُّبَه، وهذا يدلُّ على مكانةِ إبراهيم عليه السلام عندَ ربِّه، في اختصاصِه بمثلِ هذا الإيرادِ الذي يَدفعُ عنْ شَخْصِه أيَّ إيراد.

الارتباطُ التَّدريجيّ:

تَرتُّب هذه القصةِ على سابقتها يُظهرُ مكانةَ الخليلِ عليه السلام عند ربِّه، فإنَّه لا يَسْألُ مثلَ هذا السّؤال إلا من غَمَرَ الإيمانُ قلبَه، وتمكَّن اليقينُ من فؤادِه، فإنَّ ضعيفَ الإيمانِ يخشى على نفسِه مثلَ هذه الأسئلة، فيتحاشاها، وليس التّحاشي عن مثلِها ديدنَ الخليل، ولمكانته من ربِّه سَأَلَ، ولحُسنِ ظنِّه طَلَب، فكان سؤالُه سؤالَ المستطلب للطّمأنينةِ، المُستجلِبِ للسّكينةِ في أنَّه الخليلُ، صاحبُ المنزلةِ الرَّفيعة، والدّرجةِ العالية، وأنَّه أكرمُ عند اللّه من ذلك المستبعدِ الإحياءَ بعد الإماتة؛ فأراه بناءً على طلبه، ويقَّنه حفاوةً بسؤاله، فدلالة التّرتيب من قبيل التّدرج من سؤالِ الأدنى إلى سؤالِ الأعلى، ولدفع سؤالٍ قد يصدُرُ: هل يصدُر مثلُ هذا السّؤال عن مسلم؟ فكان الجوابُ من لسان إبراهيم عليه السلام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾: الطَّمأنينة[1]: الطَّمْنُ: غيرُ مُسْتَعْمَلٍ في الكلام، وزيدت له الهمزة، فقيل: اطْمأَنّ الرّجلُ، واطمأنّ قَلْبُهُ، واطمأنَّتْ نَفْسُه؛ إذا سَكَنَ، واستأنس، والاسمُ: الطُّمأنينة، وأصلُه مأخوذٌ من المُتَطَأْمِنة: وهي الأرضُ المنخفِضة، والمُطْمَئِنُّ من الأرض: المنخفض، والمستوطِنُ في الأرض، واطْمَأَنَّتِ الأرضُ، وتَطَأْمَنَتْ: انْخَفَضَتْ، وفيه تطامنٌ: أي: سكونٌ ووقارٌ، ويُقال: طامن ظهرَه: إذا حناه - بغَيْرِ همز- لأنَّ الهمزة التي حلَّت في اطْمَأَنَّ إنَّما حلَّت فيها حِذارَ الجمع بين السَّاكنين، فمعنى الطُّمَأْنِينَةِ والاطْمِئْنَانِ: الاستقرارُ والسُّكون بعد جَوَلانٍ بسببٍ ذاتيّ، وأكثرُ ما يكون في جَوَلان الفكرِ في القلبِ، قال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾ [الأنفال: 10]، وقال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾ [البقرة: 260]، وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾ [الفجر: 27]، وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: 28]، وقال: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنُّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ [النساء: 103].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (طمن).

2) ﴿قَلْبِي﴾[1]: القلبُ: باطنُ الشّيء ولُبُّه، ويُطلَق على العقلِ والفؤادِ والشّيء المحْضِ؛ لخلُوصِه، وكونه لُبًّا، فقلُوبُ الشّجر: عُروقُها وأجوافُها، وقَلْبُ النَّخلة: شحمتُها، ولكلِّ شيء قَلْبٌ، ويُقال للشّيء المُحوَّلِ عن وجهه إلى جهة أخرى: قلبٌ؛ لأنَّه إخراجُ باطنِ الشّيء إلى الظّاهر، كالقَليبِ، ثمَّ أصبح عَلَمًا على المضغة اللحميّة المعلّقَة بالنِّياط، والتصق بكل باطنٍ يتقلَّب، ولذلك ما سُمِّيَ القَلْبُ إلا من تقلُّبِه وتحوُّلِه، وكذلك كلُّ أمرٍ يتقلَّب، فهو قلبٌ، والعرب تستعملُ لفظ القلبِ للتّعبير عن الدّاء، فيقولون: مَا بِهِ قَلَبة، أَي: ما بِهِ دَاءٌ، وَهُوَ القُلاب، داءٌ يَأْخُذ الْإِبل في رؤوسها فيَقلِبُها إِلَى فَوق، وقال الفرّاء: معناه: ما به علّةٌ يُخشى عليه منها، وهو مأخُوذٌ من قولِهم: قُلِب الرجل: إِذا أَصابَهُ وجعٌ في قَلْبه، وَلَيْسَ يكَاد يُفْلِتُ منه، وقال الطائيّ: معناه: ما به شيءٌ يُقلِقُه، فيتقلَّب من أجله على فراشِه.

وأُطلق اسمُ القلبِ في القرآنِ على القوّة المدركَةِ والفَهْم والعَقْلِ، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، كما أُطلق على المُضْغَة اللحميَّة قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، واستُعمل فعلُ التَّقليبِ في التّحوُّل من جهةٍ إلى أخرى، والرّجوع إلى الأصْلِ، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110]، وقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾ [العنكبوت: 21]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ [المطففين: 31]، وقال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144].

3) ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: الصَّوَرُ[2]: المَيلُ والضَّمُّ وما ينتهي إليه الأمرُ مآلًا، حيث تدورُ استعمالاتُ هذه الكَلمة على هذا المعنى، فيُقال: فلانٌ يصُورُ عُنُقَه، أي: يميل بعُنُقه ووَجْهِه، والأَصْوَر: المائِل العُنُق، وعُصفورٌ صَوّارٌ: ميَّالٌ لمن يدعوه، فيُجيبه، وينضمُّ إليه، والصَّوْرُ: النَّخلُ الصِّغارُ المُتضامّ، والصِّوارُ: رِيحُ المِسْكِ، فمن يشُمَّه؛ يملْ إليه، وانصارتِ الجبالُ: انهدَّتْ، فسَقَطَتْ، والصَّيْرُورة مصدرُ صارَ يصيرُ، صِرْت إِلَى مَصِيري وَإِلَى صِيري وصَيُّوري، وصَيرُ الأَمْرِ: مُنْتَهاه، والصَيِّرُ: القَبْرُ، يُقَال: هذا صَيِّرُ فلان، أَي: قبرُه؛ لأنه ينتهي إليه، فكأنَّه يميل إليه، فيُضمُّ جسده فيه مآلًا، وتصيَّرَ فلانٌ أَبَاهُ، وتقيَّضَه؛ إِذا نَزَع، ومال إِلَيْهِ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قلب).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والصغاني، التكملة والذيل والصلة: (صور)، والآلوسي، روح المعاني: 2/28.

فِي الشَّبه، والصِّيارُ: صَوْت الصَّنْجِ وأوتاره؛ إذِ الأُذُنُ تميلُ إلى سماعه، ويُقَال للمنزل الطيّب: مَصِيرٌ؛ لأنَّ صاحبه يميلُ إليه.

ودار الاستعمالُ القرآنيُّ حول هذا المعنى، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: 64]، فإنَّ تصويرَ النَّاس في الأرحام هو خلقُهم وتشكيلُهم، وجمعهم بما سيصيرون إليه، وهذا مَيْل، في مآله اكتمال الخلق، ورسول الله ﷺ يقول: "إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا"[1]، والصُّورة هي ما ينتهي إليه الشَّكل النهائيُّ للشَّيْءِ، ولا يبعُدُ أن يكونَ اسمُ الصُّور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [النمل: 87]، محمولًا على هذا المعنى، فإنَّ الصُّور يُمَيِّلُ النَّاس من قبورهم إلى حشرِهم.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبارٌ من الله تعالى عن طلبِ الخليل عليه السلام أن يُريَه كيفيَّةَ إحياءِ الموتى؛ ترسيخًا لطمأنينة قلبِه بعدَ جولان فكره، "فإنَّ إبراهيمَ لِفَرْطِ محبَّته الوصولَ إلى مرتبةِ المعاينة في دليل البعث، رامَ الانتقالَ من العلم النظريّ البرهانيّ، إلى العلم الضروريّ، فسأل الله أنْ يُريَه إحياءَ الموتى بالمحسوس"[2]؛ ليزداد يقينًا إلى يقينه، وبيان تلك الكيفيَّة بتفصيلاتها، أَمْرُ اللهِ له بأخذ أربعةٍ من الطَّير، وضمِّهنَّ إليه، وذَبْحِهنَّ وتقطيعِهنَّ، ثمَّ توزيعهنَّ بأنْ يضعَ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءًا؛ لينظر كيف يأتينَه مُسرعاتٍ إليه بعد دعوتِه إيَّاهنَّ، فلمَّا فعل ما أمره الله به عاد كلُّ جزءٍ من هذه الطيور الأربعةِ إلى موضعه منها، ورجعتْ إليهنَّ الحياة، فأَمَره اللهُ تعالى أنْ يتيقَّن أنَّ الله عزيزٌ لا يغلبه شيء، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره.

وهذا الذي رآه عليه السلام هو من ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ - وما تحتويان عليه مِن مُلك عظيم، وقُدرة باهرة؛ ليكون من الراسخين في الإيمان- الواردِ ذكرُه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75].

---

(1) رواه البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (3208)، ومسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (2643)، ويُنظر: الراغب، المفردات: (فأد).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/38.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

وجه العطف كونه مثالًا ثالثًا لقضيّة ولاية الذين آمنوا، ومثالًا ثانيًا لقضيّة المرور على القرية

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ معطوف على الآية السابقة: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾، على أنّه مثالٌ ثانٍ لها، ومثالٌ ثالثٌ لقضية قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257] الآية؛ فالتقدير: أو هو كإبراهيم إذ قال رب أرني.... إلخ. فإن إبراهيم لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ الوصولَ إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رامَ الانتقالَ من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس(1).

علّة تقديم آية المارّ على هذه الآية:

بيان التقديم أنّه تعجّبٌ من الإحياء بعد الموت، وأما قصة إبراهيم فهي سؤال لكيفية إراءة الإحياء

وقدّمت آية المارّ ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ [البقرة: 259] على آية إبراهيم هذه، وإن كان إبراهيم مقدّماً في الزمان على المار؛ لأنه تعجب من الإحياء بعد الموت، وإن كان تعجب اعتبارٍ فأشبه الإنكار، وإن لم يكن إنكاراً فكان أقرب إلى قصة النمرود وإبراهيم، وأما إن كان المار كافراً فظهرت المناسبة أقوى ظهور. وأما قصة إبراهيم فهي سؤال لكيفية إراءة الإحياء، ليشاهد عياناً ما كان يعلمه بالقلب، وأخبر به النمرود(2).

بلاغة الإيجاز بالحذف:

وجه الاستغناء بالمذكور، وحذف تتمّة القصّة؛ لأنها مدركةٌ بالبداهة

في قوله تعالى إيجاز بحذف تتمّة القصّة؛ إذ أوردت أوامر الله تعالى، وحذفت تتمّة القصّة من غير تعرّض لامتثال نبي الله إبراهيم عليه السلام لها؛ لأنّ ذلك مدركٌ بالبداهة(3).

سرّ اختيار عنوان الرُّبوبيّة دون الألوهيّة:

وبدأ السؤال بكلمة ﴿رَبِّ﴾ التي تفيد عنايته تعالى بعبيده وتربيته

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/38.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/403.

وجه الافتتاح بلفظ الربّ ليُسبق الدعاء بالثناء والاستعطاف

لعقولهم، وأرواحهم بالمعارف لتكون ثناءً، وحسنَ استلطافٍ، واستعطافٍ أمام الدُّعاء، أي أرني بعيني كيفية إحيائك للموتى، وليناسب قولَهُ للنمرود ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لأن الربّ هو الناظر في حاله، والمصلح لأمره[1].

في اختيار لفظ الربوبية دليلٌ على أنَّ الدَّعاءَ كان لتحقيق أمرٍ وجوديٍّ لا لتقوية أمرٍ متعلّقٍ بالإيمان

لمَّا كان إحياءُ الموتى مظهرًا من مظاهر الخلقِ المتعلِّقة بالرُّبوبيّة، ناسَبَ الدُّعاءُ بها، فقال ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾، وفيه دليلٌ على أنَّ الدَّعاءَ كان لتحقيق أمرٍ وجوديٍّ لا لتقوية أمرٍ متعلّقٍ بالإيمان.

نكتة حذف ضمير المتكلّم المضاف اليه:

في حذف الضمير تخفيفٌ على الدّاعين لكثرة دعائهم به

وحذفت ياء الإضافة من ﴿رَبِّ﴾ اجتزاءً بالكسرة، وهي اللغة الفصحى في نداء المضاف لياء المتكلم[2]. وفي هذا الحذف تخفيفٌ على الدّاعين لكثرة ما يدعو المؤمنون ربّهم[3]

بلاغة حذف ياء النداء:

للدّلالة عليه وإشارةً إلى قربه تعالى بعلمه من كلّ خلقه

وحذف حرف النداء (يا) في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ للدّلالة عليه[4]،. وإشارةً إلى قربه تعالى بعلمه من كلّ خلقه، ولذلك لم يأتِ في القرآن ياء النداء مذكورًا مع (رب) إلا في موضعين، مع أنّ هذا النداء ورد في القرآن زهاء الألف مرّة، والموضعان اللذان ذُكِرَ فيهما حرف النداء (الياء) كان علّةُ ذِكْرِهِ استشعارَ المنادى البعدَ عن ربّه، لا بعد ربّه عنه[5].

سِرُّ الاسْتِفهامِ بكيفَ:

تعيينُ الاستفهامِ عن كيفيّة أمرٍ متقرِّرٍ عند السّائل

جاء السؤالُ على لسانِ المارِّ على القرية الخاوية على عروشها بأنّى، أمَّا هنا فجاء بكيف، تعيينًا لمعناها لا تأوُّلًا، فيُسألُ عن الفرق بين الاستعمالين؟

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308، ورضا، تفسير المنار: 3/45.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.

ففي الآية المتقدِّمة جاء الاستفهام بأنَّى المحتملةِ لمعنى الكيفيّة والوقت؛ لاشتمالها على المعنيَيْن: الكيفيّةِ أصالةً، والوقتِ تبعًا، وهذا ما يقوّي الاستبعاد الحقيقيّ عند السّائل للإحياءِ، بينما في هذه الآية فجاء الاستفهام بكيف؛ لأنَّ السَّائلَ متيَقّنٌ بأنَّ للبعثِ وقتًا آتيًا، لكنَّه يجهلُ الكيفيّة، فأراد معرفتَها تشوُّقًا لأمرٍ غيبيٍّ، وهذا ليس بمستَغرَبٍ عن شخص إبراهيم عليه السلام، الذي بحث بتجرُّدٍ عن الله تعالى، فلاقَ به السّؤالُ بما لا يليقُ بآحاد البشرِ، ممَّن يُسلِّمون لاعتقادات آبائهم.

و"الاستفهامُ بكيف إنَّما هو عن حالِ شيءٍ موجودٍ متقرِّر الوجودِ عند السَّائل . . وكَيْفَ في هذه الآية إنَّما هي استفهامٌ عن هيئةِ الإحياءِ، والإحياءُ مُتقَرِّرٌ"[1] لدى السَّائل، وإنَّما سألَ؛ لِيَعلمَ أمرًا يرغب في معرفته كلُّ مؤمنٍ، ولِيعلمَ مكانتَه عند ربِّه، فيطمَئِنَّ قلبُه بذلك، لاسيَّما أنَّ "الفِكرَ في صورة الإحياءِ غيرُ محظورة، كما لنا نحن اليوم أن نفكِّر فيها، بل هي فِكرٌ فيها عِبَرٌ، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فكرُه في صورة الإحياء"[2]، والذي أثارَ عنده هذا السُّؤالَ قولُ النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 258].

إيثارُ صيغةِ الحالِ على الاستقبال:

أفادت صيغةُ المضارعِ طَلَبَ تصويرِ المشهدِ في الزَّمن الحاضر

في قولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ جاء التّعبيرُ بصيغة المضارعِ الدّالِّ على الحال، ولم تُضَف إليه السِّين الدَّالّةُ على الاستقبال؛ لتمحُّض طلبه عليه السلام في رؤية الكيفيّة، مع تجرُّده عنِ التّفكير في المستقبل، فهو غيرُ معتنٍ بالسّؤال عن الوقت، لرؤيته يقينًا قلبيًّا، فأفادت صيغةُ المضارع طلبَ تصويرِ المشهدِ في الزَّمن الحاضر.

أثرُ البلاغةِ القرآنيّةِ في السّنّة النبويّة:

لَمَّا سألَ إبراهيمُ ربَّه كيفيّةَ إحياءِ الموتى؛ أثارَ ذلك سؤالًا: فماذا قال الله له؟ فكانت الجملةُ: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لبيان أنَّ الله سبحانه وتعالى أرادَ تقريرَه على سببِ سؤاله؛ لنفي أيِّ مَظِنَّةٍ قد تخطر في فكرِ واهمٍ، ولذلك كان الجوابُ مزيحًا لأوهام الأفهام:

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/353.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/353.

دفعُ الشُّبهاتِ عن أنبياءِ الله تعالى، وتعليمُ النَّاسِ حسنَ الظَّنِّ بهم

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾، على طريقة الاستئناف البيانيّ كذلك، فكان مقصودُ السُّؤال والجواب دفعَ الشبهات، وتعليمَ النَّاس حسنَ الظنِّ بأنبياء الله تعالى، كما قال ﷺ: "نحن أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهِيمَ؛ إذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾"[1]، وهذا من أثرِ البلاغة القرآنيّة في تقرير مسائل السُّنّة النبويّة.

توجيه معنى الاستعجاز في جملة الاستفهام:

وجه الاستعجاز في الجملة أنْ يأتي جواب الاستفهام دافعًا لاحتمال الشّكّ

الظاهر في استعمال صيغة ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ في السؤال عن الكيفية، ويحتمل استعمالها هنا لمعنى الاستعجاز؛ نحوَ أن يدّعي مدّعٍ أنه يحمل ثقلًا من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله، فتقول له: أرني كيف تحمل هذا؟ فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم عليه السلام مبرّؤٌ منه؛ أراد بقوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ أن ينطق عليه السلام بقوله: بَلى آمنت؛ ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظيّ في قوله (أرني كيف تحيي الموتى)؛ ليكون إيمانه مخلصًا، نصّ عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهمًا لا يلحقه فيه شك[2].

بلاغةُ الجوابِ ببلى:

جمع جوابُ الخليلِ بين الإقرارِ المستفهَم عنه بالهمزة، ونفي نقيضِه

الهمزة للتقرير، أي: لتقرير المنفي، أو لإنكاره، والمعنيان متقاربان في المآل، والواو للعطف، عطفت الجملة المنفيّة (لم تؤمن) على جملةٍ مقدَّرة، أي: "ألم تعلمْ، ولم تؤمنْ بأنِّي قادرٌ على الإحياء كيف أشاء، حتَّى تَسۡأَلني إراءته؟"[3]، فالتَّقرير للجملة المقدَّرة المنفيَّة، والمعطوفة عليها، فلمّا قال عليه الصلاة والسلام: ﴿بَلَىٰ﴾ دون نعم، وقعَت

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (4537).

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/200.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/256.

جوابًا للجملة الاستفهاميّة المنفيّة، أي: بلى آمنت، وهذا أبلغُ ما يكونُ عليه الجوابُ؛ فأقرَّ بالإيمانِ المستَفهَمِ عنه بالهمزة، ونفى نقيضَه المنفيَّ بلَمْ.

بلاغةُ الحذفِ:

حضورُ الجواب وإيجازُه دليلُ القرار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ عطفت الجملة على جملةٍ مقدَّرة واقعةٍ في جواب بلى، والتَّقدير: بلى آمنتُ، "ولكن سألتُ ذلك إرادةَ طمأنينة القلب"[1].

أو نجعل اللامَ متعلِّقةً بمقدَّرٍ من السباق، تقديره: أَرِني؛ ليطمئنَّ قلبي.

وهذا الإيجاز بالحذف بليغٌ، وهو مقصودٌ لذاته، فإيجازُ الجواب وسرعته يدلّان على استقرارِ الإيمانِ وطمأنينةِ قلبِ صاحبه، فإنَّ حضورَ الجوابِ دليلُ القرار.

دِقَّةُ اختيار لفظ الطّمأنينة:

بيانُ أنَّ الطّمأنينةَ المقصودة هي طمأنينةُ فكرِ القلب لا اعتقادِه

من لم يقف على دقائقِ البلاغةِ، وحسنِ النّظم، ودقَّةِ الاختيارِ، لم يفقه المعنى المُجاد، ولم يَعِ الحالَ المُراد، من ذلك اختيار لفظ الطّمأنينة، "فإنْ قلت: كيف قال له: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ وقد علم أنَّه أثبتُ النَّاس إيمانًا؟ قلت: ليجيبَ بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسَّامعين"[2]، أي: ليزولَ عن قلبه ﷺ الفكرُ في كيفية الحياة؛ لأنَّه إذا شاهدها؛ سَكَنَ قلبُه عن الجَوَلان في كيفيّاتها المتخيَّلة، وتعينت بالتَّصوير المشاهد، وجاءت الآيةُ مطابقةً لسؤاله؛ لأنَّه شاهَدَ صورةَ حياةِ الموتى[3]، فمعنى الطَّمأنينةِ المطلوبة: هي سكونُ القلبِ عن التَّفكُّر في أمرٍ غيبيٍّ جائزٍ في حكم العقلِ التّفكر فيه؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/309.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/308.
(3) ابن المنير، الانتصاف: 1/308.

لأنّ طلبه عليه السلام "طلبٌ للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية لا طلبٌ في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان دون المشاهدة والعيان"[1]. ومن هنا تندفع الإشكاليّات؛ إذِ الطَّمأنينةُ المطلوبةُ هي طمأنينة فكر القلب، لا طمأنينةُ اعتقاده، والأوّل لا يصْدُرُ إلا عن مكتمِلِ الإيمان، بخلاف الثَّاني، فأثبَتَتِ الآيةُ مزيدَ مدحٍ وثناءٍ للخليل عليه الصلاة والسلام.

بيان المجاز في لفظ الطمأنينة:

وجـه المجـاز إطـلاق الطمأنينة على استقرار العلم في النفس

قال ابن عاشور: إنَّ "حقيقة (يطمئن) يسكن، ومصدره الاطمئنان، واسم المصدر الطمأنينة، فهو حقيقة في سكون الأجسام، وإطلاقه على استقرار العلم في النفس، وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردد، وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساويًا للحقيقة، يقال: اطمأنَّ بالُه واطمأنَّ قلبه"[2].

نكتة نسبة الاطمئنان إلى القلب لا إلى الفكر:

المـراد بالقلب العـلم؛ لكونه لا يضطربُ عند الشكّ وإقامة الدليل

قال ابن عاشور: "والقلب مراد به العلم إذ القلب لا يضطرب عند الشك ولا يتحرك عند إقامة الدليل وإنما ذلك للفكر، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به وقد دله اللّه على طريقة يُرى بها إحياء الموتى رأي العين"[3]؛

التّناسب بين الألفاظ:

إيقاعُ التّصوير باستعمال لفظين في بيان معنًى واحد

يقع التّناسب بين الألفاظ كما يقع بين الجمل والآيات، فلفظ القلب يناسب لفظ الطّمأنينة، ويُناغمه، ذلك أنَّ الطّمأنينة هي السّكينة بعد الجولان، والقلب ملحوظٌ فيه معنى تقلُّب الفكر وجولانه، فإذا زال جولانُ الفكر؛ سكَنَ القلبُ، واستقرَّ، فكان ذلك

(1) رضا، تفسير المنار: 3/46.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.

طمأنينته، وفي هذا التَّناسب تصويرٌ بديع للقلب، فكأنَّه قد استقرَّ في مكانه منحنيًا منخفضًا آخذًا موقعَه بعد أن جالَ، وثارَ، وهذا غاية ما يكون عليه الاستقرار، استقرارُ الحالِّ في المحلِّ، ومطابقةُ الحزِّ بالمحزِّ، وهذا برهانٌ أكيدٌ على أنَّ للقلب مكانًا يطمئنُّ فيه، بعد أن يشبَعَ من غذائه الفكريِّ، ورِوائه الإيمانيِّ.

بلاغةُ اقترانِ الاستئنافِ البيانيّ بالفاءِ الفصيحة:

استدعاءُ الفكرِ للتَّجاوبِ مع النَّظم، وتدبّرُ المشهدِ الغيبيّ بصورةٍ بيانيّة بديعة

وقع قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قال: فماذا أجابَه ربُّ العزة؟ وصُدِّرَ مقولُ القولِ بالفاء الفصيحة مفصحةً عن شرطٍ مقدَّرٍ محذوف[1]. تقديره: إن أردت رؤيةَ ذلك؛ ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾، وتقديرُ المحذوفاتِ في القرآن الكريم دليلٌ على أنَّ ثَمَّ استدعاءً للفكر في التَّجاوبِ مع النَّظم، لحسنِ تدبّرِ المشهد الغيبيّ بصورةٍ بيانيّة بديعة.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ التبعيضيّة:

تبعيضيّة ﴿مِّنَ﴾ إشارةٌ إلى اختلاف أنواع الطّير: "وجيء بمن للتبعيض للدَّلالة على أنّ الأربعة مختلفة الأنواع"[2].

حكمةُ تعدّد الطير واختلافه دفعُ أنْ يكون إحياء بعضها أهون من بعض

وحكمة التَّعدد، والاختلاف، والتنوّع في الطّير الزيادةُ في تحقّق أنَّ الإحياء لم يكن أهونَ في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عُدِّدَتِ الأنواع.

علّة جعلها أربعةً لدفع الظن بأنّ لبعض الجهات مزيدَ اختصاص بتأتّي الإحياء

وجعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع: المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا يُظَنَّ أنّ لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتّي الإحياء.

وعلّة جعلها أربعة أنّها أربعةُ أجزاءٍ من طيرٍ واحدٍ فتكون اللام للعهد.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/966.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.

ويجوز أن المراد بالأربعة: أربعةُ أجزاءٍ من طيرٍ واحدٍ فتكون اللام للعهد إشارة إلى طير حاضر، أي: خذ أربعة من أجزائه ثم ادعهن[1].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾:

الطَّيْر أجمعُ لخواصِّ الحيوان، وأكثر نفورًا من الإنسان؛ فإتيانُها بمجرَّد الدَّعوة أبلغُ في المثل، ولمشاكِلة المعجزة لهمَّة ابراهيم عليه السلام

لسائلٍ أن يَسألَ عن سبب تخصيص الطَّير بالذِّكر دون بقيّة المخلوقات؟ والجواب؛ أنَّ الطَّيرَ أقربُ إلى الإنسان باعتبار طلبه المعاشَ والمسكنَ؛ ولذلك قال ﷺ في الحديث: "لو أنَّكم كنتم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله؛ لرُزِقتُم كما يُرزَق الطَّير تغدو خماصًا، وتروح بطانًا"[2]؛ ولأنَّ الطَّيْر أجمعُ لخواصِّ الحيوان، والطَّير أكثر نفورًا من الإنسان في الغالب، ولَا تستأنس به وتطير عند مجرد رؤيته؛ فإتيانُها بمجرَّد الدَّعوة أبلغُ في المثل، وفي دعوتها مزيدُ ظهور القدرة؛ لأن تحويلهن إليه بيسر لا يكون إلا بتأليف من الله العلي الخبير؛ ولأنّ الطير سَهْلُ الطّواعية لما يُفعل به من التّقطيع والتّجزئة؛ ولأنَّ من صفته الطيران في السَّماء، وكان من هِمَّةِ إبراهيم عليه الصلاة والسلام المَيْلُ إلى جهة العُلوِّ والوصول إلى الملكوت، فكانت معجزتُه مشاكِلةً لهمَّتِه[3].

توجيهُ القِراءات:

صحةُ المعاني المُتوارِدَة تزدادُ جمالًا وقوَّةً بردِّها إلى معنًى كليٍّ واحد

اختلف القرَّاء في قوله تعالى: ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾، فقرأ أبو جعفر وحمزة وخلف ورُوَيْس بكسر الصَّاد، وقرأ الجمهور بضمِّها[4]، وحمل علماء التَّوجيه القراءتين على معنَيَي الميلِ والقطع، فمن قدَّر أنَّ معنى ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: أَمِلْهُنّ، وضُمَّهُنَّ، حذَفَ من الكلام معنى التقطيع، والمعنى: أَمِلْهُنّ، فقطعهنّ، فحذف لدلالة الكلام عليها، فتكون الفاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.

(2) سنن الترمذي، حديث رقم: (2344).

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/28، ورضا، تفسير المنار: 3/46، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/966.

(4) ابن الجزري، النشر: 2/232.

على هذا فصيحةً، ومن قدّر: ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾، بمعنى: قطّعهنّ، لم يحتج إلى إضمارٍ، كما احتاج في الوجه الأوّل[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾:

الجمعُ بين معنَيَيْن مرادَيْن بإيجازٍ بديع

لهذا التَّعبير قليلِ الاستعمال سرٌّ لمن تدبَّر السِّياق وتأمَّله، فقد جمع معنَيَيْن اثنين، وهما الإمالة والقطع، أمَّا الإمالة؛ فهو إمالةُ الطَّيرِ المأخوذِ وتربيتُه بحيث يصيرُ مائلًا لِمَنْ صيَّره، وجعل منتهى أمره إليه، ومعنى القطع أن يصبحَ الطيرُ قطعةً واحدةً كقطيع الغنَم، فيكون المعنى: فَأَمِلْهُنَّ إليك بحيث يكنَّ قطعةً واحدةً، فجمع هذا الفعل ذينك المعنَيَيْن بإيجازٍ بديع، فإمالة الطّير تكون ابتداءً، وتصييره قطعة واحدةً يكون انتهاءً، فنبَّه بهذا التَّعبير على الأمرين، وهذا سرُّ إيثار هذا اللفظ على غيره.

توجيه اختلاف تفسير لفظة: ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾:

اختلف المفسِّرون في معنى ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: فذَهَبَ جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّه محمولٌ على تقطيع الطَّير، وذهب أبو مسلم ومحمّد رشيد رضا[2] تبعًا له إلى معنى الضَّمِّ والجمع، وحمل الكلام في الآية على أنَّه مَثَلٌ محسوسٌ لإحياء الموتى، ومعناه: خذ أربعةً من الطَّير، فضُمَّها إليك، وآنِسها بك حتّى تَأنَس، وتصيرَ بحيث تُجيب دعوتَك، فإنَّ الطُّيور من أشدِّ الحيوان استعدادًا لذلك، ثمَّ اجعل كلَّ واحدٍ منها على جبلٍ، ثمَّ ادعُها؛ فإنَّها تسرِع إليك، لا يَمنعُها تفرُّقُ أمكنتِها من ذلك، كذلك أمرُ ربِّك، إذا أرادَ إحياءَ الموتى؛ يدعوهم بكلمة التكوين، فيكونون أحياءً، وردُّه على الجمهور يتلخَّص بالآتي:

الأوّل: المشهورُ في اللغة في قوله: ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: أَمِلْهُنَّ، وأمَّا

---

(1) الفارسي، الحجة: 392-2/389.

(2) رضا، تفسير المنار: 3/47.

التقطيع والذبح؛ فليس في الآية ما يدلُّ عليه لغةً أو سياقًا؛ فكان إدراجُه في الآية إلحاقًا لزيادةٍ بالآية لم يدلَّ الدَّليلُ عليها.

الثَّاني: لو كان المراد بـ ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: قطِّعهنَّ؛ لم يقُلْ: ﴿إِلَيۡكَ﴾، فإنَّ ذلك لا يتعدى بإلى، وحمل الكلام على التَّقديم والتَّأخير من غير دليلٍ ملجئٍ إلى التزامه خلافُ الظَّاهر.

الثَّالث: الضَّمير في: ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ عائدٌ إليها لا إلى أجزائها.

الرَّابع: فواتُ مقصودِ الطَّلب، فإتيانُ الطُّيور بعد تقطيعها وتفريقِ أجزائها في الجبال لا يقتضي رؤيةَ كيفيَّة الإحياء؛ إذْ ليس فيها إلا رؤيةُ الطُّيور كما كانتْ قبل التَّقطيع؛ لأنَّ الإحياءَ حَصَلَ في الجبال.

الخامس: العطف بثُمَّ- وهي تفيد التَّراخي الزَّماني- يُرشِّح جعل الأمر في ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾ للتَّربية والضمِّ والجمع، فإذا حصل ذلك، جَعَلَ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءًا، أي: من هذه المجموعة.

السَّادس: هذه الآيةُ نظيرُ قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143].

السَّابع: فاصلةُ الآية ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ متناسبةٌ مع كون المذكور مثلًا لإراءة كيفيَّة إحياء الموتى.

ومن هنا فإنَّ قول الجمهور تردُ عليه أسئلة واستشكالات لغوية وبيانيّة لا تردُ على قول أبي مسلم، وإن كان لقول أبي مسلم من عَيْبٍ؛ فهو مخالفتُه لرأي جماهير المفسِّرين، وهذا ما يوقع في الحرجِ والضِّيق، وتوجيهُ بلاغةِ الآية على قول الجمهور فيه نوعُ اعتسافٍ؛ لذا كان من الحكمة تفسير الآية بلاغيًّا بما يتوافق مع رَأْيِ الجمهور، بما يحفظ للنّظم جمالَه، ويُقيم لقول الجمهور احترامَه.

فائدة ضمّ الطير إلى نفسه عليه السلام:

ومعنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها، ليتأملها ويعرف أشكالها، وهيآتها،

الأمر بإدناء الطير ليتأمل هيآتها فلا تلتبس عليه بعد الإحياء

وأحوالها حتى يعلم بعد إحيائها أنها لم ينتقل جزء منها عن موضعه؛ فلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك. ولذلك قال: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي ولم يقل: (طيرانًا)؛ لأنه إذا كانت ساعية كانت أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة. والله أعلم[1].

وجه تعدّد الجبال:

تعدّد الجبال تقويةٌ لتفرّق أجزاء الطير، ومدعاةٌ لصعوبة تصوّر الأمر

وذكر ﴿كُلِّ جَبَلٍ﴾ يدل على أنه أمر بجعل كل جزء من أجزاء الطير على جبل لأن وضعها على الجبال تقوية لتفرق تلك الأجزاء فإنها فُرِّقَت بالفصل من أجسادها وبوضعها في أمكنة متباعدة وعسرة التناول[2]، وفي هذا زيادة استصعاب شأن الجمع بعد التفريق؛ فجمعُ الأجزاءِ من مواضع متفرّقة شديدة الوعورة، وصعوبة المسلك أصعب من جمعها من مكان واحد.

نكتة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

أفاد العطف بـ (ثمّ) التراخي الذي يقتضيه إمالة الطيور وتأنيسها

والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ يدلُّ على التراخي الذي يقتضيه إمالة الطيور وتأنيسها على أن لفظ صرهن يدل على التأنيس، ولولا أن هذا هو المراد لقال: فخذ أربعة من الطير فقطعهن واجعل على كل جبل منهن جزءًا، ولم يذكر لفظ الإمالة إليه، ويعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ جعلها على الجبال[3].

سرّ التعبير بلفظ السعي:

وجه التعبير بلفظ السعي هنا جعلها آية على حياة جديدة غير الأولى

السعي من أنواع المشي لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة، لئلا يظن أنهن لم يمتن تمامًا[4].

ولفظ السعي أثبت للصورة الذهنية عن الحياة من الطيران؛ وذلك لمشابهتها فعلَ البشر.

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/201، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.

(3) رضا، تفسير المنار: 3/49.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.

سرّ وصف الطير بوصف العاقل:

وصفت الطير وصف العاقل لأنهنّ دُعين فأجَبْنَ

في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ وصف للطير بصفة العاقل بقوله ﴿ٱدۡعُهُنَّ﴾، و﴿يَأۡتِينَكَ﴾؛ وذلك لأنهنّ دُعينَ وفقهنَ الدّعوة، ولبّينَها. فنزلت منزلة العاقل لقيامها بما يقوم به العقلاء[1].

مناسبة الفاصلة لسياق الآية:

الإقرار بالإحياء بعد الموت مناسبٌ لذكر العزّة والحكمة

جاءت فاصلة الآية: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ في محزِّها ومِطبقها، وهي المناسبة لسؤال إبراهيم ﷺ، ولا يَرِدُ هنا أن يقال: لِمَ لم يذكر القدرة، كما تقدَّم في قصَّة المارِّ على القرية؟ ذلك أنَّ القصَّة المتقدِّمة في استبعاد الإحياء بعد الموت، بينما هنا؛ فهي في الإقرار بالإحياء بعد الموت، فناسب ذكر العزة والحكمة؛ لأنَّ اللّه لم يُرِ الخليلَ ما أراه إلا بعزته وحكمته، وجاءت لإعلام النَّاس أنّ الإراءة كانت صادرةً عنِ العزَّة والحكمة، فذكرُ ذَيْنك الوصفين هو المناسب بالمقام.

وجه المناسبة أنّ الحكمة مشروطةٌ بالإتقان

"الحكمة مشروطة بالإتقان وهو سأل عن كيفية الإتقان فأخبره أنّه إذا علم كيفية الإتقان فلا يسأل عما وراء ذلك، فَإنّ اللّه عَزِيز حَكِيم لا يُمانَع ولا يُعانَد في فعله، فإذا تدبّر الإنسان في ملكوت اللّه وقدرته على الأشياء وخلقه لها، فلا يتدبّر فيها وراء ذلك لئلا يجرّ به تدبيره إلى الكفر وفساد العقيدة"[2]

بلاغة توكيد الخبر:

لتنزيل سؤال ابراهيمَ ﷺ منزلة المُنكِر بحسب الظاهر

أُكِّدَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾؛ لتنزيل سؤال ابراهيمَ ﷺ: ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ منزلة المُنكِر بحسب الظاهر، وهذا من سنن العرب أن تهجر جانب المعنى أحيانًا إلى جانب اللفظ، وتهجر جانب اللفظ أحيانًا إلى جانب المعنى، وفاق

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/318.

مقتضيات الأحوال[1]. وفي ذلك عظة لخالفيه بإدراك عظيم قدرة الله الموجبة لسلامة التفكير، وحسن الظن به جلّ وعزّ وتعالى. وإنْ لم يحصل منه ﷺ سوء ظنٍّ، وشكٍّ حاشاه من ذلك.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّمأنينة والسّكينة:

تشابهت لفظتا الطّمأنينة والسَّكينةِ في الاستعمال اللغويِّ والقرآنيّ، فيتّفقان بأنّهما يحصلان بعد تحركٍ وجولانٍ، ويفترقان بأنَّ الطّمأنينة ذاتيّة، فتُطلَقُ على استقرارِ الشّيءِ ذاتيًّا، كطمأنينة القلب والبدن، كقوله تعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ [آل عمران: 126]، و﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: 7]، و﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ [الحج: 11] أمَّا السَّكينةُ؛ فتتحقَّقُ بأمرٍ خارجيٍّ، كما قال تعالى: ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: 248]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: 26]، و﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة: 40]، و﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 26]، وهذا دليلٌ على أنَّ السّكينة تنزل على الرّسول والمؤمنين، فهي أمرٌ خارجيّ، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: 103]، فصلاة النبيّ ﷺ بالنسبة للمؤمنين أمرٌ خارجيٌّ.

الفُؤاد والقَلْب:

الفؤاد: اسمٌ من أسماء القلب، لكنَّه يختصُّ بالقلبِ؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التّوقّد، يقال: فَأَدْتُ اللّحمَ: شَوَيْتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مشويٌّ[2]، وهذا ملاحَظٌ في استعمال القرآن، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النجم: 11]، وقال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: 37]، فإنَّ ذكر الفؤاد كان باعتبار الامتلاء بالرّؤية، والمحبَّة، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ [الإسراء: 36]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [الملك: 23]، فإنّ اقترانَ الفؤاد بالسمع والبصر دليلٌ على حيويّته وفاعليّته، وقال تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43]؛ لفتًا لما كانت عليه في الدّنيا من الامتلاء بالكفر والمعاصي، أمَّا في

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/150.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قلب).

القيامة؛ فهي هواء، وقال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6-7]؛ تنبيهًا على حالها في الدّنيا، وما أدقَّ استعمال لفظ الإيقاد مع معنى التّوقد، وقد فرَّق بينهما رسول الله ﷺ حين قال: "أهلُ اليمن أرقُّ قلوبًا، وألين أفئدةً"[1]، "فوصَفَ القُلُوب بالرّقة والأفئدة باللين، وَكَأن القلبَ أخصُّ من الفُؤَاد في الاستعمال"[2].

(1) مسند الإمام أحمد، حديث رقم: (17406)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: (1775).
(2) صحيح البخاري، حديث رقم: (3208).

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة: 261]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنبات الحبَّة شكلٌ من أشكال إحياء الموتى، فناسَبَ ذكرُها بعد ذكر الطَّير، فإذا كان سعيُ الطَّير إلى صاحبه مثالًا واضحًا لإحياء الموتى في الدُّنيا؛ فإنَّ سعيَ الحسنات إلى صاحبها مثال جليٌّ في قَبول نفقات المؤمنين وإحيائها في الآخرة، وقد تعلَّقتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254] تعلُّقًا وشائجيًّا قويًّا، بل هي مبدأُ تفصيل وترغيب للأمر بالإنفاق الوارد ذكرُه في تلك الآية، وقد توسَّط الأمرَ بالإنفاق والتّرغيبِ فيه مقطعٌ قرآنيٌّ يتعلّق بصفات الله تعالى في أعظم آية في القرآن، وولايته للمؤمنين، وبيانٌ فاصلٌ في التَّفريق بين أولياء الله وأولياء الطَّاغوت، وتمثيل عجيبٌ للأولياء، وانتهى المقطعُ بقصَّة إبراهيم عليه السلام ربطًا سباقيًّا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة: 253]؛ لبيان مثالٍ واضح من أمثلة رفع الدَّرجات، ولحاقيًّا ببيان أنَّ المنفقَ أموالَه في سبيل الله تعالى، هو أشدُّ النَّاس إيمانًا بالإحياء بعد الموت؛ فإنَّ مَنْ ينفقُ مالَه في سبيل الله مطمئنٌّ قلبُه بسعيِ نفقتِه إليه يومَ القيامة، كالذي جَعَلَ على كلِّ جبلٍ من الطَّير جُزْءًا، وهي إشارةٌ صريحةٌ في أنَّ شرطَ الإنفاقِ هو الإيمانُ بالله تعالى وبالبعثِ رجاءَ ما عنده تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنفِقُونَ﴾: نفق[1]: نَفَقَ الشَّيْءُ نَفاقًا: مَضَى، ونَفِدَ بسرعةٍ: إمَّا بالبيع، وإمّا بالمَوْتِ، وإمّا بالفَنَاءِ نحو: نَفِقَتِ الدَّراهِمُ تُنْفَقُ، وأَنْفَقْتُهَا، والإِنْفَاقُ قد يكون في المَالِ، وفي غَيْرِه، وقد يكون واجباً وتطوُّعاً، وأصلُ المادَّةِ مأخوذٌ من النَّفَق، وهو سَرَبٌ في الأرضِ له مخلص

(1) الخليل، العين، وابن قتيبة، غريب القرآن، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (نفق).

إلى مكانٍ، وأكثرُ ما يُستعمل عِندَ العربِ في نفقِ اليربوع والضَّبِّ، فيقولون: أنفَقْنا اليربوعَ؛ إذا لم يُرفَق به حتّى انتَفَقَ، وذهب، والنَّفَقُ: السَّرِيع الِانْقِطَاع من كل شَيْء، يُقَال: سيرٌ نفق، أَي: مُنْقَطع، وأنفقتِ الْإِبِل؛ إِذا انتثرت أوبارُها عَن سمن، ونفق الجرحُ؛ إذا انقشر.

وسُمِّيَ الْمُنَافِق في الإسلام منافقاً؛ أخذًا من النَّفق، وَهُوَ السَّرَب في الأَرْض، وسُمِّي منافقاً؛ لأنّه نَافق كاليربوع، وَهُوَ دُخُوله نافِقاءَه، وهذا يدلُّ على أنَّ أصلَ هذه المادّة: هو النَّفق، فاشتقَّ القرآنُ معناه الإسلاميَّ الخالِص، ممَّا اشتقَّتِ العربُ منه معنى: النُّفوق والنَّفقة.

ومصطلحُ الإنفاق في سبيل الله: هو مصطلح إسلاميٌّ خالصٌ؛ فإنَّ العربَ لا تعرفه بهذا المعنى، وهذا من بديع ابتكارات القرآن، أنِ اختارَ لفظًا واحدًا، دالًّا على معنَيَيْن اثنين، كلٌّ منهما على نقيض المعنى الآخر، فالمنافقُ هو أبعدُ النَّاسِ عن الإنفاقِ في سبيلِ الله، والمُنفِقُ في سبيل الله هو أبعدُ النَّاس عنِ النِّفاق، وهذا مما يبرهن، ويدلُّ على دقة الاختيار القرآنيّ لألفاظه في سياقها.

2) ﴿حَبَّةٍ﴾: حبب[1]: الحَبُّ والحَبَّة، يُقال في الحنطة والشَّعير ونحوهما، وهو أصل النّبات الذي يكون به حياةُ الأحياء، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: 261]، وقال تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 59]، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: 95]، وحَبَّة الْقلب هِيَ العَلَقَة السَّوْدَاء الَّتِي تَكونُ دَاخل الْقلب، وَهِي وسط الْقلبِ أَيْضًا، وقيل: لوسط القلب حبَّة القلب؛ لأنَّ ما يكون في القلب من المعاني والأفكار ينبت من وسطه، كما أنَّه قيل للمعنى الذي هو نقيض البُغض: الحُبُّ؛ تشبيهًا بالحَبِّ الذي يكبر، ويكون أصلًا للحياة التي ينشأُ فيها، فالحَبُّ هو الأصل الحسيّ، وشُبِّه الحُبُّ به، حتَّى أصبح أصلًا في هذا الباب، وغالبُ ألفاظ الحُبِّ في القرآن الكريم استُعملَت فيما فيه تحري المُحِبِّ بما يولِّد الزيادَةَ والنّماء، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ [التوبة: 108]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (حبب).

3) ﴿سُنۢبُلَةٍ﴾: (سبل- سنبل)[1]: السبيل هو الطّريق الممتد المسترسل الواضح المُنكشِف المُوصِل إلى منتهاه، مادّيًّا ومعنويًّا، ويكون ظاهرًا سلسًا، وجمعه: سُبُلٌ، ويُستعمل السَّبِيلُ فيما كان ممتدًّا من أصلٍ، يُقال: أَسْبَلَ السّتر، والذّيل، وفرس مُسْبَلُ الذّنب، وسَبَلَ المطرُ، وأَسْبَلَ.

والسُّنْبُلَةُ أصلها مأخوذ من سبل، فالنُّون زائدة، وقيل: أصليّة، وجمعها: سَنَابِلُ، وهي ما على الزّرع، قال تعالى: ﴿سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ﴾ [البقرة: 261]، والسَبُّولة: سُنْبلةُ الذُّرَةِ والأَرُزّ إذا مَالَتْ، وأَسْبَلَ الزَّرْعُ، أي: سَنبَلَ، ويُلاحَظ في السُّنبُلة: أنَّها إذا امتلأتْ؛ مالتْ، فميلانها امتلاء خيرٍ، وتكون في ظاهر الزَّرع، وهذا وصفٌ حميدٌ.

والملاحظ في استعمال القرآن الكريم للفظ السّبيل: أنَّها تأتي في استعمال الخير غالبًا، وإذا استُعملت لغير ذلك؛ فهي محمولةٌ على المقابَلَة والمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أثنتِ الآية على المنفقين أموالَهم في سبيل اللّه تعالى - وهو من أعظم ما ينتفع به المؤمنون - بأن جعلت الحبة المُنبتة سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة مثلًا لنفقاتهم، فالحبَّة - التي هذه صفاتها، وهذا إنباتُها - حقيقٌ بها الإعجاب، وحريٌّ بالعاقل أن يحرِصَ على بذرِها، فإنَّ التَّطلُّع إلى أسباب الخير، شيمةُ الفضلاء، واللّه يضاعف الأجر لمن يشاء، بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام؛ إذ هو الواسع في عطائه، العليمُ في سرائر قلوبِ عباده، والنَّفقةُ في سبيل اللّه المقصودةُ في الآية: الظَّاهر أنَّها عامَّةٌ في الجهاد وغيرِه، وإن كان الجهادُ داخلًا فيها دخولًا أوّليًّا، وقد قال ﷺ: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ"[2].

---

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل).

(2) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (1151).

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة فنّ تكرار القول:

بـيــان تـكـرار الـحـديــث أن لـلإنـفـاق عند الله خَطْباً جليلاً وخطراً عظيماً

قال الطِّيبي: "اعلم أن للبلغاء فنّاً يذهبون إليه دقيق المسلك لطيف المغزى، وهو أنهم إذا شرعوا في حديث ذي شجون له شعب وفنون شتى ولهم اعتناء بنوع منها أكثر من الآخر، فإذا اندفعوا وتعمّقوا فيها لا يتسع لهم ولا يتمالكون أن يهملوا ذلك الأمر المعني بشأنه، فحيث وجدوا له مجالاً كيف ما كان أوردوه، ومثاله: أن يحدّث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه، واللّه جل سلطانه حين فرغ من بيان الأحكام وشرع في القصص تحريضاً على الجهاد وحثّاً على الإنفاق في سبيله إشادةً للدِّين وقمعاً للملحدين، قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: 244 - 245] الآية، ولما أن الإنفاق هو العمدة في الجهاد، ومنه فتح باب سائر العبادات، وهو رأس الخيرات وأسّ المبرّات، كَرَّرَ ذِكْرَهُ مراراً، وذلك أنّه لمّا قَصَّ حديثَ طالوت وجالوت ونُبَذاً من أحوال الأنبياء تقريراً للجهاد تأسياً بهم، رجع إلى حديث الإنفاق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ﴾ [البقرة: 254]، ثم أتى بوصف ذاته الأقدس بالمطالب العالية الشريفة وبقصة خليله عليه السلام، ثم رجع إلى قضية الإنفاق قائلاً: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ الآية، ثم لما استوفى حقه من البيان ختم السورة بخاتمة سَنِيَّة، وما ذلك إلا أن للإنفاق عند اللّه خَطْباً جليلاً وخطراً عظيماً، واللّه أعلم"(1).

بلاغةُ التَّشبيهُ التَّمثيليّ:

يكتنزُ التَّشبيهُ التَّمثيليُّ في الآية مجموعةً من النِّكات البيانيّة، والإشارات البلاغيّة، هذا بعضُها:

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/516.

موقع التشبيه التمثيلي:

علّة مجيء التشبيه التمثيلي في مفتتحِ الكلام، كونه قياساً موضِّحاً، وبرهانا مصاحِباً، وهو كثيرٌ جدًّا في القرآن، ومنها هذه الآية المباركة[1].

تشبيه المَثَل بالمَثَل للمبالغة

شُبِّه مَثَلُ المنفقين بمَثَل الحبَّة، فلم يقل: (الذين ينفقون أموالَهم في سبيل اللّه كحبَّةٍ أنبتَتْ)؛ ليُبنى الكلامُ على المبالغة، فإنَّ تشبيه مثل المنفقين أموالَهم في سبيل اللّه بمثل الحبَّة، فيه زيادةُ مبالغةٍ، فإذا كان هذا مثلُ المنفقين في سبيل اللّه، فكيف بحقيقتهم؟ وإذا كان هذا مثلُ مضاعفة الحبَّة؛ فكيف بحقيقة الأمر؟ ولذلك قال سبحانه في آخر الآية بيانًا لهذا المعنى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾؛ فإنَّ المضاعفةَ لا تقتصرُ على المذكور؛ لأنّه واقعٌ موقعَ التّمثيل والتّقريب، والأمر عند اللّه أعظمُ وأوسع.

تقديرُ المضافِ في أحدِ طَرَفي التّشبيه:

قدَّر المفسِّرون مضافًا في أحدِ طرفي التَّشبيه؛ ليستقيم فهم التَّشبيه، فإمّا أن نُقدِّر مضافًا في المشبَّه: مَثَلُ نفقةِ الذين ينفقون أموالَهم كَمَثَلِ حَبَّةٍ، وإمَّا أن نُقدِّر مضافًا في المشبَّه به: مثلُ الذين ينفقون أموالَهم كمثلِ باذرِ حبّةٍ[2]، وفائدةُ تقديرِ المضاف: مزيدُ بيانٍ في إظهارِ المقصود، وجاء النَّظم الكريم على ما جاء عليه؛ لتوجيه الأنظار للمنفقين، فعليهم مدارُ العمل، وللحبَّة التي بها مبدأُ المضاعفة، لا بالباذر؛ لأنَّ ذكرَ الحبَّة يستلزم ذكر باذرها.

نوعُ التَّشبيه التَّمثيليّ:

شُبِّهت نفقةُ المنفقينَ أموالَهم بمثلِ حبَّةٍ، والحبَّةُ أمرٌ معلومٌ محسوسٌ مشاهَدٌ للعيان، وما ينفقه المنفقون أمرٌ عقلي مدرَكٌ بالذِّهنِ، فالتَّشبيهُ من قبيل تشبيه المعقولِ

(1) الشحود، الخلاصة في علوم البلاغة: ص: 34.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/310، والخفاجي، عناية القاضي: 1/388، والآلوسي، روح المعاني: 2/32.

بالمحسوس، والمشبَّه به هيئة معلومة[1]. و" الغرض من التشبّه مجرّد جعل المتخيَّل محققًا والمعقول محسوسًا"[2].

غايةُ التّشبيه التَّمثيلي:

الغايةُ من التّشبيه التَّمثيليّ تصويرُ إضعافِ اللّه تعالى أجرَ المنفقين؛ كأنَّ النَّفقةَ في سبيل اللّه تعالى حاضرةٌ بين عيني ناظرٍ إليها[3]، يرى نموَّها وزيادتها وبركتَها؛ زيادةً في الحثِّ على النَّفقة، والحرصِ على ذلك، فإنَّ ما يُرى أوقع في النُّفوس، وأقنع للقلوب.

بلاغة الاحتباك في التشبيه:

"الآية من الاحتباك وتقديرها: مثل الذين ينفقون ونفقتهم كمثل حبة وزارعها، فذكر المنفق أولاً دليل على حذف الزارع ثانياً، وذكر الحبة ثانياً دليل على حذف النفقة أولاً"[4].

سِرُّ التِّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

بيانُ سِرِّ المَدْحِ والثَّناء

فائدةُ التَّعبير بالاسم الموصول؛ لبيانِ أنَّ المُتعيِّنَ بالمدح، والمقصودَ بالتَّشبيه، هو خصوصُ المَمدوحِين باعتبار اتِّصافهم بالإنفاقِ، ولو قال: مثلُ المنفقين؛ لما تعيَّن هذا المقصودُ، بل لفُهم أنَّه يريد عنوانَ المنفقين، فحسب، لا صفتهم المستوجبةَ للمدح والثَّناء. قال ابن عاشور: "والصلة مؤذنة بأن المراد خصوص حال إنفاقهم بتقدير: مثل نفقة الذين"[5].

فائدة التَّعبير بصلة الموصول مضارعًا:

الإشـــعـــارُ باستمرارِ حالِ الإنفاق

جاء التَّعبيرُ بصلة الموصول فعلًا مضارعًا؛ للإشعارِ بأنَّ دَيْدَن المنفقين هو الإنفاقُ في سبيلِ اللّه في جميع أحوالِهم، وهم مستمرُّون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/41.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/427.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/315، والآلوسي، روح المعاني: 2/32.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/75.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/41.

على ذلك لا يوقفُهم طُروُّ حالٍ، أو قلَّةُ مالٍ، وممَّا يُرشِّح ذلك التَّمثيلُ بالحبَّة المستمرَّةِ بالإنباتِ بعد الإنبات، والمضاعفةِ بعد المضاعفةِ.

انتقاءُ لفظةِ النَّفقة دون مرادفاتها:

براعةُ الاتِّساقِ اللغويِّ والبيانيّ

عبَّرتِ الآيةُ عن إخراجِ المالِ في سبيل اللّه بالإنفاق، دون أن يكونَ نظمُ الآيةِ: الذين يُخرجون، أو يؤتون، أو يؤدُّون، أو يعطون، لأمرين اثنين: أحدهما لغويٌّ، والآخر بيانيٌّ سياقيّ.

أمَّا الأوّل: فإنَّ اللغةَ تدلُّ على أنَّ الملحوظَ في معنى النَّفقة السُّرعَةُ والنفاد، فلفظُ الإنفاقِ يُشعِرُ بفقد الأملِ في استردادِ ما أُنفق، فكان التَّعبير به دالًّا على عدم تشبُّثِ المنفقين بأموالِهم؛ لتَيَقُّنهم نفادَها دُنيويًّا، وهو ما يعكس إيمانَهم بقبولِها ومضاعفتها أُخرويًّا.

وأمَّا الثَّاني: فهو البيانيُّ السِّياقيّ، فإنَّ لفظ الإنفاق مأخوذٌ من النَّفقِ، أي: السَّرَبُ تحتَ الأرض، وهو ما يُناسِبُ المُستعملَ في المُشبَّه به، أي: لفظُ الحبَّة، فإنَّ الحبَّة مكانها تحت الأرضِ كذلك، وهذا من التّناسب العجيب في الاختيار اللغوي القرآنيّ، أنْ يقعَ لفظان بينهما ذلك الاتِّفاق، فالشَّيْءُ النَّافقُ يكون عادةً تحت الأرض، والحبَّة تكون كذلك تحت الأرض، وهذا من أدقِّ مناسبات التَّشبيهات التي لا تخطر على ذهنٍ بشريٍّ، ولا تُحلِّق في خيالِ جِنيٍّ.

علّةُ جَمْعِ المالِ دونَ إفرادِه:

مـدحُ المنفقين إرشادٌ ضمنيٌّ في أن يكون الإنفاقُ مـن جـمـيـع أنـواع المال لا في بعضِها

جاء النَّظمُ الكريمُ بصيغة الجمع: ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، دون التَّعبير بالمفرد، فلم يقل: (مالَهم)؛ للإيذانِ بأنَّ المنفِقَ لا يختار نوعًا دون آخر لإنفاقه في سبيل اللّه، بل ينفق منها جميعًا، ففي صيغة الجمع إرشادٌ ضمنيٌّ لمَنْ أرادَ أن يكون ممَّن هذه صفته، أن يحرِصَ على الإنفاق من المال العزيز؛ كحرصِه على إنفاقِ المرذولِ، وأنْ لا يتخيَّرَ مالًا دون آخر، فالنّكتة كامنةٌ في مدح حال المنفقين، وإرشادٌ لمن أراد الاقتداءَ بهم.

بلاغةُ استعمالِ جملة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

لهذا التَّركيب مجموعةٌ من الخصائص والمواصفات البيانيّة، نوجزها فيما يأتي:

جَرَيانُ قولِه تعالى (في سبيل الله) مَجْرَى التَّركيبِ

جرَى قولُه تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مجرى التَّركيب في القرآن الكريم، وقد جاء ما يقرُبُ من سبعين مرَّةً، معظمُها الغالبُ كان في حقل الجهاد والحثِّ عليه، وجاء مرَّةً واحدةً في مصارفِ الزَّكاة، وهي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 60]، وجاء في هذه الآية الدَّالَّةِ على عُموم الإنفاق، الواجبِ والنَّافلِ، في الجهاد وغيره.

الاستعارةُ التّصريحيّة

التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة يُوحي بأنَّ النَّفقةَ توسَّطتِ السَّبيلَ، حيث أصبحتْ مظروفًا فيه، فعلى هذا تكون السَّبيل واقعةً موقعَ الظَّرف الموصلِ إلى الغاية المُبتغاةِ، وهذا من الاستعارة البديعة، حيث شبَّه السَّبيل بالتربة التي توضع فيها النَّفقةُ، على سبيل الاستعارة التَّصريحية، والتَّعبير بحرف الظَّرفيَّة يدلُّ على أنَّ المرادَ بالسَّبيلِ: السَّبيلُ الماديُّ والمعنويُّ، أمَّا المعنويُّ؛ فهو الظَّاهر من النَّصِّ، وأمَّا الماديُّ؛ فهو المفهوم من الاستعارة، وتعدية فعل الإنفاق بحرف الظَّرفيَّة الدّالِّ على تمكُّنِ النَّفقة في السَّبيل، وهذا شأن المادّيات.

تضمينُ فعلِ الإنفاقِ معنى فعل الوضع

ضُمِّنَ فعلُ ﴿يُنفِقُونَ﴾ معنى فعلِ (يضعون)، وهو مأخوذ من تعدية فعل الإنفاق بحرف الظَّرفيَّة، فكأنَّ النَّفقة تُوضَعُ في تربة السَّبيل لغاية المضاعفة، كما أنَّ الحبَّة تُوضَع في التُّربة لغاية النُّمو، وهذا في الاتِّساق يبلغُ الغاية، وقد جاء من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ما يُبيِّن هذا الاستعمال البليغ للفظ يضع، وأنَّه يؤدِّي معنى الإنفاقِ، فقد قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا تَصَدَّقَ امْرُؤٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا

طَيِّبًا - إِلَّا وَضَعَهَا - حِينَ يَضَعُهَا- فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُرَبِّي لِأَحَدِكُمُ التَّمْرَةَ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ - أَوْ فَصِيلَهُ - حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ أُحُدٍ"[1]، وهذا النُّور النَّبويّ متلألئٌ من مشكاة القرآن.

بلاغةُ الاختزالِ في التَّعبير بالحبَّة:

أوجز بالحذف لظهور أنّ الحبّة لا تنبت السنابل إلا في أرض نقية أصابها الغيث

الحبَّةُ المُشبَّه بها اختزلتْ واقعًا افتراضيًا يعلمُه المُخاطَبُ؛ إذ هي هيئة معلومة، أي: زُرِعت في أرضٍ نقيَّةٍ، وتراب طيِّب، وأصابها الغيث، فنبتت، ثم أنبتت سبعَ سنابل، وحُذِف ذلك كلُّه؛ إيجازًا لظهور أنَّ الحبَّة لا تُنْبِت ذلك إلا كذلك، وجعل أصلَ التَّمثيل في التَّضعيف حبَّةً؛ لأنَّ تضعيفَها من ذاتها لا بشيءٍ يُزادُ عليها[2].

الإسنادُ المجازيُّ في قوله: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾:

أُسنِدَ الإنباتُ إلى الحبَّة؛ على طريق المجاز لكونها سببًا له

أُسنِد الإنباتُ في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ للحبَّة على سبيل المجاز، وفي الحقيقة المُنبتُ هو اللّه تعالى، ولكنَّ الحبَّة لَمَّا كانتْ سببًا للإنباتِ أُسنِد إليها الإنباتُ كما يُسْنَدُ إلى الأرضِ وإلى الماء[3].

بيانُ الاتِّساقِ بين السَّبيلِ والسّنبلةِ:

النّفقة تنمو في سبيل الله حتَّى تصل إلى الرَّضا العظيم، كذلك السُّنبلة تنمو في التُّربة حتَّى تَصِلَ إلى الخير العميم

لفظا السّبيل والسُّنبلة من مصدر واحد، وهو "سبل"، إلَّا إن عددنا النُّون زائدةً - على رأي بعض اللغويين - فتكونا من مصدرين متقاربين، والصَّحيح أنّهما من مصدر واحد؛ لما بينهما من وشائج الرَّابطة الدّلاليّة؛ فإنَّ السَّبيل يدلّ على الامتداد والسّلاسة والظّهور، وكذلك السُّنبلة، والسَّبيل موصلٌ سالكَه إلى منتهاه وبغيته، وكذلك السُّنبلة قد بلغَتْ منتهى سبيلِها في النُّمو والنُّضج، ووجه اتِّساقهما في الآية: أنَّ النّفقة تنمو في سبيل اللّه حتَّى تصل إلى الرَّضا العظيم، كذلك السُّنبلة تنمو في التُّربة حتَّى تَصِلَ إلى الخير العميم.

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1014)، والترمذي، سنن الترمذي، حديث رقم: (667).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/41.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/310، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/315.

سرُّ تحديد عدد السنابل بسبع:

خصَّ سبعًا من العدد؛ لأن عددها كما ذكر، فأقصى ما تخرجه الحبة من السيقان سبع. ولأن السبع أكثر أعداد العشرة، والسبعين أكثر أعداد المائة، وسبع المائة أكثر أعداد الألف، والعرب كثيراً ما تراعي هذه الأعداد(1).

عدد السنابل سبع، وهي أقصى ما تخرجه الحبة من السيقان ولأنها أكثر أعداد العشرة

وذكر السّبع لما فيه من التمام بالحرث بوصف الحبة أصلاً يثمر سنابل وفي كل سنبلة أعدادٌ من الحبّ، فكان ما ذكر تعالى هو أول الإنفاق في سبيل اللّه وذكر السبع لما فيه من التمام وما يقبله من التكثير، فإن ما أنبت أكثر من سبع إذا قصد بالتكثير أنبأ عنه بالسبع، لأن العرب تكثر به ما هو أقل منه أو أكثر، فجعل أدنى النفقة في سبيل اللّه سبعمائة ضعف، ثم فتح تعالى باب التضعيف إلى ما لا يصل إليه عدٌّ(2).

السبع أوّلُ الإنفاق وفيه التمام وإمكان التكثير

سِرُّ التَّعبير بجمع الكثرة لا القلة:

آثرتِ الآيةُ جمعَ الكثرة على جمع القلَّة، فلم يقل: (سنبلات)، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: 43]، ويُحمَلُ ذلك على أحد أوجهٍ، وهي:

إيثار جمع الكثرة اتّساعٌ في الكلام، وحملٌ على المجاز

الأوَّل: أنّها من باب تعاور الجموع، أي: يصح أن يقع جمعٌ مكان آخر، من باب الاتِّساع في الكلام، والحمل على المجاز(3).

الثَّاني: أنَّ ما جاء هنا؛ فهو على الأصل، وما جاء في سورة يوسف؛ فهو من باب المشاكلة، فلمَّا قال: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ [يوسف: 43]؛ حسُن أن يقول: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ [يوسف: 43](4).

إيثار جمع الكثرة إئتلافٌ مع السّياق لبيان حال المضاعفة

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/316.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/75.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/310.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/656.

الثّالث: ما جاء في سياق الرّؤيا التي رآها الملكُ كان على الحقيقة، أمَّا قوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾؛ فهو المؤتلف مع السِّياق؛ إذ مقصودُه بيانُ حالِ المضاعَفَةِ، وحقُّ ذلك إيثارُ صيغة الكثرةِ على صيغة القلَّة، فالمضاعَفَةُ متحقِّقةٌ حتَّى في ألفاظِ الآية.

قال ابن الزبير: "إنّ آية البقرة مبنية على ما أعدّ اللّه للمنفق فى سبيله وما يضاعف له من أجر إنفاقه وإن ذلك ينتهي إلى سبعمائة ضعف، وقوله ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ قد يفهم الزيادة على ما نصّ عليه من العدد كما أشارت إليه آيات وأحاديث، فبناء هذه الآية على التكثير فناسب ذلك ورود المفسر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظًا للغاية المقصودة، ولم يكن ما وضعه للقليل فى الغالب ليناسب ما تلحظ فيه الغاية من التكثير. أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبعَ سنبلات فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة لأنه إخبار برؤيا فوجهه الاتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئى وهو قليل؛ لأن ما دون العشرة قليل فلحظ في آية البقرة ما بعده مما يتضاعف إليه هذا العدد وليس فى آية يوسف ما يلحظ فافترق القصدان وجاء كل على ما يجب ويناسب واللّه أعلم"[1].

بلاغةُ التَّشبيه وأثرُها في فهم حقيقة القبول:

سِرُّ الحبَّةِ المباركةِ في النِّيَّة الخالصة، والمتابعة الفاحِصَة

تظهرُ بلاغةُ التَّشبيه القرآنيّ في أثره النَّفسيِّ، وإنباته للقيم التّربويّة، فتشبيه نفقة المنفق في سبيل اللّه بالحبَّة - التي أنبتت سبْعَ سنابل - يُثير في النَّفس تساؤلًا عن تحققِّ وجودها في الواقع؟ وهي موجودة لكن لها حكم النُّدرة؛ ذلك أنَّها تستوجبُ اجتماعَ الحبَّة ذات المواصفات العالية، والتُّربة الحميدة، والماء النقيِّ، والهواء الزكيِّ، ومتابعتها بإزالة الحشائش الضّارّة، وتعاهدها بالسَّقي الدائم، فهذا هو الذي يُنبت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة. وكذلك النَّفقة في سبيل اللّه تعالى، يجب أن تكون طيِّبة في ذاتها، وأن توضع في مقارِّها، وأن يتعاهدها صاحبها بالنِّسيان والتَّغافل، وأن يرجو ما عند اللّه على خوفٍ وَوَجَلٍ من قبولها، فهذا مقصودُ التَّمثيل، وهو يُجلِّي للمنفقين حقيقةَ القبول، وسرَّ المضاعَفَة.

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/70.

إفادةُ الاختصاصِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾:

وجه الاختصاص حصر مضاعفة الأجر به سبحانه وتعالى

أُتبع التَّشبيهُ التّمثيليُّ بجملة: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ زيادةً في التَّرغيب، وقد أفادتِ الاختصاصَ بأمرين اثنين: الأوَّل: تعريف المسند إليه، وهو لفظ الجلالة، وتقديمه على فعل المضاعفة، ومجيء المسند فعلًا مضارعًا، الثَّاني: السِّياق، فإنَّ أمر المضاعفة خاصٌّ بمشيئته سبحانه وتعالى، ومقصورٌ عليه سبحانه.

سِرُّ التَّعبير عن المضاعفة بصيغة المضارع:

عُبِّرَ عن المضاعفة بالمضارع لبيان أنّها ليست حكمًا ثابتًا، وأنّ تجدُّدها بتجدُّد العمل والنيّة

جاء التَّعبير عن المضاعفة بصيغة الفعل المضارع ﴿يُضَٰعِفُ﴾ دون الاسم كما هو في الفاصلة؛ لبيان تجدُّدِ المضاعفة بتجدُّد العمل والنيّة، ففيه أنَّ المضاعفة ليست حكمًا ثابتًا، بل هي أمر قابل للتّجدُّد والزّيادة، وهي معذوقة بفقه العبد المنفق، وحسنِ قُربِه وتقرُّبه من اللّه تعالى، فإن جدَّد العلاقة؛ جُدِّدت له المضاعفة.

فائدةُ التّعقيب بالمضاعفةِ بعد التَّمثيل:

إنّ اختلافَ أحوال المتصدِّقين في الأجْرِ والثَّواب هو بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه

اختلف المفسِّرون في بيان المضاعفة على قولين[1]:

الأوَّل: أنَّ المضاعفةَ هي في ذات المذكور سابقًا، أي: لا تزيد عن سبع مائة ضعفٍ، فتكون جملة: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ بيانًا لاختلافِ أحوال المتصدِّقين في الأجْرِ والثَّواب، بحسب اختلاف نواياهم ونفقاتهم وسُبُل الإنفاق، كما أنَّ الحبَّة تختلف بحسب نوعيَّتها، وتربتها، ومائها، ورعايتها، فيكون التَّمثيل بأقصى الأضعاف، ويُؤيِّده قولُه ﷺ: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ"[2]. قال ابن القيم: "واللّه يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت

(1) تُنظر الأقوال: أبو حيان، البحر المحيط: 2/657.

(2) صحيح مسلم، حديث رقم: (1151).

بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه، ترجف يده وفؤاده. ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق بحسب مصادفته لموقعه، وبحسب طيب المنفق وزكائه"[1].

التعقيب بالمضاعفة لتقع مرّتين في مضاعفة النّفقة ذاتها، وفي المضاعفة الاستتباعيّة

الثَّاني: المضاعفة هي ما زاد على المذكور، ويكون التَّعقيب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ لبيان المضاعفة المطلَقَة، التي لا تكون إلا بمزيد تقرُّبٍ لله تعالى، وهو ما يؤكِّد ضرورةَ إنباتِ النَّفقة بماء الإخلاص، ورعيِها بدُعاء التَّضرُّع؛ لتقع المضاعفةُ مرَّتين: الأولى: في مضاعفة النّفقة ذاتها، والثانية: في المضاعفة الاستتباعيّة، ويكون ذلك في توريث النَّفقة في سبيل الله الرِّضا التَّامَّ، والدُّعاء بالقَبُول.

سرّ إطلاق المضاعفة دون تقييدها بعشر أمثالها:

إن الخيرات تختلف باختلاف العالمين واختلاف نياتهم، وباختلاف الأعمال

وقال ههنا: ﴿يُضَٰعِفُ﴾، وفي موضع آخر: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160]، والمضاعفة هنا تدلُّ على أنّه يجازي بواحد سبع مائة؛ وذلك لأنّ الخيرات تختلف باختلاف العالمين واختلاف نياتهم، وتختلف باختلاف الأعمال[2].

التَّناسبُ بين الجمل المتعاطفة:

عُبِّرَ بالجمل المتعاطفة؛ لإقامة الدّليل على الدّعوى

نوعُ العلاقة بين الجمل المتعاطفة، هي من باب إقامة الدّليل على الدّعوى، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ دعوى، دليلُها قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فالله يُضاعف لمن يشاء من عباده؛ لأنَّه صاحب السَّعة، ومن كان هذا شأنه؛ فإنَّه صاحبُ المضاعفة.

(1) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 152، 157.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/548.

براعةُ الفاصلة القرآنيّة:

تنزيلُ الصفات منزلة إرداف العلَّة بالمعلول

صُدِّرت الفاصلةُ القرآنيّة بلفظ الجلالة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ تربيةً للمهابة والإجلال، وإعلامًا بأنَّ المضاعفةَ إنَّما صُدِّرتْ عن واسعٍ في عطائه، عليمٍ بقلوب عباده، فسعة عطائه صادرةٌ عن علمه، وهذا من تنزيل الصفات منزلة إرداف العلَّة بالمعلول، كأنَّه قال: هو واسعٌ في عطائه؛ لأنَّه عليم بعباده.

فنُّ الإطنابِ بالبَسْط[1]:

غايةُ الإطنابِ إغراءُ النُّفوس، وتحريضُها على البَذْلِ والإنْفاقِ

غَرضُ الآيةِ بَيَانُ مُضَاعَفَةِ أجْرِ المنفق في سبيل اللّه إلى سبعمائة ضعف، وهذا المعنى يُؤَدَّى بعبارة قصيرة، لكِنْ جاء في الآية مُطنَبًا مبْسُوطًا، والغرضُ منه إثارةُ مِحْور الطّمع في المخاطبين؛ إذْ يُعْرَضُ لهم الأَجْرُ الموعودُ به على الإنفاق في سبيل اللّه في صورة مثالٍ يَشْهَدون نظائره في الظَّواهر الزراعيّة، وهو من أندر ما يراه المزارع ويرجوه، فإنَّ إنبات سبع سنابل في كلِّ سنبلةٍ مئة حبَّة من حبَّةٍ واحدة، يندر في الواقع، فتصوُّره يُغري النُّفوس، فيقع الطَّمعُ محرِّضًا ذاتيًّا في الأنفس على بَذْلِ الأموال في سبيل اللّه تعالى[2].

وجه مطابقة الفاصلة لسياقها:

إنّ فضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضعُ فضلَه مواضعَهُ لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه

ختم الآية "باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما (الواسع العليم) فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عَطَنُهُ فإنّ المضاعِف واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل.

ومع ذلك فلا يُظنُّ أنّ سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ومن

(1) الإطناب بالْبَسْط: تكثير الجمل وبسط المعاني، واستعمالُ كلامٍ طويل يُغْنِي عنه كَلامٌ قصير، دون أنْ تكون فيه ألفاظ زائدة. يُنظر: الميداني، عبد الرحمن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية: 2/62.

(2) الميداني، البلاغة العربية: 2/64.

لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيل والطّريق:

السَّبيل مأخوذٌ من السَبْل، وهو الامتداد الموصل، وفيه معنى اليُسر والسَّلاسة والوضوح والانكشاف، أمَّا الطَّرِيقُ؛ فمأخوذٌ من الطَّرق بالأقدام، ففيه معنى القوّة والامتداد والثبات، كقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: 77]، وقوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه: 63]، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: 167-169]، فاستُعمل السَّبيل مضافًا إلى الله تعالى في غالب القرآن، واستُعمل مع غيره على سبيل المقابلة والمشاكلة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 76]، بينما استُعمل الطَّريقُ مضافًا إلى جهنَّم، وما كان توطئةً له.

كذلك خُصَّ الطَّارِقُ بالسّالك للطَّرِيقِ ليلًا؛ لما فيه من الإبهام والغُموض، وقيل للنّجم: طارِق؛ لأنَّه يظهر في اللّيل، فيُعيِّن الطَّريقَ للسَّالك، أو لأنَّه يَطرُقُ العين بنوره، فيُعينُها على الرُّؤية ليلًا، ويُطلق على الحوادث التي تكون في اللّيل.

ويُستعمل الطَّريق فيما فيه غموض وخفاء، فقوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: 11]، جيء بالطَّريق؛ لارتباطه بالجنِّ، وهم في خفاءٍ وستر، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: 30]، جاء على لسان الجنِّ، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: 17]، ذُكرت الطّرائق؛ لأنَّها مجهولةٌ خفيَّةٌ.

فالفرق بينهما أنّ السَّبيل يُستعمَل للطريق الواضح الظَّاهر السّلس، وهو الأكثر في

---

(1) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 158.

استعمال القرآن، وأُضيف في القرآن إلى لفظ الجلالة ما يقرب من سبعين مرَّةً، أما الطَّريق؛ فيغلب استعماله فيما فيه قوة، أو كان خفيًّا مستورًا في ذاته أو مآله، ولم يُضف إلى لفظ الجلالة مطلقًا.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة: 262- 263]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

جاءتِ الآيتان بعد آية التَّمثيل بالحبَّة التي أنبتَتْ سبْعَ سنابِل؛ لبيان أنَّ المَثَلَ المذكورَ له شروطُه وضوابِطُه، وأنَّه غيرُ متروكٍ لأفهامِ المخاطَبين، وأفعالِ المنفقين، بل هو على ميزان الشَّريعة، وعلى دُستور الأخلاق، فجاءتِ الآيتان؛ لبيان ذلك تتميمًا وتكميلًا، وإتباعًا للتَّمثيل البلاغيِّ، بالبيان التَّشريعيّ، وهذا من محاسن المناسبات بين الآيات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنّٗا﴾: المنّ[1]: العطاءُ الذي يكون عن غير تعَبٍ ولا نصب، كالمنِّ السّاقط على بني إسرائيل، وأصله مأخوذ من المنين، وهو الحبلُ الأوَّل الدّاخليّ الذي يُشَدُّ عليه حبل آخر، يقالُ له: الكَرَب، فإذا انْقَطع المَنِينُ؛ بَقِيَ الكَرَبُ، فالمنين هو الذي يتلقَّى حِملَ الدِّلاء، ولذلك يُسارع إليه الضّعف والقطعُ، وارتبط لفظ المنِّ بالقطع لهذا، فإنَّ المنين يكثر قطعُه بسبب ما يَعرِض إليه من حِملٍ، فقيل: المنّ: قَطْعُ الخَيْر، وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ [فصلت: 8]، أي: غيرُ مَقطوع، واستعمالُ لفظِ المنِّ في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، يُراد به: قطع الأجر؛ لأنَّه إبطالٌ للأجر بإظهار ما يجب أن يُخفى، كما أنَّ الحبل المنين يجب أن يبقى خفيًّا غير ظاهر، فإذا انقطع من الدّاخل؛ ظهر أثره في الخارج.

واستُعمِلت هذه الكلمة في معانٍ، منها: الحلوى التي تَسْقُط من السّماء، والاعْتِداد،

(1) الخليل، العين. والزجاج، معاني القرآن: 1/138، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (منن)، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرب).

والعَطَاء، والقَطْع، أمَّا القطع؛ فواضحٌ في أصله اللغوي، وأمَّا العطاء؛ فلأنَّه صادرٌ عنِ اللّه تعالى، ومن أمثلته المنُّ والكمأة، وسُمِّيا كذلك؛ لانعدام الجهد فيهما، واللّه ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 11]، من عباده في كلِّ شَيْءٍ، وهذه من صفاته التي لا تجوزُ لأحدٍ سواه، فإذا صدَرَت عن أحدٍ؛ بطل أجرُه، وانقطع؛ تشبيهًا بالحبل المنين؛ إذا حَمَلَ فوق طاقته، فالمِنَّةُ هي النِّعمة الثّقيلة، فإذا كانت من اللّه تعالى؛ فهي حميدة، وإذا كانت من عباده؛ فهي قبيحة.

2) ﴿أَذًى﴾: الأذى[1]: الشَّيْء تتكرَّهُه، وتنأى عنه، يُقال: بعيرٌ أذٍ وناقةٌ أذِيَة؛ إذا كانا لا يَقرَّان في مكانٍ واحدٍ من غير وجعٍ، ولكن خلقةً، وكأنَّه يأذى بمكانه، ومنه الآذِيّ: مَوجُ البحر الشديدُ؛ إذ يتحاشاه النَّاس، وينأون عنه.

وكل ما يَصِل من ضررٍ: إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ويُتحاشى؛ فهو أذًى، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]؛ لأنَّ المُتصدَّق عليه يتحاشى سماع المنِّ؛ لأنَّه قهرٌ مؤلم، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: 16] بما يقع عليهما من الأذى التأديبيِّ بحيث ينأيان عن الوقوع في الفاحشة مرّةً أخرى، وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: 61]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: 61]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: 222]، فسمَّى ذلك: أذىً باعتبار الشَّرع، وباعتبار الطِّب على حسب ما يذكره أصحاب هذه الصِّناعة.

3) ﴿خَوْفٌ﴾: الخَوْف[2]: ذُعْرٌ يصيب الإنسان بسبب توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة.

وأصل الخَوْف: أديمٌ أحمرُ، يُقَدُّ منه أمثال السُّيُورِ، فهذا هو أصل الخوف الحسيّ، ثم أصبح يُطلق على انتقاص الأطراف شيئًا فشيئًا. ويضادّ الخوف: الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، ويُلاحظ في الخوف القلق والاضطراب.

والخوف من اللّه لا يُراد به ما يخطر بالبال من الرُّعب، بل يُراد به الكفّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدّ خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا، والخِيفة: الهيئة

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أذي).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مجمل اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).

التي يكون عليها الإنسان من الخوف كالجِلسة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود: 70]. والتخوُّف: ظهورُ الخوفِ في النَّاس، حين تُؤْخَذُ أموالهم وأبدانهم وثمارهم من خافاتها، أي: من جوانبها شَيْئًا فشيئًا، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ [النحل: 47].

فهو انتقاص بالقطع من الأطراف، وعليه مدار الكلمة، فإنَّ الخوف شعورٌ يَعْتري الإنسانَ كراهة أن ينقص منه شيءٌ ما، كالأنفس، والتّجارات، والثّمار، والأمن، والصّحة، فالنَّقصُ وذهاب الأطراف حتَّى تتلاشى هو أصل هذه الكلمة.

4) ﴿يَحْزَنُونَ﴾: الحزن[1]: شعورٌ يعتري النَّفسَ بسبب غمٍّ قاسٍ على أمر قد فات غالباً، وبسببه تضعفُ القريحةُ، ويخفُتُ نورُ العمل، ويقابِلُه الفرحُ.

وفيه لُغتان: الحَزَن، والحُزْن، وأصلُه الحسِّيُّ مأخوذٌ من الغليظِ من الأرضِ الذي فيه خُشونَةٌ، فالأرضُ الغليظةُ الخَشِنَة، تُضْعِفُ مسيرَ من يسلُكُها، وتزيد من شقائِه ونَصَبه، فتورِثُه الهمَّ؛ لذلك كثُر عند العربِ إضافةُ الحزنِ إلى الأماكن والقبائل؛ إذا كانت وَعِرَةً، ويُقال للأبناء: الحُزانَة؛ لأنَّ الآباءَ يتحزَّنون لأمرِهم.

وقد استُعمل الحزن في القرآن الكريم؛ لما يُصيب الإنسانَ من خشونةٍ في النَّفس لما ينزِلُ عليه من الغمّ، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34]، وقال: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: 92]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، وغالبُ استعماله فيما مضى، ويُستعمل فيما يُستقبل فيما كان توقُّعُه حتميًّا؛ فيُعامل معاملةَ الماضي، كقوله تعالى: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: 13]؛ لأنَّه بذهابِهم به سيقعُ الحزنُ في قلبِه على فِراقِه بذكره يوسفَ عليه السلام، ووقع التَّعليلُ لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: 153]، فهو - وإن جاءَ فيما يُستقبلُ - لكنَّه محمولٌ على ما مضى.

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مجمل اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حزن).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أثنى اللّه على المنفقين أموالَهم في سبيل اللّه: في الجهاد وأنواع الخير، بما لهم من الأجر المادّيّ، والمعنويّ بنفي الخوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، والحزن على شيء فاتهم في هذه الدنيا، وشرطت في قبول الإنفاق أن يخلو من إتباعِ ما أنفقوا من الخيرات منًّا على مَن أعطَوه، ومِنْ أذىً بقول أو فِعْلٍ يشعره بالتفضُّل عليه، فاجتمع فيها مدحٌ وثناء على المنفقين، وشرطٌ في قبول صَدَقاتِهم، وبيانُ جزائهم، ثمَّ جرتِ الآيةُ التَّالية مَجرى القاعدة، بأنْ: كلامٌ طيب يُرَدُّ به السائل، وعفوٌ عما بَدَر منه مِن إلحاحٍ في السؤال، خير من صدقة يتبعها من المتصدق أذى وإساءة؛ وذلك للإجابة عمَّا قد ينقدحُ في ذهْنِ بعضِ المخاطَبين عن حال من يُتبع صدَقَتَه منًّا وأذًى؟

وخُتمت بأنَّ اللّه غنيٌّ عن صدقات العباد، حليمٌ لا يعاجلهم بالعقوبة؛ لتربية النَّفس بما يُفيضه لفظ الجلالة، واختير اسم اللّه الغني؛ ليتحلَّى النَّاس به، ويعلموا أنَّه سبحانه عن صدقاتهم غنيٌّ، واسمُ اللّه الحليم؛ ليعلم النَّاس أنَّه بهم حليم؛ وإنْ بخِلوا بأموالِهم.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الفصل بيان كيفيّة الإنفاق في سبيل الله

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ جملة مبتدأة جيء بها لبيان كيفية الإنفاق الذي بين فضله بالأجر الجزيل في جزائه وثوابه؛ ولذا ترك العاطف[1]. ولذلك " أتى به غير معطوف لأنه في معنى التفسير للأول فعلى هذا يكون خبر مبتدإ مقدر، أي: هم الذين ينفقون أموالهم "[2].

وجه الفصل أن تكون الآية كلها وصفاً للإنفاق في سبيل الله

ويجوز أن تكون الآية كلها وصفاً للإنفاق في سبيل اللّه؛ وبيان ذلك أن حق المنفق في سبيل اللّه أن تطيب به نفسه، وأن لا تتعقبه بالمن وأن لا تشفق من فقر تناله من بعد، بل تثق بكفاية اللّه - عَزَّ وَجَلَّ -،

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/552.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/319.

ولا يحزنون إن يناله فقر، وبَيَّنَ تعالى أن ما تقدم ذكره من مجازاة واحد بسبع مائة هو لمن هذا وصفه[1].

فائدةُ تكرار قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ الإعادة إظهار الاهتمام، بالانتقال من الثَّناء على المنفقين في سياق التَّمثيل، إلى الثَّناء عليهم في سياق التَّشريع

أعادتِ الآيةُ جملةَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ "إظهارًا للاهتمام بهذه الصلة"[2]. وللانتقال من الثَّناء على المنفقين في سياق التَّمثيل، إلى الثَّناء عليهم في سياق التَّشريع، فكان التَّمثيل توطئةً للتَّشريع؛ فإنْ علِمَ المنفِقُ أنَّه سينالُ ثناءً عظيمًا وأجرًا جزيلًا بسبب إنفاقِه في سبيل اللّه؛ فإنَّه سيتطلَّع إلى الاستزادة والاستكثار، وإذا ما طَمِحَ، وطَمِعَ في الأجر والثّواب؛ بُيِّنَ له شرطُ ذلك وتوابعُه، فأتى بالغاية المرجوَّة، وهذا أرجى في العملِ الجادّ.

نوعُ العَطْفِ بحَرْفِ التَّراخي:

وجه العطف بـ(ثم) بيانُ التَّفاوُتِ بَيْنَ أنواعِ الصَّدقاتِ، وتعيينُ شرْطِ المقبولِ منها

عُطِفَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ﴾ بحرفِ التَّراخي مع أنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُعْطَفَ بِالْوَاوِ؛ لِإِظْهَارِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ أنواعِ الصَّدقات، فتكون ثمَّ للتَّراخي الرُّتبي لا للزَّمانيّ، رفعًا لِرُتْبَةِ تَرْكِ المَنِّ وَالْأَذَى عَلَى رُتْبَةِ الصَّدَقَةِ المقترنةِ بالمنِّ والأذى؛ لِأَنَّ الْعَطَاءَ قَدْ يَصْدُرُ عَنْ كَرَمِ النَّفْسِ وَحُبِّ الْمَحْمَدَةِ، فَلِلنُّفُوسِ حَظٌّ فيه مَعَ حَظِّ الْمُعْطَى، بِخِلَافِ تَرْكِ المنِّ وَالْأَذَى؛ فَلَا حَظَّ فيه لنفس الْمُعْطِي، فإنّ الْأَكْثَر يميلون إِلَى التبجّح والتّطاول على الْمُعْطى؛ لذلك أتى بحرف ﴿ثُمَّ﴾ المفيد للتَّراخي الرُّتبي؛ إذِ الإنفاقُ في سبيلِ اللّه تعالى معَ تركِ المَنِّ والأذى مما يعُزُّ حصولُه، كأنَّه قال: أنفقْ، ثمَّ اثبُتْ على تركِ المنِّ والأذى؛ لتنالَ الأجرَ العظيم[3].

"إنه سبحانه وتعالى عطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/42.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/311، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/42.

﴿يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ فلماذا كان العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الفاء؟ فهل مقتضى هذا أنه يسوغ المن والأذى عند العطاء، ولا يسوغ بعده بفترة من الزمان؟ والجواب عن ذلك أن التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ أفاد النفي المطلق على عدم إِتْباع الإنفاق بالمنّ والأذى في زمن قريب أو بعيد؛ لأن المنفق في غالب الأحوال يكون عند إنفاقه في حال حماسية نفسية تدفعه إلى الإنفاق، فما يفكر في مَنٍّ ولا أذىً وقته، وإن خطر له ذلك فقد يمنعه من الإعطاء، إنما يكون التفكير في المَن أو الأذى بعد ذهاب فورة الخير في النفس. فإذا كان اللّه سبحانه قد صدَّر النفي بـ ﴿ثُمَّ﴾ فليحثَّ المنفقَ على الاستمرار على نزعة الخير، ولا ينكص على عقبيه، فيفسد نيته بأذى يؤذي به من أجرى الخير على يديه، أو من يمن به على من أعطاه"[1].

أفـــاد التـعـبـير بـ (ثُــمَّ) النفي المطلق على عدم إِتْـبَـاعِ الإنـفـاق بالمنِّ والأذى في زمـن قـريـب أو بعيد

قال ابن عرفة: "عطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ إما لبعد ما بين المنزلتين أو للمهلة حقيقة ويكون فيه إشارة إلى أنهم يمنون بنفقة طال أمدها، وداموا عليها؛ فأحرى أنْ لا يَمُنُّوا بنفس الإنفاق[2].

فائدَةُ أسْلوبِ الشَّرطِ بحرفِ التَّراخي الرُّتْبيّ:

أسلـوب الشرط بـ (ثـم) أوقـعُ في النَّفسِ، وأدعى للقَبُول؛ لتقريره المطلوبَ بالإخبار عـمَّـا يـجـبُ أنْ يكونَ عليه الأمرُ

الأساليب القرآنية المفيدة لأنواعٍ من المعاني تتوزَّعُ القرآنَ كالدُّرِّ المنثورِ بعنايةٍ فائقةٍ؛ للفتِ الأنظار لمعانٍ يغفل عنها النَّاسُ عادةً، وهي جوهرُ المطلوبِ، وأساسُ المقصود، ومن تلك الأساليب أسلوبُ الشَّرط بحرفِ التَّراخي الرُّتبي، كهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾، فإنَّ شرطَ قَبولِ النَّفقةِ هو خُلُوُّها من المنِّ والأذى، وقد أتى لهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/977.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/319.

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: 65]، فإنَّ شرطَ القبول بحكم رسول الله ﷺ هو خلوُّ النَّفس من الحَرَج، والتَّسليمُ له، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت: 30]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣﴾ [الأحقاف: 13]، فإنَّ الاكتفاءَ بالقولِ دونَ الاستقامةِ عليه لا يحقِّقُ شرطَ الإيمانِ الشَّرعيِّ، وغيرُ ذلك من الآياتِ الدَّالة على أنَّ تتميمَ الأحكامِ بِشُروطِها يكونُ بحرفِ التَّراخي الرُّتْبي، وفائدةُ هذا الأسلوب: أنَّه أوقعُ في النَّفسِ من أساليبِ الشَّرطِ المعهودَة، وأدعى في القَبُول، حيث إنَّه يقرِّر المطلوبَ بالإخبارِ عمَّا يجبُ أنْ يكونَ عليه الأمرُ، فهو يُخبر عن أمرٍ واقعيّ، لا تصوّريّ، وهو ما يجعل الإذعانَ للمطلوب أمكنَ في ذهنِ المُخاطَب. قال القاسمي: "اختاروا في أكثر الأحوال تكرار تلك المسائل بعبارة جديدة وأسلوب غريب ليكون أوقع في النفس وألذّ في الأذهان دون التكرار بلفظ واحد"[1].

سِرُّ العدول عنِ الإنشاءِ إلى الإخبار:

الاكْتِفاءُ بالإشارَةِ دون العبارةِ، دَيْدَنُ العمَّال في سبيل الله

ممَّا يقتضيه مقامُ بيان شروطِ قبول النَّفقة عند الله تعالى، أن تُذكر بأسلوب الأمر الإنشائيّ؛ إذِ السِّياقُ سياقٌ تشريعيّ، لكنَّ النَّظم القرآنيَّ عَدَلَ عنِ الأمر المباشر؛ فلم يقُل: (ولا تُتبعوا نفقاتكم منًّا ولا أذًى)، إلى أسلوب الإخبارِ على سبيل المدح والثَّناء، ذلك أنَّ مهمازَ المُنفقين أموالَهم في سبيل الله هو الإخبارُ بالثَّناء الجميل، لا الأمرُ بالنَّظم الجزيل، إذْ تغْمرُهُم روحُ الإشارةِ دون ظاهرِ العبارة، ويكفي المنفقَ إعلامُه بالمراد؛ ليتحقَّق مقصودُ الخطاب.

فائدةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

بيانُ شرطِ قبول الصَّدقات في المستقبل

آثر النَّظم الكريمُ صيغةَ المضارعِ على غيرها، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾، ولم يقل: (ثمَّ لم يُتبعوا ما أنفقوا منًّا ولا أذًى)؛ للدّلالة على شرطِ قبول الصَّدقات، هو بالاستمرار على

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 1/176.

الحفاظِ عليها ممَّا يُفسِدُها، فالمنفقُ على خطرٍ عظيم قد يتطرَّقُ في أيِّ لحظة ما يُفسِدُ عليه صدقته، فكانت صيغةُ المضارع كاشفةً عنِ المطلوب، وهذا من التَّحذير الضمنيِّ في القرآن الكريم، فبدل أن يُقال: فليحذرِ المنفقون من المنِّ والأذى، جاء بصيغة المضارع؛ ليقرِّر المطلوب بإيثار صيغةٍ على أخرى.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تـصـويـرُ حـالِ المنفق، وأثرُه في المـحـافَـظـةِ على حياةِ نفقتِه

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ استعارةٌ بليغة، حيث شبَّه النَّفقات بالفريسةِ الضَّعيفة القابلةِ للسُّقوط، وشبَّه المنَّ والأذى بالتَّابع القويّ المفترِس، فالنَّفقةُ تسيرُ في سبيل الله تعالى، فإنْ لم يتبعْها ما يفترِسُها؛ وَصَلَتْ، وإن كانتِ الثَّانيةَ؛ فهي المنْقطِعَةُ عن سَبيلِ الله، وذلك تنبيهًا على أنَّ النَّفقات تحتاجُ إلى مزيدِ رعايةٍ وعنايةٍ، وأنَّها إنْ تُرِكَتْ - لتتبعَهَا أقوالُ المنِّ، وإشاراتُ الأذى - فإنَّها تضْعُفُ عنِ الاستمراريَّة والإثمار، فتقع فريسةً لأنياب مفترسِها، فلا ينتفع بنتاجِها في قابل الأيَّام؛ لتحصيلِه على منفعتها الدّنيويَّة العاجلة، وتناسيه منفعتها الأخرويّة الآجِلة، وهي استعارةٌ مكنيَّة، فائدَتُها تصويرُ حالِ النَّفقة، وأنَّها مرهونَةٌ بحذْقِ صاحبِها وخُلُقه.

مناسبَةُ فنِّ الاستعارةِ للتَّمثيل:

اتـبـعَ المـثـال بـالاسـتـعـارة لبيان أنّ شرطَ مضاعفة النفقة المعاملة كالزَّرع

لمَّا نبَّه في الآية السَّابقة على مثالٍ مختصٍّ بالزِّراعة؛ أتبعه باستعارةٍ تبيِّن أنَّ النَّفقة كي تتضاعف، يجبُ أنْ تُعامَلَ معاملةَ الزَّرع، لا معاملةَ الصَّيد، فإنَّ الصَّيدَ يستهلِكُ، والزَّرعَ يستبقي، ففيها تفضيلُ مطلقِ الزَّرع على مطلقِ الصَّيد، فحسُنتِ الاستعارةُ في ذاتِها وارتباطها، وهي إشارةٌ بيانيَّةٌ لطيفةٌ، تتَّسقُ مع صريح العَقْلِ، وفِقْهِ المعيشةِ، وطبيعةِ الحال.

إيثارُ الاسمِ المَوْصُول على الظَّاهر:

وجهُ التعبير بـ(ما) الدّلالةُ على قصدِ العموم وتعيينه

آثرَ النَّظْمُ الاسمَ الموصولَ على الظَّاهر، فقال: ﴿مَآ أَنفَقُواْ﴾، ولم يقل: (نفقاتهم)؛ للدّلالة على قصدِ العموم وتعيينه، لاسيَّما في كونه أتى بـ (ما) التي قوَّت معنى العموم، فيُدفعُ توهّمُ أنَّ المرادَ نفقةٌ من النَّفقات، ولبيانِ أنَّ النفقةَ مهما كانتْ صغيرةً أو كبيرةً؛ فإنَّها تتأثَّر بالمنِّ والأذى.

السرُّ في تكرار (لا):

تكرار (لا) إشارة إلى السّلب الكلّي للأذى، توكيدًا للنَّفي

كرَّر اللّه سبحانه وتعالى النفي بـ (لا)، في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾؛ للإشَارَة إلَى السَّلب الكلّي بملاحظة النفي أولًا ثم العطف ثانيًا[1]، و" لتأكيد النفي، بألا يصدر عنهم أي نوع من أنواع الأذى، فلا يكون مَنٌّ، ولا شبهةُ منٍّ، ولا أذى، سواء أكان أذى عن قرب أو بعد؛ حتى لقد قال بعض الصالحين: (لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه اللّه فلا تسلم عليه) "[2]. قال العمادي: "وتوسيطُ كلمة لا للدَلالة على شمول النفي لإتباع كل واحدٍ منهما، وثم لإظهار علوِّ رتبة المعطوف"[3].

نُكتةُ اقتران (المَنِّ) بـ (الأذى):

وجه الاقتران الجمع بين الخصوص والعموم ليشمل كلَّ ما قد يخطر في الذِّهن ممَّا قد يـؤذي المتصدَّق عليه

قرنت جملةُ ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ (المنَّ) بـ (الأذى)، ولم تكتَفِ بأحدهما عنِ الآخر؛ لأنَّ (المنَّ) نصٌّ في الأقوال الصَّريحة؛ فله دلالة الخصوص، و (الأذى) لفظٌ عامٌّ يُراد منه كلُّ ما يُؤذي المُتصدَّق عليه، من قولٍ، أو فعلٍ، أو إشارةٍ؛ فله دلالة العموم، والجمع بين الدّلالتين يشمل كلَّ ما قد يخطر في الذِّهن ممَّا قد يؤذي المتصدَّق عليه. قال ابن عرفة: "وتقدم لنا سؤال وهو

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/977.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

أنه لا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم بل العكس، فالمنّ أعم من الأذى فإذا لم يمنّوا فأحرى أن لا يسبّوا عليها. وأجيب بأن الإنسان قد يشكو بإعطائه النفقة لغيره ويذم معه ولا يمن عليه لأنه إذا رآه يستحيي منه فلا يمن عليه، فقال: المن على المعطي يكون بمحضره وفي غيبته. قال: وإنما عادتهم يجيبون بأن سبب المن أخف من سبب الأذى، فإنهم اعتبروا الفاعل ونحن نعتبر المفعول. فنقول: سبب المن مجرد بذل المال للفقير فقط، وأما الأذية والتشكي والسب فما يصدر إلا عن موجب وهو إذاية المعطي للفاعل ونحو ذلك. فلا يلزم من نفي المنّ نفي الأذى"[1].

تقديمُ (المنِّ) وفائدةُ ذكرِه:

قُـدِّمَ المـنّ؛ لـكـثرةِ وقـوعِـه مـن المتَـصـدِّق، وتـحـذيـرًا مـن الـوقـوع فيما يكثُر بين النَّاس

لفظُ الأذى أعمُّ من المنِّ، فهو "يشْمَل المنَّ وغيرَه، ونَصَّ على المنِّ، وقُدِّم؛ لكثرةِ وقوعِه من المتَصدِّق"[2]؛ وتحذيرًا من الوقوع فيما يكثُر بين النَّاس، ويُمحِقُ الأجرَ عنِ النَّاس، ذلك أنَّ المتصدِّق يتساهل في المنِّ ما لا يتساهل في الأذى؛ لأنَّه يقع موقعَ التَّسرية عنِ النَّفس الشَّحيحة، ويخفِّفُ من ندَمِ الإنفاق بعد وقوعه، فيَسْتَعِرُ فؤادُه بما لا منتهى من ورائه؛ إذِ المالُ يَهْلَك، والكلامُ يُهلِك.

علّة تنكير ﴿مَنًّا﴾ و﴿أَذًى﴾:

وجـه التـنـكـير تـقـلـيل المـنّ، وتحقير الأذى

وتنكير المن والأذى للتقليل والتحقير أي: لا يتبعون مَنًّا قليلًا ولا أذى حقيرًا فضلًا عن كثير وعظيم[3].

فائدةُ تأكيدِ الخبرِ بتقديم ما حقُّه التأخير:

في قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ تقديمُ ما حقُّه التَّأخير، وفي ذلك فائدةُ توكيد الخبر، وتشريفه ورعايةٌ لحالهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/659.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.

وإكسابهم الطَّمأنينة، فإنَّ وقعَ ﴿لَّهُمْ﴾ الصَّادرة عن اللّه تعالى هي أعظم بُشرى[1].

بيان الإضافة في قولهم: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾:

أفادت الإضافة الاستحقاق أي أجرهم اللائق بهم

معنى اللام في ﴿لَّهُمْ﴾ الاستحقاق، وأفادت الإضافة في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الاستحقاق أي أجرهم اللائق بهم فواحد يقل أجره وواحد يكثر وآخر في مادة التوسط بحسب عمله ونفقته[2]، قال أبو زهرة: "وقال سبحانه: ﴿لَّهُمْ﴾، ولم يقُلْ مثلا: (أعطيهم) - ولكلام اللّه تعالى المثل الأعلى - للإشارة إلى أنه كان لهم بنياتهم، واستحقوه باحتسابهم، وليعلمهم كيف يكون العطاء من غير أجر"[3].

توكيدُ الجملةِ بالإخبارِ بالاسميَّة:

توكيد الجملة دليلُ ثبات الأجر لهم

جاء الخبرُ في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جملةً اسميَّة، مفيدًا التَّوكيد، فهو أجرٌ ثابت لهم؛ إن لم يُبطلوا صدقاتهم بالمنِّ والأذى.

اقترانُ الأجر الماديِّ بالأجر المعنويِّ:

أفـاد الاقـتران تأكيد الإنفاق، وتـشـريـف المنفقين

أفاد قولُه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مزيدَ تشريف للمنفقين، بعد ذكر الأجر الماديّ، فإنَّ الأجر عندما يكون عند اللّه تعالى يكون أجرًا مضاعفًا، فهو أجرٌ في ذاته، وكونه عند اللّه أجرٌ فوق أجرٍ. قال العمادي: وفي " تقييدِ الأجر بقوله عِندَ رَبِّهِمْ من التأكيد والتشريفِ ما لا يخفى"[4].

نكتة تخلية الخبر من الفاء:

وتخليةُ الخبر ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ "عن الفاء المفيدة لسببيةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/976.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

ما قبلَها لما بعدَها للإيذانِ بأن ترتّبَ الأجر على ما ذُكر من الإنفاق وتركَ إتباعِ المن والأذى أمرٌ بَيِّنٌ لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالسببية، وأما إبهام أنهم أهلٌ لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا؛ فيأباه مقامُ الترغيب في الفعل والحث عليه"[1].

الاستغناء عن الفاء للإيذانِ بأن ترتبَ الأجر، وتركَ إتباعِ المنّ والأذى أمرٌ بيّن لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالسببية

بيان المتشابه اللفظي:

جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ وقرَنَهُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة: 274] فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تُفهم معنى الشرط والجزاء وأنّه مستحقٌّ بما تضمَّنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصْرِ المستحقّ للجزاء دون غيره جرَّد الخبر عن الفاء؛ فإنَّ المعنى أنَّ الذي يُنفق ماله للّه، ولا يمنّ ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور لا الذي ينفق لغير اللّه، ويمنّ ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

ليس المقام هنا مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحقّ فلم يأتِ بالفاء

وفي آية البقرة الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات، وعموم الأحوال فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية، فإنه سبب الجزاء على كل حال؛ فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه[2].

وأتى بالفاء في الخبر في آية [البقرة 274] ليدل على الإنفاق في عموم الأوقات، والأحوال؛ فإنه سبب الجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد

لما كان المراد هنا إنفاقًا خاصًا على وجه شبيه بحسنة موصوفة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 160.

وجه دخول الفاء تحقيق الارتباط من عدمه

بهذه الصفة وأكدت خصوصية سلامته من المن والأذى؛ كان ترتيب الأجر عليه كالمعلوم بالبديهة وكالمستفاد من اللفظ فلم يحتج إلى ما يحقق الارتباط. ولما قصد عند قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: 274] الإخبار بأن مطلق الإنفاق في سبيل الله يلزمه الأجر قلّ أو كثر دخلت الفاء تحقيقًا للارتباط[1].

إيثارُ عنوانِ الرُّبوبيّة في الذِّكر:

إيثارُ الربوبيّة لمناسبته سياق التنمية، والمضاعفة

لَمَّا كان السِّياقُ مختصًّا بالحديثِ عن تنميةِ الحبَّة ومضاعفتها؛ ناسَبَ ذلك ذكرُ الرُّبوبيّة؛ لاختصاصِها بمعاني الخلقِ والإيجادِ والتَّربية، وفيه إقناعُ المخاطَبِ بدلالة الألفاظ، كأنَّه قال: من ربَّى هؤلاء أربى لهم نفقاتهم.

ظاهرةُ تلازمِ نفيِ الخوفِ بنفي الحزن في القرآن الكريم:

في تلازم نفي الخوفِ بنفي الحزن حثٌّ على تدبُّر إحدى النِّعم التي لا تكون إلا للمؤمنين، وهي نعمةٌ عزيزة في ذاتها

اقترن نفيُ الخوف بنفي الحزن في القرآن الكريم، فيما يقرب من أربعةَ عشَرَ مَوْضِعًا، جاء جميعُها بذكر الخَوْف بالاسم الظَّاهر، وذكرِ الحزنِ بصيغة الفعل المضارع، في حقل مدح المؤمنين، سواءٌ في الدُّنيا أم في الآخرة، وهذه الظَّاهرة تسترعي انتباهَ القارئ، فهي تحثُّه على تدبُّر إحدى النِّعم التي لا تكون إلا للمؤمنين، وهي نعمةٌ عزيزة في ذاتها، نادرةٌ في حالها، بريقةٌ وضَّاءة في وجه طالبها، حديقةٌ غنَّاء في نفس صاحبِها، ولا يكادُ يسْلَمُ من غصَّةِ الشُّعور بالخوف، واستحضار الحُزن أحدٌ من العالمين، وقدِ استعاذ ﷺ منهما، فقال: "اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ"[2]، مخافةَ أن تصيباه، ومن تلك الآيات الواردة في القرآن الكريم في تلازم نفي الخَوْف بنفي الحزن:

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(2) صحيح البخاري، حديث رقم: (2893).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة: 112]، وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾ [آل عمران: 170]، وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٤٨﴾ [الأنعام: 48]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62]، وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ٦٨﴾ [الزخرف: 68].

سِرُّ تلازُمِ نفيِ الخَوْفِ بنفيِ الحُزْنِ:

إنَّ التَّخلُّص من الخَوْفِ بنفيِ الحُزْن على الدَّوام مجلَبَةٌ للسُّرور على الدَّوام

لمَّا اجتمع الخوفُ والحُزْن على سلبِ الطَّمأنينة عن صاحبها، وورَّثا الجَزَعَ والاضطرابَ، كانا كفكَّيْ مفترسٍ كاسِرٍ على رَقَبَة الفريسة، فإنْ تخلَّصَت الفريسةُ من فكٍّ لم تنجُ من الآخر، فكان نفيُهما من أعظمِ النِّعَم، ودفعُهما من أجلِّ المِنَن، فإنَّ التَّخلُّص منهما على الدَّوام مجلَبَةٌ للسُّرور على الدَّوام، وهذا لا يكون إلا بإذن المولى جلَّ في علاه، فكان الوعد بذلك ترغيبًا معنويًّا، بعد ذكر الأجر الماديّ.

علّة تخصيص النفي بالخوف دون الخائفين:

الخوف أمر نفسي، وقد يكون من غير مخوِّف

وقد نفَى سبحانه وتعالى الخوف، ولم يقل: (لَا يخافون)؛ لأن الخوف أمر نفسي، وقد يكون من غير مخوِّف، وتكون الخشية والخوف من شأن المؤمن شعورًا بتحمل التبعة؛ ولذا نفَى سبحانه الخوف أي الأمر المخوِّف، أي لَا ينزل بهم أمر من شأنه أن يخافوه،

ولم ينف الخشية النفسية في ذاتها؛ إذ الحال النفسية من قوة الإحساس، أما الحزن وهو الهمّ الذي يصيب القلب فهو منفي في كل صورة ولا يصح أن يكون حالا من حالات الإيمان[1].

سِرُّ التَّعبير بالاسم الظَّاهر عن الخوف وبالمضارعِ عنِ الحزنِ:

تعلّق الخوف بالمستقبل يقتضي فعل التجدّد، وتعلّق الحزن بالماضي يقتضي فعل الثبوت

جاء التَّعبير عن نفيِ الخوفِ بالاسم الظَّاهر، فلم يَقُل: (ولا هم يخافون)، كما قال: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وهذا في القرآنِ كلِّه، لم يخرج عن ذلك استثناءٌ واحد، ذلك أنَّ الخَوْفَ، إنْ دَخَل جَوْفَ الإنسانِ؛ تمكَّنَ منه، وأخَذَ منه سكينتَه وطمأنينتَه، وشلَّ حركتَه، ولم يفارقْه ما لم تُفارِق أسبابُه ودواعيه فكرَ الإنسان، فهو دائِمٌ ثابتٌ لا ينقلبُ عن قلبِ الخائف، بخلاف الحُزنِ؛ فإنَّه يغيب، ويحضر، فهو في حالةِ تجدُّدٍ على قلبِ المحزُون، بحسب تجدُّد ذكريات الماضي، فكان نفي تجدُّد الحزن بليغًا، كأنَّه قال: لن يحزنوا، فأفاد في معناه ما أفاده التَّعبيرُ بالاسم، فالتَّعبيرُ عن نفي كلِّ شعورٍ مُناسِبٌ لمعناه وواقعِه. قال ابن عرفة: "الخوف يتعلّق بالمستقبل فالمناسب فيه أن يكون الفعل المقتضي للتجدّد، والحزن يتعلق بالماضي فالمناسب أن يكون بالاسم المقتضي للثبوت والتحقيق"[2].

وجهُ ترتُّبُ الأجرِ المعنويّ على المادّي:

ترتُّبُ الأجرِ المعنويّ على المادّي زيادةٌ في الإكرام، وتعظيمٌ لشأن أهلِه

بعد أن ذكرتِ الآيةُ ما للمنفقين في سبيل اللّٰه تعالى من الأجر الماديّ إثباتًا؛ ذكرتِ الأجرَ المعنويَّ نفيًا، ورتَّبتِ الأجرَ على الأجرِ؛ زيادةً في الإكرام، وتعظيمًا لشأن أهلِ الإكرام، فكما أنَّ الانتفاع بالحبَّة يكون مادّيًا؛ فإنَّ النَّظرَ إليها وترقُّبَ نِتاجها هو أجرٌ معنويّ، وهذا من محاسن الوعد بالأجر بعد التّمثيل له، فإنْ لم يفهمِ المخاطَبُ مضمون التَّمثيل؛ فَهِمَ صريح العبارة.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/976.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.

نكتة النَّفيُ المُؤكَّدُ في الحُزْن دُونَ الخَوْف:

أُكِّد نفيُ الحُزنِ بضمير الفصْل؛ لأنَّ ماضي الدُّنيا المليءَ بالأحزان يُهدِّدُ القلوبَ، وممَّا لا يُتصوَّر ذهابُه بالكليَّة، فوقع نفيُه موقعَ الشَّكِّ، فكان تأكيدُه مناسبًا ولائقًا بالمقام، وليس كذلك أمرُ الخَوْف، فإنَّه متعلِّقٌ بالزَّمن المستقبل، فهو وعدٌ ضمنيٌّ أنْ لا يقعَ للإنسانِ ما يُخيفُه، فلم يحتجْ إلى النَّفي كما هو الأمرُ في نفيِ الحُزْن.

وقع نفيُ الأحزان موقعَ الشَّكِّ؛ لأنَّ ماضي الدُّنيا المليءَ بالأحزان لا يُتصوَّر ذهابُه بالكليَّة فكان تأكيدُه مناسبًا للمقام

العَلاقةُ بين الآيتينِ تمهيدٌ وتقعِيد:

مهَّدَتِ الآيةُ السَّابقة إلى المعنى الواردِ في قوله تعالى: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾؛ إذْ أصَّلت لقاعدةٍ في النَّفقة، وهي: تركُ الصَّدَقة خيرٌ منها عند اقترانِها بالمنِّ والأذى، فكانتِ الآيةُ الأولى تمهيدًا، والثَّانيةُ تقعيدًا. فـ" الجملة مستأنفةٌ مقرِّرة لاعتبار ترك إتباعِ المن والأذى"[1].

أصَّلت الآيةُ لقاعدةٍ في النَّفقة، وهي تركُ الصَّدَقة خيرٌ منها عند اقترانِها بالمنِّ والأذى

بديع فن التمثيل:

في قوله تعالى: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ فنُّ التمثيل؛ لأنه قولٌ خرج مخرج المثل السائر الذي يستدعيه الناس في حديثهم للحثّ على عدم المنِّ[2].

خرجت الآية مخرج المثل للحثّ على عدم المنِّ

بلاغةُ الابتداءِ بالنَّكرةِ الموصُوفةِ:

قال العمادي: "صحّ الابتداءُ بالنكرة في الأول لاختصاصها بالوصف وفي الثاني بالعطف أو بالصفة المقدرة، أي: ومغفرة كائنةٌ من المسؤول"[3].

ابتدأَتِ الآيةُ بـ: ﴿۞قَوۡلٞ﴾، وهو نكرةٌ، اكتَسَبَ نَوْعَ تعريفٍ بالصِّفة: ﴿مَّعۡرُوفٞ﴾، فجَمَعَ بين معنَيَيْن مختلِفَيْن، وهما النَّكارة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

(2) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/134.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

الابتداء بالنكرة لتوجيه الأنظارِ إلى ضرورة العناية بصفة القول، كالعناية بالصَّدَقة

والتَّعريف: أمَّا النَّكارةُ؛ فذاتيَّةٌ، وأمَّا التَّعريف؛ فبالصِّفة، فتعريفُ القولِ متوقِّفٌ على استحضار صفته، وبدونها فلا معنى له، وعليه؛ فإنَّ المقصودَ الصِّفةُ لا ذاتُ القول، وما القولُ إلا وسيلةٌ موصِلة لصفته، غايتُها إرضاءُ السَّائل، وتطريةُ نفسِه عند الامتناعِ عن العطاء، والقول المُجرَّد لا يُرضي سائلًا، ولا يُسمع صُمًّا، وتظهرُ بلاغةُ هذا الأسلوب في توجيه الأنظار إلى ضرورة العنايةِ بصفة القولِ، كالعناية بالصَّدَقة.

فائدةُ تنكيرِ القولِ:

وجه تنكير القول التقليلُ

أفاد تنكيرُ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ التَّقليل، أَيْ: أَقَلُّ قَوْلٍ مَعْرُوفٍ[1] ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، ولو عرَّفه، فقال: القول المعروفُ؛ لفُهِم أنَّ المطلوبَ هو نوعٌ من القول، وفي ذلك كُلفةٌ، فنكَّر للتَّخفيف من وطأة الاعتذار، والاكتفاء بأيِّ قولٍ يراه النَّاسُ معروفًا.

أثرُ المفاضلةِ في استنباطِ المعاني:

أبرزتِ المفاضلَةُ بين القول والصَّدقة المتبوعةِ بالأذى تشريفَ القول وتعظيمَ حالِه

أبرزتِ المفاضلَةُ بين القولِ المعروف والصَّدقة المتبوعةِ بالأذى تشريفَ القول وتعظيمَ حالِه، فإنَّ الكلامَ لا يفضُلُ المالَ، لكنْ لَمَّا اتَّصف بالمعروف، وفُضِّل على الصَّدقة المتبوعة بالأذى؛ اكتسب معنى التَّشريف، وهو مستفادٌ من السِّياق التَّقابليّ. ولذلك قُدِّمَ القولُ على الصدقة ههنا.

اختصاصُ الأذى بالذِّكر دون المنِّ:

هو من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، إذِ المنُّ أشدُّ وقعًا من عموم الأذى

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ اختصاصِ الأذى بالذِّكر دون المنِّ في هذه الآية، مع النَّصِّ عليهما سباقًا ولِحاقًا؟ وجواب ذلك يكْمُنُ في تدبُّر ما جاءَت عليه الآية، فقد أتَتْ مفصولةً استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سألَ: ما حالُ من يُتبع صدقتَه منًّا وأذًى، فكان الجواب: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، أيْ: إذا كان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/47.

قولٌ معروفٌ خيرًا من صدقةٍ يتبعُها أذًى، فكيف بالصَّدقة التي يتبعُها منٌّ وأذًى؟ فهي من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، إذِ المنُّ أشدُّ وقعًا من عموم الأذى.

بَلاغَةُ الفاصِلَة:

الجمعُ بين التَّشريعِ والتَّربيةِ بتنزيلِ الفاصِلَة منزلةَ اختزالِ القاعِدَة

خُتمت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ لاختزال القاعدة الأفضلية بين القول المعروف والصَّدقة المتبوعة بالمنِّ والأذى، وهي جملةٌ مستقلَّةٌ بذاتها، ترجمتها: واعلموا أنَّ الله ﴿غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتِكم، فيكفيكم قولٌ معروفٌ ومغفرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ بكم؛ إنْ بَخِلْتُم بأموالِكم، فنُزِّلت الفاصلةُ منزِلةَ اختِزالِ القاعِدَة، فجَمَعتْ بين التَّربية الرُّوحية بالأسماء الحسنى، والتَّشريع بالقاعدة المذكورة، وهذا من خصائص البلاغة القرآنيّة في كشفِها عن خصائص التَّشريع القرآنيّ الجامع بين الجانبِ الرُّوحيّ، والبُعد التَّشريعيّ.

جملة الفاصلة تذييلٌ لما قبلَها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرِّرٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعاً

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾، أي: لا يُحوِجُ الفقراءَ إلى تحمل مؤنةِ المنِّ والأذى ويرزقُهم من جهةٍ أخرى. وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: لا يعاجل أصحابَ المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما، والجملةُ تذييلٌ لما قبلَها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرِّرٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعًا[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

الخَوْف والخَشْية:

الخوفُ ذعرٌ[2] يصيب الإنسان بسبب توقُّع المكروه[3]، ويختصُّ الخوفُ بأنّه من شَيْء مخوفٍ منه إجمالًا، بخلاف الخشية؛ فهي لأمرٍ مخشيٍّ منه عن علمٍ تفصيليّ، كما أنَّ الخاشي يستحضرُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).

(3) الراغب، المفردات: (خوف).

المخشيَّ منه، فالخشيةُ أعلى رتبةً من الخوف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، وفي قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16]، نجد أنَّ السياق يتحدث عن العُبَّاد، ودرجتهم دون درجة العلماء، وعلمهم دون علمهم؛ لذلك آثَرَ ذكْرَ لفظ الخوف دون الخشية، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ [عبس: 8-9]، فذكر الخشية؛ لبيان استحضار ذلكم الصحابي خشيته من الله تعالى وقت سعيه للنبي ﷺ، وهو ما زاد من درجة عتاب النبيّ ﷺ في شأنه، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: 33]، فإنَّ مدح أصحاب الجنَّة كان لبلوغهم مقامَ الإحسان والتقوى، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البيّنة: 8]، فهو كذلك بيانٌ لأصحاب مقام الإحسان.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: 50]، فإنَّه حديثٌ عن الملائكة، والملائكةُ لا تجري عليهم مقاماتُ عبادةِ المكلَّفين، والدَّليل: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾، فخوفُ الملائكة ليس كخوف البشر، وهذا لا يَنْفي التَّفاضلَ بَيْنَهم.

وقد اجتمع لفظا الخشية والخوف في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]، فالخشية هنا من الله تعالى التي هي خشيةُ المحسنين، وسببُ إيراد الخَوْف من سُوء الحساب هو المقابلة، فلا تستوي الخشية من الله تعالى مع الخوف من سوء الحساب؛ ليُقال: ويخشَوْن سُوءَ الحساب؛ لأنَّ ذلك يعني ضمنًا التَّسوية بين الله تعالى وسوءِ حسابه، وهذا غيرُ مُتصوَّر.

واجتمع اللفظان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه: 77]، فخوفُ موسى عليه السلام كان من دَرَك فرعونَ وجنودِه، والخشيةُ ما استحضرَه موسى عليه السلام من الغرَق في البحر، وهي تكشفُ عمَّا يجول في نفسه عليه السلام، وهذا يبيِّنُ لنا أنَّ الخوفَ كان محدَّدًا من دَرَك فرعون، بينما الخشيةُ كانت عامةً؛ لذلك حُذِفَ مفعولُها، كأنَّه قال: لا تخافُ دَرَكًا، ولا تَخشَى غرَقًا.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

﴿خِطْـًٔا كَبِيرًا ٣١﴾ [الإسراء: 31]؛ فالمقصود منه: لا تقتلوا أولادَكم، وأنتم تستحضرون الإملاقَ، وما ينشأ عنه من سُوءِ الحال، فإنَّ هذا الاستحضارَ مذمومٌ، ومنِ استحضر صفةَ اللّٰه الرزَّاق، لم يَعْبَأ بالإملاق وتوابِعه.

ومثله استحضارُ المؤمنِ الوقوعَ في الإثم: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٥﴾ [النساء: 25]؛ لذا فقد نبَّه الراغبُ على ذلك بأنَّه لمن خافَ خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه[1]، أي: لكثرة التَّفكير في الخوف من الوقوع في إثم الفاحشة، فله أن ينزل رتبة ويتزوَّج من مِلك اليمين المؤمنة؛ لدفع الإثم عن نفسه، وهذا ناشئ عن خشية اللّٰه تعالى.

الخَوْف والحُزْن:

يقعُ الخوفُ فيما يُستَقبَل من الزَّمان؛ بسبب ترقُّبِ مكروهٍ، بما يورِثُ قلقًا وضَجَرًا دائمًا لدى الخائِف، ممَّا يُنغِّص عليه حياته، ويُضيِّقُ عليه أنفاسَه، ويقعُ الحزنُ على ما مضى من الزَّمان، فالحزنُ ذكرياتٌ مجرورة، في القلبِ محفورةٌ، شأنُها إضعافُ الحزينِ، وإرهاقُه بالأنين، فهما شعوران يصدران عن القلب، أحدُهما يختصُّ بالماضي، والآخر بالمستقبل، ويتَّفقان في أثرهما الشَّاقّ في سلوك الإنسان وفكره.

(1) الراغب، المفردات: (خوف).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: 264]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تناسبَتِ الآية مع السَّابقة من خلال فنِّ الالتفات من الغَيْبة إلى الخطاب، ويظهر ذلك في أثر الالتفات في توجيه المخاطَب إلى المقصود من الكلام السَّابق، فيكون شبيهًا بالتَّفصيل بعد التوطئة، وبالبيان بعد التّمهيد، فإذا عَلِم المخاطَبُ شروطَ قَبُول النَّفقة؛ تهيَّأ لذلك، فوقع النَّهي المباشر موقعه النَّافع، بعد بيان شرطه بالأسلوب الماتع، وهو مناسبٌ للآيات السَّابقة المتحدِّثة عن الحبَّة المنبتة سبعَ سنابل، فإنَّه هناك ذكر الحبَّة، ولم يذكر الماءَ، وهنا عَكسَ، فذكر الماءَ، ولم يذكر بذرته؛ لبيان أنَّ المطلوب ابتداءً النِّيَّة الصّادقة، فإذا حسُنَتْ حسُن ما بعدها، وأنَّ الاعتمادَ التَّامَّ على الأسباب موغِلٌ في الفساد، وإنَّ إبطالَ القبول نزل من السَّماء إلى الأرض، بينما قبول الحبَّة كان بصعود إنباتها من الأرض إلى السَّماء: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبْطِلُواْ﴾: الإبْطالُ: بطَلَ الشَّيءُ: فسَدَ، وزال بعد أن كان، والإبْطالُ: يُقال في إفْسَاد الشَّيْء وإزالَته، حَقًّا كَانَ ذَلِك الشَّيْء أَو باطِلاً، كما قال تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: 118]، وقيل: إنّما سُمّيَ البَطَلُ بطلًا؛ لأنَّه يُبْطِل العظائمَ بسيْفه، فيُبَهْرِجها، ويُقال: الدِّماءُ تَبْطُل عِنْده، فَلَا يُدرك عِنْده ثأر، وأبطلتُ الشَّيءَ جعلتُه بَاطِلًا، وَسُمِّيَ الشَّيْطانُ بالْبَاطِل؛ لأنَّه لا حقيقةَ لأفعالِه، وَكُلُّ شَيْءٍ منه فلا مَرْجُوعَ له، ولا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ؛

فحُكمُه الفسَادُ والزَّوال[1]. فهذا هو أصلُ هذه الكلمة، فالإبطال هو الإزالةُ بعد الوجود، ثمَّ استُعمل في القرآن لما يُقابل الحقَّ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]، وقال: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: 8]، وهو استعمالٌ مجازيٌّ باعتبار ما سيكون؛ لأنَّ شأنَ الباطلِ إلى زوالٍ، فوصفُ القرآنِ الشرَّ والسُّوءَ والشِّركَ بالباطلِ؛ لحظًا لما سيؤولُ إليه الأمر.

2) ﴿رِئَآءَ﴾: الرُّؤْيَةُ: إدراكُ المرئيّ، واشتُقَّ منه رِئاء، فقيل: منازلُهم رِئَاءٌ، أي: متقابلة؛ لأنَّه يرى بعضُهم بعضًا[2]. فالرِّئَاءُ فِعَالٌ مِنْ رَأَى، وهو أَنْ يُكْثِرَ مِنْ إِظْهَارِ أَعْمَالِهِ الْحَسَنَةِ لِلنَّاسِ؛ فَصِيغَةُ الْفِعَالِ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ وَالْكَثْرَةِ، وَأُولَى الْهَمْزَتَيْنِ أَصْلِيَّةٌ، وَالْأَخِيرَةُ بَعْدَ الْأَلِفِ الزَّائِدَةِ مُبْدَلَةٌ عَنِ الْيَاءِ، وَيُقَالُ: رِيَاءٌ عَلَى إِبْدَالِ الْهَمْزَةِ يَاءً بَعْدَ الْكَسْرَةِ[3]، ولمَّا كان الخفاءُ سرَّ القبول، وموطنُه القلب؛ كان الحرصُ على المُراءَاةِ دليلًا على تجرُّد المرائي في إظهار أعماله للنَّاس، فأراد بإظهار أعماله تحسينَ صورته، فارتَبَطَ هذا المعنى بهذا اللفظ في الاستعمال القرآنيّ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾ [النساء: 38]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: 142]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾ [الماعون: 6-7]، فالرِّياء في الاستعمال القرآنيّ عبارةٌ عن أمرين متقابلين: الصُّورة الظّاهرة الجميلة، والباطن الخفيّ القبيح.

3) ﴿صَفۡوَانٍ﴾: الصَّفْوان[4]: أصل الصَّفاءِ: خلوصُ الشيءِ من الشّوب وغيره، ومنه: الصَّفَا، للحجارة الصَّافِيَة، ويُقال للنَّاقة الكثيرة اللّبن، والنّخلة الكثيرة الحَمْل: الصَّفيُّ والصَّفيَّةُ، والصَّفْوَانُ: اسمُ جنسٍ؛ لذلك صحَّ عَوْدُ الضَّمير عليه في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾[5]، والواحدةُ: صَفْوَانَةٌ، وَسُمِّيَتْ صَفْوَانَةً؛ لِأَنَّهَا تَصْفُو مِنَ الطِّينِ وَالرَّمْلِ، ويُطلق الصَّفاء

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بطل).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (رأى).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/48.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صفو).

(5) أبو البقاء، التبيان: 1/215.

على الخُلُوِّ، فقيل: أَصْفَتِ الدّجاجةُ؛ إذا انقطع بيضُها كأنَّها صَفَتْ منه، فالصَّفوان حَجَرٌ أمْلَس صافٍ من أيِّ شَائبة.

4) ﴿وَابِلٌ﴾: الوابل[1]: الوَبْلُ والْوَابِلُ: المطر الثّقيل القَطّار، ولمراعاة الثّقل قيل للأمر الذي يُخاف ضرره: وَبَالٌ، قال تعالى: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [التغابن: 5]، ويُقال: طعام وَبِيلٌ، وكلأٌ وَبِيلٌ، أي: يُخاف وباله، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: 16]، والوَبِيل والمَوْبِل: العَصا الضَّخْمة، والوابلة: رأسُ العَضُد في حُقّ الكَتف، وتسمية المطر الثَّقيل المتتابع بالوابل مأخوذ من هذا، فلغِلَظِ المطر وتتابعه من أعلى وشدَّة أثره على الأرض شُبِّه بالعصا الضَّخمة، فالمعنى الملحوظ في مشتّقات هذا اللفظ، الثِّقل والتَّتابع، وغالب أثره سلبيّ.

5) ﴿صَلْدًاۖ﴾: الصَّلْد[2]: الحجر الصُّلب الأملس اليابس الشَّديد الذي لا يُنبت، ولا يُوري، ولا خير فيه، يُقال: صَلَدَ الزَّنْدُ: لا يُوري نارًا، ومنه قيل: رأس صَلْدٌ: لا ينبت شعرًا، وفرس صَلُودٌ: لا يعرَق، ويُقال: رجلٌ صَلْدٌ: بَخيلٌ جدًّا، فالصَّلادَةُ: هي ملاسةٌ وصلابة لا تقبل معها تعلُّقَ شيء.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

نداء المخاطَبين بأجمل أوصافهم، وأرقّ أسمائهم، النَّافعة في قبول الأعمال، والصَّالحة لتلقِّي الأوامر والنَّواهي؛ للتمهيد بالنَّهي عن إبطال الصَّدقات، بما شاع بين النَّاس وذاع، بتقبيح صورة ذلك للسَّامع الواعي، بصورةٍ تشبيهيةٍ قبيحة مكروهةٍ، وهي صورة المنافق المرائي، الذي يُخرج ماله ليراه الناسُ، فيُثْنوا عليه، وهو لا يؤمن بالله ولا يوقن باليوم الآخر، ثمَّ التَّمثيل لذلك المعنى المعقول، بصورة حسيَّة مشاهدة، كمَثَلِ حَجَر أملس عليه تراب، هَطَل عليه مطر غزير فأزاح عنه الترابَ، فتركه أملسَ لا شيء عليه، فكذلك هؤلاء المراؤون تضمحلُّ أعمالهم عند الله، ولا يجدون شيئًا من الثواب على ما أنفقوه؛ ليرسَخَ هذا التمثيلُ في الذّاكرة، ولا يتزحزح أثناءَ الغفلة عنِ المذاكرة؛ تقويةً للمجتمع في أصوله، وترسيخًا لمبدأ الوحدة الشُّعوريّة، فالمنُّ والأذى بعيدان عن طبيعة الإيمان، ولذلك ابتدأ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وبل).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صلد)، والسمين، الدر المصون: 2/588.

اللهُ الآية بخطاب المؤمنين، وختمها بالتّحذير من القوم الكافرين؛ إذ الله لا يوفِّق الكافرين لإصابة الحق في نفقاتهم وغيرها، فمن أشرقت بدايته بالفهم، لم تُظلم نهايته بالوهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بيانُ نداء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإشعارُ بأهميَّة المتُحدَّثِ عنه

النِّداءُ بحرف (يا) الموضوع لنداء البعيد، والتَّعبير عن المنادى بالاسم الموصول، ومدحه بصلة الموصول، وهو وصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، يُشعِر بأهميَّة المتحدَّث عنه، وضرورة الانتباه لمضمونه. فافتتح الكلام بالنداء؛ لأن فيه إشعارًا بخبر مهمٍّ عظيم، فإن شأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهيئ النَّفس لقبولها لتستأنس بها قبل أنْ تَفْجَأَهَا(1).

تصويرُ معنى التَّحذير بالنَّهي بعد النِّداء:

ترتيبُ النَّهي على النِّداء يُصوِّر معنى تحذير المؤمنين، وتنبيههم

ترتيبُ النَّهي على النِّداء يُصوِّر معنى التّحذير، فكأنَّ الذين آمنوا قد صَعَدوا بإيمانهم وصدقاتهم إلى قمَّة جبلٍ، ووقفوا على شفير هاويته، فنُودُوا أنِ احذَرُوا من السُّقوطِ بقَطْع حَبْل صدَقاتِكم بالمنِّ والأذى.

النَّهي محمولٌ على التَّربية الاحترازيَّة

علَّة التَّحذير خبيئةٌ تحت لواء النَّهي بعد النِّداء، ولولا قابليَّةُ المتصدِّق للمنِّ والأذى؛ لما نُهي عن إبطال صدقاته، فالنَّهيُ محمولٌ على التَّنبيه والتَّحذير من أمرٍ لم يقع، فهو نهيٌ عن أمرٍ مستقبليّ؛ صيانةً لاحتمال الوقوع، واحترازًا من مغبَّة الإبطال.

براعةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

شُبِّه الإبطال بالقطع، والصَّدقات بالشَّيْء المقطوع، والمنُّ والأذى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/52.

في الاستعارة تصوير للمُبطلَ كأنَّه يقطع صدقته بسيف المنِّ والأذى

بالسَّيْف، وحذف المُشبَّه به، وذَكَرَ المُشبَّه ولازمًا من لوازمه، وهو الباء - على أن تكون بمعنى: الاستعانة - على سبيل الاستعارة المكنيَّة، فكأنَّ المُبطلَ يقطع صدقته بسيف المنِّ والأذى، ويُقوّي ذلك أنَّ العربَ سمَّتِ البَطَلَ بطلًا؛ لأنَّه يُبْطل العظائمَ بسيْفه[1]، وبراعةُ الاستعارة مكنونةٌ في كون الصَّدقة ناميةً حيَّةً كالحبَّة النَّامية، فإذا ما قُطعت؛ ماتت.

سرُّ إعادةُ ذِكر (المنِّ)، و(الأذى) وعدمُ الاكتفاء بأحدِهما:

إعادة اللفظ في الكلام تعظيمٌ لمنح المنّة

قال الرّاغب: "وليعظّم اللّه تعالى منح المنّة، أعاد ذلك في معارض من الكلام، فأثنى على تاركها أولاً، وفضّل المنع على عطية يتبعها المنّ"[2].

وجه إعادة اللّفظين لدفع توهُّم اقتصار الإبطال عليه دون الآخر

أُعيد ذكرُ المنِّ والأذى دون الاكتفاء بأحدهما كما هو في الآية السَّابقة؛ دفعًا لتوهُّم اقتصار الإبطال عليه دون الآخر، بخلاف الآية السَّابقة؛ فإنَّ ذكر الأذى لفَّ المنَّ بمضمون الكلام، فكان النَّصُّ على الاثنين مفيدًا الشُّمول.

بلاغةُ التَّشبيه التَّمثيليّ:

المُشابهةُ في الأحوالِ لا تقتضي المُشابَهة في الذَّوات

شبَّهتِ الآيةُ حالَ المبطلِ صدقتَه بحال من ينفقُ مالَه رِئاءَ النّاس، ولا يُؤمنُ باللّه تعالى، فهو تشبيهٌ تمثيليٌّ من باب تشبيه حالٍ بأخرى، والغرضُ من هذا التَّشبيه تفظيعُ المشبَّه به[3]، فإنَّ تفظيعَ المشبَّه به يستلزم تفظيعَ المُشبَّه؛ لأنَّه ملحَقٌ به، فعُومِل معاملةَ الفرعِ مع أصله، مع اختلافِ كلٍّ منهما عنِ الآخر في الإيمان والكفر، فإنَّ المُشابهةَ في الأحوالِ لا تقتضي المُشابَهة في الذَّوات، فتمحَّض التَّشبيه التَّمثيليّ في غرضه، وهو تفظيعُ حال مبطل الصَّدقة؛ ليحصلَ الاعتبارُ من التَّشبيه، وهو الارتداعُ عن مقاربةِ المنِّ والأذى في الصَّدقات.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (بطل).

(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/556.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/52.

ووجه التّشبيه التمثيلي؛ أنّ وجه الشّبه منتزعٌ من متعدّد؛ فقد شبّه اللّه تعالى قلب المرائي في الإنفاق وحالته العجيبة كحجرٍ أملس عليه شيء يسير من التّراب فأصابه مطرٌ غزيرٌ فتركه أملسَ ليس عليه شيء من الغبار[1].

وجه التّشبيه التمثيلي أنّ وجه الشّبه منتزعٌ من متعدّد

التَّعبيرُ بالاسمِ الموصول دونَ الاسْمِ الظَّاهر:

تقبيحُ صورَة المنفقِ مالَه رِئاءَ النّاس؛ للارتداعِ عن مشابهته

آثرتِ الآيةُ القرآنيّة ذكرَ المُشبَّه به بالاسم الموصول: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ لا بالاسم الظّاهر، فلم تقل: كالمنفقِ مالَه، مع أنَّ المقصودَ جنسُ المُرائين لا شخْصًا بعينه، ذلك أنَّ الاسم الموصول يعطي نوعَ تعريفٍ، فإيثاره لبيان صورةٍ مستقبَحَةٍ مكروهةٍ مُتصوَّرةٍ في الأذْهان، فكأنَّ الآية تُشير إلى منفقٍ بعينه يعرِفه المخاطَبون، وهذا أدعى في الاستقباح والاستكراه لمن هذه حالُه، وهذا من بلاغة التَّعبير بالاسم الموصول المُفضي إلى قيمة تربويّةٍ أداتها البيان.

سرُّ التَّعبيرِ بالمال دُونَ الصَّدقة:

دقةُ الاستعمال؛ لبيان الفرق بين خصوص الصَّدقة، وعموم المال

عبَّرتِ الآيةُ ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ عمَّا ينفقه المشبَّه به بالمال، في حين كان التَّعبير عمَّا ينفقه المُشبَّه بالصَّدقات، وهذا من دقيق الاستعمال؛ ذلك أنَّ المشبَّه به لا يؤمِنُ باللّه واليوم الآخر، وشرط الصَّدقة الإيمانُ، ففي الآية تنبيهٌ وتحذير لفظيٌّ بديع، وهو: إياكم أيها المنفقون أن تجعلوا صدقاتكم الأخرويَّة مالًا دنيويًّا، فالصَّدقات مقبولَةٌ، والأموالُ مرذُولَةٌ، فحسُن بذلك استعمالُ كلِّ لفظٍ في محلِّه، ووضع كلِّ مبنى في محزِّه، ولو عكس أو ساوى؛ لاختلَّ قانون البلاغة.

وجه تخصيص الصّدقة بالنهي:

تخصيص الصَّدقة بالنهي؛ لكون المنة فيها أعظم وأبشع

وخصّ الصدقة بالنهي؛ لكون المنة فيها أعظم وأبشع، ولكون ذلك فظيعًا مستبشَعًا قال ﷺ: "ثلاثة لا يجدون ريح الجنة، وإن

---

(1) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 155-154، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن، 135-134.

ريحها لتوجد من مسيّرة خمس مائة عام: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنّان"[1].

نُكتةُ جمعِ الصَّدقات وإفرادِ المال:

يُلاحظ جمعُ الصَّدقات ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ في باب الإنفاق في سبيل الله، وإفرادُ المال ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ في باب الإنفاق رِياءً؛ ذلك أنَّ الجمع يُشير إلى كثرة سُبُل الصَّدقات وتنوعها، وأنَّ قبولها ليس مقتصرًا على باب واحد، ولا محصورًا في سبيل أوحد، وأمَّا الأموال المنفقة رئاءَ النَّاس؛ فهي على خلاف ذلك؛ إذ إنَّ المنفقَ ينحصرُ عملُه في المراءاة وطلب الشُّهرة.

الجمع يُشير إلى كثرة سُبُل الصَّدقات وتنوعها والإفرادُ يشير إلى أنّ المنفقَ ينحصرُ عملُه في المراءاة وطلب الشُّهرة

اسْتعمالُ اللفظِ العامّ؛ لِيشملَ معنى العُموم والخُصُوص:

لفظُ النَّاس من الألفاظ العامَّة، واستُعمل في قوله تعالى: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مرادًا به الخاصّ بدليل: ﴿رِئَآءَ﴾، فإنَّه من المستحيل أن يرى نفقة المرائي إلا القليلُ من النَّاس زمانًا ومكانًا، وسِرُّ استعماله دون ألفاظٍ أخرى يكمُنُ في الكشف عن نفسيَّة المنفقِ مالَه، فإنَّه يتمنَّى المستحيل، وهو أنْ يرى نفقتَه جميعُ النَّاس، ويعلم بها كلُّ النَّاس، فأدّى هذا اللفظ معنيين: الأوّل: الخصوص، وهو المُتَحقّقُ في الواقع، والثَّاني: العموم، وهو ما يجول في نفس المنفق مالَه، فاستُعمل استعمالًا مجازيًّا بالاعتبار الأوّل، واستعمالًا حقيقيًّا بالاعتبار الثَّاني.

العموم هو ما يجول في نفس المنفق مالَه، والخصوص هو المُتحقّقُ في الواقع

علّة التَّعبير بصيغة المضارع:

ممَّا يقتضيه الظَّاهر أنْ يأتيَ بيانُ معتقد الكافر بالجملة الاسميَّة، كأن يقول: وهو كافرٌ، فغرضُ التَّشبيه تفظيعُ إبطال الصَّدقات، وما يُناسبه التَّعبير بالاسميّة، وبلاغة القرآن رُصفت

(1) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/556، والحديث عند النسائي: 5/80-81، وأحمد، حديث رقم: (6180).

بمقتضى الأحوال، لا بما تقتضيه ظواهر العقول، والفعل المضارع في قوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ هو الأنسب لأمرين اثنين:

اقترانُ الإنفاق بعدمِ الإيمان، وبيانُ تجدُّدِهِ بتجدُّدِ الإنفاق

الأوَّل: بيانُ اقترانِ الإنْفاقِ رياءً بعدم الإيمان باللّه واليوم الآخر، كأنَّه قال: يُنفق حالَ كونه لا يؤمن، فاكتسب معنى الحاليَّة.

الثَّاني: بَيانُ تجدُّدِ عَدَمِ الإيمان؛ فإنَّ من ينفِقُ مالَه في سبيل إعانة النَّاس يأتيه شكرُهم، ويصلُه حمدُهم، ويطرق أُذنَه مدحُهم، وهذا يستدعي نوعَ أريحيَّةٍ نفسيَّة، تقودُ صاحبَها إلى الإيمان، فنطقت الآية بأنَّه مع هذا كلِّه، فهو ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، وهذا ما زاد في تفظيع حالِه المستلزِمة تفظيعَ حالِ من تشبَّه به من المؤمنين.

الثَّالث: التّناسبُ اللفظيّ بين ﴿يُنفِقُ﴾، و﴿يُؤۡمِنُ﴾.

المخصوص بالذِّكر في قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾:

وجه التخصيص التّنبيهُ على وجوه الإنفاق ابتداءً، وانتهاءً

خصَّت الآيةُ اليومَ الآخر بعد لفظ الجلالة بالذكر دون بقيَّة أركان الإيمان؛ للتّنبيه على أنَّ الإنفاق يجب أن يكون للّه ابتداءً، ورجاءَ نَيْل الثَّواب في اليوم الآخر انتهاءً؛ كي لا تُبطله شبهات المنِّ، ولا مطاعن الأذى.

اكتمالُ أركانِ التَّشبيه التَّمثيليّ:

اكتملتِ الأركان الأربعة للتَّشبيه التّمثيلي الأوّل، وهي:

المشَبَّه: الذي هو عبارةٌ عن إبطال الصَّدقات بالمنِّ والأذى في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، والمُشبَّه به: وهو قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، وأداة التَّشبيه: الكاف في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِي﴾، ووجهُ الشَّبَه: لرُكني التَّشبيه، وهما: المُشبَّه: وهو المبطلُ صدقتَه، والمشبَّه به: وهو المنفِقُ مالَه رياءً، هو عدمُ الانتفاعِ بالإنفاق دنيويًّا وأُخْرويًّا، فنُزِّل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ

﴿وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ منزلةَ وجه الشَّبه للتَّشبيه الأوَّل.

نوعُ الفاءِ في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾:

فائدة الفاء ربطُ ما بعدَها بما قبلها

الفاء في ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ رابطةٌ ما بعدَها بما قبلها[1]، أي: فمثل المتقدِّم ذكرُه كمثل صفوانٍ.

جَزالةُ التَّشبيه التَّمثيليّ:

جزالة التَّشبيه كونُه تشبيهَ مُركّبٍ معقولٍ بمركَّبٍ محْسُوسٍ

اختُلف في عودة الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، على الآتي:

القول الأوَّل: عاد الضَّميرُ على ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه أقربُ مذكور.

القول الثَّاني: عاد على المانِّ المُؤْذِي، كأنه تعالى شَبَّهه بشيئين: بالذي يُنْفِقُ رِئَاءً، وبصفوانٍ عليه ترابٌ[2].

القول الثَّالث: عاد الضَّمير على مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، لا على أحد رُكني التَّشبيه، وعلى هذه الأقوال الثَّلاثة؛ فإنَّ التَّشبيه هو: "تشبيهُ مُركّبٍ معقول بمركَّبٍ محسوس"[3].

صحَّةُ إيرادِ أكثرَ من تشبيهٍ على التَّعدُّد والتَّنوّع:

مجموعُ التَّشبيه التَّمثيليّ هو المقصودُ بالمَثَل في قوله تعالى (فمثله)

بناءً على القول الثَّالث؛ فإنَّ التَّشبيه في الآية هو تشبيهُ مَثَلٍ بمَثَل، تركَّب المَثَل الأوّلُ من تشبيه حالِ المُبْطِل صدقتَه بحالِ المُنْفق مالَه رئاءَ النَّاس، فمجموعُ التَّشبيه التَّمثيليّ هو المقصودُ بالمَثَل في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، والضَّمير يعود إلى مجموع المُشبَّه والمُشبَّه به، أي: مَثَل هذا التَّشبيه التَّمثيليّ المكوَّن من تشبيه حالٍ بحال ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾، وهذا كلامٌ مُختزَلٌ

(1) أبو البقاء، التبيان: 1/215.

(2) السمين، الدر المصون: 2/586.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/49.

جَزْلٌ، لا يقوى على مثله آحادُ البلغاء؛ لما فيه من الجزالة المتينة، والمعاني البليغة، فأفاد صحَّةَ تشبيه المُبْطل صدقتَه بالمنِّ والأذى منفردًا، بصفوانٍ عليه تراب، وصحَّةَ تشبيهِ المنفقِ مالَه منفردًا، بصفوانٍ عليه تراب، كما صحَّ تشبيهُ مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ الأوّل بمثل صفوانٍ عليه تراب، وهذا معنى الاختزال في التّشبيه التّمثيليّ في الآية، فيكون القولُ الثّالث شاملًا للقولين الأوّل والثّاني.

زيادةُ بيانٍ وإيضاح للتَّشبيهين في الآية:

ورد في الآية تشبيهان، وكلاهما تمثيليّ: الأوَّل: تشبيه المبطل صدقتَه بالمرائي، والثَّاني: تشبيهُ مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ الأوّل بمثل صفوانٍ عليه تراب، وهذا كقولنا في أحد أوجه إعراب قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1]: ضمير الفصل مبتدأ أوَّل، ولفظ الجلالة مبتدأ ثانٍ، وأحد خبرُ المبتدأ الثَّاني، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ الأوّل، فكذلك الأمر هنا، الركنُ الأول - وهو المشبَّه - يتكون من المشبَّه والمشبَّه به الأوّل، والرُّكن الثَّاني: هو المشبَّه به الثَّاني، فكما أنَّ مجموع الجملة الاسميّة ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ هي خبر المبتدأ الأوّل، فكذلك مجموع التَّشبيه المكوَّن من المشبَّه والمُشبَّه به في الجملة الأولى هو المُشبَّه الثَّاني، لكن على عكس التَّرتيب في جملة الإعراب.

وجه الشبه في المرائي:

بيَّن التشبيه أنَّ إنفاق هذا المرائي مع نافع الانفاق فلم يفده إلا زوال ترابه

قال الراغب: "شبَّه المرائي بصفوانٍ ومالَهُ بتراب، وإنفاقَهُ بالوابل. وبيَّن أنَّ إنفاق هذا المرائي مع كون الإنفاق في نفسه شيئًا نافعًا لم يفده إلا زوال ترابه، كما أن المطر الذي أتى على الصفوان مع كون المطر نافعًا في نفسه لم يفده إلا زوال ثراه، وقال تعالى في ضياع أعمال الكافر: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: 18] "(1).

نكتة التَّعبير بالصَّفوان دون مرادِفاته:

لبيان أنَّ ما يعلق عليه إنَّما يعلَقُ بصعوبةٍ بالِغةٍ، ويذهب بأدنى مؤثِّر

الصَّفوان هو حجرٌ أملس يخلو من أيِّ شائبة، واختيار هذا

(1) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/556.

الوصف في التَّشبيه؛ لبيان أنَّ ما يعلق عليه إنَّما يعلَقُ بصعوبةٍ بالِغةٍ، ويذهب بأدنى مؤثِّر.

اختيارُ كلمة ﴿تُرَابٌ﴾ دون مرادفاتها:

الجَمْعُ بين معنَيَيْن متعارِضَيْن للتَّحريض والتَّحذير

آثر النَّظمُ الكريم كلمةَ تراب، دون طين، أو حصى، أو غبار، أو غيرها من الألفاظ؛ للتَّنبيه على ثلاثة أمور:

الأوّل: قابليَّة التُّراب للإنبات، وهذا اعتبارٌ تحريضيٌّ لإمكان قَبول الصَّدقة وتنميتها، وهو ما يُرشِّح ترشيحًا استئناسيًّا عَوْدَ الضَّمير في ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ إلى المشبَّه.

الثَّاني: قابليَّة التُّراب للزّوال بأدنى سببٍ، وهذا اعتبارٌ تحذيريّ لقابليّة زوال الصَّدقة ومَحْقِها، وهو ما يُقوّي عَوْدَ الضَّمير في ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ إلى مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ.

الثَّالث: معنًى إشاريّ، وهو أنَّ التُّراب مستعملٌ بمعنى: الافتقارِ، يُقال: تَرِبَ الرجلُ: افتقَرَ[1]، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾ [البلد: 16]، فهي إشارةٌ روحيَّة إلى المتصدِّق: أنِ اعلم أنَّك فقيرٌ إلى رازِقك، فمهما تصدَّقتَ؛ فأنت مترِبٌ مُعوِز، وهذا من بديع اختيار المفردات القرآنيَّة في سياق التَّشبيه والبيان، بما يُصيب معنًى ونقيضَه، ويُحقِّق غايةً، ويؤمُّ قصدًا.

استحضارُ الأملِ في قوله: ﴿صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾:

مشهد التُّراب فوق الصَّفوان يُغطِّي حقيقةَ القسوة الماكثة تحته، ويُبرقُ الأملَ في عينَي ناظرِه

الأحجارُ الملْساءُ لا تُعطي لناظرِها أيَّ أملٍ في الحياة، فهي لا تُنبتُ، ولا تجمع ماءً، فكأنّ التَّعبير القرآنيّ ﴿صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ يُعطي للنَّاظر بصيصَ أملٍ في الإنبات، وفي الحياة، فإنَّ مشهد التُّراب فوق الصَّفوان يُغطِّي حقيقةَ القسوة الماكثة تحته، ويُبرقُ الأملَ في عينَي ناظرِه.

---

(1) السمين، الدر المصون: 2/587.

وظيفة حرف الفاء في قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾:

الإشـــارةُ إلى حـال المتصدِّق الزَّائغ قلبُه، وأنَّ تحمُّلَه يُسارعُ إليه الهدْمُ

عطف حرفُ الفاء فعلَ الإصابة على فعل محذوف تعلَّق به الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾، والتَّقدير: استقرَّ على الصَّفوان تُرابٌ، فأصابه[1]، ودلَّ حرف الفاء على التَّعقيب، أي: بمجرد أنِ استقرَّ التُّرابُ أصابه وابلٌ، ولو أتى بالواو؛ لأفاد مجرَّد ترتيب فعلٍ على آخر، والمقصودُ التَّعقيبُ؛ إشارةً إلى أنَّ من تصدَّق - وفي قلبه زيغٌ وضعفٌ - فإنَّ تحمُّلَه لثِقَلِ الصَّدَقة لا يستمرُّ طويلًا.

دِقَّةُ اختيار فعل ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾:

التعبير بالإصابة لبيان قصديّتها

التَّعبيرُ بالإصابَة لبيانِ أنَّها كانت عن قصدٍ[2]، ولم يقل: (فنزل عليه وابلٌ)، فإنَّ في النُّزول لُطفًا، ليس متحقِّقًا في الإصابة.

إيثارُ لفظِ ﴿وَابِلٞ﴾ على بقيَّة مرادفاته:

اختـيـارُ الـوابـلِ لـقـوّة وقْـعـه وشدَّة أثرِه

اختيارُ الوابلِ دونَ المطرِ أو الغَيْث؛ لقوّة وقْعه وشدَّة أثره، فإنَّه إذا نَزَلَ لم يُبقِ أثرًا للتُّراب، وهذا بيانٌ حسيٌّ لأمر معنويّ، فإنَّ المنَّ والأذى إذا أصابا الصَّدقةَ؛ أبطلاها بالكليَّة، كما هو حال الوابل مع التُّراب، فإنَّ الصَّدقة ضعيفةٌ مع وقْع المنِّ والأذى، كضعفِ التُّراب مع الوابل على الصَّفوان.

الإسنادُ المجازيّ في قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾:

نُـكـتـةُ الإسـنـادِ بـيـانُ أنَّ الـلـه تـعـالى يسـلِّـط جـنـدَه على مَـنْ يريدُ من عباده

الوابل لا يُصيب بذاته، بل الذي يُصيب هو خالقُ الوابل سبحانه وتعالى، ونُكتةُ الإسنادِ بيانُ أنَّ اللّٰه تعالى يسلِّط جندَه على مَنْ يريدُ من عباده، ومثله قوله تعالى: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾.

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَرَكَهُۥ﴾:

أفادتِ الفاء التَّعقيب السَّريع، أي: بمجرَّد أنْ أصابَ الوابلُ

(1) السمين، الدر المصون: 2/587.

(2) الراغب، المفردات: (صوب).

أفادت الفاء معنى أنّه بمجرَّد أنْ أصابَ الوابلُ الصَّفوان، ترَكَه صلدًا

الصَّفوان، ترَكَه صلدًا، كأنْ لم يكن بينهما زمنٌ، وهو ما يقوِّي معنى الوابل، وهو المطر الذي ينزل شديدًا قويًّا، فبمجرَّد نزوله لا يبقى معه شيءٌ من التُّراب.

دقَّةُ التَّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾:

تنزيل الصَّفوان منزلةَ القول المعروف، والصلْد منزلة الصَّدَقة التي يتبعُها أذًى

التَّعبيرُ بالتَّرك؛ لبيان أنَّه لم يبقَ شيءٌ من التُّراب فوق الصَّفوان، بل تحوَّل الصَّفوان إلى حَجَرٍ صلْد، وهو أكثرُ صلَابةً من الصَّفوان، فإنْ كان الصَّفوان ممّا يستقرّ عليه التُّراب؛ فإنَّ الصلد ممَّا لا يُتوقَّع منه ذلك، فكما أنَّ الوابلَ لن يتركَ شيئًا على الصَّفوان، فكذلك المنُّ والأذى لن يتركا شيئًا من الأجر والثَّواب، وهذا المعنى هو ذاته الواردُ في السِّباق: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾، فإنَّ الصَّفوان الذي عليه التُّراب، خيرٌ من الصلْد، فأنْ يبقى المسلمُ بلا تصدُّقٍ خيرٌ له من صَدقةٍ يتبعُها أذًى.

تقبيحُ صورة المانِّ بتنزيله منزلةَ الحجر الصَّلْد المتروك بلا خير

أفاد التَّعبير بقوله: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أنَّه مهملٌ، لا رجاءَ فيه، ولا أمل في مبتغيه، ففيه تقبيحُ صورة المانِّ، فهو متروك بلا خير، كما الصَّلْد.

مَوْقِعُ الفصل بالاسْتِئنافِ البَيانيّ بعد المَثَل:

وجه الفصل بالاستئناف البياني دفعُ ظنٍّ موهوم

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ إثرَ بيان المَثَل، وقد فُصِل؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيّ، فكأنَّ سائلًا قد سأل: فما حال أولئك الذين أنفقوا أموالَهم، هل ستذهب عليهم سدًى، ولا يقدرون على شيءٍ منها؟ وهذا سؤالٌ بَدَهيّ؛ فإنَّ ممَّا يظنّه النَّظرُ القاصِر: أنَّ من أنفقَ مالَه؛ فله فائدةٌ مرجوَّةٌ ينالُه بعضُها، ولو أساء بمنٍّ وأذًى؛ فكان الجوابُ دافعًا لهذا الظَّنّ الموهوم.

العُدولُ عن الإفرادِ إلى الجمع:

تقدَّم ذكر الذي ينفق ماله بصيغةِ الإفراد، وكذلك التَّمثيل بالصَّفوان، فالأوفق في الظَّاهر أن يكون كذلك هنا، لكنَّه عدل

عن ذلك إلى الجمع في قوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾؛ لتأويل الذي ينفقُ بالجماعة، ورعيًا للمعنى، وصالحًا لأَنْ يُجعل استئنافًا بيانيًّا، وصالحًا لأن يُجعل تذييلًا وفذلكةً لضرب المثل، فهو عَوْدٌ عن بَدْء قولِه: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ إلى آخر الكلام[1].

العـدول إلى الجمع؛ لتأويل الذي ينفقُ بالجماعة، ورعيًا للمعنى

فإن قيل: وكيف يجوز أن يكون ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ فعلًا للذي، والذي هو فعلاً للواحد؟ قيل: قد يقدر أن الذي قد يقع على الجمع، وأنه إذا أريد به الجمع، فقيدٌ يخبر عنه كما يخبر عن الواحد وقوله: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

ما يقع على الجمع فقيدٌ يُخبر عنه كما يُخبر عن الواحد

إيثارُ الإطنابِ على الإيجاز:

العبرةُ في بلاغة القرآن قائمةٌ على إيصال المعنى، بأجمل صورةٍ لفظيَّة، وقد يُقدَّم الإطناب على الإيجاز؛ لحلاوة غير متحقِّقة في إيجازه، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾، ولم يقل: (لا يقدرون على كسبهم)، مع أنَّه أوجز في العبارة؛ ذلك أنَّ ذكر شَيْءٍ يدفعُ أيَّ وهم قد يَسْتَصْحبُه ضعيفُ العقل، عديمُ الفؤاد، فإنَّ التَّمسُّك بأطراف المُنْجيات سبيلُ الواهيات، فأراد سبحانه أن يدفع أيَّ وهم، فجاء بلفظ شيءٍ للدّلالة على العموم، بحيث لا يشُذُّ عن ذلك شاذٌّ، ولا يلوي عنه لاوٍ، وبه تنقطع الأطماع، وإليه تُشدُّ الأسماع.

سِرُّ ذِكرِ لفظِ شيءٍ لدفع أيِّ وهم، وعلاج كلِّ سَقْمٍ

العُدولُ عن خُصوصِ الإنفاقِ إلى عُمومِ الكَسْب:

عدلتِ الآية عن لفظ الإنفاق إلى الكسب في قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾؛ ذلك لسببَيْن اثنين: أمَّا أوَّلهما: فهو لقَطْع أيِّ أمَل ومَطْمَعٍ في تحصيل شيءٍ ممَّا أنفقوه؛ فإذا كان عمومُ كسبهم غيرَ مقدورٍ عليه، فكيف خصوصُ إنفاقهم المتبوع بالمنِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/49.
(2) الراغب، المفردات: (صوب).

والأذى؟ وأمَّا ثانيهما: فهو من قبيل تسميةِ الإنفاقِ بأصله؛ فإن النَّفقة كَسْبُ الإنسان، وهذا أشدُّ في نفيِ الانتفاعِ، وأقوى في جبيِ الارْتِداع.

موقعُ الفاصلةِ من الآية:

تقريرُ ما تقدَّم في السِّياق؛ تحذيرًا من مشابهة الكافرين

وقع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تذييلًا مقرِّرًا لمضمونِ ما قبله، مسوقًا لتحذيرِ المؤمنين من تسرُّب أحوال الكافرين إليهم، فإنَّ من أحوالهم المنَّ على من ينفقون عليه، وفيه تعريضٌ بأن كلًّا من الرِّياء والمنِّ والأذى من خصائص الكفَّارِ ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها[1]، وحسَّن ذلك كلَّه الابتداء بلفظ الجلالة المورث هيبةً وجلالًا وتحذيرًا.

ردُّ الفاصلة على صدر الآية بالأوصاف المتناقضة:

في ردّ الفاصلة تقويةُ المبدأ بالختام، وتعضيد الصَّدر بالفاصلة

ابتدأت الآية بخطاب المؤمنين؛ لبناء ما سيأتي من الأوامر والنّواهي، وخُتمتْ بذكر القوم الكافرين؛ للحذر من مشابهة صنيعهم، وفيه تقويةُ المبدأ بالختام، وتعضيد الصَّدر بالفاصلة.

وجه التعريض في الفاصلة:

بيان التعريض بأن الرياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: إلى الخير والرشاد؛ وفيه تعريضٌ بأنّ الرّياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بدّ للمؤمن أن يتجنب عنها[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّفوان والصَّلد:

ورَدَتْ هاتان الكلمتان مرَّة واحدةً في موضع واحد في القرآن الكريم، أمَّا الصَّفوان؛ فهو الحجر الصَّافي من الشَّوائب في ذاته، لكنَّه قد يقبل تعلُّقَ بعض الأتربة والرِّمال، وأمَّا الصّلد؛ فهو الحجر الصَّافي الأملس الصُّلب، الذي لا يقبلُ أيَّ تعلُّقٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/205.

الوابِل والمطَر والغَيْث والطِّلّ:

المطر: هو اسمٌ للماء النَّازل من السماء، فإذا كان نافعًا مفيدًا تترقَّبُه القلوب قبل العيون؛ فهو الغَيْث، وَرُبَّمَا سُمي السحابُ والنباتُ: غَيْثاً، والغَيْث الكَلأُ يَنْبُتُ مِنْ مَاءَ السَّمَاءِ[1]، وإذا كان كثيرًا كثيفًا شديدًا متتابِعًا بشدَّة؛ فهو الوابِل، وإذا كان قليلًا سريعًا، بالكاد يُروي؛ فهو الطَّلّ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (غيث).

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: 265]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيانِ مَثَل الصَّفوان، ناسَبَ التَّمثيلُ بما هو شبيهٌ به، قريبٌ منه، فإنَّ الصَّفوان الذي عليه ترابٌ، شبيهٌ في الظَّاهر من بعيدٍ بالرَّبوةِ، مُختَلِفٌ عنها في الباطن، فيا لِقَسْوةِ الصَّفوان، وما ألينَ تربة الرَّبوة! والمُنفِقُ المرائي يُشابه المنفقَ المخلِصَ في الظَّاهر، ويختلفُ عنه في الجوهر، وناسَبَ الإتيان بذكر إصابةِ الوابلِ؛ لِيعلَمَ المخاطَبُ الفرقَ بين الأمرين، وأنَّ نزولَ الشَّدائد يكشف عن جواهر الأرض، وانصبابَ المدلهمَّات يُجلِّي معادِنَ الأشياء، فالأمثالُ تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبًا وضمِّنت الهيئة المشبهة بها أحوالًا حسنة، تكسِبُها حُسْنًا ليسري ذلك التحسين إلى المشبَّه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: الثَّبَات[2]: دَوَامُ الشَّيْءِ على حالٍ لتحقيقِ غايةٍ مرجوَّة؛ ماديًّا ومعنويًّا، وهو ضدّ الزوال، يقال: ثَبَتَ يَثْبُتُ ثَبَاتًا، وأصلُ الكلمة الحِسّيُّ مأخوذٌ من قولهم للجراد إذا رَزّ أَذْنَابَه لِيبيضَ: ثَبَتَ وأَثْبَتَ وتَثَبَّتَ، وهذا المعنى ملحوظٌ في جميع استعمالات هذه الكلمة في القرآن الكريم؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، أي: داوموا على حالكم حتَّى تنتصروا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، في مَعْنَاه أقوال: فَقالَ الحَسَنُ ومُجاهِدٌ: مَعْنَاهُ أنَّهم يَتَثَبَّتُونَ أنْ يَضَعُوا صَدَقاتِهِمْ، وقِيلَ: مَعْنَاهُ تَصْدِيقًا ويَقِينًا، ورُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبّاس، وقِيلَ: مَعْنَاهُ احْتِسابًا مِن أَنْفُسِهِمْ، قالَهُ قَتادَةُ، وقِيلَ: مَعْنَاهُ أنَّ أَنْفُسَهم لَها بَصائِرُ فَهي تُثَبِّتُهم عَلى الإنْفاقِ في طاعَةِ اللَّهِ تَثْبِيتًا، قالَهُ الشَّعْبِيُّ والسُّدِّيُّ وابْنُ زَيْدٍ وأَبُو صالِحٍ،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ثبت).

وهَذا أرْجَحُ مِمّا قَبْلَهُ[1]، أي: ليكتسبوا التَّثبيت من أنفسهم المؤمنة، فيُداوِموا على الإنفاق، حتَّى يحصلَ القَبول.

2) ﴿بِرَبۡوَةٍ﴾، الرَّبْوُ[2]: نموُّ الشَّيء تدريجيًّا حتّى يعلو ويُشرف، وسُمِّيت الرَّبْوَة رَابيَةً كأنّها رَبَتْ بنفسها في مكان، ومنه: رَبَا: إذا زاد وعلا، وأربى عليه: أشرف عليه، والرَّابية: مَا ارْتفع من الأَرْض، والرَّبو: البُهْرُ، وهو عُلُوُّ النَّفَسِ، والأُرْبِيَّتَان: لحمتان ناتئتان في أصول الفخذين من باطن، سُمِّيَتَا بذلك لِعُلُوِّهِمَا على ما دُونَهُمَا، فدلَّت هذه المادّة على الارتفاع التّدريجيّ في ذات الشَّيْء، وهو معنًى ملحوظ في جميع استعمالات القرآن الكريم لها.

فالرِّبَا: زيادةٌ على رأس المال، لكن خُصّ في الشَّرع بالزِّيادة على وجهٍ دون وجه، وباعتبار الزِّيادة قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم: 39]، ونبّه بقوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]، أنّ الزيادة المعقولة المعبّر عنها بالبركة مرتفعة عن الرّبا، ولذلك قال في مقابلته: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾، وقوله: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ [الرعد: 17]، جميع هذه الألفاظ استُعملت في معنى العلو والارتفاع التَّدريجي في ذات الشَّيْء.

3) ﴿فَطَلّٞۗ﴾[3]: الطَّلُّ: أضعَفُ المطَرِ، إنَّما سُمِّيَ به لأَنَّهُ يُحَسِّنُ الأرضَ، وهو يُطِلُّ على الأرض ويُشرف عليها، مأخوذٌ من الطَّلَل، وهو مَا شَخَصَ مِنْ آثَارِ الدِّيَارِ، وهي التي تُشرف فيراها البعيد، فيتأمَّل بها خيرًا مظنونًا، وكذلك الطَّلُّ فإنَّ من يراه يتأمَّل به خيرًا؛ لشدَّة احتياجه للماء، ولوحِظَ فيه معنى القلَّة، فنُقل عنِ العربِ قولُهم: ما بالنَّاقة طَلٌّ، أَيْ: ما بها لبَنٌ، ولا قليلٌ منه، فقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يُراد به المطر القليل، الذي يُشرف على الزَّرع فيُعطيه حياة ونموًّا، وهي من أفراد ألفاظ القرآن.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/328.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ربو).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طلل).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ضرَب اللّه سبحانه مثلًا لمَن يَبذُلون أموالَهم في وجوه البرِّ والخير ابتغاءَ مرضاتِ اللّه تعالى، وقد بذَلوا أموالَهم مِن تلقاء أنفسهم، ولم يَحمِلهم على ذلك أحدٌ، أو أنفقوا وهم مُوقِنون بوعد اللّه تعالى على إثابته للمُنفِقين، بحديقة كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، تستر أشجارُها ما فيها، وهي في أرض عالية طيبة المَنبَتِ، فنفعتْ غيرَها، باختلاف أنواع المياه النَّازِلة عليها؛ فإن أصابَها مطرٌ كثيفٌ عظيمٌ زاد خيرُها، وتباركتْ ثمارُها، وكثُر أُكلُها، فتضاعَفَ بكثرة المياه، ونقاءِ المكان، وارتفاعِها عن السّيول، وإنْ أصابَها ماءٌ قليلٌ رقيقٌ، أعطت ثمارَها مضاعفةً، وكذلك نفقات المخلصين تُقبَل عند اللّه وتُضاعفُ، قَلَّتْ أم كثُرت.

وهو تمثيلٌ لحال المؤمن المنفق، فبقَدَر ما يؤتيه ربُّه من المال الوفير أو النَّزْر اليسير يكون إنفاقه، وبقدر عطائه يكون أجره وثوابُه، وكلٌّ ينمِّي اللّه له ما أنفق أتمَّ تنمية وأكملها، واللّه بصيرٌ بعبادِه، مُطَّلِعٌ على قلوبهم وسرائِرهم، فليَحذرِ المنفقون مشابهةَ المنافقين، فإنَّ مَنْ أفسَدَ نيَّته في الصَّدقات، أفسَدَ ذهنيَّته في تصوُّر الجنَّات.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة عطف المثَل على المثَل:

مقصودُ العَطْفِ كامنٌ في المقابلَة بين الفريقَيْن حالًا ومآلًا

عُطِف مَثَلُ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ على المَثَل المُتقدِّم ذكرُه وهو قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، العائد على مجموع التَّشبيه التَّمثيلي في قوله: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، ومقتضى العطفِ المقابلةُ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لبيانِ الفارقِ بين الفريقَيْن في الحال والمآل، و"لِزيَادةِ بيانِ ما بين المرتبتَيْن من البَوْنِ، وتأكيدًا للثَّناءِ على المُنْفِقينَ بإِخْلَاص"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.

علّة تنوّع التَّمثيل في حقِّ المنفقين:

التَّـدرُّج في التَّمثيل، لإكساب المُشبَّه مزيدًا من الحُسن، بما يُبهِج السَّامع

لمَّا مثَّل فيما سلفَ بِحَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سبعَ سنابلَ، تَمثيلًا غيرَ كثيرِ التَّرْكِيبِ لِتَحْصُلَ السُّرْعَةُ بِتَخَيُّلِ مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ، ولمَّا مَثَّلَ حَالَ الْمُنْفِقِ رِئَاءً بِالتَّمْثِيلِ الَّذِي مَضَى- أُعِيدَ تَمْثِيلُ حَالِ الْمُنْفِقِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ بِمَا هُوَ أَعْجَبُ فِي حُسْنِ التَّخَيُّلِ؛ فَإِنَّ الْأَمْثَالَ تُبْهِجُ السَّامِعَ كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ تركيبًا، وضُمِّنت الهيئةُ المشبَّهُ بِهَا أَحْوَالًا حَسَنَةً تُكْسِبُهَا حُسْنًا؛ لِيَسْرِيَ ذَلِكَ التَّحْسِينُ إِلَى الْمُشَبَّهِ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَقَاصِدِ التَّشْبِيهِ[1].

سِرُّ إعادةِ التِّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الحثُّ والحضُّ على تَكرار الإنفاقِ، حتَّى يرتاضَ المنفِقون على قبولِه

سَبَق فيما سَلَف ذكرُ المنفقين بالاسم الموصول ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، وأُعيدَ هنا ذكرُهم بالتَّعبير نفسِه، فلم يقُل: (ومثلُ المنفقين)؛ لبيان أنَّ المذكورين هنا هم المذكورون هنالك، مع مزيد إيضاحٍ وإفصاح، في التَّمثيل والتَّلوين، إشعارًا بعُلوِّ مقامِهم، وبيانًا لحُسنِ حالهم، ولتضمين الإعادة الحثَّ على تكرار فعل الإنفاق، فإنَّ تكرار الألفاظ يدلُّ على طلب تثبيتها، بالحضِّ على إتيان معانيها، فالآيةُ حثٌّ وحضٌّ على إعادة الإنفاق المرَّة تلو الأخرى؛ ليثبت سلوكًا قويمًا في النَّفس؛ فإنَّ ما اعتيد سلوكُه، ارتيض قبولُه.

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

خُصَّ الابتغاءُ بالاجتهاد في طلب الرِّضوان[2]، فإنَّ المنفقينَ أموالَهم استحقُّوا المدحَ بسبب مزيد اجتهاد، والمرضاتُ رضاه تعالى، مَصْدَرُ رَضِيَ، عَلَى وَزْنِ الْمَفْعَلِ، زِيدَتْ فِيهِ التَّاءُ سَمَاعًا كالمَدْعَاة والمَسْعَاة[3]، وإضافتها إلى لفظ الجلالة فيها مزيدُ تعظيمٍ وإجلال،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.
(2) الراغب، المفردات: (بغي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/273.

الابتغاءُ اجتهادٌ لتحصيل الكمالاتِ المُرضِيات، قبالة النَّاقصات المُسخِطات، وهو مقدِّمةُ القبول، ومُنتهى الوصول

وقد ورد هذا التَّركيب في القرآن الكريم ثلاث مرَّاتٍ، الأولى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 207]، والثَّانية: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء: 114]، والثَّالثة في هذا الموضع، وأفاد في المواضع الثَّلاثة الثَّناءَ الواسع، والحمد البالغ، وجميعُها ورد في مقابلة نقيضٍ لها؛ فالأولى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 204]، والثَّانية: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النساء: 112]، والثَّالثة في مقابلة الذين ينفقون أموالَهم رِئاءَ النَّاس، وهذا الأسلوبُ البيانيّ يدلّ على أنَّ الابتغاءَ اجتهادٌ لتحصيل الكمالاتِ المُرضِيات، في مقابلة النَّاقصات المُسخِطات، وهو مقدِّمةُ القبول، ومُنتهى الوصول.

بلاغةُ التَّعبير بلفظ التثبيت:

في لفظ التثبيت تمثيلٌ لمنع النَّفس عن التَّردُّد في الإقدام على الخَيْر

عبَّرتِ الآية ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ بلفظ التَّثبيت، وهو دوامُ الشَّيْء وترسيخه لتحقيق غايةٍ مقصودة؛ تمثيلًا لكبْح النَّفس عنِ التَّردُّد، أيْ: أنَّهم يَمْنعون أنفسّهم من التَّردُّد في الإنفاق في وجوه البِرِّ، ولا يتركون مجالًا لخواطر الشُّحِّ، وهذا من قولهم: ثبَّت قدَمَه، أيْ: لم يتردَّد، ولم ينْكُص، فإنَّ إراضَةَ النَّفس على فعلِ ما يَشقُّ عليها، لها أثَرٌ في رسوخ الأعمال حتّى تعتاد الفضائل، وتصير لها دَيْدَنًا(1).

تردُّدُ حرف ﴿مِّنۡ﴾ بين التَّبعيض والابتداء، ومعنى اللام:

التَّبعيضُ مقوٍّ لجانب التَّمثيل

معنى التَّبعيض في قوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: إمَّا يُحمل على التَّبعيض الحقيقيّ، ومعنى التَّبعيض "أنَّ مَنْ بذل مالَه لوجه اللَّه فقد ثبَّتَ بعضُ نفسِه، ومَن بذلَ مالَه وروحَه معًا فهو الذي ثبَّتها كلَّها

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/51.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصّف: 11] "[1]، وإمَّا أن يُحمَل حَرفُ ﴿مِّنۡ﴾ على التَّبعيض المجازيِّ، باعتبار الأحوال، على معنى: تثبيتًا لبعض أحوال النَّفس، وهي حالة الإنفاق[2]، وهذا المعنى أوضحُ في التَّمثيل.

الابتداءُ يدلُّ على صلاحِ النَّفس وطُهرِها

معنى الابتداء: أيْ: تثبيتًا بَدَأً من النَّفس، باعتبارها العائق الحقيقيّ للإنفاقِ في غالبِ الأحوال، فإذا كان بدْءُ التَّثبيت منها؛ فإنَّها لَنَفْسٌ عزيزة، ودَيْمومَة الإنفاق أرسخُ وألصقُ بصاحبِها، وفيه مدْحٌ لها؛ فإنَّ الثَّبات على الخيرات إنْ كان ناشئًا عنها فهو يدلُّ على تُرْبتها الصَّالحة، ومَعْدنِها النَّفيس، "فإذا أنفقَ المسلمُ مالَه في سبيل اللَّه، عَلِم أنَّ تصديقَه وإيمانَه بالثَّواب من أصل نفسه، ومن إخلاص قلبه"[3]، "وفيه تنبيهٌ على أن حكمةَ الإنفاق للمنفق تزكيةُ النفس عن البخلِ وحبِّ المال الذي هو رأس كل خطيئة"[4]، وهذا المعنى أفخمُ في جانب التَّبجيل.

ومعنى الابتداء أقوى وأمتنُ؛ لاتِّساقه مع أصل الكلام في الحفاظ على الصَّدقات من مفترِسات المنِّ والأذى، ومعنى التَّبعيض تابعٌ في حقيقة أمرِه، ومُنتهى حالِه إلى معنى الابتداء، فالقولُ ابتداءً للابتداء، والتَّبعيض بعضُ القول.

دلالةُ تركيبِ: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يؤول إلى معنى اللام:

أشار بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿مِّنۡ﴾ تنوب عنِ اللّام[5]، أي: تثبيتًا لأنفسهم[6]. والقول بالتَّناوب ينوبُ عنه معنى التَّركيب، فإنَّه يُفيدُ معنى اللّام ضمنيًّا، فإنَّ التَّثبيت المنبعثَ من النَّفس يرجع في الحقيقة إليها؛ فكأنَّه قال: تثبيتًا من أنفسِهم لأنفسِهم، والعكسُ لا يصِحُّ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/51.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 2/35.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 2/205.

بيانُ التَّشبيه وأنواعه في الآية:

تـمـثـيـليّ لِتَشْبيهِ هيئةٍ معقولةٍ بهيئةٍ محسوسة؛ ليتحققَ الحضُّ ويكتملَ المشهَد

ذُكِر في هذا التَّشبيه الهيئةُ المشبَّهة وهي النَّفقة التي قامت على طلب ابتغاء رضوان الله، والتَّصديق بوعده؛ فضُوعِفَت أضعافًا كثيرة، والهيئةُ المشبَّهة بها هي هيئةُ الجنَّة الطيِّبة المكان التي جاءها الوابل فزكا ثمرُها، وتزايَدَ فأكملت الثَّمرة، أو أصابَها طلٌّ فكانت دون ذلك، ووجهُ الشَّبَه هو الهيئةُ الحاصِلَةُ من مجموعِ أشياء تكامل بها تضعيفُ المَنْفَعَة[1].

مركّب حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر، كحال الجنة في إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها

والتشبيه لحال النفقة بحال الجنة بالربوة في كونها زاكية متكثّرة المنافع عند الله كيفما كانت الحال، أو تشبيه حالهم بحال الجنة على الربوة في أن نفقتهم، كثرت أو قلت، زاكية زائدة في حسن حالهم. كما أن الجنة يضعّف أكلها قويّ المطر وضعيفه. وهذا تشبيه مركّب لوحظ الشبه فيما بين المفردات؛ وحاصله أنّ حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر كحال الجنة في إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها[2].

أنّه من تشبيه المفرد بالمفرد

ويَحتمل وجهًا ثالثًا وهو أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد: بأن تُشَبَّهَ حالهم بجنة مرتفعة في الحُسن والبهجة، والنفقة الكثيرة والقليلة بالطَّلِّ والوابل، والأجر والثواب بالثمرات[3].

سِرُّ التَّعبير بالجنَّة:

الجنَّةُ تُجلِّي النِّعمة، وتستجلبُ المسرَّة؛ ممَّا يستدعي أريحيَّة النَّفس، وراحة البال

الجنَّة مكانٌ ذو شجر كثير كثيف، يُستَر الكائنُ فيه؛ فاسمُها مُشتّقٌّ من جَنَّ إذا سَتَر، وتُطلَق على ذات الشَّجر المُثمِر المُختَلِف الأصْناف، فأمَّا ما كان نخلًا بحتًا فيُسمَّى حائطًا[4]، فالجنَّةُ أوضحُ أنواعِ الأماكن المُثمرة في ظهور النِّعمة، واستجلاب المسرَّة؛ لذلك

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/52.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/342، وينظر: القاسمي، محاسن التأويل: 2/206.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/342، وينظر: القاسمي، محاسن التأويل: 2/206.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/52.

كان التَّعبير بها ممَّا يستدعي أريحيَّة النَّفس، وراحةَ البال؛ فتُتلقَّى المعاني كتلقِّي الأشجار العَطْشى لوابلِ السماء.

فنُّ الجِناسِ المصحَّف:

الجمْعُ بينَ أصْلِ الشَّيْءِ وغايتِه براعةٌ لفظيَّة، ودلالةٌ إشاريَّة

بين قوله تعالى: ﴿حَبَّةٍ﴾ في المَثَل السَّابق، وبين ﴿جَنَّةٍ﴾ في المَثَل اللّاحق جِناسٌ مُصحَّف[1]، فقد أُهمِل نقطُ حرفِ الحاء، وأُعجِم حرفُ الجيم، كذلك اختلف حرف الباء والنون من حيث النَّقط، وهذا الفنُّ البديعيُّ فيه جمالٌ لفظيٌّ يورِّث الإعجابَ، فإنَّ الحبَّة هي أصلُ الجنَّة، فبدأ بذكر الأصل في المَثَل السَّابق وهو الحبَّة، وانتهى بذكر الغاية في المَثَل اللاحق وهي الجنَّة، فجَمَع بين أصل الشَّيْء وغايتِه على غاية ما يكون عليه الانتقاء من الألفاظ، ومثلُه لا تجدُه إلّا في مثلِه.

توجيهُ تخصيصِ الرَّبوَة بالذِّكر:

ارتفاعُ الرَّبوَة يُعطيها الحمايةَ الذّاتيّة، ويزيدُ عطاءَها

الرَّبوة مكانٌ مرتفعٌ من الأرض، مُشرِفٌ على غيره، قريبة من معنى التَّلَّة، إلّا أنَّه يُلاحَظُ فيها معنى النُّموّ؛ لما يربو فيها وينمو من الأشجار والزُّروع، وارتفاعُ الرَّبوَة يحميها من السُّيول الجارِفة، وتدفُّقِ الأحجار العاتية، ويُقلِّل من سوم الحيوانات الآكلة، وهذه فوائد جمَّة، يصعب اجتماعها في كل جنَّة، فالرَّبوة "مكانٌ مرتفعٌ، مأمونٌ من أن يصطلِمَه البردُ لِلطافة هوائِه بهبوب الرياحِ المُلطِّفة له؛ فإنَّ أشجارَ الرُّبى تكون أحسنَ منظرًا وأزكى ثمرًا، وأمَّا الأراضي المنخفضةُ فقلَّما تسلم ثمارُها من البرد؛ لكثافة هوائِها بركود الرياحِ"[2].

فائدةُ تكرارِ قوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ في المَثَلين المتقابِلَيْن:

ذُكر قولُه تعالى: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ في ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ

(1) الجناس المصحف: ما تماثل ركناه في الحروف، وتخالفا في النقط. يُنظر: الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 328، والأولى استبدال هذا المصطلح بمصطلح الجناس المُنقّط، لتحاشي لفظ التصحيف.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259.

تأمُّلُ الاختلافِ بين إصابةِ الوابلِ للصَّفوانِ مَحْقًا، وإصابتُه للجنَّة بركةً

﴿ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264]، وفي هذا المَثَل، جاء: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾، وهو من قبيل تكرار اللفظ الواحد، والمعنى مختلف في سياقٍ واحد، وسمَّاه أبو هلال بالتَّعطُّف[1]، وزَعَم أنْ لا وجودَ له في القرآن إلّا في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الروم: 55]، وفائدةُ هذا النَّوع تعيينُ المقابلةِ إيماءً، فإنَّ ذكر قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ و﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ في مَثَلَيْن متقابلَيْن مختلِفَين، يدعو المتأمِّل لفهم الاختلاف بين إصابة الوابل للصَّفوان، وإصابته للرَّبوة؛ فإنَّ إصابةَ الأوَّل مَحْقٌ، والثَّاني بَرَكةٌ، لإدراك أنَّ العبرةَ فيما يُصيبُه الوابلُ لا فيه، كما أنَّ العبرةَ في حالِ مَنْ يُنفقُ، لا في النَّفقةِ نفسِها!

حقيقة إسناد الإيتاء إلى الجنّة:

أسند العطاء إلى الجنّة لتوافر الأسباب التي خلقها المولى القدير فيها

الفاء في: ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾؛ "للسببية، أي: أنّ ما قبلها سببٌ لما بعدها، وآتت بمعنى أعطت، والمعطي في الحقيقة هو الله تعالى، ولكن أسند إليها العطاء لتوافر الأسباب التي خلقها المولى القدير فيها، وتضافر كل المهيئات التي هيأها المولى العلي القدير لإنتاجها"[2].

سرّ التّعبير عن الثّمر بـ (الأُكل):

سرُّ التعبير بالأُكل القطْعُ بالاستفادةِ من نِتاج الجنَّة، والنَّصُّ على البرَكة

إسنادُ الإيتاءِ إلى الجنَّة في قولِه: ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ مجازيٌّ، وهو يُصوِّر حالةَ العطاء والبركة، واختيار الأُكل دون الثِّمار أو الحبّ، أو الزَّرع، أو الخير؛ لزيادة الطّمأنينة في القَبول؛ فإنَّ التَّعبير بالأُكل عن نتاج الجنَّة يؤكِّد الاستفادةَ منها، فليس كلُّ ما تُنتجُه الجنَّات يُستفاد منه عادةً؛ فقد يُحرَق، أو يُتلف، أو يُسرق، أو تُصيبُه جائحةٌ، وهذا معروف معهود، فالتَّعبيرُ بالأُكل يقطعُ بأنَّ نتاج الجنَّة قد استُفيد منه، وذكرُ قَيْد ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾، أكَّد بركةَ الجنَّة

(1) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 420.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/986.

في الدّنيا، فإنَّ اجتماع الطَّلِّ، مع كون الجنَّة بربوة، ممَّا يزيدُ من العَطاءِ والبَرَكة.

في التعبير بالأُكل إشارةٌ إلى طِيبِ ثَمَرِ الجنّة وحُسْنِهِ

"الأُكل: الثمر الذي يؤكل، وفي التعبير عن الثمر بالأكل من غير وصف سواه إشارة إلى طيب ثمرها وحسنه، واستساغة النفس له، وجودة الغذاء منه؛ لأنه وصف بأخص ما يطلب له الثمر الجيد الطيب المستساغ وهو أن يؤكل"[1].

وجه تحديد المقدار بضعفين:

تأويل الضعفين بالكثرة أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة

ذهب أبو حيان إلى أنّ " قوله: ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾، مما لا يزاد به شفع الواحد، بل يكون من التشبيه الذي يقصد به التكثير. وكأنه قيل: فآتت أكلها ضعفين، ضعفاً بعد ضعف أي: أضعافاً كثيرة، وهذا أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة؛ لأن الحسنة لا يكون لها ثواب حسنتين، بل جاء: تضاعف أضعافاً كثيرة، وعشر أمثالها، وسبع مئة وأزيد"[2].

الضعف المثل أو المثلين، أو الإتيان مرتين مدحًا فيها وتأكيدًا في أوصاف حسنها

ونقل ابن عرفة عن مُفَسِّرين أنّ (الضِّعف) هو المِثْل، أي آتت أُكلها المعهود على مرتين أعني: آتته وآتت مثله معه، أو مثليه، وعلى هذا يكون المعنى: فأتت أكلها أربع مرات، وعلى القول الآخر يكون المعنى: فإن أصابها الوابل تؤتي أكلها مرتين، وإن أصابها الطلّ فقط تؤتي أكلها مرة واحدة. وزاد ابن عرفة: ولا يمتنع أن يراد أنها تؤتي أكلها مرتين سواء أصابها وابل أو طلّ ويكون ذلك مدحًا فيها وتأكيدًا في أوصاف حسنها[3].

فائدةُ مجيءِ "إنْ" دون "إذا" في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۚ﴾:

تُفيد (إنْ) مَظِنَّةَ وقوعِ الأمرِ مع قلّته، بخلاف (إذا) فإنَّها تُفيد تحقُّقَه، وأفاد مجيؤها هنا تقليلَ توقُّعِ عدمِ إصابةِ الطَّلِّ للجنَّة لدى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 987-2/986.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/325.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/321.

السَّامع، إشعارًا بأنَّ الخيرَ العميمَ هو الأصلُ، والخير الأقلّ هو الطَّارئ، والخير المعدوم لا وجود له، "والمعنى أنَّ نفقاتِ هؤلاءِ زاكيةٌ عندَ اللّه تعالَى، لاَ تَضيعُ بحالٍ، وإن كانت تتفاوتُ باعتبار ما يقارنها من الأحوال"[1].

أَثَرُ الفاصِلةِ في المَثل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

تضمَّنتِ الفاصِلَة براعةً في البيان لمضمون المَثَل، فجاءتْ بلفظِ الجلالة للتَّنبيه على عظيم العمل، وذُكِر لفظُ العملِ للتَّذكير بأنَّ هذا المَثَل هو مَثَلٌ لأعمال النَّاس، واختِير اسمُ ﴿بَصِيرٌ﴾، لإعلام المخاطبين بأنَّ أعمالهم معلومةٌ للّه تعالى؛ لاطِّلاعه عليها، ومراقبتِه لها، فهو "ترغيبٌ في الإخلاص، مع تحذيرٍ من الرِّياء"[2].

جمالُ التَّقابلِ بين المَثَلَيْن:

التَّقابُلُ بين الصَّفوان والجنَّة

يمثِّل الصَّفوان نفقة المانِّ والمؤذي بنفقته الآخرين، كما أنَّ الجنَّة تمثِّلُ نفقة المتَّقي بلسانه فُحشَ القَوْل وأذى الجوارح، والنَّتيجةُ أنَّ الصَّفوان تُركَ صَلْدًا، تشبيهًا بالميّت الذي لا يُرجى منه خير، وأمَّا الجنَّة فقد أثمرَتْ وأنبَتَتْ، تشْبيهًا بامرأةٍ مِعطاءَة تُؤْتي أُكلَها عن حبٍّ للآخرين.

التَّقابُلُ بين إبطالِ النَّفقات وقبولِها

في المَثَل إشارة عجيبة لقبول النَّفقات، فإنَّ الوابل النّازل من السَّماء يمثِّل الإرشاد الإلهي، والصَّفوان والجنّة يمثِّلان النَّفقات التي يُقدِّمها أصحاب الأموال، فالصَّفوان يمثِّل إبطالَها، والجنَّة تمثِّل قبولَها، فعبِّر عن الإبطال بالصَّلْد، وعن القبول بإيتاءِ الأُكلِ، وهو ما يُمثِّل الأجرَ العظيم عند اللّه تعالى، وبقدر الماء النَّازل من السَّماء يزداد الخير، كما أنه بقدر العمل بتشريعات القرآن، يزداد القبول والأجر.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.

التَّقابلُ بين الفاصلَتين:

خُتِم كلُّ مَثَلٍ بفاصلةٍ تُناسِبُه، فجاءَتْ فاصلةُ المَثَل الأوَّل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 264]؛ لبيان أنَّ المنَّ والأذى بعد الإنفاق من أحوال الكافرين، واللّٰه لا يهدي الكافرين ليتَّصفوا - على كفرهم - بصفات المؤمنين؛ فهي تحذيرٌ للمؤمنين.

بينما في فاصِلة المَثَل الثَّاني: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فذُكر ما يُشيرُ إلى القَبول مع التَّحذير من مزالق الشيطان، فإنَّ اسم اللّٰه البصير يتضمَّنُ مراقبة الأحوال والاطّلاع عليها، فجاءَتْ كلُّ فاصلةٍ بما يناسِب المَثَل الذي سيقت فيه، فالفاصلتان اتَّحدتا في تحذير المؤمنين، مع تباين موضوعهما.

بلاغة الالتفات في الفاصلة:

تغيير جهة الكلام من الغائب إلى المخاطب فيه مزيد تنبيه وحثٍّ على التزامه، وقصد عمومه

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إلتفات في لفظ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على الخطاب، والمعنى: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من الأعمال والمقاصد من رياء وإخلاص، وفيه وعد ووعيد(1). وتغيير جهة الكلام من الغائب إلى المخاطب فيه مزيد تنبيه وحثٍّ على التزامه، وعموم في شموله وذلكم أبلغ من التخصيص المحتمل لعودة الكلام في الفعل (يعملون)(2) على المنفقين المخلصين، أو المنافقين.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/326.

(2) وهي قراءة للزُّهري بحسب ما ذكر أبو حيان في البحر المحيط: 2/326.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: 266]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ناسبَ المَثَلُ المذكورُ في هذه الآيةِ السَّابقَ من الأمثال؛ فمَثَل الصَّفوان هو مَثَلٌ حجريّ، فيه إشارةٌ إلى قسْوة القلوب، والتُّراب الذي عليه إشارةٌ إلى قابلية اللّين وإنباتِ الخَيْر، والمَثَل المقابل هو مَثَلُ الجنَّة التي بربوة، وهو مَثَلٌ تُرابيّ، إشارةً إلى الخَيْر الكامِن في النَّفس المؤمنة، ثم جاءَ هذا المَثَل تنبيهًا وتحذيرًا لعدم الاغترار بكثرة النَّبات، وعظيم الفِعال؛ فإنَّ العبرة كامنةٌ في الاستمرار والبقاء، لا بمجرَّد الرفع والبناء.

فوقع هذا المَثَلُ بعد المَثَلين لبيان أنَّ اختيار طريق الجنَّة التي هي بربوة، يحتاج إلى إنضاج نِيَّة، لا أعمالِ نيّة، وقد ذكرتْ فاصلةُ الآيةِ السَّابقة بأنَّ الله بصيرٌ بأعمالنا، فكان مَثَلُ هذه الجنَّة التي آلتْ إلى الاحتراق مثالًا واضحًا على التَّنبيه الوارد في فاصلة السَّابقة؛ ليقوى العمل، ويتيقَّظ الفكر؛ ولذلك خُتِمت هذه الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فناسَبَ المَثَلُ المَثَلَ، والفاصِلةُ الفاصلةَ، على أبدع ما يكون عليه النّظم، وأغزر ما تأتلف عليه معاني الفَهْم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾[1]: تُطلق في الأصل على الصِّغار من الأولاد، وتقعُ - في العُرْفِ - على الصّغار والكبارِ معًا، وتُستعملُ في الأصل للجمعِ، وللواحدِ كذلك، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ﴾ [آل عمران: 34]، وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ﴾ [الإسراء: 3]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ [البقرة: 124].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ذرأ)، (ذرو)، (ذرر)، والسمين، الدر المصون: 2/102.

وفي أصل الذُّرِّيَّة أربعةُ مذاهبَ، أحدُها: أنها مشتقةٌ من ذَرَوْتُ، فيجوز – على هذا المذهب – أَنْ يكونَ وزنها فُعُّولَة، ويجوزُ أَنْ يكونَ وزنُها فُعِّيْلَة. الثاني: مِنْ ذَرَيْتُ، لغةً في ذَرَوْتُ، فيجوز فيها أيضاً الوجهان السابقان. الثالث: من ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، مهموزاً، فوزنُها فُعِّيْلَة. الرابع: من الذَّرّ، فيجوزُ في وزنها أربعةُ أوجه، أحدُها: فُعْلِيَّة، وتَحْتمل هذه الياءُ أَنْ تكونَ للنسَبِ وغَيَّروا الذالَ من الفتحِ إلى الضمِّ، كما قالوا في النَّسَبِ إلى الدَّهْر: دُهْري وإلى السَّهْل: سُهْلي بضمِّ الدال والسين فيهما، وأَنْ تكونَ لغيرِ النسَبِ فتكونُ كقُمْرِيَّة، والثاني: أن تكونَ: فُعِّيْلَة كمُرِّيقَة، والثالث: أن تكونَ فُعُّولة كَقُدُّوس وسُبُّوح، والرابع: أن تكونَ فُعْلُولَة.

والأصولُ الأربعةُ المختلَفُ في أصْلِها تعودُ إلى معنًى واحدٍ متقارب، وهو البَذْرة الصَّغيرة، فالخلقُ يَبْدأُ من البَذْرةِ الصَّغيرة، والذَّرا ما تذروه الرِّياح، وهو الشَّيءُ الصَّغير الذي تتناقلُه الرِّيح، والذَّرُّ الشَّيءُ الصَّغيرُ اللطيف، ويُقال: ذرّ البقلُ: أول خروجِه.

فبقطع النَّظر عن الأصلِ الذي تنتمي له كلمة الذُّرية، فهي ترجع إلى معنىً كليٍّ واضح، وهو: صِغارُ الأشياء أوَّل ما تظهر ويخرجُ منها نِتاجٌ آخر؛ لذلك فلفظ الذُّريّة من الألفاظ التي فيها أملُ الحاضر والمستقبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: 15]، أي: أصلح لي إصلاحًا مستمرًّا في ذريَّتي، ولذلك عدَّاه بحرف (في) لا بنفسه.

2) ﴿إِعْصَارٌ﴾[1]: تدور مادَّة العصر على استخلاص لُبِّ المعصور، وهذا المعنى شِبْه مُطَّرِد في القرآن الكريم، وهو ملحوظٌ في غالب الاستعمالات اللغوية صراحةً أو بنوع تأويل، فالعصر المُقْسَمُ به في القرآن هو آخر اليوم، الذي يُستخلَصُ فيه عملُ اليوم كلِّه، والمُعْصِرات هي التي تعصِرُ الماءَ المجموعَ في الهواء، ويعصرون عصر البُذور، والزيتون، والفاكهة. وأمَّا الإعصار فهو الهواء المُلتفّ عموديًا، "وإنَّما سُمِّي ذلك الهواءُ إعصارًا لأنَّه يلتفُّ كما يلتفُّ الثَّوبُ المعصورُ، وقيل: لأنَّه يعصِرُ السَّحابَ، أو يعصِر الأجسامَ المارَّ بها"[2].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصر).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/37.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ضربَ اللّه مثلًا متكاملًا في مضامينه، متتامًّا في معانيه، يصوِّر به حالَ المُنْفق مالَه رياءً، وهو خطابٌ لكل عاقلٍ بانفرادِه، وقد تضمَّن المَثَلُ أوصافًا لحديقةٍ دنيويَّةٍ لمْ ترَ العَيْنُ مثلَها، فهي أوصافٌ من الصّعْبِ وجودُها، وإن وُجدَت فلا تكون إلّا لمن جُمِع له خيرُ الدُّنيا بتمامه؛ ففيها النَّخيلُ والأعناب، وتجري من تحت أشجارها المياهُ العَذْبة، وله فيها من كلِّ ألوان الثمرات وأنواعها، ثمَّ بعد ذلك تجتمعُ - على صاحب هذه الحديقةِ الغَنَّاء - مصائبُ الزّمان السُّنَنيَّة، مع مصائب الدَّهر القَدَريَّة، فيَشتَعلُ رأسُه شَيْبًا، فأصبح شيخًا لا يقدر على الكسب، ولا يستطيع أن يغرس مثل هذا الغرس، وله أبناء صغار ضعفاء لا يستطيعون العمل، وفي هذه الحالة هبَّت على حديقته الأثيرةِ ريح شديدة، فيها نار محرقة فأحرقتها، فلم يبقَ من عمل الأبدَان إلّا ما احتفَظَ به الوِجْدان، وهكذا حال غير المخلصين في نفقاتهم، يأتون يوم القيامة ولا حسنة لهم! بمثل هذا البيان يبيِّن اللّه لكم ما ينفعكم؛ كي تتأملوا، فتخلصوا نفقاتكم للّه؛ وليقوى النَّاظر في هذا المَثلِ على التَّفكُّر بمفردِه؛ فإنَّ المقصود بناءُ الإيمان الغيبيِّ، بما يراه الإنسانُ من الواقع الحسيِّ، فهذا أدعى للتَّفكُّر والعمل، من الانكفاءِ خَلْفَ الأماني والكَسَل، وليَعلَم كلُّ عاقلٍ أنَّ العبرَة بالصّبر على الإيمان، والتَّحلّي بكتم اللسان، وهذا من أعظم ما اشتملَ عليه بيان القرآن، وذاقه فكرُ الإنسان.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

هذه الآيةُ أصلٌ في التَّفكُّر البلاغيّ عنْد الصَّحابةِ والسَّلَف:

المَثَلُ القرآنيُّ وأثرُه في فَهْم مقصودِ الخطابِ القرآنيِّ

للحوارِ اللغويّ والبلاغيِّ بين الصَّحابة في القرآنِ الكريم إشاراتٌ في الموروثِ الصَّحيح بالغةُ الأهميَّة، ومنْها هذه الآيةِ، وقد ورَدَ عن السَّلفِ طائفةٌ من التَّأويلات لهذا المَثَل، وكلُّها يحومُ حول ركيزةٍ واحدة، وهي بلاغةُ المَثَل القرآنيِّ في بيان مقصودِ الخِطاب.

التَّوجيه الأوَّل

أخرجَ البُخاريُّ عنْ عمرَ بنِ الخطَّاب ﵁ أنَّه قال يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: "فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: "قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا

نَعْلَمُ"، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: "يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ"، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: "أَيُّ عَمَلٍ؟" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: "لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ""[1].

التَّوجيه الثَّاني

قولُ مجاهِد: مَثَلٌ للمفرِّطِ في طاعة اللّه حتّى يموت، أي: أيوَدُّ أحدُكُم أنْ يكونَ له دنيا لا يَعْملُ فيها بطاعةِ اللّه، كمَثَل هذا الذي له جنَّةٌ، وأصابَه الكِبَرُ وله ذريَّة ضُعَفاء، فأصابَ الجنَّةَ إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقتْ، فمثلُه بعد موتِه كمَثَلِ هذا حين أُحرِقَتْ جنَّتُه وهو كبيرٌ، لا يُغني عنها شيئًا، وولَدُه صِغارٌ لا يُغْنون عنْها شيئًا، وكذلك المفرِّطُ بعد الموتِ، كلُّ شيءٍ عليه حَسْرة[2].

التَّوجيه الثَّالث

قولُ الضَّحّاك: "مَثَلٌ ضَرَبَه اللّه للكافِر، يقولُ: يَلْقاني يومَ القِيامَة، وهو أحوجُ ما يكونُ إلى خيرٍ يُصيبُه، فلا يجدُ له عِندي خيرًا، ولا يَستطيعُ أنْ يدفعَ عن نفسِه من عذابِ اللّه شيئًا"[3].

التَّوجيه الرَّابع

قولُ السُّدّيِّ: "هذا مَثَلٌ آخرُ لنفقةِ الرِّياء، إنَّه يُنفِقُ مالَه يُرائي النَّاسَ به، فيذهب مالُه منه وهو يُرائي، فلا يأجُرُه اللّه فيه، فإذا كان يومُ القِيامَة واحتاجَ إلى نفقتِه، وجدها قد أحرَقَها الرِّياءُ، فذهبتْ كما أَنْفقَ هذا الرَّجُلُ على جنَّتِه، حتّى إذا بلَغَتْ وكَثُرَ عيالُه، واحتاجَ إلى جنَّتِه جاءَتْ رِيحٌ فيها سَمومٌ، فأحرقَتْ جنَّتَه، فلم يجدْ منها شيئًا، فكذلك المُنْفِقُ رياءً"[4].

هذه أربعةُ توجيهات ورَدَتْ عنِ السَّلف في تأويل المَثَل، وهي متقارِبةٌ في أثرِها، متدانِيَةٌ في معناها، فإنَّ هذا المَثَل يصلح أن يكون

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (4538).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/554.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/550.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 5/554.

تَداني التَّوجيهاتِ في معانِيها، وتقارُبُها في مقصُودِها يُؤكِّدُ قوَّةَ النَّظم

للمفرِّط في طاعتِه، وللكافِر، وللمُنْفِقِ المرائِي، إلّا أنَّ أكثرَها اتِّساقًا مع الآيات، وأوضحَها في العبارةِ ما ورَدَ عن السُّدِّيّ، فهو مَثَلٌ آخر للمنفقِ المُرائِي، وتوجيهُه مبنيٌّ على تأمُّل السِّياق، وإيضاحِ المعاني المعقولةِ بالمحسوسة.

وما ورد عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه عامٌّ يدخلُ فيه المُنْفِقُ المُرائي، والمفرِّطُ بآخرتِه، وأمَّا قولُ الضَّحاك فيصلح أن يكونَ المَثَل استشهادًا له على حالِ الكافر يومَ القيامة.

بلاغةُ المَثَل في الاتِّساع الدّلاليّ، والمرونة البيانيّة

مَثَّلَ هذا المَثَلُ اكتنازًا بيانيًّا منقطعَ النَّظير، حيث أتى على مجموعَةٍ من المعاني الإرشاديَّة للمسلِم المفرِّط، والدّلالات الهدائيَّة للكافرِ الضَّال، ولو قطعنا المَثَل من سياقِه لصلُحَ أن يكونَ قطعةً بلاغيَّةً، ومثلًا سائرًا، ومعنًى سائدًا، يَظْهرُ فيه أثرُ إرشادِ المفرِّطين، وهداية الضَّالّين، وينطوي تحتَ ألفاظِه من عيون المعاني الجارية، وأنهار الاستنباطات المتدفِّقة، ما لا يخطُر في عقل عربيّ، ولا في خيال بلاغيّ.

براعة الاستعارة التمثيلية في الآية:

وجه الاستعارة تشبيهُ حالٍ بحالٍ لم تُذكر فيه أداة التشبيه ولا المشبّه

التشبيه في الآية من النوع البياني الذي يسميه علماء البلاغة (استعارة تمثيلية) وهي تشبيهُ حالٍ بحالٍ لم تُذكر فيه أداة التشبيه ولا المشبّه، بل ذُكر المشبّه به فقط، وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه، فهو تشبيه من ينقض عمل الخير الذي يعمله برياء يحبطه، أو مَنٍّ وأذى، أو مباهاة ومفاخرة ببرِّه بين الناس، بمن كانت له حديقة غَنَّاء جعلها موضع أمله في حياته فيها نخيل وأعناب، وأنهار تجري فيها مع الثمرات وقد أصابه الكِبَرُ، وله ذرية ضعفاء، وتكون عونًا لهم بعد وفاته؛ فأصابتها رياح شديدة فيها نار فاحترقت. فكذلك يجب أن ينفر فاعل الخير من تلك الموبقات التي هي كالريح العاصف الذي يهلك الزرع[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/989-992.

بلاغة الاستفهام في قولِه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾:

فائدة الاستفهام إنكار أنْ يَقَعَ في خاطِرِ أحَـدٍ من المخاطَبين وُدُّ امتلاكِ جنَّةٍ فيها من كلِّ الخَيْرات

أَلبَسَ السِّياقُ الهمزَةَ في قولِه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ ثوبَ الإنكارِ[1]؛ فهو" استفهام إنكارٍ وتحذير"[2]، ومفادُه: استِنْكارُ أنْ يَقَعَ في خاطرِ أحَدٍ من المخاطَبين وُدُّ امتلاكِ جنَّةٍ فيها من كلِّ الخَيْرات، وأَصَابَه الكِبَرُ وهو ينفقُ منها على ذريَّةٍ ضُعفاء، فيُصيبها إعصارٌ فيه نارٌ فتتلف حرقًا ونثرًا، فإنَّ وقوعَ مثلِ هذا الودّ، ممَّا يُستنكَرُ ويُستهجَن!

بلاغة افتتاح المطلع بالودّ:

ترقيق الخطاب تهيئة للذهن طلبًا في الإقبال عليه

وترقيق الخطاب بـ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ تهيئة للذهن لفهم ما يقال، والإقبال عليه، وتحريك للمشاعر، وبعثٌ للنشاط، وإشراك للعقول في تصوّر الحكم واعتناقه[3].

التَّعبيرُ بالودِّ دون الحبِّ:

اشْتمالُ الودِّ على معنى الحبِّ والتَّمنّي

للتَّعبير بالودِّ في هذا التَّمثيل معنًى مقصود، ذلك أنَّ الودَّ هو محبّة الشَّيء، وتمنّي كونه[4]، فلا يقتصِر اللفظُ على معنى الحُبِّ، بل فيه معنى التَّمنّي، ولأجل ذلك آثر النَّظمُ هذا اللفظ دون سواه، واستنكارُ الودِّ أشدُّ من استنكار الحبِّ؛ لأنَّه ينتقل بصاحبِه من مجرَّد الشُّعور إلى طلب الوقوع، وهذا ما وقع عليه الاستنكار في الآية.

التَّعبيرُ بالودِّ دون الإرادة:

التنبيه على الإنكار التام، والنفرة البالغة إلى الحد الذي لا مرتبة فوقه

وإنما قال: ﴿أَيَوَدُّ﴾ ولم يقل: (أيريد)؛ لأنّ "المودّة هي المحبة التّامة ومعلوم أنّ محبة كل أحدٍ لعدم هذه الحالة محبة كاملة تامة، فلما كان الحاصل هو مودة عدم هذه الحالة ذكر هذا اللفظ في

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/54.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/151.
(4) الراغب، المفردات: (ودد).

جانب الثبوت فقال أيود أحدكم حصول مثل هذه الحالة؛ تنبيها على الإنكار التام، والنفرة البالغة إلى الحد الذي لا مرتبة فوقه"[1].

دلالةُ المضارِعِ على الاستقبال - بقرينة الاستفهام الإنكاريّ - نصٌّ في عدم مِلكية المخاطَب للجنَّة وقتَ الخطاب

دلالةُ المضارِعِ على الاستقبال:

دلَّ الفعلُ المضارِعُ في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ على الاستقبال؛ بقرينة الاستفهام الإنكاريّ، وبدلالة قوله: ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾، فإنَّها نصٌّ في عدم مِلكيةِ المخاطَب للجنَّة وقتَ الخطاب؛ لأنَّ معنى (أنْ) الاستقبال[2]، واللام للمِلك؛ فكأنَّه قال: أنْ يَمْلِك جنَّةً في المستقبَل، وهذه دلالة مُستقاةٌ من السِّياق كذلك.

دلالةُ الإفراد أوضحُ في التَّصوُّر من الجمْعِ، وملحوظٌ فيه عِظَمُ شأنِها

دلالةُ إفرادِ الجنَّةِ:

أُفرِدَتْ الجنَّةُ ولم تُجمَعْ، على أنَّ الجمعَ في الظَّاهرِ أقوى في التَّمثيل، فامتلاكُ الجنّات واحتراقُها، أشَدُّ وقعًا من امتلاك الجنَّة الواحدة واحتراقِها، والجوابُ عن ذلك من وجهين:

الأوَّل: الإفرادُ يُحقِّقُ مُرادَ الجَمْع؛ ذلك أنَّ المقصودَ بالتَّمثيل تعظيمُ شأنِ الجنَّة، فهي جنَّةٌ ليستْ كأيِّ جنَّة، دلَّ على عِظَم شأنها قولُه: ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فهو دليلٌ على سعتِها، وامتدادِ شجرِها وتكاثفِه، ويُؤيِّدُه جمعُ الأنْهار، وكونُها تجري من تحتها، فإذا تحقَّق مقصودُ الجَمْع استُغنِيَ عَنْه؛ وعليه فالتَّنوينُ أفادَ التَّعظيم.

الثَّاني: الإفرادُ أقوى في التَّصوُّر والتَّخيُّل، فإنَّ تصوَّرَ الجنَّة الواحدة في الذِّهنِ أوضَحُ من تصوُّر جنَّاتٍ؛ فإنَّ التَّصوُّر يتركَّزُ حول جنَّةٍ واحدة، فيقوى تأثيرُ ذلك في الاعتبار، وهذا مقصودُ التَّمثيل.

تخصيصُ النَّخيل والأعنابِ بالذِّكر:

خُصَّ ذِكرُ النَّخل والأعناب بالذِّكر دون غيرها من الأشجار

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/175.

والثَّمرات؛ لأنَّهما أصلُ الجنّات، فالنَّخيل حائطُ الجنَّة، والأعنابُ أشْهرُ ثمارها عند العرب، فتخصيصهما بالذِّكر لا للحصْر، وإنَّما لأنَّ العربيَّ لا يتصوَّر الجنَّة بدونهما، فكان ذكرُهما أَرْشقَ في الاستحْضَار والتَّخيُّل، وقولُه في اللحاق: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دليلٌ على أنّ ذِكرَهما لم يكن حصرًا، ولا تتميمًا، بل تنبيهًا على أنَّهما أصلُ الجنَّة وعمادُها؛ فهي النّكتة المقصودة. قال الزمخشري: "النخيل والأعناب لمّا كانا أكرم الشّجر وأكثرها منافع، خصّهما بالذكر، وجعل الجنة منهما - وإن كانت محتوية على سائر الأشجار- تغليباً لهما على غيرهما"[1] وزاد الرازي: "وإنما خصّ النخيل والأعناب بالذكر؛ لأنهما أشرف الفواكه، ولأنهما أحسن الفواكه مناظر حين تكون باقية على أشجارها"[2].

وجهُ تخصيص النَّخيل والأعنابِ بالذِّكر التنبيهُ على أنَّهما أصلُ الجنَّة وعمادُها، وتغليبًا لهما على غيرهما

تخصيصُ شجَرة النَّخيلِ بالذِّكر دون ثمرِها، وثمَرة الأعنابِ دون شجرِها:

أُعجوبةَ النَّخلة في شجرتِها وثمرتِها على حدٍّ سواء، أما الأعنابُ فوجهُ تعلّق العربيِّ بها ثمرةً، وفاكهةً، وشرابًا، وقوتًا

خصَّتِ الآيةُ بذكرِ شجَرَة النَّخيل لا ثمرِها، كما أنَّها في المقابلِ ذكرَتْ ثمرةَ الكرمة لا شجرتها، وهو كذلك في سائر القرآن؛ لأنَّ أُعجوبةَ النَّخلة في شجرتِها وثمرتها على حدٍّ سواء، جمالًا، وحجمًا، وفائدةً، وطولَ عمر، وحياطةً، واخضرارًا، ونفعًا في الطَّعام، فاكهةً، وقوتًا، وشرابًا، وسائرِ أصنافِ المنافع؛ كالسُّكنى، والأثاث، والعريش، وغيرها[3]، ولذلك قُدّم في الآية على الأعناب، أمَّا الكرْمة فإنَّ العربيَّ يتعلّق بها لارتباطِها بثمرها؛ فاكهةً، وشرابًا، وقوتًا، ولا يكادُ يُذكرُ للكرْمة أمرٌ زائد على ذلك عن بقيَّة الأصناف، فتخصيصُ شجرِ النَّخيل، وثمر الكرْمَة بالذِّكر؛ أرسخُ بالمَثَل، وأقوى في الصُّورة، وأغنى في البيان.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/314.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/58.

إيثارُ صيغةِ الجَمْع للأعنابِ:

الدّلالة على أنّ الجنَّة المضروب بها المثَل واسعةٌ غنيَّة

آثَرَ النَّظمُ الكريم هنا جمعَ الأعناب دون الإفراد ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ ذلك أنَّ المقصودَ بالجمع هو أصنافُ العِنَب، فكأنَّه قال: أصنافٌ من الأعناب، وهذا يدلُّ على أنَّ الجنَّة غنيَّةٌ واسعةٌ، فإنَّ تعدُّد الأصناف يدلُّ على كثرتها، وهذا يوافق مقصودَ التَّمثيل، ويُؤيِّدُه السِّياق، حيث قال بعدها: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾ [الإسراء: 91]، فإنَّ المقصودَ التَّعجيزُ، وإفرادُ العنب يُغطِّي المُراد.

دلالَةُ صِيغةِ المضارِع ﴿تَجْرِى﴾:

معنى المضارع ديمومة جريان المياه المترتب عليه دوام اخضرار الجنّة ونضارتها

أفادَت صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تصويرَ المشْهدِ، وتلمُّسَ آثارِ المياه في أشجارِها، فهي تجري على الدَّوام، وديمومتُها دليلُ اخضرارِ الجنَّة ونضارتِها، "ولا شكّ أنّ هذا سببٌ لزيادة الحُسن في هذه الجنة"(1).

بلاغة المجاز العقلي:

وجه بلاغة المجاز المبالغةُ في حركة جري الماء حتى لكأنّ أماكن جريه هي التي تجري

إسناد الجري إلى الأنهار وهو للماء مجازٌ عقلي علاقته المكانيّة وسرُّ بيانه: المبالغةُ في تصوير حركة جري الماء حتى لكأنّ أماكن جريه هي التي تجري(2).

دلالةُ جمعِ الأنْهارِ دون إفرادِها:

يُثيرُ جمعُ الأنهارِ في النَّفس تصوُّرَ مدى سعة الجنَّة، فإنَّ جَرَيان الأنْهار من تحت أشجار الجنَّة يدلُّ على أنَّ الجنَّة واسعةٌ ومُمتدَّة، ويُشيرُ كذلك إلى أنَّ أشجارَها عظيمةٌ كبيرة، فإنَّ الأنهار لا تجري تحت الحشائش والشُّجيرات الصَّغيرة، فالجنَّة فوق أنَّها واسعةٌ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/152.

هي قديمةٌ عتيقة، لا جديدةٌ فَطيرَةٌ، وهو ما يقودُنا إلى تصوُّر مدى العناية التي بلغتها يدُ مَنْ أشرَفَ عليها، حتَّى وصلت إلى ما وصلَت إليه، من السَّعة والعراقة حتَّى جَرَت الأنهار من تحتها.

بيان سَعَة الجنَّة وعِظَم أشجارِها وقِدمِها

استعمالُ التَّركيب ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ في جنَّةٍ أرضيَّة:

أُستُعمِل هذا التَّركيب ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للدلالة على جنَّة الخُلْد، إلّا في هذا الموضع فقد جاء والمقصود به جنَّةٌ أرضيَّة! فيُسْألُ عن ذلك؟

خطابُ النَّفس فيما تشتهيه في الدُّنيا؛ لتحصيل ما تشتهيه في الآخِرَة

والذي يظهرُ أنَّ هذا المَثَل قُصِد به أمورٌ كثيرةٌ سوى الحثِّ على الإنفاق بإخلاص نيّة، فمن ذلك؛ أنْ يرتسمَ في خيالِ النَّاس هذه الجنَّة الأرضيَّة، فلا يجدون لها حضورًا واقعيًا، فيحصُلُ في النَّفس شهوةٌ خفيَّةٌ لامتلاكها، فإذا ما قرؤوا الآياتِ التي ذَكَرت أوصافَ جنَّة الخُلْد وجدوها، فاطمأنّوا بها، فعَمِلوا لها، وهذا من أثرِ البلاغة القرآنيَّة في استعمال التَّراكيب الخاصَّة لبناءِ قيَمٍ نفسيَّة عميقة.

بلاغة الاحتراس في ذكر كل الثّمرات:

ذكر ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بعد النخيل، والأعناب احتراسٌ بليغ؛ لدفع توهّم اقتصار الجنة على هذين النوعين من الثمار، والفواكه[1]، وهو إظهار لكمال حال هذا البستان[2].

وجه الاحتراس لئلا يُظنّ أنّ هذه الجنة لا تجود إلا بالنخيل والأعناب

فائدةُ جَمْعِ الثَّمرات دون إفرادِها:

لسائلٍ أن يسأل عن جمع الثَّمرات في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وعدَم الاكتفاء بكلمة ﴿كُلِّ﴾ الدَّالة على العموم[3]؟ فلم

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/152.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.

(3) ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ جمع الثَّمرات لا يدلّ على العموم بل على التَّكثير، وهو كلامٌ فيه عموم وبعيدٌ عن التَّحرير، إذ إنَّ لفظَ كلّ، وجمع الثّمرات، كلاهما يدلُّ على العموم، نعم قد لا يُراد العموم في الواقع، وإنَّما العموم الذِّهني، أي: كلُّ ما يتصوَّرُه الذِّهن من الثّمرات داخل في مضمون اللفظ، والعموم دالٌّ على التّكثير، بخلاف العكس، وهو قولٌ لا يُحفَل به، لاحتياجه إلى الدّليل، ومخالفته الظَّاهر، يُنظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/206، والآلوسي، روح المعاني: 2/37.

المقصود بجمع الثمرات عمومُ أصنافِ نوعِ كلِّ ثَمرة لا عمومُ أنواع الثَّمر

يقُل: (من كلِّ ثَمَرةٍ؟) والجواب: أنَّه لا يُريد بالعُموم عمومَ أنواع الثَّمر، بل يريدُ عمومَ أصنافِ نوعِ كلِّ ثَمَرة، أيْ: أَصْنافُ الرُّمَّان، والحمضيَّات، وغيرها. وإعرابُ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ نعتُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: "ثمرٌ كائنٌ من كلِّ الثَّمرات"[1]، والمعنى: له فيها من كلِّ نوعِ ثمرٍ أصنافُه، ثمَّ جَمَعَ النَّوعَ فقال: الثَّمرات؛ لِيدخلَ من كلِّ نوعٍ أصنافُه، ويُؤيِّده جمْعُ الأعناب، فكأنَّها مثالٌ متقدِّمٌ ذكرُه على ذلك؛ فكأنَّه قال: وأصنافُ نوعِ العنَب؛ ليُفهَم المقصود، وهو إيجازٌ بديعٌ، يتَّسقُ مع رَصْفِ الأمثالِ في القرآن.

سِرُّ التّعبيرِ عن إصابة الكبر بالماضي:

التعبير بالماضي استحضارٌ لصُورَة الجنَّة بعد تلاشيها؛ لتحقيقِ النَّدامة والخسارة

ذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الماضي في قولِه: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ وُضِع موضِعَ المضارع[2]، وعلَّل بعضُهم ذلك بكون الكِبَر لا يتمنَّاه أحد[3]؛ لأنّه مَظِنَّةُ شدَّةِ الحاجة إلى المنافع، ومَئِنَّةُ كمالِ العجز عن تدارك أسباب المعايش[4]. والتَّعبير بالماضي هو عينُ البلاغة، إذ المقصودُ استحضارُ صورةِ الجنَّة بعد أنْ يُصيب المتخيِّلَ الكِبَرُ، وبعد الاحتراق، أي: وقع للجنَّة وصاحبِها ما وقع من الخسارة الكبيرة، وهذا معنى حملِ الاستفهام على الاستنكار، وأيُّ موقعٍ لاستنكار امتلاكِ جنَّةٍ بهذه المواصفات قبل وقوع المصيبة؟!

علّة إيثار لفظِ الذُّريّة:

الذُّريَّة تعبيرٌ عن الأولاد باعتبار التَّكاثر

عبَّرتِ الآية عن الصِّغار بالذُّريَّة دون الأولاد، أو الصِّغار؛ لِلَحَظٍ اختصَّ به هذا اللفظُ، وهو أنَّ الذُّريَّة تعبيرٌ عن الأولاد باعتبار التَّكاثر، فالذُّريَّة هي مَنْبَتُ البُذور، ومنها ينشأُ النَّسل، والأملُ بالتَّكاثُر معقودٌ بها، والدّعامةُ الكبرى للذُّريَّة هي الجنَّة،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/37.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/175.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/673.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.

فبذهابها يفقد معها صاحبُها طموحَ المستقبل في التَّكاثر، فهي عذابٌ ماديٌّ ومعنويّ.

بلاغة الاحتراس في قوله: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾:

وجه الاحتراس أنّ من بلغ الكبر يكفيه ذرية ينفقون عليه

جملة: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾؛ احتراسٌ؛ لأن من بلغ الكبر يكفيه ذرية ينفقون عليه ولا يحتاج إلى أحد، وفيه بيانٌ لتمام الحاجة إلى ثمار الجنة[1].

تصويرُ اجتماعِ الإعصار بالنَّار مُنَكَّرَيْن:

اجتماعُ الإعصارِ بالنَّارِ تهويلٌ وتفظيعٌ، ونفيٌ لأسباب الحياة في الجنَّة، فما فاتَ الإعصار، أدركتْه النَّار

الإعصار هو الهواء الملتفّ الذي يجري بشكل عموديّ وبسرعةٍ كبيرة، يُدمِّرُ كلَّ ما يمرُّ به من الأشْجارِ والمزروعات، وأمَّا النَّارُ فهي المعروفة، والأصلُ حملُ الألفاظ على الظَّاهر، وهذا أمرٌ معهودٌ معروفٌ لدى من عنده خِبرةٌ بالأعاصير، وما قاله المفسِّرون من تفسيرِ النَّار بالسّموم[2]، فهو لعدم تصوّرهم وجودَ النَّار في الإعصار. واجتماعُ الإعصارِ بالنَّارِ في قوله: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ لا يُبقي شيئًا من أسباب الحياة في الجنَّة، فما فاتَ الإعصار، أدركتْه النَّار.

الإعصار ريح شديدة في غيم يكون فيها حدة من برد الزمهرير، وهو أحد قسمي النار

لفظ ﴿إِعۡصَارٌ﴾ دالٌّ على الريح الشديدة جداً؛ وذلك لمجيئها على صيغة الاشتداد بزيادة الهمزة والألف فيه من العصر وهو الشدّة المخرجة لخبء الأشياء، والإعصار الريح الشديدة في غيم يكون فيها حدّةٌ من بردِ الزمهرير، وهو أحد قسمي النار[3]. وهذا هو وجه اجتماع الإعصار بالنار في الآية الكريمة.

دلالة العطف بحرف الفاء:

عطفتِ الإصابةُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/322.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/319.

(3) البقاعي: نظم الدرر: 4/87.

﴿فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾؛ لتصوير سرعة المفاجأة المؤلمة، وعُطف الاحتراق بها أيضًا لبيان سرعة فنائها وتدميرها[1].

دلّت الفاء على سرعة المفاجأة بالإعصار، والتدمير بالاحتراق

بلاغة التشبيه في الفاصلة:

الكاف في قولِه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾؛ للتَّشبيه، أي: مثل ذلك البيان المتقدِّم الواضحِ الجاري في الظهور مجرى الأمورِ المحسوسة[2]. يُبيِّن الله لكم جميعَ الآيات، رجاءَ أن تتفكَّروا فيها، وتُمعنوا النَّظر في مجاريها، فتصلوا إلى مبتغى الفقه، ومقصود الفهم، وقد أظهر التَّشبيهُ بلاغةَ هذا المَثَل في شدَّة بيانه، ووضوح معناه، فجُعِلَ أصلًا وقاعدةً ليُشبَّه به غيرُه من الآيات، وهذا من دواعي عدِّ هذه الآيات من أمثلة فنِّ التَّتميم[3] في القرآن الكريم.

أظهر التَّشبيهُ بلاغةَ المَثَل في شدَّة بيانه، ووضوح معناه، فجُعِلَ أصلًا وقاعدةً ليُشبَّه به غيرُه من الآيات

التشبيه في الفاصلة تشبيه الكلي العام من بيان اللّٰه سبحانه وتعالى في كل آياته، بهذه الصورة الجزئية التي رأيناها في تلك التشبيهات الرائعة وذلك السياق المحكم، وتلك المعاني الجلية التي يتدبرها المتدبر، فتجلى له معان كريمة سامية كلما أعمل فكره وتفكر وقدر، ومثل ذلك كما يجري في عباراتنا - ولكلام اللّٰه المثل الأعلى - أن يقول عندما يعمل عملا جيدًا يعمله فيستحسن، فيقول: كذلك أعمل دائمًا، أي كهذا العمل الذي استحسنتموه كل عمل. والمعنى التشبيه في الآية الكريمة على هذا يكون هكذا: كهذا البيان الجلي الرائع الذي بدا في هذا المثل المحكم بيان اللّٰه الكلي لكل آياته في كتابه الحكيم[4].

هو من تشبيه الكلّي العام بالصورة الجزئية للتشبيهات السابقة

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/152.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.
(3) التَّتميمُ: هو ذكرُ معنًى فلا يُترك من أحواله التي تتمُّ بها صحتُه، وتكمُلُ معها جودتُه شيئًا إلاّ أُتِيَ به. يُنظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 49.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/994.

بلاغة فنِّ التَّتميم:

بيان التتميم في الآية للمَثَل الذي ذكرَه الله للمنفقِ المُرائي في ذاته ومآله، تنبيهًا وتحذيرًا

القرآنُ كلُّه تامُّ المعنى، لكنَّ بعض الآيات نجدُ فيها استقصاءً للمعاني، واستتباعًا لأطراف المسألة، حتَّى يُؤتَى على حُسنِها من جميع الأوجه بما يندرج في ضمن فنِّ التَّتميم، وبيانها في هذه الآية للمَثَل الذي ذكرَه الله للمنفقِ المُرائي، من ذِكر الجنَّة وما فيها من النَّخيل والأعناب، تجري من تحتها الأنهار، وفيها من كلِّ الثَّمرات، وما يُصيبُ صاحبَها من الكِبَر، وعنده ذرية ضعفاء، وما يُصيبُ الجنَّة من الإعصار الذي فيه نارٌ؛ فيتركها محروقةً، وعنده ذريَّةٌ غيرُ مفيدة، فاجتمعت عليه مصائب ضياع الأموال، ومصيبة الكِبَر مع الذّريّة الضّعفاء؛ فلا هو قادرٌ على الإطعام، ولا هو قادرٌ على إعادة الإنبات، وهذا من بدائع تتميم المعاني وتكاملها في بيان المَثَل في ذاته ومآله، تنبيهًا وتحذيرًا، ابتداءً صريحًا وانتهاءً فصيحًا.

إيثارُ التَّفكُّر على مرادِفاتِه في الفاصِلة:

التفكّرُ طريقُ الإيمانِ، الموصِلُ إلى الحقِّ البيِّن، وبه تقومُ الحجَّةُ على الخلق

اختيرت مادّة التّفكُّر في فاصِلة الآية ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾، دون التَّدبّر أو التّذكّر أو العقل؛ ذلك أنَّ "التّفكّر تصرُّفُ القلبِ بالنّظرِ في الدَّلَائِل"[1]، وأما الفكرة فهي: "قوّة مُطْرِقةٌ للعلم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جَوَلان تلك القوّة بحسب نظر العقل"[2]، وعلى هذا فقد ذكرتِ الآيةُ القرآنيَّةُ دلائلَ محسوسةً للتَّفكّرِ فيها؛ للوصولِ إلى المعلومِ الحقّ، فإذا وصلَ المُتفكِّرُ إلى المعلوم؛ لَزِمَه أنْ يلزَمَ ما عَلِمَه بوساطةِ التَّفكُّر، فالفكرُ طريقُ الإيمانِ، الموصِلُ إلى الحقِّ البيِّن، وبه تقومُ الحجَّةُ على الخلق.

دلالة (لعل) في الفاصلة:

"ولعل في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ هي في الرجاء،

(1) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص: 75.
(2) المفردات، الراغب: (فكر).

(لعل) منه سبحانه وتعالى تحقّق وتأكّد، أو هي في الفاصلة للتعليل

وليس الرجاء من الله تعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، فلا يكون منه رجاء وتوقع؛ لأن ذلك شأن من لَا يعلم، إنما يكون منه سبحانه وتعالى تحقق وتأكد؛ وإنما معنى الرجاء هو المتفق مع ذات البيان؛ لأنَّ ذلك من شأنه أن يرجى معه تفكر المتفكر وتدبر التدبر؛ ولذلك قال بعض العلماء: إن لعل هنا للتعليل، فالمعنى كان ذلك البيان لتتفكروا وتتدبروا"[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/995.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: 267]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد ذكرِ الأمثالِ الموطِّئة للأمر بالنَّفقة على وجهها، شرَعَ في بيانِ المقصودِ وهو الأمرُ بالصَّدقات بعد أن قدَّم بين يدي الأمر بها مواعظ ترغيبًا وتحذيرًا، وهي طريقةٌ بلاغيَّةٌ في الخطابِ، بتقديم ما يُرغِّبُ بالمقصود قبل ذكره، وهذا وإن كان من ارتكابِ خِلافِ مقتضَى الظَّاهر في ترتيبِ الجُمَل، إلّا أنَّه لمَّا شَاعَ بين النَّاس التَّرغيبُ في الصَّدقة، وتكرَّر ذلك في نزول القرآن، فأصبَحَ غرضًا دينيًّا مشهورًا، فكان الاهتمامُ بإيضاحِه والتَّرغيبُ فيه والتَّنفيرُ من نقائصِه أجدرَ بالبيان(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾: التيمُّمُ: القصدُ، يقال: أَمَّ ك (ردَّ)، وأَمَّمَ ك (أَخَّرَ)، ويمَّمَ، وتَيَمَّم بالتاء والياء معًا، وتَأَمَّم بالتاء والهمزةِ، وكلُّها بمعنَى قَصَدَ، وفُرِّق بينها بفروقٍ لطيفة، فقيل: "أَمَّمْتُه قَصَدْتُ أمامه، ويَمَّمْتُه: قصدتُه من أيِّ جهةٍ كان"، وأمَّ فلانٌ أمرًا، أي: قصد، والتَّيمُّم: يجري مجرى التَّوخِّي، يقال: تَيَمَّمْ أمرًا حَسَنًا، وتَيَمَّمْ أطيبَ ما عندَك فأَطعِمناه(2)، فشَمَلَ لفظُ التَّيمُّم معنى القصد والتَّوخِي، لتحقيقِ أمرٍ مرغوبٍ في النَّفس، وهذا المعنى لا يُؤَدِّيه لفظُ القصْد وحدَه، ولا لفظُ التَّوخي وحدَه.

2) ﴿تُغْمِضُواْ﴾: الغَمْضُ(3): النَّومُ العارِضُ، تقول: ما ذُقْت غَمْضًا ولا غِمَاضًا، وأصلُه مأخوذٌ ممَّا تَطَامَن من الأرضِ، وجمعه: غُمُوضٌ، ودارٌ غامِضةٌ: غير شارعةٍ، وغَمَضَتْ تَغْمُضُ غُمُوضًا، وأمرٌ غامِضٌ، غَمَضَ غموضًا، وحسبٌ غامِضٌ غيرُ معروف، وخلخالٌ غامِضٌ: غَمَضَ في السَّاقِ غُمُوضًا، والغُمُوضُ: بطونُ الأودية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/55.

(2) الخليل، العين: (أمم)، والسمين، الدر المصون: 601-2/600.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (غمض).

فالغُموضُ هو ذَهاب شيءٍ في شَيءٍ حتَّى لا يُرى، أو يُعامَلَ معاملةَ ما لا يُرى، ولذلك استُعمل في التَّغافل والتَّساهل عن التَّدقيق في الأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

خطابٌ من اللّٰهِ لعباده للمؤمنين بالأمرِ بالإنفاقِ من طيِّباتِ كَسْبِهم، من التِّجارات والصِّناعاتِ والمِهَن، وما أخرجه اللّٰه تعالى لهم من الأرضِ من الثِّمار والزُّروع والمعادن، ليَعُمَّ أنواعَ الرِّزق على عباده، فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيلها فأنفقوا منها شكرًا للّٰه، وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، وتزكية لنفوسكم من البخل، ويقتضي هذا الأمرُ اجتنابَ الإنفاقِ من المحرَّمات، ونهاهم إذ أنفقوا أن يجتنبوا اختيارَ الرديءِ من النَّفقات لإنفاقه دون الجيِّد، ووضع لذلك معيارًا في معرفة الرّديء من الجيِّد: بأنَّهم لا يقبلوه إنْ قُدِّمَ لهم لو كانوا في مقام آخذ الصَّدقة، إلّا في حال التغافل عن النَّظر فيه.

ثمَّ أخبرَهم سبحانه بأنَّه غنيٌّ عن أموالِهم؛ لأنَّه هو الذي يمُدُّهم بها، ونفع صدقاتهم وأعمالهم عائد إليهم، وحميدٌ سبحانه وتعالى لمن أنفقَ الحلالَ من المكاسب، واختارَ الطيِّبَ الجيِّدَ مما أخرجه اللّٰه من رزق الأرض، وهو المحمود؛ لأنَّه الذي يمُدُّ عبادَه بأسباب الرِّزق ليشكروه عليها، وعلى ما يأمرهم به من الأوامر الحميدة والخصال السَّديدة[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

النِّداءُ بالبعيدِ وخطابُ المؤمنين بالاسم الموصول:

وجه النداء لتحفيز المخاطَبين على الإنفاقِ، وحثِّهم على الإسراع فيه

بدأتِ الآيةُ بأداة نداء البعيد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لترقُّب ما بعد النِّداء، من الأمر بالإنفاقِ، ولتحفيز المخاطَبين على الإنفاقِ، وحثِّهم على الإسراع فيه؛ خاطبَهم بالاسم الموصول، وجعَلَ صِلَتَه الإيمانَ، فهو القاعدةُ التي يُبنى عليها العملُ، وهو البناءُ الشَّامخ الذي يقوى باستطالته وامتداده.

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 45.

"ابتدأ سبحانه بالنداء بالبعيد للدلالة على عموم النداء للمؤمنين في كل الأجيال من وقت البعث المحمدي إلى يوم القيامة، وكان النداء للمؤمنين لبيان أن من أخلاق أهل الإيمان أن يتصدقوا من الطيب لَا من الخبيث، وممّا تحبّه النّفس لَا مما تزهد فيه، فليس من مقتضيات الإيمان"[1].

الابـتـداء بنداء البعيد لشمول جميع المؤمنين بــه؛ ولـبـيـان أنّ مـن أخـلاق المؤمنين التّصدّق من الطيب لَا من الخبيث

بلاغة الافتتاح بالأمر:

أفضى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ إلى المقصود وهو الأمر بالصدقات بعد أن قدّم بين يديه مواعظَ وترغيبًا وتحذيرًا. وهي طريقة بلاغية في الخطاب؛ بتقديم المطلوب ثم المجيء بما يُكسِبُهُ قبولًا عند السامعين، وربما قدَّموا ما يُكْسِبُ القبولَ قبل المقصود كما هنا. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل، ونكتة ذلك أنه قد شاع بين الناس الترغيب في الصدقة، وتكرر ذلك في نزول القرآن؛ فصار غرضًا دينيًّا مشهورًا، وكان الاهتمام بإيضاحه والترغيب في أحواله والتنفير من نقائصه أجدرَ بالبيان"[2].

قدموا ما يكسب الـقـبـول عند السامعين قبل المقصود؛ لبيان وجـه الترغيب بـالـصـدقـة، والـتـنـفـيـر عن نقائضه

علّة إيثارِ الإطنابِ الظَّاهر على الإيجاز:

آثرتِ الآيةُ الإطنابَ على الإيجاز في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾، ولم يقلْ: (أنفقوا ممَّا كسبتُم) مَعَ إيجازِه؛ لأنَّ البَلاغةَ القرآنيَّة قامتْ على رعيِ المعاني بالألفاظِ، والألفاظُ خوادِمُ المعاني، فآثر النَّظمُ الإطنابَ الظَّاهر على الإيجاز؛ للإشعارِ بأنَّ الإنفاقَ يجبُ أنْ يقومَ على قاعدة الكَسْب الطيِّب؛ فكأنَّه قال: أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ولا تُنْفقوا من خبائث ما كَسَبْتُم، فحقَّقتِ الآيةُ بهذا الإطناب الظَّاهر إيجازًا بَدِيعًا؛ لأنَّ النَّهيَ عن

وجـه الإطـنـاب الإشــعـارِ بـأنَّ الإنفاقَ يجبُ أنْ يقومَ على قاعدة الكَسْب الطيِّب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/996.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/55.

الكسبِ الخبيث ما كان ليُعلَم إلّا بذكر الطَّيِّبِ من الكَسْب؛ وهذا الإطناب في حقيقته إيجازٌ، ومثلُه لا يكونُ إلّا في القرآنِ الكريم.

اتِّساقُ التَّعبيرِ بين مفردة الإنفاقِ والطَّيِّب:

بناءُ القيمةِ الإيمانيَّة في التّفكير لما بعد الموت، وما سيجنيه المؤمن من أعمالِه

التَّعبيرُ بالإنفاقِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ المُنفَقَ من الطّيِّبات خبيءٌ تحتَ الأرض؛ لما دلَّت عليه مفردةُ الإنفاق، فالنَّفقُ هو أخدودٌ ترابيٌّ، فما يُنفقه المؤمنُ يُحفظ له تحت الأرض؛ لتنموَ وتتكاثرَ كما سبق في الأمثال المذكورة في سياق الآيات، لكنَّ الذي يزيده البيانُ القرآنيُّ في هذه الآية، هو أنَّ ما يكون خبيئًا تحت الأرضِ هو الطَّيِّبات لا الخبائث؛ فالآيةُ تُخاطِبُ المؤمنَ إرشادًا وتنبيهًا، أنِ احذَرْ أن تُنفقَ إلّا الطَّيِّبات؛ لأنَّها هي التي ستجدُها بعد موتك ناميةً متكاثرةً، فهي إشارةٌ عميقةٌ لمن تفكَّر فيما يُنفِق، فالطَّيِّب في الآخرة أكثرُ ترعرعًا، وأعظمُ أثرًا من غيره، والمضاعفَةُ مرهونةٌ بنوعِ المُنْفَق.

دلالةُ الجَمْعِ مع العُموم:

اشتمالُ المُنفَقِ كلَّ ما هو مُتصوَّر من النَّفقات قلَّ أو كثُر

دلَّ جمعُ الطَّيِّبات في قولِه: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ على العُمومِ والشُّمولِ؛ فدخل فيه كلُّ مُكتَسَبٍ طيِّب، وهو متَّسِقٌ مع ﴿مَا﴾ المُشرَبَة بالعموم، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنْفاقَ مَقْبولٌ في كلِّ كسْبٍ طيِّب مُتصوَّر، مَهْما كان قليلًا في عدَدِه، أو صغيرًا في حَجْمه، وإخالُ قولَه ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"[1] مُستقًى من نور هذه الآية، وهو ما يجعل الفقراءَ دَاخِلين في زُمرَة المنفقين أموالَهم ابتغاءَ مرضات اللّه تعالى.

نكتة إعادةُ الجارِّ وعدمُ الاكتفاء بالمُتقدِّم:

أُعيدَ حرفُ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فلم يقل: (ومَا أَخرَجنا لَكُم)، عطفا على: ﴿مَا كَسَبۡتُمۡ﴾،

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (1417).

إمَّا من باب التَّأكيد، وإمَّا للدّلالةِ على عاملٍ آخرَ مقدَّرٍ، أي: وأنْفقوا مِمَّا أَخْرَجْنا، ولا بدَّ من حَذْفِ مضافٍ، أي: ومن طيّباتِ ما أَخْرَجنا[1].

إعادةُ الجارِّ إمَّا من باب التَّأكيد، وإمَّا للدّلالةِ على عاملٍ آخرَ مقدَّرٍ

نُكتةُ عدم ذكر الطَّيِّبات في المُخرَجِ من الأرض:

عدَمُ ذِكرِ الطَّيِّبات في قوله: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ إمَّا اكتفاءً؛ لتقدُّم ذكره؛ فأغنَى ذكرُ المتقدِّمِ لفظًا عن إعادته، وإمَّا لأنَّ ما يخرُجُ من الأرضِ غالبًا ما يكون طيِّبًا، وغالبُ المالِ الخبيثِ يَحْصُلُ من اكتسابِ النَّاس؛ كالظُّلْم والغِشِّ والاحتكار، وذلك غيرُ متصوَّرٍ في الثَّمراتِ والخُضرَوات والحُبُوب المُستخرَجَة من الأَرْض[2].

عُدل عن ذكر الطيبات رعيًا للاكتفاء، أو للغالبِ في الأموال المُكْتَسَبة

تقديمُ الجارِّ والمجرور:

قُدِّم الجارُ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: للاهتمامِ والعناية، فإنَّ قابليَّةَ الأرضِ لإخراجِ الخَيْرات منها، يدلُّ على العناية بالمخاطَبين، ويدلُّ كذلك على الامتنانِ؛ فإنَّ الإخراج كان لهم.

الدّلالةُ على العناية والرِّعاية، والامتنان بالنِّعم الجليلة

إسنادُ الفعل لضمير العظمة:

إسنادُ فعل الإخراج لضمير الفاعل (نا) الدالّ على العظمة في قولِه: ﴿أَخۡرَجۡنَا﴾، يزيد أمر إخراج الخيرات عنايةً ورعايةً وأهميَّةً، فالذي تولَّى إخراجَها هو اللّٰه تعالى.

ضمير العظمة يزيد أمر إخراج الخيرات عنايةً ورعايةً وأهميَّةً

دلالةُ حَرْفِ الجر (مِنْ):

أفادَ حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مَعْنى الابتداء، ولهذا المعنى تصويرٌ بديعٌ؛ فإنَّ الابتداءَ كائنٌ في الأرض، لكنْ أيُّ أرضٍ هي؟! وهذا ما يجعل الابتداءَ شاملًا للأرض كلِّها، أيْ: ما يُخرِجُه اللّٰه من كلِّ بقعةٍ في الأرضِ فإنَّ الإنفاقَ حاصلٌ

أفاد حرفُ الجر (مِنْ) معنى الابتداء، فدلَّ على شمولِ الأرض كلِّها، وعمومِ الخارج منها

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/314، والسمين، الدر المصون: 2/600.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

فيه، سواءٌ أكان الإخراجُ زرعًا، أو ثَمَرًا، أو معادن، فإنَّ الأمر بالإنفاق يشملُه جميعَه، فإنَّه ما من بقعةٍ في الأرض إلّا وفيها نوعُ خيرٍ خارجٍ للنَّاس، فدلَّ هذا الحرفُ على شمولِ الأرضِ، وعموم ما يخرُجُ منها.

معنَى أل في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

دلَّت أل على الجنسِ، وفيه امتنانٌ خفيٌّ يُناسبُ النِّعَم الخفيَّة

الذي يُفهم من سِياقِ الآية، ومن دلالةِ حرف ﴿مِّنَ﴾ الابتدائية أنَّ الأرضَ هي كلُّ الأرضِ، فـ (أل) شاملةٌ لها كلِّها، فعلى ذلك يكونُ التَّعريفُ للجنسِ، وفي ذلك من الامتنان ما لا يخفى؛ فإنَّه ما من بُقعَةٍ إلّا ويخرُجُ منها من أنواع الخَيْر ما لا يُحيطُ به أحدٌ من الخَلْق، وهذا امتنانٌ خفيٌّ، يُناسِبُ النِّعَمَ الخفيَّةَ في الأرض.

بلاغةُ عَطْفِ النَّهي على الأمر:

وجه العطف التَّفصيلُ بعد الإجمَال، والتَّعيينُ بعدَ الإبْهام

جاءَ النَّهيُ عن قَصْدِ المالِ الرَّديءِ لإنفاقِه بعد عموم الأمرِ بالإنْفاق في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾، وهو ما يُفصِّلُ المقصودَ بالإنفاق، بأنْ يكون من أوسَط المالِ جَوْدَةً، فيُجتَنَبُ توخِّي المالِ الرَّدِيءِ، وهذا من تعيين المُراد بالخطاب، وبلاغتُه تكمُنُ في دفع توهُّم أنَّ الإنفاق يتحقَّقُ في أيِّ مالٍ ما دام حلالًا.

دِقَّةُ التَّعبيرِ بالتَّيمُّم دونَ مُرادِفاته:

الكَشفُ عمَّا يجولُ في النَّفس من معاني الشُّحِّ والحرص

استعمَلَتِ الآيةُ لفظَ التَّيمُّم دون مرادِفاته؛ لاشتمالِه على مَعْنَى القَصْدِ والتَّوخِي في تحقيقِ أمرٍ مرغوبٍ في النَّفس، وهذا المعنى لا يُؤَدِّيه لفظُ القصْدِ وحدَه، ولا لفظُ التَّوخّي وحدَه، وهذا من بليغ استعْمالِ القرآنِ لمفرداته، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ نهيٌّ بليغٌ في تركِ توخّي المالِ الرَّديء لإنفاقه على الفقراء، وهو يكشف عن مكنونِ النَّفس التي تحرِص عن قصدٍ وتحرٍّ ورغبةٍ في التَّخلُّص من خبيثِ المال، والاستئثار بجيِّده، وهو يَنُمُّ عن شُحٍّ وبُخلٍ ذميم، غيرِ مقبولٍ عدُّه من صفات المؤمنين.

بَلاغةُ تقديرِ الجملةِ المحذوفةِ بالمذكُورَةِ:

دلالة المُقابل المذكور على المحذوف قيمةٌ نفسيَّةٌ، هدفُها تهذيبٌ وتنْبيهٌ وتحذيرٌ، من ورائه عملٌ جادّ عن الشُّحِّ صادّ

من بلاغةِ الحَذْفِ في القرآن أنْ يَدُلَّ المُقابِلُ المذكورُ، على المقابلِ المحذوفِ، وهو حذفٌ يُعرَف من السِّياق، ويقدَّر من القرائن، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ دلَّ على المقابلِ المحذوف وهو: ولا تيمَّموا الطَّيِّبَ منه تبقون.

ونكتةُ حذف هذه الجملة دون التَّصريح بها، هو العلمُ بمضمونها التزامًا لدى المخاطَب، ولما تحويه من كَشْفٍ وتعرٍّ لحقيقة النَّفس المستأثرة بالطَّيِّب دون الرَّديء، وزعمها النَّفقةَ في سبيل الله تعالى؛ فكان لفُّ المحذوفةِ بأختها المذكورة أدعى للأَوْبةِ من المواجهةِ، فهي قيمةٌ نفسيَّةٌ، هدفُها تهذيبٌ وتنبيهٌ وتحذيرٌ، من ورائه عملٌ جادّ، عن الشُّحِّ صادّ.

سرُّ التَّعبيرُ بالخَبيثِ دون الرَّديءِ:

تنزيلُ الرَّديء منزلةَ الخبيثِ مبالغةً، وتربيةُ المؤمنِ على تحاشي الفِعالِ الرَّديئة

المفرَدَة القرآنيَّةُ تكتنزُ المعاني اللّغويّة والسِّياقيَّة والثَّانويَّة، وقد آثرتِ الآية استعمالَ مفردة الخبيث في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ والمرادُ بها الرَّديءُ؛ لهدفٍ بيانيٍّ عظيم، وهو تنزيلُ الرَّديء منزلةَ الخبيث في الأثر، فإنَّ الخبيثَ "لا يُطْلَق على الرَّديءِ إلّا على وجه المبالَغَة، ووقوعُ لفظِه في سِياقِ النَّهي يُفيد عمومَ ما يَصْدُقُ عليه اللّفظُ"[1]، وفيه إشارةٌ إلى النَّفس التي أخرَجتْه؛ فإنَّ نفسَ الكريم تأبى أن تُخرِجَ إلّا ما يُترجِم عن مكنونها، ممَّا يُربّي المجتمع على كرَم النَّفس، وتحاشي اقتراف خسائس الصِّفات.

بديعُ دِقَّةِ المقابلةِ في الحذفِ بين الجُمل:

ورد لفظُ الطَّيِّب[2] في الآية وأُريدَ به الحلالُ في قولِه: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾، وحُذِف مقابلُه وهو لفظُ الخبيث المراد به

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

(2) هذا على القول الرّاجح في المسألة، وهو أنَّ الطَّيِّب هو الحلال، وهو الذي تقوّيه عمومُ الأدلة، وتشهد له القرائن الاتصاليّة.

في الاستغناء بالمذكور اقتصادٌ في المباني واكتنازٌ في المعاني، وبلاغة في الحذف

الحرام، وذُكر الخبيثُ[1] المرادُ به الرَّديء في قولِه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾، وحُذِف مقابلُه وهو لفظُ الطَّيِّب المراد به الجيِّد، فيكون التَّقديرُ كالآتي:

أنفقوا من طيِّبات ما كسبتم، ولا تُنفقوا من خَبائثَ ما كسبتم، ولا تيمَّموا الخبيثَ منه تُنْفقون، ولا تيمَّموا الطَّيِّبَ منه تُبقون، وهذا من أدقِّ مسالكِ الحذْفِ في القرآن الكريم، فإنَّ الجملةَ الأولى المذكورةَ في جُمْلة الأمْر أعانَتْ على تقديرِ الجملة الثَّانيةِ المحذوفةِ في جُملَة النَّهي؛ لاشتراكِهما في لفظِ الطَّيِّب - وإن اختلف معناهما[2] -، وأعانتِ الجملَةُ الأولى المذكورَةُ في جملة النَّهي، على تقدير الجملةِ الثَّانيةِ المحذوفةِ في جُملَة الأمْرِ؛ لاشتراكهما في لفظِ الخَبيثِ - وإن اختلف معناهما[3] -، وهذا من بليغِ الحذف ورصينِه، ومن قويِّ اللفظ وفصيحِه.

تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ:

في تقديم المجرور دلالة الاختصاص؛ لتوبيخهم بما كانوا يتعاطَوْنه من إنفاق الخبيثِ خاصة لا لتسويغ إنفاقِه مع الطيب

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على فعل ﴿تُنفِقُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾؛ دلالةٌ نفسيَّةٌ، فإنَّ التَّقديم كَشَف عمَّا يجولُ في نفوس بعضِ المنفقين، من المُسارَعة والمبادَرة للتَّخلُّص من رديءِ المال وخسيسه، فكأنّهم يبحثون في المالِ عن رديئه ليتخلَّصوا منه، ولو قدَّم فعلَ ﴿تُنفِقُونَ﴾ لاختلف المعنى، إذْ لو قال: ولا تيمَّموا الخبيثَ تنفقون منه؛ لكان القَصْدُ متَّجهًا إلى الإنفاق ابتداءً، دون لَحْظِ ما يُصوِّرُه التَّقديمُ من المعنى النَّفسيّ، وهذا من بلاغة التَّقديم المُفصِحة عمّا يجول في النُّفوس، وهو ملْحَظٌ يدخلُ في الإعجاز النَّفسيِّ والغيبيّ في آنٍ؛ لأنَّه يكشف عن أمرٍ غيبيٍّ كامنٍ في بعض النُّفوس، وهو كذلك يكشف عن بُعدٍ نفسيٍّ، يستَتْبِع تربيةً وعلاجًا.

(1) هذا على القول الرّاجح في المسألة، وهو أنَّ الخبيث هو الرَّديءُ من المال، والقول الآخر بأنَّ المرادَ به الحرام، حرامٌ عند دقيق النَّظر، فإنَّه لا يقوى أمام القرائن، ولا يصمد في مقابلة الأدلة.

(2) فلفظُ الطَّيِّب المذكورة معناها الحلال، والمحذوفة معناها الجيِّد.

(3) فلفظُ الخبيث المذكورة معناها الرَّديء، والمحذوفة معناها الحرام.

قال العمادي: "الجارُّ متعلق بـ ﴿تُنفِقُونَ﴾ والضميرُ لـ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ والتقديمُ للتخصيص والجملةُ حال من فاعل ﴿تَيَمَّمُواْ﴾ أي لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاقَ عليه أو من الخبيث أي مختصًّا به الإنفاق وأياما كان فالتخصيصُ لتوبيخهم بما كانوا يتعاطَوْنه من إنفاق الخبيثِ خاصة لا لتسويغ إنفاقِه مع الطيب"[1].

صيغةُ فعلِ ﴿تُنفِقُونَ﴾ وأثرُ السِّياق في فهمها:

دلالـة (تنفقون) بيانُ قبحِ صُورة المـنـفـقِ مـالَـه، والـكـشـفُ عن سوء طويّته

صوَّر الفعلُ المضارعُ ﴿تُنفِقُونَ﴾ قباحةَ الإنفاقِ الصَّادرِ عمَّن يفصِلُ المالَ الرَّديءَ عن الجيِّد، فما أقبحَ صورة المُنفق مالَه في هذا السِّياق، وما أجملَها في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ﴾، فجاء فعلُ الإنفاقِ بصُورة المضارعِ في سياقين اثنين: أحدُهما: كان المنفقُ على أجمل ما يكونُ عَلَيْه الوصفُ، والثَّاني: كان المنفقُ على أقبح ما يكون عليه الوصف؛ إذ إنَّ إنفاقَه كان للتَّخلُّص من المالِ الرَّديء، لا لنَيْل الجزاء الجزيل، مع الحرص على إظهارِ أنَّهم ممَّن ينفقون، فأظهرَت الآيةُ ما يريدون إظهارَه، وكشَفَتْ عن حقيقةِ نفوسِهم، بأبدعِ لفظٍ، وأجزَلِ عبارة، وهذا من أثر السِّياق في فهم بلاغة الصِّيغ في القرآن الكريم.

بلاغة القياس التشبيهي:

وجه تَشبيهِ حالٍ بأخرى؛ لتصويرِ قُـبـحِ الـفـعـل، وتداركه

تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ قياسًا تشبيهيًّا بديعًا، حيث خاطَبَ المُنفِقين، ونزَّلَهم منزلةَ المُنفَق عليهم، وبيَّن حالَهم إذا أُعطوا ما يُعطوْه من الرَّفض الظَّاهر، أو الأخذ مع التَّغافل عن حقيقة المأخوذ، وهو ما يدلُّ على أنَّ "كراهيةَ كَسْبِه كانت معلومةً لديهم متقرِّرةً في نفوسِهم، ولذلك وقعَ القياسُ عليها"[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإغماض دون غيره:

لفظُ الإغماض تصويرٌ وتقبيحٌ لمدى رداءةِ المُنْفَق، ما لا يُصَوِّرُه لفظٌ آخر، والكشفُ عن قسوة قلبِ المنْفِق

جاء التَّعبير بالإغماض دون التَّغافل، أو التَّساهل في قولِه تعالى: ﴿تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾؛ ذلك أنَّ لفظَ الإغماضَ فيه معنى التَّغافل الشَّديد[1]، وتصوير الحال، فإنَّ الإغماضَ هو غمضُ العَيْنَين، حتَّى لا يرى الرَّائي شيئًا، وهذا يزيد من تقبيح حال المُنفَق الرَّديء؛ فإنَّه يتطلَّب إغماضًا حقيقيًّا حتَّى لا يُرى، وهذا فيه تصويرٌ وتقبيحٌ لمدى رداءةِ المُنْفَق، ما لا يُصَوِّرُه لفظُ: إلّا أن تتغافلوا عنه، وممَّا يزيدُ هذا البيانَ التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة، فإنَّ الآخذَ يُغمِضُ عيْنَيْه في المالِ الرَّديء، بمجرَّد رؤيته، ولا يُجبِرُه عليه إلّا الحاجة، وهو ما يعكس قسوةَ قلبِ هذا المنفِق على الفقراء، وعدمَ احتياطه فيما يُخرِج.

بلاغة المجاز في لفظ الإغماض: كنايةً أو ستعارةً:

الإغماض هناءٌ، واستراحةٌ، وتسامحٌ، ومبالغة في التغافل

قال العماديُّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ "هو عبارةٌ عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمضَ بصره إذا غضّه"[2]. أو الكراهة فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه بل يغمض من بصره ويغضّ عنه بعض نظره بُغضًا[3].

فالإغماض إطباق الجفن ويطلق مجازًا على لازم ذلك، فيطلق تارة على الهناء والاستراحة لأن من لوازم الإغماض راحة، ويطلق تارة على لازمه من عدم الرؤية فيدل على التسامح في الأمر المكروه، فإذا أرادوا المبالغة في التغافل عن المكروه الشديد قالوا: أغمض عينه على قذًى، وذلك لأن إغماض الجفن مع وجود القذى في العين هو لقصد الراحة من تحرك القذى[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261.
(3) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 170.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/57-58.

بلاغة أسلوب الاستثناء:

الاستثناء تقييد للنفي، أو تأكيد للشيء بما يُشبه ضدّه

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ على وجه جعل الكلام إخبارًا، تقييدٌ للنفي. وأما على وجه جعل النفي بمعنى النهي فهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه أما لا تأخذوه إلا إذا تغاضيتم عن النهي وتجاهلتموه[1].

نُكتةُ الأمرِ بعلمِ المعلوم:

الأمر بعلم أنه الغنيُّ الحميد توبيخٌ على صنيعهم، وإيذانٌ بنعتهم بالجهل

أمرَ سبحانه وتعالى عبادَه أن يعلموا أنَّه الغنيُّ الحميد: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وهو أمرٌ معلومٌ يفيدُ "توبيخَهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث، وإيذانٌ بأنَّ ذلك من آثار الجهل بشأنه عن شأنه"[2]. فَنُزِّلَ المخاطبون الذين نُهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلةَ من لا يعلم أن الله غني، فأعطوا لوجهه ما يقبله المحتاج بكل حال ولم يعلموا أنه يحمد من يعطي لوجهه من طيب الكسب، وافتتحه بـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للاهتمام بالخبر[3].

اتِّساقُ الفاصِلة مع الآية:

في الفاصلة جمعٌ بين التَّرغيب والتَّرهيب، تحقيقًا لمنع التّصدّق بالرَّديء، وتقويةً لفعل ضدِّه

خُتِمَت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إعلامًا للمنفقين بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ باسمه الأعظم المستكمل لجميع صفات الكمال من الجلال والجمال[4]؛ ﴿غَنِيٌّ﴾ عن أموالهم، فهي "كَالتَّهْدِيدِ عَلَى إِعْطَاءِ الْأَشْيَاءِ الرَّدِيئَةِ فِي الصَّدقات، و﴿حَمِيدٌ﴾ بِمَعْنَى حَامِدٍ، أَيْ: أَنَا أَحْمَدُكُمْ عَلَى مَا تَفْعَلُونَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ"[5]، فهو "من أمثلة المبالغة، أي شديد الحمد؛ لأنه يُثني على فاعلي الخيرات"[6]، فجمَعَتِ الصِّفتان بين التَّرغيب والتَّرهيب، تحقيقًا لمنع هذا السُّلوك، وتقويةً لفعل ضدِّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/، والآلوسي، روح المعاني: 2/39.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/90.
(5) الرازي، التفسير الكبير: 5/55.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة: 268]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سبحانه في الآية السَّابقة مظهرًا من المظاهر التي تطرأ على النُّفوس من الشُّحّ والبخل، وهو الاستئثارُ بطيبات الكسب والرِّزق، والتَّخلُّص من رديء المالِ - ممَّا كان حرامًا أو مستقذرًا - عن طريق إنفاقه؛ نبَّه في الآية التي تليها على العلَّة الحقيقيَّة وراءَ ذلك المَظْهَر، وهي وساوس الشَّيطان، فكان صدرُ الآية بيانًا للعلَّة التي لأجلِها يتيمَّم المُنفقُ خبيثَ مالِه، وكان آخرُها بيانًا لعلاج هذا المظهر، فناسب مجيؤها في هذا الموقع أيَّما مناسبةٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾: الفُحْشُ[1]: هو القُبْحُ الشَّديدُ في كل قوْلٍ أو فعلٍ جاوَزَ قَدْرَه، وأصلُ هذه الكلمة يدُلُّ على قبحٍ في الأقوال والأفعالِ؛ كالفُحْشِ وَالْفَحْشَاء وَالْفَاحِشة، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا يُتَكَرَّهُ، وَأَفْحَشَ الرَّجُلُ: قَالَ الْفُحْشَ، وَفَحَشَ، وَهُوَ فَحَّاشٌ.

ومعنى القُبحِ ملحوظٌ في استعمالِ الآيات القرآنيَّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28]، و: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: 90]، ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الأحزاب: 30].

والفَاحِشُ: البَخيلُ، والبُخْلُ أقبَحُ خِصالِ المرْءِ، قَالَ طَرَفَةُ[2]:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي *** عقيلَة مَالَ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

يعني به: العظيمَ القبحِ في البُخْلِ.

واستُعمل لفظ الفحشاء في الآية الكريمة: ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ بمعنى البُخْلِ؛ لأنَّه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فحش).
(2) ديوان طرفة بن العبد، ص: 26.

ممَّا تستقبِحه العربُ أشدَّ الاستقباح، وهو من الفواحش الباطنة؛ فإنَّ نَفْسَ البخيل مشحونةٌ بمشاعر حادَّة قبيحةٍ نحو الآخرين.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

ابتدأت الآيةُ بذكر الشَّيطان لبيان قُبْحه، وقبح ما سيترتَّبُ على ذكره، وهو الوعدُ بالفقر، والأمر بكلِّ شيء مستقبحٍ ومستشنعٍ من قول أو فعل، وهما مدار تعاسة الإنسان في الدُّنيا والآخرة، ثمَّ قابلت ذلك بوعد اللّه تعالى عبادَه المؤمنين، بالمغفرة الصَّادرة عنه، والفضلِ الواسع، ومنه أن يُخلِف عليكم ما تصدَّقتم به، ويَزيدَ في أجوركم وأرزاقكم؛ دفعًا لوعد الشَّيطان الباطل، وإحقاقًا لما يجب أن يكون عليه المؤمنُ من الطَّاعات الواجبة والمستحبَّة، وعلى رأسِها الاستغفار وطلب الأفضال من اللّه تعالى وحدَه، فهو صاحبُ الوعد الحقِّ، وما دونه لا يعدو أن يكونَ باطلًا.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ تقديم ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

وجه تقديم الشيطان تخصيصه بالتخويف، والوسوسة

قُدِّم الفاعل ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ على فعله المضارع: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾؛ لتقوية الحكم الإسنادي، بل لامَسَ معنى الاختصاص؛ لأنَّ الذي يُخوِّف النَّاس من النَّفقة، ويُحذِّرُهم الفقرَ؛ لا يعدو أن يكون شيطانًا في ذاته، أو مُشْرَبًا بوساوس الشَّيطان، ويقوِّي هذا المعنى المقابلة بلفظ الجلالة. قال ابن عاشور: "قدَّمَ اسمَ الشَّيطان مسنَدًا إليه؛ لأن تقديمه مؤذِنٌ بذمِّ الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمِه، لتحذير المسلمين من هذا الحكم، كما يقال في مثال علم المعاني: (السَّفَّاح في دار صديقك)، ولأن في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تَقَوِّيَ الحكم وتحقيقَه"[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالوَعْد دون التَّخويف:

الوعدُ هو عَهْدٌ بإنجازِ أمرٍ في المستقبل، والفقر والغنى رزقٌ غيبيٌّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/59.

الوعدَ أبلغ في بيان حرصِ الشَّيطان على بخل المنفقين من التَّخويف

لا يعلم بحقيقته إلّا اللّه؛ فليس لمؤمنٍ أن يُسدِلَ أُذنيه ليسمع وعودًا لا يملِكُها إلّا اللّه وحدَه؛ لِذلك لم تُكذِّب الآيةُ الشَّيطان فيما وَعَدَ صراحةً، بل عدَلَت عن ذلك إلى المقابَلَةِ بوعدِ اللّه تعالى؛ لِيُعلَم كذبُه فيما زَعَم، وظاهرُ النَّظم أن يأتي بالتَّخويف لا بالوعد؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: 175]؛ ذلك أنَّ الوعدَ أبلغ في بيان حرصِ الشَّيطان على بخل المنفقين من التَّخويف، ويحمل معنىً زائدًا في توكيد وقوع الموعود به إنْ هم أنفقوا جيِّدَ أموالهم. قال العمادي: "الوعدُ هو الإخبارُ بما سيكون من جهة المخبِر مترتباً على شيء من زمان أو غيره يُستعمل في الشر استعمالَه في الخير؛ قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ [الحج: 72]، أي: يعدُكم في الإنفاق الفقرَ ويقول: إنّ عاقبة إنفاقِكم أن تفتقِروا، وإنما عبّر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يُضِف مجيءَ الفقرِ إلى جهته للإيذان بمبالغته في الإخبار بتحقّق مجيئه؛ كأنه نَزَّلَهُ في تقرّر الوقوعِ منزلةَ أفعالِه الواقعةِ بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابلة وعدِه تعالى على طريقة المشاكلة"[1].

استعمالُ لفظِ الوعد بين الحقيقة والمجاز:

استعمالُ الوعد باعتبار الصَّادر عنه والمتلقي، والفقر باعتبار ما سيكون في حقيقة الأمر

شاع بين اللّغويين والمفسّرين أن لفظ (الوعد) يُستعمل في الخير، والوعيد في الشَّر[2]، وبناءً على هذا حمل المفسِّرون اللفظ في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ على المجاز. قال ابن عاشور: "وسُمِّيَ الإخبار بحصول أمر في المستقبل وعدًا مجازًا؛ لأنّ الوعد إخبار بحصول شيء في المستقبل من جهة المخبر، ولذلك يقال: أنجز فلان وعده أو أخلف وعده، ولا يقولون: أنجز خبره، ويقولون: صدق خبره وصدق وعده، فالوعد أخصّ من الخبر"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261-262.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/39، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/59.

والصَّحيح الذي تقضي به البلاغةُ، أنَّ الوعد مستَعمَلٌ في حقيقته، ذلك أنَّ الشَّيطان لَمَّا وعدَ، لم يَعِد المنفقين بالفقر، بل بالغنى، فوعدُه لهم هو وعدُ خيرٍ فيما يسمعون ويتمنَّون ويرجون، والآيةُ أخبرت عن مآل هذا الوعد وما سيتحقَّقُ منه وهو الفقر، فالشَّيطان يعدهم الغنى في الدُّنيا، والآية تُخبرُ بحقيقة الوعد ومضمونه ومآله وهو الفقر؛ وعليه فاستعمالُ الوعد باعتبار الصَّادر عنه والمتلقي، والفقر باعتبار ما سيكون في حقيقة الأمر، وهذا من بديع استعمال الألفاظ على معانيها الحقيقيَّة.

التَّعبيرُ بالأمرِ دُونَ الوَسْوَسة:

إظهـارُ أثـر الـشَّـيـطـانِ ومُـكـنـتـه في نـفوس بَـعْـضِ الـمُـنْـفـقـين؛ للارتداعِ والأَوْبَة

لاستعمالِ مفردة (الأمر) في قولِه: ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ وَقْعٌ بليغ، ذلك أنَّ الشّيطان لَمَّا أصبح ذا سُلطةٍ ومُكْنةٍ على نفوس البخلاء، أصبحتْ وَسْوَستُه وغوايته بمثابة الأمر؛ فهو المتبوعُ في أوامره وإرشاداته، فوقع هذا الإخبار موقعَ التَّحذير من المكانة التي وصلها هؤلاء المنفقون؛ ليرتدعوا عمَّا هم عليه؛ فإذا عَلِم هذا المنفقُ أنَّه بفعلِه المذموم يتبع أوامرَ الشَّيطان؛ فإنَّ ذلك أدْعى للمسارَعَة في الأوبة والرُّجوع إلى دائرة الاتِّباع الحقيقيَّة، إن كان أصلُ الإيمان حاضرًا.

وفي استعمال لفظ (الأمر) وجه مجازيٌّ:

قال ابن عاشور: "وإطلاق الأمر على وسوسة الشيطان وتأثير قوته في النفوس مجاز؛ لأن الأمر في الحقيقة من أقسام الكلام"[1].

استعمالُ مفردةِ الفَحْشاء دونَ البُخْلِ:

بـيـانُ مـآلِ الـبُـخـلِ، وأثـره الـسَّـيِّـئ على المجتمع المُسْلم

الفحشاءُ اسمٌ لفعلٍ أو قولٍ شديد القُبح، مُشتقٌّ من الفُحْش، وهو تجاوُزُ الحدِّ، وخَصَّه الاستعمالُ بالتَّجاوز في القبيح، أي: يأمركم بفعلٍ قبيح، وهذا ارتقاءٌ في التَّحذير من الخواطر الشيطانية التي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/59.

تدعو إلى الأفعال الذَّميمة[1]؛ فالشيطان لا يأمرُ بالبُخْل فحسب، بل يَأْمرُ بالبُخلِ الفاحِش؛ لأنَّ البُخلَ مقتصرٌ على صاحبِه، وأمَّا البُخلُ الفاحشُ فهو الذي يمنعُ الحقوقَ، وينشِئُ العداوَةَ بَيْنَ النَّاس، والبخيلُ الفاحِشُ دَمارٌ على المجتمعِ المُسْلِم؛ لأنَّ فُحْشَه يُصبحُ منهجَ حياةٍ، والبخيلُ يَبْقى خبيئًا تحت سِتْرِ خَوْف الفضيحَةِ ما لَمْ يبلُغ الفُحشَ؛ فإنَّه يُمسي حينئذ وبالًا على النَّاس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: 37].

بلاغة العطف في الآية:

في العطف إظهار للفرق بين دعوة الشيطان ودعوة الله تعالى

عطف جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ على جملة ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾؛ لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوس الشيطان وما تدعو إليه أوامر اللّه تعالى[2].

أثرُ التَّقديمِ والتَّأخير في بيان المعاني:

ذِكْرُ وَعْدِ الله بَعْدَ وَعْدِ الشَّيطانِ كفيلٌ بإزاحتِه كُلِّيًّا

قابلتِ الآيةُ بين وعد الشَّيطان ووعد اللّه، وابتدأَتْ بذكرِ وعد الشَّيطان؛ ذلك لأنَّ ذكرَ وعد اللّه بعد وعد الشَّيطان كفيلٌ بإزاحته كُلِّيًا، ولا معنى للعكس، فإنَّ مقصودَ تقديم وعدِ الشَّيطان هو التَّأكيدُ على علَّة البُخل، وتأخير ذكرِ وعد اللّه هو بيانُ وسيلة دَفْعِ الباطِل المتقدِّم ذِكْرُه، وهذا من وسائل تثبيتِ ركائز الحقِّ، أن يُدفع الباطلُ بالحقِّ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ [الأنبياء: 18].

بلاغة الايجاز بالاستغناء بالمذكور:

لما كان أمر الشيطان بالفحشاء إنما هو لأجل وعده بالفقر؛ لأن من خافَ بخِلَ بماله، والبخل سبب ارتكاب سائر الفواحش

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/60.

لقوله ﷺ: "وأي داء أدوى من البخل؟"[1]، استغنى أن يذكر في مقابل قوله: ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ بما ذكر من قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾؛ لأن أمر الله تعالى بالخيرات والحسنات معلوم وإنما المجهول أمر الشيطان، إذ كان أمره يخفى على الجهال وإنما يعرفه أولو الألباب[2].

أمر الله تعالى بالخيرات والحسنات معلوم، وأمر الشيطان مجهول على الجهّال

نكتة مقابلة الفقر بالمغفرة والفضل:

قابل الفقر بالمغفرة والفضل، والفضل أعم من الغنى، لأنه يتناوله وغيره، فبين أنه يعد بالغنى وزياداتِ فضلٍ، فأتى في مقابلة وعد الشيطان بالمغفرة، أنه يغفر مع ذلك انقيادكم للشيطان، وسائر الذنوب[3].

إنّ من فضل الله تعالى أنّه يغفر الانقياد للشيطان، وسائر الذنوب

بلاغة تنوين المغفرة وتنكيرها وصفها:

المغفرةُ التي يعدُ الله بها عبادَه المتَّقين هي مغفرةٌ عظيمة، فالتنوينُ في ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ للتَّفخيم، وكذا تنكيرها، وصفُها بقوله تعالى: ﴿مِّنۡهُ﴾؛ فهو مُؤكِّدٌ لفخامتها؛ لأنَّها صادرةٌ عنه سبحانه، وممَّا يزيدُ من فخامتِها عَدَمُ تعريفِها إلّا بكونِها صادرةً عنه، وكونِها داخلةً في وعدِه[4]، وأكرِمْ به من وعد!

التنوينُ في المغفرة للتَّفخيم، والوصف بـ (منه) تأكيد للفخامة لصدورها عنه تعالى

تقديمُ المغفرةِ على الفَضْل:

قُدِّمَت المغفرةُ على الفضل؛ لتوجيه الأَنْظار إلى أنَّ العِبرَةَ فيما يُهذِّب النَّفسَ من فُحشِ الحياة ومعاصيها، وأنَّ المسلمَ أحوجُ ما يكونُ إلى المغفرة من الله تعالى؛ لأنَّه بطلب المغفرة يستحقُّ الوعْدَ الكريم، ثم بعد ذلك ذكَرَ الفضلَ، وهو يشمَلُ فضلَ الدُّنيا والآخرة،

تقديمُ الأَوْلى بالرِّعاية والعَمَل، من بابِ التَّخلية قبل التَّحلية

(1) البخاري، الأدب المفرد، حديث رقم: (296)، والطبراني، المعجم الأوسط، حديث رقم: (8913).
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/566.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/566.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/566.

فأوَّلُ ما يجبُ أنْ يعتنيَ به المؤمنُ في أعمالِه تحصيلُ المغفرة، ثمَّ بعد ذلك تتَّجه الأنظار إلى المنافع الأخرى؛ إذْ مقدِّمتُها المغفرةُ.

إيجازُ القَصْرِ في لَفْظِ المغفرة:

الاكتفاءُ بالإشارةِ إلى المعلومِ، والتَّنبيهُ على ذلك بأدنى عبارة

في قوله تعالى: ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ إيجازُ قَصْرٍ؛ ذلك أنَّ اللّه وعدَ عِبادَه بالمغفرةِ إنْ همُ استغفروا، فكأنّ نَظْمَ الآيةِ: واللّه يعدكم مغفرةً منه فاستغفروه، أو إنِ استغفرتُم، فهي قد تَضمَّنَت الأمرَ بالاستغفارِ، لاسيَّما أنَّها اقترنَتْ بالفضل، واللّه يغفرُ لمن يشاءُ من عبادِه، وفائدةُ الإيجازِ عِلمُ المخاطَب بذلك، وعدمُ جَهلِه به.

مناسَبَةُ فاصِلة الآيةِ لصدرِها: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

لمّا بدَأَت الآيةُ بوعد الشَّيطان وهو الفقر، ناسَبَ بيانُ سَعَة عطاء اللّه لعباده، فإذا كان الشَّيطانُ يعِدُ النَّاس الفقرَ إنْ أنفقوا؛ فإنَّ اللّه يَعِدُهم السَّعةَ إنْ أنفقوا، وعلى هذا جاءت الفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ تذييلًا مقرِّرًا لمضمونِ ما قبلها[1].

تنزيلُ الصِّفة من الصِّفة منزلةَ العلَّة من المعلُول:

حثُّ المؤمنين على الأعْمَالِ الصَّالِحة، وحضُّهم على الخَير

نُزِّلَتْ صفةُ ﴿عَلِيمٌ﴾ منزلةَ العلَّة لصفة ﴿وَٰسِعٌ﴾؛ فالآيةُ أخبرتْ أنَّ اللّه سبحانه وتعالى واسعٌ في عطائه، لا يحجبُه عن أحدٍ من عبادِه؛ لأنَّه عليمٌ بما يُصلِحهم في الدُّنيا، عليمٌ بما يستحقونَه من الفضل والعدْل في الآخرة، فمَنْ طَلَبَ عطاءَ اللّه الواسع؛ فعليه أنْ يُريَه من إقدامِه على الطَّاعات؛ فهي قد تضَمَّنَتِ الحثَّ على الأعمالِ الصَّالِحة والحضَّ على الخَيْر.

بيانُ دلالة التوهين والترغيب في الفاصلة:

التوهين لكيد الشيطان، والترغيب للمفتون بخوف الفقر

في جملة الفاصلة توهينٌ لكيد الشيطان ووعدٌ كريمٌ للمفتون بخوف الفقر وعمل الفحشاء؛ لما يعلمه تعالى من ضعف الأنفس وسرعة قبولها من الوسواس[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/262.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/92.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ في فاصِلَة الآيةِ السَّابقة أنَّه سبحانه واسعٌ عليمٌ، ناسَبَ أنْ يذْكُرَ في هذه الآية إيتاءَه الحكمة لمن يشاء من عبادِه، وهو إيتاءٌ مبنيٌّ على سَعَة عطائه، وبالغِ علمِه، ولمَّا قال سبحانه في الآية السَّابقة: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ ذَكَر في هذه الآيةِ مثالًا عظيمًا من أمثلة الفضل الإلهيِّ العظيم، وهو الحكمة، تنبيهًا أنَّ الأمرَ بيد اللّه وحدَه، وأنَّ على العبادِ - إنْ هُم طلبوها من مظانِّها، ونأَوْا بأنفسِهم عن الشَّيطان ووعودِه - أن يجتهدوا في تحصيلِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾[1]: أصلُ الحكم: المنع لإصلاحٍ، وهو مأخوذٌ من حَكَمَة الدَّابَّة، وهو اللِّجام، فقيل: حَكَمتُه وحَكَمْتُ الدَّابَّة: منعتها من الجِماح بالحَكَمَة، وأَحْكَمْتُهَا: جعلت لها حَكَمَة، وكذلك: حَكَمتُ السَّفيه وأحكَمْتُه، والحِكْمَةُ: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من اللّه تعالى معرفة الأشياء وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات.

والحُكْمُ أعمُّ من الحِكْمَة، فكلُّ حِكمَة حُكْمٌ، وليس كلُّ حكم حِكمَةً؛ فإنَّ الحكمَ أنْ يُقضَى بشيء على شيء حكمًا نافذًا بالحكمة، أمَّا الحكمة فهي إصابة الحقِّ بالعلم والعقل.

وقد اختلف في المُرادِ بالحِكْمَةِ على أَحَدَ عَشَرَ قَوْلًا، قال ابن عطية: "وهَذِهِ الأَقْوالُ كُلُّها ما عَدا قَوْلِ السُّدِّيِّ قَرِيبٌ بَعْضُها من بَعْضٍ، لِأَنَّ الحِكْمَةَ مَصْدَرٌ مِنَ الإحْكام وهو الإتْقانُ في عَمَلٍ أو قَوْلٍ - وكِتابُ اللّهِ: حِكْمَةٌ - وسُنَّةُ نَبِيِّه: حِكْمَةٌ، وكُلُّ ما ذُكِرَ فَهو جُزْءٌ مِنَ الحِكْمَةِ الَّتِي هي الجِنْسُ"[2].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/364، وينظر: ابن الجوزي، زاد المسير: 1/242.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أبرزَت الآيةُ قيمة الحكمة التي يُؤتيها اللّه لعبادِه المخلصين، فإنَّ الإصابة في القول والفعل من أعظم خيرٍ ينالُه عبدٌ في هذه الدُّنيا، وهو محضُ فضل وعطاءٌ من اللّه تعالى، ومؤتاه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقِّف على الحكمة، وأنَّ الخَيْرَ الحقيقيَّ لا يقتصِرُ على المالِ وتوابِعِه بل يتعدَّاه إلى ما هو أعظمُ من ذلك، وهو الخير المُعين على الدَّار الآخرة، وجِماعُه في كلمة الحكمة، ولا يتَّعِظ بمواعظِ اللّه تعالى - فيذكُر وعْدَه ووعيدَه، فيَمتثِل لِمَا أُمر به، ويَنتهي عمَّا نُهي عنه - إلَّا أصحابُ العقولِ الكاملة المستنيرةِ بنور اللّه وهدايته، وآثرتِ الآيةُ ذِكرَ أصحاب العقول الزكيَّة؛ لأنَّ الحكمةَ تكون غالبًا في رأي المجموع، لا في رأي فردٍ بعَيْنه.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الفصل بجملة الاعتراض والتذييل:

في الفصل تنبيه الى نفاسة ما وعظهم الله به، وتنبيههم إلى أنهم قد أصبحوا به حكماء

الآيةُ الكريمة اعتراضٌ وتذييلٌ لما تضمنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة، مما يكسب العاملين به رجاحة العقل واستقامة العمل. والغايةُ التنبيهُ إلى نفاسة ما وعظهم اللّه به، وتنبيههم إلى أنهم قد أصبحوا به حكماء بعد أن كانوا في الجاهلية جهلاء[1].

الابْتداءُ بالفعليَّة لا الاسميَّة:

إظهارُ أهميَّة إيتاء الحكمةِ في توفيق العبادِ

ابتدأَت الآيةُ بالفعل المضارِع ﴿يُؤْتِي﴾ لا بالاسم، كما في الآية السَّابقة: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ فلم يكنِ النَّظمُ: (اللّه يُؤتي الحكمة)، ذلك أنَّ المقصودَ هو بيانُ إيتاءِ الحكمة، وإظهارُ بالِغِ أهميّتها، وترغيبُ النَّاس بِها، وبيان أنَّها من أعظم وأرْجى ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/61.

ينالُه العبدُ من الخَيْر، وهذا ما تُحقِّقُه الجملةُ الفعليَّة دون الاسميَّة؛ لما يُصوِّره الفعل من الخير المتجدِّد.

دلالةُ صوغ الإيتاء على هيئة المضارِع:

وجه المضارعة أنَّ إيتاءَ الحكمة مستمرٌّ في الزَّمان والمكان والإنسان، فهو إيتاءٌ مستمرٌّ بمشيئته تعالى

دلَّ الفعل المضارِعُ ﴿يُؤۡتِي﴾ على التَّجدُّدِ المستمِرّ، بمعنى أنَّ إيتاءَ الحكمة ليس متوقِّفًا على زمنٍ دون آخر، أو على قومٍ دون آخرين، أو على مكانٍ دون مكان، بل هو مستمرٌّ في الزَّمان والمكان والإنسان، فهو إيتاءٌ مستمرٌّ بمشيئة الله تعالى، وهو ما يجعل المُؤمنَ حريصًا أشدَّ الحِرصِ على نيلها، والتَّحلي بآثارِها.

نُكْتةُ حَذْفِ مفعولِ المشيئة:

إيتاءَ الحكمة مُرتَهنٌ بالاختيار الإلهيّ المطلَق، ولإبرازِ معنى الاختيار

جرتْ عادَةُ الاستعمال القرآنيّ على حذفِ مفعولِ المشيئة ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾، ولكلِّ سياقٍ قرآنيّ نُكتتُه الخاصَّة به، وفي هذا السِّياق لم يجرِ ذِكرُ المفعول، ولا ذكر قيدٍ كأنْ يقول: من عباده المتقين، أو المصلِحين، أو المحسنين؛ ذلك أنَّ إيتاءَ الحكمة مُرتَهنٌ بالاختيار الإلهيّ المطلَق، ولإبرازِ معنى الاختيار، وأنَّها غير مرتبطةٍ بأسبابٍ محدَّدةٍ حُذِفَ مفعولُ المشيئة، وفيه دلالةٌ على عظيم عطاء الله تعالى.

نُكْتةُ بِناءِ الفِعْل للمفعول:

بيانُ فضيلةِ من نالَ الحكمة وشرفه

بُني فعلُ إيتاء الحِكْمةِ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ إمَّا لأنَّ المقصودَ بيانُ فضيلة مَنْ نَالَ الحِكمةَ بقطع النظر عن الفاعل، وإمَّا لتعيُّن الفاعل[1]، ومعرفة النَّاس به، وإمَّا جمعًا بين الأمرَيْن وهو الأظهر؛ فإنَّه لمَّا عُرِفَ المؤتي سبحانه في السِّباق، كان إبرازُ إيتاءِ الحِكمة هو الأَوْلى في نَظْم هذه الجملة، ويؤيِّد ذلك قراءةُ يعقوب: ﴿وَمَن يُؤۡتِ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ على تقدير: ومن يُؤتِه اللّه الحكْمَةَ[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/40.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/64.

وجه جَرَيانُ جُمْلة إيتاء الحكمة مَجْرَى الأمثال:

تصلُحُ جُمْلة إيتاء الحكمة أن تكون شاهدًا لكلِّ قول صائِب، ورأيٍ راجِح، وفعلٍ حميد

من الجُملِ القرآنيَّة ما يصلُحُ أنْ يكونَ مَثَلًا سائرًا بينَ النّاس، تتلقَّاه الألسُنُ، وتتشنَّفه الأسماع، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾، ذلك أنَّ نظْمَ هذه الجملة بُني على شرطٍ وجوابه، وتضمَّن معانيَ تحتاجُها الأممُ والمجتمعات، واكتنَزَ حقائقَ يَحرِصُ عليها العقلاءُ من العلماء، تصلُحُ أن تكونَ شاهدًا لكلِّ قول صائِب، ورأيٍ راجِح، وفعلٍ حميد، ويطمَعُ في نَيْل شرَفِ أن تُقالَ فيه كلُّ متفاخرٍ ومتواضع، وهي من الجمل السَّلِسَة في الألسُن، السَّهلة في الحفظ، وهذا من بلاغة هذه الجملة الفذَّة، وفصاحَةِ هذه الدُّرَّة.

سرُّ إظهارِ ما حقُّه الإضمارِ:

إظهارُ الحكمة لمزيد العناية بشأنها

أظهرَتِ الجملةُ القرآنيَّةُ لفظَ ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وحقُّها الإضمارُ؛ للاعْتناء بشأْن هذا المُظْهَر، وللإشعار بعلَّة الحُكْم[1]، ولبيانِ أنَّها المقصودُ بالمَدْح.

نُكتَةُ تَكرارِ فعل الإيتاء في سياقٍ واحد:

أعظم ما ينالُه العبدُ في هذه الدُّنيا هو الحكمةُ الموصِلة إلى معرفةِ المطلوب المُنْجي عند الله تعالى

تكرَّر ذكرُ الإيتاءِ في هذا السِّياق ثلاثَ مرَّاتٍ، وفي جميعِها كانت أفعالًا، وهو ما يدُلُّ على أنَّ الأفعال التي تُذكَرُ في السِّياق الواحد من مادَّة واحدة، مقصودةٌ لذاتها، وأنَّ التَّفنُّن غيرُ مرادٍ في كتابِ الله تعالى، بل إنَّ الأمر قائمٌ على اختيارِ الألفاظ بناءً على المعاني؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ [الشعراء: 19- 20]، فقد تكرَّر لفظ الفعل أربع مرَّات، ومعنى الإيتاءِ هو المقصودُ هنا، فإنَّ لفظَ الإيتاءِ يُستعمَل فيما يُنالُ في الدُّنيا، بخلاف الإعطاء، فهو يُستعمَل فيما يُنال في الدُّنيا والآخرة، وذكرُه هنا لبيان أنَّ أعظمَ ما ينالُه العبدُ في هذه الدُّنيا هو الحكمةُ الموصِلة إلى معرفةِ المطلوب المُنْجي عند الله تعالى.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/262، والآلوسي، روح المعاني: 2/40.

إيثارُ لفظِ الخَيْر على مُرادِفاته ووصفُه بالكثير:

دلَّ اللفظ على أنواعِ الخير المعنويَّة عبارةً، وأنواع الخير الماديَّة إشارةً

يُعطي لفظُ الخَيْر معانيَ عديدةً من العقل الرَّاجح، والقول الصَّائب، والقرار المتين، والأفعالِ الصَّالحة، ويُشعرُ كذلك من باب الإشارة بما يُصيبُ العبدَ من المالِ الوفير؛ فإنَّ من معاني الخَيْر المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: 8]، وهو ما ينسجِم مع وصف الخَيْر بالكثير؛ فإنَّ هذا الوصف ليُنادي على كثرةِ النِّعم، ومنها النِّعم الماديَّة، ويأتلف بالسِّياق، فإنَّ الآية السَّابقة أشارت إلى وعدِ الله تعالى بالفضل، والمال من فضل الله الذي ينالُه العبد في دنياه، وهو ما يتناسبُ مع مقابلة وعد الشَّيطان بالفَقْر، وفَهْمُ مثل هذه الإشارات القرآنيَّة الخبيئة تحت الأسْتار اللفظيَّة من الحكم الخفيَّة، التي لا تظهرُ إلّا لأولي الألباب.

علّة إيثارِ لفظِ التَّذكّر دون التَّفكُّر أو العقل:

أُوثـر لـفـظ التذكّر؛ لإنَّ من أكثر ما يغيب عن العقل هو المعاني الصَّحيحة بتنزيلِها على مستجدَّات الحياة، وهو ما يُميِّز العقلاء

يُطلَق الذِّكرُ ويُرادُ به ذكرُ المعاني والألفاظ، والمراد في الآية هو ذكر المعاني التي يقتضيها الشَّرع والعقل، والتَّذكُّر هو تفعُّلٌ بين الذّاكِر والمذكور، وإنَّ من أكثر ما يغيب عن العقل هو المعاني الصَّحيحة بتنزيلِها على مستجدَّات الحياة، وهو ما يُميِّز العقلاء، فإنَّ عقلَهم يستدعي تلك المعاني، ويجعلها حاضِرةً غيرَ غائِبة، ولذلك ذكرتِ الآيةُ أنَّ التَّذكُّرَ هو مزيَّةُ أولي الألباب.

التَّعبيرُ بالألباب دون العقول أو النُّهى:

اللُّبُّ أعلى درجةً من العقل، ومحفوظٌ من الأطراف

اللُّبُّ هو العقلُ الخالصُ من الشَّوائِب، فهو درجةٌ أعلى من درجة العقل، وملحوظٌ فيه التَّوسُّط والاعتدال، فإنَّ لُبَّ كلِّ شَيْءٍ وسطُه، ولا تكون الحكمةُ إلّا في الوسَطِ المحميِّ من الأطراف، وهذا يدلُّ على أنَّ الألباب ليس مجرَّد وصف ذكاء أو ذاكرة، بل هو وصفُ عقلٍ رفيعٍ في ذاته، عظيم الشَّأن في آثاره.

بلاغةُ استعمالِ الألبابِ جمعًا:

الآراءُ السَّديدة، والأقوال الحكيمة، إنَّما تصدُر عن الجماعات لا عن الأفراد

استُعملَ لفظُ الألبابِ جمعًا في القرآن الكريم؛ للإشارَةِ إلى أنَّ التَّذكُّر والتَّعقُّلَ يجبُ أنْ يكون فعلًا جماعيًّا، فلا يستَقِلّ الواحِد برأْيِه، فإنَّ الفسادَ يُسارِع إليه، وما كانتِ الحِكمَةُ إلّا في الجماعات النَّاهضة، والأقوام المتكاتفة، وما امتازَتْ أمةٌ بذكاء أفرادِها، بل بائتلافِ جماعاتِها، وحسن تراصِّ عقول رجالاتِها.

دلالةُ الحَصْر في الفاصِلة:

الاعتبارُ والاتِّباعُ لأقوالِ أولي الألبَاب

جاءَتِ الآيةُ بأسلوبِ الحَصْرِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ لا لغرَض الإخبار فحسْب، بل لغرَضِ الاعتبار والاتِّباع؛ فإنَّ النَّاس إن علموا أنَّ تذكُّر الحكمة، لا يكون إلّا لأولي الألباب، حرصوا على اتِّباعهم، والعمل بمقتضى كلامِهم، هذا ما يقضي به الحصْرُ، ويُعيِّنه الذِّكْرُ، أمَّا الإخبار المجرَّد، فلا معنى له في ذاته.

ردُّ الفاصِلة على صَدْر الآية:

تحقيقُ بديع الإيجازِ بردِّ أوَّلِ الآيةِ على فاصلتِها

من أعجب أفانين الآيات القرآنيَّة، أنْ تُرَدَّ فاصِلَةُ الآية على صدرِها، فقد ذكرتِ الآيةُ أنَّ الحكمةَ يُؤْتيها اللّٰه من يشاءُ من عبادِه: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾، والذين يُؤتيهم اللّٰهُ الحكمةَ ذكرتهم فاصِلَةُ الآية: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ فكأنَّه قال: يُؤتي الحكمة أولي الألباب؛ وهذا من بديع الإيجاز في القرآن الكريم.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء في الجملة أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأن الإعطاء له مطاوع تقول: أعطاني فعطَوْتُ، ولا يقال في الإيتاء: أتاني فأتيتُ، وإنما يقال فأخذتُ، فالفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوع له؛ لأنك تقول قطعته فانقطع، فيدلُّ على

أنَّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قبول في المحل، لولاه ما ثبت المفعول، ولهذا يصحُّ: قطعته فما انقطع، ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز ضربته فانضرب، أو فما انضرب، ولا قتلته فانقتل، ولا فما انقتل؛ لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحل، والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها، فالإيتاء أقوى من الإعطاء.

وهذا المعنى مراعى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلا من له قوة، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، و﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؛ لعظم القرآن وشأنه.

وقال في أمر الإعطاء: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنه مورود في الموقف مرتحل عنه قريب إلى منازل العز في الجنة، فعبر فيه بالإعطاء؛ لأنه يترك عن قرب وينتقل إلى ما هو أعظم منه، وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، لما فيه من تكرير الإعطاء والزيادة إلى أن يرضى كلَّ الرضا، وهومفسَّر أيضًا بالشفاعة وهي نظير الكوثر في الانتقال بعد قضاء الحاجة منه، وقال: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: 50]؛ لتكرر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وقال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [التوبة: 29]؛ لأنها موقوفة على قبول من المسلمين وإنما يعطونها عن كُرْه(1).

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (أتى)، والسيوطي، معترك الأقران: 3/488، والإتقان: 2/362.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾ [البقرة: 270]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ الأَمْرِ الكُلِّيِّ الشَّامِلِ لِجَميعِ أَفْرادِ النَّفَقاتِ والنُّذورِ، بَعْدِ بَيانِ ما كانَ مِنْها في سَبيلِ اللهِ تَعالى

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تَعالى أَنَّ الإِنْفاقَ يَجِبُ أَنْ يَكونَ مِنْ أَجْوَدِ المالِ، في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾، وطَلَبَ وَضْعَهُ وجَمْعَهُ بِوَجْهِ الحِكْمَةِ في قَوْلِه: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِه: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾؛ حَثًّا على النَّفَقَةِ في الخَيْرِ والوَفاءِ بِالنَّذْرِ، وتَأْكيدًا لِلْكَلامِ السَّابِقِ المَسوقِ لِلأَمْرِ بِالإِنْفَاقِ وَبَيانِ صِفاتِه[1]؛ وتَحْذيرًا مِنَ الإِنْفاقِ في المَعْصِيَةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفَقۡتُم﴾: صَرَفْتُمْ وأَعْطَيْتُم[3]، يُقالُ: أَنْفَقَ الرَّجُلُ المَالَ؛ إذا صَرَفَهُ، وأَذْهَبَهُ، وأَصْلُ الفِعْلِ (نَفَقَ): يَدُلُّ عَلَى انْقِطاعِ الشَّيْءِ وَذَهَابِه، يُقالُ: نَفِقَ مَالُهُ وطَعامُهُ؛ إذا فَنِيَ، وذَهَبَ، والنَّفَقَةُ هُنا: ما يُصْرَفُ مِنَ النُّقودِ وغَيْرِها مِمَّا يَصَّدَّقُ فيه الإنفاقُ[4].

2) ﴿نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾: أَوْجَبْتُمْ، وأَلْزَمْتُمْ؛ مِنْ نَذَرْتُ على نَفْسي النَّذْرَ أَنْذُرُهُ، أَيْ: أَوْجَبْتُه، وأَصْلُ (نَذَرَ) يَدُلُّ على إِعْلامٍ وتَخْويفٍ، يُقالُ: نَذِرَ بِالعَدُوِّ، وأَنْذَرَهُ: أَعْلَمَهُ وحَذَّرَهُ، ومَعْنى النَّذرِ هُنا: إِيجابُ المَرْءِ على نَفْسِه ما لَيْسَ بِواجِبٍ لِحُدوثِ أَمْرٍ[5].

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْويرُ: 3/65.
(2) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/97، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/59.
(3) ابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآن: ص: 81.
(4) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، ابْنُ منْظورٍ، لِسانُ العرب، جبل، الْمُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ الْمُؤصّلُ: (نفق).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، الرّاغِب، الْمُفْردات: (نذر)، والفيرُوزابادي، بصائِرُ ذوي التّمْييز: 5/34، وجبل، الْمُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (نذر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إيـقـانُ المـؤمـنِ باطِّلاعِ رَبِّهِ عَلى قَوْلِهِ وفِعْلِهِ؛ هُوَ الدَّافِعُ لِلْإِخْلاصِ

وما أَعْطَيْتُمْ مِنْ مالٍ أَوْ غَيْرِهِ كَثيرٍ أَوْ قَليلٍ في الخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ، أَوْ أَوْجَبْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِعْلَ طاعَةٍ للهِ لَمْ تُكَلَّفوا بها؛ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ذلكَ كُلَّهُ، فَلا يَضيعُ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْهُ، وهُوَ المُطَّلِعُ على نِيَّاتِكُمْ، وسَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الجَزَاءِ لِلْعَامِلينَ لِذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَرَجَاءَ مَوْعُودِهِ، ولَيْسَ للوَاضِعِينَ لِلنَّفقاتِ والنُّذورِ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا، مِنْ أَعْوانٍ يَدْفَعونَ عَنْهُمْ عَذابَ اللهِ ونِقْمَتَهُ[1].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التذييل[2] في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾:

التَّـذْكِـيرُ بِعلمِ الـلّـهِ لـلـنَّـفَـقَاتِ وَصِفَاتِهَا

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾ تَذْييلٌ لِلْكَلَامِ السَّابِقِ المَسوقِ لِلْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ وَصِفاتِهِ المَقْبُولَةِ، وَالتَّحْذيرِ مِنَ المُثَبِّطَاتِ عَنْهُ ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: 267]، وَالمَقْصُودُ مِنْ هذَا التَّذْيِيلِ التَّذْكيرُ بِأَنَّ اللّٰهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ النَّفَقاتِ وَصِفاتِها، وَأُدْمِجَ النَّذْرُ مَعَ الْإِنْفَاقِ، فَكانَ الكَلامُ جَديرًا بِأَنْ يَكونَ تَذْييلًا[3].

إفـادَةُ العُـمومِ لِلنَّفَقاتِ كلِّها بَعْدَ ذِكْرِ ما كانَ مِنْها في سَبيلِ اللهِ

بعد أن ذَكَرَ في السِّياقِ السَّابقِ النَّفقاتِ التي هي في سبيلِ اللّٰهِ تعالى، ذكر في هذه الآيةِ عمومَ النَّفقاتِ، ودَليلُ هذا العُمومِ دُخولُ ما الشَّرْطيَّةِ في: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾ التي تُفيدُ العُمومَ المُسْتَغْرِقَ لِكُلِّ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ؛ ويَجوزُ أَنْ تَكونَ ﴿وَمَآ﴾ مَوْصولَةً حُذِفَ عَائِدُها مِنَ الصِّلَةِ، أَيْ: وما أَنْفَقْتُموهُ، ويَكونُ هَذا مِنْ قَبيلِ الإِيجازِ بِالحَذْفِ[4].

---

(1) ابْنُ كثيرٍ، تفْسيرُ ابْنِ كثيرٍ: 1/701، ولجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنتخبُ في تفسيرِ القُرآنِ الكريمِ، ص: 64، ونُخْبةٌ مِنَ العلماءِ، التّفْسيرُ المُيسّرُ، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسيرِ، المُختصرُ في تفسيرِ القُرآنِ الكريمِ، 46.

(2) التّذْييلُ: هو تعْقيبُ الجُمْلةِ بِجُمْلةٍ أُخرى تشْتمِلُ على معْناها لِلتّأْكيدِ. يُنْظرُ: إبْراهيمُ بْنُ مُحمّدٍ الحنفيّ، الأطْولُ شرْحُ تلْخيصِ مِفْتاحِ العُلومِ، 01/70.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْويرُ: 3/65.

(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/131.

فَمَا شَرْطِيَّةً كانَتْ أَوْ مَوْصولَةً تُفيدُ عُمومَ النَّفَقَةِ قَليلةً أَوْ كَثيرَةً، في حَقٍّ أَوْ باطِلٍ، في سِرٍّ أَوْ عَلانِيَةٍ؛ وعُمومَ النَّذْرِ، سَوَاءٌ كانَ في طاعَةٍ أَوْ مَعْصيَةٍ، بِشَرْطٍ أَوْ بِغَيْرِ شَرْطٍ، مُتَعَلِّقٍ بالمالِ أَوْ بالأَفْعالِ[1]؛ فَفي قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ بَيانٌ لِحُكْمٍ كُلِّيٍّ شامِلٍ لِأَفْرادِ النَّفَقاتِ وما في حُكْمِها إِثْرَ بيانِ حُكْمِ ما كَانَ مِنْهَا في سَبيلِ اللّهِ[2].

الغَرَضُ مِنْ دُخولِ (مِنْ) البَيانيَّةِ عَلى النَّكِرَة:

التَّفْصيلُ وتَأْكيدُ الاِسْتِغْراقِ والعُمومِ

أفاد حرفُ (مِنْ) في قَوْلِه: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ و ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ بَيَانَ ما أُنفِقَ ونُذِرَ، ولَمَّا كَانَ شَأْنُ البَيَانِ أَنْ يُفِيدَ مَعْنًى زائِدًا عَلَى مَعْنَى المُبَيَّنِ، وَكَانَ مَعْنَى البَيَانِ هنَا عَيْنَ مَعْنَى المُبَيَّنِ الذي جاءَ بِصُورَةِ الجناسِ الاشْتِقاقيِّ[3]؛ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ المَقْصُودُ مِنْهُ بَيَانَ المُنْفَقِ وَالمَنْذُورِ، بِمَا في تَنْكِيرِ مَجْرُورَيْ ﴿مِّن﴾ وتَنْوِينِهِما مِنْ إِرَادَةِ كلِّ أَنْوَاعِ النَّفَقَاتِ وَالمَنْذُورَاتِ، مَعَ اسْتِحْضارِ أَنَّ النَّكِرَةَ في سِياقِ الشَّرْطِ مِنْ صِيغِ العُمومِ أَيْضًا[4]. فَأَكَّدَ بِذَلِكَ العُمُومَ الذي أَفَادَتْهُ مَا الشَّرْطِيَّةُ، ومِثْلُ هَذَا البَيَانِ يَكونُ لِتَأْكِيدِ العُمُومِ وَمَنْعِ الخُصوصِ[5].

فائدَةُ تأكيدِ الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾:

اسْتِشْعارُ مُراقَبَةِ اللهِ وعِلْمِهِ بالنِّيَّاتِ جالِبٌ لِلْحياءِ دافِعٌ لِلرِّياءِ

تَصْديرُ جُمْلَةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ بـ (إِنَّ) واسْميَّةِ الجُمْلَةِ لِتَأْكيدِ مَضْمونِها؛ إِفادَةً لِتَحْقيقِ الجَزاءِ، فَإِنَّه تعالى يُجازي عِبادَه، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ؛ فَهُوَ تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ، ووَعْدٌ ووَعيدٌ[6]، وَعْدٌ

---

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/407، وأبو حيان، البحْرُ المُحيط: 2/686، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/160، وابْنُ التّمْجيد، حاشية على البيْضاويّ: 5/448.

(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/407.

(3) التّجْنيسُ أوِ الجِناسُ: هو تشابُهُ لفْظيْنِ في النُّطْق، واخْتِلافُهُما في المعْنى. يُنْظَرُ: أحْمد الهاشِمي، جواهِرُ البلاغةِ في المعاني والبيانِ والبديع، ص: 326. وجِناسُ الاشْتِقاقِ: هو أنْ تجْتمِعَ الكلِمتانِ في أصْلِ الإشْتِقاقِ من مادة لغوية واحدة، ويُسمّى المُقْتضب أيْضًا: يُنْظرُ: السُّيوطي، الإتْقان: 3/312، وأحْمد مطْلوب، مُعْجمُ المُصْطلحاتِ البلاغيّةِ وتطوُّرُها 697. ففي لفْظةِ "أنْفقْتُمْ" مع لفْظة "نفقةٍ"، وكذا في" نذرْتُم " مع" نذْرٍ" جِناسُ اشْتِقاقٍ.

(4) القونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البيْضاويّ: 5/448.

(5) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/65-66، وابْنُ التّمْجيد، حاشية على البيْضاويّ: 5/448، وأبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/686، والهرري، تفْسيرُ حدائِقِ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/99.

(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيان: 1/432.

لِمَنْ أَنْفَقَ، ونَذَرَ على الوَجْهِ المَقْبولِ، ووَعيدٌ لِمَنْ جاءَ بِعَكْسِ ذلكَ[1]، فهو خَبَرٌ يُفيدُ - على اخْتِصارِهِ - الوَعْدَ العَظيمَ لِلْمُطيعينَ، والوعيدَ الشَّديدَ لِلْمُتَمَرِّدينَ[2] بِتَرْتِيبِ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى ما أَنْفَقوا، أَوْ نَذَروا[3].

نكتةُ توحيدِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ دون تثنيته:

تَوْجيهُ الأنظارِ إلى عِلْمِ الله المُحيطِ بكلِّ شَيْءٍ

جاءَ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ مفردًا مَعَ أَنَّ مَرْجِعَهُ اثْنانِ: نَفَقَةٌ ونَذْرٌ، فَلَمْ يَقُلْ: (يَعْلَمُهُما)؛ لِكَوْنِ العَطْفِ هنا بـ ﴿أَوۡ﴾، ولِأَنَّهُ رَدَّ الضَّميرَ على الآخِرِ مِنْهُما، وقَدْ تَكَرَّرَ هذا في القُرْآنِ الكريمِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: 112]، وقيلَ: إِنَّ الضَّميرَ عائِدٌ على (ما) في قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾؛ لِأَنَّها اسْمٌ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 231] ولَمْ يَقُلْ: (بهِمَا)[4]، أو أَنَّ الضَّمير يرجع إلى المنفق عمومًا سواءٌ أكانَ نفقةً أو نذرًا، ونكتةُ ذلك توجيهُ النَّظرِ إلى علمِ اللَّه تعالى فيما يُنفِقُه المنفقُ، فإنَّ علمَ اللَّهِ شاملٌ لكلِّ شَيءٍ، ومحيطٌ بكلِّ نفقةٍ.

بلاغةُ الكِنَايَةِ[5] بِالْعِلْمِ عَنِ المُجازاةِ:

التَّرْغيبُ في طَلَبِ الثَّوابِ مِنَ الله وَحْدَهُ وتَقْديمِ رِضاهُ عَلى رِضا مَنْ سِواهُ

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ كِنايَةٌ عَنِ الجَزاءِ المترتِّبِ على العلمِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ بِالْكائناتِ وما يصدُرُ عنهُم من أعمالٍ لَا يَشُكُّ فِيهِ السَّامِعونَ ولا يجهلونه، فَأُرِيدَ لازِمُ مَعْناهُ، أي: (فَإِنَّهُ يُجازيكُمْ)، فَفيهِ مَعَ التَّأْكيدِ والجَزاءِ العامِّ بِالخَيْرِ أَوْ بِالعُقوبَةِ مَزيدُ اخْتِصاصٍ وعِنايَةٍ بِعَمَلِ المُؤْمنينَ؛ تَرْغيبًا لَهُمْ في طَلَبِ الثَّوابِ[6]؛ فَهَذِهِ الكِنايَةُ

---

(1) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/131.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/60، وابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/65-66.

(3) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/686.

(4) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/607، والهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/84، والقونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البيْضاويّ: 5/448.

(5) الكِنايةُ: لفظٌ اسْتُعْمِلَ في غيْرِ مغناهُ الأصْلي مع جوازِ إرادةِ المعنى الأصْلّي. يُنْظَرُ: الصّعيديّ، بُغْيةُ الإيضاحِ لِتَلْخيصِ المِفْتاح: 3/538.

(6) القونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البيْضاويّ: 5/448، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/42، وابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/66، والهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/99.

تُخاطِبُ في المُؤْمِنِ الدَّافِعَ إلى الإنْفاقِ، وتُشْعِرُهُ بالعِنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ؛ لأَنَّ الحاجَةَ إلى الأَجْرِ تَتَطَلَّبُ أَنْ يَكونَ الإنْفاقُ خالِصًا، والذي يَعْلَمُ ذلِكَ هُوَ اللهُ، فَأَيُّ شَرَفٍ أَعْظَمُ مِنْ عِلْمِ اللهِ بِنَفَقَةِ عَبْدِهِ، وماذا يَضُرُّهُ لَوْ لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ ماذا وكَمْ أَنْفَقَ، وفي هذا مِنَ الإيناسِ مَا يَجْعَلُ العَبْدَ يُنْفِقُ، ولا يَخْشَى مِنْ ذي العَرْشِ إقْلالًا.

فائدةُ الاِسْتِئْنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾:

الظُّلْمُ بِجَميعِ الأَشْكالِ مُنْذِرٌ بِفَظاعَةِ الحَالِ وسُوءِ المآلِ

قُوبِلَ وَعيدُ الظَّالِمينَ هُنا بِالْوَعْدِ الَّذي كَنَّى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾[1]، إشَارَةً إلَى الْجَزَاءِ بالعِقَابِ[2]، فَالجُمْلَةُ إذَنْ اسْتِئْنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الوَعيدِ، وأفادَ: فَظاعَةَ حالِهِم وسُوءَ مآلِهِمْ[3]، وأفادَ عُمُومَ الظَّالمينَ في النَّفقةِ؛ فَيَشْمَلُ المُنْفقينَ بالرِّياءِ والمَنِّ والأَذى، والمُتَحَرِّينَ لِلْخَبيثِ في الإنْفاقِ، والمُنْفقينَ في باطِلٍ، والنَّاذرينَ في مَعْصيَةٍ، والمُمْتَنِعينَ عَنْ أداءِ ما نَذَرُوا في حَقٍّ، والباخِلِينَ بِالصَّدَقَةِ مِمَّا آتاهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ[4]، إذِ الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ الذي يَحِقُّ أَنْ يُوضَعَ فيهِ[5].

الكِنايَةُ بِنَفْيِ الأَنْصارِ نَفْيٌ لِنَصْرِ الظَّالِمِ في الدَّارَيْنِ

الأَنْصارُ جَمْعُ نَصيرٍ، وَنَفْيُ الأَنْصارِ كِنايَةٌ عَنْ نَفْيِ النَّصْرِ وَالْغَوْثِ في الآخِرَةِ، وَهُوَ ظاهِرٌ؛ وَفي الدُّنْيَا أَيْضًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا بَخِلُوا بِنَصْرِهِمُ الفَقيرَ بِأَمْوالِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْدِمُهُمُ النَّصيرَ في المَضائِقِ، وَيُقَسِّي عَلَيْهِمْ قُلُوبَ عِبادِهِ، وَيُلْقي عَلَيْهِمُ الكَرَاهِيَةَ من النَّاسِ[6]؛ فَكُلُّ ظَالمٍ لَا يَجِدُ لَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ عِقابِ اللَّهِ[7].

---

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/66.
(2) القونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البيْضاويّ: 5/448، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيان: 1/432.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/42.
(5) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/160.
(6) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/66.
(7) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/687، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/160.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّفَقَة والصَّدَقَة والزَّكاة:

النَّفَقَةُ عامّةٌ، والزَّكاةُ نَفَقةٌ مُستَحَقَّةٌ مَخصوصَةٌ، والصَّدَقَةُ نَفَقةُ التَّبَرُّعِ، وهي أَخَصُّ مِنَ النَّفَقةِ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الإِلزامِ والإِكراهِ في صَرْفِها

النَّفَقَةُ: هِيَ أَنْ يُعْطِيَ الإِنْسانُ مِمَّا رَزَقَهُ اللهُ مِنْ مالٍ وثَمَراتٍ وطَعامٍ وشَرابٍ؛ والإِنْفَاقُ قَدْ يَكونُ في المَالِ، وفي غَيْرِه[1]، قال تَعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة 272]، فَالنَّفَقَةُ عامَّةٌ تَكُونُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: 53]، وتَكُونُ النَّفَقَةُ مُسْتَحَبَّةً، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، وقَدْ تَكُونُ واجِبَةً، كالنَّفَقَةِ على الزَّوْجَةِ والأَوْلاد، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النّساء: 34]، وقَدْ تَكونُ في الخَيْرِ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، وقَدْ تَقَعُ في الشَّرِّ وحتَّى مِنَ الكافِرِ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36].

أَمَّا الصَّدَقَةُ: فَهِيَ إِعْطاءُ المَرْءِ مِنْ نَفْسِه تَبَرُّعًا دونَ إِلْزامٍ أَوْ إِكْراهٍ، وقَدْ تَكُونُ عَلَنِيَّةً أَوْ خَفِيَّةً، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271]، فَالمُتَصَدِّقُ: إِنْ أَعْطى ما هُوَ حَقٌّ لَهُ مُتَنازِلًا عَنْهُ عَنْ طيبِ خاطِرٍ؛ كان صَدَقَةً.

فالصَّدَقَةُ أَخَصُّ مِنَ النَّفَقَةِ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الإِلْزامِ والإِكْراهِ في صَرْفِها؛ وهِيَ تَجْمَعُ بَيْنَ القَلْبِ واليَدِ لِما فيها مِنْ مَعْنى الصِّدْقِ، فيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى صِدْقِ العَبْدِ في إِيمَانِهِ وَكَمَالِهِ فيهِ؛ لِذا كانَتِ الصَّدَقاتُ تُطَهِّرُ الإِنْسانَ، وتُزَكّيه، فَتَكونُ سَبَبًا لِلشِّفاءِ مِنَ الأَمْراضِ، وتَزْكيةً للنّفْسِ وتَنْقِيةً لَها، ورِفْعَةً في الدَّرَجاتِ[2].

أَمَّا الزّكاةُ: فَهِيَ حَقٌّ يجِبُ فِي مَالٍ خَاصٍّ، لِطَائِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، في وَقْتٍ مَخْصوصٍ[3]،

(1) الرّاغِب، المُفردات: (نفق).

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب7/61.

(3) ابْنُ مُفْلِحٍ، المُبْدِعُ في شرحِ المُقْنِع: 2/291.

تَكُونُ النَّفَقَةُ عَيْنَ الصَّدَقِةِ؛ إذَا كانَ المَالُ مُنْفَقًا في بَعْضِ وُجوهِ الخَيْرِ، وتَكونُ الصَّدَقَةُ أَخَصَّ في نِيَّةِ الخَيْرِ وقَصْدِهِ

وهيَ بِهذا أَخَصُّ مِنَ النَّفَقَةِ والصَّدَقَةِ، قال تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج: 24- 25]؛ والزَّكَاةُ لا تَأْتِي إلَّا بِلَفْظِهَا المُخْتَصِّ بِهَا، وَهُوَ الزَّكَاةُ المَفْروضَةُ، فَإِذَا جَاءَتْ بِلَفْظٍ غَيْرِ الزَّكَاةِ؛ احْتَمَلَتِ الفَرْضَ وَالتَّطَوُّعَ، وإِذَا جَاءَتْ بِلَفْظِ الإِنْفَاقِ لَمْ تَكُنْ - غالباً - إِلَّا في التَّطَوُّعِ[1].

وَقد تُسَمَّى الزَّكاةُ صَدَقَةً تَوَسُّعًا؛ لِأَنَّهَا دَليلٌ لِصِحَّةِ إيمَانِ مُؤَدِّيهَا وَتَصْديقِهِ؛ قال تَعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103].

(1) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/274. وقد يأتي الإنفاق في الواجب شرعًا، كقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: 7].

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: 271]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إِظْهارُ الصَّدَقاتِ مِفْتاحُ المَبَرَّاتِ، وإِخْفاؤُها عُنْوانُ الخَيْراتِ

لا تَزالُ الآيَاتُ الكريمة تَتَحَدَّثُ عَنِ الإِنْفاقِ في وجوه البرِّ والخير، فلَمَّا ذَكَرَ اللّٰه تعالى الإِنْفاقَ، ومَا يَكُونُ فيه مِنْ جَيِّدٍ أَوْ رَديءٍ، وذكَرَ حُكْمَ كلِّ واحِدٍ مِنَ القِسْمَيْنِ؛ ذَكَرَ بَعْدَهُ أَنَّ الإِنْفاقَ قَدْ يَكُونُ ظاهِرًا، وقَدْ يَكونُ خفيًّا[1]، فَقالَ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾، ففيها حثٌّ وتَرْغيبٌ في إِخْفاءِ الصَّدَقاتِ؛ لِأَنَّها أَبْعَدُ عَنِ الرِّياءِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبْدُوا۟﴾: تُظْهِروا، مِنْ بَدَا يَبْدو بَدْوًا وبُدُوًّا وبَداءً، وأَصْلُ بَدَوَ: يَدُلُّ على البُروزِ والظُّهورِ بِقُوَّةٍ[3]، أَيْ: ظَهَرَ ظُهُورًا بيِّنًا، وَسُمِّيَ من سكَنَ البادية بَدْوًا مِنْ هَذا؛ لِأَنَّهُمْ في بَرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَيْسُوا في قُرًى تَسْتُرُهُمْ أَبْنِيَتُهَا[4]، وسائرُ ما في القرآن الكريم من هذا اللفظ هو من البُروزِ والظُّهورِ، والمَعْنى هُنا: تُظْهِروا الصّدقاتِ، وتُبْرِزوها عِنْدَ إِنْفَاقِها.

2) ﴿فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾: فنِعمَ شيئًا، أَوْ فَنِعْمَ الشَّيْءُ هِيَ[5]، وأَصْلُ نَعِمَ: يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ، وطِيبِ عَيْشٍ، وصَلاحٍ[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/61.
(2) الهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/82.
(3) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (بدو).
(4) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (بدو)، والرّاغِب، المُفْردات: (بدا).
(5) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (ما).
(6) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (نعم).

والمَعْنى هُنا: نِعْمَتِ الخَصْلَةُ هِيَ[1].

3) ﴿تُؤْتُوهَا﴾: مِنْ (آتى) بِالمدِّ، ويُسْتَعْمَلُ في الإعْطاءِ، يُقالُ: آتى فُلانٌ فُلانًا شَيْئًا يُؤْتِيهِ إيتاءً: أَعْطاهُ إيَّاهُ[2]، وأَصْلُ الإيتاءِ: الإحْضَارُ[3]، يُقالُ: آتَى إِلَيْهِ الشَّيءَ، إيتَاءً: إذا ساقَهُ، وجعَلَه يَأْتِي إِلَيْهِ[4]؛ والمَعْنى هُنا: تُعْطوها الفُقَراءَ.

4) ﴿وَيُكَفِّرُ﴾: يَغْفِرُ، ويَسْتُر، ويَمْحُو، وَقَدْ كَفَرْتُ الشَّيْءَ أَكْفِرُهُ كُفْرًا، أَيْ: سَتَرْتُهُ، وَأَصْلُ الكُفْرِ: السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ[5]؛ والمَعْنى هُنا: يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ صَغائِرِ ذُنوبِكُمْ[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صَدَقَةُ الجَهْرِ والسِّرِ؛ يمحو اللهُ بها الخطايا ويَدْفع العِقاب

إِنْ تُظْهِرُوا ما تَبْذُلُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ وتقْصِدون بها وجهَ اللّه؛ فَنِعْمَ ما تَصَدَّقْتُمْ بِهِ، إذ صدقةُ الجَهْرِ تَرْفَعُ التهمةَ وتدعو أهلَ الخير إلى الاقتداء بهذا الفِعْل الحَسَن، وإِنْ تُسِرُّوا الصَّدقةَ وتُعْطوها الفُقَراءَ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ لَكُمْ مِنْ إِظْهارِها؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إلى الإخْلاصِ، وأَبْعَدُ عَنِ الرِّياءِ، وأسترُ لحالِ الفقيرِ المُحتاج، واللّه يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ بِسَبَبِ إخْلاصِكُمْ في صَدَقاتِكُمُ الظَّاهِرةِ والخَفِيَّة، واللّه يَعْلَمُ دَقائِقَ الأُمورِ، فَلا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوالِكُمْ، وسَيُجازي كُلًّا بِعَمَلِهِ[7].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ في قولِه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

قَوْلُه تَعَالَى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ اسْتِئْنَافٌ بَيَانيٌّ نَاشِئٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: 270]؛ إِذْ أَشْعَرَ تَعْمِيمُ

(1) الرّاغِب، المُفردات: (نعم).
(2) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (أتى).
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 5/381.
(4) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (أتى).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللّغة، والجوْهريّ، الصّحاح: (كفر).
(6) البغويّ، معالِمُ التّنْزيل: 1/336.
(7) لجنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 65، ونُخْبةٌ مِنَ العلماء، التّفسيرُ المُيسّر، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريم، ص: 46.

دَفْعُ تَوَهُّمِ الإمْساكِ عَنْ إظْهارِ الصَّدَقَةِ مَخَافَةَ الرِّياءِ

﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بِحَالِ الصَّدقَاتِ الْخَفِيَّةِ، فَيَتَسَاءَلُ السَّامِعُ في نَفْسِهِ: هَلْ إِبْدَاءُ الصَّدَقَاتِ يُعَدُّ رِياءً؟[1] فَجاءَ الجَوابُ المُفَصَّلُ في هَذِهِ الآيةِ، وهذا ما يُعَبَّرُ عَنْهُ بِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ[2]، فَوَقَعَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ جَوابَ سُؤَالٍ يُفْهَمُ مِمَّا قَبْلَها، فَكانَتْ بَيانًا لِما أُجْمِلَ في الآيةِ السَّابِقة، وتَفْصيلًا لَها، ولِأَجْلِ هذا تُرِكَ العَطْفُ بِالْواوِ[3]، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ قَدْ كَانَ قَوْلًا فَصْلًا في اعْتِبَارِ نِيَّاتِ الْمُتَصَدِّقِينَ وَأَحْوَالِ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنْهَا، وَمَا يُخْفُونَهُ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ، فَهَذَا الاسْتِئْنَافُ يَدْفَعُ تَوَهُّمًا مِنْ شَأْنِهِ تَعْطِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ، وَهُوَ أَنْ يُمْسِكَ الْمَرْءُ عَنْهَا؛ إِذَا لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ إظهارِهَا، فَيَخْشَى أَنْ يُصِيبَهُ الرِّيَاءُ.

معنى الألفِ واللّامِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

التَّعْرِيفُ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، وَمَحْمَلُهُ عَلَى الْعُمُومِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ الصَّدَقَاتِ: فَرْضَهَا وَنَفْلَهَا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَوْقِعِ هَذِهِ الْآيَةِ عَقِبَ ذِكْرِ أَنْوَاعِ النَّفَقَاتِ.

فَنُّ الطِّباقِ بينَ الإبداءِ والإخفاءِ

ومِمَّا يَدُلُّ على العُمومِ والسَّعَةِ أَيْضًا: الطِّباقُ[4] الجَميلُ بَيْنَ ﴿تُبۡدُواْ﴾، و﴿تُخۡفُوهَا﴾؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الشَّيْءِ ومُقَابِلِهِ هُنا يُوَسِّعُ نِطاقَ المَعْرِفَةِ والعِلْمِ بِجوازِ الإِبْداءِ والإِخْفاءِ في الفَرْضِ والنَّفْلِ، ويشملُ ما يُبديه المنفقُ وما يُخفيه.

بلاغة التعبير بـ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة في المَوْضِعَيْن:

جَاء الشَّرْط بـ ﴿إِن﴾ في الصَّدَقَتَيْنِ في قولِه تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/66-67.

(2) شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ: هو كَوْنُ الجُمْلَةِ الثَّانيةِ قويةَ الارْتباطِ بالأُولى، لِوُقوعِها جوابًا عنْ سُؤالٍ يُفْهمُ مِن الجُمْلةِ الأولى، فتُفْصلُ الثّانيةُ عنها، كما يُفْصلُ الجواب عنِ السُّؤال، ويُسمّى الفصْلُ لِذلِك استئنافًا، كقوله تعالى: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ فكأنّ قائلًا يقولُ: ولِمَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 53]. يُنْظرُ: أحْمد المراغي، عُلومُ البلاغةِ، ص: 169، وأحْمد الهاشِمي، جواهِرُ البلاغةِ، ص: 184.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، وابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيدِ على البيْضاويّ: 5/449.

(4) الطِّباقُ: ويُقالُ: المُطابقةُ والتّضادّ، والمقابلةُ: وهو الإتْيانُ بالضِّد في إثْرِ ضدِّه في سياقٍ واحدٍ. يُنْظرُ: يحيى الحُسيْنيّ، الطِّرازُ لِأسْرارِ البلاغةِ وعُلومِ حقائِقِ الإعْجاز: 3/198.

الإشارة إلى قلة المنفقين سرًّا

﴿ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ في سياقٍ واحدٍ متقابلتين؛ لبيانِ أنَّ الصَّدقتين إبداءً وإخفاءً مما يقبلُه اللّه تعالى، و"إن" تأتي لما هو غيرُ متحقِّقِ الوقوعِ؛ فإبداءُ الصَّدقةِ متوقَّعٌ وإخفاؤها كذلك، وعليه فكلا الصَّدَقَتَيْنِ مُرْضٍ لِلّٰهِ تَعَالَى، وَإِنْ كان إخفاؤُها هو الأفضل، فتَفْضِيلُ صَدَقَةِ السِّرِّ قَدْ وَفَّى بِهِ صَرِيحُ قَوْلِهِ: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾[1]، وفي ذلك إشارة خفيَّة لطيفة إلى قلة المنفقين سرًّا.

بلاغةُ تقديمِ الإبداءِ عَلَى الإخْفَاءِ:

الحثُّ على النفقةِ سرًّا

من جمالِ النَّظم القرآنيِّ تقديمُ الإبداءِ على الإخفاءِ في قولِه تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾، فلمَّا كان الإبداءُ هو الأشيَعَ في سُلُوكِ النَّاسِ، قُدِّم؛ لبيانِ حكمِه في كونِه مقبولًا عند اللّه تعالى، وليكونَ توطئةً لما بعدَه من ذكرِ أمرِ الإخفاءِ، وبيان أنَّه الأفضلُ عند اللّه تعالى، ففيه تشجيعٌ وحثٌّ على النفقةِ سرًّا.

سرُّ المَدْحِ بـ(نِعِمَّا) في قولِه تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾:

إبداءُ الصَّدَقَةِ المَفْرُوضَةِ مَعَ الإخلاصِ، يُنالُ بِهِ الثَّناءُ ويَتَحَقَّقُ به الاقْتِداءُ

أَصْلُ ﴿فَنِعِمَّا﴾: فَنِعْمَ مَا، ولَفْظَةُ نِعِمَّا جَمَعَتِ الأَمْداحَ المُبْهَمَةَ؛ لأَنَّ (نِعْمَ) كَلِمَةُ مُبالَغَةٍ، تَجمَعُ المَدحَ كُلَّهُ، و (ما) كَلِمَةٌ مُبهمَة تَجْمَعُ المَمْدُوحَ؛ فَتَطَابَقَتَا في الإبْهام، والمُرادُ بِهِمَا التَّناهي في المَدْحِ؛ لأَنَّ المَدْحَ إنَّما يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بما ثَبَتَ، وظَهَرَ، واسْتَقَرَّ[2].

ومعنى هذه الكلمةِ في الآيةِ: إنْ تُظْهِرُوا الصَّدَقاتِ؛ فَنِعمَّ شَيءٌ إبْدَاؤُها وإِظْهارُهَا، ونِعْمَتِ الخَصْلَةُ هِيَ[3]؛ إنْ لَمْ يَكُنْ في ذلِكَ رياءٌ وسُمْعَةٌ[4]، فَنِعِمَّا هُنا ثَناءٌ على إِبْداءِ الصَّدَقةِ المَفْروضَةِ، وفي ﴿فَنِعِمَّا﴾

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/66-67.
(2) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/99، وابن عطية، المُحرَّرُ الوجيز: 1/365.
(3) مُجيُر الدّين العُلَيْميّ، فتْحُ الرّحمنِ في تفسيرِ القُرآن: 1/386.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408.

إِشارَةٌ إلى أَنَّ إِظْهارَ الصَّدَقَةِ المَفْروضَةِ مَمْدُوحَةٌ عِنْدَ اللهِ تعالى كما هِيَ مَمْدوحَةٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ فَالْمُعْلِنُ بِصَدَقَتِهِ يَنالُ ثَناءَ النَّاسِ، إِذْ يَتَحَدَّثُونَ بِامْتِثالِهِ لِأَمْرِ رَبِّهِ وجُودِهِ، ويَقْتَدونَ بِهِ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ عَمَلَهُ مَمْدوحٌ عِنْدَ النَّاسِ أَيْضًا، وبِذلِكَ يَنالُ الْمُتَصَدِّقُ الْمُخْلِصُ في نِيَّتِهِ وقَصْدِهِ - إِنْ أَعْلَنَها - ثَوابَ اللهِ، وثَناءَ النَّاسِ وثَناءَ الشَّرْعِ[1].

فَضْلُ إِبْداءِ الصَّدَقَةِ المَفْروضَةِ في نَفْيِ التُّهْمَةِ وإِبْراءِ الذِّمَّةِ

وإِنَّما كان إِبْداءُ صَدَقَةِ الفَرْضِ لِغَيْرِهِ أَفْضَلَ لِنَفْيِ التُّهْمَةِ، ولِأَنَّ الفَرائِضَ لا يَدْخُلُها الرِّياءُ غالِبًا، فَتَكونُ عَلَنِيَّةً؛ لِأَنَّها مَفْروضَةٌ وواجِبَةٌ، بِخِلافِ النَّوافِلِ فَإِنَّها عُرْضَةٌ لِلرِّياءِ[2]؛ ولِيَعْلَمَ الذي يُؤَدِّي الزَّكاةَ: أَنَّ ما يُعْطيهِ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ هُوَ، بَلْ هُوَ حَقٌّ لِلْآخَرِ في مالِهِ، وعَلَيْهِ أَداؤُهُ، وكَذا تَكونُ أَفْضَلَ حَتَّى لِمَنْ يَقْتَدي بِهِ[3].

فائدةُ عَطْفِ الإِخْفاءِ على الإِبْداءِ:

إِخْفاءُ المَرْءِ صَدَقَةَ التَّطَوُّعِ وسَتْرُهُ على الفُقَراءِ أَدْعى لِإِخْلاصِهِ وأَنْفَعُ لِخَلاصِهِ

معنى قَوْلِه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾: أَيْ: إِنْ تَستروا صَدَقَتَكُمْ غَيْرَ المَفْروضَةِ عَلَيْكُمْ، فتُعْطوها الفُقَراءَ في السِّرِّ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وقَدْ ذَهَبَ جُمْهورُ الْمُفَسِّرينَ إلى أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ في صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ لا في صَدَقَةِ الفَرْضِ[4].

وإِنَّما كان الإِخْفاءُ في صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ أَفْضَلَ مِنْ إِظْهارِها؛ لِأَنَّ في الإِخْفاءِ: سَتْرًا على الفَقيرِ، وحِفْظًا لِماءِ وَجْهِهِ بِعَدَمِ تَخْجيلِهِ وفَضيحَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ حَيْثُ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ غَيْرُ الْمُعْطِي[5]، وهذا قَدْرٌ زائِدٌ عَنِ الإِحْسانِ إِلَيْهِ بِمجرَّدِ الصَّدَقَةِ، مَعَ كَوْنِهِ أَدْعى إلى إِخْلاصِ صاحِبِها، وأَبْعَدَ لَه عَنِ الرِّياءِ[6].

---

(1) مُحمد أبو زهرة، زَهْرةُ التّفاسير: 2/1019.

(2) ابْنُ عطية، المُحرَّرُ الوجيز: 1/365.

(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/43.

(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ في مقاصِدِ القُرآن: 2/132.

(5) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/67.

(6) القونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البَيْضاويّ: 5/450.

ولَيْسَ في هَذا نفيٌ لِمَزِيَّةِ الإبْداءِ هُنا أَيْضًا، فالمُتَصَدِّقُ المُتَطَوِّعُ: إنْ أَرادَ أَنْ يُقْتدى بِهِ؛ كانَ إظْهارُهُ لِصَدَقَتِه أَفْضَلَ[1]، فَالإبْداءُ مَمْدُوحٌ والإِخْفاءُ لِصَدَقةِ التَّطَوُّعِ خَيْرٌ مِنْهُ، كَما نَطَقَ بِهِ النَّظْمُ الكَريمُ.

بَلَاغَةُ الإِضْمَارِ فِي مَوْضِعِ الإِظْهارِ:

إيجازُ الحَذْفِ مُشْعِرٌ بِالخَيْرِيَّةِ مُظْهِرٌ لِلأَفْضَلِيَّةِ

مِمَّا يَدُلُّ على خَيْرِيَّةِ الإِخْفاءِ مَجيءُ الضَّميرِ مَحَلَّ الاسْمِ الظَّاهِرِ في قَوْلِه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ إذِ التَّقديرُ: فَالإِخْفاءُ خَيْرٌ لَكُمْ، وهَذا مِنَ الإيجازِ بِالحَذْفِ الذي يُبْرِزُ الاعْتِناءَ بِشَأْنِ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ، فَهِيَ أَفْضَلُ ما تَكونُ في الخَفاءِ، والفاءُ في: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: جَوابُ الشَّرْطِ، وَهُوَ ضَميرٌ عائِدٌ عَلى المَصْدَرِ المُنْسَبِكِ مِنْ أَنِ المُضْمَرَةِ مَعَ الفِعْلِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾، والتَّقْديرُ: فَالإِخْفَاءُ خَيْرٌ لَكُمْ، فالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَفْعَلُ التَّفْضيلِ، وَالمُفَضَّلُ عَلَيْهِ مَحْذوفٌ لِدَلالَةِ المَعْنَى عَلَيْهِ، وَهُوَ الإِبْداءُ، وَالتَّقْديرُ: فَهُوَ خَيْرٌ لَكُم مِنْ إِبْدائِهَا[2].

نكتةُ عَطْفِ إيتاءِ الفقراءِ على الإخفاءِ:

المَصْلَحةُ الأرجحُ لـلـمـنـفـقـيـنَ والفقراءِ هو في إخفاءِ الصَّدقةِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذكرِ إيتاءِ الصَّدقة للفقراءِ في قَولِه: ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾، مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْفُقَرَاءِ، وَأَنَّ الصَّدَقَةَ المُبْدَاةَ أَيْضًا تُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ، فَعَطْفُ إِيتَاءِ الفُقَرَاءِ عَلَى الإِخْفَاءِ المَجْعُولِ شَرْطًا لِلْخَيْرِيَّةِ في الآيَةِ؛ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الخَيْرِيَّةَ هِي في الحِرصِ على إِخْفاءِ حَالِ الفَقيرِ، وَعَدَمِ إِظْهَارِ اليَدِ العُلْيَا عَلَيْهِ، وهَذا إِيمَاءٌ إِلَى عِلَّةِ الإِبْقَاءِ عَلَى مَاءِ وَجْهِ الفَقِيرِ، فَلا يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ذُلُّ الفَقْرِ، وذُلُّ الأَخْذِ، وذُلُّ الإِفْشاءِ والإِبْداءِ، وَهُوَ الفِعْلُ الذي يَحْسِمُ مادَّةَ الرِّيَاءِ حَسْمًا[3].

كَما أَنَّ إِظْهارَ الصَّدَقةِ مَظِنَّةُ الكَشْفِ عَنْ حالِ آخِذِها، وكَثْرةِ

---

(1) الزّمخشري، تفسيُر الكشّاف: 1/316.

(2) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/690.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/69.

السُّؤالِ عَنْهُ، وإخْفاؤُها مَظِنَّةٌ لِعَدَمِ ذَلِكَ، فَإِعْطاؤُها في العَلانِيَةِ مُتَوَقِّفٌ على عِلْمِ المُعْطي وغَيْرِهِ بِفَقْرِ آخِذِها، فَلا تَقَعُ إِلَّا في يَدِ فَقيرٍ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَسْأَلَ عَنْ حالِهِ، أَوْ يَراهُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَنِيٌّ؛ فَيَنْهاهُ عَنِ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ. أَمَّا إِعْطاؤُها سِرًّا؛ فَيَتَوَقَّفُ عَلى مُجَرَّدِ عِلْمِ المُعْطي فَقَطْ، فَقَدْ تَقَعُ في يَدِ غَنِيٍّ يَظُنُّهُ المُعْطي فَقيرًا؛ لِأَنَّهُ لا يَسْأَلُ عَنْ حالِهِ، ولا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَنْ يَعْرِفُ حالَهُ، فَيُخْبِرُهُ بِحالِهِ؛ فَلِذلِكَ قالَ: ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾، أَيْ: تَحَرَّوا ذلِكَ[1].

كَما قَيَّدَ تعالى الإِخْفاءَ بِإِيتاءِ الفُقَراءِ خاصَّةً؛ لِأَنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ ما لا يُمكِنُ إِخْفاؤُهُ، كَتَجْهيزِ الجَيْشِ، أَوْ يَتَرَتَّبُ على الإِظْهارِ مَصْلَحَةٌ راجِحَةٌ، كَإِظْهارِ شَعائِرِ الدِّينِ، وحُصُولِ اقْتِداءِ النَّاسِ بِهِ[2].

جمالُ فنِّ الطِّباقِ المعنويِّ[3] وأثرُه في المعنى الإشاريِّ:

مِــن كــمــالِ الصَّدقةِ وحُسْنِ قَبولِها حِرْصُ صَاحِبِها على الخَفَاءِ

في قَوْلِهِ: ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾ طِباقٌ مَعْنَوِيٌّ؛ لِأَنّهُ لا يُؤتي الصَّدَقاتِ إِلَّا الأَغْنياءُ، فَكَأَنَّهُ قيلَ: يُؤتي الأغنياءُ الفقراءَ؛ فَقابلَ الإِبْداءَ بِالإِخْفاءِ لَفْظًا، والأَغْنياءَ بِالفُقراءِ مَعْنًى[4]، وَفي هَذِهِ الآيَةِ دَلالَةٌ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ حَقٌّ لِلفَقيرِ[5]، وفي عدمِ التَّصريحِ بلفظِ الأغنياءِ إشارةٌ إلى النَّهيِ عنِ الرِّياءِ، وعدمُ الحرصِ على الظُّهورِ عند الصَّدقةِ إن أرادُوا الأجرَ سليمًا معافًى.

تنوُّعُ دلالاتِ الحَذْفِ والإيجازِ:

الإيجازُ بِالحَذْفِ ثــراءٌ لــلّـفـظِ والمعنى على حدٍّ سواءٍ

تنوَّعَ تقديرُ المحذوفِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ﴾، على احْتِمالَيْنِ:

الاحتمالُ الأوَّلُ: إمَّا أن يكونَ إيجازًا بِحَذْفِ الفاعلِ، وله

(1) ابنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/14-17، وابْنُ كثيرٍ، تفْسيرُ القرآن العظيم: 1/701-702.

(3) وهو الذي يكونُ التّضادُّ فيهِ بينْ الاِسْمِ وضِدِّهِ في المعنى، وليْس في اللّفْظ، ويعْتمِدُ اسْتِخْراجُ هذا الطِّباقِ على الفهْم، لا على المعْنى الظّاهريِّ لِلْجُمْلة، ومِثالُ ذلِك قوْلُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ [يس: 16]، فمعْنى قوْلِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ أيْ: أنّ الله يعْلمُ صِدْقنا، ومِنْ هُنا جاء الطِّباقُ المعْنويُّ بيْن التّكْذيبِ والتّصْديقِ مع عدمِ وُرودِ كلِمةِ الصِّدْق، أوْ ما يُشيرُ إليْها بِشكْلٍ واضِحٍ، يُنْظرُ: مُحمّد قاسم، ومُحيي الدّين ديب، عُلومِ البلاغة: (البيانُ والبديعُ والمعاني) 66-67. بِتصرُّفٍ يسيرٍ.

(4) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/610.

(5) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/691.

تقديران: التَّقديرُ الأوَّل: وَيُكَفِّرُ اللهُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، والتقديرُ الثَّاني: أَنْ يَعُودَ عَلَى الْإِخْفَاءِ، أي: وَيُكَفِّرُ إِخْفَاءُ الصَّدَقَاتِ، وَتكُونُ نِسْبَةُ التَّكْفِيرِ إِلَيْهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ العَقْليِّ[1]؛ لِأَنَّ الإِخْفَاءَ سَبَبٌ في تَكْفِيرِ الذُّنوبِ[2]، ودَليلُ النِّسْبَةِ المَجازيَّةِ عَلى هَذا التَّقديرِ مجيءُ (مِن) التي تُفيدُ التَّبْعيضَ، أَيْ: ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ بَعْضَ سَيِّئَاتِكُمْ، كَما سَتَرْتُموها[3]؛ لِأَنَّ السَّيِّئَاتِ كُلَّها لَا تُكَفَّرُ بِذَلِكَ، وإنَّما يُكَفَّرُ بَعْضُها، وعَلى هَذا يَكُونُ في الكَلامِ حَذْفٌ لِلْمَفْعولِ (بَعْضَ)، ثُمَّ أُبْهِمَ الكَلامُ في ذَلِكَ البَعْضِ؛ لِأَنَّ بَيانَهُ كالإِغْواءِ بِارْتِكابِها؛ إِذا عُلِمَ أَنَّها مُكَفَّرَةٌ[4].

الاحتمالُ الثَّاني: وإمَّا أن يكونَ إيجازًا بحذفِ المبتدأ، ويكون لَفْظُ ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ خَبَرًا، والتَّقديرُ: ونَحْنُ نُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وهذا على قِراءَةِ: ﴿وَنُكَفِّرُ﴾[5] بالنُّونِ، فَإِنَّهُ ضَميرٌ لِلَّهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَوْكيدُ الخَبَرِ باسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

بلاغةُ الفاصِلةِ القرآنيَّة:

الإِسْرارُ في الصَّدَقاتِ دَليلُ الإِخْلاصِ ومِفْتاحُ البَرَكاتِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ نكاتٌ عدَّة؛ ففيها تَوْكيدُ الخَبَرِ باسْميَّةِ الجُمْلَةِ، وتَقْديمُ ما حَقُّه التَّأْخيرُ فلم يقُل: (واللهُ خبيرٌ بما تعملون)، والمبالغةُ في صفةِ ﴿خَبِيرٞ﴾ على وزنِ فعيل، وكُلُّ هذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى خَبيرٌ بِالعَمَلِ، مُحيطٌ عِلْمُهُ بِدَقائِقِ الأُمورِ وكِبارِها، والمُرادُ بِهِ هُنا العَليمُ بِهِ، لا العَليمُ بما ظَهَرَ فَقَطْ، وفي هَذا كِنَايَةٌ عَنِ المُجازاةِ بِحَسَبِ النِّيَّاتِ[6].

كَمَا أَنَّ في المُبالَغَةِ والتَّأْكيدِ تَرْغيبًا في الإِسْرارِ[7]، بَلْ تَرْغيبًا

---

(1) هو إسْنادُ الفِعْلِ أوْ ما في مَعْناهُ إلى غيْرِ صاحِبِهِ لِعلاقةٍ، مع قرينةٍ مانِعةٍ مِنْ إرادةِ الإسْنادِ الحقيقي، ولا يكونُ إلاّ في التَّركيبِ: يُنْظرُ: عبْدُ العزيزِ عتيق، عِلْمُ البيان 143.

(2) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/692.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/65، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/613، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/133.

(5) قرأ أبو عمْرٍو وابْنُ كثيرٍ وعاصِمٌ في روايةِ أبي بكْر بْنِ عيّاشٍ" ونُكفِّرُ" بالنّونِ ورفْعِ الرّاء، وقرأ نافِعٌ وحمْزةُ والكِسائي بِالنّونِ والجزْمِ في الرّاء، وقرأ ابْنُ عامِرٍ وحفْصٌ عنْ عاصِمٍ بالياءِ ورفْعِ الرّاءِ. ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/236، والقُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 365-4/364.

(6) القونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البيْضاويّ: 5/452.

(7) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ في مقاصِدِ القُرآن: 2/133، والعُليميّ، فتْحُ الرّحمنِ في تفْسيرِ القُرآن: 1/388.

في الإِخْلاصِ سِرًّا أَوْ عَلَنًا، فَرْضًا أَوْ تَطَوُّعًا، وتَرْهيبًا ووعيدًا لِلْمُرَائي والمُؤْذي[1].

مناسبةُ وَصْفِ ﴿خَبِيرٌ﴾ لسلوكِ الإخفاءِ:

في خَتْمِ هَذِهِ الآيةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ﴿خَبِيرٌ﴾، مُنَاسَبةٌ حَسَنَةٌ، فإِنَّها تَدُلُّ على العِلْمِ بما لَطُفَ مِنَ الأَشْياءِ وخَفِيَ، فَناسَبَ الإِخْفاءَ في قَوْلِه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ خَتْمُها بالصِّفَةِ المُتعلِّقَةِ بما خَفِيَ ﴿خَبِيرٌ﴾[2]، فَفيهِ بَيانٌ لِلرَّبْطِ المَعْنويِّ بَيْنَ نَظْمِ الآيِ[3] الذي يُبَيِّنُ أَسْرارَ إِسْرارِ الصَّدقاتِ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِبْداء والإِظْهار:

الإِبْـــداءُ هُـوَ الظُّـهـورُ البَـيِّنُ الـواضـحُ، والإظهارُ مطلقُ البُروز

فَالْإِظْهارُ مِنَ الظُّهورِ، وهُوَ الانْكِشافُ والبُروزُ، يُقالُ: ظَهَرَ الشَّيْءُ؛ إِذَا انْكَشَفَ، وَبَرَزَ[4]، والإِبْداءُ ظُهورٌ في غَايَةِ الشِّدَّةِ والوُضوحِ والبَيانِ، فَبَدا الشَيْءُ بُدُوًّا، أَيْ: ظَهَرَ ظُهورًا بَيِّنًا قَوِيًّا[5]، فَقَوْلُنا: بَدا يُشيرُ إِلى السُّطوعِ في الظُّهورِ، فَفيهِ قَدْرٌ زائِدٌ عَنْ مُجَرَّدِ الظُّهورِ؛ إِذَنْ هُناكَ ظُهورٌ بيِّنٌ ساطِعٌ، فَيَكونُ بَيْنَهُمَا عُمومٌ وخُصوصٌ: فَالإِظْهارُ أَعَمُّ مِنَ الإِبْداءِ، والإِبْداءُ أَخَصُّ مِنْ حَيْثُ شِدَّةُ الظُّهورِ وقُوَّتُه، قال تَعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ﴾ [النور: 31].

الإِيْتاء والإِعْطاء:

الإِيْتاءُ أَقْوى مِنَ الإِعْطاءِ

لَا يَكَادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِيتَاءِ وَالْإِعْطَاءِ، لَكِنْ نَجِدُ في الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ بَعْضَ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتِه، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإِيتَاءَ أَقْوَى مِنَ الْإِعْطَاءِ في إِثْبَاتِ مَفْعُولِه؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ، لَهُ فِعْلُ مُطَاوِعٍ، تَقُولُ: أَعْطَانِي، فَعَطَوْتُ، وَلَا يُقَالُ: في

(1) القونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البَيْضاويّ: 5/452.

(2) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/693.

(3) ابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 5/452.

(4) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغَة: (ظهر).

(5) الرّاغِب، المُفْردات: (بدا)، جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (بدو).

الْإِيتَاءِ أَتَاني، فَأَتَيْتُ، وَإِنَّمَا يُقَال: آتاني، فَأَخَذْتُ، وَالْفِعْلُ الَّذِي لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ أَضْعَفُ فِي إِثْبَاتِ مَفْعُولِهِ مِنَ الَّذِي لَا مُطَاوِعَ له[1].

فَالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمران: 26]؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ شَيءٌ عَظِيمٌ، لَا يُعْطَاهُ إلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وَكَذا قَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]، والحِكْمَةُ شيءٌ عَظيمٌ أَيْضًا، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحِجر: 87]؛ لِعِظَمِ الْقُرْآنِ وَشَأْنِه[2].

فِي الإيتاءِ مَعْنى الوُجوبِ والالْتِزامِ، وفي الإعْطاءِ مَعْنى التَّفَضُّلِ والإكْرامِ

وَمِنَ الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإِتْيَانَ، فِيهِ مَعْنَى الْوُجُوبِ وَالالْتِزَامِ، أَمَّا الْعَطَاءُ؛ فَفِيهِ مَعْنَى التَّفَضُّلِ وَالْإِكْرَامِ؛ فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هُود: 108]، وقال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النَّبأ: 36].

الإيتاءُ عامٌّ في الأُمورِ المادِّيَةِ والمَعْنَوِيَّةِ، والإعْطاءُ مُخْتَصٌّ بالمادِّيَةِ

وَمِنَ الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الْعَطَاءَ يَكُونُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ، وَيُفِيدُ التَّكْرَارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1] أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يَا مُحَمَّدُ ﷺ - كَثِيرًا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحى: 5] أَيْ: سَيَكُونُ عَطَاءُ اللَّهِ لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضَا[3].

أمَّا الإيتاء؛ ففي الأشياءِ المادِّيَّة والمعنويَّة، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: 20][4].

وَمِنَ الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ فِي الْإِعْطَاءِ دَلِيلَ التَّمَلُّكِ دُونَ الْإِيتَاءِ[5]،

(1) السُّيوطي، الإِتْقان: 2/367.
(2) الكفوي، الكُلّيات، ص: 212.
(3) السُّيوطي، الإِتْقان: 2/367، والكفوي، الكُلّيات، ص: 212.
(4) صلاح لاشين، مِنْ أسرارِ التّعبيرِ في القُرْآنِ الكريم، صفاءُ الكلِمة، ص: 77-71.
(5) أبو هِلالٍ العسكري، الفُروقُ اللُّغويةُ، ص: 86، والكفوي، الكُلّيات: 1/360.

الإعطاءُ دَليلُ التَّملُّكِ، والإيتاءُ يَلحقه النَّزْعُ

فَالْإِيتَاءُ يَشْمَلهُ النَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيسَ تمليكًا، وَلَكِنَّ الْعَطَاءَ تَمْلِيكٌ، وَالْإِيتَاءُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ تَمْلِيكًا؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ هُوَ إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الْآخِذِ لَهُ، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْإِعْطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى التَّمْلِيكِ، فَيُقَال: أَعْطَاهُ مَالاً، إِذَا مَلَّكَهُ إِيَّاهُ[1].

مَغْفِرَةِ الذُّنوبِ وتَكْفِيرُ السَّيئَاتِ:

المَغفِرَةُ وِقايَةٌ وحِفْظٌ والتَّكْفيرُ إزالَةٌ وسَتْرٌ

لَفْظُ المَغْفِرَةِ يَتَضَمَّنُ الوِقَايَةَ والحِفْظَ، ولَفْظُ التَّكْفيرِ يَتَضَمَّنُ السَّتْرَ والإزالَةَ، وعِنْدَ اقْتِرانِ الذُّنوبِ والسَّيِّئَاتِ، يَنْصَرِفُ مَعْنَى الذُّنُوبِ إِلى الكَبائِرِ، ومَعْنَى السَّيئَاتِ إِلى الصَّغائِرِ، وعَلَيْهِ تَكُونُ المَغْفِرَةُ لِلذُّنوبِ، والتَّكْفيرُ لِلسَّيئَاتِ[2]، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣﴾ [آلُ عِمران: 193]، فَالْمَغْفِرَةُ أَكْمَلُ مِنْ لَفْظِ التَّكْفيرِ، ولِهذا كانَ مَعَ الكَبائِرِ، والتَّكْفيرُ مَعَ الصَّغائِرِ؛ وعِنْدَ الانْفرادِ يَدْخُلُ كُلٌّ مِنْهُما في مَعْنَى قوله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: 53].

(1) السُّيوطي، الإتْقان: 2/197.
(2) ابْنُ القيِّم، مدارِجُ السّالِكين: 1/317.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٖ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٖ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٢٧٢﴾ [البقرة: 272]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـهـدايَـةُ والـتَّـوْفيـقُ إلى الـخَـيْرِ بِيَدِ اللهِ وحْدَهُ، والرَّسُولُ مُرْشِدٌ ومُبَلِّغٌ

لَمَّا حَثَّ اللّٰه سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى وُجوهِ الخَيْرِ، ورَغَّبَ في لُزومِ الهُدى، وكانَ أَكْثَرُهُمْ مُعْرِضينَ؛ لِأَنَّ ما دعا إِلَيْهِ هادِمٌ لِمَا جُبِلوا عَلَيْهِ مِنَ الحُبِّ لِتَوْفيرِ المالِ والحَفيظَةِ على النَّفْسِ، وكانَ ﷺ شَديدَ الأَسَفِ عَلَيْهِمْ دائِمَ القَلَقِ مِنْ أَجْلِهِمْ؛ لِعَظيمِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ وشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، فَكانَ يَجِدُ مِنْ تَقاعُدِهِمْ عَمَّا يَدْعوهُمْ إِلَيْهِ وَجْدًا شَديدًا هَوَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلَيْهِ الأَمْرَ وخَفَّفَ عَلَيْهِ الحالَ[1]، فَقالَ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، فَعَقَّبَ اللّٰه بهذا تسكينًا لنَفْسِ رَسُولِهِ، وَتَهْوينًا عَلَيْهِ بِأَنْ لَيْسَ عَلَيْك هُداهُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿هُدَىٰهُمْ﴾: الهُدى: الرَّشادُ والدَّلالةُ والتَّوفيقُ[3] والبَيانُ[4] مِنْ هَدَيْتُهُ الطَّريقَ والبَيْتَ هِدايَةً وهُدًى، أَيْ: عَرَّفْتُهُ، وأَرْشَدْتُهُ، وأَصْلُ هُدى: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشادِ[5]، والهِدايَةُ دَلالَةٌ بِلُطْفٍ[6]، وهِيَ بَيانُ طَريقِ الرُّشْدِ خاصَّةً والتَّوْجيهُ إِلَيْهِ[7]، والمَعْنى هُنا: التَّوفيقُ الَّذي يَخْتَصُّ اللّٰه بِهِ مَن تَوَلَّاهُ وأَعْطاهُ[8].

(1) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 101-1/100.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/69.
(3) الجوْهريّ، الصِّحاح، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (هدى).
(4) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (هدى).
(5) ابْنُ فارسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (هدي).
(6) الرّاغِب، المُفْردات: (هدى).
(7) حسن المُصطفوي، التّحْقيقُ في كلِماتِ القُرآنِ الكريمِ 11/233. وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (هدى).
(8) السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (هدي)، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (هدى).

2) ﴿خَيۡرٖ﴾: الخَيْر ضدُّ الشَّرِّ، وهُوَ: ما يَرْغَبُ فيهِ كُلُّ أَحَدٍ كالعَدْلِ والفَضْلِ والشَّيْءِ النَّافِعِ[1] مِنْ مالٍ أَوْ غَيْرِهِ، وأَصْلُ الخَيْرِ مَأْخوذٌ مِنَ الرَّخاوَةِ والطَّراءَةِ[2]، ويُطْلَقُ الخَيْرُ على المالِ؛ إذا كان مَجْموعًا مِنْ وَجْهٍ مُباحٍ[3]، والمَعْنى هُنا: كُلُّ نَفْعٍ مُسْتَحْسَنٍ يُجيزُهُ الشَّرْعُ[4].

3) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: طَلَبَ؛ وبَغَيْتُ الشَّيء أَبغيه بُغاء وابتغاء: طلبته، وأصل بَغَيَ: طَلَبُ الشَّيْءِ[5] ومِنْهُ البَغْيَةُ، وهِيَ الطِّلْبَةُ والحاجَةُ[6]، وخُصَّ الابْتِغاءُ بالاجْتِهادِ في الطَّلَبِ[7]، فالمعنى هنا ابتغاء مرضاة اللّه، أي: طلبًا لرضاه[8].

4) ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾: يُؤَدَّ إِلَيْكُمْ وافِيًا أَجْرُهُ، وأَصْلُ الوَفاءِ والتَّوفِيَةِ: بُلوغُ التَّمامِ، فَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ تَمامَ الكَمالِ، فَقَدْ وَفَّى[9]؛ وتَوْفِيَةُ الشَّيْءِ: بَذْلُهُ، واسْتيفاؤُهُ: تَناوُلُهُ وافِيًا[10]؛ والمَعْنى هُنا: يُؤَدَّ إِلَيْكُمْ تامًّا[11].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَنْ رُزِقَ الهِدايَةَ؛ فَقَدْ وُفِّقْ، ومَنْ أَنْفَقَ؛ فَلِنَفْسِهِ أَعْتَقْ:

لَيْسَ عَلَيْكَ - أَيُّها النَّبيُّ ﷺ - هِدايَةَ الخَلْقِ إلى الإِسْلام هِدايةَ تَوْفيقٍ وقَبُولٍ لِلْحَقِّ، ولَكِنَّ اللّه يَشْرَحُ صُدورَ مَنْ يَشاءُ لِدينِه، ويُوَفِّقُهُ لَهُ، فَإِنَّ التَّوْفيقَ لِلْحَقِّ والهِدايَةَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ، وما تَبْذُلوا مِنْ مالٍ أو مَعونَةٍ لِغَيْرِكُمْ؛ فَنَفْعُهُ الحقيقيُّ عائِدٌ إِلَيْكُمْ بالسَّعادةِ في الدنيا، وبالثواب الجزيل في الآخرة؛ لِأَنَّ اللّه غَنيٌّ عَنْهُ، وَلْتَكُنْ نَفَقَتُكُمْ خالِصَةً للّه، فَالمُؤْمنونَ حَقًّا لا يُنْفِقونَ إِلَّا طَلَبًا لِمَرْضاتِهِ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ - قَليلًا كانَ أَوْ كَثيرًا - فَإِنَّكُمْ تُعْطَوْنَ ثَوابَهُ تامًّا غَيْرَ مَنْقوصٍ، فَإِنَّ اللّه لا يَظْلِمُ أَحَدًا، ولا تُنْقَصُونَ شيئًا ممَّا وعدكم اللّه به على نفقتكم في سبيله[12].

---

(1) الرّاغِب، المُفردات: (خير).
(2) جبل، المُعجمُ الاِشْتِقاقيّ: (خور-خير).
(3) السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (خير).
(4) جبل، المُعجمُ الاِشْتِقاقيّ: (خور-خير).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (بغي).
(6) الجوْهريّ، الصِّحاح: (بغي)، وابْنُ منْظورٍ، لِسانُ العرب: (بغا).
(7) الرّاغِب، المُفردات، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (بغي).
(8) الكفوي، الكُلّيات، ص: 34.
(9) الخليل، العينْ: (وفي) وابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 98.
(10) الرّاغِب، المُفْردات: (وفى).
(11) الكفوي، الكُلّيات، ص: 992.
(12) ابْنُ عُثيمين، تفْسيرُ ابْنِ عُثيْمين: (سورةُ الفاتِحةِ والبقرةِ) 362-3/361، ولجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 65، ونُخْبةٌ من العلماء، التّفْسيرُ المُيسّر، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريم، ص: 46.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتِئْنَافِ المُعْتَرِضِ[1]:

تَسْلِيَةُ قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ وبيانٌ لِأنواعِ الهدايَةِ

قَوْلُه تَعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾، اسْتِئْنَافٌ مُعْتَرَضٌ بِهِ بَيْنَ قَوْلِه: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وَبَيْنَ قَوْلِه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾، و"في هَذا الاسْتِئْنافِ تَسْكينٌ لِرَوْعَتِه ﷺ؛ لِأَنَّهُ مَضى قَبْلَ الآيةِ مِقْدارُ رُبعِ حِزْبٍ في الحَضِّ على الصَّدَقَةِ، وعلى خُلوصِ النِّيَّةِ، وكَرَّرَ ذَلك وأكَّدَ، فَخُشِيَ أَنْ يَتَهالَكَ عَلَيهِ النَّبيُّ ﷺ لِأَجْلِ عَدَمِ امْتِثالِهِمْ، فَأَتَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَسْكِينًا لِرَوْعَتِه وتَطْمِينًا لِجَنانِه"[2]، فالآيَاتُ المُتَقَدِّمَةُ فَصَّلَتْ في ذِكْرِ أَصْنافٍ مِنَ النَّاسِ: مِنْهُمُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُبْطِلُونَ صَدَقاتِهِمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَيَمَّمُونَ الْخَبِيثَ مِنْهُ يُنْفِقُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ الْفَقْرَ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْفَحْشَاءِ، وَكانَ وُجُودُ هَذِهِ الْفِرَقِ مِمَّا يَثْقُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَعَقَّبَ اللَّهُ ذَلِكَ بِتَسْكِينِ نَفْسِ رَسُولِهِ وَالتَّهْوِينِ عَلَيْهِ بِأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِ هُداهُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ الْبَلاغُ[3].

بلاغةُ الاستعلاءِ المجازِيِّ في قولِه: ﴿عَلَيۡكَ﴾:

أفادَ حرفُ الاستعلاءِ في قَوْلِه: ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ الاسْتِعْلاءَ الْمَجازِيَّ[4]، أَيْ: طَلَبَ فِعْلٍ عَلى وَجْهِ الْوُجُوبِ، وَالْمَعْنَى: لَيْسَ ذَلِكَ بِواجِبٍ عَلَى الرَّسُولِ، فَلَا يَحْزَنُ عَلى عَدَمِ حُصولِ هُداهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَدَّى واجِبَ التَّبْلِيغِ؛ فَكانَ التَّعْبِيرُ بِالِاسْتِعْلاءِ الْمَنْفِيِّ أَدْخَلَ في رَفْعِ الحَرَجِ عَنْهُ ﷺ، وفي التَّسْرِيَةِ عَنْهُ.

(1) الإعْتِراضُ: هو أنْ يُؤْتى بِجُمْلةٍ وسط كلامٍ مُتّصِلٍ، بعْضُهُ بِبعْضٍ، يُنْظرُ: فضْل عبّاس، البلاغةُ فُنونُها وأفْنانُها: (عِلْمُ المعاني)، ص: 490.

(2) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/69.

(4) مِنْ معاني على: إفادةُ الإسْتِعْلاء، وقدْ يكونُ الإسْتِعلاءُ حقيقيًّا كقوْلِك: (هو على الجبلِ) و: (حملهُ على ظهْرِه) أيْ: فوْقه، وقدْ يكونُ مجازيًّا، كقوْلِهِمْ: (عليْهِ ديْنٌ)، كأنّ الدّيْن علاهُ وركِبه، ولِذا تقولُ العربُ: ركِبتْني دُيونٌ " كأنّهُ يحمِلُ ثِقل الدّينِ على عُنُقِهِ أوْ على ظهْرِه، ومِنْهُ عليّ قضاءُ الصّلاةِ وعليْهِ القِصاصُ، لِأنّ الحُقوق كأنّها راكِبةٌ لِمنْ تلْزمُهُ". يُنْظرُ: فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/48.

فائدةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

توجيهُ النَّبيِّ ﷺ لما يجبُ عليه من الهداية

أفادَ تَقديمُ الظَّرفِ وَهُوَ ﴿عَلَيۡكَ﴾ - عَلَى المُسْنَدِ إِلَيْهِ - وَهُوَ ﴿هُدَىٰهُمۡ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ مُجَرَّدَ الاهْتِمامِ، بِنَفْيِ كَوْنِ هُداهُمْ حَقًّا عَلَى الرَّسُولِ تَهْوِينًا لِلْأَمْرِ عَلَيْهِ[1]، ومعنى الكلامِ: لَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَجْعَلَهُمْ مَهْدِيِّينَ إلى الإِتْيانِ بما أُمروا بِهِ مِنَ المَحاسِنِ، والانْتِهاءِ عَمَّا نُهُوا عَنْهُ مِنَ القَبائِحِ المَعْدودَةِ، وإنَّما الواجِبُ عَلَيْكَ الإرْشادُ إلى الخَيْرِ، والحَثُّ عَلَيْهِ، والنَّهْيُ عَنِ الشَّرِّ، والرَّدْعُ عَنْهُ؛ بما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الآياتِ والذِّكْرِ الحَكيمِ[2].

نوعُ الهدايةِ المذكورةِ في الآيةِ:

هُدى التَّوْفيقِ مِنَ اللهِ المَنَّانِ وعَلى الرَّسولِ ﷺ هُدى الإرْشادِ والبَيانِ

الهداية نوعان: هدايةُ توفيقٍ، وهدايةُ إرشادٍ، قال ابْنُ عَرَفَةَ: "يُقالُ: هَدَيْتُ فُلانًا إلى الإيمانِ، أَيْ: دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ؛ فاهْتَدى بِخِلافِ ما إِذا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ - فَلَمْ يَهْتَدِ - فَإِنَّكَ لا تقولُ: هَدَيْتُهُ إلى الإيمانِ، فَهَذا هُوَ المَنْفِيُّ في الآيَةِ، أَيْ: لَيْسَ مَطْلُوبًا بِتَحْصيلِ الهِدايَةِ الكَسْبِيَّةِ"[3]. وأَمَّا هِدايَةُ البيانِ والإرْشادِ والدَّعْوَةِ؛ فَكانَتْ على رَسولِ اللهِ ﷺ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52][4]، أَيْ: تُبَيِّنُ، وتَدْعو، وتُرْشِدُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ، فَهُدى التَّوفيقِ عَلى اللهِ، وهُدى البَيانِ على النَّبيِّ ﷺ[5].

اكتسابُ دلالةِ العمومِ من الألفاظِ والسِّياقِ:

في ذِكْرِ الهُدى والهِدايَةِ عُمومُ خِطابٍ لِكُلِّ داعِيَةٍ ومَدْعوٍّ

في قولِه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ، ولِكُلِّ داعيةٍ مِنْ بَعْدِه، فَالمُرادُ مِنْهُ العُمومُ؛ بِدَليلِ قَوْلِه: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وهَذا خِطابٌ عَامٌّ، ثُمَّ قالَ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾، وهُوَ في الظَّاهِرِ

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحريرُ والتَّنْوير: 70-3/69.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/409.
(3) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(4) الهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/88
(5) إسْماعيل حقّي، روحُ البيان: 1/434.

خاصٌّ، ثُمَّ قالَ بَعْدَهُ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ﴾، وهذا عامٌّ؛ فَيُفْهَمُ مِنْ عُموم ما قَبْلَ الآيَةِ وعُموم ما بَعْدَها؛ عُمومُها أَيضًا[1]، وعلى تَقْدِيرِ خُصوصِ خِطابِ النَّبيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ العُمومَ؛ لِأَنَّهُ إذا رُفِعَ التَّكْليفُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ الذي هُوَ رَسُولٌ مَأْمورٌ بِالتَّبْليغِ والدُّعاءِ إلى الإيمانِ، فَأَحْرى أَنْ يُرْفَعَ عَمَّنْ سِواهُ[2].

فَـنُّ الـطِّـبـاقِ المعنويِّ

في قَوْلِهِ: ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ عُمومٌ في كُلِّ مَدْعوٍّ أَيْضًا جاءَ على هَيْئَةِ الطِّباقِ المَعْنويِّ؛ إِذِ المَعْنى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدى الضَّالِّينَ[3]، فالضَّميرُ راجِعٌ إِلَى جَميعِ مَنْ بَقِيَ فيهِمْ شَيْءٌ مِنْ عَدَمِ الهُدى، وَأَشَدُّهُمُ الْمُشْرِكونَ وَالْمُنافِقونَ[4].

فائِدَةُ الِالْتِفاتِ[5] مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

تَأْكيدُ خُصوصيَّةِ الهدايَةِ باللهِ وحدَهُ، وأنَّها معذوقةٌ بمشيئتِه

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ الْتِفاتٌ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ، فَبَعْدَ تَوْجيهِ الخِطابِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ جاءَ تَلْوِينُهُ بِالالْتِفاتِ إلى الغَيْبَةِ على عادَةِ النَّظْمِ الكَريمِ في التَّفَنُّنِ في الأَساليبِ، مَعَ تَأْكيدِ الخَبَرِ بِاسْميَّةِ الجُمْلَةِ، و﴿وَلَٰكِنَّ﴾؛ لإِفادَةِ مَعْنى خُصوصِيَّةِ الهِدايَةِ باللهِ تعالى وتَأْكيدِها في حَقِّهِ؛ فَقَدْ أَتى فيهِ بِالِاسْمِ الأَحْسَنِ الخاصِّ بِهِ، ولَوْ قالَ: ولكِنَّا نَهْدي مَنْ نَشاءُ؛ لَكانَ عامًّا؛ لِأَنَّ الضَّمائِرَ كُلِّيَّةٌ، ولِأَنَّ النُّونَ والأَلِفَ تَكُونُ لِلْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ؛ إذا عَظَّمَ نَفْسَهُ ولِلْمُتَكَلِّمِ ومَعَهُ غَيْرُهُ، بِخِلافِ الاِسْمِ الأَحْسَنِ فَإِنَّهُ خاصٌّ بِلا شَكٍّ[6].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/66، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/693.
(2) ابْنُ عرفة، تَفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(3) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/614، والهرري، حدائِقُ الرَّوْحِ والرَّيْحان: 4/99.
(4) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/69.
(5) الِالْتِفاتُ: هو أنْ يُنْتقل مِن التّكلُّمِ والخِطابِ والغيْبةِ مُطْلقًا إلى الآخِرِ. يُنْظرُ: السّكاكيّ، مِفْتاحُ العُلومِ، ص: 202.
(6) ابْنُ عرفة، تَفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

فائِدَةُ استعمالِ حرفِ الاستدراكِ:

دَفْعُ تَوَهّمِ إمكانِ هدايةِ الضَّالين بالحِرْصِ عَلَيْهِم

استُعمِلَ حرفُ الاِسْتِدْراكِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾؛ لِما في الكَلامِ المَنْفِيِّ مِنْ تَوَهُّمِ إمْكانِ هَدْيِهِمْ بِالحِرْصِ أَوْ بِالْإِلْجَاءِ، فَمَصَبُّ الاِسْتِدْراك هُوَ الصِّلَةُ في ﴿مَن يَشَآءُۗ﴾، أَيْ: فَلَا فائِدَةَ في إِلْجَاءِ مَنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ هَدْيَهُ، وَالتَّقْديرُ: وَلَكِنَّ هُداهُمْ بِيَدِ اللَّهِ، وَهُوَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ، فَإِذَا شاءَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ هَداهُمْ[1].

فَنُّ الجِناسِ الاشتقاقيّ

وَلِمُراعاةِ هَذِهِ الخُصوصيَّةِ أَيْضًا جِيءَ بِالجِناسِ الاشْتِقاقِيِّ المُغايِرِ في لَفْظِ الهُدى بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾، مَعَ قَوْلِهِ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾[2]، كَما عَطَفَ بِالْواوِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ عَلى ما قَبْلَهُ لِبيانِ اتِّحادِ الجُمْلَتَيْنِ في الخَبَرِيَّةِ بِهَذِهِ الخُصوصيَّةِ.

فائدةُ العَطْفِ عَلى ما قَبْلَ الإعْتِراضِ:

أوَّلُ المُنْتَفِعِين بِالصَّدَقَةِ المُتَصَدِّقُ نفسُه ثُمّ المُتَصَدَّقُ عليهم

قَوْلُهُ سُبْحانَهُ وتَعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وفَائِدَتُهُ: زِيادَةُ بَيانِ فَضْلِ الصَّدَقاتِ كُلِّهَا، وَأَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ مَنْفَعَتُهَا لِنَفْسِ المُتَصَدِّقِ؛ فَلْيَخْتَرْ لِنَفْسِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْهَا بِنَبْذِ كُلِّ مَا يَدْعُو لِتَرْكِ بَعْضِهَا[3].

فائدةُ الِالْتِفاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ:

تَشْرِيفُ المُخاطَبِينَ وحَضُّهم على النَّفَقةِ والِامْتِثالِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ إلى خِطابِ المُكَلَّفينَ لِزِيادَةِ هَزِّهِمْ نَحْوَ الاِمْتِثالِ، وترغيبِهم في الإنفاقِ بتوجيهِ الخطابِ لهم من اللّه تعالى، ففيه تشريفٌ رفيعٌ، وفضلٌ عظيمٌ.

---

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/72.

(2) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/694، والسّمِيْن الحلبيّ، الدُّرُّ المصونُ: 2/614.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/72.

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾:

إفادةُ فضلِ التَّصدُّقِ بالبعضِ بعد ذكرِ العمومِ

لِلتَّرْغيبِ في تَحَرِّي الأَجْرِ وطَلَبِ الثَّوابِ جِيْءَ بـ ﴿وَمَا﴾ الشَّرْطيَّة التي فيها رائحةُ العموم، و ﴿مِنۡ﴾ التَّبْعِيضيَّة المُتَعَلِّقَة بمَحْذوفٍ، تَقْديرُهُ: أيُّ شَيءٍ تُنْفِقوا كائِنٌ مِنْ مالٍ؛ فَهُوَ لِأَنْفُسِكُمْ، فَلا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُكُمْ، فَلا تَمنُّوا عَلى مَنْ أَعْطَيْتُموهُ، ولا تُؤْذوهُ بالتَّطاوُلِ عَلَيْهِ، ولا تُنْفِقوا مِنَ الخَبيثِ[1]، وحاصِلُهُ: إذا كانَ الانْتِفاعُ الأُخْرَوِيُّ لَكُمْ لا لِغَيْرِكُمْ اشْتِراكًا أَوِ انْفِرادًا؛ فَلا تُبْطِلوا ذَلِكَ الأَجْرَ العَظيمَ بالمَنِّ اللَّئيمِ، ولا تُنْفِقوا الخَبيثَ؛ لَعَلَّكُمْ تُثابونَ بالثَّوابِ الجَسيمِ[2].

انتقاءُ مفردةِ (خير) دليلٌ مرشدٌ لوصفِ النَّفقةِ

اختيرتْ مفردَةُ ﴿خَيۡرٖ﴾ دون غيرِها من المفردات؛ لبيانِ أنَّ ما يجبُ أنْ يُنفقَه المنفقُ في سبيلِ اللهِ هو الخيرُ، فأتى بهذا الوصفِ ليُبيِّنَ أنَّه مقصودٌ في الخطابِ، وأنَّ على المتصدِّقِ أن يسعى في أنْ تكونَ صدقتُه خيرًا في أصلِها، ومآلِها.

بلاغةُ قَوْلِه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾:

إيرادُ الجملةِ الخبريَّةِ بمعنى الإنشاءِ

قَوْلُه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في معنى الإنشاءِ، وعلى ذلك فإمَّا أن يُحمل الخبرُ على الأَمْرِ، أَيْ: إنَّما تَكونُ مَنْفَعَةُ الصَّدَقاتِ لِأَنْفُسِكُمْ؛ إنْ كُنْتُمْ مَا تُنْفِقونَ إلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ لا لِلرِّياءِ[3]، وإمَّا أن يُحملَ الخبرُ على النَّهْيِ، أَيْ: لَا تُنْفِقُوا إلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ[4]، وَحينئذٍ تكونُ مَعْطُوفَةً على ما قَبْلَهَا.

إعرابُ الجملةِ حالًا يُعطيها مزيدَ بيانٍ لشروطِ العملِ

جملةُ: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ حاليَّةٌ، وجَعْلُ الْجُمْلَةِ حالًا أَشَدُّ مُلاءَمَةً لِجمعِ شُروطِ قَبولِ العَمَلِ مِنَ الإِخْلاصِ وتَحَرِّي الصَّوابِ فيه، فَيَكونُ المَعْنى: وما تُنْفِقوا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّما يَكُونُ لَكُمْ لا عَلَيْكُمْ؛ إذا كانَ حالُكُمْ أَلَّا تُنْفِقوا إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَفيهِ إِشْعارٌ،

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/409-410، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/44.

(2) القونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البَيْضاويّ: 5/454.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/72.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/66-67، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/161.

بالمَنِّ والأذى، وإنْفاقُ الخَبيثِ لَيْسَ لِوَجْهِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الإنْفاقَ كَذَلكَ يَتَضَمَّنُ أَمْرَيْنِ: أَنْ يَكونَ خالصًا لا يَشوبُهُ رياءٌ، وأَنْ يَكونَ صَوابًا عَلَى الوَجْهِ الذي أُمِرَ بِهِ(1).

نكتةُ ذكرِ الوجهِ في قولِه تعالى: ﴿وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾:

ذِكْرُ الوَجْهِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ لِلتَّعْظيم ودَفْعِ الشَّرِكَةِ؛ لِأَنَّكَ إذا قُلْتَ: فَعَلْتُهُ لِوَجْهِ زَيْدٍ؛ كانَ أَجَلَّ مِنْ قَوْلِك: فَعَلْتُهُ لَهُ؛ لِأَنَّ وَجْهَ الشَّيْءِ أَشْرَفُ ما فيهِ(2).

علّةُ عَطْفِ الجملِ بعضِها على بعضٍ:

تَمامُ الثَّوابِ بالإحْسانِ في الصَّدَقاتِ؛ ومُضاعَفَةُ أُجورِها بِحَسَبِ النِّياتِ

عُطِفَت جملةُ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ عَلَى الجملة الَّتي قَبْلَهَا لِبَيَانِ أَنَّ جَزاءَ النَّفَقاتِ بِمِقْدارِهَا، وَأَنَّ مَنْ نُقِصَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ؛ فَهُوَ السَّاعِي في نَقْصِهِ(3)، ومَعْنى قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾، أَيْ: أَجْرُهُ وثوابُهُ أَضْعافًا مُضاعَفَةً حَسَبَمَا فُصِّلَ فيما قَبْلُ فلا عُذْرَ لَكُمْ في أَنْ تَرْغَبوا عَنْ إنْفاقِهِ على أَحْسَنِ الوُجوهِ وأَجْمَلِها، فَهُوَ تَأْكيدٌ وبَيانٌ لِلشَّرْطيَّةِ السَّابِقَةِ(4).

فَائِدَةُ تكرارِ فعلِ الإنفاقِ في سياقٍ واحدٍ:

التَّكْرارُ لِلْمُبالَغَةِ في التَّأْكيدِ والاهْتِمامِ بِشأْنِ الإنْفاقِ في وُجوهِ الخَيْرِ

كُرِّرَ فِعْلُ النَّفَقَةِ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ﴾، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾ ثَلاثَ مرَّات، وجيءَ بِهِ مَرَّتَيْنِ بِصيغَةِ الشَّرْطِ عِنْدَ قَصْدِ بيانِ المُلازَمَةِ بَيْنَ الإنْفاقِ والثَّوابِ، وجيءَ به مَرَّةً في صيغَةِ النَّفْيِ والاسْتِثْناءِ؛ لِأَنَّه قَصَدَ الخَبَرَ بِمَعْنى الإنْشاءِ، أَيْ: النَّهْيِ عَنْ أَنْ يُنفقوا؛ إلَّا في حالةِ كونِهم يريدونَ وَجْهَ اللهِ في نفقاتِهم، فَجُعِلَتْ هَذِهِ الأَحْكامُ جُمَلًا مُسْتَقِلًّا بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ، ولَمْ تُجْعَلْ جُمْلَةً واحِدَةً مُقيَّدَةً فائِدَتُها بِقُيودِ جَميعِ الجُمَلِ، وأُعيدَ لَفْظُ الإنْفاقِ في جَميعِها بِصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ؛

(1) ابنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابنِ التّمْجيدِ على البيْضاويّ: 5/454.

(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/45.

(3) ابنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/72.

(4) الزّمخْشري، الكشّاف: 1/317 وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/410، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/161.

تَكْريرًا لِلاهْتِمامِ بِشَأْنِه؛ ولِتَكونَ كُلُّ جُمْلَةٍ مُسْتَقِلَّةً بِمَعْناها، قَصيرةَ الأَلْفاظِ كَثيرَةَ المَعاني، فَتَجْري مَجْرى الأَمْثالِ(1)، وهذا يدلُّ على أنَّ التَّفنُّنَ غيرُ مرادٍ في القرآنِ، وأنَّ المقصودَ بالدَّرجةِ الأولى هو المعنى الذي يُؤدِّيه اللَّفظُ.

احتمالُ جملةِ الفاصلةِ الإطنابَ وعدمَه بحسبِ المعنى:

فَائِدَةُ الإِطْنابِ تَقْويَةُ الخَبَرِ وتَقْريرُ مَعْناهُ في النَّفْسِ

إذا كان معنى: ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: وافيًا غيرَ منقوصٍ، فإنَّ هذا من قبيلِ الإطنابِ، ويكونُ قَوْلُه: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ تَوْكيدًا لِلْخَبَرِ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾، وذلك بِاسْميَّةِ الجُمْلَةِ، وَتَقْديمِ ضَميرِ الفَصْلِ ﴿وَأَنتُمۡ﴾ عَلَى الْخَبَرِ الفِعْليِّ المنفيِّ ﴿لَا تُظۡلَمُونَ﴾، وفائِدَتُهُ: تَقْوِيَةُ الخَبَرِ وَزِيَادَةُ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ لا يُظْلَمُونَ من غَيْرِهم، وَإِنَّمَا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ(2)، وتقويةُ الخبرِ وزيادةُ بيانِ التَّوفيةِ مِنْ قَبيلِ الإِطْنابِ؛ لِوُرودِهِ بَعْدَ قَوْلِه: ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ الذي مَعْناهُ: يَصِلْكُمْ وافِيًا غَيْرَ مَنْقوصٍ(3).

وإذا كان معنى: ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: التَّوْفيةُ في المِقْدارِ، وعَدَمُ الظُّلْمِ في الصِّفَةِ، فَلا إِطْنابَ حِينَها لاخْتِلافِ المَعْنَيَيْنِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَكَ عَلَيْهِ طَعامٌ مَوْصوفٌ مَثلًا تَارَةً يُعْطيكَ مِثْلَ الصِّفَةِ وأَقَلَّ في المِقْدارِ، وتَارَةً يُعْطيكَ مِثْلَ القَدْرِ وأَدْوَنَ في الصِّفَةِ(4).

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهُدى اِسْتِقامَةٌ في العِلْمِ، والإِرْشادُ اسْتِقامَةٌ في العَمَلِ

الهِدايَة والإِرْشاد:

الإِرْشَادُ إِلى الشَّيْءِ هُوَ الدَّلالَةُ عَلَيْهِ والتَّبْيينُ لَهُ، وَالْهِدايَةُ: هِيَ التَّمَكُّنُ مِنَ الوُصُولُ إِلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَتِ الهِدَايَةُ لِلْمُهْتَدي فِي قَوْلِه

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/72-73.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/73.
(3) الهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/99.
(4) ابْنُ عرفة المالِكي، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

تَعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، فَذَكَرَ أَنَّهُمْ دَعَوْا بِالهِدايَةِ وهُمْ مُهْتَدون لَا مَحَالَةَ، وَلَمْ يجـيءْ مُثْلُ ذَلِكَ فِي الإِرْشَادِ.

وَيُقَال أَيْضًا: هَداهُ إِلَى المَكْرُوه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: 23] وإلى المَحبوبِ قَال تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ [الحج: 67]، ولا يُقالُ: أَرْشَدَهُ إلّا إلى المَحْبُوب[1].

والهِدايَةُ ضِدُّ الضَّلَالَةِ، كَما إِنَّ الرُّشْدَ ضِدُّ الغَيِّ، وهُوَ الانْهماكُ في الفسادِ، فالرُّشْدُ يَدُلُّ على الحَدَثِ، ويَكونُ في العَمَلِ، والهَدايَةُ الاِسْتِقامَةُ في العِلْمِ[2].

الرَّغْبَة والاِبْتِغاء:

في الـرَّغْـبَـةِ مَعْنى الحِرْصِ، وفي الاِبْتِغـاءِ مَعْنى الـشِّدَّةِ والاِجْتِهادِ

الرَّغْبَةُ: إِرَادَةُ الشَّيْءِ بالحِرْص عَلَيْهِ[3].

وأَمَّا الاِبْتِغاءُ؛ فَهُوَ: الاِجْتِهادُ في الطَّلَبِ، وقِيلَ: هُوَ الاشْتِدادُ في طَلَبِ شَيْءٍ ما[4].

فَيُلاحَظُ في الرَّغْبَةِ مَعْنى الحِرْصِ، وفي الاِبْتِغاءِ مَعْنى الشِّدَّة والاِجْتِهادِ، وكِلاهُما قَدْ يُسْتَعْمَلُ في بَعْضِ السِّياقاتِ- اسْتِعْمالَ الآخَرِ[5].

(1) العسْكري، الفُروقُ اللُّغوية، 209.
(2) حسن المُصطفوي، التّحْقيقُ في كلماتِ القُرآنِ الكريم: 4/141.
(3) الكفوي، الكُلّيات، ص: 482.
(4) المناويّ، التّوقيفُ على مُهِمّاتِ التّعاريفِ، ص: 179.
(5) عدد مِن المُخْتصّين، بإشْرافِ صالِح بن حميد، نضْرةُ النّعيمِ في مكارِمِ أخْلاقِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ: 6/2126.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾

[البقرة: 273]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الإنْفاقَ فِي سَبيلِهِ، ودعا المُؤْمنِينَ إلَيْهِ؛ بَيَّنَ لَهُمُ المَصارِفَ التي يُنفِقُونَ فِيها

لَمَّا كَانَ غَالِبُ الأَحْكام السَّابِقَةِ التي ذُكِرَتْ في الإِنْفاقِ مِنْ أَجْلِ المَحَاويجِ، ولَمَّا بيَّنَ اللّه تَعالى صَرْفَ الصَّدَقَةِ إلى الفُقَراءِ؛ بيَّن في هَذِهِ الآيَةِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ الفُقَراءِ اسْتِحْقاقًا بِصَرْفِ الصَّدَقَةِ إِلَيْهِ والاِنْتِفاعِ بها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُحْصِرُواْ﴾: أي: مُنِعوا، وحُبِسوا[2]، والحَصِيرُ والمَحْصُورُ المَحْبُوسُ[3] وأصل الحَصْر: الجمع والتَّضييق والمَنْع[4]، والمعنى هنا: حبسوا عن التَّصرُّف في مَعايِشِهم؛ خَوفَ العَدُوِّ أو بالمرض[5].

2) ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: سفرًا وذهابًا، وهو مجاز عن السفر والذهاب فيها[6]، يقال: ضرب في الأرض؛ إِذَا سَارَ فِيهَا مُسَافِراً؛ لأَنَّ المسافر كالضارب الأرض برجله[7] أي: لا يَسْتَطِيعُونَ تِجارةً أو سفرًا[8].

3) ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾: تَرْك السُّؤال، والكفُّ عمَّا لا يحل[9]، وأصل عفَّ:

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/67، والبِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/104.
(2) الأزهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (حصر).
(3) ابْنُ عبّادٍ، المُحيطُ في اللّغة: (صرح).
(4) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (حصر)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (حصر).
(5) السِّجِسْتاني، غريبُ القُرْآنِ، ص: 368، والنيسابوري، إيجازُ البيان: 1/172، والغزْنويّ، باهِرُ البُرْهان: 1/266.
(6) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (ضرب).
(7) السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (ضرب).
(8) ابنُ جريرٍ، جامع البيان: 5/26، والسِّجِسْتاني، غريبُ القُرْآن، ص: 312، والراغب، المفردات: (ضرب).
(9) الخليل، العين: (عف).

الْكَفُّ عَنِ الْقَبِيحِ[1] والتَّعَفُّفُ: الصَّبْرُ والنَّزاهَةُ من الشَّيْءِ[2]، المعْنى هُنا: الكَفُّ عَنِ السُّؤالِ مِنَ النَّاسِ[3].

4) ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾: بِعَلاماتِهِمْ وآثارِهِمْ؛ والسِّيمَا الْعَلامَةَ الَّتِي يُعْرَفُ بهَا الخَيْرُ والشَّرُّ[4]، والوَسْمُ: التَّأْثِيرُ والسِّمَةُ الأَثَرُ[5]، وأَصْلُ وَسَمَ يَدُلُّ على أَثَرٍ ومَعْلَمٍ[6]، والمَعْنى هُنا: تَعْرِفُهُمْ بِعَلاماتِهِمْ مِنْ رَثاثَةِ الثِّيابِ، والجُوعِ الخَفِيِّ عَلى النَّاسِ[7].

5) ﴿إِلۡحَافٗاۗ﴾: إلحاحًا، والإِلْحافُ في المَسْأَلَةِ: الإِلْحاحُ[8]، وأَلْحَفَ السَّائِلُ يُلْحِفُ إِلْحافًا؛ إذا أَلَحَّ وأَبْرَمَ في المَسْأَلَةِ[9]، وأَصْلُ (لَحَفَ) يدل على اشْتِمالٍ ومُلازَمَةٍ[10]، وَمِنْهُ اشْتُقَّ اللِّحافُ؛ لأَنَّه يَشْمَلُ الإنسانَ في التَّغْطِيَةِ[11]، والمَعْنى هُنا: لَيْسَ منهم سُؤَالٌ للناس؛ فَيَكونُ إِلْحافٌ[12].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الفَقيرُ المُتَعَفِّفُ العاجِزُ عَنْ طَلَبِ رِزْقِهِ هُوَ أَوْلى النَّاسِ بالصَّدَقاتِ وأَحْراهُمْ بِالمَبَرَّاتِ

اِجْعَلوا صَدَقَاتِكُمْ لِلْفُقَراءِ الذينَ لا يَسْتَطيعونَ السَّفَرَ؛ طَلَبًا لِلرِّزْقِ لاشْتِغالِهِمْ بِالجِهادِ في سَبيلِ اللّهِ، يَظُنُّهُمْ مَنْ لا يَعْرِفُهُمْ ومَنْ لا يتفقَّدُ المساكينَ غَيْرَ مُحْتاجينَ إلى الصَّدَقَةِ؛ لِكَفِّهِمْ عَنِ السُّؤالِ تَنَزُّهًا، ويَعْرِفُهُمُ المُطَّلِعُ عَلَيْهِم بِعَلاماتِهِمْ، مِنَ آثارِ الحاجَةِ الظَّاهِرَةِ على أَجْسامِهِمْ وثِيابِهِمْ، ومِنْ صِفاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَيْسوا كَسائِرِ الفُقَراءِ الذينَ يَسْأَلونَ النَّاسَ مُلِحِّينَ في مَسْأَلَتِهِمْ، وإن سألوا اضطرارًا لم

(1) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (عف).
(2) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (عف).
(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 3/264.
(4) الأزهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (سمو) وابْنُ منْظورٍ، لِسانُ العرب: (سوم).
(5) الرّاغِب، المُفردات: (وسم).
(6) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المُفْردات: (وسم)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 116.
(7) ابْنُ جريرٍ، جامع البيان: 5/597.
(8) الخليل، العين، والمحكم والمحيط الأعظم: (لحف).
(9) ابْنُ دُريْدٍ، جمْهرةُ اللُّغة: (حفل).
(10) ابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 116.
(11) الزّبيديّ، تاجُ العروس 24/358.
(12) ابْنُ الجوْزيّ، زادُ المسير: 1/246.

يُلِحُّوا في السؤال، وما تَبْذلوا مِنْ مَعْروفٍ في سَبيلِ اللّهِ فلا يَخْفى عَلى اللّهِ شَيءٌ مِنْهُ، وسَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الجَزَاءِ وأوفاه[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

براعةُ الاسْتِئْنافِ البيانيِّ في تنوير الأذهانِ والرَّبط بين الجملِ:

العنايةُ بحقِّ الفقيرِ لـه حقُّ الصَّدارة وأصلُ الرِّعايةِ

جاءتْ جُمْلَةُ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جوابًا عن سؤالِ سائلٍ، فكَأَنَّهُ قيلَ: هَذِهِ الصَّدَقاتُ التي يُحَثُّ عَلَيْها لِمَنْ هيَ؟ فَأُجيبَ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾، فالجملةُ استئنافيَّةٌ؛ ولِذا تُرِكَ العَطْفُ لِتَعَلُّقِ الكَلام بِما قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: بـ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾، وَتَعَلُّقُهُ بِهِ يُؤْذِنُ بتعلّق مَعْنَاهُ بِنَظائِرِهِ المُتَقَدِّمَةِ، فَمَا مِنْ نَفَقَةٍ ذُكِرَتْ آنِفًا إِلَّا وَهِيَ لِلْفُقَرَاءِ؛ لِأَنَّ الجُمَلَ قَدْ عَضَّدَ بَعْضُهَا بَعْضًا[2]، وفي هَذا مَزِيدُ عِنَايَةٍ واهْتِمام بِحَقِّ المُحْتاجِ والفَقير، وَقَدْ دَلَّ عَلى تِلْكَ العِنايةِ وذاكَ الاهْتِمامِ تَأْكيدُ الخَبَرِ باسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ﴾.

أثرُ الإيجازُ بالحذفِ في بيانِ الخبرِ في معنى الإنشاءِ:

المَقاصِدُ والنِّياتُ أُسُسُ الأَعْمالِ، وعُمَدُ المَبَرَّاتِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ فَالجَارُّ والمَجْرورُ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ مُتعلِّقٌ بِمَحْذوفٍ يُفْهَمُ مِنَ السِّياقِ، والتَّقْديرُ: اقْصُدوا الفُقراءَ، أَوِ اعْمَدُوا، فَالجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ في ظاهِرِها إِنْشائِيَّةٌ في مَعْناها.

وَإِنَّما كانَ التَّقديرُ هُنا: (اقْصُدوا الفُقراءَ أَوِ اعْمَدُوا) عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ المُفَسِّرينَ بَدَلَ أَنْفِقوا لِلْفُقَراءِ، مَعَ أَنَّهُ المُنَاسِبُ لِلسِّباقِ والسِّياقِ، لِلتَّنْبيهِ عَلَى أَنَّ القَصْدَ والعَمْدَ هُوَ العُمْدَةُ في الصَّدَقاتِ وسَائِرِ المَبَرَّاتِ[3].

(1) عبْدُ اللهِ الزّيد، مُختصرُ تفسيرِ البغويّ: 1/106، ولجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزهر، المُنتخبُ في تفسيرِ القُرآنِ الكريمِ، ص: 65، ونُخبةٌ مِنَ العلماء، التّفسيرُ الميسّرُ، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفسير، المُختصرُ في تفسيرِ القُرآنِ الكريم 46.
(2) ابنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/74.
(3) البيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/161، والقونَويّ، حاشيةُ القونَويّ على البيْضاويّ: 5/456.

سرُّ استعملِ مفردةِ الحَصْرِ دون الحَبْسِ:

اختارَ النَّظمُ فعلَ الإحصارِ في وَصْفِ الفُقَراءِ: ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ﴾، ولَمْ يَقُلْ: (حُبِسُوا)؛ لِأَنَّ الحَبْسَ مَنْعٌ، والحَصْرَ مَنْعٌ مَعَ تَضْيِيق، فَيُقالُ: حَصَرَهُمْ في البَلَدِ، أي: حَبَسَهُمْ، وضَيَّقَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ إذا فَعَلَ ذَلِك، فَقَدْ مَنَعَهُمْ عنِ الانْفِساحِ في السَّعْيِ والسَّفَرِ والتَّصَرُّفِ في الأُمورِ، وضَيَّقَ عَلَيْهِمْ مَعايِشَهُمْ، فَهُوَ حَبْسٌ مَعَ تَضْيِيقٍ، ولا يُقالُ: حُصِرَ دونَ أَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِ، فَهُوَ في ضِيقٍ[1]، فدلالةُ حصَرَ أشدُّ من دلالةِ حبَسَ، وهي تصوِّرُ حالةَ الفقراءِ وما تعرَّضوا له من الضَّعفِ في ذواتهم وقدراتهم، أو من غيرهم؛ لِذلك خَصَّ كَثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ هَذا المَعْنى في الآيَةِ الكَريمَةِ بِالْمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللّٰه الذينَ حَصَرَهُمُ العَدُوُّ، وحاصَرَهُمْ، ومَنَعَهُمْ مِنَ السَّيْرِ في الأَرْضِ لِلتَّصَرُّفِ والاتّجارِ، وطَلَبِ الرِّزْقِ، فَمُنِعوا عَنِ التَّصَرُّفِ في مَعايِشِهِمْ خَوْفَ العَدُوِّ.

الحَصْرُ حَبْسٌ وتَضْيِيقٌ يَمْنَعُ التَّصَرُّفَ أَوْ يُعيقُ

أثرُ الفَصْلِ بين الجملِ في بيانِ المعنى:

تحتملُ جملةُ: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أن تكون بيانًا للجملةِ السَّابقة: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ﴾، أو حالًا لها، فإذا كانت بيانًا فهي مفصولةٌ لِكَمالِ اتِّصالِها بها، فَهِيَ تبيِّنُ وصفَ هَؤُلاءِ الفُقَراءِ، وتُفَصِّلُهُ؛ فَجِيءَ بِالْفَصْلِ بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا﴾، ومَا قَبْلَهَا لِاتِّحادِ الجُمْلَتَيْنِ في الإِخْبَارِ بِالفَقْرِ وأَثَرِ الإِحْصَارِ.

الفَصْلُ لِلاتِّحادِ في الإِخْبارِ وبَيانِ أَثَرِ الإِحْصارِ

أو تكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنَّ سائلًا قد سأل: لماذا لا يُسافرون لتحصيلِ أرزاقِهم؟ فكان الجواب: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وممَّا يُقوِّي ذلك قولُه: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾، فهم لا يَمتلكون الحيلةَ في طلبِ الرِّزقِ، ولا يقدرون على السَّفرِ، ويزهدون في الطَّلبِ لتحصيلِ

بعضُ الأغنياءِ يراوِغون في الصَّدقاتِ ويطلُبون الإقناعَ

[1] العسكري، الفروق اللغوية: 1/114.

قوتِ يومِهم، وهذا الوجه قويٌّ لما فيه من جوابٍ عن مرواغةِ الأغنياءِ في الكسَلِ عن إعانةِ الفقراءِ.

أو تكون في مَوْضِعِ الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ أُحْصِرُوا؛ أَيْ: أُحْصِرُوا عَاجِزِينَ، لِتُبَيِّنَ بذلك حالَةَ هؤُلاءِ الفُقَراءِ، وقِلّةَ ذاتِ أَيْدِيهِمْ بِسَبَبِ إِحْصارِهِمْ عَنِ السَّعْيِ في طَلَبِ المَعاشِ الذي بِهِ تَصْلُحُ أَحْوَالُهُمْ.

قِيمَةُ الكنايةِ في تحريكِ النُّفوسِ:

معرفةُ قلَّةِ حيلةِ الفقراءِ في تحصيلِ معاشِهم يقوِّي الإحسانَ عند الأغنياءِ

لبَيانِ أَثَرِ الضِّيقِ والإحْصارِ جِيءَ بِالْكِنَايَةِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾، حَيْثُ عَبَّرَ بِالضَّرْبِ في الأَرْضِ عَنِ التِّجارَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ التَّاجِرِ أَنْ يُسافِرَ لِيَبْتاعَ ويَبيعَ، فَهُوَ يَضْرِبُ الأَرْضَ بِرِجْلَيْهِ أَوْ دابَّتِه[1]، ولَكِنَّهُ مَعَ الإحْصارِ حُبِسَ، وتَقَيَّدَتْ حَرَكَتُهُ، فَكَأَنَّه مَمْنوعٌ حَتَّى مِنَ الحَرَكَةِ، وكُلُّ هَذِهِ الأَوْصافِ والأَحْوالِ تُوجِبُ الحُنُوَّ عَلى مَنْ هذا حَالُهُ، والشَّفَقَةَ بِه، فإنَّ الآيةَ لم تقتصرْ على ذكرِ الإحصارِ، بل جاوزته إلى زيادةِ بيانٍ تفصيليٍّ، لجواب من يسألُ عن حالِهم.

نكتةُ إيثارِ صِيغَةِ المُبالَغةِ في قَوْلِه: ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾:

المُبالَغةُ في العَفافِ عَلامَةُ الأَشْرافِ

جِيءَ بصيغةِ التَّفعُّلِ في لفظ: ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وهي صيغةُ مُبالَغَةٍ؛ إذِ التعفُّفُ تفعُّلٌ من العفة، وَهو تَكَلُّفُ العفاف، فَهُوَ بِناءُ مُبَالَغةٍ مِنْ عَفَّ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا أَمْسَكَ عَنْهُ، وتَنَزَّهَ عَن طَلَبِه[2].

ولَمْ يَقُلْ: (مِنْ تَعَفُّفِهِمْ) إشارَةً إلى اتِّصافِهِمْ بِأَبْلَغِ وُجوهِ التَّعَفُّفِ وكَمالِ الرُّسوخِ فيه، ولإفادَةِ الاجْتهادِ في العِفَّةِ[3]؛ لِأَنَّ تَعَفُّفَ المُحْتاجِ (المُضْطَرِّ) إلى المَسْأَلَةِ، لَيْسَ كَتَعَفُّفِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْ بِهِ الحاجَةُ إلى السُّؤالِ، فَأَفادَ أَنَّ هَؤلاءِ لَمْ يَتّصِفُوا بِتَعَفُّفِهِمُ اللَّائِقِ بِهِمْ، بَل

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/75.
(2) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/135.
(3) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/106.

اتَّصفوا بِالتَّعَفُّفِ الإِجْماليِّ[1]، فَهُمْ مُتَعَفِّفونَ في سائِرِ الأَحْوالِ وفي كُلِّ الأَزمانِ.

ومِمَّا يَدُلُّ على هَذا الاتِّصافِ اللَّازِمِ مَجِيءُ جُمْلَةِ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ حَالًا مِنَ الْفُقَرَاءِ، و﴿مِنَ﴾: السَبَبِيَّةُ التي تَدُلُّ على أَنَّ الحَامِلَ عَلَى حُسْبَانِهِمْ أَغْنِيَاءَ هُوَ تَعَفُّفُهُمْ؛ لِأَنَّ عادَةَ مَنْ كانَ غَنِيَّ مَالٍ أَنْ يَتَعَفَّفَ، وَلَا يَسْأَلَ[2].

أثرُ فنِّ الطِّباقِ في إبرازِ أصنافِ النَّاسِ:

على الفقيرِ التَّعفُّفُ، والرِّزقُ على الله وحدَه

يُوحي الطِّباقُ بَيْنَ لَفْظَتَيْ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ و﴿أَغْنِيَآءَ﴾ بِرُسوخِ صِفَةِ العِفَّةِ في أُولَئِكَ الفُقَراءِ حَتَّى صَيَّرَتْهُمْ في حُسْبانِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَغْنَياءَ، وهذا التَّصنيفُ يُبرزُ أثرَ التَّعفُّفِ في الحفاظِ على كرامةِ المسلمِ، فإنَّ الغنيَّ أولى النَّاسِ معرفةً بالفقيرِ، وبحالِه التي عليها، ومع ذلك فهو يقع في دائرةِ الجهلِ لشدَّةِ تعفُّفِ الفقيرِ، ففي الآيةِ إشارَةٌ إلى أنَّ التَّعفُّفَ يحمي الفقراءَ من لمزِ غيرِهم، وأنَّ اللهَ يتولَّى سَوْقَ الرِّزقِ لهم.

براعةُ ترتيبِ الجملِ بعضِها على إثرِ بعضٍ:

الحفاظُ على أخلاقِ الفقراءِ والأغنياءِ من الرَّذائلِ سياجُ قبولِ الصَّدقةِ

عند ذكرِ جهلِ حالِ الفقيرِ في قولِه: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ لسائلٍ أن يسألَ عن كيفيَّةِ معرفتِهم لإعانتِهم، فكان الجَوابُ في البَيانِ المَذْكورِ بَعْدَ ذَلِكَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، والسِّيما: هي العلامة الخفيَّة التي تتراءى للمستبصرِ[3]، فَأُحيلَ ذَلِكَ على مَظِنَّةِ المتأمِّلِ[4]، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [الحجر: 75].

وَمَعْنَى ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، أَيْ: بِعَلَامَةِ الْحَاجَةِ، وَالْخِطَابُ لِغَيْرِ

(1) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(2) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/697.
(3) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/105.
(4) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/75.

مُعَيَّن؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مُخَاطَبٍ، وَلَيْسَ لِلرَّسُولِ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بحالهم، والمخاطب بتعرفهم: هُوَ الَّذِي تَصَدَّى لِتَطَلُّعِ أَحْوَالِ الْفُقَرَاءِ، فَهُوَ الْمُقَابِلُ لِلْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾، فالْجُمْلَةُ إذن بَيَانٌ لِجُمْلَةِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنياءَ(1)، وفي هذا دعوةٌ أن يكونَ في المجتمع المسلمِ من يعرفُ الفقراءَ (الأُسر المستورة)؛ لإعانتِهم بالخفاءِ، بحيث يكون هناك وسيطٌ بينهم وبين الأغنياءِ، وفي ذلك حفاظٌ على أخلاقِ الفقيرِ من رذيلةِ الحاجةِ، وعلى أخلاقِ الغنيِّ من رذيلةِ الكبرِ.

نكتةُ نَفْيِ الشَّيْءِ بِإِيجابِهِ:

الفَاضِلُ المُتعَفِّفِ لا يَسْأَلُ ولَا يُلْحِفُ

قَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فِيهِ مِنْ بَدِيعِ البيانِ في نَظْمِ القُرْآنِ: ما يُسمَّى بـ (نَفْيِ الشَّيْءِ بِإِيجابِهِ)، وهُوَ إِثْباتُ شَيْءٍ في ظاهِرِ الكَلامِ، ثُمَّ نَفْيُ ما هُوَ مِنْ سَبَبِهِ؛ فَفِي هَذِهِ الآيَةِ: المَنْفِيُّ في ظاهِرِ الكَلامِ هُوَ الإِلْحافُ في السُّؤالِ، لا نَفْسُ السُّؤالِ مَجازًا، والمَنْفِيُّ في بَاطِنِ الكَلامِ حَقِيقَةً نَفْسِ السُّؤالِ؛ إِلْحافًا كانَ أَوْ غَيْرَ إِلْحافٍ، وقَدْ يَرِدُ نَفْيُ الشَّيءِ في القُرآنِ مُقيَّدًا، والمرادُ نفيُه مُطلقًا؛ كَمَا نَفَى هُنا عَنْهُمُ السُّؤالَ بِنَفْيِ صُورَةٍ مُسْتَكْرَهَةٍ، وهِيَ الإِلحَافُ في المَسْأَلَةِ، والمَقْصُودُ نَفْيُ السُّؤالِ مُطْلَقًا(2)، ونكتةُ ذلك: المبالغةُ في النَّفيِ المستوجبُ للمدحِ، مع التَّعريضِ بمن يُلحفُ في السُّؤالِ، ونَظيرُهُ في القُرآنِ الكَريمِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [غافِر: 18]، أَيْ: لا شَفيعَ أَصْلًا، ومِنْ ثَمَّ انْتَفَى الشَّفيعُ فَلا إِطاعَةَ(3).

والمَعْنى: أَنَّهُمْ لا يَسْأَلُونَهُمْ أَلبَتَّةَ، لا بِإِلْحاحٍ، ولا بغَيْرِه، وإِلَيْهِ ذَهَبَ جُمْهورُ الْمُفَسِّرينَ(4)، ومَجيءُ الإِلْحافِ المَنْفِيِّ فيها لِلْمُبَالَغَةِ والتَّوْكيدِ في نَفْيِ السُّؤَالِ، فَهِيَ كالتَّذْييلِ والتَّتْميمِ(5).

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْويرُ: 3/75.
(2) خالد السّبت، قواعِدُ التّفسير: 2/527، ومُؤسّسةُ الدُّررِ السّنيةِ بِإِشْرافِ علوي السّقاف، التّفسيرُ المُحرّرُ لِلْقُرآنِ الكريم: 1/761.
(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/76، وعادِل الرّويني، مِنْ غريبِ بلاغةِ القُرآنِ الكريمِ في سورتي الفاتِحةِ والبقرة 633.
(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/136.
(5) حاشيةُ القونَويِّ على البيْضاويّ: 5/458.

بلاغةُ اجتماعِ التَّصريحِ والتَّعريضِ في سياقٍ واحدٍ:

نَفْيُ السُّؤالِ والإلْحافِ مَدْحٌ للصَّابِرينَ وتَعْريضٌ بالمُلْحِفين

قال ابْنُ عَرَفَةَ: يَنْبَغي أَنْ يُوقَفَ على قَوْلِه: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، أَيْ: يَبْلُغونَ في شِدَّةِ صَبْرِهِمْ وتَجَلُّدِهِمْ على الفقْرِ[1]؛ فَهُوَ مَدْحٌ وتَأْكيدٌ لِصَبْرِهِم المُشارِ إليْه بالتَّعَفُّفِ مِنْ قَبْلُ، كما أَنَّ اللَّه تَعَالَى لَمَّا وَصَفَهُمْ قَبْلَ ذَلِك بِأَنَّهُمْ يَتَعَفَّفُونَ عَنِ السُّؤالِ، فعُلِمَ أَنَّهُمْ لا يَسْأَلُونَ الْبَتَّة، تَعَيَّنَ أَنَّ في قَوْلِه: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ تَعْريضًا بالْمُلْحِفينَ في السُّؤالِ، والْمُرَادُ التَّنْبِيهُ عَلَى سُوءِ طَرِيقَةِ مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا، وَمِثَالُهُ إِذَا حَضَرَ عِنْدَكَ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا عَاقِلٌ وَقُورٌ ثَابِتٌ، وَالْآخَرُ طَيَّاشٌ مِهْذَارٌ سَفِيهٌ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَمْدَحَ أَحَدَهُمَا، وَتُعَرِّضَ بِذَمِّ الْآخَرِ، قُلْتَ: فُلَانٌ رَجُلٌ عَاقِلٌ وَقُورٌ قَلِيلُ الْكَلَامِ، لَا يَخُوضُ في التُّرَّهَاتِ، وَلَا يَشْرَعُ في السَّفَاهَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ غَرَضُكَ مِنْ قَوْلِكَ: لَا يَخُوضُ في التُّرَّهَاتِ وَالسَّفَاهَاتِ وَصْفَهُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَسَنَةِ يُغْنِي عَنْ ذَلِكَ، بَلْ غَرَضُكَ التَّنْبِيهُ عَلَى مَذَمَّةِ الثَّاني[2].

التَّكْرارُ لِلتَّحْريضِ على الإِنْفاقِ:

فَفِي قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ إعادَةُ حَضٍّ عَلى الإِنْفاقِ، حَيْثُ ذُكِرَ مَرَّةً رابِعَةً في خِتامِ هَذِهِ الآيَةِ بَعْدَما ذُكِرَ ثَلاثًا في الآيَةِ قَبْلَهَا؛ وَقَدْ حَصَلَ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ المَرَّاتِ الأَرْبَعِ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلى الإِنْفاقِ ما أَفادَ شِدَّةَ فَضْلِ الإِنْفاقِ بِأَنَّهُ نَفْعٌ لِلْمُنْفِقِ، وصِلَةٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّه، ونَوالٌ لِلْجَزاءِ مِنَ اللَّه، وأَنَّهُ ثابِتٌ لَهُ في عِلْمِ اللَّهِ[3].

الكِنايَةُ بِالْعِلْمِ على أَثَرِه لِلتَّرْغيبِ في العَمَلِ ومُجانَبَةِ الوَهَنِ والكَسَلِ

قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ كِنايَةٌ عَنِ الجَزاءِ عَلَى الإنفاقِ؛ لِأَنَّ العِلْمَ يُكَنَّى بِهِ عَنْ أَثَرِهِ كَثيرًا، فَلَمَّا كانَ الإِنْفاقُ مُرَغَّبًا فيه مِنَ اللَّه، وكانَ عِلْمُ اللَّهِ بِذلِك مَعْروفًا لِلْمُسْلِمينَ، تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الإِخْبارُ بِأَنَّهُ

(1) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/623.
(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77، والقونَويّ، حاشيةُ القونَويِّ على البيْضاويّ: 5/460.

عَليمٌ بِهِ، أَنَّهُ عَليمٌ بِامْتِثالِ المُنْفِقِ، أَيْ: فَهُوَ لا يُضيِّعُ أَجْرَهُ؛ إِذْ لا يَمْنَعُهُ مِنْهُ مانِعٌ بَعْدَ كَوْنِهِ عَليمًا بِهِ؛ لِأَنَّهُ قَديرٌ عَلَيْهِ[1]، وأَكَّدَ هذا المَعْنى تَأْكيدُ الخَبَرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِإِنَّ واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ وَوُرودِهِ بِصيغَةِ المُبالَغَةِ.

قال ابْنُ عَرَفَةَ: "قالوا: إِنَّ العَبْدَ يُفَرِّقُ بَيْنَ حالَةِ طاعَتِهِ لِسَيِّدِهِ، وهُوَ حاضِرٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وبَيْنَ حالَةِ طاعَتِهِ لَهُ في غَيْبَتِهِ، فَمَعَ الحُضورِ يَجْتَهِدُ أَكْثَرَ"[2].

وفي كُلِّ هذا تَرْغيبٌ في الإِنْفاقِ وَحَثٌّ على الصَّدَقَةِ، لا سيما على هَؤُلاءِ[3] الذينَ قَصَدَهُمُ النَّبيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: "لَيْسَ المِسْكينُ الذي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ واللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ، إِنَّما المِسْكينُ الذي يَتَعَفَّفُ، واقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾"[4]، وبِهذا يُعْلَمُ كَيْفَ أَنَّ القُرْآنَ لَمْ يُغادِرْ شَيْئًا مِنَ الحَثِّ عَلى إِبْلاغِ الصَّدَقاتِ إِلَى أَيْدي الفُقَراءِ، إِلَّا وَقَدْ جاءَ بِهِ، وَأَظْهَرَ بِهِ مَزيدَ اعْتِناءٍ[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُدْرَةِ والِاسْتِطاعَة:

القُدْرَةُ على الشَّيْءِ: مُلْكُهُ[6]، والاسْتِطاعَةُ: هِيَ اسْتِفْعالٌ مِنَ الطَّاعَةِ، وَالِانْقِيادِ[7]، فالاسْتِطاعَةَ طَاعَةُ الجَوارِحِ لِلْفِعْلِ والِانْقِيادُ لَهُ، ويُقالُ: أَطاعَهُ؛ إِذا انْقادَ لَه، فَهِيَ انْطِباعُ الجَوارِحِ لِلْفِعْلِ، فَتَكونُ الِاسْتِطاعَةُ أَخَصَّ مِنَ القُدْرَةِ، فَكُلُّ مُسْتَطيعٍ قَادِرٌ، ولَيْسَ كُلُّ قادِرٍ مُسْتَطيعًا، فيقال: فلان قادر على فعل الشيء، لكن لا يستطيعه لمانع يمنعه[8].

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/76، والهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/99.
(2) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(3) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/136، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/46.
(4) أخرجه البُخاري، حديث رقم: (1476)، ومُسْلِم، حديث رقم: (1039).
(5) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/76.
(6) ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب: (قدر).
(7) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللّغة: (طوع)، والجوهري، الصحاح: (طوع).
(8) العسكري، الفروق اللغوية: 1/110.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: 274]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ أَحْوالِ الإِنْفاقِ بَعْدَ بَيانِ مَصارِفِ النَّفَقاتِ

لَمَّا حَضَّ اللّه سُبْحانَهُ وتعالى على النَّفَقَةِ، وبَيَّنَ أَكْمَلَ مَنْ تُصرَفُ إِلَيْه النَّفَقَةُ؛ ذكر في هَذِهِ الآيَةِ أَكْمَلَ وُجوهِ الإِنْفاقِ[1]، فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، فَبَيَّنَ أَحْوالَ فَضائِلِ الإِنْفاقِ بَعْدَ أَنْ خُصِّصَ الْكَلامُ بِالْإِنْفَاقِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِرًّا﴾: خِفْيَةً، والإِسْرارُ إِخْفاءُ الشَّيْءِ وكتمانه[3] يقال: أَسَرَّ إِليه حَدِيثاً: أَفْضَى بِهِ إليه في خُفْيَة[4]، وأصل (سرَّ): إخفاء الشيء[5]، والإسرار خلاف الإعلان، والمعنى هنا: ينفقون أموالهم في خُفْية عن أعين الناس.

2) ﴿وَعَلَانِيَةً﴾: جَهْرًا، ظَاهِرًا، وعَلِن الْأَمر يَعْلُن؛ إذا شاع، وَظهر، وَفَشَا[6]، وأُعْلِنَ الأَمْرُ؛ إذا اشْتَهَرَ[7]، وأَصْلُ عَلَنَ: يَدُلُّ عَلَى إِظْهَارِ الشَّيْءِ وَالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَظُهُورِه[8]، والمَعْنى هُنَا: يُنْفِقون أَموالَهُمْ جِهارًا ظَاهِرًا لِلنَّاسِ لا خَفاءَ فيه.

3) ﴿أَجْرُهُمْ﴾: الأَجْرُ: الثَّوابُ، وَبَدَلُ الْمَنْفَعَةِ، وقَدْ أَجَرَه

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/71.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77.
(3) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (سرر).
(4) الرّاغِب، المُفْردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (سرر).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (سرّ).
(6) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (علن).
(7) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (علن).
(8) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (علن).

يَأْجُرُهُ، إذا جَزاهُ وأَثابَهُ وأَعْطاهُ[1]؛ وأَصْلُ الأَجْرِ الكِراءُ على العَمَلِ[2]، فَهُوَ جَزاءُ العَمَلِ[3]، والمَعْنى هُنا: لَهُمْ ثَوابُهُمُ التَّامُّ يوم القيامة جَزاءَ نَفَقَتِهِمْ.

4) ﴿خَوْفٌ﴾: الخَوْفُ: تَوَقُّعُ المَكْروهِ[4]، وأَصْلُ الخَوْفِ يَدُلُّ عَلَى الذُّعْرِ وَالْفَزَعِ[5] فالخَوْفُ: فَزَعٌ، يُقالُ: خافَهُ يَخافُهُ خَوْفًا وخِيفة[6].

5) ﴿يَحْزَنُونَ﴾: يَشْعُرونَ بِالحُزْنِ، وهُوَ قَسْوَةُ الأَمْرِ وشِدَّتُه وخُشونَتُهُ[7]، والحُزْنُ نَقيضُ الفَرَحِ وخِلافُ السُّرورِ، وأَصْلُ حَزَنَ: يَدُلُّ على خُشونَةِ الشَّيْءِ وَشِدَّةٍ فيهِ[8]، فَالحُزْنُ خُشونَةٌ في النَّفْسِ؛ لِما يَلْحَقُها مِنَ الغَمِّ[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإنفاقُ المحقِّقُ للتكافلِ والتعاونِ على البرِّ والتَّقْوى

يبيِّنُ اللّٰه التشريعَ الإلهيَّ الحكيمَ في الإنفاق، وما فيه من سدِّ حاجةِ الفقراء في كرامةٍ وعزَّةِ نَفْسٍ، وتطهيرِ مالِ الأغنياء، وتحقيق التعاون على البرِّ والتقوى؛ ابتغاءَ وجهِ اللّٰه بأنَّ الذينَ يُخْرِجُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّٰهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي خُفْيَة عن أعينِ النَّاسِ، وفي العَلانِيَةِ بِلا رِياءٍ ولا سُمْعَةٍ، فَلَهُمْ ثَوابُ ما أنفقوه عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ، ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فيما يَسْتَقْبِلونَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ، ولا هُمْ يَحْزَنونَ على ما فاتَهُمْ مِنَ الدُّنْيا، فَضْلًا مِنَ اللّٰهِ ونِعْمَةً[10].

---

(1) الزَّبيديّ، تاجُ العروس: (أجر).
(2) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (أجر).
(3) الخليل، العينُ: (أجر).
(4) الرَّاغِب، المُفْردات: (خوف).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (خوف).
(6) جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيّ: (خوف- خيف).
(7) جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (حزن).
(8) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (حزن).
(9) الرَّاغِب، المُفْردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (حزن).
(10) لجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزهر، المُنْتخبُ في تفسيرِ القُرآنِ الكريمِ، ص: 65، ونُخْبةٌ مِنَ العلماء، التّفسيرُ المُيسّرُ، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفسير، المُخْتصرُ في تفسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 46.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ الكلامِ المُسْتَأْنَف:

تعميمُ أحوالِ الإنْفاقِ بَعْدَ ذِكْرِ المَصْرِف

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، تُفِيدُ تَعْمِيمَ أَحْوَالِ فَضَائِلِ الْإِنْفَاقِ بَعْدَ أَنْ خُصِّصَ الْكَلَامُ بِالْإِنْفَاقِ في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

مِنْ عَلاماتِ أَهْلِ التَّوفِيقِ عِمْرانُ الوَقْتِ بالخَيراتِ والاجْتِهادِ في بَذْلِ الصَّدَقاتِ

ومعنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أَيْ: يعُمُّونَ الأَوقاتَ والأَحوالَ بالخَيْرِ والصَّدَقَةِ[2]؛ لِحِرْصِهِمْ على الخَيْرِ، فَكُلَّما نَزَلَتْ بِهِمْ حاجَةُ مُحْتاجٍ؛ عَجَّلُوا قَضاءَها، ولَمْ يُؤَخِّروها، ولَمْ يَتَعَلَّلوا بِوَقْتٍ ولا حالٍ[3].

والمُرادُ باللَّيلِ والنَّهارِ جَميعُ الأَوْقاتِ كما أَنَّ المُرادَ بما بَعْدَهُ جَميعُ الأَحْوالِ[4]، فَعُمومُ الأَوْقاتِ مُسْتَفادٌ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وعُمومُ الأَحْوالِ مُسْتفادٌ مِنْ قَوْلِه: سِرًّا وعَلانيَةً[5].

ويُفيدُ زِيادَةَ رَغْبَتِهِمْ في الإِنْفاقِ وشِدَّةَ حِرْصِهِمْ عَلَيْهِ حتَّى أَنَّهُمْ لا يَتْرُكونَ ذَلِكَ لَيْلًا ولا نَهارًا، ويَفْعَلونَهُ سِرًّا وجَهْرًا عِنْدَ نُزولِ حاجَةِ المُحْتاجينَ وظُهورِ فاقَةِ المُفْتاقينَ في جَميعِ الأَزْمِنَةِ على جَميعِ الأَحْوالِ[6].

تَقْديمُ اللَّيْلِ على النَّهارِ والسِّرِ على الإجْهارِ لِلإيذانِ بِمَزِيَّةِ الإخْفاءِ على الإظْهارِ

فَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾؛ فيهِ تَقْديمُ اللَّيلِ عَلى النَّهارِ، والسِّرِّ على العَلانِيَةِ، وفيه دلالةٌ على تلك الأَفضَلِيَّةِ؛ فَاللَّيْلُ مَظِنَّةُ صَدَقَةِ السِّرِّ، ونَفَقَةُ السِّرِّ، وما فيها مِنْ خَفاءٍ، يُناسِبُها ذِكْرُ اللَّيلِ، وما فيهِ مِنْ سِتْرٍ، فَقُدِّمَ الوَقْتُ الذي

---

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/411.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/319.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/46.
(5) ابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيد على البيْضاويّ: 5/460.
(6) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/137.

كانَتِ الصَّدَقَةُ فيهِ أَفْضَلَ، والحَالُ التي كانَتْ فيهَا أَفْضَلَ[1]، فَهذا التَّقْديمُ لِلْإيذانِ بِمَزِيَّةِ الإِخْفاءِ على الإِظْهارِ[2].

فائِدةُ تَعَدّي فِعْلِ الإِنْفاقِ بِحَرْفِ الإِلْصاقِ:

إِفادةُ اسْتِغْراقِ النَّفقةِ في الزَّمانِ كلِّه

الغَرَضُ مِنْ دُخولِ البَاءِ في قولِه: (باللَّيلِ) مَدْحُ هَؤُلاءِ المُنْفقينَ، بالإِشارَةِ إلى اسْتِغراقِ إِنْفاقِهِمْ لِلزَّمَنِ كُلِّه، أَيْ: لَيْلًا ونَهارًا، وَوُقوعُ تَصَدُّقِهِمْ في أَيِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزائِه؛ فَإِنْفاقُهُمْ مُتَواصِلٌ في أَيِّ وَقْتٍ مِنْ لَيْلٍ ونَهارٍ؛ بِدَلالَةِ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ في: ﴿يُنفِقُونَ﴾، وكَأَنَّهُ لا تَكادُ تَمُرُّ لَحْظَةٌ مِنْ زَمَنٍ إلَّا وهِيَ مَصْحوبَةٌ بِإِنْفاقٍ مِنْهُمْ[3]، ولِتَأْكيدِ هَذا الاسْتِغْراقِ جِيءَ بالمُقابَلَةِ[4] والطِّباقِ بَيْنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والسِّرِّ والعَلانِيَةِ.

نكتةُ دُخولِ الفاءِ في خَبَرِ أَهْلِ الإِنْفاقِ:

بيانُ سَببِ استِحقاقِ المنفقين الأجرَ عند الله تعالى

دخلتِ الفاءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في خَبَرِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لِلتَّنْبيهِ على تَسَبُّبِ اسْتِحْقاقِ الأَجْرِ على الإِنْفاقِ؛ لأَنَّ الخَبَرَ إِذا كَان ثَابِتًا، وَعُطِفَ عَلَيْه ما يُتَوَهَّمُ نَفْيُهُ وعَدَمُ ثُبوتِه، فلا بدَّ مِنَ الفاءِ، فَأُتِيَ بِالفَاءِ الدَّالَةِ على كَمالِ الارْتباطِ، وأَنَّ ذلك سَبَبٌ في نَفْيِ الحُزْنِ والخَوْفِ عَنْهُمْ[5]، وَلأَنَّ المُبْتَدأَ لَمَّا كانَ مُشْتَمِلًا على صِلَةٍ مَقْصودٍ مِنْها التَّعْميمُ والتَّعْليلُ، والإِيماءُ إلى عِلَّةِ بِنَاءِ الخَبَرِ على المُبْتَدَأِ - وهِيَ يُنْفِقونَ -؛ صَحَّ إِدْخالُ الفاءِ في خَبَرِه، كَما تَدْخُلُ في جَوابِ الشَّرْطِ[6]، فَالفَاءُ لِلدَّلالَةِ على سَبَبِيَّةِ ما قَبْلَهَا لِمَا بَعْدَهَا[7]، وَمَا أُدْخِلَتْ في جَوابِ الشَّرْطِ إلَّا لِذَلِكَ[8].

---

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/701، والقِنَّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/137.

(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/411 والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/46.

(3) عادِل الرّويني، مِنْ غريبِ بلاغةِ القُرآنِ الكريم، ص: 635.

(4) المُقابلةُ: هي أنْ يُؤْتى بِمعْنيينْ مُتوافِقيْنِ أوْ أكْثر، بِما يُقابِلُ ذلِك على التّرتيب، وتبدأُ بِتلاؤُمِ أجْزاءِ جُمْلةٍ أوْ جُملٍ ثُمّ بِالتّضادِ بعْد ذلِك، مِثْل قوْلِهِ تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التّوبة: 82]، يُنْظرُ: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 115، وابْنُ سِنانٍ الخفاجيّ، سِرُّ الفصاحة، ص: 200.

(5) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

(6) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/701، وابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77.

(7) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/137.

(8) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77.

سرُّ إضافةِ الأجرِ إلى الضَّميرِ العائدِ على المنفقين:

الإضْمارُ والتَّأْكيدُ لِاخْتِصاص أَهْلِ الإِنْفاقِ بِالْفَضْلِ والمَزِيدِ

قال تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ولَمْ يَقُلْ: (فَلَهُمْ أَجْرٌ)؛ لِأَنَّ المُرادَ أَجْرُهُمُ اللَّائِقُ بِهِمْ، ولَوْ قيلَ: فَلَهُمْ أَجْرٌ؛ لَكانَ مَفْهومُهُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ دُونَ ذَلِكَ لا أَجْرَ لَهُ مَعَ أَنَّهُ يُؤْجَرُ[1]، ولِتَأْكيدِ خُصوصيَّتِهِمْ بِهذا الفَضْلِ أُكِّدَ الخَبَرُ بِاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ في صَدْرِ الآيَةِ وعَجُزِها، وَقُدِّمَ ضَميرُ الفَصْلِ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمُ المَخْبُوءُ لَهُمْ في خَزائِنِ الفَضْلِ عِنْدَ رَبِّهِمْ[2]، بِالإِضافَةِ إِلى ما يُوحيهِ لَفْظُ الرَّبِّ هُنا من أَنَّ هذا الثَّوابَ مَحْضُ تَفَضُّلٍ مِنَ اللهِ تعالى[3].

توجيهُ المتُشابِهِ اللَّفظيِّ:

لسائلٍ أن يسأَلَ عن سرِّ حَذْفِ الفَاءِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ [البقرة: 262]، وسرِّ إِثْباتِها في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾

والجَوابُ: أَنَّهُ بِالنَّظَرِ إِلى سِياقِ الآيَتَيْنِ الكَريمتَيْنِ يَتَبَيَّنُ: أَنَّ ما وُصِفَ بِهِ المُنْفِقونُ في الآيَةِ التي تُرِكَ فِيهَا العَطْفُ بِالفَاءِ، أَعْظَمُ وأَبْلَغُ مِمَّا وُصِفُوا بِهِ في الآيَةِ التي أُثْبِتَ فيها العَاطِفُ؛ فَفِي الآيَةِ الأُولَى تَصْريحٌ بِإِخْلاصِ نَفَقَتِهِمْ للهِ تَعالى، بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في حِينِ ذَكَرَ في الثَّانيةِ ما يَدُلُّ عَلى كَثْرَةِ إِنْفاقِهِمْ وتَنَوُّعِهِ بَيْنَ السِّرِّ والعَلانيةِ، ثُمَّ ارْتَقى في الأُولى ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾، وتِلْكَ دَرَجَةٌ عالِيَةٌ في السَّخَاءِ والإِنْفاقِ حتَّى صارَ مُلازِمًا لِلنَّفْسِ وسَجِيَّةً مِنْ سَجاياها، وجاءَ حَرْفُ التَّراخي ثُمَّ؛ دَليلًا آخَرَ على أَنَّ هذا الوَصْفَ، أَيْ: عَدَمُ المَنِّ والأَذَى أَرْقَى مَنْزِلَةً مِنَ الإِنْفاقِ ذَاتِهِ بِدَلالَةِ "ثُمَّ" على التَّفاوُتِ الرُّتْبِيِّ، وإِشْعارًا إِلى أَنَّ الإِنْفاقَ عَنْ قَناعَةٍ وسَماحَةٍ ورِضًا يَحُولُ بَيْنَ المُنْفِقِ وبَيْنَ إِتْباعِ نَفَقَتِهِ ما يُبْطِلُها، هُوَ أَعْظَمُ ما في الإِنْفاقِ؛ فَكانَ هَذا دَليلًا دامِغًا عَلى ثَباتِ أَجْرِهِمْ واسْتِحْقاقِهِ، حتَّى لَمْ يَبْقَ لِلْفاءِ المُؤَكِّدَةِ مَوْقِعٌ في الآيَةِ الكَريمَةِ فَأُسْقِطَتْ؛

(1) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(2) الآلوسِّي، روحُ المعاني: 2/47.
(3) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324.

فَتَخْلِيَةُ الخَبَرِ عَنِ الفَاءِ المُفيدَةِ لِسَبَبِيَّةِ ما قَبْلَهَا لِمَا بَعْدَهَا لِلْإِيذانِ بِأَنَّ تَرْتِيبَ الأَخيرِ، أَيِ: الأَجْرُ على ما ذُكِرَ مِنَ الإِنْفاقِ، وتَرْكِ إِتْباعِ المَنِّ والأَذى؛ أَمْرٌ بَيِّنٌ لا يَحْتاجُ إِلى التَّصْريحِ بالسَّبَبِيَّةِ(1).

ولَمَّا كَانَتِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ لَيْسَ فيهَا ما يَدُلُّ على المُبَالَغَةِ في وَصْفِ المُنْفِقِينَ بِمَا ذُكِرَ، أُثْبِتَتْ فَاءُ السَّبَبِيَّةِ فِيها؛ لِلدَّلالَةِ على أَنَّ اسْتِحْقاقَهُمُ الأَجْرَ المَذْكورَ في الآيَةِ، إِنَّما كان بِسَبَبِ إِنْفاقِهِمْ أَمْوالَهُمْ سِرًّا وعَلانِيَةً(2).

نكتةُ نَفْيِ الحُزْنِ بِالْفِعْلِ، والخوْفِ بِالِاسْمِ:

نَـفْـيُ عُـمـومِ الخَوْفِ والحُزْنِ عَنِ المُنْفِقِ

نَفَتِ الآيةُ عن المُنفقين في قولِه تعالى: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ الحُزْنَ عَنْهُمْ بالفِعْلِ، والخَوْفَ بالاسْمِ مَعَ أَنَّ ما يقتضيه الظَّاهِرُ العَكْسَ؛ لِأَنَّ مُتَعَلَّقَ الحُزْنِ ماضٍ والخَوْفِ مُسْتَقْبَلٌ؛ ولِأَنَّ النَّكِرَةَ(3) في سِياقِ النَّفْيِ تُفيدُ العُمومَ بِإِجماعٍ، والفِعْلَ في سِياقِ النَّفْيِ مُخْتَلَفٌ فيه، هَلْ يُفيدُ العُمومَ أَم لا؟ والمَاضي مَحْصورٌ؛ لأَنَّهُ مُشاهَدٌ مَرْئِيٌّ فَمُتَعَلَّقُهُ غَيْرُ مُتَعَدِّدٍ، والمُسْتَقْبَلُ مُتَعَلَّقاتُه مُتَعَدِّدَةٌ؛ لأَنَّهُ غَيْرُ مَحْصورٍ، فالخَوْفُ مِنْهُ يَعْظُمُ لِكَثْرَةِ الخَواطِرِ التي تَخْطُرُ بِبالِ الإِنْسانِ، فَقَدْ يَخافُ مِنْ كَذا، ويَخافُ مِنْ كَذا، ويَخافُ مِنْ شَيْءٍ هُوَ في نَفْسِ الأَمْرِ آمِنٌ فيه، فَلِذلِكَ نَفَى الخَوْفَ بِلَفْظِ الاِسْمِ الدَّالِّ على العُمومِ بِإِجْماعٍ، ونَفَى الحُزْنَ بِالْفِعْلِ المُحْتَمِلِ لِلْعُمومِ وعَدَمِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كُلُّ جَهْرٍ إِعْلانٌ، ولَيْسَ كُلُّ إِعْلانٍ جَهْرًا

الإِعْلان والجَهْر:

الإِعْلانُ خِلافُ الكِتْمانِ: وهُوَ إِظْهارُ المَعْنى لِلنَّفْسِ، ولا يَقْتَضي

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/411.

(2) الرّويني، مِنْ غريبِ بلاغةِ القُرآنِ الكريمِ 635.

(3) النّكِرةُ عِندَ أكثرِ النُّحاةِ لا تعُمُّ إلاّ إذا كانتْ مبْنيةً مع: (لا)، مِثْل: (لا رجُل في الدّارِ)، وقدْ جاءتْ هُنا غيرَ مبْنية: (لا خوْفٌ) إلاّ أنّها أعمُّ مِن الفِعْلِ. يُنْظرُ: ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324، والشِّنْقيطيّ، مُذكِّرةٌ في أُصولِ الفِقْهِ 384.

رَفْعَ الصَّوْتِ بِهِ، والجَهْرُ يَقْتَضي رَفْعَ الصَّوْتِ بِهِ، ومِنْهُ يُقالُ: رَجُلٌ جَهيرٌ وجَهُوريٌّ؛ إذا كَانَ رَفيعَ الصَّوْتِ[1].

وقَدِ اجْتَمَعَ كُلٌّ مِنَ الإِعْلانِ والجَهْرِ في قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نُوحٌ: 8- 9]، فَتَقَدَّمَ الإِسْرارُ، ويَلِيهِ الجِهارُ، ثُمَّ الجَمْعُ بَيْنَهُما في مَقامٍ واحِدٍ.

وعَلى ضَوْءِ هذا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الجَهْرَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْإِعْلانِ، فَهُوَ وَسيلَةٌ مِنْ وسَائِلِ الإِعْلانِ.

الأَجْر والثَّواب:

الأَجْرُ ثَـوابٌ وزِيادَةٌ عِوَضٍ

الأَجْرُ: هُوَ جَزاءُ العَمَلِ الذي يَكُونُ فيهِ عَقْدٌ، أَوْ ما يَجْري مَجْراهُ، وَالشَّاهِدُ أَنَّكَ تَقُولُ: مَا أَعْمَلُ حَتَّى آخُذَ أَجْري، وَلَا تقولُ: ثوابي، أَمَّا الثَّوابُ؛ فَقَدِ اشْتَهَرَ في الجَزاءِ على الحَسَناتِ[2]، وَالأَجْرُ يُقالُ: في هذَا المَعْنى، ويُقالُ في ما مَعْناهُ: المُعاوَضَةُ بِالانْتِفاعِ[3].

الخَوْف والخَشْيَة:

الْخَشْيَةُ أَخَصُّ مِنَ الخَوْفِ

الخَوْفُ: انْفِعالٌ في النَّفْسِ يَحْدُثُ عِنْدَ تَوَقُّعِ حُلولِ مَكْروهٍ، أَوْ فَواتِ مَحْبوبٍ[4] عَنْ أَمارَةٍ مَظْنونَةٍ، أَوْ مَعْلومَةٍ[5]، وَفي التَّنْزيلِ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأَحْزابُ: 19]، والخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمُ المَخْشيِّ، مَعَ المَعْرِفَةِ بِهِ[6]، كما أَنَّ الخَوْفَ يتَعَلَّقُ في الغالِبِ بِالمَكْروهِ نَفْسِهِ، أَمَّا الخَشْيَةُ؛ فتتَعَلَّقُ بِمَنْزِلَةِ المَكْروهِ[7]، وَلِهَذا جاءَ التَّفْريقُ بَيْنَهُما بِحسَبِ هذا المَعْنى في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرَّعْدُ: 21]، فالْخَشْيَةُ تَكُونُ مِنْ عِظَمِ

(1) العسكري، الفروقُ اللُّغويّة، ص: 1/278.
(2) العسكري، الفُروقُ اللُّغويّة، ص: 17.
(3) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (أجر).
(4) الجُرْجانّي، التّعْريفاتُ، ص: 101، والأحمد نكري، جامِعُ العُلومِ في اصْطِلاحاتِ الفُنون: 2/66.
(5) الرّاغِب، المُفردات: (خوف).
(6) السُّيوطيّ، مُعْجمُ مقاليدِ العُلومِ، ص: 204، والمناويّ، التّوقيفُ على مُهِمّاتِ التّعاريفِ، ص: 155.
(7) العسكري، الفُروقُ اللُّغوية، ص: 241.

الْمُخْتَشَى، وَإِنْ كَانَ الْخَاشِي قَوِيًّا، وَالْخَوْفُ يَكُونُ مِنْ ضَعْفِ الْخَائِفِ، وَإِنْ كَانَ الْمَخُوفُ أَمْرًا يَسِيرًا، وَلِذَا وَرَدَتِ الْخَشْيَةُ غَالِبًا في حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، نَحْوُ: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: 74]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فَاطِر: 28][1].

وَعلَيْه تكونُ الْخَشْيَةُ أَخَصَّ مِنَ الخَوْفِ، فَهِيَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِمَعْرِفَةٍ وتَعْظِيمٍ[2].

(1) السُّيوطي، الإِتْقان: 2/364.

(2) ابْنُ القيِّم، مدارِجُ السّالِكين: 1/508.

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة: 275]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّحذيرُ مِنَ الرِّبا وذَمُّ أهْلِهِ، بَعْدَ ذِكْرِ التَّصَدُّقِ وفَضْلِ المتصدّقين

لمّا ذكر تعالى النّفقة، ورغّب فيها بأنواع التّرغيب في أساليب متنوّعة، وكان الرّزق يشمل الحلال والحرام، وكان ممّا يسترزقون به قبل الإسلام الرّبا؛ وهو في الصّورة زيادةٌ، وفي الحقيقة نقصٌ، ضدُّ ما تقدَّم الحثُّ عليه من الإنفاق؛ وهو في الظّاهر نقصٌ، وفي الباطن زيادة، نهاهم عن تعاطي الرّبا ونفّرهم منه، وبيّن لهم حُكْمَه وأنّه خبيث ممقوت، لا يصلح لأكل ولا صدقة، حيث شنّع القرآن به وبمتعاطيه.

أو: لمّا كان حالُ المنفِق الّذي يبتغي وجه اللّه سبحانه أفضلَ الأحوال، وهو الحال الّذي دُعواْ إليه؛ ذكر بعده أدنى الأحوال، وهو الّذي يُتَوَسّلُ به إلى الأموال بالرّبا، كان أفضلَ النّاس المنفقُ، وشرَّ النّاس المُرابي؛ فذكر شرَّ النّاس بعد أن ذكر خيرهم تنفيرا منهم[1]، أو: لَمّا ذكَرَ تَعالى الأَبْرارَ المنفقين المُتَفَضِّلينَ بالبِرِّ والصِّلاتِ، لِذوي الحاجاتِ والقَراباتِ، في جَميعِ الأَحْوالِ والأَوْقاتِ، شرَعَ في ذِكْرِ أَكَلَةِ الرِّبا وأَمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ وأَنْواعِ الشُّبُهاتِ[2]، فسياقُ الآياتِ وارِدٌ في تَفْضيلِ الإِنْفاقِ والصَّدَقَةِ في سَبيلِ اللّٰهِ، وأَنَّهُ يَكونُ ذَلِكَ من طيبِ ما كَسَبَ، ولا يَكونُ مِنَ الخَبيثِ وهوَ: الرِّبا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/108، 109.
(2) ابْنُ كثير، تفْسيرُ القرآن العظيم: 1/708.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/703.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: أَصْلُ الرِّبا: النّماء والزّيادة مع العلوّ والارتفاع، فكلُّ شَيْءٍ ارْتَفَعَ أَوْ زادَ، فقَدْ رَبا،(1) وهو في الشّرع إعطاءُ المَدينِ مالًا لِدائِنِهِ زائِدًا على قَدْرِ الدَّيْنِ، لِأَجْلِ الانْتِظارِ، فإذا حَلَّ الأَجَلُ ولَمْ يَدْفَعْ زادَ في الدَّيْنِ(2)، وهو مأخوذ من ربا يربو، إذا نما وزاد على ما كان، ومعلوم أنّ العرب تقول للغريم: أتقضي أم تربي؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال، ويصبر الطّالب عليه، مقابل تلك الزّيادة، وأدخل الشّرع في الرّبا التّفاضل في النّوع الواحد، باعتباره زيادة، وكذلك أكثر البيوع الممنوعة شرعا، إنّما كان منعها لمعنى زيادة، إمّا في عين مال، وإمّا في منفعة لأحدهما، من تأخير ونحوه، والفرق واضح بين البيع الحلال، والرّبا الحرام، ممّا يفهم من اللّفظ.

2) ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾: أَصْلُ الخَبْطِ وطْءٌ وضَرْبٌ مع شدّة، والخَبْطُ الضَّرْبُ على غَيْرِ اسْتِواء، ومنهُ خَبَطَ البَعيرُ بخُفِّ يَدِهِ: أَيْ ضَرَبَ الأَرْضَ بها، والخَبْطُ: الوَطْءُ الشَّديد، ومَعْنى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ: يَضْرِبُهُ ويَطَؤُهُ فيَصْرَعُهُ(3)، ويَجْعَلُهُ مُتَخَبِّطًا، أَيْ مُتَحَرِّكًا على غَيْرِ اتِّساقٍ(4)، وقَالَ أَبُو حَاتِم: الخباط: دَاء كالجنون، يصيب الرّجل(5)، كأنّ الإنسان عند إصابته به يتخبّط(6).

3) ﴿ٱلْمَسِّ﴾: المسّ: مخالطة دقيقة ذاتُ أثر، وأكثر استعماله في جَسِّ الشَّيْءِ باليَد، واسْتُعيرَ لِلجِماعِ؛ لأنَّه لَمْسٌ، ولِلجُنونِ؛ كأنَّ الجِنَّ مَسَّتْهُ؛ وهوَ المَقْصودُ هنا، ولِكُلِّ أَذًى يَنالُ الإِنْسانَ(7)، وقال بعضهم هو الّذي ينال النّاس من الجنون، نسبه اللّه تعالى إلى الشّيطان، وذلك بتمكين اللّه تعالى له من ذلك(8).

4) ﴿مَوْعِظَةٌ﴾: الوَعْظُ التَّذْكيرُ بالخَيْرِ فيما يَرِقُّ لَهُ القَلْب، والوَعْظ: نُصْحٌ وتَذْكيرٌ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربي)، جبل، المُعجمُ الإشْتِقاقيُّ: (ربو، ربى)، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (ربو).
(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/79.
(3) الأزْهريّ، التّهْذيب، ابن فارس، مقاييس اللغة، الرّاغِب، المُفْردات، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، جبل، المُعجمُ الإشْتِقاقيُّ: (خبط).
(4) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/72.
(5) ابْنُ دريد، جمهرة اللّغة: 1/291.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 2/241.
(7) الجوْهريّ، الصِّحاح، وابْنُ عبّاد، المُحيط، والرّاغِب، المُفْردات: (مسس)، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (مس)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسس، مسمس).
(8) الحِمْيَري، شمس العلوم: 3/1712.

بالعَواقِبِ، وأَصْلُ الوَعْظِ: تذكير بالخير معَ تَخْويف، والوَعْظُ والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ: تَذْكيرُكَ لِلإِنْسانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثَوابٍ وعِقابٍ[1]، والوعظ مؤنّث من الموعظة، في قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: وَعْظٌ، وفيه قال سيبَوَيْه كأنّه اكْتَفى بِذِكْرِ المَوْعِظَة عن التّاء[2].

5) ﴿سَلَفَ﴾: السَّلَفُ: المُتقدّم، يُقالُ لِفُلان: سَلَفٌ كَريمٌ، أَيْ آباءٌ مُتَقَدّمونَ، وكُلُّ شَيْءٍ مَضى وانْقَضى، فهوَ سالِفٌ، وأَصْلُ سَلَفَ، يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ[3] بلطف[4]، ومَعْنى الآية: فلَهُ أَخْذُ ما تقَدَّمَ قَبْلَ التَّحْريم[5].

6) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخلد: بقاء الشّيء أو وصفه أمدًا طويلًا، رغم زوال نظيره، أو قرينه، وذلك ببعده عمّا يفسد ذاته أو صفته، أو بعبارة أخرى: الإقامة والبقاء على صفة واحدة[6].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

فظاعةُ حالِ المُرابي يَوْمَ القيامَةِ، وشدّة وَعيدِ الله على الرِّبا المذموم

الّذينَ يَتَعامَلونَ بالرِّبا ويستحلّونه، لا يَكونونَ في الدُّنيا إلّا في اضْطِرابٍ وخَلَل، ولا يَقومونَ يَوْمَ القيامَةِ من قُبورِهِمْ إلّا كما يَقومُ الّذي أَفْسَدَ الشَّيْطانُ عَقْلَهُ، فصارَ يَتَخبَّطُ مِنَ الجُنونِ الّذي أَصابَه؛ لأَنَّهُم اسْتَحَلّوا أَكْلَ الرِّبا، ولَمْ يُفَرِّقوا بَيْنَ الرِّبا الّذي حرّمه اللّه، وبَيْنَ البيع الّذي أَحَلَّ اللّه وبارك فيه، فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾، في كَوْنِهِ حَلالًا، فكُلّ منهما فيهِ مُعاوَضَةٌ وكَسْبٌ، فرَدَّ اللّه عَلَيْهِمْ، فبَيَّنَ لهم أَنَّ التَّحْليلَ والتَّحْريمَ ليس من شَأْنِهِمْ، وأَنَّ التَّماثُلَ الّذي زَعَموهُ ليس صحيحًا، واللّهُ قَدْ أَحَلَّ البَيعَ لما فيهِ من نَفْعٍ عامٍّ وخاصّ، وحَرَّمَ الرِّبا لما فيهِ من ظُلْمٍ وأَكْلٍ لِأَمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ. فمن بلغَه نَهْيُ اللّهِ عن الرِّبا فارْتَدَعَ، وكَفَّ عنه، وتابَ إلى اللّهِ منه، فلَهُ ما مَضى من

(1) الخليل، العينْ: (عظو)، والجوْهريّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (وعظ).
(2) ابن سيده، المحكم: 8/220.
(3) الجوْهريّ، الصِّحاح، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، الرّاغِب، المُفْردات، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (سلف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سلف).
(5) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/49.
(6) انظر الأزهري، تهذيب اللغة: (خلد)، ابن فارس، مقاييس اللغة، الراغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، الزبيدي، تاج العروس، جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلد).

أَخْذِهِ لِلرِّبا، لا إثْمَ عليه فيه، وأَمْرُهُ مَوْكولٌ إلى عَفْوِ اللّهِ، ومَنْ عادَ إلى أَخْذِ الرِّبا بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ النَّهيُ، وقامَتْ عليه الحُجَّةُ؛ فقدِ اسْتَحَقَّ دُخولَ النّارِ والخُلودَ فيها، وهَذا الخُلودُ في النّارِ المَقْصودُ به البَقاءُ الطَّويلُ فيها، فإنّ الخُلودَ الدّائمَ فيها لا يَكونُ إلّا لِلكُفّارِ، أَمّا أَهْلُ التَّوْحيدِ فلا يُخلَّدونَ فيها، كما هو معتقد أهل السّنّة[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:

الزِّيادَةُ في التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ وتَبْشيعِ حالِهِمْ

جُمْلَةُ ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ استئنافٌ، والمعنى: يَكْسبونَ الرِّبا ويَتَعاطَوْنَه، وآثرَ النَّظمُ استعمالَ الأكلِ دون غيرِه من الكلمات الدَّالَّةِ على المقصود؛ لطائفةٍ من النّكات البيانيَّة:

النكتةُ الأولى: التَّشْنيعُ على المُرابينَ بلَفْظَةِ الأَكْلِ الدّالَّة على جَشَعِ الآكلِ من جهة، فهو يأكُلُ المالَ ويلتهمُه كما يأكلُ الطَّعامَ.

النُّكتةُ الثَّانية: آكلُ الرِّبا يُخفي المالَ الحرامَ كما يُخْفي الآكِلُ ما يأكُلُه في بطنه.

النُّكتةُ الثَّالثة: استحالةُ إرجاعِ المالِ الحرامِ في اعتقاد آكِلِه كما يستحيلُ رجوعُ المأكولِ على الحالة التي كان عليها قبل أكلِه.

النُّكتةُ الرَّابعة: خلطُ المالِ الحرامِ بالمال الحلال حتّى لا يتميّز منه فيمكن استرجاعه، كما لا تتميّز أنواعُ الطّعام بعضُها من بعض بعد أكلِها.

النُّكتةُ الخامسة: الأَكْلُ غالِبُ ما يَنْتَفِعُ به المرابي، فيُصْرَفُ في المَأْكولِ غالِبًا، فأُقيمَ هذا البَعْضُ من تَوابِعِ الكَسْبِ مَقامَ الكَسْبِ كُلِّه[2].

النُّكتةُ السَّادسة: الرِّبا شائعٌ في المَطْعوماتِ وهوَ زيادَةٌ في الأَجَلِ، بأَنْ يُباعَ مَطْعومٌ بمَطْعوم، بأَكْثَرَ منه من جِنْسِه[3]؛ فيكون الأَكْلُ هنا على ظاهِرِهِ من خُصوصِ الأَكْلِ[4].

---

(1) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القرآن الكريم: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريم: ص: 47.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/371، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/162.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/412، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/162.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/704.

وقد جاءَتْ لَفْظَةُ الأَكْلِ مُقترنةً بالمالِ الحرامِ في مَواضِعَ كَثيرةٍ مِنَ القرآنِ الكَريم؛ لِأَنَّ الأَكْلَ أَقْوى مَقاصِدِ الإِنْسانِ في المالِ، ثُمَّ صارَ حَقيقَةً عُرْفيَّةً، فقالوا: أَكَلَ مالَ النّاس، قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188] وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عِمران: 130]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النِّساء: 10][1].

رَوْعَةُ التَّصْويرِ في التَّشْبيهِ التَّمْثيليِّ[2] لآكِلِ الرِّبا بالمَمْسوسِ:

شَناعَةُ صورَةِ آكِلِ الرِّبا في الحالِ والمآلِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ﴾ في غايةِ الإِبْداعِ الذّائِع، والتَّصويرِ الفَنّي الرّائِعِ، الذي يَفوقُ الخَيالَ، في رَوْعَةِ الجَمالِ، وهوَ ما مَثَّلَ به القرآنُ الكَريمُ آكِلَ الرِّبا الذي يَمْتَصُّ دِماءَ الكادِحينَ بالشَّخْصِ المَصْروعِ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ من الجنونِ، فهوَ يَمْشي ويَسْقُطُ، ويَتَرَنَّحُ في مِشْيَتِه، ويَهْذي في كَلامِهِ فلا يَسْتَطيعُ السَّيْطَرَةَ على أَفْعالِهِ وحَرَكاتِهِ[3]، فهو تَشْبيهٌ تَمْثيليٌّ لِآكِلِ الرِّبا بمَنْ أَصابَهُ مَسٌّ فاخْتَلَّ طَبعُه، وانْتَكسَتْ حالُه[4].

وحَقيقَةُ القِيامِ النُّهوضُ والانْتِصابُ والاسْتِقْلال، فهو يُطْلَقُ مَجازًا على تَحَسُّنِ الحالِ، وعَلى القوَّة، يُقالُ قامَتِ السّوق، وقامَتِ الحرْبُ؛ فإن كانَ القِيامُ المَنْفيُّ هنا مرادًا به القِيامُ الحَقيقيُّ فالمَعْنَى: لا يَقومونَ يَوْمَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمينَ إلّا كَما يَقومُ المَصْروعونَ لِأَنَّهُمْ أَكَلُوا الرِّبا فأَرْباهُ اللهُ تَعالى في بُطونِهِمْ حَتَّى أَثْقَلَهم فلا يَقْدِرونَ على الإيفاضِ والإِسْراعِ[5]، فهُمْ يَنْهَضونَ ويَسْقُطونَ لا يَسْتَطيعونَ المَشْيَ سَوِيًّا[6]، تلك سيماهُمْ يُعْرَفونَ بها

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/79.
(2) التّشبيهُ التّمثيليُّ: ما كان وجْهُ الشّبهِ فيه صورةً عقليّةً تحتاجُ إلى تأوُّلٍ سواءٌ كان مُفْردًا أوْ مُركّبًا. ينظر: الجرجاني، أسْرارُ البلاغةِ: ص: 65.
(3) محمد علي جميل، الإِبْداعُ البيانيُّ: ص: 53.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/705.
(5) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/320، والبيضاوي، أنوارُ التّنْزيلِ: 1/162، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيانِ: 1/436.
(6) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/81.

عند أَهْلِ المَوْقِفِ[1]، وَإِنْ كان المرادُ بالقيامِ المنفيِّ القيامَ المَجازيَّ فالمَعْنَى: قيامُ المرابين في حِرْصِهِمْ ونَشاطِهِمْ في مُعامَلاتِ الرِّبا كَقيامِ المَجْنونِ، وهو تَشْبيهُ حالِ القائمِ بحِرْصٍ وجَشَعٍ إلى تِجارَةِ الرِّبا بقيامِ المَجْنونِ؛ لِأَنَّ الطَّمعَ يَسْتَفِزُّهُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَعْضاؤُه، كَما يَقومُ المُسْرِعُ في مَشْيِهِ يَخْلِطُ في هَيْئَةِ حَرَكاتِه، إمّا من فزَعٍ أَوْ غَيْرِهِ قَدْ جُنَّ[2]، فالآيَةُ على المَعْنَى الحَقيقيِّ وعيدٌ لهم بابْتِداءِ تَعْذيبِهِمْ من وقْتِ القيامِ لِلحِسابِ إلى أَنْ يَدْخُلوا النّارَ، وهيَ على المَعْنَى المَجازيِّ تشْنيعٌ أَوْ تَوَعُّدٌ بسوءِ الحالِ في الدُّنْيا، ولُقْيا المَتاعِبِ ومَرارَةِ الحَياةِ تَحْتَ صورَةٍ يَخالُها الرّائي مُسْتَقيمَةً، وهي متخبّطة[3]؛ وهوَ أَيْضًا ما يُفيدُهُ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَقُومُونَ﴾ من تَجَدُّدِ المَتاعِبِ عَلَيْهِمْ في الحالِ واسْتِمْرارِها في المآلِ.

تَعْليلُ تَخَبُّطِ المُرابي وتَأْكيدُه بِشِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾:

التَّخبُّطُ محمولٌ على معناه الحقيقيِّ

﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ تَعْليليَّةٌ، والجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ يَتَعَلَّقُ بقَوْلِه: ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾، وهوَ على سَبيلِ التَّأْكيد، ورَفْعِ ما يَحْتَمِلُهُ ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ من المَجازِ، إِذْ لا يكونُ التَّخبُّطُ إلّا من المَسِّ؛ فلا يُظَنُّ أَنَّهُ تَخَبُّطٌ مَجازيٌّ بمَعْنى الوَسْوَسَة[4]، فلمّا احتمل أَنْ يُرادَ بالتَّخَبُّطِ الإِغْواءُ وتَزْيينُ المَعاصي أَزالَ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ هَذا الاحْتمالَ[5].

سِرُّ مَجيءِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾:

بَيانُ بُعْدِ المُرابينَ عن الحَقِّ وبُعْدِ قَولِهِمْ عن الصِّدْقِ

عادَ اسْمُ الإِشارَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾ إلى ما ذُكِرَ من تصوير حالِ المُرابين في الدّنيا، وإلى العِقابِ المُعَدِّ لهم في الآخرة، وهوَ أَنَّهُمْ يَقومونَ من قُبورِهِمْ كالصَّرْعى بسَبَبِ مَسٍّ

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/412.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/372، والشّوْكانّي، فتْحُ القدير: 1/339.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/705، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/81.
(4) القاسِمي، محاسِنُ التّأْويل: 2/219.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/706.

الشَّيْطانِ لهم، وما في اسْمِ الإشارَةِ من مَعْنَى البُعْدِ لِلإيذانِ بفَظاعَةِ فعلِ المُشارِ إليه وبُعْدِه عن الصَّوابِ[1]، وقيلَ: بل هو إشارَةٌ لِأَكْلِهِم الرِّبا؛ لأنَّه سَبَبٌ في عُقوبَتِهِمْ، وسَبَبُ السَّبَبِ سَبَبٌ لَهُ[2].

دَلالَة التَّشْبيهِ المقْلوبِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:

تطرُّفُ المُرابينَ؛ بجعلِهم الرِّبا أصْلًا والبيعَ فرعًا

قولُ المُرابين ومُؤيِّديهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يحتملُ أن يكونَ تشبيهًا مقلوبًا أو غيرَ مقلُوبٍ، ففي التَّشْبيهِ المَقْلوبِ، يكونُ شَبَّهَ البَيْعَ بالرِّبا؛ إشارَةً إلى أنَّهُمْ عَكَسوا الكَلامَ لِلمُبالَغَةِ، حَتَّى جَعَلوا الرِّبا أَصْلاً، والبَيْعَ فرْعًا؛ فشَبَّهوهُ به، وهوَ في البَلاغةِ مَرْتَبَةٌ عُلْيا، بل هو من أَعْلى مَراتِبِ التَّشْبيه، يُصْبِحُ المُشَبَّهُ به قائمًا بالمُشَبَّهِ وتابعًا لَه؛ وذلك لِلإشارَةِ إلى شِدَّةِ مُبالَغَتِهِمْ في اعْتِقادِ حَلِّ الرِّبا[3]، وشُبْهَتُهُمْ أَنَّهُمْ قالوا: لَو اشْتَرَى الرَّجُلُ ما لا يُساوي إلّا دِرْهَمًا بدِرْهَمَيْنِ جازَ، فكَذلِكَ إذا باعَ دِرْهَمًا بدِرْهَمَيْنِ؛ فجيءَ به على طَريقِ المُبالَغَةِ، وهوَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ من اعْتِقادِهِمْ في حِلِّ الرِّبا أَنَّهُمْ جَعَلوهُ أَصْلًا وقانونًا في الحِلِّ حَتَّى شَبَّهوا به البَيْعَ[4].

وَإنْ كان قَوْلُهم قَوْلًا حاليًا بحَيْثُ يَقولُه كُلُّ مَنْ يَأْكُلُ الرِّبا لَوْ سَأَلَهُ سائِلٌ عن وجْهِ تَعاطيه الرِّبا، فهوَ اسْتِعارَةٌ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مَجازًا؛ لِأَنَّ اعْتِقادَهُمْ مُساواةَ البَيْعِ لِلرِّبا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَقولَهُ قائِلٌ، فأُطْلِقَ القَوْلُ وأُريدَ لازِمُه، وهوَ الاعْتِقادُ به[5].

القَصْرُ الإضافيُّ بـ(إنّما) يدلُّ على قَوْلِهِم المَعْكوسِ وفَهْمِهِمُ المَنْكوسِ

وَعلى احتمالِ أَنْ يَكونَ التَّشْبيهُ غَيْرَ مَقْلوبٍ فبناءً على ما فهموهُ أَنَّ البَيْعَ إنَّما حَلَّ لِأَجْلِ الكَسْبِ والفائدَةِ، وذَلِكَ في الرِّبا مُتَحَقِّقٌ وفي غَيْرِهِ مَوْهوم[6].

---

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/412.
(2) البسيلّي، التَّقْييدُ الكبير: 1/358.
(3) الزّمَخْشريّ، الكشّاف: 321-1/320، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/633، والقاسِمي، محاسِنُ التّأْويلِ: 2/225.
(4) البيضاوي، أنْوارُ التّنْزيل: 1/162، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/320، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/140.
(5) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/83.
(6) الخفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على البيضاويِّ: 2/346. والآلوسي، روحُ المعاني: 2/49.

ويَدُلُّ على هَذا الفَهْم إيثارُ القَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي تُسْتَخْدَمُ في الأَمْرِ المَعْلوم الَّذي لا يُجْهَلُ ولا يُنْكَرُ، وفيه دَلالَةٌ على تَعَنُّتِهِمْ وشِدَّةِ اعْتِقادِهِمْ في حَلِّ الرِّبا، وأَنَّهُ الأَصْلُ الذي يُقاسُ عليه، وأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مَعْروفٌ شائِعٌ مَعْلومٌ لا يَنْبَغي أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُنازَعوا فيه، ولِذلِكَ اعْتَقَدوا مَدْلولَ هَذا القَوْلِ وفَعَلوا مُقْتَضاهُ فَنَظَمُوهُما في سِلْكٍ واحِدٍ[1]، ويَدُلُّ على رُسوخِ هَذا الفَهْمِ السَّقيم في نُفوسِهِمْ أَيْضًا تَأْكيدُ الخَبَرِ بـ (أَنَّ)، واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾.

بلاغةُ الاسْتِئْنافِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:

أوامرُ الشَّرعِ في سياقِ الرَّدِّ على المُبطلين قواعدُ ثابتةٌ، وأركانٌ راسخةٌ

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، وهيَ جَوابٌ قاطِعٌ ذو مضمونٍ ناصح من اللّه لجميع البشرِ؛ وهي تضمَّنُ إرشادًا للإعْراضِ عن مُجادَلَةِ المُرابين إذْ لا جَدْوَى فيها؛ لأَنَّهُمْ قالوا ذَلِكَ كُفْرًا ونِفاقًا، فلَيْسوا ممَّنْ تَشْمَلُهُمْ أَحكامُ الإسْلامِ، وهوَ إقْناعٌ للمُسْلِمينَ بأَنَّ ما قالَهُ الكُفّارُ هو شُبْهَةٌ مَحْضَةٌ، وأَنَّ اللَّه العَليمَ قَدْ حَرَّمَ هَذا وأَباحَ ذَلِك، وما ذَلِك إلّا لِحِكْمَةٍ وفُروقٍ مُعْتَبَرَة، لَوْ تَدَبَّرَها أَهْلُ التَّدَبُّرِ لأَدْرَكوا الفَرْقَ بَيْنَ البَيْعِ والرِّبا، وهوَ ما يُشْعِرُ به الطِّباقُ البَديعُ بَيْنَ كَلِمَتَي أَحَلَّ، وحَرَّمَ؛ فالمُشَرِّعُ هو اللّه، وهوَ أَعْلَم بمَصالِحِ عِبادِهِ وبِما تَسْتَقيم به حَياتُهُمْ.

ولَيْسَ في هَذا الجَوابِ كَشْفٌ لِلشُّبْهَةِ فهوَ ممّا وكَلَهُ اللَّه تَعالَى إلى مَعْرِفَةِ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ المُؤْمِنينَ، معَ أَنَّ ذِكْرَ تَحْريم الرِّبا عَقِبَ التَّحْريضِ على الصَّدَقاتِ يومِئُ إلى كَشْفِ الشُّبْهَةِ[2]، ولِذا جيءَ بالعَطْفِ بَيْنَ الجُمَلِ لِاتِّحادِها في الخَبَرِيَّةِ (قالوا، وأَحَلَّ، وحرَّمَ، وأَمْرُه إلى اللّه).

فَوَجْهُ ارْتِباطِ هَذِهِ الجُمَلِ بعضِها ببعضٍ لِنَسْفِ مَقولَةِ المُرابينَ، ولإِنْكار تَسْوِيَتِهِمْ بَيْنَ الرِّبا والبَيْعِ، إذِ الحِلُّ معَ الحُرْمَةِ ضِدّان،

(1) القِنَّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/139، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/83، والرّويني، من غريبِ بلاغةِ القرآن الكريم، ص: 637.
(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/84.

فأنَّى يَتماثَلانِ في الجَوازِ، فهيَ رَدٌّ من اللَّهِ تعالى عَلَيْهِمْ وإِنْكارٌ لِتَسْوِيَتِهِمْ بينهما[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَجيءِ وتَذْكيرِ فِعْلِهِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ﴾:

تَرْفيعُ المَوْعِظَةِ وتَشْريفُها، وإيماءٌ بالوَعيدِ إلى مَنْ خالَفَها

أُوثِرَ التَّعْبيرُ بالمَجيءِ دونَ الإِتْيانِ؛ لأنَّه مَجيءٌ فيهِ إِلْزامٌ لِوُضوحِ الحُجَّةِ بدَلالَةِ التَّعْبيرِ بـ ﴿مَوۡعِظَةٞ﴾؛ لِما في بناءِ (مفعلة) من المُبالَغَةِ في مَعْنَى الوَعْظِ لِزيادَةِ المَبْنَى، على أنَّ التَّاء للمبالغةِ كعَلّامَة؛ فهيَ تَبْلُغُ الغايَةَ في الوَعْظِ لانْتِهائِها إلى القُلوب، وإِشْراقِها في النُّفوس، ومَوْعِظَةٌ تلك أَوْصافُها؛ حَرِيَّةٌ عند وُرودِها وسَماعِها ومَجيئِها أَنْ تَنْقادَ لَها القُلوبُ المُؤْمِنَةُ؛ فتَمْتَثِلَ وتَنْتَهي عَمّا نَهَى اللّهُ عنه[2].

وتاء الموعظة للتَّأنيث؛ فحَذْفُها من ﴿جَآءَهُۥ﴾ بسببِ الفَصْلِ، ولِأَنَّ تَأْنيثَ المَوْعِظَةِ مَجازيٌّ؛ لأَنَّها في مَعْنى الوَعْظ، وللدّلالة على قوَّة الموعظة وعِظَمِها، إذ التَّذكيرُ فيه من معاني القوَّة ما لا يوجد في التَّأنيث[3]، والمَوْعِظَةُ: التَّحْريم، أَوِ الوَعيد، ويَتَعَلَّقُ قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، بـ ﴿جَآءَهُۥ﴾، أَوْ: بمَحْذوف، فيَكونُ صِفَةً لِمَوْعِظَة، ويَكونُ هذا إيجازًا بالحَذْفِ والتَّقديرُ: "موعظةٌ بليغةٌ قويَّةٌ كائنَةٌ من رَبِّه".

فَتَذْكيرُ الفِعْلِ تَرْفيعٌ لِقَدْرِ تلك المَوْعِظَةِ وتَشْريفٌ لَها[4]، كما أَنَّ في ذِكْرِ المَوْعِظَةِ تَفْريعًا على الوَعيدِ في قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[5].

تَعْليقُ المَوْعِظَةِ بالرُّبوبيَّةِ تَعْظيمٌ لها وتَأْنيسٌ لِقَبولِها

قَوْلُه: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فيهِ تَعْظيمُ المَوْعِظَةِ؛ لأنها من رَبِّه، العالم بمَصالِحِه، وفي هذا تَأْنيسٌ لِقَبولِ المَوْعِظَةِ، إذِ (الرَّبُّ) فيهِ إِشْعارٌ بإِصْلاحِ عَبْدِه، فمن دلالات الرب تعاهد المربوب لإصلاحه[6].

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/49، والنّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/138.
(2) الرّويني، من غريبِ بلاغةِ القرآن الكريم 637.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/321، وابن عطّيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/372، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(4) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّررِ 1/538.
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/90.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/708، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رب، ربرب).

دَلالَةُ عَوْدِ الضَّميرِ على ما تَقَدَّمَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

أحكامُ المالِ بيَدِ اللهِ الرَّزّاقِ تَشْريعًا وجَزاءً وتَوفيقًا

في عودةِ الضَّميرِ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَرْبَعةُ تَأْويلاتٍ:

الأوَّل: أَنَّ الضَّميرَ عائِدٌ على الرِّبا، أي: وأَمْرُ الرِّبا إلى اللّهِ في تَحْريمِه.

الثّاني: عودةُ الضَّميرِ على ما سَلَفَ؛ أَي: أَمْرُه إلى اللّهِ في العَفْوِ وإِسْقاطِ تَبِعَتِه.

الثّالِثُ: أَن يَكونَ الضَّميرُ عائِدًا على آكِلِ الرِّبا، أي: أَمْرُهُ إلى اللّهِ في أَنْ يُثيبَهُ إذا انتهى أَوْ يُعَذِّبَهُ إن عاد إلى الرِّبا.

الرّابِعُ: أَنْ يَعودُ الضَّميرُ على المُنْتَهي، ولَكِنْ بمَعْنى التّأنيسِ لَهُ وبَسْطِ أَمَلِهِ في الخَيْرِ، كَما تَقولُ: (وأَمْرُهُ إلى طاعَةٍ وخَيْرٍ، ومَوْضِعِ رَجاءٍ)، ويَجيءُ الأَمْرُ هاهُنا ليس في الرِّبا خاصَّةً بل وجُمْلَةَ أُمورِه[1].

والأَظْهَرُ أَنَّهُ راجِعٌ إلى ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ وَهوَ المُنْتَهي؛ لأنَّه المَقْصودُ، وسياقُ الكَلامِ فيه، ومَعْنَى ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾: أَنَّ أَمْرَ جَزائِهِ على الانْتِهاءِ مَوْكولٌ إلى اللّهِ تَعالَى، وهَذا مِنَ الإيهامِ المَقْصودِ منه التَّفْخيمِ، فالمَقْصودُ الوَعْدُ بقَرينَةِ مُقابَلَتِهِ بالوَعيدِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

دَلالَةُ الشَّرْطِ وجَوابِهِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

القُرآنُ يذكُرُ أحوالَ الكافرين، تشنيعًا عليهم، وتحذيرًا من مُشابهتهم

اسمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ راجعٌ إلى ﴿وَمَنْ عَادَ﴾، أَيْ: رَجَعَ إلى ما سَلَفَ ذِكْرُهُ من فِعْلِ الرِّبا، واعْتِقادِ جَوازِهِ، والاحْتِجاجِ عليه بقِياسِهِ على البَيْعِ.

وجُعِلَ جزاءُ العائِدِ الخلودَ في النّارِ؛ إمّا لِأَنَّ المُرادَ العَوْدُ إلى قَوْلِ المُرابين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، أَيْ: عادَ إلى اسْتِحْلالِ الرِّبا،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/372، والثّعالبيّ، الجواهِرُ الحِسانُ: 1/535، وابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيدِ: 5/466، والخفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على البيضاويِّ: 2/346.

(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/90، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/709.

وذَلِكَ نِفاقٌ؛ فإنَّ كَثيرًا مِن المنافقين قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمْ تَرْكُ التَّعامُلِ بالرِّبا؛ فعَلِمَ اللَّهُ منهُمْ ذَلِكَ، وجَعَلَ عَدَمَ إِقْلاعِهِمْ عنه أَمارَةً على كَذِبِ إيمانِهِمْ؛ فالخُلودُ على حَقيقَتِه، وإمّا لِأَنَّ المُرادَ العَوْدُ إلى المُعامَلَةِ بالرِّبا؛ وهوَ الظّاهِرُ من مُقابَلَتِه بقَوْلِه: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾؛ فالخُلودُ طولُ المُكْث، فيَكونُ الخُلودُ على هَذا المَعْنى مُسْتعارًا على مَعْنى المُبالَغَةِ، ومعناه: طولُ البَقاءِ؛ والمَصيرُ إلى هَذا التَّأويلِ واجِبٌ، لِلأَحاديثِ المُتَواتِرَةِ القاضيَةِ بخروجِ المُوَحِّدينَ مِنَ النّارِ[1].

وَمن عاداتِ القرآنِ أَنْ يَذْكُرَ أَحْوالَ الكُفّارِ إغْلاظًا عَلَيْهِمْ، وتَعْريضًا بتَخْويفِ المُسْلِمينَ، لِيُكَرِّهَهُمْ أحوالَ أَهْلِ الكُفْرِ، ولِهذا جاءَ الوَعيدُ مُؤَكَّدًا باسْميَّةِ الجُمْلَةِ وتَقْديمِ ضَميرِ الفَصْلِ إغْلاظًا على الكافِرينَ وتَخْويفًا لِلمُسْلمينَ[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

لفظ الجِّنِ ولفظ الشَّياطينِ:

الشَّياطينُ اسْمٌ لِأَتْباعِ إِبْليسَ، سَواءٌ كانوا مِنَ الجِنِّ أو الإِنْسِ

لَفْظَةُ الجِنِّ بالنَّظَرِ إلى أَصْلِ مَعْناها، تَدُلُّ على الاسْتِتارِ والخَفاءِ عن الأَبْصارِ، ولِهَذا سُمّيَت الجِنُّ بذلِكَ، لِاسْتِجْنانِهِمْ واسْتِتارِهِمْ عن العُيونِ، وهُمْ أَجْسامٌ هَوائيَّةٌ قادِرَةٌ على التَّشَكُّلِ بأَشْكالٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَها عُقولٌ وأَفْهامٌ[3]، والمَشْهورُ أَنَّ جَميعَ الجِنِّ من ذُرّيَّةِ إِبْليسَ[4]؛ ومَنْ تَبِعَهُ منهُمْ يُقالُ لَهُ شَيْطانٌ، قالَ الحَسَنُ البَصْريُّ: الجِنُّ هُمْ ولَدُ إِبْليسَ، كَما أَنَّ الإِنْسَ ولَدُ آدَمَ، ومن هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مُؤْمِنونَ وكافِرونَ، فمن كان من هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مُؤْمِنًا فهوَ وليُّ اللهِ، ومَنْ كان من هَؤُلاءِ وهؤُلاءِ كافِرًا فهوَ شَيْطانٌ[5]. ومن هنا يَتَبَيَّنُ الفَرْقُ بَيْنَ الجِنِّ والشَّياطينِ؛ فالشَّياطينُ اسْمٌ لِأَتْباعِ إِبْليسَ سَواءٌ كانوا مِنَ الجِنِّ أو الإِنْسِ، قالَ تعالَى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]؛

(1) القِنَّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/140.
(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/81.
(3) الشِّبْلّي، آكامُ المُرجان: ص: 23، وإسْماعيلُ حقّي، روحُ البيان: 3/280.
(4) الدّميريّ، حياةُ الحيوانِ الكُبْرى: 1/300.
(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن 21/277.

والعَرَبُ تُسَمّي كُلَّ مُتَمَرِّدٍ شَيْطانًا، ولَوْ كان من غَيْرِ الجنِّ والإِنْسِ؛ وتُسَمّي الحَيَّةَ شَيْطانًا؛ فكُلُّ عاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ والدَّوابِّ شَيْطانٌ[1]، قيل: الشّياطين جنسٌ، والجنّ جنسٌ، وقيل: الجنُّ منهم أخيارٌ ومنهم أشرار، والشّياطين اسم أشرار الجنّ ومتمرّديهم[2].

(لَمَسَ) و(مَسَّ) و(لامَسَ):

اللَّمْس: إِدْراكٌ بظاهِرِ البَشَرَةِ كالمَسِّ، ويُعَبَّرُ به عن الطَّلَبِ، والمَسُّ يَكونُ باليَدِ وبِغَيْرِها[3]، وهو المباشرة كما قال الشّافعيّة، وقال الأحناف: هو القرب والمداناة[4]، ويُكَنَّى بالمَسِّ عن الجماعِ ومُقَدَّماتِه، وعَلَى هَذا حُمِلَ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، كَما يُكَنَّى به عن الجُنونِ وعَنْ كُلِّ ما يَنالُ الإِنْسانَ من الأَذى، كَما في قَوْلِه تَعالَى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ [البقرة: 80]، وقوله تعالى: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214].

اللَّمْسُ شُعورٌ حِسّيٌّ باليَدِ، والمُلامَسَةُ فِعْلٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، والمَسُّ الجماع

وأمّا اللَّمْسُ: فهو الشُّعورُ الحِسّيُّ بواسِطَةِ اليَدِ؛ فهوَ أَخَصُّ من المَسِّ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأنعام: 7]، وَعليه فإنّ لامَسَ: تَعْني فِعْلًا مُتَبادَلًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ؛ مِثْلَ قاتَلَ ولاعَبَ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النّساء: 43]، فالمُلامَسَةُ تَعْني تَبادُلَ اللَّمْسِ مع المَرْأَةِ بشَهْوَةٍ، دونَ حائِلٍ، سَواءٌ أَنْزَلَ أَوْ لَم يُنْزِل[5].

المجيء والإِتْيان:

الإِتْيانُ مَجيءٌ بسُهولَة، وهوَ بدايَةُ المَجيءِ[6]، فإذا اكْتَمَلَ وبَلَغَ

---

(1) الجوْهريّ، الصِّحاحُ: (شطن).
(2) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة: 1/307.
(3) الرّاغِب، الُمفْردات: (لمس).
(4) الحِمْيريّ، شمس العلوم: (مسّ).
(5) الحِميْريّ، شمْسُ العُلومِ: 9/6112، والمعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لمس).
(6) الرّاغِب، الُمفْرداتُ: ص: 283.

مَقْصِده من مَكان أَوْ زَمانٍ أَوْ شَخْصٍ، أَصْبَحَ مَجيئًا، فالمَجيءُ هو إتْيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عن عَوامِلِ النَّقْصِ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيانُ بدايَةُ المَجيءِ زَمانيًّا أَوْ مَكانيًّا، وقد لا يَتِمُّ فلا يَكونُ مَجيئًا، أمّا المَجيءُ فهوَ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ قَريبٌ زَمانيًّا ومَكانيًّا[1]، وهما في باب العقيدة بمعنى واحد[2].

المَـجـيءُ إتْـيـانٌ مُحَقَّقٌ

المَوْعِظَة والنَّصيحَة:

المَوْعِظَةُ مِنَ الوَعْظِ، وهوَ التَّذْكيرُ بالخَيْرِ، فيما يَرِقُّ لَهُ القَلْبُ[3]؛ من قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وتَذْكيرٌ بالواجباتِ معَ تَخْويفٍ[4]، وقد تَكون برِفْقٍ ودَعْوةٍ إلى السّيرَةِ الصّالحَةِ بلينٍ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النَّحْل: 125].

المَوْعِظَةُ نَصيحَةٌ وتَذْكيرٌ بالخير، وتَنْبيهٌ إلى العَواقِبِ

والنَّصيحَةُ كَلِمَةٌ جامِعَةٌ مَعْناها حيازَةُ الحَظِّ لِلمَنْصوح لَهُ[5] بالدُّعاءِ إلى ما فيهِ صَلاحٌ، والنَّهْيِ عَمّا فيه فسادٌ؛ وأَصْلُها مِنَ النُّصْحِ الذي هو إخْلاصُ العَمَلِ عن شَوائِبِ الفسادِ[6]، فالنَّصيحَة: هي الدُّعاءُ إلى ما فيه صَلاح، والنَّهْيُ عَمّا فيه فسادٌ، والوَعْظُ نُصْحٌ وتَذْكيرٌ بالعَواقِبِ[7]، وَالرّجل يتَّعظ إذا قَبِل الموعظة، حين يذَكَّرُ الخَير وَنَحْوه . . يُقَال وعظته عظة. وَمن أَمثالهم المَعْرُوفَة: (لاتعظيني وتَعَظْعَظِي أَي: اتَّعِظي وَلَا تَعِظي)[8].

(1) جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤصّلُ: (جيأ).

(2) في بابِ الأسماءِ والصِّفات، من تكلّم عن صِفةِ المجيءِ والإتْيانِ من مُحقِّقي أهْلِ السُّنّة، يجْعلُهما بمعْنًى واحِدٍ، ويسْتدِلُّ لهُما بالأدِلّةِ نفْسِها، دون تفْريقٍ، فالفرْقُ السّابِقُ غيْرُ وارِدٍ هنا في بابِ الصِّفات، فقوْلهُ تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22]. [ابْنُ تيْميّة، مجموعُ الفتاوى: 5/458، وابْنُ القيِّمِ الصّواعِقُ المُرْسلةُ: 3/1099].

(3) الخليل، مُعْجمُ العيْنِ: (عظو).

(4) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (وعظ)، الرّاغِب، المُفْردات: (وعظ).

(5) الخطّابيّ، معالِمُ السُّنن: 4/125.

(6) الجُرْجانّي، التّعْريفاتُ: ص: 241.

(7) الجوْهريّ، الصِّحاحُ: (وعظ).

(8) الأزْهريّ، تهذيب اللّغة: (وعظ).

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة: 276]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين الآيـتين، ببَيانِ الـفَـرْقِ بَـيْنَ الصَّدَقَةِ والرِّبا واقعًا وجزاءً

لَمَّا زَجَرَ اللَّهُ تَعالَى عباده عن الرِّبا، وأبان مفاسده ومغبّاته ومساويه، ورَغَّبَ في الصَّدَقاتِ، وما فيها من الحسنات والمبرّات، وأظهر دواعي فِعْلِ الرِّبا وتعاطيه، ممّن يطْلُبُ الزّيادَة في الأَمْوالِ، والتّوسّع في متع الحياة، وذكر صوارِفَ النّاس عن الصَّدَقَةِ والمسارعة إليها، ممّن يخشى نُقْصان أَمْواله، ويخاف من الفقر والعوز؛ بَيَّنَ تَعالى أَنَّ الرِّبا في حَقيقَته نُقْصان، وأنّ الصَّدَقَةَ في جوهرها زيادَةٌ[1]، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾، وكَذلِكَ لَمّا ذَكَرَ اللَّه الإِنْفاقَ في سَبيلِه، وذكر أَخْذَ الرِّبا، بَيَّنَ الفَرْقَ بَيْنَهُما في الجَزاءِ[2]، وألمح إلى أنّه يحبّ المؤمنين الملتزمين، بما شرع في هديه الحكيم، ولا يحبّ كلّ كفّار أثيم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡحَقُ﴾: من مَحَقَ الشَّيْءَ يَمْحَقُهُ مَحْقًا، أَيْ أَبْطَلَهُ ومَحاهُ وأَذْهَبَهُ؛ وأَصْلُ المَحْقِ: النُّقصانُ وذَهابُ البَرَكَةِ، يُقالُ: مَحَقَهُ، إذا نَقَصَهُ وأَذْهَبَ بَرَكَته، ويَمْحَقُ اللَّه الرِّبا: أَيْ يُذْهِبُ بَرَكَتَهُ وزيادَتَهُ الظّاهِرَةَ لَكُمْ[3]، وقالَ اللَّيْث: المَحْقُ: النُّقصانُ وذَهابُ الْبركَة، قالَ: والمحاقُ: آخر الشَّهْر إذا امَّحَقَ الْهلَال، وَأَنْشد:

يَزْدادُ حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ أَعْقَبَهُ *** كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ مِنْهُ ثُمَّ يَمَّحِقُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/80.
(2) جماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريم، ص: 47.
(3) السِّجِسْتانيّ، غريبُ القرآن، ص: 504، والجوْهريّ، الصّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة، والرّاغِب، المُفْردات، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (محق).

قَالَ: وَتقول: مَحَقه الله، فامَّحق وامْتَحَق، أَي ذهبَ خيرُه وبركتُه[1].

2) ﴿وَيُرۡبِي﴾: رَبا الشَّيءُ يَرْبو زادَ ونَما وعَلا، وأَصْلُ ربا يَدُلُّ على الزِّيادَةِ والنَّماءِ والعُلوِّ، فيُقالُ لما ارْتَفَعَ مِنَ الأَرْضِ: رَبْوَةٌ، ومَعْنَى يُربي الصَّدقاتِ، أَيْ: يُكَثِّرُها ويُنَمّيها وإنْ كانتْ في الظّاهِرِ نَقْصًا[2]، وَذكر السّياق أنّ الرِّبا وَإِن كثُر، فَهُوَ إِلَى قُلٍّ، والقُلّ والقِلّة لُغَتَانِ بِمَعْنى وَاحِد، مفاده أنّ الرّبا وَإِن كثر، فَلَيْسَتْ لَهُ بركَة[3]، وقَوْله تَعَالَى ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾، لَيْسَ أنّه يُربي نَفسهَا، وَإِنَّمَا يُربي ثَوَابهَا، فَلذَلِك يمحق ثَوَاب فَاعل الرِّبَا[4].

3) ﴿أَثِيمٍ﴾: الأَثيمُ: الفاجِرُ كَثيرُ الإِثْم، يُقالُ: أَثِمَ فُلانٌ يَأْثَمُ إِثما، أَيْ: وقَعَ في الإِثْم، والإِثْمُ الذَّنْب، وأَصْلُ الإثم البُطْءُ والتَّأَخُّرُ، لِثقَل ونحوه، لِأَنَّ ذا الإِثْم بَطيءٌ عن الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عنه، والأَثيمُ المُبالِغُ في الإِثْم[5]، و﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، أي: متحمّل للإثم، وقيل أي: كذّاب، و(الأثيم): كثرة ركوب الإثم، كالأثيمة بالهاء، و قوله تعالى: ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: 44]، جاء في التّفسير أنّه طعامُ أبي جهلٍ . . وفي الصّحاح: ناقة آثمة و نوقٌ آثماتٌ، أي: مبطئاتٌ مُعْيِيَاتٌ[6]، و(الأثيم) مبطئٌ في الخير، مُعْيٍ بما يثقل كاهله من آثام بالرّبا أو غيره من المخالفات.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

البَرَكَةُ هِبَةُ الله لِلمُنْفِق المُبادر، والمَحْقُ عقابُه للمُرابي الماكر

يُذْهِبُ اللّٰهُ المالَ الرِّبَويَّ، ويَحْرِمُ صاحِبَهُ بَرَكَتَه، فلا يَنْتَفِعُ به، ويَزيدُ الصَّدَقاتِ ويُنَمّيها بمُضاعَفَةِ ثَوابِها، ويُضاعِفُ الأَجْرَ لِلْمُتَصَدِّقينَ، ويُبارِكُ في أَمْوالِهِمْ، واللّٰهُ لا يُحِبُّ الّذينَ يُصِرّونَ على تَحْليلِ المُحَرَّماتِ كالرِّبا، ولا الّذينَ يَسْتَمِرُّونَ على ارْتِكابِها[7]، وعليه، فالعجب لمالٍ يزيدُ: فينقصُه اللّه ويمحقُه، ولمالٍ ينقصُ، فيزيدُه اللّه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (محق).

(2) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن، ص: 504، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (ربى)، الزّبيديّ، تاجُ العروس، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (ربو).

(3) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن، ص: 504، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (ربى)، الزّبيديّ، تاجُ العروس، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (ربو).

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 305.

(5) الخليل، العين: (باب الثاء والميم و: (وا يء)، أثم). والأزهريّ، تهْذيبُ اللُّغةِ: (باب الثّاء والميم، ث م: (وايء)، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الزّبيديّ، تاجُ العروس، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (أثم).

(6) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (أثم).

(7) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القرآن الكريم: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريم 47.

تعالى ويباركه[1]، وهو تأكيدٌ بأنّ موازين اللّه الحكيمة، في تقدير الأشياء وتقييمها، غير موازين البشر القاصرة، في تمييز الأمور وتثمينها، وبضدّها تتميّز الأشياء.

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغيُّ:

فائِدَةُ الفَصْلِ والاِسْتِطْرادِ في قولِه: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾:

الصَّدَقَةُ بَرَكَةٌ ونَماءٌ وأَجْرٌ، والرِّبا شُؤْمٌ ونُقْصانٌ ووِزْرٌ

قَوْلُه تَعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ استئناف لِبَيانِ سوءِ عاقِبَةِ الرِّبا في الدُّنْيا بَعْدَ أَنْ بُيِّنَتْ عاقِبَتُهُ في الآخِرَةِ، فهوَ استئناف بَيانيٌّ لِتَوَقُّعِ سُؤالِ مَنْ يَسْأَلُ عن حالِ هَؤُلاءِ الذينَ لا يَنْتَهونَ بِمَوْعِظَةِ اللَّه؛ فجيءَ بالفَصْلِ لِشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ المُتَّحِدَتَيْنِ في الخَبَرِيَّةِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ اسْتِطْرادٌ لِبَيانِ عاقِبَةِ الصَّدَقَةِ في الدُّنْيا، فيَزيدُها اللّه ويُنَمّيها في الدُّنْيا بالبَرَكَةِ، وكَثْرَةِ الأَرْباحِ في المالِ الذي خَرَجَتْ منه الصَّدَقَة، ويَزيدُها في الآخِرَةِ أَيْضًا بمُضاعَفَةِ الحَسَناتِ والأُجورِ الحاصِلَةِ بالصَّدَقَةِ، كَما جاءَ في كَثيرٍ مِنَ الآياتِ والأَحاديثِ، فيَفوزُ المُتَصَدِّقُ بالخَيْرِ في الدّارَيْنِ كَما يَبوءُ المُرابي بالشَّرِّ فيهما، فهَذا وَعْدٌ ووَعيدٌ دُنْيَوِيّانِ[2]، بَعْدَ بَيانِ عاقِبَتِهِ في الآخرة في قوله تَعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فائدةُ بَديعِ الطِّباقِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾:

الرَّدُّ على مَنْ وَهِمَ أَنَّ الرِّبا يُغْني والصَّدَقَةَ تُفْقِرُ

بَيْنَ ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ و﴿ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ مُناسَبَةٌ من جِهَةِ التَّضادِّ؛ وذَلِكَ لأَنَّ الصَّدَقَةَ عِبارَةٌ عن تَنْقيصِ المالِ مع أَمْرِ اللَّه بذَلِك، والرِّبا عِبارَةٌ عن طَلَبِ الزِّيادَةِ على المالِ معَ نَهْيِ اللَّه عنه؛ فكانا مُتَضادَّيْنِ؛ فلَمّا حَصَلَ بَيْنَ هَذَيْنِ الحُكْمَيْنِ هَذا النَّوْعُ من المُناسَبَةِ[3]؛ جيءَ بذاكَ الطِّباقِ البَديعِ في ﴿يَمۡحَقُ﴾، و﴿وَيُرۡبِي﴾ لِتَكْتَمِلَ صورَةُ هَذا التَّضادِّ.

---

(1) ابن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 57.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/710، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/72، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 4/133.

وجَعَلَ اللّهُ هَذَيْنِ الفِعْلَيْنِ بعَكْسِ ما يَظُنُّهُ الحَرِيصُ الجَشِعُ من بَني آدَمَ، الذي يَظُنَّ أَنَّ الرِّبا يُغْنِيه وهوَ في الحَقِيقَةِ مُمْحَقٌ، ويَظُنَّ الصَّدَقَةَ تُفْقِرُهُ؛ وهيَ نَماءٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ[1].

بلاغةُ المقابلةِ في تقديرِ المحذوفِ الشَّبيهِ بالاحتباكِ:

لَمّا جُعِلَ المَحْقُ بالرِّبا والإِرْباءُ بالصَّدَقاتِ كانتِ المُقابَلَةُ مُؤْذِنَةً بحَذْفِ مُقابِلَيْنِ آخَرَيْنِ، والمَعْنَى: يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبا ويُعاقِبُ عليه، ويُرْبي الصَّدَقاتِ ويُبارِكُ لِصاحِبِها ويثيب عليها، على طَرِيقَةِ الاحْتِباكِ[2].

بديعُ التَّجْنيسِ بين الاسمِ والفعلِ:

الـرِّبـا مـحـقٌ ثابتٌ، والصَّدقةُ نمُوٌّ مُتجدِّدٌ

مِمّا زادَ هَذِهِ الصّورَةَ وضوحًا وجَلاءً وتَقْرِيرًا في نَفْسِ السّامِعِ تَجْنيسُ الاشْتِقاقِ في قَوْلِه: ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾، و﴿وَيُرۡبِي﴾ إذْ أَحَدُهُما اسْمٌ والآخَرُ فِعْلٌ[3]، فالمُرابي إِنَّما يَطْلُبُ في الرِّبا زيادَةً في المالِ، ومانِعُ الصَّدَقَةِ إِنَّما يَمْنَعُها لِطَلَبِ زيادَةِ المالِ، فبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ الرِّبا سَبَبُ النُّقْصانِ دونَ النَّماءِ، وأَنَّ الصَدَقَةَ سَبَبُ النَّماءِ دونَ النُّقْصانِ[4]، والتَّعبيرُ بالاسم عن الرِّبا لبيانِ أنَّ المَحْقَ ثابتٌ له، وبالفعلِ لنُمُوِّ الصَّدقةِ لبيانِ أَنَّه متجدِّدٌ غير متوقِّف.

سِرُّ التَّعْبيرِ بمَحْقِ الرِّبا دونَ إزالَتِهِ:

لِـلـدَّلالَـةِ على الإِهْـلاكِ والـتَّرهـيـبِ مِـنَ الهَلاكِ

عُبِّرَ عن إزالةِ الرِّبا بالمحقِ؛ لِأَنَّ مَحْقَ الرِّبا أَجْلَى في الإِهْلاكِ، وأَبْلَغُ في التَّخْويفِ؛ لِما تَدُلُّ عليه كَلِمَةُ ﴿يَمۡحَقُ﴾ من كَمالِ الإِذْهابِ والإزالَةِ بالكُلِّيَّةِ بقوَّةٍ وسَطْوَة، فالمُرادُ مَحْوُ البَرَكَةِ من مالِ المُرابي - وإِنْ كَثُرَ - مَحْوًا ساحِقًا، وانْتِزاعها انْتِزاعًا بحَيْثُ لا يبقَى لَها أَدْنَى أَثَرِ وُجود، ففي مَحْقِ المالِ زيادَةُ تَرْهيبٍ وتَخْويفٍ[5].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/373.

(2) الاحْتباكُ: هو أنْ يُحْذف مِن الأوائِلِ ما جاء نظيرُهُ أوْ مُقابِلُهُ في الأواخِر، ويُحْذف مِن الأواخِرِ ما جاء نظيرُهُ أوْ مُقابِلُهُ في الأوائِلِ. ينظر: المَيْداني، البلاغة العربيّة: 2/54، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/705، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/636، اوبْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.

(4) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/50.

(5) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/326، والرّويني، من غريبِ بلاغةِ القرآن الكريم: 637.

فائِدَةُ الجُمْلَةِ المُعْتَرِضَةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾:

تحذيرُ المرابينَ بنزعِ محبَّة الله عنهم

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ جملةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ أَحْكام الرِّبا، ولَمّا كان شَأْنُ الاعْتِراضِ أَلّا يَخْلوَ من مُناسَبَةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ سياقِ الكَلامِ، كان الإِخْبارُ بأَنَّ اللّه لا يُحِبُّ جَميعَ الكافِرينَ مُؤْذِنًا بأَنَّ الرِّبا من شِعارِ أَهْلِ الكُفْرِ، وأَنَّهُمُ الذينَ اسْتَباحوهُ فقالوا: إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا، فكان هَذا تَعْريضًا بأَنَّ المُرابيَ مُتَّسِمٌ بخِلالِ أَهْلِ الشِّرْك(1)؛ وقد أُكِّدَ هَذا المَعْنى باسْميَّةِ الجُمْلَةِ هنا، وذكرُ نفيِ المحبَّة من شأنها تحذيرُ المرابين بنزعِ محبَّةِ اللّه لهم، وفي ذلك فائدتان، الأولى: هدائيَّة للتَّرغيبِ في العودةِ والتَّوبة، والثَّانية: تحذيريَّة، بمن يجعلُ حبَّ المالِ مقدَّمًا على حبِّ اللّه؛ فيستحقُّ حينئذٍ نزعَ حُبِّ اللّه عنه.

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغَةِ فعّالٍ وفَعيلٍ في قولِه: ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾:

تَغْليظُ أَمْرِ الرِّبا وعِظَمُ إِثْمِ صاحِبِه

جاءَتْ صفتا الكفَّار الأثيم على وزن فعَّال وفعيل في قَوْلِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾؛ لتَغْليظِ أَمْرِ الرِّبا، والإيذانِ بأَنَّهُ من فِعْلِ الكُفّارِ لا من فِعْلِ أَهْلِ الإِسْلامِ، ووَجْهُ التِصاقِه بالمَقامِ: أَنَّ الذينَ قالوا: إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا كُفّارٌ(2)، وأَتى بصيغَةِ المُبالَغَةِ في الكافِرِ والآثِمِ ﴿كَفَّارٍ﴾، و﴿أَثِيمٍ﴾، واللّه تعالى لا يُحِبُّ الكافِرَ؛ تَنْبيهًا على عِظَمِ أَمْرِ الرِّبا ومُخالَفَةِ مرتكبِه أمرَ اللّه، وأَنَّهُ لا يَقولُ قَوْلَهُمْ ويُسَوّي بَيْنَ البَيْعِ والرِّبا؛ ليَسْتَدِلَّ به على أَكْلِ الرِّبا، إِلّا مُبالِغٌ في الكُفْرِ، والإِثْمِ(3).

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِثْم والعُدْوان:

الإِثْمُ: هو الذَّنْبُ الذي يَقْتَرِفُهُ الشَّخْصُ في حَقِّ نَفْسِه، والعُدْوانُ: هو الذَّنْبُ الذي يَقْتَرِفُهُ الشَّخْصُ في حَقِّ الآخَرينَ، وهوَ من بابِ التَّعَدّي،

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.

(2) القِنَّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/142.

(3) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/710، والقاسِميّ، محاسِنُ التّأْويل: 2/229.

الإثمُ كائنًا ما كان جُرْمٌ، والعُدْوانُ هو مُجاوَزَةُ الحَدِّ

ومنهُ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2]، فالإثْمُ: الجُرْمُ كائنًا ما كان، والعُدْوانُ: الظُّلْمُ[1]، واصْطِلاحُ الإثْمِ قَدْ يَتَّسِعُ ويَحْمِلُ المَعْنَيَيْنِ: فيَحْمِلُ مَعْنى الذُّنوبِ التي يَقْتَرِفُها الشَّخْصُ في حَقِّ نَفْسِه، ويَحْمِلُ مَعْنى التَّعَدّي على الآخَرينَ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعالَى ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [النَّجم: 32]، فكبائِرُ الإثْمِ تَدْخُلُ فيها الجَرائمُ الّتي فيها تَعَدٍّ على الآخَرينَ؛ من سَطْوٍ ونَصْبٍ وغشٍّ، ونَحْوِ ذلكَ، فيَكونُ الإثْمُ أَعَمَّ مِنَ العُدْوانِ[2]، وفي الفروق أنّه يجوز أَن يُقَال "الْإِثْم هُوَ الْقَبِيح الَّذِي عَلَيْهِ تبعة، والذّنب هُوَ الْقَبِيح من الْفِعْل وَلَا يُفِيد معنى التّبعة، وَلِهَذَا قيل للصَّبِيّ قد أذْنب، وَلم نقل قد أثم، وَالْأَصْل فِي الذَّنب الرّذل من الْفِعْل كالذّنب الَّذِي هُوَ أرذل مَا فِي صَاحبه، والجرم مَا يَنْقَطِع بِهِ عَن الْوَاجِب، وَذَلِكَ أَنّ أَصله فِي اللُّغَة الْقطع، وَمِنْه قيل للصِّرام: الجرام"[3].

الإثْمُ مُحَرَّمُ الجِنْسِ، والعُدْوانُ مُحَرَّمُ القَدْرِ

كَما أَنَّ الإثْمَ والعُدْوانَ في جانِبِ النَّهْيِ نَظيرُ البِرِّ والتَّقْوَى في جانِبِ الأَمْرِ، والفرقُ بَيْنَ الإثْمِ والعُدْوانِ كالفَرْقِ بَيْنَ مُحَرَّمِ الجِنْسِ ومُحَرَّمِ القَدْرِ، فالإثْمُ ما كانَ حَرامًا لِجِنْسِه، والعُدْوانُ ما حُرِّمَ لِزيادَةِ قَدْرِه وتَعَدّي ما أَباحَ اللَّه، فالزِّنا والخَمْرُ والسَّرِقَةُ ونَحْوُها إِثْمٌ، ونِكاحُ الخامِسَةِ واسْتيفاءُ المظلوم أَكْثَرَ من حَقِّه ونَحْوُهُ عُدْوانٌ[4]، والفرق بين الإثم والعدوان، أنّ الإثم هو الجرم، كائنا ما كان، والعدوان: الظّلم وتجاوز الحدّ في معاملة الآخرين، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: 62]، من عطف الخاصّ على العامّ[5].

(1) العسكريّ، الفُروقُ اللُّغوية: ص: 16.
(2) الرّاغِب، المُفردات: (أثم).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/233.
(4) ابنُ القيّم، الرِّسالةُ التّبوكيّةِ: ص: 10، والكفويّ، الكُلّياتُ 584.
(5) العسكريّ، الفُروقُ اللُّغوية: ص: 16.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾

[البقرة: 277]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توصيف حال المرابين ومصيرهم، وحال المؤمنين وجزائهم

لَمّا ذَكَرَ اللّٰه ﷻ أَكَلَةَ الرِّبا، وكان من المَعْلوم أَنَّهُمْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ إيمانًا يَنْفَعُهُمْ لَمْ يَصْدُرْ منهُمْ ما صَدَرَ، ذَكَرَ هنا حالَةَ المُؤْمِنينَ وأَجْرَهُمْ، فإن أَكْبَرَ الأَسْبابِ لِاجْتِنابِ ما حَرّمَ اللّٰهُ تَعالى من المَكاسِبِ الرِّبَوِيَّةِ، تَكْميلُ الإيمانِ وحُقوقِهِ، خُصوصًا إقامَةَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ فإن الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ، والزَّكاةُ إِحْسانٌ إلى الخَلْقِ، وهَذا يُنافي تَعاطي الرِّبا، الذي هو ظُلْمٌ لهم[1].

وأَيْضًا لَمّا ذَكَرَ حالَ آكِلِ الرِّبا، وحالَ مَنْ عادَ بَعْدَ مَجيءِ المَوْعِظَةِ، ذَكَرَ ضِدَّ هَؤُلاءِ؛ لِيُبيِّنَ فرْقَ ما بَيْنَ الحالَيْنِ، فعادَةُ القرآن أَنَّهُ إذا ذَكر وعيدًا ذكَرَ بَعْدَهُ وعْدًا[2]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكان ذلك تسليةً وتثبيتًا لأهل الإيمان، ممّن ثاب إلى اللّٰه، والتزم بما به أمر، وانتهى بقناعة وإيقان، عمّا عنه نهى وزجر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَقَامُواْ﴾: أَقامَ (الشَّيْءَ) إقامَةً (أَدامَهُ) وأَصْلُ قَوَمَ يَدُلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ. فيُقالُ: أَقامَ الأَمْرَ إذا أَتى به على أَكْمَلِ هَيْئاتِهِ، ومَعْنى أَقاموا الصَّلاةَ: أَيْ يُداوِمونَ على فِعْلِها في مَواقيتِها ويُحافِظونَ عَلَيْها بتَوفيةِ حُقوقِها وشُروطِها[3]، والمأمور به ليس الصّلاة بشكلها

(1) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكريمِ الرَّحْمنِ: ص: 959.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/711، وينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/81.
(3) الرّاغِب، المُفْرداتُ: (صلا)، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (قوم).

وحركاتها، وملفوظها وطقوسها، ولكن بإقامة أركانها، وترويض النّفس على روحانيّتها، واجتناب ما يتنافى مع هيبتها وقداستها، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]، وذلك هو سرّها الأكبر، ومقصدها الأظهر.

2) ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أَعْطَوها، والإيتاءُ الإِعْطاء، تَقولُ آتَى يُؤْتِي إيتاءً، وأَصْلُهُ الإِحْضار، وخُصَّ دَفْعُ الصَّدَقَةِ في القرآن بالإيتاءِ[1]، وقوله ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، يعني إلى مستحقها عند وجوبها[2].

3) ﴿أَجْرُهُمْ﴾: الأَجْرُ: إعطاء الثَّوابُ وبَدَلُ المَنْفَعَةِ وجَزاءُ العَمَلِ (الكِراءُ على العَمَلِ)، أَجَرَه: جَزاهُ وأَثابَهُ وأَعْطاهُ[3].

4) ﴿خَوْفٌ﴾: الخَوْفُ: ذُعْرٌ وفَزَعٌ بِسَبب تَوَقُّع مَكْروه[4].

5) ﴿يَحْزَنُونَ﴾: أصل الحُزْن: خُشونَةٌ في النَّفْسِ لِما يَلْحَقُها مِنَ الغَمِّ، أو: قَسْوَةُ الشَّيْءِ وشِدَّتُهُ وخُشونَتُهُ[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَنْ حقَّقَ الإيمان وعَمِلَ بالأَركان نـالَ الجِنان، وطَرَدَ اللهُ عنه الخَوْفَ والأَحزان

إنَّ الذينَ صَدَّقوا باللّهِ واتَّبَعوا رَسولَه، وعَمِلوا الأَعْمالَ الطَّيِّبَةَ التي أَمَرَ اللّه بها، وأَدَّوُا الصَّلاةَ تامَّةً على الوَجْهِ الأَكْمَلِ، وأَخْرَجوا زَكاةَ أَمْوالِهِمْ لمن يَسْتَحِقُّها؛ لهم ثَوابٌ عَظيمٌ خاصٌّ بهم عند رَبِّهِمْ، ولا يَلْحَقُهُمْ خَوْفٌ فيما يَسْتَقْبِلونَهُ من أُمورِهِمْ، ولا حُزْنٌ على ما فاتَهُمْ من حُظوظِ الدُّنْيا ونَعيمِها[6].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ المقابلةِ بالجُمْلَةِ المُعْتَرِضَةِ:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(1) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن، ص: 62، والرّاغِب، المُفرداتُ: (أتى)، جبل، المُعجمُ الإشْتِقاقيُّ: (أتو، أتى).

(2) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن: (أتو، أتى).

(3) الخليل، العينْ: (أجر)، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (أجر)، الزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (أجر).

(4) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (خوف)، الرّاغِب، المُفرداتُ: (خوف)، جبل، المُعجمُ الإشْتِقاقيُّ: (خوف، خيف).

(5) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، جبل، المُعجمُ الإشْتِقاقيّ، الرّاغِب، المُفردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (حزن).

(6) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفسير، المُخْتصرُ في تفسيرِ القرآن الكريم 47.

التَّصريح بمَدْحِ المُزَكّين، والتَّعريض بذَمِّ المُرابين

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ لِمُقابَلَةِ الذَّمِّ بالمَدْحِ، والمَقْصودُ التَّعْريضُ بأَنَّ الصِّفاتِ المُقابَلَةَ لهاتِهِ الصِّفاتِ صِفاتُ غَيْرِ المُؤْمِنينَ، وتَزْدادُ هَذِهِ المُقابَلَةُ ظُهورًا بقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1]، وقد أَكَّدَ المَدْحَ بـ (إِنَّ) واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ لِتَقْوِيَةِ الذَّمِّ لِلمُرابينَ في مُقابِلِ ذَلِكَ.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر في قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

الصَّلاةُ دعوى على حبِّ الله والزَّكاةُ برهانُها

قولُه تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيهِ عطفُ الخاصِّ على العامِّ، حَيْثُ خَصَّصَ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكْرِ مَعَ انْدِراجِهِما في الصّالِحاتِ؛ تَنْبيهًا على الفَضْلِ الخاصِّ فيهما، على طَريقَةِ ذِكْرِ جِبْريلَ وميكالَ عَقيبَ ذِكْرِ المَلائِكَةِ عليهما السلام[2]، بَيانًا لِفَضْلِهِما، وتَشْريفًا لَهُما، وتَنْبيهًا على قَدْرِهِما[3] وعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِما على سائِرِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ؛ إِذْ هُما رَأْسُ الأَعْمالِ؛ فإنَّ الأولى أَعْظَمُ الأَعْمالِ البَدَنِيَّةِ، والثّانيةَ أَفْضَلُ الأَعْمالِ الماليَّةِ[4]، وهاتانِ العبادتانِ هما أصلُ الانتهاءِ عنِ الرِّبا؛ فالصَّلاةُ تُنهي تقديمَ حبِّ المالِ على حبِّ أمرِ اللهِ تعالى، والزَّكاةُ برهانُ ذلك الحبِّ.

توجيهاتُ المجازاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

كثرةُ التَّوجيهاتِ المجازيَّةِ دليلٌ على كثرةِ المعاني الإيجازيّة

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اسْتِعارَةٌ تَصْريحيَّةٌ تَبَعِيَّةٌ؛ لأَنَّ الإِقامَةَ هِيَ التَّسْوِيَةُ وجَعْلُ الشَّيْءِ مُسْتَقيمًا لا اعْوِجاجَ فيهِ يُشْبِهُ القائِمَ، ثُمَّ اسْتُعيرَ منها لِتَسْوِيَةِ الأَفْعالِ؛ والمَعْنى: تَعْديلُ أَرْكانِ الصَّلاةِ على ما هو حَقُّها؛ فمُقيمُ الصَّلاةِ يُعَدِّلُ أَرْكانَها ويَفْعَلُها سالِمَةً عنِ الاعْوِجاجِ والمَيْلِ؛ على الحالَةِ التي شُرِعَتْ عَلَيْها؛ فيوقِعُها مُسْتَجْمِعَةً لِلفَرائِضِ والواجِباتِ مَعَ الآدابِ والسُّنَنِ[5].

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/93.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/413، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 4/137.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/373.
(4) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/51.
(5) الخفاجيّ، حاشية على البيضاويّ: 1/217.

فاسْتُعيرَتِ الإقامَةُ من تَسْوِيَةِ الأَجْسامِ لِتَسْوِيَةِ المَعاني، أَيْ: لِتَعْديلِ أَرْكانِ الصَّلاةِ على ما هو حَقُّها، وتكونُ الاسْتِعارَةُ تَبَعِيَّةً إذا كانتِ الإقامَةُ بمَعْنى المواظَبَةِ والمُداوَمَةِ؛ من قامَتِ السّوقُ إذا رُغِبَ فيها، وراجَتْ بضاعَتُها، وكَثُرَ طُلّابُها، وحينئِذٍ يَهْتَمُّ التُّجّارُ بها ويَرْغَبونَ فيها، ويُداوِمونَ عليها، ويَتَنافَسونَ فيها، ففيه اسْتِعارَةٌ تَصْريحيَّةٌ تَبَعِيَّةٌ، حَيْثُ شُبِّهَتِ المُحافَظَةُ والمواظَبَةُ والمُداوَمَةُ على الصَّلاةِ؛ بإقامَةِ السّوقِ وتَرْويجِها؛ بجامِعِ الاهْتِمامِ بشَأْنِ مُتَعَلَّقِهِ، والرَّغْبَةِ فيه، والتَّوَجُّهِ إليه؛ لأَنَّ الصَّلاةَ إذا حوفِظَ عَلَيْها، كانَتْ كالشَّيْءِ الرّائِجِ الذي تَتَوَجَّهُ إليه الرَّغَباتُ، ويَتَنافَسُ فيه المُحَصِّلونَ؛ فبالمُحافَظَةِ التّامَّةِ عَلَيْها تَكونُ كالبِضاعَةِ الرّائِجَةِ التي تَتَّجِهُ إِلَيْها الأَنْظارُ، ويَتَنافَسُ فيها التُّجّارُ[1].

عَلى أَنَّ مَعْنى (يُقيمونَ الصَّلاة): يُشَمِّرونَ لِأَدائِها بلا فتْرَةٍ عَنْها، فالإقامَةُ بمَعْنى التَّجَلُّدِ والتَّشَمُّرِ لِأَدائِها بلا فتْرَةٍ عَنْها ولا تَوانٍ؛ من قَوْلِهِمْ: قامَ بالأَمْرِ، وأَقامَهُ؛ إذا جَدَّ فيه، وتَجَلَّدَ واجْتَهَدَ في تَحْصيلِهِ بلا تَوانٍ؛ ففي لَفْظِ الإقامَةِ مَجازٌ مُرْسَلٌ من قَبيلِ ذِكْرِ المُسَبَّبِ وإرادَةِ السَّبَبِ، وذَلِكَ أَنَّ القيامَ بالأَمْرِ يَكون مُسَبَّبًا عن الاعْتِناءِ بشَأْنِهِ والتَّشَمُّرِ والتَّجَلُّدِ؛ فأُطْلِقَ القيامُ على سَبَبِهِ[2]، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ مُجازًا مُرْسَلًا عَلاقَتُهُ المَلْزوميَّةُ، حيث ذُكِر المَلْزومُ وأُريدَ اللّازِمُ، فيُقالُ: إنَّ القيامَ بالأَمْرِ يَدُلُّ على الاعْتِناءِ بشَأْنِهِ ويَلْزَمُهُ التَّشَمُّرُ؛ فأُطْلِقَ القيامُ على لازِمِهِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بإقامَةِ الصَّلاةِ دونَ المُصَلّينَ:

إقامةُ الصَّلاةِ أعلى من أدائِها وأبلغُ من تأديتِها

جاءَ التَّعبيرُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بمدح مقيمي الصَّلاةِ لا المُصلِّين؛ لأَنَّ إقامَةَ الشَّيْءِ تَسْتَلْزِمُ لَوازِمَ عِدَّةً؛ منها: الاهْتِمامُ به، وجَعْلُهُ على أَحْسَنِ أَحْوالِهِ وأَقْدَرِها، وجَعْلُهُ مُسْتَقيمًا غَيْرَ مُعْوَجٍّ؛ فيَأْتونَ بالصَّلَواتِ الخَمْسِ في أَحْسَنِ أَحْوالِها وصوَرِها قائِمَةً مُعْتَدِلَةً مُسْتَوِيَةً مُقَوَّمَةً مُعَدَّلَةً، ولِأَنَّ الإنْسانَ يَكونُ في حالِ قيامِهِ أَقْدَرَ على الأَشْياءِ[4]، وكَذَلِكَ الأَشْياءُ عِنْدَما تُقامُ تَكونُ على

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 1/218.

(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 1/182.

(3) الآلوسي، روحُ المعاني: 1/218، والخفاجيّ، حاشية على البيضاويّ: 1/217.

(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/253.

أَحْسَنِ أَحْوالِها، وذَلِكَ يَكونُ بإِتْمامِ أَرْكانها وواجباتِها وشُروطها في وقْتِها، وإقامَتِها باطِنًا بإقامَةِ روحِها، وهوَ حُضورُ القَلْبِ فيها واسْتِحْضارُ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعالَى في كُلِّ لَفْظٍ يُذْكَرُ اللّه بها، كأَنَّهُ يَرَى اللَّهَ، مَعَ تَدَبُّرِ ما يَقولُهُ ويَفْعَلُه، فيمْتَلِئُ قَلْبُهُ من هَيْبَتِه، وتَذِلُّ عُنُقُهُ لَه، ويَسْتَحيي من رَبِّهِ تَعالَى أَنْ يُقْبِلَ على غَيْرِه، أَوْ يَلْتَفِتَ عنه[1].

وَبِهَذا وغَيْرِهِ من مَعاني الإِحْسانِ في الصَّلاةِ خُصَّ لَفْظُ الإقامَةِ؛ تَنْبيهًا على أَنَّ المَقْصودَ من فِعْلِها تَوْفيةُ حُقوقِها وشَرائِطِها، لا الإِتْيانُ بهَيْئَتِها فقط، فالمُصَلُّونَ كَثيرٌ والمُقيمونَ قَليلٌ.

بلاغةُ التَّعْبيرِ في قَوْلِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

رفعُ المؤمنين بمكانِهم ومكانتِهم ومربوبيّتِهم

في ذكر العنديَّة في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ رفعةٌ للمؤمنين وتعظيمٌ لهم، وفي التَّعَرُّضِ لِعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ مَعَ الإضافَةِ إلى ضَميرِ (هم) مَزيدُ لُطْفٍ وتَشْريفٍ وتَكْريمٍ للمؤمنين[2]، مع ما يُوحيه لَفْظُ الرَّبِّ من أَنَّ الثَّوابَ الذي ينالُه المؤمنون هو مَحْضُ تَفَضُّلٍ منه تَعالَى[3].

دلالةُ نَفيِ الخوفِ بالاسمِ، والحزنِ بالفعل:

أعظمُ ما ينالُه المؤمنون في الجنَّةِ نفيُ الخوفِ والحزنِ؛ لاشتمالِه الزَّمانَ كلَّه

للدلالة على عِظَمِ فضلِ اللّه على المؤمنين نفى الحُزْنَ عَنِ المؤمنين بالفِعْلِ، والخَوْفَ بالاسْمِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لِأَنَّ أَغلبَ مُتَعَلَّقِ الحُزْنِ ماضٍ، والخَوْفُ مُسْتَقْبَلٌ؛ فلا خوفَ عليهم في المستقبلِ، ولا يحزنون على ما فاتهم، وهذا من أعظم الأجرِ الذي ينالُه المؤمنون في جنَّاتِ النَّعيم.

والنَّكِرَةُ في سياقِ النَّفْيِ تُفيدُ العُمومَ، والفِعْلُ في سياقِ النَّفْيِ مُخْتَلَفٌ في إفادته العموم[4]، ولأَنَّ الماضي محصورٌ؛ لأنَّه مُشاهَدٌ مَرْئِيٌّ، ومُتَعَلَّقاتُهُ مَحدَّدة، والمُسْتَقْبَلُ مُتَعَلَّقاتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ؛ لأنَّه غَيْرُ

(1) ابْنُ القيّم، الوابِلُ الصَّيِّبُ: ص: 21

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/413.

(3) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324، وهذا المعنى أيضا مذكور في الصَّفْحةِ السّابِقةِ.

(4) تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324، والشِّنْقيطيّ، مُذكِّرةٌ في أُصولِ الفِقْهِ 384.

مَحْصور، فالخَوْفُ منه يَعْظُمُ لِكَثْرَةِ الخَواطِرِ والمَخاطِر التي تَخْطُرُ ببالِ الإنْسانِ مما يخاف منه؛ فقَدْ يَخافُ من عِدَّةِ أَشياء، أو من شَيْءٍ هو في نَفْسِ الأَمْرِ آمِنٌ فيه، فلِذلِكَ نَفَى الخَوْفَ بلَفْظِ الاِسْمِ الدّالِّ على العُموم ونَفَى الحُزْنَ بالفِعْلِ المُحْتَمِلِ لِلعُموم وعَدَمِه، ولأن ما يُحْزَنُ عليه مُتَيَقَّن، وأكثر ما يُخافُ منه مظنون، أي: فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من مَكْروهٍ آتٍ، ولا حُزْنٌ عَلَيْهِمْ من مَحْبوبٍ فات[1].

(1) القِنَّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/142، ويُنْظَرُ تفْصيلُ هذا المعْنى في الصّفْحةِ السّابِقةِ عند قوْلِهِ تعالى ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: 274].

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البَقَرَة: 278- 279]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّوْبَةُ الصّادِقَةُ مِنَ الرِّبا، تَوْبَةٌ مِمّا فات، ومِمّا هو آتٍ

لَمّا بَيَنَ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ أَنَّ مَن انْتَهَى عن الرِّبا فلَهُ ما سَلَفَ، فقَدْ كان يَجوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لا فرْقَ بَيْنَ المَقْبوضِ منه والباقي في ذِمَّةِ القَوْمِ، وأَنَّ المَمْنوعَ هو إِنْشاءُ عَقْدٍ رِبويٍّ بَعْدَ التَّحْريمِ؛ لِذا أَزالَ تَعالَى هَذا الاحْتِمالَ، بأَنْ أَمَرَ بتَرْكِ ما بَقيَ من الرِّبا في العُقودِ السّابِقَةِ، قَبْلَ التَّحْريمِ[1]، فقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّـهَ﴾، كما أنّ في الآيَةِ إِفْضاءً إلى التَّشْريعِ، بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ أَمامَهُ من المَوْعِظَةِ ما هَيَّأَ النُّفوسَ إليه، ولَمّا كان من حَقٍّ من عانَدَ السَّيِّدَ الأَخْذُ بعِنادِه إذا تمرّد وأبق؛ سَبَّب عن ذلِكَ[2] قَوْلَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، وهو خطابٌ للمؤمنين المصرّين على معاملة الرّبا، أو هو خطاب مع الكفار المُستحلّين للرّبا، الّذين قالوا ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾، قال القاضي: والاحتمال الأوّل أولى[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَرُواْ﴾: اتْرُكوا، وارْموا به، واقْذِفوه، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ، أَيْ: يَقْذِفُهُ لِقِلَّةِ اعْتِدادِهِ به، وقد أَماتَتِ العَرَب المَصْدرَ من (يَذَرُ) والفِعْلَ الماضي من (يَذَر)، واسْتَعْمَلَتْهُ في الحاضِرِ والأَمْرِ،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/82، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/711.
(2) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/139.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/84.

وأَصْلُ الإِذْراءِ القَذْف، والإِذْراءُ: ضَرْبُكَ الشَّيْءَ تَرْمي به أو تَصْرَعُه؛ ومَعْنى ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾: اتْرُكوهُ[1]، "في إشعاره أنّ طائفة منهم لا يذرونه بعد تحريمه، بما أنّهم ليسوا من الّذين كانوا مؤمنين".

2) ﴿فَأۡذَنُواْ﴾: أَيْ: أَيْقنوا، واعْلَموا ذَلِكَ، واسْمَعوه. أَذِنَ لَهُ أَذَنًا: اسْتَمَعَ، وأَصْلُ الأَذانِ العلم، فالأُذُنُ والأَذانُ لِما يُسْمَعُ، ويُعَبَّرُ بذَلِكَ عن العلم؛ إِذْ هو مَبْدَأُ كَثيرٍ مِنَ العلم، والمَعْنى: اعْلَموا وأَعْلِموا غيركم، أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَتْرُكِ الرِّبا فهو في حَرْبٍ[2].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

دعـوة المؤمنين للـتّـعـامـل الـحـلال، والاكـتـفـاء في التّوبة من الرّبا برأس المال

يا أَيُّها الذينَ آمَنوا باللّهِ واتَّبَعوا رَسولَه، عليكم بخوف اللّه، والامتثال الصّارم لأوامره، والاجتناب الفوريّ لنَواهيه، واتْرُكوا المُطالَبَةَ بما بَقيَ لَكُمْ مِن الرِّبا في ذِمَّةِ النّاسِ، ممّا كان لَكُمْ قَبْلَ تَحْريمه، إن كُنْتُمْ مُحَقِّقينَ لِلإيمانِ قَوْلًا وعَمَلًا، فإن لَمْ تَرْتَدِعوا عَمّا نَهاكُمُ اللّهُ عنه فاسْتَيْقِنوا بحَرْبٍ من اللّهِ ورَسولِه، وإِنْ رَجَعْتُمْ إلى رَبِّكُمْ، وتَرَكْتُم الرِّبا فلَكُمْ أَخْذُ ما لَكُمْ من دينٍ، دونَ زيادَة، لا تَظْلِمونَ أَحَدًا بأَخْذِ ما زادَ على رُؤوسِ أَمْوالِكُمْ، ولا يَظْلِمكُمْ أَحَدٌ بنَقْصِ ما أَقْرَضْتُمْ، لأَنَّ الزّيادَةَ التي تَأْخُذونَها ظُلْم لِغَيْرِكُمْ، كَما أَنَّ تَرْكَ جُزْءٍ من رُؤُوسِ الأَمْوالِ ظُلْمٌ لَكُمْ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ النِّداءِ لِأَهْلِ الإيمانِ بِأُمِّ أدواتِ النِّداءِ (يا):

نادى الحقُّ المؤمنين باسْمِ الإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَحْريضًا لهم على قَبولِ حُكْمِ اللّه بتَرْكِ ما بَقيَ مِنَ

(1) الخليل، العينْ، باب الذال والراء و: (ويء): (وذر)، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، جبل، المُعجمُ الإشْتِقاقيُّ: (وذر).

(2) ابْنُ سيده، المُحكمُ: (الذال والنون والهمزة) مقلوبه (أذن)، الأزهريّ، تهْذيبُ اللُّغة، الجوْهريّ، الصّحاح، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (أذن).

(3) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزهر، المُنْتخبُ في تفسِيرِ القرآن الكريم: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفسِيرِ القرآن الكريم 47.

الرِّبا[1]، بأداةِ النِّداءِ (يا)، وهي أداةٌ لنداءِ البعيدِ؛ لتنزيلِهم منزلةَ الرِّفعةِ والمجدِ.

نكاتُ تَقْديمِ الأَمْرِ بالتَّقْوى على النَّهْيِ عن الرِّبا:

الأَمْـرُ بالتَّقْوى يـقـتـضي الأمـرَ بِتَرْكِ الرِّبا

قُدِّمَ أَمْرُ المؤمنين بتَقْوى اللهِ قَبْلَ الأَمْرِ بتَرْكِ ما بَقيَ مِنَ الرِّبا؛ لِنكاتٍ عدَّة، وهي:

الأولى: التقوى أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، فتقديمُه يكونُ كالتَّمهيدِ لما بعدَه.

الثَّانية: التقوى أَصْلُ الِامْتثالِ والِاجْتِناب، فتركُ الرِّبا المطلوبُ شرعًا هو ما كان عن إيمانٍ وتقوى.

الثَّالثة: تَرْكُ الرِّبا من جُمْلَةِ التَّقوى؛ فهوَ كالأَمْرِ بطَريقٍ بُرْهانيٍّ[2].

فالذينَ يَتْرُكُونَ ما بَقيَ من عُقودٍ عَقَدوها إنَّما يُقاومونَ شُحَّ أَنْفُسِهِمْ ورَغَباتِهِمْ وأَهْوائهِمْ؛ فهَذِهِ المُقاوَمَةُ، وذَلكَ الكَفُّ، فِعْلٌ نَفْسيٌّ جليلٌ، وهوَ عَيْنُ التَّقْوَى التي حَثَّهُمُ اللّٰهُ تعالى عَلَيْها، ودعاهُمْ إلَيْها[3].

نكتةُ خطابِ المؤمنين بالإيمانِ واشتراطه فيهم في فاصلتِها:

حـثُّ المُؤمـنين عـلى الإيـمـانِ نـوعٌ من تربيةِ القُرآنِ، وإيماءٌ تحذيريٌّ

هَذا من بابِ التَّهْييجِ وحَثِّ المُخاطَبينَ على تَرْكِ ما بَقيَ في ذِمَمِ الذينَ عامَلوهُمْ بالرِّبا، وأَنَّ تَرْكَ الرِّبا بالكُلِّيَّةِ شَرْطُ الإيمانِ، وأَنَّ الرِّبا والإيمانَ لا يَجْتَمِعانِ، فهوَ شَرْطٌ مَجازيٌّ على جِهَةِ المُبالَغَة، كَما تقولُ لِمَن تُريدُ إقامَةَ نَفْسِه: إنْ كُنْتَ رَجُلًا فافْعَلْ كَذا[4]، فقَوْلُهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مَعْناهُ: إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ حَقًّا، فلا يُنافي قَوْلَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إذْ مَعْناهُ: يا أَيُّها الَّذينَ دَخَلوا في الإيمانِ[5]؛ فَفيهِ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذِ التَّقْديرُ: إن كُنْتُمْ مُؤْمنينَ فامتثلوا أوامرَ اللّٰه ونواهيَه، وفي هَذا تَنْفيرٌ شَديدٌ مِنَ التَّعامُلِ بالرِّبا، ووَعيدٌ رَهيبٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/712.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/712، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/93.
(3) أبو زهرة، زهْرةُ التّفاسير، 2/1058.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/374، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/712.
(5) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/94.

لمن يُصِرُّ على التَّعامُلِ به، فالمَعْنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بأفْواهِهِمْ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بِقُلوبِكُمْ أَطيعوا ربَّكم؛ فما يَدُلُّ على تَصْديقِ قُلوبِكُم امْتِثالُ ما أُمِرْتُمْ به[1].

ولِخُطورَةِ هَذا المَوْقِفِ وصُعوبَتِهِ على النَّفْسِ البَشَريَّةِ ذَكَّرَهُمْ بإيمانِهِمْ؛ إذِ الإيمانُ الصَّحيحُ بمَنزِلَةِ الطّاقَةِ الدّافِعَةِ فقالَ لهم: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّ إيمانَكُمْ قُدْرَةٌ قَوِيَّةٌ تَحْمِلُكُمْ على تَقْوى اللَّهِ وتَرْكِ ما بَقِيَ من الرِّبا عند المَدينينَ لَكُمْ[2]؛ فجيءَ بهذا التَّركيبِ على صِفَةِ الجِناسِ المُغايِرِ بَيْنَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ لإفادَةِ هذا المَعْنى.

وَقيلَ: هو شَرْطٌ يُرادُ به الاسْتِدامَة، وقيلَ: يُرادُ به الكَمال، وكأنَّ الإيمانَ لا يَتَكامَلُ إذا أَصَرَّ الإنْسانُ على كَبيرَة، وإنَّما يَصيرُ مُؤْمِنًا بالإطْلاقِ إذا اجْتَنَبَ الكَبائِرَ[3].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ٢٧٩﴾:

نُكْتَةُ تَسْميَةِ التَّرْكِ فِعْلًا في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾:

حَقيقَةُ الامْتِثالِ تَكْمُنُ في فِعْلِ المَأْمورِ وتَرْكِ المَحْظورِ

آثَرَ النَّظْمُ تسميةَ التَّركِ فعلًا في قولِه تَعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ﴾ إذْ معناه: فإن لَمْ تَتْرُكوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا؛ لأنَّ المطلوبَ هو أن يكونَ التَّركُ فعلًا واقِعًا ومتحقِّقًا، لا مُجرَّدَ تركٍ مؤقَّت، ودلالةُ الفعلِ أبلغُ في إرادةِ المطلوب، وإذا أُمِروا بتَرْكِ ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا لزم من ذَلِكَ الأَمْرِ تَرْكُ إنْشاءِ الرِّبا على طَريقِ الأَوْلَى والأَحْرَى[4].

تنكيرُ لفظِ ﴿بِحَرْبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّهديد:

نُكِّرَ لفظُ (حَرْبٍ) في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لِلتَّعْظيمِ[5] والتَّهْويلِ؛ فهيَ حَرْبٌ لا يُحيطُ بها وصْفٌ؛ لأَنَّها مِنَ اللَّهِ ورَسولِهِ، والإذْنُ في الآيَةِ بمَعْنَى العِلْمِ المُرادِ منه التَّحذير، أيْ: فاعْلَموا وقوعَ حربٍ من اللّه ورسولِه، بقصدِ الوعيدِ العظيم، والتَّهديدِ البالغِ.

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويّ: 5/468.
(2) أبو بكر الجزائريّ، نِداءاتُ الرّحْمن: 28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/712.
(4) أبو حيّان، البحْر المُحيط2/713.
(5) البيضاوي، أنْوارُ التّنْزيل: 1/163، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/94.

تـهـويـلُ شـأنِ الـــحــربِ على المُرابين، زيادةً في التَّهديدِ

نُكتةُ العُدُولِ عن الإضافةِ إلى استعمالِ حرفِ الجرِّ:

عدلَ النَّظمُ عن إضافَةِ الحَرْبِ إلى اللّهِ ورَسولِه، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (بحَرْبِ اللّهِ) ورَسولِه، لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ بَديعةٍ، فحرفُ ﴿مِّنَ﴾ لِابْتِداءِ الغايَةِ، وفي الابتداءِ بمن تَهْويلٌ عَظيمٌ، إذِ الحَرْبُ مِنَ اللّهِ تَعالَى ومن نَبيِّهِ ﷺ لا يُطيقُهُ أَحَدٌ[1]، فأفادَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الحَرْبِ عَظيمٌ من عند اللّهِ ورَسولِهِ[2]، وأَيْضًا أَفادَ أَنَّ الحَرْبَ مِنَ اللّهِ لهم؛ فاللّهُ تَعالى هو الذي يُحارِبُهُمْ، ولَوْ قيلَ: بحَربِ اللّهِ؛ لاحْتَملَ أَنْ تكونَ الحَرْبُ مُضافَةً للفاعِلِ، فيَكونُ اللّهُ هو المُحارِبَ لهم، واحْتَمَلَ أَنْ تكونَ مُضافَةً للمَفْعولِ، فيَكونوا هُمُ المَحارِبينَ للّهِ؛ فكَوْنُ اللّهِ تَعالى مُحارِبَهُمْ أَبلَغُ وأَزْجَرُ في المَوْعِظَةِ من كَوْنِهِمْ مُحارِبينَ للّهِ[3].

وقد دَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ على أَنَّ أَكْلَ الرِّبا والعَمَلَ به مِنَ الكَبائِرِ، ولا خِلافَ في ذَلِكَ؛ فتَنْكيرُ الحَرْبِ لِلتَّعْظيمِ، وزادَها تَعْظيمًا نِسْبَتُها إلى اسْمِ اللّهِ الأَعْظَمِ، وإلى رَسولِهِ الذي هو أَشْرَفُ خَليقَتِهِ[4]، قال الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللّهُ: "تَصَفَّحْتُ كِتابَ اللّهِ وسُنَّةَ نَبيِّهِ ﷺ فلَمْ أَرَ شَيْئًا أَشَرَّ مِنَ الرِّبا؛ لِأَنَّ اللّهَ تَعالى قَدْ آذَنَ فيهِ بالحَرْبِ"[5].

من دلائل عَـدْلِ الـلّــه إعـلامُ الـخَـصْـمِ ما سيكونُ عليه من الشِّدَّةِ

دَلالَةُ فِعْلِ الإِذْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٍ﴾:

يَذْكُرُ المُفَسِّرونَ أَنَّ مَعْنى فأْذَنوا فاعْلَموا أَنْتُمْ وأَيْقِنوا[6]، وهَذا هو المَعْنى المَشْهورُ لِلفِعْلِ؛ وقيلَ: مِنَ الإِذْنِ، وإذا أَذِنَ المَرْءُ في شيءٍ فقَدْ قَرَّرَهُ وبَنَى مع نَفْسِهِ عليه، فكأنَّهُ قالَ لهم: فقَرِّروا الحَرْبَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ اللّهِ ورَسولِهِ، ويَلْزَمُهُمْ من لَفْظِ الآيَةِ أَنَّهُمْ مُسْتَدْعونَ لِلحَرْبِ

---

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/715.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/322، والهرري، حدائِق الرّوْح: 4/120.

(3) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/715، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/642.

(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/143.

(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/364.

(6) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/143.

باغونَ لَها، إذْ هُمُ الآذِنونَ بها والمُتَسَبِّبونَ فيها، لِتَعاطيهِمُ الرِّبا وعَدَمِ انْتهائِهِمْ عنه، ويَنْدَرِجُ في هَذا المَعْنى عِلْمُهُمْ بأَنَّهُمْ في حَرْبٍ وتَيَقُّنُهُمْ لِذلِكَ[1].

وفي هذا المعنى مزيدُ تهويلٍ وتعظيمٍ لشأنِ هذه الحربِ، وتخويفٍ من تعاطي الرِّبا والعملِ به.

دَلالَةُ استعمالِ (إن) دون (إذا) في قَوْلِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾:

بِناءُ القِيَمِ الهِدائيَّةِ بالأدواتِ اللُّغويّةِ منهجٌ قرآنيٌّ فريدٌ

الخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لِلمُؤْمنينَ المُصِرّينَ على التَّعامُلِ بالرِّبا؛ بدَليلِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ فهوَ خِطابٌ معَ قَوْمٍ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

ولِذَلك عَدَلَ السّياقُ عن تَعْليقِ الشَّرْطِ بـ (إذا) إلى (إنْ) لِلحَثِّ على الامْتِثالِ في تَرْكِ التَّعامُلِ بالرِّبا، ولَوْ قيلَ: فإذا لَمْ تَفْعَلوا؛ لَكان تأْكيدًا على عَدَمِ امْتِثالِ جَميعِ المُخاطَبينَ أو أكثرهم لِلأَمْرِ بتَرْكِ التَّعامُلِ بالرّبا، وهَذا يدلُّ على علمِ اللّه تعالى بامتثالِ المُخاطَبين لأمرِه، وكذلك فيه قيمةٌ هدائيَّةٌ بإعلامِهم بعلمِه بأنَّه سيمتثلون، معَ أَنَّ في التَّعْبيرِ بـ "إنْ" دَلالَةً على احتمال عَدَمِ امْتِثالِ بَعْضِ المُخاطَبينَ لِلأَمْرِ الإلَهيِّ.

بلاغةُ المقابلةِ في جملةِ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ مع السَّابقةِ:

بَيانُ الوَعْدِ بَعْدَ الوَعيدِ طمأنةٌ للنَّفسِ وإذهابٌ للبأسِ

صُدِّرَت الجُمْلَةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بفِعْلِ الشَّرْطِ ﴿تُبْتُمْ﴾؛ لِبَيانِ الوَعْدِ بَعْدَ ذِكْرِ الوَعيدِ قَبْلَهُ في قَوْلِهِ: ﴿فَأْذَنُواْ﴾، وجيءَ بالعَطْفِ معَ أَنَّ المُخاطَبَ واحِدٌ لِلتَّغايُرِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ في الخَبَرِيَّةِ والإنْشاءِ، ثُمَّ جيءَ بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ المُصَدَّرَةِ بالفاءِ الواقِعَةِ في جَوابِ الشَّرْطِ؛ وفي هَذا إيماءٌ إلى أَنَّ أَمْوالَهم معَ عَدَمِ التَّوْبَةِ حَلالٌ لِمَنْ أَخَذَها مِنَ الأَئِمَّةِ ونَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَنوبُ عَنْهُمْ[2]؛ معَ الإِثْمِ والوَعيدِ الحاصِلِ لهم بسَبَبِ إِصْرارِهِمْ على أَكْلِ الرِّبا.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/375، وأبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/715.

(2) الشّوْكانيّ، فتْحُ القدير: 1/341، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/143.

بَديعُ الجِناسِ التّامِّ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾:

بَيانُ كَمالِ عَدْلِ اللهِ مَعَ عِبادَهِ المُفْضي إلى رِعايَةِ مَصالِحِهِمْ في الدّارَيْنِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ جناسٌ تامٌّ، ومعنى الكلام: لا تَظْلِمونَ الغَريمَ بطَلَبِ زيادَةٍ على رَأْسِ المالِ، ولا تُظْلَمونَ أَنْتُمْ بنُقْصانِ رَأْسِ المالِ، وقيلَ: بالمَطْلِ[1]، وفيه بيان كمال عدل اللّه مع عباده المفضي إلى رعاية مصالحهم العاجلة والآجلة.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَذَرُ) و(يَدَعُ)[2]:

الــوَدْعُ تَــرْكُ الــشَّيْءِ مـعَ الاِهْــتِـمـامِ، والإِذْراءُ تَرْكُهُ معَ الإهمالِ.

يَدَعُ: هو أَن يَتْرُكَ الشَّيْءَ معَ الاِهْتِمام به والحِرْصِ عليه، و (الوَديعَةَ) عند الشَّخْصِ المُؤْتَمَنِ حِرْصًا عَلَيْها؛ ويَذَرُ: هي أَنْ يَتَخَلَّى عن الشَّيْءِ معَ إِهْمالِهِ؛ لِعَدَمِ الاِعْتِناءِ بشَأْنِه، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ، أَيْ: يَقْذِفُهُ لِقلَّةِ اعْتِدادِهِ به، ومنهُ الوَذَرَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ، وتَسْمِيَتُها بذَلِكَ لِقِلَّةِ الاِعْتِدادِ بها[3].

الإذن والعلم:

الإِذْنُ أَخَصُّ مِنَ العِلْمِ، ولا يَكادُ يُسْتَعْمَلُ الإِذْنُ إِلّا فيما فيه مَشيئَةٌ به[4]، وقال ابن الكمال: "فكُّ الحَجْرِ وإطلاقُ التّصرف، لمن كان ممنوعا شرعا، وقال الرّاغب: الإذن في الشّيء، الإعلام بإجازته والرّخصة فيه، ويعبّر به عن العلم، إذ هو مبدأ كثير من العلم فينا، لكن بين الإذن والعلم فرق، فإنّ الإذن أخصّ، ولا يكاد يستعمل إلّا فيما فيه مشيئة ما، ضامه أمر أم لا"[5].

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/716.
(2) والعرب لم تستعمل الماضي من هذين الفعلين، فورد فيهما يدع ويذر في المضارع، ودعوا وذروا في الأمر، قال في: (المصباح) بهذا: اعلم أنّ قولهم، في علم التّصريف، أماتوا ماضي: (يدع) و: (يذر) خطأ. وجعله استعارة من الوديعة تعسّف. (انتهى)، وكذا قال في: (المستوفى): أنّه كلّه ورد في كلام العرب، ولا عبرة بكلام النّحاة فيه، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. ينظر القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/491، وفي اللّسان: "والنّبيّ ﷺ أفصح العرب، وقد رويت عنه هذه الكلمة، قال ابن الأثير: وإنّما يحمل قولهم على قلّة استعماله، فهو شاذّ في الاستعمال، صحيح في القياس، وقد جاء في غير حديث ". ابن منظور، لسان العرب: 8/384.
(3) الخليل، العينُ، باب الذال والراء و: (ويء)، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، جبل، المُعجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (وذر).
(4) الرّاغِب، المُفْرداتُ: (أذن).
(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 44.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٨٠﴾ [البقرة: 280]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين أحكام الدَّيْن، وبَيانِ المعاملة مع المُعْسرين مِنَ المَدينين

لَمّا حَكَمَ اللّهُ تَعالى لِأَهْلِ الرِّبا بِرُؤوسِ أَمْوالِهِمْ عند الواجِدينَ لِلمالِ، حَكم في ذَوي العُسْرَةِ بالنَّظِرَةِ إلى يَسارٍ[1]، أي إن كان المدين غير قادر على السّداد، فالمطلوب إمهاله إلى حين ميسرة، ووضع الدّين عنه، آثر عند الله وأفضل لأصحاب الدّين، في الدّنيا والآخرة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُسْرَةٍ﴾: العُسْرَةُ: قِلّةُ ذاتِ اليَدِ، والعُسْرُ نَقيضُ اليُسْرِ، وأَصْلُ العُسْرِ صُعوبَةٌ وشِدَّةٌ، والعُسْرَةُ تَعَسُّرُ وُجودِ المالِ، والعُسْرَة والمعْسَرَة: خِلافُ المَيْسَرَة، وأَعْسَرَ الرَّجُلُ إِعْسارًا، إذا افْتَقَرَ[3]، ومعنى اللّفظ في الآية: ﴿وَإِن كَانَ﴾ ممّن تقبضون منه من غرمائكم رؤوسَ أموالكم (ذو عُسْرَة)، يعني: معسرًا برؤوس أموالكم التي كانت لكم عليهم قبلَ الإرباء، فالمطلوب إفساح المجال له حتّى يتمكّن من الأداء[4].

2) ﴿فَنَظِرَةٌ﴾: من نَظَرَ يَنْظُرُ انْتظارًا، وإِنْظارًا، وأَصْلُ النَّظَر: تأمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُه، والنَّظِرَة: التَّأْخيرُ في الأَمْرِ ويُقالُ: نَظَرْتُه، أَي: انْتَظَرْتُهُ؛ فمَعْنى نَظِرَةٌ: انْتِظارٌ وتَأْخيرٌ[5]، وَكَانَ الرّجل يقرض

(1) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/144.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 47.
(3) الخليل، العينْ: (عسر)، ابْنُ دُريْد، جمْهرةُ اللُّغةِ: (رسع)، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة، والرّاغِب، المُفْردات، الزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (عسر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/28.
(5) ابْنُ دُريْد، جمْهرةُ اللُّغةِ: (رظن)، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الزّبيديّ، تاجُ العروس، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (نظر).

غيره، وَيضْرب لَهُ أَجَلًا، فإذا حلّ الْأَجَل يَقُول لَهُ: زِدْني في الدَّين، حَتَّى أزيدك في الْأَجَل، ويرغمه على ذلك، فَهَذَا كَانَ رِبَا الْجَاهِلِيَّة وَهُوَ حرَام[1]، وقد أمر الإسلام بالنَّظِرَةِ، وهي التّأخير دون تبعات ولا إكراه للمدين، على ما لا طاقة له به، كما كان فعل الجاهليّة، وهو أيضًا ديدن اليهود في معاملاتهم.

3) ﴿مَيۡسَرَةٖۚ﴾: المَيْسَرَةُ واليَسارُ: الغِنى والسَّعَة، وأَصْلُ اليسر: انْفِتاح شَيْءٍ وخِفَّته، وهوَ ضِدُّ العُسْرِ، والمَيْسُرَةُ السُّهولةُ واليُسْرُ[2]، والميسرةُ مصدرٌ بمعنى اليسر، والمعنى: أنّ المدين ذا العسرة الّذي لا يجد وفاء، يجب إرجاؤه بتمديد أجل السّداد له، إلى حين ميسرة، وهذا واجب على صاحب الدّين، بل جعل في إسقاط الدّيون على المعسرين، وإقالة ذمّتهم منها، بالنُّزول عنها كلّها أو بعضها، من الأجر الكبير الّذي يغفل عنه النّاس، ولا يعلمون قدره وعِظَمَه[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنْظارُ المُعسِر أَوْ إسْقاطُ دَيْنِهِ عليه من خِصال أَهْلِ الخشية والإيمانِ

وإنْ كان مَنْ تُطالِبونَهُ بالدَّيْنِ مُعْسِرًا غَيْرَ قادِرٍ على سَدادِ دَيْنِه، فأَخِّروا مُطالَبَتَهُ إلى أَنْ يُيَسِّرَ اللهُ لَهُ رِزْقًا فيَدْفَعَ إِلَيْكُمْ مالَكُمْ، وأَنْ تَتَصَدَّقوا عليه بالنُّزول عن الدَّيْنِ أَوْ بَعْضِه خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ فَضْلَ ذلِكَ عند اللهِ تَعالى[4]، والظّاهر أنّ النَّظِرَةَ إلى الميسرة، ليست وقفًا على دين الرّبا فحسب، ولكنّها تنسحبُ على كلّ دين حلال، وهو قول جمهور العلماء[5].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ بالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّةِ في قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ﴾:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ﴾ مَعْطوفٌ على قَوْله

---

(1) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/281.

(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المُفرداتُ: (يسر).

(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/90.

(4) لجنةٌ من عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 67، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفسير، التّفسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفسير، المُخْتصرُ في تفسيرِ القرآن الكريمِ 47.

(5) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 1/543.

﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ لِأَنَّ ظاهِرَ الجَوابِ أَنَّهُمْ يَسْتَرْجِعونَها مُعَجَّلَةً، إذِ العُقودُ قَدْ فُسِخَتْ، فعَطَفَ عليه حالَةً أُخْرَى، والمَعْطوفُ عليه حالَةٌ مُقَدَّرَةٌ، والمَعْنَى وإنْ حَصَلَ ذو عُسْرَة، أَيْ: غَريمٌ مُعْسِرٌ[1]، فلا تَعْجَلوا على الغَريمِ المُعْسِرِ بل أَمْهِلوهُ حَتَّى يَجِدَ سعَةً وغِنًى، ولِمُراعاةِ حالِ المُعْسِرِ جاءَ التَّأْكيدُ على إِنْظارِهِ بالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّة، وأُدْخِلَتْ إنْ - المُفيدَةُ للشَّرْطِ في الاسْتِقبالِ - على الماضي لِتُفيدَ وُقوعَ الإِعْسارِ، فهوَ كائِنٌ حَقًّا فأَنْظِروا المُعْسِرينَ، وهذا عِلاجٌ اسْتِتباعيٌّ، يُعينُ على امتِثالِ الجميعِ، ويدفعُ المشقَّةَ عن المجموعِ.

إِنْظارُ المُعْسِرِ يُعينُ على امتِثالِ الجميعِ، ودفعِ المشَقَّةِ عن المجموعِ

دَلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾:

حالُ المُعْسِرِ أصلٌ في فقهِ إنْظارِهِ

الفاءُ في قَولِه: ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ هي فاءُ جَوابِ الشَّرط، و (نَظِرةٌ) خَبرُ مُبْتدأٍ مَحْذوفٍ، أَيْ: فالأَمْرُ أَوْ فالواجِب، أَوْ مُبْتَدأٌ خَبَرُه مَحْذوفٌ، أَيْ: فعَلَيْكُمْ نَظِرَةٌ، أو فاعلٌ بفِعْلٍ مُضْمَر، أَيْ: فتَجِبُ نَظِرَةٌ، والجُمْلَةُ لَفْظُها خَبَرٌ ومَعْناها الأَمْرُ[2].

وَهي من صيغِ الطَّلَبِ المُحْتَمِلَةِ لِلْوُجوبِ والنَّدْبِ؛ فإنْ أُريد بالعُسرة العَدَمُ، أَيْ: نَفادُ مالِه كُلِّه؛ فالطَّلَبُ لِلْوُجوب، وإنْ أُريدَ بالعُسْرَة: ضيقُ الحالِ، وإِضْرارُ المَدين بتَعْجيلِ القَضاءِ؛ فالطَّلَبُ يَحْتَمِلُ الوُجوبَ والنَّدْبَ[3]، وممّا يُقَوي هَذا الطَّلَبَ مَجيءُ الطِّباقِ بَيْنَ لَفْظَتَيْ (عُسْرَةٍ) و (مَيْسَرَةٍ) المُفيد لِتحقُّق وقوعِ الحالَيْن.

قيمةُ التَّعْبيرِ عن إِسْقاطِ الدَّينِ بالصَّدَقَةِ:

أثرُ التَّعبيرِ البليغِ في الحثِّ على التَّسامحِ الاجتماعيِّ

نَدَبَ الشَّرعُ بإسقاطِ الدَّينِ عن المُعسرِ في قَوْله تَعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: أَيْ أَنَّ إِسْقاطَ الدَّيْنِ عن المُعْسِرِ والتَّنْفيسَ عليه بإِغْنائِهِ أَفْضَل، وجَعَلَهُ اللَّهُ صَدَقَةً؛ لِأَنَّ فيهِ تَفْريجَ الكَرْبِ

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/95.
(2) السمين، الدر المصون: 2/645، والآلوسي، روحُ المعاني: 2/53.
(3) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/96.

وإغاثَة المَلْهوفِ[1]، فنَدَبَ اللهُ تَعالى بهَذِهِ الأَلْفاظِ إلى الصَّدَقَة على المُعْسِرِ وجَعَلَ ذلك خَيْرًا من إنْظارِهِ[2]، وفي ذلك بناءٌ لقيمةِ التَّكافلِ بالصَّدقةِ بين أبناءِ المجتمع، والتَّعبيرُ بالصَّدقةِ ألطَفُ من التَّعبيرِ بإسقاطِ الدَّينِ، أو العفوِ عن الحقِّ؛ لأنَّ الصَّدقةَ فيها بناءُ الأجرِ والثَّوابِ، والإحسانُ ابتداءً، أمَّا إسقاطُ الدَّينِ فمُشعِرٌ بالنُّزول عن الحقوقِ، وهو شديدٌ على بعضِ النُّفوسِ.

دلالَةُ حذفِ متعلَّقِ العلمِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

النُّفوسُ تُغريها الوعودُ المُطلقةُ من الكريمِ

حُذف متعلَّقُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ والتَّقديرُ: إنْ كُنْتُمْ تعْلَمونَ أنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ تَصَدُّقتم على مُعْسري غُرَمائِكُمْ بالإبْراءِ من كُلِّ الدَّيْنِ أَوْ بَعْضِه، وفيه تَرْغيبٌ وتَحْريضٌ على الفِعْلِ[3]، إذ حثَّتِ الآيةُ على الصَّدقةِ بالمعلوم المحذوفِ لتذهب النَّفسُ رجاءَ الأجرِ والثَّوابِ كلَّ مذهبٍ، وترجو من اللهِ الرِّضوانَ، ومثلُ هذا الحذفِ يُغري كثيرًا من النُّفوسِ المُشرئبَّةِ إلى الخيرِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اليُسْر والسُّهولَة:

اليُسْرُ توصَفُ بهِ الأَحْوالُ والأَعْمالُ، والسُّهولَةُ أخَصُّ

اليُسْرُ توصَفُ به الأَحْوالُ والأَعْمال، والسُّهولَةُ توصَفُ بها الأَعْمالُ في الغالِبِ، فيُقالُ: نَحْنُ في حالِ يُسْرٍ ولا يُقالُ سَهْل، قال تَعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطّلاق: 4]، ولِذلِكَ يُعَبَّرُ عنه بالسَّعَةِ والغنى والرَّخاءِ، وأَيْسَرَ الرَّجُلُ إذا صارَ ذا سَعَةٍ وغنى، ويُقالُ: سَهُلَ ويَسُرَ عَلَيَّ القيامُ بهَذا العَمَلِ؛ وكَوْنُ السُّهولَةِ مُخْتَصَّةً بالأَعْمالِ لِأَنَّ أَصْلَها مِنَ السَّهْلِ، وهوَ أَرْضٌ مُسْتَوِيَةٌ مُنْبَسِطَةٌ لا يَشقُّ على النّاسِ المرورُ والبِناءُ عَلَيها[4] كَقَوْلِه تَعالى ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/96.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/377.

(3) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/53، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/144.

(4) جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ: (سهل).

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: 74]، ويأتي اليُسْرُ بمَعْنى القِلَّةِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الشَيْءِ القَليلِ أَنْ يَكونَ يَسيرًا تَحْمِلُه، ومنهُ قَوْلُهُ تَعالى ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ١٤﴾ [الأحزاب: 14] أَيْ زَمَنًا قَليلًا، واليُسْرُ ضِدُّهُ العُسْر، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥﴾ [الشَّرح: 5]، وقال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠﴾ [المدثر: 10]، وضِدُّ السُّهولَةِ الصُّعوبَةُ والشِّدَّةُ، وكما أَنَّ السُّهولَةَ في الأَعْمالِ فكَذلِكَ الصُّعوبَةُ[1]. فاليُسْرُ أَوْلَى وأَعَمُّ مِنَ السُّهولَة لِانْدِراجِهِ في الأَحْوالِ والأَعْمالِ.

(1) المُصْطفوي، التّحْقيقُ في كلِماتِ القرآن الكريمِ: 8/126.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: 281]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المَوْعِظَةُ بِمَوْعِدِ اللهِ وجَزائِهِ يَوْمَ القِيامَةِ بَعْدَ تَمامِ الأَوامِرِ والنَّواهي

لَمّا بَيَّنَ اللّه التِزامَ الأُمورِ الشَّرْعيَّة في الإِنْفاقِ، واجْتِنابَ المُعامَلاتِ الرِّبَويَّة، والإِحْسانَ إلى المُعسِرينَ، أَنْهى ذَلكَ إلى المَوْعِظَة بمَوْعود جَزائِه بتَقْوى يَوْمِ الرَّجْعَة، ليَقَعَ الخَتْمُ بأَجْمَلِ مَوْعِظَةٍ وأَشْمَلِها، وليَكونَ انْتِهاءُ الخِطابِ على تَرْهيبِ الأَنْفُسِ لِتَجْتَمعَ عَزائِمُها على ما هو مَلاكُ أَمْرِها، من قَبولِ صَلاحِ دينِها ودُنْياها ومَعادِها؛ فتَرْكُ المَنْهيّاتِ وفِعْلُ المَطْلوباتِ يَرْجِعُ إلى اتِّقاءِ ذلِكَ اليَوْمِ الّذي تُطْلَبُ فيه السّلامَةُ[1]؛ لِذا قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهي آخر آية أنزلت من القرآن على النّبيّ ﷺ، بتسع ليال قبل وفاته على خلاف في العدد، وهي تعقيبٌ حكيمٌ، يتناسب كلّ التّناسب مع جوّ المعاملات، والأخذ والعطاء، حتّى تعمّ الخشية، وتشيع التّقوى، فيبتعد النّاس عن كلّ معاملة لم يأذن بها اللّه جلّ في علاه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: الوِقايَةُ حِفْظُ الشَّيْءِ وصيانَتُهُ ممّا يُؤْذيهِ ويَضُرُّهُ باتِّخاذِ حاجِزٍ دونَه، وأَصْلُ (وقى) يَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بغَيْرِه، ومنهُ التَّقوى؛ وهيَ جَعْلُ النَّفْسِ في وِقايَةٍ ممّا يُخاف، والمَعْنى هنا: اجْعَلوا لَكُمْ وِقايَةً تَقيكُمْ عَذابَ يَوْمٍ شَديدِ الهَوْلِ[3]، وقيل: وَاتَّقُوا أي وخافوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، قُرئَ (بفتح التّاء) أي

(1) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/143، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/97.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/641.
(3) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الرّاغِب، المُفْردات، وابن منظور، لسان العرب، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (وقى)، أبو زهرة، زهرةُ التّفاسيرِ: 1/223.

تصيرون فيه إلى اللّه، وقُرئ (بضم التّاء) وفتح الجيم، أي تردّون فيه إلى اللّه[1].

2) ﴿تُوَفَّىٰ﴾: من أَوْفَى الرَّجُلَ حَقَّهُ ووَفّاهُ إيّاهُ أَيْ: أَكْمَلَه لَهُ وأَعْطاهُ وافيًا، والوافي الذي بَلَغَ التَّمامَ؛ يُقالُ: دِرْهَمٌ وافٍ، وكَيْلٌ وافٍ، وأَوْفَيْتُ الكَيْلَ والوَزْنَ، وأَصْلُ (وفى) يَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام، والتَّوْفية نُموٌّ أَوْ زيادَةٌ، يَبْلُغُ بها الشَّيْءُ تَمام قِوامِه، والمَعْنى هنا: تُعْطَى الجَزاءَ وافيًا[2]، وخلاصة ذلك الاستيفاء، أنّ الكافر يستوفي حَسَنَاتِه في الدُّنْيَا، وَيستوفي سَيِّئَاته في نار الآخرَة، وَأَمَّا الْمُؤْمنُ فيُوَفَّى حَسَنَاتِه في الآخرَة، وَأَمَّا سَيِّئَاتُهُ فَإنَّه يحتمل أن يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، وقد ذَهَبَتْ سَيِّئَاتُهُ بِالْبَلاءِ وَالْعُقُوبَة، أو يَبْقَى عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ شيءٌ، فَيرجعُ أمره إلى اللّه، يفعلُ فِيهِ مَا يَشَاء[3].

3) ﴿كَسَبَتْ﴾: من كَسَبَ الشَّيْءَ يَكْسِبُهُ إذا أَصابَهُ وحَصَّلَه، ومنهُ الكَسْبُ، وهوَ جَمْعُ الشَّيْءِ وتَحْصيلُه، وأَصْلُ (كَسَبَ) يَدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، والمعنى هنا: ما يَتَحَرّاهُ الإنْسان مِمّا فيه اجْتِلابُ نَفْعٍ، وتَحْصيلُ حَظٍّ[4].

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

التّحذير من الرّجعة إلى المصير، حيث تُستوفى الأعمال بدقّةٍ وحُسن تقدير

واحذروا - أيّها النّاس - عذابَ يوم تعودون فيه جميعًا إلى اللّه، وتقومون بين يديه، ثُمّ تُعطى كُلّ نفسٍ جزاء ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، لا يُظلمون بنقص ثواب حسناتهم، ولا بزيادة العقوبة على سيِّئاتهم، قال ابن عبّاس: يريد: يجازون ثواب عملهم، ومعنى أنّهم ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي لا يُنقصون من ثواب أعمالهم شيئًا[5]،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/213.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، جبل، الْمُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ، والرّاغِب، الْمُفْرداتُ: (وفى)، والكفويّ، الكُلّيات، ص: 322، والخضيري، السِّراجُ في بيانِ غريبِ القرآن، ص: 120.
(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/420.
(4) ابْنُ سيده، الْمُحْكم، الرّاغِب، الْمُفْردات، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، جبل، الْمُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (كسب).
(5) النّيسابوري، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 1/515.

فاللّه لا يُضيع أجر من أحسن، ولا يغفلُ سيّئة من أساء، وكلُّ شيْءٍ عندهُ بمقدار.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾:

تصويرُ شِدَّةِ ما في القيامةِ من أهْوالٍ وأحوالٍ

على تقديرِ حذفِ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ يكونُ المعنى: (اتَّقوا العَذابَ يَوْمًا) أو: (اتَّقوا ما فيه مِنَ الحِسابِ والعَذابِ)، وهو على هذا التَّقديرِ مَجازٌ مُرْسَلٌ بذِكْرِ الظَّرْفِ وهوَ المَحَلّ وإرادةِ المَظْروفِ وهوَ الحال، والدّاعي إليه المُبالَغَةُ بأَنَّ شِدَّةَ ما فيهِ بَلَغَتْ مَبْلَغًا بحَيْثُ سَرَتْ إلى الظَّرْفِ فيَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤْمَروا باتِّقاءِ اليَوْمِ، وإنْ كان الاتِّقاءُ من نَفْسِ اليَوْمِ ممّا لا يُمْكِن، لأنَّه آتٍ لا مَحالَةَ، ولا بُدَّ أَنْ يَراهُ أَهْلُ الجَنَّةِ والنّارِ جَميعًا، فعُلِمَ أَنَّ المُمْكِنَ المَقْدورَ اتِّقاءُ الحِسابِ والعَذابِ الواقِعَيْنِ فيهِ بالعَمَلِ الصّالحِ[1].

أثرُ التَّذييلِ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ

جيءَ بقَوْلِه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ تَذْييلًا للأَحْكامِ السّابِقَةِ؛ لأَنَّه صالحٌ للتَّرْهيبِ مِنِ ارْتِكابِ ما نُهيَ عنه والتَّرْغيبِ في فِعْلِ ما أُمِرَ به أَوْ نُدِبَ إليه، لِأَنَّ في تَرْكِ المَنْهيّاتِ سَلامَةً من آثامِها، وفي فِعْلِ المَطْلوباتِ اسْتِكْثارًا من ثَوابِها، والكُلُّ يَرْجِعُ إلى اتِّقاءِ ذَلِكَ اليَوْمِ الذي تُطْلَبُ فيهِ السَّلامَةُ[2].

سرُّ تَنْكيرِ لَفْظَةِ (يَوْمًا) في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾:

المُبالَغةُ في تَفْخيمِ أهوالِ القيامةِ

نُكِّرَ ﴿يَوۡمٗا﴾ لِلتَّفْخيمِ والمُبالَغَةِ في التَّحْذيرِ عَمّا يَقَعُ فيه مِنَ الأَهْوالِ والشَّدائِدِ التي يَشيبُ لَها الوِلْدان، وقَوَّى تَنْكيرَ ﴿يَوۡمٗا﴾ بدَلالَتِه على التَّفْخيمِ والتَّهْويلِ؛ تَعْليقُ الاتقاءِ به مُبالَغَةً في التَّحْذيرِ عمّا فيه مِنَ الشَّدائِدِ والأَهْوالِ[3].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/494، والآلوسي، روحُ المعاني: 1/252، والقونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 3/270، والهرري، حدائِق الرّوْحِ والرَّيْحان: 1/405.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/97.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/415، والآلوسي، روحُ المعاني: 2/53، والهرري، حدائِق الرّوْحِ والرَّيْحان: 4/120.

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

الرُّجوعُ إلى الله حاصِلٌ قسرًا وإرادةً

بُنِيَ فعلُ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لِلمَفْعولِ من الرَّجْعِ المُتَعَدّي[1]، أَيْ: تَصيرونَ فيهِ إلى اللّهِ لِمُحاسَبَةِ أَعْمالِكُمْ، وهي قراءةُ الجمهور، وقرأَ أبو عمرو: ﴿تَرْجِعُونَ﴾[2] مِنَ الرُّجوعِ اللّازِم؛ والأَوَّلُ أَدْخَلُ في التَّهْويلِ[3]، على أَنَّ المُخاطَبَةَ بالتّاءِ في الآيَتَيْنِ تُفيدُ المُبالَغَةَ في الوَعْظِ والتَّحْذيرِ[4].

معنى حرفِ التَّراخي في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾:

احتمالُ التَّراخي لمعنَيَيْه الزَّماني والرُّتْبي

التَّعْبيرُ بِأَداةِ التَّراخي (ثُمَّ) في قَوْلِه: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾؛ للإِشارَةِ إلى طُولِ وُقوفِهِمْ ذَلِكَ المَوْقِفَ في مَقامِ الهَيْبَةِ، وتَمادي حَبْسِهِمْ في مَشْهَدِ الجَلالِ والعَظَمَةِ، فهو تراخٍ زمانيٌّ.

وقد تَكونُ للتَّراخي الرُّتبي الذي هو بِمَعْنى "وَأَعْظَمُ من ذَلِكَ"، ويَكونُ التَّقْديرُ أَنَّ جَزاءَ الكاسِبِ لِلشَّرِّ وعُقوبَتَهُ أَشَدُّ وأَعْظَمُ من بَعْثِهِ بَعْدَ مَوْتِه[5].

فائدةُ التَّعْميمِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾:

توريثُ المهابةِ والحذَرِ من يومِ الجزاءِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ مضافٌ محذوفٌ، والمعنى: تُعطى كُلُّ نَفْسٍ مُكَلَّفَةٍ جَزاءَ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تامًّا وافيًا، أَوْ أَنَّهُ أُقيمَ المَكْسوبُ مَقامَ جَزائِه، وفي تَعْليقِ التَّوْفِيَةِ بكُلِّ مَكْسوبٍ من الدَّلالَةِ على فخامَةِ شَأْنِ اليَوْمِ والمُبالَغَةِ في بَيانِ فظاعَةِ حالِ الكاسِبِ للشَّرِّ كما لا يَخْفى؛ فإنْ كُلَّ كاسِبٍ مَجْزِيًّا بعَمَلِه لا يُنْقَصُ منه شَيْءٌ وإِنْ كان جُرْمُهُ في غايةِ القِلَّةِ والحَقارَةِ[6]، فالتَّعميمُ لِلمُبالَغَةِ في تَهْويلِ اليَوْمِ[7].

---

(1) والرُّجوع، إنْ لمْ يتعدّ، فهو بمعنى: العوْد، وإنْ تعدّى فبمعنى: الإعادةِ. وبعْضُ النّحْويّين يقولُ: إنّها تُضمّنُ معنى صار، ينظر: أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 1/123.

(2) ابْنُ الجزريّ، النّشْرُ: 2/208.

(3) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/53، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيانِ: 1/439.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/378، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/649، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/145.

(5) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 5/473، و للآلوسي تفصيلٌ جميلٌ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: 161] روحُ المعاني: 5/473.

(6) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/323.

(7) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/415.

سرُّ العدولِ عن الإفرادِ إلى الجمعِ في قَوْلِهِ: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

الجمعُ أنسبُ بالجزاءِ، كما أنَّ الإفرادَ أنْسَبُ بالكسْبِ

جُمِع الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، ولم يقُل: (وهي لا تُظلمُ)، أي: النَّفس؛ لأنَّ الجمعَ أَنْسَبُ بحالِ الجَزاءِ كما أَنَّ الإفرادَ أَوْفقُ بحالِ الكَسْبِ[1]، والمعنى: أَنَّ هَؤلاءِ المُحاسَبينَ لَنْ يُظْلَموا عند اللّهِ شَيْئًا ولَوْ كان يَسيرًا.

وقد جَمعَ اللّهُ في هَذِهِ الآيَةِ خُلاصَةَ ما أَنْزَلَهُ في القُرآنِ وجَعَلَها خاتَمَ الوَحْيِ والإنْزالِ، كَما أَنَّهُ جَمعَ خُلاصَةَ ما أَنْزلَ مِنَ الكُتُبِ على الأَنْبياءِ في القرآن وجَعَلَهُ خاتم الكُتُب، كما أَنَّ النَّبيَّ ﷺ خاتَمُ الأَنْبياءِ عليهم السلام؛ وقد جمعَ فيه أَخْلاقَ الأَنْبياء، وفائِدَتُها بالنِّسْبَةِ إلى الإِنْسانِ عائِدَةٌ إلى مَعْنَيَين؛ أَحَدُهُما نَجاتُهُ مِنَ الدَّركاتِ السُّفْلى، وثانيهما فوْزُهُ بالدَّرجاتِ العُلْيا[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجوع والإياب:

الإيابُ هو الرُّجوعُ إلى مُنْتهى المَقْصَدِ، والرُّجوع يَكونُ لِذلِكَ ولِغَيْرِهِ؛ فيُقالُ: رَجَعَ إلى بَعْضِ الطَّريقِ ولا يُقالُ: آبَ إلى بَعْضِ الطَّريقِ ولَكِنْ يُقالُ: رَجَعَ إلى مَنْزِلِه، ولهذا قال أَهْلُ اللُّغَةِ: التَّأْويبُ أَنْ يَمْضيَ الرَّجُلُ في حاجَتِهِ ثُمَّ يَعودَ فيَبِيتَ في مَنْزِلِه[3]، وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ الإيابَ الرّجوعُ إلى مُنْتَهى القَصْدِ، ولِهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كان القيامَةُ مُنْتهى قَصْدِهِمْ، لِأَنَّها لا مَنْزِلَةَ بَعْدَها، ويقول البعض أنّ الإياب هو الرّجوع ذاته، دون التفات إلى الفرق الآنف، قال الشّاعر:

فَأَلْقَتْ عَصاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى *** كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالإيابِ المُسَافِرُ[4]

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/268، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/145.
(2) إسْماعيل حقّي، روحُ البيان: 1/439.
(3) العسْكريّ، الفُروقُ اللُّغوية: ص: 303.
(4) الأخفش الأوسط، معاني القرآن: 1/213.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ
وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا
عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ
وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا
أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ
شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا
ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ
صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ
وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ
فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا
يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ
وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان كيفيَّة حفظِ المـال بالتَّوثيق والإشـــهـــاد، بعد بيان نَمائه بالصَّدقة وتَرْكِ الرِّبا

لَمَّا ذكر الله تعالى في المال ثلاثة أمور تُنْقِصُه ظاهرًا، وتُزكّيه باطنًا، وهي الاقتصارُ في كسبه على الحلال الطيِّب وَحْدَهُ، دون الحرام الخبيث، والصَّدَقَةُ منه، وتركُ الرِّبا فيه؛ نَبَّه على طَريقٍ حَلالٍ في تَنْميةِ المالِ وَزِيادتِه، وَأَكَّدَ في كَيْفِيَّة حِفْظِه فبسَطَ القول في أحكام التَّوثيق وأَمَرَ فيه بالإِشْهادِ[1]. وهذا مَنْظورٌ فيه للمَدِين المُعْسِرِ باعتبار أنَّ المسلمين أُمَّةٌ واحدة، فَتَتَحقَّقُ التَّوسعةُ عليه والارتفاقُ والارتزاق بِنَحْوِ تجارةٍ، فيكون له مالٌ يُؤَدِّي مِنْهُ، وللدَّائن بالاعتبار

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/722، 723، والهرري، تفسيرُ حدائقِ الرّوْحِ والرّيْحانِ: 4/121.

المعنويِّ الإيمانيِّ المنصوصِ عليه، والثَّابتِ بنحو قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التّغابن: 17]، ولمَّا أَمر أيضًا بالإنظار في حالة الإعسار، خَتَمَ تلك الأحكامَ بِالتَّهْدِيدِ والوعيد، في سياق التّذكير بالتّقوى، والتَّقوى تَسُدُّ على الإِنسانِ أَكْثَرَ أَبْوابِ المَكاسِبِ والمَنافِعِ التي يُمْتَنَعُ عنها تَحَرُّزًا وورَعًا؛ أَتْبَعَ ذلكَ بأَنْ نَدَبَهُ إِلى كيْفِيَّةِ حِفظِ المالِ الحلالِ، وصَوْنِهِ عنِ الفَسادِ والبَوَار[1]. وبكلٍّ هذا يَظهر اهتمامُ القرآن بِنظام أحوالِ المسلمين في أموالهم، فابتَدَأ بما به قِوامُ عامَّتِهم من مُواساة الفقير، وإغاثةِ الملهوف، بعد ذِكرِ البرِّ والصِّلةِ للوالديْن والأقربين بالمعروف، ووضَّح ذلك بما فيه عِبْرةٌ للمُعتبِر، ثمَّ عطَف عليه التَّحذيرَ من الرِّبا الّذي فيه استغلالٌ للمحتاجين، ثمَّ ثلَّث ببيان التَّوثيقاتِ الماليَّة من الإشهاد، وما يقومُ مَقامَه حَثًّا عَلى الاحْتِيَاطِ فِي أَمْرِ الأَمْوَالِ، لِكَونِها سَبَبًا لِمَصالِحِ المَعاشِ وَالمَعادِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾: الدَّيْن: القَرْض، يُقال: دِنْتُ الرَّجلَ: أقرضْتُه واستقرضْتُ منه، وأَدَنْتُهُ: جعلتُه دائنًا، ورجلٌ مَدِينٌ ومَدْيونٌ، وأَصلُ الدَّيْن الجَزاءُ مِنَ الدَّيْنُونَةِ؛ فالدَّيْنُ هو حَقٌّ للغير يلزم ذِمَّةً، ومعنى تداينْتُم: تَعَامَلْتُمْ بِالدُّيُونِ ودَايَنَ بعضُكم بَعْضًا[3]، وقال ابن السّكّيت وغيره يستعمل لازما: دان الرّجل إذا استقرض، فهو دائن، وقال جماعة يستعمل لازما ومتعدّيا، فيقال دنته إذا أقرضته، فهو مدين ومديون، واسم الفاعل دائن، فيكون الدّائن من يأخذ الدّين على اللّزوم، ومن يعطيه على التّعدّي، وقال ابن القطّاع أيضا دنته أقرضته، ودنته استقرضت منه[4].

2) ﴿أَجَلٍ﴾: الأَجَلُ المُدَّة المضروبةُ للشَّيء، وغايةُ الوقتِ المحدَّدةُ، يُقال: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلْتُهُ: جَعلْتُ له أَجَلًا، وأَصْلُ الأَجَلِ غَايةُ الوَقتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، ويُقال للمُدَّة المضروبةِ لحياة الإنسان أَجَلًا، فيُقال: دَنا أَجَلُهُ؛ عبارةٌ عن دُنوِّ الموت، والمعنى هنا: غَايَةُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/89.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/89، وابْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/97.

(3) ابْنُ سيده، المُخصّص: 5/228، والخضيري، السِّراجُ في بيانِ غريبِ القُرْآن، ص: 20، والرّاغِب، المُفْردات، وجبل، المُعْجمُ الإشْتِقاقيُّ المُؤَصّل: (دين).

(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (دين).

الوَقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ[1]، والأجل وقت يُحدَّد لانتهاء الشّيء، قال علي بن أبي طالب ﷺ: "الأجلُ محتُومٌ، والرّزق مقسُومٌ"، وقال السُّهْرَوَرْدِيُّ المقتول:

والمَرْءُ يَفْرَحُ بالأَيَّامِ يَقْطَعُهَا *** وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الأَجَلِ[2]

3) ﴿بِٱلْعَدْلِۚ﴾: العَدْلُ الاسْتقَامَة، والحُكْمُ بالحقّ، وهو ضِدُّ الجَوْرِ والظُّلم، وأصل عَدَلَ يَدُلُّ على اسْتِواءٍ، والعَدْلُ من النَّاس المَرْضيُّ قولُه وحُكْمُه، يُقالُ فلانٌ عَدْلٌ، وهُمْ عُدولٌ، والمعنى هُنا: ما قامَ في النُّفوس أَنَّه مُسْتَقِيمٌ وحقٌّ لا زِيادةَ فيه ولا نُقْصانَ[3]، وقد صار العدلُ المطلقُ الّذي لا هوى يعروه، ولا ظلم يحتوشه، صفةً للّه تعالى دُون سواه، قال الشّاعر الأعشى:

اسْتَأْثَرَ اللّه بِالْوَفَاءِ وَبِالْـ***عَدْلِ، وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلَا[4]

4) ﴿وَلَا يَأۡبَ﴾: لا يَمتنعْ؛ يُقال: أَبَيْتُ الشَّيْءَ أَآْبَاهُ، وَقَوْمٌ أَبيُّونَ وَأُبَاةٌ، وأَصْلُ (أَبَيَ) يَدُلُّ على الامْتِناعِ. والإِباءُ: شِدَّةُ الامتِناعِ عن الشَّيءِ امتناعًا تامًّا كراهةً له[5]، والمعنى "ولا يأبينّ كاتبٌ استكتب ذلك، أن يكتب بينهم كتاب الدّين، كما علّمه اللّه كتابته، فخصّه بعلم ذلك، وحرمه كثيرا من خلقه"[6]، وزكاة العلم إنفاقه في تعليمه، وعدم التّأبّي على نفع من أراده، تلقينًا وتعليمًا، وكتابة وتصنيفًا، وهو ما قصده الشّارع من نهي الكاتب عن رفض الكتابة والتّأبّي عليها.

5) ﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾: أي يَنْطِقْ ويُقِرَّ بما عليه؛ يُقال: أَمْلَلْتُ عليه الكتابَ؛ أي: أَمْلَيْتُ عليه شَيْئًا يكتبُه، وأَصْلُ (مَلَّ) يدُلُّ عَلَى غَرَضٍ مِنَ الشَّيْءِ، وأَمَلَّ الشَّيءَ: قاله فكُتِبَ[7]، فليكتب الكاتب، ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، وهو الغريم المدينُ، وقد شاءت حكمة اللّه، أن يتولّى

(1) الرّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعجمُ الاِشتِقاقيُّ المُؤصّل: (أجل).

(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أجل).

(3) الخليل، لعين، والأزهريّ، تهذيبُ اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (عدل)، والمصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/60.

(4) ابن منظور، لسان العرب: 4/08.

(5) الرّاغِب، المُفردات، والزّبيديّ، تاجُ العروس، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، وجبل، المُعجمُ الاِشتِقاقيُّ المُؤصّل: (أبى).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/51.

(7) الأزهريّ، تهذيبُ اللُّغة، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (ملل)، وجبل المُعجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (ملل -ململ)، والخضيري، السِّراج، ص: 21.

المَدين إملالَ كتاب ما عليه من دين ربّ المال، على الكاتب،، شريطة التزام المُملي بتقوى اللّه، حتّى تكون الحُقوق مصونة للطّرفين.

6) ﴿يَبْخَسْ﴾: يَنقُصَ، يُقال بَخَسَ الكيلَ والميزانَ: نقصَه، وثَمَنٌ بَخْسٌ: طفيفٌ ناقصٌ دونَ ما يَجِبُ، وأصْلُ البخس نَقْصٌ في الأثناء، والمعنى هنا: نَقْصُ الشَّيءِ على سبيل الظُّلم[1]، يقال: بخسه حقّه، وبخسه إذا أنقصه، ونظائرها في القرآن كثيرة، وحتّى لا يكون هناك بخسٌ، أمر اللّه المملي أن لا ينقص شيئًا من حقوق الطّرف الآخر، وألزمه بضبط النّفس عن التّزييف، ومنع القلم من التّحريف.

7) ﴿سَفِيهًا﴾: السَّفَهُ الجَهْلُ، وخِفَّة العقل، والسَّفَهُ والسَّفاهُ والسَّفاهةُ نقيضُ الحِلْم، يُقال سَفِهَ الرَّجلُ نَفْسَه، إذا حَمَلَها على أمرٍ خطأ، وأصلُ سَفِهَ يَدُلُّ عَلَى خِفَّةٍ وَسَخَافَةٍ، والسَّفيه: الجَاهِل والضَّعيف الأحمق ويُطْلَقُ على المرأة والصَّبيِّ لِضَعْفِ تصرُّفِهما والمعنى هُنا: ﴿سَفِيهًا﴾ أَي: جاهلًا بالأمور والإملاء[2]، وَقَالَ الزّجاج: هُوَ خَفِيف الْعقل، ويشتمل هَذَا على: الْمَرْأَة، وَالصَّغِير وَنَحْوه، وَمذهب الشَّافِعِي: أَنّه المبذّر الْمُفسد لمَاله[3]، وقيل: "السّفيه المهلل الرّأي في المال الّذي لا يحسن الأخذ لنفسه، ولا الإعطاء منها، مشبّه بالثّوب السّفيه، وهو الخفيف النّسج، والسّفه الخفّة . . وهذه الصّفة في الشّريعة، لا تخلو من حجر أب أو وصي"، ومنع السّفيه من مزاولة الإملاء لكتابة العقد، حتّى لا يضيع حقّه، بما يجنيه عليه سفهه[4].

8) ﴿ضَعِيفًا﴾: الضَّعْفُ: ضِدُّ الْقُوَّةِ، ويَكونُ في الْبَدَنِ وَالرَّأْيِ، والضَّعْفُ في الرَّأْيِ الحُمْقُ، وأَصْلُ الضَّعْفِ يَدُلُّ على خِلَافِ الْقُوَّةِ، وضَعْفُ الإِنْسانِ كَثْرةُ حاجاتِهِ الّتي يَسْتَغْني عَنْهَا المَلأُ الأَعْلى، والضّعيفُ الذي يَسْتَمِيلُه هَواهُ؛ ومعنى الضَّعيف هُنا الأحمقُ[5]، والضّعيف هو المدخول في عقله، النّاقص الفطرة، وهذا أيضا قد يكون وليّه أبا أو وصيّا[6].

---

(1) الرّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصّل: (بخس)، ابْنُ الهائِم، التِّبيانُ في تفْسيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 117، والخضيري، السّراج، ص: 21.

(2) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (سفه)، وابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآن، ص: 120، والسِّجِسْتانّي، غريبُ القُرْآن، ص: 273، وغلام ثعلب، ياقوتة الصِّراط، ص: 183، وابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 51.

(3) السّمعانّي، تفسير القرآن، ص: 1/284.

(4) ابن عطيّة: المحرر الوجيز: 1/284.

(5) الخليل: (الخاء والقاف -خزرق-)، والرّاغِب، المُفردات، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، مادّة: (ضعف)، والسِّجِسْتانّي، غريبُ القُرْآن، ص: 273.

(6) ابن عطيّة: المحرّر الوجيز: 1/380.

9) ﴿أَن تَضِلَّ﴾: أي: أن تنسى، وضلَّ الشَّيءُ: خَفِيَ وغابَ، وأصلُ الضَّلال ضَيَاعُ الشَّيْءِ وَذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ، والضَّلالُ أيضًا العُدولُ عَن الطَّريقِ المُسْتَقِيم، ومعانيه كُثُرٌ، وبعضُها محمُود، وبعضُها لا يُحمد ولا يُذمُّ، ومنها ما هو جِبلِّيّ فِطْرِيّ، ومنه ما هاهنا؛ فإنّ النِّسيان من خصائص البشريّة، ولا يَسلم منه أحدٌ، والمعنى هُنا: أن تَنْسى إحداهما الشَّهادةَ فَتُذَكِّرها الأُخرى[1].

10) ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: لا تَمَلُّوا، وأصْلُ السَّآمة المَلَالَةُ والضَّجَر ممَّا يَكْثُرُ لُبْثُه، وحقيقتُها عدمُ الصَّبر على استمرار أَمْرٍ[2]، ومنه قول لبيد:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا *** وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ: كَيْفَ لَبِيدُ؟![3]

ومعنى هذا اللّفظ في الآية، أي لا تملّواْ أو تضجرواْ من كتابة الدَّيْنِ، سواء كان صغيرا أو كبيرا، بتبيان ثُبُوته في الذّمة إلى أجله المسمّى[4].

11) ﴿أَقْسَطُ﴾: أَصَحُّ وأَعدَلُ، وأصلُ القِسْطِ العدلُ، والقِسْطُ هو النَّصيب بالعدل، فمعنى ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أَعْدَلُ عنده[5]، والمعنى في سياق الآية، أعدل عند الله وأقوم، وأقسط الحاكم، إذا عدل في حكمه، وأصاب الحقّ فيه، فإذا جار قيل: قَسَط، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجن: 15]، ويعني بلفظ ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾: الجائرون المائلون عن الحقّ[6].

12) ﴿أَقْوَمُ﴾: أَعْدَلُ وأَفْضَلُ استقامةً، وهمزة (أَقومُ) تدُلُّ على أنّه أَدخلُ في وصف القَوام، فهو أَطولُ فيه، ثمَّ ذُكر لمن له هِمَّةٌ واعتناء في القيام بالشّيء أو عليه، حتّى قيل: ذُو قِوامة، يُقال: فُلَانٌ أَقْوَمُ كَلَامًا مِنْ فُلَانٍ؛ أَي أَعدَلُ كَلَامًا، وقوَّمْتُ الشَّيءَ تقويما فهو

(1) ابنُ قُتيبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 99، وغلام ثعلب، ياقوتة الصِّراط، ص: 184، وابنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفسيرِ غريبِ القُرْآنِ، ص: ص: 117، والرّاغِب، المُفردات، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ مادة: (ضلّ)، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (ضلل)، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصّل: (ضلل -ضلضل).

(2) الرّاغِب، المُفردات، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصّل: (سأم)، وابنُ قُتيبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 99، والسِّجِسْتانّي، غريبُ القُرْآنِ، ص: 1/135.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/102.

(4) رضا، تفسير المنار: 3/104.

(5) الرّاغِب، المُفردات، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ مادة: (قسط)، وابنُ قُتيبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 348، وابنُ الهائِم، التِّبْيانُ، ص: 117، 265.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/77.

قَويمٌ؛ أي مُستَقيمٌ، والمعنى هُنا: أَعْظَمُ عَوْنًا عَلى إِقامَةِ الشَّهَادَةِ وأَثْبَتُ لها، وأكثرُ تقريرًا، وأَنْهَضُ بالحقِّ، وأنْحى للخِلافِ الّذي يُعَرِّج المسالك بأصحابه؛ لأنَّ الكِتابة لا تُنْسَى(1).

13) ﴿وَأَدۡنَىٰٓ﴾: أَقْرَبُ، يُقال دَنَا مِنْهُ وَدَنَا إِلَيْهِ يَدْنُو دُنُوًّا: قَرُبَ فَهُوَ دَانٍ، وأصلُ الدُّنُوِّ المُقَارَبَةُ، والدُّنُوُّ: القُرْبُ بالذَّات أو بالحُكم، ويُستعمَل في المكان والزَّمان والمنزلة(2).

14) ﴿تَرۡتَابُوٓاْ﴾: تَشُكُّوا؛ مِنْ رَابَ يَرِيبُ إِذَا وَقَعَ فِي الشَّكِّ، وأصلُ الرَّيْبِ: الشَّكُّ والخَوْفُ، ورَابَنِي الشَّيْءُ وأَرَابَنِي بمَعْنَى شَكَّكَنِي وأَوْهَمَني الرِّيبَةَ بِه، والمعنى هنا: أقربُ أن لا تَشُكُّوا(3)، وفي هذا الاحتياط الدّقيق، كان الأمر بتوثيق الدَّيْن . . ليس حماية لمال الدّائن فحسب، بل أيضا حماية للمدين نفسه، "لأنّه حين يعلم أنّ الدّيْن مُوثّق عليه، ومكتوب عليه، فلن ينكره، لكن لو لم يكن مكتوبا، فقد تُحدّثه نفسه أن ينكره، إذن فالحقّ يحمي الدّائن والمدين من نفسه"(4).

15) ﴿تِجَٰرَةً﴾: التِّجارةُ التَّصرُّف في رأس المال طَلَبًا للرِّبح، يقال: تَجِرَ يَتْجَرُ فهو تَاجِرٌ؛ بَاعَ وَشَرَى، وجَمعُ تاجِرٍ تِجَارٌ وتُجَّارٌ وتَجْرٌ وتُجُرٌ، فالتِّجَارَةُ: تَقْلِيبُ المالِ لِغَرَضِ الرِّبْحِ(5).

16) ﴿حَاضِرَةً﴾: من الحُضور، وهو الحالة المتحصِّلة المستقرّة بعد القدوم إلى شيء، يقال، حَضَرَ يَحْضُرُ حُضُورًا، وأصل حَضَرَ إيرادُ الشَّيْءِ ووُرُودُهُ ومُشَاهَدَتُهُ، والحَاضِرُ: المُقِيم في المُدُن والقُرَى، ومعنى ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾؛ أي: نَقْدًا يَدًا بِيَدٍ(6)، ومعنى هذا اللّفظ في الآية، أنّه استثنى ممّا نهاهم عن ترك كتابته صغيرا كان أو كبيرا، ما بيع بالنّقود الحاضرة، يدا بيد، فرخّص لهم في ترك اكتتاب الكتب بذلك؛ لأنّ كلّ واحد من الباعة والمشترين، يقبض نقدا، ما وجب له قِبَلَ مبايعيه قبل المفارقة، لذلك فهم بالتّجارة الحاضرة، في غنًى عن التّوثيق، فلا حاجة إلى الاكتتاب، وقد تقابضوا الواجب لهم عليهم(7).

---

(1) الجوْهريّ، الصّحاح، ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قوم)، والخضيري، السِّراج، ص: 21.

(2) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (دنى)، ابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 77.

(3) ابْنُ قُتَيْبة، غريبُ القُرْآن، ص: 99، والسِّجِسْتانّي، غريبُ القُرْآن، ص: 136، اوبْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزَّبيديّ، تاجُ العروسِ: (ريب).

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4/2088.

(5) الرّاغِب، المُفْردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، وابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصّل: (تجر).

(6) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ عبّاد، المُحيطُ في اللُّغة، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والكِجْراتّي، مجْمعُ بِحارِ الأنْوار، وابْنُ الأثِيرِ الشّيْبانّي، النِّهايةُ: (حضر)، والمصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/240.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 5/105.

17) ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾: تَتبايَعونها، أو تَتَداولُونها وتَتَعاطَونها من غير تأجيلٍ، فالبائع يُعْطِي البِضاعَةَ والمُشْتَرِي يُعْطي النُّقود، وأصْل الدَّوَران: إحداقُ الشَّيء بالشَّيء مِن حَواليْه[1].، ومعنى تديرونها بينكم، أنّها بيع اليد باليد، فلا جناح عَلَى طرفيها أن لا يكتبوها، ولكن أمروا بالإشهاد عليها إِذَا تبايعوا بِهَا، فكان أمر اللّه بالبيع الحاضر أن يشهد عَلَيْه، مَا كَانَ من قليل أَوْ كثير[2].

18) ﴿جُنَاحٌ﴾: أي إثْم؛ من جَنَحَ يَجْنَحُ ويَجْنِحُ جُنوحًا، وأصل جَنَحَ يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ، وسُمِّيَ الإثْم جُناحًا لِمَيْلِه عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ، والمعنى هُنا: فلا حَرَجَ عليكم أن لا تَكتبوها[3].

19) ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾: لا يُوقِعْ ضَرَرًا أو يُوقَعْ عليه ضَرَرٌ، والضَّرر ضِدّ النَّفْع، والضَّرَرُ: النُّقصان يَدخُلُ على الشَّيء، تقول: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله، وكُلُّ ما كانَ من سُوءِ حال وفَقْرٍ أو شِدّةٍ[4]، عن قتادة: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: 282] قال: "لا يضار كاتب فيكتب ما لم يملل، ولا شهيد فيشهد بما لم يستشهد[5].

20) ﴿فُسُوقٌ﴾: عِصْيان؛ من فَسَق يَفسُقُ فِسقًا وفُسُوقًا، وأصله الخُروج، وعبَّر به عن تجاوُز الحدّ، ثم أُطْلِقَ على كلِّ عِصيان، والفِسْقُ: التَّرك لأمر اللّه والمَيلُ إلى المعصية و﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 40]؛ أَي: جَارَ وَمَالَ عَنْ طَاعَتِهِ؛ والفاسق: الخارج عن الحقِّ، ومعنى ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾: عِصيانٌ وخُروج من الطّاعة إلى المعصية[6]، ويؤوّل الفسوق على ثلاثة معانٍ، أوّلها المعصية، وثانيها الكذب، وثالثها المأثم[7]، وجميعها لا ينفكّ عن معنى الفسوق، فيما يعرف من أخلاق النّاس وطباعهم.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمر اللّه المؤمنين، إذا تعاملوا بالدَّيْنِ، أن يكتبوه؛ حِفْظًا للمال ودَفْعًا للنِّزاع، ولْيَكُنْ كاتبُهُ

(1) الرّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (دور)، ابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 99.
(2) النيسابوريّ، كتاب تفسير القرآن: 1/84.
(3) الجوْهريّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (جنح)، ابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 66، وابن جرير، جامع البيان: 6/79.
(4) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (ضرر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/112.
(6) ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (فسق)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 117.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/358.

الأمر بحفظ المال بالتَّوثيق والإشهاد، حِفْظًا للحقوق وحَسْمًا للنِّزاع

عدْلا، غير ممتنع من الكتابة، ولْيُمل المَدِينُ على الكاتب دينه؛ من غير زيادة فيه ولا نقص، فإن كان المَدِينُ جاهلًا، أو محجورًا عليه، أو مجنونًا، أو لا يستطيعُ الإملاء لمانع ما؛ فَلْيَتَوَلَّ الإملاءَ عن المَدِين الوصيّ أو الكفيل، ويُطلبُ للشّهادةَ شاهدان عَدْلَان، فإن لم يوجد رجلان، فرَجُلٌ وامرأتان، مَرْضِيَّتا الدِّين والخُلق، لتذكّرا بعضهما حالة النّسيان، ويأمر الله الشُّهود أن لا يكتموا الشّهادة، وأن يوثّقوا الدَّين مهما قلّ، فذلك أقسط عند الله، وأنأى عن التّصادم والشّنآن، إلّا إذا كان التَّعاقدُ على تجارة مسلّمة يدًا بيدٍ، حيث تُعطى السّلعة للشّاري، ويُقبضُ الثّمنُ من البائع، فلا حرجَ في ترك الكتابة آنئذٍ، لعدم الحاجة إليها، مع البعد عن الإضرار بالكُتّابِ والشُّهود، أو إضرار هؤلاء بالنّاس في عملهم المعهود، لأنّ في ذلك معصيّة للّه، والمطلوب طاعته ورضاه، وهو العليم بما يصلح للبشر، وما يحفظهم من كلّ سوء أو ضرر[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ نِداءِ المؤمنين وغرضُه في أمرِ المُدَاينةِ:

تنبيهُ المؤمنين وتنشيطُهم لِلامتثالِ، وتطمينُ الدَّائنين لِيَأْمَنوا على أموالِهم

الخِطابُ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مُوَجَّهٌ لِلمُؤْمنِينَ؛ أَيْ: لِمَجْمُوعِهِمْ، والمَقْصُودُ مِنهُ خُصُوصُ المُتداينِينَ، والأَخَصُّ بالخِطابِ هُوَ المَدِينُ؛ لِأَنَّ مِن الواجب عليه أَنْ يَجْعَلَ دائِنَهُ مُطْمَئِنَّ البالِ على مالِه[2].

وفي هذا النِّداء تدليلٌ على عُلُوِّ مكانَةِ المُنادى وسُمُوِّ مَنْزِلَتِه؛ وتَنْشيطٌ لأهل الإيمان وحثٌّ لهم على مراعاة ما يعقُبُهُ من الأمر[3]؛ مع ما في هذا النِّداء من تربية المَهابة، وإيقاظِ ضمائرِ المؤمنين لِصيانة الحقوقِ وأدائِها لذَوِيها، وإعلانِ المجتمع مسؤُوليَّته بِأَجْمَعِهِ

(1) لجنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 68، ونُخْبةٌ مِنْ أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّر، ص: 48، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 48، (بتصرّف).

(2) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/98.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/179.

عن حفظ حقوقِ أفرادِه من خلال تعظيم حُرمة المال، وأنَّه لا يَحِلُّ مالُ امرئ مسلم إلا بِطِيبِ نفسٍ منه أو سببٍ شرعيٍّ يقتضيه.

ولأجل هذه المعاني الجليلةِ حُذِفَ مُتَعَلَّق الإيمانِ[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ ليعُمَّ وصفُهم بالإيمان كُلَّ إيمانٍ يدفعُهم لامتثالِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهي، وكَفى به وَصْفًا يدلُّ على القَدْرِ الجليل، والخُلُقِ الجميل.

فائدةُ إيثارِ صِيغة المُفاعَلة في لفظ ﴿تَدَايَنتُم﴾:

تفعيلُ قيمةِ الحبِّ بينَ المؤمنين في حرصِ بعضِهم على مصلحةِ بَعْضٍ

معنى قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾: إذا تعاملْتم بدَين مُؤَجَّلٍ فاكتبوه؛ لأنَّ معنى داينْتُ الرَّجلَ عاملتُه بِدَيْنٍ مُعْطِيًا أو آخِذًا، كما تقول: بايعْتُه إذا بِعْتَهُ أو باعَكَ[2].

فالمُطالبة بالكتابة مُوَجَّهة إلى الطَّرفين معًا الدَّائنِ والمَدِين؛ مع أنَّ الذي يتولَّاها هو المَدِينُ، والتَّدايُنُ يَشْمَلُ الفريقَيْن الدَّائنَ والمَدِينَ، فكلاهما مُتَدايِنٌ؛ ذاك بالعطاء وهذا بالأخذ، وهي تختلف عن التَّعبير باسْتَدَنْتم؛ فإنَّها تُطلَق على المَدِينين فقط، والتَّعبير بأَدَنْتُم الذي يُطْلَقُ على الدَّائنينَ؛ لذا كان التَّعبيرُ بصيغة المُفاعَلة التي تدلُّ على المشاركة من الطَّرفين هو الأنسبَ بالمقام[3].

وقد جيءَ بصيغة المُفاعَلَةِ الدَّالَّةِ على المشارَكة لِيُنْزِلَ كلُّ واحدٍ من المُتَدَايِنَيْن أخاه منه مَنْزِلَةَ نفسِه، فيُحِبُّ له ما يُحِبُّ لنفسه من الخير، فالمَدِينُ يَحرِص على الوفاء والأداء والعِرْفانِ للدَّائن وشُكْرِه على معروفه وحِفْظِ ما أسلفَ له، والدَّائنُ يَرِقُّ لِلمَدين فَيُسارع إلى إمْهاله، ويحرِصُ على أَنْ يَضَعَ عنه ما استطاع، وأن يُنْظِرَهُ إنْ عَجَزَ، ولِتَحقيقِ المُساواة بين جميع أطْرَافِ هذه المعاملة فلا مِيزَةَ للدَّائن؛ لأنَّه أَعطى عَنْ سَعَةٍ، ولا غَضاضَةَ على المَدِينِ لأنَّه أَخذ عن حاجة، ولا مَعَرَّةَ ولا نَقيصةَ في ذلك على أيٍّ من المُسْتَجيبين للنِّداء الإلهيِّ.

(1) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/747-748.

(2) الزّمَخْشريّ، الكشّاف: 1/324، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/164، وأبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/721.

(3) أبو زهرة، زهْرةُ التّفاسير: 2/1065.

النِّكاتُ البيانيَّةُ المُستنبطةُ من ذكرِ قَيْدِ: ﴿بِدَيْنٍ﴾ بعد قولِه: ﴿تَدَايَنتُم﴾:

تأكيدُ خُصوصيَّةِ كتابةِ الدَّين وأنَّه هو الباعثُ عليها

قَيْدُ ﴿بِدَيْنٍ﴾ إِطْنابٌ في الظَّاهِرِ، إيجازٌ عند التدقيقِ، ولهذا القيدِ نكاتٌ بيانيَّةٌ:

الأُولى: التَّأكيد؛ كمَا يَقُولُ القائل رأَيْتُهُ بِعَيْنِي ولَمَسْتُهُ بِيَدِي[1]، فذُكِرَ الدَّيْنُ بعدَ ما يُغني عنه من المُدايَنة لِقَصْدِ التَّأكيد، وأنَّ الدَّين هو الباعثُ على الكَتْبِ[2]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38][3].

الثَّانية: ذُكِرَ لفظُ ﴿بِدَيْنٍ﴾؛ ليَرجعَ الضَّميرُ إليه في قوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ﴾؛ إذ لو لم يُذْكَرْ لَوَجَبَ أن يُقال: فاكتبوا الدَّين، فلم يكن النَّظمُ بذلك الحُسْنِ[4]، عند ذوي الذَّوْق العارف بأساليب الكلام[5]، وما جاءَ عليه النَّظم هو الموافقُ للبلاغةِ العاليةِ، إذ لو قالَ: (فاكتبوا الدَّينَ) لكانَ تطويلًا، بينما في قولِه: ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ﴾ إيجازٌ، وذكرٌ للدَّينِ مرَّتين؛ إحداهما ظاهرًا، باعتبارِه سببًا، والثَّانية مُضمرًا؛ ليقعَ عليه الأمرُ.

تنميةُ المسؤوليَّةِ الأخلاقيَّةِ تجاه أصحابِ الحقوقِ

الثَّالثة: قولُهُ تعالى: ﴿بِدَيْنٍ﴾ يُشعِرُ بالمسؤوليَّةِ الأخلاقيّة تجاه الدَّائنِ، فهو صاحبُ المالِ، والمداينةُ كانت بسببِ هذا الدَّينِ الذي حصلَ عليه المدينُ، فكأنَّ الآيةَ تُلوِّحُ بأنَّ ما عليه المدينون هو بسببِ الدَّين؛ فلينتبهوا عند الاستدانةِ في تبييتِ نيَّةِ السَّداد، وعند الأخذ بالكتابةِ الحافظةِ للحقوق، والكتابةُ برهانُ السَّداد.

دَفْعُ تَوَهُّمِ الاشتراكِ والمَجازِ

الرَّابعة: قوْلُهُ: ﴿بِدَيْنٍ﴾ يدفعُ توهُّمَ المَجَازِ؛ لأنه يُمكِنُ أَنْ يُظَنَّ اسْتِعْمالُ التَّدايُنِ مَجازًا في الوَعْدِ كقَوْلِ رُؤْبَةَ:

---

(1) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/98، وأبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/723.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/269.
(3) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/146.
(4) الزّمخْشريّ، الكشّافِ: 1/325، اوبْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/98، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/146.
(5) الألوسّي، روحُ المعاني: 2/54.

دَايَنْتُ أَرْوَى وَالدُّيُونُ تُقْضَى *** فَمَطَلَتْ بَعْضًا وَأَدَّتْ بَعْضَا[1]

ولِتَخْليص الاشتراكِ ودَفعِ الإيهام نَصًّا؛ لأنَّ ﴿تَدَايَنتُم﴾ يجيء بمعنى تعاملْتم بدَين، وبمعنى تجازيْتم، ولا يَرِدُ عليه أنَّ السِّياق يدفعُه لأنَّ الكلام في النُّصوصيَّة على أنَّ السِّياق قد لا يتنبَّه له إلّا الفَطِنُ[2].

فلمَّا كان المُراد في الآية الكريمة تبيينَ الدَّينِ الماليِّ الذي يُكتَب ويُشهَد عليه وفيه، وتَبْيِينُ الأحكامِ المعلَّقة به، وما ينبغي أن يُعمل فيه، كان من حقِّ البلاغةِ ذِكْرُ قيدِ: ﴿بِدَيْنٍ﴾، ومعناه: يُكتَبُ ويُشْهَدُ فيه؛ ليقول: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾[3].

ملحظُ التَّدَرُّجِ في خطابِ المُتعبِّدين لإقامةِ الأحكامِ

جاءَ النَّظم الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ بنَقْلِ المُخاطبين تدريجيًّا إلى مَهْيَع النِّظام ومُشرِّع الأحكام، فقولُه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ جُمْلَةُ الشَّرط، وقولُه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قيْدٌ، وقولُه: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ جوابُ الشَّرط، وهذا التَّرفُّق بهم في التَّنَقُّل حتَّى يَدخلوا جميعًا في دين اللّٰه فيمتثلوا أمرَه.

فائدةُ التَّنكير في قوله: ﴿بِدَيۡنٍ﴾:

إفادةُ العُمومِ من جميعِ الوجوهِ والصِّفاتِ والذَّواتِ

جِيءَ بلفظِ الدَّين نكرةً في سِياق الشَّرط ليُفيد العمومَ[4]؛ وفي هذا التَّنكيرِ المفيدِ للعموم مجموعةٌ من الفوائدِ البيانيَّة:

أوَّلًا: التَّنكيرُ المفيدُ للعموم أَبْيَنُ لتنويع الدَّين إلى مُؤَجَّلٍ وحالٍّ[5]، وليَدُلَّ عَلَى أيِّ دَيْنٍ كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وعلى أيِّ وجْهٍ كان من سَلَمٍ أو بَيْعٍ[6].

(1) البيت لرُؤْبةُ بن العجّاج، ديوان رؤبة، ص: 89.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/54، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.
(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 563.
(4) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/329.
(5) الزّمخشريّ، تفْسيرُ الكشّافِ: 1/325، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيلِ: 1/164.
(6) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/723، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/651.

ثانيًا: دلَّ التَّنكيرُ على أنَّ قليلَ الدَّينِ وكثيرَه سواءٌ في الأمر بكَتْبِه وامتثالِ ما شرعته الآية من أحكام بِخُصوصِه، وأنَّ المسؤوليَّة عليه أمامَ اللّه ثَوَابًا وعِقابًا صادقةٌ في قليله وكثيره، فأدنى ما يُسَمَّى دَيْنًا تتعلَّقُ به المسؤوليّةُ، ويُوصَفُ أداؤُه بالأمانة، ومَطْلُه ظُلْمٌ وخيانة.

ثالثًا: في التَّنْكير إشارةٌ إلى العموم في المُتَدَايِنِينَ أيضًا؛ كأنْ يكون المَدِينُ وجيهًا ذا نَسَبٍ، أو رفيعًا ذا حَسَبٍ، أو ذا جاهٍ أو مكانةٍ اجتماعيَّة تَجعل توثيقَ الدَّيْن عليه شاقًّا، لا تُقْبِلُ عليه نفسُه، ولا يُطَاوِعُهُ عليه طبعُه وإِلْفُه، فكان التَّعميم في الدَّيْن تَعْميمًا في الدَّائنينَ، يُنْزِلُ النَّاسَ منازلَهم، ويَعْرِفُ لهم أقدارَهم، ويحفظ ماءَ وجوههم، دون أن يستثني من تشريعه الحكيم أحدًا؛ لأنَّ البشر جميعًا متساوون أمامَه في كلِّ شيء.

بلاغةُ النَّظمِ التَّشريعيِّ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾:

إدماجُ تشريعِ التَّأجيلِ في أثناءِ تشريعِ التَّسجيلِ دفعًا للخُصومات

في قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ طَلَبُ تَعْيِينِ الآجَالِ للدُّيُونِ لِئَلَّا يَقَعَ المتداينونَ في الخُصُومَاتِ والتَّدَاعِي في المُرادات، فأُدْمِجَ[1] تشريعُ التَّأْجيلِ في أَثْنَاءِ تشريعِ التَّسجيلِ، والأَجَلُ مُدَّةٌ منَ الزَّمانِ مَحْدُودَةُ النِّهايةِ، مَجْعُولَةٌ ظَرْفًا لِعَمَلٍ غيرِ مطلوب فيهِ المُبَادَرَةُ، لِرَغبةِ تَمامِ ذلك العَمَلِ عندَ انْتِهاءِ تلك المُدَّةِ أو في أَثنائِها[2].

وليُعلَمَ أنَّ من حقِّ الأجل أن يكون معلومًا كالتَّوقيت بالأيّام أو الأشهر ونظائرِهما ممّا يُفيد العِلمَ ويرْفَعُ الجَهالة، ولو قال: إلى الحصاد أو الدِّياس أو رجوع الحاجِّ لم يجُز[3]؛ لأنَّه لا يَرفع الجَهالة لعدم التَّسمية[4].

غرضُ تأكيدِ تعيينِ الآجالِ ضرورةٌ تحفظُ الحقوقَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ على سبيلِ التَّأكيدِ بطريق إيجازِ الحذفِ إذ التَّقديرُ: كائن إلى أجل، ومع أنَّ الدَّين لا يكونُ إلّا مُؤَجَّلًا[5]؛ جِيءَ بعده أيضًا بالنَّعت بـ﴿مُّسَمّٗى﴾ زيادةً في التَّأكيد أيضًا[6].

(1) سيأتي تعريف الإدماج قريبًا في فقرة خاصّة.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/99.
(3) أجازه جمْعٌ من أهل العِلْم، يُنْظر: القُرْطُبيّ، تفْسيرُ القُرْطُبيِّ: 3/378.
(4) الزّمخْشريّ، تفْسيرُ الكشّافِ: 1/325، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/651.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/440- 442.

وفي هذا سَلٌّ سَخائم صُدورِهم أن يدفعوه إذا طُلِبَ في أجله، أو يَرَوْهُ قادحًا في الثِّقة أو قادحًا في الجاه.

فكلُّ هذه المؤكِّداتِ تدُلُّ على أنَّ طلب تعيينِ مواقيتِ الدُّيون عند كتابتِها أمرٌ ضروريٌّ ومُهِمٌّ، وهذا ما يدُلُّ عليه الأمر بعدُ في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾[1].

المُسمَّى استعارةٌ تـصـريـحـيَّـةٌ بغرضِ التَّعيين

ولأجل طلب التَّعيين جيءَ بلَفْظ ﴿مُّسَمّٗى﴾ على وجه الاستعارة التَّصريحيَّة؛ لأنَّ (المُسَمَّى) حَقيقَتُهُ المُمَيَّزُ باسْم يُمَيِّزُه عمَّا يُشابهه في جِنْسِه أو نوعه، فمِنْه أسماءُ الأَعْلام وأسماءُ الأَجْناس، فالمُسَمَّى هُنا مُسْتَعارٌ للمُعَيَّنِ المَحْدُود، وإنَّما يُقْصَدُ تحديدُه بِنهايةٍ مِنَ الأَزمانِ المَعْلُومة عند النَّاسِ، فشُبِّهَ ذلك بالتَّحديدِ بِوَضعِ (الاِسْمِ) بجامعِ التَّعْيين إذْ لا يُمْكِنُ تَمْيِيزُهُ عن أمْثالِه إلَّا بذلك، فأُطْلِقَ عليه لَفظُ (التَّسْمية)، ومنهُ قَوْلُ الفُقَهاءِ المَهْرُ المُسَمَّى؛ فالمَعْنى أَجَلٌ مُعَيَّنٌ بِنهايته[2].

أثــرُ الـتَّـركـيـبِ البيانيِّ في بناءِ القيمِ والأخلاقِ

وفي هذا التَّركيب فوائدُ معنويَّة عمليَّة وحياتيَّة وتوجيهاتٌ سامية وأخلاق عالية كريمة؛ إذ كلُّ ذلك الصَّوْغِ البيانيّ لإفادة الإصْبار على الغَريم المَدين المُعْسِر، استدعاءَ الرِّقَّةِ له والشَّفقة عليه، ولإقْدار الدَّائن تقوية قَلْبِهِ على إنظاره وإمهاله، وللإيحاء بأنَّ الدّائن المُمْهِلَ غَريمَهُ هُنا هو بنفسه مُمْهَلٌ مِمَّن قبْضُ أَجَلِهِ بيده سبحانه، فعسى أن يَتَجاوزَ عن المَدين فيتجاوزَ اللّه عنه، ولإفادة أن المشَرِّع سبحانه وتعالى وبحمده هو الذي يَسْتَوْفي لكلِّ حقَّه؛ كما أنَّه أحاط هذا الحقّ بمثل هذا السِّياج العاصم.

وقد تكرّر ذِكر الأجلِ المسمَّى في القرآن الكريم للدَّلالة على الوقت المحدَّد لتمام الشَّيء وانتهائه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: 2]، وقال: ﴿وَأَنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/100.

(2) ابنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/99.

ﵟٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىﵞ [هود: 3]، وقال: ﵟوَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚﵞ [الرّعد: 2]، وقال: ﵟوَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧ﵞ [غافر: 67]، وفي كُلِّ هذا تذكيرٌ بأجل العبدِ الذي يَسۡتَوۡفيه، فيتوفَّاه مَوۡلاهُ بهذه الآجال الشَّواهدِ لجميع الأوقاتِ والعبادات والمعاملات؛ لئَلَّا يَنسى العبدُ آخرتَه ورجعته، وأنَّه موقوف بين يدي ربِّه ومُحاسَبٌ، فيأخذُ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبة قَبۡلَ الكِبَرِ ومن الحياة قَبۡلَ الممات.

دلالة الأمر في قوله: ﵟفَٱكۡتُبُوهُۚﵞ بين الوجوب والنَّدۡب:

حفظ مصالح النَّاس في دينهم ودنياهم

قال جمهور العلماء: إنّ الأمر بالكَتۡب نَدۡبٌ إلى حفظ الأموال وإزالة الرَّيب، وإذا كان الغَريم تقيًّا فما يضرُّه الكتاب، وإن كان غيرَ ذلك فالكَتۡبُ ثِقافٌ في دينه وحاجةُ صاحبِ الحقِّ، وقال بعضُهم بالوجوب[1]، وقال آخرون إن أَشۡهدتَ فحَزۡمٌ، وإن ائتمنتَ ففي حِلٍّ وسَعةٍ، وهذا هو القول الصَّحيح[2]؛ ففي الأمر بالكَتۡب مصلحةٌ دنيويَّة وهي حفظُ المال، ومصلحةٌ دينيَّة وهي السَّلامة من الخصومة بين المتعاملين[3]، فهي أوثقُ وأدفع للنِّزاع[4].

ولمُراعاة هذه المصالح وحفظِها صِيغت الأوامرُ بحفظها على طريقة التَّلوينِ والتَّنويع في الالتفات[5] تهوينًا وتطمينًا، وتخفيفًا وتلطيفًا، فقد ورد الخِطابُ بالالتفات من الحُضور إلى الغَيبة، في قوله: ﵟفَٱكۡتُبُوهُۚﵞ، ﵟوَلۡيَكۡتُبﵞ، ومن الغَيبة إلى الحضور في قوله: ﵟوَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌﵞ، ﵟوَأَشۡهِدُوٓاْﵞ[6] وجيء أيضًا بالوصل بين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/119 - 131 والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/382.
(2) ابنُ عطيّة، المُحرَّرُ الوجيز: 1/379.
(3) ابنُ عرفة، تفسيرُ ابنِ عرفة: 1/329.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/164.
(5) وهذان المثلان المذكوران لم يوردا جميع ما في الآية من هذا الباب فإنّها نحو عشرة أمثلة وناهيك بهذا تفنُّنًا بديعًا وتصرّفًا عجيبًا: منها على سبيل المثال: ﵟفَٱكۡتُبُوهُۚﵞ - ﵟوَلۡيَكۡتُبﵞ، ﵟوَٱسۡتَشۡهِدُواْﵞ، ﵟفَإِن لَّمۡ يَكُونَاﵞ، ﵟتَرۡضَوۡنَﵞ، ﵟتَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَاﵞ، ﵟتَسۡـَٔمُوٓاْﵞ، ﵟوَلَا يُضَآرَّﵞ، ﵟوَإِن تَفۡعَلُواْﵞ، ﵟوَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗﵞ.
(6) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/747-748، والسّمينُ الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 2/669.

هذه الجمل لاتّحادها في الإنشائيَّة والطَّلب؛ فجَمَعَتِ الواوُ بين هذه الجُمَلِ لأنَّها من باب التَّوسُّط بَيْنَ الكَمالَين؛ فكلٌّ منها أمرٌ لفظًا ومعنًى، وهذا الرَّبط بالواو يُشير إلى أنَّ كلّ جملة من الجملتين تُمَثِّل خَيْطًا من خيوط هذا النَّسيج الواحد من الأوامر.

وفي هذه الأوامر إشارةٌ إلى أنَّ الكتابة وسيلة التَّعليم، يُظْهِرُ اللّه الحاجةَ إليها هُنا لصيانة المُقَدَّرات وحفظِ الحقوق في عارِضٍ من يوميات الحياة، وحارِضٍ من طوارئ الاحتياجات البشريَّة والإنسانيّة؛ حَثًّا على تَعَلُّم الكتابة التي لا يُخْلَصُ إليها بغير تَعَلُّمِ القراءة ضرورةً، فهو الدُّعاء إلى التَّحضُّر والرُّقيِّ والتَّدوين بألطف عبارةٍ وأوجزها، وهو إنباءٌ عن توجيه إلهيٍّ باعتماد أسلوبِ العلم منهجَ حياةٍ، وفيه أنَّ العناية بالوسائل والوصائل تَتَضَمَّنُ تحسينَ المَآلات، وكيف أنَّ الإسلام يتحسَّب لكلِّ ما يحفظ السَّلام الاجتماعيَّ العامَّ ويَحُوطه لئلّا يتكدَّر بِعَرَضٍ أو حِرْصٍ مُتَوَقَّعٍ؛ وفي هذه الأوامر أيضًا أنَّ التقصير في الاحتياط والحَذر بتَرْك الاعتناء بالدَّقائق قد يُوقِعُ فيما هو أخطرُ وأكبر، فالتَّهاون فيما يُتَدارَكُ يَتَرَتَّبُ عليه من الشَّرِّ ما لا يُتَدارَكُ.

تعيينُ عَوْدِ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾:

شُمول حكم الكتابة للدَّين والأجل جميعًا

في تعيينِ مَرْجِعِ الهاء في قولِه تعالى: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ احتمالاتٌ عدَّة؛ فهي إمَّا أنْ تعودَ على الدَّين، أو الأجلِ، أو عليهما جميعًا، وهو الأظهر؛ لدُخول الأجل في بُنود عقد الدَّين المكتوب، فلا يُقال: كَتَبَ الدَّين إلّا وهو يريد كَتْبَ مِقداره وأجلِه، ونحو ذلك، فإفرادُ الضَّمير فيه ايجازٌ بديع جامع لكتابة قيمةِ الدَّين وصاحبه، وأجلِ السَّداد ومكانِه وغيرِها من البنود التي تكون في العَقد المكتوب.

وهي إشارة ظاهرة إلى أنْ يكتبَه بجميع صفاته المبيِّنة له، المُعرِبة عنه؛ للاختلاف المتوهَّم بين المتعاملين، المُعرِّفة للحاكم ما يَحكم به عند ارتفاعِهما إليه(1).

فائدةُ ذكرِ الظَّرفِ وتقديمِه في قوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾:

قُدِّم الظَّرفُ ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾ على ﴿كَاتِبُۢ﴾؛ لبيانِ أنَّ المقصودَ

(1) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/382.

ترسيخُ العدالةِ بكتابةِ كلامِ الجميعِ وعدمِ الاستئثارِ بأحدِها

حصولُ الكَتْب بين المتعاملين لا عند الكاتب وحدَه؛ فقدَّم الأهمَّ وهو البَيْنِيَّةُ[1].

كما أنَّ ذكرَ الظَّرف ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ الكاتِبَ يَنْبغي أن يَتَوسَّطَ بين المُتداينَيْن ويكتُبَ كَلامَهُما ولا يكتفي بكلامِ أحدِهما[2]، فينبغي للكاتب أن لا ينفردَ به أحدُ المُتعاملَيْن دفعًا للتُّهَمة[3].

كما أنَّ في هذا اللَّفظ ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾ ما يُشير إلى اجتماع الأطراف الدَّائنِ والمَدِين، وكذلك الشُّهودُ؛ ولو اقتصر الاجتماعُ على الدَّائن والمَدِين والكاتب لقيل: وليكتبْ بينكما، لكنْ في صِيغة الجمع ما يُفيد حضورَ جميعِ الأطراف حتَّى الشُّهود، وفي ذلك مبالغةٌ في التَّوْثيق والحِيطَةِ[4]؛ فقدَّم البَيْنِيَّةَ لضمان العلَنيَّةِ، وهُوَ مغْزى الإشهادِ، ولإحاطة الكاتب بسِياجٍ رَقابيّ مُجتمعيٍّ رَسْميٍّ عُرْفيٍّ وازعٍ مانعٍ رادعٍ، ففي هذا التَّقديم والتَّأخير بيانٌ لكيفيَّة الكتابةِ المأمورِ بها؛ وتعيينٌ لمن يتولاها إثرَ الأمرِ بها إجمالًا.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ من الجملةِ:

التَّفاصيلُ المحذوفةُ معلومةٌ، ومعذوقةٌ بالعدلِ المذكورِ

وفي حَذْفِ المفعولِ به من الجملة شمولٌ وإحاطة لكلِّ ما يتعلَّق بتفاصيل الكتابة للدَّين من قيمة وموعد سَداد، فالحذفُ وَسَّع المعنى، وتَساوَقَ مع مقصودِ الآية الدَّاعية إلى أَخْذ الضَّمانات كافَّة في تعيين الكتابة، وفي حذف المفعول حكمةٌ بالغةٌ بأَنِ التَّفتَ عن تعيينه؛ إذْ ليس المقصودَ هُنا بصِيغَتِه، وكيف يُقْصَدُ قبل استكمالِ عناصر ما تُصبح به الكتابة حُجَّةً؛ فَمَفْعولُ ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ محذوفٌ ثِقَةً باتّضاحه، أو لِلْقَصْدِ إلى إيقاع نفسِ الفعل[5]؛ فهو لم يُحْذَفْ إلّا قد تُرك مُتَعَلَّقُه السَّادُّ مَسَدَّ المفعولِ المطلقِ المُبيِّنِ للنَّوعِ ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/269.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/54.
(4) سعيد جمعة، بحث بعنوان: (البلاغة العالية في آية المداينة)، ص: 62.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/54.

فائدةُ فنِّ الإدماجِ[1] في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾:

الإيـمـاءُ إلى اختيارِ الكاتب العـادل، وضرورةِ تعليمِ أهـلِ العـدلِ الكتابة

الكلامُ هنا مَسُوقٌ لمعنًى، ومُدْمَجٌ فيه آخرُ بإشارة النَّصِّ، وهو اشتراطُ الفَقاهة في الكاتب؛ لأنّه لا يَقدر على التَّسوية في الأمور الخطرة إلّا من كان فقيهًا[2].

فالنَّاظر في الجملة يستطيع أن يَلحَظ بسهولة أنَّها جاءت لتحديد نوعٍ خاصٍّ من الكُتَّاب وتخصيص الأمرِ به؛ ليقومَ بهذه الكتابةِ العادلةِ الضَّامنةِ للحقوقِ، المانعة من التَّحايُل؛ ذلك أنَّ الأمرَ خطيرٌ، ولذلك جاز تعلُّقُ الجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ بكلٍّ من الفعل ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ والفاعل ﴿كَاتِبُۢ﴾.

فإذا قُدِّر تَعلُّقُهما بالفعل ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ يكون المعنى المُدْمَج هو: وليكتبْ بينكم كاتبٌ كتابةً عادلة تكون محلَّ ثقةٍ من أهل الاختصاص عند التَّنازُع؛ بحيث تخلو من الثَّغرات التي تُمكِّن أحدَهما من المُراوَغة أو الانفكاك ممَّا في ذِمَّته؛ فالعدل هنا ناتج عن موافقة الكتابة للشُّروط الواجبِ توافُرها لضمان الحقوق؛ فهي صفة للكتاب، وقد يكون الجارُّ والمجرور متعلّقين بالفاعل ﴿كَاتِبُۢ﴾، فيكون المعنى المُدْمَج هو: وليكتبْ بينكم كاتب مشهور بالفقه والعدل وعدم المَيل إلى هذا أو ذاك، وهذا يُعرف من خلال كتاباتِه السَّابقة بين النَّاس، وعلى هذا فالجار والمجرور في موضع الصِّفة للكاتب؛ ففقهُ الكاتب ومعرفتُه بأنواع الوثائق معنًى مُدْمَجٌ في الجملة، مقصودٌ منها في النِّهاية[3]، وفيه إشارةٌ إلى ضرورةِ تعليمِ أهل العدلِ الكتابةَ، وأن يكونوا هم القائمين عليها في المجتمع المسلم، إذ ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجبٌ.

---

(1) الإدماج هو أن يُضمّن كلام سيق لمعنى معنى آخر لم يُصرّح به وهو من المحسِّنات المعنويّة، يُنْظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 327، والميْداني، البلاغةِ العربيّةِ: 2/427.

(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 1/460.

(3) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/154.

دلالة توجُّه الأمر إلى المُتداينَيْنِ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾:

المبالغة في أَمْرِ المتعاقِدَيْنِ بالاستكتاب إشعارٌ بأهمِّيّته في نفوس الكُتَّابِ

أمَّا الأمرُ في الجملة فمتوجِّه إلى المتداينَيْن، والسِّرُّ في ذلك: "المبالغة في أَمْرِ المتعاقِدَيْن بالاستكتاب، فالكاتب ليس مَنُوطًا بالحُكم؛ لأنَّهُ إمَّا أن يكون أجيرًا أو مُتفضِّلًا، وفي كِلتا الحالَتَيْنِ لا يُمكن أمرُه وإرغامُه على الكتابة، لكنَّ الأقرب إلى الفهم هو توجيهُ الأمر إلى المتداينَيْنِ أن يَبحثا عن كاتبٍ فقيهٍ عَدْلٍ دَيِّن ليقوم بكتابة الدَّين؛ حتى يكون ما يكتبه موثوقًا به، متَّفَقًا عَلَيْهِ بَيْنَ أهل العلم[1]، فجاء الأمر للمتداينَيْنِ على طريق الكناية، فتكون المُخاطبة للكاتب وأمره بالكتابة عن طريق المتداينين، ومِنْ بلاغة ذلك إشعارُ الكاتب بأهميَّة الأمر، حتَّى يَرْفَعَ الحرج عن المتداينَيْنِ، ويلبّي دَعْوَتَهُما ويكتُب؛ لأنَّ رفضه قد يُوقِعُهما في الحرج[2].

فائدةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿كَاتِبُۢ﴾:

يقومُ بالكتابةِ من له أدنى قدرةٍ عليها بشرطِ الكتابةِ بالعدل

أفادَ التَّنكيرُ في لفظِ: ﴿كَاتِبُۢ﴾ التَّأكيدَ؛ إذ قد فُهِم من قوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾[3] أن يكونَ هناك شخصٌ يتَّصفُ بالقدرةِ على الكتابةِ، فلمَّا قال: ﴿كَاتِبُۢ﴾ كانَ تأكيدًا للأمرِ بالكتابةِ، وقُصِدَ بالتَّنكير العمومُ، أي: أيُّ كاتبٍ، دون تحديد عينه أو اسمه أو قرابته؛ لأن هذا قد يُفهم إنْ عُرِّف اللَّفظ بغير الصِّفة؛ كأن يُقال: وليكتب بينكم كاتبكم، أو الكاتب، أو نحو ذلك، فمن فوائد التنكير ألّا يتوقف المُتَدَاينانِ عن استكتاب مَن يتحقّق به كفايتُهما وقضاء وطرهما؛ إذ المقصود التَّعميم إلى الحدِّ الذي يكفيهم حاجتَهم ويحقّق طِلْبتَهم، فأقلُّ من يَصدُق عليه وصفُ كاتبٍ صالحٌ للمَقام يَفي به ويؤدّي الغرضَ إلى حدِّ الكفاية فيه، حتى لو لم يوجد إلّا مَن له أدنى وصفٍ

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 4/250.

(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 63.

(3) أبو حيّان، البحرُ المُحيطُ: 2/747، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/687، وابْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 3/101.

من هذه الصّفة فلانفرادِه يتعيّن على المتداينيْن استكتابُه، فهذا اضطرار لا سَعةَ فيه لاختيار، لكن بشرطِ أن يكتبَ بالعدلِ.

فائدة تقييدِ ﴿كَاتِبٌ﴾ بقولِه تعالى: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾:

صفةُ الكاتبِ هي المطلوبُ الشَّرْعِيُّ لا شَخْصه ولا جنسه

مجيءُ اللَّفظ في ذاته نكرةً قُصد به البحثُ عن الوصف، وليس عن الشَّخص؛ ثُمَّ وَصَفَهُ بشِبه الجملة ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾، فالباء هنا مُتَعَلِّقٌ بمحذوف تقديرُه موصوفٌ، وفي الوصف بالعدل مجازٌ مُرسَل علاقتُه المُسبَّبيَّة؛ لأنَّ المقصود هُنا: وليكتب بينكم كاتبٌ فقيه عالم بضوابط العقود، وهذا الفقه بلا شكٍّ سببٌ في حدوث العدل بين المُتداينَيْن[1]؛ لأنّ الفقه وسيلة للوصول إلى العدل، والعدلُ غاية.

سِرُّ تَوَجُّه النَّهي إلى الكاتب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾:

تأكيدُ أهميَّةِ الكتابةِ، وإشراكُ الكَاتِبِ في المسؤوليَّةِ المجتمعيَّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ حكمٌ جديدٌ متوجِّه إلى الكاتب، وليس إلى المتداينَيْنِ، وقد حَمَلَه بعضُ الفقهاءِ على الوُجُوبِ والفريضةِ فرضيّةَ عينٍ؛ لعموم الكُتَّاب بدليل تنكير كلمة ﴿كَاتِبٌ﴾ فهي نكرة في سياق النَّهي تُفيد العمومَ[2].

وقال آخرون: إنّه فرض عين[3] إذا لم يكن في البلدةِ غيرُه، وحملَه بعضُ الفقهاءِ على الوجوب حالَ فراغِ الكاتب وعدم شغله[4].

فتوجيهُ النَّهي إلى الكاتب وإشراكُه في زُمرة المتعاملين يجعله فردًا من أفراد هذه المعاملة، حيث تُشْرَطُ عليه وتلزمه وتأمره بالكتابة الحقَّة، وهذا الأمر بعد النَّهْي عن الإباء كالتَّأكيد، لأنَّ الموضوع هامٌّ لتعلُّقه بحفظ الحقوق[5]، وقد توجَّه النَّهيُ إلى صيغة الغائب ﴿وَلَا يَأْبَ﴾، والأصل في النَّهي أن يكون لمخاطَبٍ، لكن لما كان

(1) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 63.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/325، وأبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/724، والبسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.

(3) على اعتبار أنّ الخطاب هنا نهْيٌ عن الإباء، والنّهي أشدُّ من الأمر، لاقتضائه دوام التّرك في كل زمن. ينظر: البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.

(4) ابنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/102.

(5) المراغيّ، تفْسيرُ المراغيِّ: 3/73.

الكاتب حاضرًا في السِّياق بتكرار لفظتي ﴿كَاتِبٌ﴾ و﴿يَكۡتُبَ﴾ على سبيل الإطناب[1]؛ صحَّ أن يُسند النَّهيُ إليه بعد حضورِه البارزِ من قَبْلُ[2].

ولأنه لا غائبَ في علم الله، فاللّه سبحانه وتعالى يأمر وينهى الحاضرين والغائبين، والجميعُ حاضرٌ بين يَدَي الله، واقعٌ تحت علمه[3].

فسِرُّ هذا النَّهي أنَّ الإباء مَعْنَويٌّ مستبْطَنٌ غيرُ ظاهر، فقد يتحقّق ظاهريًّا الاستجابة والانصياع، ولا يتحقّق حقيقةً ولا حُكْمًا بتركِ بعضِ القيود الاحترازيَّة الضَّامنة للحقوق، المحيطةِ بها، الصَّائنة لحُرْمَتِهَا، فلم تعُد الرَّقابةُ المجتمعيَّة المتحقّقة ببينيِّة الكاتب كافلةً ولا كافيةً، فَلَزِمَ أن تُقام عليه وتُوَجَّهَ إليه رقابةُ اللّه ذِكْرًا كما هي في الواقع حاصلةٌ، ولمَّا كانت هذه بدورها عامَّةً معلومةً كان الأَوفقُ الأَوفى بالمَقام أن يُوجّه إليه خطابٌ خاصٌّ يُشْعِرُهُ بمزيد من التَّكليف والاعتناءِ وأنَّ للّه رقابةً عليه بخصوصه.

تردُّدُ الكافِ بين معنى التَّشبيه والتَّعليل في قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾:

تذكير الكاتب بنعمة الله عليه في التَّعليم وإلزامُه بتحرّي الدِّقّة في الكتابة

يُحْتَمَلُ أن تكون الكاف في قولِه تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ للتَّشبيه، فالمعنى: أن يَكْتُبَ كتابةً حَسَبَ علمِه بحيث تكون مستوفية لما ينبغي أن تكون عليه؛ ويُحْتَمَلُ أن تكون الكاف للتَّعليل؛ فالمعنى: أنَّه لمَّا علَّمه اللّه فليشكرْ نعمتَه عليه، ولا يمتنعْ من الكتابة[4].

والمرادُ بالمشابهة المطابَقةُ لا المقارَبةُ، فتكون الكاف لمقابَلة الشيءِ بمكافِئه، والعِوَض بمعوَّضِه؛ أي: يكتُب كتابةً تكافئُ تعليمَ اللّه إيَّاه الكتابةَ، فينفع النَّاسَ بها؛ شُكرًا على تيسير اللّه له أسبابَ علمها، وينشأ عن هذا المعنى من التَّشبيه معنى التَّعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77][5].

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 65.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 2/379.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/325، وابْنُ عُثيمين، تفْسيرُ ابْنِ عُثيمين: (الفاتحة والبقرة): 3/404.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/652، وابْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 103-3/102.

فالأَوْلى في هذا السِّياق تذكيرُه بهذه الضَّوابط وتلك الشُّروط التي تعلَّمها؛ حتى يجعلَها في ذهنه عند الكتابة، ثُمَّ يجعل ما يكتبُه مُطابقًا ومشابهًا لما تعلَّمَهُ.

غرضُ التَّشبيهِ التَّذكيرُ بنعمةِ الله على الكُتَّابِ

وعلى هذا المعنى يكون في الجُملة تشبيهٌ مُتكامِلُ الأَركان، فالمُشَبَّهُ الكتابة المأمور بها، والمُشَبَّهُ به الكتابة التي علَّمه الله إياها، والأداة الكاف، ووجهُ الشَّبه الدِّقّة والعدل.

وجمالُ هذا التَّشبيه يَنْبُع من التَّذكير بنعمة الله تعالى على الكاتب؛ بتعليمه ما لم يكن يعلمُ، والإشارةُ إلى الدِّقّة العالية، والالتزامُ الشَّديد بضوابط الكتابة لأنَّها منسوبةٌ إلى ما علَّمه الله إيَّاه، والتَّرهيبُ من مُخالفة الأصولِ والقواعد الضَّابطة للحقوق، وذلك من خلال استعمال اسم (الله) تعالى الباعثِ على الرَّهبة؛ ولذلك لم يقل: (كما علَّمه ربُّه)، وفيه أيضًا الإشارةُ إلى أنَّ ضبط هذه المعاملات لا يكون إلّا بما شرَعه الله تعالى وحدَّده، وأنَّ العدول عمَّا أنزله الله تعالى يَحْمِلُ الفسادَ والإفسادَ للبشريَّة جميعًا[1].

ما عَلَّمَهُ اللهُ الكاتبَ يندرج تحت فضْلين؛ فَضْلٍ راجعٍ إلى اتِّباع القواعد بتوفيقه، وفضلٍ راجعٍ إلى جميل الفوائدِ ومليح العوائدِ بتزويقه، والأوَّلُ فاشٍ معلومٌ يُحتَكم إليه، ويُخْتَصَمُ فيه، ويُعْلَمُ قدر ما خُولف منه لانضباطه، والثَّاني راجعٌ إلى المَلَكَة، والاستعداد النَّفسيّ، وحُسْنِ الإلمام، ودِقَّةِ التَّحصيل، وحُسْنِ الاستخلاص والانتخاب، ولُطْفِ التَّفريع، وبُعْدِ النَّظر في المَآلات، فليس للأمور بصاحبٍ مَن لم يَنْظُر في العواقب، وإلى الاستفادة من الخِبْرات، واختزان التَّجارب والمحصِّلات، واستخلاص الدُّروس والخُلاصات، فهذا مُخْتَصٌّ به ويتفاوت الكتَّاب فيه، وهو الذي فيه التَّميُّز، فلذا ناسب أن يتوجَّه النَّهيُ من الله تبارك وتعالى إليه مُباشرة؛ ليكون له وَصاةً أن يبذُل النُّصحَ ويستفرغ الوسعَ ولا يدع شيئًا من الاحتياط لطَرَفَي المداينة إلّا أثبته على وجه يُقيمُ الحقَّ ويُقِرُّ العدلَ.

(1) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 66.

تعيينُ تعلُّقِ قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ بالمتعلَّقِ به وأثرُه في المعنى:

قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ يجوز أن يتعلق بـ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾، وبقوله: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾.

فإنْ تعلَّق بـ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾ فقد نَهى عن الامتناع من الكتابة المقيَّدة، ثُمَّ قيل له: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾؛ يعني: فليكتب تلك الكتابةَ لا يَعدل عنها للتَّوكيد، ويكون من قبيل المُنَزَّل على شِبْهِ كمال الاتِّصال، فكأنَّه لمَّا قيل: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾، قيل: كيف يكتبُ؟ فأجيب: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ﴾.

وإنْ تعلَّق بقوله: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ فقد نَهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثمَّ أَمر بها مقيَّدةً تفريعًا لتوكيد الأمرِ المفهوم من قوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾[1].

فائدة التَّفريع[2] بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾:

تَـأْكِـيـدُ الْأَمْــرِ بالكتابة وَتَأْكِيدُ النَّهْيِ عن الإباء

معنى قولِه: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾؛ أي: تلك الكتابةَ المُعلَّمة، أَمَرَ بها بعد النَّهي عن الإباء عنها تأكيدًا[3]، فهو تَفريعٌ على قولِه: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾، وهو تَصريحٌ بِمُقتَضَى النَّهي وتَكريرٌ لِلأمرِ في قوْلِه: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، فهو يُفيدُ تأْكيدَ الأمرِ وتأْكيدَ النَّهي أيضًا، وفرَّع بالفاءِ للإشارةِ إلى سُرعةِ الامتثالِ، وإنَّما أُعيدَ لِيُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ لِبُعْدِ الأَمْرِ الأَوَّلِ بما وليَهُ، ومثلُه قوْلُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ [الأعراف: 148] بعدَ قولِه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: 148][4].

وهذا التَّلوين والتَّنوُّعُ في أداء المعنى يُوَضِّح مدى أهميَّة الكتابة ممَّا حَدا ببعضِ الفقهاءِ إلى أن قالوا: إنَّ الأمر هنا للوجوب[5].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/325، وأبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/725.

(2) التّفريع عند البلاغيين من الاستطراد، وذلك أن يقصد القائل وصفًا ما ثُمّ يُفرّع منه وصفًا آخر يزيد الموصوف توكيدًا، أي أن يُثبت حُكمًا لمتعلّقٍ أمرٍ بعد إثباته لمتعلّق آخر، والمراد بتفرع الثّاني على الأوّل كونه ناشئًا ذكره عن ذكر الأوّل، حيث جعل الأوّل وسيلة للثّاني، أي كالتقدمة والتوطئة له، حتى أن الثّاني في قصد المتكلّم لا يستقل عن ذكر الأوّل، كقول الكُميْتِ:

أحْلامُكم لِسِقام الجهْلِ شافيةٌ *** كما دِماؤكُمْ تشْفي مِن الكلبِ

فرّع من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلب. يُنظر: ابن رشيق القيروانيّ، العمدة: 2/42.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/325، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيلِ: 1/164، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.

(4) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/103.

(5) أبو المظفر السمعانّي، تفسير السمعانّي: 1/283.

واحتيج إلى هذا التَّفريع لأنَّ النَّهي عن الشَّيءِ ليس أمرًا بضِدِّه صريحًا على الأصحِّ، فأكَّده بذِكره صريحًا اعتناءً بشأن الكتابة[1].

فائدةُ أمرِ المدين بالإملالِ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾:

إثبات إقرار المَدِين بالحقِّ الذي عليه وتطمينُ الدَّائن على ماله

بعد خِطابِ الأمَّة عامَّةً بكتابة الدَّين وخِطابِ الكاتب له جاء هذا الخطابُ للمَدِين؛ فالأمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ موجَّهٌ إلى آخِذِ الدَّين؛ لأنَّ المنظومةَ واحدة، والسِّياقَ واحد، والغايةَ المنشودة من الآية غاية واحدة، ومسؤوليَّةَ الأطراف الثَّلاثة في حفظ هذه الأموال على درجة واحدة، ومن أجل كلّ ذلك عمَّ الأمرُ كلَّ الأطراف[2].

والسَّبب في أنَّ الذي عليه الحقُّ هو المعنيُّ بإملاء الدَّين أنَّ الغَبْن قد يقع عليه لو أملى الدَّائنُ فزاد في الدَّين أو قرَّب الأجل أو ذَكر شروطًا معيّنةً في مصلحته، وبخاصّةٍ أنَّ المَدِين في موقف ضعيف قد لا يَملك معه إعلانَ المعارضة رغبةً في إتمام الصَّفقة لحاجته إليها، فيقعُ عليه الغَبْنُ من هذه النَّاحية.

وإذا كان المَدِين هو الذي يُملي لم يُملِ إلا ما يُريد الارتباطَ به عن طيب خاطر، ثُمَّ ليكونَ إقرارُه بالدَّين أقوى وأثبت؛ فهو الذي يُملي[3].

فلا بدَّ أن يكون هو المُقِرَّ لا غيرُه، وفُهِمَ الحَصْرُ من تعلُّق الحكمِ بالوصف؛ فإنَّ ترتيب الحكمِ على الوصف مُشْعِرٌ بالعِلّيّة، والأصلُ عدمُ علّةٍ أخرى[4].

ولأنَّه لا يستوي المنصوصُ عليه بغير المنصوص، ولأنّ النَّصِّيَّ أَدْخَلُ في القَطْعِيِّ منه في الظَّنِّيِّ، وغيره المقَدَّرُ ظنِّيٌّ فليْسا سواءً.

ولأجل هذا قال: ﴿ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ ولم يقل: (المَدِين) لأنَّ كلمة المَدِين لن تفيد معنًى جديدًا في هذا السِّياق؛ لكن لمّا أُريد التَّأكيدُ على المَدِين بأن يعترف بما عليه أمام الشُّهود

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/55.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 71.
(3) ابْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/102.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/67.

والكاتب، ولمّا أُريد تذكيرُه بأنَّ ما أخذه ليس حقَّه، بل هو حقُّ الدَّائن، والحقوق لا بدَّ أن ترجع إلى أصحابها، عرَّف المَدِين بجملة الصِّلة كي تجمعَ كلَّ هذه المعاني في وسيلة واحدة للتَّعريف، كما أنَّه متوجِّه أيضًا إلى الدَّائن طَمْأنةً له وتسكينًا لفؤاده من أنَّ ماله لن يَضيع.

ومتوجّه كذلك إلى الشّاهدَين بأنّ ما يشهدان عليه ليس إلّا الحقَّ، فعليهما الإقدامُ وعدم التَّخاذُل، وعليهما الشَّهادةُ الصَّادقة التي تَحفظ الحقوق.

وهو كذلك متوجِّه إلى الكاتب بأنَّ ما سيكتبه ليس إلّا الحقَّ؛ فلا ينبغي أن يَحيد عنه، وإلا فقد ضيَّعه؛ فالكلمة جرسُ إنذارٍ للجميع[1].

سِرُّ الجَمْع بين الاسم الجليل والنَّعت الجميل في قوله تعالى ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾:

تربية المَهابة وتذكيرٌ بالإحسان لامتثال الأوامر والتحذير من العصيان

التعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالاسم العظيم (اللّه)؛ ليكون أزجرَ للمأمور، ثم قال: ﴿رَبَّهُۥ﴾ تذكيرًا بأنَّه لإحسانه لا يَأمر إلَّا بخير؛ كَوْنُهُ مُرَبِّيًا له، مُصْلِحًا لِأَمْرِه، باسِطًا عليه نِعَمَه، وترجيةً للعِوض في ذلك إذا أدَّى فيه الأمانة في الكمِّ والكيف من الأجَل وغيره؛ وأكَّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ﴾[2].

والجمع بين عُنوان الأُلوهيَّة وصِفة الرُّبوبيَّة فيه تأكيدٌ، وشدَّةُ تحذير من المخالفة، فَذُكِرَ اسمُ الجلالةِ فيه مع إمكان الاستغناء بقوله: (وَلْيَتَّق اللّه رَبَّه)؛ لإدخال الرَّوع في ضمير السَّامع، وتربيةِ المَهابة[3]، وتذكيرٌ بأنَّه سَيُعان على الأداء بالتَّقوى، وسَيُكْفى ما أهمَّه من أمر الوفاء، كما قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق: 4].

وَقُدِّمَ الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ لأَنَّ مُراقَبتَه مِنْ جِهَةِ العُبُودِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ أَسْبَقُ من جِهَةِ النِّعَم.

وفي ذِكر الرُّبوبيَّة مَزيدُ إقبالٍ على المُنْعِم المتفضِّل على خَلْقِه قبل

(1) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 74.
(2) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/148.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/267، والقاسِمي، محاسِنُ التّأْويلِ: 2/236، وابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/125.

أن يكون لهم وجودٌ، ثُمَّ قَبْلَ أن يكون للإنسان إدراكٌ، ثُمَّ للتَّقرير بأنَّ التَّشريع مزيدُ إنعامٍ وإكرام؛ لأنَّه سِرُّ استِدامةِ الهداية وحارسُ التَّوفيق للعمل بمَراضي اللّه.

والجمعُ ما بين الاسمِ الجليلِ والنّعتِ الجميل للمبالغة في التحذير؛ أي: وليتَّقِ المُمْلي، فبالأحرى الكاتبُ[1].

سِرُّ الاستِعارة بلفظ البَخْسِ في قولِه: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾:

تصويرُ ضَرَرِ البَخْسِ وظُلْمِه الذي يَطُولُ الحقوقَ

اختار النَّظم لفظَ البَخْس دون غيره من الألفاظ؛ لأن مِن دلالته النقصَ والإخفاء، وأقربُ الألفاظ إلى معناه هو الغَبْنُ، فالبَخْسُ في لسان العرب هو النَّقصُ بالتَّعييب والتَّزهيد، أو المخادعةُ عن القيمة، أو الاحتيالُ في التَّزيُّدِ في الكَيل أو النُّقصانِ منه عن غَفْلَةٍ من صاحب الحقِّ[2].

كما أنَّ هذه الكلمة استُعيرت لتصوير المُجسَّد الحاكي[3]؛ إذ لفظةُ بَخْسٍ في الأصل اللُّغوي لِلعَينِ العَوراء، يُقال: بخَسَتْ عينُه؛ أي: عَوِرتْ، ولا يَخفى ما في هذا التَّصويرِ مِنَ التَّأكيدِ في الدَّلالة والبيان على مجرَّد البيان القوليِّ[4].

ولما تَحمِله هذه الكلمةُ من دلائل الضَّرر أَتبَعها بالإيجاز البديع في قوله ﴿مِنۡهُ﴾؛ إذ الضَّمير عائدٌ إلى الحقّ، وهو حقٌّ لكِلا المُتَداينَيْن، فإذا بَخَسَ منه شيئًا أَضرَّ بأحدهما لا مَحالة[5].

كما عدَّى الفعل إلى كلمة ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾، وهي نكرة، لإفادة العموم والإحاطة؛ أيْ: أيَّ شيء، ولو كان حقيرًا؛ لأنَّ البَخْسَ يُطلق في القرآن أيضًا على نقص القليل الذي لا يُؤبه له، وقد باع إخوةُ يوسفَ النبيِّ - على نبينا وعليه الصَّلاة والسلام - أخاهم النَّبيَّ بثمنٍ نعتَه القرآن:

---

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/270.

(2) ابْنُ العربيّ، أحكام القرآن: 2/318.

(3) المجسَّد الحاكي، أو تشبيه المحسوس بالمعقول، وهو آكدُ في الدَّلالة من البيان القولي الذي تتشكَّل دَلالاته ومعانيه عن طريق التعبير باللُّغة، بسبب ما تَوَفَّر في ذلك البيان الحاكي من مشاهد متحرِّكة زائدة عن الدَّلالة باللُّغة، يصل بها إلى قِمَّة النفاذ والتأثير في النفس الإنسانية. يُنظر: محمد قاسم، علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني، ص: 152.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 442-1/440.

(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/104.

﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، فجاء النَّهيُ في آية المُدايَنة عن نقص الحقِّ عند كَتْبه ولو قليلًا، مُعَلَّلًا بأصل كلمة بَخْس، وبذكر المفعول ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾.

بلاغةُ الاستثناءِ بالشَّرطِ في قولِه تعالَى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾:

صِيانةُ حُقوقِ النَّاسِ بالقيودِ الْمُلْزِمة أولى من التَّسامحِ فيها

لّما قال تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ تبيّن أنّ هذا الحقَّ قد يكون على أُناس لا يستطيعون القيام بالإملال، وهم السَّفيه والضَّعيف ومَن به سببٌ عارض يمنعه من الكتابة، فاستُثنوا من الإملال لا من الكتابة بقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾؛ إذِ الكتابة واجبة على الجميع، إلّا أنّ الاستثناء هنا سلك طريق الشَّرط؛ وذلك لأنَّ الشَّرط في الأصل قيدٌ، والقيودُ تتواءَمُ مع سياقِ الآيةِ الذي يسير في فلك التَّشديدِ والتَّضييق في حفظ الحقوقِ مسايرةً لطبائع النّاس في المشاحَّة بحقوقها، وهو ما يُضيفُ بُرهانًا مؤكِّدًا أنَّ القرآن الكريم هو كلامُ الخلّاق العليم بما أَودع في فِطَر مخلوقاته من طبائع.

بلاغةُ ترتيبِ الأصنافِ في قولِه تعالَى: ﴿سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾:

ترتيبُ الأصنافِ أولويٌّ تصاعديٌّ

المقصودُ بالسَّفيه الجاهلُ[1]، وبالضَّعيف الأحمقُ؛ أمَّا الذي لا يستطيع أن يُمِلَّ فهو الصغير، أو المسنُّ الطَّاعن في السِّنِّ الذي لا طاقةَ له بالكلام من الكِبَر؛ فأشدُّ النَّاس حاجةً إلى وليٍّ ليقومَ عنه بالإملاء هو السَّفيهُ؛ لأنَّه مُختلُّ العقل لا يُحْكِمُ الأشياءَ، ثمَّ يأتي الضَّعيف، ثُمَّ الذي لا يستطيع أن يُمِلَّ هو.

فترتيب هذه الأصناف ترتيبُ أولويَّةٍ في حاجة كلِّ صِنْفٍ إلى من يقوم عنه بالإملاء؛ فالسَّفيهُ أشدُّهم احتياجًا، ثمَّ الضَّعيف، ثُمَّ الذي لا يستطيع الإملاء[2].

(1) أبو حيّانَ، البَحرُ المحيط: 748-2/747.

(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 78.

فائدة تَكْرارِ قولِه: ﴿ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ في سياقٍ واحد:

تـأكـيـدُ حِـفْـظِ الحقوق وإحقاق الحقِّ

في قوله: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ وقوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ تَكرارُ لفظ (عليه الحقُّ)؛ وذلك لتأكيد الدُّعاء إلى اتِّباعه، وهذا يُشير إلى أنَّ الحقّ كلمة سارية في ثنايا الآية ومُقرَّرة بعِدَّة صور؛ لِتملأ على الجميع حواسَّهم، فلا تغيب عنهم، وفي ذلك ما فيه من إثارة النُّفوس إلى حفظِ هذا الحقِّ وضمانِه والاجتهادِ في إيصاله إلى أصحابه، وأتى بحرفِ (على) للإعلام بأنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا واستعلاءً(1).

دلالة التَّأكيد بالضَّمير في قوله: ﴿يُمِلَّ هُوَ﴾:

إفادة التَّنصيص على عدَمِ قُدرته بنفسِه

الضَّمير في قوله: ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ ضميرُ توكيدٍ للضَّمير المُستتر في ﴿أَن يُمِلَّ﴾، وفائدةُ التَّوكيدِ بِهِ رفعُ المَجازِ الذي كان يحتملُه إسنادُ الفعلِ إلى الضَّمير؛ فيُقال: أو لا يستطيع أن يملَّ؛ فالضَّمير ﴿هُوَ﴾ أفاد التَّنصيصَ على أنَّه غيرُ مستطيعٍ بنفسه(2).

وتأكيد الضَّمير المستتر في فِعل (يُملَّ) بالضمير البارز ﴿هُوَ﴾ تمهيدٌ لقوله: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ﴾؛ لئلَّا يَتوهَّم النـاسُ أنَّ عجزَه يُسقِط عنه واجبَ الإقرار بما يَستدينه.

أثر تَكْرار الأمرِ في بناء جملة: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ جوابُ الشَّرط السَّابق في قوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾، فالذي يتبادر إلى الذِّهن مِن هذا الشَّرط هو التَّخفيفُ عنهم؛ بأن يُقال مثلًا: فلا حرجَ عليهم ألّا يكتبوا، أو نحو ذلك؛ لكنّ جواب الشَّرط جاء بالإملال، وبصيغة المضارع المقترنِ بلام الأمر، وهي أَلزمُ وأشَدُّ في الوجوب، وهذا يشير إلى أنَّ وجوب الكتابة ليس

(1) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/747-748، وسعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 81.

(2) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/726، والسَّمِين، الدُّرُّ المَصون: 2/654، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 2/235.

مقصورًا على أحد دون أحدٍ، فلا تَسامحَ في هذا الأمر، حتَّى وإن كان الذي عليه الحقُّ سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يملَّ، وهذه الفاء هي الواقعة في جواب الشَّرط؛ لأنَّه فعلُ أمر، والمجيءُ بالمضارع المقترنِ بلام الأمر يَدُلُّ على أنَّ الوجوب الكامنَ في الإملال الأوَّلِ على الذي عليه الحقُّ لم يُنقض، ولم يُتَسامح فيه؛ بل هو على ما هو عليه من الإلزام والفرْضيَّة[1].

بلاغةُ عَطْفِ جملةِ: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ وسرُّ تأخُّرِها:

العقودُ الشَّرعيَّةُ لا تكتملُ إلَّا بشهودِ عدلٍ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ عَلَى ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾؛ لإتمام أركان العقد، فبعد الحديث عن المتداينين والكاتب عَطَف عليهما بذِكر الطّرف الثَّالث في العَقد وهُما الشّاهدان؛ ليكتملَ بذلك توثيقُ العَقد.

وتأخَّر ذِكرُ جملةِ الإشهادِ عن جملةِ الكتابة؛ لأنَّها مؤخَّرة عنها رُتبةً، إذ يُتصوَّر كتابةُ عقدِ الدَّين بدون شاهِدين، لكن لا يُتصوَّرُ وجودُ شاهِدَيْن بدون عقدِ دَيْنٍ، فالشَّاهدان تابعان للعقدِ في الرُّتبةِ، متزامنان له في أثناءِ الإملال والاتّفاق.

بلاغة التَّوكيد في جملة: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾:

بيان أهميَّة الشَّهادة وخطرِ التَّلاعُب أو التَّهاونِ فيها على المُجتمع

جاء في قولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ عدَّةُ مُؤكِّدات تُبَيِّنُ أهميَّةَ الشَّهادة وأثرَها في حفظ الحقوق؛ ومن هذه المؤكِّدات:

أوّلًا: صِيغةُ الاستفعالِ في قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾، فالسِّينُ والتَّاءُ فيه لمُجرَّدِ التَّأْكيدِ، فإنَّ الألف والسِّين والتَّاء مع دلالة الطَّلب، تفيد: التَّوكيد والتَّحقيق[2]، فدلالة الطَّلب تُفيدُ تحرّيَ اختيارِ الشُّهود من أهل العدالة والتّحمُّلِ والقدرة على الأداء، وأن يكونوا لا يخشون في الحقِّ لومةَ لائم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/68، وسعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 81.
(2) ابنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/105.

ثانيًا: لفظُ الشَّهادة، فالتَّعبير بلفظة ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ التي هي على صِيغة فَعِيل للمُبالغة في المعنى في تَحَقُّقِ الوصفِ بالاستبصار والخِبرة، وهو مَنْ كثُرت منه الشَّهادةُ، وفي ذلك إشارةٌ إلى العدالة؛ لأنَّه لا يتكرَّر ذلك من الشَّخص عند الحُكَّام إلَّا وهو مقبولٌ عندهم[1]، فهو عالمٌ بموقعها، مقتدرٌ على أدائها، ففيه إشارةٌ إلى العدالة[2].

ثالثًا: تَعديةُ الفعل إلى المفعولِ المُطلقِ؛ إذ الأصلُ في المفعولِ المطلقِ التَّوكيدُ.

سِرُّ الحذفِ والإضمارِ في قوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾:

الإشـــارةُ إلى وُجـودِ العدالة والإســـلامِ في الشَّاهدَيْنِ

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ حذفٌ، وفيه إشارةٌ إلى العدالةِ والإسلامِ؛ أمَّا العدالة فَيَدُلُّ عليها إيجازُ الحذف؛ إذ التَّقدير: (شَهيدين كائنَين من رجالكم)، فهي وقعتْ مَوْقِعَ الإشارةِ إلى العدالة[3].

وأمَّا الإسلام فيدلُّ عليه الضَّمير في قوله: ﴿رِّجَالِكُمۡۖ﴾؛ أَيْ: مِنْ رِجَالِ المُسْلِمِينَ، فضَميرُ جماعةِ المُخاطَبِينَ مُرادٌ بِهِ المُسْلِمُونَ؛ لقوله في طالِعة هذِهِ الأَحكام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والضَّميرُ المُضافُ إليه أفادَ وَصْفَ الإِسلام[4]؛ لأنَّ المسلمين عُدولٌ بعضُهم على بعض.

سِرُّ استعمالِ نفي الشُّمول في قوله تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ﴾ لا شُمولِ النَّفي:

دفعُ توهُّم عدم قَـبـول شـهـادة النِّساء إلا عند تـعـذُّر وجــودِ الرِّجال

جِيءَ في الآيَة بكان النَّاقِصَةِ مَعَ إِمكانِ أن تَجيءَ تامَّة، فيُقال فإنْ لمْ يَكُنْ رجُلانِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ مِنْهُ أَنَّ شهادةَ المرأتَيْنِ لا تُقْبَلُ إلَّا عِنْدَ تَعَذُّرِ الرَّجُلَيْنِ؛ إذ التامّة معناها الوجودُ، فالمُراد هُنا نفيُ الشُّمول لا

(1) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/727، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 4/153.

(2) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/727، والآلوسي، روح المعاني: 2/56.

(3) ابْنُ عَطيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيز: 1/380، وأبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/747-748.

(4) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/106.

شُمولُ النَّفي؛ لِأَنَّ مقصُودَ الشَّارِعِ التَّوْسِعةُ عَلَى المُتعامِلِينَ، وفيه مَرْمًى آخَرُ وهُوَ تَعْوِيدُهُمْ إِدْخالَ المَرْأَةِ في شُؤون الحياةِ إِذْ كانت في الجاهليَّةِ لا تشتركُ في هذه الشُّؤون، فجعلَ اللَّه المرأتَيْنِ مَقامَ الرَّجُلِ الواحدِ، وعلَّلَ ذلك بِقَوْلِه: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ﴾، وهذه حَيْطَةٌ أُخْرى من تحريف الشَّهَادةِ، وهي خشيةُ الاشتباهِ والنِّسيانِ لأنّ المرأَة أَضْعفُ من الرَّجلِ بأَصْلِ الجِبِلَّةِ بِحَسَبِ الغالِبِ، والضَّلَالُ هنا بِمَعْنى النِّسيانِ[1].

فالسِّرُّ في نفي الشُّمول هو قوَّةُ الدَّاعيةِ إلى العنصر النِّسائيّ في الشَّهادة وبُدُوُّ الحاجة لا سيّما في المعاملات بَيْنَ النِّساء أو ما يكون مِنْ بَيْنِ أطرافِها نِساءٌ.

سِرُّ وَصْفِ الرَّجلِ والمرأتين بقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾:

تحرِّي العدالةِ والأمانة في الشُّهود

قوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾، يدلُّ على أنَّ الرَّجلَ والمرأةَ معروفان لدى المخاطَبين، وهما ممَّن يرضاهما المخاطَبون، وهذا التَّعريف يُشير إلى أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم مُختَبَرٌ في مثل هذه المواقف؛ حيث ثبت عدلُه وصدقُه، وهذا يقارب معنى ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾.

لكنّ قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ فيه من الشُّهرة ما لا يُوجَدُ في ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾؛ إذ الأصل في المرأة عدمُ الشُّهرة، وإن كان لا يمنَعُ تجربةَ الشَّهادةِ عليها؛ ولذلك زِيدَ بعد الوصف قولُه: ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، ولم يقل: (من المسلمين)، أو (من النَّاس).

ولأهميَّةِ الشُّهرة والعدالة في الشَّهادة جيء بإيجاز الحذفِ في ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾؛ إذ التَّقدير: فليشهدْ رَجُلٌ؛ أَيْ: مَرْضِيٌّ، وامْرأَتانِ مَرْضِيَّتان، مِن الشُّهَداءِ المَرْضِيِّين[2].

سِرُّ إظهارِ ما ظاهرُه الإضمارُ في قوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾:

دفعُ توهُّمِ ضلالِ واحدة من النِّساء الشَّاهدات بعينِها

قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فيه وضعُ الظَّاهر موضعَ الضَّمير، إذِ الظَّاهر: (فتذكرها الأخرى)؛ وذلك لتأكيد الإبهامِ والمبالغة في الاحتراز عن توهُّمِ اختصاصِ

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوير: 3/109.
(2) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/747-748.

الضَّلالِ بإحداهما بعينِها دون الأخرى، ولذلك لم يقل: (أن تضلَّ إحداهما فتذكِّرَها الأخرى)[1].

ولجواز أن تَضِلَّ كلٌّ منهما في جُزئيّة غيرِ الّتي ضَلَّت فيها الأخرى؛ إذ لو كان الضّلال في واحدة لا بِعَيْنها، وكانت شهادة الأخرى مستقيمةً، لكفتْ شاهدةٌ واحدة، لأنّه يَتحصَّل من مجموع شهادَتَي المرأتين شهادةٌ واحدة كاملة مُسْتقيمة.

وهذا تعليلٌ لاعتبار العدد في النِّساء، والعِلَّة في الحقيقة هي التَّذكيرُ، ولكنَّ الضَّلال لما كان سببًا له نُزِّلَ منزلَتَه، كما في قولك أعددتُ السِّلاحَ أن يَجيءَ عَدُوٌّ فأَدفعَه، فالإعدادُ للدَّفع لا لمجيءِ العدوِّ، لكنْ قَدَّم عليه المجيءَ لأنَّه سَبَبُه، كأنَّه قيل: لأجل أن تُذكِّر إحداهما الأخرى إنْ ضلَّت الشَّهادةَ بأنْ نَسِيَتْ[2].

وهذا يدلُّ على شِدَّةِ الاهتمام بشأن الإذْكار بحيث صار ما هو مكروهٌ كأنَّه مطلوب لأجله من حيث كونُه مُفْضِيًا إليه[3].

ولما كانت النُّفوس مُستشرِفَةً إلى معرفة أسبابِ الحوادث قدَّمَ في هذه العِبارة ذِكْرَ سببِ الأمر المقصود أن يُخْبَر به، وفي ذلك سَبْقُ النُّفوسِ إلى الإعلام بمُرادِها، وهذا من أبرع أنواعِ الفصاحة؛ إذ لو قال رجلٌ لك: أعددتُ هذه الخشبة أن أَدْعَمَ بها الحائط، لقال السَّامع: ولِمَ تَدعم حائطًا قائمًا؟ فيجب ذكرُ السَّبب فيُقال: إذا مال؛ فجاء في الكلام تقديمُ السَّبب أخصرَ من هذه المُحاوَرة[4].

وهذا التَّكرار والإظهار يُرشِّحُ الجملةَ لأنْ تَجريَ مَجرى المَثَل[5].

فائدةٌ أدبيَّةٌ في توجيه تَكرار ﴿إِحۡدَىٰهُمَا﴾:

قال الخَفاجيُّ[6]: سألتُ قاضي القضاة شهابَ الدِّين الغزنويَّ عن سِرِّ تَكرار إحدى، فَقُلْتُ:

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/270، والآلوسي، روح المعاني: 2/57.
(2) إسْماعيل حَقّي، روحُ البَيان: 1/441.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/57.
(4) ابْنُ عَطيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيز: 1/382.
(5) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/748، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 111-3/110.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 2/58.

يا رَأْسَ أَهْلِ العُلُومِ السّادَةِ البَرَرَةْ *** ومَن نَداهُ عَلى كُلِّ الوَرَى نَشَرَهْ
ما سِرُّ تَكْرارِ إِحْدى دُونَ تُذْكِرُها *** في آيَةٍ لِذَوِي الأَشْهادِ في البَقَرَهْ
وظاهِرُ الحالِ إيجازُ الضَّميرِ عَلى *** تَكْرارِ إِحْداهُما لَوْ أَنَّهُ ذَكَرَهْ
وحَمْلُ الِاحْدى عَلى نَفْسِ الشَّهادَةِ في *** أُولاهُما لَيْسَ مَرْضِيًّا لَدى المَهَرَهْ
فَغُصْ بِفِكْرِكَ لِاسْتِخْراجِ جَوْهَرِهِ *** مِن بَحْرِ عِلْمِكَ ثُمَّ ابْعَثْ لَنا دُرَرَهْ

فَأجابَ الغَزْنَوِيُّ:

يا مَن فَوائِدُهُ بِالعِلْمِ مُنْتَشِرَهْ *** ومَن فَضائِلُهُ في الكَوْنِ مُشْتَهِرَهْ
تَضِلَّ إِحْداهُما فالقَوْلُ مُحْتَمِلٌ *** كِلَيْهِما فَهْيَ لِلْإِظْهارِ مُفْتَقِرَهْ
ولَوْ أَتى بِضَميرٍ كانَ مُقْتَضِيًا *** تَعْيِينَ واحِدَةٍ لِلْحُكْمِ مُعْتَبَرَهْ
ومَن رَدَدْتُمْ عَلَيْهِ الحَلَّ فَهْوَ كَما *** أَشَرْتُمْ لَيْسَ مَرْضِيًّا لِمَن سَبَرَهْ
هَذا الَّذي سَمَحَ الذِّهْنُ الكَليلُ بِهِ ***واللَّهُ أَعْلَمُ في الفَحْوى بِما ذَكَرَهْ

نكتةُ استعمال الأمرِ في الاستشهادِ، واستعمالِ النَّهي في الامتناع:

خطابُ كلِّ صنفٍ بما يُناسبُ حالَه ويُؤثِّر في امتثالِه

لَمَّا أمرَ سبحانه وتعالى المخاطَبين باستشهادِ شهيدين بقولِه: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾، عطَفَ عليه قولَه: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾؛ لأَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ المُتَعاقِدَيْن باسْتِشْهادِ شاهِدَيْنِ نهى مَنْ يُطلَبُ إِشهادُه عن أن يأبى؛ لِيَتِمَّ المطلوبُ وهو الإِشهادُ.

وإِنَّما جِيءَ في خطابِ المُتَعاقِدَيْن بِصِيغةِ الأَمْرِ وجِيءَ في خِطابِ الشُّهَداءِ بِصِيغةِ النَّهْيِ اهْتِمامًا بما فيه التَّفريطُ، فإِنَّ المُتعاقِدَيْن يُظَنُّ بهما إِهمالُ الإِشهادِ فأُمِرا به، والشُّهُودُ يُظَنُّ بهم الامتِناعُ فنُهُوا عنه، وكُلٌّ يَستلزِمُ ضِدَّهُ(1).

كما أنَّ في الجملة تكرارًا للتَّأكيد؛ فإنَّه أمَرعند المُدايَنة بالكتابة أوَّلًا، ثُمَّ بالإشهاد ثانيًا، ثُمَّ أعاد ذلك مرّة أخرى على سبيل التَّأكيد فأمر بالكتابة(2).

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/112.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/96.

والَّذي يَظهَرُ أَنَّ الشهداء مدعوّون للشهادة تحمُّلًا ثمّ أَداءً، يدلُّ على هذا حَذْفُ المُتعلِّق بِفِعْلِ دُعُوا الذي يُفيد شُمُولَ مَا يُدْعَونَ لِأَجْله في التَّعاقُدِ مِنْ تَحَمُّلٍ عِنْد قصد الإِشْهاد، ثُمَّ مِنْ أَدَاءٍ عندَ الاحتِياجِ إِلى البَيِّنةِ[1].

نُكتة المجازِ المرسلِ في لفظِ الشَّهادة:

تحضيضُ الشُّهداء بالمدح وتنشيطُهم للامتثالِ

الاستشهادُ هو طلبُ الشَّهادة على أمرٍ بعينِه، وسمّتِ الآيةُ الشَّاهدين بشهيدين قبل الشهادةِ، باعتبار ما يَؤولُ إليه أمرُهما من الشَّهادة[2] في المستقبلِ؛ فذلك مَجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه اعتبارُ ما سيكون.

فتَسْمِيةُ المَدعُوِّينَ شُهداءَ باعتبارِ المُشارَفة تنزيلًا لما يُشارِف منزلةَ الكائنِ[3]، وكأنَّ في ذلك نُكْتَةً عظيمةً هي الإيماءُ إلى أَنَّهم بمُجرَّدِ دعوتِهم إلى الإِشهادِ قَدْ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِمُ الْإِجَابَةُ، فَصَارُوا شُهَدَاءَ[4].

وفي هذا المَجاز تحضيضٌ لهم بالمدح بهذا اللقب، بالإضافة إلى أنهم ذَوُو خِبرة، ومجرَّبون في الشَّهادة، وفي هذا إغراءٌ بالتزام العدالةِ والمروءةِ والاشتهارِ بذلك والمعرفة بها.

فائِدةُ مجيءِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾:

الحَضُّ على سُرعةِ الاستجابةِ بمجرَّدِ الدَّعوةِ

دخلَتْ (مَا) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ بين (إذا) والفعل (دُعُوا)؛ للتَّوكيد، ولتدلّ على سرعة الاستجابةِ وعدم التّأجيلِ أو التّسويفِ؛ فكأنّها تدلّ على الحِينيّة وتخصيصِ المستقبلِ الكامنِ في ﴿إِذَا﴾؛ وفي ذلك تعجيلٌ بحفظ الحقوقِ، وإيحاءٌ للشهود بخطورة الأمر ووجوبِ حَسْمِه في حينه[5].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/112.
(2) القِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/149.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/326، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/164.
(4) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/112.
(5) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 95، وابن هشام، مُغني اللَّبيب، ص: 335، وفي دلالة ما على تخصيص المستقبل في: (إذا).

بلاغةُ الكنايةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾:

تَنشيط المتداينين وحضُّهم على كتابة الدَّين

هذا النَّصُّ فيه النَّهْيُ عن شيءٍ، والمرادُ نهيٌ عن أَثَرِه، وهو هنا تَرْك الكتابة؛ فهي كِناية عن صِفة؛ لأنَّ السَّآمة تَحصُل للنَّفس من غير اختيارٍ، فلا يُنهى عنها في ذاتها، وقيل: السَّآمةُ هنا كِنايةٌ عن الكسلِ والتَّهاون، وقد وقعَ في القرآن الكريم صفةً للمنافقين(1).

كما أنَّ ضمير النَّصْبِ في ﴿تَكۡتُبُوهُ﴾ عائِدٌ على الدَّيْن لِسَبْقِه، أو على الحقِّ لِقُرْبه، والدَّيْنُ هو الحقُّ من حيثُ المعنى، وكأنَّ مَنْ كثُرت دُيُونُه يَمَلُّ من الكتابةِ، فنُهُوا عن ذلك(2).

ويلاحظ أيضًا في دَلالة الكِناية التَّحرُّزُ عن وصْف المؤمنين بصفةٍ التصقتْ بالمنافقين، وهي الكسل؛ فتجنَّب النَّظمُ الكريم وصْفَ المؤمنين بالصِّفة التي اشتُهر بها المنافقون؛ تكريمًا لهم، فقال: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾ بدلًا من ولا تكسلوا(3).

وجه التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قوله: ﴿صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا﴾:

تقديمُ الصَّغيرِ للاهتمامِ بشأنِ ما يتهاونُ النَّاسُ فيه في العادةِ

قُدِّم لفظُ ﴿صَغِيرًا﴾ على لفظِ ﴿كَبِيرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا﴾ مع أنَّ مُقتضَى الظَّاهِرِ العكسُ؛ لأنَّه قَصد التَّنصيصَ على العُمُوم؛ لِدَفع ما يَطرأُ من التَّوهُّماتِ في قِلَّةِ الاعتناءِ بالدَّينِ الصَّغيرِ وهو أكثرُ؛ خشيةَ التَّهاوُنِ به والتَّفريط فيه(4)؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49]، أو اعتِقادِ عَدَمِ وُجُوبِ كِتابةِ الدَّينِ الكبيرِ لو اقتُصِرَ في اللَّفظِ على الصَّغيرِ؛ فقدَّم الصَّغير هنا على الكبير للاهتمام به؛ لدفْع ما عساه أن يُقال: إنَّ هذا مالٌ صغيرٌ، أيْ: قليلٌ لا احتياجَ إلى كَتْبه، فبالغ في ذلك فقال على سبيل المُطابَقة: ﴿صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا﴾؛ أيْ: لا

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/58، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/114.

(2) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/736.

(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/326، وأَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/271.

(4) ابْنُ عَرَفَةَ، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَةَ: 1/332.

تَملّوا في حالٍ من الأحوال، سواء كان الدين كثيرًا أم قليلًا، وعلى أيّ حال كان، كما أنَّ المُعامَلات الصَّغيرةَ أَكثرُ من الكبيرةِ، فلذلك نُهُوا عنِ السَّآمة هنا(1).

ولأنّ مَن مَلَّ أو فتّرَ عن كتابة الصَّغير يُوشِكُ أن يَضْجَرَ من كتابة الكبير، فَبُلُوا بالنّهي عن ذلك.

فائِدة تَكرار ذكر الأجل في أوّلِ الآيةِ ووسطِها:

التَّنبيه على أهميَّةِ تعيينِ الأجلِ في الدُّيونِ كلِّها

ذُكِرَ الأجلُ في أوّل الآية في قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾، وأُعيد ذِكرُه هُنا في شِبه جملةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وقعت حالًا من الهاء في جملة ﴿تَكْتُبُوهُ﴾، والمعنى: ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا مُسْتَقِرًّا في ذِمَّة المدين إلى وقت حلولِه الذي أُقِرَّ به، فهو إيجازُ حذفٍ، والضميرُ في ﴿أَجَلِهِۦ﴾ عائدٌ إلى المَدِين؛ أي: الأجلِ الذي ضربه للدَّائن؛ لأنَّه أعلمُ بموعد سَداده وقُدْرته على هذا السَّداد، فجَعل الأجلَ وتحديدَه من خصائصه؛ حتَّى يَنشَط في توفيره وأدائه، وتَكرَّر ذِكْرُ الأجل لأنَّ السِّياق سياقُ سأمةٍ من الكتابة؛ مِمَّا يُشعر بالتَّهاون في الضَّوابط السَّابقة، فأُعيد التَّنصيصُ على الأجل لبيان أنَّه لا فرقَ بين ما سبق وما هو لاحقٌ(2).

ولأنّ ذِكر السَّآمة هنا بالنّهي عنها يجعلُها تُوشِكُ أن تتعدَّى إلى الأجل فتلحقَ كتابةَ الأجلِ سأمةٌ؛ أعاد ذِكرَه تأكيدًا على أهميَّة ذِكره، ولتأكيد تعيينِ الأجلِ المضروبِ؛ تحذيرًا من كتابةِ الدَّينِ وإهمالِ الأجل.

فائدةُ التَّحضيض بالخبر بعد الأمرِ والنَّهي:

حملُ المؤمنين على العدالةِ والتزام القوامة في الحقوقِ الماليّةِ

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ جملةٌ تحضيضيَّةٌ جاءتْ بعد تتابُعِ الأوامر والنَّواهي، وهي مكوَّنةٌ من

(1) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/114.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 97.

مبتدأ وهو ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، وعدَّةِ أخبار معطوفٍ بعضُها على بعض، فناسَب بعد النّهي عن السَّأم ما يُنشّط الهمّة ويحفّز العزيمة ويَحمِل على الاندفاع في مَهامِّ إثبات الدَّين والقيام بتحمُّله وأداءِ الشَّهادة عليه.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

إيـقـاعُ مـا بعد اسـمِ الإشـارة موقعَ التَّعليل لما سبق

الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ تعود إلى أقرب مذكور، وهو الكتابة، وقيل: الكتابة والاستشهادُ، وجميع ما تقدَّم ممَّا يحصُل به الضَّبطُ[1]، ومَجيءُ المسند اسمَ إشارةٍ للإيذان ببُعد منزلة المُشار إليه وعُلوِّ مكانه، وبيانِ أهميّته.

واسمُ الإشارة هُنا يُعيد أطرافَ المعاملة إلى رُؤية ما وُضع من ضوابطَ مرَّة أخرى، ليتبيَّنوا ما فيه مِنْ نعمة تشريعيَّة في ضبط الحقوق، ومن مصلحة مستهدَفةٍ في حفظ الإخاءِ والتَّضامُن بين أفراد المجتمع، وفي استظلال الجميع بشريعة اللّٰه لتنمية شعورِ المودَّة واستجلاءِ إحساسِ التّعبد للّٰه والدَّينونةِ له في كلّ صغيرة وكبيرة والإحساسِ بنعمة الإسلام العظمى، فكأنَّها مُراجعةٌ أخيرةٌ للدَّين، ومن هو الذي عليه الحقُّ ومن هو صاحب الحقِّ، ومتى السَّداد[2].

ثُمَّ خُوطب المؤمنون جميعًا فجِيءَ بكاف الخطاب والميم الدَّالة على الجمع؛ ليكون الأمرُ أشبهَ بالإعلان العامِّ غير المحصور في فئة دون فئة[3]، واسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى جميعِ ما تَقدَّمَ باعتِبارِ أنَّه مذكورٌ في الشَّأن الواحد، فلذلك أُشيرَ إليه باسم إشارةِ الواحدِ[4].

اللَّفُّ والنَّشرُ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾:

قيل: إنَّ في هذين الخبرين في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ لفًّا ونَشرًا[5]، والمُراد: أنَّ الإشهاد أقسطُ عند اللّٰه، والكتابةَ أقومُ للشَّهادة، فيكون لفًّا ونَشرًا؛ أيْ أعدلُ وأقربُ لقيام الشَّهادة[6].

---

(1) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/368، والسَّمين، الدُّر المصون: 2/669.

(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 98.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/59.

(4) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/114.

(5) اللَّف والنَّشر: أن تَلُفِّ بَيْنَ شَيئين في الذِّكر ثُمَّ تُتْبعهما كلامًا مشتملاً على متعلَّق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثِقَةً بأنَّ السّامع يردُّ كلاًّ منهما على ما هو له، كقوله عزَّ وعلا ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: 73]، يُنْظَر: السَّكاكيّ، مِفْتاحُ العُلوم، ص: 425.

(6) ابْنُ عَرَفَةَ، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَةَ: 1/332.

بلاغةُ الجملِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾:

الأولى: إيثارُ عنوانِ الألوهيَّةِ على الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

تحرِّي العدل ظاهرًا، ثمرةُ المهابةِ باطنًا

قال سبحانه: ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، والقِسْطُ هو العدل البَيِّنُ الظَّاهر[1]، ولم يقل: (عند ربّك)؛ لأنَّ السِّياق سياقُ حُكمٍ وميزان، وهو أليقُ بالجَلال منه بالجمال؛ لما في الاسم الجليل من تربية المَهابةِ في النُّفوس، فكيفَ إذا اجتمع الجمالُ والجلالُ المورِّثُ للمهابةِ؛ فإنَّه أدعى للامتثالِ والاعتبارِ.

الثَّانية: أثرُ ارتباطِ الشَّهادةِ بالقوامةِ:

الشَّهادةُ على المكتوبِ أثْبَتُ منها على المسموعِ

معنى قولِه: ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: أَعْوَنُ على إقامة الشَّهادة[2]، وأَصحُّ وأحفظُ[3]، فالشَّهادة على شيء مكتوبٍ أَقْوَمُ من الشَّهادة التي تعتمد على الذَّاكرة وحدَها؛ لأنَّ تتابُع الأيام يُنسي، ممَّا يَترتَّب عليه عِوَجٌ في الشَّهادة، أو نسيانُ بعضِها[4].

وذلك أمرٌ بدأ اللّٰه فيه بنفسه، وجعله من نظام مَلَكوته، فأشهد على أعمال خلقِه وأوصى عليهم، فقد قال في مُحكَم تنزيله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 13-14]، فهل هذا التَّشريعُ في المدايَنة إلّا للتَّذكير باللّٰه واليوم الآخِر، مع إقامةِ المصالح في المَعاش على وجهٍ يكفُل النَّجاةَ والسَّعادة في المَعاد؟

الثَّالثةُ: بلاغةُ اختيارِ ﴿وَأَدۡنَىٰٓ﴾ مع الارتيابِ:

ثُمَّ جاء الخبر الثَّالث: ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾؛ أي: أقربُ إلى عدم

(1) الرّاغِب، المُفردات، وابنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَبِ: (قسط).
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 2/404.
(3) القُرْطُبيّ، تَفسيرُ القُرْطُبيِّ: 3/401.
(4) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 99.

نفي الرِّيبة عن القلب يُقوِّي عملَ الجوارح

الارتياب، والارتيابُ شكٌّ مع تُهَمَةٍ[1]، ومع أنّ الارتياب أمرٌ قلبيٌّ فقد استُخدم معه لفظ أدنى، وهو مخصوصٌ بالقرب المكانيِّ؛ وفي ذلك إخراجٌ للمعنوي، وهو الارتياب في صورة المحسوس؛ لأن هذا المعنويَّ يترُك آثاره على الحواسّ مِن غضبٍ ونحو ذلك.

نُكتةُ حذفِ المفضَّلِ عليه في الجملِ الثَّلاث:

اختزالُ التَّفضيل في الألفاظِ المذكورةِ حفاظًا عليها

حَسُنَ حذفُ المُفَضَّل عليه؛ إذ التَّقدير: ذلكم أقسطُ عند اللّه من عدم الكتابة، وأقومُ للشَّهادة من عدم التَّحيُّز في الشُّهود، وأدنى إلى عدم الرِّيبة من ترْك كلِّ هذا.

ووجه الحُسْنِ هُنا هو اختزالُ التَّفضيل في تلك الألفاظ الثَّلاثة؛ حتى لا ينصرِفَ الذِّهن إلَّا إليها، فيُقبِل على الأمر والنَّهي إقبالَ المحبِّ المُوقن بحكمة ما وُضع من ضوابط، وأنَّه في صالحه[2]؛ ليُنْظَمَ هذا العمل التَّشريعيُّ المهمُّ في الجوّ الإيمانيِّ العامِّ والرُّوحِ الإصلاحيَّةِ السَّائدة بين المؤمنين المُنْبَعِثَةِ حميَّتُها وحُمَيَّاها فيهم ممَّا أمر اللّه به جميعَهم في قوله: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾ [النِّساء: 135]، وفي قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: 8].

براعةُ ترتيبِ الجمل الخبريَّة الثَّلاث:

جاء نَسَقُ هذِه الجمل في غاية الحُسن؛ إذ بُدئ بالأشرف، وهو قوله: ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فينبغي أن يُتَّبَعَ ما أَمَر به؛ إذ اتّباعُه

(1) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86.

(2) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/268، وسعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 101.

مُتَعلَّق الدِّين الإسلاميِّ، وبُنِيَ عليه قولُه: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لأنَّ ما بعد امتثالِ أمر الله هو الشَّهادة بعد الكتابة، وجاء قوله: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أخيرًا؛ لأن انتفاء الرِّيبة مُترتِّبٌ على طاعة الله تعالى في الكتاب والإشهاد، فعنهما تَنْشأ أَقْربيَّةُ انتفاءِ الرِّيبة؛ إذ ذلك هو الغاية في أن لا يقع ريبة، وذاك لا يتحصَّل إلا بالكَتْب والإشهاد غالبًا، فيُثلج الصَّدر بما كُتِب وأُشْهِد عليه، وما ضُبِطَ بالكتابة والإشهاد لا يكاد يقع فيه شكٌّ ولا لبس ولا نزاع(1).

التَّأكيد على أنَّ الشَّهادة في الحقوق لا بدَّ أن تكون بيِّنة واضحة

وهذا يؤكّد أنَّ التَّرتيب ترتيبٌ تنازُليّ، فبدأ بالأرفع وهو الالتزام بأمر اللّه تعالى؛ إذ هو الأساس الذي يُبْنى عليه، وانتهى بنَفي الرِّيبة؛ إذ هي العلَّة الملاحظة من وراء كلّ هذه الضَّوابط.

فهذه الضَّمانات، وإن كانت أوامر، ينبغي السَّمعُ لها والطَّاعة تَعَبُّدًا للّه تعالى، إلّا أنَّ من ورائها عِلَّةً عظيمة، وهي سلامة المجتمع، والمحافظة على علاقاته وروابطه، وهذا ما أكدته جملة: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾؛ فهذه ثَلاثُ عِلَلٍ، ويُسْتَخْرَجُ منها أَنَّ المَقْصِدَ الشَّرعيَّ أن تكُونَ الشَّهادةُ في الحُقُوقِ بَيِّنةً واضِحةً، بَعِيدَةً عن الاحتِمالاتِ والتَّوهُّماتِ، واسمُ الإشارةِ عائِدٌ إلى جميعِ ما تَقدَّمَ باعتِبارِ أنَّه مذكورٌ في الشَّأن الواحد، فلذلك أُشيرَ إليه باسم إشارةِ الواحدِ(2).

فائِدةُ الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾:

بيان تيسيرِ الله وتخفيفه على عـباده فيما يَعْسُرُ عليهم

قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يُبيِّنُ أنَّ التِّجارة الحاضرة بُيوعُها مستثناةٌ من قيد الكتابة، وتكفي فيها شهادةُ الشُّهود؛ تيسيرًا للعمليَّات التِّجارية التي يُعرقلُها التَّقييد، والتي تَتِمُّ في سرعة، وتتكرَّرُ في أوقات قصيرة؛ ذلك أنَّ الإسلام وهو يُشرِّع

(1) أبو حيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/268-269.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/114.

للحياة قد راعى كلَّ ملابساتها، وكان شريعةً عمليَّة واقعيَّة لا تعقيد فيها ولا تعويق لجريان الحياة في مَجراها، فالجملةُ من باب الاستثناء المنقطع من الأمر بالكتابة؛ أي: لكنْ وقتَ كونِ تدايُنِكم أو تجارتِكم تجارةً حاضرةً بحضور البَدلَيْن تُديرونها بينكم بتعاطِيهما يدًا بيد[1]، ولأنّها يدخلُها الشِّراءُ بالأجل ذُكرت من باب الشّيء بالشّيء يُذكر استيفاءً تشريعيًّا سادًّا للذَّريعة فإنّها تُتَّخذ بابًا للمُداينة.

معنى الاسْتثناءِ المنقطِعِ أنّ التِّجارةَ ليست دَيْنًا

وقد فَصَلَ كلامٌ كثير بين المستثنى والمستثنى منه، وأصلُ جملة الاستثناء هو: يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه إلّا أن تكون تجارةً حاضرة[2]، ومعنى الانقطاع هنا أنَّ التِّجارة الحاضرة ليست من باب الدُّيون في شيء[3]، لكن لمّا كانت في حاجة إلى توثيق عقدِ البيع، كما يُوَثَّقُ عقدُ الديون، أُلحقت التِّجارةُ بالدُّيون من وجه احتياجِها إلى توثيق، لكنّ توثيق عقد البيع أقلُّ كُلفةً وشروطًا من عقد المُداينة[4]؛ لحضور المُتَبَايِعَيْنِ والمُتَبَادِلَيْن وحصولِ التّقابُض، وما لا تقابُضَ فيه فَيعودُ أَدْخَلَ في باب الدَّيْن فَيُوَثَّق.

ولعلَّ فائدةَ ذِكْرِه الإيماءُ إلى تعليلِ الرُّخْصةِ في تَرْكِ الكِتابةِ[5]، ورفعِ الجُناح عن الكَتْب في الحاضر وبقاءِ الأمر في الإشهاد فيها من غير كَتْبٍ[6]؛ لأنَّه لا يُتَوَهَّمُ فيه ما يُتوهّمُ ما في التَّدايُن[7].

كما أنّ في هذا الأسلوب رعايةَ تشريعِ المصالح ودَرْءِ المفاسد، والإِذْنَ بارتكاب أخفِّ الضّررين عند تَعَيُّنِ أحدِهما، وأنَّ ذلك لدفع أعظمِهما، وأنَّ دفع المَفسدة مقدَّمٌ على جَلْبِ المَصلحة في جميع الشَّريعة.

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 1/271، وأبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/739.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/59.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/115.
(4) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 99.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/116.
(6) ابْنُ عَرَفَةَ، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَةَ: 1/333.
(7) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/327.

وجه النَّفي بـ (ليس) دون (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾:

رَفْعُ الحرَج عن المؤمنين في المعاملات وتنزيهُهم عن الخيانات

في الآية رخصةٌ في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرًا بحاضر لعَدَمِ شِدّة الحاجة إلى الكتابة(1)، والنَّفي بليس هُنا جاء فيما ليس بذنبٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: 5]، فالخطأ مَعْفُوٌّ عنه في الأصل، وعليه يُمكن فهمُ أنَّ الجُناح في قوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ غيرُ مقصور، أو غيرُ مُتأكِّدٍ في نفوسهم؛ لذلك جاء نَفْيُهُ بليس دون لا، فإنَّ نَفْيَ الجُناح عنهم لكمال التَّنزيه؛ لأنَّها تأتي في سِياق المباحات وما يُسْتَحْسَنُ من الأمور، مع أنَّ الأَوْلى كتابةُ التِّجارة الحاضرة الدَّائرةِ بَيْنَ المسلمين، وإن كان الحرج مرفوعًا(2).

سِرُّ تسميةِ المَيل بالجناح:

التَّخفيفُ على المتعاملين بالتِّجارة بنفي ما يقعُ منهم من ميلٍ

سُمِّي الإثم جُناحًا لَميله؛ فهو يميلُ بصاحبه عن الجادَّة، وهو مأخوذٌ من جناحِ الطَّائر لأنَّه يميل به، ويُسَمَّى الميلُ به تجوُّزًا، والمَيْل يَصْدُقُ إطلاقُه في أدنى ما يَحْصُلُ به، فأُريد التَّلطيفُ والتَّخفيفُ بنفي قليلِه المستلزِمِ نفْيَ كثيرِهِ؛ لأنَّ هذا أقوى لِقَلْبِ التَّاجر المُنْصرِفِ إلى تقليب الأموال، والبضائعُ إحدى صُوَرِهَا، فكذا المَيْلُ.

فائِدةُ تقديمِ جَوابِ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾:

توكيدُ الإشهادِ في المعاملات لحفظِ الحقوقِ ودفعِ العداوات

وهذه الجملة تشريعٌ للإشهاد عند البيع، ولو بغير دَين، إذا كان البيع تجارةً حاضرةً، وهي إكمالٌ لصورة المعاملة؛ فإنَّها إمَّا تدايُنٌ أو آيلٌ إلى التَّدايُن؛ كالبيع بدَين، وإمَّا تناجُزٌ في تجارة، وإمَّا تناجُزٌ في غير تجارة كبيع العقار والعروض في غير التَّجْرِ(3).

(1) السَّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن، ص: 118.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 104.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/116.

والجملة هُنا جملة شرطيَّة تَقدَّم فيها جوابُ الشَّرط على الفعل والأداة، فتقديرُها دون تقديمٍ: (إذا تبايعتم فأشهدوا)، وهذا النَّمَط من التَّركيب يُفيدُ التَّوكيدَ للجواب وهو الإشهادُ، والاستعدادَ والتَّهيُّؤ له بالبِدارِ إليهِ عند أوَّل بُدُوِّ الحاجة وعُرُوضِها.

وفيها تقريرٌ لمبدأ أنَّ الخيرَ مهما كَثُرَ يُكْتَفى منه بما تيسّر، وتطبيقٌ لروح التَّخفيفِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

بلاغة التَّوجيه[1] في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾:

أمرتِ الآيةُ بالكتابة بين المتداينَيْن، ثُمَّ أمرت بالإشهاد، وفي ذلك انتقالٌ إلى معنًى آخرَ مُتَّصلٍ بهما وهو النَّهيُ عن الإضرار، والمضارَّةُ بأن يُوقِع المتعاقدان الشَّاهدين والكاتبَ في الحرجِ والخسارةِ، أو ما يجرّ إلى العقوبة أو العكس، فهي تَحتمِلُ أن يكونَ الكاتبُ والشَّهيدُ مَصْدرًا لِلإضرارِ، أو أن يكونَ المكتوبُ لهُ والمشهودُ لهُ مَصْدرًا لِلْإضرارِ؛ لأنَّ يُضارَّ يَحتمِلُ البناءَ للمفعولِ والفاعلِ.

احتمالُ المفردةِ مَعْنَيَيْن كِلاهُما مُرادٌ؛ دليلٌ على إعجازِ القرآنِ

واختيارُ مادَّة الإضرارِ هنا مقصودٌ؛ لاحتمالِها حُكْمَيْن اثنين؛ ليكونَ الكلامُ مُوجَّهًا عليهما؛ فيُحملُ على كِلا معنيَيْهِ لِعَدَمِ تنافيهما، وهذا من أوجهِ الإعجازِ[2]، ففي الكلام توجيهٌ؛ كقول الله تعالى يذكر قول المشركين: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾ [النِّساء: 46].

فالمُضارَّة تَحتمل أن تكون واقعةً من الكاتبِ والشُّهودِ على المتعاقِدَيْن، أو من المُتَعاقِدَيْن على الكاتبِ والشُّهودِ، فجاءت العبارة مُتّسعة للمَعْنَيَيْن كليْهما، مؤَدّية لهما في إعجاز مُذْهِلٍ جامعٍ لخصائص القاعدة القانونيَّة، وقد حاولَت أرقى الأنظمة البشريَّة المعاصرة وأكثرُها تمثيلًا لِقيم العدالةِ وكفالة حقوق المتقاضِين أنْ تتواضع عليه، وتهتدي إليه، وسيادةُ القانون بأن تكون القاعدة القانونية عامّةً ومجرّدة، ومع ذلك فَلَمْ يَبْلُغْ أدقُّها أدنى ما في

(1) التوجيه هو: إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين، كقول من قال للأعور: ليت عينيه سواء، يُنْظَر: السَّكاكّي، مِفْتاحُ العُلوم، ص: 427.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/117.

تشريعات الإسلام من أحكام وعدل وكفالةِ حقوقٍ لجميع الأطراف والأطياف والأصناف على السَّواء.

سِرُّ مجيءِ اسمِ إنَّ ضميرَ شَأْنٍ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾:

المبالغةُ في وصف المُضَارِّ بالفسوق تَنْفيرًا من الإضرار وتحذيرًا منه

جاء اسمُ (إنّ) ضَمِيرَ شأنٍ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾، ولضمير الشَّأنِ شأنٌ في بلاغة العرب، فقد مضى العلماء على أنَّ فائدته الدَّلالةُ على تعظيم المُخْبَرِ عَنْهُ وتفخيمه بأن يُذكر أوَّلًا مُبهمًا ثُمَّ يُفَسَّر[1].

وعليه فتقدير المعنى: فإنَّ الفُسوق بكم، وكَوْنُ ضمير الشَّأنِ مُفَخِّمًا ومُعظِّمًا للمُخْبَرِ عنه يعني أنَّ التَّفخيم لِلفسوق تفخيمُ خطرٍ وتعظيمُ شرٍّ تحذيرًا من الوقوع فيه، وإنباءً عن تمكُّنه مبتغى التمكّين وتوطُّنه منتهى التوطُّن من نفس المخالِف وكيانه وبنيانه، وأنَّ المُبالغة في الفسوق هي لونٌ من ألوان التَّنفير، وزَجْرٌ لكلِّ من تُسوِّل له نفسُه الإضرارَ بالكاتب أو الشَّاهد؛ لأنَّ فسقَه سيكون مؤكَّدًا ومبالغًا فيه[2].

ثُمَّ إنَّه كان يُمكن أن يُقال: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ﴾ وكفى، لكنّه زاد النِّسبةَ، فقال: ﴿بِكُمۡۗ﴾، وكأنَّ الفسوق يتعلَّق بهم حالَ إضرارِهم بالكاتب أو الشَّهيد، فهو خروج عن طاعةٍ مُتَلبِّسٌ بكم، وتكون الباء للظّرفية، وهو أبلغ في كونه محلًّا للفسق[3]؛ لإشعارهم بأنّ ضررًا عظيمًا وأَذًى مُتَفاقِمًا قد لحِق بهم، فعليهم الإسراعُ للتَّخلص منه.

بلاغةُ تَكْرارِ الاسم الأحسن في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

أُظْهِرَ اسْمُ الجَلالَةِ في الجُمَلِ الثَّلاثِ لِقَصْدِ التَّنويهِ بكُلِّ جملَةٍ

(1) السُّيوطيّ، الإتْقان: 1/552.

(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 108.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/60.

التَّنويه بما في الجمل الثَّلاث، لتربيةِ المَهابة، والحثِّ على التَّقوى لتحصيل العلم

منها حتَّى تكُونَ مستقِلَّةَ الدَّلَالةِ، غيرَ محتاجة إلى غيرها المُشتمِلِ على مَعادِ ضميرِها، حتَّى إذَا سَمِعَ السَّامعُ كُلَّ واحدةٍ منها حصل لهُ عِلمٌ مستقلٌّ، وقَد لا يَسْمَعُ إحداها فلا يضُرُّهُ ذلك في فهْمِ أُخراهَا[1]، ولأنَّ الذِّكر أدخلُ في التعظيم من الكِناية؛ لإدخال الرَّوْعِ في القلوب، وإحداثِ المَهابة في النفوس، وترسيخِ الحُكم في الأذهان، والإشعارِ بأنَّه تعالى مطَّلع على السَّرائر، لا تعزُبُ عنه همَساتُ القلوب، وخَلَجاتُ الضَّمائر[2].

وفيه غايةُ المناسبة في ختْم آياتِ هذه المعاملات بصِفة العِلم بعد الأمْرِ بالتّقوى؛ لِما يفعلُه المتعاملون من الحِيَل التي يَجتلب كلٌّ منهم بها الحظَّ لنفسه، والتّرغيبُ في امتثال ما أمرهم به في هذه الجُمل بأنَّه من علَّمه وتعليمه، وهذا الخَتْمُ جامعٌ لبُشرى التَّعليم وتهديدِ الإنذار[3].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّين والقَرْض:

الدَّيْن ما له أجلٌ وهو أعمُّ من القَرْض

القَرْضُ أكثرُ ما يسْتَعْمل في العين والوَرِق، ويكون من جنس ما اقترض، فيَأخذ الرَّجل من مَال الرَّجل درهمًا، ليردَّ عَلَيْه بدَلَه درهمًا، فَيبقى دينًا عَلَيْه إلى أَن يَرُدَّه، أمَّا الدَّين فيدخل فيه القرضُ، وأَثمان مَا يَشْتَرِي بالنَّسَأ، فالدّيون تقضَى بأمثالها وبأعيانها[4]، فَكلُّ قرضٍ دينٌ، ولَيْسَ كلُّ دينٍ قرضًا، كما أنَّ الدَّين يُطلق على ما لَه أجلٌ، وأمّا ما لا أجلَ له فقرضٌ[5]، وقيل: الدّين: كلّ معاوضة يكون أحد العوضين فيها مؤجّلا، وأمّا القرض: فهو إعطاء الشّيء ليستعيد عوضًا وقتًا

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/118.
(2) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 1/165، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/748، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 4/159-160، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/440-442.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 4/159-160.
(4) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 171، والمُطَرِّزِيّ، المُغرب في ترتيب المُعْرَب، ص: 379.
(5) الكَفَويّ، الكُلّيات، ص: 444، وجبل، المُعْجَمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (دين).

آخر، من غير تعيين الوقت، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، حيث اعتبر الأجل في مفهوم الدّين، ولم يعتبر ذلك في القرض[1].

الإباء والكَراهيَة:

الإبــاء شِــدَّة الامـتـنـاع عن الـــشَّيء، والكراهيَةُ بُغضه

الإباء: شِدَّةُ الامتناع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34]، والكراهيَةُ للشّيء بغضُه وَعدمُ مُلاءَمَتِه، وقد يَكْرَهُ الشَّيءَ من لا يَقدر على إبائه، ولذا يقولون للمَلِك أبيتَ اللَّعنَ، ولا يَعْنونَ أنَّك تَكره اللَّعنَ؛ لأنَّ اللَّعنَ يكرهه كلُّ أحد، وإنَّما يُريدون أنَّك تَمتنع من أن تَلْعَنَ وتشتِم لما تأتي من جميل الأفعال[2]، والإباء الامتناع باختيار، أي مع تمكّنه من الفعل، فهو أبلغ منه، وإن أفاد فائدته[3].

البَخْس والنَّقْص:

البَخس نَقصٌ مـع ظُـلـم واحتيالٍ، فهما يـفـضـيـان إلى ملمح مشترك

البَخْسُ النَّقْصُ المصاحب للظّلم، فيكون بِالتَّعْيِيبِ وَالتَّزْهِيدِ، أو الْمُخَادَعة عن القِيمةِ، أو الاِحتِيالِ في التَّزيُّدِ في الكَيْلِ أو النُّقصَان منه، عن غَفلَة من صاحِبِ الحقِّ قال تعالى ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: 85]؛ أي: لا تنقصوهم ظُلْمًا، وَأَقْرَبُ الْأَلْفَاظِ إِلَى معناهُ الغَبْنُ، والنُّقصان يكون بالظُّلم وغيره[4]، وتأكيدًا لذلك نذكر أنّ "التّطفيف في الكيل والميزان، هو البخس والنّقص كما سلف، وقد فسّره بذلك الزّمخشريّ، واختاره ابن عطيّة، وقيل التّطفيف: هو تجاوز الحدّ في زيادة أو نقصان، واختاره ابن الفرس، وهو الأظهر، لأنّ المراد به هنا بخس حقوق النّاس في المكيال والميزان، بأن يزيد الإنسان على حقّه أو ينقص من حقّ غيره"[5]، وأيّا كان

(1) العَسْكريّ، الفُروقُ اللُّغويَة، ص: 171.
(2) الراغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاجُ العَروسِ: (أبى)، العَسكَريّ، الفُروقُ اللُّغويَة، ص: 8.
(3) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضِي: 2/131.
(4) ابْنُ العَرَبيّ، أحكام القرآن: 2/318، اوبْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/104، والعَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 92.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/460.

فالبخس نقصٌ، والنّقص بخسٌ، لكن لا شكّ أنّ في كلّ بخس ظلمًا، ولكن ليس بالضّرورة، أن يكون في كلّ نقص ظلمٌ.

الشَّهيد والشَّاهد:

الشَّاهد شَهادَتُهُ خِبْرَةٌ ومَعرِفةٌ، والشَّهيدُ شَهادَتُهُ ما سَمِعَ وَرَأى

الشَّهادةُ في أَصْلِ اللُّغةِ معناها: الحُضُورُ، وفي الاصطِلاحِ هي: خَبَرٌ قاطِعٌ صادِرٌ عن عِلْمٍ حَصَلَ بمُشاهدة بَصَرٍ أو بَصِيرةٍ[1]، وتَنقَسِمُ من حيثُ الطَّرَفُ الَّذي يُؤَدِّيها إلى قسمين: شَهادةِ شاهدٍ وشهادةِ شَهيدٍ؛ والفرقُ بينهما أَنَّ شهادةَ الشَّاهدِ هِي شَهادةُ مَعْرِفَةٍ وخِبرةٍ مُكتَسَبةٍ؛ ومِثالُها قولُه تعالى في قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسف: 26-27]، فَهَذَا الّذي شَهِدَ مِنْ أَهْلِ امرأَةِ العَزيزِ، لم يَشْهَدِ الواقِعَةَ بنَفسِه، حتَّى يَكُونَ شَهيدًا عليها؛ ولكنَّه شَهِدَ مِنْ واقِعِ خِبرتِه بالأَدلَّةِ، ومعْرفتِهِ بكيفيَّةِ سَيْرِ الأُمُورِ، ومنطقيَّةِ الأَحداثِ بنتائِجِها[2]، أَمَّا شَهادةُ الشَّهيدِ فهي شَهَادَةٌ حُضُوريَّةٌ، تَعتمِدُ على السَّمْعِ والبَصَرِ؛ ومِثَالُها قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ وقولُه: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾، فنُلاحِظ هنا أَنَّ الَّذي طُلِبَ منهُ أَنْ يَشْهَدَ على عَقْدِ المُدايَنَةِ والمُبايَعةِ، هُوَ حَاضِرٌ إبّان العقد، فَهُوَ شَهيدٌ، وليْسَ بشَاهِدٍ[3]، وقيلَ أَيْضًا إنَّ الشَّاهِدَ بمعنى الحُدُوثِ، والشَّهيدَ بمَعْنَى الثُّبُوتِ، فَإِنَّهُ إذا تَحَمَّلَ الشَّهَادَةَ فَهُو شاهِدٌ باعْتِبارِ حُدُوثِ تَحمُّلِهِ، فَإِذَا ثَبَتَ تَحمُّلُهُ لَها زَمَانَيْنِ أو أَكْثَرَ فهو شَهيدٌ[4].

---

(1) الرّاغِب، المُفْردات: (شهد).

(2) هذا أحد وجوه تفسير وصف الشّاهد في القصّة من أقوال المفسّرين، قال القرطبيّ لما ذكر تحيد هذا الشّاهد: وهو الصَّحيح في الباب. يُنْظَر: القُرْطُبيّ، تَفْسيرُ القُرْطُبيِّ: 06/321.

(3) الماتُريديّ، تَأْويلاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ: 02/278.

(4) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 292.

ويَتَحَصَّلُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الّذي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ انطِلاقًا من خِبْرَتِه ومَعْرِفَتِه هو شَاهِدٌ، وليس بِشَهِيدٍ، وأَنَّ الذي يُؤَدِّي شَهادتَهُ انطِلاقًا من سَمْعِه ورُؤْيَته هو شَهِيدٌ، وليس بِشاهِدٍ.

الضَّلال والنِّسيان:

الضَّلالُ عُدولٌ عـن الحـقِّ، والنِّسيانُ ذُهول عنه بعدَ معرفتِه

الضَّلال هو العُدُول عن الطَّريق المُستقيم، ويَسبق العِلْمَ بالشَّيء والمعرفةَ به، وضِدُّه الهُدى[1]، فالكلمة من الأضداد، وأصل الضّلال الهلاك، ومنه قولهم (ضلّت النّاقة)، إذا هلكت بضياعها وفي القرآن ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10]، أي هلكنا بتقطع أوصالنا[2]. أمَّا النِّسيانُ فهو ضَياعُ العِلْم بعد عِلْمِه، وزوالُ المعرفة بعدَ معرفتِها، وضِدُّه الذِّكرُ؛ فالضَّلالُ أَنْ تُخطِئَ الشَّيءَ في مكانِه، فلم تهتدِ إليه، والنِّسيانُ أن تغفُلَ عنه[3]، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام: 68]، ويمكن أن يُسمَّى الضَّلالُ نِسْيانًا مَجازًا على اعتبار أنَّه سببٌ فيه، نحو: ﴿أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الفرقان: 29][4].

العَدْل والقِسْط:

الـعَـدْلُ أعـمُّ مـن الـقِـسْـطِ، والـقِـسْـطُ عَـدْلٌ ظاهر غالب

العَدْل لفظٌ يَحمِل مفهوم المساواةِ وضِدُّه الظُّلم، والقِسْط هُوَ العَدْل البَيِّن الظَّاهِر، وَمِنْه سُمِّي المِكْيَالُ والمِيزَان قِسْطًا، لِأَنَّهُ يُصَوِّر العدل في الوزن حتَّى تراهُ ظاهرًا، كما أَنَّ القِسْط هُوَ النَّصِيبُ العادل الَّذِي بُيّنت وجوهُه، يُقال أخذ فلانٌ قِسْطَهُ وحِصَّتَهُ من العمل، واستوفى فلانٌ قِسْطَه من الإرث؛ أي نصيبَه كاملًا، وضِدُّ القِسْط الجَوْرُ، لأنَّ أصل قَسَطَ جارَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/225.

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 392.

(3) إسماعيل حَقّي، روحُ البَيان: 5/395.

(4) وفي قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 2]: هل الغاوي والضّال واحد؟ يجاب عن ذلك: بأنّ الضّلال: يكون قبل البيان، والغواية والفساد بعد البيان. ينظر: السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/358.

﴿ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجنّ: 14- 15] وهمزتُه للإزالة، وإزالةُ الجَوْرِ العَدْلُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: 9]، والقِسْطُ بكسر القاف هو العدل، والقَسْطُ بفتح القاف هو الظّلم، وهناك مصدر ثان هو (قسوط) لكن الفعل واحد، وعندما يقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ [النساء: 3]، فهي من أقسط، أي خفتم من عدم العدل وهو الظّلم، والهمزة في أقسط هي همزة الإزالة، وهي همزة تدخل على الفعل فتزيله، مثال ذلك: (فلان عتب على فلان)، أي لامه على تصرف ما، ويقال: أعتبه، أي طمأن خاطره، وأزال مصدر العتاب[1]. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [المائدة: 42]، دلّ هذا على بيان القسط، وأنّ مادّته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنّها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم[2]، وممّا سبق كلّه، فالعَدْلُ أَعَمُّ من القِسْطِ؛ لأنَّ القِسْطَ هو العَدْلُ في الظَّاهر، بينما العَدْلُ يكون في الظَّاهر والباطن جميعًا، كما أنَّ القِسْطَ يناسب الجزاءَ الحَسَنَ فقط، بينما العَدْلُ يشمَل الجزاءَ الحَسن وضِدَّه[3].

الرَّيْب والشَّكّ:

الـرَّيْـبُ شـكٌّ وزيـادةُ تُهَمةٍ أو سُوءِ ظَنٍّ

الرَّيْبُ قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[4]، وهو شَكٌّ مع تُهَمة لِلمُخْبِرِ[5]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ[6]، والشَّكُّ وقوفُ النَّفسِ بين شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْن من دون أَمارةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهما[7]، فالرَّيْب أَخَصُّ من الشَّكِّ[8]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، أي: آمنوا ثمّ لم يقع في نفوسهم أدنى شكّ فيما آمنوا به، ولا وقع في نفوسهم اتّهام لمن

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: (الخواطر): 4/1997.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/234.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234، والرّاغِب، المُفردات، ابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَبِ: (قسط).
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/34.
(5) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86، والهرريّ، تفسير حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/409، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.
(6) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/137.
(7) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/115.
(8) السَّمين، الدُّر المصون:/86.

صدّقوه، ولفظ ﴿يَرۡتَابُواْ﴾ من ارتاب، "إذا أوقعه في الشّكّ في الخبر، مع التّهمة للمخبر فظهر الفرق بين الرّيب والشّك؛ فإنّ الشّكّ تَرَدُّدٌ بين نقيضين لا تهمة فيه، وفيه إشارة إلى أنّ فيهم ما يوجب نفي الإيمان عنهم، وهو الارتياب، ولفظ (ثمّ) في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾، للإشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان، ليس في حال إنشائه فقط، بل وفيما يستقبل"[1].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/95.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: 283]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين حالة وجود كاتب الدَّيْنِ، وحالة الاكتفاء بالرّهان المقبوضة

لَمَّا ذَكَرَتِ الآيَةُ السَّابِقةُ حُكْمَ الدَّيْنِ، ومَا يتعلَّقُ بِهِ مِن أَحكام عامَّةٍ في حالِ الاستِقرَارِ في الحضر، ناسَبَ أَنْ يَنتَقِلَ إِلى بيانِ حُكْمِ الدَّيْنِ في حالِ السّفر، اسْتِكمَالًا واسْتِتْباعًا لِمَا بَدَأَتْه الآيةُ السَّابِقَةُ، في تَقرير الحُقوقِ الماليَّةِ وحفظِها، وتشريعِ مستلزماتها من الإِشهادِ والكَتْبِ، وأمانة الكاتب والمُملي، حِفاظًا على أموالِ الدَّيْن الّتي في الذّمم، وعلى أحكام الدِّينِ المُتجلّية في أشرف القيم، وما يطرأ من أعذارٍ مانعةٍ من التّدوين، بسبب انعدام الوسائل، ممّا يفاجئُ أحيانًا الدّائن والمدين، فكان تشريع الاِسْتِيثاق، بِأَخْذِ الرِّهَانِ عوضًا عن تدوين الدَّيْن في الأوراق، ونَصَّ في ذلك على عُذْرِ السَّفر، لا سِيَّما في زمان الغَزْو القديم، وما يكتنفه من مخاطر وضرر[1]. كما أنَّه تعالى، جَعَلَ البيع في هذا المَقام على ثَلاثَة أقسام، هي: بَيعٌ بكِتابٍ وشُهودٍ، وبيعٌ بِرهانٍ مَقْبوضةٍ، وبيعٌ بالأمانة، فبَيَّنَ الأَوَّلَ، وشرع في الثَّاني والثَّالثِ، على نحو ما نصّت عليه هذه الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِهَٰنٌ﴾: جَمْعُ رَهْنٍ، وهو ما يُوضَعُ وثيقةً للدَّينِ، وَأَصْلُ الرَّهْنِ يَدُلُّ عَلَى الحَبْسِ، يُقَالُ: هذا راهنٌ لَكَ، أَيْ: دَائِمٌ مَحْبُوسٌ

(1) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/406-407، وابنُ عَطيَّة، المَحَرَّرُ الوَجيزُ: 1/385، والرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/99.
(2) النَّيسابوريُّ، غَرائِبُ القُرآنِ: 2/79.

عَلَيْكَ، والرَّهْنُ: مَحْبوسٌ بِيَدِ الدَّائِنِ على الدَّين المَرْهونِ به إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ دَيْنَه[1]، وَيُقَال: هَذَا الشَّيْء راهِنٌ لَك، أَي معدّ لَك، وَقد أرهنتُ لَك كَذَا وَكَذَا، أَي أعددته لَك. قَالَ الشَّاعِر:

يَطْوِي ابْنُ سَلْمَى بِهَا مِنْ رَاكِبٍ بُعداً *** مَهْرِيَّةً أُرْهِنَتْ فِيهَا الدَّنانيرُ

أَي أُعِدّت. ورِهان الْخَيل: مصدر راهنتُه مراهنةً رِهاناً، إِذا تواضعتما بَيْنَكُمَا الرّهونَ. وَفُلَان رَهين بِكَذَا ومرتهَن بِهِ، ومرهون بِهِ، أَي مَأْخُوذ بِهِ[2].

2) ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾: الأَداءُ: دَفْعُ الحقِّ وتَوْفِيَتُهُ، كأداءِ الخَرَاجِ والجِزْيَةِ وَرَدِّ الأمانةِ، وأصلُ الأَداءِ: إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ، أو وُصُولُهُ إِلَيْهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِه، والمَعنى هُنا: فلْيَدْفَعِ المأمونُ الأمانةَ الّتي يُرِيدُ الآمِنُ رَدَّها، وهي الدَّينُ الّذي أُخِذَ دون كتابةٍ ورِهانٍ، أو بِرهانٍ مَقْبوضَةٍ فَقَطْ[3]، وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَانَتْ كِتَابَةُ الدَّيْنِ وَالإِشْهَادُ وَالرَّهْنُ فَرْضًا، ثُمَّ نُسِخَ الْكُلُّ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾، وَهُوَ قَوْلُ الشَّعْبِيِّ[4].

3) ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟﴾: الكِتْمانُ: سَتْرُ الحديث، يُقالُ: كَتَمْتُه كَتْمًا وكِتْمانًا، وأصلُ كَتَمَ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وَسَتْرٍ، يُقَالُ: نَاقَةٌ كَتُومٌ: لَا تَرْغُو إِذَا رُكِبَتْ، وسَحابٌ مُكْتَتِمٌ: لا رَعْدَ فيه، والمعنى هُنا: حَبْسُ الكلام عمَّا في القلبِ، مِنْ شهادةٍ أو عِلْمٍ[5]، وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ "خطابٌ لمن عليه الحقّ، وللشّاهد جميعا، لأنّ الشّهادة إعلام، ويقال للإقرار شهادة، ولهذا قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: 135]، وكما أنّ كتمان الشّهادة محرّم، فما هو منه بسبب محرّم، كالتّأخّر عن إقامتها عن تحمّلها في بعض الأحوال"[6].

4) ﴿ءَاثِمٌ﴾: الآثِمُ: المُتَحَمِّلُ الإِثْمَ، يُقالُ: أَثِمَ إِثْمًا، فهو آثمٌ وأَثيمٌ، والإثمُ: اسمٌ

(1) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، والسَّمين، عُمدَةُ الحُفّاظ: (رهن)، وابنُ قُتَيبَة، غَريبُ القُرآنِ، ص: 100، وابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنويرُ: 3/12.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رنه).

(3) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (أَدَى)، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (أَدَيَ)، والمصطفويّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريم: 1/55.

(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/349.

(5) الرّاغِبُ، المفردات، والزَّمخشريُّ، أَساسُ البَلاغَة، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وجَبَل، المعجَمُ الاِشتِقاقيّ: (كتم)، والمصطفويّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريم: 10/24.

(6) الرّاغِبُ، تفسير الرّاغب: 1/593.

للأفعالِ المُبَطِّئَةِ عن الثَّوابِ، وَأَصْلُ الإثْم: البُطْءُ وَالتَّأَخُّرُ، يُقَالُ: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ: الوِزْرُ والذَّنْبُ؛ والمعنى هُنا: مُبْطِئٌ عن السَّيْرِ إلى الحقِّ، ومَحْجوبٌ عَنْهُ[1]، وخلاصة معناه: "ومن يكتم شهادته، ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾، أي: فاجرٌ قلبه، مكتسبٌ بكتمانه إيّاها معصية اللّه"[2].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

دعـوة أطـراف الدّين إلى الكتابة المعروضة، مع تقوى الله فيها وفي الـرّهـان المقبوضة

تُرشِدُ الآيةُ المؤمنينَ إلى تقديم الرّهان المقبوضة بين الطّرفين، حالَ السّفر الملزم وانعدام كاتبٍ لوَثيقة الدَّين، ضَمانًا للحقوق من الضّياع، فإنْ وَثِقَ بَعْضُهم ببعضٍ؛ فهم على الخيار، في تَرْكِ الكِتابةِ والرَّهْنِ والإشهادِ، ويكونُ الدَّينُ حينئذٍ أمانةً في ذِمَّةِ المَدِين، يُسأل عنها يوم يقوم الأشهاد، ولا مندوحة عن أداء الدَّين ومراقبة اللّه في تصرّف الدّائن والمدين؛ فلا يُنْكِرِ المدين ما في ذمّته، ولا يكتم الشّاهد فحوى شهادته، ومَنْ كتم الشّهادة فهو خائنٌ للضّمير؛ ومخالفٌ لأوامر اللّه المُطّلِعِ على الفتيل والقطمير، والمُحيطِ عِلْمُهُ بكلِّ كبير من الأمور وصغير، وسوف يُجازي كلّا بدعواه، ويحاسبه اللّه على ما قدّمت يداه[3].

الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تتميمُ الأحكامِ واستكمالُ أحوالِها أداءً للحقوقِ وحفاظًا على الأمانات

فائدةُ الوَصْلِ بين الجُملِ:

عُطِفَ قولُه سبحانه وتعالى: ﴿۞وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة: 282]، اسْتِكمالًا للحُكمِ الواردِ في الآيةِ السَّابقةِ، فهو تَتْميمٌ وتَكْميلٌ لأحوالِ المُدايَنةِ وتوثيقِها،

(1) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (إثم)، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة، والجَوهَريُّ، الصّحاحُ، وجَبَل، المعجَمُ الاشتِقاقيُّ: (أثم)، والمصطفويّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 1/36.

(2) الرّاغِبُ، تفسير الرّاغب: 1/593.

(3) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 68، ونُخبَةٌ مِن أساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المَيَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسير، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49 (بتصرّف).

فالعطفُ لِمَا بين المُتعاطفَين من الاشتراكِ في حُكم توثيقِ الدَّين، والاختلافِ في الأحوالِ، فحالُ الحَضَرِ يختلفُ عن حالِ السَّفَرِ، ففي العطفِ تتميمٌ واستكمالٌ بديعٌ.

نكتةُ استِعمالِ (إن) دون (إذا):

رِعايةُ الأحوالِ نادِرَةِ الوقوعِ، دليلُ رعايةِ الأحوالِ كثيرةِ الوقوعِ

استَعملتِ الآيةُ أداةَ (إن) الشَّرطيَّة دون (إذا) في قولِه: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ لبيانِ نُدْرةِ وقوعِ مثلِ هذه الحال؛ فالسَّفرُ قليلٌ زمانُه مُوازَنَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ زَمَنِ الإقامة، والمسافرون عددُهم أقلُّ من عدَدِ المُقيمين، والمسافرون الّذين يَضطرُّون إلى المُداينة أقلُّ من الّذين لا يَتَدايَنون، ومع ذلك كلِّه، فالآيةُ ذكَرَتْ هذه الحالَ لبيانِ قِيمةِ الحقِّ في التَّشريعِ القرآنيِّ، فهذه الحالُ - وإنْ قلَّتْ - فالعنايةُ بها مَرْعيَّةٌ، وهو دليلٌ على العنايةِ بالحالِ الكثيرة.

فائدةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

بيانُ أثرِ الانشغالِ بالسَّفرِ عن وِجدانِ الكاتبِ أبْدَالَ الكتابةِ

عدَلَ النَّظمُ الكريمُ عن استعمالِ اسمِ الفاعلِ (مُسَافرين) فلم يقل: (وإن كنتم مسافرين) مع أنَّه أوجزُ لفظًا؛ إذ ليس فيه إشارةٌ بالاستيلاءِ على السَّفر[1]، الّذي يَظهرُ بالاستعارةِ التَّمْثيليَّةِ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾[2]، حَيْثُ شبَّه تَمكُّنَهُم في السَّفر بِتَمَكُّنِ الرَّاكِبِ مِنْ مَرْكوبه[3]؛ فكأنَّه راكِبُ سَفَرٍ؛ لأنَّ معنى الاستعلاءِ في: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تمثيلُ تمكُّنِهم وتوغُّلِهم في السَّفر بحال مَن اعتلى الشَّيءَ ورَكِبَهُ؛ ففيه تَشبيهُ تَلَبُّسِه بالسَّفر باستعلاء الرَّاكب، واعتلائه عَلَى المَركوب الّذي تمكَّنَ منه واستقرَّ عليه، فهو يتصرَّفُ فيه كَيْفَ يَشَاءُ[4].

وفائدةُ هذه الاستعارةِ: بيانُ أثرِ الانشغالِ بالسَّفرِ، عن وِجدانِ الكاتبِ أبدالَ الكتابةِ، بالتَّنْصيصِ على حال العُذْرِ الغالبِ من

(1) الخَفَاجيُّ، عناية القاضي: 1/245.
(2) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/490.
(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/60.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاويِّ: 5/9.

الأعذار، وهو التَّلبُّسُ بالسَّفر والتَّوغُّلُ فيه، والانشغالُ به عن غيرِه؛ لأنَّها الحالُ التي يُفْقَدُ فيها الكاتبُ والشَّهيدُ، فهم مسافرون قد ضربوا في الأرض حقيقةً، وتركوا الأوطانَ والدِّيارَ، وليسوا مُسافرين قد عَزَموا السَّفرَ، أو ما زالوا في أوَّلِ الطَّريقِ، أو وصلوا إلى حاضِرَةٍ، يَغلِبُ على الظَّنِّ وجودُ الكاتِبِ والشَّهيدِ فيها.

بلاغةُ الوَصْلِ بين الجملِ:

تأكيدُ مَظِنَّةِ فَقْدِ الكاتبِ في السَّفر، وأنَّه الشَّائعُ العامُّ

وُصِلَ قولُه تعالَى: ﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا﴾ بقولِه تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ بالواوِ دون الفاءِ؛ لتأكيدِ مَظِنَّة فَقْدِ الكاتبِ في السَّفر، ولو قالَ: فلم تجدوا كاتبًا؛ لكان ذلك نَصًّا على أنَّ وجودَ الكاتِبِ مُتوقَّعٌ وجودُه، لكنْ لَمَّا جيءَ بالواوِ كان بيانًا وتأكيدًا للشَّائعِ العامِّ، وهو المُنَاسِبُ مع استعمالِ (إنْ).

توجيهُ المَخْصُوصِ بالذِّكرِ:

مراعاةُ الواقِعِ الشَّائعِ، وتنبيهُ المُكلَّفين على ضرورةِ اتِّخاذِ الكاتبِ

خصَّتِ الآيةُ الكاتبَ دون الشَّهيدِ بالذِّكرِ، في قولِه تعالَى: ﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا﴾؛ مُراعاةً للواقعِ الشَّائعِ في صعوبةِ وجودِ الكاتِبِ في السَّفرِ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مَوَاطِنِ الإِقَامَةِ أَنْ تَكُونَ خِلْوًا مِنَ الكُتَّابِ[1]، وإن وُجِدَ فقد تَنْعدِمُ أداوتُ الكتابةِ، مثلُ القِرطاسِ والقلمِ والدَّوَاةِ[2]، بخلافِ الشُّهودِ فقد يَتوافرون في السَّفر بخلافِ الكُتَّابِ وأدواتِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ كتابةَ الدَّينِ أَصْلٌ في التَّدايُنِ حتَّى في أثناءِ السَّفرِ؛ لنَصِّ الآيةِ على ذلك: ﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا﴾؛ فالآيةُ أَرشدَتْ إلى البحثِ عن كاتبٍ، فإنْ عُدِمَ فرِهانٌ مقبوضةٌ[3].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

أوجزتِ الآيةُ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾، إذ

---

(1) رضا، تَفسيرُ المنارِ: 3/109.

(2) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاويِّ: 5/490.

(3) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 58.

التَّقديرُ: الّذي يُسْتَوْثَقُ به رِهانٌ مقبوضةٌ[1]، أو: فعليكم، أو: فَلْيُؤْخَذْ، أو: فالمَشروعُ رِهانٌ[2]، وهو أَمْرٌ على سبيل الإرشادِ إلى حِفظِ المالِ، بِأَنْ يُقامَ التَّوثيقُ بالارتهانِ مَقامَ التَّوثيقِ بالكِتابةِ والإشهادِ[3]، وفيه تَعَرُّضٌ لِلْغَرَضِ من الرَّهْنِ؛ لِأَنَّ الخَبَرَ في مَقامِ الأَمْرِ من الشَّارعِ آكدُ[4]، إذِ المقصودُ تحقيقُ الرَّهنِ كأنَّه خَبَرٌ واقعٌ.

تحقيقُ الرَّهنِ كأنَّه خَبَرٌ واقعٌ

سرُّ التَّعبير بالفاءِ:

حيث عبَّرتِ الآيةُ بالفاءِ؛ للتَّنبيه على سرعةِ الاستجابةِ للأمرِ الضِّمنيِّ في قولِه تعالَى: ﴿فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾، إذْ أظهرتْ المقدَّرَ بصُورةِ المُحقَّقِ.

التَّنبيهُ على سرعةِ الاستجابةِ

نكتةُ تَعَلُّقِ جوابِ الشَّرطِ بمشروطِه:

فلِسائلٍ أنْ يسألَ: لِمَ شَرَطَ السَّفرَ في الارتهانِ؟ وقد رَهَنَ رسولُ اللّه ﷺ دِرْعَهُ في غيرِ سَفَرٍ؟ والجوابُ: أنَّ هذا ليس من قَبيلِ التَّعليقِ لِاشْتراطِ السَّفرِ في الارتهانِ[5]؛ فمفهومُ الشَّرطِ إنَّما يُعْتَبَرُ لو لم يَخرُجْ مَخرجَ الأغلبِ، أمَّا إذا ذُكِرَ الشَّرطُ لكونِه أغلبَ؛ فلم يلزمْ من انتفائِه انتفاءَ المشروطِ، كما في قَوْلِه تَعَالَى[6]: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النُّور: 33]، فليس الغَرضُ تجويزَ الارتهانِ في السَّفرِ خاصَّةً دون الحَضَرِ، وإنَّما ذُكرَ لأنَّ السَّفرَ مَظِنَّةٌ لإعْوازِ الكاتبِ[7]، فهو مفهومٌ خَرَجَ مَخرَجَ الغالبِ[8]، فتَعْلِيقُهُ هُنَا عَلَى حَالِ السَّفَرِ لَيْسَ تَعْلِيقًا بِمَعْنَى التَّقْيِيدِ[9]، بل بمعنى التَّغليبِ، واستباقًا لاستفتاءِ مُسْتَفْتٍ عن حُكمِ مَنْ لم يجدْ كاتبًا في السَّفرِ.

تعليقُ الجوابِ بالشَّرطِ للتَّغليبِ لا للحَصْرِ، واستباقُ الإبانةِ قبلَ السُّؤالِ

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليم: والبَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/165.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/60.
(3) الزَّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/328.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/490.
(5) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/165.
(6) ابنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيضاويِّ: 5/490.
(7) الخازنُ، لباب التأويل: 1/217.
(8) ابنُ عَرَفَةَ، تَفسيرُ ابنِ عَرَفَةَ: 1/335.
(9) ابنُ عاشورٍ، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/121.

سِرُّ وصفِ الرِّهان بالمقبوضة:

بيانُ أهميَّة القبضِ وتأكيده فهي مقبوضةٌ تحقُّقًا، لا توقُّعًا.

عبَّرتِ الآيةُ باسم المفعول في وصفِ الرِّهان بـ مقبوضة، دون تَقْبضونَها؛ لبيانِ أهميَّة القَبضِ وتأكيده، فهي مقبوضةٌ تحقُّقًا لا توقُّعًا، وإيماءً إلى الاكتفاء بقبض الوكيلِ، ولا يتوقَّفُ على قَبْضِ المُرتَهن[1]، وَقَد وَصَفَ الرِّهَانَ بِمَقْبُوضَةٍ؛ إِمَّا لِمُجَرَّدِ الكَشْفِ؛ لِأَنَّ الرِّهَانَ لَا تَكُونُ إِلَّا مَقْبُوضَةً، فلا بدَّ في لُزومها من القبضِ، والمرادُ باللُّزوم ألّا يكونَ للرَّاهنِ الرُّجوعُ عن الرَّهْنِ ولا للمُرتَهن عن الارتهان[2]، وَإِمَّا لِلِاحْتِرَازِ عَنِ الرَّهْنِ لِلتَّوْثِقَةِ فِي الدُّيُونِ فِي الحَضَرِ، فَيُؤْخَذُ مِنَ الإِذْنِ فِي الرَّهْنِ أَنَّهُ مُبَاحٌ، فَلِذَلِكَ إِذَا سَأَلَهُ رَبُّ الدَّيْنِ أُجِيبَ إِلَيْهِ، فَدَلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ الرَّهْنَ تَوْثِقَةٌ فِي الدَّيْنِ[3].

نكتةُ استِعمالِ (إنْ) دون (إذا):

التَّنبيه على الواقعِ، بقصدِ التَّنبُّه في التَّعاملِ الماليِّ

استعملتِ الآيةُ (إن) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾؛ لنُكتَتَيْن اثنتَيْن؛ الأولى: أنَّ الأمانةَ نادرةُ الوقوعِ، فهذا إشعارٌ بالواقعِ، والثَّانية: الإيماءُ إلى ضرورةِ التَّنبُّهِ على عَدَمِ الائتمانِ إلَّا بعد التَّوثُّق من حالِ المَدين، وهذا إشعارٌ لما يَجبُ أنْ يكونَ عليه الواقعُ، وهو ما يدلُّ عليه لفظُ الأمنِ، فإنَّه لا يَحصُلُ إلَّا بعد معرفةٍ وطولِ مُمارَسَةٍ.

فائدةُ استعمالِ الألفاظِ المُبهمةِ:

بيان التَّشريع العامِّ في المعاملات عند الائتمان بين جميع الأشخاصِ

أَبهمتِ الآيةُ وصفَ المؤتمِن والمُؤتَمَن بأيِّ وصفٍ، واكتفَت بكلمة (بعض)؛ لأنَّ الآيَةَ تَشْرِيعٌ مُسْتَقِلٌّ يَعُمُّ جَميعَ الأَحْوَالِ المُتَعَلِّقَة بِالدُّيُونِ: مِنْ إِشْهادٍ وَرَهْنٍ ووَفاءٍ بِالدَّيْنِ، وَالمُتَعَلِّقَة بِالتَّبَايُعِ، وَلِهَذِهِ النُّكْتَةِ أُبْهِمَ المُؤْتَمَنُونَ بِكَلِمَةِ (بَعْض)؛ لِيَشْمَلَ الائْتِمَانَ مِنْ كِلَا الجَانِبَيْنِ: الَّذِي مِنْ قِبَلِ رَبِّ الدَّيْنِ، وَالَّذِي مِنْ قِبَلِ المَدِينِ، فَرَبُّ الدَّيْنِ يَأْتَمِنُ المَدِينَ

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/60.
(2) النَّيسابوريُّ، غَرائِبُ القُرآن: 2/79.
(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/121.

إِذَا لَمْ يَرَ حَاجَةً إِلَى الإِشْهاد عليه، وَلَمْ يُطَالِبْهُ بِإِعْطَاءِ الرَّهْنِ في السَّفَرِ وَلَا في الحَضَرِ[1]، وَيُفْهَمُ مِنْهُ: أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَأْمَنْهُ لَا يُدَايِنْهُ، وَلَكِنْ طُوِيَ هَذَا تَرْغِيبًا لِلنَّاسِ فِي الْمُوَاسَاةِ وَالِاتِّسَام بِالأَمَانَةِ[2].

فائدةُ التَّجنيسِ اللَّفظيِّ:

ترسيخُ القيمِ الأخلاقيَّةِ في المعاملاتِ الماليَّةِ

جانستِ الآيةُ بين لفظِ صلةِ الموصولِ: ﴿ٱؤۡتُمِنَ﴾ وبين لفظِ المفعولِ به: ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾؛ لِحَثِّ المَدِينِ على أنْ يكونَ عند ظنِّ الدَّائنِ به، وأَمْنِه منه، وائْتِمانِه لَهُ، وأن يُؤَدِّيَ إليه الحقَّ الّذي ائتمَنَه عليه فلم يرتَهِنْ منه[3]، ولأجلِ هذا المعنى في الحثِّ والتَّرغيبِ: جِيءَ بالتَّجْنِيسِ المُغايِرِ بين ﴿ٱؤۡتُمِنَ﴾ و ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾[4]، تَرسيخًا للقِيَمِ الأخلاقيَّةِ في المُعاملاتِ الماليَّةِ؛ فإنَّ مِنْ شأنِ بناءِ الثِّقةِ بين المؤمنين نشرَ الأمنِ والأمانِ.

بلاغةُ استعمالِ المفردةِ القرآنيَّةِ:

المُبالغةُ في التَّحريضِ علَى الأداءِ والوفاءِ تعظيمًا لشأنِ الأماناتِ

استعملتِ الآيةُ مُفْرَدةَ الأمانةِ دون الدَّينِ؛ لأنَّه جَعَلَ الدَّينَ أمانةً بتَرْكِ الارتهانِ به، أيْ: بِبَدَلِه، ففيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ فَذُكِرَ المُشَبَّهُ به، وأُرِيدَ المُشَبَّهُ وهو الدَّين، وفي هذا التَّعْبيرِ مُبَالَغَةٌ في التَّحريضِ عَلَى الأداءِ والوفاءِ[5]، وهذا على أن يكونَ المقصودُ بالأمانةِ الدَّيْنَ؛ لائتمانه عليه بترك الارتهانِ به[6]، وإضافتُها إلى الّذي عليه الدَّينُ نِسْبَةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النِّساء: 5][7].

وإنْ قَصَدَ بالأمانةِ الرَّهنَ فالخطابُ مُوَجَّهٌ لِلْمُرْتَهِنِ، بأنْ يُؤَدِّيَ الرَّهنَ عند استيفاءِ المالِ، فإنَّها أمانةٌ في يدِه[8]، فالمَدِينُ يَأْتَمِنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/124.
(3) الزّمخشريُّ، الكَشّاف: 1/329.
(4) أبو حيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/747.
(5) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/492.
(6) أبو السُّعودِ، إرشادُ العَقلِ السَّليم: 1/272، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/61، والبَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/165.
(7) القُرطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/415.
(8) ذكره غيرُ واحد من المفسّرين، واللّفظ يحتملُه، والأكثرون على المقصود بالأمانة الدَّين، ينظر: النَّيسابوريُّ، غَرائِبُ القُرآنِ: 2/80.

الدَّائِنَ إذا سَلَّمَ لَهُ رَهْنًا أَغْلَى ثَمَنًا بِكَثِيرٍ مِنْ قِيمَةِ الدَّيْنِ المُرْتَهَنِ فيه، وَالغَالِبُ أَنَّ الرِّهَانَ تَكُونُ أَوْفَرَ قِيمَةً مِنَ الدُّيُونِ الّتِي أُرْهِنَتْ لِأَجْلِهَا، فَأَمَرَ كُلَّ جَانِبٍ مُؤْتَمَنٍ أَنْ يُؤَدِّيَ أَمَانَتَهُ، فَأَدَاءُ المَدِينِ أَمَانَتَهُ بِدَفْعِ الدَّيْنِ، دُونَ مَطْلٍ وَلَا جُحُودٍ، وَأَدَاءُ الدَّائِنِ أَمَانَتَهُ إِذَا أُعْطِيَ رَهْنًا مُتَجَاوِزَ القِيمَةِ عَلَى الدَّيْنِ أَنْ يَرُدَّ الرَّهْنَ، وَلَا يَجْحَدَهُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِالدَّيْنِ لِأَنَّ الرَّهْنَ أَوْفَرُ مِنْهُ، وَلَا يُنْقِصَ شَيْئًا مِنَ الرَّهْنِ[1].

وَقَدْ أُطْلِقَ هُنَا اسْمُ الأَمَانَةِ عَلَى الدَّيْنِ في الذِّمَّةِ وَعَلَى الرَّهْنِ؛ لِتَعْظِيمِ ذَلِكَ الحَقِّ، لِأَنَّ اسْمَ الأَمَانَاتِ لَهُ مَهَابَةٌ في النُّفُوسِ، فَذَلِكَ تَحْذِيرٌ مِنْ عَدَمِ الوَفَاءِ بِهِ، لِأَنَّهُ لَمَّا سُمِّيَ أَمَانَةً؛ فَعَدَمُ أَدَائِهِ يَنْعَكِسُ خِيَانَةً، لِأَنَّهَا ضِدُّهَا[2].

بلاغةُ الجملةِ القرآنيَّة واكتنازُها بالبيانِ:

كـثرةُ المعـاني المستنبَطةِ دليلٌ على قوَّةِ التَّركيبِ وجزالتِه

اجتمَعَ في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ جملةٌ من المعاني البلاغيَّة، تَدُلُّ على بالغِ أهميَّة رعاية الحقوقِ الماليَّة في التَّشريعات القرآنيَّة، وهي:

أولاً: الأمرُ بأداء الدَّائن دَيْنَهُ بلفظِ التَّقْوَى، حيث أَمَرَهُ بالتَّقوى، وهي فَرْطُ الصِّيانة.

ثانيًا: حَذْفُ المُتَّقى منه للدَّلالة عَلَى العُموم، وأنَّه مِمَّا لا يُدرَكُ بالوصفِ والبيانِ.

ثالثًا: مجيئُه عَلَى لفظ الأمرِ الدَّالِّ عَلَى الوجوبِ.

رابعًا: إيرادُ اسم الجلالِ المُسْتَجمِعِ لجميع صفات الكَمَال، تَرْهيبًا من الخيانةِ، وتَرْغيبًا في الأداء.

خامسًا: الوَصْفُ بالرُّبوبيَّةِ الّذي يُشعِر بالتَّربية، وأنَّ الرَّزَّاقَ هو اللّٰه تعالى، فلا يَطمعُ أحدٌ في رزقِ أحدٍ، فَحَقُّه أن يُطاعَ في جميعِ أوامرِه، ومِنْ جُملتها: أمرُه بأداءِ أمانتِه، والتَّجنُّبِ عن خِيانتِه[3].

(1) ابنُ عَطِيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/388، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/124.

(2) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/122.

(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/493، وابنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيد على البَيضاويِّ: 5/492.

فائدةُ الجَمْعِ بين عنوان الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ:

تعظيم أمر الأمانة بالجمع بين صفتي الألوهيَّة والرُّبوبيَّة عند الأمر بالتّقوى

في الجمع بَيْنَ عنوانِ الألوهيَّة وصفةِ الرُّبوبيَّة من التَّأكيدِ والتَّحذير من خِيانة الأمانةِ والمُطْلِ ما لا يَخفى، وقد أمرَ سبحانه بالتَّقوى عند الوَفاء حَسْبما أَمَرَ بها عند الإقرار، تَعْظيمًا لحقوق العِباد، وتَحذيرًا عمَّا يُوجِبُ وقوعَ الفَسادِ[1]؛ فجَمَعَ ما بين الاسم الجليلِ والنَّعتِ الجميلِ، مُبالغةً في التَّحذير[2]، وَزِيدَ في التَّحْذِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾، وَذِكْرُ اسْمِ الجَلَالَةِ فِيهِ مَعَ إِمْكَانِ الاسْتِغْنَاءِ بِقَوْلِه: (وليتقّ ربّه)، لِإِدْخَالِ الرَّوْعِ فِي ضَمِيرِ السَّامِعِ، وَتَرْبِيَةِ المَهَابَةِ[3].

بلاغةُ خطابِ النَّهي:

اشتمالُ النَّهي الدَّائِنَ والمَدِينَ

توجَّهَ النَّهيُ إلى الدَّائن والمَدين معًا، فتكونُ الشَّهَادَةُ شهادتَهم عَلَى أنفسِهم[4]، وتكون الشَّهَادَةُ مَجَازًا مُسْتعمَلًا في معنى الإقرار[5]؛ فإنَّ من يُقِرُّ بالحقيقةِ فقد شَهِدَ على نفسِه.

كما أنَّ النَّهيَ عن كِتْمان الشَّهادةِ كلِّها بعُمومِه، والتَّعقيبَ به بعدَ ما سبَقَ من وِصايةٍ للشُّهداء، والأمرَ أنْ يَكتُبَ الشَّاهدُ بالعَدلِ، والنَّهيَ عن الامتناع عن الكتابةِ بين المتداينَيْن؛ بمنزلةِ التَّذييلِ لأحكام الشَّهادة في الدَّين[6]؛ فعُلِمَ من ذلك كُلِّهِ: الاهتمامُ بإظهار الشَّهادة إظهارًا للحقِّ.

بلاغةُ فنِّ التَّجنيسِ:

جِيءَ بالتَّجنيس المُماثِلِ[7] بين لفظَتي: ﴿تَكۡتُمُواْ﴾ و﴿يَكۡتُمۡهَا﴾،

(1) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/61.
(2) محمد علي جميل، صَفوَةُ التَّفاسير: 1/179.
(3) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/125.
(4) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيل: 1/165.
(5) ابنُ التَّفجيد، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/492.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتَّنويرُ: 3/125.
(7) أَبو حَيّان، البَحرُ المحيطُ: 2/747.

الرَّدعُ النَّفسيُّ لما يجولُ في الخواطرِ من الكتمانِ

وهذا التَّجنيسُ ليس لفظيًّا مَحضًا، بل فيه من البيانِ الكاشفِ عن حقائقِ ما في النُّفوسِ؛ فإنَّ ترتُّبَ الشَّرطِ على النَّهي مع احتوائهما للَّفظِ نفسِه، فيه مزيدُ تَهديدٍ بعقوبةِ كِتمانِ الشَّهادةِ واستحقاقِ الإثمِ[1]، ممَّا يُزْعِجُ الشَّاهِدَ إن خَطَرَتْ في ذِهنِه خواطِرُ الكِتمانِ.

وَجْهُ إسناد الإثم إلَى القَلْبِ:

إبرازُ سببِ الإثمِ ومَوْضِعِه؛ لرعايةِ القلبِ، وتحاشي الإثمِ

أُسندَ الكتمانُ إلى القلبِ في قولِه: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ لأنَّه أبلغُ[2] من إسنادِها إلى الكاتمِ، ولذلك لم يقتصر في القول على: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ﴾، لكنَّه زاد النِّسبةَ، فقال: ﴿قَلۡبُهُۥ﴾، فالكِتمانُ إضمارُ النَّفسِ الشَّهَادَةَ، فهو يُضمرُها ولا يتكلَّمُ بها، فلمَّا كان الإثمُ مُقْتَرَفًا بالقلبِ أُسْنِدَ إليه، ومن ذلك: أنَّه عند إرادةِ توكيدِ الرُّؤيةِ مثلًا تقولُ: هذا أبصرتُه بعيني؛ فكأنَّه قيلَ: فقد تمكَّنَ الإثمُ في أصلِ نَفْسِه، ومَلَكَ أشرفَ مكانٍ فيه[3]، ففيه تَنْبيهٌ واحتراسٌ مِنْ أنْ يُظَنَّ أنَّ كِتمانَ الشَّهادةِ للآثامِ المُتعلِّقةِ باللِّسانِ فحَسْبُ، وليُعْلَمَ أنَّ القلبَ مَعْدِنُ اقترافِه، واللِّسانَ تُرْجُمانٌ عنه[4].

وإسنادُ الإثمِ إلى القلبِ إمَّا على الحقيقةِ أو المجازِ، فتَوجيهُ حَملِه على الحقيقةِ باعتبارِه سببَ الإثمِ، فالإثمُ في كِتمانِ الشَّهادةِ عَمَلُ القلبِ لا عملُ الجَوارحِ؛ ولأنَّ القلبَ مُضْغَةٌ إذا صَلَحَتْ صَلَحَ سائرُ الجسدِ، وإنْ فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه[5]، وإمَّا أن يُحملَ على المجازِ المُرسَلِ، من بابِ إطلاقِ بَعْضِ الشَّيْءِ عَلَى كُلِّه، حيثُ عبَّرَ عن الكُلِّ باسمِ الجُزءِ؛ لأنَّ في ذلك الجزءِ - وهو القلبُ - مزيدُ اختصاصٍ في موضعِ الحُكمِ؛ فالحقيقةُ أوضحُ في بيانِ السَّببِ

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسيرُ المنيرُ: 3/15.
(2) الأنصاريُّ، فَتحُ الرّحمنِ، ص: 72.
(3) الزَّمخشريُّ، الكَشّافُ: 1/330، وأبو حيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/746، وابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيضاويِّ: 5/492-493.
(4) الزّمخشريُّ، الكَشّافُ: 1/329-330، والقاسِميُّ، محاسِنُ التّأويلِ: 2/237، وابنُ عاشورٍ، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/126.
(5) الزَّمخشريُّ، الكَشّافُ: 1/330، وابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/388.

لِرِعايتِه، والمجازُ آكَدُ مِنَ الحَقِيقَةِ في الدَّلَالَةِ عَلَى الوَعِيدِ، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ البَيَانِ، وَلَطِيفِ الإِعْرَابِ عَنِ المَعَانِي[1].

وهذا كلُّه يدورُ في فَلَكِ المُبالغةِ والتَّحذيرِ من كِتمان الشَّهادةِ، ومِنْ أجلِ هذا: جاء الخبرُ مُؤَكَّدًا بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ، لِتَقرير معنى التَّحذير من الكِتمانِ.

توجيه المتشابِه اللَّفظيّ في الصِّيَغ:

استعمالُ (أثيم) في سياقِ المعاصي الاعتقاديَّةِ والعامَّةِ، واستعمالُ (آثم) في المعاصي الفرديَّة

اختيرَتْ صيغتا: (آثم وأثيم) في القرآن الكريم بحَسَبِ السِّياقِ الّذي ورَدَتْ فيه، فقد وردت صيغةُ (أثيم)، وهي صفةٌ مُشَبَّهَةٌ باسم الفاعل، وهي صيغةُ مبالغةٍ، تُفيدُ الإقامةَ على فعل ذلك الإثم، والإصرارَ عليه، والتَّمعُّنَ فيه بلامُبالاةٍ، فالأثيمُ الفاجرُ[2] المُتمادي في الإثم؛ بخلافِ الآثم، فهو فاعل الإثم[3]، فصفةُ (أثيم) أشدُّ وقعًا من صفةِ (آثم)، وقد وَرَدَتْ صيغةُ (أثيم) في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة: 276]، وفي قوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢﴾ [الشعراء: 222]، وفي قوله: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧﴾ [الجاثية: 7]، وفي قوله: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ [القلم: 12]، وفي قوله: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ [المطففين: 12]، وفي قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾ [الدخان: 43- 44]، ونُلاحظُ أنَّ جميعَ الآياتِ تتكلَّمُ عن وَصفٍ شديدٍ لمُرابٍ أو كافرٍ، بخلافِ ﴿ءَاثِمٞ﴾؛ فوَرَدَتْ في سِياقِ كتمان الشَّهادَةِ، وهو أقلُّ جُرْمًا من تعاطي الرِّبا ومن الكفرِ، الّذي يَتأذَّى مِنْهُ المجتمعُ كلُّه، بينما تأتي ثَمَرَةُ كتْمان الشَّهادَةِ المُرَّةُ على الأَفْرادِ[4].

---

(1) القُرطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/415.

(2) ابنُ منظور، لِسانُ العَرَبِ: (أثم).

(3) العَسكَريُّ: الفُروقُ اللُّغويَّةُ، ص: 233.

(4) محمَّد موسى، الإعجاز البلاغيّ للتَّقديم والتَّأخير، ص: 22.

بلاغةُ اختيارِ الأسماءِ الحُسنى في الفواصلِ:

الجمعُ بين الوعدِ والوعيدِ ترغيبًا وترهيبًا، من بلاغةِ القرآن المبتكرة

اشتَمَلَتِ الفاصلةُ على وعيدٍ شديدٍ لِكَاتمِ الشَّهَادَةِ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ بِهَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ المُجَازَاةُ، ووعدٌ بالحسنى لِمَنْ أدَّاها؛ فلَفظُ العِلْمِ يَعُمُّ الوَعْدَ وَالوَعِيدَ[1]؛ فهو تهديدٌ لِمَنْ كَتَمَ الشَّهَادَة، وهو مُشْعِرٌ بالمُجازاة بالعقوبة[2]، وَوَعْدٌ لِمَنْ أدَّى الشَّهَادَة عَلَى وَجْهِها[3]، فاللّه يُحصيه عليكم، ليجزيَكم بذلك كلِّه، إنْ خيرًا وإنْ شرًّا على قَدْرِ استحقاقِكم[4]، وقد تَأَكَّدَ هذا الوَعْدُ والوعيدُ باسميَّة الجُمْلَة، وتقديمِ الاسم الجليلِ تَرْبيَةً للمَهابَةِ في قلوبِ الخَلْقِ، وفي هذا التَّذييلِ جَمْعٌ ما بين الاسم الجليل، والنَّعتِ الجميلِ؛ للمُبالَغَةِ في التَّحذير[5]، وليس مُقتضاه حَصْرَ العِلْمِ على ما نَعمَلُ فقط[6].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القَبْض والإمساك:

القبض دليل التَّملك، والإمساك حبس النَّفس عن الفعل

القَبْضُ: الأَخذُ والتَّمَلُّكُ، يقالُ: قَبَضْتُ الشَّيءَ قَبْضًا: أخذته، وصار الشَّيءُ في قَبْضَتِكَ، أي: في مِلكِكَ، ويَصلُحُ للقَبْضِ الفعليِّ بالكَفِّ، وللحَوْزِ فَيُقالُ: "قَبَضَ الدَّارَ والأرضَ: حَازها، والقَبْضُ: خِلافُ البَسْطِ[7]"، قال الحَرَالِّي: والقبض إكمال الأخذ، أصله القبض باليد كلّه، والقَبْصُ - بالمهملة - أخذ بأطراف الأصابع، وهو جمع عن بسط، فلذلك قوبل به[8]، وأمّا الإمساكُ: فهو حَبْسُ النَّفسِ عَنِ الفِعْلِ، ويكثرُ استعمالُه في الامتناعِ عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الشَّهْوَةُ،

(1) ابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/388، وأبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/747.
(2) البَيضاويُّ، أنوارُ التّنزيل: 1/165، وابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/494.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/494.
(4) ابنُ جَريرٍ، جامع البيان: 6/100.
(5) القاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويل: 2/234.
(6) ابن عُثَيمين، تَفسيُر ابنِ عُثَيمين: (سورَةُ الفاتحة والبَقَرَة): 3/427.
(7) الجَوهَريُّ، الصّحاح، وجبل، المعجَم الإشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (قبض).
(8) الحرالّي، تراث أبي الحسن الحَرَاليِّ، ص: 425.

يُقَالُ: أَمْسَكَ عَنِ الإفطار؛ وقد يُستعمَلُ أيضًا فيما لا تدعو، كَمَا يُقالُ: أَمْسَكَ عَنِ الكلام؛ وأَصْلُ الإِمْسَاكِ: حَبْسُ النَّفسِ عَنِ الفِعْل، ونقِيضُ الإِمساكِ الإِرْسَالُ[1]، والإمساك خلاف الإطلاق والمساك والمسكة، اسمان منه، يقال: إنّه لذُو مسكة ومساكة، إذا كان بخيلا، قال الفرّاء: يقال إنّه ليس بمسّاك غلمانه، وفيه مساكة من جبر، أي قوّة[2].

الأمانة والوديعة:

الوديعـة استـحـفاظ بقَصْد، والأمانة أَعَمُّ وأشمل في الدّلالة

الأمانةُ: هي كُلُّ حقٍّ لَزِمَ أداؤه وحِفْظُهُ[3]، وكلُّ ما افْتُرِضَ على العباد فهو أمانةٌ، كالصّلاة والزّكاة والصّيام وأداءِ الدَّيْن، وأَوْكَدُها الودائعُ[4]. فالأمانةُ: اسمٌ لما يُؤَمَّنُ عليه الإنسانُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72]، وعكسها الخيانة: وهي أن يؤتمن الرّجل على شيء، فلا يؤدّي الأمانة، وسمّي ناقض العهد خائناً، لأنّه اؤتمن بالعهد، فغدر ونكث[5]. وأمّا الوَديعةُ: واحدَةُ الوَدائِع، وأَوْدَعْتُهُ مالًا: دفعته إليه، وهي المالُ المدفوعُ إلى مَنْ يحفظُه بلا عِوَضٍ، وَالإِيدَاعُ تَوْكِيلٌ فِي حِفْظِهِ[6]، وفي المنار: "وعندي أنّ المؤتمن عليه هاهنا، عامّ يشمل الوديعة وغيرها، فالمعنى: إن اتّفق أنّ أحدا منكم ائتمن آخر على شيء، فعلى المؤتمن أن يؤدّي الأمانة إلى من ائتمنه، وليتّق اللّه ربّه، فلا يتخوّن من الأمانة شيئا، أنّه لا حجّة عليه بها ولا شهيد، فإنّ اللّه ربّه خير الشّاهدين، فهو أولى بأن يُتّقى ويُطاع"[7].

---

(1) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 112.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/443.
(3) الشَّوكانيُّ، فَتحُ القديرِ: 1/288.
(4) الكَفَويُّ، الكُلّيّات، ص: 186.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/28.
(6) ابن النّجار، منتهى الإرادات: : 3/250.
(7) رضا، تفسير المنار: : 3/109..

فبينَ الوديعةِ والأمانةِ عمومٌ وخُصوصٌ؛ لأنَّ الوديعةَ هي الاستحفاظُ قَصْدًا؛ فَتكونُ خاصَّةً لاشْتِرَاطِ قصدِ الحِفْظ فِيهَا، بِخِلَافِ الأَمَانَة فهي عامَّةٌ[1].

الكتمان والإخفاء:

الكتمان يختصُّ بالمعاني، والإخفاء أعمُّ منه

الكتمانُ: السُّكوتُ عن المطلوب للإفصاحِ عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]، أي: يَسْكُتُونَ عن ذِكْرِه، بإصرارٍ وإحكامٍ مبالَغٍ فيه،

والإخْفاءُ: تغطيةُ المخفيِّ، ويكون في المعاني، كقوله تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غيره من الأمورِ الحسّيّة، كقوله تعالى: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهدُ أنَّكَ تقولُ: أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تقولُ: كَتَمْتُ[2]. فالكتمانُ يَختصُّ بالمعاني كالأخبارِ والأسرارِ، والإخفاءُ يكونُ في الأمور الحسّيَّة، فالعلاقةُ بينهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ.

الإثم والذَّنب:

الإثــم الـذَّنـب الّــذي عليه تَـبِـعَـةٌ، ومن الـذُّنـوب مـا لا تَبِعَةَ فيه

الإثمُ: اسمٌ للأفعال المبطِّئةِ عن الثّواب، وجمعُه: آثام، والإثْم في أصل اللُّغَة: التَّقْصِيرُ[3]، فيقالُ: أَثِمَ يَأْثَمُ، إذا قَصَّرَ، والإثْمُ: الخَطيئَةُ، وأنْ يعملَ المرءُ ما لا يَحِلُّ له، وفي التّنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشّورى: 37]، فيكون كالذَّنب على هذا المعنى[4]، وفسّر بعضهم الرّجس بأنّه "الإثم والذّنب المدنّسان للإعراض، الحاصلان بسبب ترك ما أمر اللّه به، وفعل ما

(1) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 186.
(2) العَسكريُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 287.
(3) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (إثم).
(4) ابن سِيدَه، المحكَم، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، و الزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (أثم).

نهى عنه، فيدخل في ذلك، كلّ ما ليس فيه رضا الله"[1]. والذَّنبُ: مَا يَتبعهُ الذَّمُّ، أَو مَا يتبعُ عَلَيْهِ العَبْد من قَبِيح فعله، ولهذا يقالُ للصَّبيِّ إذا فَعَلَ ما يُذَمُّ عليه: قد أَذْنَبَ، ولا يُقالُ: قد أَثِمَ، وَالأَصْل فِي الذَّنب: الرَّذْلُ من الفِعْل.

والفرقُ بين الإثم والذَّنبِ: أنَّ الإِثْمَ: هُوَ القَبِيحُ الّذِي عَلَيْهِ تَبِعَةٌ، والذَّنبَ: هُوَ القَبِيحُ من الفِعْل، وَلَا يترتَّبُ عليه تَبِعَةٌ[2].

(1) القِنَّوجيّ: فتحُ البيان: 11/85.

(2) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 233.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: 284]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أمر الله بأداء الدّين المؤجّل والحاضر، وبين اطّلاعه على خفيّ السّرائر

لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ أمرَ الدَّين، وما يتعلَّقُ به من أداءِ الحقوقِ لأصحابِها، ناسبَ أن يُذكرَ بعد ذلك أنّ مُلكَ السَّماواتِ والأرضِ للّه تعالى، وأنَّ العبدَ مهما مَلَكَ؛ فإنَّ مآلَ ذلك للّه تعالى، ولَمَّا ذَكَرَ كَتْمَ الشَّهَادَةِ بسببِ إثمِ القلبِ، وهوى النّفس، ناسَبَ أن يَذكُرَ الأَنْفُسَ، فذَكَرَ أن مَا انْطَوَى عَلَيْهِ الضَّمِيرُ، فَكَتَمَهُ أَوْ أَبْدَاهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُهُ بِهِ، لأَنَّ مَحَلَّ اعتقادِ هَذِهِ التَّكاليفِ هو الأنفُسُ، وما تَنْطوي عليه من النِّيَّات، وثوابُ مُلتزِمها، وعقابُ تارِكها، إنَّما يَظهَر في الدَّار الآخرة[1]؛ فلمَّا أَخبَرَ عن سَعَةِ عِلْمِه، دلَّ عليه بِسَعَةِ مُلْكِهِ المُسْتَلزِمِ لِسَعَةِ قُدْرته، لِيَدُلَّ ذلك على جميع الكمالِ، ومطلق التّصرف في ملكوته، ومصير عباده[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَإِن تُبۡدُواْ﴾: مِنْ بَدا الشَّيْءُ: إذا ظَهَرَ، يُقالُ: بَدا يبدو بُدُوًّا وبَدَاءً؛ أيْ: ظَهَرَ ظُهورًا بيِّنًا، والبَدْوُ: خلافُ الحَضَرِ؛ لأنَّها تَبْدُو، أي: تُكْشَفُ وتُظْهَرُ لخُلُوِّها من ساترٍ، وأصلُ البَدْوِ: ظُهُورُ الشَّيْءِ، وكلُّ شَيْءٍ ظَهَرَ لَك فقد بَدا[3]، والمعنى: وَإِنْ تُبْدُوا أي تظهروا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أي في قلوبكم من السّوء والعزم عليه، وذلك بالقول

(1) أبو حيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/749، والرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/102.

(2) البِقاعيُّ، نَظم الدُّرَر: 4/163.

(3) ابنُ دُرَيد، جَمهَرَةُ اللُّغة، والسَّمِين، عُمدَةُ الحُفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (بدو).

أو بالفعل[1]، فإنّ اللّه سوف يحاسبكم عليه لا محالة، طال الزّمان أو قصر.

2) ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾: الإِخْفاءُ: السَّترُ والتَّغطيةُ، وأصلُ الخفاءِ: السَّتْرُ، يُقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ: اسْتَتَرَ، وأخفيتُه: سَتَرتُه وكَتَمْتُه، والمعنى هُنا: ما تُضمِروه مِنْ معصيةٍ، وتَعزموا عليه مِنْ مَفْسَدَةٍ[2]، ولا يندرج فيه ما لا يخلُو عنه البشرُ من الوساوس، وأحاديث النّفس، التّي لاعقد ولا عزيمة فيها، إذ التّكليفُ بحسب الوُسع[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الـلـه المحيط بـالـكـون، لا تـخـفـى عليه الأسـرار، ولا يعجزه تصريف الأقدار

في هذه الجملة البليغة بيان لشمول ملك اللّه سبحانه وتعالى، ممّا تعرّض السّياق إليه، بعد الآيات الّتي بيّنت أحكام الأموال، ببيان أحكام الدَّيْن، وطرق التّعامل، ودواعي الثّقة بين المعطي والآخذ[4]، إشارة إلى أنّ للّه وحدَه ما في السَّماوات وما في الأرض، خَلْقًا ومُلكًا وتَدبيرًا، وعِلمًا وإحاطة وتأثيرا، ويقول لهم في إفصاح جليّ مبين: لئن أظهرتم ما في قلوبكم أو أخفيتموه، فإنّه لا يغيب عن علم اللّه الّذي لا يعزب عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وسوف يُحاسبُكم عليه يومَ القيامة، فَيَعْفو عَمَّنْ يشاءُ فَضْلًا ورحمةً، ويُؤاخِذُ من يشاءُ عَدْلًا وحِكمةً، واللّهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ[5].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معنى لامِ الجرّ في الاسم الأحسن ﴿لِلَّهِ﴾:

إفـــادةُ الملك والاخـتـصـاصِ بـدَلالـةِ الحرفِ والسِّياقِ

اللَّامُ في الاسمِ الأحسنِ لِلْمُلْكِ والاختصاص، فهُوَ المُنْشِئُ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/444.
(2) الرّاغِبُ، المفرداتُ، وابنُ فارس، مقاييسُ اللّغة، والجَوهَريُّ، الصّحاح، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (خفي)، والغزنَويُّ، باهِرُ البُرهانِ: 1/270.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 1/272.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/2083.
(5) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأَزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 69، ونُخبَةٌ مِن أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المَيَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسيرِ، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49.

الخَالِقُ، فَصِفَةُ المُلْكِ تَدُلُّ عَلَى القُدْرَةِ البَاهِرَةِ[1]، فالخَلقُ كلُّهم عبيدُه وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحُكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دَلالةُ ربوبيَّتِه ووحدانيَّته، وهو وحدَه المُستَحِقُّ للعبادة؛ لأنَّه المالِكُ المدبِّرُ لكلِّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[2].

وقد أُكِّدَ معنى الاختصاص بتقديم الجارِّ والمجرور: ﴿لِّلَّهِ﴾ الّذي يُفيدُ الحصرَ، فَهيَ لله خَلْقًا ومُلْكًا[3]، لا لغيره أصلًا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا، وَأكَّدَهُ أيضًا بالتَّكْرارِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾، فكَرَّرَ: مَا، تفصيلًا وتَنْبيهًا وَتَوْكِيدًا[4]، وبالطِّباق بَيْنَ لَفْظَتَي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِۗ﴾.

نكتةُ استعمالِ (ما) دون (مَن) في قولِه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

استِعمالُ (ما) الّتي لغيرِ العاقِلِ، تَغْليبًا في وصفِ المخلوقات

جَاءَ النَّظمُ بِلَفْظِ: ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، دون لفظِ (مَنْ)، وذلك تَغْلِيبًا لِمَا لَا يَعْقِلُ عَلَى مَنْ يَعْقِلُ؛ لِأَنَّ الغَالِبَ فِيمَا حَوَتْهُ السَّماواتُ والأرضُ إِنَّمَا هُوَ جَمَادٌ وَحَيَوَانٌ لَا يَعْقِلُ، وَأَجْنَاسُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَأَمَّا العَاقِلُ فَأَجْنَاسُهُ قَلِيلَةٌ إِذْ هِيَ ثَلَاثَةٌ: إِنْسٌ وَجِنٌّ وَمَلَائِكَةٌ[5].

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

إشارةٌ غيبيَّةٌ إلى عموم ملك الله لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ قدرتَه على تملُّكِه

خَصَّتِ الآيةُ السَّماواتِ وَالأَرضَ بالذِّكْرِ من بَيْنِ المخلوقات؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ مَا يُرى مِنَ المَخْلُوقَات، وَقَدَّمَ السَّماواتِ لِعِظَمِها[6]، ولأنَّها تَعُمُّ كلَّ ما فيه مَظِنَّةُ تَملُّكٍ للإنسانِ، أمَّا الأرضُ فظاهرةٌ قديمًا وحديثًا، وأمَّا السَّماواتُ فهي ظاهرةٌ في هذا العصرِ؛ فالإنسانُ قد أطلقَ الصَّواريخَ والطَّائراتِ والأقمارَ الصِّناعيَّةَ، وأصبح لكلِّ دولةٍ

(1) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/750.
(2) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 1/360.
(3) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/165، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ: 5/494.
(4) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/767.
(5) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/750، وابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/389.
(6) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/750.

فضاءٌ جَوِّيٌّ خاصٌّ بها، وهذا من إشاراتِ الإعجاز الغَيبيِّ في القرآن الكريم، وهو المناسِبُ لآياتِ المُدايَنَةِ.

دلالةُ العطفِ بَيْنَ الجُملتين:

بيانُ ترتُّبِ الجملِ بعضِها على بعضٍ في القصديَّةِ والتَّمهيدِ

عُطِفَ قولُه: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بِالوَاوِ دُونَ الفَاءِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الحُكْمَ الّذِي تَضَمَّنَهُ مَقْصُودٌ بِالذَّاتِ، وأنَّه غيرُ مُتفرِّعٍ عن الجملةِ السَّابقةِ في المعنى الّذي سِيقَ لأجلِه الكلامُ، وَأَنَّ مَا قَبْلَهُ كَالتَّمْهِيدِ لَهُ[1].

فائدةُ العطفِ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾:

العطف بـ (أَوْ) للتَّرقّي في الحساب على الإبداء والإخفاء

عَطْفُ قولِه: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ لِلتَّرَقِّي في الْحِسَابِ عَلَيْهِ، أي: يحاسِبكُم على الإبداءِ أوِ الإِخْفَاءِ؛ فَقَدْ جَاءَ عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ في عَطْفِ الْأَقْوَى عَلَى الْأَضْعَفِ، وَفِي الْغَرَضِ الْمَسُوقِ لَهُ الْكَلَامُ في سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ[2]، وممَّا يَدُلُّ على هذا التَّرقِّي: مَجيءُ الطِّباقِ الجَميلِ بين كَلِمَتَيْ: ﴿تُبۡدُواْ﴾ و﴿تُخۡفُوهُ﴾.

توجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفظيِّ:

سياقُ المحاسبَةِ اقتضى تقديمَ الأعمالِ البادية، وسياقُ العلمِ بها اقتضى تقديمَ الخفيَّةِ

قُدِّمَ ذكرُ الإبداءِ على الإخفاءِ في هذه الآيةِ، وجاءَ الترتيب على عكسِ ذلك في قولِه ﷻ: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: 29]؛ ذلك أنَّ سياقَ الكلامِ حديثٌ عن مُحاسبةِ العِبادِ، والمُحاسبةُ تكون للأعمالِ الباديةِ ابتداءً، إذِ الأصلُ في المحاسبةِ الأعمالُ الباديةُ فهي فرعُ النِّيّات، وأمَّا آيةُ آلِ عمرانَ فهي في سياقِ الحديثِ عن علمِ اللّٰه تعالَى، وعلمُ اللّٰه تعالى يُحيطُ بما خَفِيَ وما ظَهَرَ، فتَعَلُّقُ العلمِ بالأعمالِ الباديةِ؛ كتعلُّقهِ بالأعمالِ الخافيةِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/129.

(2) ابن عاشور، المرجع السَّابق: 3/129.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/272، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/63.

سرُّ استعمال لفظِ الأنفسِ دون القلوبِ:

دلالـةُ الأنْـفُـسِ أعـمُّ مـن دلالـةِ القُلُوبِ

المُرَادُ بالأنفسِ: القُلُوبُ، والمُرادُ بما فيها: ما وَقَعَ فيها من نِيَّةِ خيرٍ والعَزمِ عليه، ونيَّةِ السُّوءِ والعَزمِ عليه[1]، فيَشمَلُ لفظُ الأنفسِ مَا تَقرَّرَ في النَّفْسِ، وَاعْتُقِدَ وَاسْتُصْحِبَ الفِكْرُ فِيه، وَالخَوَاطِرَ الّتِي لا يُمكِنُ دَفْعُها، فتكونُ دَلالةُ الأنفسِ أعمَّ مِنْ دَلالةِ القلوبِ، ولذلكَ اختيرَ هذا اللَّفظُ دون القلوبِ.

سِرُّ استعمالِ الكنايةِ في الألفاظِ:

الإخفاءُ والإبداءُ سـواءٌ بالنِّسبةِ لـلـه تـعـالـى، مُـخـتـلِـفـان بـالـنِّـسـبـةِ للمخلوقِ

ما في الأنفس مُخْتَفٍ، وإخفاؤه كِنايةٌ عن عدم إظهارِه؛ لأنَّه لازمٌ له[2]، وفائدةُ الكنايةِ أن الحالَتَيْنِ مِنَ الإِخْفَاءِ وَالإِبْدَاءِ بالنِّسْبَةِ إلى اللّه تَعَالَى سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا يَتَّصِفُ بِكَوْنِه إِبْدَاءً وَإِخْفَاءً بِالنِّسْبَةِ إِلَى المَخْلُوقِينَ لا إِلَيْهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ عِلمَهُ لَيْسَ نَاشِئًا عَنْ وُجُودِ الأَشْيَاءِ، بَلْ هُوَ سَابِقٌ بِعِلْمِ الأَشْيَاءِ، قَبْلَ الإيجادِ وَبَعْدَ الإِيجَادِ، وَبَعْدَ الإِعْدَام، بِخِلَافِ عِلمِ المَخْلُوقِ، فَإِنَّه لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ إِلَّا بَعْدَ إيجَادِه، فَعِلْمُهُ مُحدَثٌ[3]، ونَظيرُ هذا المَعْنى في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: 13].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الاعتناءُ بشأنِ ما تُبديه النُّفوس أو تخفيه، والإشارةُ إلى وعيدِ المحاسبةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفاعلِ في قولِه تعالَى: ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ للاعتناءِ به[4]، فلم يقل: (يُحاسبكم اللّه به)؛ فاللّه سبحانه وتعالى يُطالِبُ العبادَ باستدامة المُراقبةِ واستصحابِ المُحاسبةِ؛ لئلّا يَغْفلوا عَنْ حفظِ حركاتِ الظَّاهر، وضبطِ خَطَراتِ الباطنِ؛ فيَقعوا في آفةِ تَرْكِ أدبٍ من آدابِ العُبوديَّةِ فيَهْلَكُوا[5]، وفيه إشارةٌ إلى ما

---

(1) القُونَويُّ، حاشيةُ القونويِّ: 5/495.

(2) المصدر السّابق.

(3) أبو حيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/750.

(4) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليم: 1/272، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/63.

(5) البروسوي، روحُ البَيانِ: 1/445.

سبق من الوَعيد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾، فذكَر ما انْطوى عليه الضَّميرُ - كَتَمَه أو أَبْداه -؛ فإنَّ اللّٰه يُحاسبُه به، ففيه وَعيدٌ وتهديدٌ لِمَنْ كَتَمَ الشَّهادةَ(1).

توجيه المُتشابِه اللَّفظيِّ في التَّقديمِ والتَّأخير:

قُدِّمَتِ المغفرةُ على العذابِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ لوقوعها في سِياقٍ يَدُلُّ على قُوَّةِ الرَّجاءِ لِمَنْ أطاعَ اللّٰه تعالى وأحسنَ وأنابَ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ والخطابُ للمؤمنين؛ فناسَبَ ذلكَ تقديمُ المغفرةِ على العذابِ رحمةً منه تعالى، وحَثًّا لعباده على المُسارَعَةِ إلى مُوجِبات المغفرة(2).

قُـــوَّةُ رجـاءِ العبدِ كامنةٌ في طاعتِه، وضعفُه تابعٌ لِمَعَاصِيه

بينما قُدِّمَ ذكرُ العذاب على المغفرةِ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤٠﴾ [المائدة: 40]؛ لأنَّه تَقَدَّمَها حَديثٌ عن حُكْمِ الحِرَابَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: 33]، وحُكْمِ السَّارقِ والسَّارقة: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، فكان من المُلائم تقديمُ العذابِ على المغفرةِ في هذا السِّياق؛ لأنَّ عذابَ السَّارقِ والسَّارقةِ يقعُ في الدُّنيا جَزَاءً على فِعْلِهما، ثُمَّ ذَكَرَ المغفرةَ لهما إنْ تابا(3).

فنُّ تشَابُهِ الأطرافِ:

تقرير مضمون ما سبق وبيان ما يتبعه من وعد ووعيد

ذُيِّلتِ الآيةُ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ بما يُقرِّرُ مضمونَ ما قبلَها؛ فإنَّ كمالَ قُدرته تعالى على جميعِ الأشياءِ مُوجِبٌ لقُدرته سبحانه على ما ذُكر، من المُحاسبةِ وما فُرِّعَ عليه من المغفرة

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/102-103، وأبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/749-750.
(2) ابن الزُّبَير، ملاكُ التّأويل: 1/74.
(3) ابنُ الزُّبَير، ملاكُ التّأويل: 1/74، والكَرمانيُّ، أسرار التَّكرار في القرآن، ص: 87.

والتَّعذيبِ[1]، كما أنَّه لَمَّا ذَكَرَ عُمومَ العلم، وذَكَرَ المَغْفِرَةَ وَالتَّعْذِيبَ لِمَنْ يَشَاءُ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ القُدْرَةِ، إِذْ مَا ذُكِرَ جُزْءٌ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ القُدْرَةِ[2]؛ فأَشَارَ إِلَى أَنَّ خَتْمَ الكَلَامِ بهذا القَوْلِ مِمَّا يُنَاسِبُ ابتداءَه في المَعْنَى، وهذا ما يُسَمَّى بتشابُه الأطراف، فللهِ تَعَالَى ما في السَّمَاوَاتِ وما في الأَرْضِ، له المُلْكُ والمَلَكُوتُ، فهو يَحْكُمُ بين عبادِه بما يشاءُ ويَختارُ، لا رادَّ لحُكْمِه[3].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبْداء والإظْهار:

الإبــــداءُ هُــوَ الإظْــهــارُ الــزَّائِــدُ البَيِّنُ

فَالإِظْهارُ مِنَ الظُّهورِ، وهُوَ الانْكِشافُ والبُروزُ، يُقالُ: ظَهَرَ الشَّيْءُ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ[4]، وبدا الشّيءُ بُدُوًّا وبداء، أي ظهر ظهورا بيّنا، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزّمر: 48]، وقال: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: 121]، ومن الجذر ذاته ورد لفظ البادية، وهي كلّ مكان يبدو ما يعنّ فيه، أي يعرض، ويقال للمقيم بها بَادٍ، قال تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: 25][5]، والإِبْداءُ: ظُهورٌ في غايَةِ الشِّدّةِ والوُضوحِ والبَيانِ، فَالإِظْهارُ أَعَمُّ مِنَ الإِبْداءِ، والإِبْداءُ أَخَصُّ؛ مِنْ حَيْثُ شِدَّةُ الظُّهورِ وقُوَّتُه[6].

العفْو والمغفرة:

الـغـفـران يُـنْـبـئ عـــن الـسَّـــتـر، والعفو يُنْبئ عن المَحو، وهو أبلغ

العفوُ: إسقاطُ العذابِ وتركُ العقابِ على الذَّنبِ، فكلُّ مَن اسْتَحَقَّ عُقُوبَةً فَتَرَكْتَهَا فقد عَفَوْتَ عنه[7]، والعَفْو: ضدّ العُقُوبَة عَفا يعْفُو عَفْواً، فَهُوَ عَفُوّ عَنْهُ، في وزن فَعول بِمَعْنى فَاعل، وَفِي التَّنْزِيل:

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليم: 1/273، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/64.
(2) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/755، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/131.
(3) القُونَوِيُّ، حاشيةُ القُونَوِيِّ: 5/498.
(4) ابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (ظهر).
(5) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (بدا).
(6) لمِزيدِ بيانٍ، ينظر الفَرقُ بَينَهُما في تَفسيرِ الصَّفحَةِ الخامسة من الجزء الثّالث.
(7) الكَفَوِيُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 598.

﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [الحج: 60][1]، وَقَالَ أَبُو بكر بن الْأَنْبَارِي: الأَصْل فِي قَوْله الله جلّ وعزّ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: 43]: محا الله عَنْك، مَأْخُوذ من قَوْلهم: عفت الرِّيَاح الْآثَار، إِذا درستها ومحتها، وَقد عفت الآثارُ تَعْفُو عُفُوّاً، لفظ اللّازم والمتعدّي سَوَاء[2]. وأمّا المَغفرةُ: تَغطيةُ الذَّنبِ وسَتْرُهُ بإيجابِ المَثوبة، صَونًا له عن عذابِ الخِزْي والفَضيحَةِ، ولا يَستَحِقُّ الغفرانَ إِلَّا المُؤمنُ المُستَحِقُّ للثَّوابِ، وَالعَفْوُ قد يكونُ قبلَ العقُوبَةِ، وَقد يكونُ بعْدهَا، بِخِلَاف الغُفْرانِ؛ فَإِنَّهُ لَا يكونُ مَعَه عُقُوبَةٌ البَتَّةَ، وَلَا يُوصَفُ بالعَفوِ إِلَّا الْقَادرُ على ضِدّه[3]. فالغُفرانُ يُنْبِئُ عن السَّترِ، والعفوُ يُنْبِئُ عن المَحْوِ، وهو أَبْلَغُ من السَّتْرِ؛ لأَنَّ السَّتْرَ للشَّيءِ قد يَحْصُلُ مع إبقاءِ أَصْلِه، بخلافِ المَحْوِ؛ فإنَّه إِزَالتُهُ جُمْلَةً وتفصيلًا[4].

العَذاب والعِقاب:

العِقابَ يُنْبِئُ عَنِ استحقاقٍ، وَسُمِّيَ بِذلِكَ؛ لِأَنَّ الفاعِلَ يَستَحِقُّهُ عَقِيبَ فِعْلِه، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُستَحَقًّا وغَيْرَ مُستَحَقٍّ، فالعقابُ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعْلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعْلِه، والعَذابُ لَيْسَ كَذلِكَ، فَبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[5]، وفي تهذيب اللّغة أنّ العِقاب والمُعاقبة: أَن تجزي الرَّجلَ بِمَا فعل سُوءاً، وَالِاسْم العُقوبة. وَيُقَال أعقبته بِمَعْنى عاقبته[6].

العِقَابَ يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، والعَذابُ لا يَقتضي ذلكَ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 2/938.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/141.
(3) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 235، والكَفويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 632.
(4) أبو حامد الغَزاليُّ، المقصَدُ الأَسنى في شَرحِ معاني أَسماءِ اللهِ الحُسنى، ص: 140.
(5) أَبو هِلالٍ العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 364.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: عقب.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْــــرُ كـمـال العـبـوديَّةِ بعد ذِكْــــرِ كـمـال الرُّبوبيَّةِ

لَمّا بَيّنَ اللّهُ سبحانَه وتعالى في الآية المُتَقدِّمة، كمالَ المُلْكِ وكمالَ العلم، وكمالَ القُدرةِ له سبحانه، وذلك يُوجِبُ كمالَ صفاتِ الرُّبوبيَّة؛ أَتْبَعَ ذلك بأنْ بَيَّنَ كَوْنَ المؤمنين في نهايةِ الانقيادِ والطّاعة والخضوعِ للّه تعالى، وذلكَ هو كمالُ العبوديَّة، وإذا ظَهَرَ لنا كمالُ الرُّبوبيَّة، ظَهر مِنَّا كمالُ العُبوديَّة[1]، كما أنَّه سُبْحانه وتعالى لَمَّا ذَكَرَ أحكامًا كثيرةً، خَتَمَها بتَعظيم نبيّه (ﷺ) والإشادة بعقيدة أَتْباعِه، تأكيدًا وفَذْلَكَةً[2] لجميعِ ذلك المَذْكورِ مِنْ قَبْلُ[3]، وبيان إيمان الرّسول والمؤمنين بالكتب السّماوية، وبالرُّسل الكرام المكلّفين بالبلاغ عن اللّه، دون تفريق أو تفضيل في أصل الرّسالة والتّشريع، مع إبداء ما تفضل اللّه به على هذه الأمّة من التّكاليف السّمحة الحنيفيّة الّتي لا يعتورها ضيق، ولا يخالطها حرج[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمِعۡنَا﴾: أَيْ أَدْرَكْنَاهُ بأسماعنا وفَهِمْناهُ، يُقالُ: سَمِعَ سَمْعًا

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/105.

(2) الفَذْلَكَةُ: إجمالُ المعنى في عبارةٍ مُوجزةٍ بعدَ بَسْطه في عبارةٍ طويلةٍ، فهي خلاصةُ ما فُصِّلَ، أو مجملُه، أهمله الجوهريّ، وصاحب اللّسان، ينظر: الزَّبيديّ، تاجُ العَروسِ: (فَذلَكَ)، وقيل: هي كلمة مخترعة من قوله أي: الحاسب إذا أجمل حسابه: فذلك كذا وكذا عددا، وكذا وكذا قفيزا، الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: 27/293، ومن فذلكة الحساب قوله تعالى ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾، بعد قوله ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: 196]، نصّ عليه في البيضاويّ وحاشيته لمولانا عصام الدّين، فالفذلكة مأخوذة من قولهم فذلك كذا، كالبسملة والحمدلة والله أعلم. ينظر التّهانويّ، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1265.

(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/64، والقاسِميُّ، محاسِنُ التّأويلِ: 2/240، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/131.

(4) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/132.

وسَماعًا، وأصلُ السَّمْعِ: إيناسُ الشَّيْءِ بالأُذُنِ، ويُعَبَّرُ تارةً بالسَّمْعِ عن الأُذُنِ نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن فِعْلِهِ كالسَّماعِ نحو: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ [ق: 37]، وتارةً عن الفَهْمِ، وتارةً عن الطَّاعةِ، تقولُ: اسْمَعْ ما أقولُ لكَ، ولم تَسْمَعْ ما قُلْتُ، وتَعْني لم تَفْهَمْ، والمَعْنى هنا: فَهِمْنا ما جاءنا من الحقِّ، وتَيَقَّنَّا بصحَّتِه[1]، ويعبّر تارة بالسّمع عن الأذن، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارة عن فعلهم كالسّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشّعراء: 212]، وتارة عن الفهم، وتارة عن الطّاعة، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ [البقرة: 285]، أي فهمنا[2].

2) ﴿وَأَطَعْنَاۖ﴾: امْتَثَلْنا، يُقالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ، إذا أَذْعَنَ وانْقَادَ له، وامْتَثَلَ أمرَه، وأصلُ طَوَعَ: يَدُلُّ على الإِصْحابِ والانْقِيَادِ، والمعنى هُنا: امْتَثَلْنا أمرَكَ[3]، والطّوع الانصياع والانقياد، ويضادّه الكَرْهُ، قال تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت: 11]، وقوله أيضا: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83]، والطّاعة مثل الطّوع، ولكنّ الطّاعة أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النّساء: 81][4].

3) ﴿غُفْرَانَكَ﴾: أي: اغفِرْ مَغْفرتَكَ، يُقالُ: غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ، غَفْرًا وَغُفْرانًا وَمَغْفِرَةً، والمَغْفِرَةُ: هي السَّتْرُ لخَلَّةِ المُسْلِمِ وفاقَتِه، وترْك أذيَّتِه، وأصْلُ الغَفْرِ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ والوقايةُ، وغَفرتُ الشَّيءَ: إذا غطَّيتَهُ، والمعنى هُنا: نَطْلُبُ ونَسألُ مَغْفِرتَك[5]، وقوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، يعني: وقالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، بمعنى: اغفر لنا ربّنا غفرانك، كما يقال: (سبحانك)، بمعنى: (نسبّحك سبحانك)، و (الغفران) و(المغفرة)، السّتر من اللّه على ذنوب من غفر له، وصفحه له عن هتك ستره بها في الدّنيا والآخرة، وعفوه عليه فلا يعاقبه[6].

(1) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (سمع)، والسَّمينُ، عُمدَةُ الحُفّاظِ، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (سمع)، وأبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/276، والقِنَّوجيُّ، فَتحُ البَيانِ: 2/162.

(2) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: مادّة: (سمع).

(3) الرّاغِبُ، المفردات، والجَوهَريُّ، الصّحاح، وابن فارِس، مقاييسُ اللّغة، وابن الأثير، النِّهايَةُ: (طوع)، وأَبو السّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/276.

(4) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (طوع).

(5) الرّاغِبُ، المفردات، وابن فارِس، مقاييسُ اللّغة، والسَّمينُ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (غفر)، والسِّجِستانيُّ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 354، وابنُ الهائِم، التِّبيانُ، ص: 117.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/127.

4) ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: أَيِ المَرْجِعُ وَالمَعَادُ، يُقالُ: صِرْتُ إلى فُلانٍ، أَصِيرُ مَصِيرًا، وصار إلى كذا: انتهى إليه، وأصلُ المصير: هُوَ المآلُ وَالمَرْجِعُ الّذي يَنتهي إليه في تَنَقُّلِه وتَحَرُّكِهِ، والمعنى هنا: المَرْجِعُ إليكَ في كلِّ شُؤونِنا في الدُّنيا والآخرة(1).

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الإيمان بالقرآن يُفضي إلى الإيمان بما جاء به الرّسل عبر الزّمان

بيان إيمان رسول اللّه الخاتم مُحَمَّدٍ ﷺ، بما أُوحِيَ إليه من ربِّه، وتأكيد إيمان المؤمنين بذلكَ، في تصديق راسخٍ، بأصول الاعتقاد الكليّة، إقرارًا باللّه رَبًّا، مُتَّصِفًا بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، وإيمانًا بملائكتِه الأبرار، وبكُتبِه الزّاخرة بالأنوار، وبرُسُلِه الحاملين لهداية السّماء بأقدس الأسرار؛ وهُمْ في ذلك، لا يفرّقون بَيْنَ رُسُلِ اللّه، في الإيمانِ بهم وتعظيمِهم، مؤكّدين إيمانَهم باللّسان والوجدان، مُتَّجِهينَ إلى اللّه في طاعة وخضوع، وهم يقولون: ربَّنا سَمِعْنا تَنزيلَكَ المُحْكَمَ، واسْتَجَبْنا لِمَا فيه، فامْنَحْنا اللّهمَّ مَغفرتَكَ، فإنَّ مَرْجِعَنا إليكَ وحدَكَ، في الحال والمآل(2).

الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ الاستئنافِ الابتدائيّ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾:

إيذانٌ بانتهاءِ السُّورةِ لأنَّه انتقالٌ من التَّشريعِ إلى الثَّناءِ

جُمْلَةُ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ، وُضِعَتْ في هذا المَوْقِعِ لِمُنَاسَبَةِ مَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ انْتِقَالٌ مُؤْذِنٌ بِانْتِهَاءِ السُّورَةِ؛ لِأَنَّهُ انْتِقَالٌ مِنَ المَوَاعِظِ وَالإِرْشَادِ وَالتَّشْرِيعِ، وَمَا تَخَلَّلَ ذَلِكَ؛ مِمَّا هُوَ عَوْنٌ عَلَى تِلْكَ المَقَاصِدِ، إلى الثَّنَاءِ على رَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ

(1) الرّاغِبُ، المفردات، والسَّمين، عُمدَةُ الحُفّاظ، وابن الأثير، النّهايَةُ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (صير)، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (عود)، والخضيريُّ، السِّراجُ، ص: 270، ومقاتِلُ بن سليمان، تفسير مقاتِل: 1/232.

(2) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 69، ونُخبَةٌ مِن أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المَيَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسير، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49.

في إيمانِهِمْ بِجَمِيعِ ذَلِكَ إِيمَانًا خَالِصًا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ العَمَلُ؛ لِأَنَّ الإِيمَانَ بِالرَّسُولِ وَالكِتَابِ يَقْتَضِي الامْتِثَالَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ، فَهُوَ كَالحَاصِلِ وَالفَذْلَكَةِ، فَقَدْ أَشْعَرَ بِأَنَّهُ اسْتَوْفَى تِلْكَ الأَغْرَاضَ[1].

بيانُ مظاهرِ تعظيمِ النَّبيِّ ﷺ وخصوصيَّة إيمانه:

وذلكَ يَظْهَرُ في أمورٍ عدَّة:

الصِّيغةُ والتَّعريفُ والوصفُ والتَّفخيمُ والتَّقييدُ والتَّقديمُ هنَّ خوادِمُ عظمتِه

أوّلًا: التَّعْبيرُ بصيغةِ الفعل المَاضي: ﴿ءَامَنَ﴾ يَدُلُّ على رُسوخِ الإيمانِ، وهو شهادةٌ وتَنصيصٌ من الله تعالى، على قُوَّةِ إيمانِ نبيِّه ﷺ الفائقِ على إيمانِ غيرِه من الأَنْبياءِ والمرسلينَ والمَلائكةِ المُقرَّبينَ[2].

ثانيًا: دخول (ال) على لفظة الرَّسول، بناءً على أن اللَّامَ فيه لِلْعهدِ أو للجِنْسِ، والمُرَادُ به الفردُ الكاملُ، كأنَّ جِنْسَ الرَّسُولِ مُتَحَقِّقٌ فيه ﷺ عَلَى وَجْهِ الكَمالِ[3].

ثالثًا: التَّعْبيرُ بالرِّسالة؛ للإيذانِ في أوَّلِ الأمرِ بأنَّه صاحبُ كِتابٍ مَجيدٍ وشَرْعٍ جَديدٍ، ويُفْهَمُ مِنْهُ: أنَّ شَرْعَه ناسِخٌ لجميع الشَّرائعِ، والمُرَادُ بما أُنزلَ إليه: القُرْآنُ بأَسْرِه، والشَّريعةُ عَنْ آخرِها[4].

رابعًا: التَّعْبيرُ بـ ﴿بِمَآ﴾ مع بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول؛ تَفْخيمًا لأمرِ المُنْزِلِ، وفيه أيضًا: تَحقيقٌ لكَيفيَّة إيمانِه ﷺ، وتَعيينٌ لِعُنوانِه، أي: آمَنَ ﷺ بكلِّ ما أُنْزلَ إليه[5].

خامسًا: تقييدُه بـ ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ مع أنَّه معلومٌ؛ للزِّيادةِ في التَّعظيمِ، واسمُ الرَّبِّ أَوْقَعُ هنا؛ لأنَّ الإنْزالَ بما يُحيي القُلُوبَ، ويَشْفي ما في الصُّدورِ من العُيوبِ، وهو من آثارِ التَّرْبيَةِ مِنْ عَلَّامِ الغيوبِ، بما أَنْزَلَه على رسوله الكَريم، تَشْريفًا له وتعظيمًا[6].

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/131.
(2) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيل: 1/166، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/499.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/498.
(4) ابنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيد على البَيضاويِّ: 5/498.
(5) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليم: 1/273.
(6) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/498.

سادسًا: تقديمُ ذِكرِ إيمانه ﷺ؛ لِأَنَّ إِيمَانَهُ هُوَ الْمُتَقَدِّمُ، وَإِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ مُتَأَخِّرٌ عَنْ إِيمَانِهِ، إِذْ هُوَ الْمَتْبُوعُ، وَهُمُ التَّابِعُونَ في ذَلِكَ[1]، فقُدِّمَ المؤمِنُ به على المعطوفِ؛ اعتناءً بشَأنِه، وإيذانًا بأَصالته عليه السلام في الإيمانِ[2]، ولأنَّ إيمانَه عن مُشاهَدةٍ وعِيانٍ، وإيمانَهم عن نَظَرٍ وبُرْهانٍ[3].

بديع الجناس في ذكر وصف المؤمنين بالإيمان:

توكيد معنى استجابة المؤمنين وتقويته

التَّجْنِيسُ المُغَايِرُ بين لفظتَي: ﴿ءَامَنَ﴾ و ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾[4] جيءَ به لتوكيدِ معنى الاستجابةِ والانقيادِ وتقويتِهما، فالْمُؤْمِنُونَ - هُنا - لَقَبٌ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلِذَلِكَ كَانَ في جَعْلِهِ فَاعِلًا لِقَوْلِهِ: ﴿ءَامَنَ﴾ فَائِدَةٌ، مَعَ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ في قَوْلِكَ: قَامَ الْقَائِمُونَ[5].

تَوْجيهُ مُتَعَلَّقِ التَّنوينِ والتَّنْكيرِ في لَفْظَةِ: ﴿كُلٌّ﴾:

بيانُ إيمانِ كلِّ واحد من غير اعتبار الاجتماعِ تمييزًا لإيمان النَّبيِّ ﷺ عن إيمان غيره

لفظَةُ (كلّ) من ألفاظِ العموم التي تَصلُحُ للإحاطة، ولمَّا وَرَدَتْ هنا بعدَ قولِه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾، دَلَّ ذلكَ على إحاطتِها بمَنْ ذُكِرَ[6].

وَإِذْ كَانَتْ ﴿كُلٌّ﴾ مِنَ الأَسْمَاءِ الْمُلَازِمَةِ الإِضَافَةَ؛ فَإِذَا حُذِفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ نُوِّنَتْ تَنْوِينَ عِوَضٍ عَنْ مُفْرَدٍ[7]، فكان المعنى: كلُّ واحدٍ مِنْهُمْ؛ ولذا قيلَ: ﴿ءَامَنَ﴾ دُونَ (آمنوا)، فَتَوحيدُ الضَّميرِ في ﴿ءَامَنَ﴾ مع رجوعه إلى كلِّ المؤمنين؛ لأنَّ المرادَ بيانُ إيمانِ كلِّ فردٍ منهم من غيرِ اعتبارِ الاجتماعِ، كما اعتُبرَ ذلكَ في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النَّمل: 87]، وتغييرُ سبكِ النَّظمِ الكريم عمَّا قبلَه؛ لتأكيدِ الإشعارِ بما بينَ إيمانِه ﷺ، المَبنيِّ على المُشاهدة

---

(1) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/756.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/275.

(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/498، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/498.

(4) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/767.

(5) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/132.

(6) ابن عَطيّة، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/391.

(7) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/132.

والعِيانِ، وبينَ إيمانِهم النَّاشِئِ عن الحُجَّةِ والبرهانِ، من التَّفاوتِ البَيِّنِ والاختلافِ الجليِّ، كأنَّهما مُختلفان مِنْ كلِّ وجهٍ، حتّى في هيئة التّركيبِ الدّالِّ عليهما، وما فيه من تَكريرِ الإسنادِ لِمَا في الحُكم، بإيمانِ كلِّ واحدٍ منهم على الوجْه الآتي، من نوعِ خفاءٍ مُحوِجٍ إلى التَّقويةِ والتَّأكيدِ، أيْ: كُلُّ واحدٍ منهم آمَنَ[1].

تَرْتِيبُ مراتب الإيمان وأُصولِهِ:

التَّرابُطُ الوثيق بين المراتب، فلا يَصِحُّ الإيمانُ باللَّاحقة إنْ لم يتحقَّق بالسَّابقة

جاءَ التَّرْتِيبُ في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ في غَايَةِ الفَصَاحَةِ؛ لِأَنَّ الإيمَانَ بالله هو المَرْتَبَةُ الأُولَى، وَهِيَ الَّتِي يَسْتَبِدُّ بِهَا العَقْلُ؛ إذْ وجودُ الصَّانعِ يُقِرُّ به كلُّ عَاقِلٍ، وَالإِيمَانُ بِمَلَائِكَتِهِ هِيَ المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ؛ لِأَنَّهُمْ كَالوَسَائِطِ بَيْنَ اللَّهِ وَعِبَادِهِ، وَالإِيمَانُ بِالكُتُبِ هُوَ الوَحْيُ الّذِي يَتَلَقَّنُهُ المَلَكُ مِنَ اللهِ، ويوصِلُهُ إِلَى البَشَرِ هِيَ المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ، وَالإِيمَانُ بِالرُّسُلِ الّذِينَ يَقْتَبِسُونَ أَنْوَارَ الوَحْيِ فَهُمْ مُتَأَخِّرُونَ فِي الدَّرَجَةِ عَنِ الكُتُبِ، وهِيَ المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ[2]، ولم يَذْكُرِ الإيمانَ باليَوْمِ الآخرِ؛ لاندراجِه في الإيمانِ بِرُسلِهِ وبكُتُبِه، فحِينَئِذٍ يكون الإيمانُ بالآخرةِ مَذكورًا ضمنًا؛ فلا حاجةَ إلى توجيه عَدَمِ ذِكْرِهِ[3].

توجيه القراءات القرآنيّة في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾:

الله سبحانه وتعالى أمرَ المؤمنين بعدم التَّفريقِ بين رسله

قَرَأَ الجُمْهُورُ[4] بالنُّونِ: ﴿نُفَرِّقُ﴾، وَقَرَأَهُ يَعْقُوبُ بالياءِ: ﴿يُفَرِّقُ﴾، والنُّونُ على قراءة الجُمْهُورِ تحتملُ معنَيَيْنِ: الأوَّل: أنَّها نُونُ المُتَكَلِّمِ المُشَارِكِ: وحينئذٍ يَحْتَمِلُ الالْتِفَاتَ، بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَقُولِ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ، دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَ ﴿وَقَالُواْ﴾ معطوفةٌ عَلَيْهِ؛ الثَّاني: النُّونُ فِيهِ لِلْجَلَالَةِ، أَيْ: آمَنُوا فِي حَالِ أَنَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّنَا

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليم: 1/274، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/499.
(2) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/756، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/65.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502.
(4) ابن الجزريِّ، النَّشرُ: 2/237.

لَا نُفَرِّقُ، فَالجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ، وقد يكونُ مَقُولًا لِقَوْلٍ مَحْذُوفٍ، دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ءَامَنَ﴾؛ لِأَنَّ الإِيمَانَ اعْتِقَادٌ وَقَوْلٌ، وَمعنى قراءَةِ يَعْقُوبَ: أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[1].

وجهُ ذِكْرِ التَّفريقِ في شأنِ الإيمانِ بالرُّسلِ:

إظهارٌ لكمالِ إيمانِ القائلين وتأكيدٌ ليقينهم

ذكرَ اللّٰه سبحانه وتعالى عدمَ التَّفريقِ بين الرُّسُلِ، باعتبارِ أنَّ بعضَ الْكُفَّارِ: يَقُولون نُؤمِنُ ببعضٍ ونَكفرُ بِبَعْضٍ، أيْ: نُؤمِنُ ببعضِ الأشياءِ ونكفرُ ببعضٍ، فيقولُ المُؤْمِنُونَ ذلك؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وتَحْصيلًا لاعْتداد إيقانِهم، على أنَّه يَسْتَلزِمُ عَدَمَ تَفْرقتِهم بَيْنَ الكُتُبِ دونَ العكسِ؛ ولأنَّ بَعْضَ الرُّسُلِ لا كِتابَ لهم، فيُمكِنُ أنْ يَتَحقَّقَ عدمُ التَّفْرقةِ بَيْنَ الكتبِ والتَّفرقةِ بين الرُّسُلِ، بأنْ يَكْفُرُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ الّذينَ لا كتابَ لهم، مع الإيمانِ بجميع الكُتُبِ والرُّسُلِ الّذينَ أُنزِلَتْ تلك الكُتُبُ إليهم[2].

والمُرَادُ نفي الفَرْقِ بالتَّصديقِ والتَّكْذيبِ[3]؛ وأمَّا الفَرْقُ بينهم بتَفْضيلِ بَعضِهم عَلَى بعضٍ؛ فلازِمٌ على الإجمالِ، كما قال تعالى: ﴿۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[4].

سِرُّ التَّعبيرِ عن الامتثالِ بالسَّماعِ في قولِه تعالى: ﴿سَمِعْنَا﴾:

الاستجابةُ بذكرِ دليلِ الطَّاعةِ وهو السَّماعُ، والتَّعريضُ بالمشركين

السَّمْعُ في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا﴾ كِنَايَةٌ عَنِ القَبُولِ وَالِامْتِثَالِ والإجابةِ[5]، أو مَجازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُه السَّببيَّةُ؛ فَذَكَرَ السَّبَبَ، وأُريدَ المُسَبَّبُ، وهو الإجابةُ؛ إذ لا ثناءَ للسَّمْعِ بدون إجابةٍ وامتثالٍ[6]، فالمَعْنَى: إِنَّهُمْ آمَنُوا، وَاطْمَأَنُّوا وَامْتَثَلُوا[7]؛ فَهُوَ مَدْحٌ يَقتضي الحَضَّ

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/133.
(2) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/501.
(3) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/166.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/501.
(5) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/133.
(6) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/166، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/501-502.
(7) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.

على هذه المَقالةِ، وأنْ يكونَ المؤمنُ يمتثلُها غابرَ الدَّهرِ، والطَّاعةُ: قَبولُ الأوامرِ وامتثالُها[1].

والغرضُ هو بيانُ سرعةِ الإجابةِ، وعدمِ التَّفريطِ في شيءٍ منه؛ إذ إنَّ السَّماعَ مُقدَّمٌ على الإجابة، فذِكْرُه بدلًا من الإجابة؛ إشارةٌ إلى أنَّ جميعَ ما تلقَّته الأذُنُ قد قاموا به خيرَ قيامٍ، دونَ تأخيرٍ أو تبديلٍ أو نقصانٍ، وهو دليلٌ على الاستجابةِ والامتثالِ، وفيه تعريضٌ بالمشركين الذين لم تنفعْهم أسماعُهم.

بَيانُ رُسوخ الإيمانِ وقِدَمِ امتثالِهم وطاعتهم

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي دون المضارعِ:

جِيءَ بِلَفْظِ الماضي في قولِه: ﴿سَمِعْنَا﴾ دُونَ المُضَارِعِ؛ لِيَدُلُّوا عَلَى رُسُوخِ ذَلِكَ، لا أَنَّهُمْ أَرَادُوا إِنْشَاءَ القَبُولِ وَالرِّضا، وَصِيَغُ العُقُودِ وَنَحْوِهَا تَقَعُ بِلَفْظِ المَاضِي نَحْوَ: بِعْتُ[2]، كما أنَّ صيغةَ الماضي هُنا للاسْتِمْرَارِ؛ لأنَّه قد وَقَعَ فيما مضى، ولم يَعْرِضْ له ما يُنافيه، فَيَلْزَمُ الاسْتِمْرَار[3].

تعميمُ الاستجابةِ والامتثالِ لكلِّ أمرٍ من أوامرِ الله

نكتةُ حَذْفِ المفعولِ في قولِه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾:

حُذِفَ مَفْعُولُ فعلَيْ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، والمرادُ بالمفعولِ ما جاءَه الرَّسُولُ ﷺ من الحقِّ القَويمِ والشَّرعِ المُستقيمِ؛ ونكتةُ الحَذْفِ: التَّعميمُ مع الاختصارِ، أي: سَمِعْنا ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وأطعنا (أمركَ) بالامتثالِ، والإعراضِ عن ضِدِّهِ[4].

إظهارُ شدّةِ الحاجةِ إلى المطلوبِ، وبيانُ عِظَمِهِ أمامَ ذنوبِهم

دَلالةُ المصدرِ وسرُّ إضافته في قولِه: ﴿غُفْرَانَكَ﴾:

الغُفرانُ مصدرُ: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْرًا ومَغْفِرةً وغُفرانًا؛ يَدُلُّ على سَتْرِ اللهِ الذُّنوبَ لحمايةِ مُرْتكبِها من العذابِ، ولم يَرِد مصدرُ

(1) ابن عَطيَّة، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/392.
(2) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.
(3) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/166، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502.

(الغُفران) في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضِع[1]؛ للدَّلالةِ على أنَّه مِنْ خصائصِ دعاء المؤمنينَ، فلا يَنبغي لأحدٍ أن يَطلبَ الغفرانَ مِن أحدٍ غيرِ اللّهِ تعالى.

تفخيم شأن المغفرة وتعظيم أمرها

قولُه: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ أي: اغْفِرْ لنا غُفْرانَكَ، أو نَطْلُبُ غُفْرانَكَ[2]؛ فيكونُ مَفْعُولًا مُطْلَقًا، والإضَافَةُ هنا للتَّفخيم[3].

نُكْتَةُ تقديم السَّمع على الطَّاعة؛ وتقديمها على طلب المغفرة:

تَقدُّم ذكرِ الوسيلة على ذكرِ المسؤول أقربُ إلى الإجابة والقبولِ

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّمعِ على الطَّاعةِ في قولِه تعالى: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾؛ لتَقدُّمِ العامِّ على الخاصِّ، أو لأنَّ التَّكليفَ طريقُه السَّمْعُ، والطَّاعةُ بعدَه، وتقديمُ ذِكْرِهما على طلبِ الغُفْرانِ؛ لِمَا أنَّ تَقدُّمَ الوَسيلةِ على المسؤولِ أقربُ إلى الإجابة والقَبولِ[4].

كما أنَّ في ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ إشَارَةً إِلَى الحالِ، وَفي ﴿غُفۡرَانَكَ﴾، وَمَا بَعْدَهُ إشَارَةً إِلَى المَعَادِ[5].

سِرُّ عدمِ الإشارةِ إلى ما يدلُّ على استجابة الدَّعوات:

الإيذانُ بأنَّ أمرَ إجابتها مُتحقِّقٌ مفروغٌ منه

لم يتعرَّضْ في هذه الآيةِ إلى بيانِ فَوزِ المؤمنين بمَطالبهم، الّتي من جُمْلتِها ما حُكِيَ عنهم مِنَ الدَّعواتِ؛ إيذانًا بأنَّه أمرٌ مُحقَّقٌ غنيٌّ عن التَّصريح[6].

دلالةُ التَّذييلِ في قوله: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

في قوله: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تذييلٌ لِمَا قبله، مُقرِّرٌ للحاجة إلى المغفرة؛ لأنَّ الرُّجوعَ يكونُ للحسابِ والجزاءِ[7].

(1) عبد الباقي، المعجم المفهرس، ص: 502.
(2) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/166.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/66.
(4) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/66.
(5) أبو حيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/757.
(6) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/273.
(7) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/276، والقاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويل: 2/241.

بيانُ تيقُّن المؤمنين بالمعَادِ، وشِدَّةِ حاجتهم إلى مغفرة ربِّ العباد

كما أنَّه إقرارٌ منهم بالبَعْثِ(1)، ودلَّ على هذا الإقرارِ تَقْديمُ المَجْرُورِ المُفيدِ للْحَصْرِ: أي: الْمَصِيرُ إِلَيْكَ، لَا إِلَى غَيْرِكَ، وَهُوَ قصرٌ حَقِيقِيٌّ قَصَدُوا بِهِ لَازِمَ فَائِدَتِه، وَهُوَ: أَنَّهُمْ عَالِمُونَ مُتَيَقِّنُونَ بِأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يَصِيرُونَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَعْبُدُهُمْ أَهْلُ الضَّلَالِ، وقد يكونُ هذا التَّذْييلُ مَجازًا عَنْ تَمَامِ الامْتِثَالِ وَالإِيمَانِ؛ كَأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ آبِقِينَ، ثُمَّ صَارُوا إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذّاريات: 50]، وَجَعْلُ المَصِيرِ إِلَى اللَّهِ تَمْثِيلًا لِلْمَصِيرِ إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ(2)، كَقَوْلِهِ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النُّور: 39].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنزال والتَّنزيل:

الإنزالُ دَفْعِيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ

الإنزالُ على ما يكون دَفعةً واحدةً(3)، ويُطلقُ التَّنزيلُ على ما يكونُ مُفرَّقًا أو تَدْريجيًّا، فالإنزالُ دَفْعِيٌّ، والتَّنزيل تدريجيٌّ، قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]؛. وهذا لأنَّ حُكْمَ القرآنِ الكريم مُؤبَّدٌ، وهو مُناسِبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بِناءٌ للمُبالغة، ولِمَا في التَّنزيلِ من معنَى التَّدريجِ، فبَينَ (الإنزالِ) و(التَّنزيلِ) عُمُومٌ وخُصُوصٌ، والإنْزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لأنَّه قد يَدُلُّ على معنى التَّدْريجِ، وقد لا يَدُلُّ(4). ولا يُشْكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوعُ التَّعبيرِ عنْ نُزولِ القُرآنِ الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ وذلكَ لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريم نُزولَيْنِ، دَفْعِيًّا إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتَدْريجيًّا بحَسَبِ الوَقائعِ والأحداثِ(5).

(1) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/166، وأبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/759.

(2) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.

(3) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (نزل)، وأبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79، والجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 68، والخَفَاجيُّ، عناية القاضي: 3/1.

(4) الراغب، المفرداتُ: (نزل).

(5) أبو شامة، المرشدُ الوَجيزُ، ص: 17، والسُّيوطيُّ، الإتقان: 1/146.

الاستماعُ لِمَا كَانَ بِقَصْدٍ وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالإِصْغَاءِ، والسَّماع يَكُونُ بِقَصْدٍ وَدُونَهُ

السَّماع والاستماع والإنصات:

السَّماعُ وكذا السَّمْعُ: مُطْلَقُ إدراكِ الحروفِ والأصواتِ، والاستِماعُ طَلَبُ السَّمْعِ بالإصغاءِ بالأُذُنِ، أيْ: تَقَصُّدُ السَّماعِ، والسَّمْعُ ثلاثُ دَرَجاتٍ: إحساسٌ بالصَّوتِ دونَ فَهْمٍ، كَسَماعِ الدَّوابِّ السَّارحةِ إذا دَعاها راعيها إلى ما يُرشِدُها، فلا تَسْمَعُ إلّا دعاءَه ونداءَه، ولا تَفْهَمُ ما يَقولُ(1)، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، وإحساسٌ بالصَّوتِ مع الفَهْمِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ [البقرة: 75]. وإحساسٌ بالصَّوتِ مع الفَهْمِ والاقْتناعِ والإيمانِ والطَّاعةِ، وهي أعلى دَرَجاتِ السَّمْعِ الّتي تُمنَحُ للمؤمنينَ، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36] وقال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾ [الرُّوم: 81]. والاستماعُ يكونُ على درجتَين: الأولى: استماعُ انْتفاعٍ وانْقيادٍ وطاعةٍ، وهو استماعُ المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزُّمر: 18]، وهناكَ اسْتماعٌ لايَنْتُجُ عنه انتفاعٌ ولا قَبولٌ ولا انقيادٌ، وهو استماعُ الكافرِ والمُنافقِ، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢﴾ [يونس: 42]، فَهُمْ في هذهِ المَنْزِلَةِ كالبهائمِ في عَدَمِ الانْتفاعِ، وإنْ كان الفَرْقُ بَيْنَهُما بأنَّ مُسمَّى الاسْتماعِ مَوجودٌ في الكَفَرَةِ دونَ البهائمِ(2). وأمَّا الإنصاتُ: فهو تَرْكُ الأشغالِ، والسُّكوتُ والتَّفرُّغُ للاسْتماعِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: 204]، فالإنصاتُ يكونُ بتَرْكِ التَّحدُّثِ، أو الاشتغالِ بما يَشْغَلُ عن الاستماعِ، وأمَّا الاسْتِماعُ له فهو: أنْ

(1) ابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/238، والثَّعالبيُّ، الجَواهِرُ الحِسانُ: 1/355.

(2) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 3/114، وابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 9/472.

يُلقِيَ سَمْعَه وقَلْبَه، ويَتدبَّرَ ما يَسْتَمِعُ إليه[1]، فالإنْصاتُ: السُّكوتُ والسُّكونُ، وتَرْكُ الأَشْغالِ بقَصْدِ الاسْتماعِ، والاسْتِماعُ: قَصْدُ السَّماعِ بُغيةَ فَهْمِ المَسْموعِ، أو الاستفادةِ منه[2].

الطَّاعة والعبادة:

الطَّاعةُ مُطلقُ الانقياد، والعبادة الخضوع لله تعالى محبَّةً وتعظيمًا

الطَّاعةُ: الانقيادُ، وهي: الفعلُ الواقعُ على حَسَبِ ما أَرادَه المُريدُ، يُقالُ: طاعَه يَطُوعُهُ؛ إذا انْقادَ معه ومضى لأَمْرِه، وأكثرُ ما تُقالُ في الائْتِمارِ لما أُمِرَ، والارتسام فيما رُسِمَ، وتكونُ للخالقِ والمخلوقِ[3]. والعبادةُ هي: غايةُ الذّلِّ والخضوعِ مع المحبَّةِ والتَّعظيم، ولا تُستَحَقُّ إلّا بغايةِ الإنعام، ولهذا لا يَجوز أنْ يُعْبَدَ غيرُ اللّه تعالى، ولا تكونُ العبادةُ إلّا مع المَعرفةِ بالمَعبودِ، ولا تكونُ إلّا للخالق، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ [نوح: 3]، فَجَعَلَ العِبادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ[4]، والطّاعة الانقياد وهو لا يتصوّر إلّا بعد الأمر، فالفرق بين الطّاعة والعبادة أنّ الطّاعة فعل يعمل بالأمر لا غير، بخلاف العبادة[5]، فالطَّاعةُ: هي مُجرَّدُ المُوافقةِ للأمرِ، وهي أَعَمُّ من العبادةِ، لأَنَّ العبادةَ غَلَبَ استعمالُها في تعظيمِ اللّهِ غايةَ التَّعظيمِ[6].

الغفران والمغفرة[7]:

الغفران مطلب المؤمنين في دعائهم، والمغفرة فضل غامرٌ، وعطاءٌ فيَّاض

بلاغة القرآنِ تفرّق في الصِّيغة بين الغفران والمغفرة،؛ وكِلا المصدَرين (الغفران والمغفرة) يَدلّانِ على السَّتْرِ والتَّغطيةِ للذُّنوبِ، لحِمايةِ مُرتكبِها من العذاب، فقَيْدُ (الحماية) مُهِمٌّ جِدًّا في معنى

(1) السّعديُّ، تَيسيرُ الكَريمِ الرَّحمنِ، ص: 314.
(2) إسماعيل حَقّي، روحُ البَيانِ: 8/486.
(3) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (طوع)، والعَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 221
(4) ابن تَيميَةَ، مجموعُ الفَتاوى: 3/108.
(5) اسماعيل حقّي، روح البيان: 3/108.
(6) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 583.
(7) نصر سعيد، أثر السِّياق في اصطفاء أحد المصادر المتعدِّدة للفعل الواحد، ص: 205، وما بعدَها.

الغفرانِ، وقد قال الطَّبريُّ في معنى (الغفران) و (المغفرة): السَّترُ من الله على ذنوبِ مَنْ غَفَرَ له، وصفحُه له عَنْ هَتْكِ سَتْرِه بها في الدُّنيا والآخرةِ، وعفوُه عن العقوبةِ عليه[1]، وقد وردَ الغفرانُ مرّةً واحدةً، في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، لكنّ المغفرة وردت ثمانيًا وعشرين مرّةً، وقد اختَلَفَ السِّياقُ على النَّحو الآتي:

أوّلًا: نَلْحَظُ أنَّ (الغفران) قد وقعَ في سِياق دعاء المؤمنين، لربِّ العالَمين.

ثانيًا: أنَّ الغُفرانَ سؤالُ العبادِ ربَّهم بصِفةٍ خاصّةٍ، دون سواه.

ثالثًا: وَقَعَتِ المغفرةُ في سِياقاتٍ مُتعدِّدَةٍ، غير الطَّلب أو السُّؤال أو الدُّعاء[2]، رابعًا: يُمكنُ أنْ تَصْدُرَ المغفرةُ - بمعناها اللُّغويِّ لا الشَّرعيِّ - من المَخلوقِ[3].

خامسًا: الغُفرانُ مَطلبُ المؤمنينَ، والمغفرةُ تفَضُّلُ الله ربّ العالمين.

سادسًا: الغُفران طمعٌ في كَرَمِ المنّان، والمَغفرة إسداءٌ بلا امتنان.

ومثال ذلك أنّه قد حثّ المُسارعينَ إلى المغفرةِ على تطلّب الجنّةِ بصيغة الإفراد ﴿وَجَنَّةٍ﴾ في قوله: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: 133]، ثمَّ بصيغة الجمع ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾، في معرض التّفضّل والعطاء في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [آل عمران: 136].

المصير والمآب والمرجِع:

هذه ألفاظٌ ثلاثةٌ مُتقاربةٌ في المعنى، فالمصيرُ: يَدُلُّ على التَّحوُّلِ إلى غايةٍ أو مَجْمَعٍ؛ ليكونَ المآلَ والمُنتهى، ومنه قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، والمآبُ: رُجوعُ الشّيءِ إلى مُستَقَرِّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾، [آل عمران: 14]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/128.

(2) المغفرة وردت في القرآن، في مُقابَلة العذابِ، كما في البقرة: 175، و الحديد: 20، واقترَنَتْ بذكر الجنَّةِ، كما في البقرة: 221 و آل عمران: 133، 136، و الحديد: 21، وبالرَّحمة، كما في آل عمران: 157، والنّساء: 96، وبالأجرِ العظيمِ، كما في المائدة: 9، والأحزاب: 35، والفتح: 29، والحجرات: 3، وبالأجرِ الكبير، كما في هود: 11، وفاطر: 7، ويس: 11، والملك: 12، وبالرِّزق الكريم، كما في الأنفال: 4، 74، والحجّ: 50، والنّور: 26، وسبأ: 4، وبالفَضل، كما في البقرة: 268، وجاءت المغفرةُ وعدًا من الله للمؤمنين، كما في محمّد: 15، كما جاءت خبرًا عن الله تعالى، كما في النّجم: 32، والمدّثّر: 56.

(3) مثال المغفرةِ -بمعناها اللُّغويِّ لا الشَّرعيِّ- من المَخلوقِ، قوله تعالى: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة: 263].

المـــآبُ رجُـــوعٌ إلى المُـستـقـرّ، والمرجـعُ تحـوّلٌ عن الاتّجاه إلى عكسه

وقولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾ [النّبأ: 21، 22]. والمرجِعُ: من الرُّجوعِ، وهو العَودُ إلى ما كان منه البَدْءُ، والرَّجْعُ: الإعادةُ؛ تحوّلٌ عن الاتّجاه أو الحالِ إلى عكسه، كما يحصل للماءِ في الغَدير؛ لأنّه مُحتَبَسٌ فيه لا ينسابُ بعيدًا، وكلُّ ما في القرآن مِنْ (تُرْجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم) فهي إلى اللّه [1] ﷻ.

وعليه فهناك سُمُوٌّ في اصطفاء البيانِ القرآنيِّ للألفاظِ المُنسَجِمَةِ مع سِياقها؛ فيُذكَرُ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ في نهايةِ المطافِ، مع التَّركيز على معنى التَّحوُّلِ من حال إلى حالٍ عند المُنْتهى، كما في الآية الكريمة قيد المعالجة، فالمَصيرُ: الرّجعى إلى اللّه بعدَ الموتِ، وهو لفظٌ عامٌّ شاملٌ لمآلِ العبادِ في كلِّ حالٍ ومآل[2]؛ حيثُ دعاءُ المؤمنين المتدفّق، بمظاهر الخُشوعِ والإخباتِ، وتعظيمهم للبعث بعد الممات، حيث لقاءُ اللّه ربّ الأرض والسّماوات.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صير)، (أوب)، (رجع).

(2) العليمي، فتح الرّحمن: 1/411.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة: 286]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط التَّيسير ورفع المشقَّة، باستجابة أهل الإيمان لأوامر الرّحمن

تتجلّى العلاقة بين هذِهِ الآيَةِ وما قَبْلَها، في أنّ المُؤمنين لمّا مَنَّ اللّه عليهم بالإيمان، ومتانة العقيدة، فآمنواْ باللّه المُنْزِلِ الحكيم، والقرآن المُنَزَلِ العظيم، وبالنّبيّ ذي الخلق الكريم، وصدّقوا بالرُّسل السّابقين، والكتب المنزلة على الأقوام الماضين، والتزموا بمقتضيات الإيمان، من تطبيق الأحكام، والانضباط مع مبادئ الإسلام، حينها تجسّد لهم ثقل التّكليف، وحساسيّة الالتزام الشّريف، فراحُوا يطلبون التّخفيف، حتّى لا يتحمّلوا ما لا طاقة لهم به، داعين اللّه أن يراعي لهم ما يبدر منهم من نسيان وما يصدر منهم من عصيان، وأن لايُحَمّلُوا الآصار الّتي تحمّلتها الأمم السّوالف، بل يطلبون من اللّه أن يعاملهم بعوارف الإحسان، لا بقوارع الامتحان، فيلفّهم بالعفو، ويشملهم بالمغفرة، ويكنفهم بالرّحمة، و يؤيّدهم بالنّصر المبين، على أعدائهم الكافرين(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يُكَلِّفُ﴾: من التَّكليفِ، وهو الأَمْرُ بِمَا يَشُقُّ، وَقد كَلَّفَه تَكْلِيفاً، وتَكَلَّفَه تَكَلُّفاً: إِذا تَجَشَّمَهُ، وأصلُ التَّكليفِ: من الكَلَفِ وهو

(1) البِقاعيُّ، نَظم الدُّرَر: 4/175، والرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/115.

الإيلاغُ بالشَّيءِ، ومنه الكَلَفُ في الوَجْهِ؛ لِتَصَوُّرِ كُلْفةٍ به، بتَوجيهِ أمرٍ إِلَيْه، يَجْعلُه في مَشقّةٍ وحَرَجٍ[1]، والمعنى لا تكلّفنا ما لا نُطيق، وقيل: ما يشقُّ علينا فعله على الدّوام، وقيلَ: مَا لَا نستطيع من عقوبة ذنوبنا[2].

2) ﴿إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾: أيْ طاقتَها، وهي كلُّ مُخْتَزَنٍ في باطنِ الإنسانِ من قُدْرَةٍ وُسْعٍ، وأصلُ الوُسْعِ: يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الضِّيقِ وَالعُسْرِ، وَالوُسْعُ: الجِدَةُ والغِنى، وَأَوْسَعَ الرَّجُلُ: كَانَ ذَا سَعَةٍ، فهو باسطٌ وواسعٌ لنَفْسِه وأهلِه، والمعنى هُنا: أيْ لا يُحمِّلُهَا مِنْ أمرِ دينِها إلّا ما هو في طَوْقِهَا[3]، والوُسْع ما يسعُ الإنسان، ولا يضيقُ عليه، ولا يُحرجُ فيه، أي لا يكلّفها إلّا ما يتّسع فيه طوقه، ويتيسّر عليه دون مدى غاية الطّاقة والمجهود، فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلّي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشّهر، ويحجّ أكثر من حجّة[4].

3) ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾: الكَسْبُ: ما يَتَحَرَّاه الإنسانُ ممَّا فيه جَلْبُ مَنفَعةٍ أو دَفْعُ ضُرٍّ، يُقالُ: كَسَبْتُ المالَ واكتَسبْتُه وتكسَّبْتُه، وأصلُ الكَسْبِ يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ، والكَسْبُ: طَلَبُ الرِّزقِ، ورَجُلٌ كَسُوبٌ للمالِ وكَسَّابٌ، له مكاسِبُ، والمعنى هُنا: لَها مَا كَسَبَتْ مِنْ خير؛ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ من شَرٍّ[5]، ولمّا كان الشّرّ ممّا تشتهيه النّفس، وهي أَجَدُّ واعْمَلُ فيه، جعلت لذلك مكتسبة فيه، بخلاف الخير، فإنّها لمّا لم تكن فيه كذلك، وصفت بما ليس فيه الاعتمال، فقال: كسبت[6].

4) ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾: تُعاقِبْنا؛ مِنْ أَخَذَه بذَنْبه، وآخذَه مُؤاخذةً: عاقبَه عليه وجازاه، وأصلُ آخذَه: ضَبَطَهُ أو حازَه، وتمكَّنَ منه فعاقبَه، فآخَذَه بِذَنْبِهِ مُؤَاخَذَةً، أَخَذَه بِهِ وعاقَبَه[7].

---

(1) الرّاغِبُ، المفردات، والسَّمِيْن، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس، وجبل، المعجَم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (كلف)، والمصطفويُّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريم: 10/101.

(2) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/237.

(3) السَّمِيْن، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجَم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (وسع)، وابنُ قُتَيبَة، غَريبُ القُرآنِ، ص: 89، و السِّجِستانيُّ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 487، والمصطفويُّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريم: 13/106.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/233.

(5) الزّمخشريُّ، أَساسُ البَلاغَة، والرّاغِبُ، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (كسب)، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التَنزيل: 1/166.

(6) الإيجيّ، جامع البيان: 1/214.

(7) ابنُ سيدَه، المحكَم، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، والزّبيديُّ، تاجُ العَروس، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (أخذ).

5) ﴿نَّسِينَآ﴾: غَفَلْنا فَتَرَكْنا؛ يُقالُ: نَسِيتُ الشَّيءَ أَنْساه نِسْيانًا: تَرَكْتُهُ عن ذُهولٍ وغَفلةٍ، وأصلُ النِّسيانِ يَدُلُّ على إغفالِ الشَّيءِ، يُقالُ: نَسيتَ الشَّيءَ إذا لم تَذْكُرْهُ[1]، قوله ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: يعني إن تناسينا أمرك، والثّاني: تركنا، والنّسيان: بمعنى التّرك كقوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التّوبة: 67]، قاله قطرب[2].

6). ﴿أَخۡطَأۡنَاۚ﴾: أتيْنا بخَطأٍ، والخطأُ ضدُّ العَمْدِ، وأصلُ خَطَأ يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الشَّيْءِ، وَالذَّهَابِ عَنْهُ، وَالخَطَاءُ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الصَّوَابِ، وأَخْطَأَ: إذا لم يتعمَّدْ، وخَطِئَ إذا تَعمَّدَ الإثمَ، والمَعْنى هُنَا: أَتَيْنا بخَطإٍ وفاتَنا الصَّوابُ، فعدَلْنا عنه سَهوًا من غَيْرِ تَعَمُّدٍ[3]، ومعنى أخطأنا، "فيه تأويلان: أحدهما: ما تأوّلوه من المعاصي بالشّبهات، والثّاني: ما عمدوه من المعاصي الّتي هي خطأ تخالف الصّواب، وقد فرّق أهل اللّسان بين (أخطأ) و (خطئ)، فقالوا: (أخطأ) يكون على جهة الإثم وغير الإثم، وخطىء: لا يكون إلّا على جهة الإثم"[4].

7) ﴿إِصۡرٗا﴾: أيْ: ثِقَلًا، وأصلُ الأَصْرِ: عقْدُ الشَّيءِ وحبْسُه بقَهرِه، وحَمَلَ عَنْهُم الإِصْرَ، أي: الثِّقَلَ العَظيمَ من كُلْفَةِ أَمْرٍ، أو وبالِ نَهْيٍ، والمعنى هُنا: لا تَحْمِلْ عَلَيْنا عَهْدًا أو تَكْليفًا يَثْقُلُ عَلَيْنا، أو إثمَ عَهْدٍ لا نَفِي به[5]، وقالوا: كلّ عقد من قرابة أو عهد، فَهُو إِصر، والعرب تقول: مَا تأصِرُني على فلان آصرة، أي ما تعطفني عليه قرابة ولا مِنّة، وفي هذا السّياق، قال الحطيئة:

عَطفُوا عَلَيَّ بِغَيْرِ آصِرَةٍ فَقَدْ عَظُمَ الْأَوَاصِرُ[6].

8) ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾: مَا يَصْعُبُ علينا، والطّاقَةُ: القُوّةُ، وتُسمَّى الإطاقة والطَّاقة، وأصلُ طَوَقَ: كُلُّ مَا اسْتَدَارَ بِشَيْءٍ، فطَوَّقْتُكَ الشَّيْءَ، إِذَا كَلَّفْتُكَهُ، والطَّاقَةُ: اسمٌ لِمَا يَقْدِرُ

(1) ابنُ فارس، مقاييسُ اللُّغة: (نسي)، وجبل، المعجَم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (نسو- نسى)، والغَزنَويُّ، باهِرُ البرُهانِ: 1/271، والنَّيسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/177.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/364.
(3) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ فارس، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المعجَمُ الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (خطأ)، وابنُ قُتَيبَةَ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 215، والنَّيسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/177، والغَزنَويُّ، باهِرُ البُرهانِ: 1/272.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/364.
(5) الزّمخشريُّ، أَساسُ البَلاغَة، والرّاغِبُ، المفردات، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المعجَمُ الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (إصر) وابنُ الهائِم، التِّبيانُ، ص: 117.
(6) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/370.

الإنسانُ أن يفعلَه بِمَشقَّةٍ، وذلكَ تَشْبيهٌ بالطَّوْقِ المُحيطِ بالشَّيءِ، والمعنى هُنا: لا تُحَمِّلْنا ما يَصْعُبُ علينا مُزاوَلَتُهُ[1]، "وقال ابن الأنباري: المعنى: لا تحمّلنا ما يثقل علينا أداؤه، وإنْ كنّا مطيقين له على تجشّم، وتحمّل مكروه، فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإنّ الرّجل منهم يقول للرّجل يبغضه: ما أطيق النّظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنّه يثقل عليه"[2].

9) ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾: وامْحُ ذُنوبَنا؛ والعَفْوُ: المَحْوُ والطَّمْسُ، يُقَالُ: عَفَا يَعْفُو عَفْوًا وأصلُ العَفْوِ: يدلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، فعَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ: تَرْكُهُ إِيَّاهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ، والمعنى هُنا: طَلَبُ التَّجاوُزِ عَنِ الذَّنْبِ وتَرْكُ العِقابِ عَلَيْهِ[3].

10) ﴿مَوۡلَىٰنَا﴾: أي: وَلِيُّنا، والمَولى: هُوَ السَّيِّدُ والمُنْعِمُ والنَّاصرُ والمُعينُ، وأَصْلُ وَلِيَ: يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، والمَعنى في حقِّ اللَّه: المُعينُ الّذي تَرْكَنُ إليهِ وتعتمِدُ عليهِ، وتَحْتمي به عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرّاءِ والضَّرَّاءِ[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يكلّف اللهُ المؤمن فوق الإمكان، بل يحيطه باللّطف والرّحمة كلّ أوان

تشير الآية الكريمة إلى أنّ اللّه تعالى، لا يُحمّل عباده ما لا يَسْتَطيعونَه، ولا يكلّفهم فوق ما يطيقونه، لأنَّ دِينَ اللّه مَبْنِيٌّ على التّيسير، فلا مَشَقَّةَ فيه ولا تعسير، ولن يشادّ الدّين أحدٌ إلّا غلبه، والمؤمنون لا يفتؤون يتضرّعون إلى اللّه، أن لا يُعاقِبهم جرّاء النّسيان، وأن لا يؤاخذهم بالأخطاء المرتكبة عن السّهو القاهر، في الأفعال والأقوال وتوارد الخواطر،، وأن لا يحمّلهم إصرا مرهقا، تنوء به الظّهور، كما وقع للماضين في سالف العصور، وأن يشملهم بالعطف، ويسلك بهم مسالك اللّطف، عفوًا وغفرانًا ونعمة، فهو الدّاعم المؤازر في كلّ أزمة، وهو مصدر كلّ نصرة ورحمة[5].

(1) الرّاغِبُ، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (طوق)، والكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 586.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير، ص: 586.
(3) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَبِ، وابنُ فارس، مقاييسُ اللُّغة، وابنُ الأثِير، النِّهايَةُ: 3/265، والكَفَويُّ، الكُلّيات، ص: 151.
(4) الرّاغِبُ، المفردات، والسّمِين، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (ولي)، وابنُ قُتَيبَةَ، غَرِيبُ القُرآنِ، ص: 100.
(5) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 69، ونُخبَةٌ مِن أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسير، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49 (بتصرّف).

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالة الاستئناف في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾:

بيان يُسْر التّكاليف تَفضُّلًا ورَحْمَةً من الله بعباده

جُمْلَةُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافًا ابْتدائيًّا، مَسوقَةٌ لبيانِ يُسْرِ التَّكليفِ إِثْرَ حكايةِ تكليفِ الْمُؤْمنينَ بالأوامر والنّواهي[1]، فهي إخبارٌ منه سبحانه وتعالى[2] بعدَ تَلَقِّيهم لتكاليفِه بالطّاعة والقَبول، بما لَه عليهم في ضِمْنِ التَّكليفِ مِنْ محاسِنِ آثارِ الفَضلِ والرَّحمةِ؛ ابتداءً لا بعدَ السُّؤالِ[3]، وهذهِ الآيةُ نَظيرُ قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[4] [البقرة: 185].

وفي هذا الاستئنافِ: إِظْهَارُ ثَمَرَةِ الإيمَانِ وَالتَّسْليم وَالطَّاعَةِ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّه بِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ في هَذَا الدِّينِ التَّكْلِيفَ بِمَا فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَبْشِيرٌ بِاسْتِجَابَةِ دَعْوَتِهِمُ الْمُلَقَّنَةِ، أَوِ الّتِي أُلْهِمُوهَا: وَهِيَ رَبَّنا لَا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا - إِلَى قَوْلِهِ - مَا لَا طاقَةَ لَنا بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَحْكِيَ دَعَوَاتِهِمْ تِلْكَ[5].

نُكتة احتمالِ كلمةِ (وُسْع) للقُدْرَة والطَّاقة:

المبالغةُ في اتِّساع المعنى، وتأكيدُ رَفْعِ الحَرَج والمَشَقَّة

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ أيْ: إلّا ما تَسَعُهُ قُدْرَتُها فَضلًا ورحمةً، أَوْ ما دُونَ مَدى طاقتِها، بحيثُ يَتَّسِعُ فيه طَوْقُها ويَتَيَسَّرُ عليها[6]، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ومَبْنَى المَعْنَى الأوَّلِ: كَوْنُ الوُسْعِ بمعنى القُدْرَةِ، أيْ: لا يُكَلِّفُ إلّا بِقَدْرِ قُدْرَتِها، ومبنى المَعْنَى الثَّاني: أنَّه مَصْدَرٌ بمعنى المُشْتَقِّ،

---

(1) القُونَويّ، حاشية على البيضاويّ: 5/504.

(2) وعلى القول بأنَّ قولَه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ مِنْ جملة دعاء المؤمنين، يكونُ في الكلام التفاتٌ بالعُدول عن الخِطاب إلى الغَيبة بذِكر لفظ الجلالة: (الله)، وفائدتُه: إظهارُ التَّمَلُّقِ بأنَّ له من صِفاتِ العظمةِ ما يَقتضي العفوَ عن ضَعفهم. ينظر: البِقاعيُّ، نَظم الدُّرَر: 4/176، والقاسِميُّ، محاسِنُ التّأويل: 2/242.

(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/66.

(4) أبو حيّان، البَحرُ المحيطُ: 2/760.

(5) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.

(6) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/166.

أيْ: ما يَتَّسِعُ فيه طَوْقُها، ويَسْهُلُ عليها من المَقدورِ، فَهُو أَخصُّ، كما إِذا كان في قُدْرَتِهِ أَنْ يُصلِّيَ سِتًّا، فأَوْجَبَ خَمْسًا، فالواجبُ دون مَدى طاقتِه، أي: غَايتها ونهايتها؛ إذ عامَّةُ الأحكام كَذَلكَ؛ لأنَّا نَقْدِرُ أَكْثَرَ من الصَّلواتِ الخمسِ، ومن الصَّوم في رمضانَ، وعلى كِلا التَّقديرَين في النَّظْمِ الكريم مُبَالَغَةٌ؛ حَيْثُ أَطْلَقَ الوُسْعَ الّذي هُوَ مَصْدَرٌ، على ما تَسَعُهُ القُدْرَةُ في الاحتمالِ الأوَّلِ، أَوْ أَطلَقَه على الواسِعِ، وهو المُرَادُ بما دونَ مَدَى طاقتِها؛ أي ما دونَ غايةِ طاقَتِها(1).

بَديعُ المقابلة بين جملة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ وجملةِ ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾:

التَّرغيبُ والمحافظة على مَواجِبِ التَّكليفِ والتَّحذيرُ من الإخلال بها

قَوْلُهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ حَالٌ مِنْ ﴿نَفۡسًا﴾؛ لِبَيَانِ كَيْفِيَّةِ الوُسْعِ الّذي كُلِّفَتْ بِهِ النَّفْسُ، وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ جَاءَتِ النَّفْسُ بِخَيْرٍ، كَانَ نَفْعُهُ لَهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِشَرٍّ كَانَ ضَرُّهُ عَلَيْهَا، وهذه المُقابَلَةُ البَديعَةُ(2) حَاصِلَةٌ مِنَ التَّعْلِيقِ بِوَاسِطَةِ (اللَّامِ) مَرَّةً، وَبِوَاسِطَةِ (عَلَى) أُخْرَى؛ فقد طابَق بينَ: ﴿لَهَا﴾ و﴿وَعَلَيۡهَا﴾، فجاءت العبارةُ في الحسناتِ بـ ﴿لَهَا﴾، مِنْ حيثُ هي ممَّا يَفْرَحُ الإنسانُ بكَسْبه، ويُسَرُّ بها، فَتُضافُ إلى مُلْكِه، وجاءت في السَّيِّئات بـ ﴿وَعَلَيۡهَا﴾، مِنْ حيثُ هي أَوْزارٌ وأَثْقالٌ ومُتَحمَّلاتٌ صعبةٌ، وهذا كما تقولُ: لي مالٌ، وعليَّ دَينٌ(3)، وطَابَقَ في المعنى بينَ: ﴿كَسَبَتۡ﴾ و﴿ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾؛ فالفعلُ الأَوَّلُ يَختَصُّ بالخَيْرِ، والفعلُ الثّاني يَخْتَصُّ بالشَّرِّ(4)، فالمعنى: لَها مَا كَسَبَتْ مِنْ خير، وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ، ويُوضِّحُ هذه المُقابلة الحَصْرُ المَفْهومُ مِنْ تقديمِ الخبرِ، في كونِ الخَيْرِ مَقْصورًا على الاتّصاف بكَونِه لَها لا لغيرِها، فَيَكونُ مِنْ قبيلِ قَصْرِ المَوْصُوفِ عَلَى الصّفَةِ، لا على العكس، ويَلْزَمُهُ كون الطَّاعةِ مَقصورًا عليها(5).

(1) القُونَويُّ، حاشية على البَيضاويّ: 5/502-503.

(2) الزّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/332-333، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، و أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/762، والسَّمينُ، الدُّرُّ المصونُ: 2/699-700، والقاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويلِ: 2/243، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/451.

(3) ابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/393، والزّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/332.

(4) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/137.

(5) القُونَويُّ، حاشية على البَيضاويّ: 5/503.

اكتِسابُ الشَّرِّ فيه اعتمالٌ زائدٌ على كسبِ الخيرِ

وفي المقابل: فإنَّ ﴿ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ فيه اعْتِمالٌ، أي: الاجتهادُ في العملِ، وسِرُّه أنَّ زيادةَ المَبْنى تَدُلُّ عَلَى زيادة المَعْنَى، فلمَّا وردت في الشَّرِّ صِيغَةُ الافْتِعالِ مع ورودِ الثُّلاثيِّ في الخير، حَصَلَ التَّنْبيهُ على أنَّ النَّفْسَ أَجَدُّ في تَحْصيلِ الشَّرِّ، بخلافِ الخيرِ؛ فإنَّهُ ثَقيلٌ عَلَيْها، والمُرَادُ أنَّه إذا خَلَّى النَّفْسَ وطَبْعَهُ، فالأمرُ ذلكَ إلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللّٰه تَعالَى، وإلّا فَكثيرًا ما يُسْتَعْمَلُ الكَسْبُ في الشَّرِّ أيضًا، كقوله تَعالَى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81] الآية[1].

كما كرَّرَ فِعْلَ الكَسْبِ، وخالَفَ بَيْنَ التَّصريفِ حُسْنًا لِنَمَطِ الكلامِ، فإنَّ الحسناتِ مِمَّا يُكْسَبُ؛ للإشارةِ إلى أنَّه يُجزئُ في الاعتدادِ به مجرَّدَ وقوعِه، ولو مع الكَسَلِ دون بَذْلِ أيِّ جُهْدٍ، بلْ حينما ينوي المرءُ فعلَ الخيرِ فإنَّه يُثابُ عليه[2]؛ إذ كاسِبُها على جادَّة أمرِ اللّٰه ورَسْم شَرْعِه، في حينِ أنَّ السَّيِّئاتِ تُكْتَسَبُ ببناءِ المُبالغة؛ إذ كاسبُها يَتَكَلَّفُ في أمرِها خَرْقَ حِجابِ نَهْيِ اللّٰه تعالى ويتَخَطَّاه إليها، فلمَّا كان الشَّرُّ مِمَّا تَشْتَهيه النَّفْسُ، وهي مُنْجَذِبَةٌ إليه وأمّارةٌ به، كانت في تَحصيله أَعْمَلَ وأَجَدَّ، فَجُعِلَتْ لذلكَ مُكْتَسَبَةً فيه، ولَمَّا لم تكنْ كذلكَ في باب الخَيْرِ، وُصِفَتْ بما لا دَلالةَ فيه على الاعْتمالِ، فَيَحْسُنُ في الآية مَجيءُ التَّصريفَيْنِ إحْرازًا لهذه المعاني[3].

غرضُ المقابلةِ بينَ الكَسْبِ والاكتسابِ التَّرغيبُ في الخيرِ والتَّحذيرُ من الشَّرِّ

سِيقَت المُقابَلَةُ بين الكسبِ والاكتسابِ للتَّرغيب والمحافظة على مَواجِبِ التَّكليفِ، وللتَّحْذيرِ من الإخلال بها، وذلك ببيانِ أنَّ تَكليفَ كُلِّ نَفْسٍ - مع الموازنة بين التكليف وبين نِعْمَةِ التَّخفيفِ والتَّيسيرِ - تَتضَمَّنُ مُراعاتُهُ مَنْفَعةً زائدةً، وأنَّها تَعُودُ إليها لا إلى غيرها، ويَسْتَتْبِعُ الإخلالُ بها مَضَرّةً تَحيقُ بها لا بِغَيْرِها؛ فإنَّ اختصاصَ

(1) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، وأبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/276 والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/504.
(2) الرُّوينيُّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 648.
(3) ابنُ عَطيّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/393، والزّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/332.

مَنْفعَةِ الفعلِ بفاعله مِنْ أقوى الدَّواعي إلى تَحصيلِه، واقتصارَ مَضَرَّتِهِ عليه مِنْ أشدِّ الزَّواجرِ عن مُباشرته، ويُؤَكِّدُ هذا: شمُولُ كلمةِ (ما) لِكُلِّ جُزءٍ من أجزاءِ مَكْسوبِهَا[1].

سِرُّ الدُّعاء بِعَدمِ المؤاخذة على النِّسيانِ والخطأِ مع كَوْنِهما مَعْفُوًّا عَنْهُما:

الفطنُ يخشى على نفسِه الوقوعَ فيما لا مؤاخذة فيه؛ خوفًا من الوقوعِ فيما فيه مؤاخذة

الدُّعاءُ في قولِه تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ أي: بما أدَّى بِنَا إلى نِسيانٍ أو خَطأٍ من تَفريطٍ وقلَّةِ مُبالاةٍ، وتَرْكِ التَّحَفُّظِ والتَّحرِّي وغيرِهما، ممَّا يَدْخُلُ تحتَ وُسْعِنَا وقُدْرَتِنَا، فيدخلُ تحت التَّكْليفِ أَيْضًا، أي: المَسْؤولُ عَفْوًا لِلسَّبَبِ المؤدِّي إلَى النِّسيانِ لا نَفْسِه؛ إذ هُوَ مَرفوعٌ لقولِه ﷺ: «إنَّ اللّه تعالى وَضَعَ عن أُمَّتِي الخطأَ، و النِّسيانَ، وما اسْتُكرِهوا عليه»[2]، فيكونُ مَجَازًا بطَريقِ ذِكْرِ المُسَبَّبِ وإرَادَةِ السَّبَبِ، وهو التَّفريطُ وقِلَّةُ المُبالاةِ، فأَخرَجَه عن ظاهره بحَمْلِ النِّسيانِ والخطأِ إلى فِعْلٍ اختياريٍّ يُؤدّي إليهمَا[3].

وقد يكون الدُّعاءُ بعدمِ المُؤاخذةِ على الخطأ والنِّسيانِ على حقيقته؛ إذ لا تُمْتَنَعُ المؤاخذةُ بهما عَقلًا، فإنَّ الذُّنوبَ كالسُّموم، فَكَمَا أنَّ تناولَها يُؤدِّي إلى الهَلاكِ؛ فَتعاطي الذُّنوبِ - وإنْ كان خَطَأً أو نِسْيانًا - لا يَبْعُدُ أن يُفْضيَ إلى العقاب وإن لم تكنْ عزيمةً، لكنَّه تعالى وَعَدَ بالتَّجاوز عَنْهُ رحمةً وفضلًا، فيجوزُ أن يدعوَ الإنسانُ به استدامةً واعتدادًا بالنِّعْمَةِ فيه[4].

وفيه مزيدُ مدحٍ للمؤمنين الدَّاعين، فهم يخافون من المؤاخذةِ فيما لا يُؤاخَذُ به فكيف بما يُؤاخَذُ عليه؟ وهذا ينطبق على حالِ السَّلف في تركِهم لأكثر المباحاتِ خَوفًا من الوقوعِ في المكروهات.

---

(1) أَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/276، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/67.

(2) الحديث: أخرجه ابنُ ماجَةَ، حديث رقم: (2045)، واللَّفظُ له، والطَّبرانيُّ في المعجم الأوسط، حديث رقم: (8273)، والبَيهَقيُّ في: (السُّنن الكبرى)، حديث رقم: (15094)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع حديث رقم: (1836)، ينظر: الألبانيُّ: صحيح الجامع: 01/375.

(3) ابن التَّمجيد، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/505.

(4) ابن التَّمجيد، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/505، والقُونَويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيضاويِّ: 5/505.

نُكْتَةُ الفَصْلِ بَيْن المُتعاطِفَيْنِ بتَكْرار النِّداءِ:

التَّلذُّذُ بإظهارِ النِّداءِ لإظهارِ التَّذلُّلِ به لربِّ الأرض والسماء

قَوْلُه: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾ فَصْلٌ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ المُتَعَاطِفَتَيْنِ، وهما جملة: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ المعطوف عليها، وجملة: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾ المعطوفة، وجاءَ الفصلُ بإِعَادَةِ النِّدَاءِ ﴿رَبَّنَا﴾، مَعَ أَنَّهُ في الظَّاهِرِ مُسْتَغْنًى عَنْهُ؛ لِأَنَّ مُخَاطَبَةَ المُنَادَى مُغْنِيَةٌ عَنْ إِعَادَةِ النِّدَاءِ، لَكِنْ قُصِدَ مِنْ إِعَادَتِهِ إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ[1].

فتوسيطُ النِّداءِ بين المُتعاطفَين لإبرازِ مزيدِ الضَّراعةِ[2] والتَّذلُّلِ، مع ما في ذلك من التَّلذُّذِ في نداء اللّه تعالى، ففيه تعليم تكرارِ ﴿رَبَّنَا﴾ في كلِّ حالٍ وآنٍ.

مُناسبة المجاز للاستِعارَةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾:

بيان مُناسبة الحَمْلِ للتَّكليفِ بما يَثْقُلُ ويشقُّ

الحَمْلُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾ مَجازٌ في التَّكْليفِ بِأَمْرٍ شَدِيدٍ يَثْقُلُ عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِاسْتِعَارَةِ الإِصْرِ[3]؛ لأَنَّ أَصْلَ الإِصْرِ مَا يُؤْصَرُ بِهِ، أَيْ: يُرْبَطُ وَتُعْقَدُ بِهِ الأَشْيَاءُ، وَيُقَالُ لَهُ: الإِصَارُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ مَجازًا في العَهْدِ وَالمِيثَاقِ المُؤَكَّدِ فِيمَا يَصْعُبُ الوَفَاءُ بِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ [آل عمران: 81]، وَأُطْلِقَ أَيْضًا عَلَى مَا يَثْقُلُ عَمَلُهُ، وَالامْتِثَالُ فِيهِ[4]، ومثله في قَوْلِه: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ [الأعراف: 157]، وَهُوَ المَقْصُودُ هُنَا، وَمِنْ ثَمَّ حَسُنَتِ اسْتِعَارَةُ الحَمْلِ لِلتَّكْلِيفِ؛ لِأَنَّ الحَمْلَ يُنَاسِبُ الثِّقَلَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ﴾ تَرْشِيحًا مُسْتَعَارًا لِمُلَائِمِ المُشَبَّهِ بِهِ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/140.
(2) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/277.
(3) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/140.
(4) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/277، والزّمخشريُّ، الكَشّاف: 1/332.
(5) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.

بلاغةُ المناسبةِ بيْنَ الدُّعاءَينِ في الآيةِ الكريمةِ:

إفـــادةُ عـمـوم الدُّعاء وشُمولِه لـكـلِّ مـن رَفْـعِ المـشَـاقِّ ودَفْـعِ العُقوبات

معنى قولِه: ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ أَيْ: مَا لَا نَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنَ العُقُوبَاتِ، فهو استِعْفاءٌ عن العقوبات الّتي لا تُطاقُ بعد الاستعفاءِ عمَّا يُؤدِّي إليها، والتَّعبيرُ عن إنزال ذلكَ بالتَّحميلِ مجازٌ، باعتبار ما يُؤدّي إليه[1].

ويجوزُ أن يكونَ طلَبًا لِمَا هو أعمُّ من الأوَّلِ لِتَخْصيص الأوَّلِ بالتَّشْبيه[2]، فهُنَا سَأَلُوا أَنْ لَا يُحَمِّلَهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الإِصْرِ السَّابِقِ لِتَخْصِيصِهِ بِالتَّشْبِيهِ وَعُمُوم هَذَا، فجِيءَ بالتَّشْدِيدِ فيما هو أعمُّ: ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا﴾، الدَّالّة على تَعدية الفعل إلى المفعول الثَّاني[3].

دَلالة تَكرير النِّداء بصيغة الجمع ﴿رَبَّنَا﴾ في هذه الدَّعواتِ:

تحقيق موجبات الـقـبـول ونـيـل المأمول

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾، وقولُه: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾، وقولُه: ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ أدعيةً بصِيغة الجمع وقتَ الدُّعاء؛ لبيانِ أنَّ قَبولَ الدُّعاءِ عند الاجتماعِ أكملُ؛ وذلك لأنَّ للهِمَم تأثيراتٍ، فإذا اجتَمَعَتِ الأرواحُ والدَّواعي على شيءٍ واحدٍ كان حصولُه أكملَ، وهذه الأدعيةُ كان المطلوبَ فيها التَّركُ، فجاءت مقرونةً بلفظ: (ربَّنا)[4].

وَجْهُ الجَمْعِ بين طلب العفو والمغفرة، وتَقْديمِهما على طلب الرَّحمة:

إظـهـار كـمـال التَّذلُّل في الدُّعاء بالعفو والغفران لـنـيـل الـلُّـطـف والإحسانِ

معنى الدُّعاءِ في قولِه: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ أي: امْحُ ذُنوبَنا، إذِ العَفوُ مَحْوُ الجريمة، وقولُه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي: واسترْ عيوبَنا، إذِ الغَفْرُ في الأصلِ السَّتْرُ، والعفوُ والمَغْفرَةُ مآلُهما واحدٌ، ولإظهارِ كَمالِ التَّذلُّل جَمَعَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾، أَيْ: تَعَطَّفْ بِنَا،

(1) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونويِّ على البَيضاويِّ: 5/507، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/68.
(3) أبو حَيّان، البَحرُ المحيطُ: 2/766-765، والبَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/507.
(4) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/114، والبَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/167، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/508.

وتَفَضَّلْ علينا بعدَ العفوِ والمَغْفرَةِ بأنواعِ اللُّطفِ والكرامةِ؛ لأنَّك يا واسعَ الغفرانِ، ويا قديمَ الإحسانِ، وعَدتَ التَّائبينَ باللُّطفِ مع العَفْوِ والغُفْرانِ والإحسانِ؛ فَعُلِمَ وجْهُ تأخيرِ طَلَبِ الرَّحمةِ عَلَى أنَّ التَّحلِيةَ بعد التَّخْليةِ، كما أنَّ تأخيرَ المَغْفرَةِ؛ لأنَّ العفوَ فيه مُبَالَغَةٌ، فإنَّ محوَ الذُّنوبِ أهمُّ من سَتْرِ العُيوبِ(1).

فطَلَبُوا العَفْوَ، وَهُوَ الصَّفْحُ عَنِ الذَّنْبِ وَإِسْقَاطُ العِقَابِ، ثُمَّ سَتْرَهُ عَلَيهِمْ صَوْنًا لَهُمْ مِنْ عَذَابِ التَّخْجِيلِ؛ لِأَنَّ العَفْوَ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي سَتْرَه، فَسَأَلُوا الإِسْقَاطَ لِلْعُقُوبَةِ أَوَّلًا؛ لِأَنَّهُ الأَهَمُّ، إِذْ فِيهِ التَّعْذِيبُ الجِسْمَانيُّ وَالنَّعِيمُ الرُّوحَانيُّ، ثم سألوا الْغُفْرَانَ، وهو سَتْرُ الذَّنْبِ، وَإِظْهَارُ الْإِحْسَانِ بَدَلَهُ، فَكَأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ تَغْطِيَةِ ذَنْبِهِ وَكَشْفِ الإِحْسَانِ الَّذِي غَطَّى بِهِ، ثم سألوا الرَّحْمَةَ، وهي إِفَاضَةُ الإِحْسَانِ(2).

سِرُّ عدم تَكرارِ النِّداءِ بالرُّبوبيَّةِ في قوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾:

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ عدمِ ذكرِ ﴿رَبَّنَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ كما ذُكرَ في الدَّعواتِ السَّابقة؟ والجواب: أنَّها نتائجُ ما تَقدَّمَ من الجُملِ الّتي افتُتِحَتْ بذلكَ، فجاء قوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ مُقابلًا لقوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾، وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾، مقابلًا لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾، وَقوله: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ مُقابلًا لقوله عزَّ شأنُه: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾؛ لأَنَّ مِنْ آثارِ عَدَمِ المُؤَاخَذَةِ بِالنِّسيان والخطأِ العفوَ، ومِنْ آثارِ عَدَمِ حَمْلِ الإِصْرِ عليهم المغفرةَ، ومِنْ آثارِ عدمِ تَحميلِ ما لا يُطاقُ الرَّحمةَ؛ فَإِذا اسْتُجِيبَتْ تِلْكَ حَصَلَتْ إِجَابَةُ هَذِهِ بالأَوْلَى؛ فَإِنَّ العَفْوَ أَصْلٌ لِعَدَمِ المُؤَاخَذَةِ، وَالمَغْفِرَةَ أَصْلٌ لِرَفْعِ المَشَقَّةِ، وَالرَّحْمَةَ أَصْلٌ لِعَدَمِ العُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ تَعْمِيمًا بَعْدَ تَخْصِيصٍ، كَانَ كَأَنَّهُ دُعَاءٌ وَاحِدٌ، فلا يَخفى حُسْنُ التَّرتيبِ(3).

ولم يذكُرْ لفظ: ﴿رَبَّنَا﴾ في الأدعيةِ أيضًا؛ لأنَّ النِّداء إنّما يُحتاج إليه عند البُعدِ، أمَّا

(1) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/167، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونويِّ على البَيضاويِّ: 5/508.

(2) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/766، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/67.

(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/68، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.

عند القُربِ فلا، وإنَّما حَذَفَ النِّداء؛ إشعارًا بأنَّ العبدَ إذا واظبَ على التَّضرُّعِ نالَ القربَ من الله تعالى، وهذا سِرٌّ عظيمٌ يُطَّلَعُ منه على أَسْرارٍ أُخَرَ[1].

كما أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ مَعَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لِأَنَّهُ تَكَرَّرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَالعَرَبُ تَكْرَهُ تَكْرِيرَ اللَّفْظِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، إِلَّا فِي مَقَامِ التَّهْوِيلِ[2].

دَلالة الفصل في قوله: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾:

تَعليلُ الدَّعوات الماضية، وأنَّ المولى يَنْصُرُ أوْلياءَهُ

فُصِلَ قَوْلُهُ: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾؛ لِأَنَّهُ كَالعِلَّةِ لِلدَّعَوَاتِ المَاضِيَةِ: أَيْ: دَعَوْنَاكَ وَرَجَوْنَا مِنْكَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ مَوْلَانَا، وَمِنْ شَأْنِ المَوْلَى الرِّفْقُ بِالمَمْلُوكِ، وَلِيَكُونَ هَذَا أَيْضًا كَالمُقَدِّمَةِ لِلدَّعْوَةِ الآتِيَةِ[3].

سرُّ تَفْريعِ الدُّعاءِ الأَخير بالفاء:

الثِّقةُ بالله عندَ الدُّعاءِ بالنَّصرِ، قائمٌ على حسنِ العملِ فيما قبل طلب النَّصر

أَدْخَلَ النَّظمُ (الفَاءَ) في قوله تعالى: ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إِيذَانًا بِالسَّبَبِيَّةِ، لِأَنَّ كَوْنَهُ تَعَالَى مَوْلَاهُمْ، وَمَالِكَ تَدْبِيرِهِمْ وَأَمْرِهِمْ، يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ النُّصْرَةُ لَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، كَما تَقُولُ: أَنْتَ الشُّجَاعُ فَقَاتِلْ، وَأَنْتَ الكَرِيمُ فَجُدْ عَلَيَّ، أَيْ: أَظْهِرْنَا عَلَيْهِمْ بِمَا تُحْدِثُ فِي قُلُوبِنَا مِنَ الجُرْأَةِ وَالقُوَّةِ، وَفِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الخَوَرِ وَالجُبْنِ[4].

فهذا المعنى مُسْتَفَادٌ من التَّرتيبِ الّذي أفادتْه الفاءُ، أيْ: إذا كنتَ أنتَ مَوْلَانَا وسيِّدنا؛ فَحَقُّ المولى والسِّيِّدِ أن يَنْصُرَ عبيدَه عَلَى الأعداءِ[5].

فـ (الفَاء) لِلتَّفْرِيعِ عَنْ كَوْنِهِ مَوْلًى؛ لِأَنَّ شَأْنَ المَوْلَى أَنْ يَنْصُرَ،

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/114، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التّنزيل: 1/167، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/508.
(2) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.
(3) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.
(4) أَبو حَيّان، البَحرُ المحيطُ: 2/767، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/69.
(5) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيل: 1/167، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيضاويِّ: 5/508، والقِنَّوجيُّ، فَتحُ البَيانِ: 2/166.

وَفي التَّفْرِيعِ بِالفَاءِ إِيذَانٌ بِتَأْكِيدِ طَلَبِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ بِالنَّصْرِ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مُرَتَّبًا عَلَى وَصْفٍ مُحَقَّقٍ، وَهُوَ وِلَايَةُ اللّٰهِ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 257]، وَوَجْهُ الاهْتِمَامِ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ أَنَّهَا جَامِعَةٌ لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا نُصِرُوا عَلَى العَدُوِّ، فَقَدْ طَابَ عَيْشُهُمْ وَظَهَرَ دِينُهُمْ، وَسَلِمُوا مِنَ الفِتْنَةِ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالقومِ الكافرين دونَ الاكتفاءِ بلفظِ الكافرين:

الدُّعاءُ بالنَّصْرِ على القومِ الكافرين بِعَدِّهِم قوَّةً مجتمعةً على الباطلِ

جِيءَ بلفظِ القوم في قولِه تعالى: ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دونَ الاكتفاءِ بلفظِ الكافرينَ؛ لأنَّ المَطلوبَ النّصرةُ عَلَى المجموعِ مِنْ حيثُ المجموعُ، لا كُلِّ واحدٍ واحدٍ؛ لأنَّ الشَّخصَ قد يكونُ غالبًا على كلِّ واحدٍ إذا انفردَ، ولا يكونُ غالبًا عَلَى المجموعِ؛ فإنَّ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وإنْ كان مُحلّى بـ (اللَّام) الاسْتِغْرَاقيَّةِ؛ لَكِنَّهُ بمعنى كلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ، لا بمعنى المَجموعِ مِنْ حيثُ المجموعُ، فَذِكْرُ القوم للتَّنْصيصِ على المَطلوبِ، على أنَّ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ صفةٌ تَطْلُبُ مَوْصُوفًا[2]، وللإشارةِ إلى أنَّ طلبَ النَّصرِ كان على القومِ بِعَدِّهِم قومًا لهم قوامة واجتماعٌ وقوَّةٌ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَسْب والاِكْتِساب:

الكَسْبُ فِعْلٌ عَائِدٌ نفعُه وضرُّه على فَاعِلِهِ، والاكتسابُ المبالغةُ في الكسب

الكَسْبُ: الفِعْلُ العَائِدُ على فَاعِلِه بِنَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ[3]، ويَشْتَمِلُ على ما هُوَ خَيْرٌ، كَقَوْلِه: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: 158]، وفي ما هُوَ شَرٌّ، كَقَوْلِه: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81]، ويَكُونُ لِنَفْسِه ولِغَيْرِه، والاكْتِسابُ: المُبالَغَةُ والاعْتِمالُ في الكَسْبِ، ويَكونُ لِنَفْسِه خاصَّةً[4]؛ فَفي الاكْتِسابِ مَزِيدُ أَعْمالٍ وتَصرُّفٍ؛ أَمَّا إذا جاءَ الكَسْبُ مُجْتَمِعًا مَعَ

---

(1) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/142.

(2) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيل: 1/167، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/508.

(3) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 137.

(4) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/762.

الاِكْتِساب، فَإِنَّ الكَسْبَ هُنا لا يَعْني إِلَّا ما هُوَ خَيْرٌ، والاِكْتِسابُ يَعْني ما هُوَ شرٌّ؛ قال تَعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: 286]، وعِنْدَ الافْتراقِ يَحْتَمِلُ الاِكْتِسابُ المَعْنَيَيْنِ، كما هُوَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ [النّساء: 32]، أَيْ: لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِنْ ثَوابِ اللّهِ وَعِقابِهِ مِمَّا اكْتَسَبُوا، فَعَمِلوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ مِنْ ذَلِكَ[1]، قال في المحرّر الوجيز: "والذي يظهر لي في هذا أن الحسنات هي ممّا يكسب دون تكلّف، إذ كاسبها على جادّة أمر اللّه ورسم شرعه، والسّيئات تكتسب ببناء المبالغة، إذ كاسبها يتكلّف في أمرها خرق حجاب نهي اللّه تعالى، ويتخطّاه إليها، فيحسن في الآية مجيء التّصريفين، إحرازا لهذا المعنى"[2].

النِّسيان والغَفلة:

الغـفـلـة تَـرْكٌ باختيار الغافل، والنِّسيانُ تَـرْكٌ بغير اختياره

الغَفْلَةُ: عدمُ التَّفَطُّنِ للشَّيءِ، وعدمُ حضورِه في البالِ بالفعلِ، سواءٌ بَقيتْ صُورَتُه أو معناه في الخَيالِ أو الذِّكرِ، أو انْمَحَتْ عن أحدِهما؛ فهي تَرْكٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّسيانُ: غَيبَةُ الشَّيْءِ عَن القلبِ، بحيثُ يَحتاجُ إِلَى تَحْصيلٍ جَديدٍ[3]، فهو تَرْكٌ بغير اختياره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]، ولم يَقُلْ: (ولا تَكُنْ من النَّاسينَ)، فإنَّ النِّسيانَ لا يَدخلُ تحتَ التَّكليفِ، فلا يُنهى عنه[4]، فالغَفْلَةُ: أَعَمُّ من النِّسيانِ؛ لأنَّ النِّسيانَ يَحْتاجُ صاحبُه إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديدٍ، وَكُلْفَةٍ في تَحصيله ثانيًا[5]، فكلُّ نِسْيَانٍ غَفْلَةٌ، وليس كُلُّ غَفْلَةٍ نِسْيَانًا، قال ابن الأنباري: "والمراد بالنّسيان هاهنا: التّرك مع العمد، لأنّ النّسيان الّذي هو بمعنى الغفلة، قد أمنت الآثام من جهته، والخطأ أيضاً هاهنا من جهة العمد، لا من جهة السّهو، يقال: أخطأ الرّجل: إذا تعمّد، كما يقال: أخطأ إذا أغفل"[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/669.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/393.
(3) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 506.
(4) ابن القَيِّم، مدارِجُ السّالِكِين: 2/405.
(5) العَسكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 389.
(6) العَسكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 389.

الخاطِئُ المُتَعَمِّدُ الخَطَأَ، وَالمُخطِئُ الّذِي لا يَتعمَّدُهُ

الخاطئ والمُخطئ:

الخَطَأُ: هو أنْ يَقْصِدَ المَرْءُ الشَّيءَ فَيُصيبُ غيرَهُ، وَاسْمُ الفَاعِلِ منه مُخْطِئٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5]، والخِطْءُ: مَصْدَرُ خَطِئَ، إِذَا أَصَابَ إِثْمًا، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَمْدٍ، واسمُ الفاعلِ منه خَاطِئٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: 16]، وقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القَصَص: 8]، فالخاطِئون: الآثمون أصحابُ الخطايا، الّذين تعمَّدوا الذّنب وقصدُوه، أمَّا المُخطئون: فقد أرادوا الصَّوابَ؛ لكنَّهم لم يُوفَّقوا إليه، فصاروا إلى غيره[1]. وعليه فالخَاطِئُ في الدِّين لا يكون إلّا عاصيًا، أمَّا المُخْطِئُ فلا يُعَدُّ عاصيًا، بلْ قد يكونُ المُخْطِئُ مِنْ طريق الاجتهادِ مُطيعًا مأجورًا؛ لأنَّه قَصَدَ الحَقَّ واجتهدَ في إصابته[2]، فالفَرْقُ بينَهما أنَّ الخَطَأَ خِلافُ الصَّوابِ في الفِعْلِ فَقَطْ، وفاعلُه تكونُ نِيَّتُه حَسَنَةً، فهو غيرُ مُتَعَمِّد، فقد أصابَ في الإرادةِ، وأَخطأَ في الفعلِ، وأمَّا الخِطْءُ: فهو الخَطَأُ التَّامُّ في الإرادةِ والفعلِ، فَمُرْتَكِبُه سَيِّئُ القَصْدِ، مُتَعَمِّدٌ لِمَا ارْتَكَبَه[3]، قيل الخاطئ هو الّذي أتى بالخطيئة عمدا، وفرق بين الخاطئ والمخطئ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام، فلا يصيب إنّه مخطئ، ولا يقال إنّه خاطئ[4]، بينما قال إخوة يوسف، معتذرين على فعلتهم الشّنعاء الّتي فعلوها مع سبق الإصرار والتّرصّد، كما ورد في القرآن: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ [يوسف: 91].

---

(1) الجَوهَريُّ، الصّحاحُ: (خطأ)، وابنُ منظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: 1/67، والزّمخشريُّ، الكَشّاف: 4/606، وابنُ عَطيّةَ، المَحَرَّرُ الوَجيزُ: 3/277، وأَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 8/287.

(2) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 221.

(3) الشِّنقيطيُّ، دَفعُ إيهامِ الاِضطِرابِ، ص: 279.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/505.

الوليّ والمولى والنَّصير:

المَولى: هُوَ السَّيِّدُ والمَمْلوكُ والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، وَالأَولَى بالشَّيْءِ، والصَّاحِبُ المُعينُ. والمعنى في حقِّ اللّه: المعينُ الّذي تَرْكَنُ إليه، وتَعتمِدُ عليه، وتَحتمي به عند الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرّاء والضَّرّاء[1]، والوَليُّ في أسماءِ اللّه تعالى خاصٌّ بالمؤمنينَ؛ فاللّهُ وليُّ المؤمنين، أَي: مُعينُهم وَالمُؤمنُ وَليُّ اللّه، أَي: المُعانُ بنَصْرِ اللّه[2]، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: 257]، أمّا المَولى: فيُطلَقُ على المعنى الخاصِّ بالمؤمنين، كقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد ﷺ: 11]، ويُطلَقُ أيضًا بالمعنى العامِّ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 30]، ولا تعارضَ بين الآيتَين الكريمتَين؛ إذ معنى كونِه مولى الكافرين، أي: مالكُهم والمُتصرِّفُ فيهم بما شاءَ، ومعنى كونِه مولى المؤمنين دونَ الكافرين، أَيْ: ولاية محبَّةٍ وتَوفيقٍ[3].

الــوليُّ خَــاصٌّ بِـالمـؤمـنـين، والمؤلى عامٌّ

أمَّا الفرقُ بين الوَليِّ والنَّصيرِ؛ فإنَّ الوَلاية تكونُ بإخلاصِ المَوَدَّةِ، والنَّصيرُ: يكونُ بالمَعونةِ والتَّقويةِ، وقد لا تُمكِنُ النُّصرةُ مع حصولِ الوَلايةِ[4].

الـوَلايـةُ تـكونُ بإخلاص المَودَّة، والنُّصـرةُ تكون بالمعونة

(1) ابنُ منظور، لِسانُ العَرَب: (ولي).
(2) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 284.
(3) الشِّنقيطيُّ، دَفعُ إيهامِ الإضطِرابِ، ص: 89.
(4) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 189.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

❁ التَّعريف العام بالسُّورة:

نقل ابنُ عطيَّة الأندلسيُّ إجماعَ أهل العلم بالتَّفسير أنَّ سورة آل عمران مدنيَّة[1]، وَهِي مئتا آيَة عند جمهور أهل العدَد[2]، ومئة وتسع وتسعون آية عند أهل العدد بالشَّام[3] على حسب اختلافهم في الوقوف على فواصل السُّورة، والمؤكَّد هنا أنَّها السُّورة الثَّالثة في ترتيب المصحف الشريف بعد سورتَي الفاتحة والبقرة، حسب التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسُوَر القرآن الكريم، وهو التَّرتيب الَّذي تعاضدت عليه آراء جهابذة العلماء والمحقِّقين من قدماء ومعاصرين، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ هو الثَّامن والأربعون في عداد نُزُول سُوَر القرآن[4].

❁ دلالة التَّوقيت الزَّمنيّ للسورة:

الفترة الزّمنيّة التي نزلت فيها سورة آل عمران فترة حافلةٌ بأحداث جِسام عاشها المجتمع المسلم الأوّل في المدينة المنوّرة حيث نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من النَّصر والهزيمة، في غزوات مُتعدِّدة، واختلطوا بأهل الكتاب من يهود ونصارى، وجرى بينهم من الحِجاج والنِّقاش ما يتَّصل بالدَّعوة المحمَّديَّة، وقد ذُكِرَت فيها غزواتُ بدر وأحد وحمراء وبدر الأخيرة، وكانت هذه في شعبان من السَّنة الرَّابعة، وقد نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال الَّتي تكفَّلت بالحديث عن غزوة بدر، ونزلت بعدها سورة الأحزاب الَّتي نزلت في آخر السَّنة الخامسة[5].

❁ أسماء السُّورة الكريمة:

اسم السُّورة المُشتهر: سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ، وفي حديث النَّوَّاس بن سمعان: «يُؤۡتَى بِالۡقُرۡآنِ يَوۡمَ الۡقِيَامَةِ وَأَهۡلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعۡمَلُونَ بِهِ، تَقۡدُمُهُ سُورَةُ الۡبَقَرَةِ وَآلُ عِمۡرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: ص 274.
(2) الدّاني، البيان، ص: 143.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/144.
(5) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنية: 2/5.

رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[1]، وتُسمَّى مع البقرة: بالزَّهراوين، فهي الزَّهراء، وذلك لِمَا ورد في الحديث الصَّحيح: «اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا»[2].

وَأمَّا وجه تسميتها بسورة (آل عمران)؛ فلأنَّها انطلقت من ذكرها فضائلَ آلِ عِمْرَانَ[3]، واصطفاءَهم على العالمين بقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33].

وبيّنت كيف أنَّ امرأة عمران نذرت ما في بطنها للّه ﷻ، فرُزقت بمريم الَّتي اصطفاها تعالى لخدمة بيته، واجتباها لتكون أُمًّا لعيسى عليه السلام بعد ذلك، ولعلَّ في الإشارة إلى هذه العائلة، وما مرَّت به من تحدِّيات يرتبط بمحور السُّورة الرَّئيس: وهو إثباتُ الوحدانيَّة للّه تعالى[4]، فاصطفاء اللّهِ ﷻ آلَ عمران: بالبذل والعطاء والانضواء في محراب توحيد للّه والاستسلام لأمره سبحانه، هو اصطفاءٌ - أيضًا - لأمَّة محمّد ﷺ، واجتباءٌ لأهل التّوحيد والصّلاح، ويرتبط هذا الاصطفاء بمحور الثَّبات على الحقِّ الَّذي هو خيطٌ ناظمٌ وملمحٌ واضحٌ من ملامح هذه السُّورة عند بعض العلماء، فامرأة عمران كانت رمزًا في الثَّبات على الحقِّ والتَّضحية بالغالي والنَّفيس في سبيل دينها، وقد أحبَّت أن يكون مولودها المنتظر منذورًا لخدمة هذا الدِّين، وأمَّا مريم عليها السلام فقد أبرَّت بنذر أمِّها، وقامت على خدمة الحقِّ والثَّبات على تكاليفه الباهظة الَّتي لا تستطيعُه قريناتُها ولا يُطيقُهُ أترابُها، فتعرَّضت لصدمات نفسيَّة وهزَّات عاطفيَّة عنيفة لم تُفقدْها توازنها في ثباتها على المبدأ الَّذي نذرت نفسها له.

ولها أسماء أخرى ذكرها بعض العلماء منها: "الزَّهْرَاءُ، وَالْأَمَانُ، وَالْكَنْزُ، وَالْمُعِينَةُ، وَالْمُجَادِلَةُ، وَسُورَةُ الِاسْتِغْفَارِ، وَطِيبَةُ"[5].

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (804).
(2) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (805).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/143.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/195.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/9.

❁ موضوعات السّورة:

وقفة مع أهمّ الموضوعات التي تناولتها سورة آل عمران

تناولت سورة آل عمران جملةً من الموضوعات، يجمعُها على تفرُّقها، أنّها تقوم على ترسيخ الجانب العَقَدي لدى أبناء المجتمع المسلم الذي كانت معالمه تتّضحُ يومًا فيومًا، ولا يخفى أنّ دراسة موضوعات السّورة مفتاحٌ مُهمّ ومَلمَحٌ مُعينٌ على فهم آياتها وإدراك جوّها العامّ والأغراض التي جاءت تُعالجها وتُبرزها، وهذا أمرٌ تكتنفه بعض الصُّعوبات أحيانا لأنَّ معاني القرآن تتشابه وتتكرّرُ، وقد تناولت السّورة معاني عديدة نلخّصها فيما يأتي:

بدأت بِالتَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ الكريم، وَالإشادة بالرّسول ﷺ، وَتَقْسِيم آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَمَرَاتِبِ الْأَفْهَامِ فِي تَلَقِّيهَا، وَالتَّنْوِيهِ بِفَضِيلَةِ الْإِسْلَامِ، والكُتب السّماويّة، والتَّعْرِيف بدلائل القدرة الإلهيَّة، وَإِبْطَالِ مظاهر الشّرك والوثنيّة، وجدال أهل الكتاب بالّتي هي أحسن، وما أظهره اليهودُ من كيد ومُروق، مع الدّعوة إلى الاتّحاد وجمع الشّمل وتوحيد كلمة المسلمين، والتَّحذير من الماكرين وأهل النّفاق، واستعراض ما شهدته الدّعوة النّبويّة من انتصارات وانكسارات، والتّنويه بشأن الشّهداء الأبرار، وتحفيز أهل الإيمان إلى الاجتهاد في أوابِ البرّ والمواساة والإحسان، وإبراز ملامح التَّفْكِيرِ فِي مَلَكُوتِ العزيز القدير(1).

❁ المحور الَّذي تدور حوله موضوعات السُّورة

أمّا من حيثُ الوحدةُ الموضوعيَّةُ لسورة آل عمران فيرى الإمامُ الأكبر الشَّيخ شلتوت أنَّها جاءت تُعالج قضيَّتَيْن رئيستَيْن هما: تقرير الحقِّ في مسألة الألوهيَّة، وإنزال الكتب وما يتعلَّق بهما من أمر الدِّين والوحي والرِّسالة، وتقرير العلَّة في أسباب انصراف النَّاس عن الهداية(2).

وقد يبدو من زاوية أخرى أكثر دقَّة وتفصيلًا أنَّ المحور الَّذي تدور عليه السُّورة هو تقرير الثَّبات على هذا التَّوحيد وكلمة الدِّين، سواء أكان هذا الثَّبات في المنظور الداخليِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/144 - 145 (بتصرّف).

(2) شلتوت، الشيخ محمود، تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى)، ص: 77 - 78.

أم الخارجيِّ للأمَّة، وسواء أكان هذا الثَّبات فكريّا نظريّا أم عمليّا تطبيقيّا؛ إذ دعت السُّورة إلى الثَّبات على كلمة التَّوحيد، والثَّبات على الصَّبر عن الشَّهوات والمغريات، والثَّبات عند البلاء، وضربت على ذلك شواهد من ثبات الأنبياء والأولياء، وكذلك الثَّبات أمام أباطيل أهل الكتاب، وسَدّ باب الشُّبهات الَّتي يلقيها الحاقدون ويزرعها المشكّكون حول حقيقة التَّوحيد، وكذلك سلَّطت السُّورة الضَّوء على الثَّبات في ساحة المعركة؛ لذا كان اختيار غزوة أحد وما جرى فيها وبعدها، هو الأنسبَ لهذا المحور العام للسُّورة، سواء أكان عدم الثَّبات سببًا في الخسائر الَّتي لحقت بالمسلمين، أم كان الثَّبات سببًا في تجاوزهم المحنة وشفاء القرح بعد أن أصابهم ما أصابهم في المعركة، ففي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: 102- 105] دعت إلى الثَّبات على الدِّين الحقِّ حتَّى الموت، وبيَّنت بعض عوامل الثَّبات من اللُّجوء إلى اللَّه ﷻ والدَّعوة إلى دينه، وجمع الكلمة ونبذ الفرقة، وتحقيق الأخوَّة الحقيقيَّة، وضربت السُّورة بعض الأمثال للثَّابتين من أتباع الأنبياء السَّابقين:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: 146].

وبيَّنت السُّورة بعض مُعوِّقات هذا الثَّبات من خلال ذكر أصول الفتن الخمسة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14].

وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: 155- 156].

هذا، وقد خُتِمت السورة الكريمة أيضا بالأمر بالثَّبات في قولِه تقدّست أسماؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: 200].

فالسُّورة إذًا لم تأتِ لتقرير مبدأ التَّوحيد فقط، وإنّما تكفَّلت بذلك كلُّ السُّور المكيَّة الَّتي سبقتها، وإنَّما جاءت لتؤكِّد أهمِّيَّة الثَّبات عليه، وتكشف المعوِّقات الَّتي تحول دون تحقُّقه، وجاءت تُعالج هذه المعوِّقات، وتبيِّن للأمَّة ثمرات هذا الثَّبات على الحقِّ في الدُّنيا والآخرة.

❁ المناسبات بين سورة آل عمران والسُّور المجاورة:

جاءت سورة آل عمران في ترتيب المصحف الشَّريف بعد سورتَي الفاتحة والبقرة، وترتبط السُّورتان بنَمَطيْن من علاقات المجاورة من ناحية، وعلاقات المشابهة الموضوعيَّة من ناحية أخرى، فقد تقدَّم أنَّ سورة الفاتحة قد اشتملت على المقاصد الكلِّيَّة للقرآن الكريم: من توحيد وأسماء حُسنى وأخبار وأحكام وعقائد ووعد ووعيد، فهي تمثِّل الموجز أو الملخَّص لكلِّ ما يأتي بعدها من سور، ثمّ جاءت سورة البقرة ففصَّلت ما أُجمل في سورة الفاتحة، وبيَّنت أصول العقائد ومنظومات الأحكام التَّشريعيَّة والتَّعبديَّة والأخلاقيَّة، وأخبار الماضين بدْءًا من أبي البشرية آدم عليه السلام، وبيّنت أصناف النَّاس أمام هذه الدَّعوة ومواقفهم منها، وحاورت، وجادلت أهل الملل والنِّحل، فهي سورة الخلافة الحقيقيَّة للإسلام على هذه الأرض حيث عرضت مقوِّمات هذا الاستخلاف المادِّية والمعنويِّة، ومعوِّقاته من الدَّاخل والخارج، وسُبُلَ التَّعامل مع التَّحدِّيات والمعضلات التي تُواجه مهمَّة الاستخلاف في الأرض وعمارتها، وضربت الأمثلة والشَّواهد على من أقاموا هذا الاستخلاف ومن نقضوه من الأمم السَّابقة؛ لهذا اشتركت الزّهراوان في بعض السّمات الموضوعيَّة والملامح الأسلوبيَّة ممَّا يُؤكِّد اللُّحمة بين مقاصد السُّورتيْن، وقد تفطَّن الإمام البقاعيُّ لهذه اللِّحمة بين هذه السُّور الَّتي ابتدأ بها الكتاب، فقال: "لأنَّ الفاتحة لمَّا كانت جامعة للدِّين إجمالًا؛ جاء به التَّفصيل محاذيًا لذلك، فابتدىء بسورة الكتاب المحيط بأمر الدِّين، ثم بسورة التَّوحيد الَّذي هو سرُّ حرف الحمد وأوَّل حروف الفاتحة؛ لأنَّ التَّوحيد هو الأمر الَّذي لا يقوم بناء إلا عليه، ولمَّا صحَّ الطَّريق، وثبت الأساس؛ جاءت الَّتي بعدها داعية إلى الاجتماع على ذلك، وأيضًا فلمَّا ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنَّه هُدًى، وقامت به دعائم الإسلام الخمس؛ جاءت هذه لإثبات الدَّعوة الجامعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]

فأثبت الوحدانيَّة له بإبطال إلهيَّة غيره بإثبات أن عيسى - ﷺ - الَّذي كان يُحيي الموتى عبدُهُ، فَغَيْرُهُ بطريق الأولى، فلمَّا ثبت أنَّ الكلَّ عبيدُهُ؛ دعت سورة النِّساء إلى إقبالهم إليه واجتماعهم عليه، وممَّا يدلُّ على أنَّ القصد بها هو التَّوحيد: تسميتها بآل عمران، فإن لم يُعرِبْ عنه في هذه السُّورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلَّة على القدرة التَّامَّة الموجبة للتَّوحيد الَّذي ليس في درج الإيمان أعلى منه، فهو التَّاجُ الَّذي هو خاصَّة الملك المحسوسة، كما أنَّ التَّوحيد خاصَّتُه المعقولة، والتَّوحيدُ موجِبٌ لزهرة المتحلِّي به؛ فلذلك سمِّيت الزهراء[1]"، فالوشائج بين هذه السُّور المتجاورة ظاهرة للعيان دون أدنى تكلُّف، فلئن كانت سورة البقرة قد عرضت لمهمَّة الاستخلاف على هذه البسيطة وما يستلزمه من أغراض؛ فقد جاءت سورة آل عمران لتُفَصِّلَ ببعض ما يلزم هذا الاستخلاف من ثبات على العقيدة ورسوخ فيها، وتَعْرِضَ النماذج الحيَّة على ذلك من الأخبار الماضية وممَّا شهده الجيل الأوَّل الَّذي عاش نزول القرآن فيما جرى معهم في أحد، فضلًا عن اشتراك السُّورتَيْن في المطلع في الابتداء بنفس الأحرف المقطَّعة والحديث عن الكتاب المبين.

وخلاصة القول: إنّ سورة آل عمران مُكَمِّلة لسورة البقرة؛ فقد تضمَّنت سورة البقرة الحديث عن قواعد الدِّين، وأحكامه وشرائعه، وركّزت على شروط خلافة الإنسان في الأرض، وحدّدت الجوانب المتعدّدة التي ينبغي أن يُعنى بها المسلم خلال أدائه لمهمّة تعمير الأرض وبناء الحضارة فيها.

ثمّ جاءت سورة آل عمران لإقامة الدَّليل على الأحكام، والإجابة عن شُبُهات الخُصُوم من دعاوى النَّصارى، وكيد اليهود المعلوم، واشتركت السّورتان في الكلام تفصيلا عن الحجّ في الأولى، ووجوبه في الثّانية، وقد تعرّضت سورة البقرة ابتداء لقضايا اليهود وطباعهم وعلائقهم، وجاءت سورة آل عمران بعدها للإفاضة في الكلام عن النَّصارى؛ لكون التّوراة أصلًا والإنجيل فرعًا لها، ويؤكِّد ذلك أنَّ صدر سورة آل عمران، نزل بسبب وفد نصارى نجران ومجادلتهم مع الرَّسول ﷺ[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/3-4.

(2) السيوطي، قطف الأزهار: 53.

ويربط الإمام الآلوسيُّ بين السُّورتين بقوله: "ووجه مناسبتها لتلك السُّورة أنَّ كثيرًا من مجملاتها تشرح بما في هذه السُّورة، وأنَّ سورة البقرة بمنزلة إقامة الحجَّة، وهذه بمنزلة إزالة الشُّبهة؛ ولهذا تكرَّر فيها ما يتعلَّق بالمقصود الَّذي هو بيانُ حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصِّراط المستقيم، وتكرَّرت آية ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136] بكمالها؛ ولذلك ذكر في هذه ما هو تالٍ لما ذُكر في تلك أو لازمٌ له، فذَكَر هناك خَلْق النَّاس، وذَكَر هنا تصويرهم في الأرحام، وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده، وألطف من ذلك أنَّه افتتح البقرة بقصة آدم وخلقه من تراب ولا أمّ، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصَّت البقرة بآدم؛ لأنَّها أوَّل السُّور، وهو أوَّل في الوجود وسابق، ولأنَّها الأصل، وهذه كالفرع والتَّتمَّة لها فاختصَّت بالأغرب، ولأنَّها خطاب لليهود الَّذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصَّة آدم لتثبت في أذهانهم، فلا تأتي قصَّة عيسى إلَّا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها، ولأنَّ قصَّة عيسى قيست على قصَّة آدم، والمقيس عليه لا بدَّ وأن يكون معلومًا لتتمَّ الحجَّة بالقياس، فكانت قصَّة آدم - والسُّورة الَّتي هي فيها - جديرة بالتَّقديم"(1).

وجاء بعدها سورة النِّساء الَّتي وضعت معادلة الخروج من حالة الضَّعف إلى حالة القوَّة، فعالجت مقاصد الشَّريعة الخمسة من حفظ الدين والنَّفس والمال والعقل والعرض، وبيَّنت مراعاة هذه المقاصد للضُّعفاء من النِّساء والأطفال والسُّفهاء، فوضعت أصول العدل والإنصاف في التَّعامل بين النَّاس؛ لأنَّهم خُلقوا من نفس واحدة، وهذه المقاصد السَّامية لا تتحقَّق في المجتمع إلَّا بعد تمكُّن حقيقة التَّوحيد في النُّفوس وثباتهم عليها، وبعد سورة النِّساء تأتي سورة المائدة الَّتي تشارك سورةآل عمران في جدال أهل الكتاب وكشف زيف ادّعاءاتهم، ولكنَّها جاءت في سورة المائدة في سياق بيان نقض أهل الكتاب للعهود الَّتي أُخذت عليهم، وكيف أنَّهم ينقضون عهودهم ومواثيقهم؛ كلَّما سنحت لهم الفرصة بذلك، فضلًا عن أنَّ سورة المائدة جاءت لتقرِّر أمرًا أبعد مدى من مجرَّد تقرير الوحدانيَّة للَّه كما هي في آل عمران، بل جاءت لتبيِّن أنَّ اللَّه تعالى هو المعبودُ بحقٍّ، وهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/118.

المنفرد بالأمر والنّهي والتَّحليل والتَّحريم دون سواه، فكانت سورة آل عمران في وضعها المُحكم خلال هذه السِّلسلة من المقاصد والغايات القرآنيَّة المترابطة بحيث إنَّك لو أبدلت غيرها مكانها؛ لذهب الرَّونق ولفسد المعنى.

❁ مناسبة أوَّل سورة آل عمران لآخر سورة البقرة:

وَمُنَاسَبَةُ مطلع سورة آل عمران لمختتم سورة البقرة أنّه جلّ شأنه لَمَّا ذَكَرَ في آخِرِ الْبَقَرَةِ على ألسنة المؤمنين: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة: 286]، نَاسَبَ أَنْ يذكر نصر الله تَعَالَى رسوله عَلَى الْكَافِرِينَ، حَيْثُ نَاظَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، فَقَصَّ تَعَالَى أَحْوَالَهُمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ، وَذَكَرَ تَنْزِيهَهُ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ، وَبَدَاءَةَ خَلْقِ مَرْيَمَ وَابْنِهَا الْمَسِيحِ إِلَى آخِرِ مَا رَدَّ عَلَيْهِمْ، وَلَمَّا كَانَ مُفْتَتَحُ آخِرِ آيَةٍ فِي الْبَقَرَةِ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: 285]، مشيرًا إلى الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِالْكُتُبِ؛ نَاسَبَ ذلك ذِكْرَ أَوْصَافِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذِكْرَ مَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَذِكْرَ الْمُنَزَّلِ عَلَى غَيْرِهِ - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِمْ - في مطلع سورة آل عمران(1).

❁ المناسبات الداخليَّة بين آيات السُّورة الكريمة:

تنقسم آيات السورة الكريمة إلى طائفتيْن متتاليتيْن من الآيات: الطَّائفة الأولى: من بدايتها إلى نهاية الآية (120) فيها، وقد تناولت الحديث عن تنزيل الكتاب بالحقِّ وعن هداياته، وعن الكافرين وأسباب كفرهم ومآلهم، وعن أهل الكتاب ومواقفهم المختلفة، وعن اصطفاء اللَّه تعالى لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ثمَّ ذكرت السُّورة قصَّة ميلاد المسيح عليه السلام وما جرى مع أمِّه وجدّتِه قبل ذلك، وأثناء ذلك أدخلت السُّورة جانبًا من قصَّة زكريَّا عليه السلام وطلبه الذُّرِّيَّة لتحمل المهمَّة من بعده، ثمَّ جانبًا من قصَّة المسيح عليه السلام مع بني إسرائيل؛ لينتقل الحوار بعد ذلك إلى أهل الكتاب الملازمين للنَّبيِّ ﷺ وصفاتهم ومواقفهم ومجادلتهم، ووصايا للمؤمنين بكيفيَّة التَّعامل معهم، ثُمَّ جاءت الطَّائفة الثَّانية من الآيات (121 إلى نهاية السورة) تتحدَّث عن غزوة أحد وما يتعلَّق بها من قضايا وأحكام، وسلكت منهج التَّثبيت وجبر الخواطر للمسلمين على ما أصابهم في

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/9.

أحد، ولم يأتِ الحديث عن أُحُد إلَّا في هذه السُّورة لارتباط أحداث الغزوة والتَّعقيب عليها بمحور هذه السُّورة، فاختصَّت السُّورة بموضوعات وحوارات مع أهل الكتاب ومشاهد قصصيَّة حيَّة متناغمة مع جوِّ السُّورة ومحورها العامِّ؛ فضلًا عن الظَّواهر الأسلوبيَّة فيها، حيث تكرَّرت أثناء السُّورة كلمة التَّوحيد في ثلاثة مواضع، وكلمة الكتاب في نحو (32) موضعًا، وأهل الكتاب نحو (12) مرَّة، وكلمة الدِّين والإسلام نحو (12) مرَّة، وكثرة النِّداءات للَّذين آمنوا في هذه السُّورة (7 مرَّات) من أصل (89) موضعًا في القرآن، ولأهل الكتاب (6) مرَّات في السُّورة الكريمة، نصفُها سُبِق بقوله ﴿قُلْ﴾ من أصل (12) نداء وجّهه اللّٰه تعالى إليهم في القرآن الكريم، فهناك نداء واحد في جارتها سورة النِّساء، وخمسة نداءات لهم في سورة المائدة المجاورة لها أيضًا الَّتي شاركتها في بعض المضامين المتعلِّقة بأهل الكتاب لكن من منظور آخر، ممَّا يدلُّ بوضوح على هذا التَّساوق والتَّناغم في الوحدة البنائيَّة لهذه السُّور المتجاورة، وأنَّها كالبنيان المرصوص آخذٌ بعضها بحُجز بعض، فضلًا عن أنَّه قد كثر في السُّورة أسلوب القصر عمومًا بنحو (40) موضعًا، لا سيَّما بطريقة الاستثناء بعد النَّفي الَّتي زادت عن نصف عدد مرَّات القصر في السُّورة، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ مهمٌّ من أساليب التَّوكيد والتَّقرير، وكذلك انفردت السُّورة ببعض الفرائد من أسماء وأفعال مثل: ﴿رَمْزًا﴾ و﴿بِدِينَارٍ﴾ و﴿بِبَكَّةَ﴾ و﴿غُزًّى﴾ و﴿فَظًّا﴾ و﴿نَبْتَهِلْ﴾ و﴿تَدَّخِرُونَ﴾، وهي ألفاظ ترتبط بمعاقد ومفاصل مهمَّة من بنيان هذه السُّورة والقضيَّة الأساسيَّة الَّتي قامت عليها، ولا شكَّ أنَّ هذه الخصائص الأسلوبيَّة تساعد في رسم شخصيَّة هذه السُّورة الَّتي عالجت موضوع التَّوحيد والثَّبات عليه، والتَّأكيد على أنَّ الدِّين عند اللّٰه هو دين الإسلام الحقّ الَّذي ينبغي ألَّا يماري فيه أهل الكتاب ولا غيرهم بما يلقونه من شبهات وأباطيل بغية النَّيل منه.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ [آل عمران: 1]

موقف العلماء من الحروف المقطّعة في أوائل السّور:

كَثُر كلام علمائنا في هذه الحروف المُقَطَّعة الّتي افتتحت بها تسعٌ وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، وتلوّنت أقوالهم فيها وتباينت: فمنهم من قال: إنَّها ممَّا استأثر اللّه بعلمه وهذا أسلَمُ وأحْوَطُ، ومنهم من قال: إنَّها أسماءٌ للسُّور، ومنهم من قال: إنَّها إشارة إلى الإعجاز والتّحدِّي، حيث يُخبر اللّه تعالى أنَّ هذه الحروف مِمَّا تعرفه العرب، وتنطق به في كلامها، وقد نزَل إليهم بهذه الحروف المأنوسة لديهم، ولكنّهم بقوا عاجزين عن مضاهاة الأسلوب القرآنيّ الّذي منها تركّب، وبها نُسِجت ألفاظه وآياته، وفي ذلك "إشارة إلى إعجاز القرآن؛ فقد وقع به تحدِّي المشركين، فعجزوا عن معارضته، وهو مركَّب من هذه الحروف التي تتكوَّن منها لغة العرب، فدَلَّ عجز العرب عن الإتيان بمثله على أنَّ القرآن وحيٌ من اللّه"[1]، ولكنَّ السُّؤال الّذي يتبادرُ إلى الأذهان، كما قال الشَّيخ البلاغيُّ أبو موسى: أنّنا لم نقرأ أنَّ أحدًا ممَّن سمع هذه الحروف من الصَّحابة توقَّف عندها، وتأمَّل ما فيها من أسرار في التَّنَوُّع، فما السِّرُّ في اختيار ﴿الٓمٓ ۝١﴾ في البقرة وآل عمران، و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعراف: 1] في الأعراف، و﴿الٓرۚ﴾ [نحو: يونس: 1] في يونس وهود ويوسف وغيرها؟ ولماذا البَدْءُ بهذه الحروف دون غيرها، وما علاقة ذلك بالسُّورة ؟ ولا شكَّ أنَّ وراء ذلك أسرارًا كثيرة لا يعلمها إلا اللّه تعالى، وتكون ممَّا استأثر اللّه بعلمه؟ ومع ذلك ينبغي البحث عن هذه الأسرار، على قدر الطَّاقة؛ أملًا في الوصول إلى معنًى إعجازيٍّ، وعليه أقول: لعلَّ هذه الحروف تشير إلى وجه إعجازيٍّ في الأداء الصَّوتيِّ لها، حيث جاءت على وجهٍ غير معتادٍ في نطقها عندهم، وذلك في المدِّ والسَّكت والإمالة والتَّقليل، ونحو ذلك من وجوه الأداء في هذه الحروف المُقَطَّعَة.

ولعلَّ أرجح الأقوال في هذا الشّأن هو مذهب الذين يرون أنَّ الحروف المقطّعة الواردة في مفتتح بعض السّور القرآنيّة، الغرضُ العامُّ منها هو تنبيه المُخاطبين إلى أنّ هذا البيانَ

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/2.

القرآنيّ المعجز هو من جنس هذه الحروف التي يعرفها العرب. وكأنَّ هذه الحروف في بدايات السّور تنادي الفصحاء الأبيناء وتُنبِّههم إلى أنَّ هذا القرآن الفصيح المُبين هو من جنس ما تعلمون، ومن جنس اللغة التي بها تتكلّمون، وأنتم المشهود لكم بالبيان العالي وامتلاك ناصية التّعبير وعلوّ الشّأن في الفصاحة والإفصاح، فإن كنتم تستطيعون أن تنسجوا على منوال القرآن الكريم فَافْعَلوا.

والتّاريخ أثبت أنَّ قريشا ومن تابعها في كفرها وعنادها، على الرّغم من أنَّ فصحاءها وشعراءها وخطباءها كانوا يمتلكون ناصية الإبانة والتّبيين، وكانوا مشهورين باللَّدَد في الخصومة، والتّفوُّق في الشّعر والإبلاغ في الخطب والمنازلات الأدبيّة؛ إلاّ أنّهم وجمت قلوبهم، وخارت قواهم، وخرست ألسنتهم عن مضاهاة القرآن الكريم أو النّسج على منواله؛ وما ذاك إلاّ لإدراكهم واستيقانهم أنّ ما جاء به محمد ﷺ ليس من جنس كلام البشر، بل هو من خالق القوى والقُدَر.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الاستهلالِ بالحروف المقطّعة:

الإيماءُ إلى نَظْمِ القُرآنِ بالحروفِ المقطَّعةِ تلويحٌ بالتَّحدِّي

افتُتِحتْ سورةُ آل عمران بالأحرفِ المقطَّعةِ لارتباطِها بالانتصارِ للقرآنِ؛ فلمَّا كَانَ أَوَّلَ أَغْرَاضِ هَذِهِ السُّورَةِ الذي نَزَلَتْ فيهِ، هُوَ قَضِيَّةُ مُجَادَلَةِ نَصَارَى نَجْرَانَ حِينَ وَفَدُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَيَانُ فَضْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ؛ فلَا جَرَمَ افْتُتِحَتْ بِحُرُوفِ التَّهَجِّي الْمَرْمُوزِ بِهَا إِلَى تَحَدِّي الْمُكَذِّبِينَ بِهَذَا الْكِتَابِ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/146.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: 2]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تبيان قدرة الله الّذي أنزل القرآن معجزًا من حروف اللّسان

بعد أن بدأ السيّاق بالإشارة إلى الحروف المقطّعة، لتحدّي العرب بالإتيان بشيء من مثل القرآن، ما دام هو مكوّنا من لغتهم ومن الحروف الّتي ينطقون بها وتتركّب منها كلماتهم[1]، شرع في تبيان ألوهيّة الإله الواحد وقيّوميّته العليا، "لأنّه الخالق المسيطر على الكون والنّفوس، ولأنّه مصدر الخير ودافع الضّرّ، الحيّ الدّائم الحياة الّتي لا أوّل ولا نهاية لها، القائم على خلقه بالتّدبير والتّصريف[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: الحياة تُستعمل على أوجه، الأوّل: للقوَّة النَّامية الموجودة في النَّبات والحيوان، الثّانية: للقوَّة الحسَّاسة، وبه سمِّي الحيوان حيوانًا، الثَّالثة: للقوَّة العاملة العاقلة، الرَّابعة: ارتفاع الغمِّ، الخامسة: الحياة الأُخرويَّة الأبديَّة، السّادسة: الحياة الّتي يُوصف بها البارئ سبحانه، فإنَّه إذا قيل فيه تعالى: هو حيٌّ، فمعناه: لا يصحُّ عليه الموت، والمراد بالحيِّ: الدّائم البقاء[3]، وإذا وصف الباري ﷻ بالحياة؛ فمعناه الدّائم الّذي لم يزل، ولا يزال، ولا يصحُّ عليه الموت بوجه[4]، "الْحَيُّ: فَهُوَ الْفَعَّالُ الدَّرَّاكُ"[5]، والمعنى: " اللّه تعالى هو الإله الحقّ المتفرّد بالألوهيّة الّتي لا يشاركه فيها سواه، وهو المعبود الحقّ، وكلّ معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة"[6].

2) ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: "القَيُّومُ: فيعول من قام: وهو القائم بالقسط، والقائم على كلِّ نفس بما

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/146.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/146.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/346 - 347.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/523.
(5) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/19.

كسبت"[1]، "القائمُ بتَدْبير جميع ما خَلَقَ من إحياءٍ وإنشاءٍ ورِزْقٍ ومَوْتٍ"[2]، "الْقَائِمُ بِذَاتِهِ، وَالْقَائِمُ بِتَدْبِيرِ الْخَلْقِ وَالْمَصَالِحِ لِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ في مَعَاشِهِمْ، مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالرِّيَاحِ وَالْأَمْطَارِ وَالنِّعَمِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا سِوَاهُ، وَلَا يُحْصِيهَا غَيْرُهُ"[3]، "من قام بالأمر، يقوم به؛ إذا اضطلع بحفظه، وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده، فالله تعالى القوَّام على كلِّ شيء بما ينبغي له أو فيه أو عليه"[4]،

وقال قتادة: القيوم: القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم.. وقال أبو عبيدة: القيّوم: القائم على الأشياء. قال الشّاعر:

إِنَّ ذَا الْعَرْشِ لَلَّذِي يَرْزُقُ النَّا ***سَ، وَحَيٌّ عَلَيْهِمُ قَيُّومُ[5]

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تأكيد قيّوميّة الله وعظمته في كونه وألوهيّته

"الله الَّذي لا إله يُعبد بحقٍّ إلّا هو، وحده دون سواه، الحيُّ حياة كاملة، لا موت فيها ولا نقص، القيُّوم الّذي قام بنفسه، فاستغنى عن جميع خلقه، وبه قامت جميع المخلوقات، فلا تستغني عنه في كلِّ أحوالها"[6]، فأخبر أنّه تعالى لا معبود بحقّ إلّا هو، وذكر برهان استحقاقه للعبادة دون غيره، وهو كونه تعالى حيًّا أزلًا وأبدًا، وكلّ حيّ غيره مسبوق بالعدم، ويلحقه الفناء. فلذا لا يستحقّ الألوهيّة إلّا هو[7] ﷻ.

❁ الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

جمالُ البَدْءِ باسم الله الأحسنِ وبوَصْفَيْه الحيِّ القيّومِ:

بدأت الآية بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وهو جامع لكلِّ ما في أسماء الله الحسنى من الكمالات المُطلقة في بقيَّة الأسماء، وجيء بصفتي

(1) نجم الدّين النِّيسابوريُّ، إيجاز البيان: 1/179.
(2) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/374.
(3) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/397.
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 1/90.
(6) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن: 1/50، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/50.
(7) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/283.

الحيِّ القيُّوم من باب ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ لمزيد العناية بهذا الخاصِّ، وللإشارة إلى أنَّ له في هذه السورة مقامًا مقصودًا، هو التَّأكيد على معنى الوحدانيَّة، وللردِّ على مزاعم النَّصارى في شأن عيسى عليه السلام من الألوهيَّة والبنوَّة ودعوى التثليث؛ لأنَّه بشرٌ ومكتوب عليه الموت، وممَّا يؤكِّد ذلك، ما قاله الرَّازيُّ في تفسير معنى الحيِّ القيُّوم، قال: "هو محيط بجميع الصِّفات المعتبرة في الإلهيَّة، ولمَّا ثبت أنَّ المعبود يجب أن يكون حيًّا قيُّومًا - ودلَّت البديهة على أنَّ عيسى عليه السلام ما كان حيًّا قيُّومًا، كيف، وهم يقولون: بأنَّه قُتل، وأظهر الجزع من الموت؟ - علمنا قطعًا أنَّ عيسى ما كان إلهًا ولا ولدًا للإله، تعالى اللّه عما يقولون عُلوًّا كبيرًا"[1].

الإشارةُ إلى ما في هذينِ الوَصْفَيْنِ مـن الـــرَّدِّ على دعوى التَّثليث

سِرُّ الإخْبارِ بالمُسْنَدِ الفِعْليّ:

لفظُ الجلالةِ مسندٌ إليه، وابْتُدِئَ الْكَلَامُ به، وجاءَ الخبرُ مسندًا فعليًّا وهو ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾؛ "لِإِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْخَبَرِ اهْتِمَامًا بِهِ، وَجِيءَ بِالِاسْمِ الْعَلَمِ؛ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ عِنْدَ سَمَاعِهِ"[2]، فالذي نزَّلَ الكتابَ هو اللّه تعالى، المتَّصفُ بأنَّه حيٌّ قيُّومٌ، فإنزالُ الكتابِ ملحوظٌ فيه معنى هذين الوَصْفَيْنِ، والكتابُ به تكونُ الحياةُ والقوامةُ.

الــقُـــرآنُ سـرُّ الـحـيـاةِ إذ بـهِ حـيـاةُ الـقُـلُـوبِ والـقـوامـةُ على الخَلْقِ

توجيه المتشابه اللفظيّ:

ذُكرت هذه الجملة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ في صدر سورة آل عمران، وفي صدرِ آيةِ الكرسيِّ، وهناك فرقٌ بين الموضعين؛ ففي سورة البقرة جاءت في سياق الإخبار العامِّ عن صفات المولى سبحانه وتعالى في إثبات صفات الكمال والجمال والجلال، فآية الكرسيِّ هي الآيةُ التي قرّرتْ أصولَ التَّوحيدِ، أمَّا هنا؛ فجاءت في سياق الحِجاج مع النَّصارى، وللرَّدِّ عليهم فيما ادَّعوه من صفاتٍ لا

جملةُ التَّوحيدِ جــاءتْ لتقريرِ العقيدةِ ابتداءً في آيـة الكرسيِّ وردًّا في آل عمران

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/147.

تثبتُ لعيسى عليه السلام ؛ لأنَّهم إذ يقولون: إنَّه صُلب، فذلك موت في معتقدهم لا محالة؛ إذ من البيِّن أنَّه ليس بقيُّوم[1]، فهو ليس حيًّا ولا قيُّومًا، فثبت أنَّه ليس بإلهٍ، وأنَّ معتقدَهم في نبيِّ اللّه معتقدٌ باطلٌ، تنزَّه اللّه عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا.

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/397.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين بيان قيـومـيّة اللـه، وإقـامـة الـدّليـل عـليـهـا بـتـنـزّل القـرآن والـكـتـب السّماويّة قبله

لَّما تحدَّث فيما سبق عن القَيُّوميَّة، وهي القيام بذاته، والقيام بأمر خلقه، وهذا يقتضي القيام بما يحتاجون إليه من قيم روحيَّة، وقيم ماديَّة؛ فكانت هذه الآية محقّقة ذلك، بتنزيل الكتاب على النَّبيِّ ﷺ بما يحمله من قيم روحيَّة، إضافةً إلى أنّ الآية السَّابقة لَّما أشارت إلى الذَّات الإلهيَّة، وتفرُّدها بالوحدانيَّة والقيُّوميَّةِ؛ جاءت هذه الآية؛ لتُقيم الدَّليل على هذه القيُّوميَّة، فمن هذا المقام الكريم الّذي لا يُطاول، ولا يُسامى، كان مُتَنَزَّل القرآن الّذي أُنزل على النَّبيِّ ﷺ، وهو الحقُّ الّذي لا مرية فيه؛ لأنَّه من ربِّ العالمين؛ ولأنَّه جاء مُصدِّقًا للكتب السَّماويَّة.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: في الأصل مصدر، ثمّ سمِّي المكتوب فيه: كتابًا، وهو اسم للصّحيفة مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: 153] يعني: صحيفة فيها كتابة[1]، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في هذا الموضع القرآن باتِّفاق من المفسِّرين"[2]، "وَتَكَرَّرَ كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ الْقُرْآنُ، فَصَارَ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ"[3]، "فالأصل في الكتابة النّظم بالخطّ، لكن يستعار كلّ واحد للآخر، لذلك سمّي كلام اللّه وإن لم يكتب كتابًا"[4].

(1) الراغب، المفردات: (كتب).
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/397.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.
(4) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (كتب).

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: أصل الحقِّ: المطابقة والموافقة، ويقول الجرجانيُّ عن الحقِّ: "الثَّابت الَّذي لا يجوز إنكاره، وفي اصطلاح أهل المعاني: الحكم المطابق للواقع في الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك[1]، ويقول الرَّاغب: " ويُطلق الحقُّ على أوجه: الأوَّل: لُموجِد الشّيء بحسب ما تقتضيه الحكمة؛ ولهذا قيل عن اللّه تعالى: أنّه الحقّ، والثَّاني: يقال للمُوجَد بحسب مقتضى الحكمة؛ ولهذا يقال: فعل اللّه تعالى كلُّه حقٌّ.

والثَّالث: في الاعتقاد للشّيء المطابق لما عليه ذلك الشّيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثّواب والعقاب، والجنَّة والنَّار حقٌّ، قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: 213]، والرَّابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الَّذي يجب كقولنا: فعلك حقٌّ، وقولك حقٌّ[2].

3) ﴿مُصَدِّقٗا﴾: يُقال: صدقت فلانًا، نسبته إلى الصِّدق، وأَصدَقتُه: وجدته صادقًا، ويستعمل التّصديق في كلِّ ما فيه تحقيق، يقال: صَدَقَني فعله وكتابه، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: مُصَدِّقٌ ما تقدَّم، فهو يخبر عمَّا قبله خبر صدقٍ دالٍّ على إعجازه، أو يخبر بصدق الأنبياء فيما أتوا به[3]، والمصدّق الصّدّيق، وهو" مُبَالغَة من الصّدْق في القَوْل وَالْفِعْل، وهُوَ أَعلَى مَرَاتِب الْعباد عِنْد اللّه بعد الْأَنْبِيَاء، وَمِنْه سمّي أَبُو بكر الصّديق، وَقَوله إِذا جَاءَ الْمُصدّق، وَمَا وجد الْمُصدّق، وَمَا صدر عنّي مُصدّق"[4].

4) ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: يُستعمل (بين) لكلّ ما كان له مسافة، نحو: بين البلدين، أَوْ له عدد ما: اثنان، فصاعدًا، نحو: بين الرَّجُلين، وبين القوم، ويقال: هذا الشّيء بين يديك، أي: مُتَقَدِّمًا لك، ويقال: هو بين يديك، أي: قريب منك، ومنه قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[5]، والمراد "بما بين يديه: هي التّوراة والإنجيل وسائر كتب اللّه الّتي تُلُقِّيَتْ من

(1) الجرجانّي، التّعريفات: 142.
(2) الرّاغب، المفردات: (حق).
(3) العزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن: 1/251، والرّاغب، المفردات: (صدق).
(4) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (صدق).
(5) الرّاغب، المفردات: (بين).

قبلنا كالزَّبور والصُّحف، وما بين اليد في هذه الحوادث، هو المتقدِّم في الزَّمن"[1] "يَعْنِي: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ"[2].

5) ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: "التَّوْراة وَالإِنْجِيل: اسمان أعجميَّان، وتكلُّف اشتقاقهما من الورى والنَّجل، ووزنُهما بـ (تفعلة، وإفعيل)، إنَّما يصحُّ بعد كونهما عربيَّين"[3]، والواقع أنّ "أصلهما عبرانيٌّ، لكن النُّحاة وأهل اللِّسان حملوهما على الاشتقاق العربيِّ"[4]، "ووزنهما بتفعلة وإفعيل تعسُّف؛ لأنَّهما أعجميَّان"[5]، "وَذَلِكَ بَعْدَ تَقْرِيرِ النُّحَاةِ: أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْأَعْجَمِيَّةَ لَا يَدْخُلُهَا اشْتِقَاقٌ، وَأَنَّهَا لَا تُوزَنُ، يَعْنُونَ اشْتِقَاقًا عَرَبِيًّا"[6]، وعليه فإنّ "التَّوْراة كلمة عبريّة معناها الشّريعة، وتشتمل على خمسة أسفار هي: (سفر التّكوين، وسفر الخروج، وسفر اللّاويين، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع)، ويقول اليهود: إنّ موسى كتبها، ويسمّيها النّصارى: العهد القديم"[7]، وأمّا الْإِنْجِيل فهو" كلمة يونانيّة، معناها التّعليم الجديد أو البشارة، ويسمّى العهد الجديد، ويشتمل في سيرة المسيح عليه السلام وبعض تعاليمه على أربعة أناجيل هي: إنجيل متّى ويوحنا ومرقس ولوقا، وعلى أعمال الرّسل (الحواريين)، ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب، ورؤيا يوحنا، وهي كلّها مكتوبة بعد قرن أو قرنين من وفاة المسيح، وليس لها سند متّصل إلى كاتبها"[8].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا تعارض بين القرآن والكتب السّماويّة الصّحيحة

"نزَّل عليك أيُّها النّبيُّ ﷺ القرآنَ بالصّدق في الأخبار والعدل في الأحكام، موافقًا لما سبقه من الكتب الإلهيَّة، فلا تعارض بينها، وأنزل التَّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى"[9]، فالقرآن أنزل

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/398.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/5.
(3) الزّمخشريُّ، الكشاف: 1/335.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/398.
(5) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/5.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/5، قال الرّازيّ: "فالتّوراة والإنجيل اسمان أعجميان: أحدهما بالعبريّة، والآخر بالسّريانيّة، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب، فظهر أنّ الأولى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث"، ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 7/132.
(7) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/144.
(8) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/144.
(9) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.

بالحقّ، وهو يدعو إلى الحقّ والعدل، فهو الحقّ الملازم للحقّ، وهو مصدّق لما بين يديه؛ من الشّرائع الإلهيّة الّتي سبقته؛ وهذا يدلّ على أنّ الشّرائع الإلهيّة واحدة، في لبّها ومعناها وأصولها(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ الإخبارِ بالفعلِ نزَّل:

القرآنُ كتابُ اللهِ المنزَّلُ من اللهِ على رسولِه صدقًا وحقًّا وامتنانًا

قوله: "﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خَبَرٌ عَنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ، وَالْخَبَرُ هُنَا: مُسْتَعْمَلٌ فِي الِامْتِنَانِ على النَّبيِّ ﷺ وذلك واضح في كاف الخطاب في قوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾ التي فيها مؤانسة للرَّسول ﷺ وعبَّر بالاستعلاء في قوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ إشارة إلى عُلُوِّ الكتاب، وعلوِّ المُنَزَّل عليه.

ومن أسرار الإخبار بالفعل ﴿نَزَّلَ﴾: دلالته على التَّعْرِيضِ وَالنِّكَايَةِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَجِيءَ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا؛ لِإِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْخَبَرِ، أَوْ لِلدَّلَالَةِ - مَعَ ذَلِكَ - عَلَى الِاخْتِصَاصِ، أَيِ: اللهُ لَا غَيْرُهُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ؛ إِبْطَالًا لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْطَانِ، أَوْ مِنْ طَرَائِقِ الْكِهَانَةِ، أَوْ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ"(2).

الفرقُ بين صيغةِ ﴿نَزَّلَ﴾ وصيغة ﴿وَأَنزَلَ﴾ في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾:

النُّزولُ يكونُ مرَّةً واحدةً، والتَّنزيلُ يكونُ على دَفَعَاتٍ

تعدَّدت أقوال العلماء في هذه المسألة: فمنهم من فرَّق، ومنهم من قال بعدم الفرق، ورأى أنَّ ذلك من باب التَّفنن والاحتراز عن التَّكرار:

الفريق الأول: رأى فريقٌ من العلماءِ أنَّ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ له دلالة تختلف عن ﴿وَأَنزَلَ﴾، وذلك من خلال التَّضعيف في الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ الذي يدلُّ بصيغته على نزول القرآن مُنَجَّمًا، بخلاف الفعل المُتَعَدِّي بالهمز؛ فإنَّه يَدلُّ على النُّزول جملة واحدة، ودليل ذلك أنَّ صيغة

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/147.

فَعَّل تدلُّ على التكثير والتنجيم؛ لذلك استُعملت مع نزول القرآن؛ لأنَّه نزل تدريجيًّا، ولذلك سمِّي الكتاب العزيز: تنزيلاً؛ لأنَّه لم ينزل جملة واحدة، بل سورة سورة، وآية آية، ويدلُّ على هذا المعنى الصِّيغة كما سبق، وشاهد التاريخ، في استمرار نزول القرآن لمدة ثلاثة وعشرين عامًا.

ويؤكِّد ذلك الرَّاغب الأصفهانيُّ بقوله: "والفرق بين الإنزال والتَّنزيل في وصف القرآن والملائكة: أنَّ التنزيل يختصُّ بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مُفرَّقًا، ومرَّة بعد أخرى، والإنزال أعمُّ من أن يكون تدريجيًّا، وذكر شواهد على ذلك.

الفريق الثاني: يرى عدم الفرق بينهما، وأنَّهما بمعنًى واحد، ومن هؤلاء الشيخ زكريا الأنصاريّ، حيث ضعَّف الرأي الأوَّل لعدم اطِّراده، وردَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]. وبقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَۗ﴾؛ إن أُريد به القرآن، وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾"[1].

وذكر أنَّ وجه اختلاف اللَّفظين في النَّص أنَّهما وردا قريبين، فخالف الصِّيغة للاحتراز من التَّكرار، ثمَّ بيّن سبب تقديم المشدَّد ﴿نَزَّلَ﴾ بأنَّه جاء قُبيل قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾، فجعلهما متعاقبين للاتِّفاق الصّوتي بالتَّضعيف الصّرفي، وهذا من بديع التَّوافق الصَّوتيِّ: "قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، إن قلتَ: كيف قال هنا: ﴿نَزَّلَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ﴾ مرَّتين؟ قلتُ: للاحتراز عن كثرة التَّكرار، وخُصَّ المشدَّدُ بالأوَّل لمناسبته ﴿مُصَدِّقًا﴾ "[2]، وهذا نصٌّ عظيم بليغ.

والرَّاجح أنَّ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ له دلالة تختلف عن الفعل ﴿وَأَنزَلَ﴾، وبيان ذلك من خلال كلام الآلوسيِّ في هذه المسألة، فقال: عبَّر مع الكتاب، وهو القرآن بـ ﴿نَزَّلَ﴾ ؛ لأنَّ له نُزولين، من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزَّة في السَّماء الدُّنيا، والثَّاني من بيت العزَّة إلى النَّبيِّ ﷺ مُنَجَّمًا في ثلاث وعشرين سنة على المشهور، وأمَّا التوراة والإنجيل؛ فلهما نزول واحد، عبَّر عنه بـ ﴿وَأَنزَلَ﴾[3].

(1) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/77.
(2) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/77.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 3/76.

وما ذكره الآلوسيُّ هو المناسب للسِّياق؛ لأنَّ الآيات التي نزلت في صدر سورة آل عمران نزلت بسبب وفد نصارى نجران، فجاءت الآيات ردًّا على مزاعمهم، وهذا شاهد على نزول القرآن مُنجَّمًا.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

خُصَّ النَّبيُّ بذكر تنزيلِ القرآنِ عليه تشريفًا له وتخصيصًا

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ ذكرِ من نُزِّلَ عليه القرآنُ وهو محمَّدٌ ﷺ، ولم يذكر على من نزلَت التَّوراةُ والإنجيلُ؟ وذلك "تَخْصِيصًا لَهُ وَتَشْرِيفًا بِالذِّكْرِ"(1)، و"لأنَّ القصد هنا ليس إلَّا ذكر الكتابَين، لا ذكر من نُزلا عليه"(2)، وللإيماءِ بأنَّه الخاتمُ، وأنَّه إمامُ المرسلين، فذِكرُه سادٌّ عن ذكرِ غيرِه، كما أنَّ القرآنَ مهيمنٌ على بقيَّة الكتبِ التي نزلتْ.

سِرُّ التّعبيرِ بحرفِ الاسْتِعلاءِ دونَ حرفِ الغَايةِ:

المقصودُ بالإنزالِ العلوِّ والشَّرفُ أصالةً، والتَّبليغُ تَبَعًا

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بحرفِ الاستعلاءِ، فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ ولم يقل: (إليك)، وعند تأمل القرآن، نجد أنَّ مادة (الإنزال) تتعدَّى مرَّة بحرف الجرِّ (على) وأخرى بـ (إلى)، وكلُّ حرف منهما له دلالة: فـ (إلى) لانتهاء الغاية، و(على) تفيد الاستعلاء، وعلى هذا؛ إذا تعدَّى الفعل بـ (على)؛ أفاد النُّزول من جهة العُلوِّ دون سائر الجهات، وهذا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم، أمَّا إذا تعدَّى بـ (إلى)؛ فالمراد بنزوله: التبليغ، وعلى ذلك؛ فأمر نزول القرآن له مرحلتان: الأولى: مرحلة التلقِّي، وفيها يأتي حرف (على) للدَّلالة على الشَّرف والرِّفعة، والثَّانية: مرحلة التبليغ، وفيها يأتي التعدِّي بحرف الجرِّ (إلى)؛ لأنَّ الغرض هو تبليغ القرآن إلى الأمَّة، أي: ينتهي أمر البلاغ إليهم، والمقصودُ في هذا السِّياقِ المرحلةُ الأولى أصالةً، والثَّانية تبعًا.

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/172، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

بلاغةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والإتيانُ بضميرِ الخطابِ:

آثَرَ النَّظمُ تقديمَ الظَّرفِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للاعتناء بالمقدَّم، وهو رسولُ اللهِ ﷺ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر[1]، "وَجَاءَ بِذِكْرِ الْخِطَابِ لِمَا فِي الْخِطَابِ مِنَ الْمُؤَانَسَةِ"[2].

معنى التَّعريفِ في الكتاب:

التَّعريف في لفظ الكتاب يدلُّ على أنَّه الكتاب المطلق الَّذي تحدَّى اللهُ به، ومن شكَّ في ذلك؛ فلينظرْ لما في القرآن من قصص وأحكام وتشريع ومواعظ؛ فإنَّه لن يجد إلَّا الكمال المطلق الَّذي تحدَّى الله به النَّاسَ؛ لأنَّه كتاب أُحكمت آياته.

فائدةُ التَّعبيرِ بالكتابِ دون القرآنِ:

إشـارةٌ إلى أمرٍ غيبيٍّ، في زوالِ الأميَّةِ واكتمالِ القرآنِ

اختار النَّظمُ التّعبيرَ باسم الكتابِ دون القرآنِ؛ والمقصودُ بالْكِتَابِ في قولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الْقُرْآنُ، بِاتِّفَاقِ الْمُفَسِّرِينَ[3]، وذلك لمجموعةٍ من الفوائدِ:

أوَّلًا: ما يحمله هذا الاسم من دعوةٍ لأهلِ الكتاب للإيمان به ﷺ؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّه كتابٌ كما أنَّ لهم كتبًا أُنزلتْ على أنبيائهم، والمصدر واحد، فالإيمانُ ببعضِها والكفرُ ببعضِها الآخر تناقضٌ.

ثانيًا: الإيماءُ إلى أنَّه الكتابُ الجامع لكلِّ أصول الكُتُبِ السَّابقة، فهو الحقيق بهذا الاسم، ويؤكِّد هذا؛ التّصريحُ باسمِ التَّوراة والإنجيل دون الإشارةِ إلى أنَّهما كتابان.

ثالثًا: الإشارة إلى زوال الأميَّة من العرب؛ لأنَّهم سيكتبون هذا الكتاب.

رابعًا: تأنيسٌ للنَّبيِّ ﷺ رغم عنادِ أهلِ الكتاب باكتمال نزولِه؛ لأنَّ الكتابة تعني: الضَّمَّ والجمع، إذن فالقرآن سيُضمُّ، وسيجمع كلَّ أصولِ كتب السَّابقين.

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/171، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/14.

هيمنةُ القرآنِ على بقيَّةِ الكتبِ فهو الحقيقُ باسمِ الكتابِ

خامسًا: التَّعبيرُ "باسم الجنسِ إيذانًا بكمال تفوُّقه على بقيَّة الأفراد في حيازة كمالاتِ الجنس؛ كأنَّه هو الحقيقُ بأن يُطلَقَ عليه اسمُ الكتاب دون ما عداه، كما يلوِّح به التَّصريحُ باسمي التوراةِ والإنجيل"(1).

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

حرفُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ "فيه وجهان:

نـزَّل الكتابَ بسببِ الحقِّ، ومُلتبسًا به، ومُضمَّنًا مَعانيَه

أحدهما: أن تتعلَّق الباءُ بالفعل قبلها، والباء حينئذٍ للسّببية، أي: نزَّله بسبب الحقِّ.

ثانيهما: أن يتعلَّق بمحذوف على أنَّه حال، إمَّا من الفاعل، أي: نزَّله مُحِقًّا، أو من المفعول، أي: نزَّله مُلتبسًا بالحقِّ، نحو: جاء بكر بثيابه، أي: مُلتبسًا بها"(2).

وقال ابنُ عطيَّة زيادةً في توضيح معنى الباءِ، وهو دائرٌ على معنى السَّببيَّةِ والالتباسِ: "قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى ضُمِّن الحقائق من خيره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباء على حدِّها في قوله: جاءني كتاب بخبر كذا وكذا، أي: ذلك الخبر مقتصٌّ فيه، والثَّاني: أن يكون المعنى أنَّه نزَّل الكتاب باستحقاق أن ينزِّل لما فيه من المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أنَّه واجب على اللّه تعالى أن يفعله، فالباء في هذا المعنى على حدِّها في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: 116] "(3).

سِرُّ اختيارِ وصف الحقِّ دون غيره من الأوصافِ:

اختارتِ الآيةُ مفردةَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّه يطلق على الشَّيء الثَّابت الذي لا يتغيَّر، ويطلق على اللّه تعالى، وعلى وحيه، وفي هذا دلالة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4، ومحمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/168.
(2) ابن عادل، اللباب: 5/13.
(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/397.

على تكذيب اللّه لنصارى نجران فيما قالوه في حقِّ عيسى عليه السلام، فهي أقوال باطلة، لا تمتُّ إلى الحقِّ بصِلة، ويطلق أيضًا على الصِّدق، فهو صادق في كلِّ الأخبار، ومنها ما أخبر به في حقِّ عيسى عليه السلام.

الحقُّ لفظٌ عامٌّ يشملُ أفرادًا كثيرةً ويردُّ أباطيلَ لا تُحَدُّ كَثْرَةً

وجيءَ بلفظِ الحقِّ لما تضمَّنه من المعاني العظيمةِ، مُلخَّصها في الآتي:

أحدها: أَنَّهُ صَدَقَ فِيمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

ثَانِيهَا: أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ يَحْمِلُ الْمُكَلَّفَ عَلَى مُلَازَمَةِ الطَّرِيقِ الْحَقِّ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، وَيَمْنَعُهُ عَنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْبَاطِلِ.

ثَالِثُهَا: أَنَّهُ حَقٌّ بِمَعْنَى: أَنَّهُ قَوْلٌ فَصْلٌ، وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ.

رَابِعُهَا: قَالَ الْأَصَمُّ: الْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَهُ بِالْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لَهُ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَشُكْرِ النِّعْمَةِ، وَإِظْهَارِ الْخُضُوعِ، وَمَا يَجِبُ لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ فِي الْمُعَامَلَاتِ.

خَامِسُهَا: أَنْزَلَهُ بِالْحَقِّ لَا بِالْمَعَانِي الْفَاسِدَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ١﴾ [الكهف: 1](1).

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ دون صادق:

قـوَّةُ الـقُـرآنِ وهيمنتُه على بقيَّةِ الكتبِ في صدقِه وتصديقِه لها

اختار النَّظمُ التَّعبير بصيغةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ دون (صادِق)؛ لمجموعةٍ من الفوائد:

أوَّلًا: الإشارة إلى أنَّه صادق في ذاته مُصدِّقٌ لغيره، بخلاف صادق؛ فهو يدلُّ على الصِّدقِ في ذاته فقط.

ثانيًا: الإيماءُ إلى صحَّة القرآن الكريم، وأنَّه كلام اللّه تعالى لاتِّفاقه في الأصول التي دعت إليها الكتب السَّابقة، وفي هذا إشارة إلى الاعتراف بها؛ لأنَّه لو كان من عند غير اللّه، لم يكن موافقًا لها، ولا مُتَّفقًا معها.

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.

ثالثًا: الإشارة إلى تأكيد وجوب إيمانهم به ﷺ وما أُنزل عليه؛ لأنَّ إيمانهم بما معهم يقتضي الإيمان بما يصدِّقه.

القرآنُ صدَّق أصولَ الكتبِ السَّابقةِ، ونسخَ مُعظمَ فروعِها

ومعنى تصديق القرآن للكتبِ السَّابقةِ، أنَّه صدَّقَ أصولها؛ لما فيها من الشَّرائع والأحكام؛ لأنَّه مصدِّقٌ لاستحقاق تلك الأحكام وجريانها وقت نزولِها، ثمَّ نسخها؛ "فَالْقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِتِلْكَ الْكُتُبِ فِي كُلِّ ذَلِكَ، وَالْقُرْآنُ، وَإِنْ كَانَ نَاسِخًا لِشَرَائِعِ أَكْثَرِ الْكُتُبِ؛ فَهِيَ مُبَشِّرَةٌ بِالْقُرْآنِ وَبِالرَّسُولِ، وَدَالَّةٌ عَلَى أَنَّ أَحْكَامَهَا تَثْبُتُ إِلَى حِينِ بِعْثَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولَهُ - ﷺ -، وَأَنَّهَا تَصِيرُ مَنْسُوخَةً عِنْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، فَقَدْ وَافَقَتِ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مُصَدِّقًا لَهَا؛ لِأَنَّ الدَّلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَى ثُبُوتِ الْإِلَهِيَّةِ لَا تَخْتَلِفُ"[1].

اللّامُ في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لتقويةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ في العملِ:

جاء لفظُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ متعدّيًا باللّام، دون أن يتعدَّى بنفسِه؛ لتقويةِ التَّعديةِ[2]، أي: لتقوية العامل وهو ﴿مُصَدِّقًا﴾؛ لكونه اسم فاعل، وهو فرعٌ في العمل[3]، إذِ "اللامُ دِعامةٌ لتقويةِ العملِ، نحوُ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود: 107]"[4]، فقول اللّه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أقوى من: (مصدقًا ما بين يديه)، ففيها معنى التَّوكيدِ والثَّباتِ وقصدِ التَّصديقِ.

بلاغة التَّعبير عنِ الماضي بقولِه تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

تصويرُ حُضُورِ المُصدَّقِ بين يَدَي المُصدِّقِ لَه

لسائلٍ أن يسألَ: "كَيْفَ سَمَّى مَا مَضَى بِأَنَّهُ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ تِلْكَ الْأَخْبَارَ لِغَايَةِ ظُهُورِهَا سَمَّاهَا بِهَذَا الِاسْمِ"[5]؛ فهي ظاهرةٌ واضحةٌ لا لُبسَ فيها كأنَّها بين يديه.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/15.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/15.
(3) زاده، حاشية على البيضاوي: 3/5.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/4، والقنّوجي، فتح البيان: 2/171.
(5) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/131.

وهذا التَّعبيرُ مجازٌ؛ "لأنَّ ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ هو ما أمامه، فسمَّى ما مضى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لغايةِ ظهورِه واشتهارِه"[1]، "وَجُعِلَ السَّابِقُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَجِيءُ قَبْلَهُ، فَكَأَنَّهُ يَمْشِي أَمَامَهُ"[2]، وتظهر بلاغةُ هذا التَّعبير عن هذا المعنى في تصوير حضورِ المُصدَّقِ بين يَدَي المُصدِّقِ لَه.

القُرآنُ متقدِّمٌ في المكانةِ مهيمنٌ على السَّابق فأصبح بهذا الاعتبارِ متقدِّمًا

التَّعبيرُ بقولِه: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحملُ بَيْنَ يديه دلالاتٍ تاريخيَّةً وزمانيَّةً، ولسائلٍ أن يسأَلَ: إذا نظرنا إلى الكتب السَّماويَّة حسب واقعها التاريخيِّ؛ نجد أنَّ القرآن الكريم هو الذي بين يدي الكتب السَّماويَّة، وليست هي التي بين يديه؛ لأنَّه جاء إلى الوجود تاليًا لا سابقًا عليها، فكيف تكونُ هي بين يديه؟!

ويجيب الشَّيخ عبد الكريم الخطيب على هذا السُّؤال الذي أورده بقوله: الكتب السَّماويَّة ليست أحداثًا حادثة، وإنَّما هي وقائع في علم اللّه تعالى موجودة من الأزل، شأنها شأن جميع ما في علم اللّه، وظهورها وانكشافها لنا يجيء موقوتًا بإرادة اللّه مقدورًا بحكمته، ففي سير الأحداث من سجلِّ الغيب، وظهورها على مسرح حياتنا، نجد أنَّ الكتب السَّماويَّة جميعها تقدَّمت القرآن الكريم واحدًا واحدًا، والسَّابق منها بين يدي اللَّاحق، وبهذا التقدير تقع جميعها بين يدي القرآن، وليس الأمر كذلك في حركة التَّاريخ، حيث تُطوى الأحداث التي تَجِدُّ، فكلُّ حدثٍ جديد في هذه الحركة يمشي على آثار الحدث الذي مضى، ويخلفه وراءه، وحركة الزَّمن ليست على تلك الصُّورة، إنَّها حركة واحدة.

وعندما ننظر إلى القرآن الكريم في هذا الوضع نجده قد أخذ مكانه من الكتب السَّماويَّة كمصدر إشعاع لها، ومركز انطلاق لكلمات اللّه منها، وكأنَّها - أي: الكتب السابقة - تمهِّد له الطريق، وتهيِّئُ له الأفق الذي يستقبله حين يطلُع على النَّاس، ويملأ الوجود بنوره القدسيِّ[3].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/171.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/148.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1/395.

تشريفُ التَّوراةِ والإنــجــيــلِ بـالـذِّكـرِ، غايتُه تشريفُ الكتابِ المصدِّق لهما

توجيه المخصُوصِ بالذِّكرِ:

قولُه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يشملُ جميعَ الكُتُبِ المتقدِّمة؛ لكنَّه خَصَّ التوراة والإنجيل بالذِّكر مع دُخولِهما فيما سبقَ؛ تشريفًا لهما[1]، وتعيينًا لما بين يديه، وتبيينًا "لرفعة محلِّه؛ تأكيدًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده؛ إذ بذلك يترقَّى شأنُ ما يصدِّقه رفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قبولًا ومهابةً، ويتفاحش حالُ من كفرَ بهما في الشَّناعة واستتباعِ ما سيذكر من العذاب الشّديد والانتقام"[2].

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/408.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ [آل عمران: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين إرسال الرّسل وإنزال الكتب، وبين هداية من آمن وعقاب من كفر

"لَمَّا قَرَّرَ تَعالَى أَمْرَ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَمْرَ النُّبُوَّةِ، وبيَّن أنَّه أنزل التّوراة والإنجيل من قبل إنزال القرآن؛ أوضح هنا أنَّه أنزلهما هُدى للنَّاس، وفي هذا بيان لوظيفتيهما في دعوة أتباعهما إلى الإيمان بالقرآن، وما فيه من آيات، ثمّ حذَّر، وتوَعَّدَ مَنْ كَفَرَ بآيَاتِ اللَّهِ مِنْ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ وَغَيْرِهَا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا: كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْغَلَبَةِ، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ: كَالنَّارِ"[1]، لأنّهم من "الَّذِينَ كَفَروا، وَجَحَدُوا بآيَاتِ اللهِ النَّاطِقَةِ بتَوْحِيدِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لا يَلِيقُ بعِزَّةِ جَلالِهِ، فَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ بِسَائِرِ الْكُتُبِ تَبَعًا لِذَلِكَ، وَأَنْكَرُوها"[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾: "وهو مأخوذٌ من فَرَقَ، والفرق: يقال اعتبارًا بالانفصال، يقال: فرقت بين الشّيئين؛ فصلت بينهما، سواءٌ كان ذلك بفصلٍ يدركه البصر أم بفصلٍ تدركه البصيرة، والفرقان أبلغ من الفرق؛ لأنَّه يستعمل في الفرق بين الحقِّ والباطل، ومن ذلك قوله ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، أي: اليوم الذي يُفَرَّق فيه بين الحقِّ والباطل، والحُجَّة والشُّبهة ".[3] ومعنى ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾، أي: ما فُرِّقَ بِهِ بين الحَقِّ والباطِل، ورُوِي عَنْ بَعْض المفسِّرين: أنَّ كلَّ كتابٍ للَّهِ فُرْقَان"[4]، "من الفرق بين الحقِّ والباطل، فحروفها مختلفة،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/18.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 298.
(3) الرَّاغب، المفردات: (فرق).
(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/375.

والمعنى قريب بعضه من بعض؛ إذ كلُّها معناه، ظهور الحقِّ، وبيان الشَّرع، وفصله من غيره من الأباطيل"[1]، وللفُرقان في التَّنْزِيل مَوَاضِع، فَمِنْهُ قَوْله ﷻ: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، أَي الْقُرْآن، والفُرْقان: النَّصر، وَمِنْه قَوْله جلّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، أَي يَوْم النَّصر، يَعْنِي يَوْم بدر، والفُرْقان: البُرْهان، وَهَذَا مستقصى في كتاب لُغَات الْقُرْآن[2]، وقد قالوا: " وكلّ ما فُرِّقَ به بين الحقّ والباطل فهو فُرْقانٌ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: 48] "[3].

2) ﴿عَزِيزٌ﴾: من العِزَّة، وهي حالة مانعةٌ للإنسان من أن يُغلب، من قولهم: أرض عزاز، أي: صُلبة، والعزيز: الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة، الذي يَقهر، ولا يُقهر[4]، "﴿عَزِيزٌ﴾، معناه: غالبٌ، وقد ذلَّ له كلُّ شيء"[5]. "﴿وَٱللَّـهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُمنَع من التَّعذيب"[6]، والمشهور، أنّ العِزَّ: خلاف الذُّلّ، وعزّ الشيء يعزّ وعزّة وعزازة، إذا قلَّ لا يكاد يوجد، فهو عزيز، وفي المثل: (إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ)، والدّليل على هذا المعنى، ما روي أنّ"العُزّى سمرة، كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فهدم البيت، وأحرق السّمرة، وهو يقول: (يا عزّ كفرانك لا سبحانك. إنّي رأيت الله قد أهانك) "[7]، والإهانة عكس العزّة.

3) ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: "والنِّقمة والانتقام: معاقبة المذنب بمبالغة في ذلك"[8]، "الِانْتِقَامُ: افْتِعَالٌ مِنَ النِّقْمَةِ، وَهُوَ السَّطْوَةُ وَالِانْتِصَارُ"[9]، و"عبّر بعضهم عنها بالمعاقبة"[10]، قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136].

وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: من صفات الله تعالى، ومعناه: المبالغ في العقوبة لمن يشاء،

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/399.
(2) الأزديّ، جمهرة اللّغة: 2/785.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فرق).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (عزز).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/5.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.
(9) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/7.
(10) ابن عادل، اللّباب: 5/23.

المسلِّط بلاءه على العُصاة، ومن أسمائه المُنتقِم: ومعناه: المُبالغ في العقوبة لمن يشاء، المُسلِّط بلاءَه على العُصاة[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إنـــزال الـقـرآن تجديدا لهداية الكتب السّابقة، وإيعاد الكافرين بسوء العذاب

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية مخاطبًا نبيّه ﷺ، أنَّه " أنزل التّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليه السلام مِن قبل تنزيل القرآن عليك، وهذه الكتب الإلهيَّة كلُّها هداية وإرشاد للنّاس، إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأنزل الفرقان الّذي يعرف به الحقُّ من الباطل، والهدى من الضَّلال، ومعلوم أنّه قد أنزلت الرّسالات لعلاج ما يعرض في البيئات الّتي يرسل فيها الرّسول؛ بصورة محدودة في المكان والزّمان، أمّا رسالة القرآن، فعلاجٌ لما تعاني منه الإنسانيّة من أدواء، وتقرير ما يصلح لها، على اختلاف الأمصار، وتباعد الأقطار، حيث يحمل عناصر الكمال، الّتي تؤهّله للاستمرار إلى أن يقوم النّاس لربّ العالمين بيقين[2]؛ وأمّا الّذين كفروا بآيات اللّه الَّتي أنزلها على نبيّه، فلهم عذابٌ شديدٌ، واللّه عزيزٌ منتقم ممّن خالف دينه، وانتقامه ممَّن كذَّب رسله، وخالف أمره، "ليس تَشَفّيًا وشفاء غيظ، كما هو الشّأن من البشر، بل انتقام اللّه عقوبة عادلة، وقصاص رادع"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تعدُّدُ التَّقديرِ بالإيجازِ بالحذف في قولِه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

الظَّرفُ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، مضافٌ وحُذِفَ المضافُ إليه؛ "لفَهْم المعنى، تقديره: من قبلك، أو: من قبل الكتاب"[4]، أو: "مِنْ قَبْلِ هَذَا الزَّمَانِ، وَهُوَ زَمَانُ نُزُولِ الْقُرْآنِ"[5].

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2276، وما بعدها.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/1102، بتصرّف.
(3) أبو زهرة، المرجع السّابق نفسه: 2/1103.
(4) ابن عادل، اللباب: 5/20.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/149.

ويضاف في سرِّ مجيء ﴿مِن﴾ الابتدائيَّة في قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أنَّها أفادت معنى: ابتداء الزمن؛ بخلاف لو قال: (قبل)؛ فلا يلزم منه نقطة البدء، فقد ينصرف إلى ما قبل التوراة والإنجيل، لكن ﴿مِن﴾ حدَّدت البداية الزمنيَّة، وبذلك تدخل التوراة والإنجيل دخولًا أوليًّا.

توجيهُ التَّعبير بذكرِ البدهيِّ من الكلامِ:

المتعلِّق هو الهداية، وكونهما هادِيَيْنِ غير مقطوعٍ به لدى كثير من النَّاس

سُئِلَ ابنُ عرفة: ما الفائدة في قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، ولو أُسقط من الآيةِ؛ لم يختلَّ المعنى؛ لأنَّه معلوم أنَّ إنزالها قبل، وأنَّها هدًى للنَّاس من قبل؟ فأجاب:

"بأنَّكم جعلتم ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلِّقًا بـ ﴿وَأَنزَلَ﴾ أو بـ ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، وإنَّما يجعله متعلِّقًا بهدى، فتقول: تضمَّنت الآية أنَّ هداية التَّوراة والإنجيل كان للنَّاس من قبل، وذلك غير معلوم، إنَّما كان المعلوم أنَّ إنزالها قبل الثَّاني، اقتضت من أوَّل أزمنة القبليَّة؛ إشارة إلى أنَّ هذا أمر معهود فيما سبق، وأنَّه ليس بأوَّل ما نزل، بل تقدَّمت كتب قبله، واستدام حكمها إلى أزمنة القبليَّة"(1).

الإشارةُ إلى انقطاعِ هداية التوراة والإنجيل بعد القرآن

وهذا المعنى يُشير إليه قولُه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، ويؤكِّد ذلك ابن عاشور بقوله: "وَأَمَّا ذِكْرُ هَذَا الْقَيْدِ؛ فَلِكَيْ لَا يُتَوَهَّمَ أَنَّ هُدَى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مُسْتَمِرٌّ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا كَالْمُقَدِّمَاتِ لِنُزُولِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ تَمَامُ مُرَادِ اللهِ مِنَ الْبَشَرِ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، فَالْهُدَى الَّذِي سَبَقَهُ غَيْرُ تَامٍّ"(2).

سرُّ إفرادِ هدًى في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾:

أفردَتِ الآيةُ ذِكرَ الهدى في قولِه: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، وذلك لأمرٍ صناعيٍّ، من ورائه معنًى معنويٌّ، أمَّا الصِّناعيُّ؛ فالمصادرُ لا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/346.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/149.

تُثنَّى، ولا تُجمع، وجيء بالمصدر للمبالغة، وأمَّا المعنويُّ؛ فالهُدى أصله ومصدره واحدٌ، فلا يمكن أن يتعدَّد أو يتشعَّب؛ لأنَّه ليس له إلا طريق واحد صادرٌ عن الذَّات الإلهيَّة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ ولذلك ورد وصف الهدى للقرآن الكريم، وللكتب السَّماويَّة كالتَّوراة والإنجيل بلفظٍ واحد؛ للدلالة على توَحُّد المصدر في الهداية.

أُفــردَ الـهـدى لأمــرٍ صناعيٍّ، وآخـر معنويّ، فـهـدى الـكـتـبِ السَّماويةِ واحدٌ

سِرُّ التَّعبير بالنّاس دون بني إسرائيل:

آثر القرآن التَّعبير بالنَّاس، وإن كان المرادُ: "بني إسرائيل في هذا الموضع؛ لأنَّهم المدعوُّون بهما لا غير، وهذا لا يمنع أن تُعمَّم هدايتهما؛ لأنَّهما هدًى في ذاتهما، فكلُّ إنسان مدعوٌّ للإفادة من هدايتهما، وعلى ذلك؛ فلفظُ الناس عامٌّ في كلِّ من شاء أن يستبصر"[(1)]، وتكون الهداية لغيرهما من باب قاعدة: شرع من قبلنا شرعٌ لنا؛ ما لم يُنسخ.

التَّوراةُ والإنجيلُ فيهما نوعُ هدايةٍ لكلِّ النَّاسِ

سِرُّ وصفِ القُرآنِ بالحقِّ، والتوراةِ والإنجيلِ بالهُدى:

وُصفتِ التَّوراةُ والإنجيلُ بالهدى في هذه الآيةِ، ولم يُنصَّ فيها على وصفِ القرآنِ بأنَّه هدًى مع ذكرِ ذلك في سورة البقرة؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ المذكورَ "فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ، فَصَارَ مِنَ الْوَجْهِ هُدًى لَهُمْ لَا لِغَيْرِهِمْ، أَمَّا هَاهُنَا؛ فَالْمُنَاظَرَةُ كَانَتْ مَعَ النَّصَارَى، وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ، فَلَا جَرَمَ لَمْ يَقُلْ هَاهُنَا فِي الْقُرْآنِ: إِنَّهُ هدًى، بَلْ قَالَ: إِنَّهُ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ سَوَاءٌ قَبِلُوهُ أم لَمْ يَقْبَلُوهُ، وَأَمَّا التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ؛ فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي صِحَّتِهِمَا وَيَدَّعُونَ بِأَنَّا إِنَّمَا نَتَقَوَّلُ فِي دِينِنَا عَلَيْهِمَا، فَلَا جَرَمَ وَصَفَهُمَا اللَّه تَعَالَى لِأَجْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ بِأَنَّهُمَا هدًى، فَهَذَا مَا خَطَرَ بِالْبَالِ، وَاللَّه أَعْلَمُ"[(2)].

مناسبةُ المُناظرةِ مـع الـنَّـصـارى تـقـتـضي إيـثـارَ وصـفِ الـقـرآنِ بالحقِّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.

(2) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/133، وابن عادل، اللباب: 5/21.

تخصيص هداية القرآنِ بالمتقين وهداية التوراة والإنجيل بالنَّاس:

جاءَ ذكرُ النَّاس في هدايةِ التَّوراةِ والإنجيلِ، فقال: ﴿هُدَى لِّلنَّاسِ﴾، "وقال في القرآن: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]؛ لأنَّ هذا خبر مجرَّد، وقوله: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] خبر مقترن به الاستدعاء والصّرف إلى الإيمان، فحسنت الصِّفة؛ ليقع من السَّامع النشاط والبدار"[1]، وخصّصه القرطبيُّ فجعل الهداية هنا خاصَّة بالمتَّقين: "التَّقْدِيرُ هُدًى لِلنَّاسِ الْمُتَّقِينَ، دَلِيلُهُ فِي الْبَقَرَةِ "هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" فَرَدَّ هَذَا الْعَامَّ إِلَى ذَلِكَ الْخَاصِّ"[2].

وبناءً على هذا فالهداية على مراتب: فمنها هدايةُ الدلالةِ والإرشادِ، وهذا عامٌّ لكلِّ النَّاس، وهداية التوفيق والعناية، وهي للمتقين؛ لأنَّهم انتفعوا بما دلَّهم عليه القرآن.

دلالةُ لفظِ الفرقانِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾:

الفرقانُ وصفٌ صالحٌ أن تتَّصفَ به جنسُ الكتبِ السَّماويَّة

فإن قيل: ما المراد بالفرقان بعد ذكرِ التَّوراةِ والإنجيل؟ قلت: "جنس الكتب السَّماويَّة؛ لأنَّ كلَّها فرقان يفرِّق بين الحقِّ والباطل، أو الكتب التي ذكرها، كأنَّه قال بعد ذكر الكتب الثَّلاثة: وأنزل ما يفرِّق به بين الحقِّ والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزَّبور، كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝١٦٣﴾ [النساء: 163]، وهو ظاهر"[3].

فُرقانُ القرآن أشملُ من غيرِه لتراخِي نُزولِه

وصف القرآن بالفرقان؛ لفائدة خاصَّة به تعظيمًا لشأنه، حيث فرَّق بين الحقِّ والباطل في الأحكام والتشريعات في الكتب السابقة، ولا سيِّما التوراة والإنجيل، وأيضًا؛ لأنَّه فرَّق بين الحقِّ والباطل في أمر عيسى عليه السلام حين جادل وفد نصارى نجران، وزعموا أنَّه ابن

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/6.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/336، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/5، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/17، ابن عادل، اللباب: 5/22.

اللّٰه، فنزل القرآن؛ ليفرِّق بين الحقِّ والباطل فيما قالوه، وفي ذلك تفضيل للقرآن في فرقانه على الكتب السَّابقة.

ثراء اللفظ القرآنيّ في مفردة ﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾:

احتمالُ دخولِ المعجزاتِ في دلالةِ الفُرقانِ

تعدَّدت معاني الفرقان كما سبق ذكره بين الكتب السَّابقة والقرآن، ويجوز أن تُحمل على معنًى أعمَّ للكلِّ، ويكون المراد بها المعجزات التي تكون مصاحبة للكتاب، ويؤكِّد هذا ما ذكره الرَّازيُّ بقوله: "وَالْمُخْتَارُ عِنْدِي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَجْهٌ رَابِعٌ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا الْفُرْقَانِ الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي قَرَنَهَا اللّٰه تَعَالَى بِإِنْزَالِ هَذِهِ الْكُتُبِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا أَتَوْا بِهَذِهِ الْكُتُبِ، وَادَّعَوْا أَنَّهَا كُتُبٌ نَازِلَةٌ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى؛ افْتَقَرُوا فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الدَّعْوَى إِلَى دَلِيلٍ حَتَّى يَحْصُلَ الْفَرْقُ بَيْنَ دَعْوَاهُمْ وَبَيْنَ دَعْوَى الْكَذَّابِينَ، فَلَمَّا أَظْهَرَ اللّٰه تَعَالَى عَلَى وَفْقِ دَعْوَاهُمْ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ؛ حَصَلَتِ الْمُفَارَقَةُ بَيْنَ دَعْوَى الصَّادِقِ وَبَيْنَ دَعْوَى الْكَاذِبِ، فَالْمُعْجِزَةُ هِيَ الْفُرْقَانُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللّٰه تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، بَيَّنَ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ مَعَهَا مَا هُوَ الْفُرْقَانُ الْحَقُّ، وَهُوَ الْمُعْجِزُ الْقَاهِرُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهَا، وَيُفِيدُ الْفَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَهَذَا هُوَ مَا عِنْدِي فِي تَفْسِيرِ هذه الآية"[1].

و﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾: كلُّ أمر فرَّق بين الحقِّ والباطل، فيما قدم وحدث، فيدخل في هذا التّأويل طوفان نوح، وفرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال اللّٰه تعالى المفرِّقة بين الحقِّ والباطل، فكأنَّه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثمّ التَّوراة والإنجيل، ثمّ كلَّ أفعاله ومخلوقاته التي فرَّقت بين الحقِّ والباطل، كما فعلت هذه الكتب[2].

ومن ثراء اللفظ؛ دورانه بين اسم الفاعل واسم المفعول، فإن أُريد به اسم الفاعل؛ كان بمعنى: الفارق، وإن أريد به المفعول؛ كان بمعنى: المفروق، قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ [الإسراء: 106].

(1) الرازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/133 - 134.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾:

زجرُ الجاحدين، وتوبيخ المنكرين، بالتّلويح بالعذاب الشّديدِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾، وعيدٌ جيء به بعدما قرّر التّوحيد بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وبعدما مهّد إلى إثبات نبوّته ﷺ بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا﴾[1]، فهي اسْتِئْنَافٌ بَيَانيٌّ تعظيمًا لأمر النّبوّة والتّوحيد لِأَنَّ نَفْسَ السَّامِعِ تَتَطَلَّعُ إِلَى مَعْرِفَةِ عَاقِبَةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا هَذَا التَّنْزِيلَ"[2]، والغرضُ من هذا الاستئنافِ زَجْرُ الجاحدين، والمعرضين عن هذه الآيات الظّاهرة، والبيِّنات القاطعة.

سرُّ التَّعبير عن المرادِ بالاسْمِ المَوْصُولِ:

المقصودُ بالمَوْصولِ المُشركون، ويدخُلُ النَّصارى دُخولًا أوّليًّا

اختُلف في المرادِ بالموصول في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾؛ فقيل: "أراد بهم نصارى وفد نجران، كفروا بالقرآن وبمحمَّد ﷺ وقيل: إنَّ خصوص السَّبب لا يمنع عموم اللَّفظ، فهو يتناول كلَّ من كفر بشيء من آيات اللّه"[3]، وقد خصَّصَ بعضُ الْمُفَسِّرِينَ "ذَلِكَ بِالنَّصَارَى، فَقَصَرَ اللَّفْظَ الْعَامَّ عَلَى سَبَبِ نُزُولِهِ، وَالْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: خُصُوصُ السَّبَبِ لَا يَمْنَعُ عُمُومَ اللَّفْظِ، فَهُوَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دَلَائِلِ اللَّهِ تَعَالَى"[4]، وقد عبّر بالموصول؛ لإظهار فِعلهم الذي استحقُّوا بسببه العذاب الشّديد.

نكتةُ إضافةِ الآياتِ للفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

تعليلٌ للعذاب الشَّديد، وبيانٌ لهَوْلِ كُفْرِهم

يحتمل أن تكون الإضافة للعهد؛ إشارة إلى ما تقدَّم من آيات الكتب المُنَزَّلة، ويحتمل أن تكون للجنس، فتشمل جميع ما تقدَّم،

(1) شيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 3/6 - 7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/150.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 2/172.
(4) الرازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/134، وابن عادل، اللباب: 5/23.

وغيره كالمعجزات، وأضيفت الآيات إلى الاسم الجليل؛ "تعيينًا لحيثيَّة كفرِهم، وتهويلًا لأمرهم، وتأكيدًا لاستحقاقهم العذابَ الشَّديد، وإيذانًا بأنَّ ذلك الاستحقاقَ لا يشترط فيه الكفرُ بالكلِّ، بل يكفي فيه الكفرُ ببعضٍ منها"[1].

سرُّ التعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾:

عبَّر بالجملة الاسميَّة ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾؛ للدّلالة على دوام العذاب واستمراره، والتَّنكيرُ في الجملة يدلُّ على أنَّ العذاب لا يقدرُ قدرَه، ولا يعلم كُنهَه إلَّا اللّه، وفي هذا من التَّهويل ما فيه.

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ للتَّهكُّم:

قُدِّم الجارُّ والمجرور من باب التهكُّم بالكافرين، ولإفادة استحقاقهم العذاب.

نكتةُ وصفِ العذاب بالشَّديد دون غيره من أوصاف العذاب:

شــدَّة الـعـذاب تـشـمـل نـوعـه وزمانه وكيفيَّته

اختار النَّظمُ وصفَ العذابِ بالشَّديدِ دون الوصف بالعظيم أو الأليم أو المهين "باعتبار المُعَذَّب، فهناك من يناسبه وصف العذاب بالعظيم من باب الإهانة، وهناك من يناسبه كثرة العذاب كمًّا وكيفًا كما هنا؛ لأنَّهم كفروا بكلِّ آيات اللّه في الكتب السَّابقة والقرآن والمعجزات، فكان الوصف للعذاب هنا باعتبار الكميَّة والكيفيَّة والدَّوام الأبديِّ"[2].

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

بـيـانُ شــدَّةِ العذابِ بصفاتِ الله تعالى

عطفتِ الآيةُ جملةَ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ لأنَّ ذلك مناسب لوعيد الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، و"لِأَنَّهُ مِنْ تَكْمِلَةِ هَذَا الِاسْتِئْنَافِ؛ لِجَيئِهِ مَجِيءَ التَّبْيِينِ لِشِدَّةِ عَذَابِهِمْ؛ إِذْ هُوَ عَذَابُ عَزِيزٍ مُنْتَقِمٍ"[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/5.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/347.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/150.

سِرُّ ختْمِ الآية بقوله: ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

خُتمت الآية بقوله: ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ لأنَّ العذاب تسلُّطٌ لا بدَّ فيه من عِزَّة وغلبة، وحيث اقترنت هاتان الصِّفتان؛ فلا بدَّ أن يكون في سياق عقوبة على ذنب، كما ورد في حكم النَّهي عن قتل الصَّيد للمحرم، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]، وممَّا يذكر في هذا المقام أنَّ صفة "الۡعَزِيزِ إِشَارَةٌ إِلَى الۡقُدۡرَةِ التَّامَّةِ عَلَى الۡعِقَابِ، وَ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى كَوۡنِهِ فَاعِلًا لِلۡعِقَابِ، فَالۡأَوَّلُ: صِفَةُ الذَّاتِ، وَالثَّانِي: صِفَةُ الفعل، والله أعلم"[1].

إيثارُ الوصف بـ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ دون (منتقم) لأنَّه أبلغُ في الدّلالةِ:

انتقامُ الله سبحانه عن اختيارٍ في إقامةِ مصالح العبادِ

واختار هذا التركيب على منتقم مع اختصاره؛ لأنَّه أبلغ منه؛ إذ لا يقال: صاحب سيف إلَّا لمن يكثر القتل، لا لمن معه السَّيف مطلقًا[2].

سرُّ اختيار ﴿ذُو﴾ دون صاحب:

الوصف بـ ﴿ذُو﴾ أبلغ من الوصف بصاحب؛ ولذلك لم يجئ في صفات الله صاحب، قال ابن عاشور: "وَجِيءَ فِي هَذَا الۡوَصۡفِ بِكَلِمَةِ ﴿ذُو﴾ الدَّالَّةِ عَلَى الۡمُلۡكِ؛ لِلۡإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ انۡتِقَامٌ عَنِ اخۡتِيَارٍ لِإِقَامَةِ مَصَالِحِ الۡعِبَادِ، وَلَيۡسَ هُوَ تَعَالَى مُنۡدَفِعًا لِلِانۡتِقَامِ بِدَافِعِ الطَّبۡعِ أَوِ الحنق"[3]، "وهو وعيد جيء به بعد تقرير التَّوحيد، والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النُّبوَّة تعظيمًا للأمر، وزجرًا عن الإعراض عنه"[4].

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/134، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/18، ابن عادل، اللّباب: 5/23.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/76.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/151، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/18، ابن عادل، اللّباب: 5/23.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/5.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

[آل عمران: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين جزاء الكافرين بأشدّ العذاب، وبين مطلق علم الله الّذي لا تخفى عنه خافية

لَمَّا تحدَّثت الآية السَّابقة عن الجزاء المُعدِّ للّذين كفروا بآيات الله، ووصفته بالعذاب الشَّديد، وأنّه لا يمنع وقوعه أحد؛ لأنَّه صادرٌ عن عزيز يَقْهر، ولا يُقْهر، جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن تمام إحاطة علمه سبحانه بكلّ شيء، فهو يعلم القلوب، وما تخفيه، ويعلم بواعث كفر الكافرين ودواعيه؛ لأنَّ علم الله لا يحدُّه شيء، فلا يقف عند حدود الإنسان، بل وسع السّموات والأرض، وكيف يخفى عليه شيء وهو علّام الغيوب؟!وفي التّعبير بعدم الخفاء في قوله: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾، إشارة بليغة، إلى أنّ علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين، فهو الّذي أحاط بكلّ شيء علما[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَخۡفَىٰ﴾: من (خَفِيَ) أَصلٌ يدلُّ على السَّتْرِ[2]، خَفِيَ الشّيء خُفْيَةً: استتر[3]، والخفاء ما يُستر به الغطاء، ويقابل الإخفاء الإعلان والإبداء، قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾، وقولهم: (وهل يَخفَى القمر؟)، تُقالُ للتّدليل على وضوح الأمر، أو على شهرة الشّخص، وأخفى الصَّوتَ: كتمه، يقال: (أخفى المصلِّي قراءته)، وفي القرآن: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1][4]، والمراد هنا: أنّه مُطَّلع على كفر من كفر، وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه[5].

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/175.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(3) الراغب، المفردات: (خفي).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خفي).
(5) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/255.

2) ﴿شَيۡءٞ﴾: الشَّيء، هو الّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبر عنه، ويقع على الموجود والمعدوم، وإذا جاء لفظ (شيء) في سياق النّفي؛ أفاد العموم[1]، "والشّيء هو الّذي يصحّ أن يعلم ويخبر عنه، وعند كثير من المتكلّمين، هو اسم مشترك المعنى، إذ استعمل في اللّه وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم، وعند بعضهم؛ الشّيء: عبارة عن الموجود، وأصله مصدر شاء، وإذا وصف به تعالى فمعناه شاء، وإذا وصف به غيره، فمعناه المَشِيء، وعلى الثّاني قوله "﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]، والمشيئة من اللّه تقتضي وجود الشّيء، ولذلك قيل: (ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن) "[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في هذه الآية يستعرض السّياق قدرة اللّه، فيما أبدع من روعة، وما صوّر من مخلوقات بديعة، تبرزها آيات اللّه المبثوثة في ملكوت السّموات والأرض، وهي قدرةٌ محيطةٌ بكلّ شيء علمًا، وقد نظّمت القوانين الكونيّة الّتي تضمن، دقّة سير الكون وانسجامه مع الغايات الّتي خُلق من أجلها، وسُخّر لها[3]، و"هذه الآية تخبر عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، فَهُوَ الْعَالِمُ بِمَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ، فَكَيْفَ يَكُونُ عِيسَى إِلَهًا أَوِ ابْنَ إِلَه، وَهُوَ تَخْفَى عَلَيْهِ الأشياء"[4]، "فَنَبَّهَتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ عِيسَى عَالِمًا بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ "استئنافُ كلام سيق لبيان سعةِ علمِه تعالى وإحاطتِه بجميع ما في العالم من الأشياء التي من جملتها ما صدرَ

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(2) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (شيء).
(3) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن، ص: 397.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/7.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.

بيانُ سعةِ علمِه تعالى وإحاطته بكلِّ شَيْءٍ

عنهُم من الكفر والفسوقِ سرًّا وجهرًا"[1]، و"بَيَانٌ لِوَصْفِ الْحَيِّ؛ لِأَنَّ عُمُومَ الْعِلْمِ يُبَيِّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ"[2]، وجيءَ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ للردِّ على زعم النَّصارى في أُلُوهيَّة عيسى عليه السلام وبنوَّته، وذلك من خلال إثبات علمه الشامل الذي لا يَحُدُّه شيءٌ، أمَّا علم عيسى عليه السلام، فهو علم جزئيٌّ محدودٌ.

سِرُّ التَّعبيرِ بنفي الخفاءِ لا بإثباتِ العلم:

الـرَّدُّ الضمنيُّ عـلى كـلِّ مَـنْ يَزْعُمُ قدرتَه على علمِ كلِّ شَيْءٍ

عبَّر النَّظمُ عن العلم بنفي الخفاءِ لا بإثبات العلمِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فلم يقُل: إنَّ اللّه يعلمُ كلَّ شَيْءٍ؛ "إيذانًا بأنَّ علمَه تعالى بمعلوماته - وإن كانت في أقصى الغايات الخفيَّةِ - ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارِنه شائبةُ خفاءٍ بوجهٍ من الوجوه كما في علوم المخلوقين، بل هو في غاية الوضوحِ والجلاءِ"[3]، فهي "خبرٌ عن إحاطة علم اللّه بجميع الأشياء على التَّفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى، ولا لغيره، ففي ذلك ردٌّ على النَّصارى"[4]، وعلى كلِّ من يزعُمُ أنَّ مخلوقًا لا يخفى عليه شيءٌ، وفي ذلك ردٌّ على التَّهوّر الفكريِّ الذي ابْتُلي به النَّاس في هذا العصر، من الوَهْمِ بأنَّهم قادرون على علم كلِّ شَيْءٍ.

ثمَّ إنَّ هذا التعبير يدلُّ على أنَّه يعلم من كلِّ وجه يصحُّ أن يُعلم منه، بخلاف (يعلم)؛ فإنَّه من حيث اللفظ يصدق على علم الشَّيء من وجه دون وجه، كما في علم المخلوقين[5].

دلالةُ التَّنكيرِ في سِيَاقِ النَّفي:

عِلْمُ اللهِ محيطٌ بـالـجُـزْئـيّـاتِ كـإحـاطـتِـه بالكليَّات

النَّكرة إذا وقعت في سياق النفي؛ أفادت العموم، كما هو معلومٌ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(4) ابن جزي، التسهيل: 1/144.
(5) السيوطي، قطف الأزهار: 1/558.

و"﴿شَيۡءٞ﴾ نَكِرَةٌ في سِيَاقِ النَّفْيِ، فتعمُّ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ الْعِلْمِ بِالْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ"[1]، لأنَّها "مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَامَّةِ"[2]، والمعنى: لا يخفى عليه شَيْءٌ، مِمَّا يَقُولُونَهُ في أَمْرِ عيسَى عليه السلام، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: مُطَّلِعٌ عَلَى كُفْرِ مَنْ كفَرَ، وَإِيمَانِ مَنْ آمَنَ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْمَاتُرِيدِيُّ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ من الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عَنِ الْخَلْقِ، فَكَيْفَ تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ عِنْدَكُمْ؟ وَكُلُّ هَذِهِ تَخْصِيصَاتٌ، وَاللَّفْظُ عَامٌّ، فَيَنْدَرِجُ فِيهِ هَذَا كُلُّهُ[3].

سِرُّ إيثار الإطنابِ على الإيجازِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

القرآنُ نزلَ على معهودِ الأمّيّين في الخِطابِ

عبَّرَ النَّظمُ عن جميعِ العالمِ بالأرضِ والسَّماءِ؛ "لأنَّهما المنظوران للمخاطَبَيْن، ولأنَّ الحسَّ لا يتجاوزهما، ولأنَّهما أَعْظَمُ مَا نُشَاهِدُهُ"[4]، فإنَّ الذي يعرفُه المخاطَبُ وقت نزولِ القُرآنِ هو الأرضُ والسَّماء، فهما قُطراه[5]، فقد "قُصِدَ مِنْهُ عُمُومُ أَمْكِنَةِ الْأَشْيَاءِ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْأَرْضِ: الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ بِمَا فِيهَا مِنْ بِحَارٍ، وَالْمُرَادُ بالسَّماءِ: جنسُ السَّمَاوَاتِ، وَهِيَ الْعَوَالِمُ الْمُتَبَاعِدَةُ عَنِ الْأَرْضِ"[6].

وَجْهُ تخصيصِ الأرضِ والسَّماءِ بالذِّكر:

بيانُ عظمةِ علمِ الله بذكرِ أعظمِ ما تشاهدُه الأعينُ وتعرفُه العقول

إِنْ سألَ سائلٌ عن فَائِدَةِ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مَعَ أَنَّهُ لَوْ أَطْلَقَ ولم يقيِّد لشملَهما؟

فالجواب: "الْغَرَضُ بِذَلِكَ إِفْهَامُ الْعِبَادِ كَمَالَ عِلْمِهِ، وفهمهم هذا المعنى عند ذكر السَّماوات وَالْأَرْضِ أَقْوَى؛ لِأَنَّ الْحِسَّ يَرَى عَظَمَةَ السماوات وَالْأَرْضِ، فَيُعِينُ الْعَقْلَ عَلَى مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ عِلْمِ اللَّهِ جل جلاله،

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

وَالْحِسُّ مَتَى أَعَانَ الْعَقْلَ عَلَى الْمَطْلُوبِ؛ كَانَ الْفَهْمُ أَتَمَّ، وَالْإِدْرَاكُ أَكْمَلَ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ إِذَا أُرِيدَ إِيضَاحُهَا؛ ذُكِرَ لَهَا مِثَالٌ، فَإِنَّ الْمِثَالَ يُعِينُ عَلَى الْفَهْمِ"[1]، "وتخصيص الأرض والسَّماء؛ لكون ذكرهما أهول بالإضافة إلينا، وفيه دلالة على كلِّ شيء"[2]، و"لقصور عبادِه عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته"[3].

سِرُّ تقديمِ الأرض على السَّماء:

الإيـمـاءُ إلى الوعيدِ بسبب الآثامِ التي في الأرضِ فالتَّرقي إلى مصدره

إن سُئِلَ عن سرِّ تقديمِ الأرضِ على السَّماءِ، فالجوابُ أن ذلك من باب التَّرقِّي من "الأدنى إلى الأعلى؛ ولأنَّ المقصود بالذِّكر ما اقترف فيها"[4]، و"لِيَتَسَنَّى التَّدَرُّجُ في الْعَطْفِ إِلَى الْأَبْعَدِ في الْحُكْمِ؛ لِأَنَّ أَشْيَاءَ الْأَرْضِ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، أَمَّا أَشْيَاءُ السَّمَاءِ؛ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بَعْضَهَا فَضْلًا عَنْ علم جَميعها"[5]، ولأنَّها موضع نظر المخاطبين؛ لأنَّ أعمالهم فيها، ولأنَّها موضع الكسب والسَّعي والعمل، ثُمَّ إنَّ المقام مقامُ تخويفٍ وتحذيرٍ لمن كفر بآيات الله، والذين وقعوا في ذلك هم من يسكنون في الأرض التصاقًا، ويعيشون تحت السَّماء افتراشًا.

(1) الرازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/136 - 137.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/412.
(3) القنُوجي، فتح البيان: 2/173.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط إحاطة علم الله بكلّ شيء، بتصوير البشر في الأرحام وقيومية خالق الأنام

لَمَّا أخبر أَنَّهُ قَيُّومٌ وَقَائِمٌ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ، وَمَصَالِحُ الْخَلْقِ قِسْمَانِ: جِسْمَانِيَّةٌ وَرُوحَانِيَّةٌ؛ بيّن في هذه مَصَالِحَ الْخَلْقِ الْجِسْمَانِيَّةَ، وأَشْرَفُهَا تَعْدِيلُ الْبِنْيَةِ، وَتَسْوِيَةُ الْمِزَاجِ عَلَى أَحْسَنِ الصُّوَرِ وَأَكْمَلِ الْأَشْكَالِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾[1]، وبذلك تكون هذه الآية كالدّليل على القيُّوميَّة، لأنّه "وحده الّذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، لا معبود بحق سواه، العزيز الذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: "التّصويرُ: جعل الشّيء على صورةٍ، والصُّورة: هيئة يكون عليها الشّيء بالتّأليف، وأصلها من: صارَه، يَصُوره؛ إذا أماله، فهي صورَةٌ؛ لأنّها مائلة إلى بِنْيَةٍ بالشَّبَهِ لها"[3]، "الصُّورَةُ: ما ينتقشُ به الأعيان، ويتميّز بها من غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوسٌ يدركه الخاصَّة والعامَّة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كَصُورَةِ الإنسانِ والفرس، والحمار بالمعاينة، والثّاني: معقول يدركه الخاصّة دون العامّة، كالصُّورَةِ الَّتي اختصَّ الإنسان بها من العقل، والرَّويَّة، والمعاني الَّتي خصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/137.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 50.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/30.

الصُّورَتَيْنِ أشار بقوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾"[1]، وقولنا (صوّره)، "جعل لَهُ صُورَة مجسّمة، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾، وَالشَّيْء أَو الشَّخْص رسمه على الْوَرق، أَو الْحَائِط، وَنَحْوهمَا بالقلم أَو الفرجون، أَو بِآلَة التَّصْوِير، وَالْأَمر وَصفه وَصفا يكْشف عَن جزئيّاته"[2].

2) ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: مفردها الرَّحم، ويقصد به رحم المرأة، واستعير الرَّحم للقرابة؛ لكونهم خارجين من رحم واحد، يقال: رَحمٌ ورُحمٌ، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 81]، والرَّحمة: رقَّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وهي منطويةٌ على معنيين: الرَّحمة والإحسان[3]، والأرحام: "هي منبت الولد ووعاؤه في البطن، ورحمت المرأة رحامة، ورحمت رحمًا، إذا اشتكت رحمها بعد الولادة، ومن المجاز: رحمه اللّه، وهو الرّحمن الرّحيم: الواسع الرّحمة. وبينهما رحم ورُحم، قال الهذليّ:

وَلَمْ يَكُ فَظًّا قَاطِعًا لِقَرَابَةٍ *** وَلَكِنْ وَصُولًا لِلْقَرَابَةِ ذَا رُحْمِ[4]

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليّ:

بيان قـدرة الله عـلى تـصـويـر الـعـبـاد، وهـم أجنّة في الأرحام، في روعة وجمال وتمام

بيَّن في هذه الآية أنَّه سبحانه "هو وحده الّذي يصوِّركم في أرحام أمّهاتكم، كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقيٍّ وسعيد، لا معبود بحقٍّ سواه، العزيز الّذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره"[5]، لا إله إلّا هو، ولا ربّ غيره، موجدًا من عدم، ومعطيًا في كرم، وهو العزيز الّذي لا شريك له، المتفرّد بالخلق والتّصوير، وهو الحكيم في التّقدير، والكافي خلقه في التّدبير، فلا يحمد غيره، ولا يعبد سواه[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صور).
(2) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صور).
(3) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة: (رحم)
(5) نخبة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/50.
(6) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 300.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

الدَّليل على بشريَّة عيسى عليه السلام

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملةً استئنافيةً؛ "وذلك لبيان بشريَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّ اللّٰه أخبر عن تصويره للبشر في أرحام الأمَّهات، وهذا أمر لا ينكره عاقل، ولا ينكر أنَّ عيسى وسائر البشر لا يقدرون عليه، ولا ينكر أنَّ عيسى عليه السلام من المصوَّرين في الأرحام، فهذه الآية تعظيم للّٰه تعالى، وفي ضمنها الرَّدُّ على نصارى نجران"[1]، "وقد كان عيسى ممَّن صُوِّر في الأرحام، لا يدفعون ذلك، ولا ينكرونه، كما صُوِّر غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهًا؟"[2].

ومن أغراض الاستئناف؛ "بيانُ صفة القيُّوميَّة، وذلك أنَّه خُصَّ من بَين شؤون الْقَيُّوميَّة تَصْوِيرُ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ؛ وَلِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضًا بِالرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى في اعْتِقَادهم إلهيَّة عِيسَى مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللّٰه صَوَّرَهُ بِكَيْفِيَّةٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْكَيْفِيَّاتِ الْعَارِضَةَ لِلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مِنْ صُنْعِ اللّٰهِ وَتَصْوِيرِهِ: سَوَاءٌ الْمُعْتَادُ، وَغَيْرُ الْمُعْتَادِ"[3].

دلالة الحَصْرِ بالإسنادِ إلى الضَّميرِ، وبالتَّعريفِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾:

دلالة الإسناد بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ تفيد الحصر والقصر على اللّٰه تعالى، فلا يدَّعي أحد أنَّ له دخلًا فيها، وأكَّد ذلك بتعريف الجزأين، "حيث دلَّ عَلَى قَصْرِ صِفَةِ التَّصْوِيرِ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّهُ كَذَلِكَ في الْوَاقِعِ؛ إِذْ هُوَ مُكَوِّنُ أَسْبَابِ ذَلِكَ التَّصْوِيرِ وَهَذَا إِيمَاءٌ إِلَى كشف شبهة النَّصَارَى؛ إِذْ تَوَهَّمُوا أَنَّ تَخَلُّقَ عِيسَى بِدُونِ مَاءِ أَبٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ بَشَرٍ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ وَجَهِلُوا أَنَّ التَّصْوِيرَ في الْأَرْحَامِ؛ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ كَيْفِيَّاتُهُ؛ لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ خَلْقًا لِمَا كَانَ مَعْدُومًا، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ الْمُصَوَّرُ فِي الرَّحِمِ إِلَهًا"[4].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/7.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/174.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/152.

نكتةُ التَّعبيرِ بالتصويرِ والمراد شَيْءٌ آخر:

تصويرُ المخلوقين في الأرحام من أدلَّة التوحيد

ذُكِرَ التَّصويرُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾، والمرادُ مجادلةُ وفدِ نصارى نجران في شَأْنِ عيسى عليه السلام، وما زعموه من ألوهيَّته، فكأنَّ القرآن يقول لهم: لَمَّا كان عيسى مصوَّرًا في الرَّحم؛ فهو مخلوق لا خالق؛ إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ صُوِّرَ فِي الرَّحِمِ"[1]، وفي هذا رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِيسَى إِلَهٌ.

إيثارُ صيغةِ المبالغةِ والمضارعِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ "بِنَاءٌ لِلْمُبَالَغَةِ مِنْ: صَارَ يُصَوِّرُ؛ إِذَا أَمَالَ، وَثَنَى إِلَى حَالٍ، وَلَمَّا كَانَ التَّصْوِيرُ إِمَالَةً إِلَى حَالٍ، وَإِثْبَاتًا فِيهَا؛ جَاءَ بِنَاؤُهُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ"[2]، ولمَّا كان الخلق والتَّصوير في الأرحام حدثًا مستمرًّا لا ينقطع؛ فكان المضارع الدالُّ على الاستمرار والتَّجدُّد هو المناسب.

الفرق في التَّعبيرِ بين ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ و﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾:

اختلافُ زمنِ الفعلِ بالنسبةِ للمخلوقِ لا بالنّسبة للخالقِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سببِ التَّعبير بالماضي في بعض المواضع: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، وعبَّر هنا بالمضارعِ الدَّالِّ على الاستقبال؟

والجواب: "أَنَّهُ لَا اعْتِبَارَ بِالْأَزْمِنَةِ فِي أَفْعَالِه، وَإِنَّمَا اسْتُعْمِلَتِ الْأَلْفَاظُ فِيهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْأَزْمِنَةِ بِحَسَبِ اللُّغَاتِ، وَأَيْضًا: فَصَوَّرَكُمْ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى نِسْبَةِ التَّقْدِيرِ، وَإِنَّ فِعْلَهُ تَعَالَى في حكم ما قد فرغ مِنْهُ، وَقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ عَلَى حَسَبِ مَا يَظْهَرُ لَنَا حَالًا فحالًا"[3].

سِرُّ التَّعبير عن تعلُّق التَّصوير بالمشيئة الإلهيَّة: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

مشيئةُ الله تعالى لا تخضعُ لأسبابٍ بل لإرادته التي لا يُحيطُ بكُنهها البشرُ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ "إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ فَقَطْ"[4]، ومعنى تصويرِ الخلقِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/7، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.

(3) الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/411.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/20.

﴿كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾، أي: "يصوِّركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قَبول الأحوالِ المتغايرة من كونكم نُطفًا ثم عَلَقًا ثم مُضَغًا غيرَ مخلَّقة ثمَّ مُخلَّقة، وفي الاتِّصاف بالصِّفات المختلفةِ من الذُّكورة والأنوثة والحُسن والقُبح وغيرِ ذلكَ منَ الصِّفاتِ، وفيه من الدّلالة على بطلان زَعْم من زَعَم ربوبيَّةَ عيسى عليه السلام وهو من جملة أبناءِ النَّواسيتِ المتقلِّبين في هذه الأطوار على مشيئة الباري عز وجل وكمال ركاكة عقولهم مالا يخفى"[(1)].

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾:

دلالة كيف على الكيفيَّةِ المجرَّدةِ لحظًا لأصلِها اللُّغويِّ

خرجتْ ﴿كَيۡفَ﴾ عن غرضِها في الاستفهام عن الكيفيَّةِ والحالِ، فهي "دَالَّة على مجرَّد مَعْنَى الْكَيْفِيَّة، أَي: الْحَالَة، فَهِيَ هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي أَصْلِهَا الْمَوْضُوعَة لَهُ فِي اللُّغَة؛ إِذْ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ ﴿كَيۡفَ﴾ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُرُوفِ مَادَّةِ الْكَيْفِيَّة، وَالتَّكَيُّف، وَهُوَ الْحَالَةُ وَالْهَيْئَةُ"[(2)].

حذفُ المفعولِ لظهورِ معناه إيجازًا واختزالًا:

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾؛ "لِفَهْمِ الْمَعْنَى، التَّقْدِيرُ: كَيْفَ يَشَاءُ أَنْ يُصَوِّرَكُمْ"[(3)].

بلاغةُ التّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

تقريرُ التَّوحيدِ والقيُّوميَّةِ والحياة، للرَّدِّ على الزَّعمِ الباطلِ، والقولِ الآثمِ

ختمت الآية بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ هذه الفاصلة تدلُّ على طلاقة القدرة في التَّصوير، فالصُّورة الَّتي صوَّرها اللّٰه للخلق في أرحام الأمَّهات لا يأتي من يعارض، ويقول: عندي صورة أخرى؛ لأنَّ الذي صوَّر عزيز لا يغلب، وحكيم في فعله؛ لأنَّ التَّصوير في الأرحام أمر لطيف ودقيق، وهذا يحتاج إلى عزَّة وحكمة.

وجاء التَّذييلُ بقولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151 - 152.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/20.

"لِتَقْرِيرِ الْأَحْكَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ"[1]، و"كرَّر قولَه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّه لمَّا ذكر ما تقدَّم دليلًا على كون عيسى مخلوقًا، وكونه تعالى خالقًا؛ نبَّه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنْ لا معبود سواه، وأنَّه العزيز في نقمته، الحكيم في أمره، لا حاجة به إلى ولد، ولا حكمة تقتضي ذلك"[2]، "وَنَاسَبَ مَجِيئَهَا بَعْدَ الْوَصْفَيْنِ السَّابِقَيْنِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ؛ إِذْ مَنْ هَذَانِ الْوَصْفَانِ لَهُ؛ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِالْإِلَهِيَّةِ لَا غَيْرُهُ"[3].

التَّعقيب على التَّصوير بالعزَّة والحكمة إشارةٌ إلى كمالِ القدرة

ذكرتِ الآيةُ وَصْفَي العزَّةِ والحكمةِ بعد ذكرِ تصوير الخلقِ "إشارةً إلى كمال القدرةِ"[4]، في وصف العزيز، وأمَّا الْحَكِيمُ: فهو "أخصُّ بما ذكر من التَّصوير"[5]، و"أَتَى بِوَصْفِ الْعِزَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ النَّظِيرِ، وَالْحِكْمَةِ الْمُوجِبَةِ لِتَصْوِيرِ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْإِتْقَانِ التَّامِّ"[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/153.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/412.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.
(4) ابن عادل، اللباب: 5/27.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط تفرّد الله بخلق الأجنّة، بالمحكم والمتشابه في الآيات المتلوّة

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنَّه ذكر في الآية السَّابقة أنَّه قيُّوم، والقيُّوم هو القائم بمصالح الخلق، وهي قسمان: جسمانيَّة وروحانيَّة؛ فالجسمانيَّة: أشرفها تَعْدِيلُ الْبِنْيَةِ وَتَصْوِيرِهَا عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَشْكَالِ الْحَسَنَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ جِسْمَانِيٌّ، وفي هذه الآية تكلَّم عن المصالح الرّوحانيَّة، وأشرفها العلم، وهو المراد في هذه الآية، وربط خلقه في الأرحام لعباده، بما أنزل لهم من كتابه، وما حواه من محكم ومتشابه، وهم يستفيدون من المحكم في الرّسوخ بالأثر، وينأون عن المتشابه لما ينتج عنه من ضرر، وما يعتوره من غرر.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَايَـٰتٌ﴾: جمعٌ، مفرده: آيةٌ، وهي العلامة الظَّاهرة، وحقيقته لكلِّ شيء ظاهر، واشتُقَّت الآية إمَّا من: أي، فإنَّها هي الّتي تبيِّن أيًّا من أي، والصّحيح: أنَّها مشتقَّة من التَّأيِّي الّذي هو التّثبُّت والإقامة على الشَّيء، ويقال للبناء العالي: آية، نحو قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾ [الشعراء: 128]، وتقال لكلِّ جملة من القرآن، دالَّة على حكم آية، سورةً كانت أو فصولًا أو فصلًا من سورة[1]، وجمع

(1) الراغب، المفردات: (آي).

آية: آي وآيات. والآية في القرآن الكريم كأنّها علامة شيء، ثمّ يخرج منها إلى غيرها، هكذا يقول أبو عبيدة.، ويقال: تأيّا بالمكان يتأيّا تأييا، إذا أقام به، وتأيّا في هذا الأمر تئيّة أي نظر[1].

2) ﴿مُّحۡكَمَٰتٌ﴾: قيل: "مَعْنَاهُ يُشبه بعضُها بَعْضًا، وَقد اخْتلف المفسِّرون في تَفْسِير قَوْله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾؛ فرُوي عَن ابْن عبّاس أَنّه قَالَ: المتشابهات الحروف المقطّعة، وَمَا اشْتبهَ على اليَهود من هَذِه ونحوها، وأنكر الأزهريّ صحّة ذلك، وذكر أنّ الفرّاء ذهب إِلَى مَا رُوِي عَن ابْن عبّاس، بينما رُوِي عَن الضّحّاك أَنّ المُحْكَمات: مَا لم يُنسَخ، والمتشابهات: مَا قد نُسخ، وَقَالَ غَيره: المُتشابهات هِيَ الْآيَات الَّتِي نَزلتْ فِي ذِكر الْقِيَامَة والبَعْث[2]، وعلى هذا؛ فالمراد بالمحكم ما يبيّن، واتّفق تفسيره، فيقطع على مراد بعينه"[3]، "أحكمت عبارتها؛ بأنْ حفظت من الاحتمال"[4]، و"المحكمات: المفصّلات المبيَّنات الثّابتات الأحكام"[5].

3) ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: "تقال لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء، أو تربيته أو إصلاحه، أو مبدئه، قال الخليل: كلُّ شيء ضُمَّ إليه سائر ما يليه يسمَّى أُمًّا، وقيل لفاتحة الكتاب: أمٌّ؛ لكونها مبدأ الكتاب[6]، وأُم الكتاب: " كُل آيَة محكمَة من آيَات الشَّرَائِع وَالْأَحْكَام والفرائض، وَجَاء فِي الحَدِيث: «إِنّ أُم الْكتاب هِيَ فَاتِحَة الْكتاب»، لِأَنَّهَا هِيَ المتقدّمة أَمَام كلّ سُورَة فِي جَمِيع الصَّلَوَات، وابتدى بهَا فِي المُصحف فقدّمت، وَهِي الْقُرْآن الْعَظِيم"[7]، قَالَ سِيبَوَيْه: (إِنْ) أمُّ الْجَزَاء و(الأَلِفُ) أَمُّ الِاسْتِفْهَام و(إِلّا) أمُّ الِاسْتِثْنَاء و(الْوَاو) أمُّ حُرُوف الْعَطف، يُرِيد أَنَّهَا أُصُول هَذِه الْأَبْوَاب[8].

4) ﴿وَأُخَرُ﴾: جمع: أُخْرى، مؤنَّث آخر، ولا تُستعمل آخر إلّا من جنس المذكور، تقول: جاءني زيد ورجل آخر، ولا تقول: جاءني زيد وفرسٌ آخر، وقيل: أخر معدولة عن آخر،

(1) الرّاغب، المفردات: (آي).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (آي).
(3) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/179.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 1/337، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/6، النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/237.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/400.
(6) الراغب، المفردات: (أمّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللّغة: (آي).
(8) الأزهري، تهذيب اللّغة: (آي).

"وَقد استعملوا أُخَرَ بغَيْر ألفٍ وَلَام فَقَالُوا رجل آخَرُ، وَرِجَال أُخَرُ، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ وَكَذَلِكَ أُخْرَى، وَكَانَ قِيَاس ذَلِك أَن يكون كَمَا تقدّم، قَالَ سِيبَوَيْهِ: سَأَلت الْخَلِيل عَن أُخَرَ فَقلت مَا بالُه لَا يَنْصرِف فِي معرفةٍ وَلَا نكرةٍ، قَالَ لِأَنّ أُخَرَ خَالَفت أخواتِها، وَأَصلهَا، وَإِنَّمَا هِيَ بمنْزِلة الطُّوَل والوُسَط والكُبَر، لَا يكُنَّ صفةً إِلَّا وفيهنَّ ألف ولامٌ، فتُوصَف بهنَّ المعرفةُ، أَلا ترى أَنَّك لَا تَقول نِسوةٌ صُغَرٌ، وَلَا هَؤُلَاءِ نِسْوةٌ وُسَطٌ، وَلَا هَؤُلَاءِ قومٌ أصاغِرُ، فَلَمَّا خَالَفت الأصلَ، وَجَاءَت صفة بِغَيْر ألفٍ ولامٍ، تركُوا صرْفها، كَمَا تركُوا صَرْف لُكَعَ، حِين أَرَادوا يَا أَلْكَعُ، وفُسَقَ حِين أَرَادوا يَا فَاسِقُ"[1].

5) ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: الشَّبه والشَّبيه: حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفيَّة، كاللَّون والطَّعم، وكالعدالة والظُّلم، والشُّبهة: هي ألَّا يتميَّز أحد الشَّيئين من الآخر لما بَيْنَهُمَا من التَّشابه عينًا كان أو معنًى، والمتشابه من القرآن: ما أُشكل تفسيره لمشابهته لغيره: إمَّا من حيث اللَّفظ، أو من حيث المعنى[2]، "والمتشابه بخلاف المحكم، مثل: وقت السَّاعة وأشراطها، ومعرفة الصّغائر بأعيانها"[3]، "والمتشابهات: هي الَّتي فيها نظر، وتحتاج إلى تأويل، ويظهر فيها ببادئ النَّظر: إمَّا تعارض مع أخرى، أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التَّشابه، فهذا الشّبه الّذي من أجله توصف بـ ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، إنّما هو بيَّنها وبيَّن المعاني الفاسدة الّتي يظنُّها أهل الزّيغ ومن لم يمعن النَّظر"[4]، و"محتملات لا يتَّضح مقصودها؛ لإجمالٍ، أو مخالفة ظاهر"[5]، و"لا تفهم معانيها، يعني: أنَّ لفظه يشبه لفظ غيره، ومعناه يخالف معناه"[6]، قال الكرمانيّ: "ما في الآية لا يمتنع كونها معدولة عن الألف واللّام، مع كونها وصفا لنكرة، لأنّ ذلك مقدّر من وجه وغير مقدّر من وجه"[7].

6) ﴿زَيْغٌ﴾: من زَيَغَ، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَيْلِ الشَّيْءِ[8]، "الزَّيغ: الجور والميل عن

---

(1) ابن سيده، تهذيب اللّغة: 5/55.
(2) الراغب، المفردات: (شبه).
(3) النيسابوري، إيجاز البيان: 1/180.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6، والزمخشري، الكشاف: 1/337 - 338.
(6) القنّوجي، فتح البيان: 2/175.
(7) الكفويّ، فتح البيان: 2/175.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيغ).

القصد، ويقال: زاغ يزيغ؛ إذا جار"[1]، "يعمُّ كلَّ طائفة من كافر وزنديق وجاهل صاحب بدعة"[2]، "عدول عن الحقِّ كالمبتدعة"[3]، وعَن أبي زيدٍ: تَزَيَّغَتِ المرأةُ تَزَيُّغًا، وتزيّقت تزيّقًا: إذا تَزَينتْ، وَقَالَ غيره: زَاغَتِ الشَّمْس تَزيغ زيُوغًا، فَهِيَ زَائغةٌ: إِذا مَالَتْ وزالت، وَقَالَ اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّفّ: 5][4]، في حديث الدّعاء «لا تزغ قلبي»، أي لا تمله عن الإيمان. يقال زاغ عن الطّريق يزيغ إذا عدل عنه، ومنه حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أخاف إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»، أي أجور وأعدل عن الحقّ[5].

7) ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: "ومعنى ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، أي: يفعلون ذلك لطلب الفتنة، ولطلب التّأويل، والفتنة في اللُّغَةِ على ضروبٍ: فالضّرْب الّذي ابتغاه هؤلاءِ هو فَسَادُ ذَاتِ الْبَين في الدِّينِ والحرُوب"[6]، "والْفِتْنَة الاختبار بالنَّار والابتلاء، وفي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]، والإعجاب بالشَّيْء والاستهتار بِهِ، والتّدلّه بالشَّيْء وَالِاضْطِرَاب وبلبلة الأفكار، وَفي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، وَالْعَذَاب، وَفي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤﴾ [الذّاريات: 14]، والضّلال، وَفي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المائدة: 41]، وفتنة الصَّدْر الوسواس[7].

8) ﴿تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾: "التّأويل من الأوّل، أي: الرُّجوع إلى الأصل، ومنه: المَوْئِلُ للموضع الّذي يرجع إليه، وذلك هو ردُّ الشّيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا: ففي العلم، نحو: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، والفعل، نحو قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: 53]، أي: بيانه الّذي غايته المقصودة منه"[8]، و"التّأويل: هو مردُّ الكلام ومرجعه، والشّيء الّذي يقف عليه من المعاني، وهو من آل يؤول؛ إذا رجع"[9].

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/377.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/402.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زيغ).
(5) ابن الأثير، النّهاية: 2/324.
(6) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/377 - 378.
(7) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 2/673.
(8) الراغب، المفردات: (آل).
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/402.

"وَالتَّأْوِيلُ يَكُونُ بِمَعْنَى: التَّفْسِيرِ، كَقَوْلِكَ: تَأْوِيلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى كَذَا، وَيَكُونُ بِمَعْنَى: ما يؤول الْأَمْرُ إِلَيْهِ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ آلَ الْأَمْرُ إِلَى كذا يؤول إِلَيْهِ، أَيْ: صَارَ، وَأَوَّلْتُهُ تَأْوِيلًا، أَيْ: صَيَّرْتُهُ"[1].

9) ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: من رَسَخَ، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ، وَيُقَالُ رَسَخَ: ثَبَتَ، وَكُلُّ رَاسِخٍ ثَابِتٌ[2]، "الرُّسوخ الثُّبوت في الشّيء، وأصله في الأجرام: أن يرسخ الجبل أو الشَّجر في الأرض"[3]، "ومعنى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، أي: الثَّابتون، يقال: رسخ الشَّيءُ يَرْسَخُ رُسوخًا؛ إذا ثبت"[4]، فهم " الَّذِينَ تَمَكَّنُوا في عِلْمِ الْكِتَابِ، وَمَعْرِفَةِ مَحَامِلِهِ، وَقَامَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ مَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى، بِحَيْثُ لَا تَرُوجُ عَلَيْهِمُ الشُّبَهُ"[5]، "وقال اللّيث: رجل راسخ في العلم: قد دخل فيه مدخلا ثابتا، والرّاسخون في كتاب اللّه جلّ وعزّ: هم الدّارسون، قال: ورسخ الشّيء رسوخا، إذا ثبت في موضعه، وأرسخته إرساخا، كالحبر يرسخ في الصّحيفة، والعلم يرسخ في قلب الإنسان"[6].

10) ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: من لبَّ، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى لُزُومٍ وَثَبَاتٍ، وَعَلَى خُلُوصٍ وَجَوْدَةٍ، اللُّبُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خَالِصُهُ، وَمَا يُنْتَقَى مِنْهُ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْعَقْلُ: لُبًّا، وَرَجُلٌ لَبِيبٌ، أَيْ: عَاقِلٌ، وَخَالِصُ كُلِّ شَيْءٍ لُبَابُهُ[7]، الألباب جمع: لبٍّ، وهو العقل الخالص من الشّوائب، ولبُّ كل شيءٍ خالصه، سمّي بذلك؛ لكونه خالص ما في الإنسان من قوّةٍ، كاللُّباب من الشّيء، وهو ما زكا من العقل، فهو أخصُّ منه، وكلُّ لبٍّ عقل، وليس كلُّ عقلٍ لبًّا؛ ولهذا علَّق اللّه تعالى الأحكام الّتي لا تدركها إلّا العقول الزّكيّة بأولي الألباب، فخاطبهم بها دون من عداهم؛ ولذلك أورد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بعد قوله: ﴿فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: 269][8]، و"لبُّ: وهو العقل، وأُولوا: جمع ذو"[9].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/15.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسخ).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/404.
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/378.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/164.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رسخ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (لبَّ).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (لبب).
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/404.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المُنْزَلُ من القرآن مُحكمٌ يأخذُ به الرّاسخُون، ومُتشابةٌ يتّبعهُ الزّائغون

"هو الَّذي أنزل عليك أيُّها النّبيُّ ﷺ القرآن، منه آيات واضحة الدِّلالة، لا لبس فيها، هي أصل الكتاب ومعظمه، وهي المرجع عند الاختلاف، ومنه آيات أُخر محتملة لأكثر من معنى، يلتبس معناها على أكثر النَّاس، فأمَّا الّذين في قلوبهم ميل عن الحقِّ؛ فيتركون المُحْكم، ويأخذون بالمتشابه المُحْتمل؛ يبتغون بذلك إثارة الشُّبهة، وإضلال النّاس، ويبتغون بذلك تأويلها بأهوائهم، على ما يوافق مذاهبهم الفاسدة، ولا يعلم حقيقة معاني هذه الآيات، وعاقبتها الّتي تؤول إليها إلّا اللّه، والرَّاسخون في العلم المتمكّنون منه، يقولون: آمنَّا بالقرآن كُلِّه؛ لأنَّه كُلُّه من عند ربِّنا، ويفسِّرون المتشابه بما أُحْكِم منه، وما يتذكَّر، ويتَّعظ إلّا أصحاب العقول السَّليمة"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

لماذا لم تُعطف هذه الجملة على ما سبق؟

الكتب السَّماويّة مصدرها واحد:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ غير معطوفة على ما سبق؛ للدَّلالة على: تحقيق إنزال اللّه للقرآن عليه والتَّوراة والإنجيل قبله، وعلى تأكيد مضمون قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وعلى التمهيد لقوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾؛ "لِأَنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي مُجَادَلَةِ وَفْدِ نَجْرَانَ، وَصُدِّرَتْ بِإِبْطَالِ عقيدتهم فِي إلهيَّة الْمَسِيحِ؛ فالإشارة إِلَى أَوْصَافِ الْإِلَهِ الْحَقَّةِ.

وتَوَجَّهَ الْكَلَامُ هُنَا إِلَى إِزَالَةِ شُبْهَتِهِمْ فِي شَأْنِ زَعْمِهِمُ اعْتِرَافَ نُصُوصِ الْقُرْآنِ بِإِلَهِيَّةِ الْمَسِيحِ؛ إِذْ وُصِفَ فِيهَا بِأَنَّهُ رُوحُ اللّه، وأنَّه يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَنُودِيَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ مَا تَعَلَّقُوا بِهِ تَعَلُّقَ اشْتِبَاهٍ وَسُوءِ تأويل"[2].

---

(1) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/153.

ربــطُ الآيـــاتِ بعضِها ببعضٍ يـقـوّي الـتّـدبُّر، ويُـعــينُ على التّفكُّر

إيثارُ استعمالِ الاسمِ الموصول في: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

آثرتِ الآيةُ الإتيانَ بالاسم الموصول في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للرَّبطِ بما ذُكرَ في أوّل السُّورة، فلمَّا "ذَكَرَ تَعَالَى أَوَّلَ السُّورَة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ ذَكَرَ هُنَا كَيْفِيَّةَ الْكِتَاب، وَأَتَى بِالْمَوْصُولِ؛ إِذْ فِي صِلَتِهِ حَوَالَةٌ[1] عَلَى التَّنْزِيلِ السَّابِق، وَعَهْدٌ فِيه"[2].

القرآنُ نازلٌ من عند الله تعالى، لا مـفـترًى من عندِ غيره

بلاغةُ القَصْرِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جملةً اسميَّةً مفيدةً الحصرَ، فهي "قَصْرُ صِفَةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِتَكُونَ الْجُمْلَةُ - مَعَ كَوْنِهَا تَأْكِيدًا وَتَمْهِيدًا - إِبْطَالًا أَيْضًا لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: 103]، وَقَوْلِهِمْ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 5] "[3]، أي: هو المنزلُ فحسب، فليس لأحدٍ شأنٌ في القرآنِ الذي تزعمون أنَّه من عند غيرِ اللّه تعالى، فهو منزلٌ لا مفترًى، ومن عند اللّه لا من عند غيرِه.

دلالة الألف واللّام في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

معنى الألفِ واللّام الكمالُ، أي: القرآنُ هو الكتابُ الذي كَمُلَ فاستحقَّ بهذا الاعتبارِ أنْ يُوصَفَ بأنَّه الكتاب، وفي ذلك إشارةٌ إلى هيمنةِ القرآن على الكتب السَّابقة، إذ هو الكتابُ الباقي مكتوبًا مدوَّنًا إلى يوم القيامة، بخلافِ إرادةِ اللّه في الكتبِ السَّابقةِ.

مِنَّةُ الله بإنزال الكتاب مستمرَّةٌ على أمَّةِ القرآن

علّة التّقديم والتأخير في: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

لمَّا كانَ القرآنُ هو الكتاب الكامل؛ شُرِّف النَّبيُّ باختصاصه به فقُدِّمَ "الظَّرفُ، وهو ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لما يفيده من الاختصاص"[4].

(1) أي: شهادة.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/25.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/153.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 2/175.

وللامتنانِ على النَّبيِّ ﷺ بأن أُنزِلَ عليه دون سِواه، وهو امتنانٌ على هذه الأمَّةِ تَبَعًا إلى يوم القيامة.

الإنزالُ قريبٌ من معنى الوحي

اختيرَ فِعل ﴿أَنزَلَ﴾ لحملِه معنى: قَصْر إنزالِ القُرآنِ على اللّه تعالى، فهو المنزلُ دون سِواه؛ لأنَّ الإنزال يُرادف الوحي، ولا يكون إلَّا من اللّه تعالى، بخلاف آتاك الكتاب؛ فلا تؤدِّي معنى القصر[1]، وإنَّما يُحدِّدُ معنى القَصْرِ السِّياقُ.

توجيهُ الاسْتِعَارةِ في تسمية المُحكَمِ والمُتَشَابِهِ:

الإحكام واضحٌ مانعٌ من الاحتمالِ بخلافِ التَّشابه

سُمِّيَ واضحُ الدّلالةِ بالمحكم في قولِه تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ "على سَبيلِ الاسْتِعَارَة؛ لِأَنَّ في وُضُوحِ الدَّلَالَةِ مَنْعًا لِتَطَرُّقِ الاحْتِمَالَاتِ الْمُوجِبَةِ لِلتَّرَدُّدِ في الْمُرَاد"، وسمَّى خفيَّ الدّلالة بالمُتشابه في قولِه تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ "عَلَى طَرِيقَةِ الاسْتِعَارَة؛ لِأَنَّ تَطَرُّقَ الاحْتِمَالِ في مَعَانِي الْكَلَام يُفْضِي إِلَى عَدَمِ تَعَيُّنِ أَحَدِ الاحْتِمَالَاتِ، وَذَلِكَ مِثْلُ تَشَابُهِ الذَّوَاتِ في عَدَمِ تَمْيِيزِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ"[2].

المُتَشَابِهُ وَصْفٌ يُطلَقُ على المعاني الغامضةِ، وإن لم تكنْ بسببِ الشَّبَهِ

قولُه تعالى: ﴿ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ هو صفة لـ﴿وَأُخَرُ﴾، وعلى التَّحقيق فهو صِفةٌ للمحذوفِ، "أي: محتمِلاتٌ لمعانٍ متشابهة لا يمتاز بعضُها من بعض في استحقاق الإرادة بها، ولا يتَّضح الأمرُ إلا بالنّظر الدّقيق والتَّأمُّلِ الأنيق. فالتَّشابه في الحقيقة وصفٌ لتلك المعاني، وُصفت به الآياتُ على طريقة وصف الدَّالِّ بوصف المدلول، وقيل: لمَّا كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجِزَ العقل عن التَّمييز بينها؛ سُمِّي كلُّ ما لا يهتدي إليه العقل متشابهًا، وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه، كما أنَّ المُشكِل في الأصل ما دخل في أشكاله وأمثاله، ولم يُعلم بعينه، ثم أطلق على كلِّ غامض؛ وإن لم يكن غموضُه من تلك الجهة"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/154.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/154.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/7 - 8.

سِرُّ إفراد ﴿أُمُّ﴾ دونَ جمعِها في قولِه: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

آياتُ القرآنِ في تكاملِها بمنزلةِ الآيةِ الواحدةِ

أفردَ النَّظم لفظَ أمّ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولم يجمع مع أنَّه خبرٌ عن جمع وهو ﴿ءَايَٰتٞ﴾ "والقياس أمَّهات"[1]؛ "لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ جَمِيعَ الْآيَاتِ بِمَنْزِلَةِ آيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَفْرَدَ عَلَى الْمَعْنَى"[2]؛ "لأنَّ الآيات كلَّها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة"[3]، "وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، وَلَمْ يَقُلْ: آيَتَيْنِ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِك عَلَى مَعْنَى: أَنَّ مَجْمُوعَهُمَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ، فَكَذَلِك هَاهُنَا"[4].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين قولِه: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، و﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39]:

بيانُ معنى (أُمّ الكتاب) معذوقٌ بسياقِه

السِّياقُ هو الذي يُحدِّدُ معانيَ الألفاظِ القرآنيَّة المفردةِ والتَّركيبيَّة، فورَدَ لفظُ ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في آيتينِ مُختلفتَيْنِ، كانَ معناه في آلِ عمران "الْقُرْآنُ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَحَدَّثُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هُنَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39] "[5]، إذ سياقُ آيةِ الرَّعد تدلُّ على أنَّه اللَّوح المحفوظ بدليلِ العنديَّة، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: 4].

ليس كلُّ ما صحَّ وصفُه بالجمعِ صحَّ وصفُه بالإفرادِ

"إِنْ قِيلَ: وَاحِدَةٌ مُتَشَابِهَاتٍ: مُتَشَابِهَةٌ، وَوَاحِدَةُ أُخَرَ: أُخْرَى، وَالْوَاحِدُ هُنَا لَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِهَذَا الْوَاحِدِ، فَلَا يُقَالُ: أُخْرَى مُتَشَابِهَةٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْوَاحِدَةِ يُشْبِهُ بَعْضًا، وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ آيَةٍ تُشْبِهُ آيَةً أُخْرَى، فَكَيْفَ صَحَّ وَصْفُ هَذَا الْجَمْعِ بِهَذَا الْجَمْعِ، وَلَمْ يُوصَفْ مُفْرَدُهُ بِمُفْرَدِهِ؟

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.
(2) العكبري، التبيان: 1/238.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 2/175.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/143، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/23.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/154.

قِيلَ: التَّشَابُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَصَاعِدًا، فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَشْيَاءُ الْمُتَشَابِهَةُ؛ كَانَ كُلٌّ مِنْهَا مُشَابِهًا لِلْآخَرِ، فَلَمَّا لَمْ يَصِحَّ التَّشَابُهُ إِلَّا فِي حَالَةِ الِاجْتِمَاعِ؛ وَصَفَ الْجَمْعَ بِالْجَمْعِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مُفْرَدَاتِهِ يُشَابِهُ بَاقِيهَا؛ فَأَمَّا الْوَاحِدُ؛ فَلَا يَصِحُّ فِيهِ هَذَا الْمَعْنَى، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: 15]، فَثَنَّى الضَّمِيرَ، وَإِنْ كَانَ لَا يُقَالُ فِي الْوَاحِدِ: يَقْتَتِلُ"[(1)].

نُكتةُ وصفِ القُرآنِ كلِّه بالمحكمِ والمتُشابه وبعضِه كذلك:

الإحــــكـــامُ والتَّشابُه للهِ تعالَى، وليسَ للعبادِ إلَّا الاجتهادُ والفَهْمُ

في هذه السُّورة وُصِف بعضُ القرآن بالمحكم وبعضُه بالمتشابه، بَيْنَما جاءت آيات تصفُ القرآنَ بأنَّه كلَّه محكمٌ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، وآيات أُخرى تصفه بأنَّه كلَّه متشابهٌ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: 23]، فكيف الجوابُ عن مثلِ هذا؟

وبمعرفةِ معنى المحكم والمتشابه في كلِّ سياقٍ يدفعُ توهمَ التَّعارض، إذِ اختلَفَ "الْمُرَادُ بِالْإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ فِي مَوَاضِعِهَا، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَقَامَاتُ"[(2)]، أمَّا قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1] بِمَعْنَى: "كَوْنِهِ كَامِلًا، وَلَفْظُهُ أَفْصَحُ، وَمَعْنَاهُ أَصَحُّ، لَا يُسَاوِيهِ فِي هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ كَلَامٌ، وَجَاءَ وَصْفُهُ بِالتَّشَابُهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: 23]، مَعْنَاهُ: يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْجِنْسِ وَالتَّصْدِيقِ"[(3)].

وقد سبَقَ بيانُ معنى الإحكام والتَّشابه في بعض آياتِ القُرآنِ، ونُكتةُ ذلك بيانُ أنَّ الإحكام للّٰه تعالى، فهو الذي يُحكِمُ آياته كُلَّ آياتٍ بحسبِها، وكذلك التَّشابه، فليس لأحدٍ أن يفترضَ معنى الإحكام بمعنًى محدَّدٍ للقرآنِ كلِّه، أو يفترضَ معنى التَّشابه بمعنًى بعينِه في القرآنِ كلِّه، فالعقلُ خاضعٌ لإرادة اللّٰه في كلامِه، وعليه أن يجتهدَ في مُرادِ مولاه سبحانه فيما أنزلَ وفيما أرادَ.

(1) العكبري، التبيان: 1/238.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/156.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.

بلاغةُ مقابلةِ تفصيلِ المتشابه مع إجمالِ المحكم:

التَّفصيلُ والإجمالُ باعتبارِ احتياجِ النَّاسِ إلى البيان

جاءَ ذكرُ المُتشابه مفصَّلًا "لِإِجْمَالِ اقْتَضَاهُ الْكَلَامُ السَّابِقُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَسَّمَ الْكِتَابَ إِلَى مُحْكَم وَمُتَشَابِهٍ - وَكَانَ ذَلِكَ التَّقْسِيمُ بِاعْتِبَارِ دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ عَلَى الْمَعَانِي - تَشَوَّفَتِ النَّفْسُ إِلَى مَعْرِفَةِ تَلَقِّي النَّاسِ لِلْمُتَشَابِهِ، أَمَّا الْمُحْكَمُ؛ فَتَلَقِّي النَّاسِ لَهُ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَفْصِيلٍ فِيهِ، وَاقْتَصَرَ فِي التَّفْصِيلِ عَلَى ذِكْرِ قِسْمٍ مِنْ أَقْسَامِهِ: وَهُوَ حَالُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ كَيْفَ تَلَقِّيهِمْ لِلْمُتَشَابِهَاتِ؛ لِأَنَّ بَيَانَ هَذَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي الْغَرَضِ الْمَسُوقِ لَهُ الْكَلَامُ، وَهُوَ كَشْفُ شُبْهَةِ الَّذِينَ غَرَّتْهُمُ الْمُتَشَابِهَاتُ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى حَقِّ تَأْوِيلِهَا، وَيُعْرَفُ حَالُ قَسِيمِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا زَيْغَ فِي قُلُوبِهِمْ، بِطَرِيقِ الْمُقَابَلَةِ، ثُمَّ سَيُصَرِّحُ بِإِجْمَالٍ حَالَ الْمُهْتَدِينَ فِي تلقّي متشابهات الْقُرْآنِ"[1].

سرُّ اختيارِ مفردةِ الزَّيغِ دون الميل:

الزَّيْغُ أَخَصُّ مِنَ المَيْلِ؛ لِأَنَّهُ مَيْلٌ مِن حقٍّ إلى باطل

اختيرتْ مفردةُ الزَّيغ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ دون المَيْل، لأنَّ الزيغ أخصُّ من مطلق الميل؛ فإنَّ الزيغ لا يقال إلَّا لما كان من حقٍّ إلى باطل[2]، والزيغُ: الميلُ عن الاستقامة إلى أحد الجانبين، وزاغَ وزالَ ومالَ: متقاربٌ، لكن (زاغ) لا يقال إلَّا فيما كان من حقٍّ إلى باطل[3]، "وَالزَّيْغُ: الْمَيْلُ وَالِانْحِرَافُ عَنِ الْمَقْصُودِ: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ [النّجم: 17]، وَيُقَالُ: زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَالزَّيْغُ أَخَصُّ مِنَ الْمَيْلِ؛ لِأَنَّهُ مَيْلٌ عَنِ الصَّوَابِ وَالْمَقْصُودِ"[4].

أهلُ الزَّيغِ من هذه الأمَّةِ والمحرِّفون من أهلِ الكتابِ وجهانِ لعملةٍ واحدة

فالذين يتَّبعونَ المتشابه هم الذين زاغتْ قلوبُهم عن الصَّواب والحقِّ عن قَصْدٍ، فاتِّباعُهم للمُتشابه مقصودٌ لذاته عندَهم، ففيه مزيدُ حَذَرٍ من هؤلاءِ؛ لأنَّهم زاغوا عن الحقِّ إرادةً للباطلِ والهوى،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/161.
(2) ابن عادل، اللباب: 5/35.
(3) الرّاغب، المفردات: (زيغ).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/161.

وتأويل القرآنِ ليُصبح على مرادِهم، فهم إخوةُ المُحرِّفين من أهل الكتابِ، وعليه، فالذين يُقابلون المحرِّفين من أهلِ الكتابِ، هم الذين زاغتْ قلوبُهم من هذه الأمَّة، والقصدُ تحريفٌ لاتِّباعِ الهوى.

بلاغةُ المَجَازِ في قَوْلِه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾:

اتِّباعُ المُتشابِه لا باعتبارِه قُرآنًا بـل بـاعـتـبـارِ البحثِ عن هوى الزَّائغين

الاتِّبَاعُ في قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ "مَجَازٌ عَنِ الْمُلَازَمَةِ وَالْمُعَاوَدَةِ، أَيْ: يَعْكُفُونَ عَلَى الْخَوْضِ فِي الْمُتَشَابِهِ، يُحْصُونَهُ، شُبِّهَتْ تِلْكَ الْمُلَازَمَةُ بِمُلَازَمَةِ التَّابِعِ مَتْبُوعَهُ"[1]، فالمتبوعُ هو المُتشابِه، وهم لا يتَّبعون سِواه، أي: يتركون المحكمَ وراءَ ظهورِهم، فاتِّباعُهم للمُتشابِه على ذلك هو من قبيلِ الإيمانِ ببعضِ الكتابِ والكُفرِ ببعضٍ، وهم لا يتَّبعون المُتشابه باعتبارِه قُرآنًا بل باعتبارِه محقِّقًا لهواهم، وعليه فهم يتَّبعونَ المُتشابِه المُؤدِّي إلى الباطلِ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله.

فنُّ الجَمْعِ والتَّقسيمِ:

قوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ "جمعٌ، ثمَّ عقَّبه بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾، فهذا تقسيم وتفريق، كأنَّه يقول: وأمَّا الرَّاسخون في العلم"[2].

أثرُ الوظيفةِ النَّحويَّةِ في بيانِ مقصودِ الأفعال: في قولِه: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾:

الـكـشـفُ عن تـخـطـيـطِ أهـلِ الـزَّيـغِ في نشرِ الـفـتـنـةِ بين المُؤمنين

قولُه تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ مفعولٌ لأجله، أي: "طَلَبُ الشُّبُهَاتِ، وَاللَّبْسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يُفْسِدُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَيَرُدُّوا النَّاسَ إِلَى زَيْغِهِمْ"[3]، و"أن يفتنوا النَّاس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس، ومناقضةِ المُحكَم بالمُتشابِه"[4]، وعليه فاتِّباعُ أهلِ الزَّيغِ لمُتشابِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/161.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/348.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/15.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.

القُرآنِ هو من بابِ طلبِ الفتنةِ، ففيه فائدةٌ وهي أنَّ أهلَ الزَّيغِ لا تصدُرُ أفعالُهم عن غير قَصدٍ، أو كيفما اتَّفقَ، بل هم حريصون على الأفعال ذات المقصودِ الرَّديءِ، والفتنةِ المستطير شرُّها.

نُكتةُ عَطْفِ قولِه تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ على: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾:

التَّأويلُ مذمومٌ إذا كان خادِمًا لغايةٍ مذمومةٍ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ على: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، وهو من قبيل عطفِ الوسيلةِ على الغايةِ، أي: عُطِفَ التَّأويلُ الذي هو وسيلةٌ وأداةٌ موصلةٌ إلى الفتنةِ على الفتنةِ نفسِها، فإنَّ طلبَ تأويلِ المُتشابه وحدَه ليس مذمومًا، وإنَّما لَحِقَه الذَّمُّ لَمَّا كان أداةً للغاية التي يَسْعَوْنَ لها وهي الفتنةُ، فتقديمُ ذكرِ الفتنةِ على التَّأويلِ وجعلِه أداةً لها؛ هو تنبيهٌ على "أنَّ قصدَهم إلى إيقاعِ الفتنة قبل طلب تأويله، وهذا القصد باتِّفاق أهل العقول كلِّها مذموم"[1]، ولذلك كانت الأداةُ التي هي التَّأويل ليست تأويلًا على الحقيقةِ.

فالمُتشابه "لا سبيل إلى تبيُّنه منه، وإنَّما طلبُ الحقِّ يجب أن يكون بردِّه إلى المحكم وإلى الرَّسولِ وإلى أولي الأمر، حسب ما نبَّه عليه تعالى بقوله: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء: 83] "[2]، "فمَحَلُّ الذَّمِّ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ تَأْوِيلًا، لَيْسُوا أَهْلًا لَهُ، فَيُؤَوِّلُونَهُ بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَهَذَا دَيْدَنُ المَلَاحِدَةِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ الَّذِينَ يَتَعَمَّدُونَ حَمْلَ النَّاسِ عَلَى مُتَابَعَتِهِمْ تَكْثِيرًا لِسَوَادِهِمْ"[3].

اختلافُ العلماءِ في معنى الواوِ، في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾:

الـقَـولُ بالاستِئنافِ أوْجَهُ، ويُحملُ عليه معنى القولِ بالعطفِ

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في بيانِ معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، على قَوْلين مشهُورَيْن: الأَوَّل: أن تكونَ الواوُ استِئنافيَّةً، الثَّاني: أن تكونَ عاطِفةً، وحصل احتدامٌ كبيرٌ، ونزاعٌ مشهورٌ

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/428 - 429.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/429.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/162.

واختلافٌ معروفٌ، وهو مبنيٌّ على تعيينِ معنى العِلمِ الذي في قولِه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، ومن هنا يتحدَّدُ اتِّجاهُ العلماءِ في بيانِ معنى الواوِ، فمن قالَ: إنَّ المقصودَ بالعلمِ هو العلمُ القطعيُّ الذي لا يجوزُ أن يعلمَه إلَّا الله، قال بأنَّ الواوَ استئنافيَّةٌ في قولِه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: لا يتجاوزون أن يقولوا: آمنَّا بِه، فهم لا يعلمون ما يعلمُ الله تعالى من تأويلِه على الوجه القطعيِّ.

ومن قال بأنَّ المقصودَ بالعلمِ، هو العلمُ الذي أجاز الله لعبادِه معرفتَه والوصولَ إليه، من مُتشابِه القُرآنِ، ممَّن يردُّ المحكمَ إلى المُتشابِه، ولا يبغي بذلك الفتنةَ، بل يبغي رضوان الله تعالى، قال بأنَّ الواو عاطفةٌ.

والأوجَهُ أن نحمِلَها على الاستئنافِ ويُوجَّه كلامُ أهل العلمِ القائلين بالعطفِ، فإنَّ القَولَ بالاستئنافِ لا يُشرِكُ الرَّاسخين في العلم في حكم علم الله تعالى، فالله لا يبلغ مبلغَ علمه أحدٌ من العالمين، مهما بلغَ رُسوخُه، وتوطَّدتْ أركانُه، ثمَّ إنَّ قولَ الرَّاسخين آمنَّا به، يدلُّ على علمِهم، فالمؤمن لا يُؤمنُ إلَّا عن علم بما يُؤمنُ به، وبه يندفعُ الظَّنُّ بأنَّ القولَ بالاستئنافِ يجعل الرَّاسخين بمنزلةِ الجُهَّالِ.

وعليه فالقولُ بالاستئنافِ يجعلُ علمَ الله مستقلًّا متفرِّدًا بعلمِه، ولا يسلبُ عن الرَّاسخين علمَهم بالمُتشابِه، بل يُثبتُ لهم علمًا بقرينةِ قولِهم: آمنَّا به، والمطلوبُ من الرَّاسخين أن يُؤمنوا عن علمٍ، لا عن جهلٍ، ومن هنا كان مدحُهم والثَّناءُ عليهم، وهذا التَّوجيهُ أسلمُ وأمكنُ، ولا يدفعُ المقبولَ من القَوْلَين.

قال الرَّازيُّ: "وهذا القول أقيسُ في العربيَّة، وأشبه بظاهر الآية، ويدلُّ لهذا القول وجوه:

أحدها: أنه ذمّ طالب المتشابه بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾.

الثاني: أنَّه مدح الرَّاسخين في العلم بأنَّهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وقال في أوَّل البقرة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 26]، فهؤلاء الرَّاسخون لو كانوا عالمين بتأويل المتشابه على التَّفصيل؛ لما كان لهم في الإيمان به مدحٌ؛ لأنَّ كلّ من عرف شَيئًا على سبيل التَّفصيلِ، فلا بدَّ، وأن يُؤمن به.

الثالث: لو كان قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوفًا؛ لصار قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ابتداء، وهو بعيد عن الفصاحة، وكان الأولى أن يُقَالَ: وهم يقولون، أو يقال: ويقولون.

رابعًا: قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، معناه: أنَّهم آمنوا بما عرفوا تفصيله، وبما لا يعرفون تفصيله، ولو كانوا عالمين بالتفصيل في الكلِّ؛ لم يبق لهذا الكلام فائدة"[1].

فائِدةُ الوصفِ بالرُّسوخ:

الرُّسوخُ أمارةُ علمِ المُتشابِه، عن إيمانٍ تامٍّ وإسلامٍ كافٍ

وُصِفَ العلماءُ بالرُّسوخِ، وهذا يدلُّ على أنَّهُم "يعلمون أكثر من المحكم الَّذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أيِّ شيء هو رسوخهم؛ إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع، وما الرُّسوخ إلا المعرفة بتصاريف الكلام وموارد الأحكام، ومواقع المواعظ، وذلك كلُّه بقريحة معدَّة، فالمعنى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ على الاستيفاء إلى الله، والقوم الذين يعلمون منه ما يمكن أن يعلم، يقولون في جميعه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وهذا القدر هو الذي تعاطى ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو ترجمان القرآن، ولا يتأوَّل عليه أنَّه علم وقت الساعة وأمر الروح وما شاكله"[2].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾:

الرَّاسخونَ في العلمِ ثابتونَ على الحقِّ لا تميلُ بهمُ الأهواءُ ولا الآراءُ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ استعارةٌ، حيثُ "اسْتُعِيرَ الرُّسُوخُ لِكَمَالِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ بِحَيْثُ لَا تُضَلِّلُهُ الشُّبَهُ، وَلَا تَتَطَرَّقُهُ الْأَخْطَاءُ غَالِبًا، وَشَاعَتْ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةُ حَتَّى صَارَتْ كَالْحَقِيقَةِ، فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: الثَّابِتُونَ فِيهِ، الْعَارِفُونَ بِدَقَائِقِهِ، فَهُمْ يُحْسِنُونَ مَوَاقِعَ التَّأْوِيلِ، وَيَعْلَمُونَهُ"[3]، وهذا من باب التَّشبيه "برسوخ الشَّيء الثَّقيل في الأرض الخَوَّارة، وهو أبلغ من قوله: والثَّابتون في العلم"[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/147.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/403.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/164.
(4) محمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/168.

دلالـةُ الألـفاظِ على المحذوفاتِ يُغني عن ذكرِها

تقديرُ حذفِ الضّميرِ في قولِه: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾:

قولُه: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ "فيه ضمير عائد على كتاب اللّه، محكمِهِ ومتشابهِهِ، والتَّقدير: كلُّه من عند ربِّنا، وحذف الضّمير؛ لدلالة لفظ كلٍّ عليه؛ إذ هي لفظة تقتضي الإضافة"[1]، "أي: كلُّ واحد منهما، وهذا من تمام المقول المذكور قبله"[2].

تعليمُ التّشابهِ من رعايةِ الله لعبادِه ودالٌّ على كمالِ حكمتِه

فائدةُ ذِكرِ ﴿عِندِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾:

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إضافةِ ﴿عِندِ﴾ مع أنّه لَوْ قَالَ: كُلٌّ مِنْ رَبِّنَا؛ كَانَ صَحِيحًا، فَمَا الْفَائِدَةُ في لَفْظِ عِنْدِ؟ والْجَوَابُ: من أوجه:

أوَّلًا: "الْإِيمَانُ بِالْمُتَشَابِهِ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى مَزِيدِ التَّأْكِيدِ، فَذَكَرَ كَلِمَةَ ﴿عِندِ﴾ لِمَزِيدِ التَّأْكِيدِ"[3].

ثانيًا: "أَضَافَ الْعِنْدِيَّةَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّنَاۗ﴾، لَا إِلَى غَيْرِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى؛ لِمَا فِي الْإِشْعَارِ بِلَفْظَةِ الرَّبِّ مِنَ النَّظَرِ فِي مَصْلَحَةِ عَبِيدِهِ، فَلَوْلَا أَنَّ فِي الْمُتَشَابِهِ مَصْلَحَةً؛ مَا أَنْزَلَهُ تَعَالَى، وَلَجَعَلَ كِتَابَهُ كُلَّهُ مُحْكَمًا"[4].

ثالثًا: "لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ ﴿مِّنۡ﴾ هُنَا لِلِابْتِدَاءِ الْحَقِيقِيِّ دُونَ الْمَجَازِيِّ، أَيْ: هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ"[5].

العـلـماءُ يُـمـتـدحـونَ بـرسـوخِـهـم في الـعـلـمِ، وبـكـونِـهـم من أولي الألبابِ

مناسبةُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ جاءَ بعد ذكرِ الرَّاسخين في العلم "مدحًا للرَّاسخين بجَوْدة الذِّهن وحسنِ النَّظر"[6]، وفيه "إشارةٌ إلى ما استعدُّوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرُّد العقل عن

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/404، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/19.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/190.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/147.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/30 - 31.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/169.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/8.

غواشي الحسِّ"[1]، فالألباب: "العقول الخالصة، وهم الرَّاسخون في العلم، الواقفون عند متشابهه، العاملون بمحكمه بما أرشدهم اللّه إليه في هذه الآية"[2].

توجيه الحصرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

الحصر لكمال التَّذكُّر، لا لنفيهِ عن سواهم

القَصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لا يُراد به أنَّ التَّذكُّرَ خاصٌّ بهم، بل هو من بابِ بيان كمالِ التَّذكُّرِ فهو الذي لا يكون إلَّا لأولي الألبابِ، أي: "﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ حقَّ التَّذكُّر"[3]، إلَّا أولو الألبابِ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6، والزمخشري، الكشاف: 1/338.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/190.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/8.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ⑧﴾ [آل عمران: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المقارنة بين أهل الزّيغ وأهل العلم، وربطها بالدّعاء بالحفظ من الزّيغ

"لمَّا ذكر أهل الزّيغ، وذكر نقيضهم، وظهر ما بين الحالتين؛ عقَّب ذلك بأنْ علَّم عباده الدُّعاء إليه في ألَّا يكونوا من الطّائفة الذَّميمة الّتي ذكرت، وهي أهل الزّيغ"[1]، "وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا حَكَى عَنِ الرَّاسِخِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ حَكَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾"[2]، وخلاصة قولهم البليغ ذلك: "ربّنا لا تجعل قلوبنا تنحرف عن الحقّ، بعد إذ أرشدتنا إليه، وامنحنا اللهم رحمة من عندك بالتّوفيق والتّثبيت، إنّك أنت المانع المعطي"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُلُوبَنَا﴾: الْقَلْبُ، هو قَلْبُ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، سُمِّيَ لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فِيهِ وَأَرْفَعُهُ. وَخَالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفُهُ قَلْبُهُ. وَيَقُولُونَ: عَرَبِيٌّ قَلْبٌ. قَالَ:

فَلَا تُكْثِرُوا فِيهَا الضَّجَاجَ فَإِنَّنِي *** تَخَيَّرْتُهَا مِنْهُمْ زُبَيْرِيَّةً قَلْبَا[4]

ويُعبَّر بالقلب عن المعاني الَّتي تختصُّ به من الرُّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، وسُمِّي قلب الإنسان قلبًا؛ لكثرة تقلُّبه[5]، و"القَلْب: الفؤاد، وقد يعبَّر به عن العقل، قال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]: أي عقل"[6].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/404.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/148، وابن عادل، اللباب: 5/41 - 42.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 71.
(4) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 5/17.
(5) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (قلب).

2) ﴿وَهَبۡ﴾، ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: وهب الله لك الشّيء، يهب هبة، وتواهبه النّاس بينهم، والموهوب: الولد، ويجوز أن يكون ما يوهب لك[1]، والهِبَةُ: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾: هو كثير الهبة، أي: العطيَّة من غير استحقاقٍ عليه، بل هو تفضُّل منه على خلقه[3]، "ٱلۡوَهَّابُ: كثير الهبة"[4]. "والهبة: تمليك الشّيء غيره من غير ثمن"[5].

3) ﴿لَّدُنكَ﴾: ظرف، وهي لأوّل غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذّوات، وهي ليست مرادفة لعند، بل قد تكون بمعناها، وهي أخصُّ من عند[6]، ويقال: لدن العود والرّمح لدانة ولدونة، ورمح لدن، ورماح لدنٌ ولدانٌ، وقناة لدنةُ الكعوب. وسرنا لدن غدوة: من طلوع الشّمس إلى غروبها، وقال:

لَدُنْ غُدْوَةٍ حَتَّى أَلَاذَ بِخُفِّهَا *** بَقِيَّةُ مَنْقُوصٍ مِنَ الظِّلِّ قَالِصِ

ومن المجاز: لدنت أخلاقه، وهو لدن الخليقة: ليّن العريكة[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعـاء المؤمنين بـالـوقـايـة، من الزّيغ المُردي بعد الهداية

بيَّنت الآية أنَّ الرّاسخين يدعون ربَّهم قائلين: ربَّنا لا تُمِل قلوبنا عن الحقِّ، بعد أن هديتنا إليه، وسَلِّمْنا ممَّا أصاب المنحرفين المائلين عن الحقِّ، وهب لنا رحمة واسعة من عندك، تهدي بها قلوبنا، وتعصمنا بها من الضّلال، إنَّك أنت الوهّاب كثير العطاء"[8]، وهي دعوة أن لا يصّرِف قلوبهم عن الإيمان به، بعد أن منّ عليهم بالهداية لدينه، وأن يمنحهم من فضله رحمة واسعة، تلفّهم بالألطاف، لأنّه هو الوهّاب الّذي يعطي من يشاء بغير حساب[9].

(1) الخليل، العين: (وهب).
(2) الرَّاغب، المفردات: (وهب).
(3) السَّمين، عمدة الحفاظ: (وهب).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/238.
(5) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/432.
(6) الراغب، المفردات، لدن.
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لدن).
(8) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.
(9) نخبة من علماء التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 50.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ اختيار الدُّعاء بلفظ الرُّبوبيَّة:

اكتمالُ الإيمانِ في القلب يوفِّقُ صاحبَه للدُّعاءِ الصَّادقِ

اختير لفظ الرُّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾؛ لأنَّهم يطلبون الدُّعاء بثبات الهداية في قلوبهم، والتفضُّل عليهم برحمته، وهذا من مقام الامتنان والإنعام، فيناسبه لفظ الرُّبوبيَّة، وعدلتِ الآيةُ عن ذكر القول إلى المَقُول؛ لإظهار حرص الرَّاسخين على قبول دعائهم، وللإيجاز المعهود في القرآن الكريم في مثل هذا المقام، والعناية بالمقول دون ذكر القول، يرسِّخ قيمة تربويَّة تتمثَّل في الاهتمام بالعمل دون الوقوف عند حدِّ القول فقط.

علَّة إضافة الزيغ إلى القلوب دون الهداية:

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إضافةِ الزَّيغِ إلى القلوبِ في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾؟ والهدايةُ لجميع الذَّات في قولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؟

والجواب: "أنَّ الزَّيغ معنويٌّ معلَّق بالذَّات؛ لأنَّه الأصل، فإذا زاغ القلب؛ زاغ الجميع، والهداية: قصدوا أن يخبروا بحصولها لجميع ذواتهم وحواسِّهم"[1]، وهناك جوابان آخران وهما: الأوَّل: "أنَّ الزَّيغ واقع بهم، فأطلقوا أبعاده، ونفيه عن العضو الأخصِّ الذي هو سبب في عمومه في سائر البدن، والهداية في جميع البدن، فأخبروا بذلك رغبة في دوامها على ما هي عليه. الجواب الثاني: إنَّ الزَّيغ يحصل للقلب بأوَّل وهلة، والهداية إنَّما تحصل له غالبًا بعد تأمُّل ونظر واستدلال، فحصولها يشترك فيه القلب والسَّمع والبصر وغيرهم"[2].

سرُّ البَدْءِ بالدُّعاء بالحفظ من الزَّيغ على طلب الهبة:

من فقه المؤمنِ أن يحرِصَ على تطهير قلبِه قبلَ اكتسابِ الصَّالحات

ابتدأَ النَّظمُ بالدُّعاءِ بالحفظِ من الزّيغ في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾ على طلب الهبة في قولِه تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، وسرُّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/349 - 350.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/349 - 350، والبسيلي، التقييد الكبير: 457.

ذلك: أنَّ دفع الضَّارِّ مقدّم على جلب المنفعة، وأنَّ دعاءهم "جاء على الأصل في تقديم دفع المؤلم على جلب الملائم"(1).

ولَمَّا كان تطهير القلب عمَّا لا ينبغي مقدَّمًا على تنويره بما ينبغي؛ سألوا أوَّلًا: ألَّا يجعل قلوبهم مائلة عن الحقِّ إلى الأباطيل والعقائد الفاسدة، ثمَّ طلبوا بعد ذلك أن يُنَوِّر قلوبهم بأنوار المعرفة، وجوارحهم وأعضاءهم بزينة الطَّاعة، فقالوا: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾، وهي شاملة للإحسانِ الدُّنيويِّ والأخرويِّ(2).

فائدةُ إيثار الدُّعاء بلفظ الهبة في: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾:

الاعـــــتراف بالفضلِ الإلهيِّ المـــحـــضِ في الـدُّعـاءِ أرجى للاستجابة

آثر أولو الألبابِ الدُّعاءَ بلفظ الهبة دون العطيَّة؛ لأنَّ الهبة تكونُ عن تَفَضُّلٍ من الواهبِ، لا عن سبب من الموهوب، بخلاف العطيَّة؛ فهي عن مقابل، تقول: أعطاني؛ فأعطيته، ولذلك جاءَ في دعاء سيِّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: 100]، ودعا زكريَّا عليه السلام: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5]، فأُوثر لفظُ الهبةِ للاعترافِ بالفضلِ الإلهيِّ المحضِ.

قال أبو حيَّان في سرِّ اختيار الهبة: "سَأَلُوا بِلَفْظِ الْهِبَةِ الْمُشْعِرَةِ بِالتَّفَضُّلِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ وَلَا عَمَلٍ وَلَا مُعَاوَضَةٍ؛ لِأَنَّ الْهِبَةَ كَذَلِكَ تَكُونُ، وَخَصُّوهَا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِهِ"(3).

وفيه تعليمُ العبد ألَّا يلتفت إلى شيء من العمل، ويطلب العوض به، بل يرجو رجاء المفاليس الطَّالبين للتفضُّل والهبة لا العوض(4).

دلالةُ التَّقييدِ بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

الرَّحمَةُ عطَاءٌ إلهيٌّ مَحْض

عبَّر بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ للدلالة على أنَّ الهبة على ضربين: هبة عن عوض، وهبة لا عن عوض، ونبَّه بقوله: ﴿لَّدُنكَ﴾ إلى أنَّ هذه

(1) البسيلي، التقييد الكبير: 458.
(2) السيوطي، قطف الأزهار: 1/563.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/32.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/30.

الهبة اعترافٌ أنَّه بتفضُّله يُدركُ ما يُدرك في الدُّنيا والآخرة، نحو قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف43] "[1]، "ولمَّا ثبت بالبرهان القاطع أنَّه لا رحيمَ إلّا هو؛ أكَّد ذلك بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ تنبيهًا للعقل على أنَّ المقصود لا يحصل إلّا منه"[2].

إيثارُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ دون (من عندك):

فـقـهُ الـدُّعـاءِ كــــامـــــنٌ في استيثاقِ تحقُّقِ النِّهاياتِ

جيءَ بالظَّرفِ ﴿لَّدُنكَ﴾ في الآيةِ دون (عند): لدلالته على ابْتِدَاءِ الْغَايَةِ فِي زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، وَقَلَّ أَنْ تُفَارِقَهُ: مِنْ[3]. فهو أخصُّ من (عند)؛ "لأنَّه يدلُّ على ابتداء نهاية، نحو أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فيوضع (لدن) موضعَ نهاية الفعل، قال تعالى: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ [الكهف: 76]، وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾ [الكهف: 10]، فهؤلاءِ الدَّاعون نظروا إلى تحقُّقِ مطلوبهم، ابتداءً من وانتهاءً، ومن هنا كان اختيارُ هذا الظَّرفِ أبلغَ من غيره.

سرُّ تخصيصِ الرَّحمةِ بالذِّكرِ في قوله: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾:

ذُكِـرَت الرَّحـمةُ والمــرادُ لازِمُـهـا وهـو الـعـطـاء والـنَّـعـيـم والثَّواب

خصَّص الرَّحمة في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ ﴾ بالذِّكرِ؛ "لأنَّ مبدأها من اللّه تعالى، أَيْ: مِنْ عِنْدِكَ وَمِنْ قِبَلِكَ تَفَضُّلًا، لَا عَنْ سَبَبٍ مِنَّا وَلَا عَمَلٍ، وَفِي هَذَا اسْتِسْلَامٌ وَتَطَارُحٌ"[4]، و"لِأَنَّ تَيْسِيرَ أَسْبَابِهَا، وَتَكْوِينَ مُهَيِّئَاتِهَا، بِتَقْدِيرِ اللَّهِ؛ إِذْ لَوْ شَاءَ؛ لَكَانَ الْإِنْسَانُ مُعَرَّضًا لِنُزُولِ الْمَصَائِبِ وَالشُّرُورِ فِي كُلِّ لَمْحَةٍ، فَإِنَّهُ مَحْفُوفٌ بِمَوْجُودَاتٍ كَثِيرَةٍ، حَيَّةٍ وَغَيْرِ حَيَّةٍ، هُوَ تِلْقَاءَهَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ"[5].

والمرادُ بالرَّحمةِ النَّعيمُ الصَّادر عن الرَّحمة؛ "وَلَمَّا كَانَ الْمَسؤولُ صَادِرًا عَنِ الرَّحْمَةِ؛ صَحَّ أَنْ يَسْأَلُوا الرَّحْمَةَ إِجْرَاءً لِلسَّبَبِ مَجْرَى

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/434.

(2) ابن عادل، اللباب: 5/47.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/7.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/21.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/170.

الْمُسَبِّبِ، وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿رَحۡمَةً﴾: تَوْفِيقًا وَسَدَادًا وَتَثْبِيتًا لِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى"[1].

نُكِّر لفظُ (رحمة) لإفادةِ العُمُومِ

وجاء لفظ ﴿رَحۡمَةً﴾ مُنَكَّرًا؛ ليكون شاملًا لجميع أنواع الرَّحمة، فنور الإيمان والتَّوحيد والمعرفة: رحمة، وسهولة أسباب المعيشة في الدُّنيا: رحمة، وسهولة سكرات الموت: رحمة، إلى غير ذلك ممَّا ينعم به الإنسان في دنياه وفي أُخراه.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول به:

قدِّم الجارُّ والمجرورُ على المفعول به في قولِه تعالى: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾؛ "لأنَّ تعدِّي الفعل إلى المفعول به أقوى من تعدِّيه إلى المجرور؛ ولأنَّ الأهمَّ المقصود حصول الهبة لهم"[2] منه تعالى، وقدِّم الجارُّ والظَّرفُ على المفعولِ به؛ لبيانِ أنَّهم يطلبونها منه، ويتقرّبون بذلك إليه.

ختمتِ الآيةُ بقوله (إنك أنت الوهاب) لأنَّه كالتَّعليلِ للسَّابق

خُتمتِ الآيةُ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾؛ "لأَنَّه كَالتَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِمْ: وَهَبْ لَنَا، كَقَوْلِكَ: حُلَّ هَذَا الْمُشْكِلَ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَالِمُ بِالْمُشْكِلَاتِ"[3]، فهي "تعليل للسُّؤال"[4].

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾:

هبةُ المخلوقين تـتـلاشَى أمـامَ هبة الله تعالى

دلَّ الْقَصْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ على "الْمُبَالَغَةِ: لِأَجْلِ كَمَالِ الصِّفَةِ فِيهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ هِبَاتِ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَفَاضَ اللّه مِنَ الْخَيْرَاتِ شَيْءٌ لَا يُعْبَأُ بِهِ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَأْكِيد بِإِنَّ، وَبِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ، وَبِطَرِيقِ الْقَصْرِ"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/33.
(2) البسيلي، التقييد الكبير، 458.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/33.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 2/191.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

دلالة صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾:

اختار التَّعبير صيغة المبالغة ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾؛ إشارة إلى سعة كرمه ورحمته، كأنَّ العبد يقول: إلهي؛ هذا الَّذي طلبته منك في هذا الدُّعاء عظيم بالنِّسبة إليَّ، حقيرٌ بالنِّسبة إلى كمال كرمك، وغاية جودِك ورحمتك، فإنَّك أنت الوهَّاب"[1]، وفي هذا من البلاغة ردُّ العجز على الصَّدر.

(1) ابن عادل، اللباب: 5/47.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"لَمَّا سَأَلُوهُ تَعَالَى أَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ الْهِدَايَةِ، وَكَانَتْ ثَمَرَةُ انْتِفَاءِ الزَّيْغِ وَالْهِدَايَةِ إِنَّمَا تَظْهَرُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ مُوقِنُونَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْبَعْثِ فِيهِ لِلْمُجَازَاةِ، وَأَنَّ اعْتِقَادَ صِحَّةِ الْوَعْدِ بِهِ هُوَ الَّذِي هَدَاهُمْ إِلَى سُؤَالِ أَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَهُمْ"[1]، وَقد اسْتَحْضَرُوا عِنْدَ طَلَبِ الرَّحْمَةِ، الظّرف الزّمانيّ الّذي سيكونون أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَى الرّحمة فيه، وَهُوَ يَوْم يكُونُ وجودُها سَبَبًا لِلْفَوْزِ الْأَبَدِيِّ في الآخرة، وحجبها سببا في الهلاك، فَأَعْقَبُوا بِذِكْرِ هَذَا الْيَوْمِ المهُول، دُعَاءَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَازِ، بأن قَالُوا: وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَخَاصَّةً يَوْمَ تَجَمُّعِ النَّاسِ في ذلك المحشر العظيم[2].

دعـــاء الـلـه بـالـوقـايـة من الزّيغ والفساد، والإقــرار بملكه للمصاير يوم الحساب

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَامِعُ﴾: من الجمع، وهو ضمُّ شيء بتقريب بعضه إلى بعض، والمراد: إقرار بالبعث ليوم القيامة[3]، يجمعهم لحسابهم يوم البعث، والجامع: من أسماء اللّه الحسنى[4]، واليوم الآخر لا ينبغي لمؤمن أن يرتاب فيه، لأنّه وعد اللّه الّذي وعد به المتّقين، ونذيره الّذي أنذر به الجاحدين الضّالين، واللّه سبحانه وتعالى لَا يخلف الميعاد، في الدّنيا ولا يوم المعاد[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/33، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/171.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/405.
(4) أبو جيب، القاموس الفقهيّ، ص: 66.
(5) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 2/1119.

2) ﴿لَا رَيۡبَ﴾: من الرَّيب، وهو الشَّكُّ، والظَّنُّ، والتُّهمة، والرَّيب ما رابك من أمرٍ، ويقال: أرابني كذا، ورابني، فالرَّيب أن تتوهَّم بالشّيء أمرًا ما، فينكشف عمَّا تتوهَّمه، " يقال: را بني فلان، إذا علمت منه الرّيبة.وأرابني: أوهمني الرّيبة؛ وأنشد أبو زيد:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ رِبْتَهُ قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتُ وَإِنْ لَايَنْتَهُ لَانَ جَانِبُهُ

وهذا قول أبي زيد.وفي الأخبار عن الأصمعيّ: رابني فلان يريبني، إذا رأيت منه ما يريبك وتكرهه"[1].

3) ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾: هو الوَعْدُ، ويكون في الخير والشَّرِّ، يقال: وَعَدْتُهُ بنفع وضرٍّ وَعْدًا ومَوْعِدًا وميعَادًا[2]، المِيعاد: مفعال من الوعد[3]، و(وَعَدَ): كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقَالُ: وَعَدْتُهُ أَعِدُهُ وَعْدًا[4]، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ، فَأَمَّا الْوَعِيدُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِشَرٍّ، يَقُولُونَ: أَوْعَدْتُهُ بِكَذَا، قَالَ الشّاعر:

وَإِنِّي وَإِنْ وَاعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ***لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإقرار بأنّ الله جامع النّاس ليوم القيامة، بيقين لا يشوبُه ريب

يبيِّن اللّه في هذه الآية بقيَّة دعاء الرَّاسخين في العلم، "لمَّا طلبوا من ربِّهم الصَّوْنَ عن الزَّيغ، وأن يخصَّهم بالهداية والرَّحمة، فكأنَّهم قالوا: ليس الغرض من هذا السُّؤال ما يتعلَّق بمصالح الدُّنيا؛ فإنَّها منقضية، وإنَّما الغرض الأعظم منه ما يتعلَّق بالآخرة؛ فإنَّا نعلم أنَّك جامع النّاس للجزاء في يوم القيامة، ووعدك حقٌّ، فمن زاغ قلبه؛ بقي هناك في العذاب أبَدَ الآبادِ، ومن وفَّقتَه وهديتَه ورحمتَه؛ بقي هناك في السَّعادة والكرامة أبد الآباد"[5]، وذلك وعدٌ غير مكذوب.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ريب).
(2) الرَّاغب، المفردات: (وعد).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/405.
(4) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة: (وعد).
(5) ابن عادل، اللّباب: 5/47، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/150.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَكرارِ لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ في الآيةِ اللَّاحقةِ:

الـجَـمْـعُ بين دُعـاءَي الدُّنيا والآخــرةِ هو كمالُ المقصودِ

تكرَّر لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لإظهار الخضوع التامِّ، والتذلُّل للّه ربِّ العالمين، ولإظهار الحاجة إلى اللّه، والاستغاثة به في هول يوم القيامة، ولطلب الرحمة في موقف الحساب، وجاء هذا الدُّعاء بعد الدُّعاءِ السَّابقِ؛ ليبيِّن أنَّ الغرض الأصليَّ عند الرَّاسخين، موصولٌ بالآخرة؛ لأنَّها هي الأعظم.

التَّأكيدُ بلفظ ﴿إِنَّكَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾:

دلَّ التَّأكيد بقولِه: ﴿إِنَّكَ﴾ على إثبات البعث، وفي ذلك ردٌّ على الذين ينكرون البعث، وفيه إشارة إلى إبطال مزاعم نصارى نجران في ألوهيَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الذي له القدرة على الجمع بعد البعث والإحياء هو اللّه، وفيه إشارة إلى بشريَّة عيسى؛ لأنَّه داخل في الجمع يوم القيامة.

دلالة اختيار لفظ ﴿جَامِعُ﴾ دون غيره من الألفاظِ:

اختير وصف ﴿جَامِعُ﴾؛ لأنَّ الجمع إنَّما يكون بعد البعث والإحياء، فيضمن ذلك إيمانَهم بالبعث، ومعنى جامع، "أَيْ: بَاعِثُهُمْ وَمُحْيِيهِمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ"[1].

نوع الإضافة في: ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾:

الإضافةُ في قَوْله تَعَالَى: ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾: "غَيْرُ مَحْضَةٍ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ، وَالتَّقْدِيرُ: جَامِعٌ النَّاسَ"[2]، "وهو من إضافة الفاعل إلى المفعول"[3].

دلالةُ الإيجازِ بحذفِ المضافِ في قولِه: ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ﴾:

المبالغةُ في بيانِ شأْنِ القيامةِ

لَمَّا كان جمع النَّاس يوم القيامةِ للحساب والجزاء لا لليوم؛ فكان

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/21، والقنّوجي، فتح البيان: 2/192.
(2) العكبري، التبيان: 1/240.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 2/192.

هناك تقدير محذوفٍ يُفهمُ من السِّياقِ، فحُذِف المضاف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامه، وتقديرُ الكلام: "جَامِعُ النَّاسِ لِلْجَزَاءِ فِي يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَحُذِفَ؛ لِكَوْنِ الْمُرَادِ ظَاهِرًا"[1]، ودلالةُ ذلك المبالغةُ في بيانِ هول ذلك اليوم.

وجهُ نفي الرَّيب عن يوم القيامة، وقد ارتاب فيه كثير من النَّاس: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

النَّظرُ في ثبوتِ البعثِ باعتبارِه في نفسِه لا باعتبارِ تكذيبِ المكذِّبين

وجه نفي الرَّيب عن يوم القيامة في قولِه تعالى: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ "أنَّه في نفسه حقٌّ لا ريب فيه، وإن وقع فيه ريب عند المكذِّبين به؛ فذلك لا يعتدُّ به؛ إذ هو خطأ منهم"[2]، "وَمَعْنَى: لَا رَيْبَ فِيهِ، لَا شَكَّ فِي وُجُودِهِ لِصِدْقِ مَنْ أَخْبَرَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ يَقَعُ لِلْمُكَذِّبِ بِهِ رَيْبٌ؛ فَهُوَ بِحَالِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَابَ فِيهِ"[3]، "وَنَفَوْهُ عَلَى طَرِيقَةِ نَفْيِ الْجِنْسِ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِارْتِيَابِ الْمُرْتَابِينَ"[4].

اتِّساعُ دلالةِ مَرْجع الهاءِ في قولِه: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

من جمال لغة القرآن: تحمُّل الضمير لأكثر من معنى، وذلك من خلال تدبُّرِ السِّياق، "فالْهَاءُ في ﴿فِيهِ﴾ تَعُودُ عَلَى الْيَوْمِ؛ وَإِنْ شِئْتَ عَلَى الْجَمْعِ، وَإِنْ شِئْتَ عَلَى الْحِسَابِ أَوِ الْعَرْضِ"[5].

إيثارُ التعبير بقولِه: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ دون (لا شكَّ فيه):

نفتِ الآيةُ الرَّيبَ دون الشَّكِّ؛ لأنَّ الرَّيب يُمثِّل حالةً مرضيَّة تميل نحو الاتِّهام وظنِّ السُّوء، فالملاحظُ: أنَّ لفظ الرَّيب يأتي في سياق الحديث عن يوم القيامة، وأمر القيامة واضح لا لبس فيه، فلا يحتاج إلى دليل إلَّا عند ذوي القلوب المريضة، فما يقع منهم ماهو

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/150.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/405.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/33.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(5) العكبري، التبيان: 1/240.

إلا حالة مرضيَّة تؤكِّد مرض قلوبهم وإنكارهم لوقوع البعث؛ لذلك كان التعبير بقوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ دون: لا شكَّ.

دلالة موقع الجملة في الدُّعاء:

التَّذييل التَّعليليُّ دليلُ الإيمانِ والرَّدّ على أهل البُهتان

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ "تعليل لمضمون ما قبلها، أي: إنَّ الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه، وخُلفُه يخالف الألوهيَّة، كما أنّها تنافيه"[1]، فهي "تَعْلِيلٌ لِنَفْيِ الرَّيْبِ، أَيْ: لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِجَمْعِ النَّاسِ لَهُ، فَلَا يُخْلِفُ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ خَبَرَهُ"[2].

بَراعةُ الفاصلةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

بلاغةُ الالتفاتِ لتفخيمِ اسمِ اللهِ الأعظمِ والتَّلذُّذِ بالنُّطقِ به

إن حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ على أنَّه من كلام الدَّاعين "يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الِالْتِفَاتِ؛ إِذْ هُوَ خُرُوجٌ مِنْ خِطَابٍ إِلَى غَيْبَةٍ لِمَا فِي ذِكْرِهِ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ مِنَ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْهَيْبَةِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمَّا وَالَوُا الدُّعَاءَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ﴾، أَخْبَرُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ الْوَفِيُّ بِالْوَعْدِ"[3]، وهذا من لُطفِ الدُّعاءِ.

إظهارُ ما حقُّه الإضمارُ؛ للتَّعظيمِ

ويكون هذا من بابِ إظهارِ ما حقُّه الإضمار، فالأصلُ أن يكون النَّظمُ: إنَّه لا يُخلِفُ الميعادَ، لكن أتى بالإظهار؛ "لإبراز كمال التَّعظيم والإجلال النَّاشئ من ذكر اليوم المهيب الهائل"[4]، وأفاد هذا الإظهارُ كذلك احتمالًا آخر وهو أن يكونَ من كلامِ اللّه تعالى، فهو استئنافٌ، وإخبارٌ من اللّه تعالى، "لَا مِنْ كَلَامِ الرَّاسِخِينَ الدَّاعِينَ"[5]، ولو أضمرَ لما احتملَ إلَّا أن يكون من كلامِ الدَّاعين فحسب.

فائدةُ ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

دلّت أداةُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ على نفي إخلافِ الميعادِ عن اللّه تعالى،

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/192.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/34.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 2/192.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/33.

والمعنى: إنَّ الإلهيَّة تنافي خلف الميعاد كقولك: إنَّ الجواد لا يخيب سائله"[1]، وفائدةُ التَّوكيدِ طلبُ الثباتِ في الاستمراريَّة في الدُّعاءِ، والبقاءُ في ميدان رجاءِ الاستجابةِ.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ بين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ و﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

مـقـامُ الـهـيـبـةِ يـقـتـضي إظـهـارَ الاسمِ الجليل، وفي مَقامِ الطَّلب جاءَ بالضِّمير

جاء الدُّعاءُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ بالغَيْبَةِ، وفي آخر السّورة: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194] بالخطاب؛ "لأنَّ ما هنا متَّصلٌ بما قبْلَه، وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ اتِّصالًا لفظيًّا فقط، وما في آخرها متّصِلٌ بما قبْلَه، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194] اتّصالًا لفظيًّا ومعنويًّا؛ لتقدُّم لفظ الوعد"[2]، ثمَّ إنَّ "هذه الآية في مقام الهيبةِ، يعني: أنَّ الآية تقتضي الحشر والنشر؛ ليُنْتَصَف للمظلومين من الظّالمين، فكان ذكره باسمه الأعظم أَوْلَى في هذا المقام، وفي تلك الآية مقام طلب العبدِ من ربِّه أن ينعم عليه بفضله، ويتجاوز عن سيِّئاته، إذْ لَمْ يَكُنِ المَقَامُ مَقَامَ الهيبةِ، فلا جرم قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: 194] "[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/339.
(2) الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/80.
(3) ابن عادل، اللّباب: 5/47، والرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/151.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ [آل عمران: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العـلاقـة بين ضراعة المؤمنين إلى الله، ومصير الكفرة المنبتّين عن الله

بعد أن ذكر اللّه الرَّاسخين في العلم، أصحاب العقول والبصائر، وزكَّاهم لقوَّة إيمانهم، وشدَّة إخلاصهم، وكثرة تضرُّعهم إلى خالقهم - سبحانه - وبشَّرَهم بحسن العاقبة؛ ذمَّ الكافرين وتوعَّدهم بسوء المصير وشديد العقاب.

"ولمَّا تحقَّق أنَّ يوم الجمع كائن لا محالة؛ تحقَّق أنَّ من نتائجه - تحقيقًا لعزَّته سبحانه وتعالى وانتقامه من الكفرة - قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الَّذين يظنُّون لِسَتْرِهِمْ ما دلَّت عليه مرأى عقولهم أنَّهم يمتنعون من أَمْرِ اللّه؛ لأنَّهم يفعلون في عصيانه وعداوة أوليائه فِعْلَ مَن يريد المغالبة"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: الْكَافُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ، يُقَالُ لِمَنْ غَطَّى دِرْعَهُ بِثَوْبٍ: قَدْ كَفَرَ دِرْعَهُ، ووُصِف اللَّيل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص، والزَّارع لستره البذر في الأرض، وكُفْرُ النِّعمة وكُفْرَانُهَا: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، وأعظم الكُفْر: جحود الوحدانيَّة أو الشَّريعة أو النُّبوَّة، والكُفْرَانُ في جحود النِّعمة أكثر استعمالًا، والكُفْرُ في الدِّين أكثر، وهو المقصود عند الإطلاق[2].

2) ﴿تُغۡنِيَ﴾: الْغِنَى فِي الْمَالِ، يُقَالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وَالْغَنَاءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/253.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كفر).

بِفَتْحِ الْغَيْنِ مَعَ الْمَدِّ: الْكِفَايَةُ، يُقَالُ: لَا يُغْنِي فُلَانٌ غَنَاءَ فُلَانٍ، أَيْ: لَا يَكْفِي كِفَايَتَهُ، وَغَنِيَ عَنْ كَذَا، فَهُوَ غَانٍ، وَغَنِيَ الْقَوْمُ فِي دَارِهِمْ: أَقَامُوا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِهَا، ويقال: أَغْنَاني كذا، وأغْنَى عنه كذا: إذا كفاه، قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۝٢٨﴾ [الحاقَّة: 28]، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ [المسد: 2]، ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾[1].

3) ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: الْمِيمُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أصل واحد يَدُلُّ على الأثمان والنفقة التي تتيح الشراء وتتحصل من البيع أو الإرث أو أجر العمل، يقال: تَمَوَّلَ الرَّجُلُ: اتَّخَذَ مَالًا، وَمَالَ يَمَالُ: كَثُرَ مَالُهُ[2]، وأصله: (مَوَل)، قال الجوهريُّ: "تصغير المال: مُوَيْلٌ، ومالَ الرَّجلُ يمولُ ويَمال مَوْلًا ومؤولًا؛ إذا صار ذا مالٍ، وتَموَّل مثلُه، ومَوَّله غيرُه، ورجل مال، أي: كثير المال"[3]، وقد شاع أنَّ المَال سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يميل بالإنسان إلى الباطل، كما روي عن سفيان الثَّوريِّ قال: كان يقال: إنَّما سمِّي المال؛ لأنَّه يميل بالنَّاس[4]، أو لأنَّه مال بالنَّاس عن طاعة اللّه ﷻ[5].

وهو تعليل حسنٌ؛ لمناسبته التَّحذير من فتنة المال، وإن كان الأقرب إلى أصل الاشتقاق أن يكون المال من (مَوَلَ) لا من (ميَل)؛ لما سبق من تصغيره على (مُويل)، ولأنَّ المال سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يُتَمَوَّل، ويُقْتنى، ويُتداوَل، وقد جعله الرَّاغب[6] من (ميَل)، ولكنَّ تعليله جِدُّ قريبٍ من الأصل؛ إذْ يقول: سمِّي المال مالًا؛ لأنَّه يميل من هذا إلى ذاك، ولذلك سمِّي عَرَضًا[7].

وقد نبَّه الإمام النَّووي على ذلك التَّعليل الطَّريف بقوله: "وهذه مناسبة في المعنى، وإلَّا فليس مشتقًّا من ذلك؛ فإنَّ عين المال واو، والإمالة من الميل ياء، ومن شروط الاشتقاق الاتِّفاق في الحروف الأصليَّة"[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (غني).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ميل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مول).

(3) الجوهري، الصحاح: (مول).

(4) الرازي، تفسير ابن أبي حاتم: 7/2364.

(5) الهمذاني، الكشكول: 1/200.

(6) الراغب، المفردات: (ميل).

(7) وهذا من كلام الصاحب بن عباد، وهو في التَّمثيل والمحاضرة، ص: 250.

(8) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: (مول): 3/324.

وليس خطأً، فإنَّ هذا الاشتقاق الأكبر، وقد فعلوا مثله كثيرًا، كما في لفظ الصَّلاة وغيرها[1].

4) ﴿أَوۡلَٰدُهُم﴾: الْوَاوُ وَاللَّامُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ دَلِيلُ النَّجْلِ وَالنَّسْلِ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، مِنْ ذَلِكَ الْوَلَد، وَهُوَ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمِيعِ، وَيُقَالُ لِلْوَاحِدِ: وُلْدٌ أَيْضًا، وَالْوَلِيدَةُ: الْأُنْثَى، وَالْجَمْعُ: وَلَائِدُ، وَتَوَلَّدَ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ: حَصَلَ عَنْهُ، قال أبو الحسن: الوَلَدُ: الابن والابنة، والوُلْدُ: هُمُ الأهلُ والوَلَدُ[2].

5) ﴿شَيۡـٔٗا﴾: لفظ عامٌّ، يدلُّ على موجود أو كائن، والمعنى المحوريُّ: نتوء متميِّز صُلْب في ظاهر الشَّيءِ، و"الشَّيء: هو الكائن أو الجسم[3]، أو "الموجود" بعبارة الرَّاغب[4]، وبذا فهي صالحة أن يعبَّر بها عن أيِّ كائن، وبعبارة سيبويه: لفظ "يقع على كلِّ ما أُخبرَ عنه"[5].

6) ﴿وَقُودُ﴾: الْوَاوُ وَالْقَافُ وَالدَّالُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى اشْتِعَالِ نَارٍ، وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ وَاتَّقَدَتْ وَتَوَقَّدَتْ، وَأَوْقَدْتُهَا أَنَا، وَالْوَقُودُ: الْحَطَبُ، وَالْوُقُودُ: فِعْلُ النَّارِ؛ إِذَا وَقَدَتْ، وَالْوَقْدُ: نَفْسُ النَّارِ، وَوَقْدَةُ الصَّيْفِ: أَشَدُّهُ حَرًّا، والوَقُودُ يقال للحطب المجعول للوُقُودِ، ولما حصل من اللَّهب، قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: 24]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

والمعنى المحوريُّ للفظ: (وقود): مادَّة حياة النَّار، أي: اشتعالها، فالوَقُود هو مادَّة ذلك: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ [البروج: 5]، واسْتَوْقَدْتُ النَّارَ: أَوْقَدْتُها، واسْتَوْقَدَتْ هي ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ [البقرة: 17]، أي: اجتهد في إيقادها، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ [النُّور: 35].

ومن مجازه: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: 64]، "قَلْبٌ وَقَّاد كشدَّاد، ومُتَوَقِّد: مَاضٍ سريع، وتوقَّد الشَّيءُ: تلألأ "أخذًا من لمعان النَّار، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو بمعنى: إشعال النَّار.[6]

---

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (مول).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولد).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شيأ).

(4) الراغب، المفردات: (شيأ).

(5) سيبويه، الكتاب: 1/22.

(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وقد).

7) ﴿ٱلنَّارِ﴾: النُّونُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِضَاءَةٍ وَاضْطِرَابٍ وَقِلَّةِ ثَبَاتٍ، مِنْهُ النُّورُ وَالنَّارُ، سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ طَرِيقَةِ الْإِضَاءَةِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مُضْطَرِبًا سَرِيعَ الْحَرَكَةِ، وَتَنَوَّرْتُ النَّارَ: تَبَصَّرْتُهَا، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتَ وَأَهْلُهَا *** بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ[1]

والنَّارُ تقال للَّهيب الَّذي يبدو للحاسَّة، قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١﴾ [الواقعة: 71]، وللحرارة المجرَّدة، ولنار جهنَّم المذكورة في قوله: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ [الحج: 72]، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٦﴾ [الهمزة: 6]، وقد ذكر ذلك في غير موضع.[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لـن يـغـنـي عن الكافر في عذاب النّار الأشـدّ، ما حـازه مـن مـال، ومـا أنـجـب من ولد

هذا عرض لبعض ما يقع في يوم البعث، وما يلقى فيه الذين كفروا باللّه وباليوم الآخر من نكال وبلاء، حيث يُدعُّون إلى نار جهنَّم دعًّا، فلا يغني عنهم في ردِّ هذا البلاء ما كان لهم من مال وبنين، ومن أهل وصديق، فإنَّ الذين جحدوا ما قد عرفوه من نبوَّة محمَّد ﷺ سواء كانوا من بني إسرائيل أم من كفَّار العرب؛ لن تنجيهم أموالهم الَّتي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضارِّ، ولا أولادهم الَّذين يتناصرون بهم في مهامِّ أمورهم، ويعوِّلون عليهم في الخطوب النَّازلة من عذاب اللّه شيئًا، وقد قصَّ القرآن قولهم: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35]، فردَّ اللّه عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: 37] وسيكونون يوم القيامة حطبًا لجهنَّم الَّتي تُسعَّر بهم.[3]

(1) البيت من بحر الطويل، وهو في ديوان امرئ القيس: ص 136.
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نور).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 3/104.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تلوين الخطاب في الآية الكريمة مع ما قبلها:

بيان كرامة المؤمنين الرّافعة، وإهانة الكافرين الصّافعة

في تلوين الخطاب من دعاء المؤمنين إلى الإخبار عن حال الكافرين؛ تصوير لمشهدين مختلفين، حيث كان الكلام السَّابق دعاءً نابعًا من قلوب المؤمنين، فأجراه اللّه على ألسنتهم، فلهجوا به موقنين بربِّهم، مستبشرين بكرمه، وكان الكلام في هذه الآية إخبارًا من اللّه تعالى عن أحوال الكافرين الَّذين استغنَوا بأموالهم وأولادِهم، وظنُّوا أنَّها تنفعهم وتدفع عنهم، ففرَّق بين الكلامَيْن؛ ليُعْلَم قدرُ الرَّاسخين في العلم الَّذين بلغوا من سعادتهم وفرحهم بما آتاهم اللّه من فضله أن دعوا ربَّهم، وأثنوا عليه، ونسبوا ما هم فيه من النَّعيم والعطايا إليه وحدَه، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران: 8]، فانظر كيف سألوه رحمتَه المتضمِّنةَ حصولَ كلِّ خيرٍ واندفاعِ كلِّ شرٍّ، وتوسَّلوا إليه باسمه الوهَّاب؟

ويُعلَم - من جهة أخرى - حالُ الكافرين الَّذين لم يُؤذَن لهم بالكلام، والإخبار عن أنفسهم، لشدَّة ما هم فيه من العذاب، بل أخبرنا اللّه عنهم؛ لنشكرَه على نعمه الكثيرة، وآلائه العظيمة، وأعظمها نعمة الإسلام، فالحمد للّه على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة، ونعوذ باللّه من حال أهل النَّار.

بلاغة الفصل ودلالتها في الآية الكريمة:

الاستئناف ببيان حال الكافرين، بعد ذكر حال المؤمنين ودعائهم الضّارع

استئناف كلام ناشئ عن حكاية ما دعا به المؤمنون: من دوام الهداية، وسؤال الرَّحمة، وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنِّذارة، وتعقيب دعاء المؤمنين، بذكر حال المشركين، جاءت الآية مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لما قبلها، وهو ما يسمَّى بشبه كمال

الاتصال، وكأنها إجابة على سؤال يتعلَّق ببيان حال الكافرين بعد ذكر حال الرَّاسخين في العلم، ودعاء المؤمنين - ولا سيَّما - وقد ختم بجمع النَّاس في يوم القيامة لمجازاتهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

فهذه الآية وما قبلها في تقرير التَّوحيد سواءٌ كان ردًّا على نصارى نجران أم كان كلامًا مستقِلًّا؛ فإنَّ التَّوحيد لمَّا كان أهمَّ ركنٍ للإسلام؛ كان ممَّا تعرف البلاغة أن يبدأ بتقرير الحقِّ في نفسه، ثم يؤتى ببيان حال أهل المناكرة والجحود ومناشئ اغترارهم بالباطل، وأسباب استغنائهم عن ذلك الحقِّ أو اشتغالهم عنه، وأهمُّها الأموال والأولاد؛ فهي تنبئهم هنا بأنَّها لا تغني عنهم في ذلك اليوم الَّذي لا ريب فيه؛ إذْ يجمع الله فيه النَّاس، ويحاسبهم بما عملوا، بل ولا في أيام الدُّنيا؛ لأنَّ أهل الحقِّ لا بدَّ أن يغلبوهم على أمرهم، وما أحوجَ الكافرين إلى هذا التذكير.[1]

دلالة تصدير الآية بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾:

زَعْمُ الكافرين أنَّ كثرة أموالهم وأولادهم، مانعة لهم من العذاب، زيف وإفك

قد يكون ﴿إِنَّ﴾ لمجرَّد الاهتمام بتأكيد الخبر، دون ردٍّ لشكٍّ أو إنكار، فيزداد المؤمن إيمانًا، أو أنَّ الخطاب لهؤلاء الكافرين المعاصرين وقت نزول القرآن، أو خطابًا عامًّا لهم، سواء عاصروه أم لم يعاصروه، فيكون الخطاب موافقًا ما هم فيه من الادِّعاء والزَّعم بأنَّ أموالهم وأولادهم تكفيهم: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35]، وهذا هو الظَّاهر؛ لذكر زعمهم في كتاب الله، ولأنّ في الآية أكثرَ من مؤكِّد.

نكتة العدول عن التَّعريف بـ (ال) إلى اسم الموصول:

جملة الصِّلة فعليَّة تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث

الإتيان في ذكرهم بالتَّعريف بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أنَّ الذَّمَّ الوارد في الآية لأفعالهم، لا لأشخاصهم،

(1) رضا، تفسير المنار: 3/190، 191.

واحتمال تغيُّر حالهم من الكفر إلى الإيمان؛ لأنَّ جملة الصِّلة فعليَّة تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث، في حين أنَّ الاسم ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، ونلحظ هذا عند المقابلة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد ﷺ: 11]، فقابل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقابلهم بـ(الذين كفروا) كما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عند إرادة فعل الفتنة، في حين ذكر ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عند ذكر الأشخاص في قوله تعالى: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١﴾ [النِّساء: 101] والتَّعريف بالموصول: إمَّا أن يكون لتعريف العهد مرادًا منه قومٌ معهودون من رؤوس الشِّرك وزعماء العناد، وإمَّا أن يكون الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق.

دلالة الجمع والتَّعريف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

دلالة العموم المخصَّص بالقرينة في توجيه المعنى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صيغةٌ للجمع مع لام التَّعريف، وهي للاستغراق بظاهره، ثمَّ إنَّه لا نزاع في أنَّه ليس المراد منها هذا الظَّاهر؛ لأنَّ كثيرًا من الكفَّار أسلموا، فعلمنا أنَّ الله تعالى قد يتكلَّم بالعامِّ، ويكون مراده الخاصَّ؛ إمَّا لأجل أنَّ القرينة الدَّالَّة على أنَّ المراد من ذلك العموم ذلك الخصوص، كانت ظاهرة في زمن الرَّسول ﷺ فحسن ذلك لعدم التَّلبيس، وظهور المقصود، ومثاله: ما إذا كان للإنسان في البلد جمع مخصوص من الأعداء، فإذا قال: (إنَّ النَّاس يؤذونني)، فَهِم كلُّ أحد أنَّ مراده من النَّاس ذلك الجمع على التَّعيين، وإمَّا لأجل أنَّ التَّكلُّم بالعامِّ لإرادة الخاصِّ جائز؛ وإن لم يكن البيان مقرونًا به، عند من يُجَوِّز تأخير بيان التَّخصيص عن وقت الخطاب، وإذا ثبت ذلك؛ ظهر أنَّه لا يمكن التَّمسُّك بشيءٍ من صيغ العموم على القطع بالاستغراق؛ لاحتمال أنَّ المراد منها هو الخاصُّ، وكانت القرينة الدَّالَّة على ذلك ظاهرةً في زمن الرَّسول ﷺ فلا جرم حسُن ذلك[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/283، 284.

المقصود بعبارة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وعلاقته بالسِّياق:

بناء السّياق على إرادة عموم الكافرين، والغرض خصوص أهل الكتاب

والمراد بالَّذين كفروا: المشركون، وهذا وصفٌ غالبٌ عليهم في اصطلاح القرآن وقيل: الَّذين كفروا بنبوَّة محمدٍ ﷺ وأريد هنا قريظة والنَّضير وأهل نجران، ويرجِّح هذا بأنَّهم ذكَّروا بحال فرعون دون حال عادٍ وثمود، فإنَّ اليهود والنَّصارى أعلق بأخبار فرعون، كما أنَّ العرب أعلق بأخبار عاد وثمود، وأنَّ الردَّ على النَّصارى من أهمِّ أغراض هذه السُّورة، ويجوز أن يكون المراد جميعَ الكافرين: من المشركين، وأهل الكتابين، ويكون التذكير بفرعون؛ لأنَّ وعيد اليهود في هذه الآية أهمُّ[1].

التِّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة للموصول:

دلالة تحقُّق الوقوع وتجدُّده وحدوثه

كثُر مجيء ﴿كَفَرُواْ﴾ بصيغة الماضي صلةً للموصول في القرآن الكريم[2]، ويدلُّ الفعل الماضي على تحقُّق الوقوع، كما يشير إلى تجدُّده وحدوثه، في حين قلَّ مجيء ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ [آل عمران: 21، النساء: 150] بالفعل المضارع؛ إذ إنَّه ورد مرَّتين فحسب؛ لأنَّه ورد في حالات خاصَّة، يصف طوائف مختلفة، ارتكبوا جرائم متعدِّدة، واحتيج الموصول إلى عطف أفعال مضارعة أخرى عليه، والموصول الَّذي يراد به الجماعة يصحُّ في العطف على صلته أن تكون الجمل المتعاطفة مع الصِّلة موزَّعةً على طوائف تلك الجماعة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النِّساء: 150].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

(2) ورد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سبعًا وخمسين ومئة (157) مرة، في القرآن الكريم.

نكتة الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الإيجاز بالحذف للاختصار وإفادة العموم:

أي: القوم الَّذين كفروا باللّه وبرسوله وبالكتاب المنزَّل على رسوله، فحذف المعمول؛ للاختصار وإفادة العموم، وللتَّرهيب من الكفر بجميع أنواعه، وللتَّنفير من الاتِّصاف بهذا الوصف؛ ولذا جيء بالفعل المتعدِّي في صورة اللَّازم؛ ليشير إلى أنَّ مُجرَّد الاتِّصاف به مذموم.

دلالة حرف النَّفي ﴿لَن﴾:

تأكيد النّفي بالأداة (لن)، وأثره في المعنى

قد أكَّد سبحانه عدم إغناء أموالهم ولا أولادهم عنهم شيئًا - في وقت هم في أشدِّ الحاجة إلى من يعينهم، ويدفع عنهم - بحرف ﴿لَن﴾ المفيد لتأكيد النَّفي[1].

العدول عن (لن تَنفَعَهُم) إلى ﴿لَن تُغۡنِيَ﴾:

نفي الإغناء مع وجود أسبابه أبلغ في القهر، وأوسع في الدّلالة

نفي الإغناء مع وجود أسبابه أبلغ في القهر، وأشدُّ في التَّنكيل؛ لأنَّهم يمتلكون سبب الإغناء (الأموال والأولاد)، وكم كانوا يدَّعُون أنَّهم أكثر أموالًا وأولادًا، وأنَّهم لن يُعذَّبوا، فأثبت لهم سبب الإغناء، وعطَّله؛ ولذا أوثر لفظ ﴿تُغۡنِيَ﴾ عن لفظ (تدفع)، أو (تنفع)، فقوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ﴾، أي: لن ينفع، ولن يدفع؛ وإن توافر لهم، وإنَّما سمِّي المال: غنًى؛ لأنَّه ينفع النَّاس، ويدفع عنهم الفقر والنَّوائب[2].

ولمَّا كان الظَّاهرُ من حال كثير المال أنَّه لا يَعْجِزُ عن شيء يريده من لذَّاته وسائر مطالبه؛ سُمِّي المال الكثير غِنًى، وكذلك لمَّا كان مَن قَلَّ ماله؛ عَجَز عن إرادته، سُمِّي قلَّة المال: فقرًا، فهو من جنس تسمية السَّبب باسم المسَبَّب، وإلَّا فحقيقة الغنى انتفاء الاحتياج، وحقيقة الفقر الاحتياج[3]، فهم مع ذلك أشدُّ فقرًا، وأعظم قهرًا.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/230.

(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/18.

(3) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 85.

ونفي الانتفاع قد يكون أنسب في مقام الحثِّ على موالاة المؤمنين، وعدم موالاة الكافرين؛ وإن كانوا أولادهم أو أقاربهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ [الممتحنة: 3].

في حين أنَّ نفي الإغناء هنا أنسب؛ لدلالة هذا الفعل على الإجزاء والدَّفع، ولكونه مُؤْذِنًا بأنَّ هنالك شيئًا يُدفع ضرُّه، وتُكفى كلفتُه؛ فلذلك ذُكر مع هذا الفعل متعلَّق ثانٍ، وعُدِّي الفعل إليه بحرف ﴿مِّنَ﴾[1].

علَّة اختصاص الكافرين بعدم إغناء أموالهم وأولادهم عنهم من الله شيئًا:

المــؤمــنــون يــنــتــفــعــون بــأمــوالــهــم وأولادهــم عند الله الأجلّ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾، اختُصَّ الكفَّار؛ لأنَّ المؤمنين تُغني عنهم أموالهم الَّتي ينفقونها في وجوه البرِّ، فهم يجنون ثمرتها في الآخرة، وتنفعهم أولادهم في الآخرة، يسقونهم، ويكونون لهم حجابًا من النَّار، ويشفعون فيهم؛ إذا ماتوا صغارًا، وينفعونهم بالدُّعاء الصَّالح كبارًا، وكلُّ هذا ورد به الحديث الصَّحيح[2].

ما الّذي أفاد ذِكْرُ الأموال والأولاد؟

في الحــوالــك والمهالك، يفزع المرء لماله المحيز، وولده العزيز

وخصَّ الأموال والأولاد بالذِّكر؛ لأنَّ المرء عند الخطوب والنَّوائب في الدُّنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور الَّتي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب، فبيَّن الله تعالى أنَّ صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدُّنيا؛ لأنَّ أقرب الطُّرق إلى دفع المضارِّ إذا لم يتأتَّ في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذُّر أولى، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشُّعراء: 88، 89]، ولأنَّ الكفَّار كانوا أكثر ما يكونون اغترارًا بالأموال والأولاد، وقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/40.

حكى القرآن غرورهم هذا بأموالهم وأولادهم في كثير من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35](1).

ويقال: إنّما ذكر الأموال والأولاد؛ لأنَّ أكثر النَّاس يدخلون النَّار، لأجل الأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أنَّه لا ينفعهم في الآخرة؛ لكيلا يُفني النَّاس أعمارهم، لأجل المال والولد، وإنّما ذكر الله تعالى الكفَّار؛ لكي يعتبر بذلك المؤمنون(2).

سرُّ تقديم الأموال على الأولاد في السّياق:

المال آثر إلى النّفس، وأبلغ في باب مدافعة المحن، والتوقّي من الفتن

لمَّا كان المال في باب المدافعة والتَّقرُّب والفتنة أبلغ من الأولاد، قدَّم في هذه الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التّغابن: 15]، وقوله: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: 20]، وفي قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ [الشُّعراء: 88] بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾، فإنَّه ذكر هنا حبَّ الشَّهوات، فقدَّم فيه النِّساء والبنين على ذكر الأموال(3).

نكتة وجود (لا) في عطف الأولاد على الأموال:

التّرقّي في نفي النَّفع من القويّ إلى الأقوى، من بلاغة السّياق

قوله في نفي نفع الأولاد بعد نفي نفع الأموال: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ إشارة إلى أنَّ قوَّة النَّفع بمقتضى الفطرة والعادات الجارية في الأولاد أكثر؛ ولذا أكَّد النَّفي فيه بعد تأكيده أوَّلًا بتكرار ﴿وَلَآ﴾ كأنَّ نفي نفع الأموال أسهل قبولًا من نفي نفع الأولاد؛ ولذا زاده توكيدًا بعد توكيدٍ(4).

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/230.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/196.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/34.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/1120.

فائدة ذكر الجارّ والمجرور على التّعظيم في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

لـن يـنـوب عن رحــمــة الـلـه وطـاعـتـه، مال وفـيـر، ولا ولـد أثير

أي: من عذابه شيئًا من الإغناء، وقيل: كلمة ﴿مِّنَ﴾ بمعنى: البدل، والمعنى بدل رحمة اللّه، أو بدل طاعته، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ [يونس: 36]، أي: بدل الحقِّ، ومنه قوله ﷺ: «ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ» أي لا ينفعه جدُّه بَدَلك، أي: بدل رحمتك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سبأ: 37]، وأنت خبير بأنَّ احتمال سدِّ أموالهم وأولادهم مسدَّ رحمة اللّه تعالى أو طاعته، ممَّا لا يخطر ببال أحد حتَّى يتصدَّى لنفيه، والأوَّل الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم، والأنسب بما بعده من قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[1].

أي: إنَّ أموالهم وأولادهم لن تكون بدلًا لهم من اللّه تعالى، تغنيهم عنه، فإنَّهم إذا تمادَوا على باطلهم؛ يُغلبون على أمرهم في الدُّنيا، ويُعَذَّبون في الآخرة[2].

سرُّ تخصيص اسم الجلالة بالذِّكر هنا دون غيره من الأسماء الحسنى:

اسـم الجلالة علم على الذَّات العليَّة الشّان، وهـو الأنـسب في مقام الكفر والإيمان

جميع الآيات الَّتي في هذا المعنى ذكرت اسم الجلالة (اللّه)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116]، وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الجاثية: 19]، وقوله: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المجادلة: 17]، وقوله: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [التحريم: 10]، فاسم الجلالة (اللّه) هو الأنسب هنا؛ لأنَّه علم على الذَّات العليَّة، وهو الاسم الَّذي تنعقد به الشَّهادة؛ للدُّخول في الإسلام، وهو هنا في مقام الإيمان والكفر،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/10.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/191.

وهؤلاء الكافرون قد جحدوا ألوهيَّته، كما أنَّه لا يسمَّى به أحد غيره، وما دونه صفات لله، وهو يجمع صفات الجمال والجلال جميعًا.

دلالة قوله ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ وسرُّ مجيئها نكرة:

مدلولُ العموم، تيئيسٌ من الإغناء على العموم

دلَّت كلمة ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ بلفظها على نفي الإغناء، ولو كان يسيرًا، أو حقيرًا، ودلَّ تنكيرها ووقوعُها في سياق النَّفي على العموم وزيادة التيئيس من إغناء أموالهم، وأولادهم عنهم من الله أيَّ شيءٍ من دفع العذاب أو الانتفاع.

وانتصب قوله: ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق، أي: شيئًا من الغناء، وتنكيره للتَّحقير، أي: غناء ضعيفًا، بلْهَ الغَناء المُهِمَّ، ولا يجوز أن يكون مفعولًا به؛ لعدم استقامة معنى الفعل في التَّعدِّي[1].

وقوع الوعيد في الدُّنيا والآخرة، بقرينة معنويّة ظاهرة:

من كفر بمولاه، ذاق عذاب النّار في دنياه وأخراه

قوله تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ يحتمل أن يكون وعيدًا لهم بعذاب الآخرة، كما يحتمل الظَّاهر أنَّ هذا وعيد بعذاب الدُّنيا؛ لأنَّه شبِّه بأنَّه كدأب آل فرعون إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، وشأن المشبَّه به أن يكون معلومًا؛ ولأنَّه عُطف عليه عذابُ الآخرة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[2].

نكتة الوصل بالواو في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

تصعيدُ المعاني في السّياق، بالتّرقّي في تصوير ألوان التّعذيب والإحراق

أفادت الواو هنا: عطف الخبر بأنَّ هؤلاء الكافرين معذَّبون، وسيكونون حطبًا لجهنَّم، عطف هذا الخبر المؤلم على الجملة المنفيَّة قبلُ بحرف التَّأكيد ﴿لَن﴾، وفيه: على اعتبار أنَّ الوعيد بعذاب الآخرة تصعيدُ المعاني، والتَّرقِّي في الإخبار بالعذاب؛ لزيادة التَّنكيل، فإنَّ كمال العذاب على هؤلاء أن قد زال عنهم ما كانوا يحتمون به، وينتفعون به، ثمَّ اجتمعت عليهم جميع ألوان العذاب المؤلمة، والعياذ بالله تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

والعطف ظاهر على اعتداد أنَّ الجملة قبلها في وعيد الدُّنيا، وهذه في وعيد الآخرة بقرينة قوله في الآية الَّتي بعد هذه: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾(1).

نكتة المجيء باسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في الآية الكريمة:

الإشـــارة استحضار لهم في الأذهــان، وإشعار بغلوِّهم في الكفران

وجيء بالإشارة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ لاستحضارهم في الأذهان، حتَّى لكأنَّهم بحيث يشار إليهم، وللتَّنبيه على أنَّهم أحرياء بما سيأتي من الخبر، وهو قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، وكانت الإشارة للبعيد، للإشعار بغلوِّهم في الكفر، وانغماسهم فيه إلى منتهاه؛ ولذلك كانت العقوبة شديدة(2).

فائدة الضَّمير المنفصل في قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

تـأكـيـد الـخـبر والـدَّلالـة على الـحـصـر، من بلاغة السّياق

﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل، وهو ضمير الفصل بين المبتدأ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ والخبر ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ مبنيٌّ على السُّكون لا محلَّ له من الإعراب، والغرض منه تأكيد الخبر والدَّلالة على حصرهم فيه، وكأنَّهم وحدهم حطب النَّار، ويجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ في محلٍّ رفع مبتدأ ثان، خبره ما بعده، والمبتدأ الثَّاني وخبره خبر المبتدأ الأوَّل، والفرق بين المعنيين، أنَّ الخبر على الوجه الثَّاني يصير جملة اسميَّة ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ دالَّةً على الثُّبوت والدَّوام، وعلى الوجه الأوَّل دلَّ ضمير الفصل على تقوية الخبر وتوكيده.

سرُّ العدول عن (حطب النَّار) إلى ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

فائدة العدول باللّفظ، أعمُّ دلالـةً، وأشدّ إخافة

﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: أعمُّ دلالةً، وأعظم تهويلًا، وأشدُّ تفظيعًا من حطب النَّار؛ إذ إنَّ الوَقود ما توقد به النَّار، وعلى قراءة (وُقود) بالضَّمِّ(3)، أي: فعلُ النَّار؛ إذا اتَّقدت، وهو مصدر، أي: أهل

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/38.

(3) هي قراءة شاذَّة، نسبت إلى الحسن وطلحة بن مصرف ومجاهد، كما ذكر ابن خالويه، في المختصر، ص: 19، وأبو حيان، في البحر المحيط: 2/388.

وُقُودِها، ففي لفظ ﴿وَقُودُ﴾ على القراءتين دليل على ملازمتهم لها، ودوامهم فيها.

والنَّار: اسم عامٌّ على ما أعدَّه الله للعذاب يوم القيامة، وهو الأنسب هنا لإضافة الوقود إليها، كما أنَّ الأنسب إضافة الحطب، أو الحصب - بالصَّاد المهملة - إلى جهنَّم؛ للدِّلالة على قعرها البعيد، فإنَّها سمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّها ذات جَهْمة وظلمة بسوادها وقعرها، والعرب تسمِّي البئر البعيدة القعْر: جِهِنَّام[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: 15]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: 98].

إيثار مجيء رأس الآية جملةً اسميَّةً، في قوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

مــن مـقـاصـد الـتّـصـديـر بـالـجـمـلـة الإسميّة، تحقُّق الأمر وتقريره

أي: أولئك المتَّصفون بالكفر حطب النَّار، وحصبها الَّذي تُسَعَّرُ به، فإن أريد بيان حالهم عند التَّسعير؛ فإيثار الجملة الاسميَّة للدَّلالة على تحقُّق الأمر وتقرُّره، وإلَّا فهو للإيذان بأنَّ حقيقة حالهم ذلك، وأنَّ أحوالهم الظَّاهرة بمنزلة العدم، فهم حال كونهم في الدُّنيا وقودَ النَّار بأعيانهم، وفيه من الدِّلالة على كمال ملابستهم بالنَّار ما لا يخفى، وقد سبق أنَّ ﴿هُمْ﴾ يحتمل الابتداء، وأن يكون ضمير الفصل، والجملة إمَّا مستأنفة مقرِّرة لعدم الإغناء، أو معطوفة على خبر إنَّ، وأيًّا ما كان ففيها تعيين للعذاب الَّذي بيَّن أنَّ أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم منه شيئًا[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

وردت آية متشابهة مع هذه الآية في السُّورة نفسها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جهم).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/10.

كما وردت آية ثالثة تشبههما، وهي قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: 17].

فأمَّا هذه الأخيرة، فهي فريدة من حيث صدرُها؛ إذ إنَّها بدأت بالإخبار مباشرة دون ذكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّها خبر عن فريق من المنافقين قد ذكروا من قبل في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: 14].

وأمَّا آيتا سورة آل عمران؛ فإنَّهما متماثلتان في التَّركيب من ﴿إِنَّ﴾ واسمِها ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وخبرِها ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾، ومختلفتان في تَتِمَّة كلٍّ، حيث خُتمت الآية الأولى بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾، في حين خُتمت الآية الأخرى بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116]، ونكتة ذلك الاختلاف يرجع إلى الأسباب الآتية:

أوَّلًا: التَّرقِّي في المعاني، وتصعيد الوعيد؛ فقد اكتفى أوَّلًا بذكر العذاب الشَّديد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: 4]، "فكما بدأ خطاب التَّنزيل من أعلاه؛ نظم به ابتداء الكفر من أدناه"[1]، ثمَّ توعَّدهم بأنَّهم وقود النَّار، في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، ثمَّ صعَّد الوعيد والتَّهديد بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116]، وفيه تفنُّنٌ في الكلام على عادة العرب.

ثانيًا: مناسبة الفاصلة في كلِّ السِّياق؛ فقد ناسبت الفاصلة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حال هؤلاء الكافرين الَّذين في قلوبهم زيع، ويتَّبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة، فكان الجزاء من جنس العمل؛ فكما كانوا يشعلون الفتنة في الدُّنيا؛ يكونون حطبًا للنَّار في الآخرة، والعياذ بالله.

كما ناسبت الفاصلة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116] حال الكافرين الَّذين يعرفون الحقَّ، ثم هم يجحدونه، والحكم الواقع على الَّذين كفروا هنا: عامٌّ، يشمل الكافرين جميعًا، وإن كان يتَّجه أوَّلَ ما يتَّجه إلى الكافرين من أهل الكتاب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/11.

الذين تحدَّثتْ عنهم الآيات السَّابقة؛ لأنَّهم كفروا مع ما في أيديهم من هدى، وطرحوا ما معهم من إيمان: بخلاف الكافرين أصلًا؛ وإن كان الكفر هو الكفر، إلَّا أنَّ بعضه أشدُّ من بعض سوءًا، وأبغض وجهًا.

فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب، ومن غير أهل الكتاب، سيلقون جزاء كفرهم يوم القيامة، حيث يلقون في نار جهنَّم خالدين فيها أبدًا، وحيث لا يدفع عنهم هذا العذاب ما كان لهم في الدُّنيا من مال وولد؛ وإن ملأ وجه الأرض كثرةً وعددًا.[1]

ثالثًا: مقابلة قوله في عقاب الكافرين: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116] بما سبق من ثواب في حقِّ المؤمنين، جامعًا بين الزَّجر والتَّرغيب والوعد والوعيد، فلمَّا وصف من آمن بما تقدَّم من الصِّفات الحسنة؛ أتبعه تعالى بوعيد الكفار.

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/563، 408.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكفرة القدامى والـجـدد، لن يغني عنهم من عقاب الله مالٌ ولا ولد

لَمَّا ذكر حالَ الكافرين من عدم إغناء أموالِهم وأولادِهم عنهم من عذاب اللّه شيئًا، وأنَّهم حطبُ النَّار؛ ضربَ لهم مثلًا بآل فرعون، والَّذين مِن قبلهم، فَهُمْ أشْبَهُ النَّاس بهم، حيثُ إنَّهم لازموا الكُفر، وداوموا عليه، فعاقَبهم اللّه في الدُّنيا بسبب ذنوبهم، وتوعَّدهم بالعذاب في الآخرة، فلْيحذرِ الكافرون أن يُصيبَهم مثلُ ما أصابَ آلَ فرعون ومَن قبلَهم من العذاب.

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: الدَّالُ وَالْهَمْزَةُ وَالْبَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُلَازَمَةٍ وَدَوَام، فَالدَّأْبُ: الْعَادَةُ وَالشَّأْنُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الدَّأْبُ، أَصْلُهُ مِنْ دَأَبْتُ، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ حَوَّلَتْ مَعْنَاهُ إِلَى الشَّأْنِ، وَدَأَبَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ؛ إِذَا جَدَّ، وَأَدْأَبْتُهُ أَنَا إِدْآبًا، وَالدَّائِبَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: 33-34].

"الدُّؤوب: المُبالَغَة في السَّير، أَدْأب الرَّجُلُ الدّابَّة: أتعبها، الدّأَب: السَّوْق الشَّديدُ والطَّرْد، دأَبَ في عمله: جدَّ وتَعِب، وكلُّ ما أَدَمْتَه؛ فقد أَدْأَبْتَه".

والمعنى المحوريُّ: الاستمرار في إتيان الشَّيء بجدٍّ لدفعٍ يمنع الفتور، كما في الاستعمالات المذكورة، ومنه "الدّأب بالفتح وبالتَّحريك: العادة الملازمة ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾"[1].

2) ﴿ءَالِ﴾: الآل: الشَّخص، والآل: عُمد الخيمة، وآلُ الرَّجل: أهله وعياله، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: 33]، وقد يتوسَّع،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دأب).

فيشمل الآلُ الأعوانَ والأنصارَ أو الجنود: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 50]، ثُمَّ القوم: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ﴾ [الأعراف: 141][1].

3) ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾: لقب يقال لملوك مصر القديمة[2]، اختلفوا في عربيَّة هذا اللَّفظ: فمنهم من قال بعربيَّته، وذهب إلى اشتقاقه من الفَرْعَنَة: الكِبْر والتَّجبُّر، وفِرْعَوْنُ كُلِّ نَبِيٍّ: مَلِكُ دَهْره، قَالَ القَطاميُّ:

وشُقَّ البَحْرُ عَنْ أَصحابِ مُوسَى*** وغُرِّقَتِ الفَراعِنَةُ الكِفارُ[3]

الكِفارُ: جَمْعُ كَافِرٍ كَصَاحِبٍ وَصِحَابٍ، وَفِرْعَوْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّه تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ هَذَا، وإِنما تَرَكَ صَرْفَهُ - فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ -؛ لأَنَّه لَا سَمِيَّ لَهُ، كإِبليس فِيمَنْ أَخذه مِنْ أَبْلَسَ، قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَعِنْدِي أَنَّ فِرْعَوْنَ هَذَا العَلَم أَعجميٌّ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُصْرَفْ، الْجَوْهَرِيُّ: فِرْعَوْنُ لَقَبُ الْوَلِيدِ بْنِ مُصْعَبٍ مَلِكِ مِصْرَ، وكلُّ عاتٍ فِرْعَوْنٌ، والعُتاةُ: الْفَرَاعِنَةُ، وَقَدْ تَفَرْعَنَ، وَهُوَ ذُو فَرْعَنَة، أَي: دَهاء وتَكَبُّر[4]، والصَّواب أنَّه معرَّب، وفيه نقاش طويل، ليس هذا مجاله[5]، وقد ذكر العلَّامة ابنُ كثير طرفًا منه، ثم قال: وأيًّا ما كان؛ فعليه لعنةُ اللّه.[6]

4) ﴿كَذَّبُواْ﴾ الْكَافُ وَالذَّالُ وَالْبَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّدْقِ، وَتَلْخِيصُهُ أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ نِهَايَةَ الْكَلَامِ فِي الصِّدْقِ، مِنْ ذَلِكَ الْكَذِبُ خِلَافُ الصِّدْقِ، كَذَبَ كَذِبًا، وَكَذَّبْتُ فُلَانًا: نَسَبْتُهُ إِلَى الْكَذِبِ، وَأَكْذَبْتُهُ: وَجَدْتُهُ كَاذِبًا، يقال كَذَب الحرُّ: انكسر، والعينُ: خانها حِسُّها، والسَّيْرُ: إذا لم يَجِدَّ. والمعنى المحوريُّ: نَقْص الحِدَّة والشدَّة الجارية في الشَّيء، أو المتوقَّعة منه كانكسار الحرِّ الجاري، ونَقْص حِسِّ العين، ومنه "الكَذِبُ من القول"؛ لأنَّه نَقْص، بل فَقْد للمتوقَّع من الكلام، بل لما وُجد من أجله، وهو التَّعبير عن حقيقة ما في النَّفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزمر: 3][7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، والراغب، المفردات: (آل)، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أول).

(2) فرعون كان لقبًا للملوك المتأخرين لمصر القديمة، لم يلقِّب المصريون حاكمَهم (فرعون) حتى الأسرة الثانية عشرة (1304 - 1554ق.م) الموسوعة العربية العالمية: 17/304.

(3) البيت من بحر الوافر، للقطامي التغلبي، وهو في ديوانه، ص: 345.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (فرعن).

(5) للاستزادة يراجع: رؤوف أبو سعدة، العلم الأعجمي في القرآن مفسَّرًا بالقرآن من إعجاز القرآن: 2/33 - 49.

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/161.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كذب).

5) ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: المعنى المحوريُّ: بقاء الشَّيء في مكانه شاخصًا، أي: مجسَّمًا، علامةً لشيء، وأَصْلُ آيَةٍ: أَأْيَةٌ بِوَزْنِ أَعْيَة، مَهْمُوزٌ هَمْزَتَيْنِ، فَخُفِّفَتِ الْأَخِيرَةُ فَامْتَدَّتْ، والآية: هي العلامة الظَّاهرة، والصَّحيح أنَّها مشتقَّة من التَّأيِّي الَّذي هو التَّثبُّت، قال ابن منظور: "يقال: قد تأيَّيت، أي: تلبَّثت، وتحسَّبت"، والإقامة على الشَّيء.

يقال: تأيَّ، أي: ارفقْ، "والتَّأيِّي: التَّنظُّر والتُّؤدة، يقال: تأيَّا الرَّجل؛ إذا تأنَّى في الأمر"، أو من قولهم: أوى إليه، ومن كون الشَّيء المجسَّم الشَّاخص علامة على شيء كان كما سبق.

كثُر في القرآن الكريم لفظ (آية) بمعنى: علامة إعجازيَّة ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ [الأعراف: 73]، أي: علامة على صدق النَّبيِّ ﷺ - سيِّدنا صالح هنا -، وأنَّه مرسل من عند الله، أو علامة لأمر من عند الله، وإن لم يكن من باب المعجزات: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران: 41]، أو علامة دالَّة على وجود الخالق وصُنعه في هذا الكون من مثل: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصّلت: 53][1] والمقصود بالآيات هنا ما جاء به الرُّسل من الكتب المنزَّلة والمعجزات.

6) ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: الْهَمْزَةُ وَالْخَاءُ وَالذَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ فُرُوعٌ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، أَمَّا (أَخَذَ)؛ فَالْأَصْلُ حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ خِلَافُ الْعَطَاءِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارة بالقهر، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾ [النَّازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 102]، ويعبَّر عن الأسير بالأخيذ والمأخوذ[2].

7) ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾: الذَّالُ وَالنُّونُ وَالْبَاءُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا: الْجُرْمُ، وَالْآخَرُ: مُؤَخَّرُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ: كَالْحَظِّ وَالنَّصِيبِ، وهو في الآية هنا بمعنى: "الإثم والجُرْم والمعصية"، والذَّنب في الأصل: الأخذ بذنَب الشَّيء، يقال: ذنبته: أصبت ذنَبه، ويستعمل في كلِّ فِعل

(1) الراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أخذ).

يُستوخم عقباه اعتبارًا بذنَب الشَّيء، ولهذا يسمَّى الذَّنْب: تبعة، اعتبارًا لِما يحصل من عاقبته؛ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 11]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40]، وقال: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 135][1].

8) ﴿شَدِيدُ﴾ الشِّينُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ، وَفُرُوعُهُ تَرْجِعُ إِلَيْهِ[2].

9) ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾: الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَالْبَاءُ: أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى تَأْخِيرِ شَيْءٍ وَإِتْيَانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ وَشِدَّةٍ وَصُعُوبَةٍ.

والعقوبة والمعاقبة والعقاب يختصُّ بالعذاب، قال ﷻ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ [ص: 14]، ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [الحشر: 4]، ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النَّحل: 126]، ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [الحج: 60]، والتعقيب: أن يأتي بشيء بعد آخر[3].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

هلاك الظالمين الفجرة، عبرة للفاسقين الكفرة

عادة هؤلاء الكافرين في تكذيب الحقِّ كعادة آل فرعون ومَن قبلَهم: من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم، فكما أنَّ آل فرعون لم تُغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم، فأُخذوا في الدُّنيا، وعُذِّبوا في الآخرة، فكذلك هؤلاء، فجازاهم الله بسبب ذنوبهم، فأهلكهم، وَاللَّه شديدٌ عقابُه، أليمٌ عذابُه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية الكريمة:

دلالة الاستئناف البيانيّ، على إيضاح ما في الآية من المعاني

جاءت الآية الكريمة ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ دون عطف؛ لأنَّها استئناف بيانيٌّ لِما قبلها؛ فكأنَّه لَمَّا ذكر عذابَ الكافرين سُئِل: ما سببُ هذا العذاب؟ فأُجيب: حالُهم في الكفر والتَّكذيب واستحقاق العذاب كحال آل فرعون ومَن قبلَهم[4].

(1) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ذنب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (عقب).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/91.

إعراب حرف الكاف وأثره في المعنى:

ورود الكاف بمعنى مثل، وسيلة للإيضاح المفيد

الكاف اسم بمعنى: مِثْل، في محلِّ رفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: دأبُ هؤلاء كدأب مَن قبلهم، ولك أن تجعل الكاف حرفَ جرٍّ، فيكون الجارُّ والمجرور متعلِّقَين بمحذوفٍ خبر لذلك المبتدأ المحذوف، ويجوز نصبُ محلِّ الكاف ومدخولها على المفعوليَّة المطلقة أو الحال[1].

وقد جاءت الكاف وسيلةً للإيضاح، فقامت هي وما بعدها مقامَ المثال للقاعدة، وغيرُ خافٍ ما للمثل الَّذي يُضْرَب من التَّأثير والإقناع.

بيان التَّشبيه وبلاغته في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ تشبيه، اختلف العلماء في بيانه، وأرى أنَّ تحرير محلِّ النِّزاع يتطلَّب بيان المقصود بالدَّأب أوَّلًا، ثُمَّ بيان المشبَّه ووجه الشَّبه بعد ذلك، وخلاصته كما يأتي:

معنى (الدَّأْب) ودلالته:

سبق بيان معناه من جهة المعاجم، والكلام هنا مختصر؛ ليناسب المقام، حيث بيانُ وجه الاستعمال حقيقةً أو مجازًا.

أولًا: المراد به حقيقةُ اللَّفظ، وهو أنَّ الدَّأَب هنا الاجتهاد، مأخوذ من قولهم: دأبْت في الأمر؛ إذا اجتهدت فيه، ومن أبرز معنى الجِدِّ والاجتهاد قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47]، أي: بِجِدٍّ واجتهاد باستمرار.

وعليه يكون المعنى اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النَّبيِّ ﷺ كتظاهر آل فرعون على موسى عليه السلام أي: إنَّ اجتهادهم يحتمل أمرين:

(1) كاجتهادهم في نصرة الكفر على الإيمان.

(2) كاجتهادهم في الجحود والبهتان[2].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/463.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/372، الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (دأب).

ثانيًا: المراد بالدَّأْب الحالُ والشَّأنُ والعادة؛ لأنَّ من يستمرُّ في عمل أمدًا طويلًا يصير عادة من عاداته، وحالًا من أحواله، فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللَّازم، فهو مجاز مرسل، علاقته الملزوميَّة[1]، وعليه يكون المعنى أحدَ وجهين:

(1) كعادتهم في التَّكذيب بالحقِّ.

(2) كعادتهم في عقابهم على ذنوبهم، فيكون هذا الأخير من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ لأنَّ المضاف إليه هنا ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ معاقَبون، في حين أنَّه - في غير هذا المعنى - مضاف إلى فاعله.

المشبَّه ودوره في السّياق:

ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهم مشركو قريش يوم بدر، كانوا في انتقام اللّٰه منهم لرسله والمؤمنين، كآل فرعون في انتقامه منهم لموسى وبني إسرائيل، فيكون هذا تذكيرًا للرَّسول ﷺ والمؤمنين بنعمة سبقت؛ لأنَّ هذه الآية نزلت بعد بدر استدعاءً لشكرهم عليها.

والقول الثاني: إنَّها عامَّة في الكافرين جميعًا، ولا سيَّما اليهود المنكرين لرسالته ﷺ كما سيأتي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وعليه يكون وعدًا بنعمةٍ مستقبَلة؛ لأنَّها نزلت قبل قتل يهود بني قينقاع، فحقَّق وعده، وجعله معجزًا لرسوله ﷺ.[2]

والقول الثالث: أن المشبَّه هو أنَّ أموالهم وأولادهم لا تنفعهم في إزالة العذاب، فكان التَّشبيه بآل فرعون حاصلًا في هذين الوجهين، والمعنى: أنَّكم قد عرفتم ما حلَّ بآل فرعون ومَن قبلَهم من المكذِّبين بالرُّسل من العذاب المعجَّل الَّذي عنده لم ينفعهم مال ولا ولد، بل صاروا مضطَّرِّين إلى ما نزل بهم، فكذلك حالكم أيُّها الكفَّار المكذِّبون بمحمَّد ﷺ في أنَّه ينزل بكم مثلُ ما نزل بالقوم تقدَّم أو تأخَّر، ولا تغني عنكم الأموال والأولاد[3].

---

(1) إطلاق اسم الملزوم على اللازم: مثال ذلك: دخلت الشَّمس من النَّافذة والمقصود نورها لا جرمها. فكلمة الشَّمس مجاز مرسل علاقته الملزومية، ولأنَّ المعنى الحقيقيَّ للشَّمس: هو جرمها، وجرمها ملزوم للمعنى المجازي الَّذي هو الضوء، والقرينة (دخلت). قاسم، علوم البلاغة: ص 222.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/372.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/154.

وجه الشَّبه وأثره في الكلام:

أوَّلًا: على أنَّ الدَّأْبَ بمعنى: الجدِّ والاجتهاد، يكون وجهُ الشَّبه: هو جِدُّ الفريقين واجتهادهما في التَّكذيب والكفر، أي: اجتهادهم في تكذيبهم بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ وكفرهم بدينه كاجتهاد آل فرعون مع موسى عليه السلام ثمَّ إنَّا أهلكنا أولئك بذنوبهم، فكذا نهلك هؤلاء.

ثانيًا: على أنَّ الدَّأْبَ بمعنى: الحال والشَّأن والعادة، أي: حال هؤلاء في الكفر واستحقاق العذاب كحال آل فرعون[1]، يعني: أنَّ صنيع الكفَّار معك، كصنيع آل فرعون مع موسى[2].

العدول عن قوله (قوم فرعون) إلى قوله ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:

علّة إطلاق الآل على أشدِّ النَّاس اختصاصًا بالمضاف إليه

أريد بآل فرعون: فرعونُ وآلُه؛ لأنَّ الآل يُطلق على أشدِّ النَّاس اختصاصًا بالمضاف إليه، والاختصاص هنا: اختصاص في المتابعة والتَّواطؤ على الكفر، كقوله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، فلذكر الآل هنا من الخصوصيَّة ما ليس لذكر القوم؛ إذْ قوم الرَّجل قد يخالِفون، فلا يدلُّ الحكم المتعلِّق بهم على أنَّه مساوٍ لهم في الحكم، قال تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود: 60]، وقال: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ [الشعراء: 10-11][3].

نكتة ذكر آل فرعون، والعدول عن ذكر فرعون وحده:

ذكر آل فرعون، يدلّ على أنّهم السَّبب في طغيانه

إنَّ ذِكر آل فرعون يتضمَّن ذِكر فرعون؛ لأنَّه إذا كان العناد في التَّابع؛ فهو في المتبوع أشدُّ؛ وفوق ذلك فإنَّ آل فرعون وحاشيته ونصراءَه هم السَّبب في طغيانه، وهم الَّذين سهَّلوا له سبيل الطُّغيان، وضنُّوا بالموعظة في إبَّانها، وهم الَّذين حرَّضوه على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/91.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/196.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/33.

الاستمرار في الشَّرِّ والإيغال فيه، فهم اتَّبعوه أوَّلًا، ثم حرَّضوه على الطُّغيان ثانيًا بمبالغتهم في مرضاته، واستحسان ما يفعل[1].

سرُّ تخصيص ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، وعطف عبارة ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

ضرب المثل بآل فرعون، للعلم بهلاكهم، وقرب عهدهم بهم

تخصيص آل فرعون بالذِّكر - من بين بقيَّة الأمم - لأنَّ هلَكهم معلوم عند أهل الكتاب، بخلاف هلَك عادٍ وثمودَ، فهو عند العرب أشهر، ولأنَّ تحدِّي موسى إيَّاهم كان بآيات عظيمة، فما أغنتهم شيئًا تُجاه ضلالهم، ولأنَّهم كانوا أقرب الأمم عهدًا بزمان النَّبيِّ ﷺ فهو كقول شعيب: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: 89]، وكقول اللّه تعالى للمشركين: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾ [الحِجر: 76][2].

ولأنَّهم هم الَّذين حرَّضوه على الشُّرور والآثام والطُّغيان، فلقد حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127][3].

ولأنَّ فرعون كان أشدَّ الطُّغاة طغيانًا، وأكبرهم غرورًا وبطرًا، وأكثرهم استهانةً بقومه، واحتقارًا لعقولهم وكيانهم، ألم يقل لهم، كما قصَّ القرآن: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النَّازعات: 24]، ألم يبلغ به غروره أن يقول لهم: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١﴾ [الزُّخرُف: 51]، ألم يقل لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: 37]، ولقد وصف اللّه تعالى قوم فرعون بهوان الشَّخصيَّة، وتفاهة العقل، والخروج عن كلِّ مكرمة، فقال: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزُّخرُف: 54]؛ لأنَّ الأمَّة الَّتي تترك الظَّالم وبطانتَه يعيثون في الأرض فسادًا لا تستحقُّ الحياة، ولا يكون مصيرُها إلَّا إلى التَّعاسة والخُسران[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1122.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/40.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/40.

وآل فرعون من الفئات المشاركة والمساندة لحكم فرعون ونظامه، وقد لعبوا دورًا مُهِمًّا في ظهور شخصيَّة فرعون، ذلك أنَّهم اتَّصفوا بصفات جعلتهم أداة طيِّعة بيد فرعون، أهمُّها الكفر والتَّكذيب بآيات اللّه، حتى صاروا لظلمهم ومظاهرتهم للظَّالم الطَّاغي مَضربًا للمثل في صنيعهم ومشايعتهم لفرعون، يقول تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، فمن دأبهم وشأنهم وعادتهم الكفر بآيات اللّه والتَّكذيب، فكيف لا يكونون دعامة لحكم فرعون الكافر المكذِّب؟[1].

بلاغة الفصل في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ بيان لدأبهم، استئناف بيانيٌّ، تفسير لصنيعهم الباطل، ودأبهم على الفساد والضَّلال.

الاستـئـنـاف البيانيّ، غايته إيضاح دأب آل فرعون

علَّة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

في إضافتها إلى اللّه تعالى تعظيم لها، وتنبيه على قوَّة دلالتها على الحقِّ والخير، وأتى بضمير الفاعل المعظِّم نفسَه؛ لما في الآيات المُنَزَّلة من عظيم الدلائل والبراهين السَّاطعة، والحجج القاطعة على وحدانيَّة اللّه، وصدق الرُّسُل في التَّبليغ.

إضـافـة ضـمير العظمة للآيات، مـن أقـوى ما يتضمّنه اللّفظ من دلالات

نكتة إيثار الضَّمير بين قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقوله ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]:

جاء قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إخبارًا عن اللّه تعالى؛ فكان بناؤها على الآية الَّتي قبلها أولى، فاقتضى العدول عن اسم الجلالة إلى ضمير العظمة، كما كان في الآية الأخرى، فاقتضى بناؤها على الآية الَّتي قبلها العدول عن لفظ الإضمار إلى لفظ الإظهار، فجرى الخبر في هذه الآية على اللَّفظ الظَّاهر[2].

ذكـر المضـمر والـظّـاهـر، يستوعب معنى الرّسالات الثّلاث الطّواهر

ولمَّا تقدَّم قبلها ذكر تنزيل الكتب الثَّلاثة، والإشارة إلى ما

(1) قاسم خضر، شخصية فرعون في القرآن، ص: 162.

(2) الإسكافي، درة التَّنزيل، ص: 356 - 371.

تضمَّنته من الهدى والفرقان؛ أتى على من كفر بصدِّه عنها وتكذيبه؛ ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولمَّا لم يقع في سورة الأنفال من أوَّلها إلى الآية الأولى من الآيتين ذكْرُ شيء من الكتُب المنزَّلة، ولا ذكر إنزالها، وإنَّما تضمَّنت حال المسلمين مع معاصريهم من كفَّار العرب، ومعظم ذلك في قتالهم وحربهم؛ ناسب ذلك التَّعبير بالكفر، فقال تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]، ثُمَّ لمَّا تلتها الآية الأخرى من غير طول بينهما وقع التَّعبير فيها بالتَّكذيب، فقال: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: 54]، وعدل عن لفظ ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لثقل التَّكرُّر مع القرب، وليَحْصُلَ وَسْمُهم بالكفر والتَّكذيب(1).

نكتة التَّعبير بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الأخـــذُ شـدَّة العـقـوبة، بلا فكاك عنها، ولا مهرب منها

في التَّعبير بالأخذ إشارة إلى شدَّة العقوبة، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الَّذي لا يستطيع فكاكًا من آسِره، ولا يقدر على التَّخلُّص(2).

وعليه؛ فالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ هو أخذ الانتقام في الدُّنيا كقوله: ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: 44]؛ إذ الأصل أنَّ حال المشبَّه أظهر من حال المشبَّه به عند السَّامع(3).

بلاغة التَّصريح باسم الجلالة في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

ذكـــر صـفـة الألوهيَّة، دلالة على تفريطهم في جنب ربّ البريّة

التَّصريح باسم الجلالة لإلقاء الهيبة في القلوب، ولإقامة الحجَّة عليهم بألوهيَّته المتضمِّنة معنى: العبادة، وقد ناوؤوه بكفرهم وتكذيبهم، فأخذهم الله الَّذي خاصموه، وتركوا عبادته، بل جحدوا به، وكذَّبوا بآياته.

فالَّذي حقَّت له العبادة، وعظمت منه النِّعمة؛ أخذهم بذنوبهم،

(1) ابن الزّبير، ملاك التأويل، ص: 78.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153، 154.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/174.

والله تعالى يعاقب الكفَّار عقوبة تشدُّ عليهم، ولا تخفَّف عنهم؛ لِما قدَّموا من العصيان ما استمرَّ مثله، ولم ينقل عنه قدم، ولا عقبه بعد الإصرار عليه ندم، فهذه فائدة العدول إلى لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دون قوله: (فأخذناهم)(1).

سرُّ الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الاحـتـجـاج بـأسـلـوب الالـتـفـات على مـا يـسـتـحـقُّـه جـلَّ وعـلا من العبوديَّة

لَمَّا كان أصل الكلام: هو الإخبار عن نفسه في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ كَانَ ٱلْقيَاس فأخذناهم، لَكِن لَمَّا عدل فِي ٱلْآيَة الأولى إِلَى قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9]؛ عدل فِي هَذِه ٱلْآيَة أَيْضًا؛ لتَكون ٱلْآيَات على مَنْهَج وَاحِد(2).

وعليه؛ فإنَّ ذكر اسم الجلالة الصَّريح التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغيبة، لما سبق من الاحتجاج به على ما يستحقُّه جلَّ وعلا من العبوديَّة المتضمِّنة في ألوهيَّته سبحانه، ولما فيه من اتِّصال الضَّمير، وتقديم المفعول به على الفاعل، وهو الضَّمير (هُم) من معنى المفاجأة والبغتة وشدَّة الغضب، وكيف لا؟ وقد جاءهم من الآيات ما فيه مدَّكر، ومن الأنباء ما فيه مزدجر، وإنَّها لأَخْذَةُ أَسفٍ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾:

الـذّنـوب سبب اسـتـحـقـاق الـعـذاب، ونيل أليم العقاب

الباء للسَّببيَّة، أي: أخذهم بسبب ما اجترحوه من ذنوب، أو الملابسة والمصاحبة، أي: أخذهم، وهم متلبِّسون بذنوبهم، دون أن يتوبوا منها، أو يقلعوا عنها، والجملة على الوجهين تدلُّ على كمال عدل الله تعالى؛ لأنَّه ما عاقبهم إلَّا لأنَّهم استحقُّوا ذلك، وأصل الذَّنب: الأخذ بذَنَب الشَّيء، أي: بمؤخِّرته، ثُمَّ أطلق على الجريمة؛ لأنَّ مرتكبها يعاقَبُ بعدها(3).

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 361.
(2) الكرماني، توجيه متشابه القرآن: ص 88.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

دلالة وضع المُظهر موضع المُضمر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

إيــــراد لـفـظ الجلالة ظاهرا، زيـــادة وعـيـد، وإقـامـة الـحـجّة على كلّ عنيد

لَمَّا كان معنى قولنا: ﴿وَٱللَّهُ﴾ بمعنى: الإله، والإله مشتقٌّ من: أَلَهَ يَأْلَه، أي: عبَد يعبُد عبادة، فالإله: هو الَّذي حقَّت عبادته؛ لَمَّا عظمت نعمته، وكان العدول إلى اسم الجلالة - للاحتجاج بمعناه - فائدة لم تكن لتحصل؛ لو قال: (وهو شديد العقاب)[1]، وليرفع اللَّبس في عود الضَّمير إلى العذاب المفهوم من الأخذ.

بلاغة تذييل الآية وعلاقته بالسِّياق:

مهمّة التّذييل، تقرير المضمون الــوارد قبله في السّياق

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله من الأخذ وتكملة له، ناسب هذا التَّذييل ما جاء في الآية الكريمة من المثل المضروب للكافرين، من تشبيه حالهم في التَّكذيب، وما سيحلُّ بهم من العذاب، بحال آل فرعون ومن قبلهم، من التَّكذيب بالآيات والتَّنكيل بهم، فأظهر الاسم الجليل الشَّريف، ولم يُضمر؛ للتَّنبيه على زيادة العظمة في عذابهم لمزيد اجترائهم، والله تعالى الملك الَّذي لا كُفْءَ له في جبروته، ولا شيء يشبهه من نعوته، شديد العقاب لا يعجزه شيء[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

جاءت آيتان أخريان تشابهتا مع قوله تعالى هنا: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وهما متتاليتان، لم يَفصل بينهما سوى آية، وهو قوله تعالى في سورة الأنفال:

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ [الأنفال: 52]، وقوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم

(1) الإسكافي، درة التنزيل: ص 359.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/26، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/11.

﴿بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾ [الأنفال: 54]، تلك آيات ثلاث متشابهات، نكتفي بتوجيه ما لم يُذكَر في الإيضاح اللُّغويِّ والبلاغيِّ، فنقول:

في الآية الأولى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ؛ لتعظيم الآيات، وتهويل جُرْمهم، ومناسبة السِّياق في ذكر التَّوراة والإنجيل والفرقان، وفي الآية الثَّانية: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]؛ لمناسبة الصِّراع القائم حينئذٍ بين الكفَّار والمؤمنين، ولتقدُّم ذكر الملائكة والشَّيطان، وكلٌّ له فِعْلٌ، ولكن فعلَهم بأمر اللّٰه، فناسب إضافة الآيات إلى اسم اللّٰه؛ ليُعلم أنَّ الأمر له ﷻ، وأنَّه مُريهم الآيات، ولا فعل إلَّا له، وأنَّ الملائكة مسخَّرون بأمره، وفعلهم من خلقه، وتزيين الشَّيطان لهؤلاء الكفَّار إنَّما هو بقدر اللّٰه، وسابق مشيئته، وكلُّ ذلك خلقه وملكه، والآيات آياته، وله المثل الأعلى.

وفي الآية الثَّالثة: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54]؛ ليجمع في وصفهم بين الكفر والتَّكذيب، وليجري مع ما تقدَّمه متَّصلًا به من ذكر النِّعم، فناسبه ذكر ملكيَّته سبحانه لهم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54]، فهو المحسن والمالك، ثم جرى القدر بما سبق لهم، فإيراد قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54] أوقع في نفوسهم وأشدُّ في تحسُّرهم وندامتهم، إذا شاهدوا الأمر؛ فعلموا أنَّه مالكهم، وأنَّه ابتدأهم بالنِّعم، فغيَّروا، فحصل من ذلك أنَّهم قابلوا نِعَم ربِّهم بالكفر مع بيان الأمر ووضوحه، ولو قيل: بآيات اللّٰه؛ لما أحرز هذا المعنى[1].

وسرُّ تكرار الآيتين من سورة الأنفال في موضعين لا يحجز بينهما إلَّا آية واحدة؛ لوجود نوعين مختلفين من العذاب فيهما، وإذا كان لم يكن تكرار؛ لأنَّه في الآية الأولى عقوبته إيَّاهم عند الموت، والبشارة الَّتي أتتهم بعذاب الحريق، وأنَّه فعل بهم ذلك كما فعله بآل فرعون، ومَن كان قبلهم من الكفَّار، ثمَّ ذكر في الثَّانية ما يفعله بهم من شدَّة عقابه بعد الموت كما فعله بآل فرعون، ومَن كان قبلهم من الكفَّار، وما أجرى عليه العادة في تعذيبه إيَّاهم بعد الموت في القبور وغيرها.

أو أنَّه أخبر في الأولى عمَّا عاقبهم به من العذاب الذي لم يملك النَّاس إيقاعه، ولم يُمكَّن بعضُهم من أن يفعل ببعض مثلَه، وهو ضربُ الملائكة وجوهَهم وأدبارَهم عند نزع

(1) ابن الزّبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.

أرواحهم، وإخبارُهم إيَّاهم بمصيرهم إلى عذابٍ يحرقهم، وفي الثَّانية أخبر عمَّا أنزله بهم من العذاب الَّذي مُكِّن النَّاسُ من فعل مثله، وهو الإهلاك والإغراق؛ لأنَّ ذلك ممَّا أقدر اللّٰه تعالى العبادَ عليه،

فالنَّوعان هما: العذاب الأوَّل من أحكام الآخرة بعد ظهور أشراط السَّاعة، والعذاب الثَّاني من أحكام عذاب الدُّنيا، والَّذي يبيِّن ذلك أنَّه قال في الآية الأولى من سورة الأنفال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]، فأخبر عن أعظم ما ارتكبوه، وهو الكفر، وذكر آيات اللّٰه وهو الاسم الَّذي يفيد استحقاق العبادة الَّتي هي مضادَّة الكفر، أي: أخذهم من أنعم عليهم؛ ليشكروا لَمَّا عصوا، وكفروا بذنوبهم الَّتي ارتكبوها[1].

وأمَّا اختيار لفظة: ﴿كَفَرُواْ﴾ على لفظ: (كذبوا)؛ فلأنَّ الآية، وهي ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، لَمَّا أعيدت؛ دلَّت إعادتها على أنَّ المراد التَّأكيد لبيان قبح حالهم، فكان التَّصريح بالكفر أوقع، ولَمَّا صرَّح بالكفر بعد التَّأكيد بالإعادة - لا جرم - أكَّد الكلام بعد ذلك، فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: 52][2].

وأمَّا الحكاية في ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ [الأنفال: 54]؛ فللتَّفنُّن في الكلام، ولئلَّا يخلو عمَّا هو أصل الكلام[3].

وفي الآية الثانية من الأنفال تفصيل عقابهم بإغراق آل فرعون وأخذ من عداهم بغير ذلك، وقال: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: 54]؛ ليخالف قوله تعالى في الآية قبل: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [الأنفال: 52]؛ لاستثقال لفظ التَّكرار فيما تقارب، ولما قصد من التَّفصيل، وقد ضمَّ الفريقين من المهلَكين بذنوبهم والمغرَقين في قوله: ﴿وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾ [الأنفال: 54][4].

قوله تعالى في الآية الأولى من الأنفال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: 52] مقابل به قول الشَّيطان لمن قدَّم ذكره من الكفَّار: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 48]، فقوبل قوله المضمحلُّ بإسناد القوَّة للّٰه - ﷻ - كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 356 - 371.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم: 1/589 - 591.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم: 1/589 - 591.
(4) ابن الزبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.

﴿يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾ [البقرة: 165]، ولمَّا لم يرد في سورة آل عمران مثل هذا؛ وقع الاكتفاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.(1)

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّأب ولفظ العادة:

الدَّأب: العادة الَّتي عليها يدوم صاحبها، وهو أخصُّ من العادة، ومنه أدأب في سيره، ولذلك قال الفرَّاء: الدَّأب لزوم الحال الَّتي فيها(2).

والعَادة على ضَرْبَيْنِ: اخْتِيَار أَو اضطرار، فالاختيار: كتعوُّد النَّبِيذ، وَمَا يجْرِي مجْرَاه، مِمَّا يكثر الْإِنْسَان فعله، فيعتاده، ويصعب عَلَيْهِ مُفَارقَته.

والاضطِّرار مثل: أكل الطَّعَام، وَشرب المَاء؛ لإقامة الْجَسَد، وَبَقَاء الرُّوح، وَمَا شاكل ذَلِك.

والدَّأْب لَا يكون إِلَّا اخْتِيَارًا، أَلا ترى أَنَّ الْعَادة فِي الْأكل وَالشَّرب المقيمَيْنِ للبدن لَا تُسَمَّى دأبًا(3).

الآل والقوم:

الْقَوْم: هم الرِّجَال الَّذين يقوم بَعضهم مَعَ بعض فِي الْأُمُور، وَلَا يَقع على النِّسَاء إِلَّا على وَجه التَّبع، كَمَا قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: 105]، وَالْمرَاد الرِّجَال، وَالنِّسَاء تبع لَهُم، والشَّاهِد على مَا قُلْنَاهُ قَول زُهَيْر من الوافر:

وَمَا أَدْرِي وسوف إخال أَدْرِي *** أقوم آل حصن أم نسَاء؟

فَاخْرج النِّسَاء من الْقَوْم(4).

وكلُّ من يؤول إِلَى الرَّئيس فِي خَيرهمْ وشرِّهم، أَو يؤولون إِلَى خَيره وشرِّه؛ فَهُوَ الآل، وَالْقَوْم أَعمُّ مِنْهُ؛ لِأَنَّ كلَّ من يقوم الرَّئيس بأمرهم، أَو يقومُونَ بِأَمْرِهِ؛ فَهُوَ الْقَوْم(5).

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/437.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: ص 226.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: ص 279.
(5) الكفوي، الكليَّات: (آل) ص 164.

الآل والأهل:

إنَّ الْأَهْل: يكون من جِهَة النَّسَب والاختصاص، فَمن جِهَة النَّسَب: قَوْلك: أهل الرَّجل لِقَرَابَتِهِ الأدنين، وَمن جِهَة الِاخْتِصَاص: قَوْلك: أهل الْبَصْرَة، وَأهل الْعلم، والآل خَاصَّة الرَّجل من جِهَة الْقَرَابَة أَو الصُّحْبَة، تَقول: آل الرَّجل لأَهله وَأَصْحَابه، وَلَا تَقول: آل الْبَصْرَة وَآل الْعلم، وَقَالُوا: آل فِرْعَوْن أَتبَاعه، وَكَذَلِكَ آل لوط[1].

العقاب والعذاب:

إنَّ الْعقَاب ينبىء عَن اسْتِحْقَاق، وَسمِّي بذلك؛ لِأَنَّ الْفَاعِل يسْتَحقُّهُ عقيب فعله، وَيجوز أَن يكون الْعَذَاب مُسْتَحقًّا وَغير مستحقٍّ، وأصل الْعقَاب: التُّلُوُّ: وَهُوَ تأدية الأَوَّل إِلَى الثَّانِي، يُقَال: عَقبَ الثَّانِي الأَوَّلَ؛ إِذا تلاه، وعقب اللَّيْل نَهَار، وَاللَّيْل النَّهَار هما عقيبان، وأعقبه بالغبطة حسرة؛ إِذا أبدله بهَا، وعقب باعتذار بعد إساءة[2].

العقاب: هو جزاء الشَّرِّ أو الذَّنب، والعذاب: هو تنفيذ العقاب، والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب: وهو الكفر والذُّنوب على اختلاف أنواعها وتعدُّد مراتبها[3].

إشارة إلى أنَّ شدَّة العقاب سببها شدَّة الجريمة وتعليم للنَّاس بأنَّ كلَّ فعل له جزاؤه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وتقرير وتأكيد لمضمون ما قبلها[4].

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص 281.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص 239.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 123.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين نماذج الهلاك للسّوابق، وبين مصير الكفرة اللّواحق

بعد أن أخبر بحال الكافرين، وعدم إغناء أموالهم وأولادهم عنهم من الله شيئًا، في الدُّنيا والآخرة، وأنَّهم حطب النَّار، وضرب لهم مثلًا يُشبههم، فحالهم كحال آل فرعون في التَّكذيب الصَّادر منهم والتَّعذيب الواقع عليهم، لَمَّا ظهر ذلك جليًّا، وبان أنَّ هؤلاء الكافرين المكذِّبين مغلوبون صرَّح لنبيِّه ﷺ بذلك تشريفًا له وتكريمًا، ووعيدًا لهم وتهديدًا، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٢﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قُل﴾: أمر من القول، وهو مِنَ النُّطْقِ، يُقَالُ: قَالَ يَقُولُ قَوْلًا، وَالْمِقْوَلُ: اللِّسَانُ، والقَوْلُ يستعمل على أوجه: أظهرها أن يكون للمركَّب من الحروف المبرز بالنُّطق، مفردًا كان أو جملة[1].

2) ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: من الغلبة، يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَقَهْرٍ وَشِدَّةٍ، مِنْ ذَلِكَ: غَلَبَ الرَّجُلُ غَلْبًا وَغَلَبًا وَغَلَبَةً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾ [الرّوم: 3]، وأصل غَلَبَتْ: أن تناول وتصيب غَلَبَ رقبته، والأَغْلَبُ: الغليظ الرَّقبة، يقال: رجل أَغْلَبُ، وامرأة غَلْبَاءُ، وهضبة غَلْبَاءُ، كقولك: هضبة عنقاء ورقباء، أي: عظيمة العنق والرَّقبة[2].

3) ﴿وَتُحۡشَرُونَ﴾: من الحشر، وهو الْجَمْعُ مَعَ سَوْقٍ، وَكُلُّ جَمْعٍ حَشْرٌ، إخراج الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلب).

ونحوها، وحَشر النَّاس يوم القيامة فيه أمور؛ لأنَّه يقع بَنشْرهم من قبورهم، وسَوْقهم إلى الموقف، وجمعهم فيه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف: 47][1].

4) ﴿جَهَنَّمَۖ﴾: اسم من أسماء نار الآخرة - والعياذ باللّه - ويقال للبئر: جَهَنَّم (بفتحتين فشدٌّ)، وجَهَنَّام (بتثليث الجيم والنُّون مشدَّدة): بعيدة القعر.

والمعنى المحوريُّ: بُعْد قَعْر الشَّيء وعُمق تجوُّفه مع تضامِّه على هذا التَّجوُّف، كالبئر الموصوفة، ومن هذا جَهَنَّم الَّتي يعذَّب فيها الكافرون - نعوذ باللّه منها وممَّا يؤدِّي إليها - وقد سمَّاها اللّه - ﷻ - هاوية: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ [القارعة: 9] "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"[2].

5) ﴿وَبِئۡسَ﴾: كلمة تستعمل في جميع المذامِّ، من البؤس بالضَّمِّ: شدَّة الفقر، والبأساء: الجوع، والبائس: الرَّجل النَّازل به بليَّة أو عُدْم يُرْحَم لما به، وبَئِس كـ (تعب): اشتدَّت حاجته، والتَّباؤس: التفاقر، والمعنى المحوريُّ: هو: حِدَّةٌ أو جفافٌ يخالط الجوف أو الحوزة: كالفقر الشَّديد الَّذي عُبِّر عنه بالعُدْم، ومن هذا: بِئسَ، (ضِدُّ: نِعْمَ)، فهي تدلُّ على الشَّقاء والفراغ من الخير، كما أنَّ (نِعْمَ) ضدُّ ذلك، ﴿وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: 102][3].

6) ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: الْمِيمُ وَالْهَاءُ وَالدَّالُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَوْطِئَةٍ وَتَسْهِيلٍ لِلشَّيْءِ، وَمِنْهُ الْمَهْدُ، وَمَهَّدْتُ الْأَمْرَ: وَطَّأْتُهُ، وَتَمَهَّدَ: تَوَطَّأَ، وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ومنه المهاد: الفراش، وقد مَهَدَ الفراشَ: بسطه ووطَّأه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾ [الروم: 44]، أي: يُوَطِّئُون، ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾ [البقرة: 206][4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنذار الكفّار بالغلبة والمصير إلى النّار، وبئس القرار

قل - أيُّها الرَّسول - لمشركي مكَّة واليهود وغيرهم الَّذين استهانوا بنصرك في بدر: ستُهزمون في الدُّنيا، وتجمعون سَوقًا إلى قعر النَّار المسمَّاة جهنَّم، وسيكون لكم في قعرها فراش، وبئس الفراش!

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حشر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهنم).
(3) الراغب الأصفهاني، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بأس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مهد).

هذا، وقد استجاب النَّبيُّ ﷺ لأمر ربِّه، وجمع اليهود بعد بدر في سُوق بني قينقاع، فحذَّرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا: لا يغرنَّك أنَّك أصبتَ أغمارًا لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا؛ لعلمت أنَّا نحن النَّاس، فنزلت، وقد صدق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النَّضير وفتح خيبر، وضرب الجِزية على مَن عداهم، وهو من دلائل النُّبوَّة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل لكمال الاتِّصال في السّياق:

تأكيد المضمون السّابق، تناسق وترابط بين الآيات

وهذا الكلام تأكيد لمضمون ما قبله، أي: قل - يا محمَّد ﷺ- لهؤلاء المغرورين بِحَوْلِهِمْ وقوَّتهم المعتزِّين بأموالهم وأولادهم: إنَّكم ستغلبون في الدُّنيا وتعذَّبون في الآخرة، وقد كان الكافرون يعتزُّون بأموالهم وأولادهم، فتوعَّدهم الله تعالى وبيَّن لهم أنَّ الأمر ليس بالكثرة والثَّروة، وإنَّما هو بيده سبحانه وتعالى.

وقد أنفذ الله وعيده الأوَّل في أولئك الكافرين، فغُلبوا في الدُّنيا، وقيل: إنَّ الخطاب لليهود، وقد غلبهم المسلمون، فقتلوا بني قريظة الخائنين، وأجلوا بني النَّضير المنافقين، وفتحوا خيبر، وقيل: هو للمشركين، وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر، وأتمَّ الله نعمته بغَلَبِهم يوم الفتح، ولم تُغنِ عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم، وسينفذ وعيده بهم في الآخرة، فيحشرون إلى جهنَّم، وبئس المهاد[2].

الاستئناف الابتدائيُّ ودلالته في الآية:

دلالة الانتقال من التَّخويف وضرب المثل، إلى التَّهديد والوعيد

استئناف ابتدائيٌّ؛ للانتقال من النِّذارة إلى التَّهديد، ومن ضرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر، إلى ضرب المثل لهم بسابق

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/7، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسَّر: 51.
(2) رضا، تفسير المنار: 391، 392.

أحوالهم المُؤْذِنة بأنَّ أمرهم صائر إلى زوال، وأنَّ أمر الإسلام ستندكُّ له صمُّ الجبال[1].

نكتة مخاطبة النَّبيّ بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

السّياق تشريف للنَّبيّ بالخطاب، وتهديد للكافرين بالهون والعذاب

لقد أمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يتولَّى الرَّدَّ عليهم، وأن يواجههم بهذا الخطاب المشتمل على التَّهديد والوعيد؛ لأنَّهم كانوا يتفاخرون عليه بأموالهم وبقوَّتهم، فكان من المناسب أن يتولَّى ﷺ الرَّدَّ عليهم، وأن يخبرهم بأنَّ النَّصر سيكون له ولأصحابه، وأنَّ الدَّائرة ستدور عليهم[2].

سرُّ العدول عن ضمير (هم) إلى الاسم الظّاهر:

الاسم الظاهر تخصيص للكافرين بالنِّذارة، مع زيادة تبكيتهم

يحتمل أنَّ المراد بالَّذين كفروا المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾، فيجيء فيه ما تقدَّم، والعدول عن ضمير (هم) إلى الاسم الظَّاهر لاستقلال هذه النِّذارة، ولا يخلو من تبكيت لهم وتقريع.

والظَّاهر أنَّ المراد بهم المشركون خاصَّة، ولذلك أعيد الاسم الظَّاهر، ولم يُؤتَ بالضَّمير بقرينة قوله بعده: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾، وذلك ممَّا شاهده المشركون يوم بدر[3].

دلالة حرف السِّين في قوله: ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾:

إبراز الإعجاز الغيبيِّ، بدلالة الحرف الدّالّ على المستقبل

يدلُّ حرف السِّين على المستقبل القريب، ويشير هنا إلى إعجاز غيبيٍّ يُنَبَّأ به الرَّسول ﷺ ويؤمر من قِبَل ربِّه بتبليغه لهؤلاء الكافرين، وقد فعل النَّبيُّ ﷺ ذلك، كما جاء في سبب النُّزول، وهذه آية من الآيات الدَّالَّات على صدق النَّبيِّ ﷺ وعظيم إيمانه وثقته بربِّه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

سرُّ التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ﴾:

ما سيلقاه الكافرون، ممّا سوف يكون

يشير الفعل المضارع إلى استمرار الغلب، واستحضار الصُّورة المُهينة للكافرين حين يُحشرون إلى جهنَّم.

القراءات ودلالاتها:

قرأ حمزة والكسائيُّ وخلف ﴿سَيُغۡلَبُونَ وَيُحۡشَرُونَ﴾ بالياء فيهما، والباقون بالتَّاء المنقَّطة من فوق فيهما ﴿سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ﴾[1]، فمن قرأ بالياء المنقَّطة من تحت، فالمعنى: بلِّغْهم أنَّهم سيغلبون، ويدلُّ على صحَّة الياء قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ﴾ [النور: 30]، ولم يقل: غضُّوا، ومن قرأ بالتَّاء؛ فللمخاطبة، ويدلُّ على حسن التَّاء قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ﴾ [آل عمران: 81] والفرق بين القراءتين من حيث المعنى أنَّ القراءة بالتَّاء: أمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنَّم، والقراءة بالياء: أمر بأن يحكي لهم[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

وجيء في هذا التَّهديد بأطنب عبارة وأبلغها؛ لأنَّ المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة، والتَّذكير بوصف يوم كان عليهم أن يعلموه[3].

قوَّة لفظ (جهنم) يدلُّ على شدَّة عذابها، وبُعد قعرها

إمساس الألفاظ أشباهَ المعاني[4]:

اصطفى القرآن من أسماء النَّار ما يُعبِّر عن المعنى المناسب للسِّياق، فآثر لفظ ﴿جَهَنَّمَۖ﴾ للوعيد في المواقف الَّتي يستعلي فيها

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/238.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

(4) هذا باب من الخصائص لابن جني، قال فيه: "اعلم أنَّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحَّته، ومن ذلك أنَّهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلًا على تكرير الفعل، فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق، وذلك أنَّهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني، فأقوى اللَّفظ ينبغي أن يقابل به قوَّة الفعل". ابن جني، الخصائص: 2/154 - 157.

الكافرون، ويطغى فيها الظَّالمون، ونحو ذلك، وقد ورد في القرآن الكريم سبعًا وسبعين مرَّةً، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ٢٠٦﴾ [البقرة: 206]، فانظر كيف توعَّد هذا الَّذي أخذته العِزَّة بالإثم بهذا الاسم المخيف ﴿جَهَنَّمَ﴾، وهكذا في سائر المواضع، ولن تعدم فيها هذا المعنى أو ما يحوم حوله.

وكانت ﴿جَهَنَّمَ﴾ بالذَّات لهؤلاء الكافرين؛ لأنَّهم زعموا أنَّهم أكثر أموالًا وأولادًا، وأنَّهم لن يُعَذَّبوا، فطغَوا، وبغَوا، وتكبَّروا على اللّه تعالى، فكان جزاؤهم في جهنَّم، والعياذ باللّه.

ومن النَّاحية الصَّوتيَّة: فإنَّ الجيم تعبِّر عن هيكل غير مُصمت، والهاء عن فراغ جوفه، والنُّون عن امتداد ذلك الفراغ في الباطن، والميم عن تضامِّها واستوائها على ذلك بقيام هيكلها هكذا، أو بأن عمقها الشَّديد جدًّا يُبْرِز تضامَّ ظاهرها على جوفها أو على ما يُلقى فيها، ولا أظنُّنا - بعد استعمال اللَّفظ وصفًا للبِئْر وعَلَمًا ولقبًا، وبعد انطباق المقاييس الصَّوتيَّة العربيَّة على اللَّفظ - بحاجة إلى الإطالة في تزييف ادِّعاء تعريب اللَّفظ عن الفارسيَّة أو العبريَّة (كهنام)، بل نضيف تأكيدًا لأصالة عروبته أنَّ من الاستعمالات العربيَّة "كلَّ نار عظيمة في مهواة؛ فهي جَحيم، "والصِّلة الصوتيَّة بين الجحيم وجهنَّم واضحة، فالحاء والهاء أختان[1].

عطف الإنشاء على الخبر في عطف: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾:

مـجـاورة الـذَّمِّ الـشَّـديـد، لـلـخبرالأكـيـد، إيـقـان بتحقِّق وقوعه

عطف ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ عطف الإنشاء على الخبر[2]، فعطْف جملة الذَّمِّ على الخبر - بأنَّهم سيغلبون في الدُّنيا، ويحشرون في الآخرة سوقًا إلى النَّار - دليل على أنَّ ما بعد الخبر مثله، وإن كان في الظاهر إنشاءً، إشارة إلى تحقُّقه.

دلالة رأس الآية ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على المراد:

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، إمَّا من تمام ما يقال لهم، أو استئناف لتهويل شأن جهنَّم، وتفظيع حال أهلها[3]، وعلى كلٍّ ففيه مزيد تهكُّم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهنم).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

تـهـويـل شـأن جهنَّم، وتفظيع حــال أهـلـهـا، بتبشيع وصفها

بهؤلاء الكافرين؛ إذْ إنَّ (المهاد) في الأصل: فراش ليِّن، وهو المكان المهيَّأ للنَّوم، والتَّعبير عن جهنَّم بأنَّها: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ لَا يخلو من تهكُّم بأولئك الكافرين، كما يقال: (تحيَّة بينهم ضربٌ وجيع)، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾ [آل عمران: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقرير هذه الآية لمضمون سابقتها، بإعلان دحر الكفّار، وحشرهم إلى النّار

لمَّا قرَّرت الآية السَّابقة أنَّ الَّذين كفروا سيُغلَبون، ويُحشرون إلى جهنَّم، وكان المقصودُ بالحديث: هم اليهود الَّذين كانوا يرون أنفسهم أكثرَ عددًا، وأقوى عُدَّة، وأشدَّ شكيمة في الحرب؛ ضرب اللّٰه لهم مثلًا على صحَّة الكلام السَّابق: بنصره المسلمين الـمُستضعَفين القليلي العدد والعُدَّة في غزوة بدرٍ على فئة الكفر الطَّاغية الباغية الَّتي كانت أكثر منهم عددًا، وأقوى شوكة، وأنزل اللّٰه نَصْرَهُ المبين، وأيَّد عباده المخلصين، وهكذا تكون نتائج الحروب حين يعتصم المسلمون بحبل اللّٰه تعالى، وتكون المعركة لرفع راية الحقِّ وإحقاق كلمة التَّوحيد دون أن تشوبها أغراضٌ دنيويَّة، من هنا قال جلَّ شأنه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ﴾، أي: إنَّ هذه الآية دليلٌ على صحَّة مضمون انهزام الَّذين كفروا وحشرهم في نار جهنَّم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِئَةٌ﴾: الفئة من النَّاس: الجماعة الَّتي يُفاءُ ويُرجَعُ إليها في وقت الشِّدَّة، قال الرَّاغب: "الفئة: الجماعةُ المتظاهِرةُ الَّتي يَرجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضد"[2].

2) ﴿يُؤَيِّدُ﴾: أصل الفعل: آيَدْتُهُ مؤايدةً، وأيَّدتُهُ تأييدًا، بمعنى: قوَّيْتُه، والأَيْدُ: القُوَّة الشَّديدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: 17]، أي: الَّذي خَصَصْناه بالقوَّة[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/155.
(2) الراغب، المفردات: (فيأ).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أيد).

3) ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾: أصل العِبرة مِن: عِبْر الوادي، وهو شاطئه وناحيته، ومِن: عَبَرَ الوادي والنَّهر، أي: قَطَعَه مِن عِبْره إلى عِبْره الثَّاني[1].

أي: نفذَ مِن أحد الجانبين إلى الآخر، والمرادُ بالعِبرة في هذا السِّياق: الاتِّعاظُ الَّذي يَعْبُرُ به العاقلُ المُتدبِّرُ في المسألة من منزلة الجهل إلى منزلة العلم تشبيهًا للمعقول بالمحسوس.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

الفئة المؤمنة منصورة على الكافرة، بالله الأحد، ولا يُغني مِنه عُدَّة ولا عدد

هذه الآية الكريمة خطابٌ عامٌّ للَّذين كفروا، ويدخلُ في المخاطبين اليهودُ دخولًا أوَّليًّا؛ نظرًا لوجودهم في المدينة المنوَّرة، وتربُّصهم السُّوء بالنَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وسبَبُ توجيه الخطاب لليهود أنَّهم كانوا يظنُّون أنفسهم في مَنَعَةٍ، وكانوا يعتدُّون بقُوَّتهم وأموالهم وأولادهم، فذكر اللّٰه تعالى لهم في هذه الآية أنَّه: قد كان لكم آيةٌ جليَّةٌ وعبرةٌ ظاهرةٌ وبرهانٌ ساطعٌ على الحقِّ الَّذي تحمله رسالةُ الإسلام، وعلى صدق نبوَّة محمَّد ﷺ وانظروا وتأمَّلوا بعين العقل في الحادثة الَّتي وقعت أمام أعيُنكم، حادثةِ بدرٍ: حيث التقى جيشُ المسلمين الفتيِّ الَّذي لا يتجاوز عدد أفراده ثلاثمئة وبضعة عشر مسلمًا، مع فريق الكفر المُدجَّج الَّذي كان عددهم تسعمئة وخمسين مقاتلًا، وكانوا ذوي عُدَّة وشوكة، ومع ذلك فإنَّ اللّٰه تبارك وتعالى نَصَرَ فئة المؤمنين الَّتي كانت تقاتل في سبيل اللّٰه، وأذلَّ وأخزى فئة الكفر الَّتي كانت تقاتل في سبيل الشَّيطان.

وممَّا أضعف اللّٰهُ ﷻ به فئةَ الكافرين أنَّه سبحانه كثَّر عدد المسلمين في أعينهم، حيث كان المشركون يَرَوْنَ المسلمين مِثْلَيْهم رَأيَ العين، أي: إنَّهم كانوا يَرَوْنهم يربون على ألف وتسعمئة مُقاتِل، فكان ذلك سببًا في الْفَتِّ في أفئدتهم وإلقاء الهلع في قلوبهم، فجَبُنُوا وفشلوا، وولَّوا الأدبار، وانقلبوا صاغرين مغلوبين.

(1) الزبيدي، تاج العروس: (عبر).

واعلموا أنَّ اللّه سبحانه يُقوِّي ويُؤيِّد بنصره من يشاء من عباده على وَفق حكمته ومشيئته، والعاقلُ الحصيفُ هو الَّذي بمثل هذه الأحداث يتَّعظ ويعتبر، ويرعوي وينزجر.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توكيد الجملة للاهتمام بمضمون الخبر:

حيثما التقى إيمانٌ صادقٌ وكُفرٌ بواحٌ؛ فالنَّصرُ للإيمان الصّراح

ابتداء الآية الكريمة بحرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾ يشير إلى قَسَم محذوف، وتقدير الكلام: وعزَّتي وجلالي قد كان لكم - أيُّها الكافرون المعادون لرسالة الإسلام - آيةٌ عظمى وحُجَّةٌ وُضْحى ودرسٌ بليغ في انتصار أهل الإيمان على قلَّتهم وضعفهم على أهل الكفر في غزوة بدر.

تقديمُ المتُعَلّق ﴿لَكُمۡ﴾ في الآية:

يُحبُّ الله لعباده الإيمان، ولا يرضى لهم الكفران

في قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾، قُدِّمَ المُتَعلَّق ﴿لَكُمۡ﴾ على اسم كان ﴿ءَايَةٞ﴾؛ إشارة إلى أنَّ هذه العلامة وهذا البرهان مسوقٌ خصِّيصًا للكافرين؛ ليعتبروا، وينزجروا، ويَرْعَوا عن كفرهم، ويعتنقوا عقيدة التَّوحيد الصَّحيحة السَّليمة، وفي الوقت نفسه: هذا التَّقديم مُسوِّغٌ لتذكير الفعل ﴿كَانَ﴾؛ لأنَّه فاصل بين ﴿كَانَ﴾ واسمها، وبعض النُّحاة يذهب إلى أنَّ تذكير الفعل مذهبٌ في التَّعبير معهود مع التَّأنيث المجازي.

دَلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿ءَايَةٞ﴾:

ما يسوقه الله مثلًا، يؤدّي مقصده بجدارة

دَلالتُها التَّعظيم، أي: تعظيمُ هذه الآيةِ الَّتي ساقَ بيانُ اللّهِ الآية كُلَّها لأجلها؛ فهي علامةٌ بيِّنةُ الوُضُوح

دلالة التَّعبير بالفئة في السّياق:

قال جلَّ شأنه: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ﴾: الفئةُ: هي الطَّائفة والمجموعة من النَّاس، سُمِّيَت فئة؛ لأنَّ عناصر هذه

المجموعة يفيءُ بعضهم إلى بعض، وينحاز بعضهم إلى بعض مُتناصرين متآزرين، وليس شيءٌ من هذه المعاني في الألفاظ الَّتي تقاربها في المعنى، مثل: الجماعة أو الفريق أو الطَّائفة أو الفوج، من هنا اختير لفظ (الفئة)؛ لبيان أنَّ كلَّ فئة من الفريقين كانت تضمُّ أفرادًا ينحاز، ويأوي بعضهم إلى بعض رغبة في النَّصر والظَّفر.

لفظ (الفئة) أنسبُ بمقام الحرب، وأليقُ بسياق القتال

والاستقراء القرآنيُّ يُؤيِّد هذا المذهب من الفهم حيث نجد أنَّ لفظ (الفئة) كثُرَ استعماله في القرآن الكريم في مشاهد القتال وأحداث الحروب.

قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: 249].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: 45].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾ [الكهف: 43].

دلالة المضارع في الفعل ﴿تُقَٰتِلُ﴾:

المضارع في قوله تعالى ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا لحكاية الحال، أي: استحضار الحالة الغريبة العجيبة لهذه الفئة المؤمنة أو للدِّلالة على استمرار قتالها وتجدُّده في سبيل اللّه تعالى، وهذا دليلٌ على شرافتها وثباتها على الحقِّ، وفي ذلك ثناءٌ عظيم على الفئة وأفرادها.

أهل الإيمان عن نصرة الحقِّ لا يستنكفون، وهم في مواقفهم ثابتون

بلاغة الاحتباك في وصف الفئتين:

ذَكَرَ اللّه تعالى مِن صفات الفئة المؤمنة: أنَّها تُقاتلُ في سبيل اللّه، وطوى ذِكْرَ صفة (مؤمنة) الَّذي دلَّ عليه ما يقابله، وهو قوله في المجموعة الثَّانية: ﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾.

يُميِّزُ المؤمنين القتالُ في سبيل اللّه، ويَسِمُ أهلَ الباطلِ كفرُهم بجلال الله

وذكر في جهة الفئة الكافرة فقط صفة الكفر: ﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾،

ولم يذكر أنَّها تقاتل في سبيل الشِّيطان أو سبيل الطَّاغوت المصرَّح به في سورة النِّساء، وهو المعنى الَّذي يدلُّ عليه وصف الفئة المؤمنة بأنَّها ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ويكون تقدير الكلام: قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا: فئة أولى مؤمنة تقاتلُ في سبيل اللّه، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطَّاغوت، وهذا الحذف التَّقابلي يُطلِق عليه البلاغيُّون مصطلح الاحتباك، أي: أن يُحذَفَ من الطَّرف الأوَّل من الكلام ما يدلُّ عليه في الطَّرف الثَّاني، وأن يُحذف من الثَّاني ما يُذكَرُ في الطَّرف الأوَّل.

ولعلَّ من أسرار الاحتباك في هذه الآية الكريمة التَّنبيهَ إلى أنَّ أعلى مراتب الفئة المؤمنة أنَّها تقاتل في سبيل اللّه إشعارًا بأنَّ القتالَ في سبيل اللّه منحصرٌ في المؤمنين، فلا حاجة لذكرهم بل يُعدُّ ذِكرُهم إطنابًا، وأنَّ الفريق الثَّاني أذمُّ صفة وأشنعُ نعتٍ يُعرَفُ به أنَّه فريقٌ كافرٌ باللّه تعالى، وكفى بهذا ذمًّا لهم وتشنيعًا لموقفهم(1).

نوع الرُّؤية ودلالتها في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم﴾:

تكثيرُ عدد المسلمين في أعين المشركين جنديٌّ من جنود الله تعالى

للّه جنود السَّموات والأرض، ومن جنوده في غزوة بدر أنَّه سبحانه كثَّرَ عدد المسلمين في أعين المشركين، فأصابهم الهلع، وتسلَّط عليهم الفزع، فانقلبوا مهزومين مغلوبين، ومعنى ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾: أنَّ المشركين رأوا المسلمين مِثْلَيْ عدد المشركين، والرُّؤية في هذا السِّياق بصريَّة، والدَّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾، أي: رأيَ المُعاينة والمُشاهدة، وليس ظنًّا وتخمينًا، كما ذهب إلى ذلك بعض أهل التَّفسير.

توفيق بين ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: 44] وبين: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾:

تقليلُ عدد المقاتلين وتكثيرُهم، من جنود القويِّ المتعال

قد يقول قائل: ذَكَرَ سبحانه وتعالى في هذه الآية أنَّه كثَّرَ عدد المسلمين في أعين المشركين في قوله سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾، وذكر في سورة الأنفال أنَّه قلَّل عدد كلِّ فريق في أعين الفريق الثَّاني: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 6/43.

﴿أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ [الأنفال: 44]، فأيُّهما وقع؟ وهل ثمَّة تناقضٌ بين الآيتين؟

الجواب: إنَّ الله تبارك وتعالى في سورة الأنفال قلَّل عددَ كلِّ فريق في أعين الآخر؛ ليُقدِمَ الفريقان على المواجهة والقتال، وكان ذلك قُبَيل بَدْء المعركة، وجملة ﴿إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾ تشير إلى هذا المعنى، أمَّا رُؤية المشركين بأنَّ عدد المسلمين هو ضِعْفُ عدد المشركين؛ فقد كان أثناء المعركة وحين التحام الصَّفَّين، فكان ذلك سببًا لخَوَرِهم وانهزامهم النَّفسي وانقلابهم على أعقابهم مدحورين.

وفي ذلك قال أبو حيَّان الغرناطي: "ويحتملُ أن يكون الضَّميرُ المجرور عائدًا على الفئة الكافرة، أي: مثلي الفئة الكافرة، وهم أنفسُهم، فيكون الله تعالى قد أرى المشركين المؤمنين أضعافَ أنفس المؤمنين، أو أضعافَ الكافرين على قلَّة المؤمنين ليهابوهم ويجبُنوا عنهم.

وكانت تلك الرُّؤيةُ مَدَدًا من الله للمؤمنين، كما أمدَّهم تعالى بالملائكة، فإنْ كانت هذه وآيةُ الأنفال في قصَّة واحدة؛ فالجمعُ بين هذا التَّكثير وذاك التَّقليل باعتبار حالين: قُلِّلوا أوَّلًا في أعين الكفَّار حتى يجترِئُوا على مُلاقاة المؤمنين، وكُثِّروا حالة المُلاقاة حتَّى قُهِروا، وغُلِبوا، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصَّافات: 24]، ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩﴾ [الرَّحمن: 39] "(1).

جِناسُ الاشْتقاقِ بين ﴿يَرَوۡنَهُم﴾ و﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾:

ما أراه الله لعباده، معجزة تبهر العقول

يُقالُ: رأيتُ الشَّيءَ رَأيًا ورُؤيةً ورُؤيا، ثلاثةُ مصادر، إلَّا أنَّ الرُّؤيا أكثرُ ما تُستعمَلُ في المنام، و﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ مَصدرٌ مُبيِّنٌ لنوعِ الرُّؤية؛ إذْ فِعْلُ (رَأى) يَحْتَملُ البَصَرَ والقَلْب، وإضافتُه إلى العَيْنِ دليلٌ على

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/217 - 218.

أنَّه يُستعمَلُ مَصدرًا لرَأى القَلبيَّة؛ إذِ الرَّأيُ اسْمٌ للعَقْل، وتُشارِكُها فيها رَأى البَصَريَّة، بخلافِ الرُّؤيَةِ؛ فخاصَّةٌ بالبَصريَّة[1].

ولذلكَ فإنَّ مَوْرِدَها (أي: العَيْن) في سياقِ الآيةِ تابعٌ لقولِه: ﴿يَرَوْنَهُم﴾، أي: إنَّ ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ ﴿يَرَوْنَهُم﴾؛ إنْ كانتِ الرُّؤيةُ بَصَريَّة، أو مصدرٌ تشبيهيٌّ؛ إنْ كانتْ قلبيَّة[2]، أي: رؤيةٌ ظاهرةٌ مَكشوفةٌ جاريةٌ مجْرَى رُؤيةِ العَيْن[3].

والدَّليلُ على أنَّها رؤيةٌ بَصَريَّة أمْرانِ اثْنان:

الأوَّلُ: قولُه تعالى: ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ﴾.

والثَّاني: أنَّ رُؤيةَ القلبِ عِلْم، ومُحَالٌ أنْ يعلم الشَّيء شيئَيْن[4].

تقديمُ لفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ بتقديمِ الفاعلِ على الفِعْل في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾:

تأييد الله لعباده، مدد ونصر وتمكين

جاءَ هذا التَّقديمُ الجليلُ للاسْمِ العظيمِ الجليلِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الفعلِ ﴿يُؤَيِّدُ﴾؛ ليقصُرَ التَّأييدَ، ويَحصُرَ النَّصرَ باللّهِ وحدَه دُون سواه، ولبيانِ أنَّ مكانةَ المُؤيَّدِ: وهم المسلمونَ بقيادةِ الرَّسول ﷺ، وعظمةَ المؤيَّدِ به: وهو فعلُ التَّأييدِ، ونتيجتُه: وهي النَّصر؛ من عظمةِ المؤيِّدِ: وهو اللّه لا أحدَ سواه.

دَلالة المضارع في قوله ﴿يُؤَيِّدُ﴾:

تأييد الله مُتجدِّدٌ للمؤمنين، ولن يتخلَّى الله عن عباده الصَّادقين

صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ تشير إلى استمرار تأييد اللّه تعالى وتجدُّد نصره لأهل الإيمان حين يستوفون شروط النَّصر الَّتي حدَّدها سبحانه وفق حكمته البالغة ومشيئته المطلقة وعلمه الأزليِّ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/178.

(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/449.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/415.

(4) العكبري، الإملاء: 1/127.

تأكيد جملة التَّذييل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾:

أولـو الأبـصـار والـنّـهـى، يـعـتـبرون بأحداث التَّاريخ ويتّعظون بها

جاءت جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ مفصولة عمَّا سبق من حديث في ثوب حكمة ربَّانيَّة صحيحة المضمون، مستقلَّة بمعناها؛ ليَسْهُلَ ضربُ الأمثال بها، وتوظيفُها في المقام الخطابيِّ المناسب، وما أحوج المسلمين أن يعتبروا بآيات القرآن الكريم وأحداث التاريخ وقصص الأوَّلين!

ولهذا الغرض؛ جاءت مؤكَّدَةً بجملة من المؤكِّدات هي: ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة واللَّام المزحلقة، وجاء فيها أيضًا تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم إنَّ ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾، وهذه كلُّها وسائل نحويَّة لتوكيد الكلام وتقريره.

اختيار ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بدل (الألباب)، من بلاغة الخطاب:

الّذين يبصرون الأحـــداث، يـكـونـون أكثر اتّعاظًا بها

لفظ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ جمع: (بَصَر) بمعنى: آلة الإبصار، واختيار لفظ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ دون الألفاظ المُقاربة له، مثل: الألباب أو العقول أو النُّهى، المرادُ منه: أنَّ أولي الأبصار الَّذين يرون هذه الأحداث بأعيُنهم هم الأكثر اتِّعاظًا والأكثر اعتبارًا بها، وليس الخبرُ كالمشاهدة.

وفي الوقت نفسه، يتناسبُ لفظ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ مع فعل الرُّؤية في الآية نفسها ﴿يَرَوۡنَهُم﴾، ويُشيرُ من ناحية ثالثة إلى البصيرة الَّتي هي رؤية الأحداث والأشياء بنور القلب.

دَلالةُ اسْتعمالِ لفظ ﴿ءَايَةٞ﴾ في المَطْلَعِ ولفظ ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ في الخاتمة:

مـا بـين الآيـة والعبرة، تتعمّق الفكرة

الآيةُ مُقدِّمةٌ لحصولِ النَّتيجة، أو سَبَبٌ وعِلَّةٌ لحدوثِ المُسبَّب، والعِبْرةُ بالمآلاتِ والنَّتائج، وهي الفائدةُ المَرْجُوَّة والمُعوَّلُ عليها، وإلَّا فإنَّ قطعَ الأسبابِ عن مُسبَّباتِها والمقدِّماتِ عن نتائجِها يَتورَّعُ منه العقلاءُ من البَشَر، فكيف بكلامِ ربِّ البشَرِ الَّذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه؟

ولذلكَ أيضًا جاءتْ كلمةُ ﴿لَعِبْرَةً﴾ نكرةً للتَّعظيم، أي: عبرةٌ عظيمةٌ ومَوْعظةٌ جَسيمَة.
وما بين الآيةِ العظيمةِ والعِبْرةِ العظيمةِ جاءَ العَرْضُ القرآنيُّ البيانيُّ الأخَّاذُ لذلكَ الحَدَثِ العظيم، والفَيْصَلِ الثَّمين، بإيجازٍ في العبارةِ ودِقَّةٍ في المَهارة، تَعجزُ عنه بلاغةُ البُلَغاءِ وفَصاحةُ الفُصَحاء، وكيف لا، وهو كلامُ اللّه الَّذي لا يَعلُوه كلام، ولا يَدْنو منه أيُّ مقام؟

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفئة، والفريق، والطائفة، والفوج، والزمرة:

حفلت اللُّغة العربيَّة بجملة من الألفاظ الدَّالَّة على المجموعات البشريَّة، مثل: الزُّمرة والفوج والطَّائفة والفريق والفئة، ومن المقرَّر في فقه اللُّغة العربيَّة أنَّه لا ترادفَ حقيقيًّا بين الكلمات، وإنَّما يوجد بينها تقاربٌ في المعاني والدَّلالات.

من هنا ذكر المُعجميُّون أنَّ الطَّائفة من النَّاس: جماعةٌ منهم، والطَّائفة من الشَّيء القطعةُ منه[1].

والزُّمرة: الجماعة النَّادرة المتخصِّصة في عمل دقيق ونادر، قال الخليل بن أحمد: "والزُّمرةُ فوجٌ من النَّاس، ويقال: جماعةٌ في تفرقة، بعض على أثر بعض"[2]، والحزب: جماعةٌ فيها غلظةٌ وشدَّةٌ تؤمن بهدف محدَّد تسعى إلى تحقيقه.

والفريق والفِرقةُ: يطلقُ هذا الاسم على الجماعة المتفرِّدة من النَّاس[3]، والفوج: جماعة تُشكَّلُ بسرعة للقيام بعمل مستعجل، والفئة: الجماعةُ المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضد".[4]

ممَّا سبق، يتجلَّى أنَّ لفظ ﴿فِئَةٌ﴾ هو أولى الألفاظ وأليقُها بسياق الحرب وملابسات لقاء المتحاربين حيث يفيءُ كلُّ جنديٍّ إلى الفئة الَّتي تحميه، ويجد نُصرتها ومؤازرتها.

المِثْل والضِّعْف:

المِثْلُ: هو عبارةٌ عنِ المُشابهَةِ لغيرِه في معنًى من المعاني، أيِّ معنًى كان، وهو أعمُّ الألفاظِ الموضوعةِ للمُشابَهة، وذلكَ أنَّ النِّدَّ: يُقالُ فيما يُشارِكُ في الجَوْهَر فقط، والشِّبْهُ:

(1) الراغب، المفردات: (طوف).
(2) الخليل، العين: (زمر).
(3) الراغب، المفردات: (فرق).
(4) الراغب، المفردات: (فيأ).

يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكيفيَّةِ فقط، والمُساوي: يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكمِّيَّةِ فقط، والشَّكْلُ فيما يُشارِكُه في القَدْرِ والمساحةِ فقط، والمِثْلُ: عامٌّ في جميع ذلك[1].

والضِّعفُ: من الألفاظِ المُتضايفَة الَّذي يَقْتضي وجودُ أحدِهما وجودَ الآخر، كالنِّصف والزَّوْج، وهو تركُّب قَدْرَيْن مُتساويَيْن، ويختصُّ بالعَدَد، فإذا قيلَ: أَضْعَفْتُ الشَّيءَ وضعَّفتُه، وضاعفتُه: ضَممتُ إليه مِثْلَه فصاعدًا.

والضِّعفُ: اسمٌ كالثِّني، فَضِعفُ الشَّيء هو الَّذي يُثَنِّيه، ومتى أُضيفَ إلى عَددٍ؛ اقْتضى ذلكَ العددَ ومثْلَه، يُقالُ: ضِعْفُ العَشَرَة، وضِعفُ المئة، فذلكَ عشرونَ ومئتانِ بلا خِلاف.

وإذا قيلَ: أَعْطِه ضِعْفي واحد؛ فإنَّ ذلك اقْتضَى الواحدَ ومِثْلَيْه، وذلكَ ثلاثة؛ لأنَّ معناه الواحدُ واللَّذان يُزاوجانه، وذلكَ ثلاثة، هذا إذا كان الضِّعفُ مُضافًا، فأمَّا إنْ لم يكنْ مُضافًا، كأنْ يُقال: الضِّعفَان؛ فإنَّ ذلك يجري مجرَى الزَّوْجَيْن في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُزاوجُ الآخَر، فَيَقْتَضِي ذلكَ اثْنَيْن؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُضاعِفُ الآخر، فلا يَخْرُجانِ عن الاثنَيْن بخلافِ ما إذا أُضيفَ الضِّعفانِ إلى واحدٍ فَيُثَلِّثُهما، نحو: ضِعْفي الواحد[2].

الأيد والقُوَّة:

الأيد: القوَّة الشَّديدة، وأيَّد فلان فلانًا: قوَّاه وبالغ في مؤازرته ومساندته، والقوَّة: لفظ عامٌّ يُستعملُ لمعانٍ متقاربة، قال الرَّاغب: "القوَّة تستعملُ تارة في معنى القُدرة، وتارة للتَّهيُّؤ الموجود في الشَّيء...ويستعمل في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المُعاوِن من خارج تارة، وفي القدرة الإلهيَّة تارة"[3].

من المعنى الكلِّيِّ للمادَّتين اللُّغويَّتين يتبيَّن: أنَّ لفظ (القوّة) عامٌّ يُستعمَل في مواضع مختلفة، والسِّياق هو الَّذي يُحدِّد معناه الدَّقيق، أمَّا لفظ (الأيْد)؛ فَيُرادُ به القوَّة الشَّديدة، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذّاريات: 47]، وأثنى سبحانه على عبده داود بأنَّه كان ذا أيد شديد: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ [ص: 17]، وذكر أهل التَّفسير أنَّ الله تعالى وهَبَهُ قدرةً عجيبة على الصَّوم واستطاعة بدنيَّة غير معهودة حتَّى إنَّه ألان له الحديد.

(1) الرَّاغب، المفردات: (مثل)
(2) الرَّاغب، المفردات: (ضعف)
(3) الراغب، المفردات: (قوي).

وقد جاء لفظ ﴿يُؤَيِّدُ﴾ في الآية الكريمة في مكانه المناسب اللَّائق به مُفيدًا أنَّ اللّه تبارك وتعالى يُؤيِّدُ، ويُقوِّي فئة أهل الإيمان المخلصة الصَّادقة، ويبعث فيها همَّة عالية مُتوثِّبة ونشاطًا منقطع النَّظير وتَحَفُّزًا للتَّغلُّب على أهل الكفر، بينما لفظ (النَّصر) فإنَّه يفيد معنى الانتصار والظَّفر بشكلٍ عامٍّ، واللّه قادرٌ سبحانه أن ينصر عباده كيف يشاء ومتى يشاء وبما يشاء، ولكنَّ المراد في هذا السِّياق حِرْصُ البيان القرآنيِّ على تصوير تقوية جانب المؤمنين، أي: إنَّ النَّصر جاءهم بعدما قوَّاهم اللّه تعالى، وأيَّدهم، وجعلهم الطَّائفة المنصورة القويَّة المُهابة الجانب.

البصائر والأَبْصار:

البَصائرُ: جَمْعُ بصيرة، وهي تَكامُلُ العلمِ والمعرفةِ بالشَّيء[1].والبصيرةُ: البُرْهانُ، فهي تَدُلُّ على وُضوحِ الشَّيء[2].

الأَبْصارُ: جَمْعُ بَصَر، وهو اسْمٌ للرُّؤيةِ بالعَيْن الَّتي هي آلةُ البَصَر، وهي الحَدَقَة، ولهذا يُقالُ: إحْدَى عَيْنَيْهِ عَمْياء، ولا يُقالُ: أحدُ بَصَرَيْه أَعْمَى، وربَّما يَجْري البَصَرُ على العَيْن الصَّحيحة مَجازًا، ولا يَجْري على العَيْن العَمْياء، فيُدَلِّل هذا على أنَّه اسْمٌ للرُّؤيةِ على ما تقدَّم، ويُسمَّى العِلْمُ بالشَّيءِ إذا كانَ جَليًّا بَصَرًا، يُقالُ: لكَ فيه بَصَر، يُرادُ أنَّكَ تعلمُه كما يَراهُ غيرُك[3].

ويُقالُ: فلانٌ بَصير، ويُرادُ به مَعْنيان:

الأوَّلُ: وهو المُختَصُّ بأنَّه يُدرِكُ المُبصَرَ؛ إذا وُجِد، وأَصْلُه البَصَرُ: وهو صِحَّةُ الرُّؤية، ويُؤخَذُ منه صِفةُ مُبْصِرٍ بمعنى: رَأَي.

والثَّاني: البصيرُ بمعنَى: العالم، يُقال منه: هو بَصيرٌ، وله به بَصَرٌ وبَصيرَة، أي: عِلْم[4]، ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيءِ؛ إذا صِرْت به بصيرًا عالِمًا، وأَبْصَرْتُه: إذا رأيته[5].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/254.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 381.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/254.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شهوات الدّنيا متع أحلى من الرّضاب، والله عنده حسن المآب

في مناسبَةِ هذه الآية لِمَا قبلَهَا وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ اللّه سبحانه لَمَّا ذكر عاقبَةَ الْغُرُورِ بالْمَالِ والوَلَدِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾؛ ذَكَرَ هُنَا وَجْهَ هذا الغُرُورِ وسَبَبَهُ؛ تحذيرًا لِلنَّاسِ من أن تَسْتَعْبِدَ الشَّهوَاتُ أَنْفُسَهُمْ، وأن يَنْشَغِلُوا بِهَا عَنْ أمورِ الْآخِرَةِ[1].

والآخَرُ: لَمَّا ذكَرَ اللّهُ تعالى أنَّ النَّصرَ مِنْهُ سبحانه، يُؤَيِّدُ به مَن يشاءُ مِن عبادِه، وأنَّ في ذلك عبرةً وعِظَةً لِأَصْحَابِ الْبَصَائِر، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ ذَكَرَ في هذه الآية ما هُوَ بمنزلةِ البيانِ والشَّرْحِ لتلكَ العبرةِ والعِظَةِ، وهي أَنَّهُ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهوات الجسمانيَّة، واللَّذَّاتِ الدُّنيويَّة، ثُمَّ إنَّها زَائلةٌ فانيةٌ، تذهبُ لذَّاتُهَا وتبقَى تَبِعَاتُهَا، فينبغي لأصحاب البصائرِ أن يُؤْثِرُوا الباقيَ على الفَانِي[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿زُيِّنَ﴾: الزَّاي والياء والنُّون: تدور اشتقاقَاتُهَا على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِه، ومِنْهُ: الزَّيْنُ ضدُّ الشَّيْنِ[3]، والتَّزيينُ: التَّحسينُ، ومنه

(1) الزُّحيلّي، التّفسير المنير: 3/164.

(2) الرَّازِيّ، مفاتيح الغيب: 7/159 - 160.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زين).

قولُ اللّه تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النَّمل: 4]، أي: حسَّنَّاها بإنظَارِهِم وتركِ معاجَلَتِهم بالعقوبةِ عليهَا[1]، ومنه أيضًا قولُ اللّهِ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي: حُسِّنَ لهم ذلكَ.

والزِّينَةُ بمعناهَا العامِّ ثلاثَةُ أصنافٍ[2]:

أحدها: نفسيٌّ، كالعلم والاعتِقَادِ الصَّحيح.

وثانيها: بدَنيٌّ، كالقُوَّةِ وطُولِ الْقَامَةِ والجمالِ.

وثالثُها: خَارِجيٌّ، كالْمَالِ والْجَاه.

ويُستعمَلُ التَّزْيِينُ استعمالًا خاصًّا على التَّحْسِينِ الْمُدْرَكِ بالحِسِّ دُونَ الْمُدْرَكِ بالعَقْلِ[3].

2) ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: الشِّينُ والهاءُ والحرفُ المعتلُّ: تدورُ تصريفَاتُهَا على معنَى: الرَّغبةِ الحادَّةِ في مرغوبٍ بدنيٍّ بِسَبَبِ إحساسٍ بالخُلُوِّ منْهُ[4]، ثُمَّ عُمِّمَ ذلكَ في المرغوبِ البَدَنيِّ وغيرِهِ، ومنه استُعْمِلَتِ الشَّهْوَةُ في كلِّ ما تدعُو النَّفسُ إليهِ[5].

والشَّهوة - وجمعها: شهوات - استُعملت في القرآنِ الكريم في غير ما يُمْدَحُ، بخلافِ الفِعْلِ مِنْهَا (اشْتَهَى)؛ فقد استُعمِلَ في غير ما يُذَمُّ، فمنَ الأوَّل: قولُ اللّه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، ومِنَ الثَّاني: قولُهُ سبحانه: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾[6] [الأنبياء: 102].

3) ﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾: القناطيرُ: جمعُ قنطارٍ، وقد جعلَهُ جماعةٌ مِنَ الرُّباعِيِّ، كالخَليلِ[7]، وأصلُ هذه المادَّةِ دالٌّ على تَخطٍّ بِتَوَالٍ، أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ، ومِنْهُ: القنطرةُ، وهي ما يُعْبَرُ به النَّهْرُ ونحوُهُ[8]، والقنطارُ مِنَ المالِ، والقَنْطَرَةُ مِنْهُ: المالُ الكثيرُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ به عبورَ الحياةِ تشبيهًا له بالقَنْطَرَةِ[9].

(1) الحِيمريّ، شمس العلوم: (زين).
(2) الرَّاغب، المفردات: (زين).
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 1/436.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (شهو، شهي).
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/42.
(6) حسن عزّ الدّين الجمل، مخطوطة الجمل: 2/407.
(7) الخليل، العين: (قنطر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قنطر).
(9) الرَّاغب، المفردات: (قطر).

4) ﴿ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾: الْوَاوُ وَالسِّينُ والْمِيمُ: تدورُ اشتقاقَاتُهَا على أثرٍ ومَعْلَم، ومنه: وَسَمْتُ الشَّيءَ، أي: أَثَّرْتُ فيهِ بِسِمَةٍ، ومنه سُمِّيَ موسِمُ الحجِّ بذلكَ؛ لكونِهِ مَعْلَمًا يجتَمِعُ إليه النَّاسُ، والوسامَةُ: الجَمَالُ[1]، وهو ضَرْبٌ مِن الْعَلَامَات.

ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾، أي: المُعْلَمَة، وفيه قلبٌ مكانيٌّ، والأصل: المُوَسَّمَة[2]، والمرادُ: "المُعْلَمَة بالشِّياتِ الحسانِ الرَّائِعَةِ حُسْنًا مَن رآها؛ لأنَّ (التَّسْوِيم) في كلام العربِ: هو الْإِعْلَامُ، فالخيل الْحِسَانُ: مُعلَمَةٌ بإعلامِ اللّهِ إيَّاها بالحُسْنِ مِن أَلْوَانِها وشِيَاتِهَا وهَيْئَاتِهَا"[3].

5) ﴿مَتَٰعُ﴾: الميمُ والتَّاء والعَيْنُ: تدلُّ تصريفَاتُهَا على مَنْفَعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[4]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: 3] أي: يَبْسُط عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنيا، ويَرْزُقُكم مِنْ زينتِها، ويَنْسَأُ لَكُمْ في آجالكم إلَى وقتِ وفاتِكُمْ ولَا يَسْتَأْصِلكم بِعذابٍ[5].

ومِنْهُ: المَتَاع، وهو في الأَصْل: كلُّ شَيْء يُنْتفَع بِهِ، ويُتبلَّغ بِهِ، ويتزوَّدُ[6]، وهو المرادُ في قولِهِ سُبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.

6) ﴿ٱلۡمَـَٔابِ﴾: الهمزةُ والواوُ والباءُ تدور اشتقاقَاتُهَا على معنى الرُّجوع[7]، تقول العربُ: آبَ الرَّجُلُ؛ إذا رجعَ[8]، ومنه الأوَّاب: وهو الرَّجَّاعُ الَّذي يرجع إلى التَّوبةِ وطاعةِ اللّه تعالى[9].

والمآبُ: المَرْجِعُ[10]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾، وحُسْنُ المرجِعِ: الجنَّةُ[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وسم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وسم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/254.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع). وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/229. وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوب).
(8) الخليل، العين: (أوب).
(9) ابن الأنباريّ، الزَّاهر: 1/115.
(10) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 102.
(11) القِنَّوجِيّ، فتح البيان: 2/200.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

حـبّ شـهـوات الـدّنـيـا زخـرف وتـزيـين، وجنّة الآخــرة خـيرٌ للمتّقين

حُسِّنَ للنَّاس محبَّة ما يَشْتَهُون مِنَ النِّساء والبَنِين، والأموالِ الكثِيرَةِ مِنَ الذَّهب والفِضَّة، والخَيْلِ الحِسَان، والأنعام مِنَ الضَّأنِ والمعزِ والبقر والإبل، والأرضِ المتَّخَذة لِلْغِرَاسِ والزِّراعة، ذلكَ زهرةُ الحياة الدُّنْيا وزينَتُها الزَّائلةُ الفانيةُ، واللّٰه سُبحانه عندَهُ حُسْنُ المَرْجِعِ والثَّوابِ، وَهُوَ الجنَّةُ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

ربطُ المَنْهِيَّاتِ بِأَسْبَابِهَا، مَدْعَاةٌ لنبذها واجْتِنَابِها

فُصِلَ قولُهُ تعالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لكونِه اسْتِئْنَافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ قولَه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾؛ قُصِدَ منه عِظَةُ المسلمينَ ألَّا يغترُّوا بأموالِهم وأولادِهم كحالِ الكافرينَ، فأورَثَ ذلك سؤالًا: ما سببُ هذا الاغْتِرَارِ وما وَجْهُهُ؟ فجاء الجوابُ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، مُبيِّنًا أنَّ سببَ الاغترار التَّحسينُ العارِضُ لِلْمَذكورَات، فالكلامُ سيقَ بيانًا لحقارةِ شَأنِ الحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ بأنواعِهَا، وتوجيهُ رَغَبَاتِهِم إلى ما عندَ اللّٰه تعالى بعدَ بَيَانِ عدَمِ انتفاعِ الكافرينَ بها[2].

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلْمَفْعُولِ:

تَزْيِينُ الشَّهَوَاتِ نَـوْعَـانِ تَـزْيِـينُ خَلْقٍ وَإِيجَادٍ، وَتَزْيِينُ وَسْوَسَةٍ وَفساد

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِمَا لَم يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وقد اختُلِفَ في تعيينِ الفاعلِ على قولَيْنِ[3]:

أحدهما: أنَّ المُزَيِّنَ هو اللّٰه تعالَى، فيكونُ التَّزيينُ في قولِه: ﴿زُيِّنَ﴾ تزيينَ خَلْقٍ وإيجادٍ، وتهيئةٍ للانتفاعِ بهَا، وخَلْقِ الجِبِلَّةِ في النُّفوسِ على المَيْلِ إلى هذه الأشياءِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/243، 254. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/50. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 51.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/178. والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/164.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/28.

والآخَرُ: أنَّ المزُيِّنَ هو الشَّيطانُ، فيكون التَّزيينُ تزيينَ وَسْوَسةٍ وخديعةٍ، وتزيينَ تحصِيلِهَا من غيرِ وجوهِهَا المشروعَةِ.

ولا مانِعَ من إرادَةِ المَعْنَيَيْنِ معًا، حملًا لِلْمُشْتَرَكِ على معْنَيَيْه - كَمَا هُوَ قولُ الجمهور[1] - فيكون التَّزيينُ في الآية تَزيينَ خَلْقٍ وإيجادٍ بالنِّسبة للّه تعالى، وتزيينَ وسوسةٍ وخديعةٍ بالنِّسبةِ للشَّيطانِ، وعلى القول بعدَم جوازِ حمل المشتَرَكِ على معْنَيَيْه؛ يُجْعَلُ التَّزيينُ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بينَهُمَا، وهو مُطلقُ الحَمْلِ على محبَّةِ الشَّهواتِ خلقًا وإيجادًا، أو خديعةً ووَسْوَسَةً[2]، ومآلُهُمَا واحدٌ.

ولِحَذْفِ الفاعلِ في بناءِ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلْمَفْعُولِ ثلاثُ نِكَاتٍ:

إحداهَا: خفاءُ إدراكِه عن عموم المخاطَبين؛ لأنَّه لَمَّا جُهِلَ فاعلُ الدَّالِّ على الغرائزِ والطَّبائعِ عرفًا؛ كان الوَجْهُ إسنادَ أفعالِهِ لِلْمجهولِ، كما في قولهم: عُنِي بكذا، واضْطُرَّ إلى كذا، ولا سيَّما إذا جعلنا لَفْظَ التَّزْيين كنايةً عن لازِمه: وهو الإغضاءُ عمَّا في الْمُزَيَّنِ مِنَ المساوِئِ[3].

ثانيهَا: تعظيمُ الفاعلِ إذا كان المرادُ بالْمُزيِّنِ هو اللّه تعالى، وتحقير الفاعلِ إذا كان المرادُ بالْمُزيِّنِ الشَّيطانَ الرَّجيمَ[4].

ثالثُهَا: الإيماءُ إلى أنَّ محبَّة النَّاسِ لهذه المذكورَاتِ واشْتِهاءَهَا أمرٌ مَرْكُوزٌ في الطَّبيعةِ الإنسانيَّةِ مُنْذُ خلق اللّه تعالى الإنسانَ في هذه الدُّنيا[5].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾:

لَيْسَ الْمَذْمُومُ حُبَّ الشَّهَوَاتِ، إِنَّمَا اتِّبَاعُهَا عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ المعلومات

اللَّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ من قَول اللّه تعَالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ لِلْجِنْسِ المفيدِ استغراقَ أفرادِهِ المندرِجَةِ تحْتَهُ، فهو شاملٌ للأولياءِ والصَّالحين وغيرِهم، إلَّا أنَّ غيرَ الصَّالحين يَسْتَرْسِلُونَ مع هذا التَّزيينِ فيتَّبِعُونَه، أمَّا أهلُ الإيمان والصَّلاح فلا يتَّبِعُونَ ذلك،

(1) الشَّوكَانِّي، إرشاد الفُحول، ص: 59 - 60.
(2) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 465.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 3/180.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/269. وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1132. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/50.

ولا يَرِدُ على هذه الدِّلالَةِ أنَّ النِّساءَ من جملة النَّاسِ، ولم يُزَيَّنْ لَهُنَّ حبُّ الشَّهواتِ من النِّساءِ؛ لأنَّ اللَّفْظَ العامَّ قَدْ يَرِدُ مقرونًا بما يدلُّ على تخصيصِهِ(1).

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ التَّزْيينِ بِالنَّاسِ:

تَـكْـرِيـمُ الـلـهِ تَـعَـالَى لِأَهْـلِ الإِيـمَـانِ، بما يستحقّون من تبجيل وتفضيل

عُلِّقَ التَّزيينُ بالنَّاسِ في قولِ اللهِ سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ دونَ تعليقِهِ بالَّذينَ آمنوا؛ لأنَّ قولَه سُبحانه بعدُ: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ يُومِئُ إلى أنَّ ما ذُكِرَ قَبْلُ ليس له عاقبةٌ حميدَةٌ، فنُزِّهَ أهلُ الإيمانِ عَنْ أَنْ يُخصُّوا بما قد يُتوَهَّمُ مِنْهُ مَنْقَصَةٌ لهم.

بَلَاغَةُ الْإِيجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

تَزْيِينُ الْمُشْتَهَيَاتِ سَبَبٌ فِي حُبِّهَا وَافْتِتَانِ النَّاسِ بِهَا

في تعليقِ التَّزيينِ بالحُبِّ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ إجراءٌ للكلامِ على خلافِ ما يقتضيه الظَّاهِرُ؛ لأنَّ المُزَيَّنَ للنَّاس هو الشَّهواتُ نفسُهَا لا حُبُّها، فإنَّها إذا زُيِّنَتْ لهمُ المشتهَياتُ؛ أحبُّوهَا، وذلك أنَّ حُبَّ شيْءٍ مَا ينشَأُ عَنِ استحسَانِه، فقولُه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، فيه إيجازُ قَصْرٍ؛ إذ الجملةُ أَغْنَتْ عَن أن يُقال: زُيِّنَ للنَّاسِ الشَّهَواتُ، فأحبُّوها.

ويحتَمِلُ أن يكون ﴿حُبُّ﴾ من قَوْلِه سُبْحَانَه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مصدرًا باقيًا على دِلالَتِهِ المصدريَّةِ أو مَصْدَرًا مرادًا به اسمُ المفعولِ، فعلى الأَوَّلِ يكون نائبًا عن مفعولٍ مطلقٍ يُرادُ به تبيينُ نوعِ التَّزيين، وأصلُ الكلام: زُيِّن للنَّاسِ الشَّهواتُ حُبًّا، فحُوِّلَ المصدرُ، وأضيفَ إلى نائبِ الفاعل، فصارَ هو النَّائبَ عَنِ الفاعل، كما جُعِلَ المصدرُ مفعولًا في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [ص: 32].

وعلى الوجهِ الآخَرِ: وهو أن يكونَ مصدرًا مرادًا به اسمُ الْمَفْعُولِ،

---

(1) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 466.

يكُون معنى قَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي: زُيِّنَ للنَّاسِ محبوبُ الشَّهواتِ، أي: الشَّهواتُ المحبوبَةُ(1).

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

خَـفَـاءُ المَـضَـارِّ وَظُهُورُ المَحَاسِنِ مِـنْ أَسْـبَـابِ انْسِيَاقِ النَّاسِ وَرَاءَ الأشياء

فِعْلُ التَّزيينِ في قَوْلِه تعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يجوزُ أن يكون كنايةً عن لازمِ معناهُ، وهو إقبالُ النَّفْسِ على ما في الشَّيْءِ المُزيَّنِ مِمَّا يُستحْسَنُ مع سَتْرِ ما فيه من الضَّرر، "فَعُبِّرَ عَن ذلك بالتَّزْيين، أَيْ: تَحْسِين مَا لَيْسَ بخالِصِ الْحُسْنِ، فَإِنَّ مُشْتَهَياتِ النَّاس تَشْتَمِلُ علَى أمورٍ مُلَائمَةٍ مَقْبُولَة، وقد تَكُون في كَثِير مِنْهَا مضَارٌّ، أَشدُّهَا أَنَّها تَشْغَلُ عَنْ كمَالَاتٍ كثيرَةٍ؛ فَلِذَلِكَ كانت كالشَّيءِ الْمُزيَّنِ تُغَطَّى نقَائِصُه بالمُزَيِّنَاتِ"(2).

سِرُّ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

سِرُّ ذَمِّ المُبَالَغَةِ فِي اتِّـبَــاعِ المُشْتَهَيَاتِ، وَالْحِرْصِ عَلَى الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا

﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، يجوز أن تكونَ من باب المَصْدَرِ المرادِ به اسمُ المفعُول، على طريقةِ المَجَازِ المرسَلِ، وعلاقَتُه: التَّعلُّقُ الاشتقاقِيُّ؛ لأنَّ المذكوراتِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مشتهيَاتٌ لا شهواتٌ، إلَّا أنَّه أُطلِقَ عليها اسمُ الشَّهواتِ على جهةِ المبالغَةِ في شدَّةِ اشْتِهَائها ومحبَّتِها والحرصِ على الاستمتاعِ بها(3)، حتَّى كأنَّها نفسُ الشَّهواتِ(4)، والمقصودُ: أنَّهم يحبُّونَ هذه المشتَهيَاتِ، ويرَونَ أنَّ محبَّتَهَا أمرٌ حسنٌ لا غضاضةَ فيه ولا منقصةَ(5).

وفي التَّعبير عَنِ المشتهيَاتِ بالشَّهواتِ إيماءٌ إلى تَخْسِيسِهَا؛ لأنَّ الشَّهْوَةَ لا يُمْدَحُ مُتَّبِعُهَا، ولذا استُعملتِ الشَّهْوَةُ في القرآنِ الكريم في

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 3/179 - 180.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 3/180.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/342.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14.

(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1132.

غير ما يُمْدَحُ، بخلاف الفعل مِنْهَا، وهو (اشْتَهَى)، فإنَّهُ يُستعمَلُ في غير ما يُذَمُّ[1].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿مِنَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾:

أَثَـرُ مَـعَـانِي الْحُرُوفِ فِي فَهْمِ مقاصد الْكَلَامِ

حَرْفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بَيَانيَّةٌ، كالواردَة في قولِهِ تَعالَى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحجّ: 30]، فكما أنَّ المرادَ: فاجتنبوا الأوثانَ الَّتي هي رجسٌ، كذلكَ قولُه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهوات - بمعنى: الْمُشْتَهَيَات - الَّتي هي: النِّساءُ والبَنُونَ... إلى آخرِ المذكوراتِ[2].

نُكْتَةُ تَرْتِيبِ الْمُشْتَهَيَاتِ فِي الآيَة:

دلالــة وضـع الْـمُـشْـتَـهَـيَـات دَرَجَــات، فِي شِـدَّةِ الِافْـتِـتَـانِ بِهَا

رُتِّبتِ الْمُشْتَهَيَاتُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ﴾ ترتيبًا بديعًا، فقَدْ قُدِّم ذكرُ النِّساءِ على البَنِينَ؛ لعراقتِهِنَّ في معنى الشَّهْوَة، ولكَوْنِ الِالْتِذَاذِ بِهِنَّ أكثرَ والِاسْتِئْنَاسِ بِهِنَّ أكملَ، وحُبُّهُنَّ فطريٌّ مَرْكُوزٌ في الطَّبيعة البشريَّة، لا يختَلِفُ في ذلك إلَّا مَن فسدَتْ طباعُهُ.

ثُمَّ ذُكِرَ حُبُّ البنينَ بعد حُبِّ النِّساءِ؛ لكونِ البنينَ ثمرةَ الحُبِّ الأوَّلِ، وفي ذِكْرِهم عقيبَ النِّساءِ إشارةٌ إلى المقصد الدِّينِيِّ من حبِّ النِّساء، وأنَّه ذريعةٌ إلى الإنجابِ وتكثيرِ سوادِ الْمُسْلِمينَ لا لذاتِه.

ثُمَّ ثُلِّثَ بذِكْرِ الأموالِ؛ لِمَا في المالِ من الفتنَةِ وحصول غالبِ الشَّهواتِ به، ولكونِ المرءِ يرتَكِبُ المخاطِرَ في تحصيلِهِ لِوَلَدِه، ولأنَّ حبَّ الإنسانِ الولدَ أعظمُ من حبِّه المالَ[3].

وفُرِّعَ على المالِ ذكرُ أصنافِ ما يُتَمَوَّلُ؛ فذُكِرَ الذَّهبُ والفضَّةُ،

---

(1) حسن عزّ الدّين الجمل، مخطوطة الجمل: 2/407.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/162.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/162. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/19. وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/51. وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/14. ومحمّد نووي الجاوي، مراح لبيد: 1/115. وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1134 - 1135.

وهي أصلُ الأموال، وبهما يُتَوَصَّلُ إلى سائر المرغوبَاتِ، ثمَّ ذُكِرَتِ الخيلُ المسوَّمَةُ: وهي من مُتَمَوَّلَاتِ الملوك، ثُمَّ الأنعامُ: ويتموَّلُهَا أهلُ البادِيةِ، ثُمَّ الحرثُ: ويتموَّلُها أهلُ الأَرْيَافِ والقُرَى[1].

فتَرْتِيبُ المشتهياتِ بَدْءًا بالنِّساءِ، ثُمَّ البنِينَ، ثُمَّ الأموال على اختلاف أصنافِهَا؛ هو ترتيبٌ بحسب شدَّة الافتنَانِ بها، فكان في هذا التَّرتيب ضربٌ مِنَ التَّدَلِّي في إيرادِهَا.

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

أهمية الاستغناء بالإِشَارَةِ؛ عَنِ التَّصْرِيحِ بِالْعِبَارَةِ

ذُكِر حُبُّ الرِّجالِ للنِّساءِ، ولم يُذكَرُ حبُّ النِّساءِ للرِّجالِ وافتِتَانُهُنَّ بهم؛ وذلك لنكتَتَيْنِ:

إحدَاهُمَا: أنَّ ذلك مِنْ بابِ الاكتفاءِ، وأنَّ ذِكْرَ حُبِّ الرِّجالِ للنِّساءِ فيه إشارةٌ إلى المحبَّة المتبادَلَة بَيْنَهُما، وما كان مستفادًا بالإشارةِ؛ فإنَّه يُستغنَى فيه عَنِ التَّصريح بالعبارَةِ، وإنَّما اكْتُفِيَ بذكر حبِّ الرَّجُلِ لوجوهٍ:

أحدها: أنَّ حُبَّهُ أوضحُ وأظهَرُ؛ لكونِهِ أشدَّ.

ثانيها: أنَّ حُبَّ الرَّجُل المرأةَ هو الَّذي يُؤدِّي إلى الفِتْنَةِ في مُجْمَلِ أحوالِهِ.

ثالثُهَا: كون الرَّجُلِ هو الطَّالِبَ، والمرأة مجيبة لا طالبة، ثُمَّ هي وإن سبَقَتْ بالحُبِّ في بعض الأحوال؛ فإنَّها تحاولُ بَعْثَ الطَّلَبِ في نفسِ مَنْ تُحِبُّ، فيؤولُ الأمرُ بهَا إلى أن تصيرَ مطلوبةً[2].

والنُّكْتَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه أُخْفِيَ افتتانُ النِّساء بالرِّجالِ سَتْرًا لَهُنَّ، كما أخفى الله تعالى أمر حوَّاءَ عند ذكرِ معصيةِ آدمَ عليه السلام في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/36.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1135.

نُكْتَةُ الِاقْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِ الْبَنِينَ دُونَ الْبَنَاتِ فِي الآيَة:

رَغْبَةُ النَّاسِ فِي الذُّكُورِ الشّداد، لَا يناقض الْمَحَبَّةَ لِجميع الْأَوْلَادِ

نُصَّ على حبِّ البنين دونَ البناتِ في قَوْلِه تعَالَى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾؛ لعدَمِ الاطِّرادِ في محبَّتِهنَّ[1]، ولأنَّ حُبَّ الذَّكر أكثَرُ من حبِّ الأنثَى عند كثيرٍ مِنَ النَّاسِ[2].

ويجوزُ في هذه الآية وجهانِ آخران:

أحدهما: أنَّه لم تُذكر البناتُ اكتفاءً بذِكْرِ البنين، والمعنى: حبُّ الشَّهوات من النِّساء والبنين والبناتِ، واقتُصِرَ على ذِكْرِ البنين لكونِ العرب يَرَوْنَ في كثرتهم نصرةً وفخَارًا، ولأنَّ المقصودَ من الآيةِ ذكرُ كُلِّيَّاتِ المشتَهَياتِ، وذلك حاصِلٌ بذِكْرِ البَنِينَ.

والآخَرُ: أنَّ المرادَ بالبَنِينَ ما هو أعمُّ مِنَ الذُّكورِ؛ لأنَّ الابن يُطلَقُ على الذَّكر والأنثى مجازًا مرسلًا، بعلاقةِ التَّقييد والإطلاق؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الابنَ في الأصل هو الوَلَدُ مقيَّدًا بالذُّكوريَّة، ثُمَّ أُطْلِقَ عن هذا القَيْدِ، فبَقِيَ دالًّا على الوَلَدِ الشَّاملِ للذَّكرِ والأنثى، فمحبَّةُ البنين في الآيةِ - على هذا الوجه - تشمَلُ الذُّكورَ والإناثَ؛ وذلك أنَّ "محبة الولَدِ بَعْدَ وِلَادَته أمرٌ فطريٌّ لَا فرقَ بينَ ذكَرٍ وأُنْثَى، وإن كان الكَثِيرُون يَرْغَبُون في الذُّكور دون الإناث، فإنَّ ذلك لَا ينفي المحبَّة الفطريَّة لأولَادِه جَميعًا، والعربُ أنفسُهُم كانوا يُحبُّون بناتِهم وإن كانوا لَا يَعْتَزُّون إلَّا بالبنين... فالأولادُ جميعًا ثمرَاتُ القلُوبِ وقُرَّةُ الأعين"[3].

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾:

شِـدَّةُ افْـتِـتَـانِ النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ، من الفتن الثّقال

في قَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ كنايةٌ عن المالِ الكثيرِ[4]، ومن طريقة العرب إذا أرادُوا بيانَ الكثرةِ والمبالَغَة؛ أن يَصِفُوا الشَّيءَ بما يُشتقُّ مِنْهُ، فقَوْلُهُ سُبحانه: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾،

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/162.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1136.

(4) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469.

أي: القناطيرُ المضاعفةُ الكثيرةُ المجموعُ بعضُهَا إلى بعضٍ قِنْطَارًا قنطارًا، وهذا كقولِ العَرَب: دَرَاهِمُ مُدَرْهَمَة[1].

والقناطيرُ في ذاتِها تعني: المالَ الكثيرَ، وبُولِغَ في كثرتِهَا بوصفِهَا بالمقنطَرَة، وفي هذا: دِلالةٌ على تَغَلْغُلِ حُبِّ المالِ في قُلُوب النَّاس، حتَّى إنَّهم لا يكتفونَ بالقِنطارِ والقنَاطِير، حتَّى تكُونَ مُقَنْطَرَةً، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ؛ لَابْتَغَى ثَالِثًا»[2].

وبَيْنَ ﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ﴾ و﴿ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾ جِنَاسُ الاشْتِقَاق.

دِلَالَةُ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾:

شِـــدَّةُ حُـبِّ الْإِنْسَانِ لِلْمَالِ، غريزة لافكاك له منها

الجمعُ بين الذَّهب والفضَّةِ في قَوْله تَعَالى: ﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ فيه مراعاةُ النَّظير؛ إذ كلٌّ مِنْهُما نقدٌ وثَمَنٌ لِلْأَشيَاءِ، وفي الجمعِ بينَهُمَا إيماءٌ إلى شدَّةِ حُبِّ الإنسانِ للمَال، حيث إنَّه لم يَكْتَفِ بحُبِّهِ الذَّهبَ مع كفايَتِهِ وعظيمِ قيمَتِهِ، حتَّى ضمَّ إلى ذلك الفِضَّةَ، رَغْبَةً منهُ في اسْتِيعَاب أصنافِ الأموالِ.

نُكْتَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾:

تَـعَـلُّـقُ الـنَّـاسِ بِمَا تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ عَظِيمٌ منذ فجر التّاريخ

الحَرْثُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ هو الغِراسُ والزَّرعُ، وذلك أنَّ الحرثَ في الأصل مصدَرٌ يُرادُ به: إثارةُ الأرض ووضعُ البذْرِ فيهَا وغرسُهَا، وليس هذا المراد مِنَ الحرثِ في الآيَةِ، وإنَّما المرادُ الشَّجَرُ والنَّباتُ ونحوُهَما، فأُطْلِقَ السَّبَبُ، وأُرِيدَ المُسبَّبُ، فهو مِنْ باب المجاز المرسَل، بعلاقةِ السَّبَبِيَّةِ[3].

ويحتَمِلُ أن يكون الحَرْثُ مرادًا به المحروثُ، مجازًا مرسَلًا بعلاقة التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ، وإنَّما سُمِّيَ اسمُ المفعولِ بِالْمَصْدَرِ مبالَغَةً فيه وفي محبَّتِه.

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/48.
(2) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6436)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1048).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1138.

سَبَبُ عَدَمِ ذِكْرِ اللِّبَاسِ فِي جُمْلَةِ الْمُشْتَهَيَاتِ مَعَ أَنَّهُ مِنْهَا:

الــشَّــهْــوَةُ بِاللِّبَاسِ تَتَعَلَّقُ بِـأَخَـصِّـهِ مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ كَمَالُ الزِّينَةِ

عُدِّدتِ المشتهياتُ في قولِه سُبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾، ولم يُذكرِ اللِّباسُ مع أنَّ النَّاسَ تشتَهيه، وفي ذلك ثلاثُ نِكَاتٍ[1]:

أحدها: أنَّ اللِّباسَ أمرٌ ضروريٌّ لكلِّ النَّاس، فلا تتعلَّقُ الشَّهْوَةُ إلَّا بأخصِّه، وهو ما يَحصُلُ به كمالُ الزِّينَةِ دونَ ما يحصُلُ به أصلُ السَّتْرِ.

ثانيهَا: أنَّ ذِكْرَ الأنعامِ والحرْثِ يُغْنِي عن ذِكْرِ اللِّباسِ، من جِهَةِ أنَّ مَلْبَسَ الإنسانِ يُؤْخذُ مِنْهُمَا.

ثالِثُهَا: أنَّ اللِّباسَ يُشْتَرَى بالنَّقد مِنَ الذَّهب والفِضَّةِ، فذكرُهُما مُغْنٍ عن التَّنصيص عَلَيْه.

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ فِي تَعْدَادِ الْمُشْتَهَيَاتِ:

اسْتِيعَابُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِأُصُولِ مُتَعِ الْحَيَاةِ

في قولِ اللّه تَعَالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ إشارةٌ إلى أنواعِ المُتَعِ جميعًا، ففي ذِكْرِ النِّساءِ إشعارٌ بمُتعة الصِّلَةِ بين الرَّجُلِ والمرأة، سواءٌ أكانت المُتعةُ جسديَّةً أم روحيَّةً، وفي ذلك إيماءٌ إلى الأسرةِ الَّتي هي قوامُ المجتمَع.

وفي ذِكْرِ البَنِين إشارةٌ إلى بقاء النَّوْعِ الإنسانيِّ والاعتزازِ بالقبائلِ والعشَائِرِ.

وفي ذِكْرِ المال إيماءٌ إلى الحاجاتِ الإنسانيَّةِ الَّتي يُعَدُّ المالُ أساسًا لها.

وفي ذِكْرِ الخَيْلِ إشعارٌ بالجهاد في نُصرة الحقِّ، وأنَّه لا تُحْمَى الجماعةُ إلَّا بقوَّة السِّلاح.

(1) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469. وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1138.

وفي ذِكْرِ الْأَنْعَام والحَرْثِ إشارةٌ إلى أُصُولِ الْإِنْتَاجِ، ففي الآية أسلوب التَّقسيم؛ إذْ قد استُوعِبَتْ مُتَعُ الحياةِ بإيرادِ هذهِ الْأُمورِ، وهي أصولُهَا الدَّالَّةُ على ما سِوَاهَا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

الْإِغْرَاقُ فِي تَتَبُّعِ الْمُشْتَهَيَاتِ تَقْطَعُ الْعَبْدَ عَنْ سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

اسْمُ الإشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قَوْلِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ دالٌّ على البُعْدِ، وهو يُشيرُ إلى المذكورِ منَ المشتهياتِ، وفي الإشَارة إليها بالْبُعْدِ إشعارٌ بخِسَّةِ إخلادِ النَّاسِ إليها؛ لكونِ الاسْتِرْسَالِ في اتِّبَاعِها تقطَعُهُم عنِ الدَّارِ الآخرةِ[2].

سِرُّ الِاقْتِصَارِ عَلَى وَصْفِ هَذِهِ الْمُشْتَهَيَاتِ بِكَوْنِهَا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا:

قَدْ تُجْعَلُ الْمُشْتَهَيَاتُ وصْلَةً إِلَى تَحْصِيلِ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

حَكَمَ اللّٰه سُبحانه على المشتهياتِ المذكورةِ بأنَّها متاعُ الحياةِ الدُّنيا، فقال تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، ولم يُذْكَر أنَّها متاعُ الآخرةِ، مع أنَّ من تزوَّجَ؛ ليكثِّرَ سوادَ المسلمين، أو أنفق مالَه في سبيل اللّٰهِ تعالى، أو كسَبَ الخَيْلَ لِلْجهادِ؛ كلُّ ذلك من مُتَعِ الآخرةِ ووُصْلَةٌ صالحةٌ إليهَا؛ لأنَّ الحكمَ في الآية الكريمة بأنَّ هذه الْمُشْتَهَياتِ متاعُ الحياة الدُّنيا إنَّما هو من جهةِ التَّزيينِ والشَّهْوَةِ فحسبُ[3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾:

جعل اللهُ تَعَالَى الْجَنَّةَ ثَوَابًا لِلْمُطِيعِ، وَالنَّارَ عِقَابًا لِلْعَاصِي

قُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿عِندَهُۥ﴾ من قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾، وأصلُ التَّركيب: حسنُ المآبِ عِنْدَهُ، والقصدُ مِنْهُ: تَشريفُ هذا المرجعِ وتعظيمُهُ، والمرادُ به الجنَّةُ، ولا يُرادُ بهذا التَّقديمِ القصرُ؛ لأنَّ اللّٰه تعالى عِنْدَهُ شرُّ المآبِ: وهو العقوبةُ بالنَّارِ[4].

دِلَالَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾:

في قَوْلِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ توكيدٌ بتَكْرَار

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1139.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/273.
(3) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469.
(4) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469.

التَّرْغِيبُ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ التَّعِيمِ المتع الدَّائِمِ

الإسنَادِ؛ لأنَّ عِنْدِيَّةَ حُسن المآبِ أُسنِدَتْ إلى الاسْمِ الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾، وأُسنِدَت أيضًا إلى الضَّمير العائدِ إليهِ، وفي هذا مزيدُ توكيدٍ وتفخيم وعنايةٍ بالتَّرغيب فيما عِنْدَ اللّه تعالى منَ النَّعيمِ الحسنِ الدَّائمِ(1).

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ الْمُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾:

تَوْجِيهُ الْعِبَادِ إِلَى الزُّهْدِ فِي الْمُشْتَهَيَاتِ الْفَانِيَةِ، من مقاصد القرآن العالية

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها التَّحريضُ على استبدالِ ما عند اللّه تعالى مِن اللَّذَّاتِ الحقيقيَّةِ الدَّائمةِ بالشَّهواتِ النَّاقصةِ الزَّائلة(2).

وفيهِ الإيماءُ إلى أنَّ ما ذُكِرَ من الْمُشْتَهَياتِ لا تَتَمَحَّضُ فيه العاقبةُ الحميدَةُ(3).

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْحَرْث وَالزَّرْع:

الفرقُ بينَهما: أنَّ الحرثَ: بذر الحَبِّ مِنَ الطَّعام في الأرض، بخلاف الزَّرع: فَهُوَ نَبْتُهُ إلى أَنْ يبلُغَ، فالحَرْثُ هو المبدأ، والزَّرْعُ هُوَ الْمُنْتَهَى، ويدلُّ على ذلك قولُ اللّهِ تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64].

الْمَآب وَالْإِيَاب:

يُستعمل الإياب للدِّلالة على مطلق الرُّجوع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26]، بخلاف المآب؛ فلا يُرادُ منه مطلَقُ الرُّجوعِ، بل هو المنقلَبُ الَّذي يؤولُ إليه النَّاسُ: إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّار، فمُنْقَلَبُ أهلِ الإيمانِ الجنَّةُ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقال

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15.

(2) البيضاوِيّ، أنوار التَّنزيل: 2/8.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/10.

تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾ [ص: 40]، ومُنْقَلَبُ أهل الكُفْرِ النَّارُ، كما قال ﷻ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥﴾ [ص: 55]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ۝٢٢﴾ [النَّبأ: 21 - 22].

ففي مآب أهل الجنَّة والنَّار معنَى الذَّاتِ؛ لدلالتِهِ على مكانَةِ كلٍّ مِنْهُم، فَضْلًا عن دلالَتِهِ على نهايةِ أعمالهم[1].

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 269.

﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين شهوات الدّنيا ومتعها، وبين ما عند الله في الجنان

أَحَدها: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا ذكر أنَّ عِنْدَهُ حسنَ المآب، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾؛ بيَّنَ سُبحانه هُنَا أنَّ ذلك المآبَ كما أنَّه حسنٌ في ذاتِه؛ فهو أحسنُ وأفضلُ من هذه الدُّنيا، فقال: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾.

ثَانيهَا: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا عدَّدَ المشتهياتِ في الدُّنيا؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ منافعَ الآخرةِ خيرٌ منْهَا، وأنَّ أمرَ العبدِ في الدُّنيا مهما كان حسنًا منتظمًا؛ فإنَّ أمرَ الطَّائعينَ في الآخرةِ خيرٌ وأفضلُ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَّٰتٞ﴾: الجيمُ والنُّون: أصلٌ يدُلُّ على السَّتْرِ، وَمِنْهُ: الجَنَّةُ في الدُّنيا، وهي الْبُسْتَان؛ لأنَّ الشَّجرَ بِوَرَقِهِ يَسْتُرُ، والجَنَّةُ في الآخرة: ثَوَابٌ مَسْتُورٌ عَنَّا الْيَوْمَ[2].

والجَنَّة: الحديقَةُ ذات الشَّجَرِ وَالنَّخْل.

وفرَّقَ أَبُو عَلِيٍّ بينَ الحديقَةِ والجَنَّة: بأنَّ الجنَّةَ في كَلَامِ الْعَرَبِ لا تُسمَّى كَذَلِكَ إلَّا إِذَا كان فِيهَا نَخِيلٌ وعِنَبٌ، فَإِن لَم يَكُنْ فِيهَا ذَلِك، وَكَانَت ذَات شَجَرٍ؛ فَهِيَ حديقةٌ، وَلَيْسَت بجَنَّة[3].

2) ﴿وَأَزۡوَٰجٞ﴾: الزَّاي والواوُ والجيمُ: تدلُّ تصاريفُهَا عَلَى مقارنَةِ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنن).
(3) ابن سِيده، المحكم: (جنن).

شيءٍ لشيءٍ[1]، أو على تداخُلٍ بَيْنَ شَيْءٍ وآخَرَ حَتَّى يَشْتَبِكا، وَيَخْتَلِطا، ويَرْتَبِطا مَعًا، كالذَّكَرِ بِالْأُنْثَى، ولَا يُطْلَقُ على شيءٍ مَا أنَّه زَوْجٌ إلَّا إذا كان مرتبطًا بآخرَ ارتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا[2].

ومِنْهُ زَوْجُ المرأةِ: وهو بَعْلُها، وزَوجُ الرَّجُلِ: امرأتُه، ويُقال أيضًا: زوجَتُهُ، والجمع: أزواجٌ وزوجاتٌ، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٥٤﴾ [الدُّخان: 54]، أي: قرنَّاهُمْ بِهِنَّ، وقولُهُ سُبحانه: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصَّافَّات: 22]، أَيْ: وَقُرَنَاءَهُمْ[3].

3) ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: الطَّاءُ والهاءُ والرَّاءُ: تدور اشتقاقَاتُهَا على معنَى النَّقاءِ وزوالِ الدَّنَسِ، ومنهُ التَّطَهُّرُ، وهو التَّنَزُّه عَنِ الذَّمِّ وعن كلِّ قبيحٍ[4].

والطَّهارَةُ نوعانِ: طهارَةُ جِسْمٍ، وطهَارَةُ نَفْسٍ[5]، فمن الأوَّلِ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: 6]، ومن الثَّاني قولُ اللّه سُبحانه: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف: 82].

والتَّطهُّر في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ جامعٌ لِمَعْنَيَي الطَّهارةِ الحسِّيَّة والمعنويَّة.

4) ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾: الرَّاء والضَّادُ والحرف المعتلُّ: تدلُّ تصريفَاتُهَا على ضدِّ السُّخْطِ[6]، وَرِضَا الْعَبْدِ عَنِ اللّهِ تعالى: أَلَّا يَكْرَهَ مَا يَجْرِي بِهِ قَضَاؤُهُ، وَرِضَا اللّهِ سُبحانه عَنِ الْعَبْدِ: صفةٌ من صفاتِهِ اللَّائقة بجلالِهِ وعظَمَتِهِ، وسببُها: رؤيةُ اللّه تعالى لعبدِهِ مُؤْتَمِرًا لِأَمْرِهِ، ومُنْتَهِيًا عَنْ نهيِهِ[7].

وَالرِّضوانُ - بِكَسْرِ الرَّاء وضمِّها - اسْمُ مُبَالَغَةٍ في مَعْنَى الرِّضَا[8]، فالرِّضوان: الرِّضا الكثيرُ، ولَمَّا كانَ أعظمُ الرِّضَا هُوَ رِضَا اللّهِ تَعَالَى؛ خُصَّ لفظُ الرِّضْوَانِ الوارد في الْقُرْآنِ الكريم بِمَا كَانَ مِنَ اللّهِ سبحانه، ومنه قوله جلَّ وعلا: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زوج).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زوج).
(3) الجوهريُّ، الصحاح: (زوج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طهر).
(5) الرَّاغب، المفردات: (طهر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رضي).
(7) الرَّاغب، المفردات: (رضي).
(8) المُنَاويّ، التَّوقيف: (رضي).
(9) الرَّاغب، المفردات: (رضي).

5) ﴿بَصِيرٌۢ﴾: الباءُ والصَّادُ والرَّاءُ: تدلُّ أكثرُ اشتقاقاتِهَا على العِلْمِ بالشَّيءِ، يقال: هو بصيرٌ به، أي: عليمٌ[1]، ومِنْهُ إطلاقُ البصَرِ على الإدراكِ بالعَيْنِ والإدراكِ بقوَّةِ القَلْبِ؛ إِذْ بِكِلَيْهِما يحصلُ العلمُ[2].

والبصيرُ: فعيلٌ بمعنَى: مُفْعِلٍ، مثلُ أليم بمعنى: مُؤلم[3]، والبصيرُ مِنْ أَسْمَاءِ اللّه تعالى: الَّذِي أَحَاطَ بَصَرُهُ بِجَمِيعِ المُبْصَرَاتِ في أقطارِ الأَرْضِ والسَّمَوات[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

متاع الجنّة خالص للمؤمنين، ومتعه لا تنغيص فيها ولا تبخيس

قُلْ - يا أيُّهَا الرَّسولُ ﷺ -: أَأُخْبِرُكُم وأُعْلِمُكُمْ بخَيْرٍ وأَفْضَلَ لَكُمْ مِمَّا زُيِّنَ لكم في الدُّنيا حبُّ شَهْوَتِهِ الَّذي هُوَ متاع الحياة الدُّنيا؟ لِلَّذِينَ خَافُوا اللّه تعالَى، فَأَطَاعُوهُ بامتثال المأموراتِ واجتنابِ المنهيَّات؛ لهم جنَّاتٌ تَجْرِي مِن تحتِ قُصُورها وأشجارِهَا الأَنْهَارُ، خالدِينَ فِيهَا، ولَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَاتٌ مِنَ الأَذَى الحسِّيِّ -كالحيض- والأذى المعنويِّ - كسُوءِ الخُلُق - ولَهُمْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِك: وهو رِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ تعالى، واللّه سبحانَه مطَّلع على سَرَائر خَلْقِهِ، عَالِمٌ بجميعِ أَحْوَالِهِمْ، وسَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِك[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ مُشْتَهَيَاتِ الدُّنْيَا عَنْ لَذَّاتِ الآخِرَةِ

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٖ مِّن ذَٰلِكُمْۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٖ مِّن ذَٰلِكُمْۖ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا - وهو المعروفُ بشِبْهِ كمال الاتِّصال - وذلك لوُرُودِه جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلَهُ؛ فإنَّ قولَه سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ مسوقٌ مَسَاقَ الغَضِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (بصر).
(3) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 42.
(4) السّعديّ، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 174.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 6/243 - 262. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 51.

والإنقاصِ من هذه الشَّهواتِ[1]، فكأنَّ المُتَلَقِّيَ سأل: إذا كانت هذه المذكوراتُ مِمَّا طُبِعَ النَّاسُ على حُبِّهَا والشَّغَفِ بها غُضَّ من رُتبَتِهَا، فما أعظَمُ من ذلك وأفضلُ؟ فجاء الجوابُ: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾.

نُكْتَةُ افْتِتَاحِ جُمْلَةِ الِاسْتِئْنَافِ ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾ بِـ﴿قُلۡ﴾:

وُلُـــوجُ بَـــابِ الْــخَــيْـرَاتِ لِتَحْصِيلِ ثَوَابِهَا الْمَفْتُوحُ لِعُمُومِ الْمخلوقات

افْتُتِحت جملةُ الاستئنافِ ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ للاهتِمَامِ بالمَقُولِ، وتَنْبِيهِ المتلقِّينَ إِلَى أَنَّ ما سَيُلْقَى عَلَيْهِمْ أَمْرٌ يَهُمُّهم[2].

والمخاطَبُ في ﴿قُلۡ﴾ هو النَّبِيُّ ﷺ[3] لكونِهِ مقدَّمَ الأمَّةِ وأشرفَهَا، وليكون توجيهُ الخطابِ إليه أبلغَ في ترغيب أهلِ الإيمان في الإقبالِ على ما يُحصِّلونَ به هذه اللَّذَّاتِ الأخرويَّةَ.

ولم يُنَصَّ علَى المقولِ لَهُمْ؛ قصدًا لإرادةِ العموم[4]؛ إذ إنَّ حذفَ المتعلَّق مؤذِنٌ بذلك، ويُقَوِّي إرادةَ العموم التَّعبيرُ بضمير الجمع (كُمْ) من ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾؛ ففيه أنَّه يَدْعُوهُم جَمِيعًا للاستِمَاعِ إِلَى مَا سَيُخْبِرُهُم بِهِ[5].

وفي هذا: دِلالةٌ على سعةِ رحمةِ اللّٰه تعالى وكرَمِهِ حيثُ فتَحَ بابَ الخيراتِ لمن رغِبَ في دخولِهِ والانتظام في سلْكِ أهل التَّقوَى.

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾:

الْــوَارِدُ بَـعْـدَ الطَّلَبِ أَعَزُّ مِنَ الْمُنْسَاقِ بِلَا تَعَبٍ

الهمزة في ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ للاستفهام، والاستفهامُ هنا ليس على ظاهرِهِ من إرادةِ طلب علم بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبلُ، وإنَّما خرجَ إلى معنَى التَّشويقِ[6]؛ لِتَتَشَوَّفَ النُّفوسُ إلى معرفةِ ما شُوِّقت

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/183.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/183. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/51.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/10.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1140.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.

إليه، فيَرِدُ الإخبارُ على نفسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ له متطَلِّعةٍ إليه، فيتمكَّن منها غايةَ التَّمكُّنِ؛ ولذا شاعَ عند أهل العلم قولُهم: الْوَارِدُ بَعْدَ الطَّلَبِ أَعَزُّ مِنَ الْمُنْسَاقِ بِلَا تَعَبٍ.وفي هذا التَّشويق: إيماءٌ إلى عظيم شأنِ هذا الخبرِ وجليلِ منزلَتِه.والنَّبَأُ: هُوَ الْخَبَرُ الْعَظِيمُ.ويُؤَيِّدُ هذا التَّعظيمَ: التَّعبيرُ عنه بلفظ الإنباء دونَ الإخبار؛ إذِ الإنباءُ: هو الإخبارُ عن أمرٍ عظيم[1].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿بِخَيۡرٖ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾:

عَظَمَةُ مَا أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّعِيمِ لِأَهْلِ التَّقْوَى

نُكِّرَتْ كلمةُ ﴿بِخَيۡرٖ﴾ من قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾؛ لإرادةِ تفخيم شأنِه وتعظيم قدرِه وزيادةِ التَّشويق إليه[2]، وسوَّغَ هذا: ما في النَّكرةِ مِنَ الإبهام الصَّالح لإفادةِ التَّفخيم.

سِرُّ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾:

شَرَفُ الْمُتَرَفِّعِ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ إِيثَارًا لِمَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعطاءات

في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطاب؛ وذلك أنَّه تقدَّم قولُه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ والاسمُ الظَّاهِرُ بمنزلَةِ الغائب، ثُمَّ التُفِتَ عن ذلك إلى الخِطَابِ في قوله: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾؛ حكايةً لِلَفْظِ ما يُقالُ لهم، وفيهِ أيضًا تقويةٌ وتشريفٌ لنُفوسِ تارِكي اتِّباعِ الشَّهواتِ إيثارًا لما عندَ اللّه تعالى من حُسن المآب[3].

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾:

اللَّذَّاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ مَهْمَا عَظُمَتْ عِنْدَ النَّاسِ؛ فَمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى خَيْرٌ وَأَبْقَى.

اسْمُ الْإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكُمۡۖ﴾من قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ دالٌّ على البُعْدِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عظمةِ تلك المُشْتَهَياتِ عِندَ النَّاسِ، وقَرْنُ اسمِ الإشارةِ بميم الجمعِ زيادَةٌ في هذا التَّعظيم[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1140. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/51.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15. وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1141.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/55.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/276.

وفي هَذا إشعارٌ بأنَّ عظمةَ ما عندَ اللّٰه تعَالى مِنَ الجَزاء الْحَسَنِ لِأَهْلِ التَّقوَى يَفُوقُ ما يَخْطُرُ في قُلُوبِ الْعِبادِ، فإنَّ تلك اللَّذَّاتِ الدُّنيويَّةَ مَهْمَا عَظُمَ شأنُهَا؛ فإنَّ ما عندَ اللّٰهِ تَعَالَى خيرٌ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أَثَرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصل قولُ اللّٰه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا[1]، وذلك أنَّ قولَه سبحانه: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ يَبْعَثُ في نفُوسِ المتَلقِّين لهُ سؤالًا، وهو: ما الَّذي خيرٌ مِنْ ذلكم؟ فجاء الجوابُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾.

تَعْرِيفِ مُتَعَلِّقِ الْمُسْنَدِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾:

تَقْوَى اللهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ متعلّق بخبرٍ محذوفٍ مقدَّم[2]، وعُرِّفَ بالْمَوْصُوليَّة للإيماءِ إلى عِلَّةِ الجزاءِ الَّذي وُعِدُوا بِهِ، وهو تقواهُم للّٰهِ تعالى، وفي هذا تحريضٌ للنَّاسِ وحثٌّ لَهُمْ على التَّحلِّي بالتَّقوَى والاندراج في سِلْكِ أهلِهَا؛ ليحصُلَ لَهُمْ مِنَ الوَعْدِ مثلُ ما حصَلَ لِلمتَّقينَ، وفي تقديمِ الخَبَرِ اهتمامٌ بشأنِ الْمُتَّقينَ وتشريفٌ لهم وتعظيمٌ لقدرِهِم ومَنْزِلَتِهِم، وكونُ الصِّلَةِ فعلًا ماضيًا ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ إشعارٌ بتحقُّقِهِم بالتَّقوَى ورُسُوخ قدَمِهِم فيها.

نُكْتَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾:

حَقِيقَةُ التَّقْوَى فِعْلُ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي

الفِعْلُ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ متعدٍّ، وقد حُذف مفعولُهُ، وفي نكتةِ ذلك مسلكَانِ:

أحدُهما: أن يكون حذفُهُ مشعرًا بالعموم؛ إذ إنَّ حذفَ المعمولِ مؤذِنٌ بذلك، والمعنى: أنَّهم اتَّقوا كلَّ ما أُمِرُوا باتِّقائِهِ؛ وذلك بفعلِ الأوامر واجتناب النَّواهي.

والآخَرُ: أن يكون الفعلُ المتعدِّي نُزِّلَ منزلةَ اللَّازم، فلم يَحْتَجْ إلى مفعولٍ أصلًا، فمعنى: ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ الَّذين اتَّصفوا بالتَّقوى[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/276.

(2) الدّعَّاس، إعراب القرآن: 1/126.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/276.

وهما وجهانِ متآيِلَانِ؛ لأنَّ مَن فعَلَ الأوامرَ، واجتنب النَّواهِيَ مُتَّصفٌ بالتَّقوى متحقِّقٌ بها.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الرَّبِّ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾:

مِنْ مُقْتَضَيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ

في اختيارِ الاسم الأحسن (الرَّبِّ) في قولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾ تعظِيمٌ لِمَا لأهل التَّقْوَى في الآخرةِ، وترغيبٌ بِلَفْتِ القولِ إلى صفةِ الإحسانِ المقتضِيةِ تربيةَ الصَّدقاتِ وغيرِها مِنَ الأعمال الصَّالحة، فالرَّبُّ هُوَ المحسنُ إليهم بِلِبَاس التَّقوى الموجِبِ إيثارَهُم الآخرةَ على الدُّنيا[1].

وقُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ زيادةً في تعظيم شَأْنِ الجزاءِ المُعَدِّ لهم.

وإضافةُ الِاسْمِ الأحسَنِ إلى الضَّميرِ الرَّاجعِ للمتَّقين تفخيمٌ لِمَكانَتِهم ورفعٌ لقَدْرِهِمْ، وإعلامٌ بأنَّ ما يلقونَهُ مِنَ الجزاءِ الحسنِ هو من إحسانِ ربِّهم سبحانه وتعالى بهم[2].

دِلَالَةُ جَمْعِ الْجَنَّاتِ وَتَنْكِيرِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾:

كَثْرَةُ الْجَنَّاتِ وَتَنَوُّعُهَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِاخْتِلَافِ دَرَجَةِ الْمُتَّقِينَ

جُمِعَتِ الجَنَّاتُ في قولِه ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾ إشعارًا بتعدُّدِهَا وكثرتِهَا؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ في الآخرةِ مشتملةٌ على جِنَانٍ كثيرةٍ، ونُكِّرت ﴿جَنَّٰتٌ﴾ إيماءً إلى تنوُّعِهَا واختلافِهَا.

وكثرة الجنَّاتِ وتنوُّعُها هُوَ بِحَسَبِ دَرجاتِ أهل التَّقوى، فإنَّهم في رُتَبٍ متبايِنَةٍ حسَبَ تحقُّقِهم مِنْ كَمالَاتِ التَّقْوَى.

دِلَالَةُ وَصْفِ الْجَنَّاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

وُصِفَت الجَنَّاتُ بكونِهَا ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مدحًا لها، وتزيينًا لها في قلوبِ العبادِ؛ ليكونَ ذلك أدعَى للتَّزَيِّي بِزِيِّ التَّقوَى.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/277.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/98.

جَـــمَـــالُ مَـا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الجنّة، ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت

ووجهُ المدحِ بالوصفِ: أنَّ أَحْسَنَ المياهِ هُوَ ما كَانَ جَارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغْتُرِفَ، أَوِ اغتُسِلَ منهُ.

وَأَصْلُ الْجَرْيِ في كلامِ العربِ: شِدَّةُ سُرعةِ المَشْيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلانِ الماءِ سَيْلًا متكرِّرًا مُتَعَاقبًا: مَجازٌ[1]، وفي تخريجِهِ مَسْلَكَانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بِالاِسْتِعَارَةِ، ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلَانِ الماءِ سَيْلًا مُتَكرِّرًا متعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشيِ؛ لجَامِعِ سُرعة الانْتِقَال والحركةِ في كلٍّ مِنْهُمَا، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاق والتَّقْيِيد، فأصلُ الجري: شدَّةُ سُرعة المشيِ، ثُمَّ أُطلِقَ عَنْ قَيْدِ المشيِ، واستعملَ في شِدَّة السُّرعةِ مطلقًا.

وهو على كِلَا الوَجْهَيْنِ أدخَلُ في مَدْحِ الماءِ الجاري؛ لِاقْتِضَائِه المُبَالغةَ في جِدَّتِه بشدَّةِ جَرْيِه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أَنْـهَـارُ الْـجَـنَّـةِ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، يـتـنـعّـم بـهـا المتّقون

اللَّامُ في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لِتَعْرِيفِ الجِنْسِ[2]، فتَكُونُ في قوَّة النَّكرة.

ويَحْتَمِلُ أن تكون اللَّامُ لِلْعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمَّا ذُكرت الجنَّاتُ؛ اسْتَحْضَرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارنَاتِها، "فساغَ لِلْمُتَكَلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهودِ، فَجِيء باللَّام"[3]، ويَحْتَمِل أن تكون لِلْعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيهِ إلى قَولِ الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد ﷺ: 15][4].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنَّاتِ بِأَنْ يقال: (تَجْرِي مِن تحتِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/107.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354 - 355.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/69. والآلوسيّ، روح المعاني: 1/204.

أنهارُهَا)؛ لِما في الإضافة مِن كُلْفَةٍ في الكلام، ولِلتَّنْبيه على أَنَّ نعمةَ الأنهارِ مُسْتقِلَّةٌ، فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّمًا مستقِلًّا لا تبعًا لِلْجَنَّات[1].

ومالَ ابنُ عَاشُور إلى أنَّ تعريفَ الأنهارِ إنَّما هو لِلتَّفنُّنِ؛ لئلَّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرَى بعد تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾[2].

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَائِمٌ، لَا يَتَنَغَّصُ بِاحْتِمَالِ انْقِطَاعِهِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ منصوبَةٌ، جيءَ بها لِلاحتراسِ؛ دَفْعًا لِتوهُّمِ انقطاعِ النَّعيمِ المَذْكُورِ قبلُ، وسبَبُ هذا التَّوهُّمِ: ما جرت به العادةُ مِن انقطاعِ اللَّذَّات في الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ العبدَ في الحياة الدُّنيا مهما كثرتِ اللَّذَّاتُ عندهُ وعَظُمَتْ؛ فإنَّ استحضارَهُ زوالَهَا يُنغِّصُ عليه كمالَ الاستمتاعِ بها، فبيَّن اللّه سبحانه أنَّ ذلك مُنْتَفٍ في نعيم الجنَّةِ، وأنَّه نعيمٌ دائمٌ.

دِلَالَةُ وَصْفِ الْأَزْوَاجِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾:

طَهَارَةُ الْأَزْوَاجِ الْكَامِلَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ

وصفُ الأزواجِ بكونِها مُطَهَّرةً في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ يُرادُ به مدحُهُنَّ في ذواتِهنَّ، وزيادَةٌ في تحريضِ الْعِبادِ على تحصيلِ الأوصافِ المرشِّحَةِ لدخولِ الجنَّةِ والتَّمتُّعِ بملاذِّهَا.

وفي العدُولِ عَنِ الوصفِ بالجمع (مُطَهَّرَات) إلى الوَصْفِ بالمفردِ ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ إشعارٌ بأنَّهنَّ في أصلِ الطَّهارةِ كالنَّفْسِ الواحِدَةِ[3].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾:

نُكِّر ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ لإرادةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[4]، ويُقوِّي هذه الدِّلالة، ويُؤيِّدُهَا ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُهَا: بناءُ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ على الزِّنَة الدَّالَّةِ على الامتِلاءِ، كما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/278.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/16.

تُشْعِرُ بذلك الألفُ والنُّونُ[1]؛ إذِ الرِّضوَانُ: اسْمُ مُبَالَغَةٍ فِي مَعْنَى الرِّضَا[2]، ولا سيَّمَا أنَّ في بنائِهِ زيادةً، والزِّيادَةُ في المبنَى تدلُّ على الزِّيادَةِ في المعنَى.

إِحْلَالُ اللهِ تَعَالَى رِضْوَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ أَعْظَمُ مِنْ إِثَابَتِهِمْ بِالْجَنَّةِ

ثانيهَا: إبهامُ الرِّضوانِ ثُم بيانُ مَصْدَرِهِ وأنَّه ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾: فيه إشعارٌ بِشَرَفِ هَذَا الرِّضَا؛ إذْ أُضِيفَ إلى الاسم الأحسَنِ[3].

ثالثُهَا: الإظهارُ في موضع الإضمار، وذلك أنَّ الظَّاهرَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَرِضْوَانٌ مِنْهُ) أي: مِنْ ربِّهم، المذكور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ونكتةُ ذلك: ما في الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِۗ﴾ مِنَ الإيماء إلى تعظيم الرِّضوانِ، حيث إنَّ الاسمَ الأحسن ﴿ٱللَّهِۗ﴾ دالٌّ على صفاتِ الجلال والجمال والكمال[4].

وذكرُ رضوانِ اللّه تعالى بعد ذكر الجنَّة ونعيمِهَا تَرَقٍّ في ذكر ثوابِ اللّه سُبحانه الذي أعدَّهُ لأهل التَّقوى؛ فإنَّ إحلالَ اللّه تعالى رضوانَهُ بعبادِهِ أعظمُ من الجنَّةِ، كما قال رسولُ اللّه ﷺ: «إِنَّ اللّه يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِك، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[5].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72]:

أَقَلُّ الْقَلِيلِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَكْبَرُ

ورد في آل عمران قوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، وفي سورة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/278.
(2) المُناويّ، التَّوقيف: (رضي).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1141. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/52.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.
(5) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6549)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2829).

التَّوبة قال اللّه سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]، ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُمَا: أنَّ آية آلِ عمرانَ بُدئت بقوله: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾، فكان السِّياقُ دائرًا على إظهار الفرق بين متاع الحياة الدُّنيا وبين ما عند اللّه تعالى مِنَ النَّعيم المقيم الدَّائم، فناسبَ ذلك العطفُ بالواوِ الدَّالَّةِ على مُطْلَقِ الجمع بين كُلِّ ما عند اللّه تعالى معَ قَطْعِ النَّظرِ عن الفرقِ بين نعيمٍ وآخرَ، فلم يُذكر لفظُ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72].

بِخِلاف آية التَّوبة، فقد صُدِّرت بقوله تعالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 72]، فلمَّا كان أقلُّ القليلِ من رضوانِ اللّه تعالى أكبر من جميعِ النِّعم الَّتي تقدَّمتْهُ؛ ناسبَهُ عدمُ عطف ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ [التوبة: 72] على ما سبقَهُ فلم يُنصَبْ، ورُفِعَ على الابتداءِ، ومِن ثَمَّ جاءَ قولُه سُبْحَانه: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72][1].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾:

ثَوَابُ اللهِ تَعَالَى لِأَهْلِ التَّقْوَى، يتفاوت بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِيهَا

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ هي اعتراضٌ بين قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ﴾، وقوله بعدُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ سيقَ لبيانِ وعْدِ اللّه تعالى، والمعنى: أنَّه سبحانه عليمٌ بالَّذين اتَّقوا وبمراتبِهم في التَّقْوَى، وعِلْمُهُ بذلكَ يقتضِي مُجازَاتهم الجزاءَ الحسنَ[2].

وكونُ الجملةِ اعتراضًا هو بالنَّظَرِ إلى ما قبلَهَا وما بعدهَا، وإذا نظرنَا إلى الآية باعتبارِهَا وحدةً متكاملةً؛ كانَ قولُه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ تذييلًا، وقَدْ صُدِّرتْ جملةُ التَّذييلِ بِالِاسْمِ الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾ لنكتَتَيْنِ:

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 294 - 295.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.

إحداهما: قَصْدُ اسْتِقْلَالِ الجُمْلَةِ؛ لِتَكُونَ بمنزلةِ المَثَلِ، فيكون التَّذييلُ جاريًا مجرى المثلِ[1].

والأخرى: تَرْبِيَةُ المَهَابَةِ في قُلُوبِ المُتلقِّين للخطابِ الإلهيِّ، والإِشْعَارُ بِعَظَمَتِه سبحانه[2].

وفي ذِكْرِ الاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ إظهارٌ في موقع الإِضْمَارِ؛ إذ مقتضَى الظَّاهر أَنْ يُقال: (وهو بصيرٌ بالعبادِ)، لكونِهِ سبقَ التَّصريحُ به قبلُ في قوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، ونكتةُ ذلك: بيانُ أنَّ جزاءَهُمْ إنَّما هو على قَدْرِ التَّقوَى التَّي عَلِمَهَا اللّه تعالى مِنْهُمْ؛ فهو سبحانه (اللّه) الَّذي له الحكمةُ البالغَةُ[3].

وتعديةُ الوصفِ ﴿بَصِيرُۢ﴾ بالباء في قولِه: ﴿بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ إشعارٌ بتضمُّنه معنى: عليم.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ﴾:

شِدَّةُ مُنَاسَبَةِ الْفَوَاصِلِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمَضَامِينِ الآياتِ

وردَ ختامُ هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، وجاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: 44] مفصولًا عَمَّا قبلَهُ ومؤكَّدًا بـ ﴿إِنَّ﴾، ووجهُ المغايرةِ بينهُمَا: أنَّ الخطاب في آلِ عِمرانَ كان أكثرَ تعلُّقًا بالمؤمنينَ، وهم غيرُ شاكِّين ولا منكِرين، فناسب ذلك خلُوُّ الجملة منَ التَّوكيد؛ لعدم الحاجةِ إليه، ولمَّا كان قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جملةً خبريَّةً، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ جملةً خبريَّةً أيضًا، وبينَهُمَا جهةٌ جامعةٌ: هي أنَّ المتكلِّمَ اللّه ﷻ؛ كانَ الوصلُ بالواو أنسبَ؛ لأنَّ بينَ الجملتَين توسُّطًا بين الكمالَيْن.

أمَّا آية غافرٍ؛ فقد صُدِّرت بقوله ﷻ: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، فلمَّا كان المخاطَبُونَ منكِرِينَ - لأنَّ الخطاب كان لفرعونَ وقومِهِ - ناسبَهُ التَّأكيدُ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، ولمَّا كان المرادُ تعليلَ الحكمِ؛ كان الفصلُ متعيِّنًا، فلم تَرِدِ الواوُ في صدرِ الجملةِ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1141.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/279.
(4) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 295.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبَأ وَالْخَبَر:

ظاهر صنيعِ كثيرٍ من أصحاب المعجماتِ أنَّهما مترادِفانِ[1]، ولعلَّه جَرْيٌ مِنْهُمْ على المسامحةِ؛ تقريبًا لِلْمَعَاني، بل إنَّ بعضَهم نصَّ على ترادُفِهِمَا[2].

وفرَّق بَيْنَهُمَا جماعةٌ من أهلِ العلم - وهو التَّحقيقُ - وذلك أنَّ النَّبأَ هو الخبرُ الَّذي له خَطْبٌ وشأنٌ، ومنْهُ سُمِّي النَّبيُّ نبيًّا؛ لأنَّه يوحَى إِلَيْهِ، والوحي: خَبَرٌ عظيمٌ له شأنٌ، بخلاف الخبرِ فهو أَعَمُّ: يُطْلَقُ على ما له شأنٌ وما ليس كذلك[3].

الْعِبَاد وَالْعَبِيد:

جاءت اللَّفْظَتانِ في القرآن الكريم جمعًا لكلمة (عبد)، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182].

و(العِبَادُ) جمعٌ للعبد بمعنى: العابد لربِّهِ جلَّ وعلا، و(العبيدُ) جمعٌ للعبدِ الرَّقيق المملوك، وقد أُضيفَ إلى اللّه سبحانه؛ لكونِهِ المالكَ الحقَّ لرقابِ النَّاسِ، وهو المستحقُّ للعبادةِ وحدهُ.

أمَّا لفظُ (العِبَاد)؛ فإنَّه لم يُستعمَل في الذِّكْرِ الحكيم إلَّا في العابدِينَ المُخْلِصِينَ، وورُوُدُه في مواضعَ منهُ مضافًا إلى غير اللّه تعالى؛ فلأنَّ المقصودَ التَّنبيه على المساواةِ بين العبيدِ المملوكِينَ ومَالِكِيهم؛ إذِ الجميعُ عِبَادٌ للّه جلَّ وعلا، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النّور: 32]، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الواجبَ أن يُعامَلَ العبيدُ المَمْلُوكُونَ معاملةَ غيرِهم من الأحرار؛ لِمَا يتَّصِفُون به من صلاحٍ واستقامَةٍ على الشَّرْعِ المُنَزَّلِ[4].

---

(1) الخليل، العين: (خبر). والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزأبادي، القاموس المحيط: (نبأ).

(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (نبأ) و(خبر).

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/227. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/306. والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/476، 2/104، 138، 607.

(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 488 - 489.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾ [آل عمران: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أنْ ذكرَ تعالى أهلَ التّقوى في الآية السّابقة وما وعدَهُم اللّه به من الخيرِ؛ بيّن في هذه الآية دواعيَ استحقاقِهِم مغفرتَه، وفسّر أحوال المُتّقين الموعودين بجنّاته؛ فَهُمْ أولئك المؤمنون المعترفون بالإيمان المُقرّون به وبدواعيه، ومع ذلك مُقرّون بِذُنُوبهم، سائلون اللّه تعالى أن يغفرها لهم، وأنْ يَقِيَهُم شقاء العذابِ في النّار يوم القيامة(1).

ولمَّا أخبرَ سبحانَه بأنّه بَصِيرٌ بمَن يستحقُّ ما أَعدَّه له من الفوز أَتبعَه بذِكر سببِ استحقاقِهم ذلك من الأوصافِ تفضُّلًا منه عليهم بها، وبإيجاب ذلك على نفسه حثًّا لهم على التخلُّق بتلك الأوصاف.

ولمّا وَصَفَ تعالى قلوبَهم بالتّقوى وبَرَّأَهم من الاستغناءِ بشيءٍ من دونه وصفَ أَدَبَهم في المَقال، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾.(2)

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقِنَا﴾: فعل طلب من الوِقاية، وهي: دَفْعُ شَيْءٍ عن شيءٍ بغيره، وحفظُه ممّا يُؤذيه ويَضُرّه باتّخاذ حاجزٍ دونَه(3)، يقال: وَقَاهُ يَقِيْهِ وِقاية: حفِظَه وصانَه ومنَعه من الضَّرر والأذى، واتّقى الشيءَ: جعلَ بينَه وبينَه وِقاية(4).

المَعْنَى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّه تبارَك وتعالَى في الآية الكريمةِ أحوالَ المتَّقين الَّذين يستحقُّون هذا النَّعيم،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/411.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/279، بتصرّف يسير.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وقى).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وقى).

فذكَر أنهم هم الَّذين يتوسَّلون إلى اللّهِ تبارَك وتعالَى بإيمانِهم به أنْ يمُنَّ عليهم بمغفرةِ الذُّنوبِ، والوقايةِ من عذاب النَّارِ، وفي هذا الدُّعاء اعترافٌ بالذّنوب وإنابَةٌ إلى اللّه تعالى، فبدأ بالإيمان الذي هو رأسُ التّقوى، ورتَّبوا على ادّعائهم الإيمانَ سؤالَهُم المَغفرةَ والوِقايةَ من العذابِ، وجاءَ ترتيبُ الوِقايةِ لمجرّدِ الإيمانِ، فدَلّ على أنَّ المؤمنينَ يستحقّونَ المغفرةَ بإيمانهم، وخصّوا المسألةَ بأن يقيهم عذابَ النار؛ لأنَّ من زُحزح يومئذٍ عن النار فقد فازَ بالنجاةِ من عذاب اللّه وحسنِ مآبه[1].

وفي ترتيب الدّعاء على مجرَّدِ الإيمان دلالةٌ على كفايته في استحقاق المغفرةِ والوِقاية من النّار[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ إعرابِ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في تجلية المعنى:

تعدُّدُ الأعاريبِ يُعطي القارئَ احتمالاتٍ دلاليَّةً متنوِّعةً

الاسمُ الموصولُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ يَحْتَمِلُ الرّفعَ والنّصبَ والجرَّ، فالرّفعُ على أنّه مبتدأ محذوفُ الخبرِ، تقديرُه: الذين يقولون كذا مستجابٌ لهم، أو لهم ذلك الخيرُ المذكورُ.

أو على أنّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، كأنّه قيل: مَنْ هم هؤلاء المتقون؟ فقيل: الذينَ يقولون كَيْتَ وكَيْتَ.

والنّصبُ بإضمار أَعْني أو أمدحُ. والجَرُّ على أنّه نعتُ للذين اتّقوا أو بدلٌ منه، أو نعتٌ للعباد أو بدلٌ منه، والمرادُ على الأخير: إعلامُهم بأنّه تعالى عالمٌ بمِقدار مشقّتِهم في العبادة فهو يُجازِيهم عليها[3].

معنى القول في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ "الكلامُ المطابِقُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/264.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 2/11.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/165 - 166، والسمين، الدر المصون: 3/69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، والآلوسي، روح المعاني: 2/99.

للواقعِ في الخبرِ، والجاري على فَرْطِ الرّغبة في الدّعاء في قَوْلِهِمْ: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلَخْ، وَإِنَّمَا يَجْرِي كَذَلِكَ إِذَا سَعَى الدَّاعِي فِي وَسَائِلِ الْإِجَابَةِ وَتَرَقَّبَهَا بِأَسْبَابِهَا الَّتِي تُرْشِدُ إِلَيْهَا التَّقْوَى، فَلَا يُجَازَى هَذَا الْجَزَاءَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بِفَمِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ لَهُ"[1].

القولُ المقبولُ في الدُّعاءِ هو ما طابقَ قلبَ قائِلِه

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ومجيءِ صلته مضارِعًا:

عبَّر بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ دون الاسمِ الظاهرِ، فلم يقل: القائلين، وذلك لَمزيدِ مَدْحهم، وأتى بصلةِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ فعلًا مضارِعًا ولم يأتِ بصيغةِ الماضي كما أتى قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ [آل عمران: 15]؛ لبيانِ أنَّ التَّقوى هي العنصرُ الثَّابتُ في القلبِ، وليفيد تجدُّدَ ذلك الدُّعاءِ واستمرارَه مع تجدُّدِ الأجيالِ المؤمنةِ، فيَصنَعُ صَنيعَهُ فيهم بإرشادِهم إلى طلبِ المغفرةِ وحُسنِ الجَزاءِ في الآخرةِ كما فُعِلَ فيمَنْ سَبَقَهم.

التَّقوى هي العنصرُ الثَّابتُ للأقوالِ الصَّادقةِ المتُجدِّدة

بلاغة الإطناب بذكرِ ﴿إِنَّنَآ﴾:

في قولِ الدَّاعين: ﴿إِنَّنَآ﴾ تأكيدُ الكلامِ بمؤكِّدَيْن اثنين، وهما: (إنّ) وضميرُ المتكلِّمين (نا)، وهو من قَبيلِ الإطنَابِ، إذ لو حُذِفتْ من الكلامِ فقيل: (ربّنا آمنّا فاغفر لنا)؛ فُهِمَ المعنى المُرادُ، مع تحقُّق الإيجازِ اللَّفظيِّ، لكنّ الإطنابَ بذِكر ﴿إِنَّنَآ﴾ يُضفي على الدُّعاءِ معنًى لا يتحقَّقُ بدونِه، إذ يُوحي ذلك التَّأكيدُ سُمُوَّ الدُّعاء وصدقَ قائله، ويومِئُ بنوعِ رجاءٍ مُحاطٍ بالخشيةِ، ولإظهارِ أنّ إيمانَهم ناشئٌ من وُفورِ الرّغبة وكمالِ النّشاطِ[2]، بالإضافةِ إلى الإشارةِ إلى معنى التَّعليلِ[3]؛ فكأنَّهم قالوا: (لأنّنا آمنا)، وهذه فائدةُ الإطنابِ، الذي مآلُه إيجازٌ معنويٌّ، وإن ظهرَ بأنَّه إطنابٌ لفظيٌّ.

الإيماءُ إلى صدقِ الدَّاعينَ، ورجائِهمِ المُحاطِ بالخشيةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/184.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/99.

(3) السيوطي، الإتقان: 2/406 - 407، ومعترك الأقران: 1/609 - 610.

ثمَّ إنَّ (إنَّ) أكَّدَتْ مضمونَ الجملةِ، فنابَتْ عن تكرير الجُملة مرّتين، وهي أوجَزُ من تكريرِها مرّتين، مع حُصُول الغَرَضِ من التّأكيدِ، مع أنّ التّوكيد بإنّ، والتّكريرَ ليسَا بمنزلةٍ واحدةٍ[1]، فعلمنَا أنَّ ما كانَ إطنابًا في الظَّاهرِ، هو إيجازٌ في المآلِ.

بلاغةُ التَّفريعِ وخُروج لفظِ الأمرِ إلى معنى الدّعاء:

ترتيبُ طلبِ المغفرةِ على الإيمانِ دليلُ صدقٍ وتعليمُ صادقين

لَمّا ذكرَ الإقرارَ بالإيمانِ وأكّدَهُ بمؤكّداتٍ عدَّة، وفرَّع على قولِه: ﴿رَبَّنَآ﴾ فعلَ الدّعاءِ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ الذي أفادَ ترتيبَ المغفرة على الإيمان؛ إذ إنّ من دواعي مغفرةِ الذّنوب الإيمانَ؛ فاقتضى التّفريعُ استطرادَ الدّاعين؛ فتوسّعوا بعد أن ذكروا إيمانهم وأكّدوه في نُفوسهم وأقوالهم شَغَفًا وصِدقًا؛ ومن شأن التّفريع أنْ يزيدَ المُفرَّع عليه توكيدًا؛ فدعاؤهم هذا توكيدٌ لإيمانِهم وصدقِهم وقناعتِهم استحقاقَهم من اللّه تعالى تلك المغفرة[2].

وتفريعُ المغفرة على الإقرارِ بالإيمانِ دليلٌ على أنّه كافٍ في استحقاقِ المغفرةِ والاستعداد لها[3]، وقيل إنّ الفاء في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ للتّعليل؛ لأنّ الإيمانَ عِلّة الغُفران[4]، والأليقُ أن تكونَ تفريعيَّة، فإنَّ العبدَ لا يُعلِّل طلبَ مغفرتِه ليأخذها عدلًا، بل يلتمس المغفرةَ بالإيمانِ فضلًا.

بلاغةُ ترتيبِ طلبِ الوقايةِ على طلبِ المغفرة:

غفرُ الذُّنوبِ عن العبادِ أرجى وآكد في وقايتِهم من النَّار

ذكرَ الدَّاعون إيمانَهم باللّه تعالى توسُّلًا به، ثم طلبوا المغفرةَ من باب التَّخلية، فقولهم: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ متضمّنٌ إقرارَهُم بالذُّنوبِ، ثمَّ قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وجيءَ بحرفِ الواوِ عطفًا على فعل ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، إذِ الوقايةُ من عذابِ النَّارِ تكونُ آكدَ عند مغفرةِ الذُّنوبِ،

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 8/59، والسيوطي، الأشباه والنظائر: 1/29.
(2) ابن رشيق، العُمدة: 2/42.
(3) الكفويّ، الكُلّيات: 676 - 677، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/9.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/473.

وهو غايةُ المَقْصِدِ من المغفرة، وهو الوِقاية من عذاب النّار، وذلك كلُّه مقتضَى رضَا اللّه عنهم، ومجازاتِهم بالجنّة؛ فمَن وقاه اللّه من عذابِ النّار أكرمَه بدخول جنّته.

دلالة إضافة الجمع إلى المعرفة:

شِـدّة طمعِهم في مغفرة سائر الذّنوب صغيرِها وكبيرها

أُضيفتِ الذّنوبُ وهي جمعٌ في قولِه تعالى: ﴿ذُنُوبَنَا﴾ إلى ضمير المتكلّمين (نا) وهو معرفةٌ؛ لإفادةِ العمومَ، أي: اغفر لنا كلَّ ذنوبنا، فتشمَل الكبائرَ والصغائر[1]، وفي ذلك إجمالٌ في الدُّعاءِ، وهو فقهٌ روحي يرتاضه الدَّاعون، ويدلُّ على شدَّةِ طَمَعِهم في طلبِ المغفرةِ عن جميعِ الذُّنوب.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/280، والآلوسي، روح المعاني: 2/99.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما وَصف الله تقوى قلوبِهم باطنًا، ومَدَحَ المُتّقين بالتّزكية الإيمانيّة؛ تابعَ الوصفَ لهؤلاءِ المتّقينَ مبيّنًا الصّفات التي استحقّوا بها تلكَ الدّرجاتِ؛ فقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾، وبيَّن أدبَ مقالِهم ظاهرًا، وصف أحوالَ أنفسِهم ليتطابق ظاهرُ أمرهم بمتوسّطه وباطنه، ووجْهُ النّظمِ أنّه مدحَ المؤمنينَ وأثنى عليهم، ثمَّ بيَّن أنَّ دلائلَ الإيمان ظاهرةٌ جليّةٌ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: القُنوتُ الطّاعةُ، وما يترتّب عليها من انقيادٍ وخُضوعٍ ونحو ذلك، وقَنَتَتِ المرأةُ لزوجها: أطاعته، والقُنوت: الخُشوع، والقانت: القائم بجميع أمرِ اللهِ تعالى، وقانتٌ لله: مطيع خاشع، فالقُنوت: خُشوع وإقرار بالعبودية وقِيامٌ بالطّاعة[2].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

فصَّلَ اللهُ تعالى خِصالَ التَّقْوى، فالآيةُ تَعدادٌ لِصفاتِ الذين اتّقَوا، وهم الذين تتوافر فيهم هذه الصِّفاتُ جميعًا: الصَّابِرِينَ في أداءِ الطّاعات وعلى تركِ المحظورات وعند المِحَنِ والشدائد، والصَّادِقِينَ في الأقوال والأفعال والنِّيَّات، والقانِتِينَ المُقيمين على الطّاعات، المواظبين عليها، والمُنفِقِين ما تيسَّر على من تيسَّر بشروطه ومَصارفِه وُجوبًا ونَدْبًا، والمُستغفِرين في السَّحَر وهو سدسُ اللّيل الأخير قبلَ طُلوعِ الفجر، وخُصَّ هذا الوقتُ لأنّهم كانوا يُقدّمون قيامَ الليل حتّى إذا كان السّحرُ أخذوا في الدّعاء والاستغفار[3]. وللاستغفار بالأسحار آثارُه وأنواره؛ إذ السَّحر وقتُ النّوم والغَفلة[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/281، أبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قنت).
(3) الزمخشري، الكشّاف: 1/343.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/41.

وتتفاوتُ درجاتُ المتَّصفين بهذه الأوصاف، فمنهم مَن فاقَ الصّبرُ عنده غيرَها، فسُمّوا بالصّابرين، ومنهم من كان الصّدقُ سِمَةً بارزة له؛ فسُمّوا بالصّادقين، وهكذا. فذَكر خمسًا من الصّفات العالية لأهلِ التَّقْوى، واكتفى بها عمَّا سواها؛ لأنّها تَجمع الخيرَ كلّه، ثمّ إنّها تتشعّب منها صِفاتٌ كثيرة فتشمَل كلَّ صِفات الخير.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ الصِّفاتِ المذكورةِ دونَ غيرِها بالذِّكر:

ذِكْـــرُ أصـــولِ فضائلِ صفاتِ أهلِ الإيمان

ذُكِرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، أصولُ صفاتِ أهلِ الإيمانِ، فالصّبرُ مِلاكُ فعلِ الطّاعات وتركِ المعاصي، والصِّدقُ مِلاكُ الاستقامة وبثِّ الثِّقة بين أفراد الأمة، والقُنوت ملازَمةُ العباداتِ في أوقاتها وإتقانُها، وهو عبادةٌ نفسيّة جسديّة، والإنفاقُ أصل قيامِ الأمّة بكِفاية حاجة المحتاجين، والاستغفار بالأسحار الدّعاء والصّلاة المشتملة عليه في أواخر اللّيل، والغرضُ من ذكرِها هو بيانُ ما داومَ عليه أولئك المتّقون من الأعمالِ الصّالحة، فكانوا متَّقين مقبولًا دعاؤُهم.

نكتةُ تقييدِ الاستغفار بوقتٍ دون غيرِه من الصِّفات:

مَنِ استغفرَ الله أوّلَ يومِه كان أبعدَ عن كلاليبِ الشَّهوات

جاءتِ الصِّفاتُ مطلقةً من القيودِ في قولِه تعالى: في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ﴾، فلم يقُل: الصَّابرين على الشَّدائد، والصَّادقين في أقوالِهم، والقانتين في اللَّيلِ، والمنفقين من أموالِهم، وذلك أنَّ الصَّبرَ بابُه واسعٌ، ومثله بقيَّة الصِّفات، بخلافِ الاستغفارِ ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، فقُيِّدَ بوقتِ الأسحارِ؛ وذلك لأنّ العبادةَ فيه أشدُّ إخلاصًا لما في ذلك الوقتِ من هدوءِ النّفوس، وصفاءِ السَّرائر، والتَّجرُّدِ عن الشّواغل، ولدلالته على

اهتمام صاحبِه بأمر آخرتِه[1]، ولأنَّ من يبدأُ يومَه باستغفارٍ كان أبعدَ عن مطالبِ الشُّبهات وكلاليبِ الشَّهوات.

بلاغة دخول الواو على الصِّفات المتعدِّدةِ لموصوفٍ واحدٍ:

تنزيلُ تعدُّدِ الصِّفات منزلةَ تعدُّدِ الذَّوات

دخلتِ الواوُ بين الصِّفاتِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ لقطعِها عن الوصفيّة، مع أنّها صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ في اللّفظ متعدِّدٍ في المعنى تفخيمًا للموصوفِ، وإيذانًا باستقلالِ مدحِ كلِّ صفةٍ لموصوفها، ودلالةً على انفرادِهم بأنواع الكمالات، أو إشارةً إلى أنّ كلَّ واحدٍ منها يكفي في استحقاقِ المدحِ والثَّوابِ، وفي هذا إشارةٌ إلى كمال الموصوف في كلِّ صفةٍ منها، وإيذانٌ بأنّه منهم صابرٌ ومنهم صادقٌ، وهكذا جميع الصّفات، والمعنى أنّهم الجامعون لتلك الصّفات، ولتبايُنِ كلِّ صفةٍ عن الأخرى؛ إذ ليست كلُّها في معنًى واحدٍ، فينزَّل تغايُرُ الصّفاتِ وتبايُنُها منزلةَ تغايُرِ الذّواتِ، فكأنَّ كلَّ صفةٍ هي لموصوفٍ قائمٍ بذاته.

وجامِعُ ما ذَكره العلماء أنّ ذلك من قَبيل التّوسُّع في وصف أفراد الأمّة الإسلامية؛ فهي قد اشتملت برجالها ونسائها على هذه الصفات الإنسانيّة النّادرة[2].

بلاغة إيثارِ صيغة اسمِ الفاعل في تعدادِ الأوصافِ:

مقامُ تحدُّثِ المؤمنِ عن نفسِه، يختلفُ عن مقامِ إخبارِ الله عنها

عبَّر النَّظم في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾، بصيغة الماضي، بينما ذُكِرَت الأوصافُ بصيغة اسْمِ الفاعل في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾؛ فمايَزَ بين الموضعين، فلم يقل: ربّنا إنّنا مؤمنون، وفي ذلك بلاغةٌ تَكشِف عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/185.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/47، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 2/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/185.

تناسُب الصيغة بالمعنى المستفاد منها، ففي ذكر الأوصاف بالاسميّة دلالةُ الثّبوتِ والرُّسوخ والتّكرار؛ فلا يوصف أحدُهم بواحدة من هذه الصّفات إلّا إن كانت هي دأبَه ومَحطَّ اهتمامِه ونشاطه، فهي صفةٌ راسخة فيه، فجاء الوصف بصيغة اسم الفاعل، أمّا ذكره الإيمانَ بصيغة الفعل ففيه دلالةُ الارتباط بالزّمن لتستدعيَ التّجدُّدَ والاستمرار[1]، بالإضافةِ إلى أنَّ ذكرَ الإيمانِ هو في حالِ صدورِه عنهم، وأمَّا بقيَّةُ الصِّفات فهي باعتبارِها إخبارًا من اللّه تعالى.

سرُّ الجمعِ بين طلبِ المغفرةِ والاستغفار بالأسحار:

التَّخليةُ قبل التَّحليةِ

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ الجمعِ بينَ طلبِ المغفرةِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، والإخبارِ عن الاستغفارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾، وذلك أنَّه لمّا رتّبُوا طلبَ المغفرَةِ على الإيمان وهو أصلُ التّقوى، أخبَرَ عنهُم أنَّهُم مستغفرون بالأسحار؛ إذ لا يَرون اتِّصافَهُم بهذه الأوصاف الشَّريفة مِمَّا يُسقِطُ عنهم طلبَ المغفرةِ، فهم يستغفرون ابتداءً على الدَّوام، ويطلبون المغفرةَ انتهاءً إن وقعتْ منهم ذنوبٌ، وهذا من التَّخليةِ قبل التَّحليةِ.

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾:

معنى الباء الرئيسُ هو الإلصاقُ، وما ذُكر لها من معانٍ أخرَ تَحمل هذا المعنى، فهو لا يُفارقها[2]، فالاستغفارُ عند تلك الفئةِ ملتصقٌ بالأسحار فكأنّهم لا يُفَوِّتون سحَرًا من اللَّيالي إلّا وكانوا فيه من المستغفرين، وما داموا مُداومين على هذه الصِّفةِ فهم فيها مستغفرون.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 25/29.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/217، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/17.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكر اللّه صفاتِ المؤمنينَ ولم يَذكر العلمَ وأهلَه في شيء؛ ذَكره في هذه الآية، فَقَرَنَ شهادتَهم بشهادتِه سبحانَه، وجَمع أولي العلم والملائكةَ، وجعلَهم شهداءَ اللّه في الأرض على وحدانيّةِ اللّه؛ فبيّنَ أنَّ مكانَةَ أهلِ العلم أسمى من كلّ أصنافِ الخير المذكورة في الآية السَّابِقَةِ، وأنّ طلبَ العِلم أسمى أصولِ صفاتِ أهلِ الإيمانِ؛ لأنّ أهلَ العلمِ هم من يُدافعُ عن التّوحيدِ ويُقدّمُ الأدلّة عليه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِدَ﴾: الشّهادة: حضورٌ وعلْمٌ وإعلامٌ، فالحضور يَلزم منه علمٌ يترتَّب عليه إعلامٌ، ويترتّب على الإعلام حكمٌ. والمَشْهَدُ: مَجْمعُ النّاسِ، والجمعُ مَشاهدُ، والشَّهَادَةُ: خَبَرٌ قَاطِعٌ، والمُشاهَدةُ: المُعايَنةُ، وقَوْمٌ شُهُودٌ، أَي: حُضُورٌ[2].

ومعنى شهد في الآية: أعْلَمَ، أو قَضَى، أو حَكَمَ، أو بَيّنَ، أو شهد بإظهارِ صُنعِه[3].

2) ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾: الْقَافُ وَالسِّينُ وَالطَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ وَالْبِنَاءُ وَاحِدٌ. فَالْقِسْطُ: الْعَدْلُ. وَيُقَالُ مِنْهُ أَقْسَطَ يُقْسِطُ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42، الحجرات: 9، الممتحنة: 8]، وَالْقَسْطُ بِفَتْحِ الْقَافِ: الْجَوْرُ. وَالْقُسُوطُ: الْعُدُولُ عَنِ الْحَقِّ، يُقَالُ قَسَطَ، إِذَا جَارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا. وَالْقَسَطُ: اعْوِجَاجٌ فِي الرِّجْلَيْنِ، وَهُوَ خِلَافُ الْفَحَجِ. والقِسْطُ، بكسر القاف، والإقْساطُ: العدلُ في القِسمة والحُكم، والفعلُ منهما أَقسطَ بالألف، تقول: أَقسَطْتُ بينهم وإليهم، وتَقسَّطوا بينهم الشيءَ: اقتسَموه بالتّسوية، فكلُّ مقدارٍ قِسطٌ في كلِّ شيءٍ، يُقال: أَقْسَطَ، أي عَدَلَ، فهو مُقْسِطٌ، وَفي أسمائه تعالى الحُسنى المُقْسِطُ، وهو العادلُ[4].

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/172.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/268، والراغب، تفسير الراغب: 2/464.

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (قسط).

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

شهِد اللّه وبيَّن وأَعلمَ تعالى عبادَه انفرادَه بالوحدانيّة، وأنّه هو الإله المعبود بحقٍّ دون سِواه، وذلك بما أقام من الآيات الشرعيّةِ والكونيّة الدّالّة على أُلوهيَّته، وشهِد على ذلك الملائكةُ بالإقرار بها، وشهِد أهلُ العلم على ذلك ببيانهم للتّوحيد والإيمان به ودعوتِهم إليه وإقامةِ الحُجَّة عليه، فشهِدوا على أعظمِ مشهودٍ به، وهو توحيدُ اللّه وقيامُه تعالى بالعدل في خلْقه وشرعه، لا إله إلا هو العزيز الذي لا يُغالبُه أحدٌ، ولا يمتنع عليه شيء أراده، الحكيمُ في خلْقه وتدبيرِه وتشريعِه[1].

ويُذكَرُ أنَّ سبب نزولِ الآية ما قاله محمد بن السَّائب الكَلْبِيُّ: أنّه لمّا ظهر رسولُ اللّه ﷺ بالمدينة قدم عليه حَبْرَانِ من أحبار أهلِ الشّام، فلمّا أبصرا المدينةَ قال أحدُهما لصاحبِهِ: ما أشبهَ هذه المدينةَ بصفةِ مدينة النبيّ ﷺ الذي يَخرج في آخر الزّمان، فلمّا دخلا على النبيّ ﷺ عَرفاه بالصِّفة والنَّعت، فقالا: أنت محمدٌ؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمدُ؟ قال: نعم، قالا: إنّا نسألك عن شهادة فإنْ أنت أخبرتَنا بها آمنّا بك وصدّقْناك، فقال لهما رسولُ اللّه ﷺ: سَلاني، قَالا: أخبِرْنا مَنْ أعظَمُ شهادَةً في كتابِ اللّه؟ فأنزلَ اللّه على نبيّهِ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فأسلم الرّجلان وصدَّقا رسولَ اللّه ﷺ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تناسُبُ الآيَة مع مطلَعِ السّورةِ وما بعدها:

التّوحيد هو محورُ سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ استئنافٌ وتمهيد لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ فالشهادةُ هي أساسُ الإسلام، وإعلانُ هذا التّوحيد دينًا خالصًا للّه سبحانه، وفيه تعريض بالمشركين والنّصارى واليهود، وجميعِ الذين يَدينون بالتّوحيد، وإنْ تفاوَتوا في مراتب الإشراك،

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير 1/173، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 52.

(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/200، وابن الجوزي، زاد المسير: 1/361، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/41، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126، وابن عادل، اللباب: 1/1005، والآلوسي، روح المعاني: 3/104.

وهذه الآية مرتبطةٌ بمطلع السورة؛ لأنّه يؤكّد ما افتُتحتْ به السّورة من قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 2][(1)].

سرُّ استعمالِ ﴿شَهِدَ﴾ مَجازًا لُغويًا:

تعدُّد الاحتمالات لمعنى الشَّهادة راجعٌ لقوَّةِ الاستعمالِ السِّياقيِّ والمعنى المجازيِّ

حقيقةُ الشّهادة خبرٌ يُصدَّق به خَبَرُ مُخْبِرٍ وقد يُكذَّب به خبرٌ آخر، فشأنُه أن يكون للتّصديق والتّكذيب في الحقوق، فلذلك أُطلقت الشّهادة مجازًا على الخبر الذي لا ينبغي أن يُشكّ فيه؛ وذلك على سبيل المجاز المرسَل بعلاقة التّلازُم، فشهادةُ اللّه في الآية تحقيقُه وحدانيّتَه بالدّلائل التي نَصَبها على ذلك، وشهادةُ الملائكة تحقيقُهم ذلك فيما بينهم، وتبليغُ بعضِهم ذلك إلى الرّسل، وشهادةُ أُولي العلم تحقيقُهم ذلك بالحُجج والأدلّة، فإطلاقُ الشّهادة على هذه الأخبار مجازٌ بعلاقة اللّزوم، أو: تشبيهُ الإخبارِ بالإخبار، أو أنّه تعالى شبّه ذلكَ في البيان والكَشف بشهادة الشّاهدِ[(2)].

وكلُّ واحد من الأمور المتقدمة يُسمّى شهادة، على نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: 56] ومعلوم أنّ الصّلاة من اللّه غيرُ الصّلاة من الملائكة، ومن الملائكة غيرُ الصّلاة من النّاس، مع أنّه قد جمعهم في اللّفظ[(3)].

ويُمكن أن تكون شهادة اللّه بمعنى الدّلالةِ ونَصْبِ الأدلّة، وشهادةُ الملائكة وأُولي العلم بمعنى الإقرار، أو بمعنى إقرار الملائكة واحتجاج أُولي العلم، وفيه تَنْبِيهٌ على استعمال شهِد في مَعانٍ مجازيّة، أو على استعمال شهِد في مَجاز أَعمَّ هو الإظهارُ، حتى يكون نَصْبُ الأدلّة والإقرارُ والاحتجاجُ من أفراد ذلك العامّ، بِناء على عموم المَجاز[(4)].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168 - 169.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.

ويمكن أنْ يكون شهِد بمعنى بيَّنَ وأقام الأدلّة، شُبّه إقامة الأدلّة على وحدانيّته، من إيجاد المخلوقات ونَصْبِ الأدلّة العقليّة، بشهادة الشاهد بتصديق الدَّعوى في البيان والكشف على طريق الاستعارة التَّبَعيّة[1].

سِرُّ عَطْفِ الملائكةِ وأولي العِلْمِ في الشَّهادةِ على لفظِ الجلالةِ:

الشَّهادةُ قائمةٌ على أصلِ العلمِ، مع تفاوت العالمين بمضمون الشَّهادة

عُطفتْ شهادة الملائكةِ وأولي العلم على شهادته تعالى تعظيمًا لشهادتِهما، فإنَّ اشتراكهما في لفظٍ واحدٍ وهو ﴿شَهِدَ﴾ يُعطيهما جلالًا وتعظيمًا، ومشاركتُهما للّٰه تعالى في الشهادة من حيثُ عُطِفا عليه لصِحّة نِسبةِ الإعلامِ، أو صِحّةِ نِسبةِ الإظهارِ والبيان، وإنِ اختلفتْ كيفيّةُ الإظهار والبيان من حيث إنّ إظهارَه تعالى بخلق الدلائل، وإظهارَ الملائكة بتقريرها للرُّسُل، والرُّسُلِ لأُولي العلم[2]، وتضمّنتْ شهادة اللّٰه على وحدانيّته قدرتَه في خلقه، على سبيل التّحدّي والإعجاز لمن ادَّعى الألوهيّة، أو ادَّعى شريكًا للّٰه في خلقه ومُلكه.

دلالةُ حذف الخبر:

تكريم الله لملائكته وأُولي العلم إذْ جَمع شهادتَهم إلى شهادته على وحدانيّته سبحانَه

على إعراب ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ و﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأً، فإنَّ الخبرَ محذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ والمعنى: والملائكة وأُولو العلم يشهدون بذلك، أو شهداء[3]، وفي هذا الإعراب تكريمٌ للملائكة وأُولي العلم لتحقيق المكانة العالية عند اللّٰه التي تَضمَّنَها اتّحادُ شهادتهما مع شهادة اللّٰه تعالى، فكانت شهادتُهما كشهادة الواحد مناسبةً للتّوحيد، ثم إنّ فيها دلالةَ التّبعيّةِ والعبوديّةِ له سبحانَه، فهو موافقٌ في المعنى في إعراب اللَّفظين معطوفين على لفظ الجلالةِ.

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

خصَّتِ الآية الملائكةَ في السَّماءِ، وأولي العلم في الأرضِ بالذِّكر من بين سائرِ العبادِ؛ لبيانِ أن شهادةَ التَّوحيد إنَّما تصدُر عمّن

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/16.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/60.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.

أولو العلمِ هم شُهداءِ الله في الأرضِ، وهم أصلُ الأمرِ ومنتهاه

يُعتدُّ به مِن خلقه ممّن أَطلعَهم على ما لم يُطلع عليه الإنسانَ من المَلَكِ والمَلَكُوت، ولا شاغلَ لهم من شهوة ولا حظٍّ ولا فُتور، والملائكة العبادُ المقرَّبون الذين ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾[1]، ثمّ عطف عليهم أُولي العلم، فهم شُهداءُ اللّه في الأرضِ، وهم المخوَّلون بالدَّعوةِ إلى عقيدةِ التَّوحيدِ على وجهِها الحقِّ، وسواهم تَبَعٌ لهم.

سرُّ تقديمِ الملائكةِ على أُولي العلم:

شهادةَ الملائكة تامّة وعلمُهم بشواهد الله أوسعُ، وفضلُهم في إيصال الرّسالات أكبر

قدَّمتِ الآيةُ شهادةَ الملائكةِ على شهادةِ أُولي العلم، مع أنّ شهادة أُولي العلم تقتضي البحثَ والاكتشاف والمثابَرة، ثمّ الإقرار، بَيْنَما شهادة الملائكة إقرارٌ فحَسْبُ، وسرُّ ذلك أنّه قدَّم الخاصَّ على العامِّ، والسّابقَ في العلم على اللّاحقَ فيه، ولأنَّ الملائكةَ هم الملأُ الأعلى، فعِلْمُهم كلُّه ضروريٌّ، بخلاف البشر فعلمُهم منه ما هو ضروريٌّ ومنه ما هو كسبيٌّ[2].

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

أوَّلًا: أوجُه الإعراب في قوله: ﴿قَآئِمَۢا﴾:

في إعراب قولِه تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أوجهٌ:

الأوَّلُ: حالٌ من لفظ الجلالةِ، والتَّقديرُ: شَهِدَ اللّه قائمًا بالقسطِ، أو من الضَّمير ﴿هُوَ﴾، والتَّقدير: لا إلهَ إلّا هو قائمًا بالقسط، أو من ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: حالَ كونِ كلِّ واحدٍ منهم قائمًا بالقسطِ في أداء هذه الشَّهادة.

الثَّاني: صفة المنفيّ، كأنّه قيل: لا إلهَ قائمًا بالقسط إلا هو[3]، وفيه معنى الاختصاصِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/60.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/169.

الثَّالث: أن يكون نُصِبَ على المدح، أو على قطع الصّفة، والأصل: شَهِدَ اللّهُ القائمُ بالقسط[1]؛ فالشّهادة: قيامٌ بالقسط، والشّاهد بها قائمٌ بالقسط، ومعنى كونِه قائمًا بالقسطِ: قائمًا بالعدل في التّقسيم، يُجريه على سُنَنِ الاستقامة، ومُقيمًا للعدل فيما يَقسم من الأرزاق والآجال[2].

الإعـــــرابُ الصّحيح هو التّابعُ للمعنى السّليم وإن تعدّدَ

وهذه الأعاريب الثّلاثةُ تلتقي في صحّةِ المعنى، فالحاليّة واضحةٌ من حيث إنَّ الشّهادةَ بوحدانيّةِ اللّه لا تكون إلّا في هذه الحال، وكونُ ﴿قَآيِمًا﴾ صفةً فهي كذلك جليّةٌ، وأمّا النصبُ على المدح، فمن اتّصف بهذه الصِّفة، وكانت حاله فالواجبُ فيه المَدْحُ والحَمْدُ.

ثانيًا: سرُّ إفرادِ لفظِ القيام في قوله: ﴿قَآيِمًا﴾ دون جمعِه:

أُفردَ لفظُ: ﴿قَآيِمًا﴾ ولم يُجمع فيُقال: (قائمين)؛ ليُفهمَ أنّه حالُ كلٍّ من المذكورين منفردًا، وليس حالَ المجموع بقيد الجمع، أو حالًا من الاسم الشريف، فيكون قد أُفرد إشارةً إلى أنّه ما وحّد اللّه سبحانَه وتعالى حقَّ توحيدِه غيره، لأنّه لا يُحيط به أحدٌ علمًا، وإنّما جاز إفراده بها لعدم اللَّبْس؛ أي تَفرَّدَ قائمًا، أو أُفرد القيامُ فاندرج مَنْ ذُكر مِن الملائكة وأُولي العلم في هذا القيام إفهامًا، كما اندرجوا في الشّهادة إفصاحًا[3].

ثالثًا: نكتةُ تأخيرِ قولِه: ﴿قَآيِمًا بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

علوّ رتبة الملائكة وأُولي العلم عند الله تعالى

تأخَّر ذكرُ ﴿قَآيِمًا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ عن المعطوفَيْن، وهما الملائكةُ وأُولو العلم؛ للدّلالة على عُلوّ رتبتِهما عند اللّه تعالى، والمسارَعةِ إلى إقامة شهودِ التّوحيد اعتناءً بشأنه، ورفعًا لمحلِّه[4].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/343، 344، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/169، 170، والسمين، الدر المصون: 3/75، 80.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/127 - 128.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/9.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.

رابعًا: الاحتِراس في قوله: ﴿قَآبِمًا بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

لَمّا كانت الشّهادةُ محتملةً أن تكونَ على غَيْرِ وَجْهِ العَدلِ؛ نفى ذلك واحترَسَ بقولِه: ﴿قَآبِمًا﴾، وأُفرِدَ ليُفهمَ أنّه حالُ كلٍّ من المذكورين[1].

نكتةُ استعمال لفظِ: ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ دون غيرِه من الألفاظ:

استـعـمـالُ الـقـسـطِ بـدلَ العـدلِ لدلالته الـعـلـمـيـة في تكوين العَوالم

يُطلق القِسط والقِسطاس على الميزان؛ لأنّه آلةٌ للعَدل في التّقسيم، قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: 35]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، وقد أقام اللهُ القِسط في تكوين العَوالم على نُظُمها، وهذا ما يُطلق عليه اليوم بالميزان الكَونيّ، وصُورُه ممّا ذَكره العلماء لا تُعدُّ ولا تُحصى، وشواهدُه في القرآن الكريم واضحةٌ، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ٧﴾ [الرحمن: 7]؛ أي وضع الميزان في تقدير بقاءِ الأنواع وإيداعِ أسبابِ المُدافعة في نفوس الموجودات[2].

وقد ناسب لفظُ ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ دون (العَدل) لأنّ العَدل عامّ، ويكون في الغالب مرتبطًا بشؤون حياة الناس، أمّا القِسط فهو واقعٌ في تقسيم ما تحتاجه المخلوقات كلُّها لتستمرَّ على ديمومتها؛ من أصغر شيءٍ إلى أكبر شيءٍ، فهو القَيُّومُ القائم بالقِسط عليها جميعًا[3]، وهذا معنى ﴿قَآبِمًا بِٱلْقِسْطِۚ﴾، فلو لم يكنْ سبحانَه كذلك لاستحالَ وجودُ الكونِ، وهؤلاء العلماءُ الذين يكتشفون هذا العلمَ الكونيَّ هم شهداءُ الأرض على عظيم هذا الخَلق ووحدانيّة الخالقِ سبحانَه.

استعمالُ القسطِ بـدلَ المـسـاواة لـدلالـتـه عـلى إعطاءِ المخلوقاتِ حقَّها الأنسب

القِسط هو التقسيم بحسب ما تقتضيه الحاجةُ في خلق الكون، وهو معنى قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾ [القمر: 49]، وقولِه تعالى ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾ [الحِجر: 19]، فالقِسط هو مراعاة

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.

(3) محمد باسل الطّائي، أوهام الإلحاد العلمي: 185 - 187.

حاجاتِ الكون وأحواله بحسب ما قدّر لها سبحانَه أن تستقيم تلك المخلوقاتُ في انسجام وتوافُقٍ، فالتّقسيم بالقِسط إعطاءُ كلِّ خَلقٍ حقَّه مكانًا وزمانًا ومِقدارًا ودَيْمُومة، بحيث تتوافَقُ مفرداتُ الكون كلُّها.

أمّا المساواة فهي التّقسيم بالتّساوي، وليس على ما تقتضيه الحاجةُ والضرورة والأمثليّة في الخلق والكون والحياة.

أوجهُ تكرار قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في الآية:

لبناءِ كلمة التوحيدِ الثَّانيةِ على الأولى، توكيدًا وتحقيقًا واعتناءً

تكرَّر كلمةُ الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بهذه الألفاظ من مُفْتَتَح السّورة إلى هذه الآية أربعَ مرّات: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: 2]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾ [آل عمران: 6]، ثمّ في هذه الآية مرّتين، فجاء تكرار عمومًا؛ لبيان أنّ صِفاتِ تنزيهِ اللّهِ أشرفُ من صفاتِ تمجيدِه؛ إذ كان عامَّةُ صفاتِ التَّمجيدِ في ألفاظها مشارِكةً لأوصاف النّاس، يصِحُّ وصفُ العبادِ بها، ولأجْلِ ذلك فمعظم ما ورد من صفاته على لفظِ النّفي، نحو: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، ثمّ إنّ أبلغ ما يُوصف به من التّنزيه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وتكريرُها هنا لأوجه:

أوَّلًا: لكونِ الجملةِ الثّانيةِ قطعًا للحكم؛ إذ قد يوصف بهما المخلوقُ.

ثانيًا: للتّأكيد ومَزيد الاعتناء بمعرفة أدلّةِ التّوحيدِ والحكم به بعد إقامةِ الحُجّة.

ثالثًا: ليُبنى عليها قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فيُعلم أنّه الموصوفُ بهما.

رابعًا: لأنّ الثّانية في مرتبة القِسط الفِعليّ والأولى في مرتبة الشّهادةِ العلميّة؛ فاستوفَتِ الجملتان العلمَ والفعلَ، أي: أنَّ الأولى جرت مَجرى الشّهادة، والثانيَة جرت مَجرى الحكم بصِحّة ما شهد به الشّهود، وفي ذلك حثُّ العباد على تكريرها.

خامسًا: أنّ الغرض من الإعادة أمرُ العباد بذكر هذه الكلمة ثانيًا على وَفْق تلك الشهادات الأُولى(1).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/170 - 171، والراغب، تفسير الراغب: 2/466 - 467، والكرماني، أسرار التّكرار في القرآن الكريم، ص: 88، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.

نكتةُ الحصرِ بالضمير في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا بالاسم الظّاهر:

قال تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فأعاد بالضّمير ليكون الشّاهدُ والمشهودُ له واحدًا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فأعاد الضّمير ﴿هُوَ﴾ لمعنى الوحدانيّة في الشّهادة[1].

بلاغةُ قَرْنِ وصفِ العزيز بالحكيمِ وتقديمِه عليه:

الإشــــارةُ إلى كـمـالِ الـقـدرة والـعِـلــمِ في سياق الانتصارِ للتَّوحيدِ

وحدانيَّتُه وقِيامه بالقِسط لا يَتِمُّ إلّا إذا كان عزيزًا حكيمًا، فهما الدّليلُ على ذلك؛ إذْ لا يَصِحُّ تَفَرُّدُ الإلهِ ولا قِيامُه بالقِسط دون الوصف بالعِزَّة الكاملةِ والحكمة الشّاملة. فالعزيزُ إشارة إلى كمال القُدرة، والحكيمُ إشارة إلى كمال العِلم، ولا تَتِمُّ القُدرة إلّا بالتَّفرُّد والاستقلال، ولا العدالةُ إلّا بالاطّلاع على المصالح والأحوال[2].

وهما صفتان مقرِّرتان لما وَصَف به ذاتَه من الوحدانيّة والعدل، فهو العزيزُ الذي لا يُغَالَبُ، الحكيمُ الذي لا يَجور في أفعاله، ولمَّا كانت الآيات كلُّها في الإيقاع بالكافرين قدَّم الوصفَ الملائم لذلك[3].

فنُّ التَّصدير:

في الفاصلةِ فنُّ التَّصدير، فمَجيءُ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بعد قوله: ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ ردٌّ إلى الوحدانيّة التي تقتضي العِزّة، وردَّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ إلى العدل الذي هو القِسْط[4]، وهذا تناسُبٌ بين التّهليل والقِسْط من جِهةٍ و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من جِهة أخرى.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/42.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/127 - 128، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/44.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 1/344، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/65، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/474.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذا شُروعٌ في أوّل غرضٍ أُنزلت فيه هذه السّورة، وهو مُحاجّة نصارى نَجْران، فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاحِ السّورة بذكر تنزيلِ القرآن والتّوراة والإنجيل، ثمّ بتخصيص القرآنِ بالذّكر وتفضيله بأنّ هديَه يفوق هديَ الكتب قبلَه؛ لأنّه الفُرقان، ولمّا كان الكلامُ المتقدِّمُ مشتملًا على التّعريض باليهود والنّصارى الذين كذّبوا بالقرآن؛ ناسب أنْ يُنوّه بعد ذلك بالإسلام الذي جاء به القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، ثمّ عَطف ما بعدَه عليه(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡتَلَفَ﴾: الخَلْفُ والخُلْفُ: بقاءُ شيء بعد ذهاب آخرَ يقوم مَقامه، أو بقاؤه وراءَه في ظهره، والاختلافُ: عدم الاجتماع على رأيٍ أو موقف أو حُكم واحد، كأنَّ كلَّ واحدٍ يذهب إلى ما جعله الآخرُ خَلْفَه، ومنه إخلافُ الموعد: ذَهابُ الأمرِ الموعودِ به، أو ذَهابُ زمنِه والصَّيْرُورة إلى زمن بعدَه(2).

2) ﴿بَغۡيَۢا﴾: البَغْيُ طلبُ شَيْءٍ مع قوّة، والبَغْيُ: الظُّلْمُ والفساد، والبَغْيُ ههنا حسدٌ، وهو ظلمٌ وفسادٌ(3).

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

إنّ الدِّين المقبولَ عند الله هو الإسلامُ، الذي يُوجِبُ الانقيادَ لله وحدَه بالطّاعة والاستسلامَ له بالعُبودية، والإيمانَ بالرُّسل جميعًا وبمحمَّدٍ ﷺ الذي خَتم الله به

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/188.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بغو، بغي).

الرّسالاتِ، فلا يَقْبَلُ اللّه دينًا سوى الإسلام الذي أُرسل به، وما اختلف اليهودُ والنَّصارى في دينهم وافترقوا شِيَعًا وأحزابًا إلّا من بعدِ ما قامت عليهم الحُجّةُ بما جاءهم من العلم؛ حسدًا منهم وحِرْصًا على الدّنيا؛ فالاختلاف بعد إتيان الكتابِ أقبحُ وأفحش، إذ الكتاب ما نزل إلّا لهدايتهم، وسعادتهم، ومَن يكفرْ بآيات اللّه المنزَّلة على رسوله ﷺ فإنّ اللّه سريع الحساب لِمَن كفر به وكذّب رسلَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ جملة مستأنَفة مؤكّدة للأولى؛ لِبَيَانِ فَضِيلَةِ هَذَا الدِّينِ بِأَجْمَعِ عِبَارَةٍ وَأَوْجَزِهَا[2]، والدّين في اللّغة الجزاء، سُمّيت الطّاعة دينًا لأنّها سبب الجزاء[3]، على طريقة المجاز المرسَل بعلاقة السّببية؛ أي: لا دينَ مَرْضِيًّا للّه تعالى سِوى الإسلامِ، الذي هو التّوحيدُ والتزام الشّريعة.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ قصرٌ وحَصْرٌ وتقديمٌ وحَذْفٌ وتوكيدٌ:

الـدّيـنُ المقبولُ عـنـدَ الـلـهِ هو الإسلامُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ صيغةُ حصرٍ، وهي تقتضي حصرَ المسندِ إليه الذي هو الدّينُ في المسندِ الذي هو الإسلامُ، على قاعدة الحصرِ بتعريفِ جزأي الجملة، والمعنى: لا دينَ إلّا الإسلام[4]. وقد أُكّد هذا الحصرُ بالحرف إنّ على قراءة الجمهور، وبأنّ على قراءة الكسائي، وفائدة التّوكيد أنّ قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توحيد، وقولَه: ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ عدلٌ، فإذا أردفَه قوله: إنّ الدّين عند اللّه الإسلام، فقد أَذِن أنّ الإسلام هو توحيدٌ وعدل، وهو الدّين عند اللّه[5]. وفي العبارة حذفٌ، وتقدير المحذوف

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/173، وجماعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 52.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/188.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/190، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/67.

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾: إنّ الدّين المقبول أو النافع أو المقرَّر[1] عند اللّه هو الإسلامُ، وتوكيد الكلام بإنّ تحقيقٌ لما تضمنَّه من حصرِ حقيقة الدّين عند اللّه في الإسلام؛ أي الدّين الكامل، وهذا موضعُ الحذف إيجازًا.

فائدةُ تقديمِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على كلمةِ ﴿ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾:

الدِّين عند الله هو الدِّين المُعتبرُ لا المعلوم فقط

قولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وصفٌ للدّين، والعِنْديّةُ عِنْدِيَّةُ الاعتبارِ والاعتناءِ وليست عِنْدِيّةَ علْم، فأفاد أنّ الدّين الصّحيح هو الإسلام، فيكون قصرًا للمسند إليه باعتبار قيدٍ فيه، لا في جميع اعتباراتِه[2]، قُدِّم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ على ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾؛ للاهتمام، ولبيان شرفِ الدّين وتخصيصِه بكونِه الدِّين الوحيد الذي أنزلَه اللّه تعالى للبشريّة، وهذا ما صرّحت به الأنبياء في القرآن الكريم، فقال اللّه تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: 72]، وقال عن إبراهيمَ وإسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، وقال اللّه حكاية عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]. وغيرُها من الآيات التي تُحقّق قولَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾.

معنى التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾:

التّعريف بلام الجِنس قد يفيد القصرَ تحقيقًا، كقولك: زيد الأمير، إذا لم يكن أميرٌ سواه، فالمعنى ليس دينٌ صحيحٌ غيرَ الإسلام؛ باعتبار الكمال عند اللّه فيكون القصر باعتبار سائرِ الأزمان والعصور؛ إذ لا أكملَ من هذا الدّين، وما تقدّمه من الأديان لم

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.

(2) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/131.

يكن بالغًا غايةَ المراد من البشر في صلاح شؤونِهم؛ بل كان كلُّ دينٍ مضى مقتصِرًا على مِقدار الحاجة من أمّة معيّنة في زمن معيّن، وهذا المعنى مُفاده أعمُّ، وتعبيرُه عن حاصل صفةِ دينِ الإسلام تُجاهَ بقيّةِ الأديان الإلهيّة أتمُّ[1].

نكتةُ وَصْفِ اليهودِ والنَّصارى بأهلِ الكتابِ:

التّشنيعُ والتّوبيخُ والتّقبيحُ للمُختلِفينَ من أَهْلِ الكِتَابِ

عبَّرتِ الآيةُ في قوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾؛ بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والمُرادُ اليهودُ والنَّصارى، زيادةَ تشنيعٍ وتقبيح عليهم؛ فإنَّ الاختلافَ مع علمِهم بالكتاب في غاية القُبحِ والشَّناعة[2]، وفيه توبيخٌ لنَصارى نَجْرانَ[3].

فائدةُ حذفِ القَيْدِ المبيِّنِ للمُختلَفِ فيه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الإسلامُ هو الدِّينُ الذي اختلف فيه أهلُ الباطلِ وتركوا الحقَّ بسببِه قصدًا

لم يُعيِّن المُختلفُ فيه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ وذلك لحملِ الكلامِ على العموم؛ لذلك اختُلِفَ في تعيينه على أربعةِ أقوالٍ؛ أحدُها: دينُهم. والثَّاني: أمر عيسى. والثّالث: دين الإسلام، وقد عرفوا صحّته. والرّابع: نبوّتُه ﷺ، وقد عرفوا صفتَه.

والرَّاجحُ أنَّ المختلَفَ فيه هو الإسلامُ؛ لأنّه تعالى قرّر أنّ الدّين عنده هو الإسلام، ثمّ قال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: في الإسلام حتَّى تنكَّبوه إلى غيره من الأديان[4]، ويدخلُ في معناه جميعُ الأقوالِ المذكورةِ؛ فإنَّهم لم يختلفُوا في دينِهم إلَّا بتركِ الإسلامِ الذي هو التَّوحيد، وكذلك في شأنِ عيسى عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/190.
(2) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/413.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/71.

ولأجل أنْ يَسمَحَ نظمُ الآية بهذه المعاني المتعدّدة مع وَجازةِ العِبارة حُذِف متعلّقُ الاختلاف في قوله: ﴿ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ليشمَل كلَّ اختلاف منهم: من مخالفةِ بعضِهم بعضًا في الدّين الواحد، ومخالفةِ أهل كلِّ دينٍ لأهل الدّين الآخر، ومخالفتِهم للمسلمين في صِحّة الدّين[1]، وإنكارِهم رسالةَ الرّسول ﷺ، على الرّغم ممّا علِموه في كتابهم من صدق رسالته.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾:

معرفةُ أسبابِ الاختلافِ تُعين على العلاجِ والحذرِ من الوقوعِ فيها

عُطِفَ قولُه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾؛ للإخبار عن حال أهلِ الكتاب من سُوء تلقّيهم لدين الإسلام، ومن سُوء فهمِهم دينَهم، وجِيءَ بهذا الإخبارِ لبيانِ سببِ اختلافِهم، وهو دينُ الإسلام، وهو ما يترجم الحسدَ العقديَّ، والحقدَ الأخلاقيَّ، وثقافةَ الكراهيَّة تجاه الحقِّ وأهله.

وهذا أسلوبٌ عجيب في الإخبار عن حالهم إخبارًا يتضمّن بيانَ سببِه، وإبطالَ ما يَتراءى من غير ذلك من الأسباب، مع إظهارِ المقابَلة بين حالِ الدِّينِ الذي هم عليه يومئذٍ من الاختلاف، وبين سلامةِ الإسلام من ذلك، وذلك أنّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ قد آذَنَ بأنّ غيره من الأديان باطلٌ، مع التَّنبيه على أنّ سبب البُطلان ما كان عليه أهلُ الكتاب يومئذٍ من اختلافهم وتغييرِهم، ومن جُملة ما بدّلوه الآياتُ الدّالّة على بعثته ﷺ، وفيه تنبيهٌ على أنّ الإسلام بعيدٌ عن مثل ما وقعوا فيه من التّحريف[2].

سرُّ استعمالِ الاستثناء المفرّغ في أسلوبِ الحصرِ:

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/197.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/197.

الاختـــلافُ الحقيقيُّ بين أهلِ الكتابِ وقعَ بعد مجيءِ الإسلام لا قبلَه

﴿ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ استثناءً مفرَّغًا من أعمِّ الأحوال أو أعمِّ الأوقاتِ؛ أيّ وما اختلفوا في حالٍ من الأحوالِ أو في وقتٍ من الأوقات إلّا بعد أن علموا أنّه الحقُّ الذي لا مَحيدَ عنه أو بعد أن علموا حقيقةَ الأمرِ وتمكّنوا من العلم بها بالحُجج النّيّرة والآيات الباهرةِ.

وفيه من الدّلالة على ترامي حالِهم في الضّلالة ما لا مزيدَ عليه، فإنّ الاختلافَ بعد حصول تلك المرتبة لا يصدُر عن عاقل[1]، فالاستثناء المُفرَّغ يفيد القصر، وفائدتُه إثباتُ اختلافِ أهل الكتاب ونفيُه عمّن سواهم[2].

بمعنى آخرَ: إنّهم اختصّوا بصِفة الاختلاف هنا الموصوفة بقوله: ﴿ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾، والحقيقةُ أنّ ﴿إِلَّا﴾ سواء كانت في التّفريغ أو في غيره تفيد الاختصاصَ، ومعنى ﴿إِلَّا﴾ اللّازمِ لها الاختصاصُ بالشّيء دون غيرِه[3].

التحذير من الاختلاف في أصول الدّين، وأخذُ العِبرة بما طرأ على أهل الكتاب منه

غير أنّ القصر في التّفريغ أعمُّ وأشمل، فلو قلتَ: حضر الرّجال إلّا خالدًا، فقد استثنيتَ حضورَ خالدٍ من الرّجال، وقد يكون في الحضور نساءٌ وأطفال، وكذلك في استثناء الآية فإنّه قد يكون بين عمومِ اليهود والنّصارى مَن هم غيرُ مشمولين في هذا القصر؛ لأنّهم لم يتوصّلوا إلى ما توصّل إليه أهلُ العلم منهم[4].

بلاغةُ النَّظمِ في سعةِ المعاني:

جاءت الآيةُ على نظم تتوسّع عنده معاني الاختلاف، وفائدة ذلك[5]:

التّنبيهُ على أنّ اختلاف أهلِ الكتاب حاصلٌ مع علمِهم بالحقّ، فهو تعريضٌ بأنّهم أساؤوا فهمَ الدّين، ولهذا استحقّوا التّوبيخ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.
(2) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 2/87.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/215.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/215.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/197.

الإشارةُ إلى أنّ الاختلاف الحاصلَ بين أهل الكتاب نوعان؛ أحدهما: اختلافُ كلِّ أمّة مع الأخرى في صحّة دينِها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة: 113]، الثّاني: اختلافُ كلِّ أمّة منهما فيما بينها وافتراقُها فِرَقًا متباينةَ المَنازِع، وأنّ اختلافهم ناشئٌ عن بغي بعضِهم على بعض، وأنّهم أجمعوا على مخالفة الإسلام والإعراضِ عنه بغيًا منهم وحسدًا.

بلاغةُ المجاز المرسل في قوله: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾:

إطلاقُ العِلْم وإرادةُ الآياتِ دليلُ وضوحِها وقطعيَّتِها

معنى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: من بعد ما جاءتْهم الدّلائلُ التي لو نظروا فيها لحصل لهم العلمُ، فأَطلق الكلَّ وأراد الجزءَ في قوله: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، على سبيل المجاز المرسلِ، أي: عبَّر بالعلم وهو عامٌّ كليٌّ، المقصود منه التّوراة والإنجيل، أو النبيّ ﷺ، وأراد جزءًا منه وهو الآياتُ التي وردتْ في كُتبهم التي فيها نبوّتُه ﷺ، ودعوتُهم إلى الإيمان برسالته. ولو حمَلْنا العلمَ على الحقيقة، وهو الكتبُ السّماويّة كلّها، لصاروا معاندين، والعِناد على الجمع العظيم لا يصِحُّ، وهذه الآيةُ وردت في كلِّ أهل الكتاب وهم جمعٌ عظيم[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ في قولِه: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾:

الإشارةُ إلى يُسرِ مجيءِ العلمِ لهم دون بذلِ جهدٍ أو بحث

ومجيءُ العلم هو الوحيُ الذي جاءت به رسلُهم وأنبياؤُهم، وآثر التَّعبيرَ بقولِه: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ على طريقة المَجاز العقليّ؛ فالعلمُ لا يجيءُ ولكنْ يُؤتَى به؛ لأنّ كلمة ﴿جَآءَهُمُ﴾ مؤذِنةٌ بعلم متلقًّى من اللّه تعالى وحيًا إلى رسلِهم عليهم السلام، أي: أنّ العلم الذي جاءهم كان من شأنه أنْ يصُدّهم عن الاختلاف، إلّا أنّهم أساؤوا فكانوا على خلاف مُرادِ اللّه من إرسال الهُدى.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/172.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ العلم اتّضح أمامَهم دون طلبٍ مسبقٍ منهم أو جهدٍ بذلوه لتحصيله، مع أنّ العلم يتحصَّل بالجُهد والبَذل، وفيها بيانُ فضلِ اللّه عليهم واختصاصُه بعلمه سبحانَه.

أثرُ معنى قوله: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ في إعرابِها:

البغيُ دائرٌ شائع في أهلِ الكتابِ، وإنَّما كمُلَ عند مجيءِ العلمِ

معنى قولِه تعالى: ﴿ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾ أي: حسدًا بينهم وطلبًا للرئاسة، لا لشُبهةٍ وخَفاءٍ في الأمر[1]، والمعنى: وما اختلفوا بغيًا بينهم إلّا مِن بعد ما جاءهم العلم. وقيل: المعنى وما اختلفوا إلّا مِن بعد ما جاءهم العلم إلّا للبغيِ بينهم، فيكون هذا إخبارًا عن أنّهم إنّما اختلفوا للبغي، وهذا أجودُ من الأوّل؛ لأنّ الأوّل يوهم أنّهم اختلفوا بسبب ما جاءهم من العلم، والثاني يفيد أنّهم إنّما اختلفوا لأجل الحسد والبغي[2]، وعليه يكونُ إعرابُ ﴿بَغۡيَۢا﴾ على أنّه مفعولٌ لأجله هو الأوفقُ بالمعنى لا مصدرًا من طريق المعنى، فإنّ قوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قائمٌ مَقامَ قوله: وما بغى الذين أوتوا الكتاب؛ فجعل بغيًا مصدرًا، والفرقُ بين المفعول له وبين المصدر أنّ المفعول له غرضٌ للفعل، وأمّا المصدرُ فهو المفعولُ المطلَق الذي أحدثه الفاعلُ[3]، وهو يدلُّ على أنَّ البغيَ مسلكٌ قديمٌ فيهم، وكمل ظهورُه عند مجيءِ العلمِ.

نكتةُ تأخير ﴿بَيۡنَهُمۡۗ﴾ على جملة: ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾:

صِحَّةُ تعلُّقِ (بينهم) بجميع المتقدِّمِ

أُخِّر ﴿بَيۡنَهُمۡۗ﴾ عن جميعِ ما يصلُح للتَّعليقِ به؛ ليتنازعَه كلُّ من فعل ﴿ٱخۡتَلَفَ﴾ وفعلِ ﴿جَآءَهُمُ﴾، ولفظِ ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾، ولفظِ ﴿بَغۡيَۢا﴾، ومعنى التَّعلُّقِ بهذه الألفاظِ، أي: وما حصل الاختلافُ بينهم،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/10.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/172، 17، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/413.

وجاءهم العلمُ بينهم، فحصل البغيُ بينهم، أي: أنَّ الاختلافَ والمجيءَ والعلمَ والبغيَ كلَّ ذلك واقعٌ بَيْنَهم، إلَّا أنَّها أوضح ما تكون صراحةً في كونِ البغي بَيْنَهم، وتعلُّقها بالباقي إشارةً، ولهذا أخَّرها لتكونَ إشارةً لبعضِ الألفاظِ، وصراحةً لبعضِها الآخرِ.

بلاغة التّذييل في قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

الوعيدُ بمعاقبةِ كلِّ كافرٍ تصريحٌ بليغٌ بمعاقبةِ مَنْ سَبَقَ الحديثُ عنهم

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عامٌّ في كلِّ كافرٍ بآيات الله، فلا يختصُّ بالمختلفين من أهل الكتاب، لكنَّهم يدخلون في دلالتها دخولًا أوّليًّا، لمجيءِ الجملةِ الشّرطيّةِ بعد ذكرِهم، وجملةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ قائمةٌ مَقامَ جوابِ الشّرطِ المحذوف عِلّةً له؛ أي: ومن يكفر بآياته تعالى يُجازِه ويعاقبْه عن قريب فإنّه سريعُ الحساب؛ أي: يأتي حسابُه عن قريب، أو يَتِمُّ ذلك بسرعة.

وفي ترتيب العِقاب على مطلق الكفرِ بآياته تعالى، من غيرِ تعرُّضٍ لخصوصيّة حالِهم من كون كفرِهم بعد إيتاءِ الكتابِ وحصولِ الاطّلاع على ما فيه وكونِ ذلك للبغي؛ دلالةٌ على كمال شدّةِ عقابِهم[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ﴾:

تجدُّدُ الآياتِ يلزمُ عنه تجدُّدُ الكفرِ عند الباغين المُكَذِّبين

آثرَتِ الآيةُ التَّعبيرَ بصيغةِ الفعلِ المضارع: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ﴾، ولم تقل: ومن كفر بآيات الله؛ لأنّ فيه دلالةَ التّجدُّدِ والاستمراريّةِ على الكفر، فالمُتحدَّثُ عنه مستمرٌّ على كفره، أي: يكفر بآياتِ الله ممّا يرى ويسمع من الآيات الدّالّة على إحاطته بالكمال سبحانَه، وقوفًا مع تلك الشُّبه وعَمًى عن الدّليل فالله مهلِكُه عاجلًا[2]، وفي التعبير بصيغة المضارِعِ إشارةٌ إلى تجدُّدِ الكفر عند تجدُّدِ ظُهورِ الآياتِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/44.

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّه الإضمارُ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

أُظْهِرَ الاسمُ الجليل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلًا من إضمارِه وهو ما يقتضيه الظَّاهر؛ لتربية المهابةِ وإدخال الرَّوعة في النّفس؛ فإنَّ للاسمِ الجليلِ في سياقِ الوعيدِ أثرًا لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بين الاستعمالِ العرفيِّ والكنائيِّ:

من بلاغة النَّظمِ القرآنيِّ تعدُّدُ الاحتمالِ مع إرادةِ الجميعِ

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ احتمالاتٍ عدَّةً: فهو محمولٌ على سرعةِ مجيءِ القيامةِ والحساب؛ إذ هي متيقَّنةُ الوقوعِ، فكلُّ آتٍ قريبٌ.

أو على إحاطته تعالى بكلِّ شيء علمًا، لا يحتاجُ معه إلى عدٍّ ولا فكرة.

أو على قربِ المجيءِ، والمعنى: الحسابُ قريبٌ، فيُجازيهم على كفرهم في الحياة الدّنيا بأيديهم وبأيدي المؤمنين، ثمّ يُنقلون إلى حسابه تعالى في الدّار الآخرة المقتضِي لعذابِ الكفرةِ.

أو تكون السّرعة على بابها[1].

وهذه المُحتملاتُ مُرادةٌ، فَذِكْرُ سرعةِ الحسابِ دليلٌ على يقينِ القيامةِ، وعلى إحاطتِه بكلِّ شيءٍ، وسرعةِ المجيءِ، ومعنى السُّرعةِ المعروفِ مرادٌ كذلك، وهذا من بليغِ الاستعمالِ.

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/413، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/45.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠﴾ [آل عمران: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيّن فيما سبق الآياتِ العظيمةَ على وحدانيّته تعالى، وبيّن أنّ الدّين الحقّ عند الله هو الإسلام، وفضحَ اختلاف أهلِ الكتاب بعد أن علموا الحقَّ يقينًا، فخالفوه فاختلفوا فيما بينهم واختلفوا مع رسول الله ﷺ، وأنكروا رسالته بغيًا وعُدوانًا؛ لَقَّنَ سبحانَه نبيَّه في هذه الآية أسلوبَ محاجّة هؤلاء إنْ هم حاجّوه، فقال: قل لهم بعد أن جئتَهم بالبيّنات والحقِّ المبين وأقمت عليه البراهين: أسلمتُ وأقبلتُ على الله بعبادتي مخلصًا عمّا سِواه أنا ومن اتّبعني من المؤمنين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَآجُّوكَ﴾ الحجُّ والحِجاج: شيءٌ صُلب أو مَتين لحماية ضعيفٍ، واحتجّ الشيءُ: صَلُبَ، وحِجَاج العين، بفتح الجيم وكسرها: عَظْمُ العين المحيط بالحدقة ليحميها، وحَجَّ البيتَ: قصده وزاره ودخل حَرَمه فاحتمى به، والحُجّة، بالضّم: الدَّليلُ والبُرهانُ، وهو أمرٌ أو دليل قويٌّ صُلْب للرّأي يحفظُه ويدعمه، والحُجَّةُ: وجهُ الظَّفَر عند الخُصومة، والجمعُ حُجَجٌ، والمُحاجَّة: أن يطلب كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخر عن حُجَّتِه ومَحجَّتِه، واحتجّ على خصمه بحُجّة شهباءَ، وحاجَّ خصمَه فحجَّه: غلبه في الحُجَّة[2].

2) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: الوَلْيُ والتَّولِّي: قُرْبُ شيءٍ من شيءٍ ولزومُه تبعًا له، إقبالًا أو إدبارًا، وأكثرُ استعماله في الإقبال، ولا يدُلّ على الإعراضِ والإدبار والبعد إلَّا إذا عُدِّيَ بـ (عن) أو دلَّ السّياق على ذلك، وتوَلَّى عنه: أَعْرَضَ، وَوَلَّى هَارِبًا، وأدبَرَ، وقولُه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148] أي: مستقبلُها بوجهه[3]، والمعنى هنا: أَعْرَضُوا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/296.

(2) الخليل، العين، والزمخشري، أساس البلاغة: (حجج)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حج)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حج، حجج).

(3) الخليل، العين: (لوى)، الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).

3) ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾: وصولُ الشّيء إلى حدٍّ أو غاية زمانًا أو مكانًا أو حالًا، وبلغ الشّيءُ يبلُغ بلوغًا: وصل حدَّه وغايته، وأبلغه هو وبلَّغه، وتبلَّغ بالشّيء: وصل به إلى مُراده، وبلَّغتُه تبليغًا الرسالةَ ونحوَها أوصلتُها، وفي هذا بَلاغٌ وتَبَليغٌ: كفاية، وشيءٌ بالغٌ أي جيّد وصل الغاية فيه، والمُبالَغَةُ: أن تَبْلُغَ من العمل جهدَك، والبَلاغُ: ما أَبلغَك(1).

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليّ:

فإنْ جادلَكَ -أيُّها الرسولُ ﷺ- أهلُ الكتابِ في التوحيد بعد أن أقمتَ الحُجَّة عليهم في شأن الدِّين، فلا تَلْتفت إلى أكاذيبهم، بل قل لهم: أنا عبدٌ للّه قد استسلمتُ بكُلّيتي للّه، وأخلصتُ نفسي وعبادتي للّه وحدَه، لم أجعل فيها لغيره شِرْكًا، فلا أعبد ولا أدعو إلهًا معه، أنا وأتباعي على ذلك، فنحنُ مستسلِمون منقادُون لأمر اللّه.

وقل لليهود والنّصارى والوثنيِّين من العرب: أأسلمتم أم أنتم باقون على كفركم؟ فقد أتاكم من البيّنات والدَّلائل ما يُوجب إسلامَكم، ومن شأن العاقلِ أنه إذا تبيَّن له الحقُّ أن يدخل فيه وأن يترك العِناد والمُكابرة، فإنْ أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسَهم بخروجهم من الضَّلال إلى الهُدى، وإنْ أعرضوا فلن يضُرُّوك ولا مَن اتّبعك شيئًا؛ إذ لم يكلفْكَ اللّه هدايتَهم؛ لأنَّ الذي عليك إنّما هو تبليغُ الناس ما أمرك اللّه بتبليغِه إيَّاهم، واللّه عالمٌ بجميع أحوالِهم فيجازيهم عليها(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّفريعِ في قولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾:

مـــدارُ مُـحـاجَّـةِ أهلِ الكتابِ على الإسلامِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ تفريعيَّةٌ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: 19]؛ إذ تأتي المُحاجّة في الدّين دليلًا على اختلافهم في رسالته ﷺ؛ وهم يحاجّون الرّسول ﷺ من بعد ما جاءهم العلمُ والدّليلُ الدّامغُ على صدق رسالتِه، فإنّ الإسلام دين قد أنكروه، واختلافُهم في أديانهم

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بلغ).
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/375، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.

يُفضي بهم إلى مُحاجّة الرسولِ في تبرير ما هم عليه من الدِّين، وأنّهم ليسوا على أقلَّ ممّا جاء به دين الإسلام[1]، فمحاجَّةُ النبيّ ﷺ وكلِّ من كان على سُنَّتِه من أمَّتِه متفرِّعةٌ على كونِ الدِّين عند اللّه الإسلام، واختلاف أهلِ الكتابِ في ذلك.

نكتةُ استعمالِ لفظِ المحاجَّة:

غلب استعمالُ المحاجَّة فيما كان باطلًا

المُحاجَّةُ مُفاعَلَةٌ من طَرَفَيْن، ومعناها المُخاصمة، وأكثرُ استعمالِ فعلِها في المخاصمة بالباطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ﴾ [الأنعام: 80]، وقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]، فالمعنى: فإن خاصموك خِصامَ مكابرةٍ فقل أسلمتُ وجهي للّه[2].

دلالةُ صِيغةِ: ﴿حَآجُّوكَ﴾ على الاستمرارِ:

المرادُ بفعلِ الشّرط الماضي الدّالّ على الاستقبال في قولِه: ﴿حَآجُّوكَ﴾ الاستمرارُ على المحاجّة؛ أي: فإن استمرّوا على محاجّتهم؛ فقل لهم قولًا فَصْلًا جامعًا للفَرْق بين دينك الذي أُرسلتَ به وبين ما هُم متديّنون به، فمعنى ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾: أَخلصتُ عبوديّتي له لا أُوَجِّه وجهيَ إلى غيره، فالمرادُ أنّ هذا كُنْهُ دينِ الإسلام، وتَبيَّن أنَّه الدّين الخالص، وأنّهم لا يُلْفَوْن تَدَيُّنَهم على هذا الوصف[3].

تعيينُ مَرْجعِ ضميرِ الجمع في قولِه: ﴿حَآجُّوكَ﴾:

تفسيرُ مرجعِ الضَّميرِ بالمقامِ والسِّياقِ سباقًا ولحاقًا

ضميرُ الجمعِ في قولِه: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ إمَّا أن يعودَ إلى غيرِ مذكورٍ في الكلامِ؛ فيُفهمُ من المَقام، وهو مَقامُ نزولِ السّورة، إذ نزلت في وفدِ نَجْرانَ وقد قدموا المدينة للمحاجّة، فتفسيرُ مرجعِ الضَّمير مقاميٌّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/202.

أو يعود على مذكورٍ وهم الذين أُوتوا الكتابَ، فتفسيرُ مرجعِ الضَّمير سياقيٌّ بالسِّباقِ، أو يعود على جميع الناس، لقوله بعدُ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، فتفسيرُ مرجعِ الضَّمير سياقيٌّ باللِّحاقِ[1]، والصَّحيحُ أنَّ مرجعَ الضَّميرِ يعودُ إليها جميعًا.

دلالةُ وضعِ المضمرِ موقعَ المُظهرِ:

وُضع المضمرُ، وهو واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿حَآجُّوكَ﴾ موضعَ المُظهر، فلم يذكر المقصودَ بالواو؛ ليدخل كلُّ خصوم الإسلام في حيّز هذه المُحاجّة، ولو ذُكر المظهر لوقف الكلام عندهم، فكان الإبلاغ في الآية أبلغَ للتّعميم.

المجازُ في قولِه تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾:

التَّعبيرُ بالوجْهِ لأنَّـــه أشـــرفُ الأعضاءِ

إمَّا أن يكونَ قولُه: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ﴾ مجازٌ مرسل علاقتُه الجزئيّة؛ إذ عبّر بالجزء وهو الوجه وأراد الكلَّ وهو الذّات[2]، وإنّما عبّر بالوجه عن النّفس لأنّه أشرف الأعضاءِ الظّاهرة ومظهرُ القُوى والحواسِّ، وبه معظمُ ما يقع به العبادةُ من السّجودِ والقراءة، وبه يحصُل التوجُّه لِلَّهِ، وهو بصمة الإنسان يتميّز به عن غيره، وإذا خضع الوجه فما سواه أخضعُ[3].

الإيمانُ كالوجهِ بالنِّسبةِ لبقيَّةِ الأعمالِ

أو يكون استعارةً تصريحيَّةً على أن يكونَ معنى ﴿وَجْهِىَ﴾: ديني؛ لأنّ الإيمانَ كالوجهِ بين الأعمالِ، فشُبّه الإيمانُ بالوجهِ وحُذفَ المُشبّه، فصار استعارةً تصريحيّة، فالوجه هو الأصل[4].

فنُّ الإدماجِ في قولِه تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾:

إذا أُريدَ بقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ المُتَارَكَة وَالإِعْرَاضُ عَنِ المُجَادَلَة؛ فتَكُونُ إِفَادَةُ قَطْعِ المُجَادَلَةِ بِجُمْلَة: ﴿أَسْلَمْتُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/200.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/78، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175، والمطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/72.

وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ دُونَ أَنْ يُقَالَ: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ، ضَرْبًا مِنَ الْإِدْمَاجِ، إِذْ أَدْمَجَ فِي قَطْعِ الْمُجَادَلَةِ إِعَادَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، بِإِظْهَارِ الْفَرْقِ بَيْنَ الدِّينَيْنِ.

وَالْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ الْحِرْصُ عَلَى اهْتِدَائِهِمْ، وَالْإِعْذَارُ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾؟ خَارِجٌ عَنِ الْحَاجَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَكَرُّرٌ لِلدَّعْوَةِ، أَيِ: اتْرُكْ مُحَاجَّتَهُمْ وَلَا تَتْرُكْ دَعْوَتَهُمْ[1].

بلاغة الكناية في ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾:

تسجيلُ صِفةِ إيتاءِ الكتابِ دون الاسم العَلَم توجيهٌ للعودةِ إلى الكُتبِ المنزَّلة

قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كنايةٌ عن اليهود والنّصارى، وهي عن موصوف، ومن أبلغيّة هذه الكناية التّوصُّلُ إلى ذكر إتيانِ الكتاب، وهو وصفٌ ممهِّد لحصول الإسلام، وإلّا كانت المخالَفة عظيمةً؛ لرفضِ الحقّ وهم يعلمون صدقَه من كتبهم، أمّا لو قيل: اليهود والنّصارى لخلا المَقامُ من وصفهم بالعلم بالحقّ الذي يرفُضونه، وفي ذلك مبالغة لإدانتهم والتّسجيل عليهم بالعناد[2].

تسجيلُ صِفةِ الأميَّة دون المشركين للعموم والشُّمول

قوله: ﴿وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ كنايةٌ أخرى عن موصوف، وهم الذين لم يسبق أن أتاهم كتاب من عند الله؛ ليشمَل الآخرين من غير أهلِ الكتاب عربًا وغيرَهم، ولو قيل للمشركين لوقف المعنى عند مشركي العرب؛ لأنّهم مَن وُصف بالمشركين ساعةَ نزولِ الآية، وهم مَن تتبادر الأذهان إليهم بهذا الوصف.

نكتةُ إيثارِ صيغةِ الماضي في قوله: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾:

إيماءٌ إلى وجوبِ المسارعةِ في الإسلامِ

ذُكِرَ ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ بصيغة الماضي بدل المضارع (أتُسلمون) إيماءٌ إلى أنّ هذا الوصفَ من حقّه أن يُسارَع إليه، ولا يُتَلَكّأ فيه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201، 202.

(2) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.

فكأنّه يسأل عن أمر قد تحقّق لدى المُخاطَبين[1]، أو ممَّا يجبُ أن يتحقَّقُ دون مماطلةٍ، فيكونُ الاستفهامُ مستعمَلًا في الاستبطاء والتّحضيض[2]، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: 91] بعد ما ذكر الصّوارفَ عن الخمر والمَيسر، وفيه استقصارٌ وتعييرٌ بالمعانَدة وقِلّة الإنصاف؛ لأنّ المنصِفَ إذا تجلّت له الحُجّةُ لم يتوقّف إذعانُه للحقّ، والمعانِد بعد تجلّي الحُجّة بينه وبين الإذعانِ مانعٌ، وكذلك في: هل فهمتها؟ توبيخٌ بالبّلادة وكلّة القريحة[3].

ويمكن أن يخرج الاستفهام عن معناه إلى معنى الأمر؛ أي: أسلِموا، بدليل قولِه بعده: ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ فإن ضمَمّنا إليه الحثَّ كان حسنًا، أو إلى معنى التّهديد، أو التّقرير، أو التّوبيخ والتّقريع[4].

ولا مانعَ من أن يُحمل الاستفهامُ على الحقيقةِ إذ يُراد منه وقوفُ علم النّبيّ ﷺ على حالهم بعد أن ظهرت لهم الدّلالاتُ والقدوة الحسنة بإسلام النّبيّ ومن معه للّه؛ أي: هل حدث منكم الإسلام؟[5].

كلمات جامعة لمعاني كُنْه الإسلام

وقوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ كلمةٌ جامعة لمعاني كُنْهِ الإسلام وروحِه وأصولِه ألُقيت إلى الناس ليتدبّروا مطاويَها فيهتدوا بها، ثمّ يزدادوا يقينًا وإيمانًا؛ إذ قد علمنا أنّ مجيء قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ عقِب قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وقوله: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ عقب قوله: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ مقصودٌ منه بيانُ جامعِ معاني الإسلام حتى تسهُلَ المجادَلة، وتُختَصرَ المقاوَلة، ويسهُلَ عَرضُ المتشكّكين أنفسَهم على هذه الحقيقة، ليعلموا ما هم عليه من الدّيانة.

حذفُ المفعول وإنزالُ الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللاّزم:

بَيّنَتْ كلمة ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ أنّ هذا الدّين يترجِم عن حقيقة اسمِه؛

(1) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/73.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78، والآلوسي، روح المعاني: 2/105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201، المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.
(5) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/155.

فإنّ اسمه الإسلام، وهو مفيدٌ معنًى معروفًا في لغتهم يرجِع إلى التّسليم، وقد حُذف مفعولُه، ونُزِّل الفعلُ المتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم، فعلم أنّ المفعول حُذف لدلالة معنى الفاعل عليهِ، فكأنّه يقول: أسلمتُني، فبُيّن هنا هذا المفعولُ المحذوف من اسم الإسلام؛ لئلّا يقع فيه التباسٌ أو تأويلٌ لما لا يطابق المراد[1].

إنّ دين الإسلام يُترجم حقيقة اسمه وهو التسليم لله تعالى

ثم إنّ قوله: ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ معناه: فإن التزموا التحقّقَ بمعنى أسلمت وجهي للّه فقد اهتدوا، وإن تولّوا وأعرضوا عن قولك لهم: أأسلمتم فليس عليك من إعراضهم تَبِعةٌ، وعبّر بصيغة الماضي المصحوب بـ (قد) الدّالّة على التّحقيق مبالغةً في الإخبار بوقوع الهُدى، والخروج من الظّلمة إلى النّور[2].

بلاغةُ الاستعارة في فعل الشّرط:

المبالغةُ في تصوير المسارعةِ في الإعراضِ عن الإسلامِ

في قوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ استعارةٌ تصريحيّة وهي تَبَعيّة لأنّها حصلت في مُشتقٍّ، فقد استُعيرَ التّولّي، وهو الفِرارُ الحِسّي المصحوب بسرعة السّعي للإعراض القلبيّ عن الإسلام؛ مبالغةً في تصوّره، وإظهارًا للمعنويّ في صورة المُشاهَد المُحسِّ لشدّة كفرِهم بالإسلام، ونفورِهم عن الانقياد له[3].

جواب الشّرط وإيجازُه البديع:

وقعَ قولُه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ موقعَ جوابِ الشّرط، وهو في المعنى علّةُ الجواب، فوقوعُه موقعَ الجواب إيجازٌ بديع؛ أي: لا تحزن ولا تظنّنّ أنّ عدم اهتدائِهم كان لتقصير منك؛ إذ لم تُبعث إلّا للتّبليغ، لا لتحصيل اهتداءِ المبلَّغ إليهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ أي: مطّلعٌ عليهم أتمَّ الاطّلاع، فهو الذي يتولّى جَزاءَهم وهو يعلم أنّك بلّغتَ ما أُمرت به، وفيه تهديدٌ ووعيد لأولئك المعاندين الذين لا يؤمنون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/204.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/74.

(3) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن تَوَعَّدَ اللّه ﷻ الذين أعرضوا عن الإيمان من أهل الكتاب والمشركين بقوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾ فَصّلَ في هذه الآية موجباتِ الوعيد، وفضح أفعالهم؛ ليبيِّن استحالةَ إيمانِ أمثال هؤلاء بما أنزل اللّه من الدّين القويم، وأنّ لهؤلاء عذابًا أليمًا يوم القيامة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمُرُونَ﴾: الأَمْرُ: لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوالِ كلِّها، والجمع الأوامِرُ، وأمَرَهُ بكذا: طلب إليه فعلَه على وجه الاستعلاء، وآمَرَهُ بالمد: كثّره، والأَمِيرُ: ذو الأمر، وأمَّرَهُ تَأميرًا جعلَه أميرًا، وتأمَّر عليهم: تسلّط، وآمَرَهُ في كذا مُؤامَرَة: شاوَرَه، والائْتِمارُ والتَّآمُرُ: المشاوَرَة أو التّواصي، وقوله تعالى ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾ [الطّلاق: 6]؛ أي لِيَأمرْ بعضُكم بعضًا بالمعروف[1]. والمعنى هنا: يأمرون الناس أمرَ إرشادٍ ونصحٍ.

2) ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾: البَشَرُ: انتشارٌ واسع على ظاهر الشّيء، كانتشار جلد البدن على ظاهره، والبَشَرُ: الإنسانُ لانتشاره على الأرض ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]، أو لظهور جلدِه وخلوّه من الشّعر بخلاف الحيوانات، والبِشْرُ: الطَّلَاقة، وبَشَرْتُه بالأمر وبَشَّرْتُه، فبَشِرَ وأبْشَرَ واسْتَبشَرَ وتَبَشَّر: فَرِحَ وسُرَّ وظهر ذلك على وجهه بانبساط أساريره، كما يعبّر عن قريب من ذلك بالبَشاشة وبسطِ الوجهِ؛ أي هو من الانتشار الظّاهري.

والبِشارةُ تكون بالخير والشّر، أو مختصّة بالخير، وهي في الشّرِّ تهكُّمٌ، والمباشَرةُ بين المرأة والرّجل: ملاقاة بَشَرةٍ ببَشَرة، وباشَرَ الأمرَ: وَلِيه بنفسه، كأنّه لعدم الواسطة يُماسُّه،

(1) الراغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أمر).

وتَبَاشِير الوجه وبِشْرُهُ: ما يبدو من سروره، وتَباشيرُ الصُّبْح: انتشارُ أوائلِه، والمُبَشِّراتُ: الرّياح تهبُّ بالسَّحاب والغَيْث(1). والمعنى هنا: أخبرهم بما يسوؤهم على وجه التهكُّم بهم.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

عدَّد اللّٰه في الآية الكريمة الأفعالَ الشَّنيعةَ لليهود، وما كانوا يفعلونه من الإفساد، فبدأ بأعظم أفعالهم تُجاهَ ربِّهم، وهي الكفرُ بآياته البيِّنة المُثبِتة لوحدانيَّته، ومنها جحدهم بالرسل الذين جاؤوهم بالهدى والحقِّ.

ثمّ بيَّن أفعالَهم تُجاهَ أنبيائِهم، وهي قتلُهم لهم ﵈، ومن استهان بمقام النُّبوَّة بقتله بعضَ الأنبياء فكأنه قد قتل الأنبياء جميعًا، وكانوا حائمين حول قتلِ النبيِّ ﷺ؛ لولا أنْ عصَمهُ اللّٰه تعالى.

أمّا موقفُهم من مجتمعهم ومصلحيهم؛ فقتلُهم الذين يأمرون بالعدل مِن غير الأنبياء من مرشديهم ونُصحائهم، إذ الاعتداءُ عليهم بالقتلِ قرينُ الاعتداء على الأنبياء، وتكريرُ الفعل للإشعار بما بين القَتْلين من التّفاوُت، أو لاختلافه في الوقت.

فاستحقّوا بذلك كلِّه العقابَ من اللّٰه، بإخبارهم - على سبيل الاستهزاء بعقولهم - أنَّ بشارتهم التي يرتقبونها بسبب كفرهم ودعواهم الباطلة هي: العذابُ الأليم(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استئنافِ الجملةِ القريبِ من المقابلةِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ لبيان بعضِ أحوال اليهود المنافية لإسلامِ الوجهِ للّٰه، فالمرادُ بهم خصوصُ اليهود، وهم قد عُرفوا بمضمون هذه الصِّفات في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن، فجرى الجدال مع اليهود إثْرَ النّصارى، كما جعلَهم جميعًا في خطاب واحد في قولِه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾(3)، وفي هذا الاستئنافِ مسلكٌ قريبٌ من المقابلةِ بين المعاني المتماثلة.

---

(1) الخليل، العين، والزّمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بشر).

(2) السمعاني، تفسير القرآن: 1/305، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم 2/20:.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/205.

قتلُ النّبيين مستمرٌّ في كلِّ زمانٍ بقتلِ متَّبعيهم من العلماءِ الرَّبانيّين

دلالة الأفعال المضارعة:

جيءَ في هاتِه الصِّفات ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ وَ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ مرَّتين في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارعِ؛ لتدُلَّ على استحضار الحالة الفظيعة وتصويرِها كأنَّها مشاهدةٌ، ولدلالتها على التّجدُّد فيمن يُتابع أولئك الكفرة القتلة، فإنَّ من يكفرُ بآيات اللّه تعالى داخلٌ في مفهومِ الآيةِ، ومن يقتلُ أتباعَ الأنبياءِ الذين يأمرون النَّاسَ بالقسطِ فقد دخلَ في الوعيدِ، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى محاولةِ قتلِ اليهودِ لرسولِ اللّه ﷺ، فقتلُ الأنبياءِ وأتباعِهم من العلماء العاملين في كل زمنٍ هو منهجُ اليهود، ومن تبِعَهم في ذلك.

بلاغةُ الإنكارِ على الكفرِ ببعضِ آياتِ الله تعالى

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في قولِه: ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الكفرُ بآياتِ اللّه تعالى في قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا أن يكون كفرًا ببعضها، فهو على سبيل المجاز المرسلِ بعلاقة الكُلّيّة، أو يُجعل قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مخصوصًا بما يَسبق إليه الفهمُ من القرآن والرّسول ﷺ[1]، فهو من إطلاقِ الكلِّ وإرادة البعضِ مجازًا مرسلًا، وتظهر بلاغة المجازِ المرسلِ بإبرازِ عنصرِ المبالغةِ، فإنَّ من يكفرُ بآيةٍ فقد كفرَ بالآيات كلِّها، كما أنَّ الكفرَ برسولٍ هو كفرٌ بجميعِ المرسلين.

بلاغةُ التّدلّي في ذكرِ أوصافِ اليهودِ الذين استحقّوا عذابَ الله:

قوله تعالى: ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذه ثلاثةُ أوصافٍ بُدئ فيها بالأعظم، وبما هو سببٌ للآخَر، فهو من قبيل التّدلّي:

فأولها: الكفرُ بآيات اللّه وهو أعظمُها، ونُقطة البَدْءِ، والمَلْمَحُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/75.

العقائديّ الذي سوَّل لهم القتلَ، وأدّى بهم إلى التّوسُّع في المعاصي، وهو أقوى الأسباب في عدم المُبالاة بما يقع من الأفعال القبيحة.

وثانيها: قتلُ مَن أظهر آياتِ اللّه واستدلَّ بها وهم الأنبياءُ والرُّسل.

والثّالث: توسيعُ دائرةِ القتلِ لتشمَل أتباعَ الأنبياء من الناس الذين يأمرون بالقِسْط، وكلَّ مَن لديه رؤيةٌ شاملة للقِسْط يكون وكان دليلًا وموجِّهًا للناس، فيقتلونهم جميعًا فينحدرُ المجتمع كلُّه نحوَ الرّذائل والمعاصي والظّلم.

الكـفـرُ أعـظـمُ الــذُّنــوبِ، فقتلُ الأنبياءِ، فقتلُ أتباعِهم استمرارًا إلى يومِ الدِّينِ

نكتةُ الإشارةِ إلى الأفعالِ المستقبليّةِ:

جاءت الآية وعيدًا لمن كان في زمنه ﷺ، لذلك جاءت الصِّلة بالمستقبل، ودخلت الفاء في خبر إنّ لأنّ الموصول فيه معنى الشّرط، ولمّا كانوا على طريقة أسلافِهم في ذلك نُسِبَ إليهم ذلك، ولأنّهم أرادوا قتلَه ﷺ، واللّه عصمه منهم، وقُتِل أتباعُه فأُطلق ذلك عليهم مجازًا؛ أي: مَن شأنُهم وإرادتُهم ذلك، فجاء الوعيدُ دالًّا على المستقبل كدلالته على الماضي، ويكون ذلك تشنيعًا لمن انتصب لعداوة رسولِ اللّه ﷺ؛ إذ هم سالكون في ذلك طريقة آبائِهم، والمعنى: إنّ آباءكم الذين تتمسّكون بدينهم كانوا على الحالة التي أنتم عالمون بها من الاتّصاف بهذه الأوصاف، فينبغي لكم أن تسلُكوا غيرَ طريقِهم، فإنّهم لم يكونوا على حقّ، فذَكر قبيحَ الأوصاف وتوعَّد عليها بالعِقاب بما يُنَفّر عنها، ويَحمِلُ على التّحلّي بنقائضها[1].

تقبيحُ أوصافِ الـكـافـريـن والـتّــوعُّــد بـعـقـابِـهـم؛ للـتّـنـفير منها والـحــمـلِ عـلى الـتّـحلّي بنقائضها

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة وأثره في سَعَةِ المعاني البلاغيّةِ في قولِه: ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾:

قرأ الحسن: (ويُقَتِّلون النبيّين) بالتّشديد، والتّشديد هنا للتّكثير بحسب المحلّ، وقرأ حمزة: ﴿وَيُقَٰتِلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ﴾ وقرأ الأعمش:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/75.

(وقاتَلوا الّذين)، وكذا هي في مصحف عبد اللّه بن مسعود، وفي هذا التّغايُر من المضارع إلى الماضي في القراءة الواحدة التفاتٌ فِعليٌّ، وقرأ أُبيّ: (ويقتلون النبيين والذين يأمرون)، ومَن غايَر بين الفعلين فمعناه واضحٌ إذا لم يُذكر أحدُهما على سبيل التّوكيد، ومن حذف اكتفى بذكر فعلٍ واحد لاشتراكهم في القتلِ، ومّن كرَّر الفعلَ فذلك على سبيل عطفِ الجمل، وإبرازِ كلِّ جملةٍ في صورة التّشنيع والتّفظيع، لأنّ كلّ جملة مستقلةٌ بنفسها، أو لاختلاف ترتُّبِ العذاب بالنّسبة على مَن وقع به الفعلُ، فقتلُ الأنبياء أعظمُ من قتل من يأمر بالقِسط من غير الأنبياء، فجُعل القتلُ بسبب اختلافِ مرتبته كأنّه فعلانِ مختلفان، وقيل: يحتمل أن يراد بأحد القَتْلين تفويتُ الرُّوح، وبالآخر الإهانةُ وإماتة الذِّكرِ، فيكونان مختلفين، وتكون الثانية على سبيل المجاز[1].

بلاغة تكرير الفعل ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾:

قتـلُ الأنبـياءِ وأتباعِهم سنَّةٌ اجـتـمـاعـيَّـةٌ إجـرامـيَّـةٌ في شياطين الإنسِ

تكريرُ الفعل في الآية للإشعار بما بين القَتْلين من التّفاوُت، أو باختلافهما في الوقت[2]، فقتلُ الأنبياء أشنعُ من قتل الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس، وهو على العموم لبيان شَناعةِ ذلك الفعلِ وتكرارِه واعتيادِه واستحقاقِهم ما توعَّدهم اللّه به من العذاب يومَ القيامة.

وفي تَكرار الفعلِ ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ دليلٌ على تَكرار الإثم بين الأجيال المتتابعة من اليهود، وفيه دلالةٌ كذلك على القَبول النّفسيّ للأجيال المتتابعة على قتل الأنبياءِ وقتلِ الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس، وهذا أشنعُ وصفٍ يمكن أن يوصف به قومٌ، ومقصودُ الآيةِ الحذرُ من أولئك، وممَّن يواليهم ممَّن يرى فيهم النَّجاةَ الدُّنيويَّة.

احتمال إرادة المجاز في ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

إذا أُريدَ بقولِه تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ النبيّ ﷺ، فالمرادُ بالقاتلين معاصروه لا آباؤهم، فيكون إطلاقُ قتلِ الأنبياء مجازًا؛

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/76.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم 2/20:.

لأنّهم لم يقتلوا النّبيّين، لكنّهم رضُوا ذلك وراموه، وأرادوا قتلَ رسولِ اللّه ﷺ، فصَدَقَ عليهم ذلك.

بلاغةُ الإطنابِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾:

قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾: ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحالِ المؤكِّدة لمضمون جملةِ: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وليس له مفهومٌ؛ لظهور عدم إرادةِ التّقييد والاحترازِ؛ فإنّه لا يُقتل نبيٌّ بحقٍّ، والتّقييدُ بقوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ للإيذان بأنّه كان عندهم أيضًا بغير حقٍّ[1]، فقوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ إطنابٌ، قُصد منه زيادةُ تقبيح فعلِهم، ولمّا كان قوله: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مُومِئًا إلى وجه بناءِ الخبر، وهو أنَّهم إنّما قتلوهم لأنّهم يأمرون بالقِسْط؛ أي: بالحقّ، فاكتُفِيَ بها في الدّلالة على الشّناعة، ولم يُحْتَج إلى زيادة التّشنيع، فلم يقل: ويقتلون الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس بغير الحقّ[2]، أو أنّه اكتفى بذكرها أوّلَ مرّة؛ إذ إنّه ذكرها مع الأنبياء ولم يكن لهم فيها رادعٌ، فمن الأَوْلى ألّا يكون لهم رادعٌ عن قتل هؤلاء.

توجيه المتشابِهِ اللّفظيِّ:

تنكيرُ حق يُرادُ منه العمومُ، وتعريفُه يُرادُ منه المعهودُ

جاء تنكيرُ كلمة ﴿حَقّٖ﴾ هنا في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ والتّعريفُ في سورة البقرة في قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [البقرة: 61]؛ لأنَّ الجملةَ هنا أُخرِجَت مُخرجَ الشّرطِ، وهو عامٌّ لا يتخصّص، فناسب أن يكون المنفيُّ بصيغة التّنكيرِ حتَّى يكون عامًّا، وفي سورة البقرة جاء ذلك في صُورة الخبرِ عن ناسٍ معهودين، وذلك قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [البقرة: 61]، فناسب أن يأتي بصِيغة التّعريف لأنّ الحقَّ الذي كان يُستباح به قتلُ الأنفُسِ عندهم كان معروفًا، فالحقُّ الذي تُقتل به الأنفُسُ هناك معهودٌ معروفٌ بخلافه هنا، وقولُه: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ حالٌ مؤكِّدة؛ إذ لا يقع قتلُ نبيٍّ إلّا بغير حقّ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/535،، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/206.

سِرُّ تسميةِ الباعثِ على القتلِ حقًّا:

جاءَ وصفُ الباعثِ على قتلِ النَّبيِّين بالحقِّ، وذلك ليس لأنَّه حقٌّ، بل على ما يعدُّه القتلةُ حقًا، فهم يسنّون قتلَ أهلِ الحقِّ بقوانين إجراميَّة، ثم يزعمون أنَّها حقٌّ، فيقتلون النَّبيين وأتباعَهم بمخالفةِ هذه القوانين، فهؤلاء القاتلون يقتلون بهذه القوانين التي يزعمون أنَّها حقٌّ، وبغيرِها كذلك، فالآيةُ تُشيرُ إلى أنَّ قتلَ النَّبيِّين يكون بكفرٍ الذي زعموه حقًّا، وبكفرٍ من ورائه كفرٌ أي: بغير حقٍّ.

تسميةُ أهلِ الباطلِ إجرامٌ بغيرِ طائل

بلاغة الاحتراس في قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من غير الأنبياء، وهذا احتراسٌ وهو من قبيل الإطنابِ؛ إذ لو قال: ويقتلون الذين يأمرون بالقِسْط، لكان مندرِجًا في ذلك الأنبياءُ لصِدق اللّفظِ عليهم، فجاء من النَّاس بمعنى: من غيرِ الأنبياء، قال الحسن: تدُلّ الآية على أنّ القائم بالأمر بالمعروف تلي منزلتُه في العِظَمِ منزلةَ الأنبياء[1].

منزلةُ الآمرين بالمعروفِ والنَّاهين عن المنكرِ تلي منزلةَ الأنبياءِ

بلاغة تضمين الموصول معنى الشّرط:

الفاء في قولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ فاءُ الجواب المستعملةُ في الشّرط، دَخَلَتْ على خبرِ إنَّ؛ لأنّ اسمَ إنَّ موصولٌ تضمَّنَ معنى الشّرطِ إشارةً إلى أنّه ليس المقصودُ قومًا معيّنين، بل كلُّ من يتّصف بالصِّلة فجزاؤه أن يَعلم أنّ له عذابًا أليمًا.

بلاغة الاستعارة التّهكُّميّة في البِشارة:

الأصل في البِشارة أن تكون في الخير؛ إذ حقيقةُ التّبشير الإخبارُ بما يُظهر السُّرور، وهو هنا مستعمَلٌ في ضِدّ حقيقتِه؛ إذ أُريد به الإخبارُ بحصول العذاب، وهو موجِبٌ لحزن المخبَرين، فهذا الاستعمالُ في الضِّدّ مَعدُودٌ عند علماءِ البيان من الاستعارة، ويسمّونها تهكّميّةً؛ لأنّ تشبيه الضِّدّ بضدّه لا يَرُوج في عقل أحدٍ إلّا

في قوله (فبشّرهم بعذاب أليم) أنزل الإنذارَ منزلة البشارة السّارّة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/76.

على معنى التّهكّم والاستهزاء، فاستعمالُها في الشّرّ للتّهكّم؛ نَزّل الإنذارَ منزلةَ البِشارة السّارّة، أي: القائمُ لهم مَقامَ الخبر السّارّ هو العذابُ الأليم، وقيل: هو على معنى تأثُّرِ البَشَرة من ذلك، فلم يُؤخذ فيه قيدُ السُّرور؛ بل لُوحظ فيه معنى الاشتقاق[1].

التّناسُبُ بين الآيةِ وبين الآياتِ السَّابقةِ:

بين قوله في هذه الآية ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وقوله ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ في الآية السابقة ارتباطٌ وتناسُبٌ واضحٌ وتواصُلٌ بالمعاني؛ إذ يفسّر بعضُها بعضًا، إذ أشار قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ على معنى أنّ القِسْط صِفةٌ للّه في كونه قيُّومَ السّموات والأرض، يقوم به اللّه تعالى، وشهادةُ الملائكة وأُولي العلم هي كذلك قائمةٌ بالقِسْط، يكون أولو العلم هم الأنبياءُ والعلماء من بعدهم يأمرون بالقِسْط، فإن قُوبلت الآيتان يكون المعنى أنّ اليهود يقتلون أولي العلم من الأنبياء والعلماء، وهم أهلُ الشّهادة في الأرض على وحدانيّة اللّه تعالى، وهؤلاء هم الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس، وهم بهذه الأفعال الشّنيعة يكونون قد أعلنوا الحربَ على دين التّوحيد عمومًا، الذي هو دين اللّه، وعلى شهادته سبحانَه على نفسه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فقتلوا سُبلَ نشرِ هذه الشّهادة في الأرض وأرعبوا أهلَها، وفي ذلك تدميرٌ لموازين اللّه تعالى في الحياة، فيظهر الفسادُ الرّافضُ لقوانين التّوحيد في الأرض بما كسبت تلك الأيدي الآثمة، والتّجدُّدُ في هذه الأفعال واضحٌ منتشِرٌ في كلِّ زمان، ومن هنا فقد جاءت الأفعال مضارعيّةً فيها دلالةُ التّجدُّدِ والاستمرار.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم: 375، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/333، الخطيب الموصلي، أولى ما قيل في آيات التّنزيل: 2/456، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾ [آل عمران: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة ما اقترفتْه أيادي اليهود مِن كفرهم بآيات اللّه، وقتلِهم الأنبياءَ بغير حقٍّ، وقتلِهم الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس؛ بيّنَ في هذه الآية جزاءَهم على هذه الأفعال الشّنيعةِ وطبيعةَ خُسرانِهم، فمهما فعلوا من قُرُبات في الدّنيا، فهي خُسرانٌ عليهم في الدّنيا والآخرة، ولن ينصرَهم من عذاب اللّه ناصرٌ مهما فعلوا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَبِطَتۡ﴾: الحَبَطُ وَجَعٌ يأخُذُ البعيرَ في بَطْنه من كَلأٍ يَسْتَوْبِلُه، أو كلأٍ تأكُله الماشيةُ وتُكْثِرُ منه حتى تنتفخَ لذلك بطونُها ولا يَخرج ما فيها فتهلِكَ، وفي الحديث: "وإنّه كُلَّما يُنْبِتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ"[1]، وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وحَبِط عملُ الرّجل، بكسر الباء وفتحها: عَمِل عملًا صالحًا ثمّ أفسدَه بالشّرك أو سوءِ النّيّة، وحبِطت الشّاةُ حَبَطًا: انتفخ بطنُها عن أكل الذَّرِق، وقيل: الحَبَطُ: الانتفاخ أينما كان من داء أو غيرِه، وحَبِطَ جلدُه: وَرِمَ، وفي التّنزيل: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾ [محمد ﷺ: 9][2]، ولعلّ دلالة حَبِطَ هي فسادُ الأعمال مع كثرتِها وزيادتها.

2) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: النَّصرُ الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوّة، والنَّصْرُ والنُّصْرة: حُسنُ المَعونة، أو عَوْنُ المظلوم، ونَصَرَ الغَيْثُ البلادَ: أرواها، والانتصارُ: الانتقام من الظّالم بعون المظلوم عليه، وفي التّنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشورى: 39]، ونصرْتُه على عدُوّه ونصرْتُه منه نَصْرًا، أعنْتُه وقوَّيْتُه[3].

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم: 2842.
(2) الخليل، العين، باب الحاء والطاء، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حبط).
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيّنَ اللّه تعالى مَصيرَ أولئك الذين اقترفوا أسوأَ ما يمكن أن تَطالَه يدُ بشرٍ في الدّنيا؛ من الكفر وجُرْمِه والقتْلِ وشناعتِه، فجاءهم الوعيدُ في هذه الآية لبيان مَصيرِهم في الدّارين بأنْ حَبِطَتْ أعمالُهم بإزالَةِ آثارِها النّافِعَةِ مِن ثَوابِ الآخِرَةِ ونَعيمِها، ومن حَياةٍ طَيِّبَةٍ في الدُّنْيا؛ لأنَّ العمل الصالح لا ينفعُ صاحبَه إلّا بسلامة العقيدة وصلاحِها، أمَّا هؤلاء فإنَّهم أَوغلوا في الفساد بقتل النَّبيِّين - إذ قَتْلُ نبيٍّ واحدٍ كقَتْلِهم جميعًا - وبقَتْلِ الذين يأمرون بالعَدْلِ والرُّشد، فلن يجدوا لهم يومَ القيامة ناصرًا من عذاب اللّه، ولا حاميًا يَدْفعُ عنهم من نِقْمته(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التّعبير باسم الإشارة للبعيدِ:

في اسم الإشارة من معنى البُعد في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ للدّلالة على تَرامي أمرِهم في الضّلال وبُعدِ منزلتِهم في فظاعة الحال؛ وعلى تميُّزِهم بهذه الأفعال التي دلّت عليها صِلةُ الموصول أكملَ تمييزٍ، وللتّنبيه على أنّهم أحقَّاءُ بما سيُخبَرُ به عنهم بعدَ اسمِ الإشارة؛ أي أولئك المتّصفون بتلك الصّفاتِ القبيحة أو المبتَلَونَ بأسوأ الحالِ هم الذين بطَلتْ أعمالُهم التي عمِلُوها، ولم يبقَ لها أثرٌ في الدّارين؛ بل بقيَ لهم اللّعنةُ والخزيُ في الدّنيا، وعذابٌ أليم في الآخرة(2).

بلاغة الإخبار بالاسم الموصول دون الفعل:

الإخبارُ بحبوطِ الأعمالِ فيه تبكيتٌ وتحسيرٌ مؤلمٌ

جاءَ الخبرُ اسمًا موصولًا في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ إذ هو أبلغُ من الخبر الفعليِّ، ولأنّ فيه نوعَ انحصارٍ، ولأنّ جعْلَ الفعلِ صِلةً يدُلُّ على كونها معلومةً للسّامع، معهودةً عنده، فإذا أخبرتَ بالموصول عن اسم استفاد المخاطَبُ أنّ ذلك الفعلَ المعهود المعلوم عنده هو منسوبٌ للمخبَر عنه بالموصول، بخلاف الإخبارِ بالفعل، فإنّك تُخبر المخاطَبَ بصدوده عمَّن أخبرتَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/207.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/207.

به عنه، ولا يكون ذلك الفعلُ معلومًا عنده، فإنْ كان معلومًا عنده جعلتَه صِلةً، وأخبرتَ بالموصول عن الاسم[1]، فجيءَ بفعل ﴿حَبِطَتۡ﴾ لبيانِ أنَّهم معلومون بهذه النَّتيجةِ، وهي أنَّ أعمالَهم قد حبطَتْ بعد أن قُبلَت، ففيه مزيدُ تبكيتٍ لهم، وتحسيرٍ واقعٍ عليهم.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ أو المجازِ المرسلِ في لفظِ الأعمالِ:

إطلاقُ الأعمالِ وإرادةُ بعضِها مبالغةٌ في بيانِ الحبوطِ

الأعمالُ في قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، إمَّا أن يُرادَ بها الأعمالُ التي يتقرّبون بها إلى الله تعالى ويرجُون ثوابَها، بقرينة أصلِ المادّة ومَقامِ التّحذير؛ لأنّه لا يُتَصَوَّرُ إبطال الأعمال المذمومة، وما ذُكرت الأعمال في القرآن مع حَبِطَت إلّا غيرَ مقيّدةٍ بالصّالحات اكتفاءً بالقرينة[2]، فيكون في الآية حذفٌ، والتّقديرُ: الأعمال الصّالحة في نظرهم التي يتقرّبون بها إلى الله، أو يكون المرادُ بها بعضَ الأعمال، فتكون مجازًا مرسلًا علاقتُه الكُلّيّة؛ فقد أَطلق عمومَ الأعمالِ وأراد بعضَها، للمبالغةِ في بيانِ حبوطِها.

فائدةُ التّمثيلِ في قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

وجوبُ المحافظةِ على الصَّالحاتِ، كي لا تفسدَ بالموبِقاتِ

حَبَطُ الأعمالِ إزالةُ آثارِها النّافعةِ من حياةٍ طيّبة في الدّنيا وثوابٍ ونعيم في الآخرة، وإطلاقُ الحَبَطِ على ذلك تمثيلٌ بحال الإبلِ التي يُصيبها الحَبَطُ، وهو انتفاخٌ في بطونها من كثرة الأكلِ يكون سببَ موتِها، في حين أكلتْ ما أكلتْ للالتذاذِ به[3]. فالتَّعبيرُ بالحبطِ دليلٌ على أنَّ ما يكون نافعًا تجب المحافظةُ عليه، كي لا يأتي ما يُفسدُه ويجعله غيرَ معتدٍّ به.

وقيل إنّ التّركيب في قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾؛ مجازٌ عقليّ باعتبار أنّه قد أُسند فعلُ (حَبِطَ) إلى غير فاعلِه وهو ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/333.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/207.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.

فنُّ الطِّباقِ بين لفظي الدُّنيا والآخرةِ:

بيانُ شُمُولِ فسادِ الأعمالِ الصّالحةِ ترهيبًا وتحذيرًا

بين لفظي ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ طِباقٌ يدُلُّ على الشّمول؛ فتشمَل جميعَ أعمالِهم، وكلَّ أحوالِهم، فلا يُحمَدون عليها في الدّنيا، ولا ثوابَ لهم في الآخرة، وأفاد الطِّباقُ معنًى جديدًا لذلك التّمثيل بين حالِ الإبلِ المريضة بهذا المرض الخطير الذي يؤدّي إلى قتلها، وبين أولئك الذين يقتلون الفضيلةَ، ويقتلون من يأمر بها وينشرها، فهم بقتلهم يتلذّذون كما يتلذّذ الجائعُ في إقباله على الطّعام، وهم بقتلهم يقتلون أنفسَهم وما يشعرون كما يقتل الجملُ نفسَه بكثرة الأكل، فهم يقتلون الحياةَ كلَّها، ووجهُ الشّبه بين الحالتين متعدّدٌ[1].

بلاغة الجمع والمقابلة في ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ودلالتُها على الشّمول:

مَجيءُ الجمعِ في ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ لأنّه بإزاء شُفعاءِ المؤمنين من الملائكة والأنبياء وصالحي المؤمنين؛ أي: ليس لهم كأمثال هؤلاء، ومعنى انتفاءِ النّاصرين انتفاءُ ما يترتّبُ على النّصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفتْ من جمعٍ فانتفاؤها من واحد أَولى؛ أي: إذا كان جمعٌ لا ينصُر فأحرى أنْ لا ينصُرَ واحدٌ، ولرعاية ما وقع في مقابلَته، لا لنفي تعدُّدِ الأنصارِ من كلِّ واحدٍ منهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾ [البقرة: 270] إذ تقدّم ذكرُ معصيتِهم بثلاثة أوصاف؛ فكان جزاؤهم ثلاثةَ أشياءَ ليقابَلَ كلُّ وصفٍ بمناسبه، فالكفرُ بآيات اللّه أعظمُ، والتّبشيرُ بالعذاب الأليم أعظمُ، وقابَلَ قتلَ الأنبياءِ بحُبوط العمل في الدّنيا الآخرة بالعقاب الدّائم، وقابَلَ قتلَ الآمرين بالقِسْط بانتفاء النّاصرين عنهم إذا حلَّ بهم العذابُ، كما لم يكن للآمرين بالقِسْط مَن ينصرهم حين حلَّ بهم قتلُ المعتدين، كذلك المعتدون لا ناصرَ لهم إذا حلّ بهم العذابُ[2].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/77 - 78، والآلوسي، روح المعاني: 2/106.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣﴾ [آل عمران: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن توعَّد سبحانه في الآية السَّابقة الَّذين أوتوا الكتاب منَ اليهود على شناعة أفعالهم، وما اقترفته أيديهم، التفتَ إلى النَّبيّ ﷺ؛ لبيان عجيب صنع ما يفعله معه فريقٌ منهم، وهم اليهود، وهو شاهد على أفعالهم، بعد أن حكى سبحانه أفعال أسلافهم، مِن قتلهمُ الأنبياء، وقتلهمُ الّذين يأمرون بالقسط منَ النّاس؛ فها هم إذا دُعوا إلى كتاب الله، ليحكم بينهم، يتولّون وهم معرضون، فما أعجب حالهم!

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُوتُواْ﴾: أتى منَ الإتيان، وهو مجيءٌ بسهولة، بسبب تهيئة أو إزالة مانع، و(آتى) من الإيتاء؛ وهو الإعطاء، وخُصَّ دفع الصَّدقة في القرآن بالإيتاء، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: 156]، وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا﴾ [النساء: 54]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ١٦٣﴾ [النساء: 163]، ومعنى ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أُعطوهُ من غير جُهد منهم ولا عَناء.

2) ﴿نَصِيبًا﴾: النَّصبُ: إقامة شيءٍ في ارتفاعٍ واستِواءٍ، والنّصيب: القِسْم والحظُّ من كلِّ شيء؛ لأنّه يُعزَل، ويقام لصاحبه، ويرفع، والمعنى: أوتوا حظًّا وقِسْمًا منَ الكتاب[1].

3) ﴿لِيَحْكُمَ﴾: الحُكم: المَنع، أو: ضبطٌ يمنع التّسيُّب والفساد، وَسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تَمْنَعُهَا، والحاكم: مَن يمنع مِنَ الظّلم، ويُطلق الحُكمُ والحِكمة على العلم والفقه والقضاء بالعدل[2].

4) ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾: الوَلْيُ والتَّولِّي: قُربُ شيءٍ مِن شَيءٍ ولُزُومُه تبعًا له، إقبالًا أو إدبارًا، وأكثر استعماله في الإقبال، كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حكم).

يدلّ على الإعراض والإدبار والبعد إلَّا إذا عُدِّيَ بـ (عن)، أو دلّ السّياق على ذلك، يُقالُ: تَوَلَّى عنه، أي: أعرَضَ. ووَلَّى هاربًا، أي: أدبَرَ، ومنه هذه الآية[1].

5) ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: العَرْضُ من كلّ شيء خلاف الطُّول، وفي استعمال العرب: اتّساع ما يواجه النّاظرَ منَ الشّيء الكثيف، والعرب تستعمل الطّول والعرض في الكثرة، يُقال: أطال في الكلام، وأعرض في الدّعاء، أي: أكثر. ويُقالُ: أَعرَض فُلانٌ، أي: ذهَب عرضًا وطُولًا. والإعرَاضُ عنِ الشّيء: الإدبارُ عنه بالعَرضِ. وأعرض بوجهه، وعن فلان: كأنّه انحرف عنه، ووَلَّاه عُرْضه، أي: جانبه، أو عارِضَه، أي: جانبَ وجهه لا مقدَّمه، أو: وَلَّى مُبدِيًا عَرضَهُ، وأَعرَضَ عن الأمرِ، وعنِ الآيات، تشبيهًا بالإعراض الحسّيّ، قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: 32][2].

المَعْنَى الإجْمَاليّ:

أرأيت - أيُّها الرّسول ﷺ- أعجبَ من حال هؤلاء اليهود - وهم علماؤهم - الّذين آتاهم اللّه نَصيبًا عَظِيمًا منَ التوراةِ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بذلِكَ، وقد علموا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ، يُدعَونَ إلى ما جاء في القرآن ليَفْصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن لم يُوافق أهواءَهم يَأْبَ كثير منهم حُكمَ اللّه؛ لأنَّ من عادتهم الإعراضَ عنِ الحقِّ، أو يُدعَونَ إلى كتابهم الّذي يزعمون أنّهم مؤمنون به، لكنّهم يتولّون بعد أن يأخذوا حظّهم منَ الوقت والتّفكير، وهم معرضون عنه بقلوبهم؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ في كتابهم البشارةَ بنبوّته ﷺ، والحكمَ فيها قد خالف أهواءهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّحوّل في الأسلوب منَ الخبر إلى الإنشاء:

صدر الآية استئناف ابتدائيّ للتّعجيب من حالة اليهود في شدّة ضلالهم[4]؛ وهو انتقال من أسلوب خبريّ عَدَّدَ خَزَايا اليهود من كفر، وإصرار على المعصية، وقتل للأنبياء وغير

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).

(3) الشوكاني، فتح القدير: 1/376، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

(4) الزّركشّي، البرهان: 4/151، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/208.

تـنـوّع أسـلـوب القرآن للتّنبيه عـلى أحـوال اليـهـود في عـنـادهـم، وإصـرارهـم على الإعراض

ذلك؛ إلى أسلوب إنشائيّ مخاطبًا رسول اللّه ﷺ، مُستفهمًا عن عجائب الّذين أوتوا الكتاب.

الاستفهام في قوله ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للتّقرير والتّعجيب:

إذا قُصِدَ بالاستفهام النّفي، وجاء معه أداة نفي عاد النّفي إثباتًا، وهذه قاعدة مطّردة، وهو هنا للتّقرير والتّعجيب، فالاستفهام لنفي الفعل، والمراد حصول الإقرار بالفعل، ليكون التّقرير على نفيه محرّضًا للمُخاطَب على الاعتراف به لأنّه لا يرضى أن يكون ممّن يجهله، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشّعراء: 18]، يعني: ربّيناك[1].

لمّا قال ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دلّ على ظاهريّة الإيمان، وأنّ التزامهم لم يتجاوزِ الحروف والكلمات:

الذّكر في موضع الحذف، وبلاغة التّعريض

إنّ قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من قبيل الذّكر في مَوضِع الحذف، فكان المَوضِع أن يُقال: (إليهم)، فأطنب في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ ليدلّ على أنّ ضلالهم على علم، وفي ذلك تعريض بهم؛ لأنّ الّذي أوتوه منَ الكتاب هو قراءتُهم له بألسنتهم، وادّعاءُ الإيمان به، دون أن يكون له فيهم واعظ أو رادع.

تعدية فعل النّظر ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ بحرف ﴿إِلَى﴾:

في العبارة القرآنيّة إعلام بأحوال اليهود، وتعجيب من عنادهم، وصدّهم عن كتاب الله

الرّؤية في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ بصريّة لتعديتها بـ﴿إِلَى﴾ الّذي يتعدّى به فعل النّظر، أو: قلبيّة، وتكون ﴿إِلَى﴾ داخلة على المفعول الأوّل؛ لتأكيد اتّصال العلم بالمعلوم، وانتهائه المجازيّ إليه، ويكون المعنى: ألم تعلم؟ ألم ينته علمك إلى هؤلاء؟ ومعناه: اعرفهم. وقيل: ﴿*أَلَمۡ تَرَ﴾: بمعنى: ألم تُخبر؟ وهو سؤال فيه إعلام، أي: أعلن قصّتهم، وهي كلمة تقولها العرب عند التّعجّب منَ الشّيء، وعند تنبيه المُخاطَب، ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: 243]؛ أي:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/208، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 1/157.

أَلَم تَعجَب بفعلهم، أَلَم يَنتَهِ شأنُهم إليك؟ وقال الرّاغبُ: إذا عُدِّي رَأيت بـ (إلى) اقتضى معنى النَّظَر المُؤَدِّي للاعتبار[1].

التّعجيب بطريق الموصوليّة:

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ولم يقلِ اليهود؛ إذ عرَّفَ المُتَحَدَّث عنهم بطريق الموصوليّة بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، واسم الموصول هنا كـ (أل) العهديّة التي تُعرِّف المفردات دون ذكرهم؛ وذلك للتّعجيب، ولأنّ في الصّلة ما يزيد التّعجيب من حالهم؛ لأنّ كونهم على علم منَ الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدّهم عمّا أخبرَ به عنهم، وتلين قلوبهم، ويُحَكِّمون كتاب الله، ناهيك عمّا في هذه الصّلة أيضًا من توهين علمهم بالكتاب، والكتاب: التّوراة، فالتّعريف للعهد، وهو الظّاهر، وقيل: للجنس، فعجّب بحالهم من طريقين[2].

لـم يـحـمـلـوا أمـانـة الـعـلـم، والـعـمـل، والـتّـبـلـيـغ، فأحالوا أنفسهم بذلك إلى بهائم لا تستوعب التّكريم الإلهيّ في إيتاء الكتاب

العدول عنِ الاسم المعهود إلى غير المعهود مع تنوّع الكناية عنِ الكتاب:

الجدير بالاهتمام هنا أنّ القرآن يُطلِقُ عليهم ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [نحو: آل عمران: 69] أو ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [نحو: البقرة: 101]، فعدل هنا إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فزاد عليها ﴿نَصِيبًا مِّنَ﴾؛ وواضح أنّ التّعبيرين مختلفان في المعنى؛ فقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الألف واللّام فيه للعهد، أي: الكتاب المعهود، وهو التّوراة والإنجيل، أمّا ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فمعناه منَ الوحي. فـ (أل) فيه لتعريف الجنس؛ لأنّهم أوتوا بعض كلام الله، وهو التّوراة والإنجيل، فحرّفوه، ولم يؤتوا كلام الله كلّه، بدليل ما اشتمل عليه القرآن من حقائق الإيمان، والأحكام، والتّوجيهات، والقصص ممّا ليس له وجود في كتاب سماويّ قبله.

تـعـدّد مـعـاني الـكـتـاب المـرادة في الآيـة، فـهـو القرآن أو التّوراة أو جنس الكتب السّماويّة

أو تكون (أل) للعهد، أي: أوتوا نصيبًا منَ التّوراة؛ لأنّها المُحرّفة، والمعنى: يُدْعَون إلى التّوراة الصّحيحة أو القرآن أو جنس الكتب

(1) ابن سيده، المحكم: (رأى)، والرّاغب، المفردات: (رأى)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/515، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/112.

السّماويّة؛ للحكم بينهم بما فيها، والرّضى بها، وفيه تعريض بأنّهم لا يعلمون من كتابهم إلّا حظًّا يسيرًا، ويجوز أن يكون الكتاب الثّاني عين الكتاب الأوّل، وإنما غُيِّرَ اللّفظ تفنّنًا وتنويهًا بالمدعوّ إليه[1].

سرُّ العدول عن (آتيناهم) إلى ﴿أُوتُواْ﴾:

بناء الفعل للمفعول في ﴿أُوتُواْ﴾ هنا يشير إلى عدم قبولهم ما آتاهم اللّه من الكتاب؛ إمّا بإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، وإمَّا بتحريفهم له، وكلُّ موضعٍ ذُكر في وصف الكتاب (آتينا) فهو أبلغ من كلِّ موضع ذُكر فيه ﴿أُوتُواْ﴾؛ لأنَّ ﴿أُوتُواْ﴾ قد يقال إذا أُوتي من لم يكن منه قَبول، و(آتيناهم) يقال فيمن كان منه قَبول.

وقد ورد قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، كلُّها تدل على قبولهم ما في الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: 121].

المجاز في ذكر النّصيب منَ الكتاب:

ذكر النّصيب منَ الكتاب؛ لمقدرتهم على قراءته، وفهمه دون تطبيقه، ونشره، وتعليمه

إيثار التّعبير بنصيب منَ الكتاب هو مُقتضَى الحال في بلاغة الإعجاز، أي: أنّ ما لديهم من وحي ليس كافيًا في هدايتهم، ومع ذلك رفضوه، ولو قيل: أوتوا الكتاب لأعذرهم بأنّهم ليسوا في حاجة إلى غيره[2]، أو أنّ ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مجاز عمّا أخذوه من تلاوة الكتاب دون العمل به، فوصف حالة عدم الفهم وعدم التّوفيق، الّتي أحاطت بهم، وأحالتهم إلى كائنات لا قدرة لها على استيعاب ما في كتاب اللّه من أوامر، ونواهٍ، وأحكام، وفضائل، فهم قد أوتوا الكتاب لكنّهم لم يُؤْتُوهُ حقّه، فكانت علاقتهم به كحمار يحمل الكتب والأسفار، فليس له منها إلّا جهد الحمل، ومشقّة الطّريق، فلم يُؤْتُوهُ حقّه منَ العناية، والعبادة، والتّطبيق، والدّراسة لأحكامه، ونشره،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/288، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/416، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/81، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209 - 210.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 1/158.

وتعليمه، فكانوا كمن أوتي حروفه، ولم يؤتَ أحكامه وفضائله، فقال: ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. وقوله: نصيبًا، أي: طرفًا، أي: ظاهر بعض الكتاب؛ إذ هم لم يحفظوه، ولم يعلموا جميع ما فيه[1].

دلالة التّنكير في قوله ﴿نَصِيبٗا﴾:

تنكير النّصيب يحتمل التّعظيم والتّحقير، والسّياق يرجحّ أنّه للتّحقير والتّقليل والتّهوين من شأنهم وحالهم ممّا أخذوه منَ الكتاب[2]، وفي بناء ﴿أُوتُواْ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله دلالة على الإغلاق الّذي أصابهم بسبب عتوّهم وإعراضهم، قال الرّاغب: "وكلّ مَوضِع ذُكر في وصف الكتاب ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ [البقرة: 53] فهو أبلغ من كلّ مَوضِع ذُكر فيه ﴿أُوتُواْ﴾؛ لأنّ ﴿أُوتُواْ﴾ قد يُقال فيمن لم يكن منه قبولٌ، و﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ [البقرة: 121] يُقال فيمن كان منهم قبولٌ"[3]، وكتابهم الخاصّ بهم نصيب من بقيّة الكتب، وما أخذوا من كتابهم نصيب منه، فإنّهم لو استوفوا حظّهم منه لما عدلوا في الحكم عنه، ولرضوا به، وكان في هذا التّعجيب أن يكون غيرهم يرضى بحكم كتابهم، ثمّ لا يرضون هم به[4].

الآية إنكار على علماء اليهود من أهل الكتاب، لمّا علموا منَ الحقّ فأخفوه، وأعرضوا

بلاغة الإظهار في مَوضِع الإضمار:

أظهر الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: إلى كتابهم؛ احترازًا عمّا غيّروا وبدّلوا، ولأنّهم إنّما دعوا إلى كتاب اللّه الّذي أُنزل على موسى عليه السلام، لا إلى ما عساه أن يكون بأيديهم ممّا غيّروا، وفيه أيضًا إشارة إلى عظيم جرأتهم بتولّيهم عمّن له الإحاطة الكاملة[5].

للتّعجيب من حال أولئك الّذين يُدعون إلى كتاب الله، ثم يتولّون

قوله: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ يحتمل أن يكونَ المتنازع فيه واقعًا بينهم هم، أي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/81.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الحرالّي، تراث أبي الحسن الْحَرَالّيّ: 1/542.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/49.

بلاغة ذكر البينيّة في الحكم

بين من أسلم منهم، ومن لم يسلم، أو: بينهم وبين رسول الله ﷺ، فدعوا إلى التّوراة الّتي لا اختلاف في صحّتها عندهم، ليُحكم بين المحقّ والمبطل، فتولّى من لم يسلم منهم[1].

دلالة الأفعال المضارعة ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾، ﴿لِيَحۡكُمَ﴾، ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾:

من إعجاز القرآن حكايته أسرار النّفس الإنسانيّة، وتجدّدها معَ الزمن

الأفعال المضارعة هي ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾، ﴿لِيَحۡكُمَ﴾، ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾، وبناء ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله يدلّ على التّعميم، فمهما دُعوا إلى كتاب الله من أيّ داعٍ ليحكم بينهم فإنّهم يتولّون، والحكم واقع بينهم أنفسهم، وليس بينهم وبين المسلمين، ومع ذلك فهم مُعرضون عن كتابهم وعنِ الحُكم به، والمُضارع في قوله: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ دليل جاهزيَّة الحُكم في الكتاب ووضوحه، ثمّ دليل تجدّد تلك الجاهزِيَّة في المستقبل، فهو كتاب الله، وارتباط هذا المعنى مع حرف التّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾؛ لبيان رسوخ علمهم بكتاب الله، إذ أخذوا الزّمن الكافي لمعرفته، وفهمه، والتّدقيق فيه، لكنّهم بعد ذلك أعرضوا عنه.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ استبعاد لتولّيهم مع علمهم بأنّ الرّجوع إليه واجب، والتّولّي مجاز عنِ النّفور والإباء، وأصله الإعراض والانصراف الحسّيّ، ونسب التّولّي إلى فريق منهم دون الجميع؛ لأنّ منهم من أسلم ولم يتولَّ[2]، وفعل المضارع ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ أفاد أيضًا ذلك التّجدّد كحال تولّيهم، فمع أنّ الحكم بالكتاب متجدّد الجهوزيّة في ﴿لِيَحۡكُمَ﴾، فإنّ حالة التّولّي لديهم على تجدّد مستمرّ في ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾.

وجملة ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ حال دالّة على تجدّد إعراضهم، المستفاد

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/81، 82.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/416، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/81، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/210.

منَ المضارع ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾؛ كأنّهم وَلّوا كتاب اللّه عُرضهم وعارِضَهم، أي: جانبهم وجانبَ وجوههم، لا مقدّمهم[1]، وفي ذلك انسجام حالة التّجدّد بين الحال والأفعال المضارعة.

دلالة التّراخي في ﴿ثُمَّ﴾:

اللّه تعالى يمنح الإنسان وقته الكافي؛ للتّفكير والنّظر فيما يختاره بعد أن يتيح له فرص التّعلّم، والتّعرّف على الحقّ والباطل.

حِلْمُ اللهِ مع غَنَائِه، وعناد البشر مع شدة فقرهم

يدلّ التّراخي في ﴿ثُمَّ﴾ على أنّ هؤلاء أخذوا وقتهم في النّظر والتّفكّر في الأمر، فلمّا رأوا نتائج الحُكم لا توافق أهواءهم وعداوتهم رسول اللّه ﷺ وإنكار رسالته؛ أعرضوا عنه؛ لأنّه كان موجودًا عندهم في التّوراة ذكر صفاته ﷺ تمامًا كما يرونها أمامهم فيه ﷺ، وفي إمهاله ما يدلّ على لددهم وتبلّدهم في ذلك بما يوقعه اللّه منَ المقت والتّحيّر على من دعي إلى حقّ فأباه. وفي صيغة يتفعّل ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ ما يناسب معنى ذلك في تكلّف التّولّي على انجذاب من بواطنهم لما عرفوه وكتموه.

و﴿ثُمَّ﴾ تدلّ على أنّ تولّيهم مستمرّ في أزمان كثيرة تبعد عن زمان الدّعوة، أي: أنّهم لا يرعوُون، بل يتولّون ثمّ يتولّون؛ لأنّ المرء قد يُعرِضُ غضبًا، أو لعظم مفاجأة بأمر غير المترقّب، ثمّ يثوب إليه رشده، ويراجع نفسه، فيرجع، وقد علم أنّ تولّيهم إثر الدّعوة دون تراخٍ حاصل بفحوى الخطاب، فدلّت ﴿ثُمَّ﴾ على التّراخي الزّمنيّ، فمهما طال بهم الزّمن، وتجدّدت أحوال حاجتهم إلى أحكام كتاب اللّه تولّوا عنه، وهم معرضون، ودلّت أيضًا على التّراخي الرّتبيّ الّذي أريد به تشنيع حالهم وتفظيعها بعد التّعجيب منها؛ إذْ كيف يتولّون إذا دعوا إلى كتابهم بعد أن أوتوا الكتاب، ونقلوه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/210.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/49، 50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/210.

سرُّ الجمع بين التَّولّي والإعراض وهما قريبان في المعنى:

التّوكيد بتَكرار المعنى، والدّلالة عن جهة توَلّيهم وهــو تَـعـمُّـد الإعراض

ذكر التّولّي والإعراض مع أنّهما قريبان في المعنى؛ لبيان طبائع الأنفس وخبيئاتها.

فالإعراض مؤكّدٌ للتّولّي، فهو حال من أحواله، يصف ذلك التّردّد والتّكلّف الّذي صار وصفًا لهم، فأصبح الإعراض عادتهم، وفي هذا تحذير لهذه الأمّة منَ الوقوع في مثل ذلك، أو مبينٌ لمعنى جديد، فالتّولّي عنِ الدّاعي، والإعراض عنِ المدعوّ إليه، أو التّولّي بالبدن والإعراض بالقلب، أو التّولّي من علمائهم والإعراض من أتباعهم[1].

الإشـــارة إلى وجـود الدّليل على صحّة نبوّة رسول الله ﷺ عندهم

في الآية دليل على صحّة نبوّته ﷺ؛ لأنّهم لولا علمهم بما جاء في كتبهم من نعته وصحّة نبوّته لَما أعرضوا، وتسارعوا إلى موافقة ما في كتبهم، حتّى يثبتوا بطلان دعواه[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/49 - 50.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/82.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عمران: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أسباب الجرأة على الله وارتكاب المعاصي

لَمَّا ذكر تعالى اجتراء اليهودِ على اللّه، وعدّد سبحانه بعض مخازيهم، علّل تلك الجرأة عليه، وذلك الإعراض عن كتابه؛ بأنّهم قالوا كذبًا وبهتانًا: لن تمسَّنا النَّار إلَّا أيّامًا قليلات معدودات، وتطاوَلَ الزّمانُ وهم على هذا الباطل، حتّى اطمأنُّوا إليه، وأقنعوا أنفسهم بهذا القولِ الذي رسَّخ اعتقادَهم له وهوَّنوا به الخطوبَ ولم يبالوا معه بارتكابِ المعاصي والذُّنوب، ولمَّا نسبوا ذلك إلى الكتاب، وجعلوه ديناً، بيَّن سبحانه أن تعمُّد كذبهم على اللّه، وتحريفهم دينهم؛ إنَّما كان بسبب غُرورهم، ولا صلة له بدين اللّه، ولا ارتباط له به(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَسَّنَا﴾: المَسُّ: مخالطة دقيقة ذات أثَرٍ، وأكثر ما تكون بجَسّ الشَّيء باليد، والمسُّ كاللّمس، لكنَّ اللّمس يُقال لطلب الشّيء، وإن لم يوجد، والمَسُّ يُقال فيما يكون معه إدراكٌ، والمسُّ يقال فيما ينال الإنسان من أذىً أو مكروه، كقوله تعالى: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]، وقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83]، وقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [ص: 41](2).

2) ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾: العَدُّ: إحصاءٌ ببيان الأفراد وضبطهم، ولو كثرت، والإِعدَادُ: إحضار الشّيء وتَهيئَته، والفرق بين العدّ والإحصاء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51 - 52، والآلوسي، روح المعاني: 2/107.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة (مسَّ)، والرّاغب، المفردات، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (مسس)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مس، مسمس).

أنّ العدَّ سَردُ بعض الأشياء تِلوَ بعضها الموجود منها، ولا يستلزم بلوغ آخر جنسها، والإحصاء: حَصرُ الشّيء عَدًّا ببلوغ آخر ما هو منه، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: 84]، يعني: أنّ الأنفاس تُحصى إحصاءً، ولها عددٌ مَعلوم، وقوله تعالى: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ [الهُمزة: 2]، أي: جعله ذا كثرة وعَدَد، أو: جعله عُدَّة للدّهر(1).

والمعنى هنا: أيامًا قليلة العدد.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عقيدة اليهود الفاسدة القائمة على الكذب والخداع

ذلك التَّولِّي والإعراضُ عنِ الحقِّ سببه اعتقادٌ فاسدٌ لدى هؤلاءِ اليهود؛ لأنَّهم كانوا يدَّعون بأنّهم لن يعذَّبوا إلّا أيامًا قليلة - وهي مدَّةُ عبادتِهم العجلَ - ثم يَدْخلون الجنةَ، وهذا الاعتقاد أدَّى إلى جرأتهم على اللّه، واستهانتهم بدينه، واستمرُّوا على دينهم الباطل الّذي خَدَعوا به أنفسهم، وهذه العقيدةُ عقيدةُ اليهودِ، وما هو إلَّا مجرَّد كذبٍ وافتراء من تلقاء أنفسهم افتَعَلُوه، ولم ينزل اللّه به سلطانًا(2).

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير عنِ الاعتقاد بالقول:

وعبّر عنِ الاعتقاد بالقول ﴿قَالُواْ﴾؛ دلالة على أنّ هذا الاعتقاد المُعلَن لا دليل عليه؛ وأنّه مجرد قول مفترى، وهذه عقيدة اليهود(3).

سرُّ العدول عن ﴿مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] إلى ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾:

اختلاف القائلين، ومناسبة السياق

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، وقال هنا: ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾، الأيّام جمع قلّة، وَوُصِفَت بجمع السّلامة الّذي يفيد القلّة؛ لتأكيد القلّة، وللاحتراس من إرادة الكثرة بجمع القلّة على سبيل الاستعارة، قال الزّجّاج: ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدد).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/28، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.

يستعمل كثيراً في اللّغة للشّيءِ القليل، وكلّ عدد قَلَّ أو كَثُرَ فهو معدود، ولكنّ ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ أدلّ على القلّة؛ لأنّ كلّ قليل يجمع بالألف والتّاء، نحو: دريهمات وجماعات(1).

وقال السيوطي: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: 80]. وفي آل عمران: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾. قال ابن جماعة: لأنَّ قائل ذلك فرقتان من اليهود إحداهما، قالت: إنّما نعذب بالنَّار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، والأخرى قالت: إنَّما نعذَّب أربعين عدَّة أيام عبادة آبائهم العجل؛ فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبّر بجمع الكثرة، وآل عمران بالفرقة الأولى؛ حيث أتى بجمع القلَّة.

والظّاهر - كما ذكر السيوطي وغيره - أنّ القوم المذكورين هنا غير الّذين في سورة البقرة، ويرجّح ذلك وصفهم هنا بقوله: ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على خلاف ما هناك، فإنّهم هناك ذكروا في سياق الحديث عن بني إسرائيل، ثمّ بيّن عقابهم فمايزهم بين مؤمن وكافر، فقال: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 81 - 82]، وقد تكرّر ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في سورة النّساء [النّساء: 44، 51]، كما قالوا: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51]، فقال: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، ولعلّ هذا أشنع ما وُصف به الكفّار في كتاب اللّه، فكان هؤلاء الّذين أوتوا نصيبًا منَ الكتاب إذا دعوا إلى كتاب اللّه ليحكم بينهم قالوا: لن تمسّنا النّار إلّا أيّامًا معدودات، وهو أقلّ القليل في اعتقادهم، بخلاف من قالوا: معدودة، وفي سورة البقرة ناقشهم في حجّتهم فقال: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾ [البقرة: 80]، وهنا: لم يناقشهم، بل سفّه ما قالوا بقوله: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، فبيّن أنّ لهم دينًا خاصًّا، وتوعّدهم بالجمع يوم القيامة.

وعلى فرض أنَّ هؤلاء المذكورين هنا هم المذكورون هناك فإنّ السِّياق المذكور فيه ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80] قد ذكر فيه كثير من الجرائم والآثام، وكان على سبيل الإخبار عن كثرة

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/275، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/83، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50.

مخالفتهم، والسِّياق المذكور فيه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ذكر فيه جرائم لهم، ولكنَّها أقلّ، وكان على سبيل التعليل لانصرافهم عن الحقِّ وإعراضهم عنه؛ فكان ادعاؤهم في كلٍّ منسجمًا مع السياق؛ حيث إنَّ الإخبار يقتضي الكثرة، والتعليل لهذا الإعراض يقتضي القلَّة في زعمهم؛ فغرّهم ظنُّهم هذا ما اختلقوه من الكذب والبهتان.

الظرفيّة المجازيّة في قوله: ﴿فِي دِينِهِم﴾:

أي: وغرّهم ما افتَرَوه، وتَقَوَّلوه على الدّين، وأدخلوه فيه، من أنّ النّار لن تمسّهم إلّا أيّامًا قلائل، أو أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، فلذلك أُتِيَ بـ ﴿فِي﴾ الدّالّة على الظرفيّة المجازيّة[1].

سرُّ تقديم الجارّ والمجرور في ﴿فِي دِينِهِم﴾:

للاهتمام والاختصاص

الدّين عند الله واحد؛ وهو الإسلام، وكلّ الأنبياء كانوا على الإسلام.

وفي نسبة الدّين إليهم ﴿فِي دِينِهِم﴾ إشارة إلى ما أدخلوه مِنَ التّقوّلات في الدّين، ثمّ إنّه ذكر الدّين، ولم يذكرِ الكتاب؛ لأنّ ما افتروه أصبح عندهم عقيدةً ودينًا على خلاف الكتاب الّذي نبذوه وراء ظهورهم، وقدّم الجارّ والمجرور ﴿فِي دِينِهِم﴾: للاهتمام والاختصاص؛ إذ ما كان ليقع غرورهم وقوعًا جماعيًّا، كما وقع، لولا ما افتروه في دينهم.

ليس كلّ ما تتبنّاه الجماعة أو المجتمع صحيحًا؛ وذلك بسبب الكِبر والغُرور، والغُرور يؤدّي بصاحبه إلى ارتكاب الكبائر وأشنع الآثام

وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ الّذي افتروه هو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾، أو: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]. أو: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111]؛ أو: كلّ هذه الأقوال[2]، والواضح أنّ افتراءهم كان على صعيد مجتمع كاملٍ، نتج عنه الدّين المُحرّف الّذي نُسب إليهم، فقال: ﴿فِي دِينِهِم﴾،

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/83.

وقد أخبر اللّه تعالى أنّ الافتراء، وهو تعَمُّد الكذب، تسبّب عنه الغرور الّذي أوقعهم في الضّلال الدّائم؛ لأنّ المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجوٌّ، أمّا المغرور فلا يترقّب منه إقلاع، والغرور إخفاء الخدعة في صورة النّصيحة(1).

تعدّد التلوُّن في الخطاب بالتّنوّع الفعليّ:

في الآية تلوُّن في الأفعال، منَ الماضي إلى المضارع، ثمّ إلى الماضي، ثمّ إلى المضارع؛ وذلك يعكس تقلّبات الأفعال، والأنفس، والمجتمع الّذي اغترّ بكذبه في الدّين.

لمّا انتقل منَ الماضي ﴿قَالُواْ﴾ إلى الحاضر ﴿تَمَسَّنَا﴾ اتّضح أنّ قناعتهم بما قالوه كانت قديمة مرتكزة على عقيدة قديمة؛ فهم شعب اللّه المختار - بزعمهم - من بين شعوب الأرض كلّها على مدى الدّهر، واختار فعل المسّ دون فعل الإصابة أو الإحراق؛ ليدلّ على هوان ذلك العذاب، وأنّه مقتصر على حاسّة الجلد؛ أي: ما سيصيبهم منَ العذاب هو على قدر ما تصيب النّار جلودهم كما تصيب نار الدّنيا جلودهم، ثم يُدخلون الجنّة.

ثمّ انتقل منَ المضارع ﴿تَمَسَّنَا﴾ إلى الماضي ﴿وَغَرَّهُمْ﴾؛ فكان ذلك الاعتقاد في عدم مساس النّار لهم إلّا أيّامًا قلائل كفيلًا بغرورهم باللّه، وكفيلًا باقتناعهم، وتديّنهم بهذا الدّين الّذي هو جملة من وحي الشّياطين، وتزيينهم؛ إذ جعلوا أنفسهم في مقام عالٍ عند اللّه، وهم في الوقت ذاته يُعرضون عن حكمه سبحانه وعن كتابه.

وأخيرًا انتقل منَ الماضي ﴿وَغَرَّهُمْ﴾ إلى المضارع ﴿يَفْتَرُونَ﴾، فدلّ ذلك على أنّ الغرور قد أخذهم، فلا أمل لهم للخلاص منه، وما ذاك إلّا أنّه قد غُرس ذلك التّديّن في نفوسهم فصار عقيدة ودينًا بديلًا عنِ الحقِّ الّذي في الكتاب، وتأصّل ذلك الغرور؛ بسبب إصرارهم على افتراءاتهم وتجدُّدها؛ فالمضارع يدلّ على التّجدُّد مع الزّمن، والتّجدّدُ يقتضي التّنوّع أيضًا، واختلاق الحجج، والأفكار الجديدة الدّاعمة لذلك الغرور.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/83، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥﴾ [آل عمران: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القاعدة العامَّة في الجـزاء أنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُوَفَّى ما كَسَبَتْ يوم القيامة

لَمَّا ذكر تعالى ما آل إليه اليهود منَ التّحريف، والتّزييف في الدّين، والمعتقداتِ الباطلةِ، وحكى عنهم اغترارهم بما هم عليه من الجهل، بيَّن أنه سيجيء يوم يزول فيه ذلك الجهل، وينكشف فيه ذلك الغرور، وَرَدَّ عليهم سبحانه بما فيه وعيدٌ لهم، ودحضٌ لمزاعمهم، وغرورهم في دين اللّه، وذلك بذكر القاعدة العامَّة في الجزاء[1]، فبيّن أنَّ كلَّ نفس ستُوفَّى جزاءَ ما كسبت يوم القيامة، فلا ظلم فيه ولا محاباة لأحد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَيۡبَ﴾: الرَّيب والرِّيبَة: شكّ مع خوف، أو الشّكّ مع الظِّنّة والتُّهمة بما يُزعِجُ ويَسوءُ، رابني الأَمرُ يَريبُني: أدخل عليَّ شكًّا وخوفًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾ [هود: 110]. ورَيبُ الدّهر: صروفه وتقلُّباتُه، وسُمِّيَ ريبًا؛ لأنّ الإنسان أبدًا في ريب المنون من جهة وقته، لا من جهة كونه، لَمَا يتوهّم فيه منَ المكر من حيث تشكُّكه في وقتِ حُصوله[2].

والمعنى هنا: لا شكَّ في وقوعه.

2) ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾: الوفاء والوفاة: إكمالُ الشّيء وإتمامه، أو: زيادة يبلغ بها الشّيءُ تمامَه. يقال: وَفَى يَفِي، ووَفَّى يُوَفِّي، وأَوفَى يُوفي. وَفَّاهُ حقَّه: أي: أعطاه تامًّا وافِيًا. واستَوفى حقَّه: أخذه تامًّا وافيًا.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/180، والموصلّي، أولى ما قيل في آيات التّنزيل: 2/457.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).

وتَوَفَّاه اللّه، أي: قبض روحه، والتَّوَفّي والوفاة: الموتُ، وهو استيفاء الأرواح ما كُتب لها في الدّنيا باستعادة اللّه تعالى إيّاها بعد استيفائها ذلك، وسُمِّي الموت وفاة؛ لأَنَّ الحيّ لا يموت إلّا بعد أن يستوفيَ أجلَه ورزقَه. ووفّى بدَيْنِه: أدّاه وسدّده، ووفَّى بالوعد وَفاءً وأَوفى به: حافظ عليه، وعمل به، أتمّه وأنجزه، والوفاء ضدُّ الغدر[1]. والمعنى هنا: وجُوزِيَتْ.

3) ﴿كَسَبَتۡ﴾: الكَسْب: ابتغاءُ شيء، وطَلَبه، وإِصابَته، ومنه: الكَسْب: طَلَبُ الرّزق، وأصله: جَمْع الشّيء، وتحصيلُه شيئًا بعد شيء بجُهدٍ ما أخذًا من حيث كان، ويكون في الخير والشّرّ، والسّياق يحدّد المقصود، وسياق هذه الآية في الوعيد[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يحكي اللّه ما سيكون عليه حالُ اليهودِ وأحبارِهم من عذابٍ إذا جمعهم في يوم الجزاءِ ليحاسَبوا على سوءِ معتقدهم وشنيعِ أفعالهم في يوم لا شكَّ في وقوعه، وهو يوم القيامة، وأخذ كلُّ واحدٍ جزاءَ ما اكتسب منَ الحسنات والسّيّئات، وهم لا يظلمون شيئًا؛ إذ ظهر من أعمالِهم ما يبيِّنُ أنهم من أشدِّ الناسِ عذابًا.

وفي الآية تهديد لهم، ووعيد، وتخويف من مآلهم يوم القيامة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾:

خرج إلى معنى التّعجيب، والتّهديد، والتّفظيع، والتّهويل

ما احتواه النّظم الحكيم في هذه الآية مراد به التّعجيب من حال اليهود وتكذيبهم في قولهم، وتهويل ما سيحلّ بهم، وتهديدهم وتهديد كلّ مَن حاربَ اللّه ورسولَهُ وكفرَ، فالاستفهام هنا مستعمل مجازًا في التّعجيب، والتّهديد، والتّهويل، والتّفظيع؛ إذ صاروا إلى عذابٍ سيدهمهم في قضاء يوم وجزائه، لا حِيلة لهم في دفعه أو الخلاص منه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/203، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

والتّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ لحتميّة يوم القيامة، و﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ توكيد لمعنى ﴿إِذَا﴾، وهو تحقيق الوقوع[1].

سرُّ العدول عن (بعثناهم) إلى ﴿جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾:

عدل عن (بعثناهم) إلى ﴿جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾؛ لتفظيع حالهم من جهة، وللتَّوسُّع في الدّلالة من جهة أخرى؛ فيحتمل الجمع حال البعث، أي: ركّبنَا أجسادَهُم من مكوّناتِها، وجمعنَا الأنفُسَ والأرواحَ إلى أجسادها، أي: جمعنا أجزاءَهم، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، فيكون عطفًا للخاصّ على العامّ، ويحتمل جمعنا الّذين يحملون هذا الفكر بعضهم إلى بعض يوم القيامة في صعيد واحد، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، فيكون عطفًا للعامّ على الخاصّ.

وفي التعبير بقوله: ﴿جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ دلالة على القهر، وإشارة إلى أنَّ جزاءهم من جنس عملهم، فقد دُعُوا من قبلُ؛ ليجتمعوا على كلمة سواء، ليؤمنوا بكتاب اللّه؛ ليحكم بينهم، فكان ردُّهم التولِّي والإعراض؛ فلمَّا رفضوا الاجتماع بالاختيار، عوقبوا بقهرهم على الجمع للحساب، وهم لا يُظلمون.

وقال: ﴿جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ بضمير العظمة، ولم يقل: جمعهم اللّه أو جُمعوا؛ لبيان القدرة على ذلك، وهيمنة القائل سبحانه، أي: أتينا بهم جميعًا، فلا مفرّ لأحدٍ منهم من ذلك الجَمع، فناسبَ ضميرُ الجمع فعلَ الجمع.

بلاغة الكناية في ﴿لِيَوۡمٖ﴾:

اليوم مقدار نسبيّ، وهو بمعنى المُدّة والوقت

قوله: ﴿لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ كنايةٌ عن موصوفٍ، وهو يوم القيامة، ويوم القيامة مختلف عن أيّام الدّنيا في المدّة والمقدار والصّفات، وفائدةُ هذه الكناية الرّدّ على أفكارهم ومُعتقداتهم الّتي افتروها؛ إذِ انتقل من جمع الأيّام في ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ إلى مفرد في ﴿لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ لبيان أنّ مقدار اليوم عند اللّه ليس كمقداره عند النّاس، فإذا كانَت مدّة عذابهم كما يدّعون ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾، وليست يومًا واحدًا، فكم سيكون تعدادُها عند اللّه؟!.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/84، والآلوسّي، روح المعاني: 2/108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/159.

دلالة النّفي في قوله: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾:

متضمّن لبيان الأمر

النّفي متضمّن للطّلب، أي: لا ترتابوا فيه، أو على بابه، والمعنى: لا ريب فيه عند المؤمن، أو عند المُخبَرِ عنه، أو حين يجمَعُهم، وفي العبارة إشعارٌ بأنّهم الآن في ريبٍ من مجيء ذلك اليوم، أو أنَّهُم كما قالوا: في مأمَنٍ من عذاب ذلك اليوم، فيكونُ فيه تعريضٌ بهم[1].

وَوَصْفُ ﴿لِيَوۡمٍ﴾ بأنّه ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ مُشعِرٌ بأنّهُم غير مطمئنّين في باطلهم، بمنزلة الّذي لم يكن له كتاب أصلًا، إذِ المقصود بالجمع الجزاء[2].

سرُّ العدول عن (ووفَّيناهم) أو (ووفّاهم الله) إلى ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾:

انتقل الخطاب منَ المتكلّم ﴿جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ إلى البناء لَمَا لم يُسَمّ فاعله؛ لدلالة سرعة الحساب، وسهولة ذلك عليه، وأشار إلى أنّ الجزاء أمر متحقّق لا بدّ منه بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾، وأشار إلى سهولة ذلك عليه بالبناء لَمَا لم يُسَمّ فاعله، وأشار إلى دناءة النّفوس، وضعفها بتأنيث الفعل[3].

دلالة العطف بـ (الواو) دون (ثمّ) في قوله: ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾:

مـن مـات فقد قامت قيامته، ووفّي عمله

وهو الأَوْلى في مقام التّهديد والوعيد؛ ليُدلّل على أنّ كلّ إنسان رهين بما كسب، وأنّ حسابه موفًّى إليه لحظة موته، لذا أتبع ﴿جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ بـ ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾، وجعلهما في سياق واحد، بعد قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]؛ ليكون بمثابة ردّ العجُز على الصّدر؛ لدلالته على سرعة إيفاء الأعمال.

بلاغة التّعبير بالنّفس في مجال الحساب والجزاء:

جاء الجزاء مخصوصًا بالنّفس، فهي الّتي توفّى ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/90.
(2) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحِراليّ: 3/90.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50.

﴿نَفۡسٖ﴾؛ لأنّ دأبها أن تَنفُسَ فتريد، وتختار، وتحبّ، وتكره، ولذلك اختصّ وعيدُ القرآنِ كلُّه بالنّفس في نفاستها[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

لَمّا كان الجزاءُ شاملًا للخير والشّرّ قال ﴿مَّا﴾، أي: جزاء كلّ ما كسبت، وراعى معنى ﴿كُلُّ﴾ للوفاء بالمعنى.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، أي: لا يقع عليهم ظلم بزيادة ولا نقص[2].

بلاغة الحذف في الآية:

تقدير الآية: (فكيف إذا جمعناهم خاصّة ليوم لا ريب فيه، وجمعنا الأنفس كلّها، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، ووفّوا هم خاصّة ما كسبوا، وكلّ الأنفس لا تُظلَم، وهم لا يُظلمون)، ومن بلاغة ذكر المذكور، وحذف المحذوف؛ أنّه مايَزَ بين المُخاطبينَ منَ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وهم طائفةٌ منَ اليهود، وبين النّاس جميعًا؛ لبيان فظاعة ما يقترفون من رفض رسالته ﷺ مع ما علموه منَ الحقّ في كُتُبهم، وردّ قبول الاحتكام إلى كتابهم لَمَا علمُوه من تصديقه لرسالته ﷺ، ثمّ مايَزَ في توفيَة الجزاء للأنفُس كلِّها بما كسبت، وتَوفِيَتِهم هم حسابَهم على ما اقترفوه بما كسبوا، وأنّهم لا يُظلمون جميعًا، ورحمة الله على الأنفُس عظيمة دونهم؛ إذ بتمييزهم هذا عنِ النّاس بقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، أي: يأخذون حقّهم تامًّا دون ظلم، ودون ما يصيب الأنفس من رحمته سبحانه من تجاوزٍ وتخفيفٍ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبر تعالى أنَّ الكُفَّار سيُغْلبون، وأنّه ليسَ لهم من ناصرين، كان حالُهم مقتضيًا أن يقولوا: كيفَ ونحنُ كثير، فيكف نُغْلَب؟ أم كيف لا يَنْصُر بعضُنا بعضًا، وفينا الملوك، والأمراء، والأكابر، والرؤساء، وعدوُّنا قليل وضعيف؟ فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَنزِعُ﴾: النَّزْع: اقتلاعُ شيءٍ بجَذب قويٍّ له ممَّا يلتحم به، أو ينغمس فيه، فيفصله عنه، حسًّا كان أو معنى، ومن الحسيِّ قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾ [المعارج: 16]، ومنَ الجذب المعنويّ تجريدًا ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾. والمنازعة في الخصومة: مجاذَبة؛ فكلّ واحد يريد أن يقتلع أمرًا من يد صاحبه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ﴾ [النساء: 59]، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ [طه: 62]، وسُمّي الشَّوق نَزَّاعًا ونزوعًا؛ لما تُصوّر في ذلك أنّ المحبوب ينزع قلب المحبّ منه، ونَزَع إلى الشّيء، اشتاقَ، ونَزَعَ عنه، كفَّ عنه. وقيل للغريب: نزيع؛ لكونه منزوعًا عن وطنه، أو لكونه نازعًا إليه، أي: مشتاقًا، والمعنى هنا: تَسْلُبُ[2].

2) ﴿وَتُعِزُّ﴾: العِزُّ والعَزُّ: شدَّةٌ وقُوَّةٌ وغَلَبَةٌ وقَهرٌ، أو: شدَّةُ تماسك الشّيء وصلابته التّامّة، والعِزَّة: الشّدّة والقوّة والامتناع، والعَزِيز: القويّ الشّديد الغالب الّذي لا يُغلَب ولا يُقهَر، والعِزُّ: خلاف الذُّلّ. والعِزُّ والعِزَّة: الرِّفعَة والامتناع، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصّلت: 41 - 42]؛ أي: حُفِظَ، وعَزَّ من أن يَلحَقَه شيءٌ من الباطل من أي ناحية من نواحيه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/52.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/488، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزّ)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزز).

3) ﴿وَتُذِلُّ﴾: الذُّلُّ: اللِّين، والخضوع، والاستكانة، وأصله لين ورخاوة تؤدِّي إلى انخفاض الشّيء، فيقرب ويتيسّر التّعامل معه، كالطّريق المذلّل: أَذهَبَت كثرةُ وطِئه، والسّير فيه وُعُورَتَه. والذُّلّ: الرّفق والرّحمة، فإن قُصِدَ بغير إلجاءٍ قهريّ يُعجِز فهو خفض جناح، ولين جانب، ورفق، ورحمة، وضدّه الصّعوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، وإن كان عن عجز ووقوع تحت قهر لا فَكاك منه فهو ذَهاب الشُّموخ، وهو ضعف كذلك؛ لأنّه رخاوة، وانخفاض، وعجز عنِ التّماسك، والارتفاع، وضدّه العزّ، ومنه ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشّورى: 45]، فهو ذلّ قهر، وانخفاض، وضعف، وعدم تماسك[1].

والمعنى هنا: وتَجْعلُ المَهانةَ والخضوع والاستكانة.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قل أيُّها النّبيُّ ﷺ متوجّهًا إلى ربّك بالدُّعاء، ولكلٍّ من يتّأتى له الخطاب من المؤمنين: يا الله، يا مَن لك الملك كلُّه مِلكًا وتصرّفًا، أنتَ الّذي تمنحُ المُلك، والمال، والتّمكين في الأرض مَن تشاء مِن خَلْقك، وتَسْلبُ المُلك بقوّة وشدّة ممّن تشاء من أيِّ مَخْلوق مهما بلغت سَعَة مُلْكه، وتهب العزّة في الدّنيا والآخرة مَن تشاء، وتجعل الذّلّة على من تشاء، أنتَ وحدَك الذي تملكُ الخيرَ كلَّه، وتتصرفُ فيه حسَبَ إرادتك ومشيئتِك، إنّك وحدك على كلّ شيء قدير.

وفي الآية إثباتٌ لصفة اليد للّه تعالى على ما يليق به سبحانه وتعالى[2].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تعدّدَت أساليب الخطاب في القرآن الكريم، وتنوّعَت بحسب المَواقِف ومُقتضَى الحال

ما كان في القرآن لإصلاحِ ما بين الخلق وربّهم، يجيء الخطاب فيه منَ اللّه تعالى إليهم مواجهَة، وما كان لإصلاح ما بين النّاس والنّبيّ ﷺ يجري اللّه الخطاب فيه على لسانه، فإذا قالوا قولًا يقصدون الرّسول به قال اللّه ﷻ: ﴿قُلِ﴾، أي: قل لهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة (ذل)، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ذلل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذل، ذلذل).
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

ولكون القرآن مَتْلُوًّا ثبتت فيه كلمة ﴿قُلِ﴾، ولعلوِّ منزلة هذه السّورة؛ كثُر الإقبالُ فيها بالخطاب على النّبيّ ﷺ[1].

بلاغة ذكر البيان والخاصّ بعد الإجمال والعموم معَ الإيجاز:

إطلاقُ (الملك) على جميع ما يؤتي الله عباده من فضله

في ﴿مَلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ عمومٌ يشمل جميع ما يؤتيه اللّهُ عبادَه من فضله، منَ النّبوّة، والسّلطان، والغلبة، والمال، والعبيد، وغير ذلك، وفيه كذلك جناسٌ، وإجمالٌ، وفي ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ﴾ وما بعده نوع تفصيل له، ومن بلاغة الإجمال بقاء عموم المعنى في المجمل، أي: مالِكَ المُلكِ كلّه بجميع معانيه، لا يملك أحد غيرك منه شيئًا، تَملِكُ جنس الملك، فتتصرف فيه تصرّف الملاّك فيما يملكون، من إعطائه، ومنعه، وتوزيعه، وتوسيعه، وتضييقه، وغير ذلك، فتعطي من شئت قسمًا منَ الملك، وتنزع ممّن شئت قسمًا منه، و﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾ بضمِّ الميم نوعٌ منَ المِلكِ بكسرها، فالمِلكُ بالكسر جنس، والمُلكُ بالضّمّ نوع منه، وهو أعلى أنواعه[2].

دلالة التعبير بالإيتاء في قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾:

نَيلُ المُلك من الله وحده لمن يشاء

في التّعبير بالإيتاء إشعار بأنّه تنويل منَ اللّه من غير استحقاق بقوّة، وغلبة، ونحوهما، وفيه إشعار أيضًا بأنّ الملك يناله أهله، وغير أهله، وفي الآية معنى المناوبة، ودوران الملك بين خلقه[3].

الاستعارات التّمثيليّة في الآية الكريمة:

تضمَّنتِ الآية جملة منَ الاستعارات التّمثيليّة، كلّها تصلح أن تكون تمثيلًا لحالات يمرّ النّاس بأمثالها، فيذكرون قول اللّه تعالى هذا، وكأنّه قد نزل مُفسِّرًا لأحوالهم، وذلك من عظيم بلاغة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/52.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/416، والزّمخشري، الكشّاف: 1/378، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/55، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/85، 86، والبقاعيّ، نظم الدّرر 2/52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط 3/90، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/52.

القرآن، ففي قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ استعارتان تمثيليّتان، تعطي منه ما تشاء مَن تشاء، وتستردّ منه ما تشاء ممّن تشاء، فالملك الأوّل في قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ عامٌّ؛ والمُلكان الآخران بعضان منه[1].

يُستعارُ النّزع لإزالة الصّفات والمعاني:

الـــدلالـــة على القهر والقوة

واستعير النّزع بما فيه من إزالة الجِرْم من مكانه بقوّة لإزالة الصّفات والمعاني على سبيل الاستعارة المكنيّة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43] بتشبيه المعنى المتمكّن بالذّات المتّصلة بالمكان، وتشبيه إزالته بالنّزع، ومنه قوله هنا: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾؛ أي: تزيل وصف الملك ممّن تشاء، وفي كلمة النّزع بما ينبئَ عنه منَ البطش والقوّة ما يقابل معنى الإيتاء، وفي تقديم الإيتاء على النّزع إشارة إلى أنّ الدّاعيّ ينبغي أن يبدأ بالتّرغيب، وفي ذلك معنى التّفاؤل والخير[2].

الاستعارة التّمثيليّة في قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾:

وكذلك قوله ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ في الدّنيا أو في الآخرة، أو فيهما معًا بالنّصر، والإدبار، والتّوفيق، والخذلان، والّذي يقع به العزّ والذّلّ مسكوت عنه[3]، وفيه إشارة إلى كثرة أسباب العزّ والذلّ، واختلاف أسبابهما عن معايير البشر؛ فقد يكون إيتاءُ الملك سببًا للذلّ، وقد يكون نزعُ الملك سببًا للعزّ؛ ولا غَرْوَ فقد يُصبح السَّلبُ عينَ العطاء، وقد يُمسي العطاءُ عينَ السَّلب، فكم من مُسْتَدْرَجٍ بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثّناء عليه، وكم من مغرورٍ بالستر عليه، كما قال الحسن البصري.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/378، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/86.

الاستعارة التّمثيليّة في قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾:

في قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ مجاز على طريقة الاستعارة التّمثيليّة؛ فهو تمثيل للتّصرف في الأمر؛ لأنّ المتصرّف يكون أقوى تصرّفه بوضع شيءٍ بيده.

وفي قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ مجازٌ آخر على أحد الأقوال؛ إذ إنّ اليد هنا بمعنى القدرة، فبقدرتك يقع الخير، فهو مجاز مُرسَل علاقته المُسببيّة، ويمكن اعتبار التّركيب: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ كناية عنِ القدرة الشّاملة المطلقة، وقد جاء قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ توكيدًا لمَا قبله، فهو من قبيل ردّ العَجُزِ على الصّدر[1].

والمالك له التّصرّف المُطلَق فيما يملكه، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾، أي: تملك الخير كلّه والشّرّ كلّه، وتتصرّف فيهما متى تشاء، وكيف تشاء[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

أتتِ الجمل في الآية تامّة دون حذف تقابليّ، مع إمكان الإيجاز بالحذف (احتباك) على خلاف الآية السّابقة في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾، إذ كان بالإمكان أن تُوجز الآية فيُقال: (تؤتي المُلك مَن تشاء، وتذلّ مَن تشاء) على طريقة الاحتباك كسابقتها، فيُعلم المحذوف منها، ويكون المعنى واضحًا؛ وذلك لأنّ الآية السّابقة دار موضوعها حول الحساب والجزاء يوم القيامة، وهذا بعيد عن عموم النّاس، فاقتضى الحذف بالاحتباك إيجازًا، وهنا أتت حكايةً عن أحوال الدّنيا من إيتاء المُلك ونزعه، وهذا مدار الاهتمام عندهم، فجاءتِ الجملة تامّة دون حذف، ولأنّ كلّ واحد من هذه الأربعة منَ الإيتاء، والنّزع، والعزّ، والذّلّ آية وحدها، فكان التّنبيه بتعديدها أبلغ.

الإيجاز بالحذف، أو الاكتفاء في قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾:

في الآيـة تعليمُ الله تعالى عبادَه الأدب في خطابه

في الآية حَذفُ المعطوف، والاكتفاء بالمعطوف عليه، والتّقدير: بيدك الخَيرُ والشَّرُّ، نحو: تقيكم الحرَّ، أي والبرد. وحذف المعطوف جائز لفهم المعنى؛ إذ أحد الضِّدَّيْنِ يفهم منه الآخر، وهو تعالى قد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55.

ذكر إيتاء الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال، وذلك خير لناس وشرٌّ لآخرين، فلذلك كان التقدير: بيدك الخير والشر.

وفي ذلك تعليم لعباده الأدب في خطابه، وترغيب لهم في الإقبال عليه، والإعراض عمّا سواه، وتنبيه على أنّ الشّرّ أهل للإعراض عن كلّ شيء من أمره، حتّى عن مجرد ذكره، وإخطاره بالبال[1].

الخير والشّرّ بين العباد أمرٌ نسبيّ، فما كان خيرًا لك قد يكون شرًّا لغيرك

لا يوجد شرّ محض إلّا ويتضمّن خيرًا، بخلاف الخير، ثمّ إنّ كلًّا منهما نسبيّ، فخير المؤمن يسوء الكافر فهو شرّ عليه، والعكس، قال تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: 120][2].

بديع اللّفّ والنّشر في الآية:

من مقاصد الدّعاء تمجيد الله تعالى، وترديد كمال قدرته في الخلق والكون

ومن بديع اللّفّ والنّشر وغريبه ما ورد في هذه الآية؛ أن يذكر متعدّدان أو أكثر، ثمّ يذكر في نشر واحد ما يكون لكلّ من أفراد كلّ منهما، فقوله تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ لفٌّ أوّل، وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ لفٌّ ثانٍ، ونشرُ هذين اللّفّين في قوله ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ على تقدير بيدك الخير والشّرّ. ويرشّح هذا المعنى أنّه نبّه على أنّ الشّرّ أيضًا بيده بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فأفهم أنّ الشّرّ بيده بعد أن أعلمَ أنّ الخير بيده، وخاصّ به، وقرّر ذلك على أعمّ وجه بقوله معلّلًا: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[3].

وفائدة هذا النّوع منَ اللّفّ والنّشر؛ بيان الامتزاج بين معاني اللّفّ الأوّل واللّفّ الثّاني، فإيتاء المُلك مناسبٌ للعزّ، ونزعه مناسبٌ للذّلّ؛ وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ يشمل ذلك كلّه.

(1) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: 3/87، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213، 214.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/488، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55.

بلاغة التّقديم:

وجاء الخير معرّفًا بـ (أل)؛ لعمومه، وشموله، واحتوائه الخير كلّه.

دلالـتـه على الحصر

و(ال) في ﴿ٱلۡخَيۡرُۖ﴾؛ للاستغراق الدّالّ على العموم، وتقديم الخبر ﴿بِيَدِكَ﴾؛ للحصر، أي: بيدك وحدك، لا بيد أحد سواك، فلا خير إلّا وهو بيدك(1).

ذكر العامّ بعد الخاصّ كالتّذييل في قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

ختمتِ الآية بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فذكر العامّ المندرج تحته الأوصاف السّابقة، وجمع كلّ خير وكلّ شرّ(2). وفي الآية: تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وتأخير ﴿قَدِيرٞ﴾؛ لدلالة إحاطة قدرته بكلّ شيء، ولم يقل: إنّك أنت على كلّ شيء قدير؛ لأنّ العلم بأنّ اللّه على كلّ شيء قدير لا يفتقر إلى تأكيد يقرّره(3).

بلاغة الطّباق بين: ﴿تُؤۡتِي﴾، و﴿تَنزِعُ﴾ و﴿وَتُعِزُّ﴾، و﴿وَتُذِلُّ﴾ و﴿ٱلۡخَيۡرُۖ﴾، و(الشّرّ):

يدلُّ على طلاقة القدرة؛ لتشمل كلَّ شيء

تعدّدت حالات طباق الإيجاب(4) في الآية الكريمة، ودلالة الطّباق فيها هو الشّمول في كلّ واحدة منها أو حالة من حالاتها، فالطّباق بين ﴿تُؤۡتِي﴾ و﴿وَتَنزِعُ﴾ يدلّ على شمول القدرة العطاء والمنع بين عباده؛ وبين ﴿وَتُعِزُّ﴾ و﴿وَتُذِلُّ﴾ يدلّ على شمول المواقف كلّها في حياة البشر والمخلوقات؛ وبين ﴿ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ و(الشّرّ) المحذوف طباق ضمنيّ يدلّ على الأحوال كلّها خيرها وشرّها مهما تعدّدت، وتنوّعت.

سرُّ تكرار قوله: ﴿ٱلۡمُلۡكَ﴾ و﴿مَن تَشَآءُ﴾:

التّكرار في قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ دالّ على دوران الأمور، وتعاقبها، وحركتها، وتداولها

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/185، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/87.
(3) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/154.
(4) وهو ما لم يختلف فيه الضّدّان إيجابًا وسلبًا، وعلي الشّحود، الخلاصة في علوم البلاغة، ص: 57.

بين النّاس عزًّا وذلًّا، صعودًا وهبوطًا، عطاءً وأخذًا، وبين الأمم والحضارات هيمنةً وانكسارًا، صعودًا وانهيارًا.

التّناسب في معاني الألفاظ بين ﴿تُؤۡتِي﴾ و﴿وَتُعِزُّ﴾، و﴿وَتَنزِعُ﴾ و﴿وَتُذِلُّ﴾:

تكرّر التّناسب في الآية الكريمة في حالتين؛ الأولى: بين ﴿تُؤۡتِي﴾ و﴿وَتُعِزُّ﴾، والثّانية: بين و﴿وَتَنزِعُ﴾ و﴿وَتُذِلُّ﴾؛ فمن آتاه اللّه مُلكًا أعزّه به، ومن نزعه عنه أذلّه، والأفعال جميعها مُضارعة لما فيها من دلالة التّجدّد مع الزّمن.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

[آل عمران: 27]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ظهر في الآية السّابقة افتراق النَّزْعِ والإيتاء، والإعزازِ والإذلال، وهما متداخلان متوالجان، العزُّ في الذّلِّ والذّلُّ في العزِّ، والإيتاءُ في النَّزع والنَّزع في الإيتاء، ذكر في هذه الآية توالج المفترقات المتقابلات منَ اللّيل والنّهار، والحيِّ والميِّت بعضها في بعض[1].

ومن وجه آخر جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ برهانًا على ما قبله من إيتاء الملك أو نزعه، أو الإعزاز أو الإذلال، وذلك ممَّا يخصُّ الحياة وتقلُّباتها على النّاس، فانتقل هنا إلى بيان قدرته على تقلُّبات الكون بين اللَّيل والنَّهار، والحيِّ والميِّت، ممِّا لم يدخل شيء منه تحت قدرة غيره، فجمعَ بذلك تفسيرَ الحياة في الآيةِ السَّابقة، وتفسيرَ الكون في هذه الآية، وجعلَهما في محطِّ قدرته وعنايته سبحانه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُولِجُ﴾: من ولَجَ يَلِجُ، فِعْلٌ يدُلُّ عَلَى دُخُولِ شَيْءٍ، فالولوجُ الدُّخولُ في مكان يُخفي، ويَستُر ما به؛ لضيقه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، أو ظلامه كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: 61]، ووَلِيجةُ الرَّجُل: بِطانَتُه وخَاصَّتُه[2].

2) ﴿وَتُخۡرِجُ﴾: الخروج: نفاذ الشّيء ممَّا يَحُوطُه، وهو نقيض الدُّخول. وناقة مُختَرِجةٌ: خرجَت على خِلْقة الجمل. والخَرجُ والخَراجُ: ما يَخرُجُ منَ المال في السَّنة بقدرٍ معلوم، وسائرُ ما في القرآن من مفرداتِ التركيبِ فهو من معنى نفاذِ الشيء من أثناء كانت تَحُوطُه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/56.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

اللهمَّ ومن أكبر الأدلة على قدرتكَ وعظمتكَ وحكمتكَ ورحمتكَ أنّك تُدخل اللّيل في النّهار، وتُدخل النّهار في اللّيل، فيطول هذا ويقصر ذاك، أو يختفي هذا ويظهر ذاك، وينشأ عن ذلك من الفصول والضِّياء والنُّور والشّمس والظِّلّ والسّكونِ والانتشارِ، وتُخرج الحيَّ منَ الميّت الّذي لا حياة فيه، كإخراج الزَّرع منَ الحبِّ، والمؤمنِ منَ الكافر، وتُخرج الميّت منَ الحيّ، كالبيضةِ من الطائر وكالنَّوى من الشَّجر، وترزق مَن تشاء من خلقك بغير عَدٍّ ولا تَضْييقٍ ولا تَقْتِيرٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرّ تقديم اللّيل والنّهار على الحيّ والميّت:

من رحمة الله أنْ خلق لنا قبل أن يخلقنا

قدّم اللّيل والنّهار على الحيّ والميّت هنا؛ لأنّ وجود الكون كان قبل وجود الحياة بكثير، ومثل ذلك قوله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصّلت: 53].

ذكر اللّيل والنّهار وتعاقبهما كأنموذج لملايين السّنن الكونيّة الّتي خلق الكون عليها

بيان لقدرته سبحانه وقيّوميّته على معاقبة اللّيل والنّهار، والموت والحياة، كقدرته معاقبة الذّلّ والعزّ، وإيتاء الملك ونزعه، فالآية دليل على سابقتها، وإيلاج اللّيل والنّهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتّعقيب، أو بالزّيادة والنّقص، أو عبّر بالإيلاج عنِ العلوّ والتّغشية، أي: تولج اللّيل في النّهار فيغطيه النّهار، وتولج النّهار في اللّيل فيغطيه اللّيل، فصيرورة كلّ واحد منهما في زمان الآخر كالولوج فيه[2].

علاقة التكوير بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل:

التّكوير والإيلاج صورتان لحدث كونيّ واحد

وهذا المعنى متوافق مع قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزّمر: 5] فيأخذ النّسق نفسه في الدّلالة على

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 53، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11 - 12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/88، 89.

الحركة والدّوران على سطح كرويّ لتكرار الإيلاج بين اللّيل والنّهار على طريقة التّكوير، فالإيلاج يقتضي التّكوير؛ لأمرين:

الأوّل: ذكر التّكوير في آية الزّمر في وصف المشهد نفسه من تعاور اللّيل والنّهار، فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزّمر: 5]، وهذا كما ذكرنا يقتضي سطحًا كرويًا، يتحرّك عليه اللّيل والنّهار، ولتحدث عملية لفّ اللّيل على النّهار، والنّهار على اللّيل.

الثّاني: التّكرار مع المُخالفة في ذكر الإيلاج بين اللّيل والنّهار، وهذا يستدعي الدّوران؛ فهو سطح كرويّ، يدور عليه اللّيل والنّهار.

سرُّ ذكر إيلاج اللّيل في النّهار قبل ذكر إخراج الحيّ منَ الميّت:

إيلاج اللّيل في النّهار والعكس ضرورة كونيّة لنشأة الحياة

فالتّعبير يدعو للتّأمل، فلولا دوران الأرض باستمرار، وتعاقب اللّيل والنّهار عليها لَمَا نشأتِ الحياة على سطح الأرض، ولمَا خرج الحيّ منَ الميّت، وهذا سرّ مناسبة ذكر تناوب الحياة بعدها.

إيثار أفعال المضارع:

حركة اللّيل والنّهار كساعة كونيّة، تحسب على الإنسان لحظات حياته

ودلالة فعل المضارع ﴿تُولِجُ﴾ في الآية هي دلالة الاستمرار والتّجدّد، فإيلاج اللّيل في النّهار، وإيلاج النّهار في اللّيل مستمرّ في كلّ وقت وحين، وجملة ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ بيان ثانٍ، وهو كتعداد الجُمل في مقام الاستدلال أوِ الامتنان، ولاستحضار حالة الإيلاج تبعًا لاستحضار آثارها؛ فإنّ حالة فعل الله في إيلاج اللّيل بالنّهار غير مشاهدة، وإنّما يُشاهد أثرها، وتجدّد الأثر يدلّ على تجدّد التّأثير، وهي حركة دؤوب لا تتوقّف، ولو للحظة واحدة وفق سنّة كونيّة شاملة منذ خلق الله السّماوات والأرض.

رسم صُورة تعاور اللّيل والنّهار، ودورانهما

بلاغة الجناس المعكوس:

فنّ الجناس المعكوس متحقّق في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾.

وهذا النّوع منَ التّجنيس له حلاوة، وعليه رونق وطلاوة؛ إذ يربط بين أمرين، ويعقد بينهما أوثق الصّلات أو أشدّ ألوان النّفور.

ويحقّق فنّ الجناس المعكوس المتقابل هنا رسم الصّورة النّاشئة عن تعاور اللّيل والنّهار، ودورانهما على كوكب ذي سطح كرويّ، ثمّ ما يفترضه هذا الفنّ منَ الحركة الدّائريّة المنسجمة مع ذلك السّطح الكرويّ.

التّقابل وبلاغته:

قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ حقّق التّقابل الّذي أبرز بدوره دلالة شمول كلّ الحالات الّتي يحصل فيها الإيلاج بين اللّيل والنّهار في سائر الأيّام.

وصف تعاقب اللّيل والنّهار في الآية مجرّدًا عن ذكر الأرض؛ ليشمل كلّ الكواكب

وجاء اختيار حلقة اللّقاء بين اللّيل والنّهار بعيدًا عن ذكر الأرض أو أيّ كوكب آخر؛ ليدخل في وصف الآية الكريمة تلك المنظومات الكونيّة الّتي يتعاقب على سطح كلّ منها ليلٌ ونهارٌ، بدلالة الشّمول المتحقّقة منَ الوصف القرآنيّ المجيد.

وعلى الرّغم ممّا أدّاه فنّ الإيجاز في العبارة الكريمة إلّا أنّ التّكرار في ألفاظ العبارة يهيمن على السّياق، وهو لافت للانتباه، فاجتمع في الآية إيجاز بليغ، وتكرار كاشف، ففي قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ تكرَّرَت جميع كلمات هذه العبارة مثنىً مثنىً، وهي ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ كتكرار مسار الحركة الدّائريّة، وأفاد هذا التّكرار لجميع كلمات العبارة القرآنيّة ما أفاده فنّ التّكرار في شمول تكرار حركة اللّيل والنّهار لسائر الكواكب.

بلاغة الاحتباك في الآية:

من جمال التّعبير القرآنيّ انسجام طبائع الموصوف بطبائع الكون

وفي الآية احتباك، وتقديره: تولج اللّيل في النّهار، وتُخرج النّهار منَ اللّيل، وتولج النّهار في اللّيل، وتُخرج اللّيل منَ النّهار، فالإيلاج والإخراج متعاكسان في وصف الظّواهر الكونيّة، ويُستفاد من هذا الاحتباك معانٍ كثيرة، أبرزها: الحركة، وردُّ العَجُزِ على الصّدر.

في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾[1] دليلٌ آخر على تلك الحركة؛ إذِ انسجم الفنّ البلاغيّ معَ الظّاهرة الكونيّة نظمًا ووصفًا.

وهذا التّعبير يصوّر هذه الظّاهرة من خلال منظار آخر، ففي تلك اللّحظة الّتي يحدث إيلاج اللّيل في النّهار؛ يخرج في الوقت نفسه النّهار منَ اللّيل، هذا يحدث في نصف الكرة الأوّل، والعكسُ بالعكس بالنسبة إلى نصف الكرة الثّاني، وهكذا تستمر هذه الحركة بين اللّيل والنّهار في هذا الكون الفسيح.

بلاغة تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

وتقديم اللّيل على النّهار متوافق مع الحقيقة الشّرعيّة والعلميّة؛ من أنّ اللّيل سابق النّهار في الأحكام الشّرعيّة، وأنّ اللّيل هو الأصل، والنّهار طارئ عليه، يحدثه ضوء الشّمس، وقد اطّرد تقديم اللّيل على النّهار في جميع آيّ القرآن الّتي تصف حركة اللّيل والنّهار، وتعاقبهما.

الاستعارة والرّمزية في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

انسجام طبائع الكون مع التّاريخ يفسح المجال للتّدبّر في عظيم خلق الله وتقديره

حقيقة ﴿تُولِجُ﴾ بمعنى: تدخل، وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النّهار وظلمة اللّيل، فكأنّ أحدهما يدخل في الآخر، وفي هذا رمز إلى ما حدث في العالم من ظلمات الجهالة والإشراك، بعد أن كان النّاس على دين صحيح كدين موسى، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال الضّلالات، ولذلك ابتُدئ بقوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، ليكون الانتهاء بقوله: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾، فهو نظير التّعريض في قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾، والّذي دلّ على هذا الرّمز افتتاح الكلام بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾[2].

التّفويف[3] في بديع الآية:

في قوله تعالى ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ مثال لفن

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/90.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/214.

(3) هو أن تأتي بمعانٍ متلائمة في جمل مستوية المقدار أو مقاربة، من قولهم: «ثوب مفوف» للذي على لون وفيه خطوط بيض. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة: 1/403.

التّفويف في الجمل المتوسطة؛ حيث إنَّ هاتين الجملتين قد حوتا معانيَ شتَّى من الإنعام، والخلق، والتدبير، والقدرة، والتسخير، والقهر، وغير ذلك من الفنون والأغراض، كلُّ فنٍّ في جملة من الكلام منفصلة عن أختها بالتجميع غالباً، مع تساوي الجملتين المركبتين في الوزنية.[1]

وهذا التَّساوي ليس شكلًا فحسب، بل إنَّه ليشير من طرفٍ خفيٍّ إلى عظيم قدرة الخالق جل وعلا وبديع صُنعه، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40]

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

لمّا جعلَ المتعاقِبَين منَ اللّيل والنّهار متوالِجَين جعل المُتباطِنَين منَ الحيّ والميّت مخرجين، فما ظهر فيه الموتُ بَطنَت فيه الحياة، وما ظهرَت فيه الحياةُ بطن فيه الموت. فقال سبحانه: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ منَ النّبات والحيوان، ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ منهما حقيقة على رأي كثير منَ العلماء، أو مجازًا كإخراج المؤمن منَ الكافر، والكافر منَ المؤمن، أو إشارة إلى ظهور الهدى والمُلك في أمّة أمِّيَّة، وظهور ضلال الكُفر في أهل الكتابين، وزوال الملك من خلفهم بعد أن كان شعار سلفهم، بقرينة افتتاح الكلام بقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾، أو إشارة إلى الانتقال من طورٍ إلى طور، ومن حالة إلى حالة، والانتقال منَ النّطفة إلى الرّجولة إنّما هو تغيّر الحال، والإخراج مجاز عن تغيّر الحال، ومن تغيّر الحال أن يكون ميّتًا ثمّ يحيا، وحيًّا ثمّ يموت، أو يكون المعنى: وتخرج الحيّ ممّا لا تحلّه الحياة، وتخرج ما لا تحلّه الحياة منَ الحيّ[2].

بلاغة المطابقة والتّكميل في الآية:

استمرار التناوب بين الموت والحياة ودورانهما

وقد ترشَّحتِ المطابقةُ هنا بنوعٍ من أنواع البديع، وهو (التّكميل) مبالغة بقوله: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ المشحونة بقدرة الله سبحانه، فقد اجتمعت فيه المطابقة الحقيقيّة والعكس الّذي لا يدرك؛ لوجازته، وبلاغته، ومبالغة التّكميل الّتي لا تليق بغير قدرته،

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير: 1/262.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/418، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/89، البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/215.

والمطابقة بين الموت والحياة تعكس العلاقة المتبادلة والاستمراريّة في التّناوب بينهما كالاستمرار، والتّناوب بين اللّيل والنّهار، ودورانهما، وتعاقبهما، وتقلّبهما[1].

بلاغة التّذييل في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

إشارة إلى بشارة المسلمين بالعزّ والتمكين

بعد أن ذكر قدرته الباهرة، وحال اللّيل والنّهار في المعاقبة بينهما، وحال الحيّ والميّت في إخراج أحدهما منَ الآخر، عطف عليه رزقه بغير حساب؛ دلالة على أنّ من قَدِرَ على تلك الأفعال العظيمة المحيّرة للأفهام قادر أن يرزق مَن يشاء مِن عباده بغير حساب، فيكون قوله: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كالتّذييل لذلك كلّه. وفي هذا إيماء إلى بشارة المسلمين بما خُبِّئَ لهم من كنوز الفرس والرّوم وغيرهما[2].

الكناية في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

العطاء الواسع المتّصل

وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، أي: بغير حساب منك؛ لأنّه تعالى لا يخاف أن تنتقص خزائنه، أو: بغير حسابٍ من أحد لك؛ لأنّه تعالى لا معقّب لأمره، أو: عطاءً واسعًا خارجًا عن حدّ العدّ والحساب[3].

ولمّا بدأ الآية سبحانه بالتّرغيب بما هو محطّ أحوال الأنفس من المُلك وأنواع الخير، ختمها بمثل ذلك ممّا لا يقوم المُلك، ولا يطيب العيش إلّا به؛ فقال: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ﴾، قويًّا كان أو ضعيفًا، ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ وهي كناية عنِ العطاء الواسع، المُتّصل من غير تضييق ولا عُسر، كما فعل بأوّل هذه الأمّة على ما كانوا فيه منَ القلّة والضّعف، فأباد بهم الأكاسرة والقياصرة وآتاهم كنوزهم[4].

(1) الحمويّ، خزانة الأدب: 1/160.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/215.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/418.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/57.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر تعالى ما عليه اليهود، وأهل الكتاب عمومًا من معاندة الرّسول ﷺ ذكر ما يجب على المؤمنين من تعظيم اللّه تعالى، والثّناء عليه بالأفعال الّتي يختصُّ بها، وذكر ما يجب على المؤمن من معاملة الخلق.

ولمّا كانتِ الآيات السّابقة في الكفّار، نُهي المؤمنون عن موالاتهم، وأُمروا بالرَّغبة فيما عنده وعند أوليائه دون أعدائه، إذ هو تعالى مالك المُلك، فهذه كالنّتيجة لما تقدَّمها، وبعد ما بيّن لهم بَغْيَ المخالِفين وإعراضَهم، وأنّهم سفَّهوا الدِّين، نهى المؤمنين أن يتّخذوا الكفّار أولياء من دون المؤمنين؛ لأنَّ اتِّخاذهم أولياء، بعد ذلك يعَدُّ ضعفًا في الدِّين، وتصويبًا للمعتدين.

ولَمَّا بان بهذه الآية أن لا شيء في يد غيره، واقتضى ذلك قَصْر الهمم عليه، وكان نصارى نجران يداومون على موالاة ملوك الرّوم لمحض الدّنيا مع العلم ببطلان ما هم عليه حذَّر المؤمنين من فِعلِ مثل ذلك؛ لأنّهم مؤمنون، وبعد أن بيَّن سبحانه إحاطة علمه بالكون كلّه، وذكر مسألتي اللّيل والنّهار، والحياةَ والموت، وتعلّقهما بتفسير الكون والحياة، وارتباطهما بأسرار الوجود، وأظهر جانب القدرة فيهما؛ التفتَ إلى ما تخفيه القلوب من أسرار الحبِّ والبُغض، والموالاة والمعاداة؛ فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: الوَلْيُ والتَّولِّي: قُربُ شيءٍ من شيءٍ ولُزُومُه تبعًا له، إقبالًا أو إدبارًا،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/57، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/215.

وأكثر استعماله في الإقبال، كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 144]، ومنه هذه الآية، ولا يدلُّ على الإعراض والإدبار والبعد إلَّا إذا عُدِّيَ بـ (عن)، أو دلّ السّياق على ذلك، يُقالُ: تَوَلَّى عنه، أي: أَعرَضَ. ووَلَّى هاربًا، أي: أدبر[1].

والمعنى هنا: أنصارًا.

2) ﴿تَتَّقُواْ﴾، ﴿تُقَىٰةًۗ﴾: الوِقاية: دَفعُ شيءٍ عن شيءٍ بغيره، أو: حفظُ الشّيء ممَّا يؤذيه ويضرُّه؛ باتّخاذ حاجز دونه. وَقاه يَقيه وقاية: حفظه، وصانه، ومنعه منَ الضّرر والأذى. واتّقى الشّيء: جعل بينه وبينه وقاية[2].

وأصلُ تُقاة: (وُقَيَة) مصدرٌ على فُعَل من الوِقاية، ثم أُبْدلت الواوُ تاءً، ومثلُها تُخَمة وتُكَاة وتُجاه، وتَحَرَّكت الواوُ وانفتحَ ما قبلَها فَقُلِبت ألفاً، فصارَ اللفظُ ﴿تُقَىٰةًۗ﴾، ووزنُها فُعَلة، ومجيءُ المصدرِ على فُعَل وفُعَلة قليلٌ، نحو: التُّخَمة والتُّهَمة والتُّؤَدة، والتَّقوى والتُّقاة والتَّقيَّة: الحَذَر[3].

3) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: الحَذَرُ والحِذْرُ: التَّحرُّز والتَّيقُّظ، أو: تَوَتُّر مع احتراز وتيقُّظ بسبب خوف. ورجلٌ حَذِرٌ وحاذِرٌ: مُتَأَهِّبٌ مُعِدٌّ مُتيقِّظٌ شديدُ الحذر بسبب خوف أو فَزَع، كأَنَّه يَحذَرُ أَن يفاجأَ. و﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ [البقرة: 19] أي: تحرُّزًا منَ الموت أو اتّقاءه. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28، 30]: يخوّفكم اللّه من نفسه أن تركبوا معاصيه، والأصل: ينبّهكم اللّه أن تتحرّزوا من عقابه بطاعته فيما أمر ونهى حيث المصير إليه؛ إذِ التّنبيه إلى التّحرّز ممّا يوجب العقوبة أنسب وأولى بالرّؤوف، بينما التّخويف يباعِدُ الرّأفة[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينهى اللّه المؤمنين أن يتخِذوا الكافرين أولياءَ بالمحبَّة، والعَون، والنُّصرة والاستعانة من دون المؤمنين، ومَن يتولّهم فقد برِئَ منَ اللّه، واللّه بريءٌ منه؛ لأنَّ موالاةَ الكافرين لا تجتمعُ مع الإيمان، إذ الإيمانُ يأمر بموالاة اللّهِ وموالاةِ أوليائه المؤمنين، والموالاةُ الممنوعة

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقى).

(3) عيّاض، مشارق الأنوار: (وقى)، والسمين، الدر المصون: 3/110.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حذر).

هي التي يكون فيها خِذلانٌ للدِّين، أو إيذاءٌ لأهله، أو إضاعةٌ لمصالحهم، وأمَّا ما عدا ذلك كالتجارة وغيرِها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا تدخلُ في ذلك النَّهي؛ لأنها ليست معاملةً فيها أذىً للإسلام والمسلمين، إلّا أن تكونوا ضِعافًا خائفين، فقد رخَّص اللّه لكم في مهادنتهم اتّقاءً لشرّهم، حتّى تقوى شوكتُكم، ويحذّركم اللّه نفسه، وغضبه، وعقوبته، فاتّقوه، وخافوه، ولا تتعرضوا لسَخَطه بارتكاب المعاصي، وإلى اللّه وحده رجوعُ الخلائق للحساب والجزاء[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة النّهي، وترجيحه على النّفي:

النّهي عنِ اتّخاذ المؤمنين الكافرين أولياء إنّما هو فيما يظهره المرء، ولفظ الآية عامّ، وقد جاء النّهي عن ذلك مع وصف المنهيين بالإيمان، أمّا أن يتّخذ ذلك بقلبه ونيّته فلا يفعل ذلك مؤمن، والمحبّة في اللّه والبغض في اللّه أصل عظيم من أصول الدّين، وقرأ الجمهور: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ على النّهي. وقرأ الضّبيّ برفع الذّال على النّفي، والمراد به النّهي، فنُهُوا عن موالاتهم، وإظهار اللّطف لهم، والميل إليهم، والاستعانة بهم في الغزو، وسائر الأمور الدّينيّة؛ بسبب قرابة أو صداقة جاهليّة أو يد سابقة أو نحو ذلك، حتّى لا يكون حبّهم وبغضهم إلّا في اللّه، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية.[2]

دلالة لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الآية الكريمة:

دلَّ لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هنا على ظاهر الكفر، مُعْلِنَ العداوة في الدِّين؛ حتَّى لا يؤخذ أحد بالظَّن، أو يُقْطَعَ وَصْلُه بالتُّهَمَة، وقد شاع في اصطلاح القرآن إطلاق وصف الكفر والكافرين والّذين كفروا على الشّرك والمشركين، ولعلّ تعليق النّهي عنِ الاتّخاذ بالكافرين بهذا المعنى هنا؛ لأنّ المشركين هم الّذين كان بينهم وبين المهاجرين صلات، وأنساب، ومودّات، ومخالطات، فكانوا بِمَظِنّة الموالاة مع بعضهم، وقد علم كلّ سامع أنّ من يشابه المشركين في موقفه تجاه الإسلام يكون تولّي المؤمنين إيّاه كتولّيهم المشركين، وقد يكون

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/205، ورشيد رضا، المنار: 3/278، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 53، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 53.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/91.

المراد بالكافرين جميع المخالفين في الدّين، مثل قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19][(1)].

دلالة قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

شخصية المؤمن تقتضي الوضوح، وتطرد النّفاق والتّقلّب بحسب المصالح والأهواء

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنّهم الأحقّاء بالموالاة، وأنّ في موالاتهم مندوحةً عن موالاة الكفرة، وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ﴾ عبارة عن كون الشّيء الّذي تضاف إليه (دُون) غائبًا متنحّيًا حقيرًا ليس منَ الأمر الأوّل في شيءٍ من صفاته العالية ودرجاته الرفيعة، وهو تقييد للنّهي بحسب الظّاهر؛ لبيان شناعة ما يقوم به من يفعل ذلك، فيُذكّره أنّه من جماعة المؤمنين، فلا يترك جماعتهم، ويشذّ باتّخاذ جماعة الكافرين أولياء، فيكون المنهيّ عنه اتّخاذهم أولياء، عندما يكون في تولّي الكافرين إضرار بالمؤمنين[(2)].

وفي قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إطناب؛ أفاد الإيغالَ في ضرورة الالتزام بجماعة المؤمنين، وهم الصّحابة رضي الله عنهم، ومن سار على هديهم من بعدهم، واقتدى بهم.

المبالغة في ترك الموالاة:

تكشف الآية الكريمة عن خطورة أمر الموالاة، فلا تكون إلّا للمؤمن

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ يدلّ على المبالغة في ترك الموالاة؛ إذْ نفى عن متولّيهم أن يكون في شيء منَ اللّه، أي: فليس من ولاية اللّه في شيء، أو من دينه، أو من عبادته، أو من حزبه.

نفى ولاية اللّه عَمَّن اتّخذ عدوّه وليًّا؛ لأنّ الولايتين متنافيتان، والعرب تقول: أنت منّي وأنا منك، في معنى شدّة الاتصال حتّى كأنّ أحدهما جزء منَ الآخر، ويقولون في الانفصال والقطيعة: لستُ منك ولستَ منّي، وفي قوله: ﴿فِي شَيۡءٍ﴾ تصريح بعموم النّفي في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/216.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

جميع الأحوال؛ لرفع احتمال تأويل نفي الاتّصال بأغلب الأحوال، فتكون العبارة كناية للانقطاع عنِ الانتماء إلى اللّه، وهذا ينادي على أنّ المنهي عنه هنا ضرب من ضروب الكفر، وهو الحال الّتي كان عليها المنافقون، وكانوا يظنّون ترويجها على المؤمنين، ففضحهم اللّه تعالى، ولذلك قِيل: إنّ هذه الآية نزلت في المنافقين، والتّقدير: فمن تولّاهم، وكّل إليهم، وكان في عدادهم؛ لأنّه ليس منَ الرّاسخين في صفة الإيمان، وعطف عليه ترهيبًا قوله: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾، ومفهومه أنّ من تمسّك بولاية المؤمنين فهو منَ اللّه في شيء[1].

الحذف في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾:

دعوة المؤمن إلى النظر في جميع أعماله؛ لتكون كلُّها في رضا الله

قوله: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ معناه: في شيء مَرضيّ على الكمال والصّواب، وفائدة هذا الحذف؛ فسح المساحة للمؤمن أن يفكّر أيّ شيء يمكن أن يوصله باللّه، فيكون معه في شيء؛ ومن تورّط في موالاة الكافرين من دون المؤمنين فتظهر له شناعة فعلته، ويتراجع إلى فعل الصّواب، وكأنّ الآية تقول له: إمّا أن توالي اللّه، وإمّا أن توالي الكافرين، فإن واليتَ الكافرين فلستَ منَ اللّه في شيء.[2]

الاستثناء والاحتراس في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾:

حالات نادرة تلك الّتي يقبلها الشّرع في موالاة غير المؤمنين

ولخطورة ذلك الفعل والتّهديد الّذي جاء معه، فقد استثنى حالة إظهار الموالاة للكافرين بشرط اتّقاء ضرّهم أو أذاهم، وجاء الاستثناء احتراسًا من إطلاق النّهي؛ لأنّ أصل القيود أن تكون للاحتراز. والاستثناء في ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ﴾ منقطع ناشئ عن جملة ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾؛ لأنّ الاتّقاء ليس ممّا تضمّنه اسم الإشارة، ولكنّه أشبه الولاية في المعاملة، فأباح اللّه إظهار اتّخاذهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/58 - 59، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/216 - 217.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419.

بشرط الاتّقاء، والاتّقاء: تجنّب المكروه، وقال: ﴿تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ﴾ دون: تتّقوهم؛ إمّا لأنّ الاتّقاء تَسَتُّرٌ فعدّي بـ (مِن) كما يعدّى فعل تستّر، وإمّا لتضمينه معنى تخافوا[1].

التّوكيد بالمفعول المطلق في قوله: ﴿تُقَىٰةٗ﴾:

تضييق حالة التقيَّة والتحقُّق منها؛ حتى لا تستشري فتكون موالاة

وفائدة التّأكيد بالمفعول المطلق هنا الإشارة إلى تحقّق كون الحالة حالة تقيّة، وهذا مثل الحال التّي كان عليها المستضعفون منَ المؤمنين ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: 106]. وكذلك يجب أن تكون التّقاة غير دائمة؛ لأنّها إذا طالت دخل الكفر في الذّراريّ.

وقرأ الجمهور ﴿تُقَىٰةٗ﴾، وقرأ يعقوب: ﴿تَقِيَّةً﴾ بفتح التّاء وشدّ الياء على وزن فعيلة، وذهب جمهور المفسّرين إلى أنّ معنى الآية: إلّا أن تخافوا منهم خوفًا، وهذا هو معنى التّقيّة[2]، وبين ﴿تَتَّقُواْ﴾ و﴿تُقَىٰةٗ﴾ جناس الاشتقاق.

الالتفات في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ﴾:

في العبارة التفات؛ لأنّه خرج منَ الغيبة إلى الخطاب، ولو جاء على نظم الأوّل لقال: إلّا أن يتّقوا، وهذا النّوع في غاية الفصاحة؛ لأنّه لمّا نهى المؤمنين عن فعل ما لا يجوز جعل ذلك في اسم غائب، فلم يواجَهوا بالنّهي، ولمّا وقعتِ المسامحة والإذن في بعض ذلك، وجّهوا بذلك إيذانًا بلطف اللّه بهم، وتشريفًا بخطابه إيّاهم[3].

سرُّ الحمل على لفظ ﴿وَمَن﴾ مرة، وعلى معناه أخرى:

الحمل على اللفظ للتقليل، وعلى المعنى للتكثير

وفيه تنوّع آخر بديع؛ حيث انتقل من ﴿يَفۡعَلۡ﴾ بالإفراد؛ حملًا على لفظ ﴿وَمَن﴾، إلى الجمع ﴿تَتَّقُواْ﴾؛ حملًا على معنى الجمع؛ والسرُّ في ذلك أنَّه ذكر الإفراد في حالة الفعل بلا تقيّة، تقليلًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/220.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/221.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/94.

له، وذكر الجمع في حالة الفعل مع التّقيّة، تكثيرًا وقبولًا، وهذا من رحمته سبحانه إذِ استثنى الكثير منَ القليل، فاستثنى حالة التّقيّة الّتي يضطر إليها المؤمنون أحيانًا في أحوالهم الحياتيّة.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾، وبلاغة الإيغال في التّحذير في ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾:

من شغل نفسه بالخير فقد أمن مِـن أن تشغله بالباطل

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ التّحذير هنا كناية عن مجاوزة حدود اللّه، فلا تتعرّضوا لسخطه بمخالفة أحكامه، وموالاة أعدائه، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي النّهي في القبح، وذكر النّفس ليعلم أنّ المُحذّر منه عقاب يصدر منه تعالى، فلا يؤبه دونه بما يحذر منَ الكفرة(1). وأطنب بذكر النّفس؛ إيغالًا في التّحذير من هذا الحال الّذي يمكن أن يأخذ صاحبه شيئًا فشيئًا؛ ليصبح في عداد الكافرين الّذين يحادّون اللّه ورسوله، فجاء التّحذير بهذه الشّدّة حرصًا على المؤمن؛ ليبقى في دائرة الإيمان مع جماعة المؤمنين، والآية وعيد وتنبيه ووعظ وتذكير بالآخرة، وقوله: ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾، أي: إيّاه، ويمكن أن تكون ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾ توكيدًا لتَكرار ذات الجلالة سبحانه، فذكر ﴿ٱللَّهُ﴾، وذكر ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾ سبحانه، وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر؛ لأنّ الخطاب هنا للنّفس والدّواخل؛ لتحقيق التّناسب بين اللّفظ والمعنى العامّ لمن تذكّر، والوعيد لمن أعرض، والنّفس في مثل هذا راجعة إلى الذّات، أو في الكلام حذف مضاف، أي: ويحذّركم اللّه غضبه وعقابه، والعبارة تحذيرٌ منَ التّساهل في دعوى التّقيّة، واستمرارها، أو طول زمانها، وقد جعل التّحذير هنا من نفس اللّه، أي: ذاته؛ ليكون أعمّ في الأحوال؛ لأنّه لو قيل: يحذّركم اللّه غضبه؛ لتوهّم أنّ للّه رضا لا يضرّ معه تعمّد مخالفة أوامره(2)، وهذا إعذار، وموعظة، وتهديد بالعقاب على مخالفة ما نهاهم اللّه عنه.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/420، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/221.

بلاغة الكناية ودلالة التعريض في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾:

كـنـايـة عـن يـوم القيامة، وتعريض بوعيد المعاندين

المؤمن مطمئنٌ في حياته لإيمانه بصيرورة الآخرة، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: إليه تصيرون وترجعون، فيجازيكم إن ارتكبتم موالاتهم بعد النّهي، وفي ذلك تهديد ووعيد شديد لمن خالف أمر اللّه؛ ولمْ يأبَهْ لآيات اللّه وحدوده. و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: الرّجوع، كناية عن يوم القيامة، وأُريد به البعث بعد الموت، وهو لا يكون إلّا إلى اللّه، فالتّقديم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمام، وهذا تعريض بالوعيد أكّد به صريح التّهديد الّذي قبله، وفائدة الكناية بيان أن لا مفرّ من لقاء اللّه تعريضًا بهم وتهديدًا لأولئك المعارضين المُعاندين الرّافضين لكتاب اللّه ونبوّة رسوله ﷺ، وترغيبًا في الإيمان[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حذَّر اللّهُ المؤمنين من أن تنحرف بهم الظّروفُ في موالاة الكافرين، وتركِ أوامره، وحذَّرهم نفسه، ورخَّص حالةً ضيّقة سُمح فيها ظاهرُ الموالاة تقيّة في ظاهر العمل لا في القلب والباطن، اقتضى ذلك الالتفاتُ بالخطاب إلى العلم بأسرار الصّدور؛ لخطورة الأمر تحذيرًا شديدًا، وبيانُ أنّه لا يخفى على اللّه شيء من أعمالكم أو نواياكم، وأنَّ إخفاء الأمور أو إبداءَها سواءٌ عند اللّه تعالى، وستحاسبون على كلِّ ما تخفوه في صدوركم.

فالآية بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾؛ وكأنّه قال: ويحذّركم نفسه؛ لأنّه متَّصِفٌ بعلم ذاتيٍّ محيط بالوجود كلِّه، وقدرةٍ ذاتيّة تعمُّ المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه؛ إذ ما من معصية إلّا وهو مطّلع عليها قادر على العقاب بها(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُخۡفُواْ﴾: الخفاء: استتارُ الشّيءِ استتارًا غير تامٍّ، بحيث يظهر من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا. والمُختفي: النَّبَّاش الّذي يستخرج أكفان الموتى؛ لأنّها مُسْتخفية تحتَ التّراب، ولأنّه يفعل ذلك خِفيَةً. والإخفاء ضدُّ الإبداء. والخَفَا بالقصر: الشّيء الخافي. وخَفِي الشّيءُ واختفى واستخفى وتخفَّى: استتر. وأخفيت الشّيء: سترته(2).

2) ﴿صُدُورِكُمۡ﴾: الصَّدر: أَعلى مُقَدَّم كُلِّ شيءٍ وأَوَّله، أو: مُقَدَّمُه أو أعلاه، وصَدْرُ الإنسان: أعلى شيء في مقدَّمه. وصَدرُ القَناة: أعلاها. وصَدرُ الأمر: أوَّله، وأخذ الأمر بصَدْره: بأوّله، والأمور بصُدُورها. وهؤلاء صُدرة القوم: مُقدّموهم، وصَدَرَهُ: أَصَابَ صَدْرَهُ، ورجل مَصْدُورٌ: يشكو صَدْرَهُ(3)، ورجل مُصدِر: مُتِمٌّ للأمور(4).

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خفي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفو، خفي).

(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدر).

(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صدر).

3) ﴿تُبْدُوهُ﴾: البُدُوُّ: بروزُ الشَّيءِ وظهوره. بدا الشّيءُ: ظهر. وبداوةُ الأمر: أوّل ما يبدو منه. وبَدا يَبدُو بُدُوًّا: ظهر؛ فهو بادٍ. وبدا إلى البادية بَدَاوةً فهو بادٍ أيضًا. والبَدوُ خلافُ الحَضَر، والنِّسبة إلى البادية بَدَوِيٌّ على غير قياس. وبدا له في الأمر: ظهر له ما لم يَظهَر أوّلًا، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزّمر: 47].[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

قل يا أيُّها النّبيُّ ﷺ للمؤمنين على سبيل الإرشادِ والتحذير: إنْ تكتموا ما استقرَّ في قلوبكم، ومنه موالاةُ الكافرين ونصرتُهم، أو تُظهروا ذلك لا يَخفَ على اللّه منه شيء، فإنَّ علمَه محيطٌ بكلِّ ما في السّموات وما في الأرض، وله القدرةُ التّامّة على كلِّ شيء.

وهذا التنويعُ في الخطاب من شأنه أن يربِّي المهابةَ في القلوب بما يحمل على شدّةِ تجنُّب ما نَهَى اللّه عنه، والإخلاصِ مع شدَّة الحِيطة فيما أَبَاح لهم منه للمصلحة، وذكر ذلك بصورة بيانٍ عامٍّ على نهج القرآن[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الانتقال منَ الإجمال إلى التّفصيل، ومنَ الخصوص إلى العموم:

فانتقل من خصوص خطاب المؤمنين من ذنب موالاة المؤمن للكافر في الآية السّابقة إلى العموم هنا في ذكر أنواع الذّنوب كلّها صغيرها وكبيرها، خفيّها وعلنها.

كما أنّه انتقل منَ التّحذير المجمل إلى ضربٍ من ضروب التّفصيل؛ وهو إشعار المقصودين باطّلاع اللّه على ما يخفونه في صدورهم منَ الأمر، فانتقل منَ التّحذير من موالاة الكافرين إلى جميع أنواع الذّنوب الكامنة في الصّدور والنّيّات، أو إلى جميع أنواع النّيّات والخبايا الّتي في الصّدور، صالحها وسيّئها.

دلالة المجاز المرسل في كلمة ﴿صُدُورِكُمْ﴾:

ذكر الصّدور هنا، وأراد البواطن والضّمائر جريًا على معروف اللّغة من إضافة الخواطر النّفسيّة إلى الصّدر والقلب؛ لأنّ الانفعالات النّفسانيّة، وتردّدات التّفكر، ونيّات

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدو).

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/207، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

ذكـر الـصّـدور، وأراد البـواطن مـجـازًا باعتبار الحالّ فيه:

النّفوس كلّها يشعر لها بحركات في الصّدور[1]، فهو مجاز مُرسَل علاقته الحاليّة؛ إذ ذكر المحلّ وأراد الحالّ فيه، والغرض من ذلك زيادة التَّرْهيب؛ حتى لا يحملَ المخاطَب في صدره ما يكون وبالًا عليه، ومضاعفة التَّرغيب في تطهير الباطن؛ ليكون محِلًّا صالحًا للإيمان، ودافعًا لصالح الأعمال.

بلاغة الطّباق في الآية ودلالتها على الشّمول:

الخالق سبحانه عـالـم بـأسـرار الـنّـفـس الّـتـي تـخـفـى عـلـى صاحبها

الطّباق بين الإخفاء والإبداء أفاد العموم والشّمول تعليمًا بسعة علم الله سبحانه؛ لأنّ مقام إثبات صفات الله تعالى يقتضي الإيضاح، فيكون المعنى أنّ الله تعالى يعلم كلّ شيء منَ الخلق والكون، فأفاد ذلك شمول أحوالكم كلّها، وشمول أسراركم كلّها، وكلّ ما يجول ببالكم، وخبايا صدوركم، وما تسرّون، وما تعلنون سواءً بسواءٍ.

التّرقّي منَ الإخفاء إلى الإبداء:

أعـلـى درجــات الــوضـــوح أن يستوي ما يبديه الإنسان بخفايا نفسه

ولمّا كان حقيقة ما نهى عنه في الولاية والتّقاة أمرًا باطنًا يترتّب عليه فعل ظاهر، فوقع التّحذير فيه على الفعل، كرّر فيه التّحذير على ما وراء الفعل ممّا في الصّدور، ونبّه فيه على منال العلم خفية.

وكرّر في ختمه التّحذير؛ فإنّه قد يترك الشّيء فعلًا، ولا تترك النّفس الغيّة صغوًا ونزوعًا إليه في أوقات، ليتثنّى التّحذيران ترقّيًا منَ الظّاهر في الفعل إلى باطن الحماية في العلم خفية، كما تثنّى الأمران في الظّاهر والباطن.

وكان في إجراء هذا الخطاب على لسان النّبيّ ﷺ حجّة عليهم بما أنّه بشر مثلهم يلزمهم الاقتداء به فيما لم يبادروا إلى أخذه منَ الله في خطابه الّذي عرض به نحوهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60.

وقد أفاد هذا التّرقّي النّصح والإرشاد إلى أن يرقى المرء بنفسه فيكون ما يخفيه كالّذي يبديه، أو قريبًا من ذلك.

بلاغة الطّباق بين السّماوات والأرض:

ثمّ قال مريدًا التّعميم: ﴿وَيَعۡلَمُ﴾ جميع ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولمّا كان الإنسان مطبوعًا على ظنّ أنّه إذا أخفى شيئًا في نفسه لا يعلمه غيره أكّد بإعادة الموصول فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ظاهرًا كان أو باطنًا[1].

وبين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ طباق حقيقيّ وضمنيّ، طباق العدد: هو طباق بين الجمع والفرد، وطباق الاتّجاه: هو طباق بين الأعلى والأسفل، وطباق الجزء والكلّ، أو طباق الصّغير والكبير: هو ذكر الجزء وهو ﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، والكلّ وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وفي وجوه المطابقة هذه بين السّماوات والأرض؛ دلالة شمول علمه سبحانه بالكون كلّه.

سرُّ العدول عن (السماء) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

ذكرت (السماوات) مجموعة في القرآن الكريم تسعين ومئة مرة، وقوبلت بالأرض في سبع وثلاثين ومئة مرّة، في حين ذكرت (السماء) مفردة عشرين ومئة مرّة، وقوبلت بالأرض في خمس عشرة مرَّة، فالغالب مقابلة (السماوات) بصيغة الجمع بالأرض؛ إذ إنَّ نسبة مقابلة (السماء) مفردة بالأرض أقل من 6% من مجموع ذكر اللفظين (السماوات والسماء) في مقابلة الأرض، والسرُّ في ذلك أنَّ الجمع دالٌّ على السبع الطباق، لا على سماء الدنيا، ويأتي في سياق بيان قدرة الله تعالى، وسعة علمه، وعظيم ملكه، والتفكر والتدبُّر في قدرة الخالق ﷻ، في حين أنَّ دلالة المفرد (السماء) على السماء الدنيا، وما يتعلق بها من تسخير السّحاب، والرياح ونزول الماء، وقد يدلُّ المفرد على وحدانيَّة الخالق، وتناسق الخلق، ومن الآيات التي جمعت بين لفظي (السماوات والسماء) في مقابلة الأرض قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60.

فالعدول عن (السماء) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هنا لما يأتي:

أوَّلًا: مناسبة الجمع لقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

ثانيًا: مناسبة قدرة الله على كلِّ شيء، وقد ذكرت القدرة في السِّياق مرتين، مرَّة في فاصلة الآية، وأخرى في آية ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ ومن قدرته سبحانه خلقُ السماوات والأرض، وفيه تعريضٌ بضآلتهم أمام كونه الفسيح؛ لما فيه من الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57].

ثالثًا: مناسبة إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وما بين الإيلاج وإخفاء ما في الصدور من تناسب؛ فذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغة الجمع تشير إلى العالم العلوي المنظور منه وغير المنظور.

بلاغة التّذييل في قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

وجملة ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفة على جملة الشّرط فهي معمولة لفعل ﴿قُلۡ﴾، وليست معطوفة على جواب الشّرط؛ لأنّ علم الله بما في السّماوات وما في الأرض ثابت مطلقًا غير معلّق على إخفاء ما في نفوسهم وإبدائه، والجملة تذييل للتّعميم الواضح فيها، والخطاب للمؤمنين تبعًا لنهيه ألّا يتّخذ المؤمنون الكافرين[1].

التّرقّي منَ الصّدور إلى عموم السّماوات والأرض:

يســـتـــوي في علم الله خفايا الصّدور، وخفايا الـــسّـــمـــاوات والأرض

أدّى فنّ التّرقّي ذلك الانتقال المتناسق من محتوى الصّدور إلى محتوى السماوات والأرض، فيعلم سرّكم وعلنكم، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عمّا نهيتم عنه[2].

والقطعة القرآنيّة غزيرة المعاني في الجمع بين أمثلة الحياة والكون بأسلوب معجز مذهل، يجعل التّرابط بين الحياة والكون في تداخل عجيب؛ فمن فوائد التّرقّي منَ النّفس إلى السّماوات والأرض: أنّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

كشف عن جانب من قدرته سبحانه وعلمه بخبايا النّفوس من جانب، مع علمه بأسرار الكون من جانب آخر، وما في ذلك من مقابلات الصّغير والعظيم ممّن خلق أمام قدرته سبحانه، وما فيه من بلاغة رد العجُز على الصّدر؛ فذكر الحياة والكون هنا بعد أن ذكر الكون والحياة قبل ذلك.

أظهر اسم الجلالة في مَوضِع الإضمار استقلالًا للجملة وتمثيلًا:

إفـــادة جمع الله بين العلم المطلق والقدرة المطلقة

أظهر اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ دون ضميره، فلم يقل: وهو على كلّ شيء قدير، لتكون الجملة مستقلّة، فتجري مَجرَى المثل، فتكون على سبيل استعارة تمثيليّة، ثمّ لما في ذكر اسم اللّه منَ التّلذّذ والثّواب، وفي ذلك إعلام بأنّه مع العلم بكلّ شيء ذو قدرة على كلّ شيء، وهذا من التّهديد، فالمهدِّد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلّا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلمّا أعلمهم بعموم علمه، وعموم قدرته، علموا أنّ اللّه لا يفلتهم من عقابه، وقدّم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كدليل الإحاطة والشّمول الّذي تكرّر بعد ترسيخه في مجالات الطّباق الواردة في الآية[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سبحانه في الآية السّابقة أنَّه يعلَمُ ما تُخفي الصُّدُورُ وما تُعلن، وبيَّن علمه الشَّامل وقدرته المطلقة، وكان ذلك الحديثُ يتضمَّنُ الإخبار بالجزاء على الأعمال الَّتي تصدُرُ من النَّاس جميعًا؛ بيَّن في هذه الآية الزَّمن الَّذي يُحاسِبُ فيه النَّاس، وهو يومُ القيامة الَّذي تجدُ فيه كلُّ نفس ما قدَّمت من عملٍ مُحضَرًا، وتُحاسَبُ على الصَّغير والكبير والنَّقير والقِطمير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّحۡضَرٗا﴾: اسم مفعول من الفعل (أحضر)، والجذر (حَضَرَ) يدلُّ على إيرَادِ الشَّيْءِ، وَوُرُودِه وَمُشَاهَدَتِه، وحضر الشَّيء أو الأمر: أتى، جاء وتهيَّأ[1]. والمراد: يوم تجدُ كلُّ نفس عملها بارزًا حاضرًا مشاهَدًا بين أيديها في يوم القيامة.

2) ﴿أَمَدَۢا﴾: الجذرُ اللُّغويُّ للكلمة هو (مَدَي)، أو (أَمَدَ)، والأَمَدُ: مُنْتَهَى كلِّ شيءٍ وآخِرُه[2]، والفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الأَبَدِ: أَنَّ الأَبَدَ: مُدَّةٌ مِنَ الزَّمانِ غَيْرُ مَحْدُودَةٍ، والأَمَدُ: مُدَّةٌ لَها حَدٌّ مَجْهُولٌ، والمُرادُ في الآية: بيانُ أنَّ كلَّ نفسٍ ترجو أن يكون بينها وبين عملها السَّيِّئ زمنٌ بعيدٌ أو مسافةٌ بعيدة لشدَّة ندمها على ما فعلت.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يبيِّنُ اللّه في الآية هولَ اليَومِ الَّذي يُنَفَّذ فيه الوعيدُ، وهو يومُ الجزاء حينَ تجدُ كلُّ نفس من النُّفوس المكلَّفةِ ما عملت من عَمَلٍ يقرِّبُ إلى اللّه، ينتظرها موفَّرًا كاملًا مُشاهَدًا في الصُّحُفِ لتُجزى به، فتَنْعمَ به، وتُسرَّ بأمر اللّه تعالى، وما عملت من عملٍ سيِّئ يُسْخِطُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حضر).
(2) الخليل، العين: (مدي).

اللّهَ؛ فإنَّها تجده في انتظارها أيضًا، فتتمنَّى لو أنَّ بينها وبين هذا العملِ - الَّذي أسْخَطَ اللّهَ - زمنًا بعيدًا، ومسافةً بعيدة، حتَّى يتأخَّر تنفيذُ الجزاء؛ لِعِظَم أسَفِها وشدَّةِ حُزنها، وما ينالُها من الإهانة والعذابِ في ذلك الموقف.

ثم أعاد تعالى تحذيرَنا نفسَه - رأفةً بنا ورحمةً - لئلَّا يطول علينا الأمدُ فتقسُوَ قلوبُنا، وليجمع لنا بين التَّرغيبِ الموجبِ للرَّجاء والعملِ الصَّالح، والتَّرهيبِ الموجبِ للخوف وتركِ الذُّنوب لنستعدَّ لذلك اليوم العصيب، ونجتهد في تقديم الطَّاعات والأعمال الصَّالحات، ثُمَّ ذكَّرنا سبحانه بكمالِ رأفته وواسع رحمته.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بديع التَّصدير في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾:

التَّذكير بِعِظَم ذلك اليوم، وبيان أحوال النَّاس فيه

سبق الحديثُ عن يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥﴾ [آل عمران: 25]، وهذه الآية قد صُدِّرت بلفظ (يوم)، وهذا التَّشابه في المطلعين نظمًا ومعنًى يُشيرُ إلى تكامل الآيتين: حيث إنَّ كلتيهما تُذكِّرُ بيوم القيامة، والمحاسبة على الأعمال فيه.

دلالة الكناية بـ﴿يَوۡمَ﴾ عن (القيامة):

يومُ القيامة يومٌ عظيمٌ مُتفرِّدٌ بطوله ودوامه، ومُتميِّزٌ بأحداثه وأهواله

التَّكنيةُ عن القيامةِ باسم الزَّمان ﴿يَوۡمَ﴾: الغرضُ منه الاهتمامُ بهذا اليوم، ولَفْتُ أنظار النَّاسِ إليه، فهو ليس يومًا كأيَّام الدُّنيا الَّتي تنقضي بسرعة، بل هو يومُ الخلود والبقاء المستمرِّ، وهو يومُ الحساب والفصل بين الخلائق، ويومُ الثَّواب والعقاب؛ إذْ توزن فيه أعمال كلِّ العباد من أوَّل خلق آدم إلى آخر أيَّامهم، ولا يعلمُ مدَّة هذا اليوم إلَّا اللّه تعالى، علمًا أنَّ اللّه - تبارك وتعالى - قد قرَّر في محكم التَّنزيل أنَّ يومًا عنده كألف سنة ممَّا يعدُّ البشر فوق الأرض، وإنَّ يومًا كخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ

سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج: 47]، وقال جلَّ شأنه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ [المعارج: 4].

بلاغة تقديمِ ظَرْفِ الزَّمانِ على عامله:

تعظيم شأن يوم القيامة؛ إذ هو الغرض المَسوقُ له الكلام

صُدِّرت الآية الكريمة بتقديم لفظ ﴿يَوۡمَ﴾ عن سائر عناصر الجملة؛ إذ أصل نظم الكلام: تَوَدُّ كلُّ نفسٍ لو أنَّ بينها وبَيْنَ ما عَمِلَتْ من سوءٍ أمدًا بعيدًا، يَوْمَ تجد ما عملت من خير مُحْضَرًا، فَقُدِّمَ الظَّرف على عامله، وهو أسلوبٌ من أساليب العرب حيث يقدِّمون في كلامهم ما هم ببيانه أعنى، والمرادُ من هذا التَّقديم التَّنبيهُ إلى عظمة ذلك اليوم وضرورة الاهتمام به.

ويحتمل النَّظمُ أن يكون لفظ ﴿يَوۡمَ﴾ معمولًا لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28]، ويكون المعنى: ويُحذِّركم الله نفسه يومَ تجدُ كلَّ نفس ما عملت أمامها مُحضرًا، وهو رأيُ الزَّجَّاج، أمَّا ابنُ الأنباري؛ فيرى أنَّ العامل في الظَّرف هو لفظ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]، ويكون التَّقدير: (وإليه المصيرُ يومَ تجد كلُّ نفس)، ويجوز أن يكون الظَّرفُ منقطعًا على إضمار فعل (اذكر) قلتُ: وكلُّ هذه الأقوال يتَّسعُ لها النَّظمُ الجليل[1].

دلالةُ إضافة ﴿كُلُّ﴾ إلى المفرد المُنكَّرِ ﴿نَفۡسٖ﴾:

إفادة الاستغراق لجنس النُّفوس، مع الإشعار بإيقاع الوَصْف على كلِّ فرد منها

﴿كُلُّ﴾: اسمٌ يفيد الاستغراقَ والإحاطة بالأفراد والأجزاء، وهو هنا يفيد استغراق جميع الأنفس، حيثُ لا تشذُّ نفسٌ عن المعنى الموصوف والمُتحَدَّث عنه، وقد جيء بلفظ ﴿كُلُّ﴾ متبوعًا بلفظ ﴿نَفۡسٖ﴾ نكرة؛ ليُفيد النَّظمُ أنَّ كلَّ نفسٍ تجدُ على انفراد ما قدَّمت من أعمال، وتُحاسبُ منفردة وتتحمَّلُ مسؤوليَّة أعمالها منفردة، ولو قيل: (الأنفسُ كلُّها) لما أفهم هذا التَّعبيرُ المسؤوليَّة الفرديَّة مثل المعنى الواضح الجليِّ الَّذي جاء عليه النَّظم الجليل.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: التركي: 5/98.

كُـلُّ امـرئ بما كسب رهين

بلاغة المجاز العقليّ في توصيف دواخل الإنسان:

قوله: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ فيه تشخيص للنَّفس وللعمل، فالنَّفس تعبيرٌ عن دواخل الإنسان، وقد جيء في الآية بالنَّفس، وما اختارته هي من الخير أو السُّوء، فذُكِرت النَّفسُ باعتبارها الشَّخصَ صاحبَ النَّفس الَّذي أفلح؛ إن زكَّاها، وخاب؛ إن دسَّاها، فالمعنى هنا يرتبط بِمَعْنَيَين مجازيَّين: أوَّلهما: أنَّه أطلق النَّفس، وأراد صاحب النّفس؛ لأنَّ النَّفس هي صاحبة القرار والاختيار، فالتَّعبيرُ من قبيل المجاز العقليِّ، علاقته الحاليَّة، وثانيهما: أطلق العمل على أنَّه من مُنجزات تلك النَّفس، وما اقترفت، وهذا من قبيل المجاز العقليِّ أيضًا.

تـصـويـر جـزاء الأعـــمـــال في صـورة الـشَّيءِ المـشـهـود المُـحـضـر، فلا مجال للإنكار

دلالة استعارة لفظ ﴿مُّحۡضَرٗا﴾ في التَّعبير عن أثر الأعمال:

الإحضارُ: جَعْلُ الشَّيْءِ حَاضِرًا، ويُطْلَقُ على الْإِعْدَادِ، وَمَا أَحْضَرَتْهُ النَّفس: هُوَ مَا أَسْلَفَتْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وقدَّمته، والعمل لا يمكن وجدانه يوم القيامة على الحقيقة، فلا بدَّ فيه من التَّأويل، فقد يكون وجُود العمل مُحْضَرًا، أي: مكتوبًا في الكتاب[1]، فتجد كلُّ نفسٍ صحائف أعمالها منشورة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: 6][2]، وحينَ يجدُ المرءُ صحائف أعماله ويقرأُ ما فيها، فإنَّه يستحضرُ الأعمال الَّتي عملها في الدُّنيا، ويتذكَّرُها، ويراها شاخصة حاضرة بين يديه، والتَّعبيرُ من قبيل المجاز اللُّغويِّ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة، أي: إنَّه لَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ تَظْهَرُ آثَارُهَا مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ يَوْمَئِذٍ؛ عُبِّرَ عَنْ ظُهُورِ آثارها بالإحضار لشبهه بِهِ، كَمَا يُحْضَرُ الزَّادُ لِلْمُسَافِرِ، فهو استعارة عن

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/273.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/14.

أثر ظهور الأعمال، فما عَمِلَتْ النُّفوس في الدُّنيا مِنْ خَيْرٍ - وإن كان مثقال ذرَّة - يكونُ مُحْضَرًا لديها مُشاهدًا في الصُّحف(1).

وقد يكون إحضار العمل بمعنى: وجود الجزاء عليه(2)، فيجد جزاء الأعمال، وعلى كلا الوجهين، فالتَّرغيبُ والتَّرهيبُ حاصلٌ(3).

سِرُّ إيثار التَّعبيرِ باسم المفعول ﴿مُّحْضَرًا﴾ بدل اسم الفاعل (حَاضِرًا):

فـــي إحـــضـار الأعـمـال أمـام كاسبها تبكيتٌ وتهويل

في قوله تعالى: ﴿مُّحْضَرًا﴾، من التَّهويل ما ليس في (حاضِرًا)، فإنَّ الإحضار إنَّما يَتِمُّ فيما هو موجود غائب، والأعمال موجودة محفوظة عن البطلان، يُحْضِرُها اللّه تعالى لخلقه يوم القيامة، لا حافظ لها إلّا اللّه سبحانه(4).

فائدة اختلاف معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾:

الـــعـــطـــف لـــلاشـــتـراك في الـحـكـم، والاســتـئـنـاف لـلـتَّـفـريق بَـيْنَ الوعد والوعيد

الواوُ في قولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ فيه قولان:

الأوَّل: وهو قول أبي مسلم الأصفهانيِّ: الواوُ: واوُ العطفِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ مفعولًا للفعل ﴿تَجِدُ﴾، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ معطوفٌ عليهِ، كأنَّهُ قيل: وما عملت من سوءٍ محضرًا(5)، فيكونُ الخبران موصولَين بالواو، ويكون التَّقدير: تجدُ ما عملت من خير، وتجدُ ما عملت من سوء(6).

والقول الثَّاني: أنَّ الواو للاستئناف النَّحوي، فلا تكون الآية دليلًا على القطع بوعيد المذنبين؛ لأنَّه نصَّ في جانب الثَّواب على كونه مُحضرًا، وأمَّا في جانب العقاب؛ فلم ينصَّ على الإحضار، بل ذكر أنَّهم يودُّون الفرار منه، والبعد عنه، وذلك يُومئُ إلى أنَّ جانب

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 30/151، الآلوسي: روح المعاني: 2/122.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/273.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/14.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 30/151، الآلوسي: روح المعاني: 2/122.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/515 - 516.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/15.

الوعد أولى بالوقوع من جانب الوعيد[1]، وهذا من عظيم كرم الله تعالى ورأفته بعباده، فناسب أن يُختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

دلالة التَّمنِّي في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾:

في يوم القيامة، يتحسَّرُ المرءُ على السُّوء قليله وكثيره

الأمد: الغاية الَّتي ينتهي إليها، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزُّخرف: 38]، والمراد من هذا التَّمنِّي معلوم، سواء حُمِلَ لفظ الأمد على الزَّمان أو على المكان؛ إذ المقصود تمنِّي بُعده[2]، وقد خرج هذا التَّمنِّي إلى غرض التَّحسُّر المرافق له الَّذي يكشف عن تعقيد خلجات النَّفس في ذلك المشهد العظيم المُروِّع، فمهما كان ذلك السُّوء صغيرًا وحقيرًا - والذي يَدُلُّ عليه تنكير ﴿سُوٓءٖ﴾ - فإنَّ الموقف نفسه لا ينفكُّ عن تلك النَّفس: أنَّها تتمنَّى زوال أثر ذلك السُّوء عنها، وهي تعلم أن لا مناصَ إلى ذلك، فتلجأُ إلى تمنِّي خروجه عن دائرة الوجود الذِّهني، فتدفع به عنها إلى أمد بعيد؛ إذ يُرجى ألَّا تلقاه أبدًا، فتَهدأ، وتَسْعَد بذلك.

سِرُّ الكناية الزَّمنيَّة في قوله: ﴿أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾:

كلُّ النُّفوسِ ترغبُ عدم رؤية ذلك اليوم لفظاعته وهول مطلعِه

الأمد زمانيٌّ بقرينة ﴿يَوۡمَ﴾، والمقياس المُرشِّح لقوله: ﴿لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ﴾ هو الزَّمن، أي: بين النَّفس وبين ذلك اليوم: ﴿أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾، والمقصود لازمه، وهو عدم رؤيته لغاية هوله، وفي إسناد الوَدادة إلى كلِّ نفسٍ، سواءٌ كان لها عمل سيِّئ أم لا، بل كانت متمحِّضةً في الخير - من الدَّلالةِ عَلى كمالِ فظاعةِ ذلك اليوم، وهول مطلعه ما لا يخفى[3]، وذكر أبو حيَّان النَّحوي: معنى ﴿أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾: "غاية طويلة، وقيل: مقدار أجله، فدلَّ بذلك على الزَّمان الطَّويل"[4].

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/15.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/16.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/24.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/102.

بلاغة المقابلة بين الخير والسُّوء:

كشف الفروق بين العمل الصَّالح والعمل السَّيِّئ للتَّذكير والاعتبار

في الآية الكريمة مقابلة رائعةٌ بين الخير وإحضاره، والسُّوء وتمنِّي بُعده، والضّمير في قوله: ﴿وَبَيۡنَهُۥٓ﴾ يعود إلى ما عملت من السُّوء، ولعلَّ من فوائد هذه المقابلة: أنَّه لَمَّا ذُكِرَ الخيرُ؛ لم يظهر فرح النَّفس به، وأنَّه لَمّا ذُكِرَ السُّوء؛ أدار الاهتمام كلَّه نحوه، وقال: ﴿تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾، ودلالة ذلك: أنَّ السُّوء من الأعمال مهما صَغُرَ في ذلك الموقف؛ فإنَّه خِزْيٌ على صاحبه، وندامة، وسيكون يومها هو الشّاغل الوحيد لها.

في يوم القيامة، النَّفسُ المحسنة تستعجلُ جزاء ما قدَّمت، والنَّفس المسيئة تنفرُ من السُّوء، وتودُّ بعده وعدم رؤيته

في العبارتين المتقابلتين: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾، و﴿مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾، يُلحَظ الانسجامُ بين النَّظم والمعنى، وكأنّ النَّظم يُصوِّرُ ذلك التَّقابل بانتظام الكلمات فضلًا عن معناها؛ إذ نلحظ أنَّ في قوله: ﴿خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ ذلك الإيجاز في وصف الحدث في كلمتين متآخيتين لا يفصل بينهما لفظ أو حرف، فيدلُّ على الخفَّة والسُّرعة في طلب الجزاء على الخير واستعجال النَّفس لذلك، فجاء رصفُ الكلمتين تلبيةً لرغبتها، بينما نجد الطَّرف الآخر من المقابلة المتحدِّث عن جانب الأعمال السَّيِّئة، جاء فيه تفصيلٌ وإسهابٌ حيث جاءت الجملة في ثماني كلمات إمعانًا في وصف حالة النَّفس، ثُمَّ إنَّه فَصَلَ بين ﴿سُوٓءٖ﴾ و﴿أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾، بخمس كلمات من نظم الآية، ولا يخفى أنَّ هذا الفصل يُشيرُ إلى مدى رغبة النَّفس أن تكون المسافة بينها وبين عملها السَّيِّئ بعيدة جدًّا، وهذا من انسجام النَّظم مع المعنى في طرفي المقابلة.

تَجَدُّدُ الطَّلب للخير واستقرار النَّفس بحضوره، واستمرار الحسرة بالسُّوء بعد وقوعه

بلاغة التَّعاقُبِ والتَّناوب بين المضارع والماضي في الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ عبَّر بالفعل المضارع ﴿تَجِدُ﴾، ثُمَّ بالماضي ﴿عَمِلَتۡ﴾؛ ليدلَّ ذلك على تجدُّد الطَّلب لتلك الأعمال في النَّفس، ثُمَّ تستقرَّ، وتطمئنَّ لحضور

ما عملت من الخير، فتُطوى معه صفحة الهموم، وتبدأ الحياة المستقرَّة في جنان الخلد.

أمَّا في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾؛ فعبَّر بالفعل الماضي، ثمَّ المضارع في وصف حال النَّفس مع ما عملت من سوءٍ؛ إذ لم يكن في حسبانها شيء، فلمَّا أُحضِرَ عمل السُّوء؛ أورد على خاطرها اضطراب الحال، بل هي في اضطراب متجدِّد، فلا يهدأ لها بالٌ إلَّا أن تطمئنَّ أن يكون بينها وبين سوء أعمالها أمدٌ بعيدٌ لا ينقضي من الزَّمان أو المكان.

فائدة التَّحذير بعد الوعيد والتَّهديد:

الوعظ والزَّجر تأكيد للوعيد ومبالغة في التَّهديد

قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾، أسلوبٌ من أساليب التَّحذير، ومخرجه الوعظ والزَّجر[1]؛ لتأكيد الوعيد[2]، ويجوز أن يكون الكلامُ تكريرًا للتَّحذير الأوَّل الوارد في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران: 28]، لزيادة تقرير هذا المعنى، ويجوز أن يكون الأوَّلُ تحذيرًا من موالاة الكافرين، والثَّاني تحذيرًا من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء مُحْضَرًا[3].

سرُّ التَّذييل بذكر الرَّأفة بعد التَّحذير والوعيد:

التَّذكير بأنَّ التَّحذير لمصلحة العباد حالًا ومآلًا

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ تذييلٌ جاء بعد التَّحذير على عادة النَّظم القرآنيِّ في الجمع بين التَّرغيب والتَّرهيب؛ حيث بَيَّن سبحانه أنَّه ذو مغفرة وذو عقاب أليم، لتُرجى رحمتُه، ويُخشى عذابُه[4].

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونيَّة: 5/222.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/224.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/13.

وذيَّلَ بِذِكْرِ الرَّأفة أيضًا للتَّذكير بأنَّ هذا التَّحذير هو لمصلحة المُحَذَّرين[1]، فأشار إلى أنَّه تعالى نهاهم، وحذَّرهم رأفةً بهم، والرَّأفة هي أشدُّ الرَّحمة[2]، ومُراعاةً لصلاحهم، ومن آكد الرَّحمة والرَّأفة رأفتُه سبحانه بعباده المؤمنين، فكان المعنى: أنَّه لمَّا ذكر وعيد الكفَّار والفسَّاق؛ ذكر وعد أهل الطَّاعة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، أي: كما هو منتقمٌ من الفسّاق، فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين[3].

بديعُ اللَّفِّ والنِّشرِ غيرِ المرتَّب:

حصر سوء العمل بين خيرين؛ ليُعلم أنَّ رحمة الله تسبق غضبَه

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾ لفٌّ يُصوِّر عملَ النَّفس خَيْرَه وشَرَّه، وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ نشرٌ يتضمَّن تحذيرًا لعباده، ورأفةً منه سبحانه، فحذَّرهم من ارتكاب المعاصي، بعد أن صوَّر المشهد وخطورته، وما قد أصاب الإنسان من رُعْبِ اللِّقاء بسيِّئاته، ثُمَّ أبان عن فائق رحمته سبحانه؛ تشجيعًا للخير من الأعمال، فكان اللَّفُّ بعكس النَّشر.

ومن فوائد اللَّفِّ والنَّشر غير المُرتَّب أنَّه: حصر سوء العمل بين خيرين: خير العمل، وخير الرَّحمة والرَّأفة من اللّه تعالى، مِمَّا يبثُّ التَّفاؤل في نفوس المتلقِّين من المؤمنين، وليُعلم أنَّ رحمة اللّه - سبحانه - سابقةٌ وغالبةٌ على عذابه ونقمته.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمد الغاية والمُـدَّة، وقد تَنْحصِرُ، والأبد المُـدَّةُ المطلقة الَّتي لاحدَّ لها

الأبد والأمد:

الأمد: الغاية، تقول: بَلَغَ أَمَدَهُ، أي: غايتَه، والأمد والأبَد مُتقاربان لكنَّ الأبد عبارةٌ عن مُدَّةِ الزَّمان الَّتي لا حدَّ لها، ولا تَتَقَيَّد، يُقال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/224.
(2) المُبرِّد، الكامل: 2/105.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/16.

أبد الآبدين، مَعْنَاهُ: دهر الدَّاهرين، وعصر البَاقِينَ، أَي: يبقي مَا بَقِي دهر وداهِرٌ[1]، ولا يُقال: أَبَد كذا.

والأمد: مُدَّةٌ لها حدٌّ مجهول؛ إذا أُطْلِقَ، وقد ينحصر، فيُقال: أَمَدُ كذا، كما يُقال: زمن كذا، فالأمد: يُقال باعتبار الغاية[2].

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أمد)، والكفويُّ: الكليات، ص: 32.

(2) المناويُّ، التَّوقيفُ على مُهِمَّاتِ التَّعاريفِ، ص: 61.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن خُتمت الآية السَّابقة برأفة اللّه بعباده بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ انتقل الخطاب إلى التَّشويق بحبِّ اللّه، والاحتكام إلى شرعه، واتّباعه، فبيّن للمخاطبين جميعهم أنَّ السَّبيل إلى ذلك لا يكون إلَّا باتِّباع نبيِّه ﷺ ولا سبيلَ غيرُه إلى حبِّ اللّه(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾: الجذر (تبع) أَصْلٌ وَاحِدٌ لَا يَشِذُّ عَنْهُ مِنَ الْبَابِ شَيْءٌ، وَهُوَ التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَالُ: تَبِعْتُ فُلَانًا؛ إِذَا تَلَوْتَهُ وَاتَّبَعْتَهُ، وَأَتْبَعْتُهُ؛ إِذَا لَحِقْتَهُ، وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ.

والمعنى المحوريُّ: هو لُحُوق الشَّيء بمتقدِّم أو سابقٍ بلا فَصْل مع رقَّة ولين، وقد يكون الاتِّباع حسِّيًّا كمن يتَّبِعُ خطوات وعلامات محدَّدة، وقد يكون معنويًّا مثل: اتَّبَع القرآنَ، أي: ائتمَّ به، وعَمِل بما فيه، كأنَّ القرآن أمَامه، وهو يَتْبعه، ويَتَهيَّأ بهيئته الَّتي يرسُمها، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 3]، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]، ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾ [الجاثية: 18].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صـــدق اتِّـبــاع النَّـبـيِّ ﷺ من دعوى المحبَّة

يروى في سَبَب نزُول هَذِه الْآيَة ثلاثةُ أقوال:

أَحدها: أَنَّه خطاب لِلْيَهُود وَالنَّصَارَى من وَفد نَجْرَان، وَذَلِكَ أَنَّهم قَالُوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، فَنزل قَوْله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وَالثَّانِي: أَنَّه خطاب لمشركي قُرَيْش، فَإِنَّهُ رَآهُمْ يعْبدُونَ الْأَصْنَام، فَقَالَ لَهُم: خالفتم مِلَّة أبيكم إِبْرَاهِيم، فَقَالُوا: إِنَّمَا نعبدهم تقرُّبًا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/332.

إِلَى اللّه، فَإِنَّا نحبُّه؛ فَنزل قَوْله تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾[1].

والثَّالث: أنَّ الخطابَ لأقوام كانوا على عهد النَّبيِّ ﷺ فعن الحسن قال: قال أقوام على عهد رسول اللّه ﷺ: يا محمَّد؛ إنَّا لنحبُّ ربَّنا، فأنزل اللّه - ﷻ - بذلك قرآنًا: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾، فجعل اللّه اتِّباع نبيِّه محمَّد ﷺ علمًا لحبِّه[2].

والمعنى: قل أيُّها الرَّسول لقومك ولجميع الناس: إن كنتم تحبُّون اللّه حقًّا؛ فاتَّبعوني، وآمنوا بي ظاهرًا وباطنًا؛ إذ السَّبيلُ الوحيدُ للوصول إلى حبِّ اللّه ورضاه: هو اتِّباعي، واتِّباعُ ما أُرسِلْتُ به من عند اللّه، وإنَّكم إن اتَّبعتموني؛ يُحْبِبكم اللّه، ويَمْحُ ذنوبكم، ويكنْ ذلك سببًا لمغفرة ذنوبكم؛ لأنَّ اللّه تعالى غفور لذنوب عباده، رحيمٌ بهم.

وهذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كلِّ من ادَّعى محبَّةَ اللّه تعالى، وليس مُتَّبِعًا لنبيِّه محمَّد ﷺ حقَّ الاتِّباع، مطيعًا له في أمره ونهيه، فإنَّه كاذب في دعواه حتَّى يتابعَ الرَّسولَ ﷺ حقَّ الاتِّباع[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الشَّرط وجوابه:

اتِّباعُ الرَّسول هو معيارُ محبَّة الله تعالى

تعليق محبَّة اللّه إيَّاهم على ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ ينتظم منه قياسٌ شرطيٌّ اقترانيٌّ، ويدلُّ على الحبِّ المزعوم؛ إذا لم يكن معه اتِّباع الرَّسول، فهو حبٌّ كاذب[4]، ولفظ الآية يعمُّ كلَّ من ادَّعى محبَّة اللّه[5]، فالطَّريق الموصل إلى رضاه تعالى إنَّما هو مستفاد من نبيِّه ﷺ فإنَّه هو المبيِّن عن اللّه تعالى؛ إذ لا يهتدي العقل إلى معرفة

(1) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/310.
(2) رواه الطبري، جامع البيان: 3/155.
(3) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/310، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/32، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/225.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/103.

أحكام اللّه في العبادات ولا في غيرها، بل رسوله ﷺ هو الموضِّح لذلك، فكان اتِّباعه فيما أتى به احتماءً لمن يحبُّ أن يعمل بطاعة اللّه تعالى[1].

ولمّا كان الخطاب - بحسب النُّزول - موجَّهًا إلى نصارى نجران أو بعض أحبار اليهود؛ فأمكن أن يكون بعدها لكلِّ أحدٍ يدَّعي محبَّة اللّه من المسلمين أو من غيرهم، فيقال له: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، فيصير التَّعبير كالمثل السائر الَّذي يقال في مواقف مشابهة لما قيل فيه أصلًا، قال بعضُ الحكماءِ: "ليس الشَّأنُ أن تُحِبَّ، إنَّما الشَّأنُ أن تُحَبَّ"، وقال الحسنُ البصريُّ: "زعم قومٌ أنَّهم يحبُّون اللّه، فابتلاهم اللّه بهذه الآيةِ، فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾"[2].

دلالة تكرارِ اسم الجَلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَقامي الحبِّ:

التَّلذُّذ بذكر اسم الله من أعظم دلالات الحبِّ لله سبحانه

ادَّعى نصارى نجران أو بعض أحبار اليهود أنَّهم يحبُّون اللّه تعالى، وكانوا يظهرون الرَّغبة في أن يحبَّهم اللّه تعالى، فنزلت الآية فيهم، وورد ذكر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾، ثُمَّ أتبعها بقوله: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، فتكرَّر ذكره في موضع الإضمار؛ لأنَّ اللّه هو المألوه الَّذي تألهه القلوب، وتتعلَّق به محبَّةً وتعظيمًا وإجلالًا وإنابةً[3]، وهو - سبحانه وتعالى - يحبُّ كلَّ من أطاعه.

ثم إنَّه ليس في متابعة الرَّسول إلَّا أنَّه دعاكم إلى طاعة اللّه تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره، ومن أحبَّ اللّه؛ كان راغبًا فيه؛ لأنَّ المحبَّة توجب الإقبال بالكلِّيَّة على المحبوب والإعراض بالكلِّيَّة عن غير المحبوب[4]؛ لذا حَسُنَ التَّكرار تلذُّذًا بِذِكْرِ الاسم الجليل في مقام الحُبِّ وموجباته.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/103.
(2) ابن كثير: تفسير ابن كثير: 2/32.
(3) ابن القيّم، مدارج السالكين: 3/27.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/17.

جمال التَّذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

السَّعي لتحصيل أسباب المغفرة والرَّحمة

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لمن تحبَّب إليه بطاعته واتِّباع نبيِّه[1] - ﷺ - ولم يُذكر متعلَّق الصِّفتين؛ ليكون النَّاس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرَّحمة[2]، فيكون معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، أي: لمن يتحبَّب إليه بطاعته، ويتقرّب إليه باتِّباع نبيِّه ﷺ فهو تذييلٌ مقرِّرٌ لمَا قبلَهُ، مع زيادة وعد الرَّحمةِ، ووضعُ الاسمِ الجليلِ موضعَ الضَّمير، للإشعار باستتباع وصفِ الألوهيَّة للمغفرة والرَّحمة[3].

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/228.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نزل قوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية؛ قال عبد الله بن أُبيٍّ: إنَّ محمَّدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أنْ نُحبَّه، كما أحبَّت النَّصارى عيسى، فنزلت هذه الآية، وتحقيق الكلام في المناسبة أن يقال: إنَّ الآية الأولى لَمَّا اقتضت وجوب متابعة الرَّسول ﷺ ثُمَّ إنَّ المنافق ألقى شبهةً في الدِّين، وهي أنَّ محمَّدًا يدَّعي لنفسه ما يقوله النَّصارى في عيسى عليه السلام؛ ذكر الله تعالى هذه الآية إزالةً لتلك الشُّبهة، فقال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَطِيعُواْ﴾: (طَوَع) أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ وَالِانْقِيَادِ، يُقَالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ؛ إِذَا انْقَادَ مَعَهُ، وَمَضَى لِأَمْرِهِ، ومن مضَى في أمرك؛ فقد أطاعك، وإذا وافقك؛ فقد طاوعك.

وَالْعَرَبُ تَقُولُ: تَطَاوَعْ لِهَذَا الْأَمْرِ؛ حَتَّى تَسْتَطِيعَهُ، وناقةٌ طَوْعُ القِياد وطَوعَتُه وطَيِّعته: ليِّنته، لا تنازِعُ قائدَها.

والطَّاعة: اسمٌ لما يكون مصدره الإطاعة، وهو الانقياد، وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب هو بمعنى: اللِّين والانقياد، وما يؤخذ منهما: كالاستطاعة، والتَّطوُّع[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

بعد أن خاطب رسولُ الله ﷺ النّاسَ جميعًا، ويدخلُ في المخاطَبين قريشٌ وأهلُ الكتاب دخولًا أوَّليًّا، وطلبَ إليهم اتِّباعه شرطًا لحبِّ الله لهم؛ أكَّد أنَّ سبب الحُبِّ هو الطَّاعةُ

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/17.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوع).

لله ورسوله، وأكَّده بالتَّكرار ليَقرن بها ضدَّه، فقال لهم: أطيعوا اللّه باتِّباع كتابه، وأطيعوا الرَّسول باتِّباع سُنَّته في حياته وبعد مماته، فإنْ هم أعرضوا عنك، وأصرُّوا على ما هم عليه مِن كفر وضلالٍ، فليسوا أهلًا لمحبَّةِ اللّه؛ فإنَّ اللّه لا يحبُّ الكافرين؛ لأنَّه تعالى إنَّما أوجب الثَّناءَ والمدحَ لمن أطاعه، وأوجبَ الذِّلَّةَ والإهانةَ لمن كفر، فالإعراضُ عن النَّبيِّ ﷺ هو سببُ الحرمانِ من حبِّ اللّهِ، على طريقة القرآن وأسلوبه في تقرير الشَّيء بسَلْبِ ضدِّه[1].

الإعـــراضُ عن النَّبيِّ ﷺ سببُ الـحـرمـانِ من حبِّ اللهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة إيثار الإظهار على الإضمار:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾، أي: في جميع الأوامرِ والنَّواهي، فيدخلُ في ذلك الطَّاعة في أتباعِه ﷺ وإيثارُ الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات؛ إذ ذكر في الآي السَّابقة قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ بصيغة المُتكلِّم، وذُكِرَ هُنا: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ بصيغة الغائب، فتحقَّقَ الالتفات، وأفاد تعيين حيثيَّة الإطاعة، والإشعار بعلّتها، فإنَّ الإطاعة المأمورَ بها سببُها أنَّه رسولُ اللّه، ولا ريبَ في أنَّ عنوان الرِّسالة من موجبات الإطاعةِ ودواعيها[2]، وفيه إشارة إلى ردِّ شبهة المنافق كأنَّه يقول: إنَّما أوجب اللّه تعالى عليكم مُتابعتي لا لِما يقول النَّصارى في عيسى، بل لكوني رسولَ اللّه[3]، فنبَّه في هذا الالتفات إلى مسألتين: أنَّ واجب إطاعتي كوني رسولًا من عند اللّه، وأنَّ عيسى كان رسولًا من قبلي، فبالغتُم فيه.

التَّـنـبـيـه على عنوان الرِّسالة المُوجِبِ للطَّاعة

دلالة الفعل ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ بين صيغتي المضارع والماضي:

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ يحتمل المضيَّ، والمضارعة، بمعنى: فإنْ تتولَّوا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/17، والموصلي، أولى ما قيل: 2/463، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/126.

المضارع من تمام ما يُقال لهم، والماضي توطئة للحُكْمِ عليهم

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، فصيغة المضارع تكون من تمام مقولِ القول، فهي صيغة المضارعِ المخاطَب، بحذف إحدى التَّاءين، وأصله: تتولَّوا، وفي صيغة المضارع معنى: التَّجدُّد، ممَّا يفيد اعتماد القول لمن يوافق قولُه وعملُه أقوالَ مَن نزلت فيهم الآية وأعمالَهم[2].

وإمّا كلام متفرِّعٌ عليه، مَسوقٌ من قِبَلِ اللّه تعالى؛ فهي صيغةُ الماضي الغائب، فالمعنى: فإن تولَّوا عمَّا أُمروا به من اتِّباعه وطاعته، فإنَّ اللّه لا يحبُّ من كان كافرًا، فجعل من لم يتَّبعه، ولم يطعه كافرًا[3].

تقييد انتفاء المحبَّة مع وصف الكفر:

طاعة الله والرَّسول هي الفيصل بين الإيمان والكُفر

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نفي للمحبَّة، وهو يستلزم بُغْضَهُ تعالى لهم وسُخْطَهُ عليهم، أي: لا يرضى عنهم، ولا يثني عليهم.

وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار؛ لتعميم الحُكم لكلِّ الكفَرَة، والإشعار بعلَّته، فإنَّ سخطه تعالى عليهم؛ بسبب كفرهم، وفيه إيذان بأنَّ محبَّته ﷻ مخصوصة بالمؤمنين[4]؛ ولذا أُكِّدَ هذا الحكم بمؤكِّدَين: هما ﴿فَإِنَّ﴾ وتكرار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾، مع ما في هذا الحكم المُؤَكَّد من التَّقريع والتَّرهيب.

فمن تولَّى عن الطَّاعة؛ فقد خرج عن دائرة التَّحبُّب إليه سبحانه، ومن لم يتحبَّب إليه بطاعته؛ فهو لا يحبُّه بإثابته، والكافر غير متحبِّب إليه بتولِّيه عنه، فمحال أن يحبَّه، فصار تقديره: إنَّكم إذا كفرتم بالإعراض عنه وعن رسوله؛ فإنَّه لا يحبُّكم، وفي ذلك إبطال دعواهم، حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[5]، وتقييد

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/13.
(2) إسماعيل حَقّي، روح البيان: 2/23.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/104.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/520 - 521.

انتفاء محبَّة اللّه بهذا الوصف - الَّذي هو الكفر - مُشعِرٌ بالعلِّيَّة، فالمؤمن العاصي لا يندرج في ذلك[1].

دلالة تكرار الاسم الأحسن المرَّة بعد الأخرى:

الإشـــارة إلى تعظيم محبَّة الله بعد الإشارة إلى تعظيم أمره

ذِكْرُ لفظ الجلالة في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، هو من قبيل التَّكرار الذي غرضُهُ التَّعظيمُ وتربيةُ المهابة، وجرى ذلك على عَادَة العَرَب، فَمن عَادَتهم: أَنَّهم إِذا عظَّموا شَيْئًا؛ كرَّروا ذِكره، وَأَنْشد سِيبَوَيْه في مثل ذَلِك قائلًا:

لا أرى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ *** نغَّص المَوْتُ ذا الغِنى والفقيرا[2].

الفَذْلَكَةُ وبلاغتها في بناء الرَّوابط مع الآيات السَّابقة:

بـيـان جـمـال الإجـمـال بذكر المـوعـظـة بعد المـحـاجـجـة والتَّرهيب

ذكرَ ابن عاشور أنَّ هذا التّعبير من قبيل الفذلكة[3] والإجمال في أسلوب القرآن في الموعظة، من مطلع آل عمران إلى هذه الآية، حيث ابتدأ بمحاجَجَة الكفَّار بقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ [آل عمران: 20] الآية، ثُمّ بترهيبٍ بغير استدلالٍ صريح، ولكن بالإيماء إلى الدَّليل، وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21]، ثُمَّ أمر بالقطيعة مع الكافرين في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عمران: 28]، ثُمَّ انتقل إلى طريقة التّرغيب في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾، وختم بذكر عدم محبَّة الكافرين، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ ردًّا للعَجُزِ على الصَّدرِ المُتقدِّم، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ [آل عمران: 10] الآية، ليكون نفيُ المحبَّة عن جميع الكافرين نفيًا عن هؤلاء الكافرين المعيَّنين[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/104.

(2) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/311.

(3) الفذلكة: هي كلمة تأتي بمعنى: خلاصة أو مجمل ما قد ذكر بالتفصيل، وهي مشتقَّة من الفعل العربي (فَذْلَكَ) وهي من قول الحاسب، وإذا أجمل حسابه، فَذَلكَ كذا وكذا: إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته، قال الشِّهاب الخفاجي: الفذلكة: جملة عدد قد فُصِّلَ، وبجانب هذا الاستعمال الرياضياتي: فإنَّ الكلمة تستعمل للإشارة إلى المختصرات اللُّغويَّة عمومًا، وهو مستعمل كأحد فنون نسج الكلام وبلاغته، وقد تميَّز ابن عاشور في تفسيره بإيراد هذا الفنّ. الخَفاجي: عناية القاضي: 1/386، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 2/228.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/229.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى أنَّ الدِّين المرضيَّ عنده هو الإسلامُ والتَّوحيدُ، وأنَّ اختلاف أهل الكتابين فيه إنَّما هو للبغي والحسد، وأنَّ الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتِّباع الرَّسول ﷺ وطاعته؛ شرَعَ في تحقيق رسالته، وكونِه من أهل بيت النُّبوَّة القديمة[1]، فقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وبيّن أنَّ طاعة الرَّسول لاصطفائه على العالمين بالرِّسالة والدِّين.

ولمّا بيّن اللّه تعالى أنَّ محبَّته لا تتمُّ إلَّا بمتابعة الرُّسل؛ بيّن علوَّ درجات الرُّسل وشرفَ مناصبهم، فقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ الآية[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾: جِذر الكلمة هو: (صفو)، وصَفْوُ الشَّيْءِ بِالْفَتْح: خَالِصُهُ، وَحُكِيَ التَّثْلِيثُ، وَصَفَا صَفَاءً؛ إِذَا خَلَصَ مِنَ الْكَدَرِ؛ فَهُوَ صَافٍ، وَصَفَّيْتُهُ مِنَ الْقَذَى تَصْفِيَةً: أَزَلْتُهُ عَنْهُ، وَأَصْفَيْتُهُ الْوُدَّ: أَخْلَصْتُهُ. والمعنى المحوريُّ: خلوُّ الشَّيء من الخُشونة والكَدر وما إليهما، كما في ملاسة الصَّفا، ونقاءِ ما يصفِّي من الكدورة والشَّوائب.

واصطفاه اللّه: اختاره واجتباه، كأنَّه أخذه؛ لأنَّه أصفَى جِنْسه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوة اللَّه من خلقه.

2) ﴿ءَادَمَ﴾: اسمُ أبي البَشَر عند جميع أهل الأديان، وهو عَلَمٌ عليه، وظاهر القرآن أنَّ اللّه أسماه بهذا الاسم[3]، ووزن آدم: أفْعَل، وأصله: أأْدم، فتحوَّلت الهمزة السَّاكنة ألفًا لانفتاح ما قبلها، مشتقٌّ من الأَديم، بِمَعْنَى: أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْض، فيَكُونُ أَصْلُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/18.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/229.

آدَمَ فِعْلًا سُمِّيَ بِهِ أَبُو الْبَشَرِ، ثُمَّ نُقِلَ مِنَ الْفِعْلِ؛ فَجُعِلَ اسْمًا لِلشَّخْصِ بِعَيْنِهِ، ويؤيِّده الحديث: «إنَّ اللّٰه تعالى خلقَ آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدمَ على قدرِ الأرضِ، فجاءَ منهم: الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبين ذلكَ، والسَّهلُ، والحَزنُ، والخبيثُ، والطَّيِّبُ»[1].

أو يكون على قول قُطْرب: آدم: أَفْعَلُ من الْأَدَمَة: وَهِيَ بَاطِنُ الْجِلْدِ، أو يكون مأخوذًا من الأُدْمةِ، وهي الخُلْطة، تقول: أَدَمْت بين الشَّيئين؛ إذا خلطتَ بينهما، فسمِّي آدمُ: آدمَ؛ لأنَّه كان ماء وطينًا خُلطا جميعًا، ويقال في جمع: آدم: آدمون، وأوادم[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّٰه تعالى في هذه الآية الكريمة باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه، فبدأ بذكر اصطفائه لآدم على سائر المخلوقاتِ، خلقَه بيده، ونفخَ فيه من روحه، وأسجدَ له ملائكته، وأسكنه جنَّتَه، وأعطاه من العلم والحِلمِ والفَضْل ما فاق به سائر المخلوقات.

واصطفى نوحًا ﷺ فجعله أوَّلَ رسولٍ إلى أهل الأرض حين عُبِدت الأوثانُ، ووفَّقه إلى الصَّبر والاحتمال والشُّكر والدَّعوة إلى اللّٰه في جميع الأوقات، وأغرق الكافرين من قومه، وجعل ذُرِّيَّتَه هم الباقين، واختار آلَ إبراهيم، وهم أسرة إبراهيم الَّذي اختصَّه اللّٰه بخُلَّته، وجعله إمامًا للنَّاس، وجعلَ في ذرِّيَّته النُّبوَّةَ والكتاب.

ويَدْخل في آل إبراهيم جميعُ الأنبياء الذين بُعثوا من بعده؛ وفي مُقدِّمتهم نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ الَّذي جمَع اللّٰه فيه من الكمال ما تفرَّق في غيره، وفاق ﷺ الأوَّلين والآخرين، فكان سيِّدَ المرسلين المصطفَيْنَ الأخيار، واختار اللّٰه آلَ عمران، وهو والدُ مريم بنت عمران؛ فهذه البيوت الَّتي ذكرها اللّٰه في هذه الآيةِ المباركة، هي صفوتُه من العالمين، وتسلْسَلَ الصَّلاحُ والتَّوفيقُ في ذرِّيَّاتهم[3].

---

(1) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (2955)، وقال: حسن صحيح.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/513، والأنباري، الزّاهر: 1/384، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أدم).

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 54، والموصلي، أولى ما قيل: 2/463 - 464.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بالاصطفاء في تمثيل المعلوم بالمرئيِّ:

رُسُـــلُ الـلـه وأنـبـيـاؤه هم صفوَتُه وخيرتُهُ من خلقه

اصطفاهم بمعنى: اختارهم، أي: جعلهم صفوة خلقه تمثيلًا بما يُشاهَد مِن الشَّيء الَّذي يُصفَّى، ويُنقَّى من الكدورة(1)؛ لأنَّ العرب تمثِّل المعلوم بالشَّيء المرئيِّ، فإذا سمع السَّامع ذلك المعلوم؛ كان عنده بمنزلة ما يشاهد عيانًا، فنحن نُعاين الشَّيء الصَّافي النَّقيَّ من الكدر، فكذلك صفوة اللّه من خلقه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144]، وقال في إبراهيم وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: 47](2).

فهذا من حسن البيان الَّذي يُمَثَّلُ فيه المعلوم بالمرئيِّ، فمثَّل به خلوص هؤلاء القوم من الفساد لما علم اللّه ذلك من حالهم؛ لأنَّهم كخلوص الصَّافي من شائب الأدناس.

التَّعبير بالكلِّ عن الجزء:

آلُ إبـراهـيـم هـم أبـنـاؤُه وأحفاده الذين اصطفاهم الله لحمل رسالاته

الآل: رهطُ الرَّجل وعشيرته، وآل إبراهيم: أبناؤه وأحفاده وأسباطه، والمقصود تفضيل فريق منهم، وهذا معنًى مجازيٌّ عقليٌّ: أراد الجزء، وذكر الكلَّ، وشمل آلُ إبراهيم الأنبياءَ من عَقِبه كموسى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لفظ (آل) كناية عن الأُسر التي اصطفى الله أبناءها للنُّبُوَّة:

بـيـان تـفـضـيـل أنساب الأنبياء وبـيـوتـهـم على غيرهم

أمَّا إن كان الـ (آل) هنا متعيّنًا للحمل على رهط الرَّجل وقرابته(3)، أو ما يمكن أنْ نقول عنهم: أسرة النُّبوَّة؛ فنقول بجواز ذهاب الـ (آل) إلى معنى الكناية عن تلك الأُسر الَّتي اصطفاها اللّه تعالى.

---

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 1419 هـ - 1998م: 5/162.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/274، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/19.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/231.

وعليه يكون معنى الـ (آل) الَّتي وردت في العبارة القرآنيَّة الكريمة في قوله: ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ كناية عن البيوت الَّتي ضمّت أكثر من نبيٍّ أو رسول في أسرة واحدة، كما الحال مع ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: كناية عن الأسرة الَّتي ضمَّت إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، و﴿وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾: كناية عن الأسرة الَّتي ضمَّت مريم وعيسى وزكريًّا ثُمَّ يحيى - عليهم السلام - فقدّمت الآية قصَّة لأنموذج فذٍّ فريد لبيت ينشأ فيه الأنبياء، وألقت الضَّوء على بعض ملامح حياتهم وعلاقاتهم - عليهم السلام - وهذا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله حين سُئل: من أكرم النَّاس؟ فقال: «الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ: يوسف بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»[1].

الجمال في أسلوب التَّخلُّص:

الانتقال من التَّمهيد المُقرِّر للاصطفاء إلى قصص المُصطَفين

ومن براعة التَّخلُّص في هذه الآية الكريمة[2]: الابتداء بنكتة اصطفاء الأنبياء جميعًا، من أوَّل الخلق إلى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ الآية، فوطَّأ بهذه الجملة إلى ذكر قصَّة آل عمران، وما اكتنفها من المعجزات والكرامات، ومنها مبدأ خلْقِ المسيح[3] عليه السلام.

جمال التَّوشيح[4] في الآية الكريمة:

ومن التَّوشيح قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فإنَّ معنى اصطفاء المَذْكُورين

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (3382).

(2) من الأمثلة الواضحة على فنِّ التخلُّص في كتاب الله قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾، فإنَّه سبحانه أشار بقوله: أحسن القصص إلى قصَّة يوسف، والجملة توطئة لذكر القصَّة، مشيرًا إليها بهذه النُّكتة، من باب الوحي والرَّمز، وإنَّما كانت أحسن القصص بكون كلِّ قضيَّة منها كانت عاقبتها إلى خير، فإنَّ أوَّلها رميه في البئر، فكانت عاقبته السَّلامة، وبيع ليكون عبدًا، فاتُّخذ ولدًا، ومراودة امرأة العزيز له، فعصمه الله، ودخوله السِّجن، وخروجه ملكًا، وظفر إخوته به أوَّلاً، وظفر بهم آخرًا، وتطلُّعه إلى أخيه بنيامين، واجتماعه به، وعمى أبيه، وردُّ بصره، وفراقه له، ولأخيه واجتماعه بهما، وسجود أبويه وإخوته له تحقيقًا لرؤياه من قبل. ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص 438.

(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 438.

(4) التَّوشيح: "هو أن يكون معنى أوَّل الكلام يدلُّ على لفظ آخره، فيتنزَّل المعنى منزلة الوشاح، ويتنزَّل أوَّل الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللَّذين يجول عليهما الوشاح،

فإنَّ السامع إذا فهم أنَّ الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى، وعرف القافية والرويَّ، علم آخر البيت". المصدر: النويري، نهاية الأرب: 7/137.

تُعلَم منه الفَاصلة، فالاصطفاء يكون من الجنس، وجنس هؤلاء المصطفين، هو العالمون[1]؛ لأنَّ من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختارًا على جنسه، وجنس هؤلاء المصطفون العالمون[2].

مفهوم ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بين الإطلاق والتَّقييد:

العالمون كنايةٌ عن عالمي زمانهم[3]، والاصطفاء مُطلقٌ في الآية ممَّا يحتمل التَّفصيل والتَّفريع، الأوَّل: أنَّ اللّه اصطفى مجموع الرُّسل أو جماعة الرُّسل على مطلق معنى العالمين، والمعنى الآخر: أنَّه تعالى اصطفى كلَّ فاضل منهم على أهل زمانه، فإنْ تعاصر الأنبياء؛ فهم كالواحد في أهل زمانهم.

وذكر ابن عاشور أنَّ معنى اصطفاء الأنبياء على العالمين: "اصطفاء المجموع على غيرهم، أو اصطفاء كلِّ فاضل منهم على أهل زمانه"[4].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآل والأهل:

الآل أخصُّ؛ ومعناه خَاصَّة الرَّجل من جِهَة الْقَرَابَة أو الصُّحْبَة

الآل: أخصُّ من الأهل، فإنَّ الآل يتناول الأخِصَّاء الَّذين يَجْرُون من الإنسان مجرى ذاته، ولهذا يقال لذات الإنسان ولخصائص عشيرته: الآل، ولم يتناول آلُ محمَّد ﷺ الكافرين من ذويه[5].

الْأَهْل: يكون من جِهَة النَّسَب والاختصاص، فَمن جِهَة النَّسَب قَوْلك: أهل الرَّجل لِقَرَابَتِهِ الأدْنَيْن، وَمن جِهَة الِاخْتِصَاص قَوْلك: أهل الْبَصْرَة وَأهل الْعلم، والآل: خَاصَّة الرَّجل من جِهَة الْقَرَابَة أَو الصُّحْبَة، تَقول: آل الرَّجل لأَهله وَأَصْحَابه، وَلَا تَقول: آل الْبَصْرَة

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 228. وأحمد البدوي: من بلاغة القرآن، ص 72.
(2) ابن معصوم، أنوار الربيع: 1/174.
(3) وهو قول جمهور المفسرين. القرطبيُّ: الجامع لأحكام القرآن: 4/63.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/231.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/524.

وَآل الْعلم، وَقَالُوا: آل فِرْعَوْن: أَتبَاعه، وَكَذَلِكَ آل لوط، وَقَالَ الْمبرِّد: إِذا صغَّرَتِ الْعَرَبُ الْآل؛ قَالَت: أهل، فَيدلُّ على أَنَّ أصل الآل: الْأَهْل، وَقَالَ بَعضهم: الْآل: عيدَان الْخَيْمَة وأعمدتها، وَآل الرَّجل مُشَبَّهُون بذلك؛ لأَنَّهم مُعْتَمَدُهُ(1).

وخصوصيَّة الآل تتناسب وسياق الآيات الكريمات، حيث إنَّ إضافتها إلى المصطفَيْنَ الأخيار؛ لبيان نوع العلاقة بين الآل والمضاف إليه، وهي النُّبوَّة والرِّسالة، وهي أرفع من البُنُوَّة والأُبُوَّة.

(1) العسكري، الفروق اللغويَّة، ص: 281.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تتعلَّق هذه الآية بما قبلها من وجهين: أحدهما: أنَّه لمَّا أمرهم تعالى باتِّباع نبيِّنا، وهم يُقرُّون بوجوب اتِّباع الَّذين ذكرهم من الأنبياء الَّذين اصطفاهم؛ بيّن أن جماعتهم - في كونهم متساوين في النُّبوَّة - سواء، وأنَّ الَّذي دلَّ على وجوب اتِّباع هؤلاء الأنبياء يدلُّ على وجوب اتِّباع سائرهم.

والثَّاني: أنَّه نبَّه إلى أنَّ اصطفاءه تعالى هؤلاء لكونهم مطيعين له، مستحقِّين لمحبَّته بذلك[1]؛ لذلك لزمت طاعة الْمُخاطبين للّه وللرَّسول اقتداءً بهم.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾: جِذر هذه الكلمة هو (ذرأ) من ذرأ اللّه الخلق، فتُرك همزُه، وقيل: بل هو من ذَرْو الرِّيح، وأصله: ذُروية، وقيل: هي فُعْلِيَّة من الذَّرِّ، نحو: قُمْرِيَّة، ويُقال: ذُرِّيَّةٌ للواحد والجمع، ويقال للأصل والنَّسل، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يس: 41] أي: إيَّاهم، ويُقال للنِّساء: الذَّراري[2]، و﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾: هِيَ نَسْلُ الثَّقَلَيْنِ[3]، قال الزَّجَّاج: يُقال: ذرأ اللّه الخلق ذرْءًا؛ إذا خلقهم، وفي الحديث: «أعوذ بكلمات اللّه التَّامّات من شرِّ كلِّ ما خلق وذرأ وبرأ»[4].

2) ﴿بَعۡضُهَا﴾: جِذر هذه الكلمة هو (بعض)، بعض كلِّ شيء: طائفة منه، وبَعَّضْتُهُ تبعيضًا؛ إذا فرَّقْتَهُ أجزاء، وبعض: مذكَّر في الوجوه كلِّها، كقولك: هذه الدَّار متَّصل بعضُها ببعض، وبعض العرب يصل بـ (بعض)، كما يصل بـ (ما)، كقول اللّه ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، وكذلك ببعض في هذه الآية: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر: 28][5].

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/525.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/526.
(3) الرّازي، مختار الصحاح: (ذرأ).
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/256. والحديث رواه الإمامُ أحمد في المسند: 3/419، وابن أبي شيبة في المصنف: 7/419.
(5) الخليل، العين: (بعض).

ويقال للرَّجل من القوم: من فعل كذا؟ فيقول: أحدُنا أو بعضنا؛ يريد نَفْسَه[1]. قَالَ ثَعْلَبٌ: أَجْمَعَ أَهْلُ النَّحْوِ عَلَى أَنَّ الْبَعْضَ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَوْ مِنْ أَشْيَاءَ، وَبَعَّضْتُ الشَّيْءَ تَبْعِيضًا: جَعَلْتُهُ أَبْعَاضًا مُتَمَايِزَةً[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هؤلاء الأنبياءُ والرُّسل - الَّذين اصطفاهم اللّٰه - سِلْسلةُ طُهْرٍ متواصلة، حصل التَّناسبُ والتَّشابهُ بينهم في الخَلْق والأخلاقِ النَّبيلة، بعضُهم على إثر بعض، في الإخلاص للّٰه وتوحيدِه والعملِ بوحيه، واللّٰه سميعٌ لأقوال عباده، عليمٌ بأفعالهم، يعلمُ مَنْ يستحقُّ الاصطفاءَ، فيصطفيه، ومَنْ لا يستحقُّ ذلك؛ فيخذلُه، ويُرْديه، وسيجازيهم على ذلك[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ذُرِّيَّةً﴾:

مـــدح الآبـــاء والأبناء معًا

قوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾، أي: اصطفى ذرِّيَّة، وأصلها من: ذرأ، بمعنى: خلق، وقيل: من الذَّرِّ؛ لأنَّ اللّٰه تعالى استخرجهم من ظهر آدم كالذَّرِّ، وإنَّما سُمِّي الآباء والأبناء ذرِّيَّة؛ لأنَّ اللّٰه خلق بعضهم من بعض، فالأبناء من ذرِّيَّة الآباء، والآباء من ذرِّيَّة آدم، وآدمُ عليه السلام ذراه اللّٰه تعالى.

دلالة الحمل على اللَّفظ في عود الضَّمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾:

إشـــارة إلى كمال الذُّرِّيَّة، واصطفائها ممَّن ذرأها

عاد الضَّمير في قوله: ﴿بَعۡضُهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ على لفظ الذُّرِّيَّة؛ لأنَّ لفظها مفرد مؤنَّث، وليس على

(1) الزمخشري، أساس البلاغة: (بعض).

(2) الفيومي، المصباح المنير: (بعض).

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/208، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 54، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.

معناها؛ إذ لو رجع إلى المعنى؛ لقال: (بعضهم)، والسِّرُّ في ذلك لفت الانتباه إلى كمال الذُّرِّيَّة، والإشارة إلى أنَّ اصطفاءها عائد إلى اختيار اللّٰه الَّذي ذرأها؛ ونصْبُها على البدل، أو الحال من الآلَين أو منهما ومن نوح، أي: إنَّهم ذرِّيَّة واحدة متشعِّبة بعضها من بعض[1]، والمعنى: اصطفى ذُرِّيَّة بعضها من بعض.

دلالة البعضيَّة بين المعنى الكنائيِّ والحقيقيِّ:

في معنى البعضيَّة في هذه الآية قولان:

تقديم الاتِّصال بالتَّناصُر والدِّين، على صلة التَّناسل

أحدهما: أنَّ بعضهم من بعض في التَّناصُر والدِّين، لا في التَّناسل، فيكون المعنى مجازًا، وهو معنى قول ابن عباس وقتادة.

ويمكن أن يكون الاتِّصال بينهم اتِّصال العقيدة والتَّوحيد، ووحدة المصدر والرِّسالة، وذلك أبلغ، وهو ما يستدعي أيضًا طاعة الرَّسول؛ لأنَّ ما جاء به من الأحكام ومن الرِّسالة وما جاءت به الرُّسل إبراهيم وموسى وعيسى - عَلَيۡهِمُ السَّلَامُ - مصدره واحد، وهو بالمجمل تأييد لهؤلاء الأنبياء ولكمال رسالتهم، فيكون معنى قوله: ﴿بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ كناية عن الموالاة الدِّينيَّة، لقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: 71]، وقوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: 67][2].

الثَّاني: أنَّه في التَّناسل، وهو على الحقيقة؛ لأنَّ جميعهم ذُرِّيَّة آدم، ثُمَّ ذُرِّيَّة نوح، ثُمَّ ذرِّيَّة إبراهيم[3].

دلالة ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾:

بيــان شــدَّة الاتِّصال ووثاقته

حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ يشيرُ إلى شدَّة الاتِّصال بين هذه الذُّرِّيَّة، فـ ﴿مِنۢ﴾ للاتِّصال لا للتَّبعيض، أي: بين هذه الذُّرِّيَّة اتِّصال القرابة،

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/13.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/527.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/527، والرَّازي: مفاتيح الغيب: 8/201.

فكلٌّ بعض فيها هو متَّصل بالبعض الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ [آل عمران: 28][1].

دلالة التَّذييل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

النُّبوَّة اصطفاء واختيار من الله الَّذي يَعْلَمُ حيث يجعلها

من معاني التَّذييل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميعٌ بأقوال العباد وبأعمالهم، فله سبحانه أن يصطفي مِنهم مَنْ يشاء عَلى نهج قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124]، والجُملة بحسب المعنى تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها[2].

وفيه وجه آخر للتَّذييل: هو أنَّ اليهود كانوا يقولون: نحن من وَلَد إبراهيم ومن آل عمران، فنحن أبناء اللّه وأحِبَّاؤه، والنَّصارى كانوا يقولون: المسيح ابن اللّه، فاللّه تعالى كأنَّه يقول: واللّه سميع لهذه الأقوال الباطلة، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال، ويجازيكم عليها، فكان أوَّل الآية بيانًا لشرف الأنبياء والرُّسل، وآخرها تهديدًا لهؤلاء الكاذبين الَّذين يزعمون أنَّهم مستقرُّون على أديانهم[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/231.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/21.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر اللّه تعالى أنموذجًا من اصطفاء الأنبياء، وجعل آخر ذلك اصطفاء آل عمران، ناسبَ الحديث عن عيسى عليه السلام وبيان أنّه من جملة المُصطَفَين الأخيار الَّذين اصطفاهم اللّه لرسالته إلى البشر، وأوحى إليهم بشريعته، فبدأ بذكر عجائب إرهاصات نُبوَّته منذ أن نذرت امرأةُ عمران ابنتها مريم عليها السلام لبيت المقدس ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، ونشأت تحت رعايته نشأةً صالحة، فكان يأتيها رزقها من عند اللّه، حتى تحقّقت المعجزةُ وولادة عيسى عليه السلام وما تبع ذلك من المعجزات العظيمة، فقد كانت حياتُه عليه السلام محفوفةً بالمعجزات حافلةً بالكرامات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذَرۡتُ﴾: جِذر الكلمة هو (نَذَرَ)، والنَّذْر: أن تُوجِب على نفسك ما ليس بواجب لحدوثِ أمر، يقال: نَذَرْتُ للّه أمرًا، وجمعه: نُذُور، وقد نذر على نفسه ينذُرُ وينذِرُ نَذْرًا ونُذورًا، والنَّذيرةُ ما تعطيه، والنَّذيرة أيضًا: الابن يجعله أبواه قيِّمًا أو خادمًا لكنيسةٍ، وقد نذره، وفي التَّنزيل: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾، والنَّذيرُ: اسمُ الشَّيء الَّذي يُعطَى، ورُبَّما جَعَلَتِ اليهوديَّةُ وَلَدَها نَذيرًا للكنيسة، والجمع: النَّذائر.

والنَّذْر: اسمُ الإنذار، والنُّذُر: جماعة النَّذير، وتقول: أنذَرْتُهم، فنُذِروا، والتَّناذُر: إنذار بعضِهم بعضًا، والَّذي جاء في القرآن من هذا التَّركيب على وجهين: الأوَّل النّذْر: إيجاب شيء على النَّفس، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾، الثَّاني الإنذار: بمعنى: التَّحذير من مكروه سيقع[1].

2) ﴿مُحَرَّرٗا﴾: جذر الكلمة هو (حرر)، والمحرَّر: الَّذي جُعل حرًّا خالصًا، يقال: حرَّرتُ

(1) الخليل، العين: وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نذر).

العبد؛ إذا خلَّصته عن الرِّقِّ، وحرَّرتُ الكتاب؛ إذا أصلحته وخلَّصته، فلم تُبقِ فيه شيئًا من وجوه الغَلَط، ورجل حرٌّ؛ إذا كان خالصًا لنفسه، ليس لأحد عليه تعلُّق، والطِّين الحرُّ: الخالصُ عن الرَّمل والحجارة والحَمْأة والعيوب[1].

وَالحرُّ: مَا خَالَفَ الْعُبُودِيَّةَ، وَبَرِئَ مِنَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصِ، خلافُ العَبْد، وَفي التَّنْزِيل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، يُقَال: إِنَّهَا أَرَادَت أَنَّه خَادِم لَك، وَهُوَ حرٌّ[2]، حُرٌّ بَيِّنُ الحُرُورِيَّة والحُرِّيَّة، والحرار والحرارة: سحابة حُرَّة من كثرة المطر، والمُحَرَّرُ في بني إسرائيل: النَّذيرة، كانوا يجعلون الولد نذيرةً لخدمة الكنيسة ما عاشَ لا يَسَعُه تركه في دينهم، والحرُّ: فعل حَسَن في قول طَرَفة:

لا يكنْ حبُّكَ داءً قاتلًا *** ليس هذا منكِ ماويَّ بحُرّ

والحُرِّيّةُ من النَّاس: خِيارُهم، والحُرُّ من كلِّ شيءٍ: أعتَقُه[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ ما جَرى لمريمَ والدةِ عيسى، وكيف لَطَفَ اللّه بها في تربيتها ونشأتها، فاذْكرْ - أيُّها الرَّسولُ - ما كان مِن أمر مريمَ وأمِّها وابنِها عيسى عليه السلام لتردَّ بذلك على من ادَّعَوا أُلوهيَّةَ عيسى أو بُنوَّته للّه سبحانه؛ إذ قالت امرأةُ عِمْران حين حَمَلت: يا ربِّ؛ إنِّي جعلتُ لك ما في بَطْني خالصًا لك، لخدمةِ (بيت المقدس)، فتقبَّل منِّي، إنَّك أنتَ وحدكَ السَّميعُ لدعائي، فلا يسمع أحدٌ قولي مثلك، العليمُ بنيَّتي، ولا يعلم أحدٌ نيَّتي مثلَ علمِكَ، فإن كان فيهما شيءٌ لا يصلح؛ فتجاوز عنه[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بالظَّرف:

فـ﴿إِذْ﴾ ظرف للمضيِّ في أصل وضعها[5]، وهو متعلِّق بما قبله، والتَّقدير: واللّه سميع

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حرر).
(3) الخليل، كتاب العين: (حرر).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 54، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.
(5) فاضل السّامرّائي، معاني النحو: 3/177.

الاهتمام بالخبر تقرير للاصطفاء وبيان لكيفيَّته

عليم؛ إذ قالت امرأة عمران هذا القول[1]، فذِكْر قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ اقتضى الانتظار لسبب ذكر هاتين الصِّفتين للحقِّ تبارك وتعالى، فيأتي الجواب: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾[2]، وَيَجُوزُ أَن تتَعَلَّق بـ (اذكر) مَحْذُوفًا[3]، ويكون من باب توجيه التَّذكيرِ إلى الأوقات مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث اهتمامًا بشأن تلك الأخبار والحوادث[4].

و﴿إِذْ﴾: واحدة من ظواهر القصَّة القرآنيَّة وخصائصها، وفائدة الَّذي يأتي بعد ﴿إِذْ﴾ تفصيل لجانب من القصَّة في لحظة زمنيَّة تتضمَّن قضيَّة مفصليَّة فارقة في القصَّة القرآنيَّة، فيكون بعد ﴿إِذْ﴾ حدث محوريٌّ يجلب النَّظر والتَّفكير إليه لأهميَّته، وأمثلتها في القرآن كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 29]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: 4]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: 111]، وقوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: 42]، وقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11]، ففي كلِّ هذه المواضع - كما في أغلب مواضع ورودها في القصَّة القرآنيَّة - تحكي موضوعًا دقيقًا مفصّلًا يعدُّ هو الحدث الأهمَّ في القصَّة كلِّها، فتملأ العبارة بعد ﴿إِذْ﴾ مساحة القصّة في إيجاز معجز مذهل.

فائدة التَّعرُّض لوصف الرُّبوبيّة مع الإضافة في مقام النَّذر:

الـرَّغـبـة في استجابة الدُّعاء بصلاح المربوب

التَّعرُّضُ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ للإنباء عن إفاضة ما فيه صلاحُ المربوب، و﴿لَكَ﴾: سيقت للتَّعليل، والمُراد لخدمة بيتك، وفي الإضافة إلى الضَّمير في ﴿لَكَ﴾ مع تقديمه على الموصول: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/393.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/21.
(3) الآلوسي: روح المعاني: 2/138.
(4) أبو الشُّعود: إرشاد العقل السليم 2/27.

لكمال الاعتناءِ به، ولتحريك سلسلة الإجابة، ولذلك قيل: إذا أراد العبدُ أن يُستجابَ له دعاؤه؛ فليدعُ اللّه بما يناسبه من أسمائه وصفاته، ولأجل هذا أُكِّدَ هذا الخبر بـ (إنَّ) لإبراز وفورِ الرَّغبة في مضمون النَّذر وقبوله(1).

سِرُّ التَّعبير عن الولد بـ﴿مَا﴾ بَدَلَ (من):

الـدَّلالـة على إبـهـام الـولـد وقـصـوره عـن درجة العقلاء

فقوله: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ أتى بـ﴿مَا﴾ الَّتي لغير العاقلِ؛ لأنَّ ما في بطنها مُبْهَمٌ أمرُه، والمُبْهَم أمره: يجوز أن يُعَبَّر عنه بـ"ما"، فعُبِّر عن الولد بـ﴿مَا﴾ لإبهام أمرِه وقصورِه عن درجة العقلاء(2).

دلالة التَّقييد بالحال في ﴿مُحَرَّرًا﴾:

بـيـانُ صِـدْقِ الـتَّـقـرُّبِ إلـيـه تـعـالى والإخلاص فيه

قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ على الحاليَّة من ﴿مَا﴾ الموصولة، وقيل: من ضميره في الصِّلة، والعامل معنى الاستقرار، فإنَّها في قوَّة ما استقرَّ في بطني، ولا يخفى أنَّ المراد تقييدُ فعلِها بالتَّحرير؛ ليحصُل به التَّقرُّبُ إليه تعالى، لا تقييد ما لا دخلَ لها فيه من الاستقرار في بطنها(3).

نكتة الدُّعاء بالقبول للنَّذر:

استدعاءٌ للولد وصلاحه

أي: ما نذرتُه، والتَّقبُّل: أخْذ الشَّيء على وجه الرِّضا، وهذا في الحقيقة استدعاءٌ للولد؛ إذ لا يُتصوَّر القَبولُ بدون تحقُّق المقبول، بل للولد الذَّكرِ وقفًا له على الخدمة، فيكون المعنى: رَبِّ؛ إني نذرتُ لك ما في بطني، فاجعله ذَكَرًا.

ثُمَّ إنَّ امرأة عمران نذرت مطلقًا، إمَّا: لأنَّها بَنَت الأمر على التَّقدير، أو لأنَّها جعلت ذلك النَّذر وسيلة إلى طلب الذَّكر(4).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27، والآلوسي: روح المعاني 2/129.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27، وابن عادل: اللباب في علوم الكتاب: 5/171.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23.

(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23، والآلوسي: روح المعاني 2/129.

تكرار التَّذييل بقصر صفتَيِ السَّمع والعلم على الله تعالى:

فـ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، المعنى: إنَّك أنت السَّميع لتضرُّعي ودعائي وندائي، العليم بما في ضميري وقلبي ونيَّتي[1]، ونبَّه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ ليناسب ذلك التَّضرُّع والدُّعاء، فإنَّك تسمع نذري، وتعلم حالي ونيَّتي، فتقبَّلْ منِّي[2]، ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: لجميع المسموعاتِ الَّتي من جُملتها تضرُّعي ودعائي، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكلِّ المعلومات الَّتي من زمرتها ما في ضميري لا غير، وهو تعليلٌ لاستدعاء القبول، وتأكيدُ الجملة بـ ﴿أَنتَ﴾ لعرض قوَّةِ يقينها بمضمونها، وقصرُ صفتَي السَّمعِ والعلم عليه تعالى؛ لعرض اختصاص دعائِها به تعالى، وانقطاعِ حبل رجائها عمَّا عداه بالكلِّيَّة مبالغةً في الضَّراعة والابتهال[3].

فقد قالت، كما قال سلفها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصَّلاة والسَّلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]، أي: فلا يسمع أحد قولي مثل سمعك[4]، ولا يعلم أحد نيَّتي مثل علمك.

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23.

(2) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 2/531.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27.

(4) البِقاعيُّ: نظم الدُّرر: 4/351.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال للقصَّة الَّتي بدأت بها الآية السّابقة؛ لتكشف عمّا آل إليه حالُ نذرِ أمِّ مريم؛ إذ طوت القصّة أشْهُرَ الحَمْلِ بالموهوب، وأتت بساعة الولادة، فلمّا وضعت الأمُّ المولودَ؛ علمت أنَّها أنثى، فحكت الآيةُ حالها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وكانت قد نوت تحريرَ ما في بطنها في خطابها لربّها في الآية السّابقة: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾؛ طلبًا لأنْ يكون جنينُها الَّذي في بطنها ولدًا، يخدمُ في بيت المقدس.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَعَتۡهَا﴾: جِذر الكلمة (وَضع)، وهو أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّه، والمَوْضِعُ المكان، ووَضَعَ الشَّيءَ من يده يضعه وَضْعًا، ومَوْضِعًا، ومَوْضُوعًا أيضًا، والوَضِيعَةُ: واحدة الوَضَائِع، وهي أثقال القوم، يقال: أين خلَّفوا وضائعهم؟ ووَاضَعَه في الأمر، أي: وافقه فيه على شيء، ووَضَعَتِ المرأةُ وَضْعًا: ولدت[1]، والمعنى المحوريُّ: الهُوِيُّ بالشَّيء إلى مقرٍّ منخفض يثبت فيه (عن حيِّز عالٍ كان فيه)[2]، والوضع: الولادة، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ﴾، قال الحرالّي: من الوضع: وهو إلقاء الشَّيء المستثقل[3].

2) ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: جِذرُ الكلمة هو (رَجَم)، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالرِّجام، أي: الحجارة[4]، والرُّجْمة بالضَّمِّ: واحد الرُّجَم، والرِّجَام: وهي حجارة ضخام، والشَّيطانُ الرَّجِيمُ: المطرود عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى، وفُسِّرت صفته هذه بالمرجوم:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وأبو بكر الرَّازيِّ، مختار الصحاح: (وضع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وضع).
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351.
(4) الراغب، تفسير الرَّاغب: 2/528. الزمخشري، أساس البلاغة: 1/341، وابن سيده، المحكم: (رجم).

بالكواكب، أي: شأنه وشأن قَبيلِه أن يُرْجموا بالكواكب، أو: رجيم ملعون مرجومٌ باللَّعنة مبعدٌ مطرود، وكلُّ (رجيم) في القرآن؛ فهو بهذا المعنى، ويستعار الرَّجم للرَّمي بالظَّنِّ، والكلام المقرِّع، والتَّوهُّم، وللشَّتم، والطَّرد، نحو قوله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [الكهف: 22]، وقوله تعالى: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، أي: لأقولنَّ فيك ما تكره.

والمعنى المحوريُّ: ثِقَل عظيم يُثْقَل به الشَّيء بنحو الطَّرح والقذْف، كتلك الرُّجْمة، "ويتحقَّق عِظَم الإثقال بقوَّة قذف الشَّيء، ولو لم يكن عظيم الثِّقل في ذاته، كرجم الفرس الأرض بحوافره عند ما يجتهد في جَريه"، ومن هنا "الرَّجْم: القتل، وإنَّما قيل للقتل: رَجْم؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا؛ رموه بالحجارة، حتى يقتلوه، وبه قيل في تفسير قول قوم نوح له: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾ [الشُّعراء: 116]، أي: بالحجارة، فكأنَّ الأمر هنا تهديد بالقتل، والرَّجمُ في القرآن: القتل، وقيل: المعنى: من المرجومين بالحجارة، والرَّجمُ: اسم لما يُرجَمُ به الشَّيء، والجميع الرُّجوم، وهي الحِجارةُ، والرُّجُومُ: الَّتي تُرمى بها الشّياطين"[1]، وقيل ذلك للنَّجم المنقضِّ، لقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: 5][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

فلمَّا تمَّ حملُ امرأةِ عِمران، ووضعت مولودَها؛ قالت: ربِّ؛ إنِّي وضعتها أنثى، لا تصلحُ للخدمة في (بيت المقدس) والانقطاعِ للعبادةِ فيه؛ بسبب ما يعتريها ممَّا يعتري النِّساء، ففي كلامِها نوعُ عُذْرٍ من ربِّها، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، وسوف يجعلُ الله لها شأنًا، وقالت: وليس الذَّكرُ الَّذي أردتُ للخدمة، كالأنثى في ذلك؛ لأنَّ الذَّكَر أقوى على الخدمة وأقْوَم بها، وإنِّي سمَّيتها مريم - وكلمة مريم معناها في لغتهم: العابدة، أو خادمُ الرّبِّ، فأرادت بهذه التَّسمية التَّقرُّب إلى الله والالتماس منه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقًا لاسمها - وإنِّي حصَّنتها بك هي وذريَّتها من الشَّيطانِ المطرودِ من رحمتك[3].

---

(1) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجم).

(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/528.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/208، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة تأنيث الضَّمير في قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾:

حـمـلـه عـلى المعنى في (ما) الذي كان أنثى في عِلْمِ الله

قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾، أي: فلمَّا وضعت النَّذيرةَ؛ ولذلك أنَّث، ولو كانت (الهاء) عائدة على﴿مَا﴾ الَّتي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾؛ لكان الكلام: فلمَّا وضعته؛ قالتْ: ربِّ إنِّي وضعته أنثى[1]، باعتبار أنَّ ما في بطنها هو الجنين الَّذي كان يُرتجى أن يكون ذكرًا، قال تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النَّجم: 32]، وذهب أبو حيَّان الأندلسيُّ إلى أنَّه أنَّث الضَّمير في ﴿وَضَعَتۡهَا﴾؛ حملًا على المعنى في ﴿مَا﴾؛ لأنَّ ما في بطنها كان أنثى في علم اللّه تعالى[2].

سرُّ تكرار عنوان الرِّبوبيَّة في مقام التَّحسُّرِ:

تَـذَكُّـرُ وصف الإحـسـان عـنـد الأحـزان اسـتـمـطـار للامتنان

وخاطبت امرأة عمران ربَّها على سبيل التَّحسُّرِ، وهو ما خرج إليه النِّداء، على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قدّرت؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذكرًا يصلح للخدمة، ولذلك نذرته محرّرًا[3].

فيصوِّر القرآن مشهد ذهولها في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، أي: تَحَسُّرًا ذاكرةً وصف الإحسان استمطارًا للامتنان[4].

بلاغَةُ المَجَازِ المُرسَلِ في اللَّفظِ المُرَكَّب:

يلزم من الإخبار بـضـدِّ المـرادِ المحبوبِ التَّحسُّرُ والـحـزنُ على الفائت

التَّركيب في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ - بما اشتمل عليه من الخصوصيَّات - يحكي ما تضمَّنَه كلامُها في لغتها من المعاني: وهي الرَّوعة والكراهية لولادتها أنثى، ومحاولتها مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الواقع، ثُمَّ تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها، ثُمَّ انعكاس ذلك تحسُّرًا في نفسها، فلذلك أودع حكاية كلامها

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/333.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/116.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/116.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351.

خصوصيَّات من العربيَّة، تعبِّر عن معانٍ كثيرةٍ قصدتها في مناجاتها بلغتها[1]، وهذا من بلاغة القرآن ولغته في الإيجاز، فهي تشير بقرينة الحال إلى مشاعر التَّحسُّر الَّتي تشغل قلبها ساعتئذٍ[2].

ولمَّا استعملت هذا الخبر في الإنشاء؛ استعملته برمَّته على طريقة المجاز المرسل في اللَّفظ المركَّب[3]، ومعلوم أنَّ المركَّب يكون مجازًا بمجموعه لا بأجزائه ومفرداته[4]، والعلاقة بين المعنى الأصليِّ: وهو الإخبار، والمعنى المجازيِّ: وهو التَّحسُّر وإظهار الحُزْنِ: (اللُّزوم)؛ إذ يلزم من الإخبار بذهاب الشّيء المحبوب المعلوم للجميع التَّحسُّر والحزن عليه، ويعكس هذا التَّحوُّل في الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء ما يدور في النَّفس من تحوُّلات متسارعة، بين الطُّمأنينة الَّتي كانت تغمر النَّفس، إلى حالة الاضطراب والتَّساؤل، عمَّا يكتنف مستقبل هذه الأنثى الَّتي كانت ترتجيها ذكرًا.

فائدة تأنيث الضَّميرِ في ﴿وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾:

المُسارعة إلى عَرْض ما دَهَمها من خيبة الرَّجاء

أُنِّث الضَّمير في ﴿وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ باعتبار ما دلَّت عليه الحال اللّازمة في قولها أنثى؛ إذ بدون الحال لا يكون الكلام مفيدًا، فلذلك أُنِّث الضَّمير باعتبار تلك الحال[5]، فقولُه تعالى: ﴿أُنثَىٰ﴾ حالٌ مؤكِّدة من الضّمير، أو بدلٌ منه، وتأنيثُه للمسارعة إلى عَرْض ما دَهَمها من خيبة الرَّجاء، وإنّما قالته تحزُّنًا وتحسُّرًا على خيبة رجائِها وعكسِ تقديرِها؛ لما كانت ترجو أن تلدَ ذَكَرًا[6]، ولو كان النَّظم: (وضعت أنثى)؛ لما أظهر التَّعبير ذلك التَّحسُّر، ولَمَا كشف عن خيبة رجائها وحزنها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(2) عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية: 1/50.

(3) المجاز المرسل في اللّفظ المركب: هو لفظ مركَّب يستعمل بهيئته التركيبيَّة في غير المعنى الَّذي وُضِعَتْ له صيغة جملته في اصطلاح التَّخاطب، لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ويكون هذا المجاز في قسمين: القسم الأول: المركَّبات الخبرية، القسم الثَّاني: المركَّبات الإنشائيَّة، فقد تخرج عن دلالتها الخبرية أو الانشائية مجازًا للدَّلالة بها على معنًى آخر. ينظر: عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية، ص: 679 - 683.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/232.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/28.

توجيه ما ورد من القراءات في ﴿وَضَعَتْ﴾ وبلاغتها:

الإخبار بعظيم شـأن ما وضعت، وبيان أنَّ ما يختاره الله الخيرُ كُلُّهُ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ بسكون التّاء الّتي للتَّأنيث[1] على الإخبار من ربِّ العالمين، وهو تعظيمٌ من جهته تعالى لموضوعها، وتفخيمٌ لشأنه، وتجهيلٌ لها بقدره، أي: واللّه أعلم بالشّيء الّذي وضعته، وما علق به من عظائم الأمور، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك، والجملة على هذه القراءة اعتراضيَّة[2].

إظهارُ غاية الإجلال مع كمال الخضوع اعتذار إلى ربِّها وتسلية لقلبها

وفي قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم، ويعقوب: بضمِّ التَّاء ﴿وَضَعْتُ﴾[3]، على ضمير المتكلِّمة امرأة عمران، مع الالتفات من الخطاب إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال، فيكون ذلك منها اعتذارًا إلى اللّه تعالَى؛ إذ أتت بمولودٍ لا يصلُح لما نذرته من السَّدانة، أو تسليةً لنفسها على معنى: لعلّ اللّه تعالى يجعل فيه سرًّا وحكمةً، ولعلَّ هذه الأنثى خيرٌ من الذَّكَر، فوجه الالتفات حينئذٍ ظاهر[4]، وعليه فاسم الجلالة التفات من الخطاب إلى الغَيْبة، فيكون قرينة لفظيَّة، على أنَّ الخبر مستعمل في التَّحسُّر[5].

فائدة لام العهد الخارجيِّ الكنائيِّ[6]:

المعهود أن يتولّى الذّكور خدمة دور العبادة لا الإناث

التَّعريف باللَّام في ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ للإشارة إلى معهود بين المُخاطِب والمُخاطَب، وهي اللَّام الَّتي يتقدَّم لمدخولها ذِكْرٌ كنائيٌّ، أي: غير مصرَّح به مبهمٌ، تعيِّنه القرائن، وتسمّى حينئذٍ لام العهد الخارجيِّ

(1) وهي على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائيِّ وحفص عن عاصم، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة: 204، وابن الجزري، النشر: 2/239.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/28.

(3) ابن مجاهد، السَّبعة: 204، وابن الجزري، النشر: 2/239.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/28.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(6) لام العهد الخارجي: هي التي يراد بمدخولها معينٌّ في الخارج فردًا أو أكثر، وتعينَّ مدخولها، إمَّا: لتقدُّم ذكره صريحًا أو كناية، وإمَّا لتقدُّم العلم به سواء كان حاضرًا أمّ غير حاضر، فالذِّكر الصَّريح مثل: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، والكنائيُّ مثل: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، فإنَّ الذَّكر لم يتقدَّم ذكره صريحًا، بل كناية في قوله تعالى: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، فإن ﴿ما﴾ محتملة للذَّكر والأنثى، ولكن بانضمام قيد التَّحرير إليها صار مرادًا بها الذَّكر. ينظر: القزويني، الإيضاح: 2/29.

الكنائيّ[1]، ويسمّى بالعهد الذهنيّ، وهو ما تقدَّمَ فيه ذكر المسنَد إليهِ تلويحًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾، فإنَّه لم يسبق ذِكْر ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ صريحًا، وإنَّما أُشيرَ إليهِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾، فإنَّ ﴿مَا﴾ يرادُ منه الذَّكر؛ لأنَّه القابلُ لخدمةِ المسجدِ، وقد كانوا لا يُحرِّرون إلَّا الذُّكورَ، وهو المعنيُّ بـ ﴿مَا﴾، ويسمَّى: كنائيًّا[2]، وفائدة ذكر الذَّكَرِ: أنَّ فحوى الخطاب جميعه كان يدور حول قضيَّة الذَّكرِ المُحرّر لخدمة بيت المقدس، من هنا تظهر فائدة ما ذكرنا.

وقد تكون اللَّام مفيدة معنى الجنس والحقيقة، فتفيد عموم التَّفريق بين الجنسين مع التَّفاضل، كقولك: الرَّجل خير من المرأة، أي: جنس الرَّجل خير من جنس المرأة[3].

معنى التَّشبيه المنفيِّ في قوله: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾:

خروج التَّشبيه إلـى معنى الاعتذار، وبيان أنّ الموْهوبَ خيرٌ من المطلوب

ونفي المشابهة بين الذَّكر والأنثى يُقصد به معنى: التَّفضيل في مثل هذا المقام، كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32][4]. ولذلك لا يتوخُّون أن يكون المشبَّه في مثله أضعف من المشبَّه به؛ إذ لم يبقَ للتَّشبيه أثر، ولذلك قيل هنا: وليس الذَّكر كالأنثى، ولو قيل: وليست الأنثى كالذَّكر لفهم المقصود.

ومن معاني نفي التَّشبيه ما يأتي:

الأوّل: تفضيل الذَّكر على الأنثى؛ لاعتبارات ذكرها الفخر الرَّازي نلخِّصها فيما يأتي: أحدها: في شرعهم أنَّه لا يجوز تحرير الذُّكور دون الإناث، والثَّاني: أنَّ الذَّكر يصحُّ أن يستمرَّ على خدمة موضع العبادة، ولا يصحُّ ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النُّسوان، والثَّالث: الذَّكر يصلح لقوَّته وشدَّته للخدمة دون الأنثى، فإنَّها ضعيفة لا تقوى على الخدمة، والرَّابع: أنَّ الذَّكر

(1) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، ص: 119.
(2) عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية: 1/441.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص 210.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.

لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالنَّاس، وليس كذلك الأنثى، والخامس: أنَّ الذّكر لا يلحقه من التُّهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى، فهذه الوُجوهُ تقتضي فضلَ الذَّكر على الأنثى في هذا المعنى[1]، وفيها تأكيدُ الاعتذار ببيان أنَّ الذَّكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزيّة والصَّلاحِيَّةِ[2]، ومن هنا فقد خرج هذا التَّشبيه إلى معنى الاعتذار، قال السُّدِّيُّ: ظنَّت أنَّ ما في بطنها غلام، فلمَّا وضعت جارية؛ اعتذرت[3]، وجعلوا نفي المشابهة على بابه من نفي مشابهة المفضول للفاضل، وإلى هذا مال صاحب الكشَّاف، وتبعه صاحب المفتاح[4].

والقول الثَّاني: تفضيل الأنثى الموهوبة على الذَّكر المطلوب: فكأنَّما قيل لها: وليس الذَّكر الَّذي رغبت فيه بمساوٍ للأنثى الَّتي أعطيتها؛ لو كانت تعلم علوَّ شأن هاته الأنثى[5]، فكأنَّها قالت: الذَّكر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة اللّه تعالى، وليس الذَّكر الَّذي يكون مطلوبي، كالأنثى الَّتي هي موهوبة للّه، وهذا الكلام يدلُّ على أنَّ تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال اللّه، عالمة بأنّ ما يفعله الرَّبُّ بالعبد خير ممَّا يريده العبد لنفسه[6]، ولكن قدّم الذَّكَرَ هنا؛ لأنَّه هو المرجوُّ المأمول فهو أسبق إلى لفظ المتكلِّم[7].

دلالة الاعتراض بأكثر من جملة:

بـيـانُ أنَّ مَـنْ فـوَّضَ أمـرَهُ إلى الله لا ينبغي أن يتعقَّبَ تدبيرَهُ

الاعتراض[8] بأكثر من جملة وقع أثناء الكلام، وكقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وما بعده، اعتراض بأكثر من جملة[9].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24. وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/276.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.
(8) الاعتراض: هو أن يؤتى أثناء الكلام، أو بين كلامين متّصلين معنًى بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب، ولنكتة سوى دفع الإبهام، فخرج الاحتراس. ينظر: ابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 386، حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/145.
(9) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/145.

و قد جاء بين كلامين متَّصلين معنًى، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ ليس من قول أمِّ مريم، وإنَّما هو اعتراض من كلام اللّٰه سبحانه، والنُّكتة فيه تعظيم الموضوع وتجهيلها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: واللّٰه أعلم بالشّيء الَّذي وضعت، وما علق به من عظائم الأمور، وجعلها وولدها آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا علم لها به؛ ولذلك تحيّرت، وتحزّنت، ثم زاده بيانًا وإيضاحًا بالجملة الثَّانية من الاعتراض، فقال: وليس الذَّكر الَّذي طلبت، كالأنثى الَّتي وهبت لها[1].

سبب الإعلام بالتَّسمية في قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾:

التقرُّب إلى اللّٰه بوفاء نذرها كاملًا عينًا واسمًا

وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾، في تسميتها فَورَ وَضْعِها إشارةٌ إلى وُقوع النَّذْر المتقرَّبِ به إلى اللّٰه كامل الوجود اسمًا ورسْمًا، ومقصودها من هذا: الإخبار بالتَّسمية للتَّقرُّب إلى اللّٰه سبحانه وتعالى، وأن يكون فعلُها مطابقًا لمعنى اسمها، فإنَّ معنى مريم: خادم الرَّبِّ بلغتهم[2]، فَهِيَ وإن كانت غير صالحة لخدمة بيت المقدس؛ فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات، وكأنَّها أرادت بهذه التَّسمية أن تطلب من اللّٰه تعالى أن يعصمها من آفات الدِّين والدُّنيا؛ لأنَّ المعنى: وإنِّي سمَّيت هذه البنت المولودة لي: عابدة الرَّبِّ[3].

وفائدة ذكر التّسمية أيضًا: أنَّ هذا الاسم في لغتهم اقتضى معنى التَّحرير[4]، وقيل: حَتَّى تعرف هَل وَقع ذَلِك الِاسْم بِرِضا اللّٰه تَعَالَى حَتَّى يُغيِّر أَو يُقرَّر[5]، والجملة عطف على ما قبلها ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ من مقالها، وما بينهما اعتراض، وإنّما ذكرت ذلك لربِّها تقرُّبًا إليه، وطلبًا؛ لأن يعصمها، ويصلحها حتى يكون فعلها

(1) ابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 386.
(2) حقق ذلك رؤوف أبو سعدة في كتابه: من إعجاز القرآن العلم الأعجمي في القرآن: 2/251 - 262.
(3) القنوجي: فتح البيان: 2/223، والهرري، حدائق الروح والريحان: 4/278.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/530.
(5) أبو المظفّر السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/313.

مطابقًا لاسمها[1]، وإظهارُ أنَّها غيرُ راجعة عن نيَّتها؛ وإن كان ما وضعته أنثى، وأنَّها إن لم تكن خليقةً بسِدانة بيت المقدس؛ فلتكنْ من العابدات فيه[2].

فائدة المضارع في ﴿أُعِيذُهَا﴾:

مراقبة النَّفس تقتضي تجديد الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ عطف على ﴿إِنِّي سَمَّيۡتُهَا﴾، وصيغةُ المضارع للدّلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، أي: أُجيرُها بحفظك؛ إذ تحكي حالها، أنَّها ستكون في دوام على حال استعاذتها بك وذرِّيَّتها من الشَّيطان الرَّجيم؛ لما يُعلم من إلحاح الشَّيطان على العبد، ومراجعته على ارتكاب الآثام وتعاطي الذُّنوب، فاحتاج ذلك من العبد المراقبة لنفسه، وتجديد الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم، كما يبيِّن ذلك الموقف من أمِّ مريم أيضًا مقدار التَّواصل الرُّوحيِّ لبيت النُّبوَّة، والاتِّصال بالله تبارك وتعالى، وبراعة الدُّعاء والإنابة عندهم، وجلال مواقفهم.

بديع تلوين الخطاب بطريق الالتفات والجناس:

تصوير حالة الأمِّ بين مُراد نفسها، وقدر الله بها

من جميل بيان الآية ما فيها من تلوين في الخطاب: (من الغائب إلى المتكلِّم فإلى الغائب فإلى المُتكلِّم)، في وصف حالها، وهي تُفجأ بما وضعت، فقال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾ للغائب، ثُمَّ إلى المتكلِّم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ثُمّ التفت إلى الغائب، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، في كلمة واحدة هي ﴿وَضَعَتۡ﴾، كان الرَّابط فيها جناس الاشتقاق بين ﴿وَضَعَتۡهَا﴾ و﴿وَضَعۡتُهَآ﴾ و﴿وَضَعَتۡ﴾، ثُمَّ التفت إلى المُتكلِّم، فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾، وهذا التّناوب في التَّحوُّل من الغائب إلى الحاضر في حالات متناوبة، تصوير عميق لحالة النَّفس وإرباك موقفها، وتقلُّبات ما كان يجول في خواطرها.

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.

ثُمّ نرصد بين قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، وقوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾ تلوينًا من الغائب المتمثِّل في اسم الجلالة، والخطاب المتمثِّل في ﴿بِكَ﴾، والانتقال من الغائب المتمثِّل في ﴿وَضَعَتۡ﴾ إلى المتكلِّم في ﴿أُعِيذُهَا﴾: يضيف انطباعًا إلى حالة العودة إلى واقع الحال بعد اضطراب نفسيٍّ قصير، ثُمَّ الرِّضا بأمر اللّه وقضائه، ومحاولة التَّطابق والتَّوافق بين ما كان مرادًا وبين ما قدَّره اللّه تعالى، والعودة إلى اللّه في الدُّعاء والاستعاذة من الشَّيطان الرَّجيم.

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور على المعطوف:

إبــراز كـمـال العناية والأنس بجميل الرِّعاية

قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾عطف على الضَّمير، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِكَ﴾ عليه؛ لإبراز كمالِ العنايةِ والأنس بجميل الرِّعاية[1]، ومن جانب آخر: فإنَّه أخَّر ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾، ولم يقل: أعيذها وذرِّيَّتها بك، فيدلُّ ذلك على حالة الاضطراب والخوف على الأنثى الَّتي كانت قد نُذرت، كما يُنذر الذَّكر؛ ليعمل محرَّرًا في بيت المقدس، ففي ذلك دلالة استعجال استحصال الحفظ من اللّه لها، وتأخير الاهتمام بذرِّيَّتها لما تراه الأمُّ من بُعد الزَّمن لحضور ذرِّيَّتها، وليُعلم أيضًا أنَّ صلاح ذرِّيَّتها آتٍ من صلاحها.

نكتة التَّذييل بذكر الاستعاذة باللّه من الشَّيطان:

بيان الحاجة إلى الاستعاذة باللّه في كلِّ الأحوال

وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالحجارة، وعن النَّبيِّ ﷺ: «ما مِن بَني آدم مَوْلودٌ إلَّا يَمَسُّه الشَّيطانُ حِين يُولَد، فيَسْتَهِلُّ صارخًا مِن مَسِّ الشيطان، غير مريم وابنها»[2]، ومعناه: أنَّ الشَّيطان يطمع في إغواء كلِّ مولود يتأثَّر منه إلَّا مريم وابنها، فإنَّ اللّه تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.

(2) البخاري، الحديث رقم: (3431)، ومسلم، الحديث رقم: (2366).

(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/14.

فائدة تأكيد الإخبار بإنَّ في مواضع عديدة:

تكرَّرت ﴿إِنِّي﴾ مرّات عديدة، وذلك لزيادة التَّأكيد؛ لأنَّ حال كراهيتها يؤذن بأنَّها سَتُعْرِضُ عنها، فلا تشتغل بها، وكأنَّها أكَّدت هذا الخبر؛ إظهارًا للرِّضا بما قدَّر الله تعالى، ولذلك انتقلت إلى الدُّعاء لها الدّالِّ على الرِّضا والمحبَّة، وأكّدت جملة ﴿أُعِيذُهَا﴾، مع أنَّها مستعملة في إنشاء الدُّعاء؛ لأنَّ الخبر مُسْتَعْمَلٌ في الإنشاء برمَّته الَّتي كان عليها وقت الخبريَّة[1].

المؤمن راضٍ بقضاء الله تعالى، مُسلّمٌ بقدره

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوضع والحطِّ:

قال الرَّاغب: والوضع أعمُّ من الحطِّ، ومنه الموضع، والوضيعة: الحطيطة[2].

فالحطُّ: فيه ضَغْطٌ بقوّة إلى أسفل، يُقال: حُطَّ البعيرُ للمفعول: طَنِيَ، فالتزقت رئته بجنبه، (فالطّنَى: مرض يتمثَّل في هذا)، "المِحَطُّ والمِحَطَّة (آلة): حديدةٌ أو خَشبةٌ يُصْقَل بها الجِلْد حتَّى يلين وَيبرق، ويُنقَش بها الأديمُ، الحَطوط: الأكمة الصَّعبة الَّتي يندفع النَّازل منها بقوَّة كأنَّما ضُغط، واحتطَّ الرَّحْلَ: وضعه، ومنه الحَطُّ: وضْع الأحمال عن الدَّوابِّ ونحو ذلك؛ إذْ هو إهباط لارتفاعها بنقل جِرْمها من أعلى إلى أسفل مطاوعة لضَغط ثقلها، وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: 58]، فُسِّرت بالحَطِّ: وَضْع الحِمل، أي: حُطَّ عَنَّا ذنوبنا[3].

فلا يتناسب الحطُّ مع الولادة، فضلًا عن كرامة المولود؛ ولذلك أوثر التَّعبير بالوضع؛ لما فيه من سعة الدَّلالة، ولما فيه من معنى إسقاطه من بطنها إلى الأرض، وتكريم المولود - ولو كان سِقْطًا - كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ [الحج: 2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.

(2) الراغب، المفردات (وضع)، والمناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 338.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حطط).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد الجملة الدُّعائيَّة الَّتي وردت في الآية السَّابقة بقول أمِّ مريم: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وفيها ما فيها من التّناسب بين اسم مريم، وبين نذْر ما في بطنها محرَّرًا، بيّن سبحانه في هذه الآية أنَّه قَبِلَ نَذْرَهَا، واستجاب دعاءَها؛ إذْ قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: تقبَّل مريم من أمِّها، ورضي أن تكون محرّرة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: جذر الكلمة (قَبِلَ)، وهو يدُلُّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَالْقِبْلَةُ سُمِّيَتْ قِبْلَةً؛ لِإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا فِي صَلَاتِهِمْ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أَيْضًا، وَالْقَبِيلُ: الْكَفِيلُ؛ يُقَالُ: قَبِلَ بِهِ قَبَالَةً، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقْبِلُ عَلَى الشَّيْءِ يَضْمَنُهُ.

والمعنى المحوريُّ: مُقدَّم الشَّيء الَّذي يُتَّجه إليه منه؛ لملاقاته أو النَّفاذ فيه، كأفواه الجَداول والوِدْيان والعُروق، ومن دخول الجَوْف أُخِذَ معنى الفعل (قَبِلَ)، كقَبول الهدية: أدخلها في حَوْزته، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، وقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3]، وكذلك يطَّردُ معنى كلِّ ما في القرآن من هذا الاشتقاق أو التركيب، فقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾، بمعنى: تكفَّل تربيتَها، أو: رضيَها، ولفظ التقبُّل يقتضيهما، قال الحسن: قَبوله إيَّاها أنَّه صانها عن كلِّ أذًى، ولمَّا كان تقبَّل وقَبِلَ يتقاربان، جَمَع بين التَّقبُّل والقَبول؛ تنبيهًا أنَّهُ جَمَعَ من الأمرين التَّقبُّل الَّذي يقتضي الرِّضا والإثابة، أو أنَّ القَبول من قولهم: فلانٌ عليه قبولٌ؛ إذا أحبَّه من رآه[1].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل)، والراغب، تفسير الرّاغب: 2/531 - 2/532، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).

2) ﴿وَكَفَّلَهَا﴾: جِذر الكلمة (كَفَلَ): وهو يَدُلُّ عَلَى تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، والكفيلُ: الضَّامن للشّيء، كَفَلَ به يكفُلُ به كَفالةً، والكافِلُ: الَّذي يَكْفُلُ إنسانًا يعوله، ويُنفق عليه، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، أي: هو كَفَل مريم؛ لينفق عليها، حيث ساهموا على نفقتها حين مات أبواها، وأصل الكفالة: الضَّمُّ، ومنه قولهم: كَفَلَ فلان فلانًا؛ إذا ضمَّه إلى نفسه يموِّنه، ويصونه(1).

3) ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: جِذر الكلمة (حَرَب)، والمعنى المحوريُّ له: هو سَلْبُ الشَّيءِ، أي: سَحْبُه وأخذُه بقوَّة، أو حِدَّة، والمحرابُ: مأوى الأسد، وهو زُبْيَةُ الأَسَدِ تكون في قمَّة الجبل، ومن ذلك كلِّه نفسِّر المحرابَ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، ﴿وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم: 11]، ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ٢١﴾ [ص: 21]: بأنَّه خَلْوة مرتفعة (غُرْفة)، ينفردُ فيها الرَّجلُ أو المرأةُ عن النَّاس، فذاك هو الَّذي يتأتَّى معه استعمال: دخل، وخرج، وتَسَوَّرَ، ومحرابُ المسجدِ اليومَ من ذلك؛ لأنَّه يَسْمح للإمام وحده بالتَّقدُّم أمام النَّاس، ويطلقُ المحرابُ على: صَدْر المجلس، والجمع: محاريب، وعلى الغُرْفة، وعلى القِبْلة، ومِحْرابُ المَسْجِدِ أَيضًا: صَدْرُه وأَشْرَفُ مَوْضِعٍ فِيهِ، ومَحارِيبُ بَنِي إسرائيلَ: مَسَاجِدُهم الَّتِي كَانُوا يَجلسون فِيهَا، ويَجْتَمِعُون فِيهَا لِلصَّلَاةِ.

ثم أطلق المحرابُ عند المسلمين على موضعٍ كشكل نصف قبَّة في طول قامةٍ ونصفٍ، يجعلُ بموضع القبلة؛ ليقفَ فيه الإمامُ للصَّلاة، وهو إطلاق مُوَلَّد.(2).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن رفعت امرأةُ عمران حاجتها إلى الله تعالى، استجابَ اللهُ دعاءَ امرأةِ عِمْرانَ، وقَبِل منها نَذْرها أحسنَ قَبول، وتقبَّل وليدتَها مريمَ قَبولًا مباركًا خَرَق به عادةَ قومها، فرضيَ أن تكونَ مُحرَّرةً للعبادةِ وخدمةِ بيتِه كالذُّكور، مع كونها أنثى وفاءً بنَذْر الأمِّ التَّقيَّة، وتولَّى ابنتَها مريمَ بالرِّعاية فأنبتها نباتًا حسنًا، وصانَها من كلِّ سوء، ويسَّر الله لها زكريا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والنسفي، طِلبَة الطَّلَبَة: (كفل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأجدابي، كفاية المتحفّظ، ص: 170، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حرب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.

عليه السلام كافلًا وضامنًا لمصالحها، وراعيا لشؤونها، فأسكنها في مكان عبادته، وكان كلّما دخلَ عليها في محراب عبادتها؛ وجد عندها رزقًا هنيئًا مُعَدًّا، قال: يا مريمُ مِن أين لكِ هذا الرِّزقُ الطَّيب؟ قالت: هو رزقٌ من عند اللّه، رزقني إيَّاه، وساقَه إليَّ بقدرته؛ إنَّ اللّه - بفضله وواسع جوده - يرزق مَن يشاء مِن خلقه رزقًا واسعًا عظيمًا لا يحدُّه حدٌّ، ولا تجري عليه الأعدادُ الَّتي تنتهي[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة التِّفريع في قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾:

الإيـذان بسرعة إجابـة الـدَّاعـي الموقن بكرم ربِّه وعونه

قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ تفريع على الدُّعاء مؤذن بسرعة الإجابة، ومعنى ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: تقبَّل تحريرها لخدمة بيت المقدس، أي: أقام اللّه مريم مقامَ منقطعٍ للّه تعالى، ولم يكن ذلك مشروعًا من قبل[2]، فرضي بها في النَّذر مكان الذَّكرِ[3]، فتحقَّقت من هذا التّفريع مسألتان: سرعة الإجابة، ومخالفة المعهود، وكان ذلك خاصًّا بمريم بنت عمران.

سرُّ العدول عن (قَبِلَها) إلى ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾:

بـيــان كـمــال الرِّضا وموافقته للعناية الذَّاتيَّة

التَّضعيف في ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ بدل (قبلها)؛ للإيذان بجلالة شأن القبول من حيثُ (الكمُّ)، وكون المُتَقَبِّلِ هو ﴿رَبُّهَا﴾؛ لما فيه من حسن الرِّعاية وكرم الولاية، ودخول الباء على ﴿بِقَبُولٍ﴾؛ لتوكيد الصِّلة بين الفعل (تقبَّل)، ومصدره المُبيِّن لنوعه (قبول)[4]، وقيل: الباء زائدة مؤكَّدة لمضمون الجملة، والقَبول مصدرٌ مؤكِّد للفعل السَّابق، وأصل نظم الكلام: تقبَّلها قبولًا حسنًا، وإنَّما عدَلَ عن الظَّاهر؛ للإيذان

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 1/207، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/87، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/160 - 161.

بمقارنة التَّقبُّل لكمال الرِّضا، وموافقته للعناية الذَّاتيَّة، فإنَّ صيغة (التَّفَعُّلِ)، المرادُ بها في حقِّه تعالى ما يترتَّبُ عليها من كمال قوَّةِ الفعل وكثرتِه، وقيل: القَبولُ ما يقبل به الشَّيء، وهو اختصاصُه تعالى إيَّاها بإقامتها مُقام الذَّكَر في النَّذر، ولم تُقبلْ قبلها أنثى، أو بأن تسلَّمها من أمِّها عَقيبَ الولادة قبل أن تنشأ، وتصلُحَ للسِّدانة[1].

سرُّ العدول في المرّة الثَّانية عن التَّقبُّل إلى القبول:

إظهار العناية العظيمة في تربيتها ورعايتها منذ صغرها على حبِّ الله تعالى

وقوله: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، الباء فيه للتَّأكيد، وأصل نظم الكلام: فتقبَّلها قبولًا حسنًا، فأدخلت الباء على المفعول المطلق؛ ليصير كالآلة للتّقبُّل، على سبيل الجناس المغاير بين اللَّفظتين، فكأنَّه شيء ثانٍ، وهذا إظهارٌ للعناية بها في هذا القبول[2]، أو بوجه حسنٍ يُقْبَلُ به النَّذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكر، أو تسلُّمها عَقِيبَ ولادتها، قبل أن تكبر، وتصلح للسّدانة[3].

دلالة استعارة الإنبات لمعنى الرِّعاية:

بيان كمال رعاية الله تعالى لها وتربيتها جسديًّا وروحيًّا

معناه: وأنبتها، فنبتت هي نباتًا حسنًا، قال ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: سلك بها طريق السُّعداء[4].

وممّا يشابه المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]، والمعنى: رعاها، ونمَّاها تنمية جسديَّة وروحيَّة، فأمَّا الجسديَّة؛ فرعاها، وأنبتها على أحسن تقويم، وأنبتها كأحسن نبات، فرعى نبتها، كما يُرعى النَّبات، حتَّى يقوى عوده، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، حيث أنشأها، كما ينشأ النّبات، وفائدة هذه الاستعارة: بيان حسن النَّشأة، فيكون ثمرها على أحسن ما يكون الثَّمر.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(4) الخازن، لباب التأويل: 1/340.

وأمَّا التَّربية الروحيَّة؛ فيكون قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا﴾، أي: ربَّاها تربية حسنة، وتقدير الكلام: أنبتها، فنبتت نباتًا[1]، فجيء بالجناس المغاير بين لفظتي النَّبات والإنبات؛ ليشمل الإنبات المعنى المجازيَّ الدَّالَّ على تربيتها الأخلاقيَّة والروحيَّة بما يُصلِحها في جميع أحوالها[2].

قال الزَّمخشريُّ: "نباتها مجاز عن التَّربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، كالصَّلاح والسَّداد والعفَّة والطَّاعة"[3]، وممَّا يدلُّ على هذا الإنبات قوله بعد ذلك: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وكفالة زكريَّا لها، معناه: أن تعيش في كَنَف نبيٍّ.

وهذه العناية الإلهيَّة العظيمة الظَّاهرة من قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ إرهاص بأنَّه سيكون منها رسول، وسيكون خاتم رسل بني إسرائيل.

دلالة عطف الخاصِّ على العامِّ:

الدِّلالة على أنَّ كفالة العبد من تمام تقبُّل الله له

قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ عطف الخاصَّ: وهي (الكفالة)، على العامِّ: وهو (التَّقبُّل)، وفي هذا العطف توطئة لما بعده[4]، وقيل: معنى التَّقبُّل والقبول، أي: التَّكفُّل في التَّربية، والقيام بشأنها[5] على التّرتيب، وإنَّما قال: ﴿بِقَبُولٍ﴾ للجمع بين الأمرين، يعني: التّقبُّل الَّذي بمعنى: التَّكفُّل، والقبول الَّذي بمعنى: الرِّضا[6]، فيكون بذلك قد انتقل من الخَاصِّ إلى العامِّ.

وقد عرف هذا القبول بوحي من الله إلى زكريَّا بذلك، وأمره بأنْ يكفلها زكريَّا أعظم أحبارهم، وأنْ يوحى إليه بإقامتها بعد ذلك لخدمة المسجد[7].

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/532.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/354.
(4) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(5) الخازن، لباب التأويل: 1/341.
(6) الخازن، لباب التأويل: 1/341.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.

ودلَّ قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾: إنَّما كانت كفالتها بعد طفولتها، وحجَّة ذلك بوجهين: الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، وهذا يوهم أنَّ تلك الكفالة بعد ذلك النَّبات الحسن، والثَّاني: أنَّه تعالى قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّها كانت قد فارقت الرِّضاع وقت تلك الكفالة، والجوابُ على القول الأوَّل: أنَّ الواو حرفُ عطف للجمع، لا توجب التَّرتيب، فلعلَّ الإنبات الحسن وكفالة زكريَّا حصلا معًا، وأمَّا الحجَّة الثَّانية؛ فلعلَّ دخوله عليها، وسؤاله منها هذا السُّؤال، إنَّما وقع في آخر زمان الكفالة[1].

تنوُّع الفوائد البلاغيَّة لـ ﴿كُلَّمَا﴾:

تـفـصـيـل ما أجــمــل مـن التَّقبُّل والقبول والإنبات

قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾، كُلَّمَا: ظرف عَلى أنَّ (مَا) مصدريّةٌ والزَّمان محذوف، أي: كلَّ زمانِ دخولِه عليها، أو كلَّ وقتٍ دخل عليها فيه[2]، ومن فوائده البلاغيَّة في الآية الكريمة:

أوَّلًا: كون ﴿كُلَّمَا﴾ استئنافًا لتفصيل بعض ما أُجمل في التَّقبُّل الحسن من وجدان الرِّزق عند مريم.

ثانيًا: إفادتها الحصر؛ وأنَّ زكريَّا ما دخل على مريم إلَّا وجد عندها ما تحتاج من طعام وشراب[3]، والتَّقديرُ: كلَّ وقت دخول زكريَّا عليها وجد عندها رزقًا[4].

تكرار ذكر الرِّزق بعد ذِكرِ الإنبات:

رِزقُ الله تعالى لمريم كرامةٌ لها وإرهاصٌ لدورها المرتقب

اختُلف في الرِّزق، فقيل: إنَّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يجد عندها طعام الشِّتاء في الصَّيف، وطعام الصَّيف في الشِّتاء، ولم تكن على صلة

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/26.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/236.

بأناس أو خدم يأتونها بشيء، ولو كان أحدٌ يأتيها بالرِّزق غير زكريَّا من حيث لا يعلمه؛ لَمَا أعاد الله ذكره تعجُّبًا من أمرها[1].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾:

تـخـريـج الاستفهام على معنى التَّعجيب

قوله: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ﴾ استئناف بيانيٌّ مرتَّب على سؤال مقدّر: ماذا قال زكريَّا؟ فيأتي الجواب قوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾، وهو استفهام مشوب بالتَّعجيب، وهذا ما يقتضيه المقام[2]، و﴿أَنَّىٰ﴾ استفهام عن المكان، أي: من أين لك هذا؟ فلذلك كان جواب استفهامه قوله: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[3]، فاستفهام زكريَّا مريم عن الرِّزق؛ لأنَّه في غير إبَّانه ووقت أمثاله، قيل: كان عنبًا في فصل الشِّتاء[4]، وقيل: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾، لاستكثار ما يرى عندها، واعتبارُ السُّؤال عن المكان أصحُّ[5].

وإنَّما خاطبها عليه السلام بذلك، مع كونها بمعزلٍ من رتبة الخطاب؛ لما علم بما شاهده أنَّها مؤيَّدةٌ من عند الله بالعلم والقدرة[6].

نكتة ذكر المسند إليه في الجواب:

تعظيم للرِّزق واعتراف بفضل الرَّازق

﴿قَالَتۡ﴾: استئناف لما قبله، كأنَّه قيل: فماذا صنعت مريمُ، وهي صغيرة لا قُدرةَ لها على فهم السُّؤال وردِّ الجواب؟ فقيل: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، فلا تعجبْ، ولا تستبعد[7]، فقوله: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، ولم يكتفِ بالقول: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لما في ذلك الرِّزق من شأن في حياة مريم، وحضوره في ذهنها[8]، فقالت: ﴿هُوَ﴾ إيغالًا في الشُّكر والعرفان لله تعالى.

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/533 - 534.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/278.
(6) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/15، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30، والآلوسي، روح المعاني: 2/135.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30.
(8) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.

بلاغة حذف الجُمَل في القصَّة القرآنيَّة:

حــذفُ الجمل مــن الإيــجــاز المــفــضي إلى الإعجاز

دلَّ قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ على كلام محذوف، أي: فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت المقدس، وكانت تتعبَّد بمكان تتَّخذه بها محرابًا، وكان زكريَّا يتعهَّد تعبُّدها، فيرى كرامة لها أنَّ عندها ثمارًا في غير وقت وجود صنفها[1]، فهذه كلُّها جُمل محذوفة، وهذا من جميل النَّظم القرآنيِّ في القصَّة؛ إذْ لا يكاد السَّامع أو القارئ للنَّصِّ أن يُحسَّ بحذف هذا الكمِّ من الجمل؛ فقد أُجملت عبارات القصَّة بكلِّ هذه المعاني، وصوَّرتها تصويرًا خفيًّا في إيجازٍ مُعجز.

نكتة التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿يَرۡزُقُ﴾:

رزق الله واسع لا يَـنـفـدُ ولا يـغـيـض، بـل يتجدّدُ ويزيد

لمّا وصف رزق الله لمريم؛ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ﴾ بصيغة المضارع الَّتي تفيد التَّجدُّد والاستمرار، فكان رزقه لها متجدِّدًا مستمرًّا متبدِّلًا متنوِّعًا، والتّنكير في الآية ﴿رِزۡقٗاۖ﴾ أفاد ذلك التَّنوُّع، وتلك الكثرة، ومن جميل السُّؤال أو ما يمكن الوقوف عليه والاستفسار عنه: أين يذهب طعام أمسِ، أو الَّذي قبله ممَّا بقي منه؟ فدلالة المضارع أفادت التَّجدُّد المستمرَّ، في الرِّزق القادم من السَّماء، وإدارة هذه المائدة برعاية اللّه تعالى.

سِرُّ الكناية في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾:

بيان كـثـرة رزق الـلـه وتَـنَـوُّعِـهِ وعدمِ نفاده

الحساب في اللُّغة: التَّقتير والتَّضييق[2]، والحساب في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ بمعنى: الحصر؛ لأنَّ الحساب يقتضي حصر الشَّيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى: أنَّ اللّه يرزق من يريد رزقه بما لا يُعرف مقداره؛ لأنَّه موكول إلى فضل اللّه[3]، فهو كناية عن الكثرة والتَّنوُّع في الرِّزق، أي: بغير تقدير لكثرته، أو من غير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/236.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/278.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.

مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطّلاق: 3][1]، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾، هذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم، أو أن يكون من كلام اللّه سبحانه وتعالى.

تكرار مادّة (الرِّزق):

الحضور المكثّف لمادّة الرِّزق للتأكيد على أنّه رزقٌ حقيقيّ لا مجازي

تكرّرت كلمة الرِّزق أكثر من مرّة، فأتَتْ في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾، وفي قوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾؛ لاعتبار الحقيقة في الرِّزق لا المجاز، وأنَّه رزق يأتيها من عند اللّه دون وسائط بشريَّة.

دلالة التَّذييل بالعبارة الجارية مجرى التَّمثيل:

تقرير مضمون ما سبق وتأكيد حقيقة الرَّازقيَّة التي هي عنوان الرُّبوبيَّة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ تذييلٌ مقرِّر ومؤكِّد لمضمون الكلام السَّابق، وتوكيد الخبر: بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ ليُكافئ الدَّهشة والتَّعجيب في سؤال زكريَّا عليه السلام وتكرار الإسناد في الجملة: مرَّة إلى المسند إليه، وأخرى إلى الفاعل الضَّمير العائد على المسند إليه؛ لما مرَّ من مكافأة ما في السُّؤال من تعجيب ودهشة، ولأنَّ مضمون الجملة حقيقة عظيمة، ومن حقِّ الحقائق العظيمة أنْ يُعبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها[2].

ولمَّا كانت هذه العبارة ردًّا على لسان مريم عليها السلام حين تحدَّثت عن الرِّزق الَّذي يأتيها من عند اللّه؛ أصبحت بعد ذلك تمثيلًا لكلِّ موقف، يُرى فيه عجيب رزق اللّه تعالى لعباده كثرة وتنويعًا، وإغداق النِّعم على عباده، فيقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/28.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/161.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا عايشَ زَكَرِيَّا عليه السلام أَحداثَ الأمورِ فيما رآه من أحوالِ مريمَ ابنةِ عمرانَ عليها السلام وهو ما أشارتْ إليه الآيةُ السابقةُ في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]، هنالك عَلِمَ عِلْمَ تذكُّرٍ؛ وتَجَدُّد اليَقينُ عنده أنَّ اللّٰه سبحانه وتعالى في الإمكانِ أن يَخْرُقَ عادته لمن شاء بكلمته، ويُرزَقَه بولدٍ يَخلفُه ويكونُ له وليًّا، فتنبَّهَ إلى ما يَعْلَمُه حقَّ العِلْم؛ أنّه - سبحانَهُ - سَميعُ دعاءِ المُضطرّينَ، ومُجيبُ دعاءِ المُتوكّلينَ. وأنّ القادرَ على الإتْيانِ بالشّيء في غير أوانه، قادرٌ على الإتيانِ بالولدِ بعد فواتِ كلِّ الأسبابِ، فدعا ربَّه الذي عوَّده الإحسانَ: ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّدُنكَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (لدن): بمعنى عندَ، ويقال: لَدُنْ، ولَدْ، ولُدْ، ولَدَى، ولَدُنْ أبلغُ من عند وأخصُّ، وتقولُ: وَقَفُوا له من لَدُنِ كذا إلى المَسجدِ، ونحوَ ذلك، إذا اتّصَلَ ما بين الشّيئَينِ، وكذلك في الزَّمان: من لَدُن طُلوعِ الشّمسِ إلى غُروبِها، قال:

فما زالَ مُهْري مَزجَرَ الكلبِ منهم*** لَدُن غُدْوةٍ حتى دنتْ لغُروبِ(2).

ولَدُنْ وَلَدَى ظَرْفَا مَكان بِمَعْنَى: عِنْدَ، إلَّا أَنَّهُمَا لَا يُسْتَعْمَلَانِ إلَّا في الحَاضِرِ، يُقَالُ: لَدُنْهُ مَالٌ إذا كَانَ حَاضِرًا، وَلَدَيْهِ مَالٌ كَذَلِك، وَجَاءَهُ مِنْ لَدُنَّا رَسُولٌ، أَيْ: مِنْ عِنْدِنَا، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ لَدَى في الزَّمَانِ، وفق المَعنى السِّياقيّ؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5] يريدُ السّرعَةَ في الإجَابَةِ(3)، وقولِه تعالى: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ [الكهف: 76]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/363.
(2) الخليل، العَين، والراغب، المفردات: (لدن).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (لدن).

واللَّدُنُ: اللِّيَّن من كُلِّ شيءٍ، ورُمْحٌ لَدْنٌ، والأُنثى لَدْنةٌ، والجمع: لِدانٌ ولُدُنٌ، وامرأة لَدِنةٌ: ريّا الشّباب ناعمةٌ[1]. وسِرْنَا لَدُن غُدْوَةٍ: من طُلوع الشَّمسِ إلى غُرُوبها، ومنَ المَجَاز: لَدُنَتْ أخلاقُه، وهو لَدِنُ الخليقةِ: لَيِّنُ العَريكةِ، وتَلَدّنْتُ في حاجتي: تمكّنْتُ وتلدَّنْتُ بالمكان: أقمتُ، وتلدّنَتْ عليّ راحلتي إذا لم تَمْشِ[2]، وقدِ اصطفَى القرآنُ الكريمُ (لَدُن) على (عندك)، لِما تدلُّ عليه منَ الوقتِ الحاضرِ طمعًا في جُودِ الكريمِ جلَّ وعزَّ.

2) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: جذرُ الكلمة هو (سَمِع)، وأصلُ السَّمْعِ: سَمعُ الأصوات، ثم سُمّيتِ الأُذُنُ سمْعًا؛ لأنَّ السّمعَ بها يكون فيما بيننا، وهي المِسْمَعَةُ، والسَّمْعُ ما وقَرَ فيها من شيء تسمعُه. يقال: أساءَ سَمْعًا فأساءَ إجابةً، أي: لم يسمعْ حسنًا فأساءَ الجوابَ[3].

وسمّى الإجابَة سمعًا؛ لأنّها مع السّمعِ تكونُ في أكثر الأوقاتِ، والسّميعُ لا يقتضِي المسموعَ؛ لأنّ فعيلًا جُعلَ للمبالغةِ، وليس هو على مقتضَى فعل، والسَّميعُ من أسماء اللّه تعالى وهو لم يزلْ سميعًا، وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعُه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامَّة بها.

والثاني: سمعُ الإجابة منه للسائلين والدَّاعين والعابدين فيصيبهم ويثيبهم[4].

والسّمعُ في القرآن على وجهين: الأوّل: سمعُ الصوت، قال اللّٰه: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: 20] أي: يُعرِضُون عنِ الإيمانِ، ويَنصرفونَ عنه انصرافَ مَن لا يستطيعُ سمعَهُ. الثّاني: القَبولُ والإجابةُ، وهذا هو المَعنَى السِّياقي؛ قال اللّٰه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مُجيبُه، وأنت تقولُ لصاحبكَ: اسمعْ نَصيحتِي مع أنك تعلَم أنّه يَستجيبُها، وإنّما تُريدُ: اقبل، ونحوُه قولُك لمن تُجلُّه: سمعًا وطاعةً، أي: أقبَلُ ما تَقُولُ، وأطيعُك فيه، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الأنفال: 23] أي: لسمّاهم سُمَعاءَ، ولم يُسمّهم صُمًّا بُكمًا[5].

---

(1) الخليل، العَينُ، وابن سيده، المحكم: (لدن).
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (لدن).
(3) الخليل، العَينُ: (سمع).
(4) السعدي، تفسير أسماء الله الحسنى: 209.
(5) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 254.

وقد اصطفى النَّظمُ الكريمُ السَّميعَ على المُجيبِ إلماعًا بما يَقتضيه السَّمعُ من سُرعةِ الإجابةِ.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليِّ:

عندما رأى زكريَّا ما أكرمَ اللّٰه به مريمَ مِن رزقه وفضله، عند ذلك طمِعَ في الولدِ، - وكان آيسًا منْ ذلك؛ لِما أصابَهُ مِنَ الكِبَرِ هو وامرأتُه - توجَّه إلى ربه قائلًا: يا ربِّ أعطني من عندك ولدًا صالحًا مباركًا مُهذَّبًا، مُستويَ الخَلْقِ؛ لتكمُلَ النعمةُ الدينية والدنيوية بالذُّرية الطاهرة الأخلاق والآداب، إنك سميع الدُّعاء لمن دعاك، فأنتَ قادرٌ أن تَرزقَني الولدَ بعدَ هذا الكِبَرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

الآيـة استئنافٌ مسوقٌ لتحقيقِ ما خَطَر لزَكَريَّا ﷺ من سوانحَ

قولُه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتحقيق ما خَطَر لزَكَريَّا ﷺ من سوانحَ بعدَ التَّحوُّلِ الفِكْريِّ الطَّارئِ عليه[2]. والقصّةُ مُستقلّةٌ، سِيقَتْ في تضاعيفِ حكايةِ مَريمَ، لِمَا بينهما من قُوّةِ الارتباطِ، والتّداخُلِ، مع ما في إيرادِها من تقريرٍ، وبيانٍ لاصطفَاء آل عِمْرَانَ؛ فإنّ فضائلَ بعضِ الأقرباءِ أدلّةٌ على فضائلِ الآخَرين منهم.

سرُّ كمالِ الاتّصالِ بين مَطلعِ الآيةِ الكريمةِ، وما قبلها

أفـادَ التّفصيلُ في الدّعاءِ إثراءَ الـنّـصّ بَلاغيًّا بماتضمّنَهُ من تفصيلِ المطلوبِ المـرغـوبِ فيه بإرادة ذُريّة طيّبة

وقعتِ الجملةُ من قوله تعالى قبْلَها ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ موقعَ كمالِ الاتّصال؛ إذ كانت بمثابةِ عطفِ البيانِ؛ فبعدَ أن أجملَ في ذِكرِ دُعاءِ زَكَريَّا فقال: ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾ فَذَكَرَهُ مُجملًا؛ فسَّر ذلك الإجمالَ، وبيّنَ ما تضمّنَه الدّعاءُ،

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/278، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسّر، ص: 55.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.

وفصّلَ فيه القولَ فـ ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾؛ فكان محورُ دُعائِهِ أنْ يهبَ اللّه له الذُريّةَ الطّيّبة، وقد أفاد هذا التّفصيلُ في الدّعاءِ إثراءَ النّصّ بَلاغيًّا بماتضمّنَهُ من تفصيلِ المطلوبِ المرغوبِ فيه فهو لايريدُ أيَّ ذُريّةٍ، لكنّه يريدُ ذُريّةً طيّبةً.

سر التّعبير بـ﴿هُنَالِكَ﴾، ووجه زيادة اللام فيه(1):

دَأْبُ الصّالحينَ اغْتِنامُ الأوقاتِ الّتي يُتوقّعُ فيها إجابَةُ الدّعاءِ

قَوۡلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ﴾ يقعُ على الزّمانِ والمَكان، وإنْ كانَ المكانُ أمْلكَ له[2]. فأَكْثَرُ مَا يَقَعُ (هُنَا) ظَرْفَ مَكَانٍ، وهو أَصْلُهَا[3]، وهو اسْمٌ يُشَارُ بِهِ لِلْمَكَانِ القَرِيبِ؛ نَحْوَ قوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]، و(هناك) في كلامِ العرب إشارةٌ إلى مكانٍ فيه بُعدٌ، فإنْ ألحَقْتَهُ كافَ الخِطَاب دَلّ على المَكانِ البَعيد[4]. فتكون ﴿هُنَالِكَ﴾ أبلَغَ في الدَّلالة على البُعد[5]، ودخولُ اللَّامِ وَالكَافِ عليه جعلَه لِلبَعيدِ؛ نَحْوَ قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الأحزاب: 11]. وخلاصةُ القولِ أنّه في ذَلِكَ المَكانِ دَعَا زَكريًّا، والكَافُ حَرْفٌ لِلْخِطَاب، وبها تَصيرُ (هُنَا) لِلْمَكَانِ البَعِيدِ عَنْكَ، وَدَخَلَتِ اللَّامُ لِزِيَادَةِ البُعْد، وكُسِرَتْ عَلَى أَصْلِ التِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ هي والأَلِفُ قَبْلَهَا، أو أنها كُسِرَتْ لِئَلَّا تَلْتَبِسَ بِلَامِ المِلْكِ[6].

بلاغةُ الاستعارَةِ في زمانيّة الظَّرفِ:

مـن دَواعِـــي إجَابة الدّعاءِ أن يكونَ في أزمِنَةٍ، وأمـكـنَـةٍ لها فضائلُ عندَ الله تعالى

تأتي ﴿هُنَالِكَ﴾ للزّمانِ على سبيلِ الاستعارة، فيُشَارُ بِهِ لِلزَّمَانِ اتِّسَاعًا، وخُرِّجَ عَلَيْه: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾ [يونس: 30][7]، فيُرادُ بها ظرفُ الزّمانِ[8]، فقَوۡلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ﴾، أي: " في ذلك

(1) وقد ذُكِرت فائدتُه. أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/359.
(3) العكبري، التبيان: 1/256.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(6) العكبري، التبيان: 1/256.
(7) السيوطي، الإتقان: 2/302، والسيوطي، معترك الأقران: 3/253.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.

المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت فقد يُستعار (هنا)، و(ثَمَّ)، و(حيث) للزمان"[1]، فإنْ حملْنَاهُ على المكانِ فهو جائزٌ، أي في ذلك المكانِ الذي كان قائمًا فيه عند مَريمَ في المِحرابِ، وشاهَدَ تلك الكراماتِ دعَا ربَّهُ. وإنْ حملْنَاهُ على الزّمانِ فهو جائزٌ أيضًا، يعني في ذلك الوقتِ دعا ربَّه[2]. أو سأل فيه مَريمَ فأجابتْهُ بقولِها: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[3]. وفائدةُ المجازِ شُمولُ الزّمانِ والمكانِ؛ إذ إنّ كِلَيْهما جائزٌ ومُرادٌ، فزَكَرِيَّا ﷺ حَالَ ما رأى ما يحدثُ لمريمَ منَ الكراماتِ الإلهيةِ دعَا ربَّه فاجتمعَ فضل الزّمانِ والمكانِ في ذلك المَوقفِ العظيم، والخلاصةُ أنّ كلَّ ذلك مرادٌ هنا؛ لأنَّ الوقتَ والزَّمانَ والمكانَ والحال كلَّه من دواعِي استجابةِ الدّعاءِ ومَظِنَّةِ قَبولِه، ولم يزلْ أهلُ الصّلاح يتوخَّوْنَ الأمكنةَ بما حدثَ فيها من خيْرٍ، والأزمنةُ الصّالحةُ كذلك، وما هي إلّا كالذّواتِ الصّالحةِ في أنّها مَحَالُّ تجلِّياتِ رضَا اللّه[4].

الدّعاءُ عِلمٌ لَدُنّيٌ يتجدّدُ ويتفعّلُ مع رُقيِّ الإنسانِ وسُموِّ رُوحِهِ في دَرجاتِ الإيمانِ والإحسانِ

وظهرتْ على زَكَرِيَّا كراماتُ هذه الكفالةِ، فتعلّمَ من مَكفولتِهِ أسلوبًا جديدًا في التّوسُّلِ واللُّجوءِ إليه - سبحانه - إذ يُكتنزُ في ﴿هُنَالِكَ﴾ دواعٍ لذلك الدّعاءِ في ذلك المكانِ وذلك الزّمانِ والحالِ؛ قال الحَرَالِّي: لمّا أشهدَهُ اللّه - سبحانه وتعالى - أنّه يَخرقُ عادتَه لمن شاء بكَلمتِهِ في حقِّ كفيلتِهِ في الظاهر، دعا ربَّهُ الذي عوّدَهُ بالإحسانِ أن يرزقَهُ ولدًا في غيرِ إبّانِه، كما رزقَ مريمَ رزقًا في غيرِ زمانِه، فوجبَ دعاؤُهُ[5].

بديع التناوب في التعبير عن التّوسُّلُ بالله تعالى بين: (الدّعاء) و(النّداء):

النِّداءُ عامٌّ يَحكِي الحالَ الذي ألجأهُ إلى الدُّعاءِ، والدّعاءُ خاصٌّ مُتضمِّنٌ المقصودَ المرجُوَّ نفسَه

أطلقَ التّعبيرُ القرآنيُّ على التّوسُّلِ في موضعِ دعاءً، وفي موضعٍ آخر نداءً، فقال في سورة مريمَ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣﴾ [مريم: 3]. وقال هنا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾. فسمّى اللّه سبحانه سؤالَ

(1) العكبري، التبيان: 1/256.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/209.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/66.

عبادِهِ له دعاءً، ونداءً[1]، والفرقُ في المعنَى ظاهرٌ جليٌّ لمن تدبّرَ، وتسميتُه نداءً لا يخرجُ عن كونِه عبادةً. فـ ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾ المذكورُ في آل عمران، سمّاه في سورة مريمَ ﴿نِدَآءً﴾ [مريم: 3]، وتفسيرُ النّداءِ فيها وصفٌ للحالِ بقولِه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 4، 5]، فشرحَ حالَه مُضمِّنًا ذلك توسُّلَه باللّه - سبحانه - أن يُغيّرَ حالَهُ، وهذا هو النّداءُ. ولعلَّ العلاقةَ بين الدُّعاءِ والنِّداءِ كالعلاقةِ بين الخاصِّ والعامِّ، فالنّداءُ هو حكايةُ الحالِ؛ يَحكِي الحالَ الذي ألجأَهُ إلى الدُّعاءِ؛ فالنِّداءُ عامٌّ والدّعاءُ خاصٌّ مُتضمِّنٌ المقصودَ المرجُوَّ نفسَه، أو أنَّ النّداءَ وصفٌ لحالٍ من أحوالِ الدُّعاءِ، والدُّعاءُ مُحتوَى النِّداءِ ومضمُونُه.

المعنَى المُكتنَزُ في قولِه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾:

أساليبُ الدُّعاءِ تتنوّعُ بتنوُّعِ الأحوالِ والأشخاصِ، وخُصوصيّةِ الزّمانِ والمكانِ

لما رأى زكريا عليه السلام حالَ مريمَ في كرامتِها على اللّه، ومنزلتِها رغبَ في أن يكون له ولدٌ[2]. تذكُّرًا لما عوَّدهُم اللّه - سبحانه وتعالى - عليه منَ الإكرام، وقولُه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾؛ أيَ في المكانِ نفسِه[3]، وحدثَ ذلك قبل أنْ يخرُجَ، فالتقى الزّمانُ مع المكانِ، مع الحالِ، ويُؤكّدُ ذلك الردُّ المباشرُ للملائكة: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾؛ فجمع بين الزّمانِ والحالِ والمكانِ، والمحرابُ مكانُ مريمَ الذي كانت مقيمةً فيه؛ إذْ توجّهَ إلى اللّه بالصَّلاةِ والدُّعاءِ، فنادتْهُ الملائكةُ على الفَورِ كما يُعلِنُ عنه استخدامُ الفاء الطاويةِ الزَّمنَ بين الدُّعاءِ واستجابتِهِ. فيكونُ معنى ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك الوقتِ والحالِ والمكانِ، وكلُّها عظيمةُ المِقدارِ[4].

بلاغةُ التّحوّلُ في الآية منَ الأسلُوبِ الخَبَريِّ إلى الإنشائيِّ:

النّفسُ المؤمنةُ ترتاحُ إلى تمجيدِ الذّاتِ الإلهيّةِ في خِطابٍ خاشعٍ

في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ انتقلَ الخطابُ منَ الأسلوبِ الخَبريِّ إلى الأسلوبِ الإنشائيِّ الذي جاء مَقولَ القولِ؛

(1) أبابطين، تأسيس التقديس، ص: 77.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/387.
(3) الرّاغبُ، تفسير الرّاغب: 2/535.
(4) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.

لبيانِ تفصيلاتِ ذلك الدُّعاءِ، فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ فتضمّنَ الأسلوبُ الانشائيُّ النِّداءَ والأمرَ، اللّذين خرجَا إلى معنًى مَجازيٍّ واحدٍ هو الدّعاءُ.

بَلَاغةُ الالتِفَات منَ الغَائبِ إلى التّكلُّمِ مع التِّكرَارِ بينَهُمَا:

الالتفاتُ حيثُ جاء ضميرُ الغائبِ من قولِه: ﴿رَبَّهُۥ﴾ إلى ضميرِ التّكلّمِ في قولِه: ﴿رَبِّ﴾ فلمّا انتقلَ منَ الإجمال إلى التّفصيلِ التفتَ تبعًا لذلك منَ الغائبِ إلى المُتكلِّم ليتناسبَ حالُ الحُضور في اللِّسانِ والذِّهنِ، مع حضورِ القَلبِ في التّوسّلِ والدُّعاءِ، ومنْ ثَمَّ استحضارُ القُربِ منَ اللّه - تبارك وتعالى - لحظةَ الدُّعاءِ. وبين الكلمتَيْن: ﴿رَبَّهُۥ﴾ و﴿رَبِّ﴾ تكرارٌ؛ فائدتُه التّلذُّذُ بالذِّكر.

التفتَ منتقلًا منَ الإجمالِ إلى التّفصيلِ ليناسبَ حال الحضورِ في اللّسانِ والذِّهنِ مع القلبِ في الدُّعاءِ

سِرُّ التعبير بجملة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

أطنبَ زَكَرِيَّا عليه السلام في الدّعاءِ طمعًا في حبِّ اللّه والتَّلذُّذِ في ذكرِه سبحانه فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ ولو قال: ربِّ هبْ لي ذُرّيةً طيّبةً؛ لتحقّقَ المعنَى المُرادُ. فقال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ رغبةً في زيادة ذكرِ اللّه، والتّوسُّلِ إليه سبحانه مع ما في ﴿لَّدُنكَ﴾ من دَلالةِ الحُضور، وطلبِ الإجابةِ السّريعةِ.

منْ مزايَا الدّعاءِ المُستجابِ الإطنابُ في ذكر اللهِ تلذُّذًا، والثّناءُ عليه تضرُّعًا

خُصوصيّةُ هذا الدُّعاءِ تُوحي باسْتِدعاء الكرم الإلهيِّ الذي لا تحدُّهُ حدودُ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتّكْوين؛ لأنَّه يعلمُ أنّ حالتَه ممّا بلغَ منَ الكِبَرِ وحالِ امرأتِه العَجوزِ العاقرِ تمنعانِ الإنجابَ الطَّبْعي، وَفْقَ السُّننِ التي وضعَها اللّه تعالى في الخَلْقِ؛ فلمّا قال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أراد تجاوُزَ المُحدِّداتِ والموانعِ الطَّبْعيّةِ. فالفائدةُ في قولِه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ هاهنا أنَّ حصولَ الولدِ في العُرفِ والعادةِ له أسبابٌ مخصوصةٌ، فلمّا طلبَ الولدَ مع فُقدانِ تلك الأسبابِ كان المعنَى: أريدُ منك إلهي أنْ تعزِلَ الأسبابَ في هذه الواقعةِ، وأن تُحدثَ هذا الولدَ

التّعبيرُ بـ (منْ لدنكَ) طلبٌ للولدِ بجَعْلِ المَمنوعِ منَ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتّدبيرِ مسموحًا

بمَحْضِ قُدْرتِكَ من غيرِ تَوسُّطِ شيءٍ من هذه الأسبابِ[1]. فقد سألَ اللّه تعالى بقُدرتِهِ على جَعْلِ المَمنوعِ منَ السُّنَنِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتَّدبيرِ مسموحًا، فدعاه وهو يعلمُ أنّه بحسب قانونِ الأسبابِ والمُسبّباتِ غيرِ مُؤهَّلٍ للإنجاب قطعًا، فسألَ اللّه بقُدرته. قال أبو زهرة: " ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك، أي السبب يكون من عندك لا من عندي، لأن الأسباب عندي قد زالت، ولم يعد إلّا سببٌ منك، وإلّا معجزةٌ تكون فيها المانح المعطي من غير أي علة أو ترتيب. والتعبير بـ ﴿لَّدُنكَ﴾ التي لا تكاد تستعمل في القرآن إلّا في جانب اللّه تعالى يفيد العندية العالية السّامية، لا العنديّة القريبة المقارنة، ولا العنديّة المقاربة"[2].

بلاغة المَجَازِ المُرسل في لفظ (الطيّب):

إطلاقُ الطيّبِ على الصّالحِ منَ الذُّريّةِ زيادةَ معنًى بصلاحِ الخُلُقِ، والخَلْقِ معًا، والدّينِ والطبعِ معًا

لمّا رأى زَكَرِيَّا من أحوالِ مريمَ تلك العجائبَ، وكان به حاجةٌ إلى الولَدِ مع كِبَرِ سِنِّهِ ووَهَنٍ من عظامِه، سأل ربَّه أن يهبَ له ذُرِّيَّةً طيّبةً، أي: صالحَةً، واستعمالُ الطيّبِ في الصّالحِ: كاستعمالِ الخبيثِ في ضدِّهِ، في نحو قوله: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾ [النور: 26]، على أنّ في الطّيّب زيادةَ معنًى على الصّالح[3]؛ إذ تشملُ صلاحَ الخُلُقِ، والخَلْقِ معًا، وصلاحَ الدّين والطبع معًا، فكان جبلّةً طيّبةً وطبعًا صالحًا، يكون حَصانًا للدِّين والإيمان، فاستعمالُ الطّيّب لصلاح الذّريّة جاء على سبيل المَجازِ المُرسَلِ،، والعلاقةُ اللّزومُ؛ فالذّريّةُ الطيّبةُ هي التي يأتي منها أنواعُ الصّالحات في القولِ والعملِ والاعتقادِ، ويُرجى منها خيرُ الدّنيا والآخرة بحصول الآثارِ الصّالحةِ النّافعة، ومُشاهدةُ خوارقِ العادات خوّلتْ لزَكَرِيَّا الدّعاءَ بما هو منَ الخوارق، أو منَ المُستبْعَدات؛ لأنّه رأى نفسَه غيرَ بعيدٍ عن عنايةِ اللّه تعالى لا سِيّما في زمنِ الفيض أو مكانِه؛ فسألَ الذّريةَ الطّيّبةَ؛ لأنّ ذلك طِلْبَةُ أهلِ الخُصوصِ[4].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/481.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1203.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/535.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.

نكتة الدُّعاء بالعُمومِ لـ ﴿ذُرِّيَّةً﴾ وإرادة الخُصوص (الولد الذَّكر):

تــوافــقــتْ مُــعــجــزاتُ وكــرامــاتُ آل عـمــــران وأقـربـائِـهـم فـي الـذّريّـةِ وتـمـحْـورتْ حولَها

المُلاحظُ أنّ مُعجزاتِ آل عمران وأقربائِهم كآل النّبيِّ زَكَرِيَّا عليه السلام تمحورتْ حولَ الذُّرِّيّة؛ فبدأت بكرامةِ أمِّ مريمَ بما وهبَ اللّه لها منَ الخيرِ؛ ومرّتْ قصّتُها، وهي تهَبُ ما في بطنها مُحرّرًا طلبًا للذِّكر، فوضعت أنثى كان لها منَ الأثرِ الكبيرِ على تغييرِ مسارِ التّاريخِ الإنسانيِّ؛ فرُزقتْ بمريمَ عليها السلام التي ستكونُ في قابلِ الأيام أُمًّا لخاتمِ أنبياءِ بني إسرائيلَ، في مُعجزةٍ فريدةٍ من نوعِها؛ ثمّ بكرامةِ ما وهبَ اللّه لزَكَريَّا، ثمّ بكرامةِ مريمَ، وما سيُوهبُ لها، فهي كلُّها محطُّ الذّريّة، ثمّ إنّ يحيى بنَ زَكَرِيَّا، وعيسى بنَ مريمَ، لم يكن لهما ذرّيّةٌ. من هنا فقد سبقتِ الإشارةُ إلى الاهتمامِ بالذُّرّيّة، فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34].

الذُّرية لفظٌ يقعُ عـلى الـواحـدِ، والجمعِ، والذَّكرِ والأُنـثـى، وهنا طلبَ الذَّكرَ

والذُّريةُ هنا الولدُ، وهو اسمُ جنسٍ، تقعُ على الواحدِ والجمعِ[1]، كما أنَّ الوليَّ يقعُ على اسم جنسٍ كذلك، من قولِه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ [مريم: 5]؛ وأرادَ فيه بالذّرية واحدًا، ودليلُ ذلك طلبُه وليًّا، ولم يطلُبْ أولياءَ[2]. فالذُّرية هي النّسلُ، وهو لفظٌ يقعُ على الواحدِ، والجمعِ، والذَّكرِ والأُنثى، وهنا طلبَ الذَّكرَ. مع أنّ فيه إشعارًا بكثرةٍ ونَسْلٍ باقٍ؛ فأُجيبَ بولدٍ فردٍ لمّا كان زمانَ انتهاءٍ في ظهور كلمةِ الرُّوح، وبأنّه لا يَنْسلُ، فكان يحيى حَصورًا لغلبةِ الرُّوحانيةِ على إنسانيتِهِ[3]. لقوله في سورة مريمَ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾؛ إذ حَصَرَ بها دُعاءَه على ولايتِهِ له، فكان حَصُورًا لا يَنسلُ، ولو كان دُعاؤُه كما وردَ في قولِه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34] لتوالدَ ونسلَ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/388.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/427.

(3) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.

بيانُ تأكيد الخبر في الفاصلة:

تحوّلَ الإنشاءُ في الفاصلة إلى خبرٍ مؤكَّدٍ بـ (إنّ) بقولِه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وفائدةُ التأكيدِ هنا كاشفةٌ عن ثقةِ الدّاعي زكريّا عليه السلام بأنَّ دعاءَه مُجابٌ، وكأنّه يقرّرُ بلسانِه ما اطمأنَّ إليه قلبُه، فالحقُّ - سبحانه - ليس بحاجةٍ إلى توكيدٍ.

فائدة التوكيد تقرير اللسان ما اطمأنَّ إليه القلبُ من استجابة الدّعاء

بلاغة المَجاز في الفاصلة:

وسَميعٌ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ بناءُ اسمِ فاعلٍ[1]، أي: إنّك مُجيبٌ لمن دعاك على الشَّرائط التي بها تُدْعَى[2]؛ فليس المرادُ منه أن يسمعَ صوتَ الدُّعاء فذلك معلومٌ، بلِ المرادُ منه أنْ يُجيبَ دُعاءَه ولا يُخيّبَ رجاءَه، فالسَّميعُ: بمعنى السَّامع. أراد مُجيبَ الدُّعاءِ[3]، وقد أجابَه الحقُّ تعالى فأرسل إليه الملائكةَ مُبشِّرةً، وهذا متأكّدٌ بما قال تعالى حكايةً عن زَكَرِيَّا عليه السلام في سورة مريمَ: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤﴾ [مريم: 4][4]. أي: لم أكنْ غيرَ مُجاب الدَّعوة، فكنتُ مُجابَ الدَّعوةِ. فسميعٌ بمعنى مُجيب، وهو مَجازٌ لُغويٌّ مُرسلٌ بعلاقةِ اللُّزوم بين السّمعِ والقُدرة على الإجابةِ، ويمكنُ أن يكونَ المعنى أنَّ قُدرتَك على الإجابةِ هي كقُدرتِك على سماع الدُّعاء، فيكونُ استعارةً لعلاقةِ المُماثَلةِ في القُدرة.

السّمع بمعنى القدرة على إجابة الدّعاء

وجه التعبير بصيغة المبالغة:

وصِيغةُ المبالغةِ في ﴿سَمِيعُ﴾ كشفتْ عنِ التّلهُّفِ والرّغبةِ في طلبِ إجابةِ دُعائه.. واستحصال الذّرّيّة ولدًا وليًّا له.

براعة التَّوشيح في الفاصلة:

ختمَ بالدُّعاء في قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وبدأ به، على سبيلِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/427.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/535.
(3) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/278.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/207.

التّوشيح[1]، وهذا يُوحي للقارئ بمدَى اليقين الذي ملأ قلبَ زَكَرِيَّا - ﷺ، وهو في موقفِ الدُّعاء ذاك، فبَدأ كلامَه بأسلوبِ الدُّعاء ﴿رَبِّ﴾ أي يا ربّ، وختمَها بكلمةِ ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾، فقال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

في التوشيح بيانٌ لليقين الذي ملأ قلبَ زَكَرِيَّا ﷺ، وهو في موقفِ الدُّعاء

بيانُ التّذييلِ في الفاصلة:

في قولِه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تذييلٌ، فائدتُه: تحقّقُ المُرادِ من دُعاء زَكَرِيَّا، إذْ إنّ فحوى الآيةِ كلِّها، ومجموعَ ما أُريدَ فيها أن يُستجاب الدُّعاءُ، ويُوهَبَ الولدُ ليكونَ وليًّا لزَكَرِيَّا؛ ولذلك أُكِّدتْ بـ (إنّ) لتقوية معنَى التَّذييل للآيةِ الكريمةِ.

فائدة التذييل تحقّقُ المُرادِ من دُعاء زَكَرِيَّا بأن يُستجاب، ويُوهَب الولدُ

توجيه المتشابه اللفظي:

ورد لفظ ﴿سَمِيعُ﴾ مرّتين في القُرآن الكريم مُضافًا إلى ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾؛ الأُولى: في دُعاء زَكَرِيَّا هنا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، والثّانيةُ في دُعاءِ إبراهيم ﷺ في قولِه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]، والمُلاحَظُ أنّ كِلَا المَوضِعَيْن خاصٌّ بالدُّعاءِ حولَ الذّريّة ممّن لا يصلحُ للإنجابِ بحسَبِ السُّنَنِ الكونيّةِ في الخَلْقِ والإنجابِ، وفي هذا إيماءٌ بالعلاقةِ والصّلةِ بما ذُكر منَ اصطفاء آل إبراهيم بآل عمران كما ذكرت الآيةُ السّابقةُ في قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]، إذْ إنّ الأنبياءَ كلَّهم منَ المُصطفَيْنَ الأخيار. وزاد اللام في لفظ السَّميع في آية إبراهيم؛ لكونه ثناءً بعد إجابة الدّعاء، وتحقّق الوعد.

كِلَا المَوضِعَيْن خاصٌّ بالدُّعاءِ حولَ الذّرّيّة ممّن لا يصلحُ للإنجابِ بحسَبِ السُّنَنِ الكونيّةِ في الخَلْقِ والإنجابِ

(1) قال السيوطي في الإتقان: 1/355: وأمّا التوشيح: فهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية.

المحتويات